جهاد شعب الجزائر ١

خَيْر الدِّين بَرْبَرُوس

بسام العسلي

دار النفائس

خير الدين بربروس

(والجهاد في البحر)

١٤٧٠-١٥٤٧م

تأليف

بسام العسيلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

الى أرواح قوافل المجاهدين الشهداء،
الذين تركوا للدنيا تراثا مجيداً لا يمحوه الزمان،
وصنعوا لأجيال العرب المسلمين مجداً خالداً على مرِّ الأيام.

بسام

مقدمة الناشر

كنا فتياناً . . وكانت الأخبار شحيحة في المشرق العربي، ومع ذلك فقد كنا نلاحق أخبار الجزائر «بلد المليون شهيد» بلهفة وشوق . . كنا نعيش مع شعب الجزائر آلامه وأحلامه وكلما سمعنا خبراً جديداً عن تضحياته كلما ازداد حبنا له ،وتقديرنا لمواقفه ، وتلهفنا لمعرفة المزيد عن الشعب الشقيق المجاهد، والبلد العربي المسلم الأصيل.

لهذا كانت سلسلة كتب « **جهاد شعب الجزائر** » هي الأولى في مجموعة الكتب التي نأمل بأن نصدرها تباعاً في السنوات الأولى من القرن الخامس عشر للهجرة، وبأسماء تلك الشعوب حسب التسميات السائدة في العصر الحاضر ورسوم الحدود السياسية المصطنعة، التي نراها على الخرائط المتداولة في هذه الأيام.

والحوافز لنشر هذه الكتب كثيرة، منها قلة الكتب التي تتناول جهاد الشعوب العربية والمسلمة في العصور المتأخرة، وانصباب التركيز كله على عهد الفتوحات الاسلامية الأولى. ربما لكثرة الايام المشرقة في عهد صدر الإسلام وكثرة الأيام الحالكة في العصور التي تلته.

ومع أن هذا الكلام حق ، فإن في تاريخنا كله صفحات مشرقة لا تقل نصوعاً وبياضاً عن الصفحات التي كتبها صحابة رسول الله (ﷺ) بدمائهم الطاهرة .ويجب أن لا تضيع هذه الصفحات بين ركام مشين من التفرقة والتناحر السياسي والمذهبي . .

إن دراسة تاريخ أمتنا يظهر لنا بوضوح شراسة الأعداء وتصميمهم على استئصالنا من الوجود، وتنوع أساليبهم للوصول إلى غاياتهم الدنيئة. كذلك يبين لنا بوضوح أيضاً أنه لا يصلح آخر أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فما ارتفعت راية الجهاد مرة، وتوحد المسلمون تحت لوائها، منذ عهد محمد (ﷺ) إلا وكان النصر حليفهم. وما استكانوا وعطلوا الجهاد، وشُغلوا بأنفسهم عن أعدائهم إلا تسرب الوهن الى صفوفهم وظهر عليهم أعداؤهم فأذاقوهم مرارة الذل والاحتلال والاستعباد. . .

ليس لي أن أطيل في الموضوع، فذلك ما سيتولاه مؤلف هذه السلسلة الكاتب العسكري الكبير والمؤرخ المسلم «بسام العسلي» الذي عرفناه في سلسلة «مشاهير قادة الاسلام» و «الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية» وغيرها من الكتب والمقالات. .

نسأل الله أن يوفقنا في عملنا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم فهو نعم المولى ونعم النصير.

احمد راتب عرموش

المقدمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة . . ويقف العرب المسلمون مع بداية هذا القرن وهم في حالة من الذهول لما نزل بهم، لقد باتوا أغراباً في ديارهم، مضطهدين في أوطانهم ممزقين في عالمهم. ويقف المسلمون في كافة أرجاء الدنيا يشاطرون العالم العربي الاسلامي نوائبه وأحزانه، ويفتقدون فيه دوره الريادي، ويأسفون لضياع دوره القيادي. لقد ضاع العرب وأضاعوا معهم العالم الاسلامي عندما تخلوا عن أصالتهم وهجروا قواعدهم الصلبة التي بقيت باستمرار حصنهم الحصين ودرعهم المتين ضد كل ما نزل بهم من نوائب، وضد كل ما جابههم من محن وكوارث، فأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وباتوا مقلدين بعد أن كانوا سادة مبدعين، ليس ذلك فحسب، بل باتت أمجادهم ذاتها وراء ستار من التزوير والتلفيق. فسرقت منهم جهودهم وتضحياتهم، وضاعت هدراً دماؤ هم وأرواح شهدائهم، وتحولت إلى غنائم لحساب أعدائهم، ووصل الأمر إلى تنكر العالم العربي حتى لأصالته الاسمية. فأصبحت أنظمته تحمل أسماء غريبة لا علاقة لها بأصالة العرب المسلمين ولا حتى بمستقبلهم. فهل انتهى العالم العربي-

الاسلامي ولم يبق له صلة بماضيه ولا علاقة له بمستقبله وأصبح مجرد مزق في مهب الريح؟

يقيناً لا ؛ والشواهد كلها تؤكد أن الأمة العربية الإسلامية على عتبة عهد جديد يحمل كل التطلعات نحو مستقبل أفضل. وليست عملية القمع الشاملة للإنسان العربي أكثر من تعبير عن الخوف من انطلاقة هذا الإنسان نحو أفق المستقبل.

غريب أمر هذه الأمة التي لم يتعبها الجهاد، ولم تستنزف الحروب طاقتها وقدراتها على الرغم من كل ما نزل بها وما أصابها من المحن والخطوب.

لقد بدأ القرن الخامس عشر للهجرة. وأمة العرب المسلمين في حرب دائمة لعل التاريخ لم يشهد لها مثيلاً ولم يعرف لها شبيهاً او نظيراً. ولقد كانت هذه الحرب متنوعة في ظواهرها مختلفة في أشكالها، متباينة في أساليبها ذات هدف واحد في مجموعها (وهو القضاء على أمة العرب المسلمين). وما يعني البحث هنا نوع واحد من الحروب (ألا وهو الحروب الثوروية الإسلامية). فهل هناك (حروب) و (ثوروية) و(اسلامية)؟ . . . القضية هي قضية تعاريف قبل كل شيء. فمفهوم (الحرب) يشمل على ما هو معروف كل أشكال (الصراع المسلح) ويقابله مفهوم (السلام) الذي يعني استخدام كل وسائط الصراع الأخرى ـ ما عدا أو باستثناء وسائل الإكراه القسري بقوة السلاح ـ ويلتقي المفهومان في العقيدة الإسلامية (الجهاد الأصغر) ويعني الحرب، و(الجهاد الأكبر) ويعني جهاد النفس، بالمضمون الضيق واستخدام كل أنواع الصراع السلمي بالمضمون الواسع. ويلتقي المفهومان (الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر) عند نقطة (هدف الجهاد) في

السلم والحرب وهو رفع راية العرب المسلمين، كل المسلمين في كل بقاع الدنيا (والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين).

وضمن الإطار الشامل لمفهوم الحرب، يمكن التمييز في الواقع بين أنواع مختلفة من الحروب سواء بحسب طبيعتها: كالحروب المحدودة والحروب الشاملة، والحروب الأهلية الداخلية والحروب الخارجية، والحروب النظامية والحروب الثوروية الخ... أو بحسب طبيعة الأسلحة المستخدمة فيها: مثل الحروب بالأسلحة التقليدية والحروب بأسلحة التدمير الشامل (الغازات ،والبكتريولوجية، والذرية) وكذلك من حيث علاقاتها بالقوى (كالحروب الاستعمارية والحروب الثوروية- التحريرية). وقد تحمل الحروب اسماء للصفة الغالبة على طرائقها أو الأسلحة المستخدمة فيها بصورة أساسية: مثل حرب الخنادق وحرب الانفاق والحرب البحرية وحرب الغواصات والحرب الالكترونية وحرب الاصوات، الخ...

غير أنه لا بد من الإشارة الى أن عملية الفرز غير دقيقة تماماً. فكل حرب قد تشمل أنواعاً مختلفة من الطرائق وأشكالاً متباينة من الأساليب التي يطلق عليها تجاوزاً اسم الحروب وهي ليست أكثر من صفة من صفاتها وظاهرة في جملة ظواهرها ـ وأفضل نموذج لذلك الحرب العالمية الثانية التي شملت معظم انواع الحروب.

ويتضح مما سبق ان استخدام اصطلاح (الحروب الثوروية) هو أمر ممكن بدون لبس أو غموض. ويبقى بعد ذلك السؤال: هل بالإمكان إعطاء هذه الحروب الصفة الإسلامية؟. وهل هناك (حروب ثوروية إسلامية)؟

تتطلب الإجابة على هذا السؤال العودة قليلاً الى الوراء، عندما انطلقت جحافل المجاهدين في سبيل الله من الجزيرة العربية لنشر الدعوة الإسلامية والتعريف بها. فخاضت حروبها ومعاركها وأيامها باساليب وطرائق تلاحمت فيها العقيدة القتالية الإسلامية بالعقيدة الدينية لبناء المجتمع الإسلامي، مجتمع السلم والحرب، على أسس مغايرة لكل ما عرفه العالم. وقد أذهلت هذه الظاهرة قادة جيوش العالم في عصر ظهور الإسلام. وكان من أكثر ما يثير في تلك الظاهرة اندماج طرائق الحرب التقليدية بطرائق الحرب الثوروية ـ وفق المفهوم الحديث ـ. ولقد كان التكامل في العقيدة القتالية الإسلامية في طرائقها وأساليبها أمراً غريباً لم يتمكن من فهم أبعاده ومضامينه أعداء العرب المسلمين. وكان في ذلك بعض عدة المسلمين في حروبهم ضد اعدائهم لنشر رسالتهم فوق أرجاء الدنيا خلال فترة لا تحسب من عمر الزمن بسبب قصرها وبالقياس مع ما تم تحقيقه خلالها من فتوحات ومنجزات أحنى التاريخ هامته إجلالاً وإكباراً لها.

وتبعَ المد العظيم تحولٌ بطيء وتدريجي. يمكن التعبير عنه بالهجوم المضاد الشامل الذي بدأ بالأندلس الاسلامية، وانتهى بحملات الافرنج الصليبيين على المشرق الإسلامي أيام الحروب الصليبية في بلاد الشام. ورافق هذا التحول ظهور عوامل جديدة ألقت بكل ثقلها على طرائق الصراع وأساليبه في كل أنحاء العالم العربي ـ الإسلامي، في مشرقه ومغربه. وكان من أبرز هذه العوامل الجديدة انتزاع السيادة البحرية من قبضة المسلمين. ولم يعد البحر الأبيض المتوسط (بحراً شامياً) أو (بحراً إسلامياً) على نحو ما كان عليه طوال أكثر من سبعة قرون. وكان من أبرز هذه العوامل

الجديدة أيضاً، انتقال الافرنج (الصليبيين) من مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم. ورافق هذا التحول تمزق رهيب في العالم الإسلامي، فباتت كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي مشغولة بأمور نفسها عن كل ما سواها. وضعف تنسيق التعاون فيما بين هذه البقاع (الأقاليم والأقطار). فكان في ذلك الانهيار المرعب الذي لا زالت جذوره تضرب في أعماق وجود العالم العربي الإسلامي.

ونجح الافرنج الصليبيون في إخراج العرب المسلمين من الأندلس.

وانطلقت جحافل الأفرنج الصليبيين لضرب قواعد المسلمين ذاتها والاستيلاء عليها في المغرب الإسلامي. وتبع ذلك تحول على جبهات الصراع بسقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين وظهور الامبراطورية العثمانية واضطلاعها بواجب (الجهاد في سبيل الله) في البر والبحر.

واضطلعت جماهير الشعب العربي- الإسلامي بدورها في هذا الجهاد.

وتبع ذلك نوع من الركود على جبهات الصراع بفضل انصراف شعوب الغرب في معظم الأحيان الى الحروب فيما بينها حتى جاءت الهجمة التالية في إطار (الاستعمار).

وخلال هذه المرحلة وجد المسلمون أنفسهم أمام مواقف مغايرة، فخاضوا غمار الحرب الشاملة على شكل حرب دفاعية غير متكاملة، في البر والبحر، ضمن ظروف غير متكافئة لا في حجم القوى والوسائط ولا في طبيعة الصراع وطرائقه. فكانت هذه الحروب الدفاعية هي (الحروب الثوروية الإسلامية).

ويمكن في الواقع تمييز هذه الحروب بمجموعة من الخصائص التي تمايز بينها وبين ما يطلق عليه اسم (الحروب التحريرية). ولعل من أبرز هذه الخصائص:

١ـ أنها تنطلق من فكرة الجهاد في سبيل الله.

٢ـ أنها تنطلق من المسجد ومن المدرسة الإسلامية (الفكرية والعقائدية).

٣ـ أنها تخوض الحروب لا في حالة يائسة وإنما في إطار من التصميم العنيد لانتزاع النصر في النهاية، مع كل تجاوز لظروف الحاضر وعقباته.

٤ـ أنها تحمل طرائق الحروب الثوروية الإسلامية وشعاراتها وأهدافها.

٥ـ أنها تعمل من أجل الإنسان العربي المسلم وعزته وكرامته، ومن هنا فهي لا تقبل في معظم الاحيان إحلال استعمار محل استعمار، او التعاون مع عدو ضد عدو، بقدر اعتمادها في البداية والنهاية على القدرة الذاتية للشعب العربي المسلم.

وتلتقي (الحروب الثوروية الإسلامية) مع (الحروب التحريرية) في بعض أهداف التحرير، وتختلف عنها في عدم استعدادها للتبعية بعد التحرير. وهذا هو بدقة سبب ما تتعرض له جماهير الشعب العربي المسلم من ضغوط مستمرة ومحاولات متواصلة لترويضها واخضاعها. ان هدف (الحروب الثوروية الإسلامية) هو المحافظة على الوجود الإسلامي وحمايته باعتباره المصدر الحقيقي للأصالة الثوروية.

وضمن هذا الإطار يمكن فهم الحروب الثوروية في البحر

(والتي يمثل نموذجها الاعلى خير الدين بربروس). وضمن هذا الإطار يمكن فهم (الحروب الثوروية في البر) والتي تمثلها مجموعة من الثورات، أبرزها ثورة (عبد القادر الجزائري) وثورة (المقراني والحداد) في الجزائر ومروراً بثورة (المهدي) في السودان، و(الثورة الوهابية) في العربية السعودية. والثورات المتتالية في بلاد الشام ومصر وأبرزها ثورة (عز الدين القسام) و(الثورة السورية الكبرى) ونهاية (بالثورة الإسلامية الإيرانية) التي لن تكون يقيناً آخر الثورات الإسلامية.

المثير في الأمر هو ملاحظة تلك الثورات الفكرية الإسلامية التي ارتبطت باستمرار مع الحروب الثوروية، وانطلقت من (المسجد ومن المدرسة الإسلامية) والتي يمثلها أفضل تمثيل (عبد الحميد بن باديس) في الجزائر. فهل من الغرابة أن يصبح المسجد وتصبح المدرسة الإسلامية الهدف الأول للهجوم الشامل والمضاد للعالم العربي-الإسلامي؟.. لا غرابة في ذلك!

ولقد ظهرت في العصر الحديث محاولات كثيرة لطمس معالم الوجه المشرق للحروب الثوروية الإسلامية سواء عن طريق تشويه صفحة قادتها بالدس اللئيم، أو عن طريق اسدال الستار على المضمون الاجتماعي لهذه الثورات بما يتنافى مع قواعد الشرف- شرف أصالة الأمة العربية- وصرفها عن طريقها السوي باعطائها مضامين تحمل زي العصر (نموذجه وبدعته- المودة). ومن هنا تظهر الحاجة لإبراز الوجه المشرق (للحروب الثوروية الإسلامية) بهدف تأكيد الطابع المميز لها، وبهدف المحافظة على أصالة هذا الطابع من أجل اعتماده قاعدة ثابتة لبناء المستقبل.

كلمة لا بد منها هنا، وهي الإشارة الى الدعم الذي قدمته وزارة الدفاع في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية وذلك للحصول على الوثائق والبيانات والمعلومات التي اغنت هذا (البحث) والبحوث التي ستصدر تباعاً في مجموعة (الحروب الثورية الإسلامية)، وكلمة شكر للعاملين في (المحافظة السياسية) في الجزائر، وكذلك العاملين في وزارة الإعلام الجزائرية ووزارة قدماء المجاهدين لما قدموه من دعم ومساعدة تعجز كلمات الشكر عن وفائها حقها. والله أسأله التوفيق.

بسام العسلي

خير الدين باشا في شيخوخته

(متحف البحرية العثمانية باستامبول)

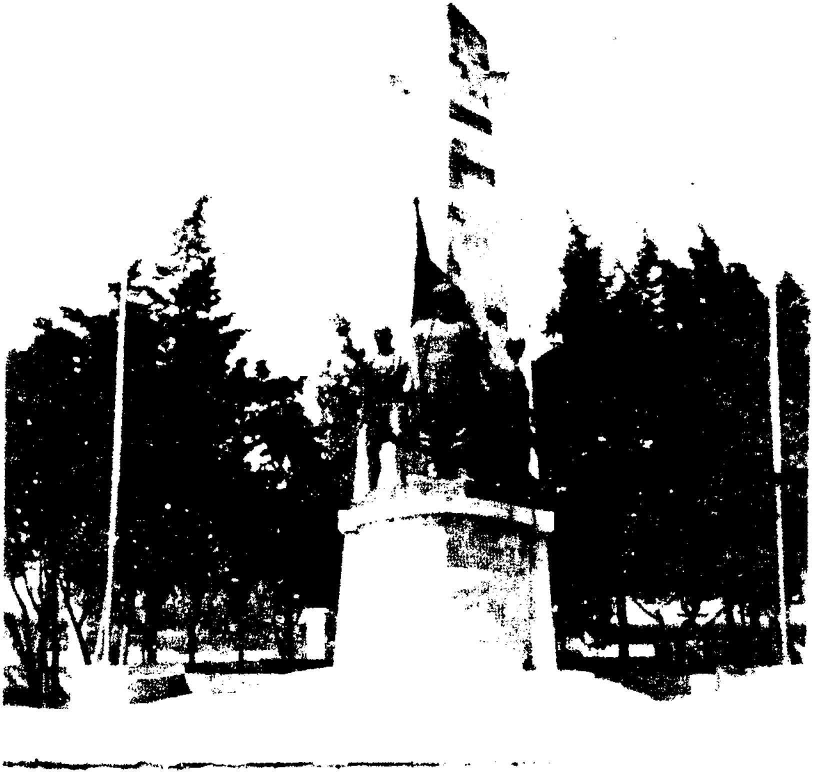

التمثال الذي أقامه الأتراك لخير الدين باشا امام ضريحه في استامبول

الوجيز في حياة (خير الدين بربروس)
٨٧٧ ـ ٩٥٧ هـ = ١٤٧٠ ـ ١٥٤٧ م

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٧٧	١٤٧٠	ولادة خير الدين في جزيرة (مدلي) في الارخبيل.
٩١٨	١٥١٢	عروج وأخوه خير الدين يهاجمان الاسبانيين في بجاية (الجزائر).
٩٢٠	١٥١٤	الاخوة (بربروس) يهاجمان بجاية للمرة الثانية.
٩٢١	١٥١٥	الاخوة (بربروس) يهاجمان بجاية للمرة الثالثة.
٩٢٢	١٥١٦	الاخوة (بربروس) يهاجمان الاسبان في مدينة (الجزائر).
٩٢٣	١٥١٧	خير الدين يحرر مدينة (تنس) من الاسبانيين.
٩٢٤	١٥١٨	استشهاد (عروج بربروس) عن عمر يناهز الخمسين واحتلال الاسبانيين مدينة تلمسان.
٩٢٥	١٥١٩	خير الدين ينتقم لاخيه فيدمر الاسطول الاسباني امام الجزائر.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩٣٥	١٥٢٩	خير الدين يدمر معقل الصخرة الجزائري وحاميته الاسبانية.
٩٣٦	١٥٣٠	انتصار خير الدين على الاسبانيين في جزر الباليئار.
٩٣٧	١٥٣١	انتصار خير الدين على الاسبانيين في (شرشال).
٩٣٩	١٥٣٣	السلطان سليمان القانوني يعين خير الدين (أميراً للبحر).
٩٤١	١٥٣٥	الاسبانيون يهاجمون مدينة تونس ويدمرونها.
٩٤٧	١٥٤١	شارلكان يقود حملة صليبية ضد المغرب الاسلامي وفشل هذه الحملة.
٩٤٩	١٥٤٤	خير الدين يهاجم المدن الاسبانية ويرفع الحصار عن (نيس).
٩٥١	١٥٤٦	خير الدين يعود الى القسطنطينية للاضطلاع باعباء عمله كوزير للبحرية.
٩٥٢	١٥٤٧	وفاة خير الدين وتعيين ابنه حسان (اميراً للبحر).

أبرز احداث العالم الاسلامي
في فترة حياة (خير الدين بربروس)

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٨٦ـ٨٥٥	١٤٨١ـ١٤٥١	حكم السلطان العثماني محمد الثانـي الفاتح.
٨٥٧	١٤٥٣	المسلمون العثمانيون يفتحون القسطنطينية.
٨٦١	١٤٥٣	المسلمون يحاصرون (بلغراد)
٨٦٦	١٤٦١	المسلمون يخضعون المورة.
٨٧٣	١٤٦٨	اخضاع الالبانيين
٨٨٦ - ٩١٨	١٥١٢ـ١٤٨١	حكم السلطان العثمانـي بايزيد الثانـي.
٨٩٨	١٤٩٢	سقوط غرناطة، وخروج المسلمين من الأندلس
٩٠٩ـ٩٠٥	١٥٠٣ـ١٤٩٩	الحرب ضد البندقية
٩٢٧ـ٩١٨	١٥٢٠ـ١٥١٢	حكم السلطان العثمانـي سليم الأول.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٢٤	١٥١٦	انتصار السلطان السليم على (قانصوه الغوري) عند (مرج دابق).
٩٢٥	١٥١٧	العثمانيون يفتحون مصر
٩٢٧ - ٩٧٤	١٥٢٠ - ١٥٦٦	حكم السلطان العثماني سليمان القانوني.
٩٢٩	١٥٢٢	البحرية الاسلامية تفتح رودس.
٩٣٣	١٥٢٦	موت (ملك المجر لويس) في معركة مهاج (موهاكس).
٩٤٠ - ٩٥٢	١٥٣٣ - ١٥٤٧	ذروة نشاط (خير الدين بربروس).

إِنَّهُم إِنْ يَظْهَروُا عَلَيكُمْ يَرْجُموكُمْ
أَوْ يُعيدُوكُمْ في مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا
إِذاً أَبَدَاً.

(الكهف - الآية ٢٠)

الفَصْلُ الأوّل

مقدمات الحرب وظروفها

١- ذوي اللحى الشقراء
٢- الموقف على جبهة المسلمين في المشرق
٣- الموقف على جبهة الاندلس
٤- الموقف على جبهة المغرب الإسلامي
٥- الجهاد في البحر والقرصنة

١ ـ ذوي اللحى الشقراء

اجتاحت العالم العربـي والإسلامي موجة من الحزن والأسى في يوم من أيام شهر أيار (مايو) سنة (٩٥٢هـ = ١٥٤٧م) لفقد علم من أعلام الجهاد، ولغياب سيف من سيوف الإسلام. وقوبلت هذه الموجة في الغرب بموجة مضادة، حيث عمت الفرحة وسارت البشائر في كل الأقاليم الأوروبية بزوال الكابوس المرعب الذي طالما أرق ملوكها وأمراءها، وطالما هدد تجارتها واسطولها، وطالما أغار على ثغورها ومدنها الساحلية وقراها. لقد توفي أشهر أصحاب (اللحى الحمراء) أو (الشقراء) وهو الذي أمضى حياته في البحر، مجاهداً في سبيل الله، صابراً محتسباً. لم يطلب في حياته مجداً ولا مالاً، ولم يعمل من أجل الجاه او المنصب، ولو أنه حصل على المنصب دونما ارادة منه، وسعى اليه الجاه بدون أن يعمل هو من أجله. ومضى شيخ المجاهدين عن عمر يناهز الثمانين. لم يتعبه الجهاد، ولم تنل من عزيمته المحن والنوائب، ولم تصرفه عن مبتغاه الخطوب الجسام. لقد ابتلع البحر أعز أهله واصدقائه، وقضى في الجهاد أحب اخوته اليه وأغلى ما في الدنيا لديه، فما في الحياة بعد ذلك ما يشده اليها غير الأمل في المضي قدماً لرفع راية الجهاد التي سقط تحتها الأبرار الاطهار، ففي ذلك وفاء

لأرواحهم. لقد قضى هؤلاء دفاعاً عن حرمة الدين التي انتهكت، فما في الدنيا أعز ولا أغلى من طلب إحدى الحسنيين الشهادة أو النصر.

وعلى هذا الطريق سار (ذوي اللحى الشقراء) مدافعين عن ثغور المسلمين خلال فترة تاريخية، تألبت فيها قوى الصليبية ضد المسلمين في الأندلس الإسلامية، فأخرجوهم من ديارهم، وشددوا عليهم الخناق، وعملوا فيهم تقتيلاً وتشريداً وسبياً ونهباً حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت. وظهر البطل المنقذ كما يبزغ الشهاب في السماء المظلمة. فمد يد العون لمن امتنع عليهم كل عون، وقدم المساعدة عندما عزت المساعدة على أحوج الناس اليها.

وخلال تلك الفترة التاريخية، انتقلت القوات الاسبانية للهجوم على المغرب العربي الإسلامي -تحت راية الصليبية- وتم لهذه القوى احتلال المدن الساحلية، وأعملوا فيها تدميراً للمساجد وانتهاكاً للحرمات ونهباً للثروات والاموال. فمضى (أصحاب اللحى الشقراء) لتقديم ما يستطيعون من أجل دعم اخوانهم في الدين. فسطروا بذلك أروع الملاحم واعظم الانتصارات، وعرفت ميادين الجهاد في البر والبحر فضائلهم ومآثرهم، فكان في ذلك خلودهم الذي وقر في قلوب العرب والمسلمين، لا في المغرب الإسلامي فحسب، وإنما في كل دنيا العرب وسائر ديار المسلمين.

وذوي اللحى الشقراء، صفة أطلقها الافرنج- الافرنسيون- على تلك العائلة التي تزعم افرادها عملية الجهاد في البحر (باربروس - برباروسا) ثم نقلت الى العربية بحرفيتها، وبقيت سائرة حتى كادت تطغى على الاسماء الأصلية لمجموعة الاخوة المجاهدين.[1]

---

(١) باربر وس ؛ BARBEROUSSE ، اسم اطلق على الاخوين عروج وخير الدين.

نشأ هؤلاء الأخوة في جزيرة (مدلي) من بحر الأرخبيل، لأب تركي اسمه (يعقوب بن يوسف) كان متزوجاً من سيدة أندلسية ولدت له أربعة أبناء هم (اسحاق وعروج وخسرف ومحمد الياس). وقد حرص الأب على تنشئة أبنائه نشأة إسلامية صلبة، وقد اختار الابن الأكبر طريق العلم والمعرفة فمضى في دراساته الإسلامية. في حين انصرف بقية الأخوة للجهاد، واختاروا البحر ميداناً لهم. فكان عروج (بضم العين والواو) هو الذي افتتح المجال أمام اخوته إذ أنه ركب البحر ولما يتجاوز العاشرة من عمره الا قليلاً. وأمكن له بعد فترة قصيرة أن يجهز مركباً خاصاً به، تولى قيادته بنفسه غير أنه لم يبتعد كثيراً حتى أسره الاعداء في بحار الشرق، فعمل في المجاذيف والقيد في رجله مدة سنتين.

لكنه تمكن من الفرار، إذ ألقى بنفسه في البحر وهو على مقربة من سواحل مصر، ومنها ركب البحر عائداً الى جزيرته (مدلي) حيث أبوه واخوته. غير انه كاد يسقط أسيراً من جديد، وكان على مقربة من سواحل قرمان التركية، فأكرمه كوركود ابن السلطان (بيازيد) الذي كان يتولى امارة (قرمان) ورأى فيه جندياً بارزاً ومقاتلاً شجاعاً، فجهز له سفينة قرصنة، وبعث به غازياً في بحار ايطاليا، حيث كانت الحرب ضد الإسلام والمسلمين على أشدها، فأقتنص سفينتين محملتين بالبضائع الثمينة كانتا تابعتين لدولة البابا. وأقتنص سفنا ايطالية اخرى، رجع بها الى ميناء الإسكندرية بعد أن دفع الخمس من الغنائم لبيت مال المسلمين.

ثم ركب البحر من جديد على رأس أسيطيله الصغير (عمارة) بعد أن ضم اليه السفن التي غنمها. وانضوى تحت لوائه جماعة من المجاهدين الاشداء. وعزم أن يلقي بثقله في غربي البحر الأبيض

المتوسط، وبجهة الأندلس موطن أمه بصفة خاصة. واختار جزيرة جربة قاعدة لنشاطه، وهناك انضم اليه اخوه خسرف، وقد أصبح مثله على رأس سفينة قرصنة حربية، وانطلقا من هناك الى ناحية الأندلس، ينصران الإسلام، وينقذان اللاجئين الأندلسيين الى العدوة المغربية. ويمعنان في أساطيل النصارى تدميراً وأسراً. هنالك أطلق النصارى لقب (بربروس) على كل من الاخوين (عروج وخسرف).

وهنالك أيضاً اقترح بعض الأندلسيين والمغاربة على (خسرف) أن يغير اسمه، وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم -خير الدين-.

كان (بنو حفص) يحكمون تونس وطرابلس والشرق الجزائري، وفي سنة (١٥١٠م) تقريباً رأى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد أن يستعين بهذين البطلين لحماية الدين والدولة من إغارات النصارى وهجماتهم البحرية، وأن يجعل مما يدفعانه من خمس الغنائم مورداً يدعم خزانة الدولة التي لم تكن مزدهرة، فأقطعهما مرفأ (حلق الوادي) يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الإسلام.

خرج الأخوان (عُروج وخير الدين) من قاعدتهما الجديدة ومعهما قوة ثلاث سفن صغيرة، وعندما أوغلا في البحر اصطدما بسفينة حربية كبيرة كانت تنقل من نابولي الى برشلونة ثلاثمائة جندي اسباني. وكانت سفينة نابولي أقوى بحجمها وبنيران مدفعيتها من قوة مجموعة السفن الثلاث. وعلى الرغم من ذلك فقد قرر الأخوان (عروج وخير الدين) مهاجمتها انتقاماً لما كان يرتكبه الاسبان من جرائم ضد المسلمين.

واندفعت السفن الثلاث الصغيرة في محاولة لأسر السفينة غير

أن هذه استطاعت الإفادة من قدرتها النارية الضخمة، فأحبطت محاولات السفن الإسلامية سبع مرات متتالية. وفي الهجوم الثامن، وبعد أن أصيب (عروج) بجرح بليغ، نجح خير الدين بالوصول الى السفينة المعادية وقذف بنفسه فوقها، ولحق به المجاهدون بسرعة، وأمكن لهم الاستيلاء على السفينة بعد معركة عنيفة وقاسية، وأسروا كل من فيها واقتادوها الى مرسى (حلق الوادي) وهي تحمل رايتها.

واعترافاً بجميل السلطان أبـي عبد الله محمد، فقد ساق الأخوان (عروج وخير الدين) اليه في أبهة تفوق الوصف الهدايا الفاخرة مما غنماه، زيادة على الخمس الشرعي، وقد شملت الهدايا عددا من كبار وكبيرات الاسرى، واشتد اعجاب السلطان بهما وتقديره لهما. ومضى خير الدين يمارس نشاطه، حتى اذا ما شفي أخوه (عروج) من جراحه، انضم اليه وانطلقا للعمل معاً (في سنة ١٥١٢م).

تلك كانت البداية..

٢ـ الموقف على جبهة المسلمين في المشرق

حرر المسلمون مدينة عكا من بلاد الشام في السنة (٦٩٤هـ= ١٢٩٤م) وطردوا بقايا الافرنج الصليبيين من كل قلاعهم وحصونهم. واعتنق دين الإسلام من رغب البقاء في المشرق الإسلامي. وأصيب الغرب بخيبة أمل مريرة وهو يرى البناء الضخم الذي أقامه طوال مائتي عام وهو ينهار دفعة واحدة وتبتلعه رمال الشرق الدافئة. فانطلقت الدعوات التي تزعمها البابا نقولا الرابع في محاولة لتنظيم حملة صليبية جديدة، غير انه بات واضحا أنه من المحال إعادة عجلة التاريخ الى الوراء، فانهارت كل الجهود لإرسال حملة للمشرق الإسلامي. ولم تثمر الا عن توجيه قوة مختلطة أغارت على الإسكندرية ونهبتها ودمرتها (سنة ١٢٦٥م). بالإضافة الى تلك الحملة المشؤومة التي قادها لويس التاسع سنة (١٢٧٠م) فوصلت تونس وانتهت هناك بموت لويس التاسع (أو القديس لويس) على أبواب تونس، بدون أن تحقق نتيجة أكثر من النهب والتدمير.

وعاشت مصر والشام بعد ذلك تحت حكم المماليك البرجية الذين بدأ عهدهم بالمظفر قطز بطل (عين جالوت) وانتهى بقانصوه

الغوري سنة (١٥١٧ م). وقد انصرف المسلمون في المشرق خلال هذه الفترة الى تضميد جراحهم، ومتابعة الصراع ضد المغول (التتار) أحياناً وضد الروم (البيزنطيين) في الشمال أحيانا أخرى. وتميزت هذه الفترة بصورة عامة بالهدوء والاستقرار، فانصرف الناس للصناعة والتجارة، وعرف المشرق الإسلامي حالة من الرخاء لم يعهدها منذ زمن طويل.

غير أن توقف الحروب الصليبية في المشرق لم يضع حداً نهائياً للحروب. فقد تحول الصراع الى جبهتين اولاهما (اوروبا) والثانية (الأندلس) بالإضافة الى جبهة وسيطة بين الجبهتين هي جبهة البحر. وقد ظهرت خلال هذه المرحلة قوة جديدة اخذت على عاتقها قيادة (الجهاد في سبيل الله) وكانت هذه القوة هي قوة (الاتراك العثمانيين).

وكان العرب المسلمون قد نظموا الدفاع عن الثغور منذ الأيام الأولى للفتح. فأقاموا الحاميات في المواقع الحصينة على امتداد حدودهم مع بلاد الروم البيزنطيين، وكانت هذه الثغور مواقع دفاعية هجومية في آن واحد، واجبها رد الغزوات المباغتة للاعداء، والانطلاق منها لغزو بلاد هؤلاء الأعداء.

واستمر هذا التنظيم القتالي طوال العهدين الاموي والعباسي. وعندما أقام عبد الرحمن الداخل الحكم الأموي في الأندلس، أعاد تطبيق التجارب القتالية. وكانت طبيعة الحدود الجبلية مع الروم البيزنطيين (حيث جبال الأمانوس) تتشابه مع الحدود الجبلية الشمالية للأندلس (حيث جبال البيرينه - أو جبال البرتات كما يسميها المؤرخون العرب). فكانت تجربة الثغور هي التجربة الرائدة التي حفظت للعرب المسلمين حدودهم وثغورهم.

وكانت هذه الثغور هي الميادين المثلى للجهاد في سبيل الله، وهي في الوقت ذاته مجال التجارب لتطوير الكفاءة القتالية وإغناء التجارب الحربية. غير أن ظروف الحروب الصليبية قضت على (استراتيجية حروب الثغور) إذ انتقل الصراع الى قلب العالم العربي الإسلامي.

ولكن ما أن طردت جحافل الغزاة الافرنج، حتى بعثت قيم الجهاد في سبيل الله من جديد، ونزل في بلاد الاناضول عدد كبير من المجاهدين ورجال الدين - من العرب والترك والفرس - أخذوا على عاتقهم إثارة الحماسة ضد الروم (البيزنطيين). وبتأثير تلك الحماسة الدافقة، اجتاح الأتراك غربي آسيا الصغرى، وأقام أمراء الغزاة دويلاتهم المستقلة في مختلف المقاطعات، فنزل القرمانيون في ليقاؤنية القديمة وايسوريا، ونزل الكرمانيون في كوتاهية، واستقر الحميديون في ميسية، والصاروخان في مغنيسية. ولم يقض على هذه الامارات نهائياً إلا عند ظهور العثمانيين. وبينما كان هؤلاء الغزاة يتقدمون براً كانت قبيلة (المنتشا) التي نشأت نشأة بحرية فشكلت اقوى الإمارات وأعظمها شأناً، كانت هذه القبيلة تنطلق من سواحل ليقية وبمفيلية الى قاريا، لتجتاح منها شواطىء بحر ايجه. ثم تفتح رودس، مهددة بذلك روما وامبراطوريتها.

وكان العثمانيون من بين اولئك الأتراك الذين حملوا راية الجهاد في سبيل الله ضد (البيزنطيين) وحالفهم الحظ أكثر من سواهم، ولا يعني البحث هنا التعرض لأصول هذه القبيلة ومراحل تطورها، وما عانته من صداماتها مع المغول (التتار). المهم في الأمر هو أن المؤسس الحقيقي لهذه الأسرة وهو (أرطغرل) قد لجأ ومعه مائة أسرة الى آسيا

الصغرى ليلتحق واياهم بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي، سلطان قونية. فأقطعه علاء الدين منطقة المستنقعات الواقعة على الحدود المواجهة للبيزنطيين عند (سكود) في وادي (قره صو) حيث الفرات الغربي وجبلي طومانيج وأرمني طاغ، وترك له حرية توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه النصارى.

وتولى (عثمان) بن (أرطغرل) على عاتقه هذا الواجب، فكان أول عمل له هو فتح (ملانجنون) وتسميتها باسم (قره جه حصار) والانتقال اليها وجعلها بمثابة عاصمة للدولة الجديدة في سنة (١٢٨٨م). واستأنف الحرب ضد البيزنطيين. فتقاطر اليه المجاهدون من أرجاء آسيا الصغرى جميعاً، وانضم اليه المقاتلون من القبائل التركية المختلفة، ولحق به (الأخيان - أو الاخوان) وهم جماعات الصناع والتجار.

ومن (قره جه حصار) قاد عثمان شعبه القوي، الذي كانت ترفده القبائل التركية كلها على الدوام بعناصر جديدة تزيد في قوته وحيويته الى بحر مرمرة والبحر الأسود، وفي اتجاه الغرب الى يني شهر (يكي شهر) التي تسيطر على مخاضة نهر سقارية. وفي سنة (١٣٠٠م) أقطع عثمان ابنه اورخان مدينة (قره جه حصار). فأخذ هذا في متابعة الجهاد.

وفي سنة (١٣٢٦م) وبينما كان عثمان على فراش الموت، في سكود، كان ابنه اورخان يتوج أعماله الكبيرة باحتلال (بروسة) الواقعة على سفح جبل الأولمبوس (كشيش طاغ). فكان أول عمل له أن دفن أباه في كنيسة القصر التي حولت للتو والساعة الى

مسجد[1] ومن ذلك الحين أضحت (بروسة) مدينة العثمانيين المقدسة.

وقد عرف عن (اورخان) اهتمامه بالتنظيم الشامل للدولة، وعنايته الخاصة بإعادة تنظيم الجيش، وخاصة قوات (يني جري- القوة الجديدة - ومنها الإنكشارية).

وفي سنة **١٣٦٢** م، توفي اورخان؛ فخلفه على العرش ابنه الثاني مراد الذي اتجه في الحال نحو شبه جزيرة البلقان، وأمكن له احتلال (ادرنة) وجعلها عاصمة له حتى سقوط القسطنطينية.

وحاول البابا (اوربانوس الخامس) ان يدعو النصارى الى حملة صليبية تستنقذ أدرنة من أيدي المسلمين، ولكن عبثاً. وعلى الرغم من أن جيشاً من فرسان النصارى يقوده كونت سافوا (أماديوس) استطاع أن يوطد أقدامه في غاليبولي لفترة قصيرة، غير أنه أخفق في التفاهم مع البيزنطيين على خطة مشتركة، فاضطر الى الانسحاب في وقت قريب.

ثم تجمعت قوات الصرب بقيادة (ووقاجين) لقتال العثمانيين الذين انتصروا عليهم (على ضفاف نهر مريج). واحتل العثمانيون على أثر ذلك مقدونيا بكاملها (في سنة **١٣٧١**) ثم احتلوا صوفيا ونيتش (سنة **١٣٨٥- ١٣٨٦**م). وتزعم ملك بلغاريا (ششمان الثالث) حلفاً مع الصرب والبشناق، والحق الهزيمة بالجيش العثماني (سنة **١٣٨٧**م) غير أن قوات العثمانيين انتصرت في السنة التالية على

---

(١) ضمت نقوش جامع بروسه الذي بناه (اورخان بن عثمان) سنة **١٣٣٤** م ما يلي: «شيد هذا المسجد السلطان بن سلطان الغزاة، الغازي بن الغازي مرزبان الآفاق بطل العالم» تاريخ الشعوب الاسلامية- كارل بروكلمان ص ٤٠٨.

(ششمان) وأسرته في مدينة (نيقوبوليس).

وفي سنة ١٣٨٩، تجمعت قوات ضخمة من الصرب والبشناق والمجر والبلغار والالبانيين- الارناؤوط- والتقت بالقوات العثمانية عند (قانصوه- ميدان الطيور السود) وقاد مراد الهجوم بنفسه، غير أنه سقط قتيلاً وهو في ذروة انتصاره. فتولى ابنه (بايزيد) اكمال النصر وذلك بأسر ملك الصرب- لازار- وقتله. وتابع (بايزيد) سيرة الجهاد، فلم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى تم إخضاع الصرب بكاملها وبلاد البلغار، مع الاستيلاء على (آلاشهر) آخر ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى.

وعاد البابا (بونيفاسيوس التاسع) ليرفع راية الحرب الصليبية وهو يشهد انتصارات العثمانيين ويسير الدعاة بدعوته للحرب ضد المسلمين في فرنسا والبلدان المجاورة لجبال الألب وجنوبي ألمانيا. وما أن أطلّ ربيع سنة (١٣٩٤ م) حتى كان (سيجسموند) ملك المجر قد جمع حوله في (بودا) جيشاً ضخماً من الفرسان تقاطروا اليه من بلدان أوروبا الغربية. واصطدم هذا الجيش بجيش المسلمين الذي كان يقوده (بايزيد) يوم (٢٧- أيلول- سبتمبر) عند نيقوبوليس، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً. وتوغلت الجيوش العثمانية اللاحقة بفلولهم حتى (ستيريا). ثم ان بايزيد اقتص من حكام شبه جزيرة المورة اللاتين الذين حالفوا الصليبيين فدمر أراضيهم.

أما الخطر المغولي فقد عاد من جديد بظهور (تيمور) الذي اجتاح بلاد الشام، ثم انكفأ للهجوم على العثمانيين. وحدثت المعركة بين جيش المسلمين بقيادة بايزيد وبين المغول عند جبق آباد (جبوق

آباد) يوم ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٤٠٢ م. وانتصر (تيمور) فحمل معه (بايزيد) في قفص من حديد الذي لم يلبث حتى توفي في ٨ آذار - مارس- سنة ١٤٠٣، فأكرمه (تيمور) بأن سمح بدفنه في جامع بروسة.

وتعرضت الدولة العثمانية على أثر هذه النكسة الى حالة من العطالة والتمزق الداخلي لم ينقذها منها إلا ظهور مراد الثاني الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان محمد في أدرنة سنة ١٤٢١ م.

أمضى (مراد الثاني) فترة من الوقت لإعادة تنظيم الدولة والقضاء على مناوئيه. حتى إذا ما جاء يوم ٢٩ آذار (مارس) ١٤٣٠ م اقتحمت قوات المسلمين مدينة سالونيك ودمرتها تدميراً تاماً. ثم ان مراداً حاول ان يبسط سلطانه على البلقان، فتصدت له القوات المجرية، واستطاع (يوحنا هونيادي) الترانسلفاني تكبيد قوات العثمانيين خسائر فادحة اوقفت تقدمهم. وشكل ذلك حافزاً للقيام بدعوة صليبية جديدة تشنها النصرانية على اعدائها. ورحب النصارى باعلان (البابا اوجانيوس الرابع) لهذه الحرب ترحيباً حماسياً في المجر وبولندة- بولونيا- والمانيا وفرنسا.

وغادر الجيش الصليبي مدينة (بودا) في تموز- يوليو- سنة (١٤٤٣ م) ليحرز في ٢٤ كانون الاول - ديسمبر- انتصاراً كبيراً عند (جالوواز) بين صوفيا وفيليبوبوليس. وتوقفت هذه الحملة لتستأنف تقدمها في صيف السنة التالية حيث اصطدمت عند وارنا (فارنا) بجيش العثمانيين الذي كان يقوده (مراد الثاني) وحدثت المعركة يوم ٩ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٤٤٤. وكان انتصار العثمانيين رائعاً تم به إزالة آثار هزيمة السنة السابقة.

وحدثت معركة أخرى في ١٧ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٤٤٨ بين حاكم المجر (هونيادي) وبين مراد الثانـي، في سهل قُوصوه. وبعد معركة استمرت يومين انتصر مراد الثانـي انتصارا حاسمًا.

وتوفي (مراد الثانـي) في ٥ شباط (فبراير) سنة (١٤٥١ م) وتولى ابنه (محمد) الملك فمضى لتوطيد دعائم حكمه، ثم انطلق لمتابعة سياسة أسلافه، فقام بتشييد قلعة (روم ايلي حصار) المنيعة على بعد لا يتجاوز سبعة كيلومترات من ابواب القسطنطينية، عند أضيق نقطة من البوسفور، وذلك في آواخر سنة (١٤٥١ م). وعندما أرسل الامبراطور البيزنطي احتجاجاً للسلطان محمد أمر هذا بقطع رؤوس افراد الوفد الذي حمل الاحتجاج عليه، وكان ذلك بداية المرحلة الأخيرة للصراع الذي قضى على ما تبقى من امبراطورية الروم (البيزنطيين).

فقد حاصرت جيوش الأتراك العثمانيين القسطنطينية، وعزلتها عن العالم، وحاولت أوروبا دعمها غير أنها فشلت في مساعيها. وفي ٢٩ أيار (مايو) اقتحمت قوات المسلمين عاصمة الروم التي اعجزت المسلمين من قبل. ودخل السلطان محمد المدينة، فتوجه الى كنيسة آيا صوفيا. واستولى عليها رسمياً باسم الإسلام، وحولها الى مسجد. وانتهى عصر، وبدأ عصر جديد.

انصرف السلطان محمد الفاتح لإعادة تنظيم الدولة وتحويل (استانبول) الى عاصمة جديرة بالدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء، وذلك قبل انتقاله لتحقيق أول هدف له، وهو دعم الوجود الإسلامي في شمال شبه جزيرة البلقان، حيث كان المجر الأشداء في الحرب لا يزالون يتهددونها باستمرار. وكان لا بد للسلطان محمد من دعم

الوجود الإسلامي في الصرب بقوة حتى يمكن له الانطلاق لحرب المجر. وحدثت معارك كثيرة، انتهت بجعل نهر الدانوب (نهر الطونة) هو الحاجز بين قوات العثمانيين المسلمين وأعدائهم.

وفي سنة (١٤٥٦ م) قاد السلطان محمد الجيش بنفسه الى بلغراد وحاصرها، غير أنه لم يتمكن من فتحها، فعاد في سنة (١٤٥٨م) لمهاجمتها من جديد واستطاع فتحها. وفي الوقت ذاته القضاء على التمرد في شبه جزيرة المورة. وانتقل بعد ذلك لاخضاع اليونان، وتم له ذلك في الفترة من سنة ١٤٦٢ م حتى سنة ١٤٦٦ م. وبذلك لم يعد (للبنادقة) دور يذكر في التحريض ضد المسلمين. وأمكن بعد ذلك تدمير مقاومة الالبانيين- الارناؤوط من البوسنة الى حدود البندقية. وتدفقت جموع الأتراك العثمانيين على أوروبا. واضطرت البندقية الى عقد صلح شريف مع العثمانيين في ٢٦ كانون الثاني- يناير- سنة (١٤٧٩م) حيث تنازلت فيه عن جميع ممتلكاتها في ألبانيا لمصلحة العثمانيين. وفي جملتها دراج (دوراجو) وانتيغاري واوبة ولمنوس وتايجت في المورة.

توفي السلطان (محمد الفاتح) في ٣ أيار (مايو) سنة ١٤٨١. فعرفت الدولة فترة من الجمود الخارجي في عهد ولديه (جم وبايزيد) واستمر ذلك في عهد (سليم واحمد) ابني بايزيد. وعندما استتب الأمر للسلطان (سليم) انصرف لحرب الشيعة في فارس. ثم انتقل لتصفية حكم المماليك البرجية في الشام ومصر، وتم له ذلك بعد معركة (مرج دابق شمالي حلب بتاريخ ٢٤ آب اغسطس سنة ١٥١٦)، حيث سار السلطان سليم بعدها الى مصر، فانتصر على (طومان باي) وقتله في ٢١ كانون الثاني- يناير (سنة ١٥١٧ م).

واحدثت فتوح سليم ذعراً صارخاً في أوروبا، حتى لقد خشي البابا (ليو العاشر) من اتحاد كلمة المسلمين مرة اخرى فشرع يعد العدة للحرب، ولتوجيه حملة صليبية جديدة بحجة حماية المسيحيين من أذى المسلمين. ولعل سليمًا كان يفكر في استئناف خطته لفتح الغرب يوم رجع الى (ادرنة) سنة ١٥١٨ م غير انه لم يلبث أن توفي وهو في طريق عودته الى (استانبول) في ٢- ايلول- سبتمبر- سنة ١٥٢٠ م.

ورقي ابنه (سليمان - الذي اشتهر بالقانوني) عرش المملكة بدون معارضة. وانصرف اول ما انصرف الى تحقيق أخطر ما تركه له أسلافه من مهام، وذلك بالاستيلاء على الحدود الشمالية. وتمكن العثمانيون بقيادة السلطان، من احتلال بلغراد (سنة ١٥٢١ م). ثم ان سليمان اختصر بعد هذا النصر الحملة الشمالية ابتغاء انفاذ خطة ابيه الأخيرة الهادفة الى فتح (رودس)، حيث كان فرسان القديس يوحنا لا يزالون يمدون حملات القراصنة النصارى العائثين فساداً، بالمساعدة. وفي نهاية تموز (يوليو) سنة ١٥٢٢، ضرب العثمانيون الحصار على القلعة. ولكن قائد المنظمة الأكبر لم يستسلم إلا في ٢١ كانون الأول- ديسمبر- بعد أن تكبد الجانبان المتصارعان خسائر مريعة. وبعد أن منح حرية الإنسحاب لجميع الفرسان، وتعهدت الدولة العثمانية بالمحافظة على سلامة أشخاصهم وممتلكاتهم، وباسقاط الجزية عن أهل الجزيرة الأصليين- وهم نصارى- خمس سنوات كاملة.

كانت السياسة الافرنسية تقوم على مناهضة أسرة (هابسبورغ)[1] الملكية، وبذلك خطا (السلطان سليمان) خطوات

---

(١) اسرة هابسبورغ: « MAISON DE HABSBOURG » عائلة ألمانية تكونت في =

بعيدة في تحالفه مع (آل بوربون)[1] من أجل تنفيذ مخططاته ضد جارته الشمالية (المجر). وما لبثت العلاقات الودية ان تطورت منذ ذلك الحين بين باريس واستانبول، فضمنت فرنسا لنفسها طوال القرون التالية مركزاً ممتازاً بين الدول الكبرى في كل ما يتصل بالسياسة الشرقية، غير أن ذلك لم يمنع فرنسا في بعض الفترات من الاسهام بدعم الحملات الصليبية ضد الأقطار الإسلامية، وأحياناً ضد الدولة العثمانية ذاتها.

استأنف سليمان الحرب ضد المجر في سنة ١٥٢٦. ووقعت معركة (موهاج أو- موهاكس)[2] في ٢٨ آب - اغسطس-

= البداية ونشأت في اقليم السواب (SOUABE) أو بالالمانية (SCHWABEN) الذي كان دوقية وأصبح اليوم يشكل القسم الجنوبي- الغربي من بافاريا وعاصمتة اوغسبورغ AUGSBOURG . وقد عرفت هذه الاسرة بثرائها الفاحش. وقد اشتقت الاسرة اسمها من قصر حصين كانت تمتلكه في سويسرا (اقليم اوكانتون ارغوفي: ARGOVIE) وقد وسعت هذه الاسرة حدودها فضمت إليها سويسرا والالزاس منذ سنة (١١٥٣ م) وشكلت بعد ذلك مملكة(امبراطورية)في عهد رودولف هابسبورغ ضمت بالاضافة الى املاكها السابقة أقاليم بوهيميا وهنغاريا واسبانيا وسيطرت على النمسا والبلاد المنخفضة وقسماً من ايطاليا والعالم الجديد- امريكا- وفي عهد الامبراطورة ماريا تيريزا- امبراطورة النمسا التي شنت الحروب السيليزيه ضد فريدريك الثاني (حرب السبع سنوات) توطدت عرى الصداقة مع (آل لورين) ثم جاءت عملية زواج ابنة ماريا تيريزا (من لويس السادس عشر) لتغير من علاقات هذه الاسرة، وتشكل لها فروعاً جديدة.

(١) آل بوربون: (MAISON DE BOURBON) يعود تاريخ هذه الاسرة الى القرن العاشر الميلادي. وقد انتقلت سيادة البوربونيين عن طريق المصاهرة الى (الدامبيير: DAMPIERRE) ثم الى الكابيسيين CAPETIENNE وبدأ فرع من هذه الاسرة بحكم فرنسا منذ حكم هنري الرابع (١٥٨٩) وابنه لويس الثالث عشر. ومنهم الفرع الذي يحكم اسبانيا حالياً (خوان كارلوس).

(٢) موهاج: (MOHACS) مدينة هنغارية تقع على الدانوب قريباً من الحدود اليوغوسلافية. وفيها انتصر السلطان سليمان على (لويس الثاني) سنة ١٥٢٦. وفيها ايضاً قتل الاتراك العثمانيون شارل اميراللورين سنة (١٦٨٧ م).

وانتهت هذه المعركة بمقتل ملك المجر (لويس) ومعه عدد كبير من رجال دولته. ولم تلبث (بودا)[1] أن سقطت في قبضة القوات العثمانية (في ١١ أيلول- سبتمبر) ثم ان الحرب نشبت بين ملك النمسا (فرديناند) وامير ترانسلفانيا (جان زابوليا) بسبب النزاع على تاج المجر، فلم يكن من سليمان الا أن ناصر (زابوليا) على خصمه، واحتل (بودا) مرة اخرى في سنة (١٥٢٩ م) ليحتفل فيها بتتويج حليفه ملكاً على المجر. ومن ثم تقدم سليمان الى (فيينا) فحاصرها، ولكن قلة المؤن اضطرته الى رفع الحصار عنها في (١٥- تشرين الأول- اكتوبر) ولم تكن حملة سنة (١٥٣٢ م) أوفر حظاً من سابقتها. فقد صمدت قلعة (كوسك)- المجرية الصغيرة في وجه القوات العثمانية طوال شهر آب- أغسطس- فعمل على عزل القلعة، وقطع الإمدادات عنها حتى سقوطها في قبضة العثمانيين يوم (٢٨) من الشهر نفسه. ولكن اسطول الامبراطور شارل الذي كان يقوده أمير البحر الجنوي (اندريا دوريا) والذي كان يعمل في نجاح على شواطىء المورة، لم يلبث أن أضاع على السلطان سليمان ثمرة انتصاره. فتم عقد معاهدة للصلح بين المجر والسلطان سليمان. غير ان الصراع لم يتوقف، واحرز سليمان نصراً حاسماً على (آل هابسبورغ) وضم إليه مساحة واسعة من بلاد المجر وفي (٢- أيلول- سبتمبر- ١٥٤٣) احتلت القوات العثمانية مدينة بودا، وحولت كنيستها الى مسجد، وأقامت ادارة عثمانية تتولى ادارة بلاد المجر.

ذلك هو الموقف على الجبهة الشرقية يوم ظهر الأخوان (ذوي اللحى الشقراء).

---

(١) بودا: (BUDA) كانت عاصمة المجر، تقع على الدانوب، ودمجت مع مدينة بست (PEST) سنة (١٨٧٣) لتشكل مدينة واحدة حملت اسم (بودا- بست).

٣ ـ الموقف على جبهة الأندلس

انطلقت شرارة الحروب الصليبية من الأندلس، وصحيح أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين وأعدائهم، إلا أن قوة الحكم الأموي في الأندلس، وتماسك المسلمين في المغرب الإسلامي، حرم الافرنج من حرية العمل العسكري في الغرب بقدر ما حرمت قوة العباسيين الدولة البيزنطية من هذه الحرية في المشرق. وما نشب من القتال ضد المسلمين في الأندلس، اتخذ صفة الحرب المقدسة، ولم يلبث البابوات أن صار لهم يد في توجيهها.

ففي سنة (١٠٦٣م) لقي (راميرو الأول ـ روذقير) ملك أراغون مصرعه في (غرادوس) على يد أحد المسلمين عندما قام بهجوم على المسلمين، فأثار موته خيال اوروبا. فبادر البابا الاسكندر الثاني إلى أن يعد ببذل الغفران لكل من قاتل من أجل الصليب في اسبانيا. وشرع البابا في تأليف جيش لمواصلة عمل (راميرو). وبدأت حشود المقاتلين تتدفق من كل أنحاء أوروبا لقتال المسلمين في الأندلس. واستنزف هذا الصراع المستمر من قوة العرب المسلمين حتى جاء القشتاليون فاستولوا على طليطلة سنة (١٠٨٥م). واعتبر الافرنج بأن

استعادة (القوط) عاصمتهم القديمة هي نقطة التحول في الصراع، وذلك للانتقال من الدفاع الشامل الى الهجوم الشامل.

أعقب ذلك حركة إفاقة إسلامية عمل لها المعتمد بن عباد ـحاكم اشبيليا واقوى امراء الطوائفـ وأبرزها أمير المرابطين (يوسف ابن تاشفين). وتجلى ذلك في معركة الزلاقة سنة (١٠٨٦م). واشتدت دعوة الفرسان المسيحيين للقدوم الى اسبانيا لمحاربة المرابطين. وبذل البابا (ايربان الثانـي) المساعدة وأخطر الحجاج بانه من الخير لهم انفاق أموالهم لمحاربة المسلمين بدلاً من إنفاق هذه الأموال في الحج الى فلسطين. واستمرت الحملات الموجهة إلى الأندلس وتحولت إلى حملات منتظمة بعد انتزاع (وشقة) من المسلمين سنة (١٠٩٦م) وباربسترو ـأو بربشترـ سنة ١١٠١.

ولم ينته القرن الحادي عشر، حتى تحولت فكرة الحرب المقدسة الى اتجاه عملي، إذ أن الفرسان والمحاربين المسيحيين لقوا التشجيع من السلطات الكنسية بأن يتخلوا عن منازعاتهم الصغيرة، وأن يتوجهوا الى أطراف العالم المسيحي لقتال الكفرة (المسلمين). ولم يجد البابا صعوبة في توطيد سلطته على ما قام من الكنائس بالأندلس مع كل انحسار للمسلمين وتراجع فوق الأرض الأندلسية.

مضت عشر سنوات على سقوط طليطلة، وعقد مجمع بياكنزا بزعامة البابا (ايربان الثانـي) في سنة ١٠٩٥، واعقب ذلك انعقاد مجمع (كليرمونت) وهو المجمع الذي ضم ثلاثمائة من رجال الدين.

وأعلنت الحرب الصليبية بنداء البابا (فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق). وانتظمت الحملات المتتالية التي استمرت مائتي سنة. (١٠٩٩ـ ١٢٩١م) والتي عانـى المشرق الاسلامي منها ما هو معروف من النكبات والكوارث.

خلال هذه الفترة لم يتوقف الصراع على جبهة الأندلس، وقد كان من المحال على المسلمين الأندلسيين الاضطلاع بأعباء الجهاد في سبيل الله وحدهم، فكان لهم في اخوانهم في المغرب الإسلامي ما يحتاجونه من الدعم. وتعاقب على الأندلس المرابطون فالموحدون، ثم استمر الجسر القائم بين الأندلس والمغرب في تأمين متطلبات الجهاد المستمر. حتى اذا ما انتهت الحروب الصليبية في المشرق، أصبحت الأندلس الاسلامية محاصرة في حدود مملكة (غرناطة) التي لقيت كل دعم من (بني مرين). وبذلك امكن (لبني نصر) الاحتفاظ براية الجهاد مرفوعة فوق جنوب الأندلس لمدة مائتي سنة أخرى. وليس من متطلبات البحث هنا التعرض بالتفصيل الى ذلك الصراع المرير، وتلك المعارك الدامية التي خاضها المسلمون في الأندلس، غير انه من الضروري التوقف قليلاً عند المرحلة الأخيرة من مراحل هذا الصراع نظراً لعلاقته بما تعرض له المغرب الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية.

لقد قاد الصراع ضد المسلمين خلال تلك الفترة ـعلى ما هو معروفـ (ملك اراغون فرديناند)[1] الذي تزوج بملكة قشتالة (ايزابيللا)[2] فوحد قيادة الاقليمين ضد مملكة غرناطة، ودعمها في

---

(١) فرديناند الخامس الكاثوليكي (FERDINAND V LE CATHOILIQUE) من مواليد سوز (١٤٥٢ـ ١٥١٦ م) تولى الملك في سنة (١٤٧٤ م) اشتهر بانه سياسي عنيد وجريء، تزوج بايزابيللا ملكة قشتالة، ووحد تقريباً كل شبه الجزيرة الايبيرية، مما ساعده على تدمير قدرة المغرب الاسلامي والقضاء على مملكة غرناطة سنة ١٤٩٢.

(٢) ايزابيللا الاولى الكاثوليكية : (ISABELLE 1er LA CATHOLIQUE) ملكة قشتالة، من مواليد مدريد (١٤٥١ـ ١٥٠٤ م) تزوجت من فرديناند ملك أراغون ARAGON . ووحدت مملكتها قشتالة بمملكة اراغون مما ساعد على اكمال وحدة اسبانيا، وهي الوحدة التي هدفت الى القضاء على المملكة المغربية في (غرناطة). عملت على اقامة =

مخططاتها وزيرهما (خمينيس)[1].

لقد خاض المسلمون في الاندلس صراعاً مريراً ضد قوات متفوقة، واستصرخ المسلمون اخوانهم في المشرق (المماليك البرجية). كما استنجدوا بالدولة العثمانية، غير ان كل قوة من القوى الإسلامية كانت مشغولة بأكثر من أعبائها، فهناك كان المغول والدول الأوروبية على حدود (بيزنطة). وفي مصر والشام كان المماليك قد ضعفوا الى درجة بات من الصعب عليهم تقديم جهد اضافي، ولا يعفيهم ذلك بدهياً من مسؤوليتهم التاريخية، ليس في ضياع الأندلس الإسلامية فحسب وإنما أيضاً فيما نزل بالمغرب الإسلامي. المهم في الأمر، هو أن هذا الصراع على جبهة الأندلس دمج فيما بين الأندلس الاسلامي والمغرب الإسلامي. الأمر الذي دفع باعداء المسلمين الى التطلع الى المغرب الإسلامي، واعتباره القاعدة الأساسية لقوة المسلمين التي انطلقت منها الفتوح لبلاد الأندلس، والتي استمرت طوال عهود حكم المسلمين فيها، على الرغم من كل التناقضات التي هيمنت في بعض الفترات على العلاقات الأندلسية ـ المغربية.

لم يفقد المسلمون ثقتهم بأنفسهم على الرغم من ثقل الهجمة

= محاكم التفتيش وشجعتها لإبادة المسلمين ودعمت وزيرها (خمينيس) لاداراتها.

(١) خمينيس: (XIMéNéS) أو (CISNEROS) واسمه: (FRANCOIS JIMENESDE) كاردينال: ولد في قشتالة (١٤٣٦ـ ١٥١٧) تم تعيينه امينا لسر المملكة (١٤٩٢) ثم كاهنا لطليطلة (١٤٩٥) ثم حاكما لقشتالة حتى وفاة الملكة (١٥٠٤) ثم رئيساً لمحاكم التفتيش (١٥٠٦ـ ١٥١٦) وفتح وهران (١٥٠٩) اشتهر بقسوته الوحشية في ابادة المسلمين. وكان المحرض الاساسي لاحتلال مدن المغرب في محاولة لتنصير مسلمي المغرب.

الشاملة التي احاطت بالمسلمين الأندلسيين في جنوب شبه الجزيرة، وهي الهجمة التي دعمها البابا عندما فرض على المسيحيين ضريبة اطلق عليها اسم (ضريبة الصليبية). ولم تعد القضية هي قضية بطولة أو تضحية في مواجهة الهجوم الشامل، ولو أن هذه البطولة وتلك التضحية التي التحمت بعقيدة الانسان المسلم لم تعدم وجودها في يوم من الأيام ونسجتها خلال تلك الحقبة نماذج غير محدودة، لعل من اشهرها قصة (موسى بن أبي الغسان) الذي وقف في أحلك أيام (غرناطة) وأكثرها قسوة، فجابه دعاة الاستسلام للصليبيين بمقولته الرائعة: «وأي باعث لنا على اليأس. ان دم الأبطال من عرب الأندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا. وعندنا قوة وافرة، وجيوش معودة مجربة في الوقائع، لا نرتاب في إقدامها. ولدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدفعوا عن دورهم واسوارهم اعظم قوة واكثف جيش».

وفي ذلك أيضاً يقول مؤرخ إنكليزي: «ان هذه الحرب- حرب تحطيم مملكة غرناطة- هي حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر، بما تخللها من باهر الثبات والإصرار. فان النكبات توالت فيها على المغاربة- اهل الأندلس- مدة عشر سنوات بلا انقطاع، فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى وفنيت رجالاتهم قتلاً وأسراً، وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج، بل عن كل صخرة. كأنما هم ينتظرون الفتح. ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم، ولا جدارا يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به ينازعون عنها كل معتد، غير طامعين في أدنى غوث، تنزل على اسوارها أمة بقضها وقضيضها، لم يزالوا يدافعون عنها، كأنما هم يترقبون معجزة يرسلها

الله في حقهم»[1]

لم تكن القضية على كل حال قضية انتظار حدوث معجزة، كما يصورها من لا يستطيعون فهم عامل الدفاع عن الدين والقدرة على الصمود في العقيدة القتالية الإسلامية. وليست ايضاً الدفاع بانتظار وصول الدعم، القضية ببساطة هي قضية طلب احدى الحسنيين (النصر أو الشهادة). فكان طلب الشهادة هو الدافع لابراز مثل هذه الظاهرة الطبيعية في مضمون (الجهاد في سبيل الله). وذلك بصرف النظر عما تحرزه هذه الشهادة من نصر او هزيمة. ولو أن النصر هو النتيجة الحتمية والمتوقعة لمثل هذا الصمود. غير أن صراع (القوى) على الساحة المحدودة، كان فوق كل تقويم فكانت الهزيمة وسقطت غرناطة. وعادت المغرب، بسهلها وجبلها، بمدنها وقراها تستقبل آلاف وملايين المسلمين الذين ضاقت عليهم الدنيا فرجعوا الى قاعدتهم القوية والصلبة في (المغرب الإسلامي).

أصبحت قصة محاكم التفتيش معروفة، ولا حاجة هنا للتعرض الى ما رافقها من احراق للمسلمين وتدمير للمساجد وتحويلها الى كنائس وانتهاك للحرمات واستعباد للنساء والاطفال. غير أن من المفيد الاشارة الى ان غرناطة وحدها كانت تضم نصف مليون مسلم. وقد أدت عمليات الارهاب الوحشية الى نزوح اهلها عنها والفرار اما الى جبل البشرات، واما الفرار الى المغرب الإسلامي. واستمرت المحنة طوال أكثر من مائة سنة (١٤٩٣- ١٦١٠م) حيث استمرت هجرة الأندلس الى المغرب والمشرق الاسلاميين. وقدر عدد الذين

(١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا- احمد توفيق المدني- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ١٩٧٦ ص ٤٣- ٤٤.

غادروا الأندلس خلال هذه الفترة بنحو ثلاثة ملايين ـ وكان عدد افراد الهجرة الأخيرة وحدها نصف مليون مسلم. هاجر معظمهم الى المغرب الاسلامي، وانتشروا في مدنه وقراه، ومنهم من تابع هجرته الى المشرق.

وكان تحت حكم المسلمين في الأندلس نحو المليونين من اليهود، هاجر منهم نحـو من مليون وثمانمائة الف تفرقوا بين بلدان أفريقيا الشمالية وأقاليم الامبراطورية العثمانية. واستقر قسم كبير منهم في عاصمة الامبراطورية العثمانية وفي المدن القريبة منها.

وما ان شعرت حكومة اسبانيا بقوتها حتى حدث لها ما يحدث لكل الدول التي تنتقل من عهد الى عهد على أساس القوة العسكرية. فتوجهت الى ايطاليا. وكانت قد فرضت من قبل سيطرتها على صقليا وجنوب إيطاليا ومدينة نابولي. وارادت توسيع ممتلكاتها هناك مما أدى الى اصطدامها بفرنسا، ووقوع الحرب المعروفة باسم (حرب الستين عاماً).

كانت فرنسا خلال تلك الفترة تحت حكم (الملك شارل الثامن)[١] الذي ادعى بأن من حقه وراثة عرش (نابولي). ليس ذلك فحسب، بل انه طالب بضم (ميلانو) الى ممتلكاته. وحدثت معارك انتصرت فيها الجيش الاسبانية على الجيوش الافرنسية.

---

(١) شارل الثامن (البشوش) CHARLES. VIII. L'AFFABLE ابن لويس الحادي عشر وشارلوت اميرة سافوا (١٤٧٠ـ ١٤٩٨) ملك فرنسا اعتباراً من سنة (١٤٨٣) بوصاية اخته آن. وبدأ عهده باقامة الاتحاد العام للاقاليم، والقضاء على الثورات، واستولى على نابولي (١٤٩٥) وقامت في ايطاليا ثورة عامة ارغمته على الانسحاب.

وكان يحكم المانيا الامبراطور (مكسيميليان دوهابسبورغ)[1] الذي كان من سياسته مناهضة التوسع الاسباني- الافرنسي في ايطاليا، لا سيما وأنه كان يعتبر بأن دوقية (ميلانو) تابعة له. وتفجر هذا الموقف عن حرب أوروبية شاملة وقفت فيها فرنسا وحدها في مجابهة اسبانيا وألمانيا، وانضمت لها انكلترا وسويسرا وجمهورية البندقية. وعقد البابا الذي كان يشرف على محاربة الافرنسيين (يوليوس الثاني) بين كل هؤلاء ما أسموه (العصبة المقدسة) التي أمكن لها الحاق الهزيمة بفرنسا، مما زاد من قدرة اسبانيا وقوتها.

عندما توفي الامبراطور (مكسيميليان) عين الملوك والأمراء (شارل الخامس) أو (شارلكان)[2] خلفاً له. وبذلك أمكن لهذا الامبراطور جمع بلاد واسعة تحت حكمه ضمت (اسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقليا وسردينيا ونابولي وقسما من بلاد الجرمان -المانيا- واغلب البلاد الامريكية التي تم اكتشافها حديثاً). وأصبح باسم امبراطوريته العظمى يقف وجهاً لوجه امام فرنسا

---

(١) مكسيميليان: (MAXIMILIEN I) (١٤٥٩- ١٥١٩) اصبح امبراطور للامبراطورية الجرمانية المقدسة سنة ١٤٩٣. قاد الحرب ضد الملك الافرنسي لويس الحادي عشر.

(٢) شارل الخامس: (CHARLES QUINT) = (CHARLES V DIT) ابن فيليب الجميل وجان المجنونة. (١٥٠٠-١٥٥٨) ملك اسبانيا (١٥١٦) ملك جرمانيا (١٥١٩) بلغ من طموحه انه رغب في اقامة امبراطورية عالمية. ومن اجل ذلك خاض حرباً ضد فرانسوا الاول لمدة تزيد على الثلاثين عاماً، وانتصر في معركة بيكوك (١٥٢٢) و (بافيس ١٥٢٥) حيث اخذ الملك فرانسوا اسيراً وارغمه على توقيع معاهدة مدريد (١٥٢٦) واستولى على روما ودمرها سنة (١٥٢٧) وحاول الاستيلاء على تونس (١٥٣٥) والجزائر (١٥٤١) غير ان محاولاته باءت بالفشل.

والامبراطورية العثمانية. واستطاع ملك فرنسا (فرانسوا الأول)[1] ان يجد في تحالفه مع العثمانيين قوة كافية تضمن له النصر على اعدائه.

كانت النتيجة الثانية لتعاظم القدرة الاسبانية الانتقال للعدوان على المغرب الاسلامي، وفي الواقع فقد بدأ هذا العدوان من قبل أن تسقط مملكة غرناطة، وكان ذلك بهدف عزل الأندلس الاسلامية عن قاعدة دعمها في المغرب الإسلامي. ثم تطور ذلك بعد إخراج المسلمين من الاندلس وفقاً لما يبرزه جدول توقيت أبرز الأحداث التالي:

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٨٠٣	١٤٠٠	الاسبانيون يهاجمون تطوان (تيطوان).
٨١٨	١٤١٥	البرتغاليون يحتلون مدينة سبتة.
٨١٨-٨٤١	١٤١٥-١٤٣٧	البرتغاليون يحتلون المرسى الكبير ويقيمون فيه ثم يطردون منه.
٨٧٦-٨٨٢	١٤٧١-١٤٧٧	البرتغاليون يعودون لاحتلال المرسى الكبير ثم يطردون منه.
٨٩٨	١٤٩٢	**سقوط غرناطة في قبضة الاسبان**
٩٠٧	١٥٠١	البرتغاليون يهاجمون المرسى الكبير ويفشل هجومهم.

(١) فرانسوا الأول: (FRANCOIS I) ملك فرنسا (١٤٩٤-١٥٤٧) تولى ملك فرنسا سنة (١٥١٥) بعد وفاة ابن عمه لويس الثاني عشر.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩١١	١٥٠٥	الاسبانيون يحتلون المرسى الكبير- الجزائر- .
٩١٣	١٥٠٧	محاولة الاسبانيين احتلال وهران التي تبعد (٨) كلم عن الجزائر وتدمير جيشهم في موقعة (مسرغين) .
٩١٥	١٩٠٩	الاسبانيون يعيدون محاولتهم ويفتحون وهران .
٩١٦	١٩١٠	الاسبانيون يحتلون بجاية (على مجرى وادي الصومام) ويحتلون عنابة وطرابلس ويفشلون في الاستيلاء على جربة والسلطان الحفصي يستنجد بالاخوين برباروس .
١٩١٧	١٩١١	الاسبانيون يستولون على (مستغانم) . ويستلمون من الجزائريين جزيرة (اسطفله) المقابلة للجزائر .

وكانت النتيجة الثالثة لتعاظم القدرة الاسبانية، ظهور عملية التوسع البحري التي أسهم فيها البحارة المسلمون بقسط وافر ولكن تحت راية البرتغاليين والاسبانيين. ومن المكتشفات البحرية التي رافقت هذه الفترة:

١ـ اكتشاف أمريكا الجنوبية والهجرة الاسبانية اليها: (٨٩٩ـ ٩١٠ هـ = ١٤٩٣ـ ١٥٠٤م).

٢ـ اكتشاف البرتغال لطريق الهند (فاسكو دي غاما): (٩٠٤ هـ = ١٤٩٨م).

٣ـ رحلات ماجلان البرتغالي: (٩٢٥ـ ٩٢٩هـ = ١٥١٩ـ ١٥٢٢م).

٤ ـ الموقف على جبهة المغرب الاسلامي

تعرض المغرب الإسلامي لمجموعة من المتحولات، منذ الأيام الأولى للفتح. وإذا كانت الموجة الأولى للفتح قد وحدت بين مراكز القوى المختلفة، إلا أن انهيار الحكم الأموي، وقيام الحكم العباسي، ثم قيام الحكم الأموي في الأندلس، قد أدى الى نوع من التمزق المؤقت الذي لم يلبث أن تمخض عن حركات اصلاحية دينية كرد على الدعوات التي أفرزتها حركة الفاطميين التي ترعرعت في المغرب الإسلامي قبل أن تنتقل الى مصر. ولعل أفضل تعبير لتلك الحركات الاصلاحية هي ظهور المرابطين ثم الموحدين (ابناء عبد المؤمن).

ولم يكن ظهور هذه الحركات وتطورها سلمياً، وإنما رافقها عنف دموي لم يلبث ان ترك رواسب عميقة كان لا بد لها من أن تتفاعل لتأخذ ابعادها في التأثير على مستقبل المغرب الإسلامي.

إذ ما كادت دولة الموحدين تضعف حتى ظهر نوع من استقلال مراكز القوى الناجم عن ضعف المركزية. فكان من أبرز مراكز القوى:

١ـ دولة بني حفص (الحفصيون) والذين جعلوا من تونس قاعدة لهم، فكانت حدود دولتهم تمتد من طرابلس حتى شرقي الجزائر- في المفهوم الحالي للحدود.

٢ـ دولة بني زيان (الزيانيون) وقد جعلوا من وسط الجزائر وغربها مقراً لهم وقاعدة لكيانهم.

٣ـ دولة بني مرين (المرينيون) وقد جعلوا من المغرب الاقصى قاعدة لهم ومستقراً.

وقد بقيت هذه الكيانات قوية، صلبة، حتى إذا ما استنزفت قدراتها في الحروب الداخلية والحروب الخارجية، وصلت الى مرحلة من الانهيار المريع الذي فتح المجال أمام مزيد من التمزق، حتى أصبحت كل مدينة وكل منطقة مستقلة بأمورها. وانعكس ذلك على زعماء هذه الكيانات والدول فلم يبق لهم من السلطة إلا اسمها. وأمام هذا الموقف ـ وكما يحدث عادة في كل التجارب التاريخية- أصبحت الأقلية الحاكمة- الاوليغاركية- على استعداد للتعاون مع أي سلطة أو قوة داخلية أو خارجية للمحافظة على وجودها، فكان في ذلك القضاء النهائي على هذا الوجود.

لقد تمت هذه التحولات بصورة بطيئة وتدريجية، على الرغم من ظهورها المباغت كتحولات عنيفة في بعض الأحيان. ويتطلب ذلك التوقف قليلاً عند بعض ظواهر هذه التحولات.

عندما انهار حكم الموحدين حاول بنو مرين (في المغرب) السيطرة على المغرب الاسلامي بكامله، فاصطدموا بقوة الحفصيين (في تونس) والذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين وأدى ذلك الى صدامات دامية لم تحقق الهدف المنشود في توحيد المغرب

الإسلامي. وإنما أدت الى نتيجة مضادة تماماً هي استنزاف قدرة الدولتين واضعافهما معاً. وخلال هذا الصراع المرير كان على الزيانيين (في الجزائر) دفع ثمن هذا التمزق عن طريق التناوب في الخضوع لهؤلاء واولئك تبعاً لارتفاع موازين القوى وانخفاضها. وانعكس ذلك بصورة خاصة على بني مرين (١١٩٦- ١٤٢٨م) الذين كانوا أفضل سند للأندلس الإسلامية. فانهار بذلك أقوى دعم للأندلسيين، وانتهى الأمر ببني مرين الى زوال سلطتهم وظهور فرع منهم اقتصرت سلطتهم على (مدينة سلا) ومنطقتها (هم بني وطاس).

وكان ذلك هو الموقف يوم هاجمت القوات الاسبانية مدينة تطوان (سنة ١٤٠٠ م) فأخذتها ودمرتها، وأبادت نصف سكانها وساقت الباقين من رجالها ونسائها سبايا وأسرى الى اسبانيا. في حين كان ملك المغرب (أبو سعيد عثمان المريني) يحارب مملكة بني زيان بتلمسان من أجل اخضاعها. فاحتل تلمسان وطرد ملكها (أبا زيان) ونصب مكانه (أبا محمد عبد الله). وتكرر هذا الموقف ذاته (سنة ١٤١٥) عندما قاد ملك البرتغال جيشه بنفسه فاحتل مدينة (سبتة) عندما كان (أبو سعيد عثمان ايضاً) يحارب (أبا حسون) من أجل تلمسان ذاتها من جديد.

وأدى ذلك الى الوضع الذي وصفه مؤرخ فرنسي بقوله: «إن **العائلات المالكة الحفصية والزيانية والمرينية، والتي كانت قبل ذلك تلمع لمعانا منيراً، قد انغمست في حروب طويلة مزمنة، ورويت أرض هذه البلاد- المغرب العربي الاسلامي- بالدماء، ثم سقطت في مهاوي الانحطاط. فطوال قرن كامل لم يبق لامراء هذه العائلات**

المالكة من السلطة الا اسمها. وكان الملوك لا يفكرون الا في احباط المؤامرات والفتن التي يثيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش، أو في إخماد الثورات التي تقوم بها قبائل سئمت حكم العجز والطغيان. ولقد ضربت الفوضى أطنابها في كل مكان. فسكان الولايات القسنطينية، وسكان مدينة الجزائر، وأهل الشرق الوهراني، لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم. أما بالمغرب الأقصى، فإن أمراء عائلة بني مرين، قد اقتطع كل واحد منهم لنفسه إمارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه. فهذه الفوضى قد سهلت بصفة غريبة مهمة البرتغاليين والاسبانيين سواء في احتلال البلاد، أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها»(١).

ويذكر مؤرخ آخر: «أن جاسوساً من الجواسيس الذين أرسل بهم - فرديناند - الى بلاد المغرب العربي، قد أرسل الى ملكه تقريراً مفصلاً جاء فيه: إن كامل بلاد شمال افريقيا تجتاز فترة من الانهيار النفسي، ويظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل هذه البلاد ملكاً لصاحبي الجلالة المسيحية».

ثم يقول: «في نهاية القرن الخامس عشر كانت الفوضى السياسية والاضطرابات، وتداخل الممالك بعضها ببعض، قد بلغت في الشمال الافريقي مبلغاً لا يمكن تلخيصه في صفحات. ويصاب الانسان بنوع من الذهول وهو يتلو قائمة الممالك والامارات التي اقتسمت رقعة هذا الشمال الأفريقي. وكانت - وهران - تبدو وهي تحت السلطة الاسمية لبني زيان في صورة جمهورية تجارية حقيقية

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا- احمد توفيق المدني- ص ٦٧- ٧١.

مستقلة، أما مدينة بجاية فقد كانت في الفترة ذاتها تكتسب ثروة طائلة وبصفة مستقلة، من التجارة الواسعة التي كانت تتعاطاها مع البلاد الإيطالية ومن القرصنة. وكانت مملكة تلمسان تشمل بصفة غير محددة الغرب الجزائري، الحالي، وكان رجال الدولة قد تحرروا من السلطة المركزية، فكان ادعياء الملك لا يجدون صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم. وكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم. كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم. وكانت هذه الفوضى ذاتها موجودة بالبلاد التونسية حيث آل أمر بني حفص الى العجز التام، فكان الملك لا يملك حق التصرف، ولا في نفس العاصمة تونس، حيث كان يحتمي بحرس من المرتزقة المسيحيين. وكان جبل الرصاص على مقربة من مدينة تونس خارجاً عن طاعة السلطة المركزية، بينما كانت أكثر القبائل التونسية مستقلة فعلاً.

على الرغم من ذلك، فقد خشي ـ فرديناند ـ أن يؤدي طرد ملك غرناطة ـ ابي عبد الله ـ الى المغرب الى رد فعل عنيف من جانب دول المغرب الإسلامي، غير ان الراهب (خمينيس) تمكن من اقناعه بأن لا خطر البتة من وراء ارسال ملك غرناطة الى المغرب لأن حالة الخلاف والشقاق المستحكمة هناك لن تسمح لأهلها بالإقدام على مثل هذا العمل. واتقاء لخطر اتحاد اسلامي موسع في أفريقيا ضد الصليبية الاسبانية فقد أرسل الملك ـ فرديناندو ـ في العام ١٥٠١، وبعد سقوط غرناطة بسنوات، وفداً الى مدينة القاهرة عاصمة دولة المماليك ـ يرأسه بطرس ماريتر دانغيرا ـ من أجل عقد معاهدة صداقة وحسن تعامل بين الاسبان ودولة المماليك التي كان يترأسها يومئذ قانصوه الغوري. وتم له ذلك.

وأثارت مشكلة السباق بين البرتغال واسبانيا لاحتلال المغرب الاسلامي صراعاً بين الدولتين كاد يؤدي الى الحرب فيما بينهما. غير ان البابا تدخل في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم (وفقا لمعاهدة تورد- سيلاس- سنة ١٤٩٥). واعقب ذلك الاتفاق على اقتسام المغرب العربي- الإسلامي (وفقا لمعاهدة فيلافرنكا- ١٥٠٩) والتي نصت على منح المغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول اسبانيا على المغرب الأوسط (الجزائر).

وهكذا ومع بداية القرن السادس عشر، كانت دولة البرتغال تملك في المغرب الأقصى مدن (سبتة وطنجة وأصيلا وازمور والصويرة وأسفي مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة بين مصب نهري ام الربيعة وتنسيفت على المحيط الأطلسي).

أما الاسبان فقد ملكوا بالبلاد المغربية (صخرة باديس- فاليس- ومدينة مليلة)، وانطلق الاسبانيون لتطوير الحرب الصليبية ضد الجزائر.

ولقد تطلب الإعداد لهذه الحملة الصليبية الجديدة إعداداً طويلاً، وإمكانات كبيرة، بدأها البابا في روما الذي عمل على وضع كل الإمكانات البشرية والمادية تحت تصرف الملوك الاسبان من أجل إبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس اولاً، ومن أجل اخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم المسيحي وللدين المسيحي ثانياً. ومن أجل ذلك، أصدر البابا أمره السامي لكل المسيحيين بأن يستمروا في دفع الضريبة الصليبية (كروزادا) لملوك اسبانيا من أجل الحرب الافريقية. وجمع القساوسة والرهبان أموالاً ضخمة من أجل ذلك. بل انهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة لكي يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد.

وعندما توفيت الملكة (ايزابيللا) تركت وصية (طلبت فيها لمن يتولون الملك بعدها بأن يحققوا الأمنية الغالية على قلبها، والتي كانت تود ولو أنها قد حققتها بنفسها لو طال بها الأجل، الا وهي فتح افريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار - الذين هم المسلمون؟).

وعندما جهزت اسبانيا تحت ضغط الكنيسة واستفزازات الراهب (خمينيس) جيشها واسطولها لغزو المغرب العربي - الاسلامي، بادر البابا بنشر قرار يعطي به الولاية لملكي اسبانيا على كامل الارض التي يفتحانها بهذا المغرب. وكان نفس البابا (اسكندر السادس - بورجيا الشهير)[1] قد أصدر سنة ١٤٩٤، عهداً يبارك به الصليبية الاسبانية بأفريقية.

لم تحدث عمليات الاحتلال، رغم كل التمزق والتشتت، ورغم الاطار العام الذي احاط عملية الغزو، لم تحدث بدون مقاومة باسلة من قبل الشعب المسلم في المغرب وقد يكون من الأفضل استقراء بعض ملامح الصراع خلال هذه المرحلة لأنها توضح أسباب التطورات في المرحلة التالية.

عندما اتم فرديناند ملك اسبانيا تجهيز الحملة، وهي الحملة التي مول اسطولها الكاردينال الوزير - خمينيس - بأمواله الخاصة وبما قدمته له الكنيسة من الأموال، توجه الأسطول للغزو، فغادر مالقة يوم

---

(١) اسكندر الرابع - بورجيا: (ALEXANDRE VI BORGIA) من مواليد جاتيفا JATIVA في اسبانيا في سنة ١٤٣١، أصبح (بابا) من سنة ١٤٩٢ حتى سنة ١٥٠٣ م وقد مارس دوراً سياسياً كبيراً حتى اطلق عليه انه أمير اكثر منه بابا أو رجل دين - اشتهر بقسوته في تنظيم الحرب ضد المسلمين.

٢٩ آب ـ أغسطس ـ ١٥٠٥، تحت قيادة (دون رايموند دي قرطبة) وكان الاسطول ينقل معه قوة من (٥) الاف رجل (بقيادة دون ديتوفر فرنانديز دي قرطبة). ووصل هذا الاسطول الى المرسى الكبير يوم ١١ـ أيلول ـ سبتمبر ـ وأحكم الحصار على المدينة لمدة خمسين يوماً، وكانت الاشتباكات خلال هذه الفترة مستمرة. وكانت السفن الاسبانية تضع على مقدماتها أكياس الصوف حتى لا تصيبها قذائف المسلمين. وقد تبادلت منذ اقترابها من الساحل طلقات المدفعية النارية. غير أن دوي تلك الطلقات كان أكبر من مفعولها. وعندما بدأ الاسبانيون عملية الانزال، قاومهم المسلمون مقاومة يائسة عنيفة، وأظهروا شجاعة كبيرة وحماسة ضارية، غير أن المدفعية الاسبانية أرغمتهم على ترك مواقعهم والانسحاب الى الداخل. ورافقت عملية الانزال عاصفة قوية وأمطار غزيرة، لكن ذلك لم يضعف المقاومة التي استمرت تجاهد صابرة حتى منتصف الليل، ثم استؤنفت المعركة من الغد، وكان يوم جمعة، واستمرت عنيفة قاسية طوال النهار. ثم ازدادت شدة وعنفاً عندما جاء المجاهدون من الداخل، بعدما بلغهم نبأ نزول الاسبان في حميَّة جنونية، بينما كانت مدفعية الحصون الاسلامية ترمي الأسطول الاسباني بقذائف من الحجارة تزن أربعين رطلاً. واستمرت المعركة الى الليل رغم استشهاد قائد الموقع الذي أصابته قذيفة مدفع اسباني. وأثناء الليل تشاور المسلمون فيما بينهم ـفي اجتماع عقدوه في دار المزوارـ وكانت الأغلبية تميل الى متابعة الجهاد في حين كانت الأقلية ترغب في الاستسلام وحجتها، انه من المحال على الحامية التي لا تزيد في الأصل عن خمسمائة مجاهد التغلب على قوة خمسة آلاف مقاتل اسباني. وبالاضافة الى ذلك فان انتصار الاسبان يعني استباحة المدينة وأهلها. وفي النهاية انتصر المعتدلون

وتقرر مفاوضة القائد الاسباني على شروط التسليم. ولم تفلح حماسة الشاب المجاهد (موسى بن علي) بإثارة مشاعر الناس وحضهم على متابعة القتال.

وافق القائد الاسباني على انسحاب المسلمين من المدينة، وحدد لهم فترة ثلاث ساعات من اجل الجلاء عن المدينة وبقية الحصون، واشترط عليهم ان لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن، ولا من حيوانات الجر، ولا من الأسلحة. واخلى المسلمون أول الأمر النساء، ثم تبعهم الرجال، وعندما تم انسحاب المسلمين في الفترة المحددة من التاسعة صباحاً الى الظهر، اقتحم الاسبان المدينة، ورفعوا فوقها أعلامهم. وتوجه المركيز القائد الاعلى الى مسجد المدينة الاعظم، فأمر بتحويله الى كنيسة للنصارى فوراً. وكرسه وباركه واطلق عليه اسم (كنيسة القديس ميكائيل). واقيم به القداس صبيحة الاربعاء ١٥ تموز- يوليو.

وانصرف الاسبان على الفور لتحصين المدينة. وعندما وصل المجاهدون وجيش تلمسان في صباح يوم السبت، وكان عددهم (٢٢) ألفاً من المشاة والفين من الفرسان، كانت الحامية الاسبانية قد تمركزت بقوة في المدينة، وحاولت قوة من الفرسان اقتحام المدينة غير ان الحامية الاسبانية احبطت هذه المحاولةالتي وصفها أحد شهود المعركة بقوله: «لم أر في حياتي اطلاقاً ابدع من هذه الفرقة المؤلفة من ثلاثمائة من الفرسان العرب التي كان يقودها- القائد ابن دالي- ولا أرهف سلاحاً، سواء من حيث خيولها المطهمة البالغة منتهى الجمال، أو من حيث ذلك الجهاز الفاخر المطرز الذي كان يكسوها».

وما كاد خبر الاستيلاء على المرسى الكبير يصل اسبانيا، حتى

اجتاحتها موجة من الفرح والابتهاج. واعلن فيها العيد لمدة اسبوع، وعملت الحامية الاسبانية (بالمرسى الكبير) على فتح سوق تجاري الى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية من جهة، ولإقامة علاقات مع السكان من جهة أخرى. واغدقت الحامية الذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار. غير أن جماعة المسلمين اعتبرت اولئك المتعاونين خونة مارقين، وعاملتهم معاملة الأعداء. وأخذت توالي إغاراتها عليهم.

ثم اخذت القيادة الاسبانية في الاعداد للمرحلة الثانية من التوسع. ونظم قائد حامية المرسى الكبير (فرنانديز دي قرطبة) حملة بهدف الهجوم على (مسرغين) بإغارة مباغتة. وكانت هذه المدينة تبعد عن المرسى الكبير مسافة ثلاث مراحل. ويصل بينهما طريق سهلي يمر من تحت حصون مدينة (وهران الاسلامية). وكان اتباع هذا الطريق خطراً لأن حامية وهران سترد الجيش الاسباني وستتصدى لمقاومته، ولهذا قرر اتباع الطرق الجبلية والاودية. وجند لقيادة الحملة أدلاء استأجرهم بالمال - من رجال قبيلة جيزة - التي كانت تنتشر حول المرسى الكبير ووهران، فاتخذ من بينهم أدلاء وحرسا من المرتزقين. وغادرت هذه الحملة (المرسى الكبير) في يوم ٦ حزيران (يونيو) وبدأت تحركها في الساعة (٢١) ليلاً. وقد ضمت هذه الحملة القوة الاسبانية بكاملها تقريبا بحيث لم يترك في المرسى الكبير الا العدد الضروري لحماية المدينة وأسوارها. ودخلت الحملة في الشعاب الجبلية خلف الادلة وهي تسير بالرتل الاحادي- على الطريقة المعروفة بالسلك الهندي- وكانت المسيرة شاقة، زاد من متاعبها حرص أفراد الحملة على تجنب إثارة أي صخب أو ضجيج. ووصلت الحملة الى هدفها مع

الفجر، واحاطت بدوار العرب المسلمين. وباغتته بالهجوم من كل جهاته. وذهل العرب لأول وهلة، غير انهم استعادوا بسرعة ثباتهم، وقابلوا الهجوم بمقاومة عنيفة، وقاتلوا بعناد وشراسة، غير ان القوات الاسبانية افادت من عاملي المباغتة والمبادأة فدمرت المقاومة بسرعة، فاستشهد المجاهدون المسلمون وهم يحملون سلاحهم، وسيق بقية الرجال والنساء والاطفال الى الأسر، واستخدم الاسبان كل ما وجدوه من الخيول وعربات الجر لحمل الغنائم، ونظموا سيرهم، واخذوا يعبرون المسالك الجبلية على طريق العودة.

واثناء ذلك كان بعض الرجال قد افلتوا من المعركة وذهبوا لاستنفار القرى المجاورة. واسرع المجاهدون (من الدواوير القريبة) لنجدة اخوانهم ـ الغرابة ـ وهم لا يبغون من الدنيا الا انقاذهم من الأسر والهوان، وليصونوا شرف النساء الحرائر من العربيات خوفاً من ان يلحق بهن العار. ولم تمض الا ساعة من نهار، حتى احدق المجاهدون بالقافلة الاسبانية التي كانت تدفع امامها غنائمها وأسلابها وأسراها.

والتحمت بين الجانبين معركة قاسية عنيفة، وكان الضباب يغطي ميدان المعركة، فلم يتمكن الاسبان من استعمال اسلحتهم، ولم يتمكنوا من رؤية اعدائهم. وقد ادخلت صيحات العرب الوحشية الفزع والهلع الى قلوبهم، فانتثل نظامهم وفقدوا الأمل في النجاة. واثناء ذلك، كانت أنباء الاغارة الوحشية قد وصلت الى مدينة (وهران). فبادر حاكم المدينة الى دفع قواته لنجدة المجاهدين. ووصل الجيش الى ميدان المعركة المتسع عبر الفجاج العميقة والشعاب الجبلية. فارتفعت اصوات التهليل والتكبير من كل جانب. واستبشر

المجاهدون بهذه النجدة القوية، فتزايدت حماستهم، وانقضوا على المقدمة التي تضم الغنائم والأسرى ـ والتي يقودها خونة جيزة ـ فقضت عليهم قضاء مبرماً، وفكت قيود الأسرى من رجال ونساء، واسترجعت كل الغنائم والأسلاب. فازداد بذلك رعب الاسبان وانهيارهم. وانهال عليهم المجاهدون في سبيل الله من كل جانب، يعملون في رقابهم السيف، فكادوا يقتلون عن آخرهم، لولا ان منادياً من أهل الأندلس ـ المدجنين ـ الذين خضعوا لاسبانيا وتنصروا، نادى المسلمين باللغة العربية: «ان إأسروهم ولا تقتلوهم، فانكم ستكسبون مالاً كثيراً عندما يبعث لكم أهلهم بفديتهم». وهكذا مال بعض المسلمين عن قتل الاسبان الى أسرهم، فأسروا بعض المئات. وسقط من القوة الاسبانية ثلاثة آلاف قتيل.

وقد استطاع قائد الحملة الاسبانية النجاة بنفسه مع قوة صغيرة، بعد أن بذل جهداً كبيراً حتى وصل الى المرسى الكبير، وأمضى بضعة ايام، توجه بعدها الى اسبانيا لتقديم تقريره. وارسلت الحكومة الاسبانية على اثر ذلك دعماً عاجلاً لحامية المرسى الكبير يضم خمسمائة محارب. وبذلك انتهت معركة (مسرغين) التي بدأت يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٥٠٧ م.

أ ـ اعداء الداخل (في تنيس)

عرفت الادارة الاسبانية انه لا قبل لها بفرض سيطرتها عن طريق القوة الغاشمة وحدها، فاخذت في العمل لاستخدام الوسيلة (التكميلية) عن طريق أستثمار التناقضات الداخلية، والاستعانة بأعداء الداخل من الخونة. وتم للإدارة الاسبانية ذلك عندما أمكن لها توطيد علاقاتها مع الاعراب المحيطين (بالمرسى الكبير) والذي اطلق

عليهم المسلمون اسم (المغطسين)[1].

وزاد الأمر سوءاً عندما وصلت الخيانة الى مستوى الحكم. فقد تولى عرش بني زيان (في سنة ٩٠٩ هـ = ١٥٠٣ م) السلطان (أبو زيان الثالث) الملقب (بالمسعود). لكن عمه (أبا حمو) ثار عليه، واخذ منه العرش وسجنه، وهنا تدخلت الإدارة الاسبانية لاستثمار هذا الموقف. فدعمت (يحيى الثابتي) شقيق الملك المخلوع السجين (أبي زيان السعيد) ودفعته للثورة على عمه. وأمكن له احتلال (تنيس) بحراب الاسبانيين ودعمهم. وجهز (أبو حمو الثالث) جيشه لقتال ابن اخيه (بتنيس)؛ ودارت بين الطرفين معارك طاحنة، لم تحقق لأحدهما الظفر على الآخر، وبقي (أبو حمو) بتلمسان، و (يحيى الثابتي في تنيس).

ب- وهران بعد المرسى الكبير:

كان الكاردينال الاسباني (خمينيس) يتابع هذه الفترة تجهيز حملته الكبرى للقضاء على المسلمين في المغرب، وما ان اكمل استعداداته حتى ابحر من مرسى قرطاجنة الاسباني في يوم (١٦ أيار- مايو- ١٥٠٩) وهو يدفع قوة من (١٥) ألف مقاتل بقيادة (بطرس النافاري) ووصلت هذه الحملة الى المرسى الكبير في اليوم التالي. ونزلت الى البر دون أدنى عائق. وكان (حاكم المرسى الكبير) قد اتخذ كل الاستعدادات لمساعدة هذه الحملة، لا من أجل النزول في المرسى فحسب، وانما أيضاً من أجل بلوغ هدفها في (وهران) وذلك عندما تمكن من شراء ذمة قابض المكوس العام لمدينة وهران (اليهودي

---

(١) المغطسين: (MOGATEZES) وهي مقابلة للكلمة التي اطلقها المسلمون في الجزائر على الخونة المتعاونين مع الاستعمار الافرنسي فيما بعد والتي عرفت (بالبيا عين).

اشطورا)[1] من أجل مساعدة قوات الحملة الاسبانية على احتلال مدينة (وهران).

واستعد المجاهدون في وهران للقاء قوات العدو، واصطدموا بهذه القوات في ظاهر المدينة غير ان تفوق الاسبانيين بالقوى ارغمهم على العودة الى المدينة للإفادة من تحصيناتها. وبينما كان المسلمون على الأسوار، كانت القوات الاسبانية تتجمع امام أحد الابواب الذي لم يلبث الخونة ان فتحوه فتدفقت جموع المقاتلين كالسيل الجارف تجتاح كل من يعترضها. وانسحب المجاهدون من الاسوار والابراج للدفاع عن منازلهم، فيما كانت بقية القوة الاسبانية تتدفق من كل أبواب المدينة. ودارت مذبحة رهيبة سقط فيها أكثر من اربعة آلاف مسلم ومسلمة.

وعلى الرغم من ذلك استمرت فلول المجاهدين في مقاومتها لمدة خمسة ايام (حول المسجد الاعظم في حي الفقيه). ولم تتوقف المقاومة حتى قضي على المجاهدين، وانطلقت القوات الاسبانية تقتل وتأسر وتستبيح وتنتهب وتنتهك المحرمات ـ على مشهد من الكاردينال خمينيس ـ وبمباركته. وزاد عدد الأسرى الذين استعبدهم الاسبان عن

---

(١) كان هذا اليهودي ـ اشطورا ـ من مهاجري الاندلس، ومن الذين انفذتهم عدالة الاسلام ـ والمسلمون في وهران بالذات ـ من المحارق الاسبانية. واستخدمه حاكم وهران قابضاً عاماً للمكوس في وهران. فخان المسلمين لقاء ما قدمه له حاكم (المرسى الكبير) من الاموال الضخمة والتي ساعدته على شراء ضمير القائد الخائن عيسى العريبي والقائد الخائن ابن قانص، اللذين ساعداه على فتح ابواب وهران امام جحافل الغزاة الاسبان، والذين كافؤوه بعد ذلك بتعيينه لجباية الخراجات البرية والبحرية وتوارثها عنه بنوه (من سنة ٩١٥ ـ الى سنة ٩٨٠) حتى ثار عليه النصارى لجوره وظلمه وفسوقه فطردوه من البلاد. (حرب الثلاثمائة سنة ص ١١١ و ١١٦).

ثمانية آلاف، ونهب رجال الحملة ما قدرت قيمته بـ (٤٨) مليون دينار جزائري اقتسمها الجنود. وكان نصيب الكاردينال الموفر من الغنيمة وفيراً، وقد اتجه على الفور لاداء واجبه المقدس، وذلك بتحويل مساجد وهران الى كنائس، وجعل المسجد الأعظم كاتدرائية (وكتب لمدينة وهران بعد ذلك، ان تبقى تحت ربقة الاستعمار الاسباني حتى سنة ١٧٩٢).

وقد نتج عن انتصار الاسبانيين في وهران مجموعة من التحولات أبرزها:

١ ـ خضوع بني زيان للاسبانيين، واعتراف (أبو حمو الثالث) بتبعيته وخضوعه للحكم الاسباني وتقديم جزية سنوية مقدارها اثنا عشر الف دوقة ذهبية (ما يعادل ٢٨٨ الف دينار جزائري).

٢ ـ خضوع رجال قبائل (بني عامر) وغيرهم من الأعراب الواقعين ضمن دائرة وهران الاسبانية للحكم الاسباني، واصبحوا له أعواناً وجنوداً وعيوناً.

ج ـ احتلال بجاية:

تقع بجاية على مجرى وادي الصومام الذي يخترق الجبائل القبائلية عند مدينة (أقبو) ونظراً لأهمية موقعها، وللمكانة الدينية التي كانت تحتلها فقد كانت الهدف التالي للكاردينال (خمينيس) الذي أمضى وقتاً بالاستعداد لنقل ثقل الهجوم من اتجاه المغرب الى اتجاه المشرق.

وبدأت عملية احتلال بجاية بمناورة خداعية، إذ ركب الجيش الاسباني السفن وغادر المرسى الكبير يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)

١٥٠٩. حتى اذا ما وصل الى جزر (الباليئار) وصلته قوة دعم اضافية. ثم اقلع الاسطول الاسباني من جزر الباليئار بقوة (٢٠) سفينة كبيرة تحمل (١٠) آلاف مقاتل، مدعمة بالمدفعية الضخمة وآلات الحصار. ووصلت قوات هذه الحملة الى مدينة بجاية يوم ٥ كانون الثاني (يناير) ١٥١٠. وبدأت المعركة على الفور بتبادل نيران المدفعية بين حامية بجاية والاسطول الاسباني. وتسلق المجاهدون مرتفعات جبال (التورايا). بهدف منع الاسبانيين من النزول الى البر. غير ان مدفعية السفن البحرية المتفوقة ساعدت على انزال القوات. واسرع أهل بجاية باخلاء المدينة من النساء والاطفال، وتم ارسالهم الى (جيجل) فيما احتلت بقية القوات مواقعها في المدينة للدفاع عنها.

قسم قائد الحملة (بدرو نافرو) قواته الى فرقتين: واجب الفرقة الاولى مجابهة قوة المجاهدين في جبال (التورايا)، وواجب الفرقة الثانية الانقضاض على (بجاية) واقتحامها. ودارت معارك دامية أسفرت عن انتصار الاسبانيين وإبادتهم لأكثر من أربعة آلاف مسلم. وتدميرهم للمدينة دماراً تاماً تقريباً، والقضاء على كل المعالم العمرانية والدينية والأثرية في المدينة.

وأدى الانتصار المباشر للاسبانيين على حامية بجاية الى تحقيق مجموعة من الانتصارات غير المباشرة والتي حصلت فيها اسبانيا على (غنائم) تزيد في حجمها وأهميتها على نتائج الانتصار المباشر، لا سيما وان هذه الانتصارات غير المباشرة قد حدثت بدون صدام، وبدون اهراق قطرة دم واحدة، وكان من بين هذه الانتصارات ـ غير المباشرة ـ

١ ـ خضوع السلطان الحفصي بتونس (ابو عبد الله عم المتوكل) للسلطات الاسبانية، وقبوله بدفع الجزية.

٢ ـ خضوع الجزائر التي اصبحت مطوقة من الشرق ومن الغرب (بجاية ووهران)، وتعهد حاكمها (الشيخ سالم بن التومي) بدفع الجزية، وموافقة اهلها على تسليم جزيرة (اسطفلة) المقابلة للجزائر من اجل اقامة قاعدة بحرية اسبانية.

د ـ اعداء الداخل للمرة الثانية:

افاد (الملك عبد الله) ملك بجاية الشرعي المخلوع، والذي أصاب السجن بصره، من الفوضى والاضطراب اللذان رافقا اجتياح القوات الاسبانية لمدينة (بجاية) فهرب من سجنه بمساعدة بعض أنصاره الذين رافقوه الى حيث تجمعت فئة من مؤيديه. ولم يلبث ان توجه بوفد من الأعراب لمقابلة القائد الاسباني (بيدرو النافاري). وقد عمل هذا على تقديم المساعدة الطبية (شق الاهداب) فعاد الملك عبد الله وقد اصبح قادراً على الرؤية. واعلن الولاء لاسبانيا والخضوع لها والعمل تحت رايتها. وقرر (بيدرو) الافادة من هذا الملك، فجهز له حملة انضم اليها بعض انصار (الملك عبد الله). وسار بهم (بيدرو) يوم ١٣ نيسان (ابريل) مغادراً بجاية الى حيث مقر (عبد الرحمن) ودارت معركة رهيبة قتل فيها عدد كبير من أنصار عبد الرحمن بمن فيهم زوجته وابنته، وغنم (بيدرو) غنائم كبيرة. وتمكن (عبد الرحمن) النجاة من المعركة ومعه عدد قليل من أنصاره. وكان (بيدرو) قد كتب الى الملك (فرديناند) يستشيره في تعيين (الملك عبد الله) ملكاً على بجاية. غير ان نجاة (عبد الرحمن) واستمراره في المقاومة حمل (بيدرو) على تعديل مخططه للافادة من (الملكين معاً) فتم الاتفاق بين (فرناندو) و (عبد الرحمن) ملك جبال البربر و(عبد الله) ملك بجاية على تقسيم مناطق النفوذ، وممارسة الحكم تحت الاشراف الاسباني. مع تقديم كل ما

تطلبه الادارة الاسبانية من المساعدات[1].

وأصبح الملك الاسباني (فرديناندو) بعد هذا النصر، اكثر ثقة بالقدرة على تنفيذ مخططاته، فانطلق يعلن بوضوح عن أهدافه بضرورة تطوير الحرب الصليبية. ويؤكد عزمه على مطاردة الكفار (المسلمين) الى أن ينتزع من بين أيديهم بيت المقدس. ثم اعلن بحماسة أنه سيتولى بنفسه قيادة جيش لفتح أفريقيا. وأن يضع يده في يد فرسان جزيرة رودس من اجل الاستيلاء على مصر.

غير أن الأمور لم تتوافق في مسيرتها مع ما طمع به (فرناندو). فقد انطلق الشعب في المغرب الاسلامي الى تنظيم المقاومة. واستخدم الاسبان أبشع أنواع الابادة. غير ان هذه الوحشية لم تقابل من المجاهدين في سبيل الله الا بالمزيد من التصميم والعناد. وعلى سبيل المثال، فقد رفض (سكان زواوة) من رجال القبائل الأشداء الخضوع لسلطة الملك عبد الرحمن. وتنادوا بوجوب الجهاد ضد المحتل الغاصب، واعترفوا بإمارة الامير أبي بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين. واخذوا يوحدون صفوفهم. والتف حولهم المجاهدون من أهل التل ومن سكان الهضاب العليا. واتخذ الامير أبو بكر مقراً لقيادته بلدة زيانية. واخذ ينظم الاغارات باستمرار لازعاج الاسبانيين الذين عملوا بالمقابل على توسيع (بقعة الزيت) باستيلائهم على (عنابة) سنة ١٥١٠. غير ان عملية التوسع اصطدمت بمقاومة طرابلس الضارية (والتي كانت تحت حكم الحفصيين). ولم تتم عملية احتلال (طرابلس) الا بعد جهد كبير، والقضاء على المجاهدين.

---

(١) انظر الملحق رقم ١ ـ في نهاية الكتاب والمتعلق بنص المعاهدة.

وعندما حاول (بدرو نفارو) الاستيلاء على (جزيرة جربة) حدثت معارك ضارية اعجزت القوات الاسبانية، وتكررت هذه الظاهرة عند (قرقنة)، وبذلك وصَل المد الاسبانـي نهايته.

ووجد أهل (مستغانم وتمزغران) انه لم يعد باستطاعتهم البقاء في حالة عزلة بعد ان سيطرت القوات الاسبانية على الساحل بكامله، فقام قائد ومرابطي وشيوخ مستغانم وتمزغران- مازغران- بعقد معاهدة صلح مع (فرنانديز دي قرطبة).

وفي خلال هذه الفترة حدث تطور في أقصى المغرب، فقد استطاع الاشراف السعديون إعادة تنظيم أمورهم (في سنة ٩١٦ هـ = ١٥٠٩ م) وتولى قيادتهم الشريف أبـي عبد الله القائم وولديه أبـي العباس أحمد الاعرج ومحمد المهدي. وأمكن لهم بذلك تحويل الموقف في اقصى المغرب الاسلامي، مما ترك اثره على مسيرة الاحداث التالية لذلك.

٥ ـ الجهاد في البحر والقرصنة

عرف (ذوي اللحى الشقراء) بأنهم قراصنة. ويتطلب ذلك في الواقع التوقف قليلاً عند كلمة (القرصنة والقراصنة). فمن المعروف أن الصراع في البحر والإغارة على المدن الساحلية هو أمر قديم جداً، قدم ظهور البحرية ذاتها. فكانت الدول البحرية تمارس عملها بهدف النهب والسلب بالدرجة الأولى. نظراً لعدم الحاجة الكبرى للقدرة البشرية. ويبقى البحر الابيض المتوسط هو المسرح الأول للصراع بين الحضارات المختلفة بداية من المكدونيين والفينيقيين ونهاية بالرومانيين.

وعندما اقتحم العرب المسلمون هذا المجال، لم تكن بهم حاجة لممارسة القرصنة، إذ انهم استطاعوا فرض سيطرتهم على البحر، لا ينازعهم فيه منازع. وكانت الهجمات البحرية على سواحل القسم الشمالي من البحر الابيض المتوسط تهدف الى تأمين الفتوحات الاسلامية، فكانت ملتحمة بمفهوم الجهاد في سبيل الله.

غير ان شعوبا اخرى اضطلعت باعمال القرصنة، وأبرزها شعب النورمان ـ الفايكنج ـ[1] الذي أغارت قوة منه في عهد الامير

---

(١) الفايكنج: (VIKINGS) شعب اسكنديناڤي مارس اعمال القرصنة والسلب.

الاموي عبد الرحمن بن الحكم على الاندلس بما وصفته المصادر الاندلسية كالتالي: «وفي أيامه ظهر المجوس الارومانيين - النورمان- ودخلوا اشبيليا. فأرسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد من قرطبة، فنزل المجوس من مراكبهم، وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب. ثم جاءت العساكر مدداً من قرطبة، فقاتلهم المجوس. فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها. ورحل المجوس الى شذونة، فأقاموا عليها يومين، وغنموا بعض الشيء. ووصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيلية، فأقلع المجوس الى لبلة، وأغاروا وسبوا، ثم الى باجة ثم الى أشبونة، ثم انقطع خبرهم حين اقلعوا من اشبونة وسكنت البلاد وذلك سنة **٢٣٠** هـ = **٨٤٤** م[١].

تكررت العملية ذاتها في عهد الحكم المستنصر: «حيث ظهرت في سنة **٢٥٤** هـ = ٨٦٨ م مراكب المجوس في البحر الكبير - المحيط الاطلسي - وأفسدوا بسائط اشبونة، وناشبهم الناس القتال، فرجعوا الى مراكبهم. وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الاسطول. ثم وردت الاخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل».

وتطور مفهوم القرصنة عبر العصور الى نوعين متمايزين، أولهما القرصنة القائمة على السلب والنهب[٢] والقرصنة التي تعتبر نوعاً من

= طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وروع المدن الاوروبية كلها. واغار مرات على المدن الاندلسية الاسلامية.

(١) فتح الطيب- المقري التلمساني- دار صادر بيروت ١/٣٤٥- ٣٤٦.

(٢) ويطلق الافرنسيون على هؤلاء اسم PIRATERIE .

الحروب البحرية- الدفاعية- وهدفها ضرب اقتصاديات العدو[١] وقد شهدت الحروب الصليبية في المشرق النوعين معاً. وكثيراً ما دعمت الدول (وبصورة خاصة انكلترا) النوعين معاً، حيث مضى البحارة الانكليز- في عهد (الملكة اليزابيت)[٢] لممارسة كافة أنواع القرصنة. ويذكر ان السبب في ذلك يعود الى ركود التجارة الانكليزية، واصابة الاسطول بحالة من العطالة، بالاضافة الى وجود آلاف البحارة بدون عمل. في حين كانت السفن الاسبانية تسير مثقلة بالثروات والكنوز وهي تمخر عباب البحر.

وسرعان ما راجت اعمال القراصنة الانكليز لا في البحر وحده، وانما بالهجوم على المدن الساحلية الاسبانية- وبصورة خاصة على سواحل امريكا الاسبانية، واشتهر بصورة خاصة القرصان (فرنسيس دريك) الذي قام بجولة حول العالم. وعندما عاد الى انكلترا محملاً بالغنائم، طالب السفير الاسباني بمعاقبته، وكان رد الملكة اليزابيت أن قامت بزيارة دريك على سطح سفينته (الكلب الذهبي) ومنحته لقب فارس.

وارتبطت بعد ذلك اعمال القرصنة بتجارة الرقيق نتيجة تعاظم الحاجة للقدرة البشرية (بسبب اكتشاف امريكا). وهيمنت اسبانيا على القرصنة وتجارة الرقيق فلم تسمح لانكلترا بارسال اكثر من سفينة واحدة في العام الى امريكا، وعندما اندلعت حرب الوراثة الاسبانية

---

(١) ويتميز هؤلاء بما يطلق عليهم اسم COURSE

(٢) الملكة اليزابيت: (ELISABETH I) ملكة انكلترا ومن مواليد غرينويتش. (١٥٣٣- ١٦٠٣ م) وهي ابنة هنري الثامن. اشتهرت بحزمها ودعمها للبروتستانتية. وبدعمها للأدباء والفنانين والتجارة والاستعمار. لم تتزوج، وبها انتهى فرع تيودور TUDORS

(١٧١٢ـ ١٧١٤) انصرف هم انكلترا الى السيطرة على ما وراء البحار، وجردت فرنسا من ممتلكاتها، ودمرت ونهبت الاسطول الاسبانـي في مرات متتالية. وعندما انتهى الصراع بمعاهدة (اوتريخت ـ و ـ راستات) تضمنت المعاهدة فقرة خاصة (بمنح انكلترا امتيازاً لمدة ثلاثين سنة باحتكار تجارة الرقيق بين اسبانيا وامريكا).

قد يكون من التجني على الملكة الانكليزية (اليزابيت) اتهامها بأنها أول من شجع تجارة الرقيق ذلك أن هذه التجارة قديمة قدم التاريخ. غير أن مجالها كان محصوراً في أفق الحروب، فللمنتصر المجد وأكاليل الغار وللمهزوم الذل والعبودية والرق. ومن هنا نشأت اسواق النخاسة.

وجاء الاسلام فلم يحرم الرق، وانما أفسح المجال لإعتاق الارقاء، ومنحهم حرياتهم ومساواتهم بالمعاملة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من سن القدوة فأعتق عبيده. وكان المسلمون في فتوحاتهم يتجنبون الحصول على الأرقاء، ويفادونهم، غير أن الحروب الصليبية، وما لقيه المسلمون فيها على كل الجبهات، دفعتهم الى المعاملة بالمثل؛ (فكان عدد الأسرى الأرقاء من الفرنج في القاهرة ـ أيام الملك العادل ـ يزيد على عدد جيش الافرنج في الشام).

وعندما انتهت الحروب الصليبية في المشرق، شهدت تجارة الرقيق نوعاً من الجمود حتى بعثها من جديد ملوك الغرب الذين شجعوا استرقاق المسلمين، كوسيلة من جملة وسائل الحرب الصليبية الشاملة. ويذكر هنا ما أقدم عليه الملك (شارل الخامس) أو (شارلكان) الذي اقام جماعة اوروبية في جزيرة مالطا جلهم من الافرنسيين المتعصبين للديانة المسيحية (وهم فرسان سان جاك الذين

عرفوا فيما بعد باسم فرسان مالطا. وكانوا من قبل في جزيرة رودس قبل أن يحتلها الاتراك سنة ١٥٢٢)؛ وكلفهم بمطاردة المسلمين أينما وجدوا في البر والبحر وبيعهم الى الاوروبيين.

وفي الوقت ذاته، انطلقت البرتغال في تشجيع تجارة الرقيق. وبدأت منذ سنة ١٥١٣ م بشراء العبيد واقتناص الزنوج من افريقية المسلمة ونقلهم الى المستعمرات الاوروبية في العالم الجديد، والى المستعمرات الاسبانية. وتقدم عدد من تجار الرقيق الى الكاهن (خمينيس) للحصول على رخصة تحلل تجارة الرقيق، بحجة تعمير جزر الأنتيل التي اباد الاستعمار الاسباني سكانها الأصليين. غير ان الكنيسة عارضت اقتناص الاحرار ثم بيعهم عبيداً. ولكن تأثير الكنيسة بقي معدوماً فيما يتعارض مع أمور الدنيا، فمضى المغامرون الأوروبيون في استثمار هذه التجارة الرابحة.

وفي سنة ١٥١٧، منح ملك الغرب (شارلكان) رخصة احتكار تجارة الرقيق الى (بريزا) الذي نقل خلال فترة وجيزة اكثر من (٤) آلاف عبد افريقي الى العالم الجديد. ودرت هذه التجارة ربحاً خيالياً سمع به عدد من التجار الاوروبيين الذين طلبوا من حكوماتهم رخصاً مماثلة لمباشرة هذه الحرفة. وأذنت فرنسا في عهد لويس الثالث عشر (١٦٠١- ١٦٤٣ م) بممارسة هذه التجارة. وتبعتها بقية الدول الاوروبية، فنشطت بذلك تجارة الرقيق التي أصبحت شرعية وشائعة لدى الدول الاوروبية، وهي منظمة بمراسيم حكومية وقوانين معروفة.

ونظراً لما كانت القرصنة تدره من أرباح، فقد حول التجار الاوروبيون كل من وقع في قبضتهم من سكان افريقية الزنجية أو

افريقية البيضاء الى عبيد. وأدت هذه الحرفة الى نقل ما يقرب من ثلاثين مليون افريقي الى العالم الجديد، وتسخيرهم في الأعمال الشاقة. إذ على اكتاف الأفارقة قام التطور الاقتصادي لأمريكا الشمالية، وعمرت أمريكا الوسطى والجنوبية. وبالأسارى المسلمين، كانت تشق بعض السفن المسيحية عباب البحر. ويعترف الأب دان في مفاوضاته مع الباشا بأن عدداً كبيراً من الأسارى الجزائريين مسجونين في فرنسا منهم (٦٨) تركياً في مرسيليا وحدها.

ولم يكن المسلمون في المغرب الاسلامي بمعزل عما كانت تدره النخاسة على تجارة الاوروبيين. لذلك وجهوا اقتصاد مدينة الجزائر نحو تجارة الرقيق- والعبيد المسيحيين بصورة خاصة- الا ان الجزائر لم تكن لها مستعمرات تصرف فيها هؤلاء العبيد، فاحتفظت بهم رهائن في البلاد حتى تبادلهم بالنقود مع حكوماتهم، أو حتى تبادلهم مع الأسرى الجزائريين الذين هم في قبضة المسيحيين، كما حدث بين الجزائر وفرنسا سنة (١٦٩٢ م) حيث حررت الجزائر ثلاثين عبداً فرنسياً مقابل تحرير فرنسا ثمانية أتراك، وكما حدث بين الجزائر واسبانيا سنة (١٧٧٠ م) وبين دول أوروبيةاخرى.

ثم اخذت تنتشر في اوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر، فكرة تحرير العبيد وتحريم النخاسة، وذلك لأن الزراعة والصناعة في اوروبا ومستعمراتها بلغت في حينها مرحلة من التقدم التي لم تعد هناك معها حاجة للقدرة البشرية. وبالاضافة الى ذلك فقد نشبت مخاوف من أن يؤدي تكاثر العبيد الافارقة في العالم الجديد الى تغلب العرق الأفريقي على العرق الأوروبي، مما قد يؤدي بالتالي الى استيلاء الافارقة على العالم الجديد وطرد الاوروبيين منه وضياع المستعمرات؛ وهي المناطق

الغنية التي وجدت فيها الدول الاوروبية مناخاً ملائمًا لتفريغ شحناتها من (التفجر السكانـي). وجمع الأموال الطائلة لبناء اقتصادها.

وهكذا، ومنذ سنة (١٧٨٠ م) بدأ الصراع بين أنصار مبدأ جواز استغلال الانسـان للانسـان، وعلى رأسهم تجـار الرقيق والاقطاعيين، وبين أصحاب فكرة حرية الانسان، ومن هذا الصراع تغذت الثورة الافرنسية التي رفعت شعار (حقوق الانسان)، ثم اصدرت بريطانيا في سنة ١٧٨٤ (قانون حماية العبيد)[١] الذي حددت فيه مستقبل العبيد في العالم. فاشتد بذلك تخوف الشركات البريطانية ومن اهمها شركة (ليفربول) وشركة (بريستول) اللتان كانتا تجنيان أرباحاً خيالية من النخاسة، إذ كان دخلهما السنوي لا يقل عن مليون وأربعمائة ألف جنيه استرليني. وكان دخل الخزينة البريطانية السنوي من الرسوم على النخاسة يقرب من (٢٥٦) ألف جنيه استرليني. وهكذا اخذت مصلحة الشركات والخزينة تتصارع مع فكرة تحريم تجارة الرقيق. وفي النهاية وافق مجلسي العموم واللوردات (في سنة ١٧٩٤) على مشروع يتضمن تحريم بيع العبيد من طرف البريطانيين واتباعهم للأجانب. ثم استمرت المحاولات للوصول الى تحريم عام، الى ان جاءت سنة ١٨٠٨ حيث قرر البرلمان البريطانـي في أول كانون الثانـي (يناير) من السنة المذكورة، بداية التحريم النهائي والشامل للنخاسة. وشرعت قوانين العقوبات لمن يتعاطى هذه الحرفة ابتداء من سنة ١٨١١. كما طلب البرلمان الانكليزي من ملك بريطانيا أن يشرع في اجراء اتصالات ومفاوضات بين بريطانيا

---

(١) قانون حماية العبيد:

LA LOI DE LA CONSOLIDATION DES ESCLAVES.

والدول العظمى لتعميم تحريم بيع الرقيق.

وفي شهر أيار ـ مايو ـ من سنة ١٨١٤ بدأت هذه الاتصالات والمشاورات لتحريم تجارة الرقيق واحترام حقوق الانسان المقدسة وقمع القرصنة وفرض عقوبات على الدول التي تتعاطاها. وفي ١٦ كانون الثانـي ـ يناير ـ من سنة ١٨١٥، عقدت ثمانية دول عظمى هي بريطانيا وفرنسا والبرتغال واسبانيا والنمسا والسويد وبروسيا والدانمرك مؤتمراً بباريس للنظر في هذه المشكلة. وانبثقت عن المؤتمر لجنة خاصة للعمل على ايقاف ـ النخاسة ـ إما عاجلاً أو آجلاً. وفرض عقوبات اقتصادية على الدول التي لا تحترم حقوق الانسان. وبذلك بادرت كل من هولندا واسبانيا والبرتغال الى تحريم تجارة العبيد سنة ١٨١٥ م. ثم حرمت فرنسا النخاسة سنة ١٨١٩ م. اما الدانمرك فكانت سباقة الى ذلك حيث قررت منذ سنة ١٧٩٤ م تحريم تجارة العبيد. وأمهلت سكانها من المزارعين في المستعمرات عشر سنوات لتهيئة أنفسهم الى تطبيق القانون الذي بدأ العمل به في اول كانون الثانـي- يناير ـ سنة ١٨٠٤. ثم تلتها السويد سنة ١٨١٣ م.

وبعد مؤتمر تحريم النخاسة بعثت اوروبا قائداً من فرنسا وآخر من بريطانيا لاطلاع داي الجزائر على رغبة اوروبا في أن تتوقف الجزائر عن حرفة القرصنة، وأن توافق على قوانين تحرير العبيد وتحريم النخاسة. واستقبل داي الجزائر- وديوانه- هذين المبعوثين بسخرية، لأن القرصنة كانت المورد الرئيسي للاقتصاد الجزائري، ولأن الجزائر لم تدع الى المشاركة في تلك المؤتمرات. وكانت مصالحها تتناقض تماماً والمصالح الاوروبية، لذلك رفضت المعاهدة الاوروبية، وظلت

تمارس اعمال القرصنة الى ان احتلت فرنسا الجزائر[1].

يظهر من خلال ذلك. وكما كتب مؤرخ أجنبي: «بأن القرصنة لم تكن في غرب البحر المتوسط بالشيء الجديد، فمنذ قرون عديدة، كان المسلمون، وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر، ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ. فإن القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيراً جداً خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بهذا البحر المتوسط، ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك ـ بسبب نقل أفق عملها الى المحيط الاطلسي بعد اكتشاف امريكا ـ لكن القرصنة الاسلامية ازدادت ضراوة في الشمال الافريقي بعد إبعاد مسلمي اسبانيا واضطرارهم الالتجاء الى هذا الشمال[2]».

الأمر الجدير بالملاحظة هو ذلك الإجماع ـ لدى المسلمين واعدائهم ـ على ان القرصنة كانت بالنسبة للمسلمين نوعاً من الجهاد في سبيل الله، مسرحه البحر. وقد شهد هذا الجهاد تطوراً مع نهاية القرن الخامس عشر. ذلك أنه لما سقطت القسطنطينية في قبضة الاتراك العثمانيين (سنة ١٤٥٣) واشتد ساعد البحرية التركية في البحر الابيض المتوسط، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر، وكان سقوط غرناطة آخر القواعد الاندلسية في يد الاسبان (في سنة ١٤٩٢ م). مع ما تبع ذلك من اضطهاد الاسبان لبقايا الأمة الأندلسية المغلوبة ايذاناً بتطور المغامرات البحرية، ونزول الاندلسيين والمغاربة

---

(١) مدينة الجزائر ـ نشأتها وتطورها ـ علي عبد القادر حليمي. الطبعة الاولى ـ ١٩٧٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٤.

(٢) الاستاذ. ف. ابروديل ـ المجلة الافريقية ١٩٢٨ وعنها اخذ الاستاذ احمد توفيق المدني ـ حرب الثلاثمائة سنة. ص ٧٥.

(الموريسكيين) المنفيين الى ميدانها، واتخاذها صورة الجهاد والانتقام القومي والديني لما نزل بالأمة الاندلسية الشهيدة من ضروب العسف والارهاق.

وبدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية منذ اوائل القرن السادس عشر عقب استيلاء الاسبان على غرناطة، واكراههم المسلمين على التنصُّر؛ ففي ذلك الحين غادر الاندلس آلاف من المسلمين المجاهدين الذين آنفوا الذلة والاضطهاد. وعبروا البحر الى عدوة المغرب، واستقروا في بعض القواعد الساحلية، مثل (وهران والجزائر وبجاية) ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم وظلموا أمتهم. وكان البحر يهيىء لهم هذه القرصنة التي لم تهيئها الحرب البرية.

وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة، وثغورها ومراسيها، وخلجانها الكثيرة التي تحميها الصخور العالية اصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقراصنة المغيرين، وكانت مياه الجزائر وبجاية وتونس افضل قواعدهم للرسو والاقلاع. وكانت غاراتهم على الشواطىء الاسبانية ولا سيما في المياه الجنوبية تتجدد بلا انقطاع، وتنجح في معظم الاحيان في تحقيق غاياتها، وكان حكام الثغور المغربية من تونس الى وهران يشجعون هذه الاغارات، ويسمحون للمجاهدين بالرسو والتموين في ثغورهم. ولقد ظهر في هذا الوقت بالذات عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية في هذه المياه: ذلك ان البحارة الاتراك أخذوا يندفعون نحو غرب البحر الأبيض المتوسط، وبرز منهم على الأخص الاخوان الشهيدان (عروج وخير الدين) المعروفان في الرواية الاوروبية (بارباروسا ـ أصحاب اللحى الشقراء).

إن الاسبان الذين قضوا على آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس، سولت لهم أنفسهم انهم باستيلائهم على المغرب الاسلامي سيتمكنون من إعادته الى النصرانية كسابق عهده على ما يزعمون.

في تلك الفترة، انجز الاتراك العثمانيون اعظم انتصاراتهم على مسرح اوروبا ووصلت قواتهم الى مصر. وكان من الصعب عليهم وهم يرفعون راية الاسلام، ويجاهدون لإعلائها، تجاهل تلك الأنات والزفرات التي أطلقها شهداء العدوان بالانـدلس وفي المغرب الاسلامي. ومن هنا فقد جاء الدعم الاسلامي من قبل الاتراك العثمانيين بهدف دعم أبناء المغرب الاسلامي للتصدي لهذه الموجة الصليبية الجديدة. وكان الفضل في ذلك يعود للاخوين عروج وخير الدين. وقد لا يكون هناك ثمة مبالغة اذا قيل بان المسلمين خاضوا ضد الصليبيين حرباً لا هوادة فيها اشتملت هذه الحرب على معركتين حاسمتين:

المعركة الاولى: كانت في المشرق العربـي- الاسلامي- من مصر الى العراق بقيادة صلاح الدين الايوبـي.

المعركة الثانية: وكانت في المغرب العربـي - الاسلامي - من تونس الى أقصى المغرب بقيادة الاخوين عروج وخير الدين (أصحاب اللحى الشقراء)[1].

---

(١) المرجع الرئيسي هنا هو: تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول ص ٧٥- ٧٧- فصل (دور الاساطيل الاسلامية في البحر الأبيض المتوسط).

﴿وَمَا لكُمْ لاَ تُقَاتِلوُنَ في سَبِّيل الله وَالْمسُتضْعَفينَ مِنَ الرجَال وَالنِّسَاءِ وَالْولْدان الَّذينَ يقُولونَ رَبَنا أَخْرجنَا من هَذه القَريْة الظالِم أَهْلها واجْعَلْ لنا من لَدُنْكَ وَلياً واجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْك نَصِيراً﴾

[سورة النساء- الآية ٧٥]

الفَصْلُ الثّاني

خير الدين (بربروسا)

١- سنوات الصراع المرير (٩١٨- ٩٢٤ هـ = ١٥١٢- ١٥١٨ م)

أ - من جيجل الى الجزائر

ب- الصراع في تلمسان واستشهاد عروج

٢- خير الدين- على طريق الجهاد

أ - بناء الجزائر والجهاد في البحر

ب- خير الدين أميراً عاماً للاسطول العثماني

ج - أعداء الداخل في غياب(خير الدين)

د - شارلكان وغزو الجزائر

هـ - الصفحة الاخيرة في حياة (خير الدين)

و - (خير الدين) وموقعه في فن الحرب

١ـ سنوات الصراع المرير

(٩١٨ ـ ٩٢٤ هـ = ١٥١٢ ـ ١٥١٨ م)

لم يكن عروج وأخوه خير الدين، وهما في قاعدتهما في (حلق الوادي) بعيدين عن مسيرة الاحداث وتطوراتها وفي الوقت ذاته كانت أخبار غزوات الأخوين تتردد بقوة في وسط المجاهدين الذين قهرتهم القوة الاستعمارية الغاشمة، وتألب عليهم حكامهم من المتعاونين مع اعداء الدين. وقام المجاهدون في صياصي جبالهم بالاتصال مع الاخوين (ذوي اللحى الشقراء) طالبين اليهما التدخل والتعاون لنصرة الدين. وجاءت نكبة (بجاية) لتزيد من خطورة الموقف. فشكل العلماء والاعيان من أهل بجاية وفداً قابل عروج وناشده انقاذ بجاية من قبضة العدو. وكذلك فعل ملك (قسنطينة) ابو بكر الحفصي، وجمع عروج وخير الدين رجالهما، وتشاوروا في الأمر، وقرروا المبادرة بتلبية النداء، واتفقا مع جماعات المجاهدين القريبين من بجاية وفي بلاد القبائل انهما قادمان تواً، وتم الاتفاق على موعد للالتقاء عند أسوار (بجاية).

واخذت وفود المجاهدين في الوصول الى قرب المدينة، ونزلت جماعات من القبائل المستوطنة في جبال زواوة، فتجمع حوالي ثلاثة

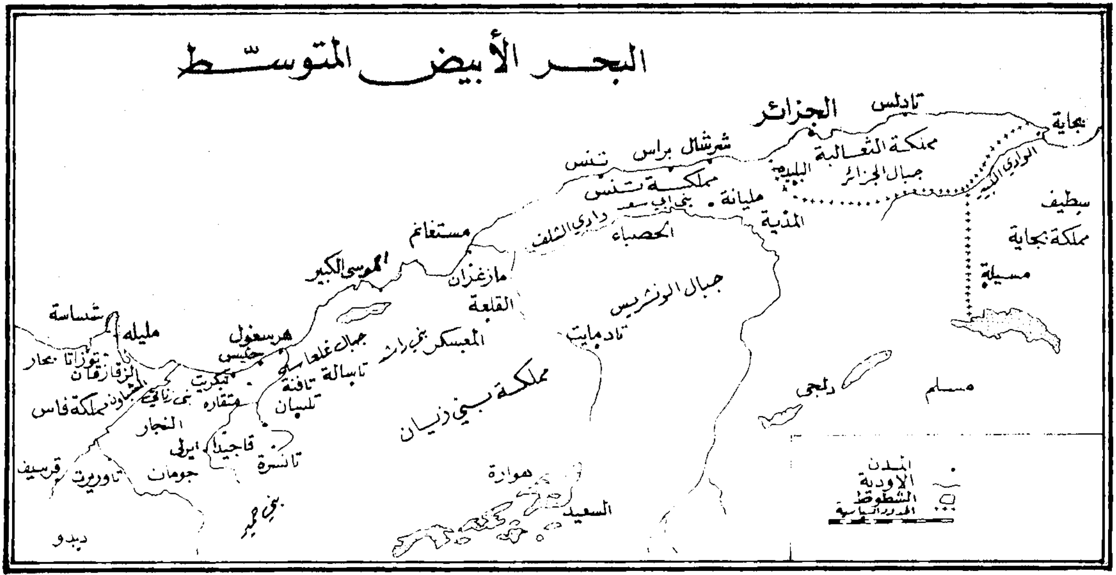

أهم المدن ببلاد الجزائر في مطلع القرن ١٦ (حسب ماجاء من ليون الإفريقي)

آلاف مجاهد تولى قيادتهم (المجاهد الموفق). وفي الوقت ذاته غادر عروج وأخوه قاعدتهما في (حلق الوادي) ومعهما خمس سفن حربية تحمل السلاح والرجال والمدافع، فتم الوصول في الوقت المحدد. غير أن اسطولاً اسبانياً (عمارة بحرية) مكوناً من (١٥) سفينة كان قد وصل الى بجاية حاملاً معه الدعم لحاميتها.

وظهر انه من المحال على القوة الاسلامية الصغيرة مجابهة الاسطول المتفوق. فقام الاخوان (عروج وخير الدين) بتنفيذ مناورة خداعية، متظاهرين بالابتعاد بقوتهما عن بجاية، وانطلق الاسطول الاسباني للمطاردة، وعندما وجد (الاخوان) ان بعض قطع الاسطول قد اصبحت ضمن مجال مدفعيتهما، قاما بانقضاض مباغت، وجرت معركة قاسية نجح فيها عروج بالاستيلاء على سفينة اسبانية وأغرق اخرى فيما لاذت بقية قطع الاسطول بالفرار. وكان من رأي خير الدين محاصرة (بجاية) بحراً وترك المجاهدين لمحاصرتها براً حتى يضعف أمرها وتحين فرصة مناسبة للانقضاض. غير أن (عروج) صمم على النزول بقسم من قواته للقيام بهجوم فوري. وتم تنفيذ ذلك. فقاد (عروج) قوة من خمسين مجاهداً. ونزل بهم الى البر، وتقدم مستطلعاً أسوار المدينة وحصونها. فيما كان أفراد الحامية يتابعون من وراء الأسوار تحركهم من فوق الشرفات، وعند اقتراب (عروج) ووصوله الى مدى الاسلحة الفردية (البنادق) انهالت عليه وعلى قوته النيران، وأصابت رصاصة ذراعه فكسرتها. وظهر انه من المحال متابعة الهجوم، فاضطر (عروج) للرجوع الى تونس فوراً لمعالجة ذراعه، ولم يجد الاطباء يومئذٍ لها من علاج الا بترها. لكن عروج لم يواصل طريقه الى تونس مسالماً، او مستسلمًا للألم من كسر ذراعه، وإنما استمر في أداء واجبه، اذ انه اصطدم وهو في طريقه الساحلي

بسفينة معادية تابعة لمدينة جنوه الايطالية، فهاجمها وأسرها وغنم ما فيها، ثم رجع بها الى تونس وضمها الى قوة اسيطيله.

ولم تكن هذه المعركة ـ او هذا الاشتباك الأولي ـ معدوم القيمة أو الفائدة، فقد ظهر لرجال القبائل الجبليين شدة مراس هؤلاء المقاتلين البحارة من المسلمين، وما يتميزون به من الشجاعة والإقدام. فكان الاشتباك هو اختبار للثقة، وبداية للتعارف وتنسيق التعاون بين القوى المختلفة، وجاء فقد ذراع (عروج) عربوناً لهذه الثقة.

وفي الوقت ذاته، كانت هذه العملية انذاراً للاسبانيين، الذين عرفوا ان تلاحم القوى في البر والبحر سيؤدي الى تعاظم قوة المسلمين، فعملوا فوراً على طلب المزيد من الدعم من اسبانيا، وغيروا بالمقابل سياستهم للفصل بين القوى البحرية (عروج واخيه خير الدين) والقوى البرية (الوطنية والقومية في المغرب الاسلامي) وذلك باستمالة هذه الاخيرة وإغداق الأموال عليها وبذلك أمكن لهم العثور على من يتعاقد معهم لتأمين الإمداد والتموين للحامية الاسبانية.

وقد أفاد (عروج) من تجربته الاستطلاعية لمدينة (بجاية)، فعرف انه من المحال محاصرتها وخوض حرب طويلة ضدها وهو في قاعدته البعيدة في (تونس). فقرر فتح (جيجل) التي تبعد مسافة (١٢٠) كيلومتراً غربي بجاية، وتحريرها من قبضة الاعداء، واتخاذها قاعدة للعمليات المقبلة يتم فيها تجميع الوسائط وحشد القوى. وكانت مدينة جيجل خاضعة لحامية ايطالية (من جنوه) منذ سنة (١٢٦٠ م) وعندما قام (عروج) بهجومه الفاشل على (بجاية) اسرعت حامية (جيجل) فطلبت الدعم الذي تولى امره المغامر

(أندريا- دوريا) والذي كان يعمل في حينها في خدمة فرنسا، فأسرع بقيادة اسطوله، ودخل (جيجل) واشتبك مع أهلها المسلمين في معركة وحشية، وأخرجهم منها. ودعم حاميتها الجنوية لتمارس دورها التجاري الذي كان لها من قبل. وعاد أهل (جيجل) المشردون فاستنجدوا (بعروج) واعلنوا له استعدادهم لدعمه بكل ما يستطيعونه، وتم الاتفاق على موعد الهجوم، ومضى المجاهدون في استعداداتهم. وقاد (عروج) قوته البحرية ومعه اخوته، حتى اذا ما وصل (جيجل) بدأ هجومه على الفور، وتم انزال القوات البحرية، وتأمين الاتصال مع مجموعات المجاهدين، من اهالي جيجل بصورة خاصة- وبعد معركة عنيفة وقاسية استطاع المسلمون اقتحام المدينة وابادة حاميتها إبادة تامة. ورجع أهل البلدة الى ديارهم، وشاركوا بقية المجاهدين في قسمة الغنائم الوفيرة التي كانت في المركز التجاري وذلك في سنة (١٥١٤ م).

وتمكن عروج من تحقيق هدف مزدوج، فقد استطاع طرد أعداء الدين من بلدة اسلامية، وهي اول بلدة ينقذها على ساحل البلاد - التي اصبحت فيما بعد تدعى البلاد الجزائرية -. وحصل أيضاً على قاعدة صلبة ومأمونة - برية بحرية - يمكن له الانطلاق منها لتطوير أعماله القتالية. وهكذا استقر عروج في جيجل تحيط به حماية اهلها الذين بادلوه اخلاصاً باخلاص ووفاء بوفاء. وكان لا يزال في حاجة لفترة من الراحة حتى تشفى جراح ذراعه المبتورة، وقد أفاد من فترة الهدوء هذه، فعمل على تطوير اتصالاته بمختلف الوفود الاسلامية التي اخذت في التوجه من كل المغرب الاوسط لتلقي عليه مسؤولية طرد أعداء الدين من بلاد المسلمين، ولتعاهده على تقديم ما تستطيعه من الدعم والمساعدة. وفي تلك الفترة، ارتفعت الاستغاثات من

الأندلس وهي تطلب الانقاذ، نظراً لما كان يتعرض له أهلها المسلمون من العسف والجور - فتوجه (خير الدين) على رأس قوة البحرية، وما أمكن له جمعه من السفن ملبياً بالاتفاق مع أخيه أصوات الاستغاثة اليائسة حيث المستضعفون من الرجال والنساء والاطفال الذين نكث الاسبان بوعودهم تجاههم، وتنكروا للمواثيق المعقودة معهم، فأصبحوا يرغمونهم على اعتناق المسيحية تحت تهديد الإبادة. وكانت الاستغاثة تتردد بالآية الكريمة: ﴿**رَبنا أَخْرَجنا مِنْ هَذهِ القَريَةِ الظَالِمِ أَهْلُها، واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلياً. واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً**﴾[1].

وأنقذ خير الدين ما أمكن انقاذه، نظراً لما كان يتعرض له من مضايقات الاسطول الاسباني، وانقض على جزائر الباليئار التي أصبحت تحت سيطرة الاسبانيين، واحتل (مينورقة) وأخذ اسرى من أهلها، ثم رجع الى قاعدته في مدينة (جيجل). وفي أثناء فترة غيابه، كان أخوه (عروج) قد وطد مكانته في جهة جيجل والجبال المحيطة بها، حيث التفت حوله قبائل (كتامة) التي رأت فيه مثال الانسان المسلم المؤمن، واحبت صدقه وأخلاقه، فبايعته أميراً عليها، وعاهدته على دعمه والسير من ورائه الى ميادين القتال والجهاد لإنقاذ المدن الاسلامية. وتمكن (عروج) بذلك من تكوين جيش منظم، أحسن تشكيله في مجموعة من الكتائب، ودربه على استخدام الاسلحة الحديثة والرمي بها. كما وعده الشيخ (احمد بن القاضي - شيخ بلاد زواوة الغربية، أوكوكو) بالدعم والتأييد، وانطلق رجال الدين والعلماء وهم يحضون على الجهاد في سبيل الله، ولم تلبث الدعوة للجهاد حتى أصبحت عامة وشاملة.

---

(١) سورة النساء - الجزء الخامس - الآية ٧٥.

وأكمل (عروج) استعداداته، وغادر قاعدته متوجهاً الى (بجاية) في شهر آب (أغسطس) من سنة ١٥١٤ وهو يقود جيشاً من المجاهدين يضم عشرين ألف مجاهد. ووصل (بجاية) فاحكم الحصار حولها. واشتبك مع حاميتها في معارك قاسية. وكان يتابع في الوقت ذاته دراسة التنظيم الدفاعي للمدينة في محاولة لتحديد نقاط الضعف التي تساعد على اختراق التحصينات والأسوار. واستمرت عملية الحصار طوال ثلاثة أشهر وأدرك (عروج) بعدها صعوبة اقتحام المدينة في هذه الجولة، فقرر الانسحاب ورفع الحصار. وعاد الى (جيجل) لقضاء فصل الشتاء فيها وإكمال الاستعدادات.

تحرك (عروج) في ربيع سنة ١٥١٥ لتنفيذ محاولته الثالثة من أجل تحرير بجاية، وقد اعتمد في محاولته هذه على إجراء حصار بري-بحري، فقاد قواته في البر، ووجه اسيطيله بحراً للمشاركة في العملية، حيث اقتحمت السفن مصب نهر الصومام الذي كانت مياهه غزيرة خلال ذلك الفصل من السنة مما ساعد بإحكام الحصار على المدينة.

وركز (عروج) نيران مدفعيته على معقل (الحصن الصغير). واستمر في قصفه بقوة وعنف حتى تم له تدميره، والقضاء على معظم حاميته. وحاولت قوات المجاهدين اقتحام المدينة عبر انقاض القصر الصغير، غير انها اصطدمت بالمواقع المحصنة ومراكز الدفاع القوية التي وقفت خلفها الحامية الاسبانية وهي تدافع بعناد وضراوة، وفشلت المحاولة للهجوم من ناحية البحر. وعندها وجه (عروج) نيران مدفعيته الى القصر الكبير، وأخذ يقصفه بتركيز كبير. وتقدمت قوات المجاهدين نحو القصر الكبير، واستخدمت المتفجرات والألغام

من أجل تدمير الخندق المحيط به وتدمير أسواره.

وأمر (عروج) ببناء برج مرتفع فوق التل الذي يهيمن على (بجاية) حتى يراقب سير المعركة. وعمل على رفع المدافع الى التل من أجل ضرب الاسوار بالرمي المباشر. وقرر مهاجمة المدينة هجوماً عاماً من كل الجهات. ووقعت معارك دموية استشهد فيها عدد كبير من المجاهدين، وقتل عدد من الاسبانيين ايضاً. وقد تركز الهجوم الاسلامي على خمس نقاط حتى لا يترك للاسبانيين فرصة التجمع في مكان واحد. وكانت اعمال القصف والتدمير قد استنزفت كمية البارود التي اعدها (عروج) للمعركة. فأرسل في طلب البارود من (السلطان الحفصي بتونس محمد بن الحسن) غير ان هذا السلطان امتنع عن تقديم ما طلبه (عروج) وتجاهله، فوجد هذا نفسه مضطراً لايقاف الاشتباكات بعد أن نفذت الذخائر. وكانت مياه وادي الصومام قد تناقصت حتى لم يعد باستطاعة السفن الملاحة فيه، كما لم يعد باستطاعة هذه السفن العودة للبحر نظراً لأن الاسبانيين كانوا قد حشدوا اسطولاً قوياً وقف يتربص خروج السفن من النهر الى البحر. فأمر (عروج) بإحراق السفن، بعد أن استخدم قسما منها لعبور القوات. وخسرت قوات عروج ثلاثة أرباع قوتها، كما قتل في المعركة (محمد الياس) الأخ الأكبر لعروج وخير الدين، والذي كان قد نذر نفسه للعلم وحفظ القرآن والتفقه في أمور الدين الى جانب مشاركته في الجهاد. واصطحب عروج اثناء انسحابه ستمائة أسير من المقاتلين الاسبان.

وكان (عروج) قد أرسل للسلطان (سليم) عند استيلائه على (جيجل) هدية رمزية مما حصل عليه من الغنائم، وارفق الهدية برسالة شرحت للسلطان العثماني ما يتعرض له ـ وأخوه خير الدين ـ من

الصعوبات في جهادهما المرير لإنقاذ المسلمين من براثن الصليبية الاسبانية. وما يقدمه أبناء المغرب الاسلامي من الجهد والتضحيات ضد أعداء الدين، وما يحتاجونه من الدعم والمساعدة. فتقبل السلطان (سليم) الهدية، ورد عليها بإرسال (١٤) سفينة محملة بالرجال الأشداء المقاتلين مع كميات جيدة من الاسلحة والذخائر والتجهيزات، ووصل هذا الدعم عند عودة (عروج) الى قاعدته في (جيجل) فساعدت على رفع الروح المعنوية للمجاهدين. وزادتهم تصميمًا على إجراء محاولة جديدة ضد (بجاية). فتم حشد السفن والمدافع الضخمة والمواد التموينية والاسلحة والذخائر التي تكفي لحملة طويلة الأمد. وعندما كان (عروج) في سبيله للتحرك نحو (بجاية) للمرة الرابعة وصل الى (جيجل) وفد من مدينة (جزائر بني مرغنة) وقابل (عروج) وشرح له ما يلقاه المجاهدون بمدينة (بولكين بن زيري) من عنت وارهاق. واكدوا اخلاص شيخها (سالم التومي) واستعداده للتعاون مع (الاتراك العثمانيين).

أ- من جيجل الى الجزائر

طلب (أهل الجزائر) الى (عروج) إنقاذ مدينتهم من الخطر الاسباني الذي كان يتهددهم باستمرار من الحامية الاسبانية التي نزلت بحصن الصخرة - البنيون - وهو الحصن الذي حصل عليه الاسبان في سنة (١٥١٠ م) بالاتفاق مع ممثلي الجزائر. وعكف الأخوان (عروج وخير الدين) على دراسة الموقف فتبين لهم أن باستطاعة الحامية الإسبانية توجيه مدفعيتها من جزيرتها - البنيون - لتدمير الجزائر في كل وقت، ونتيجة لذلك فان باستطاعتهم احتلال الجزائر متى شاؤوا. وان احتلال الاسبان لهذه المدينة التاريخية الهامة،

الى جانب احتلالهم لمدينة (بجاية) وتحويلها الى قاعدة صلبة، سيضمن للاسبان تفوقاً كبيراً، لا سيما وأن قواعدهم في وهران والمرسى الكبير ستتعزز اذا ما أمكن لهم احتلال مدينة الجزائر ذاتها وتحويلها الى قاعدة حصينة. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فان سيطرة القوات التركية العثمانية على الجزائر سيساعد القوات الاسلامية على دعم مقاومة البلاد المجاورة في بجاية ووهران، ويضمن للاسطول الاسلامي حرية العمل من قاعدة اضافية. وهكذا قرر (عروج) الاستجابة لطلب اهل الجزائر (بني مزغنة) وصمم على السير اليها براً بما يتوافر له من القوات وتوجيه الاسطول في الوقت ذاته بقيادة أخيه (خير الدين). وغادر (عروج) قاعدته (جيجل) على رأس قوة تضم ثمانمائة من الاتراك، وثلاثة آلاف من مجاهدي الجبال القبائلية، بينما أبحر (خير الدين) ومعه (١٨) سفينة كبيرة، و (٣) سفن مسلحة، (تحمل (٢٥٠٠) من مجاهدي المشرق الاسلامي). ووصلت القوات الى (الجزائر) فاستقبلها أهل الجزائر استقبال الفاتحين. وسار (عروج) فوراً الى مدينة (شرشال) وطرد الاسبانيين منها، ورجع الى مدينة الجزائر. حيث اجتمع زعماؤ ها وأصحاب الرأي فيها وقرروا ان يسندوا اليه واجب (أمير الجهاد). وكان ذلك من أبرز أحداث الجزائر في سنة (٩٢٢ هـ = ١٥١٦ م).

شعر (الامير سالم التومي - حاكم البلدة السابق) أن الأمر قد أفلت من يده، وأن عشيرته من (بني سالم) لم تعد هي القوة الأساسية، واخذ في البحث عن الوسيلة التي تضمن له ولعشيرته استعادة ما كان لهما من نفوذ، وشعر (عروج) بأن اتصالات (سالم التومي) تثير الشكوك، وقد تؤثر على عملياته في الوقت الذي وضع فيه مدافعه في مواجهة (صخرة البنيون) وأخذ في قصف الحامية الاسبانية فيها.

فأصدر أمره بقتل (سالم التومي)[1]. وعزز مكانته باتخاذ مجموعة من الاجراءات مثل نشر سلطانه بعد أمد وجيز على كامل السهول المحيطة بمدينة الجزائر، ورفع راياته فوق أسوار المدينة والقلاع المحيطة بها، (وكانت ألوان العلم الأخضر والأصفر والأحمر). كما بادر بسك النقود التي تحمل شعاره والتي كتب عليها (ضرب في الجزائر).

أما (يحيى بن سالم التومي) فقد مضى الى وهران بعد مقتل ابيه، يستنجد بالاسبان، ويبين لهم خطر استقرار الاتراك بمدينةالجزائر، ويستعديهم عليهم بكل سرعة حتى يعيدون إليه مشيخة أبيه على مدينة الجزائر. ولم يكن الاسبان في حاجة لمثل هذه الاستثارة، فقد ادركوا للوهلة الأولى ان استقرار عروج بمدينة الجزائر وبيعة اهلها له (اميراً على الجهاد) سيهدد كل مشاريعهم بالانهيار، وسيقضي على المخططات الصليبية في التوسع عبر أقاليم المغرب الاسلامي.

---

(١) تذكر بعض المصادر أن عروج قتل (سالم التومي) بيده لقاء خيانته التي تؤكدها الرسالة التالية والتي وجهها أحد عملاء الاسبانيين من شيوخ العشائر الى (الكاردينال خمينيس) وفيها: «الحمد لله، الى مدبر المملكة القشتالية وكبيرها وخليفة سلطانها الكاردينال: بعد سلامنا عليكم نعرفكم ان ابن سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم، ومحسوب عليكم، وكذا ابن التومي صاحبكم في الجزائر، انذبح عليكم وعلى خدمتكم، وغفلتم عليه وعلى السلطان في تنس وعلى جميع من عاملكم. حاشاكم من هذا، فان كنتم تعملون على همتكم أعزموا للجزائر قبل ما تجيء عمارة (اسيطيل) التركي. فيستولي على هذا البركة، ونحن عرفناك ولو يكون هذا الخبر عندكم. وايضاً ابن سلطان تنس كان عنده خاله الشيخ المنتصر ينفر عليه (أي يدافع عنه) واليوم مات. ما بقالو أحد الا الله وانتم. اذا ما عزمتم اليه، ينفسد ويفسد عليكم الحال كثيراً في هذا البر. والقائد مرتين ادرغوت عارف بكل شيء. وهو يكون عرفك بكل مقصد. وكتب لكم من مدينة مستغانم. يصل الى يد الفاضل الشهير قرض نال (الكاردينال). عن (حرب الثلاثمائة سنة- المدني- ص ١٧٥- ١٧٦).

وبالإضافة الى ذلك، فان تعاظم قوة (عروج وأخيه خير الدين) ستدمر تلك العلاقات التي جهدت اسبانيا في اقامتها مع الفئات المتعاونة معها، وهو أخطر ما كان يتهددها فقررت تنسيق الجهد مع عملائها للقيام بهجوم مباغت على الجزائر، تشترك فيه فيالق عسكرية جديدة بالإضافة الى حامية (حصن الصخرة- البنيون) وقوات سلطان تنس، وقوات الحاقدين على (عروج واخيه) من أمثال (يحيى بن سالم التومي) وانصاره، وبالإضافة أيضاً الى جموع الأعراب من (بني سالم) والذين كانوا ينتشرون حول الجزائر والذين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة- وفقاً لتقدير السلطات الاسبانية- من أجل الانقضاض على المدينة لتدمير النظام الجديد الذي اقامه (الأخوان ذوي اللحى الشقراء) والفوز بشيء من غنائمه وأسلابه.

أعد الكاردينال (خمينيس) حملة جديدة ضد الجزائر، وأشرف على تجهيزها. وعين لقيادتها قائداً من أبرز القادة الأكفاء هو (ديافودي فيرا). وأبحرت هذه الحملة في اواخر شهر ايلول - سبتمبر- (١٥١٦ م) من الموانىء الاندلسية وهي تضم (٣٥) سفينة تحمل قوة من ثمانية آلاف مقاتل مع متطلباتها من المدفعية والذخائر، واختارت لنزولها السهل الذي يقع عليه اليوم (ربض- باب الواد) حيث كان يصب وادي المغاسل في البحر. وكان (عروج) وقادة المجاهدين معه من ابناء الجزائر يتابعون الموقف، فوضعوا مخطط عملياتهم كالتالي:

اولاً: السماح للقوات الاسبانية بالانزال مع عدم تقديم مقاومة كبيرة.

ثانياً: ترك معظم القوى الاسلامية في حصون المدينة ووراء أسوارها، وعدم زجها الا في الوقت المناسب.

ثالثاً: استنزاف القوة الاسبانية بعمليات خاصة - اغارات وكمائن - وذلك عند انتشار هذه القوة حول المدينة، ثم زج كتلة القوات الرئيسية بعد إضعاف القوة الاسبانية وتدمير روحها المعنوية.

ومقابل ذلك وضع قائد القوة الاسبانية مخططه كالتالي:

أولاً: إنزال القوات والاسلحة الى المنطقة الساحلية، وإقامة معسكر لها في المرحلة الاولى.

ثانياً: تسلق المرتفعات المحيطة بالجزائر، فيما يلي الأسوار، واحتلال موقع القصبة، والإشراف منه على المدينة، وقصفها بالمدافع.

ثالثاً: انتظار الجيش الذي سيقوده (سلطان تنس) ومهاجمة المدينة بقوة. في الوقت الذي يكون فيه عملاء الاسبان قد اضطلعوا بتنفيذ المؤامرة لضرب الجيش الاسلامي من الداخل.

أخذ كل من الجانبين في تنفيذ مخططه بدقة وعناية. فدارت المعركة بسرعة مذهلة، ولم تستمر أكثر من أيام قليلة، وتم التنفيذ على النحو التالي:

نزل الجيش الاسباني الى السهل بدقة ونظام محكمين في يوم ٣٠ ايلول - سبتمبر - ١٥١٦. وأخذ في تسلق المرتفعات المؤدية الى حي القصبة خلف المدينة طوال يومي ١ و ٢ من تشرين الأول - اكتوبر. وانطلقت زمر المجاهدين التي تركها (عروج) حول تلك المرتفعات خارج الأسوار، فأخذت في الاشتباك مع الاسبانيين، وتوجيه الضربات اليهم بصورة مباغتة وسريعة من كل الاتجاهات، والانسحاب قبل أن يتخذ هؤلاء اجراءات مضادة، ووقفت القوات الاسبانية أمام مأزق حرج وهي تتحرك بين الأسوار الحصينة من جهة

وبين زمر المجاهدين المنتشرين في كل مكان من جهة اخرى.

وأصيبت القوات الاسبانية بأول خيبة أمل عندما طال انتظارها لوصول (جيش تنس) بدون أن تظهر ولو بادرة واحدة تشير الى احتمال ظهور هذا الجيش وأصيبت القوات الاسبانية بخيبة أمل ثانية عندما لم يقم عملاؤها بحركة تمرد داخل الجزائر تفتح لهم أبواب المدينة فيقتحمونها بحد أدنى من الجهد. وزاد حجم الضربات الموجعة التي كان يوجهها المجاهدون، ولم يبق أمام قائد القوات الاسبانية الا الانسحاب في اتجاه الساحل للتوقف في السهل تحت حماية مدفعية الاسطول القوية. وكان هذا التحرك هو ما ينتظره (عروج) إذ ما كادت القوات الاسبانية تقوم بتراجعها حتى فتحت الجزائر أبوابها، وأطلقت مجاهديها دفعة واحدة حتى لم يبق فيها رجل يستطيع حمل السلاح الا وانطلق الى ميدان المعركة وكانت قوات المجاهدين المسلمين تتكون من:

١ ـ الاتراك أصحاب عروج، وهم فئة قليلة، انحصر واجب أفرادها بقيادة القوات والتقدم أمامها.

٢ ـ رجال الأندلس المهاجرين، والذين قال عنهم الملك الاسباني (فيليب الثاني)[1] لسفير فرنسا في بلاطه (فوكفولس)، «يوجد في مدينة الجزائر خمسة عشر ألفاً ممن يحسنون استخدام الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف من العرب المسلمين الذين أخرجوا من

---

(١) فيليب الثاني: (PHILLIPPE II) ابن شارل الخامس (شارلكان) وايزابيللا البرتغالية، وهو من مواليد مدينة ابن الوليد (VALLADOLID) (١٥٢٧ـ ١٥٩٨). اشتهر بتعصبه الشديد للكاثوليكية، واعتماده المطلق على القوة المسلحة لفرض هيمنة اسبانيا الكاثوليكية وبناء عظمتها، بهدف السيطرة على فرنسا، غير أن محاولاته العسكرية ومغامراته باءت بالفشل وكذلك فشل اسطوله (الارمادا)الذي بعث به الى انكلترا في =

اسبانيا في السنوات الاخيرة، وهم من خيرة الجنود».

٣ـ المقاتلون من سكان المدينة ذاتها، والذين كان الاسبان يعتقدون بأنهم سيكونون عوناً لهم في هذه المعركة.

تدفقت قوات المسلمين وهي تندفع كالسيل لتجتاح في طريقها قوات العدوان الصليبي وهي تردد صيحة الحرب (الله أكبر) ورددت جبال الجزائر أصداء المعركة. فأقبلت جموع المجاهدين لترفد المعركة بالمزيد من القدرة والشدة. وعمّ الرعب والفزع في صفوف القوات الاسبانية التي فقدت قيادتها السيطرة عليها. فهيمن الاضطراب على كل تحركاتها. ولم يبق هناك من مجال أمامها الا العودة للسفن، في حين كانت قوات المجاهدين تسد على هذه القوات كل المنافذ وتعمل فيها قتلاً وأسراً. وزاد من محنة القوات الاسبانية هبوب عاصفة هوجاء حطمت على صخور (باب الواد) نصف قوة الاسطول الاسباني، وبات من الصعب على فلول القوات الوصول في وسط هذا الهياج الى السفن التي كان يضرب بعضها بعضاً، وقد ازدحمت لانقاذ ما يمكن لها انقاذه. وتركت فلول القوات الاسبانية، كامل متاعها وجميع تجهيزاتها ووسائطها بالاضافة الى ثلاثة آلاف قتيل وثمانمائة أسير.

دعم هذا النصر العظيم من ثقة المجاهدين بقدراتهم وإمكاناتهم، ورفعت من روحهم المعنوية التي أحبطتها الانتصارات الاسبانية السابقة، فأقبل سكان سهل متيجة (متوجة) وهم يعلنون ولاءهم المطلق وتأييدهم للنظام الذي شرع (عروج) باقامته على أرض الجزائر وانضمت لإمارة الجزائر مدن: (البليدة ومليانة

= الوصول الى هدفه، حيث مزقته العواصف العاتية،وعندما توفي ترك اسبانيا في حالة من الاستنزاف المطلق والانهيار الاقتصادي التام.

والمدية) وما يحيط بها من القرى (الدوارات) كما اعترفت به وأقرت بسيادته بلاد الجبال (القبائلية). وأصبحت إمارة الجزائر تمتلك الهيبة والقدرة.

كان (خير الدين) واسطوله في قاعدة (جيجل) عندما حدثت المعركة الظافرة، وعندما بلغه انتصار المجاهدين قاد اسطوله المكون من عشر سفن، وأرسى به في مدينة الجزائر على الرغم من وجود الحامية الاسبانية في قلعة الصخرة. وكان عروج وخير الدين يعرفان أن الاسبان لن يقفوا مكتوفي الايدي تجاه ما نزل بهم من هزيمة، وأنهم لن يتخلوا عن احتلالهم للجزائر بسهولة، فبادر عروج وخير الدين لتحصين مدينة الجزائر وتنظيم الدفاع عنها. وأسرع ابناء الجزائر لبناء الأسوار الضخمة والقلاع الحصينة بسواعدهم القوية تدفعهم حماسة لا حدود لها وايمان لا يوصف.

قرر عروج استثمار النصر للقضاء على النظام العميل الذي اقامه الاسبان في (تنس) وعينوا لادارته (يحيى بن سالم التومي - الزياني) ووعدوه بتوسيع إمارته لتشمل (تلمسان) بعد انتصارهم على سلطنتها التي آلت الى (حميد العبيد - من بني مهل). وقد اتخذ (عروج) قراره هذا بعد ان ولغ (يحيى بن سالم التومي) في دماء المسلمين. وبعد ان شجع الاسبان على غزو الجزائر وواعدهم على تقديم الدعم- ولو انه لم يفعل- وعلى هذا، قاد (عروج) قواته براً حيث غادر الجزائر في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٥١٧ ومعه الف تركي وكتائب من المجاهدين الاندلسيين. وفي الوقت ذاته تولى (خير الدين) قيادة القوة البحرية.

كان سلطان (تنس) يحيى بن سالم التومي- قد تلقى دعمًا اسبانياً يتكون من خمسمائة مقاتل بالاضافة الى اسطيل يضم أربعة سفن،

وعندما علم بتحرك عروج وأخيه خير الدين قاد ما لديه من القوة الى (واد الجر) على بعد خمسة مراحل من (البليدة). وكان من المقدر له أن يخسر المعركة مسبقاً إذ تخلى عنه معظم المسلمين في (تنس). وهكذا فما ان وصل (عروج) وقواته حتى دارت على الفور معركة قصيرة وحاسمة انتهت بهزيمة قوات (السلطان التومي) وتمزقها شر ممزق، ودخل جيش الجزائر الظافر مدينة (تنس) وركب الاسبان سفنهم وغادروا المدينة على عجل، وقتل السلطان التومي. وانصرف بعد ذلك (عروج) لاعادة تنظيم الإقليم، فقسمه الى قسمين إداريين: مقاطعة شرقية يتولى إدارتها خير الدين ومركزها الإداري مدينة (دلس). ومقاطعة غربية يتولى إدارتها عروج بنفسه ومركزها الإداري مدينة (الجزائر العاصمة) وغادر خير الدين مدينة تنس بعد الفتح، وذهب الى دلس فافتتحها بدون مقاومة تذكر، وانصرف لإدارة أمورها.

ولم يكد (عروج) ينهي تنظيم أمور البلاد تنظيماً أولياً حتى وفد عليه أهل (تلمسان) يستنجدون به لانقاذهم مما نزل بهم على أيدي سلطانهم الزياني (أبو حمو الثالث) الذي زاد عسفه باعتماده على الاسبانيين الذين اعادوا تنصيبه على (عرش تلمسان) وأعانوه ضد الملك الشرعي (أبي زيان) الذي تم ايداعه السجن بعد انتصار (ابو حمو الثالث). وتبع ذلك صراعات مريرة واغتيالات كثيرة مزقت شعب المدينة الواحد، واسلمته الى حالة رهيبة من الفوضى والاضطراب.

وضع الاخوان ذوي اللحى الشقراء (عروج وخير الدين) هدفاً لهما وهو تحرير المغرب الاوسط (الجزائر) من الاسبانيين الصليبيين. وكان هذا الهدف يتطلب بالضرورة طرد القوات الاسبانية من

القاعدتين الاساسيتين وهما بجاية (شرقي مدينة الجزائر) ووهران والمرسى الكبير، غربيها.

ولقد ابرزت مسيرة الاحداث أن المنطقة الغربية هي الاكثر خطورة، إذ أن مصدر التهديد هنا لم يعد ممثلاً بالقوات الاسبانية وحدها. وإنما أضيف اليه خطر (الزيانيين) الذين ربطوا سلطتهم وقوتهم بالاحتلال الاسباني، هذا بالإضافة أيضاً الى الخطر المتعاظم للبرتغاليين والذي لم تنجح مملكة (بني وطاس المرينية) من وضع حد له أو إيقافه. وهكذا جاءت استغاثة أهل (تلمسان) متوافقة مع ما كان يطمح الاخوان (ذوي اللحى الشقراء) لتحقيقه. فمضى (عروج) في إعداد العدة لنجدة (أبي زيان) المقيم سجيناً في تلمسان، ولدعم شيعته وأنصاره في صراعهم ضد القوات الاسبانية.

ب- الصراع في تلمسان واستشهاد عروج

ما إن أتم (عروج) استعداداته حتى اندفع بجرأة في اتجاه (تلمسان) وهو يقود قواته عبر الهضاب الداخلية بهدف تجنب الاصطدام بالحاميات الاسبانية المنتشرة على محيط (وهران). وعندما وصل الى (هوارة) قلعة (بني راشد) اتخذ منها قاعدة لحماية خطوط مواصلاته، نظراً لما كان يتوافر لها من المميزات الدفاعية، ونظراً لموقعها المناسب حيث كانت تبعد مسافة (٢٥) كيلو متراً عن (معسكر) وتبعد عن (مستغانم) نحواً من (٥٥) كيلو متراً. ووضع في القلعة حامية تضم ستمائة مقاتل. وكلفهم بتنفيذ عمليات صغرى لإزعاج الاسبانيين في (وهران) وحرمانهم من حرية العمل أو التحرك. ثم مضى بالجيش الجزائري حتى وصل (سهل أربال) حيث كان (أبو حمو الثالث) قد أقام معسكره هناك ونظم قواته التي ضمت ثلاثة آلاف راجل - من المشاة -

وستة آلاف فارس. غير أن هذه القوة على ضخامة حجمها لم تصمد لصدمة جيش الجزائر الذي يقوده (عروج) فتمزق بسرعة، ومضى (عروج) لمتابعة تقدمه بسرعة مذهلة حتى وصل (تلمسان)، التي استقبلت قوات الجزائر بالفرحة العارمة. وخرج (أبو زيان الثالث المسعود) وتولى سلطانه، غير أن الفتن ما لبثت أن عادت للظهور بين اطراف الزيانيين ذاتهم، هؤلاء المؤيدين لأبي زيان واولئك انصار (أبو حمو) وبينهما انصار الاسبانيين وعملاءهم. وتعاظمت الفتنة الى درجة حملت (أبو زيان) على إعلان تمرده على (عروج) الأمر الذي أرغم هذا على العودة الى تلمسان وقتل سلطانها وجماعة من قرابته وأنصاره بالإضافة الى قادة الفتنة وزعماء المشاغبين.

وفي تلك الفترة، كان (أبو حمو) قد جمع بعضاً من فلول قواته الممزقة، ومضى بها الى مدينة (فاس) غير أنه لم يستقر بها طويلاً، فمضى الى مدينة (وهران) حيث وضع نفسه تحت حماية حاكمها العام الاسباني، مستمداً منه العون والدعم حتى يستعيد ملكه وسلطانه. كان ملك اسبانيا الجديد (شارل الخامس- أوشارلكان) يتابع تطورات الموقف في المغرب الإسلامي. فأرسل الى الحاكم العام في (وهران) يأمره باستخدام كل إمكاناته لانتزاع تلمسان من قبضة المسلمين الجزائريين وإعادة (أبو حمو - أو ابو قلمون كما كانوا يسمونه) الى حكم إمارته (تلمسان) ودعمه بالاعتدة وبقوة مقاتلة بلغ عدد أفرادها عشرة آلاف مقاتل.

خرج (أبو حمو) من (وهران) في أواخر شهر كانون الثاني- يناير - ١٥١٨، ومعه جموع من الأعراب بالإضافة الى فرقة من الجيش الإسباني، وتمكنت هذه القوة من مباغتة قلعة (بني راشد) بهجوم

قوي لم تصمد له حامية القلعة، على الرغم مما أظهرته من المقاومة الضارية، فاضطرت الى الانسحاب بعد أن تم الاتفاق مع (أبـي حمو) على السماح لبقية القوات بالخروج سالمة للتوجه نحو تلمسان. غير أن قوات (أبـي حمو) غدرت بالوعد ونصبت كميناً دمرت بواسطته بقية أفراد الحامية التي كانت تدافع عن القلعة.

تابع (أبو حمو) تقدمه نحو تلمسان، وفي هذا الوقت تم إنزال قوة اسبانية أخرى زج بها حاكم وهران، وأنزلها في بلدة (رشقون) الساحلية لدعم الهجوم البري. وسارت هذه القوة بسرعة نحو تلمسان على الطريق الساحلي حيث التقت مع قوات (أبـي حمو) على أبواب تلمسان، وضرب حصار قوي ومحكم على المدينة.

تولى الدفاع عن (تلمسان) (القائد عروج) ومعه حاميته الجزائرية- التركية. ووقعت معارك قاسية في ظروف غير متكافئة، وعلى الرغم من التفوق الساحق للاسبانيين وعميلهم (أبو حمو) فقد نجح عروج وحاميته في قيادة وخوض حرب دفاعية يائسة استمرت لمدة ستة أشهر كاملة نجح الاسبانيون بعدها في تدمير أسوار المدينة بالقصف المدفعي المستمر، وأمكن لهم بالتالي اقتحام المدينة، ولم تستسلم الحامية، فانتقلت لخوض الصراع في الأسواق والمنازل، وانسحب بعدها عروج وبقية قواته الى (قلعة المشور) وأعادوا تحصينها وتنظيم الدفاع عنها والتمركز فيها بانتظار وصول دعم من قبل ملك فاس الوطاسي المريني الذي كان قد اتفق مع عروج على دعمه. وقد أرسل الملك المريني جيشاً لدعم عروج ومساعدته على تطوير الدفاع عن تلمسان ضد الاسبانيين وأنصارهم. لكن ذلك الجيش اتبع طريق (مليلة) في تحركه، وهو طريق طويل، فلم يتمكن من الوصول الى

ميدان المعركة في الوقت المناسب، واضطر الى العودة بدون أن يشترك فعلياً بالقتال.

وشددت القوات الاسبانية قبضة الحصار على (قلعة المشور) وتكبدت الحامية خسائر فادحة حتى لم يبق مع (عروج) أكثر من خمسمائة تركي. غير أن ارادة القتال لم تضعف لدى هؤلاء المجاهدين الذين صمموا على متابعة المعركة حتى نهايتها. وجاءت هذه النهاية سريعاً، فقد تقدمت جماعة من المسلمين الى (عروج) في صبيحة يوم عيد الفطر تستأذن في السماح لها بممارسة عادتها في إقامة صلاة العيد بمسجد (المشور)، ووافق (عروج) على ذلك، وما إن دخلت هذه الجماعة الى الحصن، حتى انتضت سيوفها وأخرجت أسلحتها التي كانت تخفيها في طيات الثياب. وانقضت على الحامية التركية التي بوغتت بهذه الهجمة. فسقط عدد من أفراد الحامية، وتمكن البقية من استعادة سيطرتهم على أنفسهم بسرعة، فأعادوا تنظيم دفاعهم، وانقضوا على هؤلاء الغادرين، ونجحوا في القذف بهم الى خارج الأسوار، وأعادوا تنظيم أمورهم، غير أن الخسائر الفادحة التي تكبدتها الحامية أقنعت عروج بضرورة الخروج من هذا المأزق. فقرر شق طريقه عبر القوات القائمة على الحصار، والوصول الى الساحل حيث تتوافر له فرصة أفضل لجمع الأنصار وتنظيمهم، ريثما يتمكن أخوه (خير الدين) من إرسال قوة دعم بحرية تحمل دعمًا جديداً لقواته.

ونظم (عروج) قوته وانطلق بها من (قلعة المشور) حيث اتجه نحو الغرب عبر الممرات الضيقة المؤدية الى الساحل، وعندما وصل الى (جبال بني سناسن) أحاطت به قوة اسبانية تضم خمسين فارساً

بقيادة (غارسيادي لابلازا) ودارت مذبحة ضارية في ظروف غير متكافئة. ودافع (عروج) عن نفسه بثبات وعناد لا يمكن وصفهما- مستخدماً في ذلك يده الوحيدة- حتى لم يبق معه أكثر من عشرة رجال سلكوا مسلكه، وأظهروا مثل ثباته وعناده بعد أن تحصنوا بجدران (زاوية سيدي موسى). وعندما أبيد هؤلاء الرجال العشرة، وقف (عروج) وجهاً لوجه أمام خصمه (غارسيا) واستمرت المبارزة بينهما حتى سقط الاثنان بضربتين قاتلتين متبادلتين.

استشهد (عروج) كأفضل ما يكون عليه الاستشهاد، ومضى الى حيث سبقه أخواه من قبله، وأدى واجبه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر نقطة من دمه[1] غير أن حجم الكارثة كان أكبر من كل تصور، فمضى الاسبان في فرحتهم، وخيم الحزن والأسى على مدينة الجزائر. وكانت الصدمه قوية بصورة خاصة بالنسبة لخير الدين الذي عرف حياة الجهاد من خلال أخيه، غير أن شعور أهل الجزائر بالصدمة لم يكن أقل من شعور خير الدين، ذلك أنهم وضعوا آمال مستقبلهم على عاتق (عروج) كما شعروا معه بحلاوة النصر على أعداء الدين. وعرفوا قبل ذلك وبعده أهمية الدور الذي يمكن للمغرب الأوسط (الجزائر) الاضطلاع به في قيادة الجهاد في سبيل الله..

(١) انظر قراءات (٣) في آخر الكتاب.

٢ ـ خير الدين على طريق الجهاد

ترددت أصداء كارثة (تلمسان) بقوة في ضمائر أبناء الجزائر الأحرار، واجتمع المسؤولون فيها من الشيوخ والزعماء ـ أهل الحل والعقد ـ لمناقشة الموقف بعد استشهاد (عروج) وقرروا أن يسندوا الى (خير الدين) واجب (إمارة الجهاد) بعد أخيه، وألحوا عليه في ذلك، لكنه اعتذر عن قبول الإمارة، وأعرض عنها، وأبلغ المسؤولين في الجزائر أنه يعتزم السفر الى عاصمة الخلافة (استانبول) على أمل الحصول على اسطول جديد يساعده على متابعة الجهاد في سبيل الله في البحر. وأجابه علماء الجزائر: بأن الله يوجب عليه الجهاد في هذه المدينة ـ الجزائر ـ لحماية المسلمين، وأن الدين لا يسمح له بتركها نهباً للمفترسين، فأجابهم عندئذ بقوله:

«لقد بقيت منفرداً دون أخوتي ـ الذين استشهدوا جميعاً فوق أرض الجزائر ـ وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره. وصاحب تونس الحفصي الذي لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذي أسلمنا للعدو بمنع البارودعنا ـ أثناء حملة بجاية ـ لولا لطف الله. فالرأي هو أن نصل

أيدينا بالقوة الإسلامية ـ وهو السلطان سليم خان ـ ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته، والدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة ـ النقود ـ باسمه، لنتفيأ ظل حمايته. فاستكانوا لذلك ورضوا به، وأعلنوا بالدعاء له على المنابر. وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر».

قرر الجزائريون بذلك أن تكون دولتهم الفتية جزءاً من الامبراطورية العثمانية الضخمة، ووافق خير الدين على البقاء مؤقتاً رئيساً لهذه الدولة، حتى يتخذ السلطان العثماني قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر. ويمدهم بما طلبوه من دعم عن طريق الوفد الجزائري الذي ارتحل الى القاهرة، حيث كان السلطان سليم مقيماً لتنظيم البلاد. وقابل الوفد الذي كان يرأسه الحاج حسين السلطان سليم. وأجابهم على سؤلهم، وأعلمهم بموافقته على أن يشمل دولة الجزائر برعايته. وان تكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية. وأضفى على خير الدين لقب (باي لرباي) أي (باي البايات) باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون، أو سوف يتولون الحكم في بلاد الشمال الأفريقي. وخول السلطان دولة (باي لرباي) حق سك النقود باسمها، وذلك دلالة الاستقلال ضمن الامبراطورية العثمانية.

عمل السلطان سليم بعد ذلك مباشرة على ارسال دعم الى الجزائر يتكون من قوة بحرية محملة بأربعة آلاف مقاتل من المتطوعين الأتراك وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية. ووصلت هذه الامدادات الى مدينة الجزائر حيث تم إنزالها على ساحل

(باب الواد). وبدأت القوات الجزائرية استعدادها لمجابهة الأعمال العدوانية المتوقعة.

كان حكم اسبانيا قد انتهى (منذ سنة ١٥١٦) الى الملك شارل الخامس (شارلكان) الذي وضع هدفه الأول بالقضاء على الدولة الجزائرية الفتية، وإزالة ما تمثله من تهديد، وتوطيد الحكم الاسباني في المغرب العربي- الإسلامي. وقد توافرت المعلومات عن قرب احتمال ارسال قوة اسبانية جديدة للجزائر، فزادت أهلها حماسة للقتال واستعداداً للحرب.

وانصرف (خير الدين) لتنظيم أمور الدولة الجديدة في المغرب الأوسط (الجزائر) وحشد القدرات والإمكانات كلها من أجل تأمين متطلبات الحرب التي باتت وشيكة بعد أن استثارت عملية انضمام الجزائر للامبراطورية العثمانية حماسة أوروبا كلها وحماسة اسبانيا المتعصبة منها بصورة خاصة لتطوير الحرب الصليبية.

اغتنم شارلكان فرصة استشهاد (عروج) وما أحدثه ذلك من هزة عميقة في النفوس ـ بعد انتصار الاسبانيين في (تلمسان) فاتفق مع (أبـي حمو ـ ملك تلمسان) على ان يشترك الطرفان في توجيه الضربة الحاسمة للجزائر، وذلك بان تقوم القوات الاسبانية بإنزال بحري في الوقت الذي تتقدم فيه قوات ملك تلمسان براً. وضمت الحملة الاسبانية في هذه المرة قوة ضخمة تتكون من اربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف من المقاتلين الاسبانيين والاوروبيين، ووضعت الحملة تحت قيادة نائب ملك الصقليتين (هوغو دي منكاد) يعاونه في قيادة الحملة (غونـزالفو ـ مارينو ـ دي ريبيرا). وأبحر الاسطول من جزيرة صقليا في أواخر تموز ـ يوليو ـ سنة ١٥١٩، وتوجه الى (المرسى

الكبير) وأخذ منها جنداً وعتاداً. ثم سار في اتجاه بجاية، حيث انضمت اليه قوة ضخمة حملت معها المزيد من الاسلحة والأعتدة، وفي النهاية وصلت الحملة الى مياه الجزائر يوم ١٧ آب ـ أغسطس ـ. وبدأت عملية الانزال على امتداد الساحل الواقع إلى اليسار من وادي الحراش.

وقد وضع (خير الدين) مخططه للمعركة على أساس التجربة السابقة التي حالفها النجاح، فقرر افساح الفرصة أمام القوات الاسبانية لإنزال قواتها وتجهيزاتها الى أرض الشاطىء ثم العمل على استنزاف قدرتها القتالية وروحها المعنوية بمجموعة من العمليات الخاصة (الاغارات والكمائن) والانقضاض بعد ذلك على القوات الاسبانية في معركة حاسمة في الوقت المناسب والمكان المناسب.

وهكذا تمكن الاسبانيون من إنزال أسلحتهم ووسائطهم وقواتهم دونما عناء كبير، وأقاموا قاعدتهم خلف (وادي الحراش) وبدأت الاشتباكات بين الطرفين المتصارعين، ثم ما لبث الجيش الاسباني أن أبدأ التحرك بكتلته الرئيسية في اتجاه المرتفعات المحيطة بمدينة الجزائر حتى وصل الى (كدية الصابون) المشرفة على المدينة ـ من ورائها ـ وأخذت القوات الاسبانية على الفور ببناء قلعة حصينة فوق تلك الكدية أطلقوا عليها اسم (قلعة الامبراطور) ـ وهي التي هدمت ورممت مراراً. وكان لها شأن عظيم في تاريخ الجزائر، ولا تزال موجودة حتى اليوم ـ وجهزوها بالمدافع الثقيلة، ووضعوا الجزائر فعلاً تحت تهديد مدافعهم.

وكانت القوات الاسبانية وهي تشيد معقلها، تنتظر قدوم جيش تلمسان الذي كان من المفروض أن يتولى قيادته (الملك عبد الله

الثانـي). وانتظرت القوات الاسبانية طوال ستة ايام بدون ان يظهر ما يشير إلى احتمال تقدم هذا الجيش، وتمت عملية بناء المعقل، فيما كانت الاشتباكات المستمرة تستنزف قدرة القوات الأسبانية وتضعف من روحهم المعنوية، وإذ ذاك قرر القائد الاسبانـي القيام بهجوم عام على مدينة الجزائر.

وقرر (خير الدين) تكوين قوة من خمسمائة مجاهد واجبها الإغارة على المعسكر الاسبانـي (المجاور لوادي الحراش) والذي لم يترك الاسبانيون لحراسته الا قوات قليلة. ومن ثم الاغارة على السفن وتدمير ما يمكن تدميره منها. وتوجهت هذه القوة ـ المنتقاة من خيرة المجاهدين ـ فأبادت حرس المعسكر وأشعلت النار في القوارب التي تصل الاسطول بالبر، وأخذت هذه القوة بتهديد السفن الواقفة في عرض البحر.

كان القائد الاسبانـي يتابع من موقعه في (كدية الصابون) تطور هذه العملية التي تهددت خط المواصلات البحري للقوات الاسبانية. ونجحت العملية الخداعية التي خطط لها خير الدين، إذ توجهت قوة كبيرة من الاسبانيين نحو البحر في محاولة لإنقاذ القوارب والسفن. وانقسمت القوة الاسبانية بذلك الى قسمين. ففتح المجاهدون أبواب الجزائر بصورة مباغتة، وانطلقت حشودهم كالسيل الجارف وهم يدمرون القوات الاسبانيـة ويجتاحـونها من كل اتجـاه. وهيمن الاضطراب على القوات المعادية، وفقدت قيادتها السيطرة وباتت معزولة وعاجزة عن إدارة المعركة. فيما كان المجاهدون يدمرون بسيوفهم ونيران بنادقهم كل من يصادفهم، وأصبحت القوات الاسبانية ممزقة على شكل جزر مقاومة في وسط محيط المجاهدين

الواسع، بحيث لم تتمكن إلا فلول ممزقة من الوصول الى القوارب والسفن.

واستمرت المعركة بكل قسوتها طوال يوم ٢٠ آب (أغسطس) سنة ١٥١٩م (٩٢٥ هـ) وأمكن لبقية القوات الاسبانية- وفلولها الممزقة ركوب البحر والوصول الى السفن. وهنا جاءت الطبيعة من جديد لتتدخل في مصلحة المجاهدين الجزائريين. إذ هبت عاصفة عاتية يوم ٢١ (آب) اغسطس ووصلت ذروتها في اليوم التالي عندما تحولت الى اعصار مدمر أرغم (٢٤) سفينة اسبانية من سفن الأسطول على اللجوء الى الجزائر حيث وقعت هذه السفن غنيمة في أيدي المجاهدين- بكل من فيها وما فيها من مقاتلين وأعتدة. وانتهت هذه المعركة يوم ٢٤ آب - أغسطس - بانتصار المسلمين انتصاراً كاملاً.

وأغرقت مياه البحر أربعة آلاف من المقاتلين الاسبانيين، ووقع في قبضة الأسر ثلاثة آلاف مقاتل وقد حاول هؤلاء تنظيم صفوفهم والانقضاض على المسلمين فتمت إبادتهم إبادة كاملة وبذلك دمرت الحملة التي أرسلها شارلكان تدميراً كاملاً. وخابت آمال الاسبانيين والأوروبيين بهذه الحملة الصليبية.

خلال ذلك حدثت تحولات على مسرح المغرب العربي- الاسلامي، فقد كان الملك الزياني (أبو حمو الثالث) قد توفي في سنة ٩٦٤ هـ = ١٥١٨م- أي في ذات السنة التي استشهد فيها عروج وخلفه على حكم مملكة تلمسان أخوه (عبد الله الثاني) الذي اتبع سياسة جديدة قائمة على الحياد تجاه الصراع الجزائري - الاسباني، والاعتماد على خير الدين - لا على الاسبانيين - إذا كان لا بد من الاعتماد على أحد الطرفين. ولم تكن هذه السياسة الا استجابة

لتطلعات المواطنين في تلمسان الذين كانوا يرفضون نصرة أعداء الدين ضد أبناء دينهم وإخوانهم من الجزائريين والأتراك العثمانيين. وانتهج (مسعود) شقيق (عبد الله الثاني) هذه السياسة ذاتها عندما طرد أخاه من تلمسان. وكان ذلك هو سبب إحجام ملك تلمسان عن ارسال جيشه لدعم الاسبانيين عندما قاموا بتنفيذ حملتهم ضد الجزائر. غير أن انتصار خير الدين وقوات المسلمين ذلك الانتصار الحاسم، أثار قلق سلطان بني حفص بتونس، خوفاً من القوة المتعاظمة في المغرب الأوسط (الجزائر) وندم على ما فاته من نصرة الاسبانيين. فكتب الى (صاحب تلمسان) يحذره من القوة المتعاظمة لخير الدين وبذلك عاد (محمد بن الحسن ـ الحفصي) للتآمر ضد المسلمين خوفاً على نفوذه ومملكته في تونس من أن تطالها قوة المسلمين المتحالفين في الجزائر مع الامبراطورية العثمانية.

وأعاد (خير الدين) تنظيم مملكة الجزائر، فقسمها الى قسمين: قسم شرقي يمتد من شرقي العاصمة الجزائرية حتى حدود المملكة الحفصية بتونس وتشمل بلاد القبائل الجبلية، ووضع على رأس هذا القسم أخوه في الجهاد وصديقه (أحمد بن القاضي الغبريني ـ سلطان كوكو ببلاد زواوة، حيث كانت بلدة كوكو تقع على بعد (١٨) كيلو متراً في الجرب الشرقي من مدينة أربعاء بني براثن). أما القسم الغربي، فكان يمتد من الجزائر الى حدود دولة بني زيان ـ غير المحددة بدقة ـ ووضع لإدارته (محمد بن علي).

وظن (خير الدين) أن باستطاعته الاعتماد في إدارة القسمين على الزعيمين المحليين لحكم البلاد. وترك لمدينة الجزائر السلطة العليا، ومباشرة أمور الحرب والسياسة. غير أن هذا التنظيم أثار نقمة

(عبد العزيز) ملك قلعة بني عباس، والعدو اللدود (لأحمد بن القاضي)، إذ أن هذا التنظيم وضع عدوه أميراً عليه وحاكمًا في جهته، فحمل لواء العصيان، وأعلن تبعيته للملك الحفصي بتونس. غير أن التهديد الخطير لم يظهر من (عبد العزيز ـ ملك قلعة بني عباس) بقدر ما ظهر من (أحمد بن القاضي الغبريني ذاته) والذي ما إن شعر بقوته حتى انقاد لتيار المؤامرات. فأعلن تمرده على (خير الدين) وانضم الى الحفصيين ملوك تونس معتمداً على ما يقدمونه له من الدعم والتأييد.

وأسرع (خير الدين) فقاد قواته لقتال (ابن لمقاضي) وخاض ضده معارك ضارية في جبال زواوة المنيعة الشامخة، واضطر (خير الدين) للتراجع حتى (عنابة) ثم تلقى (ابن القاضي) دعمًا من السلطان الحفصي بتونس، فطور أعماله القتالية، وأثار سكان الجبال ضد (خير الدين) وتدهور الموقف الى درجة خطيرة بحيث وجد خير الدين نفسه مرغمًا على الخروج بنفسه لقتال صديقه القديم. ولم يكن يمتلك من القوى ما يساعده على مجابهة قوات الحفصيين المتحالفة مع ابن القاضي وهكذا فعندما وقعت المعركة في (فليسة أم الليل) وقف خير الدين وليس معه إلا الجنود الأتراك الذين أبيدوا إبادة تامة، ولم ينج خير الدين وبعض رجاله إلا بصعوبة كبيرة، فانسحب بهم الى قاعدته القديمة (جيجل) ليجد فيها ملاذه الوحيد. وأرسل الى الجزائر فطلب اسطوله وأسلحته وكنوزه. في حين تابع (ابن القاضي) تقدمه في سهل متيجة (متوجة). وأعمل في القرى تدميراً ونهباً. حتى وصل الجزائر. فجعلها قاعدة له. واستمر في حكم الجزائر مدة ستة اعوام (١٥٢١ـ ١٥٢٧).

وخلال هذه الفترة، كادت تتفتت تلك الرابطة التي أحكم

(خير الدين) صنعها وشكل منها دولة الجزائر. غير ان حكم (ابن القاضي) تميز بالرعونة والقسوة، مما أثار الفوضى والاضطراب في كل مكان، وكان في ذلك مصرعه.

انصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم أموره في قاعدته (جيجل) متنقلاً ما بينها وبين (جزيرة جربة) وقد أمكن له بما عرف عنه من كفاءة قيادية عالية، وهمة لا تعرف الفتور أو ينال منها التعب. أن يشكل قوة جديدة، وأن يتابع نشاطه البحري بصورة ناجحة. وتعاظمت قدرة جيشه الجديدة. وهنا حدث تحول جديد، إذ وجد عدوه القديم (عبد العزيز ملك قلعة بني عباس) أن من مصلحته التحالف مع (خير الدين) ضد العدو المشترك (ابن القاضي) والذي كان في الأصل هو سبب العداء فيما بينهما. فبرز الى الميدان من جديد، واسترجع مدينة (القل) وانضمت اليه مدينة (قسنطينة) وجاءته جموع الشعب المجاهد مؤيدة ومناصرة، فسار بها نحو الجزائر. وقاد (الشيخ أحمد بن القاضي) قواته بسرعة، فغادر الجزائر لملاقاة خصمه بين مرتفعات جبال القبائل. والتقت القوتان المتصارعتان عند (ثنية بني عائشة) فدارت الدائرة على (ابن القاضي) وتمزقت قواته حتى لم يبق معه الا قلة من أنصاره الذين أدركوا ما خسروه من خلال التمزق الذي صنعه قائدهم (ابن القاضي) فقرروا التخلص منه. وجاءت فئة منهم خيمته عند غروب الشمس فقتلوه، وانتهت في سنة (١٥٢٧) تلك الفتنة التي أضعفت الجزائر الى حد كبير.

لم يكن (خير الدين) بعيداً عن مسرح الأحداث، فأسرع بقيادة قواته، متوجهاً بها الى الجزائر، حيث استقبلته جماهير الشعب المسلم استقبال الفاتحين. بعد أن عملت بارادتها على تدمير (أعداء

الداخل). وأقيمت الاحتفالات الضخمة بمناسبة هذا النصر. ولم يستمر الصراع طويلاً بين الجانبين، إذ عملت القبائل على إعادة توحيد إرادتها من جديد. وجاء (الحسين بن القاضي- شقيق الشيخ أحمد) والذي تولى الإمارة بعد مقتل أخيه، فوضع نفسه تحت تصرف (خير الدين). واستسلم في سنة (١٥٢٩) استسلاماً غير مهين تقبله (خير الدين) بالتقدير والاحترام.

وانصرف (خير الدين) لتضميد الجراح التي خلفتها الفتنة الهوجاء، وعمل على إعادة تنظيم الدولة، وشكل الجيش وسلحه بطريقة أفضل مما كان عليه في السابق، وحشد اسطوله الضخم في الجزائر بعد أن ضم اليه ما كان قد غنمه في جهاده البحري خلال الفترة السابقة، وما لبثت الجزائر طويلاً حتى استردت قوتها، وظهرت من جديد وهي تمتلك كل القدرات الضرورية لمتابعة الجهاد في سبيل الله، حيث توافرت لها إرادة جماهيرية - شعبية - صلبة، وجيش قوي منظم في البر والبحر، وإرادة قيادية صلبة تعرف هدفها وتضطلع بواجبها على أفضل صورة ممكنة.

آ- بناء الجزائر والجهاد في البحر

كان وجود الحامية الاسبانية في (جزيرة الصخرة - صخرة الجزائر) أمر يتناقض مع ما تتطلبه مدينة الجزائر من (الأمن). فقرر (خير الدين) بعد أن تم له تنظيم الأمور العمل على تحريرها. وهكذا أخذت المدفعية الجزائرية بقذف قنابلها الحديدية من مرابضها التي تم تشييدها على مسافة مائتي متر فقط من جدران المعقل الاسباني، وذلك في شهر رمضان ٩٣٦ هـ (٦ ايار - مايو - ١٥٢٩). وأمر (خير الدين) بتجهيز كل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد، وأذاع في

كل مكان أنه سيبحر الى السواحل الاسبانية من أجل الغزو والجهاد. وخرجت السفن فعلاً من وراء صخور الجزائر، وأخذت طريقها نحو الشمال، لكن تلك السفن عادت ادراجها تحت جنح الظلام، واختبأت في مرفأ (نتغوس) المقابل للجزائر على الطرف الآخر من الخليج. وكان معقل الصخرة حصيناً جداً، وقد بذل الاسبانيون جهداً كبيراً لتحصينه وزيادة قوته، وأقاموا فيه مستودعات ضخمة من الأسلحة والأعتدة والمواد التموينية حتى تتمكن حاميته من الدفاع عنه لمدة طويلة.

لم تتمكن الرمايات الأولى من التأثير كثيراً على تحصينات المعقل وأسواره، وفي يوم الخميس ٢٢ أيار (مايو) فتحت بطاريات المدفعية الجزائرية المتمركزة في المدينة نيرانها بكثافة عالية. واستمر القصف طوال يوم الخميس وليل الجمعة بكاملها حتى الفجر، ثم صمتت المدفعية. وظن أفراد الحامية الاسبانية أن العملية قد انتهت، وأنه باستطاعتهم أخذ قسط من الراحة، وفي تلك الفترة بالذات كان الاسطول الجزائري يخترق الخليج من ناحية (تاما-نتغوس) تتقدمها تلك السفينة الضخمة التي كان خير الدين قد غنمها من (البنادقة-دولة البندقية) وشحنها بالسلاح والرجال. وأحاطت السفن بالجزيرة من الشرق والغرب. وعندما تنبه الحرس والمراقبون في القلعة لحركة القوات الإسلامية، وأطلقوا النفير لاستنفار القوات، كان الوقت متأخراً جداً. إذ ما لبث المجاهدون حتى غادروا سفنهم وقاموا بالإنزال فوق أرض المعقل، وهاجموا الحصن بإغارة مباغتة وتمكنوا من اقتحامه.

دارت بعد ذلك معركة قصيرة وحاسمة، سقط فيها (٦٥)

مقاتلاً من الاسبانيين وأنصارهم وخسرت قوات المسلمين (١١) تركياً و(٣٥) عربياً. وأسر المسلمون من الاسبانيين (٩٠) جندياً و(٢٥) من النساء والاطفال. وكان قائد معقل الصخرة (مارتينو دي فاركاس) بين الأسرى. وقد حاول التستر على المخبأ الذي أودع فيه مقداراً من المال، فتعرض للتعذيب حتى استخرج الأموال التي بلغت ألفي دوقة (٤٨) ألف دينار جزائري. ثم جعلوه بعد ذلك على بقية الأسرى، الذين كلفوا ببناء منارة مسجد خير الدين، الذي كان قد بدىء ببنائه في العاصمة الجزائر. وقسم (خير الدين) الأسرى الى قسمين تم تكليف القسم الأول بتدمير التحصينات التي أقامها الاسبانيون في جزيرة الصخرة (أبنيون) فيما تم تكليف القسم الثاني ببناء المسجد ورفع مئذنته.

وما كادت هذه العملية تتم حتى ظهرت في الأفق سفينة اسبانية ضخمة تحمل على ظهرها قوة تتكون من سبعمائة محارب علاوة على الأسلحة والإمدادات المختلفة. وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تتابع ـ بالمناظير المقربة ـ تحرك هذه السفينة وهي تقترب من معقل الصخرة. ولم تلبث سفن المجاهدين أن انقضت عليها وأسرتها، واقتادتها الى ميناء الجزائر.

وقرر (خير الدين) تحصين الجزائر، فأمر جماعة الأسرى بنقل الصخور والحجارة التي تراكمت من أنقاض معقل الصخرة، وذلك لوصل البر بجزيرة اصطفلة تحت اشراف معلمي البناء الجزائريين. كما أرسل السفن الى الجهة المقابلة نحو الخليج عند مرفأ «تامانتغوس» فجاءته بصخور رومانية قديمة لإكمال العمل. وبذلك أمكن بناء

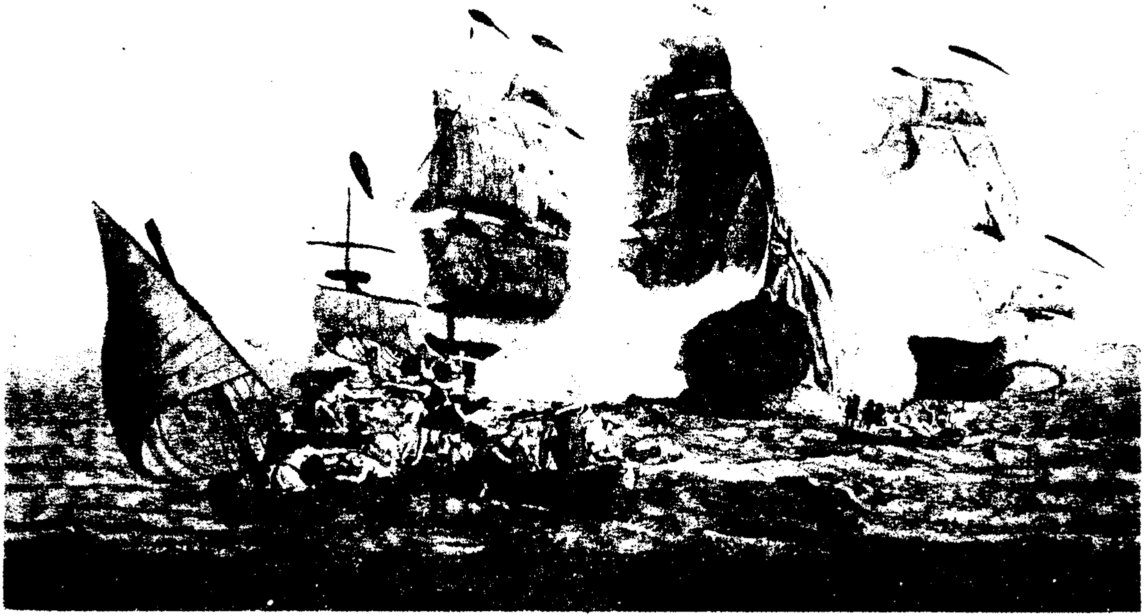

الأسطول الجزائري يعود بالغنائم

الجسر العريض الذي لا يزال يحمل حتى اليوم اسم (جسر خير الدين) والذي وصل بين الجزر العشرين بعضها ببعض ببناء دائري متين، ليست فيه الا فتحة واحدة[1] وهكذا تم إنشاء مرسى مدينة الجزائر العتيق (الذي يعرف اليوم باسم- الجفنة) والذي أصبح مقراً للاسطول الجزائري يحميه من العواصف التي تحملها رياح الغرب.

وما إن حقق خير الدين انتصاره العظيم بتحرير جزيرة (أبنيون) حتى أعلن: «**أن من كان يؤمن بالله ورسوله، ويريد الجنة في الدار الآخرة، فعليه أن ينضم الى جيشه بكل سرعة، وذلك لمهاجمة وهران والمرسى الكبير**». وانصرف الاسطول الاسلامي أثناء ذلك للجهاد في البحر، وكان الاسطول الجزائري يشمل (١٥) سفينة من نوع (القالير) وقد ألقى الرعب والهلع في قلوب سكان السواحل

---

(١) جاء في كتاب (الجزائر) سلسلة الفن والثقافة (٨) الصادر عن وزارة الاعلام والثقافة- الجزائر- ص ٢٢ و ٢٥- ٢٨ ما يلي: «وبذلك كان مولد ميناء الجزائر الذي رغم أبعاده المحدودة، أرعب البلدان العدوة خلال ثلاثة قرون، ففيها يعرف الآن بمرفأ الامارة البحرية، كان يستقر اسطول الجزائر الذي كان يضم اذ ذاك حوالي سبعين باخرة، وكانت هذه البواخر تحمل اسماء مختلفة عليها مسحة رومنسية مثل (المرعب) و (الوردة الذهبية) و (مفتاح العالم) و (صقر البحار). وقد تم تحسين الجهاز الدفاعي ببناء سور يمتد على مسافة ثلاثة كيلومترات، به عدة أبراج للحراسة، واستمر بناء السور المحيط بالمدينة حوالي (٨٥) سنة. كما تم بناء المنازل العديدة لإسكان المواطنين المتزايد عددهم أكثر فأكثر وكان الدخول الى المدينة يتم عن طريق خمسة ابواب رئيسية. باب الواد شمالاً، وهو يربط المدينة بالخارج وبالمقبرة. وباب عزون جنوباً، وهو يحظى بتردد اكثر لانه يطل على متيجة (متوجة) ويسهل النشاطات التجارية. وباب البحرية أو باب الجزيرة الذي يشرف على الميناء، أما باب الترسانة أو باب الصيادين، فانه يؤدي الى دار الصناعة حيث تبنى السفن الشراعية الصغيرة، واخيراً باب جديد الذي ينفتح على قلعة القصبة، وهي القلعة الضخمة الواقعة في قمة المدينة، وكانت هناك ابراج اخرى تكمل الجهاز الدفاعي على البحر مثل (برج الفنار- أو برج المنارة) الذي شيده خير الدين».

الاسبانية، إذ أمعن فيهم حرباً وتدميراً وسبياً الى درجة أن السكان تركوا قراهم وهجروها والتجأوا الى داخل البلاد. ومقابل ذلك، كانت بقايا المسلمين الأندلسيين تشعر بالبهجة لهذه الانتصارات التي بعثت الأمل في نفوسهم، وعوضت عليهم بعض ما يلقونه من قهر واضطهاد.

وتلقى قائد الاسطول الاسباني وفي سنة (١٥٣٠م) أمراً امبراطورياً بأن يتقدم لمهاجمة الاسطول الاسلامي وتدميره. فاستعد الأميرال (أفريدريكو بور- توندو) للحملة الصليبية الجديدة. وانطلق بقوة (١٢) سفينة حربية ضخمة لمطاردة اسطول (خير الدين) الى أن وجده بين جزيرتين من جزر الباليئار. وظن الأميرال الاسباني أن الموقف لمصلحته، فهاجم الاسطول الجزائري بقوة وعنف، وقذفه بنيران مدافعه. غير أن الاسطول الإسلامي تلقى الصدمة بثبات، ووجه (خير الدين) على الفور هجوماً مضاداً ركزه على سفينة القيادة الاسبانية. وقاد (خير الدين) سفينته بنفسه، وانطلق بها كالسهم حتى وقف بمحاذاة الهدف، وقفز المجاهدون على ظهر السفينة الضخمة وسيوفهم تلتمع في أيديهم. ودارت معركة عنيفة قتل خلالها قائد الاسطول الاسباني وقسم كبير من أفراد سفينته، ووجه (خير الدين) هذه السفينة نحو بقية سفن الاسطول الاسباني، واستمرت الهجمات السريعة، فتم أسر بعض السفن الاسبانية وحرق بعضها الآخر وإغراق عدد منها. وانتهت معركة اليوم بتدمير الاسطول الاسباني تدميراً كاملاً بحيث لم تنج منه الا سفينة واحدة استطاعت الفرار لإعلام قيادتها عن المجزرة الرهيبة التي قضت على الاسطول. وانسحب الاسطول الجزائري بعد أن ضم اليه الغنائم والأسلاب التي كسبها من المعركة.

أثارت معركة جزر الباليئار مناخاً من الفزع الذي تجاوز حدود اسبانيا. فبادر (شارلكان) الى معالجة الموقف بحزم. وعمل على إعادة تنظيم اسطوله وأسند قيادته الى ضابط مغامر كان قد اكتسب شهرة واسعة في قيادته للاساطيل البحرية وممارسة أعمال القرصنة. وكان هذا الضابط هو (الأميرال اندريا دوريا)[1] الذي كان يعتبر باستمرار ان (خير الدين) هو عدوه اللدود.

انصرف (أندريا دوريا) الى مدينة جنوة من أجل تنظيم اسطوله، وأمضى سنة (١٥٣٠) في الاستعداد لحملته الضخمة القادمة. ثم غادر المرسى الايطالي الكبير في تموز (يوليو) سنة (١٥٣١) على رأس اسطول يضم عشرين سفينة تحمل ألفاً وخمسمائة من المقاتلين الأشداء، وسار بهم نحو الساحل الجزائري وقد حدد هدفه بتدمير الأسطول الاسلامي كمرحلة أولى، ثم الانطلاق من مركز بجاية في الشرق ومركز وهران والمرسى الكبير في المغرب لخنق الدولة الجزائرية، ووضع المغرب العربـي الإسلامي بكامله تحت الحكم الكاثوليكي- الاسبانـي.

---

(١) ورد في كتاب - حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدنـي ص٢٢٠-٢٢١ تعريفاً بهذا الاميرال كما يلي: «اندريا دوريا هو سليل بيت من اكبر بيوتات مدينة جنوة الايطالية وأمجدها. وقد ورث عن أبيه وعن جده حب المغامرة البحرية وعشق الأمواج واقتحام الأخطار بين الشراعات المنشورة والزوابع الثائرة، وهدير المدافع ولمعان السيوف. ولم يكن يهمه هوية الشخص الذي يعمل تحت رايته، على شرط أن يكون مسيحياً مقاتلاً، فعمل أولاً تحت لواء مدينة جنوة ثم خدم ملك فرنسا- فرانسو الأول - الذي سلمه قيادة اساطيله، الى أن صدرت عن الملك الافرنسي بادرة أساءته، فاعاد اليه سنة ١٥٢٩ القلادة التي سلمها له رمزاً للقيادة، ودخل في خدمة الامبراطور (شارلكان) الذي كان يحكم يومئذ أضخم دولة مسيحية في اوروبا وأقواها.

كان (خير الدين) يتابع جهود عدوه (أندريا دوريا) باستمرار، وعندما علم باقتراب ركوبه البحر جمع أسطوله الذي كان يضم أربعين سفينة، وحشد قواته، واستنفر الحاميات، وأخذ في الاستعداد للمعركة. غير أنه كان يجهل محور تحرك الأسطول المسيحي بقدر جهله لما كان يعتزم خصمه تنفيذه. ولم يبق أمامه الا الانتظار ريثما يحدد لمكان الذي يختاره عدوه مسرحاً لعملياته.

حدد (أندريا دوريا) مدينة شرشال هدفاً مباشراً لهجومه، وكان يعرف أن حامية هذه المدينة مكونة من أبنائها مع عدد محدود من الأتراك العثمانيين. وكانت هذه الحامية ضعيفة بالمقارنة مع قوة اسطوله حتى لو انضم لدعمها المجاهدون من القرى والمراكز المجاورة وإنها والحالة هذه لا تستطيع الصمود لفترة طويلة. بحيث أنه يستطيع اذا ما تم له احتلالها، الاستقرار فيها وتنظيم حامية قوية فيها للدفاع عن قلعتها، وبذلك يصبح (خير الدين) عاجزاً عن مهاجمته او إخراجه من هذه القاعدة.

وكانت مدينة شرشال يومئذ مركزاً من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة، وقد عرف (عروج) أهمية موقعها الممتاز فعمل على تحصينها، وشيد فيها قلعة قوية، وأقيم فيها مصنع لتأمين متطلبات الجيش الاسلامي وإمداده بالأعتدة والمواد التموينية، كما أقيم فيها مصنع للأخشاب يعتمد على غابات (الونشريس) والغابات الكثيفة التي كانت قريبة منها. وكانت شرشال بحكم موقعها الطبيعي - وهي لا تبعد عن مدينة الجزائر الواقعة الى شرقها بمسافة إلا ١٢٠ كيلو متراً، ووهران الواقعة الى غربيها- تشكل تهديداً مباشراً للجزائر اذا ما أمكن للأسطول الاسباني احتلالها تمهيداً لعملياته التالية.

استيقظت الحامية الاسلامية المدافعة عن (شرشال) فاذا بالاسطول الاسباني يتقدم من الأفق ويقترب بسرعة نحو مدينتهم، فاجتمع القادة على عجل، وتقرر إخلاء البلدة من سكانها على الفور، وحشد كل القوى في القلعة للدفاع عنها، واستنزاف قدرة العدو لأطول مدة ممكنة ريثما يصل الدعم من الجزائر ومن داخل البلاد.

انزل (اندريا دوريا) قواته على أرض شرشال بدون مقاومة تذكر، وتركزت الحامية الاسلامية ومن معها من المجاهدين في معقل القصبة، وأخذوا في متابعة تحركات العدو بيقظة وحذر.

وبادر الاسبانيون بالبحث عمن بشرشال من أسرى النصارى، وكانوا نحواً من ثمانمائة، فوجدوا مخابئهم وأخرجوهم، وضموهم الى الجيش، وعمل هؤلاء الأسرى كادلاء نظراً لمعرفتهم بديار كبار القوم وبالأماكن التي تضم مخابىء الأموال ونفائس الذخائر، وانتشر الجيش الاسباني وراء الأسرى، وتحول الى عصابات للنهب والسلب. وأخذت زمر منه في التوغل الى داخل الديار حتى وصل بعضهم الى الحدائق والمزارع المحيطة بالبلدة. وأيقنت القيادة الاسلامية ساعتئذ انه بات بالإمكان الانتصار على هذه الفرق الممزقة بعزل بعضها عن بعض وتدمير كل قوة منها على حدة. ففتحوا ابواب القلعة، واندفعوا وهم يرددون صيحة حرب المسلمين (الله أكبر) وأحاطوا بالعدو من كل جانب، وحالوا بين تجمع هذه الفرق والتقاء بعضها مع بعض، كما حالوا بينها وبين البحر، في حين كانت مدفعية القلعة تقذف قطع الاسطول الاسباني بنيرانها وقذائفها. فاختل نظام العدو، وسادت الفوضى والاضطرابات في صفوفه، فيما كانت نيران الجزائريين وسيوفهم تدمر قوة الغزاة، بحيث لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى

انتشرت فوق أرض شرشال جثث ألف وأربعمائة من الاسبانيين، بالاضافة الى ستمائة أسير وقعوا في قبضة المجاهدين. ولم يتمكن من الوصول الى السفن أكثر من ثلاثمائة رجل من بقايا القوة الاسبانية ومن الاسرى الذين تمكنوا من النجاة.

ووقف (أندريا دوريا) ذاهلاً أمام قوة هذه الصدمة، وتلكأ في الرحيل عن شرشال وهو لا يدري الى اين يتجه ولا ماذا يعمل. وعندها وصله إنذار باقتراب اسطول الجزائر مسرعاً تحت قيادة (خير الدين)، وعرف (دوريا) أنه لا قبل له بمنازلة خصمه في مثل هذه الظروف فقرر مغادرة أرض المعركة بسرعة لحماية ما بقي لديه من القوة. وعندما وصل خير الدين الى شرشال وعرف نتيجة المعركة، انطلق باسطوله لمطاردة خصمه، الذي كان أسرع منه في التحرك فلم يتمكن من اللحاق به. غير أن هذه المطاردة لم تكن محرومة من الثمار. إذ عثر خير الدين على سفينتين اسبانيتين كانتا محملتين بالأعتدة والمواد التموينية، فاستولى عليهما واقتادهما.

ترددت أصداء هذا الانتصار بقوة وانعكست على مختلف دوائر الصراع بأشكال مختلفة. فقد أصبح الشعب في الجزائر أكثر ثقة بقدراته وامكاناته، وباتت الجماهير الخاضعة لحكم (بني زيان) في تلمسان تنتظر لحظة تحررها للانضمام الى مسيرة المجاهدين في سبيل الله.

وأصبحت الامبراطورية العثمانية أكثر استعداداً لدعم (خير الدين) من أجل طرد اعداء الدين من المغرب العربي الاسلامي.

وأصبحت المملكة الاسبانية وامبراطورها شارلكان أكثر تصميمًا على تجهيز حملة قوية يتم بواسطتها التعويض عن الهزائم

السابقة. والتي نالت من هيبة الامبراطورية التي فرضت ذاتها على زعامة الغرب لقيادة الحرب ضد المسلمين.

ونتج عن ذلك تعرض المسلمين في الأندلس لمزيد من القهر والاضطهاد بعد أن تجمعوا فوق بقعة محدودة ما بين ساحل البحر وجبال البشرات. فارتفعت أصوات الاستغاثة التي لم يعد باستطاعة خير الدين تجاهلها أو التنكر لها، لا سيما وأنه تولى انقاذ المسلمين في الأندلس ومساعدتهم يوم لم يكن يمتلك إلا امكانات محدودة، فكيف به وهو يمتلك اليوم امكانات أرهبت أكبر دولة أوروبية.

وهكذا مضى (خير الدين) ومعه (٣٦) سفينة حتى بلغ السواحل الاسبانية التي التجأ اليها المسلمون، ولم يجرأ الاسطول الاسباني التعرض لأسطول (خير الدين) فأخذ هذا على سفنه أكبر عدد من الراغبين في الحفاظ على دينهم وكرامتهم. وكان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق الأرض الأندلسية حتى يحمل مقابلهم عدداً من النازحين. حتى إذا ما أوصلهم الى الجزائر، عاد الى اسبانيا ليأتي بغيرهم، وكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية حتى تمكن من إنقاذ سبعين ألفاً من رجال الأندلس ونسائهم واطفالهم، واشتد بهؤلاء ساعد المسلمين الذين نزلوا بمدينة الجزائر وسهل متيجة (متوجة) وعمروا مدناً مثل البليدة ودلس وأدخلوا الى البلاد بقايا حضارتهم العريقة وصناعتهم وفنونهم وخبراتهم المختلفة.

عمل (خير الدين) بعد ذلك على تطوير صراعه، فاتخذ من جزائر (هيار)[١] الأندلسية قاعدة لعملياته في غرب المتوسط والمحيط

---

(١) جزائر هيار: (ILES D'HYERES) مجموعة جزر تشكل أرخبيلاً في البحر =

الأطلسي، حيث كانت السفن الاسبانية والبرتغالية تحمل وهي عائدة من أمريكا الجنوبية، ذهب الهنود الحمر وثرواتهم. فركز خير الدين وقادته جهودهم لحرمان اسبانيا من هذه الثروة ووضعها في خدمة المسلمين ليتقووا بها على أعدائهم.

وجمع (خير الدين) حوله نخبة من الرجال جعلهم هيئة قيادته، ومنهم ابنه (حسان خير الدين) و(طورغود رايس) و(صالح رايس- موحد الأرض الجزائرية فيما بعد) و(سنان منقذ تونس فيما بعد أيضاً) و(محمد حسن آغا)(١) الذي جعله نائباً عنه أثناء غيابه عن الجزائر.

واشتدت الحرب الصليبية ضراوة بين الامبراطورية العثمانية وأوروبا التي تتزعمها الامبراطورية الاسبانية. وتبع ذلك تصعيد في الصراع البحري الذي تولى قيادته (اندريا دوريا). ورد السلطان سليمان على ذلك بتعيين (خير الدين) اميراً عاماً على البحر (قبودان باشا) مع بقائه على رأس دولة الجزائر.

ب- خير الدين- أميراً عاماًللاسطول العثماني

كان لا بد للأمير (خير الدين) من التوجه الى عاصمة

=الأبيض المتوسط، وهي حالياً تابعة لفرنسا وتشمل جزيرة (بوركورول: PORQUEROLLE) و (بورت كروس: PORT - CROS) وجزيرة الشرق ILE DE LEVANT وجزيرتين صغيرتين.

(١) محمد حسن آغا: يقال إن أصله كان عبداً خصياً من جزيرة سردينيا، تولى خير الدين تربيته تربية اسلامية متينة، وأشرف على تعليمه وتثقيفه، ولم تلبث مؤهلاته أن تفجرت عن كفاءة قيادية عالية فكان يتولى ادارة الجزائر أثناء غياب (خير الدين). وقد بذل جهده لتحصين الجزائر تحصيناً حولها الى قلعة شامخة، كما انجز بناء مرسى الجزائر. وافاد من موجات النازحين الاندلسيين لبناء عاصمة الدولة الجديدة (الجزائر) فاقام فيها القصور الشامخة على الطراز الاندلسي ونظم الحدائق واكثر من بناء المساجد.

الإمبراطورية العثمانية، فخلف نائبه (محمد حسن آغا) على ولاية الجزائر. وسار تواً نحو (استانبول) على رأس جزء من الأسطول يتكون من عشرين سفينة وهناك، في دار الخلافة والسلطنة، استقبل السلطان سليمان القانوني أمير بحره (خير الدين) استقبالاً يليق بأفضل المجاهدين وأكبر قادة المسلمين.

ولم يغادر (خير الدين) عاصمة الامبراطورية، إلا وقد تولى لأول مرة قيادة أسطول ضخم يتكون من ثمانين سفينة، علاوة على سفن الأسطول الجزائري وبات بإمكان (خير الدين) مجابهة التحديات المتعاظمة للأسطول الصليبي- الاسباني.

ومن جهة أخرى أخذت الأمور في التدهور بسبب سوء إدارة الحفصيين (بتونس). وكان الملك قد انتهى فيها الى (السلطان محمد) الذي خلف أباه (محمد بن الحسن) على العرش الحفصي، والذي وصفته المصادر التاريخية بما يلي: «كان محمد بن الحسن مشتغلاً باللهو والخمر، مهملاً لأمور الملك، وترك خمسة وأربعين ذكراً. خلفه منهم الحسن، فقتل اخوته، ولم ينج منهم إلا (الرشيد وعبد المؤمن) لغيبتهما، واشتغل - مثل أبيه - بالخمور والفجور، وجمع حوله أكثر من أربعمائة غلام أمرد. فمالت عنه الأمة الى الرشيد. ولجأ الرشيد الى خير الدين صاحب الجزائر، واستعان به على حرب أخيه. وما كاد السلطان يطلع على حقيقة الحالة (بتونس) ويدرك أن هذه المدينة التي انحصر فيها ملك بني حفص، هي نقطة الضعف في التنظيم الإسلامي الجديد، وأن العدو يوشك أن ينقض عليها ليستخدمها مع طرابلس، لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه، حتى أمر خير الدين بالسير تواً نحو تونس، وإبعاد هذه الأدران عنها». وصل الأسطول

العثماني الذي تولى قيادته خير الدين الى عنابة في شهر آب ـأغسطس ـ ١٥٣٣م) وأخذ منها دعماً جاءه به نائبه (حسن آغا) ثم تقدم نحو (بنزرت) براً، ونحو (حلق الوادي) بحراً، فتمكن منهما بدون عناء، ووقف على أسوار مدينة (تونس) ففتحت له أبوابها، واستقبله أهلها استقبالاً رائعا عبر فيه الأهالي عن تطلعاتهم وآمالهم.

وجمع (خير الدين) حوله الأعراب الذين انساقوا في تيار الفوضى وإثارة الفتن ووحدهم في تيار الجهاد. كما كتب الى الأعراب وحذرهم سوء عاقبة الفتنة في الإسلام. وأجابوه الى ذلك، غير أنهم اشترطوا عليه الابقاء في أيديهم على ما أعطاه لهم بنو حفص من الاقطاعات، فالتزم لهم بذلك، واشترط عليهم، أن يكون مشتاهم بالصحراء. وأن يكفوا اليد العادية ثم بعث الى نائبه بالجزائر في إرسال عسكر وأربعمائة فارس، ولما وصلوا وزعهم بالجهات، لما رأى من حال أمر المملكة.

أثناء ذلك، كان سلطان تونس السابق (الحسن بن محمد) قد وجد طريق النجاة، فهرب متنقلاً من بلد الى آخر حتى انتهى به المطاف الى اسبانيا، وقابل الامبراطور شارلكان، واستثاره لحرب قومه، ولم تكن هناك حاجة لمثل هذه الاستثارة، إذ كان (شارلكان) قد أعد عدته لقيادة حملة قوية ضد المغرب الإسلامي، غير أنه وجد في شخص (الحسن بن محمد) أداة جيدة يمكن استخدامها لتنفيذ مخططه.

قاد (شارلكان) قواته، وأبحر من مدينة برشلونة يوم ٣١ أيار ـمايو ـ سنة ١٥٣٥م. وقد تولى قيادة حملة صليبية حقيقية تضم (٣٠) ألفاً من المقاتلين الأشداء حملتهم (٥٠٠) سفينة شراعية. ووصل هذا الاسطول الى مواجهة (قرطاجنة) وسواحل مدينة (تونس) في يوم ١٦ حزيران (يونيو).

ولم تكن القوة التي يقودها (خير الدين) كافية لايقاف هذه الحملة الضخمة، إذ لم يكن الجيش الإسلامي يضم أكثر من سبعة آلاف من الأتراك وخمسة آلاف من التونسيين، وتخلف الأعراب عن الجهاد، فكانت النتيجة الحتمية هي استيلاء (شارلكان) على معقل (حلق الوادي) وهو مرسى مدينة تونس. واستعد لمهاجمة العاصمة الحفصية، يتقدم صفوفه بصفة رمزية (الحسن بن محمد) الذي كان قد أبرم مع صاحبه (شارلكان) معاهدة رهيبة خان فيها قومه ودينه.

وتقدم الجيش الاسباني نحو مدينة تونس. وفي نفس تلك الساعة، وقع بتونس الحدث الذي عجل بالانهيار، والذي كان السبب المباشر للكارثة العظمى، ذلك هو انتفاض عشرة آلاف أسير نصراني كانوا محبوسين في العاصمة الحفصية. فعندما خلت المدينة من الجيش الذي تقدم لقتال العدو، وجد هؤلاء الأسرى فرصتهم السانحة، فخرجوا من معتقلهم، ونظموا صفوفهم. ثم هاجموا معقل القصبة الذي لم يكن به من الحرس إلا القليل. فتمكنوا منه، ووجهوا مدافعه في اتجاه جيش المسلمين، الذي وقع بين نارين، وأوصدوا أبواب المدينة وأقاموا عليه الحراسة، ليمنعوا خير الدين وجيشه من الرجوع اليها والتحصن لمقاومة شارلكان ريثما تصل قوات الدعم. وشعر (خير الدين) بالخطر من قبل أن يغادر مدينة تونس، وكان قد اتخذ قراره بابادة هؤلاء الأسرى غير أن سرعة تقدم (شارلكان) أعاقته عن تنفيذ ما قرره. وهكذا خرج خير الدين للقاء الحملة الصليبية فاستولى على (برج العيون) ثم رجع بمن معه الى المدينة، فاضطرب عليه أهلها، بعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم انحرف عنه وانضم الى السلطان أبي حفص، فجمع أعيان الناس، وتحدث إليهم، فاختلفوا عليه، فتركهم وخرج بمن معه الى الحرب. وأبلى خير الدين

في ذلك اليوم البلاء الحسن. غير أنه لم يتمكن من الصمود طويلاً، واضطر الى الانسحاب الى (القصبة). ودخل السلطان الحفصي -الحسن- الى تونس في مقدمة الجيش الصليبي. ولقيهم الأعراب بالمقاومة، فقاتلهم قائد الجيش الصليبي -الصبنيول- ودخل السلطان القصبة، ووعد أهلها بالأمان، وهو لا يملك حق إعطاء الأمان بعد أن تعهد للصبنيول بالموافقة على شرطه وهو استباحة البلاد لمدة ثلاثة أيام. وما إن أمن الناس، وخرجوا من معاقلهم، وتخلوا عن أسلحتهم وانصرفوا الى أعمالهم ومتاجرهم، حتى باغتتهم القوات الاسبانية، وأعملت فيهم قتلاً وبمتاجرهم نهباً وببيوتهم سبياً. وفر الى (زغوان) من استطاع أن يجد الفرصة للفرار بنفسه وبأهله.

وانتهت هذه المذبحة الرهيبة بابادة ثلث أهل تونس ونجاة الثلث ووقوع الثلث في قبضة الأسر والمأسور يفتدي نفسه ان كان له مال. وبلغت الفدية ألف دينار، وتغيرت البلاد وطمست أعلامها **وكانت هذه النكبة التي تعرضت لها تونس في سنة ٩٤١هـ (١٥٣٥م) هي أقسى ما عرفته في حياتها من نكبات وكوارث، إذ أن عدد القتلى من سكان تونس خلال الأيام الرهيبة الثلاثة قد بلغ سبعين ألفاً. ونهبت خلال ذلك ثروات المدينة وكنوزها ونفائسها وأموالها وما تراكم فيها عبر مئات السنين بفضل ما عرف عن أهلها من الجهد والنشاط. وأضيفت الى قائمة الكوارث التي تعرضت لها المدن الاسلامية (مثل بغداد على أيدي التتار والقدس على أيدي الفرنج الصليبيين) كارثة جديدة عرفت (بكارثة تونس).**

لقد استمرت معركة تونس ٣٦ يوماً، مما يؤكد قسوة الصراع وعنفه، فقد نزل الاسبان فوق أرض تونس يوم ١٦ حزيران -يونيو-

واحتلوا حلق الوادي يوم ١٤ تموز ـ يوليو ـ أي بعد شهر تقريباً. واحتلوا تونس ونكبوها يوم ٢١ تموز ـ يوليو ـ. وقد حاول (شارلكان) التخفيف من وقع المذبحة، والقاء تبعاتها على أهل تونس، فكتب الى عميله حاكم مدينة (بجاية) رسالة يوم ٢٣ تموز (يوليو) ١٥٣٥ يقول فيها:

«ولكن، وبما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولاً حسناً، كما يستحق، وكما هو واجبهم، فقد رأينا ان نأمر بنهب المدينة، انتقاماً منهم على سوء سلوكهم».

استقر السلطان (الحسن بن محمد) على عرش تونس، فوق أشلاء أمته الممزقه وعلى جثث الضحايا من رجال قومه ونسائهم وأطفالهم. وعقد مع الاسبانيين معاهدة نصت على ما يلي:

١ـ اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الاسبانية.

٢ـ ملكية الاسبانيين ملكية مطلقة لمرسى (حلق الوادي) و(قرطاجنة) و(مدينة عنابة) و(مدينة المهدية).

٣ـ التزام السلطان بألا يدخل بلاده أحداً من مهاجري الأندلس، يهودياً كان أو مسلماً.

وانسحب (شارلكان) باسطوله ومعظم جيشه الى قاعدته في صقلية. وعاد (خير الدين) الى قاعدته الأساسية (في الجزائر) بعد أن عانى وقواته من الجوع والظمأ والحر. واستقر حيناً بمدينة (قسنطينة). واستقبل أهل الجزائر رجوعه بالبهجة. وانصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم قواته من أجل استئناف الجهاد ضد الاسبانيين، لا سيما وقد ظهر بوضوح أن (شارلكان) قد صمم على تدمير دولة الجزائر مهما بلغ الثمن وقد تبين ان مخطط (شارلكان) يعتمد على انتقاص حدود

الجزائر بصورة تدريجية قبل الانقضاض على قلبها (عاصمتها). ومن أجل ذلك، فقد قام بالاستيلاء على (مرسى هنين) ومدينتها.

كانت مدينة (هنين) هي المرسى الطبيعي لعاصمة تلمسان، نظراً لقرب المسافة بينهما، إذ تقع داخل جون حسن، في منتصف الطريق بين (بني صاف) و(جامع الغزوات) وبينها وبين تلمسان -على خط مستقيم- مسافة (٤٥) كيلو متراً. وكان ملك (تلمسان) قد أرسل مدداً لمرسى هنين عندما قام الاسبانيون باحتلال مدينة (وهران) في سنة ١٥٠٩. وقام بتحصينها وتنظيم الدفاع عنها نظراً لما لها من أهمية اقتصادية باعتبارها مركز المبادلات التجارية مع أوروبا بصورة عامة ومع بلاد البندقية بصورة خاصة.

ووجه الامبراطور (شارلكان) أمراً الى قائده (دون الفارو دوبازان) في شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٣١، باحتلال مدينة (هنين) ومهاجمتها بقوة. ولم يتأخر (دوبازان) عن تنفيذ الأمر، فركب وجيشه البحر على متن ١١ سفينة حربية بالاضافة الى سفينتين ناقلتين للجنود، وأخذ معه أعتدة ومواداً تموينية تكفيه لمدة شهرين. وخرج- من مالقة في شهر آب (أغسطس). ثم حل بمدينة وهران حيث انضمت لقوته مجموعة من المقاتلين تتكون من (٢٥٠) جندياً، وغادرها يوم (عيد سان برتلمي- في ٢٤ آب- أغسطس) ووصل الى مدينة هنين يوم ٨ أيلول -سبتمبر- سنة ١٥٣١. ودخل الاسطول الاسباني المرسى واحتل المدينة والقصبة.

لم تكن المدينة تتوقع هذا الهجوم المباغت، ولم تكن قوة الحامية متمركزة في مواقعها عندما وقع العدوان وعلى الرغم من ذلك فقد قاوم المواطنون عملية الغزو وقتلوا (٤٠) اسبانياً، بالإضافة الى مائة

جريح. وكتب راهب- أسقف- طليطلة الى الإمبراطور- مبشراً بالفتح، وكان في رسالته ما يلي:

«أكد لنا الذين يعرفون البلاد، أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة، ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان أكثر من (١٢) مرحلة، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التي يمكن أن نتداولها مع العرب، كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بصورة خاصة على ابقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا، فهو لن يفكر في مهاجمتنا عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها».

أما الدكتور لبريخا ممثل الامبراطور بوهران فقد كتب لسيده يوم ٢ أيلول- سبتمبر- ١٥٣١ ما يلي: «أعتقد أن احتلالنا لمرسى هنين انما هو حدث عظيم جداً، ذلك أننا باستقرارنا وبتمكننا من هذه البلدة، نستطيع ان نعاقب ملك تلمسان، ونجبره على القيام بتعهداته، ذلك أن الطريق من هنين الى تلمسان، أقرب وأضمن من طريق وهران والمرسى الكبير، ونستطيع من هذه البلدة، دون كبير عناء، أن ندخل مدينة تلمسان، وأن نأخذ من مولاي عبد الله أحسن ممتلكاته[١]».

---

(١) تجدر الاشارة الى تلك المقاومة البطولية التي نظمها الشعب المجاهد في (هنين) حيث حرم الاسبانيين من متعة انتصارهم، واحكم الحصار حولهم، ولم يترك لهم الفرصة للتوغل الى داخل البلاد، وحرمهم من الحصول على متطلباتهم من المواد التموينية. وشن عليهم الغارات باستمرار، وارغمهم بعد ثلاث سنوات من الصراع المرير على الجلاء عن (هنين) حيث انسحبت القوات الاسبانية في كانون الثاني- ديسمبر- ١٥٣٤. وقد كان انتقام الاسبانيين رهيباً، إذ أمعنوا في تخريب المدينة وتدميرها حتى جعلوا عاليها سافلها. وقوضوا معالمها، وافسدوا مساجدها، وضربوا مرساها، ومحوا آثارها من الوجود، بعد ان كانت طوال خمسمائة عام مناراً من منارات الاسلام الشهيرة.

أراد (شارلكان) استثمار الظفر الذي أحرزه في تونس، وتنفيذ شروط معاهدته مع عميله (الملك الحسن بن محمد) والإفادة من حالة العطالة التي تعرض لها خير الدين بعد معركة تونس، فأصدر أمره الى قائد حملته (المركيز دي مونديخار) بالاستيلاء على مدينة (عنابة) بونة، والتي كانت تابعة بصورة اسمية للسلطان الحفصي في تونس. وهكذا تحرك الاسطول الاسباني في شهر آب -أغسطس- نحو عنابة.

ووصلها، وقام باحتلالها، وأرسل قائد الحملة الى الامبراطور تقريره عن نجاحه في تنفيذ مهمته وذلك في يوم ٢٩ آب -أغسطس- ١٥٣٥. وتضمن التقرير ما يلي:

«كان البحر هادئاً، انما كانت الرياح معارضة، فلم يصل الاسطول الا بعد خمسة أيام الى عنابة، وكان -دون الفارو دي بازان- قد سبقنا اليها مع الناقلات، وما كاد يصل حتى تلقى بعض ضربات المدفعية مما يدل على أن السكان قد صمموا على الدفاع. وأنزلنا الجند، ثم شكلنا كتيبتين وأرسلناهما لمهاجمة القصر. ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه، فبادروا بالتخلي عنه. ولم نفعل ذلك اليوم شيئاً آخر. فاكتفينا باحتلال القصبة والمدينة. أما الناقلات التي منعتها مدافع العدو من الاقتراب، فانها قد دخلت المرسى، وانصرفنا خلال الأيام الثلاثة التالية الى انزال المدفعية والذخائر والمؤن الى البر. وبعد دراسة وضع المدينة والقلعة، تأكدنا أنه يجب احتلالهما معاً وفي وقت واحد. لأن الجند الذي يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة من نجدة العرب الذين يحتلون المدينة ويدافعون عنها، ويجب علينا أن لا نترك العرب يدخلون المدينة إلا بعد التصريح لهم بذلك. فإذا دخلوها فيجب الا يجدوها خالية من قواتنا لأنهم في هذه الحالة قد يفكرون

بالعودة اليها، أو أن يدخلهاعـربٌ آخرون مكانهم ويتصرفون فيها بصفة تجعلها غير صالحة للسكنى - ولقد تركت (٢٠٠) جندي بالقصر، و(٦٠٠) جندي بالمدينة، وإذا ما رأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد، فعلينا أن نقيم حصناً فوق المرتفع الذي يعلو المرسى، حتى نستطيع نجدة جند القصر».

لم يكن باستطاعة (خير الدين) وهو يتابع شراسة الهجمة الصليبية، الوقوف في حالة من العطالة أو الجمود، فقرر توجيه ضربة للاسبانيين في قواعدهم، ووقع اختياره على مدينة (ماهون) عاصمة جزائر الباليئار، والمدينة الأولى في جزيرة (مينورقة).

قاد (خير الدين) اسطوله بكفاءة، حتى إذا ما وصل الى (ماهون) قام باحتلالها، غير أنه تجنب سفك الدماء، ولم يفعل ما فعله الاسبانيون في تونس. واكتفى باستحواذ كل ما ضمته المدينة من الثروات. وعاد بها الى الجزائر، حيث تم توزيعها على المجاهدين بعد تخصيص الخمس (لبيت مال المسلمين) أما الأسرى الذين اقتادهم (خير الدين) من جزيرة (مينورقة) وعددهم ستة آلاف نسمة فقد احتفظ بهم في الجزائر.

كان من أثر هذه الإغارة الانتقامية أن تناقصت أهمية انتصارات الاسبانيين في المغرب الاسلامي وأخذت الشكوك في التعاظم حول أهمية ما تبذله القوات الصليبية طالما أن التهديد الذي تمثله الجزائر لا زال قائمًا، وطالما أن الخطر الذي يمثله (خير الدين) لا زال مستمراً. ترددت أصداء انتصار (خير الدين) - كالعادة - وبصورة متضادة في العاصمتين المتصارعتين (استانبول - و - مدريد) حيث كان الصراع قد وصل ذروته على كافة الجبهات، الأمر الذي دفع السلطان سليمان القانوني الى استدعاء (خير الدين) الى القسطنطينية لتولي قيادة

الاسطول العثماني. وعندها كلف (خير الدين) نائبه (محمد حسن آغا) بإدارة أمور المملكة الجزائرية وتوجه الى عاصمة الامبراطورية العثمانية فوصلها في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٥٣٥م.

أصبح باستطاعة (خير الدين) وهو في مركزه الجديد، أكثر قدرة وأشد عزيمة لمتابعة الجهاد ضد الاسبانيين وأنصارهم، وقد عمل على إقناع السلطان سليمان بضرورة شن الحرب على البنادقة، وتم له ذلك في سنة ١٥٣٧، وعندها انصرف (خير الدين) إلى إدارة الحرب بكفاءة عاليه بحيث لم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى استطاع تجريد البنادقة من كل ممتلكاتهم في بحر إيجه حتى سواحل كريت (أقريطش) وتينوس وميقونوس. ولكن اهتمامه الأكبر بقي مركزاً على (الجزائر) التي أحبته وأحبها، وأخلص لها بقدر ما أخلصت له. ومن أجل ذلك أيد بحماسة بالغة مبدأ التحالف مع ملك فرنسا (فرنسيس الأول) ضد امبراطور الغرب (شارلكان). غير أن تصعيد الصراع على حدود أوروبا البرية وفي شرق البحر الأبيض المتوسط قوبل بتحولات خطيرة على مسرح المغرب العربي الإسلامي واعتمد (شارلكان) هنا على (أعداء الداخل) أكثر من اعتماده على (القدرة العسكرية) للوصول إلى أهداف (الحرب الصليبية الشاملة).

ج ـ اعداء الداخل في غياب (خير الدين)

عرف الافرنج الصليبيون عامة والاسبانيون الكاثوليكيون منهم بصورة خاصة، أن ضعف المسلمين عامة إنما يكمن داخلهم أكثر مما يكمن في قدراتهم وإمكاناتهم. وقد أثبتت تجارب الصراع في الحروب طويلة الأمد على جبهتي الشرق والغرب، في الشام والأندلس، أن الانتصارات التي أحرزها الصليبيون لم تكن إلا بسبب تمزق العرب

المسلمين وتشتتهم. ولهذا فقد اعتمد قادة الافرنج باستمرار على الخداع والتفرقة أكثر من اعتمادهم على قوة السلاح، وإذا ما تم استخدام قوة السلاح، فهو من أجل دعم السلاح الأول وزيادة فاعليته. وهكذا جاء (شارلكان) ليسير على سياسة أسلافه وليعمل على تطويرها، فبث جواسيسه وعملاءه في كل مكان، وأخذ في استثمار التناقضات المتوافرة من أجل اقتطاف ثمارها. وقد يكون من الصعب استعراض الأساليب المختلفة والطرائق المتنوعة التي تم استخدامها في هذا المضمار، ولعل الإشارة الى بعضها كافية لابراز الملامح العامة لما كان عليه الموقف في تلك الحقبة التاريخية من الصراع على جبهة المغرب العربي الإسلامي.

كان محمد السابع (١٥٢٤) بن عبد الله الثاني حاكم تلمسان قد وصل الى الحكم بدعم الحراب الاسبانية، وثار عليه أخوه عبد الله الذي ناصره جده لأمه عبد الرحمن بن رضوان أحد شيوخ قبيلة بني عامر. ووقف الاسبان خلف الأخوين، يحرضانهما، ويستثيرانهما.

وها هو تقرير كتبه الحاكم العام لوهران (بيدرو دي لودي) ورفعه للأسقف بتاريخ ٢٠ آب ـأغسطس- ١٥٣١ وفيه ما يلي:

١ـ«يخوض الملك عبد الله حرباً ضد أخيه عبد الله، وقد أرسل مولاي عبد الله جيشه لقتال أخيه محمد، ووقعت معركة يقال أن النصر فيها كان لجماعة عبد الله، لكن قائد بني راشد جاء على رأس خمسمائة من الرجال، فاضطر أخو الملك إلى الانسحاب، وجميع عرب المملكة قائمون اليوم: بعضهم مع الملك وبعضهم مع الأمير عبد الله. وأنا أظن أن كل العرب في هذه الناحية الشرقية من المملكة سينضمون الى الأمير عبد الله إذا ما حل بهذه الساحة. ونرجو أن يقع الأمر على هذا

المنوال، لأن أخا الملك أصبح حليفنا، وبذلك سنمسك بجميع خيوط اللعب ويستطيع صاحب الجلالة - امبراطور اسبانيا - أن يفيد من الموقف حسب إرادته - وأنا أعتقد أن ذلك ممكناً، إذا ما أخذنا بهذه الطريقة: جلالة الامبراطور يؤيد عبد الله ويعترف به ملكاً، ويسلم إليه قسماً مهماً من الأراضي التي سننتزعها من قبضة الأتراك. لكننا مع ذلك لا نقوض سلطان ملك تلمسان، ونترك له ما بيده من الأرض.

وبهذه الطريقة سيعلن الاثنان سرورهما ورضاهما، وسيكونان معاً عوناً لنا على محاربة -خير الدين بربروس- ان ملك تلمسان، (مولاي محمد) قد دعا إليه أحد اليهود من هنا - وهران - ولا ريب أنه سيتخذه واسطة للدخول في مفاوضات معنا. أما العرب الذين أرسلهم لنا الأمير محمد، فقد اعتبروا دعوة هذا اليهودي لتلمسان فضيحة، وبذلت جهدي لتهدئة خواطرهم. وهذا ما يحدث غالباً لمن يتعامل مع الطرفين المتصارعين في وقت واحد».

٢ - وجاء في رسالة الدكتور (لبريخا كوريجبدور) من وهران إلى الامبراطور بتاريخ ٢ أيلول (سبتمبر) ١٥٣١ ما يلي:

«أبذل قصارى جهدي لاقناع عرب المملكة - تلمسان - بأن ينضموا إلينا، وأعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه بعهوده، وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل. ولقد دخلت في مفاوضات مع الأمير عبد الله، مع حرصي على أن يعرف الملك - مولاي محمد - ذلك بصفة رسمية، حتى يعلم مدى الخسارة التي تلحق به من جراء امتناعه عن خدمة جلالتكم. وقد طلب الي الملك أن أرسل له شخصاً للتفاوض معه منذ خمسة عشر يوماً، فبعثت إليه باثنين

من اليهود الحذرين الأذكياء، وهما أفضل من وجدت هنا. وسارت الأمور سيراً حسناً في بداية الأمر، لكن الأحوال ساءت عندما حل بتلمسان مندوب من قبل التركي العظيم (سليمان القانوني) إذ أظهر مولاي محمد عندها الاعتزاز بالرسول التركي، مما جعله لا يقف عند حدود عدم استقبال المندوبين اليهوديين، بل إنه أسلمهما للقتل. وفي هذه الأثناء، أعلمني الأمير عبد الله بأنه سيحل قريباً بوهران، بصحبة نسائه وأولاده والشيوخ المنضمين تحت لوائه، وأعلمني كذلك أنه سيسلم إلي الرهائن التي طلبناها منه. وأشعر في الواقع بالحيرة، لانني كنت اخبرت الأمير بأنه إذا ما وضع عائلته عندنا في مدينة وهران، وحذا الشيوخ المنتمون اليه حذوه، فإن جلالتكم سوف تسلمون له العون من مال ورجال حتى يحتل مدينة تلمسان، على شرط أن يكون أكثر وفاء من أخيه في تنفيذ شروط الاتفاقية التي ستعقد معه».

٣ـ وكتب حاكم (هنين) رسالة للامبراطور (شارلكان) في يوم ٢٦ نيسان ـ أبريل ـ ١٥٣٤ يصف بها حالة (الموقف) في تلمسان؛ وجاء في الرسالة ما يلي:

«كتبت منذ أيام لجلالتكم أعلمكم أنني اتصلت من جواسيسنا بأخبار عن مولاي محمد ملك تلمسان، انه قد استعرض يوم ٢٠ من هذا الشهر جيشاً أعده لقتالنا، وهذا الجيش مستعد للسفر حيثما يريد. وأخبرني أحد هؤلاء الجواسيس أن الملك قد اتصل برسول من الجزائر يحمل إليه رسالة تخبره بموت ـخير الدين ـ بربروس. فحزن الملك حزناً شديداً، وألقى بنفسه فوق الأرض نائحاً منتحباً، ثم نهض وقال للشيوخ الذين كانوا حوله، بما أن والدي بربروس قد مات، فلم يبق لنا من عمل نعمله، وطلب اليهم أن يعودوا إلى بلادهم ريثما

يحصل من الأتراك على العون والتأييد من جديد. فلما سمع الشيوخ حديثه، خرجوا من عنده وكلهم يقول فيه سوءاً. ويقول بعض الجواسيس الآخرين أنه جاءت بعد ذلك رسالة من الجزائر تؤكد ان بربروس لم يمت، إنما هو في مكان مجهول. ويقول البعض أن الملك مولاي محمد لا يريد أن يحارب النصارى، لأنه رجل ليس له إرادة على القتال وانه منصرف الى ملذاته، وغارق فيها، وأنه لا يفكر إلا في ابتزاز المال من أية جهة كانت. ويقولون إنه جاء من مدينة الجزائر بزوجتين دخل بهما في هذه المدينة، وجاء كذلك بزوجتين أخذهما بمدينة (فاس) عندما كان محارباً لأبيه. وبعدما تولى المُلك بتلمسان، تزوج ست عشرة مرة، ولا يفعل شيئاً إلا إقامة الحفلات والأفراح، ويلح في طلب المال من أهل المدينة ومن العرب واليهود».

٤ـ وعندما اندلعت الحرب بين الأخوين ملك تلمسان (محمد) وأخيه (عبد الله) الذي كان الاسبانيون يناصرونه ويناصرون جده (ابن رضوان) انتصر ملك تلمسان، وكتب حاكم وهران (الكونت دي الكوديت) تقريراً بتاريخ ١٢ تموز ـ يوليو ـ ١٥٣٥ رفعه للامبراطور شارلكان، وجاء فيه:

«إن ـ ابن رضوان ـ لا يفكر إلا في أمر واحد الا وهو الانتقام وأخذ الثأر من مولاي محمد. ولقد طلب مني الإذن بالقدوم الى وهران، وكذلك طلب بقية الشيوخ الذين بقوا على ولائهم له. وقد منحتهم الإذن. وبما أنه من المهم جداً بالنسبة إلينا أن يبقى العرب دوماً مختلفين، فقد حرضت ابن رضوان والشيوخ الذين معه على مواصلة القتال... وعلى كل فانني مواصل الجهود لكي يتفاقم أمر الخلاف بين الطرفين».

لقد نجحت هذه السياسة في تحقيق أهدافها، وكان من بعض نتائجها تثبيت أقدام الاستعماريين الاسبانيين فوق بعض مواقع المغرب العربي- الاسلامي. وكان من بعض نتائجها اخضاع الحكام وإشاعة روح التخاذل وهي الروح التي وجدت تعبيراً لها في التحالفات التي أقامها الحكام الاسبان مع بعض الحكام (مثل المعاهدة الاسبانية مع ملك تلمسان)[1].

لقد كانت عملية (التفتيت المادي والمعنوي) لقوى العرب المسلمين هي المرحلة التمهيدية لتطوير الأعمال العدوانية، والتي سبقتها عملية جمع معلومات دقيقة عن موازين القوى وتوزيعها وامكاناتها (أعمال الجاسوسية) وقد يكون من الصعب استقراء كافة البيانات والتقارير المتوافرة في هذا المجال غير انه ليس من الصعب أبداً معرفة الصورة الإجمالية للجهد المبذول خلال مرحلة الإعداد للمرحلة التالية من الحرب، عبر التقريرين التاليين.

٥- تقرير سري اسباني عن قوة الجزائر- سنة ١٥٣٣:

«يحكم الجزائر الآن (حسن آغا) وينوب عنه في حالة غيابه (حاج باشا) و(القائد الصوردو). ويوجد بمدينة الجزائر (١٨٠٠) تركي. أما ببقية البلاد فيوجد من الأتراك: في تنس ٢٥، في برسك ١٠، في شرشال ٣٠، في المدية ١٥٠، في مليانه ١٠٠، في تادلس ٦٠، في بنوره- أوزنوره- ٢٠، في جيجل ٢٠، في القل ٢٠، في قسنطينة ٣٠٠، فيكون المجموع ٧٣٥. وهكذا يوجد (٢٦٠٠) تركي تقريباً، وتوجد بمدينة الجزائر (٣) آلاف عائلة عربية تقريباً و(٣٠٠)

---

(١) انظر نص هذه المعاهدة في (قراءات- ٤) في نهاية الكتاب.

عائلة يهودية. أما القوة التي بين يدي حسن آغا، وهو مخيم الآن خارج المدينة فهي تشمل (٧٠٠) تركي وألف فارس وألفي راجل من العرب، ويشمل تسليح الجزائر ما يلي: في البرج الفوقانـي ثلاثة مدافع لرمي الحجارة، و(٥) مدافع صغيرة. وفي البرج الكبير بباب الواد مدفعان كبيران ومدفعان صغيران. وفي زاوية باب الواد قرب البحر أربعة مدافع، ومن هذا المكان الى الباب المقابل للجزيرة (١٧) مدفعاً، ومن هذا الباب الى المسجد الكبير (١٧) مدفعاً من البرونز و(٤) مدافع من الحديد. وبين المسجد الكبير ودار الصناعة (٢١) مدفعاً من بينها (٦) مدافع صغيرة من الحديد. وبين دار الصناعة وباب عزون (٨) مدافع، وفوق الباب ذاته مدفعين صغيرين (يرميان قنابل من الرصاص تزن الواحدة منها كيلو غرام تقريباً). وفي المرسى (٨) سفن يحتوي أكبرها على (١٧) صفاً للجذافين. ويشتغلون الآن في المدينة بصنع الخبز المجفف (كعك أو بسكويت) بكل نشاط. وكذلك في المدية والمليانة، الأمر الذي لم نشاهده من قبل أبداً. ويسود الانزعاج في المدينة لأنهم سمعوا أن الإمبراطور سيعقد الصلح مع ملك فرنسا. لكن خواطرهم هدأت عندما علموا أن السلطان يجهز الآن عمارة قوية ـ أسطولاً».

٦ـ وهذا تقرير سري اسبانـي آخر عن حالة الجزائر:

الى صاحبة الجلالة الملكة

من فرانسيسكو بيريز دي ايديا كاييزـ حاكم بجاية.

بجاية ٢٩ آذار ـ مارسـ ١٥٣٦

«وردت الينا معلومات من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من

العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ شباط (فبراير) وغادروا الجزائر بسفينة صغيرة أوصلتهم الى مدينة بجاية.

يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وزعها بربروس على الحاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو من سردينيا، اسمه حسن آغا، وسكان المدينة في قلق شديد، لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك أسطول جلالتكم. وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة في ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة، لكن العمل لم يتم الى الآن نظراً لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون بألف وخمسمائة من العرب المحيطين بالجزائر من أجل انجاز العمل. أما مدينة قسنطينة ففيها ألف وخمسمائة من الإنكشارية يقودهم تركي اسمه (القائد كلج علي) وبربروس هو الذي أرسل هؤلاء الإنكشارية وبما ان كلج علي هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم الى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم».

د ـ شارلكان وغزو الجزائر

كان (شارلكان) يعمل جاهداً على خلق كتلة أوروبية قوية تجابه العالم الإسلامي. وعندما توفي الامبراطور النمساوي (مكسيميليان) طمع (شارلكان) في ضم هذا العرش. وكان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) يطمع في السيطرة على هذا العرش أيضاً والذي ينضوي تحت لوائه سبعة ملوك وأمراء. ومن هنا، واعتباراً من سنة ١٥١٩، بدأ الصراع بين الملكين. واجتمع الأمراء الناخبون (الالكتر) في مدينة

فرانكفورت، وبعد المساومات المعهودة تم الاتفاق يوم ٥ تموز (يوليو) ١٥١٩ على انتخاب ملك اسبانيا امبراطوراً للغرب وأصبح يحكم معظم إيطاليا وبلجيكا وهولاندا والنمسا وبعض الشمال الافرنسي بالإضافة الى الممتلكات الاسبانية في الارض الجديدة (امريكا الجنوبية) ووجدت فرنسا نفسها محاطة بالأعداء وهي تكاد تفقد استقلالها، سيما بعد خيانة مارشال فرنسا (الامير دي بوربون) أثناء الحرب، واتفاق الأمراء على اقتسام ترابها. وبعد معارك طويلة قاسية، وقع ملك فرنسا أسيراً في إيطاليا يوم ٢٤ شباط (فبراير) ١٥٢٥ وحمل الى مدريد، حيث ارغم على توقيع معاهدة سلم فيها لأعدائه ما طلبوه منه، وكتب إلى أمه يقول:

«سيدتي، لقد خسرت كل شيء، ما عدا الشرف والحياة». ثم أطلق الاسبانيون سراحه بعد أن ترك ولديه رهينة عندهم. وأرسلت أمه - أو أرسل هو عن طريق أمه - رسالة يستغيث فيها بالسلطان سليمان القانوني لنجدته والتحالف معه. وأجابه سليمان الى ما طلبه[١] وما كاد يذاع نبأ هذا الحلف بين سلطان المسلمين وملك فرنسا المسيحي، حتى اجتاحت أوروبا موجة من النقمة، وارتفع صوت التنديد بملك فرنسا الذي يستنجد - بالكفار - اعداء المسيحية ضد ملك مسيحي. وأسهم (شارلكان) بهذه الحملة من أجل تضييق الخناق على فرنسا، وأعلن الغاءه للمعاهدة السابقة التي عقدها مع ملك فرنسا وكان التحالف الذي تم الاتفاق عليه بين الملك الفرنسي ومندوبي السلطان العثماني ينص على القيام بهجوم مشترك ضد إيطاليا. وفي أيار - مايو - سنة ١٥٣٨ جمع السلطان سليمان في البانيا جيشاً كبيراً من

---

(١) انظر نص رسالة السلطان سليمان في (قراءات - ٥) في آخر الكتاب.

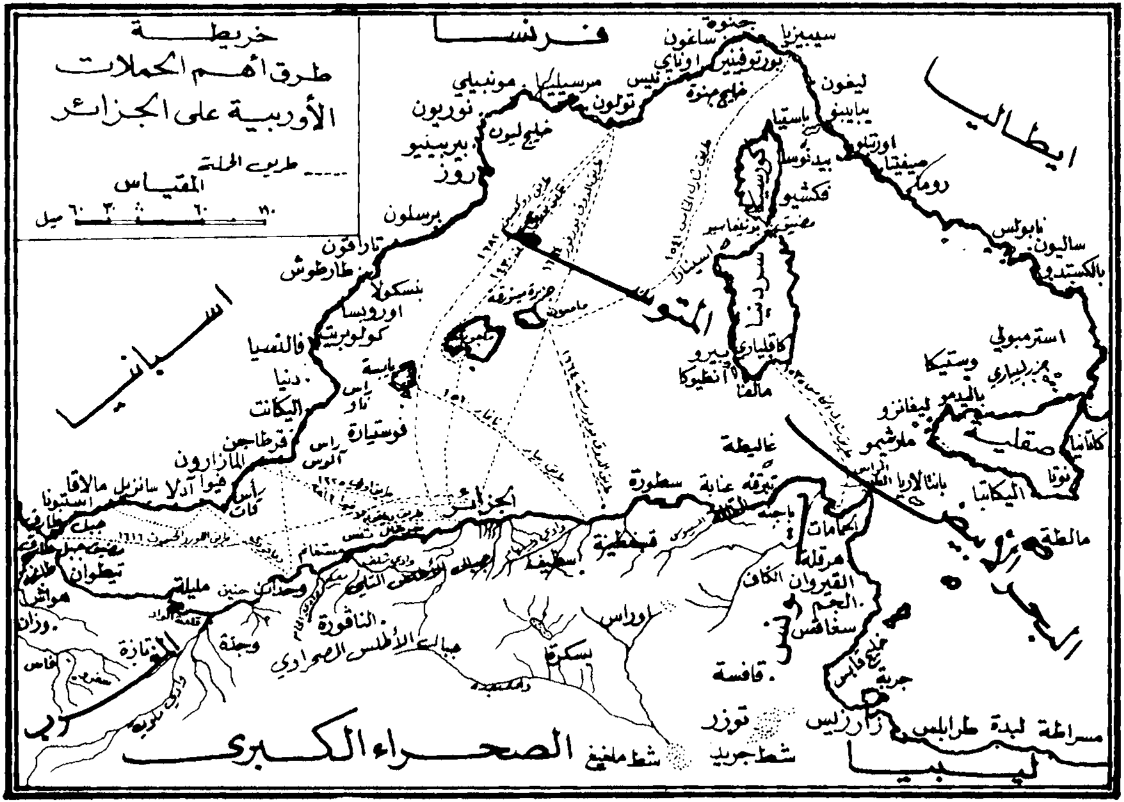

خريطة
طرق أهم الحملات
الأوربية على الجزائر
طريق الحملة
المقياس
ميل
فرنسا
اسبانيا
ايطاليا
البحر الأبيض المتوسط
الصحراء الكبرى
ليبيا
تونس
الجزائر
صقلية
سردينيا
كورسيكا
جنوة
سيبيزيا
ساغون
نيس
مرسيليا
مونبيلي
نوربون
طولون
خليج ليون
ليفون
بيربينيو
روز
برسلون
تاراقون
طارطوش
بنسكولا
فالنسيا
دنيا
اليكانت
قرطاجن
المارازون
رأس تاو
فوستيارة
جزيرة ميورقة
جزيرة منورقة
ماهون
بونيفاسيو
ألميرة
كالياري
بالرمو
مالطة
تونس
بنزرت
عنابة
سطورة
قسنطينة
سطيف
بجاية
دلس
شرشال
مستغانم
وهران
مليلية
تيطوان
سبتة
طنجة
جبل طارق
وجدة
الناقورة
جبال الأطلس الصحراوي
بسكرة
أوراس
القيروان
الكاف
سفاقس
قفصة
توزر
شط جريد
شط ملغيغ
جربة
خليج قابس
طرابلس
مسراطة
لبدة
زارزيس
وزان
فاس
مكناس

مائة الف مقاتل للهجوم على إيطاليا.

وكان معه ولداه (محمد وسليم) وسفير فرنسا في استامبول (مسيو دولانوي) وفي الوقت ذاته قام (خير الدين باشا) بإنزال قواته في ميناء أوترنته بجنوب إيطاليا، استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق، وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن ملك فرنسا أحجم عن التقدم استجابة للرأي العام المسيحي، وأدى ذلك الى فشل المشروع، وانتهى الأمر بتوقيع هدنة بين ملك فرنسا وبين الامبراطور (شارلكان)، ووقعا على معاهدة الصلح في (نيس) سنة ١٥٣٨ بعد أن مارس البابا (بولس الثالث) نفوذه القوي من أجل المحافظة على الوحدة المسيحية، وصداً للتقدم الاسلامي في بلاد إيطاليا.

فتحت معاهدة (نيس) المجال الواسع أمام (شارلكان) لإعداد حملته الضخمة ضد الجزائر، لا سيما وأن ملك فرنسا تعهد لشارلكان بأنه لن يحاربه ولن يقوم بأي عمل ضده، أثناء محاربته وتحطيمه لسلطان المسلمين في مدينة الجزائر، ففرنسا والبابا وكل البلاد المسيحية كانت مشتركة في الحملة العظمى على مدينة الجزائر.

كان نائب خير الدين في ولاية الجزائر (محمد حسن) يتابع جهوده لإعادة تنظيم البلاد. وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار فيها، وحشد القوى والوسائط لتطوير الصراع ومجابهة الاحتمالات المختلفة، غير أن ذلك لم يصرفه عن متابعة الجهاد في سبيل الله في البحر. وقاد مجموعة من العمليات كان من أبرزها إغارته على جبل طارق ومعركته البحرية ضد قوة من الاسطول الاسباني.

ففي عمليته الأولى، **جهز قوة من (١٣٠٠) مقاتل حملتهم**

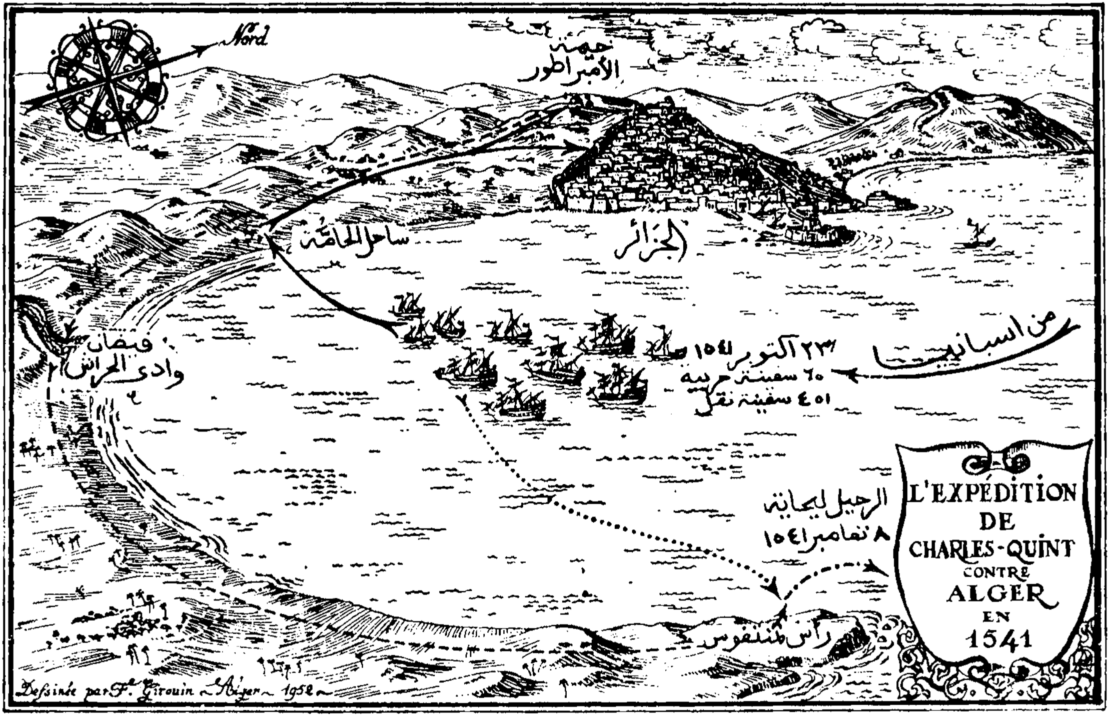

تفصيل معركة الجزائر الكبرى وانكسار الاسبان برا وبحرا امامها

(١٣) سفينة حربية غادرت الجزائر في شهر أيلول (سبتمبر) ١٥٣٩ .

ووصلت هذه القوة الموانىء الجنوبية الأندلسية، وقامت بالإنزال وأغارت على جبل طارق، فاحتلت البلدة، واستولت على ما فيها من غنائم، وأوغلت في الاقليم وهي تصادر ما يقع تحت أيدي المجاهدين وتختار من الاسبانيين جماعات الأسرى والسبايا لبيعهم في المدن المغربية الجنوبية (تطوان خاصة) ثم تعود للميدان.

وعندما تمت العملية وقفل (محمد حسن) راجعاً الى مدينة الجزائر، اصطدم بقوة بحرية اسبانية ضخمة يتولى قيادتها (الأميرال برنارد دي موندوزا) ووقعت معركة ضارية بين القوتين أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين. وتمكنت القوات الاسبانية من تحرير سبعمائة من الجذافين النصارى الذين كانوا يعملون أسرى فوق السفن الجزائرية. لكن خسائر الاسبان خلال هذه المعركة كانت كبيرة جداً زاد عدد القتلى فيها على ثمانمائة قتيل.

وأتم شارلكان استعداداته لحملته الحربية البحرية الكبرى ضد الجزائر. وضم جيشه أفضل المقاتلين والنبلاء من اسبانيا وألمانيا وايطاليا، بالإضافة الى المتطوعين، وايضاً الى الجيش الذي أرسله البابا بقيادة حفيده (كولونا). كما أرسلت رهبنة مالطا (١٤٠) فارساً و(٤٠٠) مقاتلاً من المشاة. وأصبح هذا الجيش يضم (٢٤) ألف مقاتل من المشاة ـ الراجلين ـ و(ألفي) فارس. أما الاسطول فكان يشتمل على (٤٥٠) سفينة نقل ضخمة و(٦٥) سفينة حربية كبرى. وبلغ مجموع عدد أفراد البحارة (١٢) ألف رجل، وتولى (أندريا دوريا) قيادة القوة البحرية في حين تولى (شارلكان) بنفسه قيادة الحملة.

وعندما أصبحت الحملة جاهزة للتحرك أصدر البابا يوحنا الثالث بياناً نشره على البلاد الأوروبية كلها، أعلن فيه أن هذه الحملة هي حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية، أن ينضم إليها وأن يشارك في محاربة الكافرين.

وحاولت اسبانيا خلال ذلك إضعاف البحرية العثمانية عن طريق محاولة استمالة (خير الدين- بربروس) وذلك بان تم إرسال جواسيس من قبل (شارلكان) الى استامبول للإتصال مع (خير الدين) ومفاوضته على أساس تعيينه (ملكاً) على الشمال الأفريقي كله، واعتراف اسبانيا بملكيته مقابل اعترافه بتبعيته لشارلكان ودفع جزية سنوية محددة. ودخل (خير الدين) في المفاوضات التي استمرت على فترات متناوبة طوال سنتين تحت أشراف (أندريا دوريا). وكان (خير الدين) يطلع السلطان على تطور المفاوضات في كل مرحلة من مراحلها، وعندما وصلت مهمة وفد المفاوضات المكون من ثلاثة مفاوضين برئاسة الدكتور (اومبرو) حتى نهايتها، ووفقاً لخطة متفق عليها بين خير الدين والسلطان بادر هذا بالقاء القبض على (الجواسيس الثلاثة) وأودع الدكتور (أومبرو) في سجن (قلعة الحصون السبعة) بتهمة حث أحد الرعايا العثمانيين على العصيان. وكان وقع هذا الفشل مريراً على نفس (أندريا دوريا) بقدر ماكان مزعجاً لامبراطوره (شارلكان) الذي علق أملاً كبيراً في إحراز نصر كبير بثمن بخس ان هو استطاع ضم (خير الدين) لقوته.

ولم يبق أمام (شارلكان) غير الحرب، فتحرك باسطوله الضخم مغادراً (مرسى ماهون) يوم ١٨ تشرين الأول- اكتوبر - سنة ١٥٤١، ووصل الى (جون الجزائر) في الساعة السابعة من صباح يوم (٢٠)

تشرين الأول ـاكتوبرـ وأخذ في إجراء عرض قواته البحرية أمام مدينة الجزائر لارهاب حاميتها ثم توجه باسطوله الى طرف الخليج المقابل لمدينة الجزائر، عند رأس (تامنتغوس ـ أو تامانتغوس) وخيم هناك مؤقتاً، ثم عاد مباشرة نحو الضفة اليسرى لوادي الحراش. وهناك أخذ بإنزال جنده منذ فجر يوم **الأحد ٢٣** تشرين الأول ـاكتوبرـ وفي الساعة التاسعة من اليوم ذاته، نزل الامبراطور الى الأرض، محاطاً بالأشراف والنبلاء ورجال الحاشية، وأقام المركز العام لأركان حربه الامبراطوري عند (الحمة أو الحامة) شرقي مدينة الجزائر (حيث حديقة التجارب الان). وذلك على مقربة من مركز التجمع العام. الواقع بين الحمة وضفة الحراش.

فأسرع (محمد حسن) بتجميع كل ما لديه من القوى، واستعد للدفاع، وقرر مع أركان حربه تطبيق الخطة التي نجح الجزائريون في تنفيذها خلال معاركهم السابقة مع الاسبانيين والتي مكنتهم من النصر مرتين متتاليتين. فتحصنوا في المدينة ينتظرون تطور الأحداث ويراقبون بدقة تحركات الاسبانيين ومناوراتهم.

وعلى هذا فما أن وطأت أقدام الاسبانيين أرض الجزائر، حتى انطلق المجاهدون الجزائريون للعمل تحت قيادة (المجاهد الحاج بشير) وهم يحيطون بالقوات الاسبانية من كل اتجاه، ويوجهون اليها ضربات مباغتة سريعة بواسطة زمر من الفرسان القليلة في عدد أفرادها والسريعة في انقضاضها وانسحابها بحيث لم تترك للقوات الاسبانية فرصة للراحة أو النوم.

وقرر الامبراطور البدء بتنفيذ معركته في يوم **٢٤** تشرين الأول ـاكتوبرـ فتولى بنفسه قيادة التحرك نحو الأمام، على رأس الفيلق

الألمانـي، وترك للفريق الإيطالي وفرسان مالطة مهمة حماية المؤخرة تحت قيادة حفيد البابا (كاميل كالونا). واستمر الامبراطور في تقدمه، واستمر المجاهدون في الإغارة على القوات الاسبانية، وأرغموها على التوقف حيناً عند إحدى الربوات، وفي النهاية وصلت القوات الاسبانية الى (كدية الصابون ـ الواقعة على مرتفع خلف مدينة الجزائر)، حيث دارت معركة قاسية مع المجاهدين، تمكن الامبراطور بعدها من احتلال الموقع الاستراتيجي (للكدية). ووضع أعتدته الثقيلة فيها واتخذ منها قاعدة للهجوم ثم بدأ على الفور بتوسيع قاعدة عملياته، فاحتل مجموعة التلال التي تصل ما بين (كدية الصابون) و(قنطرة العفرون) قرب البحر غربـي الجزائر. وبذلك باتت مدينة الجزائر مطوقة ومعزولة في البر والبحر.

وعند ذلك، أرسل (شارلكان) من قبله مندوباً (هو الفارس لورنزو مانويل) لإقناع حامية الجزائر بالاستسلام بعد أن باتت مطوقة، وبعد أن ظهر لها مدى التفوق الكبير في القوى التي احاطت بالمدينة، ووصل المندوب الى الجزائر، وأبلغ (محمد حسن) الرسالة التي يحملها وهي كالتالي:

«أنا ملك اسبانيا الذي استولى على تونس وأخرج منها خير الدين، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك» فأجابه (محمد حسن آغا) بالرسالة التالية: «غزت اسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة، وفي عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله».

في الليلة ذاتها، وصل الى معسكر شارلكان رسول من قبل والي

الجزائر (محمد حسن آغا) يطلب إذناً للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساء ها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد). وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر الا إذا تم تدميرها تدميراً تاماً. ولم يكن الامبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة. فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت ذاته كان المجاهدون الجزائريون يوجهون ضرباتهم الموجعة الى القوات الاسبانية، في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة:

«لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل». وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الاسبانية. وكان هؤلاء يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع.

وبدأ المطر الغزير في السقوط مع بداية الليل، وكانت كثافة الأمطار وغزارتها تتزايد مع تقدم الليل. بينما هبت ريح عاتية من الشمال الغربي، فتعالت الأمواج وتشابكت، وأصبح الأسطول الذي يحمل السلاح الثقيل ـالمدفعيةـ والأعتدة والمواد التموينية أمام مأزق خطير. ولم يكن للاسبانيين في تلك الليلة خيام يحتمون فيها من وابل المطر، إذ لم يكونوا قد جاؤا بالعتاد اللازم من السفن. فكان لا بد لهم من قضاء شر ليلة بين الماء والوحل بعد أن قضوا أسوأ نهار في المسير والاشتباك بنيران المجاهدين.

ثم أقبل الفجر أخيراً على المجاهدين الذين لم يناموا ليلهم وهم في مدينة الجزائر المحاصرة يستعدون للمعركة الحاسمة. وارتفع الأذان

من المساجد داعياً الناس لبيوت الله، ورددت عشرات مآذن المدينة الدعوة، فأنزلت السكينة على النفوس. وما كادت تنقضي الصلاة، حتى فتحت أبواب المدينة بصورة مباغتة، وتدفقت موجات المجاهدين وهي تردد بصوت واحد صيحة الحرب (الله أكبر).

وقاد المجاهد (الحاج البشير) الهجوم على ميمنة الخط الاسباني، وكانت مستقرة أمام رأس تافورة (بين إدارة البريد المركزي اليوم والبحر). وتلقت الفرقة الإيطالية الصدمة الأولى، فلم تتمكن من الصمود لها، واستولى عليها الرعب والفزع، فتقهقرت متراجعة بدون نظام حتى وصلت الى معسكراتها. وازداد المجاهدون إقداماً واندفاعاً لاستثمار هذا النصر الأول. فواصلوا هجومهم في مطاردة فلول الهاربين الى أن اصطدموا بكامل الفرقة الإيطالية التي كانت تحتل القطاع الأوسط في التنظيم القتالي للقوات الصليبية. وعلى الرغم من التفوق الساحق للقوى الإيطالية، فقد اندفع المجاهدون بحماسة لا توصف لقتالها. ولم تتمكن الفرقة الإيطالية من الصمود أمام الهجوم القوي للمجاهدين. واضطرب أمرها. فولت منهزمة، وتشتت الى مجموعات صغيرة. ووجد المجاهدون الجزائريون فرصتهم لإبادة ما يستطيعون إبادته من هذه القوى الممزقة. ولم تتوقف المذبحة الا عندما تدخلت فرقة فرسان مالطة.

كانت هذه الفرقة تقف على مسافة بعيدة من مواقع القوات الإيطالية، فما كادت ترى ضراوة المعركة، وتمزق القوات الإيطالية، مما بات يهدد الجيش الامبراطوري كله بالدمار، حتى اندفعت بكامل قوتها، وتمركزت في الفج الصغير الذي يقع وراء الجسر والذي يمر منه الطريق المؤدي الى كدية الصابون، فضمنت بذلك حماية فلول

القوات الإيطالية، واضطر المجاهدون الجزائريون لايقاف هجومهم حتى لا يتعرض طريق انسحابهم للتهديد. وفي الوقت ذاته اندفع القائدان الصليبيان (كولونا والامير صالمون) ومعهما زمرة من الفرسان لايقاف الفرقة الإيطالية، ومنعها من التوغل في فرارها، وأمكن لهما بعد جهد كبير ايقافها وإعادة تجميع من بقي منها بعيداً عن أرض المعركة.

عند هذه المرحلة أصدر القائد (الحاج البشير) أمره الى المجاهدين بالتراجع المنظم مع المحافظة على التماس مع العدو حتى الوصول الى أسوار مدينة الجزائر وتحصيناتها، وتم تنفيذ عملية التراجع بطريقة رائعة حسبها فرسان ماطلة انسحاباً من المعركة. فانطلقوا بثقل قوتهم لما حسبوه مطاردة، حتى اذا ما وصل المجاهدون بكتلتهم المنظمة الى مسافة قريبة من حصن (باب عزون) قام رجال الدفاع الجزائريون بفتح الأبواب، ودخل المجاهدون، ثم أغلق الباب بسرعة وأحكم رتاجه وبقيت قوات العدو مكشوفة تجاه السور، تحت سيل المطر الغزير، ولم يعد باستطاعة فرسان مالطة التقدم الى الأسوار واقتحامها، كما لم يعد باستطاعتهم التراجع بعد أن أصبح سلاح الجزائريين يحصدهم جميعاً من وراء ظهورهم.

وامتطى الامبراطور (شارلكان) صهوة جواده حين بلغته انباء الكارثة التي نزلت بالقوة الإيطالية، وتقدم مع النبلاء ورجال الحاشية ومهرة الفرسان لنجدة فريق مالطة واقتحم مع قواته منطقة الخطر تحت نيران الحصون الجزائرية ففقدت القوات نصف عدد أفرادها. وأثناء ذلك لم يوقف الجزائريون من عرب الداخل عملياتهم على مؤخرة القوات المعادية. وزاد الأمر سوءاً بالنسبة لقوات الفرنج الصليبيين

عندما وقفوا عاجزين عن استخدام أسلحتهم النارية التي أفسدت السيول والأمطار بارودها وحولته الى كتل من العجين غير المتفجر. في حين كان المجاهدون فوق الأسوار يستخدمون أسلحتهم النارية بصورة رائعة، كما كان النازحون الأندلسيون يستخدمون بكفاءة عالية القسي الحديدية لرمي السهام البعيدة المدى بدقة مثيرة للإعجاب. وتكسرت موجات الهجوم واضطرت للانسحاب بعد أن تركت فوق أرض المعركة الغارقة بالوحل اعداداً كبيرة من القتلى.

وهكذا وبينما كانت معركة يوم ٢٥ تشرين الأول - اكتوبر - تسفر عن نصر حاسم لمصلحة القوات البرية الجزائرية، كانت العواصف تقوم بدورها لتمزيق الاسطول البحري الاسباني. إذ أدت الأمواج المتلاطمة الى ضرب قطع الأسطول بعضها ببعض - وخاصة منها سفن النقل الكبيرة - لتعمل على تحطيمها والقذف بها فوق أرض الساحل. وأسفر هذا الموقف عن كارثة حقيقية نزلت بالاسطول الصليبي، عندما تجاوز عدد سفن النقل التي تحطمت على الساحل (١٥٠) سفينة. وكان المجاهدون المسلمون من عرب البلاد الداخلية يغنمون ما فيها ويأسرون رجالها.

أما السفن الحربية التي كانت أمتن صنعاً وأحسن قيادة فقد انسحبت من موقع الخطر، مستعملة المجاذيف، واستمرت عمليتها هذه نحواً من أربع وعشرين ساعة. غير أن هذه السفن الحربية التي ناورت بمهارة مبتعدة عن مركز الخطر، كانت تحمل في جوفها خطراً أكبر، إذ كان العاملون على مجاذيفها من أسرى المسلمين المستعبدين في معظمهم، وكان هؤلاء يتابعون تطورات المعركة بحذر ويقظة، وتبين لهم أن لحظتهم المناسبة قد أزفت لتحرير أنفسهم من العبودية،

ولتقديم خدماتهم لاخوانهم المجاهدين في سبيل الله في الوقت ذاته. فتركوا المجاذيف، واندفعوا يجرون سلاسلهم واغلالهم الثقيلة ويبغون النجاة مهما كان الثمن. وأدت هذه العملية الى ارتطام (١٦) سفينة حربية بجدران الساحل. ونجح المجاهدون الجزائريون في انقاذ ألف وأربعمائة بحار منهم، وأنزلوهم بالجزائر.

وأراد الامبراطور (شارلكان) وأركان حربه إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما قذف به الأسطول الى ساحل البحر من سلاح وعتاد الى جانب إنقاذ البحارة من القتل أو الأسر أو الغرق بعد أن انقلبت سفنهم وباتوا وهم يئنون تحتها بين الأمواج المتلاطمة. فبعثوا فرقة إنقاذ الى الساحل، غير أن هذه الفرقة وقفت عاجزة عن القيام بأي عمل. فقد سبقهم المجاهدون واستولوا على كل ما قذف به البحر، أما بقية محتويات السفن فقد أخذت طريقها الى عمق المياه، بما في ذلك المدفعية والمعدات والذخائر والمواد التموينية. وانتشرت قطع السفن المدمرة فغمرت مياه الساحل على امتداد مائتي كيلو متر، ما بين شرق دالس وغرب شرشال.

وكان (أندريا دوريا) يشرف على العمليات البحرية من فوق ظهر سفينته الضخمة (طومبيراس) ويحاول الدفاع عن رجاله وحماية متاعه وكل ما قذفت به الأمواج على الساحل وذلك بمنع وصول المجاهدين اليه، فكان يتقدم من الساحل وهو يصارع الأمواج، ويتابع رمي قنابله وقذائف مدفعيته، غير أن محاولاته لم تحقق هدفها، بل انها زادت من حجم الكارثة وتسببت في تدمير سفينة حربية أخرى.

لم يفقد الامبراطور (شارلكان) رباطة جأشه، وعلى الرغم من

استسلامه لقضاء الله وقدره وترديده باستمرار للعبارة التالية (فلتكن ارادتك يا رب). فقد مضى لإعادة تنظيم القوات، غير انه كان من المحال عليه معالجة المأزق الصعب الذي وقع فيه، فقد هيمن الرعب والفزع على قواته، وفقد معظم مواده التموينية فبات جيشه مهدداً بالجوع، بالإضافة الى أن قوة الجزائريين كانت تتعاظم باستمرار وهم يتابعون الموقف من وراء الاسوار ويستعدون للانقضاض على قواته من جديد.

وانطلق يستشير هيئة أركان حربه وكبار معاونيه ممن أبقت عليهم المعركة. وكانت الحلول المتاحة أمامه محدودة، فإما الإنسحاب ببقايا قواته واسطوله وإما إعادة تنظيم ما بقي لديه من القوى والوسائط واختيار بقعة مناسبة للدفاع عنها في انتظار تحسن المناخ ووصول إمدادات جديدة من أوروبا. وانقسمت وجهات نظر القادة في تأييد أحد الحلين الوحيدين.

وكان رأي قائد الأسطول (أندريا دوريا) هو العامل الحاسم في ترجيح أحد الاحتمالين - أو الحلين -. وقد حدد (أندريا) موقفه من الأزمة بوضوح، فأرسل من سفينته فدائياً أسبانياً، حمله رسالته، وقد استطاع هذا الفدائي مصارعة الأمواج والتسلل من بين المجاهدين حتى وصل الى خيمة الامبراطور، وأبلغه رسالة قائده التي جاء فيها: «وأما من جهة البحر فانه من المحال بقاء الاسطول في مركز الخطر داخل الخليج، لأن بقية السفن ستتحطم حتماً، إن هو لم يعمل على سحبها فوراً الى جهة (تامانتغوس) المواجهة لمدينة الجزائر على الطرف المقابل من الخليج، وأما من جهة البر، فإنه يرى بأنه من المحال أيضاً البقاء أو الانتظار وأنه من الواجب الانسحاب فوراً ببقية الرجال،

وركوب سفن الاسطول الباقية للوصول الى جهة ـ تامانتغوس» . وأيد معظم قادة الجيش وجهة نظر قائد الاسطول، إلا القائد الاسباني (فرناندو كوريتز) الذي كان يرى وجوب البقاء والمقاومة[1] ووقف معه أيضاً الكونت (د. الكوديت) حاكم وهران العام. وهكذا رجحت كفة الانسحاب، وبدأت المسيرة الشاقة للابتعاد عن الأسوار، واختراق ضفة البحر، للوصول الى رأس (تامانتغوس). ونظراً لنفاد المواد التموينية، فقد أمر الامبراطور بذبح الخيول التي كانت لدى الجيش، وتوزيع لحمها لإطعام الرجال، مبتدئاً بذبح تلك الخيول العربية البديعة التي جاء بها لنفسه. وبات الجيش الصليبي في تلك الليلة وراء (وادي خنيس). ثم استأنف الجيش تحركه في اليوم التالي (٢٧ تشرين الأول ـ اكتوبر) حتى وصل وادي الحراش. ولما كانت مياه الطوفان قد ارتفعت كثيراً فقد بات من المحال متابعة المسير. وتم التوقف أمام الوادي.

وفي صبيحة يوم الجمعة (٢٨ تشرين الأول ـ اكتوبر) استطاع الجنود صنع جسر من أخشاب السفن عبروا عليه الى الضفة الأخرى. وتابعوا تحركهم البطيء حتى وصلوا (وادي الحميض ـ أو الحميزْ) فباتوا عنده. واستؤنفت المسيرة يوم السبت (٢٩ ـ تشرين الأول ـ اكتوبر) وأمكن الوصول في النهاية الى رأس (تامانتغوس).

لم تكن مشاق الطريق ووعورته وصعوبة التحرك هي كل ما

---

(١) اكتسب (فرناندو كوريتز) بجدارة شهرة جلاد امريكا الجنوبية ـ أو السفاح ـ وكان حافزه للبقاء والمقاومة هو رؤيته لسفينته المحملة بالكنوز من الذهب والفضة والحجارة الكريمة التي اغتصبها من اصحابها سكان القارة الامريكية وقد غرقت في مياه الجزائر، فلم يبق له من أمل في الحياة الا كسب المعركة على أمل التعويض عن بعض ثروته المفقودة.

تعرض له الجيش الصليبي أثناء تراجعه، وإنما كانت الصعوبة الحقيقية هي في رد الاغارات التي شنها المجاهدون الجزائريون والتي لم تتوقف طوال أيام المسير، في الليل كما في النهار، مما اضطر الامبراطور (شارلكان) الى وضع الفرقة الإيطالية في الميمنة، وعلى أبعد مسافة من الضربات المحتملة للجزائريين، في حين أسند حماية المجنبة اليسرى والمؤخرة للفرسان المالطيين والمشاة الاسبانيين. وتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة، لرد هجمات المجاهدين، وإنقاذ من يسقط من الرجال. وبذلك لم تصل القوات الى منطقة أنقاض مدينة (رسغوليا) - المدينة الرومانية القديمة - إلا وقد استنزفت المسيرة بقية ما تمتلكه من القدرة والجهد. وقضت بتلك الأطلال يومي الأحد والاثنين، حيث استعادت بعضاً من قوتها، ثم بدأت عملية ركوب البحر يوم الثلاثاء (الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر -) وانتهت عملية الركوب يوم (٣) تشرين الثاني، وكان الامبراطور هو آخر رجل ركب البحر الى مدينة بجاية، وفي الطريق ابتلع البحر الهائج بعضاً من السفن أيضاً، وأصاب بعضها بالعطب، فكانت أعمال الاصلاح والترميم تتم فوق السفن بلا انقطاع وتوقف. وعندما وصلت القوات الى بجاية. وجدت أن الموقف أسوأ مما كان متوقعاً. فقد أحكم المجاهدون العرب الحصار على الحامية، ومنعوا عنها التموين، إلا ما كان يقدمه بعض العملاء بأثمان خيالية وبكميات محدودة. ومضى الامبراطور الى المساجد التي تم تحويلها الى كنائس، يمضي معظم وقته بالصلوات والابتهالات. وأصدر أمره بابقاء الكنائس مفتوحة في الليل والنهار للعبادة. كما أعلن الصيام تذللاً الى الله وخشوعاً. ولم يجد الامبراطور في بجاية ما يعمله فأصدر أمره بجمع اليهود وقتل بعضهم واسترقاق الآخرين وبيعهم في أسواق أوروبا.

ومكث الامبراطور أربعة عشر يوماً في (بجاية). **وغادرها يوم (١٦) تشرين الثانـي (نوفمبر) ١٥٤١م بعد أن وعد حاميتها بالدعم السريع والامداد العاجل، وعندما وصل الى بلاده، رمى بتاجه الى الارض، واقسم الا يضعه على رأسه الا بعد استيلائه على الجزائر. وحرم نفسه من وضع التاج لأنه لم يتمكن ابداً من تحقيق هدفه. وبقيت الجزائر (المحروسة) منيعة على المعتدين.**

فاقت نكبة الجيش الصليبي الذي قاده (شارلكان) كل نكبة تعرضت لها الحملات الصليبية من قبل. إذ بلغت خسارة هذا الجيش (٢٠٠) سفينة من بينها (٣٠) سفينة حربية و(٢٠٠) مدفع و(١٢) ألف مقاتل- بين قتيل وغريق وأسير- بالإضافة الى كامل عتاد الحملة وتجهيزها وتموينها. وكانت غنائم المسلمين عظيمة وصفها أحد مؤرخيهم بقوله: «وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك العلام... وخلف اللعين لأهل الجزائر ما ملأ أيديهم غناء، وكسبت البلاد من ذلك أموالاً طائلة، وفرج الله على أوليائه المسلمين»[١].

وفي يوم ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤١ بعث الكونت (الونزو دي قرطبة) تقريراً من وهران الى والده (الكونت د. الكوديت) حاكم وهران. حيث كان ينوب عنه أثناء غيابه وجاء في التقرير ما يلي:

---

(١) عن: حرب الثلاثمائة سنة، احمد توفيق المدني، ص ٢٩٧- ٢٩٨.

«وردتني معلومات جديدة وموثوقة من الجزائر تفيد بأن الأتراك انقذوا خمساً من السفن ـ الاسبانية ـ التي سحبت أربع منها سالمة الى الساحل، أما الخامسة فمصابة بعطب بسيط. كما أخرج ـ الجزائريون ـ من الماء ستين مدفعاً بين كبير وصغير ـ منها عشرين مدفعاً ضخماً. وأرسل حسن آغا مندوباً من قبله الى ملك تلمسان (الملك محمد) يسأله الإعانة استعداداً لتلقي صدمة الأرمادا الجديدة. كما أرسل مندوبين عنه الى (فليز ـ أوباديس) على الساحل الشمالي المغربي من أجل صناعة سفن وابتياع أشياء تحتاجها مدينة الجزائر. كذلك أرسل ـ حسن آغا ـ مندوبين اختارهم من بين الفضلاء، وجهزهم تجهيزاً حسناً، الى (حامد بن سليمان) وهو الآن شيخ محلة ملك تلمسان، يسأله القدوم لنجدته في الوقت الذي يعينه له. فأجابه الشيخ حامد: بأنه سيقدم حالاً للنجدة إذا بقي على رأس المحلة. كذلك استصرخ حسان آغا لنجدته القائد المنصور وكبار المرابطين بالمملكة التلمسانية».

تلقى (محمد حسن آغا) والي الجزائر ونائب (خير الدين) لقب (الباشا) مكافأة له على ما قدمه من جهد، وما بذله من تضحية، وما أظهره من كفاءة في إدارته للبلاد وفي إحباطه للهجمة الصليبية التي قادها (شارلكان) والتي كان له فضل لا ينكر في إدارة حربها. ومضى (محمد حسن باشا) الى حشد الإمكانات والقوى بمجرد الانتهاء من معركته. وعمل على استثمار الظفر فتقدم على رأس جماعة قليلة من الجيش الى (بسكرة) وغيرها من بلاد (الزيبان) وما يحيط بها حتى تخوم الصحراء، وأسفرت رحلته هذه عن انضمام كل هاتيك الجهات الى النظام الجديد الذي ثبتت جذوره في العاصمة الجزائرية.

لكن أعداء الداخل لم يتوقفوا عن التآمر مع أعداء قومهم

ودينهم، وكان زعيم عائلة ابن القاضي في (كوكو) وهو (محمد بن محمد) من أبرز المتآمرين. وكان شارلكان في حاجة بعد هزيمته لدعم مثل هؤلاء الخونة. فدعم اتصالاته بهم.

وفي تلمسان، قاد (أبو زيان) شقيق الملك محمد ـ المرتبط بمعاهدة تحالف مع (شارلكان) حركة تمرد، ودعمه (محمد حسن باشا) بالقوات وأمكن دحر (الملك) وإخراجه من تلمسان. وعندئذ تحرك حاكم وهران (الكونت. د الكوديت) لدعم (الملك محمد). ووقعت معركة بين (الملك محمد والقوات الاسبانية) من جهة وبين (أبو زيان) والقوات الوطنية الجزائرية من جهة أخرى عند (شعبة اللحم) على نحو ستة كيلو مترات الى الشمال الشرقي من (عين تموشنتُ). وبعد قتال ضار انتصر المسلمون، وتمكنوا من إبادة القوة الاسبانية في شوال ٩٥٠ـ هـ (كانون الثاني ـ يناير ـ ١٥٤٣). وعندما علم (شارلكان بالكارثة الجديدة، أرسل جيشاً من (١٥) ألف مقاتل الى حاكم وهران بمهمة الاستيلاء على (تلمسان) واخضاعها من جديد، واستطاع السلطان محمد حشد مثل هذا العدد. فأمكن له بذلك استعادة سيطرته على تلمسان. غير أن أخاه (أبا زيان) عاد فنظم قواته، ودعمه أهل تلمسان والمسلمون، وأمكن له في (معركة الزيتون) الانتصار على أخيه (الملك محمد) الذي فر الى بلاد (انكاد) للاستنجاد بقبيلتها القوية. غير أن هذه القبيلة، وقد عرفت خيانته وتعاونه مع أعداء الدين، عملت على قتله هو ومن معه، وانتهت بذلك حياة أخطر أعداء الداخل وعادت تلمسان لتسهم مع الجزائر في بناء المستقبل.

هـ ـ الصفحة الأخيرة في حياة (خير الدين)

لم يكن (خير الدين) وهو في عاصمة الامبراطورية

(القسطنطينية) يمارس عمله قائداً أعلى للاسطول الإسلامي العثماني، غافلاً أو متغافلاً، عما يدبره أعداء المسلمين. وقد تابع المراحل المختلفة التي أعد فيها (شارلكان) حملته. وقد اقترح منذ شهر حزيران (يونيو) ١٥٤١ تجهيز اسطول حربي من مائة سفينة، يتم إرسال خمسين سفينة منها الى مياه الجزائر لاعتراض الاسطول الاسباني. في حين يتم ارسال خمسين سفينة أخرى لاعتراض هذا الاسطول وهو في عرض البحر- غير أن المسؤولين في الديوان -الوزارة- لم يوافقوا على الاقتراح بحجة أن الجهد الحربي الذي تتطلبه الدولة في صراعها مع الغرب يتطلب المحافظة على الكتلة الرئيسية للقوات البحرية في مياه شرقي المتوسط. غير أنه تقرر إرسال دعم عاجل بمجرد التأكد من تحرك (شارلكان) الى الجزائر. بحيث يقف الاسطول الاسباني عندها محاصراً بين القوات الجزائرية براً، والأسطول العثماني بحراً. وهكذا فما كادت أخبار الحملة الاسبانية على الجزائر تصل الى الديوان حتى جهز (خير الدين) اسطولاً قوياً، وتولى قيادته بنفسه وهو ييمم شطر مياه الجزائر. غير أن معركة الجزائر لم تستمر أكثر من (١٢) يوماً- من الأحد ٢٣ تشرين الأول - اكتوبر- وحتى يوم الخميس ٣ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٥٤١.

وعندما وصل (خير الدين) كانت المعركة قد انتهت بالانتصار الحاسم للقوات الجزائرية. وتوقف (خير الدين) فترة قصيرة، اطلع فيها على تطورات الموقف، وشارك شعب الجزائر فرحة انتصاره. ثم انطلق باسطوله نحو المياه الأندلسية والمياه الإيطالية، متنقلاً ما بين مدنها الساحلية، موجهاً الإغارات للتوغل داخل الأقاليم حيث كان المجاهدون يندفعون بحماسة فيقتلون ويأسرون ويغنمون، وهم في ذلك كله ينتقمون لما حل بالمسلمين في تونس ووهران وتلمسان

وبجاية، علاوة على ما نزل بمسلمي الأندلس. وحصل المسلمون على مغانم ضخمة، هي بعض ما غنمه الاسبانيون من ثروات العالم الجديد (أمريكا الجنوبية).

ولم يكن باستطاعة بقايا الاسطول الاسباني الخروج لاعتراض (خير الدين) بعد خسارته الفادحة في الجزائر، فمارس المسلمون اغاراتهم بحرية مطلقة.

وفي تلك الفترة حدث تحول على الساحة الأوروبية. فقد تدهورت العلاقات من جديد بين ملكي اسبانيا وفرنسا. وكان الاسبانيون قد قتلوا في (لومبارديا) بايطاليا رسولين فرنسيين، كانا يعبران البلاد الإيطالية المحتلة وهما تحت لواء السلام المنعقد بمدينة (نيس). وكان أولهما يحمل رسالة لدولة البندقية. في حين كان الثاني يحمل رسالة للسلطان (سليمان القانوني) فعادت الحرب بين الدولتين الى سيرتها الأولى. ومد السلطان سليمان يده من جديد الى (فرانسوا الأول ـ ملك فرنسا) ضد العدو المشترك (شارلكان). وتولى (خير الدين) قيادة الاسطول، وجعل من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقراً لاسطوله وهناك ـ في مارسيليا ـ باع خير الدين ورجال اسطوله الغنائم التي حملوها معهم من اسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الاسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم، .واشتراهم الافرنسيون بضاعة رابحة، ثم اخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة الى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الارقاء الى الامبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وانضم الاسطول الفرنسي الى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الاسطول الافرنسي (الامير فرانسوا دو بوربون) قواته تحت قيادة (خير

الدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية- الافرنسية). وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد (حاكمها دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الاسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين باسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الاسلامي والاسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا، وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الافرنسي. وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الاسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها الى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (ان خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين) وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا، وانهزم تحت جدران (شاتو تييرى)[١] ثم اضطر للذهاب الى المانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك - بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر- الى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨- أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤ في مدينة (كريسبي دي فالوا)[٢]. ونتج عن هذه المعاهده جلاء (خير الدين) وقواته عن

---

(١) شاتو- تييري: (CHTEAU - THIERY) قصر في دائرة (الايسن AISINE) على بعد ٤١ كيلو متراً من سواسون: (SOISSON S) على نهر المارن.

(٢) معاهدة كريسبي (LA PAIX DE CRESPY) هي المعاهدة التي تم التوقيع عليها بين فرانسوا الاول وشارلكان لايقاف الصراع بينهما. وكريسبي: (أوكريبي: CREPY) هي مدينة في الايسن: AISNE مقاطعة (لوان: LOAN)

مدينة (طولون) ورجع الى العاصمة (استانبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين اسبانيا والمسلمين، فقد استمر (خير الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف امام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها، فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (البا) التي كانت تحت حكم اسبانيا ـ والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد ـ فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (ليباري) ورجع الى العاصمة وسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأم أبناءها البررة.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى الى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده ـ واليه على الجزائر ـ محمد حسن باشا سنة ١٥٤٤م. فتم تعيين المجاهد (القائد الحاج بكير) لولاية الجزائر بصورة مؤقتة ريثما يتم تعيين وال جديد.

وتوفي (خير الدين) ولم يترك من الولد بعده إلا ابنه حسان وكانت أمه عربية من مدينة الجزائر.

واعترافاً بفضل خير الدين، وتلبية لرغبة الجزائريين، أسند السلطان (سليمان القانوني) رتبة (أمير البحر ـ باي لرباي) الى ابن خير الدين الوحيد (حسان) الذي ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها، وتعلم على أيدي علمائها. وكانت أمه سليلة احدى بيوتاتها الكبيرة.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

غير أن ما تركه للدنيا يبقى خالداً في الدنيا، وما عمله لآخرته يلقاه خالداً مع الخالدين. وأفضل ما أقامه في الدنيا هو تكوينه للدولة الجزائرية التي أخذت على عاتقها واجب (الجهاد في سبيل الله) ضد كل الحملات الصليبية.

و- خير الدين وموقعه في فن الحرب

لم تكن حروب (خير الدين) في البر والبحر إلا نوعاً من (حروب الإيمان) التي عرفها العرب المسلمون ونشروها على الدنيا كلها. ولقد أبرزت الملامح العامة لسيرة (خير الدين) وفقاً لما سبق عرضها أن هذا القائد العظيم قد جابه في حياته صعوبات لا نهاية لها، بل إن هذه السيرة لم تكن أكثر من سلسلة من العقبات والصعوبات الآخذ بعضها برقاب بعض والتي لم يكن أقلها مجابهة قوات متفوقة على قوته بما لا يمكن قياسه أو مقارنته في موازين القوى التقليدية، ولم يكن أقلها أيضاً التعرض لنكسات مريرة وصلت به الى حد التجرد من كل القوى، إلا قوة الثقة بالنفس والإيمان الذي لا حدود له، والتي لم يكن أقلها كذلك فقد الأعزاء- أخوته في الدم وفي الجهاد في سبيل الله حيث سقط الثلاثة فوق ثرى المغرب العربي الإسلامي-.

والأمر مماثل فيما تلقاه (خير الدين) من الغدر على أيدي أعداء الداخل من الخونة والذين خذلوه المرة بعد المرة، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمه، أو ينال من عزيمته. ثم جاءت أخطار البحر والجوع والعطش والحرمان كلها لتحتل مكانتها في جملة ما جابهه (خير الدين) من العقبات والصعوبات.

وقد كان من المحال احتمال ذلك كله - أو حتى بعضه لولا

ضريح البطل خير الدين باشا بحي باشكطاش باستامبول

(الإيمان المطلق) ولولا ما يفرضه هذا الإيمان من فضائل كثيرة: كالوفاء والاخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها.

وكانت حروب (خير الدين) نوعاً من (حروب الإيمان) في البر والبحر، وهو ما أكدته سيرة القائد الخالد، وهو ما تبرزه القصة التالية:

«عندما توفي عُروج، وأسندت الى خير الدين القيادة، استدعى رجاله ليتهيأوا للحرب ضد الاسبان الصليبيين، وبينما هو يعمل من أجل إخراج هذه الفكرة من حيز القول الى حيز العمل، إذ جاءه رسول من ملك اسبانيا (شارلكان) يأمره بالتخلي عن الجزائر لأنها كانت تحت تصرف الاسبان، ويستطيع الاسبانيون أن يخرجوها من أيدي العثمانيين وخيّر ملك اسبانيا (خير الدين) بين أمرين: أولهما أن يسلمها دون قتال، وثانيهما أن يستعد للقتال. وذكر له بأنه يجب ألا ينسى أن الاسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وان تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فان عاقبته ستكون كعاقبة أخويه. فأجاب خير الدين: «**سترى غداً، وإن غداً ليس بعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وإن** مراكبك **ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة**».

عند ذلك طاش عقل الملك من هذا الجواب الحاسم، وطار لبه، وجهز كل ما عنده من قوة وحضر الى الجزائر، وخرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى (**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**). وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (ان المسلمين في المشرق والمغرب **يدعون لكم بالتوفيق، لأن**

انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام). فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الاسبان فأبادوهم عن آخرهم»[1].

إن هذه الصورة لا تختلف ابداً، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا الى الدنيا رسالة الاسلام. غير أن الموقف العام لم يكن في عهد (خير الدين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه الى قلوب المسلمين وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لا تسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم في التأثير على التيار العام. في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث وكان أخطر ما في الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكز قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين.

والواضح ان قضية (أعداء الداخل) هي من أخطر القضايا التي جابهت المسلمين في عصر التحول من الهجوم الشامل الى الدفاع الشامل، وهي الظاهرة التي سبق لها أن برزت أيام الحروب الصليبية في المشرق، ثم تكرر حدوثها في الأندلس الاسلامية، وجاءت لتبرز من جديد على مسرح أحداث المغرب العربي - الإسلامي، فكانت في طليعة العقبات التي اصطدم بها (خير الدين) والتي أمكن له معالجتها بحزم أحياناً، وباللين والاغراء في أحيان أخرى، وفقاً لما كان يتطلبه الموقف.

وقد كان القضاء على أعداء الداخل هو المرحلة الأساسية

---

(١) تاريخ الجزائر - الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول ص ٨١ - ٨٢.

لتحقيق الانتصار الخارجي. ومن هنا أيضاً، فقد كان للانتصار الخارجي دوره بإضعاف أعداء الداخل وكشف خياناتهم، الأمر الذي ساعد على تصفيتهم. ولقد بقيت هذه العلاقة الجدلية الثابتة بين القوة الخارجية والقوة الداخلية هي العلاقة الثابتة والمميزة لقوة الأنظمة وقدرتها على البقاء والاستمرار، والأمر صحيح بالنسبة للعلاقة الجدلية المضادة، فالتمزق الداخلي وبروز (أعداء الداخل) ما هو إلا دليل في الواقع على مرحلة احتضار الدول وبرهان على قرب انهيارها. ومن هنا أيضاً تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به خير الدين في انقاذ المغرب العربي الإسلامي من المحنة التي كان يجابهها، والتي كان يتعرض لها. فقد أدت الهجمة الصليبية الى ظهور الطبقة المتسلطة من (اعداء الداخل)، ولم يكن هناك من أمل لتحويل التيار إلا بظهور قوة يمكن لها مجابهة القوى الصليبية، الأمر الذي يفسح المجال للقوى المؤمنة الصادقة لممارسة دورها التاريخي والاضطلاع بمسؤوليتها القومية والدينية، وكانت الجزائر بأرضها وبشعبها منبت تلك القوى التي عملت على تحويل تيار الاستسلام الى تيار المجابهة.

لقد استطاع (خير الدين) مجابهة الهجمة الصليبية في أشرس مراحلها، مرحلة تصفية الأندلس الاسلامية، واستطاعت (الجزائر المحروسة) مجابهة الهجمة الصليبية وهي في ذروة قوتها وجبروتها. ونشأ عن هذا التلاحم الصادق بين (تيار الأحداث) و(قصة البطل) ظهور الملحمة الخالدة. ملحمة بناء الجزائر قوة لها وللعرب المسلمين فوق كل أرض العرب المسلمين. غير أنه في مرحلة التحول الحاسم، كان من المحال إعادة العجلة الى الوراء، والعودة بالأندلس إسلامية كما كانت أيام الفتح، فقد أظهرت مسيرة الأحداث - عبر سيرة القائد خير الدين - تلك القوى الهائلة التي تكتلت للعمل ضد المسلمين في مشارق

الأرض ومغاربها وعلى كافة الجبهات في أوروبا كما في أفريقيا الاسلامية، وفي البر كما في البحر. ومن هنا تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به (خير الدين) ومن ورائه (الامبراطورية العثمانية) في إيقاف الهجمة الضارية، والتصدي لها، والعمل على إحباطها. ومن هنا أيضاً تظهر كفاءة (خير الدين) السياسية، وتفكيره السليم، عندما ربط جهوده بجهود المسلمين في الجزائر - وفي المغرب العربي - الإسلامي من جهة مع جهود الامبراطورية العثمانية من جهة أخرى.

ذلك هو موقع (خير الدين) في التاريخ، انه قائد التحول في مسيرة الصراع من مستوى العمليات المحدود الى المستوى الشامل. ومن المستوى المحلي الى المستوى الدولي. ولقد مر هذا التحول بمراحل مختلفة، بداية من ممارسة القرصنة (الحرب الدفاعية المحدودة) الى مستوى العمليات المحدودة لمصلحة (دولة تونس) ومنها الى مستوى المغرب العربي - الإسلامي، ومن هذا المستوى الى مستوى العالم الإسلامي عبر ربط الصراع بالامبراطورية العثمانية. ولقد مر هذا التطور عبر الادراك التام لطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع الذي كانت تخوضه الأمة العربية الإسلامية خاصة والأمم الاسلامية عامة، وهنا نعود إلى بداية القصة.

لقد خرج (عُرُوج) الى البحر غازياً مجاهداً لمقاومة الظلم الذي يتعرض له المسلمون في الأندلس وفي كل مكان من أوروبا، ووقع في قبضة الأسر، وعانى عبودية القيد، فكان لذلك دوره في تحديد هدفه من الصراع (الجهاد في سبيل الله). وانطلق مع أخوته، ومع فئة من المجاهدين، في هذه الحرب غير المتكافئة، ووظف الأخوة (ذوي اللحى الشقراء) انتصاراتهم لمصلحة (سلطان الحفصيين في تونس)

غير أن هؤلاء كانوا دون مستوى المسؤولية خلال تلك المرحلة التاريخية، وجاءت مسيرة الأحداث والتي دفع (الأخوة ذوي اللحى الشقراء) ومعهم الشعب المجاهد في المغرب العربي الإسلامي ثمنها غالياً من دمائهم وكرامتهم. وتأكد خير الدين عبر هذه التجارب الذاتية أنه من المحال مجابهة الهجمة الصليبية الشاملة بحروب محدودة ذات هدف محدود، كغنم سفينة أو الدفاع عن مدينة، أو الإغارة على جزيرة. فكان الدفاع الشامل هو الأسلوب الوحيد لمجابهة الهجوم الصليبي الشامل.

وكان (عُرُوج) وأخوته (أصحاب اللحى الشقراء) قراصنة، بذلك اشتهروا وبذلك عرفوا، غير أنهم لم يكونوا قراصنة في أساليبهم وأهدافهم. لقد خرجوا للجهاد في سبيل الله، فكانوا زاهدين بما يحوزونه من غنائم، وما أرادوا من الغنائم إلا استنزاف قدرة العدو وزيادة قوة المسلمين، بدلالة تقديم ما كانوا يحصلون عليه الى (والي تونس) والى (بيت مال المسلمين) والى صندوق الخزانة في الامبراطورية العثمانية.. وأفاد الجميع من هذه الغنائم ما عدا (الأخوة أصحاب اللحى الشقراء) غير أن فائدتهم كانت أكبر من كل تقويم عندما أمكن لهم دعم القدرات في الجزائر بعد أن أهدر (ملك تونس) هذا الدعم ووظفه في غير مصلحة الاسلام والمسلمين.

ولم يكن (خير الدين) يبحث عن (مجد شخصي) بدلالة عزوفه عن هذا المجد عندما عرضه عليه (شارلكان) في حين تهاوى (أعداء الداخل) فكان في ذلك سقوطهم، وكان في ذلك المجد الحقيقي والخالد للبطل (خير الدين) الذي ربط جهده وعمله ووجوده بقضية المسلمين. في حين انتهى أولئك الذين عملوا لدنياهم، وسطروا أبشع

صورة (لأعداء الوطن والدين).

يمكن بعد ذلك الانتقال للملامح العامة لأسس (فن الحرب) التي استخدمها (خير الدين) والتي مكنته من تحقيق انتصاراته الخالدة.

لقد كانت تلك الأسس في الواقع، صورة عن أسس (فن الحرب عند العرب المسلمين) بطرائقها التقليدية والثورية. فقد بدأ (أصحاب اللحى الشقراء) بالبحث عن قاعدة قوية ومأمونة، بدأت (بحلق الوادي) و(جزيرة جربة) وانتهت بقاعدة الجزائر. وقد كان تكوين القاعدة القوية والمأمونة هو أول عامل من عوامل النجاح.

وكانت طرائق القتال - في البر والبحر- نموذجاً من الحروب التشتيتية - التي برزت كظاهرة مميزة في الحروب الثورية الحديثة والتي تعتمد على مرحلتين أساسيتين - مرحلة الاستنزاف ومرحلة الهجوم الشامل-.

وفي الواقع فقد كان من المحال مجابهة التفوق للقوى الصليبية بغير هذا الأسلوب الذي أكد فاعليته في حروب الجزائر- الثلاثة وآخرها حملة شارلكان- بقدر ما أكد فاعليته في الحروب البحرية. حيث كانت تقوم مجموعات خفيفة الحركة، بتوجيه ضربات عنيفة ومباغتة ثم الانسحاب قبل أن يستفيق العدو من ذهول الصدمة. وقد أدى تنفيذ هذه العمليات باستمرار الى استنزاف قدرة العدو المادية والمعنوية قبل مجابهته بهجوم شامل يدمر بقية قدرته على الصمود والمقاومة.

ولقد كان من المحال تحقيق النجاح في مثل هذه العمليات لو لم

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قــراءات

١ـ تجربة استعمارية (معاهدات اسبانية)
٢ـ في أدب الحرب ـ الشعر في الحض على القتال والجهاد
٣ـ عروج في الخالدين
٤ـ معاهدة ملك تلمسان مع الامبراطورية الاسبانية
٥ـ رسالة السلطان سليمان القانوني الى ملك فرنسا
٦ـ شارلكان ـ وبربروس

- ١ -

تجربة استعمارية

(معاهدات اسبانية)

كان رد ملك اسبانيا (فرديناند) على اقتراح قائده (دون بيدرو) هو التالي:

«لتكن المعاهدة مع مولاي عبد الله مبنية على الواقع الحاصل ولتكن ذات مفعول دائم. وبما أن بجاية قد أصبحت ضمن ممتلكاتنا، تنفيذاً للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية، فلا يمكن أن يعطى لمولاي عبدالله لقب ـ ملك بجاية ـ بل ليكن ملكاً على أي مكان يختاره فيما عدا البلاد الساحلية، إذ أن مدينة (بجاية) وملحقاتها ومداخيلها وتولي الأحكام فيها، وكذلك كل البلاد الأخرى والمدن والقرى الموجودة على ساحل البحر، يجب أن تكون لنا وحدنا خالصة بصفة تامة مطلقة، ولا يحق لمولاي عبد الله أن يدعي أي حق له عليها، أو أي حكم على سكانها من النصارى أو المسلمين. وبما أن البلاد المذكورة ومدنها وقراها هي من ممتلكاتنا الخاصة، فاننا نعترف لمولاي عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية من المملكة مع مداخيلها وأحكامها، انما نحتفظ لأنفسنا بالحق الأعلى في الاشراف على القضاء

الذي هو من حق السيادة. كما يجب أن يلتزم الملك بدفع جزية سنوية تترك له حرية تقديرها. ويسمح لعبد الله ومائة من أعوانه أن يسكنوا مؤقتاً ربض بجاية إلى أن يجد عاصمة لملكه، وعلى شريطة أن لا يبني بذلك الربض مسجداً».

أيار (مايو) ١٥١٠

ونظراً لسحب القائد (بيدرو) من المغرب ومغادرته (بجاية) في ٧ حزيران (يونيو) واستبداله بحاكم جديد (هو دون انطونيو) فقد اضطلع هذا بعقد المعاهدة التي جاء نصها كالتالي:

بين الملك (فرناندو) ملك اسبانيا والصقليتين.

وبين مولاي عبد الرحمن ملك جبال البربر.

وبين مولاي عبد الله حفيده.

انعقدت المعاهدة على القواعد والأسس التالية:

أولاً: انعقد بهذه المعاهدة صلح دفاعي هجومي في سبيل مصلحة اسبانيا، وبين الملك عبد الرحمن والملك عبد الله. كما انعقد بينهما معاً من جهة، وبين الملك فرديناند من جهة أخرى حلف دائم المفعول.

ثانياً: يستمر مولاي عبد الرحمن ملكاً على جبال القبائل.

ثالثاً: يعترف عبد الرحمن علناً بامتلاك اسبانيا لمدينة بجاية وصخرة الجزائر وتادلس وكل المراسي التي على البحر وما يتبعها- ولم يأت هنا ذكر مدن الناحية الغربية لأنها داخلة ضمن نطاق التعاقد مع بني زيان في تلمسان.

رابعاً: إرجاع كامل الأسرى المسيحيين الى الاسبان دون أدنى مقايضة.

خامساً: العمل على اصلاح كل القلاع والمعاقل الموجودة في المملكة.

سادساً: يبعث الملك عبد الرحمن بولده محمد رهينة عند الاسبان، كما يبعث الملك عبد الله بولده البكر[1] رهينة أيضاً. وذلك لضمان تنفيذ المعاهدة.

سابعاً: يتعهد العرب بتزويد مدينة بجاية الاسبانية سنوياً بالمواد والمقادير الآتية:

٣٦٠٠ فنيق من القمح[2]

١٠٠ فنيق من الشعير.

٥٠ فنيق من الفول.

١٠٠٠ رأس من الغنم.

٥٠ بقرة.

١٠٠٠ حمل من الحطب.

فأما أحمال الحطب فتسلم مجاناً لحامية بجاية. وأما بقية المواد، فان الموردين يتقاضون ثمنها[3].

---

(١) سلم الملك عبد الله ابنه البكر الى الاسبان - وهو صغير السن - فسلمه هؤلاء للرهبان كي يتولوا تعليمه وتثقيفه وتعميده، فنشأ وشب وهو لا يعرف غير النصرانية ديناً. وأطلقوا عليه اسم (فيرناندو) ومنحه ملك اسبانيا لقب (الطفل- انفانت) ومات مسيحياً في اسبانيا.

(٢) الفنيق يعادل (٣٦,٥٠) كيلو غرام.

(٣) المرجع: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا- احمد توفيق المدني- ص ١٣١- ١٣٥

- ٢ -

في أدب الحرب

(الشعر في الحض على القتال والجهاد)

عندما سقطت وهران تحت حكم الصليبيين (الاسبان)، وترك أهلها المسلمون تحت سيطرة (اليهودي ابن اليهودية- أشطورا) انطلق العالم أحمد بن القاضي شيخ (عبد الله بن علي المساوري) و (شيخ العلامة سعيد قدورة الجزائري) بقصيدة يستنهض فيها الهمم ويحض قومه على القتال. ومنها:

فمن مبلغ عني قبائل عامر
ولا سيما ممن ثوى تحت كافر

وكل كَمَي من صناديد راشد
بتيجانهم، مع رأسها عبد قادر

وجيرانهم في الغرب من كل ماجد
طويل القنا أهل الوفا والمغافر

وطلحة والأحلاف في غرب هبرة
وشيح سويد بل وكل مفاخر

وشيخ بني يعقوب الحامي الحمى
بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام في كل موطن
وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا معشر الأتراك، يا كل عالم
وكل ولي حافظ للأوامر
ويا سادة العربان من آل هاشم
وغيرهم بالله ما صبر صابر؟
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم
لدى الله في (وهران) ذات الخنازر
أذلكم الجبار! كيف رضيتمو
بسبي العذارى من بنات الأكابر
فصرتم من جور البغات كأنكم
يهود الجزا، تعطونها بالأصاغر
فلا همة تعلو بكم عن دنية
ولا غيرة تدعوكمو للمآثر
ولا ذمة ترعونها في نبيكم
ولا حرمة تحمونها بالبواتر
عليكم لحاف الذل! أين نحولكم
أما أبصروا في السبي خير الحرائر؟
وتحت اليهودي غادة عربية
يعاليها الخنزير فوق الهزابر
وما منكم إلا خصي أذلَّه
بميسمه النصراني يا آل عامر

أضـيـم مـلوك،أم تـغـلب ظـالم
عـليكـم رمـاكـم في جـوار الـكـوافـر

حرب الثلاثمائة عام ـ احمد توفيق المدنـي
ص ١١٧ـ ١١٨

البطل العظيم عروج

(متحف البحرية العثمانية باستامبول).

- ٣ -

عروج في الخالدين

٨٧٣ - ٩٢٤ هـ = ١٤٦٨ - ١٥١٨ م

عاش عروج مجاهداً في سبيل الله منذ نعومة أظفاره - في العاشرة من عمره - وحتى يوم استشهاده (ببني سناسن) وعمره لا يتجاوز الخمسين عاماً - ويقال أربعة وأربعون-.

ولقد أثارت حياته بقدر ما أثار استشهاده نوعاً من الاثارة التي لا يمكن وصفها، وحتى اسمه بقي موضع جدل كبير، فلقد أريد - عن جهل أو عن عمد - الاساءة لهذا المجاهد العظيم، وأمكن بالاعتماد على الوثائق اجراء تصحيح اسمه فجاء كالتالي: [1].

«الاسم الحقيقي لهذا البطل الاسلامي العظيم، مؤسس دولة الجزائر، انما هو (عروج- بضم العين وضم الراء) وهي عربية صميمة معناها الارتفاع والصعود، ودخلت التركية عن طريق ذكرى حادث عظيم في حياة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، هو حادث (الاسراء والاعراج)».

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدنـي - ص ١٥٩- ١٦١ و ١٩٢- ١٩٥.

ولا ريب في أن البطل قد ولد في ليلة المعراج، فدعاه أبوه (عروج) تيمناً بذلك الحادث العظيم، كما يطلق الأتراك كثيراً على مواليدهم الذين يولدون خلال تلك الأشهر الحرم أسماء (رجب وشعبان ورمضان ومحرم). ومعروف أن الأتراك لا ينطقون حرف العين، بل يقلبونها ألفاً يندمج مع ما بعده. فمدينتا (عشاق وعين أونـي) مثلاً وهما في بلادهم تلفظان حسب نطقهم (أوشك وأين أونـي) وكلمة (عروج) ينطقون بها (أوروج). وهذا هو الاسم الذي اشتهر به بطلنا شرقاً وغرباً. وقبل أن يرجع الجزائريون هذا الاسم الى أصله العربـي، ويعيدون له (عينه) نطقاً، كانوا في مستهل الفتح يكتبونه على الطريقة التركية (أوروج) ويدل على ذلك أثران قديمان، لا يزالان موجودين الى اليوم: أحدهما الرخامة المنقوشة والتي كانت موضوعة على باب حصن شرشال. وثانيهما: الرخامة المنقوشة التي كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة الجزائرية. فرخامة شرشال قد نقش عليها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله ـ هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي، في خلافة الأمير القائم بأمر الله، المجاهد في سبيل الله، أوروج بن يعقوب، بإذنه، بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة».

أما رخامة مسجد الشواش الذي هدمه الافرنسيون، والذي كان على مقربة من ساحة الشهداء في الجزائر فهي تحمل اسم:

أوروج بن أبـي يوسف يعقوب التركي

ويظهر من ذلك أن والد البطلين المنقذين كان تركياً صميمياً،

خلافاً لما يدعيه كثير من مؤرخي الافرنج ويمكن أن يضاف الى ذلك، لتصحيح هذا النسب وإضفاء نور جديد عليه، هذه الرخامة الموجودة بمتحف مدينة الجزائر، والتي كانت موضوعة فوق باب المسجد الذي أمر ببنائه في الحضرة الجزائرية السلطان خير الدين وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال» أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد أبي يوسف يعقوب التركي. بلغه الله سؤله، وأعانه على جهاد عدو الله ورسوله. بتاريخ أوايل جمادى الأولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة» أي نيسان- أبريل- سنة ١٥٢٠م.

ولقد سقط (عروج) فوق ثرى الجزائر الطهور، ولم يصدق الأعداء حصولهم على مثل هذا النصر، فما كان من الاسبانيين إلا أن احتزوا رأس (عروج). وساروا به تواً نحو وهران، ومن هنالك سير بها الى اسبانيا، حيث طيف بها على أكبر مدنهم، وذهبوا بها بعد ذلك أوروبا، حيث طيف بها كذلك خلال أغلب المدن الأوروبية التي كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم (بربروس) أما ثيابه المزركشة التي تركها في تلمسان، فقد أخذت الى اسبانيا، وطيف بها أيضاً أغلب المدن قبل إيداعها في معتكف (سان جيروم) القرطبي. ويذكر أن جثمانه حمل الى العاصمة (الجزائر) حيث دفن بجوار ضريح (سيدي رمضان). وقبره عن يمين الداخل متصلاً بجدار المسجد.

ومضى الشهيد المجاهد الى (جنة الخلد) تاركاً للدنيا ذكراً

خالداً، قيل فيما ذكر عنه:

«كان للشقيقين - عروج وخير الدين- من الإقدام والجرأة، مقداراً يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسي الخارق للعادة، ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم، دور قيادة الشعوب.

وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذي لا نتمالك أنفسنا عن الاعجاب باقدامه وبجرأته النادرة، كما نعجب أيما اعجاب بهذه العبقرية التي سادت أعماله في ميدان الحرب، وفي ميدان تنظيم الدولة. كما أننا نستنكر الى جانب اعجابنا هذا كل الاستنكار، ما كان متصفاً به من مصانعة ومن قسوة فظيعة».

تلك كانت كلمات المؤرخ بيشو في كتابه - تاريخ شمال أفريقيا. ولكن لا بد من التوقف قليلاً عند عبارته الأخيرة التي وصف بها (عروج) بالقسوة الفظيعة، فهل كانت (قسوة الاسبانيين) أقل فظاعة وهم يجتاحون (وهران)؟ أم هل كانت قسوة (شارلكان) في تونس أقل (قسوة ووحشية؟) وهل كان بالمستطاع مجابهة تلك الوحشية- بإنسانية-؟ المهم أن أقنعة الانسانية هي أقنعة غريبة الالوان، غريبة الأشكال، وفقاً للوجوه التي تضعها. والمهم في الأمر متابعة ما قاله المؤرخ -دي قرامون- في كتابه (تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك) حيث ذكر ما يلي:

«لا يرى كثير من المؤرخين في -عروج- أكثر من زعيم عصابة -لا غير-.وإنني لا أعرف حكماً جائراً مخالفاً للحقيقة كمثل هذا الحكم. فان البربروس الأول -عروج- ما كان إلا جندياً من جنود

الاسلام المغاوير، جاهد فوق متن البحار جهاداً لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه. على أنه كان ملتزماً خلال جهاده هذا، بكل القواعد والأسس التي كان العمل جارياً بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن أبداً، أكثر قسوة ولا أقل قسوة، من الأعداء الذين كان يمعن في محاربتهم، وعندما سنحت له الفرصة، وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله، تمكنه من القيام بجلائل الأعمال، حاول إنشاء امبراطورية في الشمال الأفريقي، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها. أما الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكنه من إدراك تلك الغاية وتضمن له البقاء والاستمرار، انما هي إبعاد المسيحيين عن البقاع التي يحتلونها في البلاد. ومن أجل تحقيق هذا الهدف أخذ يحارب المسيحيين قبل كل شيء، في شخص حلفائهم والخاضعين لهم، حتى يقطع عن النصارى كل طريق يتزودون منه، ويضطرهم بذلك الى الاعتماد خاصة على ما يرد عليهم من اسبانيا. ولقد كانت بداية أمره سعيدة. وكان انتصابه بالجهات الغربية، يسمح له بالقاء المهاجرين الاسبانيين الى البحر لولا أنه قتل بسبب خديعة حلفائه. ولقد مات، مأسوفاً عليه كل الأسف من قبل جميع الذين انضووا تحت رايته وعملوا تحت لوائه».

أما المؤرخ الكبير (شارل اندري جوليان) فيقول في مؤلفه (تاريخ الشمالي الأفريقي):

«وهكذا انتهت في سن الرابعة والاربعين، هذه الحياة المجيدة في ميدان المغامرة، انه هو الرجل الذي أنشأ القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية- انه بنظرة صادقة لا تخطىء، وهي نظرته المعتادة، قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه في وسط مليء

بالمنافسات بين مختلف الامارات المغربية، لكي يؤسس على حساب تلك الامارات، دولة إسلامية قوية، لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى.

وعلى هذه الصفة، تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة (أو متوجة ـ بضم الميم وفتح التاء والواو والجيم) ووادي شلف وتيطري والظهرة والونشريس ثم تلمسان، ونسف مملكة بني زيان نسفاً لم تقم لها من بعده قائمة، إنما كانت مأثرته هذه تتلاشى وتضمحل، لو لم يتلقفها ويحتضنها باليمين، شقيقه خير الدين، الذي سار بها في طريق النجاح والكمال».

تلك هي كلمات قليلة لا يمكن لها أبداً أن تفي المجاهد الشهيد بعض حقه، لقد كان من أول مآثره إبراز أهمية الجهاد في البحر. وكان من ثاني مآثره إعداد أخيه (خير الدين) لمتابعة دوره. وكان من ثالث مآثره انصرافه الكلي لاقامة الجزائر وتنظيمها بالتعاون مع شعبها وبإرادته ودعمه وتأييده، وكان في ذلك انتصاره الكبير الذي مهد لهذا الوطن العربي المسلم سبيل بناء المستقبل، وضمن له القدرة لمقاومة الحملات الصليبية طوال خمسمائة عام تقريباً (من الاستعمار الاسباني ثم الاستعمار الافرنسي).

ولقد كان عدد المجاهدين من الأتراك العثمانيين قليلاً، وهنا يبرز الدور العظيم الذي اضطلع به الشعب الجزائري العربي المسلم عبر تاريخه الطويل، وما قدمه من تضحيات، وما تحمله من نوائب. وبقي ذكر (عروج) خالداً في طليعة الشهداء الخالدين. ومضت قوافل الشهداء فكانت تضحياتها بحق هي المنارات التي أضاءت لها دنيا الجزائر (المحروسة الخالدة).

- ٤ -

معاهدة ملك تلمسان
مع الامبراطورية الاسبانية

خاض ملك تلمسان (محمد السابع) حرباً ضد أخيه عبد الله الذي كان يدعمه جده لأمه (عبد الرَحمن بن رضوان). وكان الاسبان يقفون من وراء الطرفين المتصارعين، فكتب (محمد- تلمسان) رسالة الى الحاكم الاسباني؛ عرض فيها إقامة تحالف فيما بينهما. وكان نص الرسالة والمعاهدة المقترحة كالتالي:

تلمسان ٥ أيلول - سبتمبر- ١٥٣٥

«تعلمون جلالتكم انني كاتبتكم مراراً قبل هذا، التمس منكم قبولي ضمن حلفائكم وخدامكم، وانني لم أتلق منكم أي جواب، والله يعلم شدة رغبتي في أن أكون من أصدقاء جلالتكم. وفي هذه الأثناء حاربني بن رضوان، وجاء يهاجمني ومعه جماعة من المسيحيين، فكنت مضطراً للدفاع عن نفسي، ولقد كلفني هذا كثيراً، لكن لم أكن استطيع غير ذلك، ولا أعتقد أن جلالتكم تعتب علي اذا أنا دافعت عن مملكتي وعن نفسي. وإني أرسل لجلالتكم معاهدة أمضيتها بنفسي وختمتها بخاتمي والتمس من جلالتكم المصادقة عليها.

(خلاصة المعاهدة)

١ـ أن يعترف بـي الامبراطور صديقاً حليفاً، ولا ينصر علي عدواً.
٢ـ أتعهد بأن أدفع أربعة آلاف (دوبلاس) سنوياً، وفي نفس الآجال التي تعهد بها والدي من قبلي، على شريطة أن مداخيل باب تلمسان تكون لي كما كانت لوالدي.
٣ـ إذا زادت مداخيل باب تلمسان عن الأربعة آلاف (دوبلاس) فإن الزيادة منها تكون خاصة لي.
٤ـ أتعهد مقابل ذلك بأن أرجع للكونت دي الكوديت السبعين أسيراً مسيحياً الذين هم الآن بتلمسان، ويوجد بينهم خمسة أسرى عند عائلات تلمسانية، لها خمسة أسرى بوهران فالرجاء الأمر بالمبادلة.
٥ـ لا يقبل في مدينة وهران ابن رضوان ولا حفيده، ولا أحد من رجاله، فان دخلوا وهران فرجائي الى جلالتكم أن يبقوا بها أسرى.
٦ـ اذا ما فتح جلالة الامبراطور مدن الجزائر وشرشال وتنس، فله أن يبقي تحت سلطاته المدن المذكورة وغيرها من المراسي التي يود جلالته الاحتفاظ بها، أما داخلية البلاد المذكورة فيجب أن ترجع لي، لانها كانت من ممتلكات آبائي وأجدادي.
٧ـ يكون هذا الصلح لمدة عشرة أعوام.

لم يقبل الكونت (دي الكوديت) بهذا النص، فأرسل للملك محمد مشروعا اسبانياً، استثمر فيه فزع الملك محمد ورعبه، وهذه خلاصة المعاهدة الجديدة التي فرضها الاسبان:

١ـ أنا محمد ملك تلمسان: اتعهد والتزم بمحض اختياري، بأن أكون الصديق والحليف والتابع لجلالة الامبراطور اذا ما رضي أن يشملني بحمايته وألتزم بتنفيذ الشروط الآتية:

٢ـ أكون صديقاً لمن يصادق جلالته، وعدواً لمن يعاديه، ولا أسمح مطلقاً لاعدائه عرباً أو مسيحيين باجتياز مملكتي.

٣ـ اذا جاء جلالة الامبراطور بنفسه الى مملكة تلمسان لمحاربة بقية الملوك في البلاد. فأنا التزم السير معه واضعاً تحت تصرفه كل القوى التي لدي.

٤ـ ومقابل ذلك يتعهد صاحب الجلالة بإعانتي ضد من يحاربني أو يريد بي سوءاً وذلك بواسطة الجيوش التي لجلالته بمراكز الحدود.

٥ـ واذا جاء جلالته لمملكة تلمسان بنفسه، أو أرسل جيشاً لقتال أعدائه، فأنا أتعهد بأن أمده بالأقوات وحيوانات الجر بأرخص الأثمان.

٦ـ أتعهد بأن أعيد لوهران في مدة ثمانية أيام، كل الأسرى المسيحيين الموجودين بتلمسان، وهم على أحسن حال من الصحة والسلامة.

٧ـ لا أقبل في بلادي، لا بربروس ولا أي أحد من قراصنة الأتراك، واذا حل بربروس أو جماعته ببلادي، فأنا أبذل جهدي لأسرهم وتسليمهم لحاكم وهران.

٨ـ أمنع العرب وزناته في مملكتي من الحاق أي ضرر بمدينتي وهران والمرسى الكبير أو سكانهما من العرب واليهود وكذلك عرب الجبال ـ الخاضعين لاسبانياـ.

٩ـ أعطي أوامري لكي تمرَّ كل تجارة تلمسان بمدينة وهران دون غيرها من المراسي، إلا اذا سمح الامبراطور بذلك.

١٠- يسمح لي جلالة الامبراطور بأن أضع في وهران عدداً من المتصرفين لكي يتولوا قبض المكوس الراجعة لي من هذه التجارة، يستثنى من ذلك ما يرد لتموين مدينة وهران، ما عدا التمور التي هي بضاعة.

١١- يستطيع العرب واليهود من سكان مدينة تلمسان ومملكتها القدوم الى وهران وغيرها من ممتلكات جلالة الامبراطور ويستطيعون سكناها بصفة مسالمة دون أي اعتراض شريطة احرازهم على اذن بذلك من حاكم وهران. ولسكان وهران والمرسى الكبير مثل هذا الحق في سكنى تلمسان ومدن مملكتها، على شرط إحراز الإذن مني.

١٢- لا يمكن إجبار أحد رعايا مملكتي، عرباً أو يهوداً، على اعتناق الدين المسيحي، ويسمح لهم بأن يعيشوا أحراراً حسب قوانينهم، وأن تحترم ديارهم وممتلكاتهم، وأن يباشروا أعمالهم التجارية مع كل ممالك ورعايا جلالة الامبراطور.

١٣- مدة هذه المعاهدة خمسة أعوام ابتداء من يوم إعلانها.

١٤- التزم بأن أدفع لجلالة الامبراطور الذي اعترف بتبعيتي له، مقدار أربعة الاف (دوبلس) كل سنة من الذهب الصافي معيار ١٧ قيراطاً وموزونة وزناً دقيقًا.

١٥- يضع الامبراطور تحت تصرفي، عند الحاجة، وكما فعل مع والدي، خمسمائة رجل لمشاركتي في الدفاع، وأتعهد بأن أدفع مرتباتهم منذ اليوم الذي يغادرون فيه مملكة قشتالة.

١٦- يحدث كثيراً أن يصل الى وهران تجار من العرب واليهود من تلمسان لشراء بضاعة، ويعطون بدلها رقاعاً تدفع عند رجوعهم الى وهران. لكنهم لا يعودون ولا يدفعون، فأنا التزم بدفع قيمة

تلك الرقاع ويجب ارغام كل عربـي أو يهودي من سكان وهران على تسديد دينه لتجار تلمسان.

١٧ـ اذا حل ابن رضوان، أو حفيده مولاي عبد الله بوهران، فإن حاكم وهران يبقيهم بها، لا يخرجون منها طوال مدة الصلح.

١٨ـ سأعلن عن هذه المعاهدة في كل مملكتي للجميع. ولأعدائي الذين ثاروا ضدي وانضموا الى أخي مولاي عبد الله وجده ابن رضوان. فمن قبلها وأطاعها فهو مني ويدخل في خدمتي. ومن عصاها وخالفها فهو عدو لا يجب أن يقبل في مدينة وهران.

١٩ـ هذه المعاهدة وقعتها بنفسي وختمتها بخاتمي ووضعت عليها طابع الدولة».

- ٥ -

رسالة السلطان سليمان

القانونـي الى ملك فرنسا

كتب ملك فرنسا (فرانسوا الأول) رسالة الى السلطان سليمان القانونـي، يطلب التحالف معه ضد امبراطور اسبانيا والغرب (شارلكان) وأجاب السلطان سليمان بالرسالة التالية:

الله العلي المعطي المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته، وعلت كلمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء، وقدوة فرقة الاصفياء، محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم الكثيرة البركات. وبمؤازرة قدس أرواح حماية **الأربعة، أبـي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وجميع أولياء الله.**

أنا سلطان السلاطين، وبرهان الخواقين، متوج الملوك، ظل الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والرميلي وقرمان الروم وولاية ذمي القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس

وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة أنار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر، أنا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان.

الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا.

وصل الى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم (فرانقيان) النشيط، مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً، وأعلمتنا أن عدوكم استولى على بلادكم، وأنكم الآن محبوسون، وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم. وكل ما قلتموه وعرض على أعتاب سرير سدتنا الملكية، وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار معلوماً. فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم. وكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر، فإن آبائي الكرام واجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو، ونحن أيضاً سالكون على طريقتهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة، وخيولنا ليلاً ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة. فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته. وأما باقي الأحوال والأخبار، فستفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا.

تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين، سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة (١٥٢٥م).

بمقام دار السلطنة العلية
القسطنطينية المحروسة المحمية

- ٦ -

شارلكان - وبربروس

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، **ذا** أثر عميق لا على الامبراطورية الاسبانية، وعلى ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الاحداث العالمية. وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا
فليس له إلاهُمُ من زواجر
فجهز أسطولاً وجيشاً عرمرما
ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا، وتطورت الأحداث هنالك بسرعة. فلم يبق حليف للامبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، **وانضم** الى ملك فرنسا الدوق (دي كليف) وملك الدانمارك وملك اسكنديناقيا. وكان فرح الافرنسيين يكاد يساوي فرح الجزائريين لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة الى سقوط فرنسا. وبادر ملكها فرنسوا الأول لابرام معاهدات مع السلطان العثماني. وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل القطر

وخارجه. وفي الجزائر اقيمت الافراح وتواصلت الاحتفالات بمناسبة هذ النصر المبين الذي كتبه الله للمرة الثالثة في ظرف ثلاثين سنة. وكان يهود العاصمة أكثر الناس اغتباطاً وفرحاً، لما كانوا يضمرونه من حقد وعداوة للاسبان الذين أذاقوهم كل انواع العذاب والاضطهاد يوم كانوا بأوروبا. وقد وجد اليهود هنا الأمن والاستقرار والمجال لممارسة نشاطهم مما جعلهم يخافون انتصار الاسبان على الجزائر. وبمجرد انسحاب شارل الخامس اطمأنت قلوبهم وصاروا يصومون اليوم الثالث من شهر شسوان، ويحتفلون في الرابع منه - ببورم الأول - (١٠٨) وكانوا ينشدون القصائد من نظم رباني العاصمة (مثل مَشيش) و(ابراهيم بن يعقوب تواه) و(ابراهيم بن سليمان صرفتي) وهي قصائد في تمجيد الانتصار الجزائري ومدح بطولة الجزائريين وهزيمتهم للاعداء كلما تجاسروا على غزو العاصمة. وبقي اليهود الى القرن التاسع عشر يحتفلون كل عام بذكرى (١٠٩)= ١٥٤١م.

وفي الخارج (بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر. وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس **إذا** رأوا جفناً عن بعد نسبوه الى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس ان خير الدين **بربروسة** هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على اغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر اقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك. وكانوا في عويلهم يرددون:

بـربـروشـه بـربـروشـه
أنت صاحب كل شر
ما كان من ألم أو عمل
مؤذ وجهنمي مدمر
إلا والسبب فيه
هذا القرصان الذي
لا نظير له في العالم[1].

---

(١) عن (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) كلية الآداب في الجزائر- يوليو ١٩٦٩ العدد ٦ و ٧ غارة شارل الخامس- بالحميس مولاي ص ٣٤- ٥٥.

مراجع البحث الرئيسية

١ـ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (١٤٩٢ـ ١٧٩٢) أحمد توفيق المدنـي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـالجزائرـ (الطبعة الثانية)١٩٧٦ .

٢ـ تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الاول .

٣ـ مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل (١٨٣٠م) علي عبد القادر حليمي . استاذ الجغرافية بجامعة الجزائر. الطبعة الأولى ـ ١٩٧٢ـ م الجزائر.

٤ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث ـمبارك بن محمد الميليـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٣٦٩ـ هـ = ١٩٧٦م .

٥ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـكارل بروكلمانـ دار العلم للملايين ـ بيروت الطبعة السادسة (١٩٧٤) ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي .

- L'AFRIQUE DU NORD (1) JEAN DESPOIS PRESSES UNIVERSITAIRES DE PRANCE PARIS - 1964

فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة
مقدمة الناشر	٧
المقدمة	٩
الوجيز في حياة (خير الدين بربروس)	١٩
أبرز احداث العالم الاسلامي، في فترة حياة (خير الدين بربروس)	٢١
الفصل الأول	٢٣
مقدمات الحرب وظروفها	
١ـ ذوي اللحى الشقراء.	٢٥
٢ـ الموقف على جبهة المسلمين في المشرق.	٣٠
٣ـ الموقف على جبهة الأندلس.	٤٢
٤ـ الموقف على جبهة المغرب الاسلامي.	٥٣
٥ـ الجهاد في البحر والقرصنة.	٧٢
الفصل الثاني	٨٣
(خير الدين بربروسا)	٨٣
١ـ سنوات الصراع المرير (٩١٨ـ ٨٢٤ هـ=(١٥١٢ـ١٥١٨م)	٨٥

آ- من جيجل الى الجزائر. ٩٣
ب- الصراع في تلمسان واستشهاد وعروج. ١٠٢
٢- خير الدين على طريق الجهاد ١٠٧
آ- بناء الجزائر والجهاد في البحر. ١١٦
ب- خير الدين أميراً عاماً للاسطول العثماني. ١٢٧
ج- أعداء الداخل في غياب (خير الدين). ١٣٧
د- شارلكان وغزو الجزائر. ١٤٤
هـ- الصفحة الأخيرة في حياة (خير الدين). ١٦٣
و- خير الدين وموقعه في فن الحرب. ١٦٨
قراءات ١٧٧
١- تجربة استعمارية (معاهدات اسبانية). ١٧٩
٢- في أدب الحرب- الشعر في الحض على القتال والجهاد. ١٨٢
٣- عروج في الخالدين. ١٨٦
٤- معاهدة ملك تلمسان مع الامبراطورية الاسبانية. ١٩٢
٥- رسالة السلطان سليمان القانوني الى ملك فرنسا. ١٩٧
٦- شارلكان- بربروس. ١٩٩
مراجع البحث الرئيسية ٢٠٣

جهاد شعب الجزائر

٢

الجزائر والحملات الصليبية

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزائر والحملات الصليبية

(١٥٤٧-١٧٩١م)

بسام العسلي

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م
الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

© دار النفائس
بيروت ـ ص.ب : ١١/٦٣٤٧ ـ هاتف : ٨١٠١٩٤ ـ برقياً : دانفايسكو

الإهداء

الى الجزائر المجاهدة

التي عاشت أبداً في قلب العالم العربي الاسلامي
والتي عاش العالم العربي الاسلامي في قلبها
فكان ذلك الرباط الابدي الخالد

بسام

المقدّمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة...

ومع بداية هذا القرن تتعاظم فكـرة الجهاد الكامنة في العالم العربـي ـ الاسلامي وفي كل أنحاء العالم الاسلامي. وتتعاظم معها الهجمة لسرقة (التقاليد الحربيةـ الاسلامية) وتحريفها عن أهدافها وإفراغها من مضامينها. ومن هنا تظهر الحاجة للتمسك بأصالة الحروب الاسلامية والعودة الى ينابيعها المتفجرة ومواردها الأساسية التي لم يذبلها التقادم ولم يضعفها الصراع الدائم، فما يكاد لهيبها يخبو ظاهرياً حتى يعود متمرداً على كل أساليب الحرب الشاملة وطرائقها المتباينة.

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة...

وقد يكون ذلك مثيراً اقتران هذا الموعد الزمني بمضي ربع قرن على ثورة الجزائر الخالدة (يوبيلها الفضي) والتي حملت في أعماقها كل الأصالة الثوروية. وهي الأصالة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ. ويؤكد ذلك الحاجة لاستعادة ملامح الصراع في الحقب الزمنية المتقادمة. لقد كانت الحروب الاسلامية بمجموعها شكلا

متقدماً من مزج «طرائق الحرب الثوروية وطرائق الحرب النظامية».
غير أن التحولات التي رافقت الحروب الصليبية في المشرق العربي- الاسلامي، وفي المغرب العربي الاسلامي قد فرضت تطوراً حملت الجزائر المجاهدة راية (ريادته) وصدقت في هذا الدور الريادي، فشكلت بذلك ثروة ضخمة من التجارب القتالية التي لا بد من معرفتها لفهم (الأصالة الثوروية) في العالم الاسلامي بصورة عامة، وفي المغرب العربي - الاسلامي منه بصورة خاصة. لقد جابهت (الجزائر) ومعها أقطار العالم العربي -الاسلامي، تحديات ضخمة، وتعرضت لأعمال عدوانية كثيرة، لم يكن أقلها إخراج المسلمين من الأندلس، ولم يكن أقلها احتلال المدن الساحلية للمغرب العربي الاسلامي، وهنا ظهر (الاخوان ذوي اللحى الشقراء) فكان في ظهورهم بداية قيادة التحول الحاسم. وحملت الجزائر أعباء رفع راية الجهاد في سبيل الله، فكان التحول التاريخي من الدفاع الاقليمي الى الهجوم الاستراتيجي، وتعاظم تيار الجهد والجهاد، فجرف معه المتخاذلين، ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت الجزائر المجاهدة قوة ضخمة فرضت سيادتها على (غرب البحر الأبيض المتوسط) وأحبطت كل أعمال العدوان ومحاولات المعتدين. وكان الفضل في ذلك للقدرة الذاتية التي عرف المسلمون فيها قوتهم وقدرتهم، وأمكن بهذه القدرة تحرير المغرب العربي - الإسلامي وتطهير ترابه.

لقد خاضت الجزائر المجاهدة حروبها تحت (راية الجهاد في سبيل الله) وانطلق تيار الجهاد من (المسجد- الجامع) ومن (الزاوية) حيث طلبة العلم وشيوخ التعليم، وكان هذا التيار من القوة، ومن الشدة ما حمل الحكام على ركوب أمواجه، وتنظيم مساراته، وتوجيه

فعالياته فكان اللقاء الخالد بين الحكام والمحكومين على صعيد الجهاد في سبيل الله، وكان في ذلك نصر الاسلام والمسلمين.

وحملت الخلافة العثمانية أعباء الجهاد في سبيل الله على جبهة أوروبا وفي شرق البحر الابيض المتوسط، وحملت الجزائر راية الجهاد في البر والبحر في الغرب (غرب البحر الأبيض المتوسط). وعلى صعيد الجهاد التقت الجزائر بالخلافة العثمانية، فكان في ذلك عز المسلمين وقوة الاسلام في المشرق والمغرب. وكانت قوة الجزائر قوة للخلافة العثمانية، وكانت قوة هذه قوة للجزائر، ويصبح من المتوقع أن تبقى هذه العلاقة الجدلية ثابتة، فعندما استنزفت الحروب المستمرة قدرة الخلافة العثمانية واصيبت بالضعف، انعكس ذلك على صفحة الجزائر التي استنزفت الحروب قدرتها بمثل ما استنزفت قدرة حليفتها. غير أن حصالة هذه (الحروب الطويلة الأمد) أكدت مجموعة من الحقائق أبرزها عمق (تيار الجهاد وقوته) فلا غرابة بعد ذلك أن تتعرض قاعدة هذا التيار للهجوم المستمر بأشكال مختلفة وطرائق متباينة. غير أن (التجربة التاريخية) كافية للتأكيد على فشل الهجمات كلها. وهذا هو أبرز درس يمكن استخلاصه.

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة...

ومع بدايته تبرز مجموعة من الظواهر المذهلة، أهمها التمرد (على روح العصر- المودة أو الزي) في تيار المسلمين المجاهدين، وتجديد مفهوم الجهاد في سبيل الله ورفع رايته والعودة الى الالتزام بالعقيدة الدينية الاسلامية التي افرزت (العَقيدة القتالية الاسلامية) بكل فضائلها. ولقد فسرت هذه الظواهر تفسيرات مختلفة، وبذلت ولا تزال تبذل جهود علمية مكثفة للهجوم على القلعة (من الداخل).

غير ان التجربة التاريخية تعود لتؤكد (قوة الأصالة الاسلامية) وقدرتها على تجاوز كل التحديات.

وفي الواقع، عملت الجزائر المجاهدة على حفظ (التجربة التاريخية) والتدقيق فيها، وأقبل كُتّابُ المغرب العربي الاسلامي ومؤلفوه، وكُتاب الجزائر منهم بصورة خاصة على إعداد ثروة ضخمة من الكتب والمنشورات الدورية والبيانات والإحصاءات، والهدف من ذلك الإبقاء على جذوة الجهاد المتقدة، وحماية (الأصالة الثورية) من الضياع. غير ان الجهد المبذول يفتقر الى التعميم من جهة، ويفتقر إلى سهولة المأخذ من جهة ثانية. ومن هنا ظهرت الرغبة في التعريف (بالحروب الثورية الاسلامية) من خلال كتيبات تسهم في تعريف أبناء المشرق العربي الإسلامي بتراث المجاهدين الخالدين في المغرب العربي الاسلامي. وتساعد في الوقت ذاته أبناء المغرب العربي-الاسلامي على تطوير المعرفة العربية (ضمن إطار حرب التعريب) التي تقودها الجزائر ومعها أقطار المغرب العربي الاسلامي. وبعد، فقد يكون من المحال الإحاطة بكل جوانب التجربة التاريخية لجهاد الجزائر خاصة والمغرب العربي-الاسلامي عامة، وان هي الا محاولة في جملة محاولات «المحافظة على اصالة التجربة العربية الاسلامية» والافادة من خيراتها الرائعة.

والله أسأل التوفيق

بسام العسلي

أبرز الأحداث على المسرح الاسلامي

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٥٠	١٥٤٣	اخضاع المجر للحكم العثماني
٩٧٨	١٥٧٠	استيلاء المسلمين على قبرص في عهد سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤).
٩٧٩	١٥٧١	الاساطيل الصليبية المتحالفة تنتصر على الاسطول الاسلامي في (ليبانتي)
١٠١٢ ١٠٢٧	١٦٠٣ ١٦١٧	ثورة فخر الدين المعني في لبنان
١٠٤٣	١٦٣٣	هزيمة فخر الدين المعني.
١٠٥٥	١٦٤٥	الحرب ضد البندقية في كريت.
١٠٦٢	١٦٥١	انتصار الاسطول الصليبي للبندقية على الاسطول العثماني قرب بار وس
١٠٨٠	١٦٦٩	البندقية تتخلى عن كريت للعثمانيين.
١٠٨٣	١٦٧٢	بولونيا -بولنده- تتخلى عن بودوليا واوكرانيا للعثمانيين.
١٠٨٤	١٦٧٣	انتصار سوبيسكي على العثمانيين عند خوتين.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٠٨٧	١٦٧٦	انتصار سوبيسكي عند (لويج) وهزيمته عند زوراونو.
١٠٩٢	١٦٨١	العثمانيون يتخلون عن كييف للروس
١٠٩٨	١٦٨٦	العثمانيون على ابواب فيينا.
١٠٩٩	١٦٨٧	العثمانيون يخسرون المجر.
١١٠٠	١٦٨٨	هزيمة العثمانيين في معركة موهاج (موهاكس)
١٠٩٥	١٦٨٣	النمساويون يستولون على بلغراد
١١٠٢	١٦٩٠	العثمانيون يستردون بلغراد.
١١٠٨	١٦٩٦	بطرس الاكبر يستولى على آزوف وينتزعها من العثمانيين.
١١٢٣	١٧١١	هزيمة بطرس الاكبر عند نهر (البروث).
١١٢٤	١٧١٤	البندقية تخسر آخر ممتلكاتها في المورة وبحر ايجة لمصلحة العثمانيين.
١١٣٥	١٧٢٢	الفتوح الروسية في القوقاز.
١١٤٨-١١٥٢	١٧٣٥-١٧٣٩	انتصار العثمانيين على النمسا وروسيا.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١١٧٤	١٧٦١	معاهدة صداقة بين العثمانيين فريدريك الاكبر (بروسيا).
١١٨٤	١٧٧٠	الحرب ضد الروس وتدمير الاسطول العثماني في خليج جشمه.
١١٩٨	١٧٨٣	الامبراطورة كاترينا «الروسيا» تخضع تتار القرم.
١٢٤٣	١٨٢٧	الحلف الثلاثي ضد العثمانيين - معركة نافارين.

أبرز الاحداث على المسرح العالمي

وجيز الاحداث	السنة الميلادية	السنة الهجرية
هزيمة الاسطول الاسباني وانتصار الاسطول الانكليزي.	١٥٨٨	٩٩٧
حرب الثلاثين عاماً بين الكاثوليك والبروتستانت في جرمانيا.	١٦١٩	١٠٢٩
تحرر البرتغال من هيمنة الاسبانيين.	١٦٤٠	١٠٥٠
بدء حرب الوراثة الاسبانية التي استمرت ١٢ سنة بين فرنسا وانكلترا وخرجت انكلترا منتصرة على اسبانيا وفرنسا.	١٧٠٢	١١١٤
صلح اوتريخت ونهاية حرب الوراثة الاسبانية.	١٧١٣	١١٢٥
حرب الاستقلال الامريكية ـ معركة ساراتوغا.	١٧٧٧	١١٩١
نهاية حرب الاستقلال الامريكية.	١٧٨٣	١١٩٨
انفجار الثورة الفرنسية.	١٧٨٩	١٢٠٤
غزو نابليون بونابرت لمصر والشام.	١٧٩٨	١٢١٣
بدء الحروب النابليونية.	١٨٠١	١٢١٦

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٣١	١٨١٥	انتصار الحلفاء على فرنسا وعودة لويس الثامن عشر.
١٢٣٣	١٨١٧	اعتراف الدولة العثمانية باستقلال العرب الاداري.
١٢٤٠	١٨٢٤	الثورة في اليونان. وابراهيم باشا ـ ابن محمد علي الالباني يقود اسطوله الى كريت واليونان.
١٢٤٣	١٨٢٧	القوات الفرنسية تجتاح اليونان وتخرج القوات العثمانية لتنفيذ قرار لندن. والامبراطورية العثمانية تعترف باستقلال اليونان.
١٢٤٤	١٨٢٨	الحرب الروسية ـ التركية واستقلال رومانيا.
١٢٤٦	١٨٣٠	ثورة فرنسا، وخلع شارل العاشر في فرنسا وتنصيب لويس فيليب وبدء العدوان على الجزائر.

أبرز الاحداث على مسرح الجزائر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٥١- ٩٦٠	١٥٤٤- ١٥٥٢	ولاية حسان خير الدين على الجزائر.
٩٦٠- ٩٦٥	١٥٥٢- ١٥٥٧	ولاية محمد صالح رايس على الجزائر.
٩٦٥- ٩٧٤	١٥٥٧- ١٥٦٦	عودة حسان خير الدين على الجزائر.
٩٧٤- ٩٧٦	١٥٦٦- ١٥٦٨	ولاية محمد صالح رايس على الجزائر
٩٧٦- ٩٩٦	١٥٦٨- ١٥٨٧	ولاية كلج علي (الحاج علي) على الجزائر.
٩٩٦- ١٠٧٠	١٥٨٧- ١٦٥٩	نظام حكم (الباشوات الثلاثيين) في الجزائر.
١٠٧٠- ١٠٨٢	١٦٥٩- ١٦٧١	نظام حكم (آغة الهلاليين) في الجزائر.
١٠٨٢- ١٢٤٦	١٦٧١- ١٨٣٠	نظام حكم (الديوان والداي) في الجزائر.
١٢٤٦	١٨٣٠	بدء احتلال فرنسا للجزائر.
٩٦٣	١٥٥٥	طرد الاسبانيين من بجاية.
٩٦٦	١٥٥٨	انتصار المسلمين في مستغانم.
٩٦٨	١٥٦٠	هزيمة الاسبان في مستغانم.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩٧٧	١٥٦٩	ثورة المسلمين في الاندلس وارسال الاسطول الجزائري.
٩٨١	١٥٧٣	تحرير تونس.
١٠٣٠	١٦٢٠	الانكليز يهاجمون الجزائر.
١٠٧٥	١٦٦٤	الحملة الافرنسية على جيجل.
١٠٧٦	١٦٦٥	الاسطول الافرنسي يقصف الجزائر وتونس.
١٠٩٤	١٦٨٢	فرنسا تقوم بالإغارة على الجزائر.
١١١٩	١٧٠٧	تحرير وهران وإخراج الاسبانيين.
١١٤٥	١٧٣٢	محاولة اسبانيا إعادة احتلال وهران ونجاح العملية.
١١٨٧	١٧٧٣	اسبانيا تغير على الجزائر.
١١٨٩	١٧٧٥	الحملة الاسبانية الكبرى على الجزائر وفشلها.
١٢٠٦	١٧٩١	تحرير وهران.

﴿يا أيها الذين امنَوا قاتِلوا الذَين يَلُونكم من الكُفار ولْيجدُوا فيكم غلْظَة وآعْلَموا أنّ الله مَعَ المُتَقينْ﴾

(سورة التوبة ـ الآية ١٢٣)

الفصْلُ الأوّل

١ـ الجزائر المجاهدة

٢ـ الموقف على الجبهة الاسلامية في المشرق

آ ـ معركة ليبانتي ١٥٧١ م

ب ـ الجهاد على الجبهة الاوروبية

ج ـ تمرد جنبلاط وفخر الدين المعني

٣ـ الموقف على جبهة الأندلس

١ـ الجزائر المجاهدة

أصبحت الجزائر مؤهلة لمجابهة كل عدوان، فهي تمتلك قدرات قتالية رائعة،ولها أسطولها الحربـي المستقل ولها إدارتها الذاتية، وإن لم تكن قد عرفت بعد الحدود المميزة بينها وبين جارتيها في المشرق والمغرب. وقد ألقى ذلك عليها واجب قيادة الجهاد في سبيل الله في المغرب العربي الاسلامي كله ذلك هو الوضع الذي كانت عليه الجزائر بعد تلك الجهود الضخمة والتضحيات الكبيرة التي قدمها الشعب في المغرب الاوسط تحت قيادة (خير الدين بربروس) وبالتعاون معه حتى أبعد الحدود، ولكن قبل أن يمضي (خير الدين) الى جوار ربه سبقـه رفيق جهاده ونائبه على الجزائر (محمد حسن آغا). وعلى أثر ذلك أصدر السلطان سليمان القانونـي قراره بتعيين (حسان) الإبن الوحيد لخير الدين بربروس، والياً على الجزائر، وكان ذلك وفاء لما قدمه خير الدين من الجهد للإسلام والمسلمين، واستجابة لرغبة الجزائريين. وبرهن (حسان خير الدين) أنه جدير بالثقة التي منحها له الجزائريون، فتولى قيادة الجهاد في سبيل الله، بكل ما ورثه عن أبيه من كفاءة وتجربة، وبكل ما توافر له من العزم والتصميم والاخلاص.

وقد جابهته منذ بداية عهده في الولاية قضية (تلمسان)؛ حيث كان حاكمها (أبو زيان ـ أحمد الثانـي) قد تولى الملك بدعم من إدارة

الجزائر، واعترف بالوحدة مع الجزائر. غير أنه ما لبث أن خضع للمؤامرات الخارجية وانساق في تيارها وأخذ في التقرب من الاسبانيين والابتعاد عن أهله وابناء دينه الجزائريين. وأدى ذلك قبل كل شيء إلى تدهور علاقاته مع قومه وأعوانه في تلمسان الذين ما لبثوا أن قرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد اخوته (الحسن). فتوجه (أبو زيان) إلى (وهران) طالباً الدعم من الاسبانيين، مقدماً لهم التعهدات بأن يحافظ على إخلاصه وتبعيته لهم. وقرر حاكم وهران (الكونت د. الكوديت) اغتنام هذه الفرصة، فجهز جيشه، وانضمت اليه جموع الخاضعين للاسبانيين من (بني عامر وفليته وبني راشد - وعلى رأسهم قائدهم المنصور بن بوغانم) وتقدموا الى تلمسان لإبعاد ملكها الحسن وإعادة تنصيب (أبو زيان) على عرش المدينة. وما ان علم (حسان خير الدين) بتحرك الجيش الإسباني وحلفاؤه من وهران، حتى قاد الجيش الإسلامي، وانطلق من الجزائر في محاولة للسيطرة على محاور التحرك ومنع الاسبانيين من الوصول إلى هدفهم. وبذلك يتمكن من دعم حليفه الملك الحسن في تلمسان، وذلك في شهر آب - أغسطس - ١٥٤٧.

اصطدمت قوات المسلمين بالقوات الاسبانية عند بلدة (عربال) الواقعة على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الجنوب من وهران (والى أسفل البحيرة المالحة). واستعد الطرفان للمعركة، ولكن قبل وقوع الاشتباك بوغت (حسان خير الدين) بخبر وفاة أبيه، وأعقب ذلك موجة من الذهول والاضطراب اجتاحت المغرب الاسلامي، وخشي (حسان) أن يؤدي ذلك الى ظهور احداث خطيرة في عاصمة الدولة، فقرر العودة فوراً الى الجزائر، ونظم قواته، وانسحب في اتجاه (مستغانم). وأدرك (الكونت د. الكوديت) سبب هذه الحركة إذ كان

قد عرف بدوره خبر وفاة (خير الدين بربروس) وما أحدثه ذلك من الشعور بالفراغ المريع، فقرر بدوره اغتنام هذه الفرصة، ومطاردة (حسان) على أمل تحويل عملية الانسحاب إلى هزيمة لقوات المسلمين تساعده على احتلال (مستغانم). غير أن (حسان) وصل الى مستغانم بكامل قوته، في الوقت الذي استولى الاسبانيون على (مازغران) دونما قتال. وفي (مستغانم) عقد (حسان) مؤتمراً مع القادة من أهل المدينة والمجاهدين فيها. وتقرر الدفاع عن المدينة، وصد العدو عنها مهما بلغ الثمن، ومهما تطلب ذلك من جهد وتضحيات. وتوجه الرسل من (مستغانم) لاستنفار الغرب واستقدام قوة الحامية المدافعة عن تلمسان. ووصلت القوات الاسبانية إلى أمام أسوار (مستغانم) حيث احتدم القتال طوال ثلاثة أيام متوالية، ولما لم يكن الاسبانيون يتوقعون مثل هذه المقاومة، فقد أصيبوا بخيبة أمل مريرة، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمهم على احتلال المدينة وأدى ذلك إلى تصعيد حدة القتال.

وأثناء ذلك، كانت حامية تلمسان قد انطلقت للجهاد، وانضمت اليها جموع المجاهدين، ووصلت هذه القوات إلى ميدان المعركة يوم ٢١ - آب (أغسطس) فحدث نوع من التوازن في القوى. وقام الاسبانيون بهجوم قوي على المدينة، وأمكن لهم خمس مرات رفع راياتهم فوق بعض أسوارها. وكان المجاهدون في كل مرة يقومون بهجوم مضاد يطردون فيه الاسبانيين من المواقع التي يحتلونها، ويسدّون الثغرات التي تظهر في مواقعهم الدفاعية. واستمر الصراع المرير حول (مستغانم) أسبوعاً كاملاً. وعرف (الكونت د. الكوديت) أنه أخطأ في تقدير الموقف. وأنه لا قبل له في الاستمرار بخوض معركة تستنزف قوته في حين كانت قوات المسلمين تتعاظم باستمرار.

؛قرر رفع الحصار والعودة بقواته الى قاعدته (بوهران) وبدأ بتنفيذ الانسحاب بعد غروب شمس يوم ٢٨ آب - أغسطس -. غير أن قادة المجاهدين قرروا عدم إتاحة الفرصة للاسبانيين للقيام بانسحاب منظم. فقاد (حسان خير الدين) قوات المسلمين المكونة من (١٥) ألف من المشاة و(٣) آلاف من الفرسان، وأخذ في مطاردة القوات الاسبانية خلال كل مرحلة من مراحل تحركها، وتضييق الخناق عليها باستمرار. وسيطر الذعر على القوات الاسبانية من جراء هذه المطاردة العنيفة. وحاول قائدها جمع الفارين من جيشه والقيام بهجوم مضاد لإيقاف مطاردة قوات المسلمين، غير أن جنوده كانوا يفكرون بالفرار أكثر من تفكيرهم بخوض المعركة. ولهذا كان الهجوم المضاد ضعيفاً. ولم تتمكن القوات الاسبانية من الوصول إلى وهران إلا بعد جهود مضنية. وأفاد (أبو زيان) من بقاء تلمسان دونما حامية تدافع عنها، فهاجمها برجاله واستولى عليها وأعاد حكمه إليها.

رجع (حسان) إلى عاصمته (الجزائر) واستقر فيها، وأخذ في الاستعداد لمتابعة الجهاد الداخلي من أجل بناء الجزائر وتوحيدها، ومن أجل تطوير اعمال الجهاد الخارجي ضد الاعداء. وكان هدفه الاول هو استعادة (تلمسان) وتحريرها من عميل الاسبانيين (أبازيان).

خلال هذه الفترة كان المغرب الاقصى (مراكش) يشهد تطورات حاسمة على أيدي (الأشراف السعديين)[1] الذين أخذوا

---

(١) هناك خلاف على أصل هؤلاء السعديين، فقد جاء في (الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى) ما يلي: «اعلم ان هؤلاء السعديين كانوا يقولون أن أصل سلفهم من (ينبع النخل) من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية - رضي الله عنه - واليه يرفعون نسبهم. غير ان المولى محمد بن الشريف السجلماسي، أول ملوك العلويين، طعن في نسبهم، وصرح بذلك فيبعض رسائله التي وجهها الى الشيخ بن زيدان وقال =

على عاتقهم تحقيق امرين عظيمين: أولهما إنقاذ المغرب الأقصى من البرتغاليين. وثانيهما إنقاذ المغرب الأقصى من الانهيار الداخلي الذي وصلت إليه البلاد تحت حكم بني وطاس (المرينيين). وأقبل الشعب في المغرب الأقصى على دعم السعديين لتحقيق هذه الاهداف وقيادة حركة الجهاد. فأمكن للسعديين بذلك خوض مجموعة من المعارك والاعمال القتالية التي انتهت بتحرير السواحل المغربية من أيدي البرتغاليين. ولم تقبل سنة (١٥٤٠) حتى أمكن لهم إخراج البرتغاليين نهائياً من مقاطعة الدوكالة بكاملها. ومع هذه الانتصارات الخارجية، كان السعديون يمهدون لإقامة ملك جديد على أنقاض (الملك المريني المنهار) وجعلوا من مدينة (مراكش) عاصمة لهم.

وما إن استقر مؤسس دولة السعديين (محمد المهدي - ابو عبد الله الشيخ) في (مراكش) حتى انصرف لبناء جيش قوي ضم إليه المقاتلين من أبناء المغرب كله. وكان يتابع التطورات في البلد المجاور (الجزائر) فعز عليه استيلاء الترك عليه، باعتبارهم غرباء عن هذا الإقليم، وكان يقبح على أهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم. وفي الوقت ذاته كان يخشى ما يقوم به زعيم الوطاسيين (أبو حسون) من تحريض للبرتغاليين والاسبانيين ضد بلاده، والانطلاق في العدوان من (تلمسان) فقرر الاستيلاء عليها وعلى المغرب الأوسط بكامله (الجزائر). وفي سنة (١٥٠٠م) وجه جيشاً قوياً بقيادة ابنه (الشريف محمد الحران) بمهمة الاستيلاء على تلمسان. وتولى بعد

= فيها: وقد اعتمدنا في الطعن بنسبكم - على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر، فما وجدوكم الا من بني سعد بن بكر» أي من بني سعد الدين منهم حليمة السعدية - مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم - (حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدني - ص ٣٢٥).

ذلك تجهيز جيش آخر انطلق به (من فاس) لاحكام الحصار على تلمسان واخضاعها. غير أن أهل تلمسان قاوموا عملية الحصار بضراوة، واشتبكوا مع قوات السعديين مرات كثيرة قتل أثناءها (الحران) بن (الشريف محمد) والذي اشتهر بكفاءته القيادية العالية وشجاعته. وبعد حصار دام تسعة أشهر، أمكن للشريف محمد اقتحام تلمسان وكان ذلك يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادي الأولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة للهجرة (١٥٥٠م) وأخرج الاتراك منها، وامتد حكمه ليشمل الاقليم التابع لها حتى (وادي شلف).

كان (حسان خير الدين) أثناء ذلك قد جهز جيشاً قوياً يضم (٥) آلاف رجل من المجاهدين الجزائريين (من المشاة المسلحين بالبنادق) و(ألف) فارس و(٨) آلاف مقاتل من مجاهدي جبال زواوة (تحت قيادة السيد عبد العزيز سلطان قلعة بني عباس). وغادرت هذه القوة (الجزائر) في سنة (١٥٥٠) وهدفها مدينة (وهران) لانتزاعها من قبضة العدو الاسباني، واستثمار النصر الذي تم إحرازه عليها تحت اسوار (مستغانم).

علم (حسان خير الدين) وهو في طريقه إلى (مستغانم) بأن قوات السعديين قد احتلت تلمسان ومستغانم، وأنها تتابع تقدمها نحو مدينة الجزائر، وقد وصلت في طريقها إلى مجرى (نهر الشلف). وعند ذلك، تم تشكيل قوة جزائرية تولى قيادتها (حسان قورصو) وتوجه بها فوراً الى مجرى (نهر الشلف) حيث التقى بقوات السعديين ودارت رحى معركة ضارية، انتهت بهزيمة السعديين، واستثمر (حسان قورصو) النصر بأن وجه قوة بسرعة الى (مستغانم) أمكن لها اخراج السعديين منها. وتابعت القوات الجزائرية تقدمها في اتجاه المغرب الاقصى. غير أن (الشريف محمد المهدي) شكل جيشاً يضم

(٢٠) ألف مقاتل بمجرد عودته من المعركة. وأسند قيادة هذا الجيش إلى ابنه (الشريف عبد القادر) بمهمة إيقاف تقدم الجزائريين. واصطدمت القوتان عند حدود المغرب (بجوار قبة سيدي موسى). وتلقى المجاهدون من (زواوة) الصدمة الاولى، ثم تبعهم بقية الجيش الجزائري. ودارت معركة قاسية خاضها الطرفان بعناد، وانتهت بمصرع قائد الجيش السعدي (الشريف عبد القادر) وتراجع جيشه إلى ما وراء نهر الملوية. وعادت القوات الجزائرية بعد ذلك إلى (تلمسان) التي بقيت بدون حاكم لها، فتم تنصيب الامير الحسن بن عبد الله الثانـي ملكاً عليها. غير أن هذا الملك كان ضعيفاً، فتولى ممارسة السلطة الفعلية فيها القـائد العثمانـي (سفطة). واكتفى الملك بالانصراف إلى حياته الخاصة التي لم تكن (فاضلة) مما أثار الشعب عليه واجتمـع مجلس العلماء فأعلن خلعه (سنة ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤م) وأعلن (صالح رايس) يومئذ نهاية دولة بني زيان وانضمام تلمسان نهائيا الى دولة الجزائر. أما الملك السابق (أحمد الثالث) الذي أبعده الاشراف السعديون عند احتلالهم تلمسان، والذي ساءت سيرته بسبب اعتماده على الاسبانيين في حكم (تلمسان) فانه مات في وهران.

كان سلطان المغرب الأقصى (الشريف محمد المهدي) قد عمل عند احتلاله لمدينة فاس (سنة ٩٥٦ هـ) على إلقاء القبض على كل الوطاسيين من أبناء (بني مرين) وأرسل بهم مقيدين بالاغلال الى مدينة (مراكش) وكان لهم أنصارهم (بصورة خاصة من النازحين الأندلسيين) فساءهم ما لقيه هؤلاء من سوء المعاملة، وكان آخر ملوكهم (أبو حسون) قد نجا بنفسه، وأخذ بالدعوة لشخصه ولبني وطاس المرينيين. ولما وقعت الحرب بين المغربيين والجزائريين في معركة

(نهر الشلف) وعلم السلطان سليمان القانوني بذلك ساءه وقوع الحرب بين المسلمين. فأرسل وفداً من كبار العلماء يرأسه الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي (الطرابلسي الأصل الجزائري المستقر) بمهمة توطيد السلام. ووصل هذا الوفد إلى مدينة (مراكش) وفاوض سلطان المغرب (الشريف محمد المهدي) باسم السلطان سليمان حول النقاط التالية:

اولاً: اعتراف السلطان العثماني بالاستقلال التام لدولة المغرب مقابل اعتراف هذه الدولة بالخلافة العثمانية، جمعاً لوحدة المسلمين، وذلك بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر.

ثانياً: اطلاق سراح المقيدين المنكوبين من (بني وطاس المرينيين) والتخفيف من ضائقتهم، إذ لا يجوز شرعاً أن يغل جماعة من المسلمين.

ثالثاً: تحديد الحدود بين مملكتي الجزائر والمغرب الأقصى.

وطال النقاش حول هذه النقاط، ولم يوافق سلطان مراكش السعدي على الاعتراف بخلافة آل عثمان على المسلمين، كما لم يقبل تدخلهم في أمر بني وطاس، غير أن وساطة العلماء أسفرت عن اتفاق حول الحدود الفاصلة بين دولتي المغرب والجزائر، من ساحل البحر إلى بداية الصحراء. وهي الحدود التي ما زالت كما هي حتى اليوم، **وكانت سنة (٩٦١ هـ = ١٥٥٣ م) هي بداية تحديد (حدود دولة الجزائر ككيان مستقل).**

انصرف (حسان خير الدين بربروس) بعد ذلك الى تحقيق أهداف ثلاثة:

اولاً: جمع وحدة البلاد، وإرساء قواعد الدولة على أسس

راسخة، وتحصين الثغور استعدادا لمجابهة كل عدوان.

ثانياً: تحرير المدن الجزائرية التي احتلتها القوات الاسبانية وأقامت حاميات فيها، وخاصة بجاية ووهران.

ثالثاً: بعد تطهير وهران، قيادة المجاهدين في سبيل الله من أبناء المغرب العربي الاسلامي ودعم بقايا المسلمين في الاندلس، لقهر الاسبانيين في بلادهم، وإقامة دولة إسلامية جديدة، حيث كانت تقوم مملكة غرناطة من قبل عهد قريب.

ونجح (حسان خير الدين) في تحقيق هدفه الأول بسرعة مذهلة، بفضل ما عرفه الجزائريون وأبناء المغرب من اخلاص واليهم وصدقه وحسن سياسته. وقسم المملكة الى مقاطعة غربية، ومقاطعة جنوبية ومقاطعة عامة. وأطلق على كل مقاطعة اسم (بايليك) ووضع على رأسها حاكمًا يدعى (الباي) أما المقاطعة العامة فهي (دار السلطان) وتشمل الجزائر وما حواليها، وتحكمها الإدارة المركزية مباشرة. وباي الشرق مركزه قسنطينة. وباي الغرب مركزه (وهران ـ بعد فتحها) وقد استقر مؤقتاً بمازونة وبمعسكر. أما باي الجنوب، فمركزه مدينة المدية. ويحكم الشعب شيوخ منه، تحت إمرة ونظر البايات ويدعى هؤلاء الشيوخ (شيوخ الوطن). وهم: (شيخ وطن بني خليل، وشيخ وطن بني موسى، وشيخ وطن يسر، وشيخ وطن سباو، وشيخ وطن بني جعد، وشيخ وطن بني خليفة، وشيخ وطن حمزة، وشيخ وطن السبت، وشيخ وطن عريب، وشيخ وطن بني مناصر، وشيخ وطن الفحص ـ متيجة).

وأظهر حسان خير الدين اهتمامه الكبير بتحصين الثغور، وقد استخلص من مجموعة التجارب القتالية السابقة أن (كدية الصابون)

تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً، حيث كانت القوات الاسبانية الصليبية تعمل في كل مرة على احتلال هذا الموقع المشرف على مدينة الجزائر- من خلفها- وحيث تستطيع مدفعية العدو تدمير الجزائر إذا ما أمكن لها احتلالها. ولهذا أمر ببناء معقل منيع، وحصن شامخ يرتفع فوق تلك الربوة التي تعلو مائتي متر تقريباً عن سطح البحر[1] ثم أخذ في الاستعداد لتنفيذ الهدف الثاني وهو تحرير وهران وتلمسان.

انتهج (حسان خير الدين) سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالسلطنة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت فرنسا على الافادة من الحريات الاقتصادية الواسعة التي منحتها لها معاهدتها مع استامبول والتي شملت كل بلاد السلطنة العثمانية غير أن (حسان خير الدين) لم يلتزم بذلك، وأعلن عن عدائه لفرنسا في مناسبات كثيرة، فما كان من فرنسا الا أن أرسلت سفيرها المعتمد في استامبول الى الجزائر، بهدف معرفة المدى الذي سيصل اليه (حسان) في عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا والجزائر. واجتمع سفير فرنسا بالامير (حسان) وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية- الاسطول والرجال- لتنفيذ مشروعه في غزو اسبانيا ونجدة مسلمي الاندلس. لكن (حسان) رفض هذا العرض، وأعلن بصراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، فاكد بذلك القاعدة الثابتة (وهي عدم

(١) مـا زالت هذه القلعة موجودة حتى اليوم، وقد عمل الجزائريون على تدميرها في تموز - يوليو - ١٨٣٠، يوم اجتاحت قوات الاستعمار الفرنسي الجزائر. واعاد الافرنسيون بناءها وتحصينها. وتدعى القلعة رسمياً باسم (سلطان قلعة سي- أي- قلعة السلطان). أما الشعب الجزائري فما زال حتى اليوم ينسبها الى بانيها الأول، ويدعوها باسم (برج مولاي حسان) -حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدني- ص ٣٣٣.

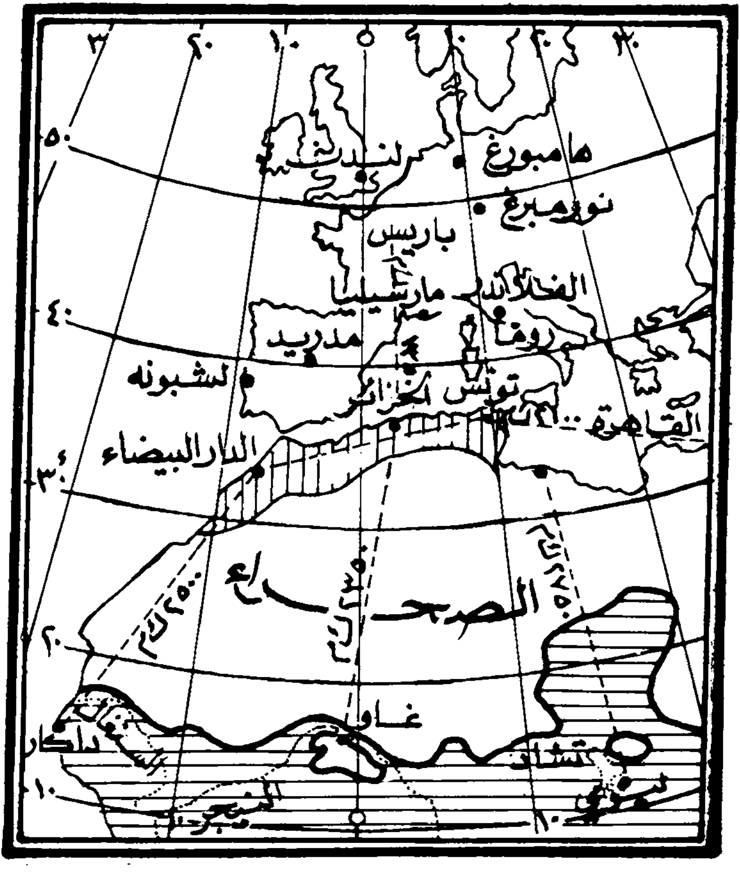

موقع المغرب العربي الإسلامي من العالم

الانتصار بكافر على كافر). ورجع السفير الإفرنسي إلى استامبول، وأفاد من نفوذه الواسع للتأثير على رجال الديوان، وأوغر صدر السلطان بقوله: (إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسان، ومحاولاته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام). فقرر الديوان السلطانـي دعوة (حسان) إلى استامبول لمجابهته بالأمر ومعرفة نواياه السياسية ومدى مطامعه. وغادر حسان مدينة الجزائر مؤقتاً. وخلفه على ولاية الجزائر في نيسان- ابريل- سنة **١٥٥٢** م ذلك القائد الشهير (صالح رايس).

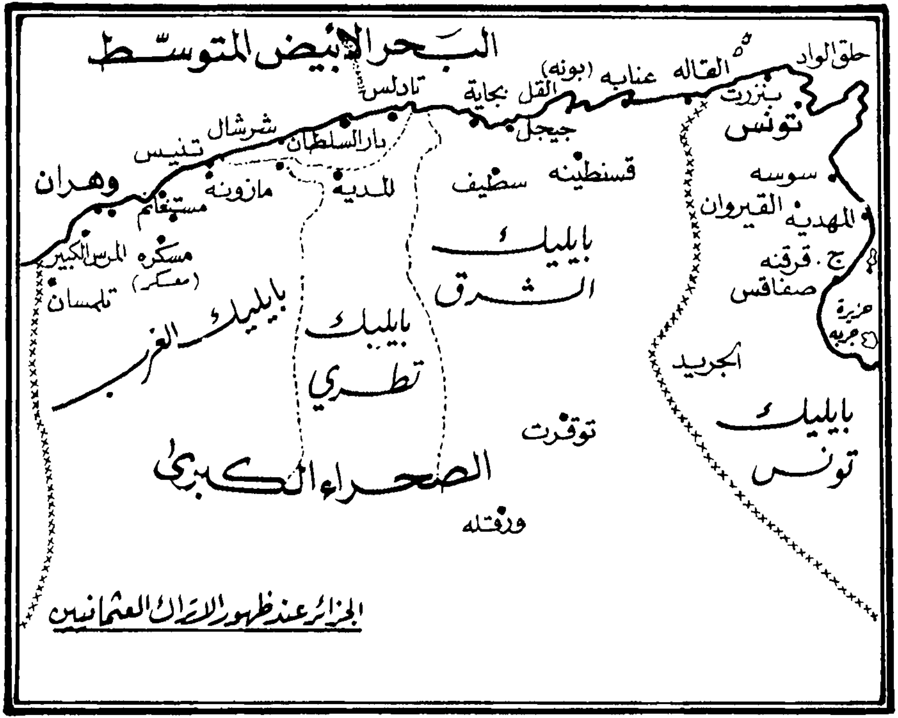

الجزائر عند ظهور الأتراك العثمانيين

٢ـ الموقف على الجبهة الاسلامية في المشرق

ذلك هو الموقف على ساحة المغرب العربي الاسلامي، في بداية تكون دويلاته المستقلة، والتي أصبحت خاضعة (بصورة رسمية) للخلافة العثمانية، ووقع عبء الجهاد على العالم الاسلامي في مشرقه ومغربه. وهكذا وبينما كانت الجزائر تبني قدرتها الذاتية لما فيه قوتها وقوة العرب المسلمين، كانت الامبراطورية العثمانية تخوض صراعاً مريراً على كل جبهاتها وبصورة خاصة على جبهتها الاوروبية وفي البحر الابيض المتوسط وكان أسطول الجزائر ينضم إلى الأسطول العثماني عند وقوع أي معركة بحرية، كما كان الاسطول العثماني يسرع لنجدة الجزائر في كل مرة تتعرض فيها للعدوان. وقد وضع (خيز الدين بربروس) أساس هذه السياسة الاستراتيجية وترك للامبراطورية اسطولاً قوياً. وعلى الرغم من المعاهدة التي عقدت مع النمسا في شباط- فبراير- ١٥٦٨ م، فقد استمرت البندقية في اعمالها العدوانية متخذة من قبرص قاعدة لها وتمكن (اليهودي يوسف ناسي) الذي كان أثيرا عند السلطان (سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤) من اقناع السلطان بضرورة شن الحرب على البندقية بعد أن امتنعت هذه من تنفيذ ما طلبه السلطان اليها. وتمكنت الجيوش العثمانية من احتلال قبرص دون كبير عناء. وكان أسطول (البندقية) يرابط في تلك

الاثناء على شواطىء كريت في انتظار النجدة تأتيه من الغرب. غير أن هذه النجدة لم تصل في حينها.

آ- معركة ليبانتي:

عند ذلك هب البابا وأعوانه لتدارك هذا الموقف بكل الوسائل الروحية والمادية. فأمر قداسته بقرع الأجراس والنواقيس، كل يوم ظهراً، لاجتماع الأتقياء في الكنائس والتضرع اليه تعالى أن ينقذ أوروبا من خطر المسلمين. وأرسل البابا سفراءه إلى كل مكان للتحريض على الحرب. وكللت نتيجة مساعيه بالنجاح، فتم عقد محالفة ثلاثية بين البندقية (فينيسيا) واسبانيا والبابا سنة **١٥٧١**م. بهدف تدمير القدرة البحرية الاسلامية التي باتت تهدد البندقية بصورة خاصة والتي كانت تحتل كورفو وكريت (بالاضافة إلى قبرص التي تم انتزاعها منها). كما اندفعت اسبانيا الى هذا الحلف على أمل التخلص من تهديد الأسطول الجزائري. واندفعت شعوب البلدان الكاثوليكية المتحالفة لدعم الجهد الحربي. وتطوع الاشراف والامراء من كل أصقاع أوروبا حتى لم تبق أسرة من أشراف أوروبا ونبلائها إلا ولها من يمثلها في تلك الحملة الصليبية.

أرسل ملك اسبانيا (فيليب الثاني) أسطولاً من (**٢٢**) بارجة و(٨) آلاف جندي وبحار بقيادة الاميرال (جان اوستريا). وأرسلت (جنوا) أسطولاً بقيادة الاميرال (دوريا) كما أرسلت صقليا ونابولي أسطولاً بقيادة الاميرال المركيز (سانت كروز)، وأرسل البابا بدوره أسطوله بقيادة أميراله (انطونيو كولونيا). وارسلت فينيسيا أكبر أسطول بقيادة الاميرال (بروفيدينور بربريجو). واجتمعت الاساطيل المتحالفة في مرفأ مسينا في شهر ايلول (سبتمبر) **١٥٧١**. وأسندت

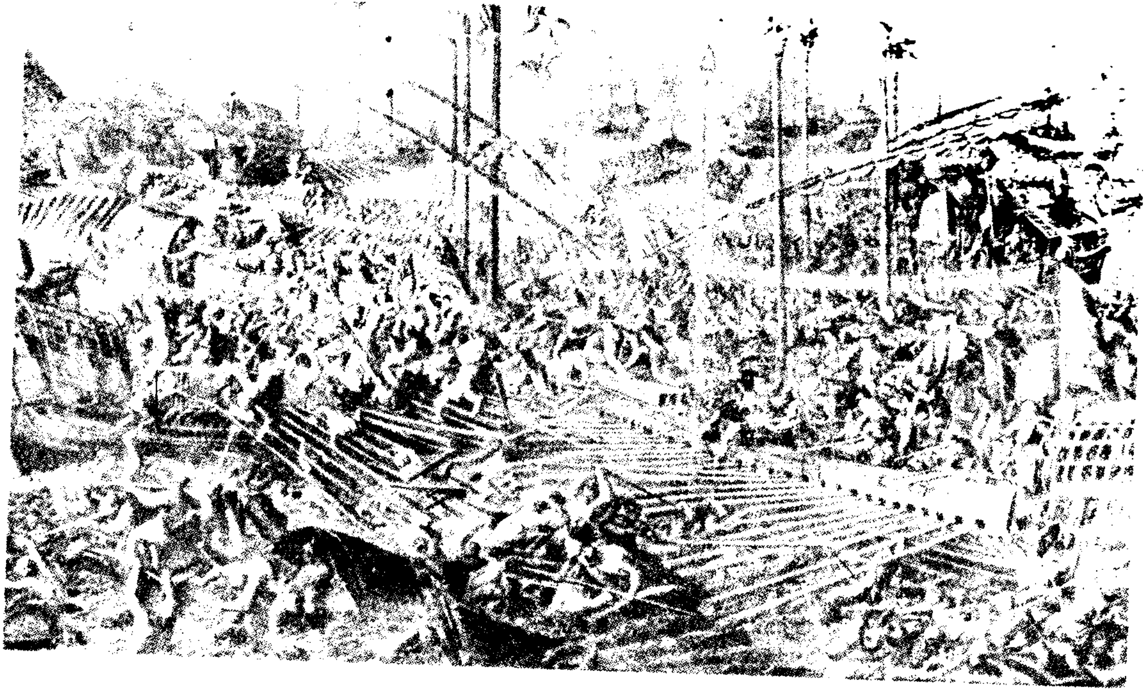

معركة ليبانتي الكبرى

قيادة هذا الاسطول الموحد إلى ملك النمسا (دون جوان) حيث بلغ عدد بوارج هذا الاسطول (٢٠٠) بارجة.

وكان الاسطول العثماني لا يقل في عدده عن الاسطول المتحالف، غير أن الاسطول الصليبي كان متفوقاً في مدفعيته. وقد زادت قوته عندما انضم اليه اسطول الجزائر الذي كان يضم (٤٠) قطعة حربية بقيادة أمير البحر الجزائري. فتوجه هذا الاسطول الاسلامي بمجموعة من الاغارات على سواحل كريت والجزر الإبرنية. ودخل خليج (لبانتي ـ أوناوباقتوس القديمة) يوم ٧ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ. وتحرك الاسطول الصليبي. فمر بمضيق أتيكا وسينالونيا ورأس ماراتيا، حتى التقى بالاسطول العثماني في مياه (ليبنتو) الواقعة على الشط الشمالي من بر اليونان المحاذي لخليج (كورينث). كان من رأي قادة الاسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالاسطول الصليبي غير أن القائد العام (الاميرال علي باشا) صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه (حيث كان عدد بوارجه ٢٣٤ بارجة). ونظم (الاميرال علي باشا) قواته، فوضع بوارجه على نسق واحد ـ صف ـ من الشمال الى الجنوب ـ بحيث كانت ميمنتها تستند الى مرفأ ليبنتو، وميسرتها في عرض البحر. وقد قسمها الاميرال علي باشا إلى جناحين وقلب، فكان هو في القلب، وسيروكو في الجناح الايمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة أمير البحر الجزائري (علوش باشا).

ومقابل ذلك نظم الاميرال (دون جوان) قواته، فوضع بوارجه على صف (نسق) يقابل النسق الإسلامي. ووضع جناحه الايمن بقيادة الاميرال دوريا في مقابل (علوش باشا). وأسند قيادة جناحه الأيسر الى (بربريجو) وأسندت قيادة القلب إلى الاميرال القائد العام

(دون جوان) وترك اسطولاً احتياطياً بقيادة الاميرال (سانت كروز). وما ان بدأت المعركة حتى احاطت بوارج (سيروكو) العثماني بالجناح الايسر للاسطول الصليبي. واوغلت السفن الاسلامية بين بوارج الاسطول الصليبي. ودارت معركة قاسية أظهر فيها الطرفان عناداً كبيراً، غير أن المعركة انتهت بتدمير القسم الاكبر من الاسطول الاسلامي. وخسر المسلمون (٢٠) ألف مقاتل في حين لم تتجاوز خسائر الصليبيين (٨) ألاف قتيل. ودمر القسم الاكبر من الاسطول الاسلامي ونجح امير البحر الجزائري (علوش باشا) في إنقاذ الجناح الايسر وسفنه الأربعين، وعاد بها الى الجزائر. غير أن (دون جوان) لم يستثمر هذا النصر، بل انه لم يهاجم (ليبانتي) ذاتها. على الرغم من أن السكان النصارى، في الداخل، كانوا يترقبون ذلك للانقضاض على العثمانيين. وأخيراً انسحب الاحلاف، حتى إذا كانت السنة التالية، صار في مقدور السلطان أن يوجه إلى المعركة أسطولاً يكاد يضاهي اسطولهم منعة وقوة. وهكذا فت في عضد البنادقة الذين ظلوا مرابطين في دلماسيا دون أن يحسنوا مركزهم أو يعززوا قواهم، وزايلتهم الرغبة في مواصلة الصراع والنضال، فعقدوا مع العثمانيين معاهدة تنازلوا بموجبها عن قبرص (في آذار ـ مارس ـ ١٥٧٣) وافادت البحرية الاسلامية من تجربة (ليبانتي) فتم تطوير مدفعية الاسطول، حتى أصبحت منافسة فى عددها وقوتها للاساطيل المعادية[1].

---

(١) جاء في حرب الثلاثمائة سنة. احمد توفيق المدني ص ٣٩٨-٣٩٩ ما يلي: «كان الاسطول الصليبي يضم ٣٠٠ سفينة يقابلها ٢٥٠ سفينة لدى الاسطول الاسلامي. وكانت قوة الصليبيين (٨٠) ألف مقاتل. ووقعت المعركة يوم ١٧ جمادي الاول ٩٧٩ هـ وانتهت بغرق ٩٤ سفينة من سفن الاسطول الاسلامي وأخذ المسيحيون ١٣٠ سفينة عليها نحو (٣٠٠) مدفع و(٣٠) ألف اسير واستشهد في المعركة علي باشا قائد الاسطول =

ب- الجهاد على الجبهة الاوروبية:

لم يلبث السلطان سليم الثاني أن توفي، وخلفه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م). وفي عهده قامت القوات العثمانية باعمالها الهجومية في بلاد القبق (القوقاز) وفتحت (تفليس) وأنشأت قلعة (قارص) في سنة ١٥٧٩. وعزز العثمانيون نفوذهم في جنوبي (الروسيا) ليتخذوا منها مركزاً لحملاتهم ضد بلاد الكرج سنة ١٥٨١ وسنة ١٥٨٣. وأصبح بامكانهم بعد ذلك التدخل في شؤون بولونيا حيث أصبح الملكان البولونيان اسطفان باتوري وسيجموند تابعين للسلطة العثمانية. وعلى الرغم من وقف القتال بهدنة سنة ١٥٨٣، فقد ظلت جمرات الحرب متقدة تحت الرماد، وظل شررها يتطاير بالنزاع المستمر على الحدود النمساوية، الى أن اشتعلت نيرانها بعد عشر سنوات، وكان حاكم (البوسنة) قد هزم هزيمة مروعة في حزيران -يونيو- سنة ١٥٩٣م أثناء اغارة قام بها على (سسك) في بلاد المجر. ولم يكن بد من استئناف الحرب الكبرى. ولكن السلطان مراد الثالث توفي وخلفه ابنه محمد الثالث(١٥٩٥-١٦٠٣م) الذي قاد بنفسه قوات ضد حكام النمسا (آل هبسبورغ) وانتصر عليهم في معركة (أكري). ولكن الحرب سارت بعد هذا النصر بخطى وئيدة جداً ثم استمرت

= العثماني. واستطاع (قلج علي) الذي تسميه المصادر الغربية (علوش) انقاذ اسطوله والاستيلاء على بعض السفن منها السفينة التي تحمل علم البابا. وبادر السلطان على اثر ذلك بتعيين (قلج علي) اميراً عاماً للبحر (قبوران باشا) مع بقائه والياً على الجزائر (باي لرباي). وتولى (قلج علي) مهمة اعادة تنظيم الاسطول، وترك (احمد العربي) حاكما للجزائر وهو الذي تسميه المصادر التركية (عرب احمد). ولم تمض اكثر من سنة واحدة، حتى استطاع (قلج علي) إعداد (٢٥٠) سفينة جديدة، وعاد الاسطول باقوى مما كان عليه قبل معركة (ليبانتي).

كذلك عقب وفاة محمد سنة (١٦٠٣) وارتقاء ابنه أحمد العرش (١٦٠٣-١٦١٧م) والواقع أن الحظ لم يجر في ركاب العثمانيين الا عندما انحاز الى جانبهم الزعيم المجري (بوكسكاي) بعد أن نصب أميراً على (ترانسلفانيا) وهكذا عقد الصلح آخر الأمر بين الفريقين بمعاهدة سيتفاتورك (سنة ١٦٠٦).

وشهدت اوروبا حالة من الهدوء النسبي، حتى عهد (السلطان ابراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨)، حيث استجمع العثمانيون قواتهم لمجابهة التحريض الذي لم تتوقف (البندقية) يوماً عن اثارته تحت لواء الصليبية، مع توجيه التهديد الى بحر ايجه من خلال سيطرة البندقية على جزيرة (كريت). وأدى ذلك الى اقدام السلطان ابراهيم على إصدار أمر في حزيران (يونيو) سنة **١٦٤٥** باعتقال جميع البنادقة في كل انحاء الامبراطورية ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، معلناً بذلك الحرب على البندقية .وقام الاسطول العثماني بمهاجمة جزيرة كريت،واحتلال (حانيه) بدون مقاومة. وفي هذه الاثناء كان البنادقة يسعون على غير طائل، في سبيل حمل الدول الاخرى على مساعدتهم للاحتفاظ بمواقعهم في المشرق. وامكن لهم احراز بعض التقدم في (دلماسيا). كما استطاعوا في سنة (١٦٥١) دحر الاسطول العثماني عند (باروس).

وفي هذه الفترة عرفت الامبراطورية العثمانية نوعاً من التنظيم الشامل (الذي تولى أمره الصدر الاعظم محمد كوبريلي). وساعد على اتخاذ المواقف الحازمة ضد جيران الامبراطورية في الشمال، ففي (ترانسلفانيا)[١] أقصى الباب العالي الامير (جورج راغوجكي) الذي

---

(١) ترانسلفانيا: (TRANSYLVANIE) وبالرومانية (ارديل: ARDEAL) اقليم في رومانيا يقع بين جبال الكربات والالب الترانسلفانية .وكان هذا الاقليم تابعاً=

حاول التمرد على السلطة الاسلامية. واقام مكانه (الامير ميخال آبافي). ورفض الامبراطور النمساوي الاعتراف (بآبافي) بضغط من المجريين. فتهدده الباب العالي بالحرب. وهكذا بعثت في اوروبا فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العالم المسيحي كله العمل من أجل دفع الخطر الاسلامي، وهي الفكرة التي طالما عمل لها البنادقة. واستجاب الملوك لدعوة البابا -بمن فيهم ملك فرنسا لويس الرابع عشر- وذلك من اجل نصرة إخوانه في الدين، على الرغم من صلاته الطيبة بالباب العالي، فحمل الامراء الألمان الذين يؤلفون عصبة اتحاد الراين (آل هبسبورغ) وكانوا حلفاءه، على أن يضعوا (٢٠) ألف رجل تحت تصرف الامبراطور الالماني، فأحرجت هذه البادرة بلاط فيينا، الذي كان لا يزال يسعى لتجنب الحرب، ويأمل في مفاوضة العثمانيين. ولكن صبر السلطان ماعتم أن نفد، فأصدر أوامره بالهجوم على المجر في نيسان (ابريل) ١٦٦٣، حتى اذا انتهى العثمانيون الى أن يهددوا فيينا ذاتها، دعا الامبراطور اتحاد الراين، بل دعا السويد أيضاً، الى نجدته، غير أن ما تلقاه من دعم وما أحرزه من انتصارين ابرزهما انتصاره على نهر الراب (قرب جبل القديس غونارد) لم يمنعاه من متابعة جهده السياسي فعقد مع العثمانيين الصلح (سنة ١٦٦٥) حتى ينصرف لمناوأة السياسة الافرنسية. بذلك، أصبح باستطاعة القوات العثمانية القاء كل ثقلها في معركة (كريت). وكان البنادقة يتوقعون - بل ينتظرون- وصول دعم من فرنسا، لكن هذه لم ترسل اكثر من بعض الضباط للالتحاق في خدمة البندقية، وعندما قرر لويس الرابع عشر ارسال حملة تضم (٧) آلاف رجل في صيف

= للملكة الهنغارية منذ القرن الحادي عشر. ثم حصل على نوع من الاستقلال (١٥٢٥-١٦٨٦) واصبح تابعاً لحكم آل هبسبورغ بعد ذلك.

سنة (١٦٦٩) كان الوقت قد أصبح متأخراً. إذ كانت قلعة (قلندية) قد سقطت في قبضة القوات العثمانية منذ يوم ٦ ايلول ـ سبتمبر ـ وعقدت معاهدة الصلح التي فرضت على البنادقة الانسحاب من كريت.

وعاد العثمانيون لبسط نفوذهم في الشمال الشرقي من بلادهم. وحدث في سنة (١٦٦٨) أن انضوى الزعيم القوقازي (دوروشنكو) تحت لواء العثمانيين (وكان يعمل من قبل لمصلحة التاج البولوني). ولكن الدولة العثمانية لم تطلب الى بولونيا التنازل عن (اوكرانيا) الا سنة (١٦٧٢) بعد أن وثقت من عدم تدخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر، فلما كان شهر ايلول (سبتمبر) عقد ملك بولونيا (ميخال) معاهدة مع العثمانيين تنازل لهم بموجبها عن (بودوليا واوكرانيا) وذلك بعد أن فقد قلعة (قامنج) القائمة على الحدود، إثر حصار قصير الأمد. ولكن الماريشال (سوبيسكي)[1] نقض هذه المعاهدة في السنة التالية. فكتب له النصر على العثمانيين عند (خوتين) في ١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ وعندما توفي الملك ميخال بعد ذلك بقليل، ارتقى (سوبيسكي) عرش بولونيا باسم (حنا الثالث). غير أنه لم يوفق لاحراز أي نصر خلال حملاته التالية، حتى اذا ما حاول عبور نهر (الدنيستر) سنة ١٦٧٦، طوقت قواته عند (زوراونو)[2]

---

(١) سوبيسكي: (SOBISKI:JEANIII) ملك بولونيا (١٦٧٣-١٦٩٦) ويعتبر أحد الابطال الوطنيين لهذه البلاد، وهو من مواليد (اولسكو: OLESKO) (١٦٢٩-١٦٩٦) انتصر على الاتراك المسلمين، وانقذ فيينا من الحصار.

(٢) زوراونو: ZURAWNO مدينة اوكرانية (غاليسيا: GALICIE) تقع على نهر الدينيستر: DNIESTER. وهو نهر ينبع من جبال الكاربات في اوكرانيا، فيفصل بين مولدافيا (MOLDAVIE) واوكرانيا ويصب في البحر الاسود وطوله ١٢٠٠ كيلو متر.

فاضطر الى عقد الصلح في تشرين الاول ـاكتوبرـ تنازل بموجبه عن القسم الاعظم من (بودوليا واوكرانيا).

لم تكد القوات العثمانية تفرغ من صراعها مع بولونيا حتى اندلعت الحرب مع روسيا، ودارت معارك طاحنة انتهت باستيلاء الروس على كييف والمناطق المحيطة بها. واضطرت الامبراطورية العثمانية الى عقد صلح في سنة (١٦٨١) اعترفت فيه لروسيا بملكية ما استحوذته من المناطق. ولم يكد العثمانيون يطمئنون الى استتباب الأمن والسلام في الشرق، حتى حشدوا كامل قوتهم لحرب المجر من جديد. وكان النبلاء المجريون قد اقترحوا على السلطان العثماني اخضاع ما بقي من المجر تحت الحكم النمساوي، مقابل أدائهم جزية سنوية. فجهز السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م) جيشاً سار من بلغراد لقتال الامبراطور النمساوي في (ايار ـمايوـ ١٦٨٣) وكان الجيش النمساوي يتوقع الحصول على إمدادات جديدة، فتراجع متمهلاً الى (فيينا). وفي ١٧ تموز ـ يوليوـ حاصر العثمانيون العاصمة بقيادة الصدر الاعظم عمر مصطفى، ولكن جيشاً كبيراً ما لبث أن برز من ألمانيا، على الرغم من تهديدات الملك الافرنسي لويس الرابع عشر. ولقد استطاع هذا الجيش بالتعاون مع الفرق البولونية أن ينزل الهزيمة بالعثمانيين عند (قاهلنبرج) في ١٢ ـ ايلول ـ سبتمبرـ وأن يحملهم على رفع الحصار عن العاصمة. ومع أن الخلاف ما عتم أن شجر بين الالمان وملك بولونيا (سوبيسكي) بسبب من مطالب هذا الأخير، فقد وضعت الخطة الرامية لاخراج الاتراك المسلمين من المجر. وفي ٥ آذار ـ مارسـ سنة ١٦٨٤م، وبفضل تدخل البابا، عقد بين الامبراطور وسوبيسكي حلف انضمت اليه البندقية وهدفه العمل المشترك ضد العثمانيين. ومنيت القوات العثمانية على أثر ذلك بالهزيمة

تلو الهزيمة في المجر. ولم تلبث القوات الجرمانية أن ظهرت أمام أبواب (بودا) في سنة (١٦٨٦)ـ وضربت عليها الحصار. وبعد شهرين اثنين سقطت هذه المدينة، بعد أن بقيت طوال ١٤٥ سنة دعامة الحكم العثماني في المجر. ولم يؤد أحد من أعضاء التحالف الآخرين ما فرض عليه من مهام باستثناء أهل البندقية، ولكن انتصاراتهم اختتمت هي ايضاً باحتلال أثينا سنة ١٦٨٧، ليضطروا الى اخلائها في السنة التالية. وحاول البولونيون ان يستردوا (قامنج) طوال الفترة ما بين سنة ١٦٨٤ وسنة ١٦٨٧، غير ان محاولاتهم احبطت وفشلت. وفي سنة (١٦٨٧)ـ انضمت الروسيا الى التحالف للافادة من قوته في الاستيلاء على شبه جزيرة القرم. غير أن روسيا فشلت ايضاً في تحقيق هدفها.

أحرزت القوات الصليبية المتحالفة نصراً على العثمانيين في موهاج (موهاكس)[1] سنة (١٦٨٧م). وعلى اثر ذلك عقد مؤتمر للعلماء في (آيا صوفيا) وتقرر قرار خلع محمد الرابع وتعيين اخاه (سليمان الثاني ١٦٨٧ـ ١٦٩١ م). وعندما زحفت القوات النمساوية على (بلغراد) في ٦ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٦٨٨ استطاعت الاستيلاء عليها، غير ان القوات العثمانية تمكنت من طردها منها في ٨ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ (١٦٩٠ م). وفي السنة التالية قاد الصدر الاعظم بنفسه الجيش العثماني، وخاض معركة (سالانكمن) المشؤومة التي قتل فيها الصدر الاعظم (في ١٩ آب ـ أغسطس ـ ١٦٩١).

تولى عرش السلطنة العثمانية بعد فترة من الاضطراب

---

(١) موهاج: MOHACS (MOHATCH) مدينة هنغارية تقع على نهر الدانوب غير بعيدة عن الحدود اليوغوسلافية وفيها انتصر ملك هنغاريا لويس الثاني على الامبراطور العثماني سليمان الثاني سنة ١٥٢٦م. ثم انتصر فيها ايضا امير اللورين شارل على العثمانيين سنة ١٦٨٧.

السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) فقاد بنفسه الاعمال القتالية في المجر، وتمكن من انقاذ (طمشوار) [(١)] غير أنه اصطدم بقوات امير سافوي (الامير اوجين)[(٢)] الذي استطاع الانتصار على جيش السلطان عند زنطه -على نهر (تيس) في ١١ ايلول -سبتمبر (١٦٩٦م). وافاد القيصر بطرس من انشغال العثمانيين على جبهة الغرب فاستأنف الحرب سنة (١٦٩٥) وتمكن من فتح (آزوف) في سنة (١٦٩٦م). وتدخلت بريطانيا وهولاندا - بالوساطة - للصلح بين العثمانيين والروس. فتم عقد صلح (كارلو ويج)[(٣)] في ٢٦ كانون الثاني - يناير - سنة (١٦٩٩م). وارغم السلطان العثماني بموجب هذه المعاهدة على التخلي (لآل هبسبورغ) عن ترانسلفانيا حتى طمشوار، وعن المجر بكاملها تقريباً. وعن القسم الاعظم من (سلوفينيا)[(٤)]

---

(١) طمشوار: (TIMISHOARA) مدينة. رومانية (في رومانيا) واسم هذه المدينة باللغة الرومانية: (TEMESVAR) تقع على نهر بيغا: BEGA.

(٢) الامير اوجين EUGENE DE SA VOIE CARIGAN (PRINCE EUGENE) قائد شهير في الجيش الامبراطوري النمساوي، وهو ابن اوجين موريس امير سافوا وكونت سواسون واولمب مانسيني. من مواليد باريس (١٦٦٣-١٧٣٦م). اشتهر بانه أحد القادة الكبار في عصره. خاض الحرب في البداية ضد الاتراك. ثم خاض حرب الوارثة الاسبانية مع القائد الانكليزي (مارلبورو). وربطت بين القائدين اواصر الصداقة، وتمكنا بالتعاون احراز عدد من الانتصارات في اودينارد ومالبلاكية. ولكن القائد الافرنسي فيلار هزمه في معركة (دينان).

(٣) كارلوويج: (CARLOWITZ) الاسم القديم لمدينة (كارلوفسي: CARLOVCI) وهي مدينة يوغوسلافية تقع على نهر الدانوب. وفيها وقعت معاهدة سنة (١٦٩٩م) بين تركيا والنمسا وبولونيا وروسيا والبندقية - فينيسيا - وبها ارغمت تركيا العثمانية على التخلي عن قسم كبير من ممتلكاتها الاوروبية.

(٤) سلوفيينا: (SLOVENIE) احدى الجمهوريات الاتحادية في يوغوسلافيا حالياً، ومساحتها (١٦,٢٢٩) كيلو متر مربع، وعاصمتها (الجوبلجانا: LJUBLJANA).

وكراوتيا. كما أرغم على التنازل للبولونيين عن (قامنج) وجميع ما فتحوه في (بودوليا) وعن اوكرانيا أيضاً. كما تنازل للبنادقة عن المورة وعدد من المدن في دلماسيا. وبالتنازل عن (آزوف) للروس، فتحت ابواب البحر الأسود أمام القيصر، بعد أن بقي هذا البحر لعهود طويلة بحيرة عثمانية.

كان ملك السويد (شارل الثاني عشر)[١] قد أصبح الآن خصماً عنيداً لروسيا، فعمل الباب العالي على التقرب منه، غير أن ملك السويد هزم هزيمة شنعاء عند اصطدامه بالقوات الروسية في معركة (بلتاوا ـ بلتافا) [٢] فاسبغ السلطان العثماني عليه حمايته في قلعة (بندر) العثمانية. ولكن الباب العالي لم يشرع في الاستعداد لمحاربة قيصر روسيا الا في أواخر سنة (١٧١٠م) بعد أن عجز عن الاتفاق معه على عودة (شارل) الى بلاده. وهكذا اضطر بطرس الى ايقاف عملياته الحربية في مقاطعة البلطيق، ويعود أدراجه في اتجاه الجنوب. وكاد يقع في الواقع هو وجيشه بكامله في قبضة الجيش العثماني (على نهر البروت) وقدم بطرس غرامة كبيرة حتى سمح له بالتراجع في تموز

---

(١) شارل الثاني عشر: (CHARLES XII) ابن شارل الحادي عشر، ولد في استوكهولم (١٦٨٢ـ ١٧١٨). وما ان تسلم ملك بلاده حتى عمل على توسيع حدودها، فانتصر على ملك الدانمرك في سنة (١٧٠٠ م) وانتصر على الروس في نارفا: (NARVA) وعلى ملك بولونيا (اوغست الثاني) في معركة كيسو (KISSOW)(سنة: ١٧٠٣) وقاد بعد ذلك جيوشه ضد بطرس الكبير ملك الروسيا. غير ان روسيا الحقت به الهزيمة في معركة بلتافا سنة ١٧٠٩ م، فالتجأ الى تركيا (السلطان احمد الثالث) الذي دعمه فعاد الى السويد سنة ١٧١٥. واستمر الصراع حتى قتل اثناء حصار هالدن» آزوف (FREDRIKSHALD) HALDEN

(٢) بلتافا: (PULTAVA)POLTAVA مدينة اوكرانية (في الاتحاد السوفييتي حالياً) الى الغرب من خاركوف.

ـيوليوـ سنة ١٧١١م. واضطر الى اخلاء (آزوف) [١] واعادتها الى العثمانيين. مع التزامه بدك حصون طيغان (تاغانروغ) [٢] وازالتها من الوجود. ولقد وافق الباب العالي على هذه المعاهدة من اجل التفرغ لاستعادة ما فقده من مقاطعات فرضتها عليه معاهدة (كارلوويج). وفي سنة (١٧١٤ م) أفاد الباب العالي من الثورة التي نشبت في الجبل الاسود فاعلن الحرب على (البندقية) ولم تمض اكثر من فترة قصيرة حتى اضاعت البندقية كل ممتلكاتها في (المورة) وجزر الارخبيل. وعاد الامبراطور النمساوي للتدخل في الحرب. واحرز الامير اوجين نصراً على القوات العثمانية في بتروارادين - أو وارادين) في ٤ آب - أغسطس - سنة ١٧١٦. ولم يلبث أن فتح (طمشوار) في تشرين الاول- اكتوبر- وهي آخر الحصون العثمانية في الأرض الهنغارية، ليستولي في السنة التالية على (بلغراد) ذاتها. ولكن السياسة الاسبانية في ايطاليا ما عتمت ان اعترضت سبيله الظافر. فاضطر الامبراطور النمساوي الى قبول عروض الصلح العثمانية، وفي المعاهدة المعقودة في بازارو ويج يوم ٢١ تموز- يوليو- سنة ١٧١٨، تنازل الباب العالي للامبراطور عن بلغراد وعن كامل منطقتها الى مصب نهر الآلوته في الطونة (الدانوب) في حين كان على البنادقة أن يتخلوا عن المورة.

كانت روسيا قد اخذت في توسيع حدودها عبر (بلاد الافغان) و(فارس- ايران) وأدى ذلك الى الصدام مع الامبراطورية العثمانية في مرات عديدة. وعند وفاة بطرس الكبير، تولت زوجته (حنه -أو

---

(١) آزوف : AZOV ـأوـ AZOF) خليج يشكله البحر الأسود، ويطلق عليه ايضاً اسم (زاباخ : ZABACHE) ويصب فيه نهر الدون، ويتوغل هذا الخليج في حدود روسيا الجنوبية حالياً.

(٢) تاغانروغ : (TAGANROG) مدينة روسية حالياً. تقع على بحر ازوف.

كاترين)[1] عرش الامبراطورية الروسية. فوطدت العزم على مواصلة التقدم نحو البحر الاسود وبحر قزوين متبعة في ذلك سياسة زوجها. غير أن الدول البحرية ـانكلترا خاصةـ حالت دون هجوم روسيا على الامبراطورية العثمانية، لأن مصالح تلك الدول تعارضت مع حصول روسيا على توسع جديد. حتى اذا انقضت الاضطرابات البولونية، هاجم الروس العثمانيين في تشرين الاول ـاكتوبرـ سنة ١٧٣٥م. ولكنهم لم ينتهوا باديء الأمر الى ابعد من (آزوف). وحاول الامبراطور الالماني الذي كان مقيداً بمعاهدة تفرض عليه مساعدة روسيا، أن يتوسط في البداية بين الطرفين المتصارعين، فلم يشارك في القتال الا في سنة (١٧٣٧م). ولكن جيوشه منيت بالهزيمة تلو الهزيمة، حتى اذا كانت سنة (١٧٣٩م)، أسلمت (بلغراد) الى العثمانيين بعد فترة قصيرة من الحصار. وعقدت بعد ذلك مباشرةمعاهدة تنازل فيها الامبراطور النمساوي عن كل المغانم التي ضمنتها له معاهدة صلح (بازارورويج). ومن ثم اضطرت (روسيا) أن توقع معاهدة مع الامبراطورية العثمانية، غنمت بواسطتها مدينة (آزوف) التي كانت مدمرة تدميّراً تاماً. وفي سنة (١٧٤٠م) جدد الباب العالي اعترافه بالحماية الافرنسية على نصارى الشرق ـمن الكاثوليكيينـ مقابل تأييد فرنسا الديبلوماسي له في هذه الحرب. وكانت هذه هي الثغرة التي اتاحت بعد ذلك الفرصة لكل الدول لبسط حمايتها على المشرق الاسلامي بحجة حماية رعايا النصارى من المذاهب المختلفة.

كانت اوروبا خلال هذه الفترة تعيش فترة تشكلها الوطني

---

(١) حنه ـأوـ كاترين: CATHERINE I امبراطورة روسيا (١٦٧٢-١٧٢٧) زوجة بطرس الكبير (PIERRE LE GRAND) تولت الحكم بعد موت زوجها (سنة ١٧٢٥) غير أنها لم تستمر في الحكم اكثر من سنتين.

والقومي ، فوقعت مجموعة من الحروب بين الدول الاوروبية بعضها ضد بعض، وظهر في تلك الفترة بصورة خاصة امبراطور روسيا (بطرس الكبير) في روسيا و(فريدريك الكبير) (١) في بروسيا الذي خاض حروبه ضد النمسا، ونظراً لأن الامبراطورية النمساوية كانت تتزعم الدول الكاثوليكية في حربها الصليبية ضد المسلمين، ونظراً أيضاً لأن بروسيا كانت تعتبر نفسها (حامية البروتستانتية) فقد حاول فريدريك التحالف مع الامبراطورية العثمانية ضد العدو المشترك (النمسا)، واقناع الباب العالي بشن حرب على النمسا أثناء حرب السبع سنوات (المرحلة الثالثة من الحروب السيليزية). وامكن عقد معاهدة صداقة بين (بروسيا والامبراطورية العثمانية) في ٢٩ آذار - مارس - سنة ١٧٦١.غير ان السلطان رفض الاشتراك في هذه الحرب التي لم يكن له مصلحة فيها، والتي افتى العلماء بعدم تأييدها انطلاقاً من قاعدة (عدم الانتصار لكافر ضد كافر- طالما انه لا مصلحة للمسلمين فيها).

ان تجنب الامبراطورية العثمانية الاشتراك في الحروب الاوروبية ، لم يكن ليمنعها من المشاركة في صنع احداث السياسة الاوروبية، بسبب نشوء المسألة البولونية والتي اصطنعتها روسيا لضمان مطامعها في التوسع نحو اوروبا. وبرزت المسألة البولونية

---

(١) فريدريك الثاني - الكبير: (FREDERIC II LE GRAND) ابن فريدريك الاول. وملك بروسيا - ولد في برلين (١٧١٢-١٧٨٦م) تم تتويجه على اثر وفاة ابيه (سنة ١٧٤٠م) اشتهر بأنه قائد عسكري كبير، واداري منظم من الطراز الأول واليه يعود الفضل في اظهار عظمة بروسيا. استولى على سيليزيا إثر انتصاره في معركة (مولويتز - سنة ١٧٤١م) وتحالف مع انكلترا، وقاوم الدول المتحالفة ضده (النمسا وفرنسا وروسيا) طوال حرب السبع سنوات وانتصر في معارك روزباك ولوتن وزورندورف. واشترك في اقتسام بولونيا سنة ١٧٧٢ وحصل على نصيبه منها. كان صديق الكاتب الافرنسي فولتير. واشتهر برعايته للادباء والفنانين والعلماء.

بصورة خاصة في عهد الامبراطورة (كاترين الثانية)(١) حيث حاولت هذه الامبراطورة اضعاف بولونيا، وأظهرت الامبراطورية العثمانية عدم اهتمام كبير في بداية الأمر، على الرغم من إقدام روسيا على مساعدة الكرج للقيام بالثورة ضد العثمانيين المسلمين، وعلى الرغم ايضاً من قيام روسيا بخلق المتاعب والمشكلات في وجه حاكم القرم (خان التتار). وأثناء ذلك بذل حزب الإئتلاف البولوني كل جهوده حتى نجح في اقناع السلطان بضرورة الدفاع عن نفوذه في الشمال الشرقي من بلاده. حتى اذا ما قامت القوات الروسية بتدمير مدينة (يالطة) على حدود (بسارابيا)(٢) سارع المفتي الى الافتاء بضرورة شن الحرب ضد (روسيا) على الرغم من تعلقه وزملائه رجال الافتاء بأهداب السلام.

بدأت روسيا عملياتها ضد التتار في القرم والذين تولى قيادتهم خان القرم (كراي). واستطاعت القوات الروسية أن تلحق بهم الهزيمة، ثم استولت على (خوتين) بينما كان الجيش العثماني مرابطاً في (دوبريجة). وفي سنة (١٧٧٠م) تابعت القوات الروسية تقدمها عبر

---

(١) كاترين الثانية الكبيرة: (LA GRANDE CATHERINE II) امبراطورة روسيا، ولدت في (ستيتن: STETTIN) أو بالالمانيه (SZCZECIN) المدينة البولونية الواقعة على نهر الاودر، وهي ابنة الدوق (أنهالت - زربست) عاشت في الفترة (١٧٢٩-١٧٩٦م) تزوجت بطرس الثالث. وحكمت وحدها بعد موت زوجها في سنة (١٧٦٢م) اشتهرت بحروبها ضد المسلمين الاتراك بصورة خاصة، وقامت باصلاحات كثيرة، وعملت على حماية ورعاية العلماء والادباء والفنانين -والافرنسيين منهم بصورة خاصة- فعمل هؤلاء على اسدال ستار على شذوذها وقسوتها.

(٢) بسارابيا: (BESSARABIE) بلاد في اوروبا الشرقية، تقع بين نهر الدنيستر ونهر بروت PRUT . ولم تخضع هذه البلاد ابداً لرومانيا، وهي تتبع حالياً، بعد تقسيمها، الى (اوكرانيا) و(مولدافيا).

(البغدان والافلاق) الى أن وصلت نهر الدانوب (الطوانه) واحتلت كيليا وبندر وابرائيل، بعد أن أخذت من النبلاء الرومانيين يمين الولاء للامبراطورة الروسية (كاترينا) وفي هذه الاثناء ظهر في بحر ـ ايجة ـ لأول مرة ـ اسطول روسي عهد اليه مهمة اشعال الثورة في اليونان ودعم الثوار ضد العثمانيين.

وهكذا احتل القرصان الايجيون عدداً من المواقع الحصينة في المورة، ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها. وقام الروس بعد ذلك باضرام النار في الاسطول العثماني (في خليج جشمة) وذلك في شهر تموز يوليو ـ (١٧٧٠م). غير ان الروس لم يستغلوا انتصارهم هذا. فكان اثر هذا العمل العدواني المباغت محدوداً. وقامت القوات الروسية بهجوم جديد في سنة (١٧٧١م) فأمكن لها تحقيق نصر كبير باستيلائها على (برقوب) واخضاع شبه جزيرة القرم. وقامت (بروسيا والنمسا) بالوساطة وتم عقد هدنة بين الطرفين تنازل السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٥٧ـ ١٧٧٣م) عن جميع مطالبه في بولونيا. غير انه لم يتم الاتفاق بين الطرفين بشأن موضوع الحصون القائمة على البحر الاسود. وأعاد العثمانيون في هذه الفترة تنظيم قواتهم، وأمكن لهم صد القوات الروسية في البلقان. وأرغموا الروس على رفع الحصار عن (سلسترة) و(فارنا) والانسحاب في أواخر سنة ١٧٧٣ عبر الدانوب. ثم توفي السلطان مصطفى عندما كان يعتزم قيادة الجيش بنفسه لتدمير جيش روسيا. وخلفه اخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٣ـ١٧٨٩). فوجه القوات بقيادة الصدر الاعظم (محسن زاده) الذي وقع في كمين نصبه له الروس عند (شملا) وفرقوا جيشه، فاضطر الى طلب الهدنة. وتم التوقيع على معاهدة للصلح بين الفريقين في (كوجك قينارجه ـ جنوبي سلسترة) بتاريخ ٢٢ تموز ـ يوليو ـ ١٧٧٤م.

فرضت هذه المعاهده على السلطان العثماني التنازل لروسيا عن أعظم القلاع شأناً على البحر الأسود، كما تخلى لروسيا عن (قبرطة ـ أو قبرطاي) الكبرى والصغرى في بلاد القوقاز (القبق). ومنح الاسطول الروسي حق المرور في الدردنيل، ليس ذلك فحسب، بل لقد اكره فوق ذلك على الاعتراف باستقلال التتار في شبه جزيرة القرم. وعلى منح العفو العام وحرية العبادة لسكان البغدان والافلاق. وتدهورت بنتيجة ذلك هيبة الاتراك المسلمين في اوروبا بحيث ظهر أن اخراجهم من اوروبا لم يعد باكثر من قضية وقت. ووجدت النمسا في ذلك فرصة سانحة، فعملت على سلخ (بوقووينة ـ أو ـ بوكوفينا) وضمتها اليها بعد عقد الصلح مباشرة، متذرعة بحجة واهية، فلم يستطع السلطان لها دفعاً. وفي سنة (١٧٨٣م) أخضعت كاترينا التتار، فقضت بذلك نهائياً على استقلال شبه جزيرة القرم. ثم ان السلطان اكره على ذلك ايضاً في معاهدة (آيينه لوقواق) سنة (١٧٨٤م).

سنحت الفرصة للقوات العثمانية بعد ذلك للتعويض عما فقدته في حربها مع روسيا وذلك عندما قام اهل القوقاز (القبق) بالثورة على امير الكرج (هرقل) الذي كان يحكم بحماية الامبراطورة كاترين. وحاولت القوات العثمانية استرجاع شبه جزيرة القرم. غير أن القائد الروسي (سوفوروف) [1] احبط هذه المحاولة، ثم لم يلبث أن استولى على اجاقوف في كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٧٨٨. بعد أن تم تحطيم الاسطول العثماني في الصيف المنصرم على شواطىء القرم.

---

(١) سوفوروف: (ALEXANDRE SOUVOROV) جنرال روسي من مواليد موسكو (١٧٢٩ـ١٨٠٠) من ابرز اعماله القيادية انقضاء على ثورة بولونيا، في سنة ١٧٩٤ وخوض الحروب ضد الاتراك العثمانيين والقضاء على جيوش الثورة الفرنسية في ايطاليا.

وفي شهر شباط - فبراير - من السنة ذاتها أعلن امبراطور النمسا (جوزيف الثاني) الحرب على العثمانيين، وتقدمت جيوشه في الصرب وترانسلفانيا. وتدخلت من جديد (بروسيا) والدول البحرية للوساطة، وتم عقد صلح (زشتوى) في ٤ آب أغسطس سنة ١٧٩١، وبموجبه احتفظت الامبراطورية العثمانية بإمارات الدانوب حتى (أرسورة). وتابعت روسيا الحرب بضراوة في بسارابيا والقرم والدانوب، ثم وقعت صلحاً مع الامبراطورية العثمانية (عند ياش) في ٩ كانون الثاني - يناير - سنة (١٧٩٢ م) وقضى هذا الصلح بجعل نهر الدنيستر هو الحد الفاصل بين الدولتين، وتنازل الاتراك لروسيا عن شبه جزيرة القرم بصورة نهائية.

كان ذلك عرضاً سريعاً للصراع المرير الذي خاضته الامبراطورية العثمانية ضد اعداء الخارج. وكانت مرغمة على خوض مجموعة من الصراعات الداخلية ايضاً، كان من ابرزها الصراع مع المتمردين من قادة الجيوش (الانكشارية) ومع الشيعة في (فارس) ومع المتمردين في سوريا ولبنان. ولم تكن اعمال هذا التمرد وتلك الثورات بعيدة عن التحريض الخارجي وهو ما تبرزه بصورة خاصة (ثورة جنبلاط) في الشام وثورة (فخر الدين المعني) في جبل لبنان[1]. ونظراً لارتباط هذه الاحداث بما كان يحدث على جبهة المغرب الغربي الاسلامي والمشرق العربي الاسلامي فقد يكون من المناسب التوقف عندها قليلاً.

---

(١) تم الاعتماد في البحث هنا على ما ورد في (تاريخ الشعوب الاسلامية) كارل بروكلمان دار العلم للملايين ص ٥١١ و٥١٣ و٥١٤.

ج- تمرد جنبلاط وثورة المعني:

كان (جان بولاط - أو جانبولاط) حاكماً على (كلس) قرب مدينة حلب، حكمًا وراثياً من قبل الاتراك العثمانيين، وفي سنة (١٦٠٣م) قامت حامية (تبريز) بالتمرد على الحكم العثماني،وظن(جان بولاط) في نفسه القوة، فأعلن الثورة بدوره، وانضم اليه ابناء عشيرته الاكراد. وكانت الدولة مشغولة بقتال المجر. وعندما انتهت معركة (بودا) بانتصار العثمانيين، بات باستطاعتهم التحول لقمع الثورات. وأمكن القضاء على ثورة (جان بولاط). فما كان من هذا الا أن فر ليحتمي بأخطر الزعماء الثائرين في آسية الصغرى وهو (الأمير الدرزي فخر الدين المعني) الذي كان قد اعلن الثورة في جبل لبنان بالتنسيق والتعاون مع (جان بولاط).

ولم تتمكن الدولة العثمانية من التعرض له بسبب انصرافها الى حروبها الخارجية - حتى بعد هزيمة جان بولاط - بل تركت إليه حكم البلاد الواقعة في حوزته، لقاء جزية سنوية يدفعها لبيت مال المسلمين. وما لبث (فرديناند الأول) [١] الذي غمرت نفسه روح المغامرة، أن اتصل به ابتغاء فتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا، في حين كان فخر الدين يرغب في الاستعانه بفرديناند وبالبابا وباسبانية ايضاً على فتح فلسطين، ثم ان فخر الدين استولى على بعلبك سنة (١٦١٠م) وهدد دمشق ذاتها بالاحتلال. ولكن اسطولاً تركياً اسلامياً ما لبث أن ظهر على الشاطىء سنة (١٦١٣) فاضطر الامير فخر الدين إلى الفرار الى (ليفورنو). وكان (كوزموس الاول- ابن فرديناند) قد

---

(١) فرديناند الأول: FERDINAND. I. GRAND DUC DE TOSCANE استمر حكمه لدوقية توسكانيا خمس سنوات (١٦٠٤-١٦٠٩م).

تولى مقاليد الحكم في (توسكانيا) فتقدم اليه (فخر الدين) وعرض عليه تجريد حملة صليبية جديدة، غير أن كوزموس كان أعقل من أن يفكر في مثل ذلك.

وقضى فخر الدين خمس سنوات في البندقية (فلورنسا) استطاعت خلالها أمه (نَسَبْ) أن تدافع عن بلاده باسم حفيدها (أحمد علي) ضد والي دمشق. حتى اذا رجع (فخر الدين) من ايطاليا. اضطر الى الاعتراف بابنه أميراً على البلاد. ولكنه قاد بالنيابة عن ابنه الحرب ضد العثمانيين. وأفاد من انصراف العثمانيين لقتال الشيعة في بلاد فارس (ايران) فعمل على بسط نفوذه على الساحل الشامي حتى انطاكية. وفي سنة (١٦٣١م) نشأ بينه وبين الباب العالي نزاع بسبب من رفضه السماح لجيش من جيوش السلطان، حشد لحرب الفرس، أن يقضي فصل الشتاء في البلاد التي يحكمها، وطرده لهذا الجيش بقوة السلاح. وبعد سنتين اثنتين، وجهت الدولة رداً على هذا النقض لاحكام السلم، اسطولاً آخر الى الساحل الشامي فاحتل المرافىء جميعاً، في حين هاجم الولاة المسلمون (الدروز) في البر، وفي ١٥ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ استدرج علي بن فخر الدين، الى خوض معركة فاصلة دارت رحاها في السهول، فهزم هزيمة شنعاء ولقي حتفه هو وعمه. وهكذا اضطر (فخر الدين) الى أن يستسلم في مفزعه الاخير في ١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ فحمل الى استانبول، حيث حز رأسه في ١٣ نيسان ـ ابريل ـ سنة (١٦٣٥م) بعد أن قام ابن اخيه (ملحم) بمحاولة فاشلة للثأر لشرف اسرته عن طريق الثورة المسلحة.

كانت الدول الغربية تتابع باهتمام كبير ثورة (جان بولاط) و(فخر الدين المعنى) فبدأت الاتصال بالدروز والموارنة. وعندما احتل ابراهيم باشا فيما بعد (سنة ١٨٣١) بلاد الشام، قام الموارنة بدور

كبير، حيث تلقوا الأسلحة من الحلفاء لمحاربة الحكم المصري . وأبرز ذلك ظهور أسر التنوخيين والمعنيين والشهابيين. وبدأت فرنسا بممارسة دور فعلي في احداث الشرق الاسلامي من خلال ما زعمته حقاً لها في حماية (نصارى الشرق) ـ والموارنة منهم بصورة خاصة في حين أخذت روسيا منافسة فرنسا في هذا المجال من خلال الزعم بحقها في حماية رعاياها من ابناء الكنيسة الارثوذكسية. ولم تقف انكلترا مكتوفة الايدي ، فبسطت حمايتها على الدروز، وأدى ذلك الى تنافس هذه الطوائف واستفحال أمرها، مما أدى فيها بعد الى حدوث صدامات دموية (اشهرها مذابح سنة ١٨٦٠) وبروز المسألة الشرقية .

٣ـ الموقف على جبهة الاندلس

سقطت مملكة غرناطة تحت حكم (فرديناند وايزابيللا) سنة ١٤٩٢، غير انه كان من المحال القضاء على الوجود الاسلامي في الاندلس دفعة واحدة. وفي الوقت ذاته أدت الحرب المنظمة ضد المسلمين الى تعرض اسبانيا لأزمة حادة في ادارتها، والى اضطراب في امورها المالية حتى اشرفت على الافلاس. فالتفتت الى الفتوح، وظنت أن نهب العالم الجديد سيضمن لها الموارد الكافية، غير أن القرصنة الاسلامية من جهة والمنافسة مع الدول الغربية من جهة ثانية حرمتا اسبانيا من هذه الموارد. وزاد موقف اسبانيا سوءاً بسبب المظالم وحكم الارهاب وارتكاب الفظائع ضد المسلمين ـ تحت ادارة محاكم التفتيش ـ وبادارة الملك الاسباني فيليب الثاني (١٥٢٧ـ ١٥٩٨ م) الذي ورث عن ابيه (شارل الخامس ـ شارلكان) كل الحقد والكراهية ضد المسلمين، فجمع في شخصه كل الصفات السيئة كالظلم والشراسة وفساد الاخلاق، حتى استوجب وصف احد المؤرخين له: «قليل من الرجال الذين عرفهم التاريخ، قد استطاعوا بجهودهم الخاصة، أن يأتوا بمثل هذا المقدار الضخم من الشر الذي جاء به هذا الملك... واذا كانت هناك عيوب قد برىء منها، فسبب ذلك هو أنه غير مسموح للطبيعة الانسانية بأن تبلغ الكمال، حتى في الشر»[١].

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ص ٣٩٢.

وكان من الطبيعي أن تتعاظم النقمة في نفوس المسلمين الذين لجؤوا الى جنوب الاندلس، سواء منهم من حافظ على دينه ، أو من أعلن تنصره ظاهرياً بسبب عجزه عن احتمال الضغوط. وأن يؤدي ذلك الى استعداد هؤلاء للثورة على الحكم الاسباني. واتصل هؤلاء بوالي الجزائر (قلج علي- أو علج علي) يطلبون اليه دعمهم وامدادهم. واعلموه أنهم قرروا اعلان الثورة في الفاتح من تشرين الثاني- نوفمبر- المصادف لعيد (جميع القديسين) (١٥٦٨م) ولم يكن باستطاعة (قلج علي) تجاهل صرخة استغاثة المسلمين الاندلسيين. فحشد في الجزائر جيشاً يضم (١٤) ألف مقاتل من المشاة - رماة البنادق - بالاضافة الى (٦٠) ألفاً من ابناء المغرب الاسلامي المجاهدين في سبيل الله. . . وأرسل بهم الى مدينتي (مستغانم ومازغران) استعداداً للاغارة على وهران، ثم الانزال في الموانىء الاندلسية. وأرسل مع الرجال المذكورين عدداً كبيراً من المدافع، مع (١٤٠٠) بعير محملة بالبارود. ويوم الاربعاء، المتفق عليه، أي يوم عيد جميع القديسين، كانت أربعون سفينة من الاسطول الجزائري تقف أمام مرسى (المرية) الاندلسي لدعم الثورة ساعة اندلاعها. غير أن العملية أخفقت يومئذ بسوء تصرف أحد رجال الثورة، مما أدى الى اكتشاف أمره، فداهمه الاسبان. وضبطوا ما كان يخفيه في منزله من السلاح. واطلعوا على مخطط الثورة، فلم تقع في اليوم المعين، وضاعت بذلك فرصة المبادأة. ولكن الثورة لم تلبث أن تفجرت بعد ذلك، ويصف (مؤرخ عربي[١] نقلاً عن المصادر الاندلسية ما حدث خلال هذه الفترة بالتالي:

لما صار الأمر الى فيليب الثاني، شدد في انفاذ الأوامر بحق

---

(١) حاضر العالم الاسلامي (الامير شكيب ارسلان) ٢/١٥-١٦.

الموريسك ـ المسلمين ـ وسنة ١٥٦٧، عزز الأمر الصادر بهذا الشأن والمتعلق بتغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لأجل منع النظافة ـالطهارة ـ التي هي من سنن الاسلام ـ حيث كان من عادة الشعوب اللاتينية التقزز من الطهارة والاستحمام وكانوا ينفرون من المسلم بقولهم (الذي يدخل الحمام) وكان الاسبانيون يهدمون الحمامات بالحماسة التي يهدمون بها المساجد ـ وانطلق جند فيليب لهدم الحمامات. وكانت الاساليب التي اتبعت للقضاء على تلك الامة البائسة، أكبر من أن يحتملها أي انسان، فكيف الأمر بالنسبة لأحفاد المنصور وعبد الرحمن وأبناء سراج، ولذلك لم يطل الأمر حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وثار (فرج بن فرج من نسل بني سراج) ومعه جماعة من ذوي الحمية من غرناطة، وقصدوا الجبال قبل أن تتمكن الحامية ـ الاسبانية ـ من مطاردتهم، ونودي (بهرناندو ـ دوفلور) من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على الاندلس تحت اسم (محمد بن أمية) وعمت الثورة في اسبوع واحد جميع جبال البشرات. ووقع ذلك في سنة ـ ١٥٦٨م ـ. ولما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الأرض مرتقى، واوعرها مسلكاً، كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين، حافلاً تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال، وذلك من الجانبين لا من جانب واحد، لكنه حافل أيضاً بوقائع يندر في تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بمثلها، وتبقى على صفحات السير فخراً للقرون والامم.

وكان المغاربة هناك في موطنهم الأخير، والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضوها في البلاء العظيم، والهون الذي ليس له نظير، فهبوا جميعاً منادين بأخذ الثار، واقتضاء الاوتار،

قرية بعد قرية، وهدموا الكنائس، وأهانوا ما فيها، وفتكوا بالقسس، وعذبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج. ودافعوا دفاعاً شديداً. وكان المركيز (مونتيجارة) قائداً في غرناطة فعمد الى المسالمة، وأخذ بالملاينة، وكادت الوقدة تنطفىء لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة في حبس البيازين- ضاحية غرناطة- قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركيز، لكن الموريسك -المسلمين- لم يقبلوا العذر، ونشروا لواء الثورة. وصار (ابن امية) أميراً بالفعل على جميع جهات (البشرات) الا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة، فقام بعض أعوانه وقتلوه، وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة (اسمه عبد الله بن أبوه). فأرسلت دولة اسبانية الدون (جون الاوستري) أخا الملك -وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر- بمهمة القضاء على الثوار. فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى سنة ١٥٧٠وأتى من الفظائع ما بخلت بأنداده كتب الوقائع، فذبح النساء والاطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن، ودمر البلاد، وكان شعاره (لا هوادة). وانتهى الأمر باذعان الموريسك. لكنه لم يطل، واستأنف (مولاي عبد الله بن أبوه) الكرة، فاحتال الاسبان حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة.

وأفحش الاسبانيون في قمع الثورة، بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان، حتى أهلكوا من بقية العرب خلقاً كثيراً، وخنع الذين نجوا من الموت، لكنهم وقعوا في الرق، وسيقوا مماليك وعبدانا، ونفي منهم جملة، فأخذ عددهم يتناقص، ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ، وهو عيد جميع القديسين سنة (١٥٧٠م) بلغ عدد من ذهب منهم عشرون ألفاً، والذين أخذوا منهم في معمعة

الفتنة صاروا الى الاستعباد. واخرج الباقون من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعباً. ومنهم من أجاز الى (بر العدوة) في المغرب. وطافوا هناك سائلين ـ متسولين ـ لأجل قوتهم الضروري. ومنهم من لجأ الى البلاد الافرنسية، حيث استقبلوهم براً وترحيبا، واحتاج اليهم هنري الرابع لأجل دسائسه في مملكة اسبانيا. والحقيقة أن (هنري الرابع) أصدر أمراً بقبولهم في فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا الى كاثوليكيين. وقد نفذ الأمر، وارغموا على التنصر، وبقي الأمر على ذلك حتى بلغ السلطان العثماني، فأرسل الى (هنري الرابع) يطلب اليه اخراجهم الى بلاد الاسلام، فخرج اكثرهم. وبقي من اختار الاقامة بفرنسا مع النصرانية. ولما ظهر مذهب (البروتستانت) وكان منهم من اختار هذا المذهب، أصدر لويس الرابع عشر أمره بطرد البروتستانت، فهاجر قسم من هؤلاء الى سويسرا. وبينهم العالم الشهير (أبو زيد) الذي كان من أعلم علماء عصره في كل فن، وكان صديقاً لفولتير وروسو ونيوتن ولايبنتز. وكان فولتير يقول عنه (صديقنا العربي). وطالما كان فولتير يستفتيه في عويص المسائل، كما كانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جمعت في كتاب.

المهم في الأمر، هو أن الاسبانيين لم يتمكنوا من اخراج المسلمين دفعة واحدة. ولم ينته اخراجهم الا في سنة (١٦١٠م) حيث وقع الجلاء الأخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرون. ويقال أن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وأن الذين خرجوا لآخر مرة يبلغ نصف مليون. وأما الاسبانيون المساكين، فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا

يخربون بيوتهم بأيديهم، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين كانت بهم اسبانيا مركزاً للمدنية، ومبعثاً لأشعة العلم طوال قرون عديدة. وقلما استفادت بقعة اوروبية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد. فلما غادرها الاسلام، انكسفت شمسها وتسلط نحسها، وان فضل مسلمي الاندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة، وسقوط هذه الأمة في مكانتها الاجتماعية بعد أن خلت ديارها من الاسـلام.

يمكن بعد ذلك العودة الى دور الجزائر الفتية في دعم هذه الثورة، ففي شهر كانون الثانـي- يناير - من سنة(١٥٦٩م)أرسل والي الجزائر (كلج علي) الاسطول الجزائري لدعم الثائرين، وحاول هذا الاسطول احباط عملية الانزال. وبلغت الثورة عنفوانها، عندما وصلت زوابع الشتاء أوج قوتها في البحر، ولكن ذلك لم يمنع المجاهدين في البحر من بذل كل الجهود لمقاومة الأعاصير من أجل الوصول الى أماكن اخرى على الساحل لانزال الامداد والدعم. غير أن الزوابع والأعاصير أغرقت (٣٢) سفينة جزائرية كانت تحمل الرجال والسلاح. ولم تتمكن الا ست سفن فقط من انزال شحنتها فوق سواحل الاندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمتطوعون الجزائريون. ولم يأبه والي الجزائر (كلج علي) لهذه الكارثة فصمم على ارسال مدد جديد لمسلمي الاندلس، وتمكن من انزال أربعة آلاف من مجاهدي الجزائر، خلال شهر تشرين الاول -اكتوبر- من سنة (١٥٧٠م) من رماة البنادق النارية، مع كمية كبيرة من الذخائر، علاوة على بعض قدماء المجاهدين العثمانيين للعمل في مراكز قيادة الثورة. وعاد الجزائريون، فأرسلوا دعمًا جديداً من الرجال والسلاح، وعزم (كلج علي) على قيادة الحملة بنفسه للجهاد هناك- فوق الأرض

الاندلسية- غير أن ما اشيع عن تجمع اسطول صليبي بهدف خوض معركة حاسمة مع المسلمين، وتوجيه السلطان العثماني له بالاستعداد لمجابهة هذه الملحمة، جعله مضطراً للبقاء في الجزائر، وانتظار تطورات الاحداث. غير ان الاسطول الجزائري لم يوقف نشاطه، واستمر الجزائريون في غزواتهم البحرية. وهدفهم تدمير كل ما يجدونه في طريقهم، وكل ما يعترض سبيلهم من السفن الاسبانية -تجارية أو حربية-. وما زادتهم نكبة الاندلس الاخيرة، وفشل الثورة فيها، الا شعوراً بالمرارة والظلم، الأمر الذي أدى الى تصعيد الصراع المسلح -وتوجيهه بصورة خاصة ضد الاعداء الاسبانيين في حاميتي (وهران والمرسى الكبير) وفي شهر نيسان -ابريل- سنة ١٥٧٨، هاجم الاسطول الجزائري بقوة وجرأة سواحل اسبانيا الشرقية والجنوبية، فحطم منشآتها، وغنم ما بها، وأسر وسبى من أهلها جمعاً كبيراً، انتقاماً من الموبقات التي ارتكبها الاسبان بحق المسلمين. وفي تلك السنة ايضاً هاجم الاسطول الجزائري جزائر الباليئار من جديد فحطم ما فيها وغنم ما بها. وفي سنة (١٥٨٢م) جهز والي الجزائر اسطوله **لمحاربة اسبانيا فوق ترابها، وما تحتله من بلاد اوروبا. ونزل المجاهدون المسلمون في (برشلونه) فأعملوا فيها تدميراً، ثم قاموا بعد ذلك بعبور مضيق حبل طارق، وهاجموا (الجزائر الخالدات- او جزر الكناري) التي تحتلها اسبانيا. فدمروا المراكز الاسبانية وغنموا ما فيها. ورجع القبطان (مراد رايس- أحد امراء البحر الجزائريين المشهورين) بغنائم عظيمة[1]. ولم يكن الاسطول الجزائري يذهب للاندلس، لمجرد**

---

(١) مراد رايس: مجاهد مسلم، احتفر على مقربة من الجزائر بئراً للسابلة، يروون منه، واقيمت قرية بعد ذلك حول البئر، ثم تطورت. ويحمل البئر حتى اليوم اسم (بئر رايس) والقريه (قرية بئر مراد رايس). وأصبح اسمها منذ الاحتلال الافرنسي للبلاد باسم (بير ماندريس).

التنكيل بالاسبانيين، ولتدمير منشآتهم، وأخذ الاسلاب والاسرى منهم، بل كان يهدف بالدرجة الاولى إنقاذ المسلمين من نكبتهم. وتعرض الأسطول الجزائري أثناء ذلك لمعارك قاسية، وللهزائم أحياناً، ومنها موقعة سنة (١٥٨٥ م) حيث اصطدم الأسطول الجزائري باسطول اسباني كبير- من أسطول جنوه - ووقعت معركة أسفرت عن أسر (١٨) سفينة جزائرية. ونجحت الجهود في هذه الفترة بإنقاذ اكثر من عشرة آلاف مسلم أندلسي.

بقيت جذوة الثورة الاسلامية متوقدة فوق أرض الأندلس، ولم تتمكن لا محاكم التفتيش، ولا أعمال القمع الوحشية للثورات المتتالية من إخمادها أو القضاء عليها. ولم يفقد بقايا الاندلسيين الذين نجوا من المذابح، وآثروا البقاء في موطن الاجداد، الأمل في إنقاذ جزء من وطنهم، يقيمون فوقه بحرية، ويمارسون عباداتهم بدون قهر على ثراه، ويرجعون اليه من شاء الرجوع من أبناء عمومتهم وإخوانهم الذين شردوا وراء البحار. وكان هؤلاء (الموريسكو) كما يدعوهم الاسبان، أهل همة ونجدة ونخوة، وأهل صناعة وفن ومال، لم ينسوا دولتهم، ولم يتخلوا عن دينهم، ولم يفقدوا ثقتهم بأنفسهم على الرغم من انقضاء فترة مائة وعشرين سنة من تحطيم الاسبان لدولة غرناطة، وبعدما لحقهم من طغيان وظلم وارهاق، وإرغام على اعتناق المسيحية ظاهراً، وهم يكتمون الإيمان الشديد، وينقلون لأولادهم سراً، عظمة الإسلام وحب العرب. وأفاد هؤلاء من ضعف اسبانيا ووهنها، واضطرارها لعقد معاهدة لاهاي (سنة ١٦٠٩م) مع الثائرين عليها من رجال الفلانور بشمال أوروبا، وقرروا إعلان الثورة، وكانت هذه الثورة على اتصال بفرنسا - عدوة اسبانيا التقليدية - والتي كانت آنذاك

تحت حكم (الملك هنري الرابع) [1] كما كانت علي اتصال بوالي الجزائر في تلك الفترة (رضوان باشا). ونظمت عملية الثورة لتكون على النحو التالي:

١ـ يتحرك الأسطول الإفرنسي، حاملاً جيشاً إفرنسياً قوياً الى اسبانيا، وينزل بمدينة (دانية).

٢ـ يتحرك الأسطول الجزائري في الوقت ذاته، ويتحرك نحو (دانيه) لحماية عملية إنزال القوات الإفرنسية إلى البر، ثم يقوم الأسطول الجزائري بإنزال قواته بعد ذلك ـ بحماية الأسطول الإفرنسي.

٣ـ في الوقت ذاته، يقوم مائة ألف رجل من بقايا مسلمي الاندلس، بثورة عامة داخل البلاد، مما يضع الجيش الاسباني أمام تهديد مزدوج، تهديد قوات المسلمين على مؤخراته، وتهديد قوات الغزو في مواجهته.

غير أن التحرك الواسع، والاتصالات لإعداد الثورة لم تكن

---

(١) هنري الرابع: (HENRI- IV -LEGRAND) ابن (انطوان دوبوربون) و(جين البرت) ولد في مدينة (بو: PAU) جنوب فرنسا (باس بيرينّة (١٥٥٣ـ١٦١٠م) أصبح سنة (١٥٧٢) ملكاً لمملكة نافار باسم هنري الثالث، ثم أصبح ملكاً لفرنسا (سنة ١٥٨٩ م) تزوج سنة ١٥٧٢ من (مارغريت دوفالوا). خاض مجموعة من الحروب لتوحيد المملكة الافرنسية ولقيادة حركة الاصلاح. ونجح سنة (١٥٩٨) في دخول باريس بعد أن فشل في ذلك من قبل بسبب تدخل الاسبانيين. ونجح في فرض سيطرته على كل الاقاليم. واصلح الانظمة المالية والزراعية واكتسبت فرنسا في عهده قوتها وعظمتها. وتزوج بعد ذلك من ماري دوميديسي: (MARIE DE MEDICIS) التي اصبحت وصية على الملك لويس الثالث عشر. وقتل هنري الرابع غيلة من قبل رجل اسمه بافاياك: BAVAILLAC عندما كان على وشك البدء بتنفيذ مشاريعه السياسية الضخمة.

خافية على مراقبة الحكم الاسباني، فأصدر الملك (هنري الثالث) ملك اسبانيا أمراً يوم ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٦٠٩م بإبعاد كل موريسكي - مغربي مسلم - من أرض اسبانيا، وأعطاهم لذلك أجلاً لا يتعدى ثلاثة أيام كي يتجمعوا في الموانىء المعينة لهم من أجل ركوب البحر وهكذا خرج من اسبانيا آخر فوج من بقايا مسلميها الذين اعتنقوا النصرانية مرغمين، وكانت أغلبيتهم العظمى من العرب المسلمين، وقامت سفن الأسطول الجزائري فنقلت معظمهم إلى عاصمة الجزائر، فمنهم من توجه بعد ذلك الى تونس أو تطوان (تيطوان) ومنهم من أقام في سهل متيجة (متوجة) بالقرب من الجزائر.

ترى هل كان من الافضل استكانة هؤلاء (الموريسك) وعدم القيام بالثورات المتتالية الأمر الذي أدى إلى إخراجهم من الاندلس؟

قد يكون من المحال محاكمة ذلك الحدث التاريخي بأي مقياس من المقاييس التي تخرج عن الحدود المكانية والزمانية التي أحاطت بالحدث، غير أن مجموعة الشواهد التاريخية المتوافرة تؤكد أنه لم يكن أمام مسلمي الأندلس خيار (غير الثورة) مهما كانت نتائجها، إذ أنها لن تبلغ في أسوأ تلك النتائج مقدار ما كان يجابهه هؤلاء المسلمون من سوء المعاملة. ومن المحتمل القول أنها كانت (ثورة يأس) غير أنها لم تكن كذلك فعلاً، إذ كان تصميم الثوار كبيراً، وإيمانهم بالنصر عظيماً - بدلالة بقاء ثورة البشرات مدة سنتين كاملتين - وبالإضافة إلى ذلك، فان هدف الثورة لم يكن من اجل منازعة الاسبانيين خلال تلك الفترة ملكهم، وإنما كان الحصول على كيان ذاتي يضمن لهم ما سبق أن تم الاتفاق عليه يوم استسلام ملك غرناطة للملك فرديناند، من شروط تضمن للمسلمين (حريتهم). وهكذا كان التعصب الصليبي مرة أخرى هو الحافز للتعصب الإسلامي الذي أوقد نار الثورة وأدى إلى

ذلك العداء المستحكم الذي لم يتوقف عند حدود إخـراج المسلمين من الأندلس وانما تطور إلى صراع مستمر اخذ شكل حملات صليبية متتالية ضد المغرب العربـي الاسلامي عامة، وضد الجزائر المجاهدة منها بصورة خاصة.

﴿ وقَـاتِلُوهم حتَّى لا تكون فتنـة ويكَون الدين كُلهَ لله، فانْ انتهوْا فان الله بَما يَعْملُونَ بَصيرْ. وإنْ تَولَّوا فاعْلمُوا أَنَ الله مَوْلاَكُم، نعم المَوْلى، وَنعمَ النَصير﴾

(سورة الانفال - ٣٩ و ٤٠)

الفصل الثاني

١- الجزائر، وبناء القدرة الذاتية

آ- تحرير بجاية. (١٥٥٥م)

ب- انتصار المسلمين في مستغانم (١٥٥٨م)

ج- معركة المرسى الكبير (١٥٦٣م)

د- تحرير تونس (١٥٧٣ م)

هـ- انتصار المجاهدين في أصيلا (المغرب) (١٥٧٥م)

٢- انكلترا تشن الحرب على الجزائر (١٦٢٠م)

٣- الأعمال العدوانية الإفرنسية (١٦٦٤ و ١٦٨٢م)

٤- القتال حول وهران وتحريرها (١٧٠٥ - ١٧٠٨ م)

٥- الاسبانيون يعودون الى وهران (١٧٣٢م)

٦- تبادل الاسرى، والمعركة البحرية أمام الجزائر (١٧٧٣م)

٧- الجزائر تدمر الحملة الإسبانية الكبرى (١٧٧٥م)

٨- معركة بحرية جديدة أمام الجزائر (١٧٨٤م)

٩- واخيراً - تحرير وهران (١٧٩١ م)

١ـ الجزائر وبناء القدرة الذاتية

أصبحت الدولة الجزائرية مكتملة البنيان، لها حدودها المعترف بها من قبل جوارها، ولها جهاز حكمها المستقل والتابع إسمياً للامبراطورية العثمانية الإسلامية، ولها جيشها المنظم وأسطولها القوي، والأهم من ذلك كله هو توافر الإدارة الصلبة لدى الشعب المجاهد في الجزائر للاضطلاع بدوره الكبير في بناء مستقبله ودعم قدراته الذاتية وممارسة دور أساسي وحاسم في قيادة الجهاد في سبيل الله ومجابهة الحملات الصليبية الشرسة، وقد استطاع (عروج وخير الدين وابنه حسان) تجسيد طموحات شعب الجزائر وأهدافه، ومن هنا كان الدعم الكبير الذي لقيه (ذوي اللحى الشقراء) من أبناء الجزائر للمضي قدماً على طريق الجهاد. وقد تم استدعاء (حسان خير الدين) إلى عاصمة الامبراطورية العثمانية، في سنة ١٥٥٢م، نتيجة مناهضته للسياسة الإفرنسية التي كانت تستثمر الصراع الإسلامي ـ الاسباني، لتدعم نفوذها في العالم الإسلامي، ولتمضي في تحقيق هدف الصليبية ذاته ولكن بطريقة متطورة. ومن داخل العالم الإسلامي لا من خارجه، وتم تعيين (المجاهد صالح رايس) لولاية الجزائر برتبة حاكم عام (باي لرباي) أثناء فترة غياب (حسان خير الدين) التي امتدت أربع سنوات (١٥٥٢-١٥٥٦).

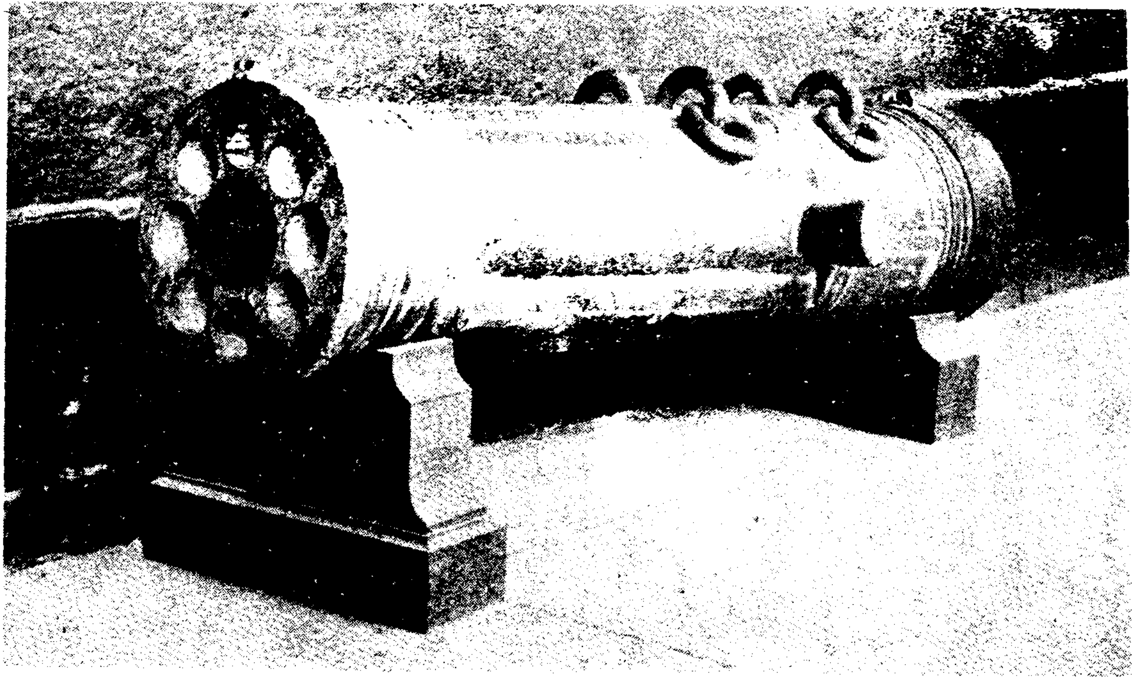

مدفع جزائري ذو تسع فوهات: (متحف الانفاليد)

لقد عرف الشعب الجزائري (المجاهد صالح رايس) من خلال جهاده الصبور في البحر، برفقة أصحاب (اللحى الشقراء). وعرف فيه الكفاءة القيادية العالية، والشجاعة في مواجهة مواطن الخطر في البر والبحر، وقدرته غير المحدودة على العمل، وإخلاصه الكبير لقضية (الجهاد وبناء القدرة الذاتية) ولهذا لم يكن من الغريب أن يبادل الشعب الجزائري هذا القائد إخلاصاً بإخلاص ووفاء بوفاء. فمضى صالح رايس بعزيمة صادقه لتحقيق أهداف شعبه والتي تمثلت بطموحين أساسيين أولهما: تحقيق الوحدة الكاملة بين مختلف اقاليم الدولة الجزائرية، وتوثيق عرى وحدة شعبها. وثانيهما: إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية (فيما يلي الزيبان) ضمن إطار هذه الوحدة. ولم تكن أهداف (بناء القدرة الذاتية) من خلال وحدة التراب والشعب، عند الجزائريين وحكامهم إلا الوسيلة لتحقيق طموح أكبر، وهو: طرد الاسبانيين وإخراجهم من مواقعهم التي احتلوها فوق الأرض الجزائرية ووضع حد نهائي وحاسم لعمليات الصراع الداخلي والذي يجد محرضاً له في (الدولة المغربية السعدية). والانطلاق بعد ذلك للجهاد في مجابهة العدوان الخارجي الممثل بصورة خاصة بالعدوان الاسباني الذي أخذ على عاتقه قيادة الصراع ضد المسلمين. وبدأ (صالح رايس) بالعمل قبل كل شيء لتحقيق الوحدة الداخلية، وكانت في الجنوب الجزائري إمارتان مستقلتان (إمارة توقرت) التي كان يتولى أمرها ملوك بني جلاب يتوارثونها كابراً عن كابر، وإمارة (بني وارجلان) ـأو (ورقله) ويتولى أمرها الشيوخ الأباضيون ورثة دولة بني رستم، ويمتد سلطانها إلى قرى وادي ميزاب غرباً وإلى المنيعة جنوباً. وكانت الإمارتان قد دخلتا أيام (خير الدين باشا) ضمن الوحدة الجزائرية، وتعهدتا بدفع مقدار معين لخزانة

الدولة بمدينة الجزائر. لكن ابتعاد خير الدين عن إدارة المملكة فعلياً أواخر أيام حياته، وانصراف الدولة الجزائرية إلى معالجة أحداث (تلمسان) وأحداث (المغرب) جعل الإمارتين تقلعان عن دفع ما يترتب عليهما، وتعلنان استقلالهما عن إدارة الجزائر. وحاول (صالح رايس) إعادة الإمارتين بالطرائق الديبلوماسية غير أن الاتصالات والمراسلات فشلت في الوصول إلى التسوية المطلوبة، فتقرر اللجوء إلى السلاح إذا ما تطلب الأمر. وتحرك الجيش الجزائري من مدينة الجزائر تحت قيادة (صالح رايس) وذلك في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٥٥٢م. متوجهاً الى الجنوب، وانضم له في (مجانة) سلطان قلعة بني عباس (عبد العزيز) ومعه نحواً من ثمانية آلاف مقاتل من رجال القبائل الجبلية، وسار الجميع نحو (توقرت)، حيث تمت مهاجمة (واحات توقرت) وكانت قوة الصدمة أكبر من أن يحتملها ملك توقرت وجيشه، وبعد معركة قصيرة وحاسمة - أزهقت فيها أرواح كثيرة من الطرفين المسلمين - أمكن تصفية المقاومة في (توقرت) والقضاء على حكم (بني جلاب) وضم توقرت نهائياً إلى السلطة المركزية وتوجه جيش الجزائر بعدها إلى (بني وارجلان) واجتمع هنا شيوخ (ورقله) واعلنوا رفضهم لقتال اخوتهم المسلمين، وانضمامهم للدولة الجزائرية وأصبحوا منذ تلك الفترة جزءاً لا ينفصل - والى الابد - عن دولتهم الجزائرية، وتعهدت لهم الدولة بالمقابل، احترام مذهبهم (الإباضي) وحرية ممارستهم له، والاحتكام بمقتضاه بالنسبة لكل من يعتنقونه. غير أنه ما لبث أن ظهر الخلاف بين (صالح رايس) وبين سلطان قلعة بني عباس ومجانة (عبد العزيز). فبينما كان (صالح رايس) يرى توحيد البلاد في إدارة مركزية قوية، كان (عبد العزيز) يرى ضرورة الاستقلال بإدارة مملكته على أن يمد الدعم لحكومة الجزائر باعتباره

حليفاً لها. وأن يقدم هذا الدعم عندما يرى ذلك ضرورياً، بدون أي خضوع من قبله للإدارة المركزية. فكان لا بد من الصدام الذي أدى إلى صراعات مسلحة دموية، قتل اثناءها (الفاضل) أخو عبد العزيز ودارت الدائرة على جيش الجزائر في (بوغني) وذلك في شهر كانون الاول - ديسمبر - ١٥٥٢م (٩٥٩ هـ) وتلقى جيش الجزائر هزيمة أخرى بعد ذلك، على الرغم من انضمام بلاد كوكو إلى الجزائريين (باعتبار كوكو من الأعداء التقليديين لقبائل قلعة بني عباس).

واضطر (صالح رايس) الى التخلي عن الصراع مع (عبد العزيز) لفرصة اخرى. وعاد من جديد الى غزو الاسبان في البحر تمهيداً للأمر العظيم الذي كان هدفه الاسمى وهو غزو الاسبان في البر. فألقى باسطوله الضخم على جزائر الباليئار، وعلم (صالح رايس) بخروج سفن برتغالية تحمل رجالاً وعتاداً، وأنها تجتاز مضيق جبل طارق، فأسرع للتصدي لها، وداهمها واستولى عليها. وعند ذلك تبين أن الاسطول الذي يشمل ستاً من سفن النقل، كان يحمل سلطان فاس السابق (أبا الحسن علي بن محمد الوطاسي- المعروف بأبي حسون) والذي كان قد نجا من قبضة الشريف السعدي عندما بطش بالوطاسيين في فاس، وكان هذا الاسطول متوجهاً الى فرضة باريس على ساحل الريف المغربي، والتي يدعوها الاسبان (فاليس) من اجل محاربة السعديين، واعادة حكم الوطاسيين تحت إشراف البرتغاليين وحمايتهم. واتفق (صالح رايس) بسرعة مع (أبي حسون) على أن يدعمه لاستعادة ملكه مقابل اعتراف (أبو حسون) بالتبعية للسلطان العثماني (سليمان القانوني) والدعاء له على المنابر. والاستعداد لتجهيز الجيوش لمباشرة غزو اسبانيا مع (صالح رايس). وجهز هذا قوة بحرية تضم (٢٢) سفينة تحمل الرجال ووسائط القتال

في شهر ايلول (سبتمبر) ١٥٥٣م. وسيرها بحراً نحو مليلة، بينما خرج هو بنفسه على رأس جيش جزائري يضم (٨) آلاف مقاتل فمر بتلمسان، وعزز جنده بالحامية التي كانت فيها، ودخل حدود المغرب الأقصى، بينما كان (أبو حسون) يجمع حوله الأنصار من بني مرين وأعداء الأشراف السعديين. ثم اجتمع الجيشان ودخل صالح رايس مدينة (فاس) في يوم ٨ كانون الثاني (يناير) ١٥٥٤م (الموافق ٣ صفر ٩٦١ هـ) ونصب بها السلطان أبا حسون.، تحت حماية الدولة العثمانية، وذلك بعد مصادمات وعدة معارك دارت بين أنصار الدولتين (المرينية والسعدية) سالت فيها الدماء الغزيرة.

ومكث (صالح رايس) بمدينة (فاس) لمدة أربعة أشهر، ضمن خلالها استقرار الأمر لأبـي حسون، واخلاص الدولة المرينية الجديدة للخلافة العثمانية. وخلال ذلك، لم يتوقف (صالح رايس) عن متابعة الجهاد ضد الاسبانيين، فأرسل قوة من جيشه الى (بلاد الريف) فاسترجع من الاسبانيين (معقل باديس الكبير)-أو صخرة فاليس- ثم رجع الى الجزائر تاركاً لأبـي حسون حامية تركية، لدعمه من جهة، وضمان وفائه بالتزاماته من جهة ثانية. لكن الأمر لم يستقر طويلاً لأبـي حسون. فما كاد صالح رايس يرجع الى الجزائر، حتى جمع الشريف السعدي جيشاً كثيفاً، وهاجم فاس، والتحم في معركة قاسية مع أبـي حسون الذي قتل أثناءها، ودخل الشريف فاس من جديد، لكنه وجد أن معظم سكانها يميلون الى (بني مرين) فكان من الصعب عليه الاعتماد عليها وجعلها عاصمة لملكه، فقرر الانتقال الى (مراكش) وجعلها عاصمة لمملكته الجديدة[1].

---

(١) ورد في كتاب (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ص ٣٤١. ما حدث في لقاء (صالح رايس) مع (أبي حسون) ونقد سلوك صالح رايس. بما يلي: «قص أبـي حسون =

اغتنم (صالح رايس) فرصة وجوده بتلمسان، فجمع مجلس العلماء فيها بعدما بلغه من كثرة تذمر أهل المدينة وشكواهم من (الملك حسن) الذي اشتهر بالانحراف عن الدين - الخلاعة والمجون - وأفتى العلماء بخلع (الملك حسن) فتم ذلك - وضمت تلمسان نهائياً للادارة المركزية في الجزائر سنة (١٥٥٤م) على نحو ما سبق عرضه.

آ- تحرير بجاية (١٥٥٥م)

كان (صالح رايس) يتابع خلال ذلك كله جمع المعلومات عن موقف الحاميات الاسبانية، وعما يقوم به المواطنون الجزائريون من مقاطعة لها وتضييق عليها، حتى وصل بها الأمر الى حالة كبيرةً من الضعف وعندها قرر توجيه ضربته الحاسمة الى (بجاية). فحشد جيشاً من (٣٠) ألف مقاتل وتولى قيادته، وسار به من الجزائر الى بجاية في شهر حزيران (يونيو) ١٥٥٥م. وانضمت اليه أثناء التقدم قوات المجاهدين من (زواوة) من (إمارة كوكو). ووصلت الجيوش الجزائرية، فضربت حصاراً على المدينة، ووصل الاسطول الجزائري وهو يحمل المدفعية ووسائط القتال الثقيلة. ووجه المجاهدون نيران

= على (صالح رايس) قصته، فقال: انه ذهب أول الأمر الى شرلكان، يطلب منه أن يعينه على استرجاع عرشه. لكن شرلكان لم يستجب لدعوته، ولم تكن حالته تسمح له بالتورط - تلك الساعة على الأقل - في حرب مع المغاربة. وأن الأمر يهم البرتغاليين أكثر منه. يومئذ سار أبو حسون (الذي لم يكن يهمه شخص من يعينه على الرجوع الى العرش وهويته، انما يهمه الرجوع الى عرش فاس على أي حال) الى ملك البرتغال سنة ١٥٥٣م. وكان هذا الملك موقوراً من الأشراف السعديين الذين أخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من أرض المغرب الأقصى ومن سواحله، فقرر اعانته، وأمده بالسفن والمال والرجال، وكانت تلك هي العمارة التي أسرها صالح رايس. وهنا أخطأ التوفيق في نظري صالح رايس الذي كان عليه أن يكتفي بأخذ العمارة، وأسر رجالها، وابقاء أبي حسون عنده، وأن يتخذ بذلك يداً عند السعديين، ويستميلهم اليه، أو يضغط عليهم بواسطته».

مدافعهم الى القلعة بعد أن تم تشديد الحصار عليها.

كان حاكم بجاية الاسباني (دون الونزو كاديلو) قد عرف مسبقاً بتحرك القوات الجزائرية، فأرسل الى اسبانيا يطلب الدعم، وعمل في الوقت ذاته على (تخزين) المواد التموينية بكميات تكفي لحصار طويل.

وأثناء ذلك، هطلت أمطار الخريف المبكرة بكميات وفيرة، فارتفع مستوى المياه في (وادي الصومام) وأصبح باستطاعة السفن الجزائرية الافادة منه واستخدامه من اجل اجتياز المصب والوصول الى ما وراء المدينة بمسافة خمسة كيلو مترات تقريباً. وامكن بذلك الوصول الى المرتفعات المواجهة للقلعة والتحصينات الدفاعية، واحتلت المدفعية مرابضها في المواقع المناسبة للرمي المباشر. وبدأت المعركة بتبادل القذف المدفعي. ثم هاجم الجزائريون حصن (القصر الامبراطوري) واستولوا عليه عنوة. وكانت المدفعية قد دمرته تدميراً كاملاً وحولته الى أنقاض. ولهذا بدأت القوات الجزائرية على الفور باقامة التحصينات من جديد واعادة بناء الجدران. والافادة من موقع الحصن لتأمين مرابض جديدة للمدفعية، مع تأمين مراقبة أفضل للحامية الاسبانية التي شرعت في اعادة تنظيم قواتها لدعم مواقعها الدفاعية في المعقل (القلعة). ورأى القائد الاسباني صعوبة الاستمرار في المقاومة بدون دعم خارجي، فأرسل رسالة الى ملكة اسبانيا (خوانة) [1] يستنجد فيها، ويشرح موقف الحامية المدافعة عن (بجاية).

---

(١) كان نص الرسالة التي وجهها قائد الحامية الاسبانية الى ملكة اسبانيا -كما وردت في (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني - ص ٣٤٥- ٣٤٦ ما يلي: (بجاية -١٧ ايلول- سبتمبر -١٥٥٥- أرسلت من قبل رسالة لسموكم ابلغكم فيها الحالة التعسة التي وصلت اليها مدينة بجاية، وحاجة هذا المعقل للنجدة السريعة. لا توجد ابداً أية جدران حصينة =

غير أن القوات الجزائرية لم تمهل الحامية الاسبانية فوجهت نيران مدافعها الى معقل (باب البحر) واستمر قصفها له خمسة أيام متوالية، ودافعت الحامية عن مواقعها بثبات وعناد، ونجح المجاهدون في تحديد مكان (مخزن البارود) ووجهوا اليه نيرانهم المحكمة، مما أدى الى انفجار المخزن بقوة دمرت جدران الحصن، فاندفع المجاهدون بعنف وقوة، وتحولت المعركة الى اشتباك دموي ـ بالسلاح الأبيض ـ وامكن إبادة القسم الاكبر من الحامية الاسبانية وأسر الباقين منها. وبقيت هناك عقبة كبرى، دون فتح المدينة، هي قلعة (القصر الكبير) الذي كانت تدافع عنه حامية قوية، وكان (القصر الكبير) يشكل في حد ذاته معقلاً هائلاً مميزاً بجدرانه القوية مما جعله المركز الاساسي للمقاومة الاسبانية. وانصرف رجال الحامية الاسبانية ونساؤها وحتى أطفالها وما فيها من عبيد للعمل في الليل والنهار من أجل إقامة جدار دفاعي جديد، لحماية (القصر الكبير) الذي بلغ ارتفاعه (١٥) قدماً. وكان

= تستطيع الصمود أمام هذه المدفعية المرعبة التي نصبها (الكلب) ملك الجزائر أمام بجاية، فخلال يومين اثنين، حطم الاتراك بصفة تامة الحصن الامبراطوري، وسدوا الخنادق، وأصبح من المحال الاستمرار في المقاومة. وصرت أتلقى من رجال الحامية رسائل تسألنا ـ أنا والمراقب ـ أن نعمل على انقاذهم باسم الرب. وقد جمعت مجلساً حربياً مؤلفاً من كبار الضباط ـ ذكر اسماءهم ـ واتفقوا بأنه لا يمكن المقاومة اكثر من هذا الحد. فكل شيء قد تحطم حتى الاساس، ودمرت الجدران،... ومن اجل ذلك اتفقنا على تسليم الحصن، وتدمير الاقواس والركائز التي لا تزال قائمة... ونحن ننتظر مصيرنا، فالاتراك قد صوبوا مدافعهم الآن نحو المدينة ذاتها وهم كثيرون ومسلحون بالبنادق النارية... نرجوكم رجاء حاراً أن تفكروا في اهمية (بجاية) وفي حصونها، فاذا ما تمكن هؤلاء الاتراك الاشقياء دمرهم الله من احتلالها، فان كل قوى جلالة الملكة لن تستطيع مجتمعة اخراجها منها. والتمس من سموكم اصدار الأوامر لكي نتلقى من اسبانيا المدد اللازم بأقصى سرعة ممكنة، ولتعتقد سموكم اني مستعد للموت ـ كوالدي ـ في سبيل الله وفي سبيل صاحب الجلالة)..

افراد الحامية، يرممون بالليل كل ثلمة تحدثها مدفعية الجزائريين في النهار.

أراد (صالح رايس) الاقتصاد في الجهد، فأرسل رسالة الى حاكم (بجاية) يطلب اليه الاستسلام [1]،غير أن هذا رفض الانذار الجزائري .واستمرت المقاومة خمسة أيام أخرى، أخذ بعدها المجاهدون الجزائريون في تسلق جدران الحصن بعد أن ردموا الخنادق المحفورة حوله، وحاولوا اقتحامه بينما كانت المدفعية الجزائرية تتابع قصف الاهداف المعادية. وعندها جمع حاكم (بجاية) وقائد حاميتها الرجال حوله، وتشاور معهم، فأشاروا كلهم بوجوب الاستسلام، ولم يكن عددهم عندئذ يزيد على مائة وعشرين مقاتلاً. فأرسلوا الى (صالح رايس) يعلمونه بقرارهم، فقبل استسلامهم، وبر لهم بوعده السالف رغم انهم استمروا في القتال ورفضوا الانذار. وسمح لهم جميعاً بالعودة الى اسبانيا. ودخل الجزائريون المدينة، وقد ارتفع فيها التهليل والتكبير، وأخذوا على الفور بتطهير المساجد وازالة ما وضعه فيها

(١) أرسل (صالح رايس) رسالة الى حاكم مدينة بجاية الاسباني، يطلب اليه الاستسلام، وفيها: «أنا ملك الجزائر، اكتب اليك يا حاكم مدينة بجاية ـلقد رأيت كيف أن رجالي قد استطاعوا احتلال معقلين من معاقل دفاعكم، ثم انك ولا ريب تعلم انني قد عقدت العزم بصفة حاسمة على أخذ هذه القلعة التي تدافعون عنها أيضاً. ولتعلم أنك لن تتلقى أبداً أدنى اعانة من اسبانيا، لانني قد أخذت السفينة التي بعثت على متنها من يطلب النجدة، وبما أنه قد اقتربت ساعة سقوط المدينة، وانك لن تستطيع أصلاً النجاة والافلات من قبضة يدي، فأنا أطلب اليك أن تستسلم، وأن تسلم المدينة لي. وأنا أتعهد لك مقابل ذلك بأنني لن أمسك أنت ولا أي رجل من الرجال الملتفين حولك بسوء. أما اذا استمر بك العناد فلن يكون مصيركم جميعاً غير الموت ـ عليك برد الجواب حالاً، مع حامله حسن ـ» وقد كتبت هذه الرسالة باللغة البرتغالية ـالمرجع (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ص٣٤٧.

الغزاة من الصلبان، وأعادوها الى سابق عهدها، مساجد لعبادة الله وحده الذي صدق وعده ونصر عبده. وأخذ النازحون عن (بجاية) بالعودة اليها. وشرعوا في اعادة بناء مدينتهم وترميمها وتضميد جراحها، ولم تمض اكثر من فترة قصيرة حتى زال كل أثر للاستعمار الصليبي الذي جثم على صدر بجاية لمدة نصف قرن.

ما ان ترددت اصداء انتصار المسلمين في بجاية، حتى اجتاحت اسبانيا بصورة خاصة موجة من الهياج والثورة التي وجدت اصداء قوية لها في وسط الامم الاوروبية الصليبية ودوائر البابا في روما، وكان لا بد من تهدئة هذه الجائحة الثائرة بضحية يتم تحميلها المسؤولية، ووقع اختيار الحكومة الاسبانية على قائد حامية بجاية، الذي لم يكن باستطاعته، او باستطاعة غيره- الصمود والمقاومة باكثر مما تم بذله. وشكلت محكمة عسكرية اصدرت حكمها باعدامه. واقتيد الى ساحة عامة بعد أن تم تعذيبه وتجريده، واقبل الجلاد فهوى بفأسه على الضحية، وفصل الرأس عن الجسد، ثم رفع الرأس ليردد ما تم تلقينه له، حيث اطلقت المقولة المشهورة:

(أيها الشعب، هذا رأس رجل نذل فقده صاحبه، بعدما فقد شرفه).

انطلقت القوات الجزائرية لاستثمار هذا الظفر الرائع. فمضت لتحرير الساحل الشرقي للجزائر، من كل آثار الاحتلال الاسباني، ومنها مدينة القل (التي يعود تاريخ استعمارها الى سنة ١٢٨٢م). والتي كانت قصة احتلالها مأساة في جملة المآسي التي تعرض لها المغرب العربي الاسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية.

أصبح باستطاعة (صالح رايس) التفرغ لتطهير غرب الجزائر

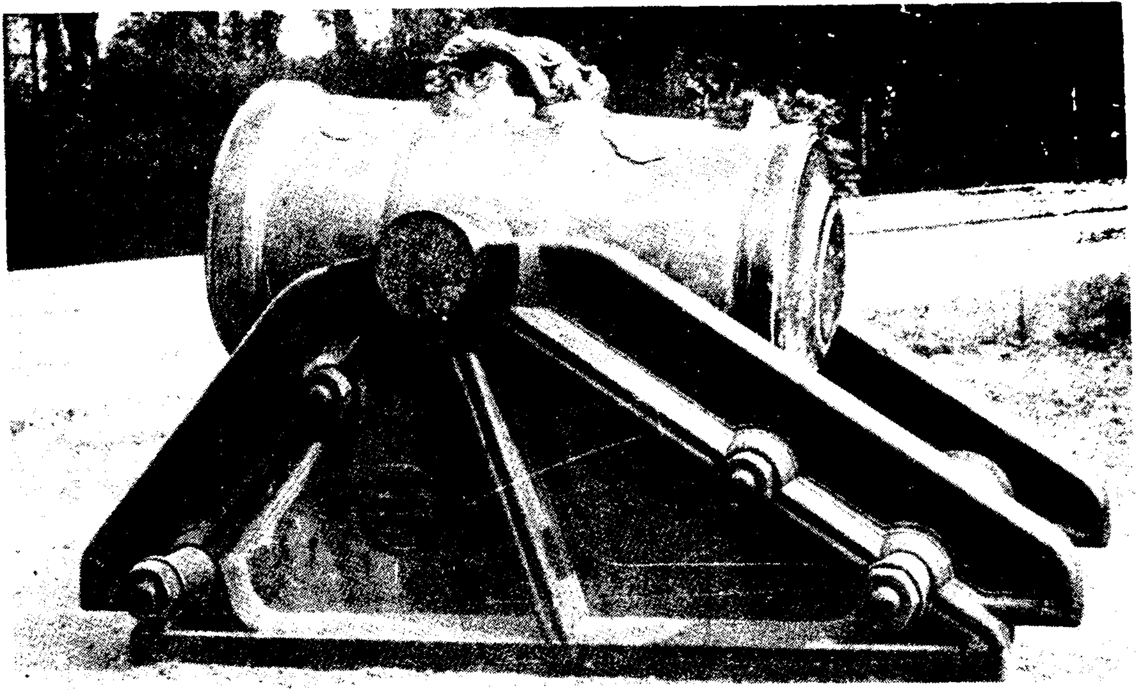

مدفع هاون جزائري (متحف الانفاليد)

من الاحتلال الاسباني، والتركيز على وهران بصورة خاصة. غير أن مجموعة من العوائق اعترضت سبيل التحرير. واستشهد صالح رايس (بمرض الطاعون في رجب ٩٦٣ هـ - ١٥٥٦) ثم استشهد بعد ذلك حسان قورصو، فأصدر (الباب العالي) قراره باعادة (حسان خير الدين) والياً على الجزائر، لتبدأ صفحة جديدة من الجهاد.

ب- انتصار المسلمين في مستغانم - (١٥٥٨م)

تعرضت الجزائر لمجموعة من الانتكاسات بعد انتصارها الكبير في (بجاية). وتوافقت ظروف بعضها طبيعي وبعضها غير طبيعي، لتشكل ما يمكن تسميته بالاصطلاح الحديث (الهجمة المضادة) والتي كان من أبرز احداثها قيام قوات الاشراف السعديين في المغرب باحتلال (تلمسان) واخضاعها لهم.

وفي هذه الفترة، وصل حسان خير الدين الى الجزائر (في شهر شعبان ٩٦٤ هـ =حزيران - يونيو - ١٥٥٧م). فكان لذلك أصداء قوية فرح لها أهل الجزائر على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، وعادت الثقة للمجاهدين. ومضى حسان لاصلاح جهاز الادارة قبل كل شيء، والى اعادة تنظيم القوات المقاتلة. ومضى بعد ذلك بجيشه الى الغرب الجزائري، لارجاع جماعة (الشريف السعدي) الى ما وراء حدوده المتفق عليها، ولانقاذ الحامية الجزائرية التي بقيت صامدة تحت قيادة الامير صفطه (في المشور) وهي تقاوم قوات السعديين. وعندما وصل الجيش الجزائري (تلمسان) انسحبت قوات السعديين الى ما وراء نهر الملوية، ولم تحدث سوى بعض الاشتباكات الثانوية. ولكن حسان أراد الافادة من هذه الفرصة للقضاء على دولة السعديين المستقلة (لا سيما بعد مقتل الشريف وقيام ابنه عبد الله الغالب بالله

مقامه). فمضى بجيشه حتى وصل الى قرب مدينة (فاس).

والتقى الجيشان على (وادي اللبن) ودارت معركة قاسية وغير حاسمة، وهنا وصلت معلومات الى حسان تفيد بتحرك القوات الاسبانية من وهران، وخشي أن يؤثر هذا التحرك على خطوط مواصلاته، وأن يعزله عن قاعدته في الجزائر، فقرر فك الاشتباك، وعاد بجيشه الى مرفأ (قصاصة) في الشمال. وأركب قواته ومدفعيته وعتاده السفن. وفي الوقت ذاته عاد القائد (صفطه) القائم باسمه على مدينة تلمسان، ومعه حاميته الى قاعدته. وما ان وصل حسان بجيشه الى الجزائر، حتى حشد اكبر قوة متوافرة له بهدف مهاجمة الاسبانيين في وهران وأرسل الى جموع المجاهدين في النواحي يطلب اليهم الانضمام الى قوته عند مجرى (نهر الشلف).

كان حاكم وهران (د. الكوديت) يتحرك في الوقت ذاته على رأس القوى التي أمكن له حشدها نحو الشرق قاصداً مدينة (مستغانم). وقد ضم جيشه (١٢) ألف مقاتل اسباني بالاضافة الى جماعات كبيرة من الاعراب المرتزقة (القائد المنصور بن بوغانم) ومن معه من بني عامر وبني راشد وسواهم بالاضافة الى مدفعية ضخمة وكميات وافرة من الذخائر وعدة سفن محاذية للجيش تحمل المؤن ووسائط القتال الثقيلة.

كان (حسان خير الدين) يتابع تحرك القوات الاسبانية بيقظة وحذر، وكان الاسطول الجزائري مستعداً لمجابهة كافة الاحتمالات الخطرة. فما كادت السفن الاسبانية تغادر مياه (أرزيو) وهي مثقلة بحمولتها حتى انقضت عليها السفن الجزائرية، واستولت عليها جميعاً، وانتقل كل ما كانت تحمله الى قبضة المسلمين، فتقووا به على

اعدائهم. وكان الكونت (د. الكوديت) وجنوده يتابعون المعركة البحرية، دون أن يكون باستطاعتهم التدخل فيها أو دعم قواتهم، فلما شهدوا انتقالها الى قبضة المسلمين أصيبوا بخيبة أمل مريرة، وفت ذلك من روحهم المعنوية.

كان مخطط تحرك قوات المسلمين يقضي بتوجه جيش المجاهدين من الجزائر الى مستغانم. وفي الوقت ذاته تخرج حامية تلمسان ومن ينضم اليها من جموع المجاهدين بقيادة (الحاج علي - أو قلش علي) لتسير في الاتجاه المعاكس - على الطرق الداخلية - وهي متجهة من الغرب الى الشرق بهدف منع القوات الاسبانية من أي محاولة للتسلل نحو الداخل، أو القيام بمهاجمة القرى (الدواوير) للاستيلاء على ما فيها من المواد التموينية.

ودخلت القوات الاسبانية مدينة (مازغران) بدون مقاومة، وحطمت بوابتها الضخمة - الاثرية - لتنحت من حجارتها مقذوفات لمدفعيتها. ثم أسرعت في تحركها للوصول الى (مستغانم) والتحصن فيها قبل وصول جيش الجزائر. ووصلت فعلاً وهي بكامل قوتها الى ابواب المدينة يوم ٢٢ آب - أغسطس - ١٥٥٨م. فاشتبكت على الفور في معركة ضارية مع قوات المجاهدين من عرب الضاحية الذين وصلوا دعماً للمدينة قبل وصول الجيش الجزائري، وتمكنوا من دخول منطقة الدفاع على الرغم من الحصار الاسباني.

أعلن الكونت (د. الكوديت) النفير العام عند مطلع فجر يوم ٢٣ آب - أغسطس -. وتقدم بكل قواته والقوات الموالية له من الاسوار التي لم تصمد لثقل هذه الهجمة، فتحطمت الابواب، غير أن المقاومة في الداخل لم تتأثر فمضت تلتحم مع الاسبانيين وحلفائهم، وتحولت

المدينة كلها ميداناً للحرب، وأصبح كل حي وكل طريق وكل منزل معقلاً يدافع عنه رجال الحامية واهل المدينة والمتطوعون. ولم تتمكن القوات الاسبانية من فرض سيطرتها، على الرغم من تفوقها الساحق، على أية منطقة أو موقع وتكبدت القوات المشتبكة خسائر فادحة في الارواح. ووصل القتال الى مرحلة حرجة بالنسبة للمجاهدين عندما ترددت أصداء وصول جيش الجزائر بقيادة (حسان خير الدين) الى شرقي المدينة وجنوبها (وكان جيش حسان يضم (٥) آلاف من المشاة رماة البنادق وألف فارس) وقد انضم اليه من المجاهدين الجزائريين أثناء التحرك (١٥) ألف مجاهد تقريباً وهم يحملون أسلحة مختلفة. واقتحم جيش الجزائر بمجرد وصوله المعركة، ودخل المدينة فوراً، وكان الصدام عنيفاً وقاسياً، غير أن كفة النصر رجحت لمصلحة المسلمين، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى تم إبعاد الاسبانيين وقذفهم الى ما وراء أسوار المدينة تاركين بين جدرانها عدداً ضخماً من القتلى والجرحى. وقضى الجانبان المتصارعان تلك الليلة وهما يضمدان جراحاتها ويعيدان تنظيم قواتها. حتى اذا ما أشرقت شمس يوم ٢٤ آب أغسطس-وجدت القوات الاسبانية والقوات المتحالفة معها من المسلمين أنها تقف أمام مأزق صعب جداً. حيث احاطت قوات المسلمين بميدان المعركة من كل جهاته، فقد وقف جيش الجزائر ومعه مقاتلي مستغانم والمجاهدين من العرب المسلمين في مواجهة القوات الاسبانية. في حين وقف الى يمين القوات الاسبانية جيش تلمسان بقيادة (الحاج علي). أما على يسار القوات الاسبانية فقد انتشر رجال البحر الذين غادروا سفنهم ونظموا قواتهم للاشتراك في حسم الصراع. في حين كانت مدفعية الاسطول الجزائري ترمي القوات الاسبانية بقذائفها المحكمة. وشدد المجاهدون قبضتهم على الاسبانيين وكانت أصوات التهليل والتكبير (صيحة الحرب) تثير فزع

الاسبانيين بمثل ما تثيره سيوف المجاهدين في سبيل الله. وهزت الحماسة نفوس المسلمين الذين كانوا يقاتلون الى جانب الاسبانيين فتخلوا عن مواقعهم وانضموا الى إخوانهم في الدين، في حين بقيت هناك فئة رفضت التخلي عن الاسبانيين، غير أنها رفضت في الوقت ذاته إشهار سيوفها في وجه إخوان الدين، فمضت الى خيامها واعتزلت القتال ولم تبق اكثر من فئة قليلة صممت على مساندة الاسبانيين حتى النهاية. غير أن هذه الفئة لم تعد قادرة على دعم الاسبانيين الذين لم يبق لهم من أمل الا التخلص من المعركة، وتأمين طريق للانسحاب، ولكن قوات المسلمين أمسكت بكل محاور التحرك، وأحدقت بميدان المعركة، وشددت قبضتها على العدو، وبات من المحال تأمين الانسحاب المنظم وحاول الجنود الاسبانيون عندئذ الفرار بصورة افرادية، غير أن قوات المجاهدين لم تترك لهم الفرصة، فمضت في مطاردتهم حتى بلدة (مازغران) وقتل القائد الاسباني (د. الكوديت) تحت اقدام جنوده وهم يتدافعون للوصول الى ابواب مازغران. أما ابنه فكان في عداد الأسرى. واحتل المسلمون (مازغران) وأسروا كل من التجأ اليها. فكان عدد القتلى والاسرى من الاسبانيين يزيد على (١٢) ألف. وانتهت المعركة مع غروب شمس يوم الجمعة (١٢ ذي القاعدة ٩٦٥ هـ الموافق ٢٦ آب - أغسطس - ١٥٥٨).

ج- معركة المرسى الكبير (١٥٦٣م)

لم يبق للاسبانيين فوق أرض الجزائر غير قاعدتين أساسيتين هما (وهران والمرسى الكبير) ولهذا فقد عملت الادارة الاسبانية على دعم القاعدتين بقوة ونظمتهما دفاعياً. وضمنت لهما القدرة على الصمود

والمقاومة. وفي الوقت ذاته مضت الادارة الجزائرية (بقيادة حسان خير الدين) لاكمال استعدادها من اجل تحرير القاعدتين المذكورتين واغتنام كل فرصة للتضييق على الحاميتين الاسبانيتين المدافعتين عنهما، حتى اذا ما كان يوم الخامس من شباط (فبراير) سنة ١٥٦٣ خرج من مدينة الجزائر جيش كبير يضم(١٥) ألفاً من رماة البنادق وألف فارس من الصباحية يقودهم أحمد أمقران الزواوي و(١٢) ألفاً من المشاة من قبائل (زواوة وبني عباس) وقام الاسطول الجزائري بنقل الاعتدة الثقيلة والمواد التموينية من الجزائر الى (مستغانم) التي أعدت لتكون قاعدة للعمليات.

وصل (حسان خير الدين) على رأس جيش الجزائر الى أمام مدينة (وهران) ومرساها الكبير يوم ٣ نيسان (ابريل) وأقام معسكره قريباً منها، واتخذ مقر قيادته في (رأس العين) واختار مرابض مدفعيته لتكون في مواجهة (حصن القديسين). وكان الاسبانيون في (وهران) قد أنهوا استعداداتهم الدفاعية ودعموا تحصيناتهم وقلاعهم. وتولى قيادة الحامية (دون الونزو دي قرطبة). ولم تكن الاستعدادات الاسبانية في (المرسى الكبير) أقل مما كانت عليه في وهران وقد تولى قيادة الحامية المدافعة عن (المرسى الكبير) شقيق قائد وهران (المركيز دون مارتان) وهو ابن الكونت (د. الكوديت). وقد عمل القائدان بمجرد علمهما بتحرك المسلمين على طلب الدعم من اسبانيا التي أمدتهما على الفور بأربعة آلاف مقاتل تحت قيادة (دون خوان دي ماندوزا) لكن عاصفة بحرية قوية أعاقت تحرك هذا الدعم، وأغرقت ثلاثة أرباع الاسطول فلم يصل الى وهران اكثر من ألف مقاتل (وكان قائد الاسطول الاسباني ذاته بين الغرقى). وأثناء ذلك، كان (حسان خير الدين) قد انتهى من تنظيم قواته للمعركة. وبدأت المدفعية الجزائرية

بقصف القلاع والتحصينات دونما هوادة. ثم قامت قوات المسلمين بهجومها على (حصن القديسين) وتمكنت من احتلاله يوم (١٥) شباط ـ فبراير ـ بعد معركة حاسمة تم فيها تدمير جدران التحصينات. وأفادت قوات المسلمين من الموقع الجديد، فجعلته مربضاً لمدفعيتها، وأخذت في توجيه القصف من هذا الموقع، ومن المواقع الاخرى، نحو تحصينات (المرسى الكبير) وقلاعه. وطلب (حسان خير الدين) الى قائد حصن (القديس ميشال) الاستسلام فرفض ذلك. وعندها تولى (حسان) بنفسه قيادة مجموعة قتالية، وقام بالهجوم على الحصن، وتمكن من وضع السلالم مرتين على جدران الحصن، غير أنه أخفق في احتلاله. ودامت المعركة يوماً كاملاً، كان فيها الهجوم الجزائري عنيفاً بمقدار ما كان الدفاع عنيداً، فلم يتم حسم الصراع، وتكبد الطرفان خسائر فادحة، غير أن خسائر المسلمين كانت اكبر بحيث فقد (حسان) خيرة ضباطه ونحواً من خمسمائة من مجاهديه. وفي هذه المعركة، افتقد (حسان) أسلحته الثقيلة، إذ أن العاصفة البحرية التي دمرت الاسطول الاسباني قد أعاقت في الوقت ذاته وصول الامدادات والاسلحة الثقيلة الى جيش الجزائر. وحاول (حسان) من جديد الافادة من علاقته بابن الكونت د. الكوديت (دون مارتان)[١] وذلك لاقناعه بتسليم المدينة، غير أن قائد حامية المدينة اعتذر عن ذلك.

---

(٢١) يذكر هنا أن (دون مارتان) وقع أسيراً في معركة (مستغانم) التي قتل فيها أبوه ايضاً، فقام (حسان) بتسليم جثة الكونت د. الكويت لابنه، واطلاق سراحه حيث عاد الى وهران وتسلم قيادة حاميتها. وعندما كتب اليه حسان خير الدين طالباً اليه تسليم المدينة أجابه بما يلي: «اني مستعد لأن أفعل من اجلك كل شيء، واطيع اوامرك مهما كانت، اعترافاً، بجميلك علي، وتسليم جثة أبي إلي بعد اداء التحية العسكرية لها، أما أن أسلم إليك المدينة التي هي أمانة جلالة ملك اسبانيا في عنقي. فذلك أمر لا سبيل إليه». حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ٣٨١.

ووصل الاسطول الجزائري يوم ٤ أيار (مايو) وهو يحمل المدفعية والمواد التموينية، ونصب الجزائريون مدافعهم في مرابض مناسبة، وشرعوا بقصف تحصينات (المرسى الكبير) وقلاعه من البر والبحر. وقام المسلمون بالهجوم على القلاع خمس مرات متتالية يومي ٥ و٦ أيار (مايو) غير أن الحامية الاسبانية التي تلقت دعمًا من حامية وهران استطاعت الصمود لهذه الهجمات وتمكنت من احباطها. وفي يوم ٨ أيار(مايو) قاد حسان خير الدين الهجوم بنفسه ضد قلاع المرسى الكبير، وتمكن من رفع العلم الجزائري فوق ثغرة في مراكز الدفاع. واندفع منها الى الداخل، لكنه أصيب بجرح في رأسه، ولم يتمكن الجيش من اجتياز الثغرة، فاضطر حسان ورجاله الى الانسحاب. ووجه المسلمون بعد ذلك هجومهم إلى (حصن سان ميشال) الذي دافعت عنه الحامية الاسبانية بعناد وضراوة. غير أن نيران القوات الجزائرية أرغمتها على الانسحاب من تحصيناتها والانضمام الى الحامية المدافعة عن القلعة. ووجه المجاهدون نيران مدفعيتهم نحو جدران القلعة الرئيسية، واستمر قصفها طوال (٢٤) ساعة، وأمكن تدمير الكثير منها، غير أن رجال الحامية الاسبانية كانوا يرممون بالليل ما تحدثه مدافع المسلمين من تدمير في النهار.

وفي يوم ٩ أيار (مايو) كانت المدفعية الجزائرية قد دمرت حصون الناحية الغربية تدميراً تاماً تقريباً، فأرسل (حسان) من جديد طلباً الى (المركيز مارتان) بتسليم المدينة، فأجابه: «بما أن الحصون قد تحطمت فما الذي يمنعك عن اقتحام المدينة؟». وعندها أمر حسان بالهجوم العام، واستبسل الاسبان في الدفاع عن بقايا الحصون والجدران والخرائب، وتمكن الجزائريون خلال ذلك من احتلال حصن جنوة، ورفع أعلامهم فوق السور، لكنهم لم يستطيعوا الثبات

أمام الهجوم الاسباني المضاد فتراجعوا الى مواقعهم الاولى، بعد أن تركوا فوق أرض المعركة عدداً كبيراً من الشهداء. وتمكنت في هذا اليوم سفينة اسبانية صغيرة من اختراق صفوف الاسطول الجزائري، ونقلت الى قائد حامية وهران معلومات عن اقتراب الدعم الاسباني الذي كانت تحمله (٥٥) سفينة يتولى قيادتها (الاميرال دوريا) وأدى ذلك الى زيادة تصميم الحامية الاسبانية على الدفاع حتى النهاية. وأرسل قائد وهران مراسلاً اخترق ما بين البلدتين سباحة ـ يعلم أخاه (قائد المرسى الكبير) باقتراب وصول الدعم، ويطلب اليه المضي في المقاومة حتى وصول هذا الدعم. وعلى هذا استمرت المعركة بكل قسوتها وضراوتها طوال الفترة ما بين يوم ١١ أيار ـ مايو ـ وحتى يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ. حيث علم (حسان خير الدين) باقتراب وصول الدعم الاسباني، فقرر القيام بمعركة حاسمة، وحشد قواته، واستثار حماستها، وقذف بنفسه أمام صفوف الاعداء واندفع المجاهدون، غير أنهم اصطدموا من جديد بجدار المقاومة الضارية للاسبانيين وفشل الهجوم في الوصول الى أهدافه، وطلعت شمس يوم ٧ حزيران (يونيو) لتلقي اضواءها على الاسطول الاسباني الذي يحمل الدعم وهو يقترب من وهران. وادرك (حسان خير الدين) أن قواته التي استنزفت المعارك المستمرة قدرتها لم تعد قادرة على تطوير الاعمال القتالية، فقرر الانسحاب من المعركة. غير أن الاسطول الجزائري لم يتمكن من تجنب الاشتباك مع الاسطول الاسباني، فخاض معركة ضارية خسر فيها (٩) قطع (سفن). وانسحب بعدها الى موانئه في الجزائر

انتهت معركة (المرسى الكبير) بدون حسم، غير انها اكدت تصميم الجزائر على تحرير ترابها وتطهير أرضها من الغزاة. وما ان

عادت القوات الى الجزائر حتى وجدت نفسها أمام موقف جديد يفرض عليها العودة الى الجهاد في البحر.

كان السلطان سليمان القانوني قد اتخذ قراره بالهجوم على جزيرة (مالطه) واحتلالها، لأنها تحولت لتكون اكبر معقل صليبي في شرق البحر الأبيض المتوسط وذلك منذ اتخذ (فرسان القديس يوحنا) منها قاعدة لهم منذ سنة (١٥٣٠م). ولهذا أرسل اسطوله بقيادة (بيالي باشا) قائد البحرية العثمانية العام (قبودان باشا) كما طلب الى (الرايس طورغود) حاكم طرابلس وجربه الانضمام باسطوله لتنفيذ العملية، وكذلك الأمر بالنسبة لوالي الجزائر (حسان خير الدين) الذي أسرع فقاد قوة بحرية تضم (٢٥) سفينة و(٣) آلاف من افضل المقاتلين. ووصل الاسطول الاسلامي بكامله الى الجزيرة يوم ١٨ أيار (مايو) سنة ١٥٦٥م، وحاصرها، ثم نزلت قوات المجاهدين، فاحتلت معقل (القديس ايلـم) بعد أن أصيب بخسائر فادحة وبعد معركة ضارية استشهد فيها عدد من المسلمين كان في مقدمتهم (الرايس طورغود)الذي وصفته المصادر الافرنجية ـ الغربية ـ (بأنه كان قائداً فذاً لا مثيل له، لانه كان يتحلى بفضائل انسانية غير معهودة في القراصنة) ـ وكان ذلك يوم ٢٣ أيار ـ مايو ـ وتوالت المعارك البطولية بين الجانبين كان من ابرزها هجوم المسلمين بقيادة حسان خير الدين يوم ١٥ تموز ـ يوليو ـ على حصن (القديس ميخائيل) وهو الهجوم الذي نجحت حامية الحصن في احباطه بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة. وتبع ذلك تطور على جبهة الصليبيين حيث جهزت صقليا جيشاً تولى قيادته نائب الملك، ودعم باسطول يضم (٢٨) سفينة حربية تحمل (١٢) ألف مقاتل. وأدى وصول هذا الدعم الى تصعيد الصراع المسلح من جديد واستمرت الأعمال القتالية بدون هوادة،

رئيس بحري جزائري

وفقد الجيش الاسلامي اكثر من نصف قوته واضطرت بقية قوات الحملة للانسحاب يوم ٨ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٥٦٥م.

بقيت الجزائر المجاهدة مصدر قلق دائم لحكام اسبانيا، الذين لم يجدوا وسيلة الا اتبعوها ولا طريقة الا مارسوها لقهر تطلعات الشعب المسلم، غير أن التحديات لم تزد المقاومة الا ضراوة وعناداً. وقد يكون من المناسب الاشارة الى تلك العملية التي اخذت شكل (اغارة مباغتة) على الجزائر بهدف النيل منها، وتعود قصة هذه الاغارة الى شهر تشرين الاول اكتوبر ـ سنة (١٥٦٧م) عندما تقدم احد قراصنة البحر الاسبانيين الشهيرين (واسمه خوان قاسكون من بلسية) وقابل الملك الاسباني. وعرض عليه مشروع (اغارة) مباغتة بواسطة سفينتين فقط يتم بهما احتلال الجزائر. واعتمد مخطط الاغارة على الافادة من ظلمة الليل للتسلل الى داخل مرسى مدينة الجزائر، ثم القيام باشعال النيران في الاسطول الجزائري، والافادة من حالة الهياج التي تعقب ذلك لاقتحام المدينة واطلاق سراح الاسرى المسيحيين فيها وتسليحهم والافادة من قوتهم للاستيلاء على مدينة الجزائر وتدمير المقاومات فيها والسيطرة عليها حتى يتم وصول الاسطول الاسباني الذي يحمل الجيش والامداد. ورأى الملك الاسباني أن هذه المغامرة لن تكلفه كثيراً،فاذا ما هي نجحت، أمكن لها أن تحقق ما عجز شارلكان عن تحقيقه، وان هي فشلت، فانما هي خسارة قليلة لا تقارن بما يتوافر لها من فرص النجاح، وبالاضافة الى ذلك فانها قد تسبب ازعاجاً وخسارة للجزائر تزيد في قيمتها على الثمن أو الجهد المبذول. وهكذا خرج (خوان) من اسبانيا يوم الأول من تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ووصل الى (مرسى الجزائر) ليلاً بعد أربعة أيام، وكانت ظلمة الليل حالكة، فاستطاعت السفينتان التسلل الى

منظر من الحياة العامة بالعاصمة الجزائرية

المرسى بدون أن يشعر بوصولهما أحد. وكان الاسطول الجزائري مجمعاً في مرسى الجزائر الضيق، وقد تقاربت سفنه بعضها من بعض، بحيث كان اشعال النار في سفينتين أو ثلاث منه كافياً لاحراق الاسطول بمجموعه. وأعطى (خوان) أوامره الى ستة من رجاله باحراق السفن، بينما مضى هو وبقية الرجال الى (باب البحر) فباغت رجل الحرس الجزائري وقتله، ثم توجهت قوة الاغارة الى مكان الأسـرى النصارى، يحملون معهم الأسلحة من اجل تنفيذ العملية. لكن عناصر الاغارة لم تر ألسنة اللهب المتصاعدة من سفن الاسطول الجزائري- كما كان متوقعاً. فتوقفت عن مهاجمة دار الأسرى، وعلمت أن زمرة احراق السفن لم تتمكن من تنفيذ واجبها. فاكتفت بتحرير نحواً من عشرين اسيراً نصرانياً، وانسحبت الى السفينتين، رغم معارضة قائد العملية خوان - وغادرت السفينتان المرسى وهما تستخدمان المجاذيف. وتبين عندئذ أن رجال الحرس في المرسى قد تنبهوا منذ اللحظة الاولى لحركة قوة الاغارة، فقتلوا افراد الزمرة الستة المكلفين باحراق السفن، ثم ركب الجزائريون بعض السفن، وتتبعوا رجال العصابة حتى لحقوا بهم غير بعيد عن الساحل، وأرغموهم على العودة الى الجزائر ومعهم الأسرى الذين عملوا على تحريرهم. واعيد البحارة الى سجن الاسرى أما (خوان قاسكون) فقد اقتيد الى المحاكمة، التي قررت تسليمه للشعب الهائج فتم اعدامه وعلقت جثته اياماً فوق سور المدينة، على الرغم من احتجاج رجال البحر ودفاعهم عنه باعتباره (محارباً) يجوز أسره ولا يجوز اعدامه.

* * *

حدثت خلال هذه الفترة تطورات من المناسب الاشارة اليها، فقد توفي السلطان سليمان القانوني يوم ٥ ايلول-سبتمبر-١٥٦٦ (٢٠

صفر ـ ٩٧٤هـ) وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني، الذي اسند الى حسان باشا خير الدين منصب القائد العام للاسطول الاسباني (قبودان باشا). فتوجه هذا الى استامبول خلال شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٦٧م (٩٧٤هـ) وعين السلطان مكانه في منصب (باي لرباي) الجزائر الامير محمد بن صالح رايس. وبقي حسان خير الدين في منصبه حتى توفي سنة ١٥٧٠ عن ٥٣ عاماً. ودفن الى جانب والده في مسجد (باكداش) في حي (بويوك) دارة باستانبول، وفي الجزائر، توفي محمد بن صالح رايس سنة ١٥٦٨، فتم تعيين قلج علي حاكماً عاماً (باي لرباي). وقد بذل (قلج علي) جهده ـ منذ اضطلاعه بالمسؤولية، على متابعة الجهاد ضد الاسبانيين، فكان أول عمل له تركيز الجهد لدعم ثوار المسلمين في الاندلس، ثم انقاذهم واعادتهم الى الجزائر، مع متابعة الجهاد في البحر على نحو ما سبقت الاشارة اليه.

د ـ تحرير تونس ـ ١٥٧٣م

لم تكن الجزائر المجاهدة وهي تمضي في بناء قدرتها الذاتية، وتخوض معاركها جهاداً في سبيل الله، انما تريد العزة لنفسها، وانما تريده للمسلمين كل المسلمين.

ولم تكن الامبراطورية العثمانية وهي تخوض حروبها المتواصلة تبغي العزة لنفسها وقد اصبحت تمتلك من العزة بالله ما ساعدها على نشر الويتها وبنودها فوق الشرق والغرب. ولم تكن بقية الاقطار الاسلامية وهي تقذف بنفسها في ميادين الجهاد، تبتغي العزة لنفسها أو القدرة لذاتها وانما كانت لتدعيم الاسلام والمسلمين في كل بقعة ترتفع فوقها رايات الاسلام والمسلمين.

وعلى صعيد الجهاد في سبيل الله، التقت القوات العثمانية

بالقوات الجزائرية، وبقوات المغرب العربـي الاسلامي لخوض حروب الايمان.

وكان المغرب العربـي الاسلامي هو الميدان الأول للجهاد. وكانت (تونس) هي الهدف المرحلي في تلك الحروب والحملات المتواصلة، التي لا تكاد تتوقف على مسرح من مسارح العمليات حتى تتفجر على مسرح آخر.

وفي تلك الفترة، كان البابا بيوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢م) قد انطلق على سيرة أسلافه في تأجيج نار الحرب الصليبية، فعمل على جمع شمل البلاد الاوروبية المختلفة، وحشد قواتها في البر والبحر تحت راية البابوية للوقوف في وجه الاسلام. وتم عقد حلف كاثوليكي مقدس في كاتدرائية سان بيير (القديس بطرس) يوم ٢٥ أيار ـ مايو ـ ١٥٧٠م ليضم هذا الحلف الدويلات الايطالية والالمانية، وقوات البابا واسطوله. واخذت هذه القوى مجتمعة في الاعداد للهجوم والاستعداد له. وكان من نتيجة ذلك وقوع معركة ليبانت البحرية والتي سبق التعرض لها.

أراد الامير (جون ـ او يوحنا) النمساوي. استثمار النصر الذي أحرزته القوات الصليبية المتحالفة في (ليبانت ـ أو ـ ليبانتي) لغزو المغرب العربـي الاسلامي، والبدء في ذلك بمدينة تونس[1]. لانتزاعها من

---

(١) كان والي الجزائر (قلج علي) قد هاجم الملك الحفصي بباجه ودمر قواته، وتقدم الى تونس ففتحت له ابوابها. ويذكر مؤرخ هذا الحدث بقوله: «وفتح أهل الحاضرة ـ تونس ـ ابوابها لعلي باشا فدخلها بمن معه، وقصد القصبة سنة ٩٧٧هـ (١٥٦٩م) ونادى في الناس بالامان، فاجتمع اليه وجوه البلد وأخذ عليهم البيعة للسلطان سليم العثماني، وجهر الخطباء بالدعاء له على المنابر، وضربت السكة باسمه، ولما استقرت قدمه جاءه=

قبضة العثمانيين،للانتقال منها بعد ذلك الى الجزائر. وغادر الاسطول الصليبي جزيرة صقليا في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر ـ من سنة (١٥٧٣م) وقد ضم الاسطول (١٣٨) سفينة تحمل (٢٥) ألفاً من المقاتلين. ونزل بقلعة (حلق الوادي)، وجاء الامير النمساوي بالملك الحفصي (أبـي العباس أحمد) الذي التجأ الى الاسبان من أجل مساعدته على استرداد ملكه، بشرط أن يكون الحكم مناصفه بين الاسبان وبين (أحمد الحفصي). غير أن هذا رفض مشاركة الصليبيين في حكم بلاده، وتنازل عن حقه في الملك لأخيه (محمد بن الحسن) ودخل الاسبان مدينة تونس التي لم يكن بها يومئذ حامية كافية للدفاع عنها، وخرج أهلها للنجاة بأنفسهم وبدينهم، ويصف مؤرخ عربـي الموقف في تونس بما يلي: «ولاذ ـ أهل تونس ـ بالبوادي ونالهم من الجوع والعطش وكشف الستر وتشتيت الشمل ما هو مبسوط في كتب التاريخ، مما تقشعر منه الجلود. . . ودخل محمد بن الحسن الى القصبة. وشاطره قائد الجيش الصبنيول في الحكم. وعاش عسكره في البلاد، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة، واستباحوا ما به، وما بالمدارس العلمية من الكتب، وألقوا بها في الطرقات يدوسها العسكر بخيولهم، وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القطر، فانها ضاعت شذر مذر في هذه الواقعة».

= فرسان الزمامرة (من جيش السلطان الحفصي) وقالوا له: نحن خدام سلطاننا، دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولا مرد لحكم الله، فان شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وان شئتم نصرف، وأرض الله واسعة، فقال لهم علي باشا: لقد فعلتم ما وجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم، فانتم الآن من جماعتنا» ثم ترك علي باشا جماعة من جيشه لحماية مدينة تونس. ومحاصرة قلعة حلق الوادي التي كانت لا تزال بيد الاسبان. ورجع تواً الى الجزائر ليجهز اسطوله للاشتراك في معركة ليبانت. (حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ص ٣٩٧).

وبينما كانت (تونس) تعيش أقسى ظروف محنتها، ظهرت طلائع الاسطول العثمانـي بقيادة حاكم الجزائر (باي لرباي) والذي كان يمارس في الوقت ذاته قيادة الاسطول (قبودان باشا). وقام (قلج علي) بانزال قوات المجاهدين على مقربة من أطلال (قرطاجنة) تحت قيادة (سنان باشا) وأصدر أوامره في الوقت ذاته الى جيش الجزائر بالتحرك فوراً تحت قيادة (عرب أحمد). كما أرسل الى جيش طرابلس يستدعيه بقيادة (مصطفى باشا) وجيش القيروان بقيادة (حيدر باشا) وكان أول عمل قامت به قوات المسلمين بقيادة (قلج علي باشا) هو تضييق الحصار على (حلق الوادي) وتركيز الاعمال القتالية حتى أمكن اقتحام مواقعه وابادة الحامية الاسبانية والاستيلاء على كل ما كانت تحتويه من الاسلحة والذخائر والمواد التموينية (وذلك لست خلون من جمادي الاولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ـ١٥٧٣م). ونقل المسلمون بعد ذلك ثقل عملياتهم القتالية لحصار تونس، ففر من بها من الاسبانين ومعهم محمد بن الحسن الحفصي الى (البستيون) (وهي قلعة بناها الاسبانيون الى جانب تونس) واستولى المجاهدون على الحاضرة وقصبتها، ثم نقلوا ثقل الهجوم الى حصن (البستيون) واحكموا الحصار على حاميته. وتولى الوزير سنان باشا قيادة الحصار بنفسه، وشارك المجاهدين في اعمال ردم الخنادق وبناء ابراج الحصار (فكان ينقل التراب والحجارة، مثله كمثل كل المجاهدين، وعندما قال له أحد أمراء الجند: «ايها الوزير! نحن الى رأيك أحوج منا الى جسمك» اجابه الوزير: «لا تحرمني من الثواب». وأمر ببناء (ترس) يشرف منه على قتال الاسبانيين في (البستيون). ولم يزل ملحاً على حصار هذا الحصن حتى تم اقتحامه عنوة يوم الخميس (لخمس بقين من جمادي الاولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ـ١٥٧٣م) ومضت جموع المجاهدين لخوض المعركة الحاسمة، فابادت الحامية الاسبانية

والقوات التي انضمت اليها من الصليبيين، ومات من الفريقين المتصارعين ما يزيد على العشرين الفاً. وسقط محمد بن الحسن الحفصي أسيراً. فأرسله سنان باشا الى استانبول حيث قضى نحبه. وانقرضت بهذه الموقعة دولة (بني حفص) بعد أن حكمت البلاد التونسية والكثير من بلاد الجزائر الشرقية لمدة تزيد على الثلاثمائة والسبعين سنة، كانت في أولها وفي وسطها منار علم وحضارة أضاءت لها سماء المغرب العربي الاسلامي. واسدل بذلك الستار نهائياً على المطامع الاسبانية في مشرق المغرب العربي - الاسلامي، ولم يبق لها بالمغرب الاوسط الا مدينة وهران ومرساها الكبير. أما في المغرب الاقصى، فكانت الاحداث تتمخض عن صراع مرير انتهى (بمعركة الملوك الثلاثة، أو معركة القصر الكبير) والتي ادت بدورها الى انهيار المطامع البرتغالية الى الابد.

يذكر هنا أن الانتصارات التي احرزها المجاهدون في المغرب العربي الاسلامي، قد حملت الحكم الاسباني على البحث عن وسيلة تضمن لها الاحتفاظ بمواقعها في (وهران والمرسى الكبير) وذلك عن طريق صلح تعقده مع السلطان (مراد الثالث). غير أن حاكم الجزائر والقائد العام للاسطول الاسلامي (قبودان باشا قلج علي) تصدى لهذه المحاولة، وتمكن من اقناع السلطان العثماني بنظريته القائلة: «بأنه ما من صلح مع اسبانيا حتى يتم اجلاء الاسبانيين عن المواقع التي تحتلها في المغرب العربي- الاسلامي» وفشلت محاولة اسبانيا. واكدت الجزائر المجاهدة أنها مصممة على متابعة الجهاد حتى يتم لها النصر الكامل على الاعداء.

هـ- انتصار المجاهدين في أصيلا (المغرب) (١٥٧٥ م)

كان الملك السعدي (الشريف الغالب بالله) قد سلم (حجر

باديس - أو قلعة فاليس) للاسبانيين، وذلك (وفقاً لما ذكره المؤرخون العرب) : «لأن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة-اسطول-الاتراك والجزائريين لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة - يعني البوغاز - وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية الاسباني، على أن يعطيه حجر باديس، ويخليها لهم من المسلمين. فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلاً اليه، فنزل النصارى على حجر باديس، وأخرجوا المسلمين منها، ونبشوا قبور الأموات وحرقوها، وأهانوا المسلمين كل اهانة ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد. وكان خليفته على فاس، خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين، فلما كان بوادي اللبن، بلغه استيلاؤهم عليها، فرجع وتركها لهم».

وتوفي الملك السعدي الغالب بمدينة مراكش سنة (٩٨٢ هـ = ١٥٧٤ م) وخلفه ابنه محمد المتوكل، غير أن الشيخ (عبد الملك ابن الشيخ السعدي - أخا الغالب) لم يعترف بالملك لابن أخيه (محمد) وطالب بالعرش لنفسه، وغادر البلاد الى استانبول يستنجد السلطان العثماني (مراد الثالث) ويعترف له بالخلافة، ويلتزم بالدعاء له فوق المنابر، اذا ما هو استقر على عرش السعديين. ولم يكتف الشريف عبد الملك بهذا الوعد، بل انضم الى الجيش العثماني الذي ذهب مجاهداً لانقاذ تونس على رأس جماعة من أنصاره. وعلى اثر ذلك طلب السلطان (مراد الثالث) الى والي الجزائر (القائد رمضان الذي خلف قلج علي) تجهيز جيش الدولة الجزائرية، واقتحام حدود الدولة المغربية، ودعم الشريف عبد الملك الذي كان قد دخل البلاد - بصورة سرية - وأخذ في استثارة أنصاره، واستنفار القبائل من أجل دعم دعوته.

ما ان انتهى القائد رمضان من تجهيز جيش الجزائر حتى توجه

الى مدينة (فاس) في سنة ٩٨٣ هـ = ١٥٧٥ م. وضم جيشه البالغ عدده خمسة آلاف رجل الى قوى (الشريف عبد الملك) ثم صادموا معاً جيش السلطان محمد السعدي في مكان يقال له (الركن - ببلاد بني وارتين) فاندحر أمامهم ولحقت به هزيمة منكرة، لأن جماعة الاندلسيين الذين كانوا معه، قد انقلبوا عليه عندما رأوا جماعة الاندلسيين والاتراك يقاتلون مع خصمه، فانضموا اليهم. ودخل الشريف عبد الملك مدينة (فاس) وبويع بها سلطاناً على المغرب. ثم انه دفع للقائد (رمضان) مصاريف الحملة التي كان قد اقترضها من حكومة الجزائر (وهي ٥٠ ألف أوقية من الذهب) وأفاض على جيش الجزائر وقادته بالتحف والهدايا الثمينة ومدافع كثيرة. ثم اعادهم الى الجزائر وخرج لوداعهم بنفسه.

مضى السلطان المعزول (محمد المتوكل) الى مراكش، واستقر بها، وما لبث بها الا قليلاً حتى تتبعه خصمه، وهزمه من جديد، واستولى على مراكش، فأمكن له توحيد المغرب الاقصى تحت حكمه. ونفذ ما وعد به السلطان العثماني. واكد اعترافه بخلافته، ودعا له فوق منابر المغرب. وبذلك امتدت حدود الخلافة العثمانية (في سنة ١٥٧٤) من دجلة شرقاً وعدن واليمن جنوباً الى المحيط الأطلسي. علاوة على بلاد الترك والبلاد الاوروبية التي اخضعت لحكم الامبراطورية الاسلامية.

لم يقنع السلطان المعزول (محمد المتوكل) بما نزل من الهزائم، فمضى يستثير الاعداء، وتوجه بحراً الى اسبانيا يطلب الى ملكها الدعم والامداد لاستعادة عرشه المفقود، ولاخراج المغرب الاقصى من دائرة نفوذ الاتراك العثمانيين. غير ان اسبانيا لم تكن يومئذ على استعداد للقيام بمغامرة جديدة، لا سيما وأن المغرب الأقصى كان

منطقة نفوذ لاستعمار البرتغال وفقاً للاتفاقات بين البرتغال واسبانيا، فمضى (محمد المتوكل) الى عاصمة البرتغال (لشبونه) حيث اجتمع بالملك (سباستيان)[1] وعقد معه معاهدة تقضي بتنازله للبرتغاليين عن سواحل المغرب الغربية، وأن يحكم بقية البلاد الداخلية معترفاً بسلطانهم وذلك مقابل امدادهم له بقوة عسكرية، تبعد عمه عن العرش وتعيده اليه. وجهز (سباستيان) حملة قوية تضم (٤٢) ألف مقاتل (ولم يكن جيش محمد المتوكل حليف سباستيان يزيد على ثلاثمائة رجل).

علم السلطان عبد الملك بتحرك البرتغاليين، وأعلم العلماء والشيوخ الذين استنفروا المقاتلين للجهاد فأقبلت جموعهم من كل انحاء المغرب الأقصى، واتجهت الى نواحي مدينة (أصيلا) على المحيط الأطلسي. حيث انزل البرتغاليون قواتهم في شهر حزيران (يونيو) ١٥٧٨و وتمكنوا من الأرض وتحصنوا بها، واستعدوا للقتال على مقربة من (القصر الكبير). واستطاع (السلطان عبد الملك) تنظيم جموع المجاهدين الذين بلغ عددهم (٤٠) ألف مجاهد. والتقى الجمعان يوم الاثنين ٣٠ جمادي الاولى سنة ٩٨٦ هـ (الموافق ٤ آب أغسطس ـ ١٥٧٨ م) على (وادي المخازن) ودارت رحى معركة طاحنة، أظهر فيها الطرفان المتصارعان قدراً غير قليل من التصميم على انتزاع النصر. غير أن تصميم المجاهدين في سبيل الله كان اكبر، فأمكن لهم سحق البرتغاليين، ولم تغرب الشمس حتى كان جيش الغزو قد أبيد ابادة شبه كاملة بحيث كان عدد الأسرى قليلاً جداً،

---

(١) سباستيان: (SEBASTIEN) (ملك البرتغال في الفترة ١٥٥٧ ١٥٧٨م) وهو من مواليد لشبونه ١٥٥٤م وقتل في معركة القصر الكبير: ALCAZARQUIVIR أو KASR EL KEBIR أثنا قتاله لابناء المغرب.

من ضباط الجيش العثماني بالجزائر

ولقي الملوك الثلاثة قادة المعركة حتفهم، فكان السلطان عبد الملك أول شهيد فيها، غير أن حاجبه المملوك (رضوان العلج) أخفى خبر وفاته وقاد المعركة باسمه الى أن تم النصر وعندئذ أعلن على الناس الخبر المحزن. وقتل الملك (سباستيان) غرقاً وهو منهزم في وادي المخازن. وحاول (محمد المتوكل) النجاة بنفسه بعد أن شهد الدائرة وهي تدور على حلفائه، فخاض نهر المخازن في محاولة للفرار بعيداً عن المعركة، فابتلعته مياه النهر.

وبايع الناس يومئذ في اجماع رائع، شقيق عبد الملك (الأمير أحمد) والذي لقب فيها بعد بالمنصور، وكان اكبر معين لشقيقه الشهيد، فبادر بمراسلة ملوك المسلمين وعظمائهم واعلمهم بالنصر العظيم .وتلقى منهم التهاني ،وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر، وأرسل له (السلطان مراد) هدية، فاستقلها ولم يعبأ بها، وقطع الخطبة للخليفة العثماني، ثم توالت الرسائل بين السلطانين فتصالحا واستقر الأمر للخلافة السعدية على أرض المغرب الأقصى.

تمخضت هذه الاحداث التي انتهت بانتهاء القرن السادس عشر، عن مجموعة من المتحولات ابرزها:

١ـ فشلت الصليبية الاسبانية فشلاً تاماً في تحقيق اهدافها على أرض المغرب العربي الاسلامي ولم يبق لها بعد توسعها الكبير الا (قاعدة وهران ومرساها الكبير).

٢ـ استقرار سلطنة الاشراف السعديين في المغرب الأقصى بصورة ثابتة ووطيدة. وظهور كيان دولة الجزائر كدولة مستقلة خاضعة اسمياً للامبراطورية العثمانية، شأنها في ذلك شأن تونس وطرابلس ومصر وبقية بلاد العرب والترك، ولو أن الجزائر تمتعت

بدور ريادي في الجهاد اتاح لها قدراً كبيراً من حرية العمل السياسي والعسكري.

٣ـ فقد المسلمون كل قدرة على استرداد الفردوس المفقود في الاندلس. وتوقفت تقريباً الفتوح الاسلامية في اوروبا بسبب تعاظم المقاومة وتنظيمها ضد سلطان المسلمين.

٤ـ انصرفت الدول الاوروبية لمعالجة مشكلاتها الخاصة في حروب اهلية لم تتوقف، مما اتاح لدول المسلمين نوعاً من الهدوء النسبي. غير أن الصراع لم يتوقف.

من قادة الجيش العثماني بالجزائر

٢ - انكلترا تشن الحرب على الجزائر

(١٦٢٠ م)

أفادت الجزائر المجاهدة من فترات الهدوء النسبي لاعادة تنظيم أمورها داخلياً وخارجياً. فقد توفي (قلج علي) سنة (١٥٨٧م) وانتهى بموته نظام (الباي لرباي). وأعقب ذلك نظام الباشوات (الثلاثيين) الذين يعينهم الخليفة العثماني لمدة ثلاثة أعوام. واستمر هذا النظام من سنة ١٥٨٧- حتى سنة ١٦٥٩م. ثم جاء نظام (آغة الهلاليين) الذي هو نوع من (الحكم العسكري الجماعي)الذي يؤلف (الديوان) والذي يحكم البلاد، ويسند الرئاسة التنفيذية لكبير الضباط الذي يدعى (الآغا) وذلك لمدة شهرين فقط ثم يتولاها غيره تحت رعاية (الباشا) الذي ترسله استانبول من قبلها ممثلاً للامبراطور العثماني (الخليفة) وليس له مطلقاً التدخل في شؤون البلاد الداخلية. واستمر هذا النظام من سنة ١٦٥٩ -حتى سنة ١٦٧١م. واخيراً جاء نظام (الديوان -والباي) الذي استمر (١٦٠ عاماً) أي من سنة (١٦٧١-١٨٣٠) عندما دخلت فرنسا الجزائر. وكان(الديوان العسكري) في هذه الفترة هو السلطة العليا: يعلن الحرب ويعقد معاهدات السلام. ويعين موظفي الدولة، ويحدد العلاقات بين دولة الجزائر والدولة العثمانية وبقية الدول. وهذا الديوان هو الذي ينتخب رئيس الدولة الذي يدعى (الداي) باللغة التركية، وله معنيان (الزعيم

والخال). فالداي هو رئيس الهيئة التنفيذية، وإلى جانبه مجلس وزراء يضم خمسة رجال وينتخب لمدة العمر. وكانت السلطة القضائية، مستقلة تمام الاستقلال عن السلطتين التشريعية والتنفيذية، يتولى أمرها القضاة تحت إشراف المجلس التشريعي، أما النظام الداخلي (نظام البايات وشيوخ الوطن) فلم يتغير. في الوقت ذاته، انصرفت الجزائر لمتابعة الجهاد في البحر، ولم تلبث أعمال القتال (التي تحولت الى حرب منظمة ـ والتي أطلق عليها اسم القرصنة) أن أصبحت المورد الرئيسي ـ الاقتصادي للجزائر. وكانت أعمال القرصنة من الامور المتعارف عليها، وكانت انكلترا ـ بعد اسبانيا والبرتغال ـ من الدول التي تشجع على القرصنة، غير ان الجزائر افادت من موقعها، ومما توافر لها من القدرات لتطوير أعمال الجهاد في البحر، فغنم الجزائريون خلال حروبهم البحرية مع اوروبا اكثر من ثمانمائة سفينة محملة في الفترة من سنة ١٦١٣ حتى سنة ١٦٢١ (أي بمعدل مائة سفينة في السنة) وهذا تفصيلها: (٤٤٧ سفينة هولاندية و ١٩٣ سفينة إفرنسية و ١٢٠ سفينة اسبانية و ٦٠ سفينة انكليزية و ٥٦ سفينة ألمانية) هذا بالاضافة الى السفن الصغيرة التي كان المجاهدون الجزائريون يغنمونها أثناء اغاراتهم المتواصلة على السواحل الاسبانية، والسواحل الايطالية. فكانت منازل مدينة الجزائر ومخازنها المخصصة لايواء الاسرى المسيحيين في انتظار افتدائهم تضم اكثر من ثلاثين ألف أسير يعودون إلى جنسيات مختلفة. وكان الاسطول الجزائري المحارب يتكون خلال تلك الفترة من مائة سفينة، وكان عدد رجال البحر من الجزائريين يبلغ الثلاثين ألف رجل.

كانت انكلترا أقل الدول البحرية تأثراً بالصراع البحري، ولم تكن تجارتها بعد قد تطورت مع الشرق، غير أنها أخذت في عهد (جاك

الأول)[1] باعطاء مزيد من الاهتمام بعالم البحر، لا سيما وأنها لمست ما حققته اسبانيا والبرتغال من مغانم عبر غزواتها البحرية، فكان أن أطلق (جاك الاول) حرية العمل لقراصنته الذين حققوا أرباحاً خيالية من خلال هجماتهم على السفن التجارية الاسبانية والبرتغالية. وفي سنة (١٦٢٠م) أراد (جاك الاول) ارغام دولة الجزائر على ايقاف الحرب البحرية ضد السفن الانكليزية، دون أن يعقد معاهدة مع الجزائر يسود بواسطتها السلام. وجاء الاسطول الانكليزي الى الجزائر، تحت قيادة الاميرال مانسل، وكان يحمل الفاً وخمسمائة رجل من المقاتلين، وطالب الجزائريين بتسليمه ما لديهم من اسرى الانكليز، فرفضوا الاذعان لذلك الانذار، وأخذ الاسطول يرمي القنابل على المرسى، وحاول أخذ سفن من أسطول الجزائر، فلم يقدر على ذلك. وأنزل رجاله حوالي المدينة قصد ارهاب الجزائريين، فما استطاعوا أن ينالوا منهم منالاً، ورجعوا الى سفنهم، ثم أقلعوا الى بلادهم دون طائل.

وتكررت بعد ذلك عمليات الصراع في البحر مع السفن الانكليزية، وكانت هذه العمليات الكثيرة والمتنوعة تدخل في اطار (أعمال القرصنة) باكثر مما تدخل في اطار (الاعمال العدوانية ضد الجزائر).

---

(١) جاك الأول: (JACQUES Ier) وهو جاك السادس (JACQUES VI D'ECOSSE) ابن ماري استيوارت الاولى. ولد في ادنبرة سنة (١٥٦٦م) واصبح ملك ايقوسيا سنة (١٥٦٧م) تحت الوصاية، وأصبح ملكاً لانكلترا (١٦٠٣-١٦٢٥م). اشتهر بحروبه الدينية.

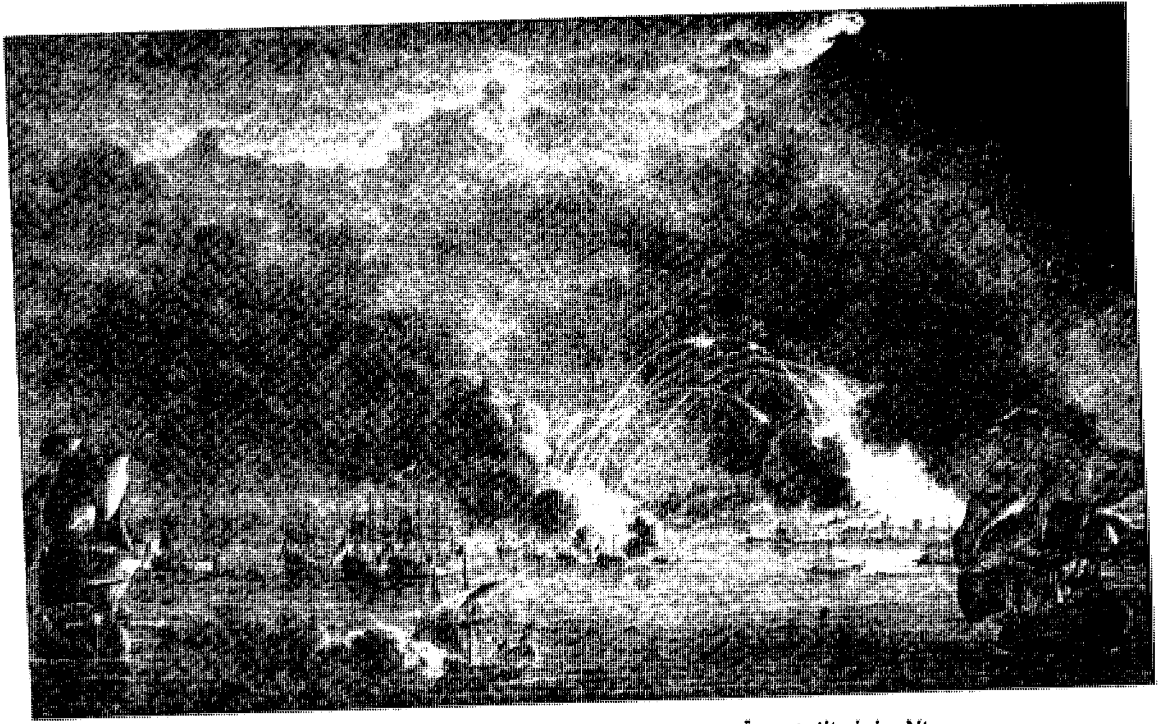

الأسطول الفرنسي تحت امرة دوكين يرمي القذائف على مدينة الجزائر

٣ـ الاعمال العدوانية الإفرنسية

(١٦٦٤ و ١٦٨٢ م)

اتخذت فرنسا سياسة ثابتة ضد اسبانيا واوروبا، ودفعها ذلك إلى التحالف مع الامبراطورية العثمانية في مناسبات كثيرة، وقد أرادت فرنسا استثمار هذا التحالف إلى ابعد الحدود، من أجل الحصول على امتيازات خاصة في المجالات التجارية مع كل دول الخلافة الاسلامية. ووافقت استانبول على منح فرنسا (امتيازات قنصلية). ورغبت فرنسا الافادة من هذه الامتيازات لارغام الجزائر على التعامل معها بموجبها. غير أن الجزائر رفضت باستمرار الاعتراف لفرنسا بهذا الحق، وصممت على التعامل معها كدولة أجنبية في مجال التجارة، كما في مجال صيد المرجان على السواحل الجزائرية، حيث كانت هذه المجالات تنفتح في ايام السلم لتتوقف في ايام الحرب. وعندما تولى الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٨-١٧١٥م) حكم فرنسا وانصرف لبناء عظمة بلاده، خاض مجموعة من الحروب ضد اسبانيا خاصة، وضد كل الدول المتحالفة معها. وفي اطار بناء عظمة فرنسا ايضاً، أراد لويس الرابع عشر ارغام الجزائريين على الالتزام (بالامتيازات الخاصة لفرنسا في المجال التجاري) و(ايقاف اعمال القرصنة ضد السفن الإفرنسية فجهز حملة بحرية قوية واجبها احتلال موقع ممتاز على الساحل الجزائري واتخاذه قاعدة تضمن حقوق فرنسا

المزعومة من جهة، وتساعد على التوسع الفرنسي فيما بعد.

آ- الحملة على جيجل (١٦٦٤)

غادر الاسطول الافرنسي قاعدة طولون في ٢ تموز-يوليو- ١٦٦٤م، وكان هذا الاسطول يتكون من (٨٣) سفينة بقيادة الاميرالان (بول ودوكين) أما القوة العسكرية التي حملها الاسطول فتكونت من (٨) آلاف مقاتل بقيادة (الكونت قادانـي) وتولى القيادة العامة لهذه الحملة (الدوق دوبوفور).

توجهت الحملة الإفرنسية الى جزائر الباليئار حيث انضمت اليها سبع سفن من اسطول مالطا. وتابعت بعد ذلك تحركها حتى وصلت الى أمام (جيجل) يوم ٢٢ تموز-يوليو-. واشتبكت في اليوم التالي مع حامية المدينة بمعركة قاسية تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة. غير أن القوات الإفرنسية نجحت في احتلال المدينة في اليوم ذاته. وشرعت على الفور بتحصين جيجل والاستعداد للدفاع عنها. وما ان بلغت انباء سقوط (جيجل) في قبضة القوات الإفرنسية المسؤولين في الجزائر حتى أعلن الحاكم (شعبان آغا) التعبئة العامة، واستنفر المجاهدين الذين استجابوا بسرعة لنداء الجهاد. وتحرك (شعبان) بقواته نحو جيجل وقد اصطحب مدفعيته القوية، وأخذت جموع المجاهدين في الالتحاق تباعاً بجيش الجزائر فترفده بالمزيد من القوة والقدرة، وفي يوم ٥ تشرين الاول- اكتوبر- وصل جيش الجزائر الى المدينة، وأقام مخيمه على مسافة قريبة منها. واختار لمدفعيته المرابض المناسبة على المرتفعات، وشرع في تضييق الحصار على (جيجل).

وفي يوم ٢٥ تشرين الاول-اكتوبر- شرعت المدفعية الجزائرية بتركيز نيران مدفعيتها الكثيفة ضد الاهداف المعادية التي تم اختيارها

بكفاءة عالية. فأوقعت بالقوات الإفرنسية خسائر فادحة. وأدركت قيادة القوات الإفرنسية أنه بات من المحال الاستمرار في المقاومة والتعرض للمزيد من الخسائر، فقررت الانسحاب، وبدأت بتنفيذ ذلك تحت قصف المدفعية الجزائرية وتحت ضغط القوات المتعاظم (في يوم ٣١ كانون الأول ـ ديسمبر). وقد تم في البداية نقل (١٢٠٠) جريح الى السفن، ثم سحبت بقية القوات الإفرنسية التي تركت فوق أرض المعركة اكثر من ألفي قتيل. وقامت القوات الجزائرية بممارسة ضغط قوي حتى أمكن لها ارغام الإفرنسيين على ترك مدفعيتهم وأسلحتهم وأمتعتهم فوق ميدان المعركة (وكان من بينها مائة مدفع). وزاد من فداحة الكارثة بالنسبة للقوات الإفرنسية غرق سفينتهم (القمر ـ لالون)والتي كانت تحمل ألف ومائتي مقاتل غرقوا جميعاً مع سفينتهم أثناء تنفيذ عملية الانسحاب.

ب ـ الاغارة على الجزائر (١٦٨٢ م)

أدى فشل هذه العملية الى تصعيد الصراع ضد فرنسا، التي قررت تنفيذ عملية انتقامية ضد الجزائر عهدت بتنفيذها لقوة من (٣٦) سفينة حربية تولى قيادتها الاميرال (دوكين).

وغادرت هذه القوة الموانىء الفرنسية يوم ١٢ تموز ـ يوليو ـ (سنة ١٦٨٢) فوصلت الى المياه الاقليمية لمدينة (شرشال) يوم ٢٥ من الشهر ذاته، وشرعت على الفور بقذف قنابلها على شرشال، غير أن هذه القنابل لم تحدث خسائر تذكر، باستثناء سفينتين جزائريتين تم اغراقهما في الخليج. وانتقل الاسطول بعد ذلك الى الجزائر، فوصل مياهها الاقليمية يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ـ وأخذ بتنفيذ (تظاهرة قوة) رافقها ارسال إنذار للجزائر من اجل قبول المطالب الإفرنسية، غير ان الجزائر

رفضت الانذار، فأخذ الاسطول في قذف قنابله على المدينة يوم ٢٦ آب ـ أغسطس ـ فتم ارسال (٨٦) قذيفة، وتجددت عملية قذف المدينة ليلة (٣١ آب ـ أغسطس) حيث تم قذف (١١٤) قذيفة لم تحدث بمجموعها اكثر من خسائر طفيفة بسبب اجراء القصف من مسافة بعيدة، وتجنب الاسطول الإفرنسي الاقتراب لتجنب رمايات مدفعية القلاع الجزائرية. واستمرت اعمال القصف حتى يوم ١٢ (ايلول ـ سبتمبر) حيث عاد الاسطول الإفرنسي الى قواعده بعد أن أدرك عقم محاولاته في تليين إرادة الجزائر المجاهدة.

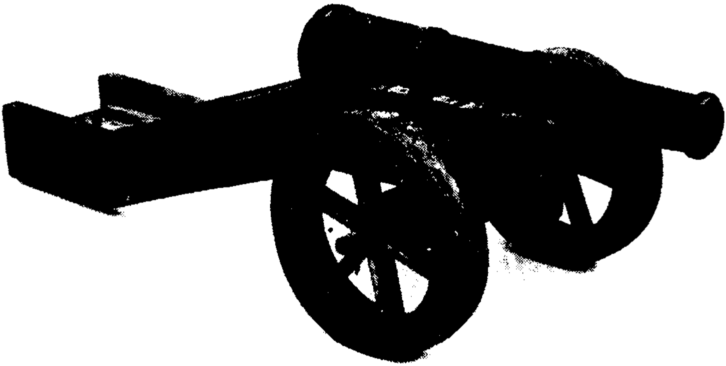

٤ـ القتال حول وهران ـ وتحريرها

(١٧٠٥ ـ ١٧٠٨ م)

لم تتوافر الراحة للاسبانيين طوال اقامتهم في وهران، ولا عرفوا للاستقرار سبيلاً، فقد أخذ العرب المسلمون على انفسهم عهداً ألا يتركوا للغزاة فرصة الا وافادوا منها للاشتباك معهم، فكانت هناك مجموعة من الوقائع والأيام التي يصعب حصرها. ولعل ما تركه الادباء والشعراء من شواهد التحريض على الجهاد، واستثارة الحكام لتحرير هذا الموقع من أيدي الاعداء، هو أمر كاف للتأكيد على نقطتين اساسيتين، هما:

١ـ الدور الكبير لجماهير الشعب المسلم في ارغام الحكام على الاستعداد الدائم للقتال.

٢ـ التصميم العنيد على تطهير أرض المسلمين من اعداء المسلمين، مهما طال أمد الاحتلال، والثقة غير المحدودة بحتمية النصر النهائي على الاعداء مهما طال أمد الصراع ومهما تخللته من هزائم او انتكاسات[١].

يذكر في هذا المجال ـ وفي معرض تاريخ تلك الوقائع والايام ـ ما

---

(١) انظر في نهاية الكتاب ـ قراءات ١ ـ والتي تتضمن مقولات شعرية خلال مرحلتي التحريض لتحرير (وهران) ثم تمجيد هذا الفتح العظيم بعد حدوثه.

قام به حاكم وهران الاسباني (دون انيقو دي طوليدو) يوم خرج من وهران **في شهر حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٦٧٥** في محاولة للقيام بهجوم مباغت على تلمسان، غير أن الجماهير المسلمة اليقظة دوماً، وقوات الجيش الجزائري المستعدة ابداً للقتال. سرعان ما أحبطت هذه المحاولة، وارغمت القوات الاسبانية على التراجع الى (وهران) بعد أن تكبدت خسائر فادحة. واعقب ذلك حصار المدينة، وقصفها بالمدفعية، غير أن القوات المسلمة لم تتمكن من اقتحام (وهران) وتحريرها.

(وفي سنة ١٠٩٨ هـ = ١٦٨٦م) قاد حاكم الجزائر جيشاً يضم (٣) آلاف فارس وألفاً من المشاة تدعمهم المدفعية بهدف فتح (وهران) التي خرج حاكمها الاسباني ومعه (٨) آلاف مقاتل تدعمهم جماعة من (عرب بني عامر وجيزة). ووقع الصدام بين القوتين عند (كدية الخيار) ودارت معركة ضارية قتل فيها حاكم الجزائر (شعبان باي الزناكي) وهو يحرض المؤمنين على القتال. غير أن قوات المسلمين أرغمت القوات الاسبانية على التراجع بعد أن تركت فوق أرض المعركة (١١٠٠) قتيل. واحكم المسلمون الحصار حول المدينة. ولم يتركوا لحاميتها فرصة لمغادرتها أو الخروج منها.

(وفي السنة التالية (١٦٨٧م) قاد والي الجزائر الجديد (الباي ابراهيم خوجه) جيش الجزائر وضيق الحصار على (وهران) ونصب المدافع المختلفة في مواجهة حصونها. لكن التهديد الإفرنسي لمدينة الجزائر، وتضييق الحصار عليها، أرغم جيش الجزائر على رفع الحصار والعودة لمجابهة التهديد الإفرنسي.

عاد الاسبانيون للهجوم في سنة (١٧٠٤م) فغادروا تحصيناتهم

واسوارهم، واغاروا على المداشر والقرى العربية، ثم رجعوا الى أسوارهم بعد أن اصطحبوا معهم (٢٥٠) أسيراً عربياً.

تعاظمت التحديات الاسبانية، وتعاظمت بالمقابل مقاومة الجزائريين، حتى اذا ما جاء (محمد بكداش)[١] والياً على الجزائر، أخذ على عاتقه قضية تحرير (وهران)[٢] ودعمه في ذلك (باي المغرب مصطفى المسراتي - المشهور بلقب - بوشلاغم) وصهره ووزيره (اوزن حسن - أي حسن الطويل).

جاء (محمد بكداش) والياً على الجزائر سنة (١١١٩ هـ = ١٧٠٧ م) فكان أول ما عمله هو توحيد الجبهة الداخلية - بحسب الاصطلاح الحديث - وائتلاف قلوب الناس باشاعة العدل ونفي المظالم وشاع في الناس عزمه على الجهاد، فأخذ القوم يستعدون لليوم العظيم استعداداً لم يسبقه مثيل، وأرسلوا الى كل الجهات الجزائرية يستحثون القوم على الجهاد.

ووصف مؤرخ عاصر الاحداث وعاينها ما حدث بالتالي:

---

(١) محمد بكداش، ابن السيد المرتضى المرابط الناسك الصوفي، يسماه (بكداش) بلسان بلده التركي، وتفسيره باللغة العربية - الحجر القاسي - كان من اعظم ولاة الجزائر بعد عروج وأخيه خير الدين بربروس، استطاع أن يوحد الشعب الجزائري حول هدف الجهاد. وجمع حوله العلماء والادباء. وقد حفظت الأوابد كثيرا مما قيل في مدحه والاشادة بمنجزاته.

(٢) جدير بالذكر ان (وهران) تمكنت تحت حكم الاسبانيين أن تفرض سيطرتها على (٨٩) كيلو متراً مما يحيط بها من المناطق، وأخضعت القبائل التي كانت مستوطنة في هذه المناطق فكانوا يدفعون لها جزية سنوية يدعونها (الرومية) كما كان شيوخ هذه القبائل يقدمون مع الجزية رهائن من أبنائهم أو اقربائهم تحتفظ بهم السلطات الاسبانية في وهران لضمان ولائهم.

«وجاء الناس اليه من كل فج عميق، وانسلوا اليه من كل قبيل وفريق، زيادة على من عينه السلطان لذلك من عساكره، حتى ان الناس وفدوا اليه بخيامهم وعيالهم واعتكفوا عليه الليالي والأيـام، ورفضوا كل شيء سواه في ذلك المقام، وأنفقوا عليه الطارف والتالد، واستطابوا لأجـله الحر والبارد... وكان طلبة العلم وحملة القرآن، هم أشد الناس مسارعة لاجابة دعوة السلطان الى هذا الجهاد المبارك... وكانوا بمحلة مستقلة عن غيرها ـ».

«وبينما كانت جموع المجاهدين من رجال الشعب المجاهد، تتسارع الى موطن الجهاد، ارسـل محمد بكداش جيشاً جزائرياً من ثمانية آلاف وخمسمائة رجل مع سلاح كثير ومدفعية ضخمة وكميات هائلة من البارود ـ حتى كان ما أخرجه على يد خليفته القائد مصطفى المسراتـي نحو الثلاثة آلاف وثلاثمائة قنطار». وعندما التأم شمل المجاهدين من رجال الجزائر ومن جماعات المتطوعين. بدأوا بمنازلة (وهران) والتضييق عليها، وتولى (اوزون حسن) القيادة العليا، في حين اسندت ادارة العمليات الى (الباي مصطفى بوشلاغم). في حين بقي (محمد بكداش) في الجزائر، ينظم القوات، ويرسل الدعم تلو الدعم. فيما كان رجال الدين والأئمة في المساجد يذكون نيران الايمان في القلوب، ويدفعون بالناس الى ساحات الشرف. ومقابل ذلك، فما ان علم الصليبيون بنوايا المسلمين، حتى ارسلوا دعماً سريعاً من مالطا يتكون من سبع سفن تحمل على متنها عدداً من أشد المقاتلين وبعض مئات من المتطوعين الإفرنسيين. فحل هذا الدعم بمرسى وهران، وزاد من تصميم حاميتها الاسبانية على الصمود والمقاومة.

بدأت القوات الجزائرية هجومها مع بداية شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٠٧ م (١١١٩ هـ) وكان أول عمل قامت به هو تدمير مجاز الماء

الذي يرد من الخارج الى وهران، وعليه الحصن المنيع (برج العيون) حيث قام المجاهدون بحفر خندق وصل بهم الى داخل الحصن، ودارت معكرة قاسية استطاع فيها المجاهدون طرد القوات الاسبانية وابعادها عن (رأس الماء) وحفروا حوله الخنادق ونظموا الدفاع لاحباط كل هجوم مضاد قد تقوم به قوات العدو. ثم انتقل المجاهدون للهجوم على (برج العيون) وحفروا الملاغم لتدميره، غير أنهم فشلوا في تدميره، فهاجموه بقوة وتحت رصاص العدو وقنابله، حتى استطاعوا صعود جدران الأسوار، واقتحموها، وغلبوا أهلها عليها، وتمكنوا من احتلالها بعد معركة ضارية. وأسر المسلمون من بقايا المدافعين عن البرج (٣٢٢) مقاتلاً ومن أنصارهم من عرب جيذرة (٦٠) رجلاً. ووجدوا به من الجرحى (٢٧) رجلاً أمر الأمير بارجاعهم إلى أهلهم. وغنم المجاهدون كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر والمواد التموينية. وبلغ عدد القتلى الاسبانيين (٤٠) قتيلاً. أما عدد شهداء المسلمين فقد تجاوز المائتي شهيد وغربت شمس يوم الثلاثاء ١٠ جمادي الاخرة ١١١٩ هـ الموافق ٨ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٧٠٧ م عن أول نصر للمسلمين في تحرير وهران.

انصرف المجاهدون للتعامل بعد ذلك مع أضخم الحصون وهو (برج مرجاج الكبير) الذي كان يطلق عليه الاسبانيون اسم (برج القديس فيليب ـ أو الصليب المقدس ـ سانتا كروز) وحفر المجاهدون مجموعة من الملاغم المستطيلة وصلت إلى ما تحت البرج وشحنوها بالبارود وعرف الاسبانيون المدافعون عن البرج بأمر هذه الملاغم، وعرفوا من خلال الاشتباكات المستمرة واعمال القصف المتبادل بأنه بات من المحال الاستمرار في المقاومة، وأن المزيد من العناد لن يؤدي بالحامية الاسبانية إلا إلى التمزق والفناء عندما ستتفجر الملاغم المدمرة

لتطيح بالبرج. فأعلن الاسبانيون تسليم الحصن يوم ٢٧ جمادي الآخرة الموافق ٢٥ ايلول ـ سبتمبر ـ ودخل المجاهدون المسلمون، فأسروا بقايا الحامية الاسبانية وعددهم (١٠٧) رجال و٣ نسوة. بالاضافة إلى كميات هائلة من الاسلحة والذخائر والمواد التموينية.

تعاظمت ثقة المجاهدين بأنفسهم وبقدرتهم على حسم الصراع بعد احرازهم لانتصارين متتالين، فنقلوا ثقل هجومهم ضد أمنع حصون وهران واكثرها تحصيناً وقوة، وهو حصن (برج بن زهو) غير أن الهجوم مُني بالفشل، وتكبد المجاهدون خسائر فادحة. فاعاد المجاهدون تنظيم قواتهم وكرروا هجماتهم المتتالية طوال ثمانية أيام. ودافعت الحامية الاسبانية عن مواقعها بثبات كبير، وكبدت المجاهدين الخسائر الكبيرة مع كل هجوم يتم احباطه. وحاولت الحامية الاسبانية بعد ذلك مغادرة تحصيناتها ومجابهة قوات المسلمين في معركة تصادمية جبهية انتصر فيها المسلمون، وأرغموا الاسبانيين على التراجع الى ما وراء تحصيناتهم. وعند ذلك شرع المجاهدون في حفر الملاغم تحت الحصن. وكانت الأرض تحته صخرية صلدة مما تطلب بذل جهد كبير وتضحيات كثيرة حتى امكن انجاز الملاغم وحشوها بالبارود وتفجيرها، غير أن ذلك لم يؤثر تأثيراً كبيراً على الحصن، فاعيدت المحاولة مرة ثانية، ولم تكن النتيجة أفضل بكثير من سابقتها، وجاءت المحاولة الثالثة محققة للهدف، فانفجر البرج، وتداعت صخوره، واقتحمه المجاهدون، واشتبكوا مع حاميته التي صممت على متابعة الصراع المسلح حتى النهاية التي جاءت بالقضاء على مجموع أفراد الحامية، وابادة افرادها البالغ عددهم (١٢٠) مقاتلاً، بحيث لم يأسر المسلمون اكثر من ثمانية أسرى، وخسر المسلمون نحو المائتين من الشهداء. وانتهى المسلمون من تطهير الحصن واحتلاله يوم الخامس

من شعبان (الموافق تشرين الثانـي - نوفمبر).

وبقي على قوات المسلمين اقتحام آخر القلاع، واكثرها منعة وأضخمها بناء وأعلاها جداراً، وهي قلعة (البرج الجديد) الذي تبرعت ببنائه سيدة اسبانية (ابتغاء مرضاة السيد المسيح- وكلفها ذلك مبلغاً كبيراً من المال). وأمام هذا الموقف اضطر المسلمون للاحاطة به بمجموعة من المراكز الصغيرة التي اطلق عليها اسم (المتاريس - المتارز) والتي امتدت من ناحية (عين جندرة) حتى (شعبة الدجاج) وراء (البرج الجديد). ثم انتشرت هذه (المتاريس) إلى أرباض المدينة حتى اصبحت معقلاً دفاعياً واحداً. واخذ المجاهدون في استخدام المتاريس لتدمير المقاومات في المدينة، واستنزاف قدراتها، وصار رصاص بنادق المجاهدين يصل إلى أفراد الحامية الاسبانية وهم في عقر منازلهم. وبات من المحال عليهم الانتقال من مكان إلى مكان آخر، فاضطروا إلى ثقب جدران المنازل ووصل بعض ببعض عن طريق هذه الثغرات، وأثناء ذلك أخذ المجاهدون في التسلل إلى أطراف المدينة والتوغل فيها والاشتباك مع أفراد الحامية المدافعة عنها. حتى وصلوا إلى كنيسة (سانتا ماريا) فدمروا أصنامها، وصار قسم المدينة الموجود ما بين البرج الجديد والبرج الأحمر بين يدي المجاهدين. وأخذ الاسبانيون في نقل أمتعتهم وممتلكاتهم إلى (المرسى الكبير). وبقيت الحامية الاسبانية المدافعة عن (البرج الجديد) صامدة في مواقعها، ولم يتمكن المجاهدون المسلمون من اقتحامه، غير أن تطور الصراع في المدينة أقنع قائد الحامية في البرج الجديد بعقم الاستمرار في المقاومة، فخرج يحمل راية الاستسلام، واتفق مع القائد العام الجزائري على ايقاف الاقتتال حول البرج، فإن تمكن المجاهدون من احتلال مدينة وهران، استسلم لهم البرج مع استسلام المدينة. ونقل المجاهدون ثقل

هجومهم نحو (البرج الاحمر) اخر ابراج المدينة، ودارت مجموعة من الاشتباكات والمعارك التي تكبد فيها الطرفان المتصارعان خسائر كبيرة بدون الوصول إلى الحسم، وأخيراً، قرر المسلمون القيام بهجوم عام جبهي، تدعمه المدفعية بنيرانها الكثيفة، ونجح هذا الهجوم في اقتحام البرج يوم ١٤ تشرين الثاني - نوفمبر - واضطر بقية افراد الحامية الى الاستسلام. وعند هذه المرحلة، عرف الحاكم الاسباني العام (دون ملشور دي افيلانيدا) أنه لم يبق ثمة أمل في المحافظة على المدينة أو الدفاع عنها، فاستقل سفينة نقلته إلى المرسى الكبير، ليغادرها بعد ذلك متوجهاً - الى بلاده - اسبانيا. وتدفقت حشود المجاهدين الى المدينة، بعد أن تم اسكات كل حصونها، وحفروا الملاغم تحت قصبتها، واقتحموها، فوجدو أن بقية أفراد الحامية الاسبانية قد هربت إلى المرسى الكبير. ولم يجدوا فيها الا مجموعة من الرجال العجزة، وبعض (المغطسين) من الاعراب الذين وقفوا الى جانب الاسبانيين، فتمت ابادتهم. وتبع ذلك استسلام (البرج الجديد) فوجد فيه المجاهدون اربعمائة مقاتل تم اسرهم علاوة على ما غنمه المسلمون من محتويات البرج واسلحته. وكان مجموع الاسرى الذين وقعوا في قبضة المسلمين (ألفي اسير) بينهم (مائتي ضابط من كبار الضباط) والموظفين وجماعة من متطوعي مالطا والإفرنسيين الذين اقتيدوا الى مدينة الجزائر.

وأصبح (المرسى الكبير) هو الملجأ الذي انضمت اليه فلول الحامية المدافعة عن وهران، فتم بذلك تدعيم حامية المرسى بالمزيد من القدرة القتالية، التي كان باستطاعتها الافادة من التحصينات الدفاعية والاسوار من اجل القيام بالمزيد من الصمود والمقاومة. ورفض المجاهدون المسلمون احراز نصر منقوص، فقرروا عدم

اضاعة الوقت، والانتقال بقوات الهجوم لتحرير (المرسى الكبير) وهكذا فما أن فرغ المجاهدون من استعادة وهران وتحريرها حتى نقلوا معسكرهم إلى جوار المرسى واحكموا الحصار حوله. ولم تكن معركة المرسى الكبير هينة، ولم تكن عملية انقـاذه بالامر السهل. فقد ركز الاسبانيون دفاعهم عنه، وعملوا على تحصينه طوال فترة احتلالهم له (١٥٠٥-١٧٠٨) فكان المرسى الكبير هو أول موقع قاموا باحتلاله، وكان آخر معقل خاضوا معركةً للاحتفاظ به. خاض الطرفان المتصارعان (المسلمون واعدائهم) مجموعة من المعارك الضارية اشترك فيها الجميع من الطرفين، الرجال والنساء وحتى الاطفال، وأمكن تبادل المواقعُ اكثر من مرة، حيث كانت راية النصر تنتقل نوباً بين الطرفين، وقام المسلمون بحفر الملاغم تحت حصن المدينة الاكبر واجراء التفجير مرات متتالية دونما نتيجة تذكر حتى جاء يوم (٢٤ محرم الحرام ١١٢٠ هـ الموافق ١٦ نيسان ـ ابريل ـ ١٧٠٨م) حيث استطاع المجاهدون المسلمـون اقتحام المدينـة، ودارت معركـة ضاريـة فـي الشوارع والمنازل، الى أن امكن ابادة المقاومات الاسبانية واستسلم بقية افراد الحامية ـ وعدد افرادها (١٤٦١) اسبانياً. اما جماعة المغطسين (من الكلمة الاسبانية موقاتاز) اي الاعـراب أنصـار الاسبانيين فقد تمت ابادتهم ونهبهم وسبيهم ـ غير أن الفقهاء احتجوا على ذلك لأنه مخالف للدين.

انصرفت وهران لتضميد جراحها. ولم تمض عليها فترة طويلة حتى عاد أهلوها وعملوا على اعمارها لتعود منارة للاسلام في المغرب العربـي الاسلامي، وعاصمة للاقليم (بايليك). وأرسل الداي (محمد بكداش) مفاتيح وهران الذهبية الثلاثية هدية إلى السلطان العثماني (أحمد) بشارة بالفتح، واعترافاً بفضل الخلافة الاسلامية في تقديم

الدعم والمساندة .

وترددت أصداء هذا النصر العظيم قوية في مشرق العالم الاسلامي ومغربه، ففرح لها المسلمون في كل مكان، وكانت فرحة الجزائر المجاهدة اكبر من كل وصف. فقد تمكنت بجهدها وتضحياتها من طرد الاعداء عن ترابها، فكانت فرحتها بالنصر معادلة لما قدمته من الجهد والتضحيات .

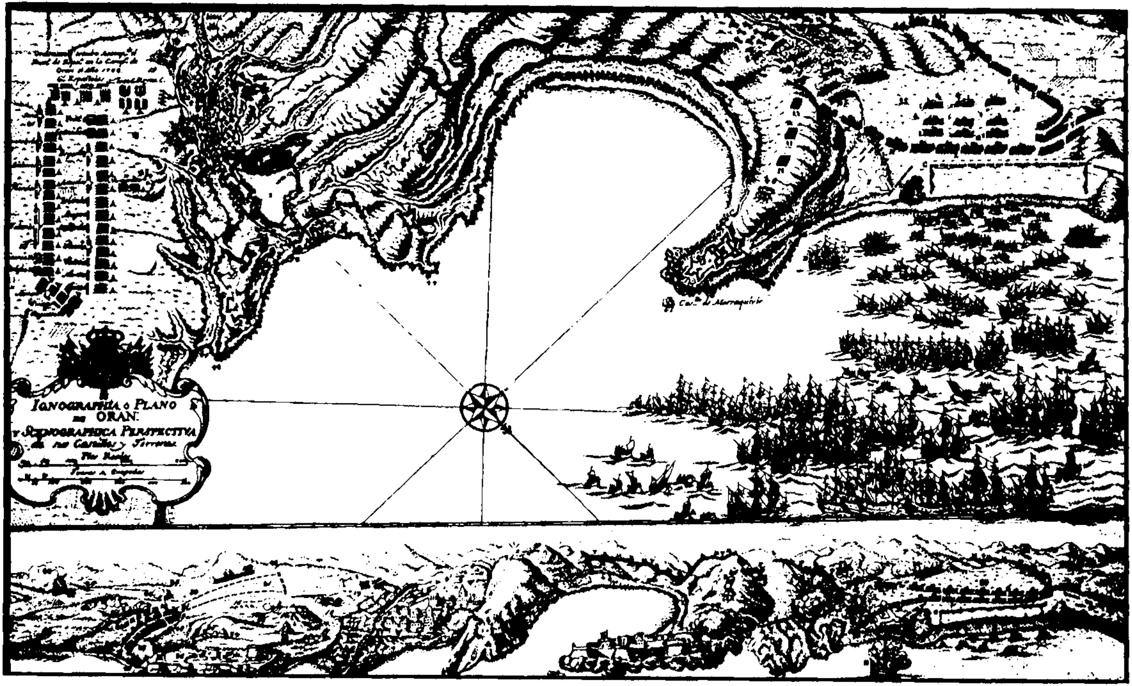

رسم اسباني لمدينة وهران والمرسى الكبير

٥ ـ الاسبانيون يعودون الى وهران
(١٧٣٢ م)

اذاع ملك اسبانيا (فيليب الخامس) [1] منشوراً ملكياً يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) أخذته كل مراكز البلاد الغربية وعملت على توزيعه والدعاية له، وتضمن المنشور ما يلي:

«قضت ارادتنا الملكية ألا نترك خارج دائرة كنيستنا المقدسة، وديانتنا الكاثوليكية، أي جزء من أجزاء الأرض التي كانت العناية الالهية قد وضعتها تحت سلطاننا، عندما اقتضت وضعنا على عرش هذه المملكة، والتي تغلب عليها الاعداء بكثرة عددهم، وأخذوها منا، وأخرجوها عن طاعتنا بواسطة العنف والاحتيال. اننا لم نترك قط التفكير في استرجاع تلك الأجزاء المقتطعة، انما حالت الاحداث المؤلمة بيننا وبين تحقيق أملنا في ذلك الاسترجاع، فلم نتمكن قبل اليوم من تجهيز القوى العظيمة التي وضعتها العناية الإلهية تحت تصرفنا. واليوم، وعلى الرغم من أننا لم نتخلص بصفة تامة من تلك الاحداث المؤلمة، فقد صممت على أن أبادر باسترجاع مركز (وهران)

---

(١) فيليب الخامس: (PHILLIPPE V) الحفيد الأصغر للملك الإفرنسي لويس الرابع عشر، ولد في فرساي سنة ١٦٨٣م. وأصبح دوق انجو في اول الأمر، ثم اصبح ملكاً لاسبانيا (١٧٠٠-١٧٤٦م) وبسببه حدثت حرب الوراثة الاسبانية، وقد حاول ان يعيد لاسبانيا عظمتها، غير أنه لم يفلح كثيراً في ذلك.

ذي الأهمية العظمى والذي كان فيما مضى محط آمال ، ومظهر قيمة التقوى المسيحية والأمة الاسبانية. ولقد رأيت أن بقاء وهران تحت سلطان المتوحشين الأفارقة، انما هو عائق عظيم يحول بيننا وبين نشر ديانتنا المقدسة. كما أنه باب مفتوح يواجه اسبانيا، ويهدد سكانها الساحليين بالغزو والاسترقاق.

. . . ومن أجل ذلك، قررت بأن أجمع في مدينة (اليقنت) (١) جيشاً يضم ثلاثين ألفاً من الرجال والفرسان، مع كل ما يلزمهم من الأسلحة والمؤن والمدفعية، وكل الآلات والمعدات اللازمة لمثل هذه المعركة الحاسمة. وعينت لقيادة هذه الحملة (الكونت دي موتيمار) ومعه مجموعة من القادة والضباط الذين تتوافر لهم الخبرة والشجاعة، مما يجعلنا نأمل بفوز مجيد في هذه العملية. ولقد جمعت بأمري في المكان ذاته عدداً عظيماً من السفن المختلفة الانواع والاشكال، تحرسها سفن الاسطول الكبيرة والصغيرة، لحمل هذا الجيش العظيم حالاً من اجل استرجاع مدينة وهران. وبما أن مثل هذه الحملة لا يمكن أن تنجح ما لم تكن مؤيدة بعناية الله، فقد أصدرت أوامري، لجميع ممالكي، بأن تقام في كل مكان صلوات عامة ابتهالاً إلى الله، من أجل تحقيق النصر لجيشنا في هذه المهمة العظيمة»(اشبيليا ٦ حزيران - يونيو - ١٧٣٢م).

لقد عبر مضمون بيان (الملك فيليب الخامس) عن مدى المرارة التي نزلت بالاسبانين نتيجة طردهم من (وهران). كما يعبر عن مدى الاهمية التي كان يعلقها الاسبانيون على امتلاكهم لهذه القاعدة في حربهم ضد الاسلام والمسلمين. ولقد تم تحرير وهران في الفترة التي كانت تخوض فيها اسبانيا ومعها اوروبا كلها تقريباً - حرب الوراثة

(١) اليقنت: (ALICANTE) مدينة اسبانية تقع على البحر الابيض المتوسط ولها ميناء كبير.

الاسبانية (١٧٠١-١٧١٤) وهي الحرب التي خرجت فيها اسبانيا وهي محرومة من معظم مستعمراتها فيما وراء البحار -لمصلحة انكلترا- ولهذا، فقد اتجه تفكير فيليب - منذ ان تم له الاستقرار على ملك اسبانيا بالعودة إلى (وهران) وفتحها من جديد، وأمضى في الاستعداد لهذه الحملة زهاء عشرين سنة تقريباً. وفي النهاية، أمكن له حشد قوات ضخمة تكونت من: (٣٠ ألف مقاتل و٥٢٥ سفينة من سفن النقل والسفن الحربية و٧٢٠ مدفعاً و١٦٤٢٠ قنبلة، و٥٦ ألف قنبلة يدوية و٨٠٦٩٣ قذيفة مختلفة و١٢٤٢٧ قنطاراً من البارود و٨ آلاف صندوق لرصاص البنادق و١٢ ألف بندقية ومليوني وجبة طعام لافراد الجيش علاوة على وسائط الحصار وبقية المتطلبات) [1] وعندما تم حشد كل هذه المتطلبات، أطلق ملك اسبانيا بيانه، واصدر امره إلى الحملة بالتحرك إلى هدفها. واقلع الاسطول الاسباني من خليج (اليقنت) يوم ١٥ حزيران -يونيو- ١٧٣٢ فوصل بعد عشرة ايام إلى المياه الاقليمية لمدينة وهران، غير أن الرياح المعاكسة اعاقته عن الاقتراب من الساحل، فبقي يقوم بمناوراته على امتداد الساحل حتى يوم ٢٩. حزيران - يونيو- حيث تم له الاقتراب من وهران.

اختار الاسبانيون لنزولهم ساحة (عين الترك) على بعد خمسة عشر كيلو متراً إلى الغرب من وهران. ولم تكن القوة الاسلامية المدافعة عن الاقليم كافية لايقاف عملية الانزال أو تعطيلها. فأمكن للقوات الاسبانية انزال قواتهم واعتدتهم الثقيلة دونما عناء كبير. وأثناء ذلك استمرت الاشتباكات بين القوات الاسلامية الجزائرية وبين قوات العدوان على الرغم من قلة عدد المجاهدين المسلمين الذين لم

---

(١) المرجع - تقرير الحملة في (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني - ص ٤٧٥- ٤٧٦.

يلبثوا أن تلقوا بعض الدعم من حامية وهران مع شيء من المدفعية، فصارت اكثر قدرة على تكبيد القوات الاسبانية المزيد من الخسائر. وأرسلت القوات الاسبانية فرقة لمجابهة هذه الكتائب الجزائرية، فاشتبكت معها في القتال، وتقدمت شيئاً فشيئاً الى أن تمكنت من مشاهدة مركز التجمع الاسلامي، القليل العـدد والذي كان يمتد على طول الجبل المشرف على ميدان المعركة. انقضت حينئذ كتيبة من المجاهدين تشمل نحو الألفي رجل، بين مشاة وفرسان، على الميمنة الاسبانية، فتمكنت من احتلال مرتفع تقع تحته عين يستقي منها جند العدو، فحالت بينه وبين الماء. لكن القائد الاسبانـي أصدر أمره في الساعة الرابعة من عشية يوم ٢٩ حزيران ـ يونيو ـ إلى فرقة كبيرة من المشاة، ومعها أربعمائة فارس، بمهمة التصدي لهذه الكتيبة، العربية المسلمة، والقيام بحركة التفاف لقطع خط تراجع الكتيبة، غير أن هذه الكتيبة لم تقع في الكمين وانسحبت الى المرتفعات التي كانت قاعدة لمجموع القوى الاسلامية.

وأمضت القوتان المتصارعتان الليل في الاستعداد للمعركة، وما كادت تشرق شمس يوم ٣٠ حزيران ـ يونيو ـ حتى كانت ميسرة الجيش الاسبانـي قد التحمت في معركة ضارية مع المجاهدين قتل فيها قائد القوة الاسبانـي الذي كان يدير المعركة. وعندما رأت قيادة الاسبانيين أن ضغط القوات الجزائرية قد اشتد ضد الميسرة، أمرت بأن يتحرك الجيش كله ضد المراكز الجزائرية، وانطلق الهجوم الاسبانـي بقوة وعنف فامتد افق المعركة ليشمل الجبهة المواجهة بكاملها. ولم تصمد قوات المسلمين لثقل هذه الهجمة، فتراجعت عن مواقعها لتحتل مواقع جديدة على جانبي فج عميق ينحدر من الجبل، وهو ممر الجيش الاسبانـي، وأخذوا في توجيه نيرانهم ضد القوات الاسبانية، وأوقعوا

فيها خسائر فادحة. لكن القوات الاسبانية افادت من تفوقها العددي فتمكنت من دحر قوات المجاهدين التي اضطرت من جديد إلى التراجع والاعتصام بمواقع اخرى تقع إلى الخلف من سابقتها في عمق الجبال. وأصبح باستطاعة القوات الاسبانية الاشراف من مواقعها على مدينة (المرسى الكبير).

كان الباي الشيخ (مصطفى بوشلاغم) فاتح وهران وأميرها منذ سنة (١٧٠٧م) قد استعد للدفاع بما توافر له من القوى والوسائط. وتجمع حوله ما يزيد على العشرين ألفاً من المجاهدين من رجال الشعب، بالاضافة إلى قوة الجيش المكونة من (٢٥٠٠) مقاتل، وكانت وهران مسلحة بما يزيد على (١٣٨) مدفعاً منها ٨٧ مدفعاً من البرونز. وقد عمل على توجيه جزء من هذه القوة لمقاومة الاسبانيين في منطقة الانزال (عين الترك) وعندما تطورت المعركة جمع (مصطفى بوشلاغم) قادته وأعاد تقدير الموقف على اساس التفوق الاسباني فتقرر الانسحاب من مدينة (وهران) واخلاءها من سكانها ومن الحامية المدافعة عنها. على أن تستمر المقاومة فيها وراء المدينة، ريثما تتوافر قوات دعم كافية لاستعادة المدينة وخرج الباي ورجال الادارة وامتعتهم واموال الحكومة - على مائتي بعير - وتبعهم السكان. ولم يكن عددهم حينئذ كبيراً، ودخل الاسبانيون يوم أول تموز - يوليو - المدينة فكانت مدينة مهجورة، خالية من كل حياة.

وكان داي الجزائر (عبدى باشا) قد أرسل دعماً سريعاً من الجزائر يتكون من ألفي رجل تحت قيادة ابنه، غير أن هذا الدعم وصل متأخراً، حيث كانت القوات الاسبانية قد دخلت المدينة، فانضم هذا الدعم إلى قوى المجاهدين التي طوقت المدينة من كل جهاتها. وما كاد نبأ سقوط المدينة يصل إلى الجزائر حتى هيمن عليها

الغضب، واعتزل الداي ـ الذي كان قد بلغ الثامنة والثمانين من عمره ـ ولم يلبث أن قضى نحبه حزناً.

كانت حامية وهران قد تركت في المدينة عند انسحابها كامل مدفعيتها، ولم تحمل معها الا اسلحتها الخفيفة، ورابطت في الجبال المهيمنة على المدينة، وأخذت في تضييق الحصار عليها، فلم يتمكن الاسبانيون من التحرك بعيداً عن المدينة، ولهذا عملوا على اعادة معظم قواتهم إلى اسبانيـا تاركين في وهران والمرسى الكبير حامية قوية وكافية للدفاع عنها. واستمرت الاشتباكات العنيفة طوال سنة تقريباً. وكان من ابرزها معركة يوم ٤ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ حيث تمكن المجاهدون من عزل حصن (سانتا كروز) بحيث لم يتمكن الاسبانيون من امداده الا بعد معركة ضارية تكبدوا فيها خسائر فادحة. وفي يوم ٤ تشرين الثانـي ـ نوفمبر ـ هاجم المجاهدون المدينة ووصل الباي (مصطفى بوشلاغم) على رأس فرقته إلى ابواب المدينة، والتحم مع الاسبانيين في معركة ضارية استشهد خلالها ابنه. وفي يوم ١٢ تشرين الثانـي ـ نوفمبر ـ اندلعت نيران معركة جديدة، قتل فيها المركيز (دي سانتا كروز) وعدد كبير من افراد الحامية الاسبانية. وفي سنة (١٧٣٣م) قام المجاهدون يوم ١٠ حزيران ـ يونيو ـ بهجوم عنيف على المدينة، وقتل القائد الاسبانـي (دي ميروسنيل) ومعه عدد كبير من افراد الحامية الاسبانية. وقام (مصطفى بوشلاغم) بقيادة هجوم جديد في سنة (١٧٣٤ م) ضد (مركز العيون) حول وهران، ووصل الى ابواب المدينة، غير انه لم يتمكن من احتلالها.

وهكذا بقيت (وهران والمرسى الكبير) تحت حصار محكم، وتحت التهديد الدائم بالحرب طوال خمسين عاماً، إلى أن تم تحريرها نهائياً في سنة (١٧٩١م).

٦ ـ تبادل الاسرى والمعركة البحرية

امام الجزائر (١٧٧٣ م)

حاولت اسبانيا بعد استيلائها على وهران والمرسى الكبير الوصول إلى سلم مع الجزائر، غير أن هذه رفضت الدخول في أية تسوية سلمية طالما بقيت القوات الاسبانية فوق أرض الجزائر. واستمرت المفاوضات فترة طويلة، تتوقف فترة لتستأنف في مرحلة لاحقة. وامكن في النهاية الوصول إلى اتفاقية لتبادل اطلاق سراح الاسرى فقط، وعقدت الاتفاقية الاولى في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر ـ سنة ١٧٦٨م. واشترط الجزائريون أن تطلق اسبانيا جميع من لديها من اسرى المسلمين مقابل اطلاق سراح الاسرى الاسبانيين الموجودين في الجزائر فقط. وبموجب هذا الاتفاق اطلقت اسبانيا سراح (١٢٠٠) أسير مسلم مقابل (٧١٢) أسير اسباني. واعيد تطبيق هذه الاتفاقية ذاتها في سنة ١٧٧٣، واشترطت الجزائر في هذه المرة اطلاق سراح أسيرين مسلمين مقابل كل اسير اسباني، وبذلك أطلقت اسبانيا (١١٠٦) أسيراً من المسلمين ـ هم كل من كان لديها ـ مقابل اطلاق الجزائريين سراح (٥٧٠) أسيراً من الاسبانيين.

ظنت الادارة الاسبانية بعد ذلك، أن الظروف قد باتت مناسبة لها لتوجيه حملة هدفها تدمير مدينة الجزائر واخضاعها، اذ كانت الدولة الجزائرية في حال حرب مع معظم الدول الاوروبية، وكان الاسطول

الجزائري منتشراً في عدد كبير من قواعد البحر الأبيض المتوسط. ووضعت الادارة الاسبانية مخطط عملياتها على اساس تحقيق الاهداف التالية: ١ـ مهاجمة الجزائر بحراً بواسطة قدرة بحرية كافية. ٢ـ تدمير السفن الجزائرية التي تكون راسية بالميناء ـ المرسى ـ. ٣ـ تدمير حصون مدينة الجزائر وقلاعها. ٤ـ فرض الشروط المناسبة لاسبانيا على حكومة الجزائر. واخذت الادارة الاسبانية بعد ذلك في حشد اسطولها البحري في مدينة قرطاجة الاسبانية، فتجمعت (٧٦) سفينة حربية، اسندت قيادتها للاميرال (انطونيو ـ باركلو)

تلقى داي الجزائر (محمد عثمان باشا) إعلاماً من ملك المغرب (السلطان محمد بن عبد الله) في شهر ايار (مايو) ١٧٧٣م (١١٨٧ هـ) يعلمه بتجمع الاسطول النصراني واستعداده لمهاجمة الجزائر ـ خلال فترة وجيزة ـ فشرع (داي الجزائر) بالاستعداد لمجابهة العدوان في البر والبحر، وشملت استعداداته:

١ـ تجميع القوات في الجزائر، واستقدام القوات من داخل البلاد، فجاء من ولاية قسنطينة (بايليك) (٢٥) ألفاً ومن ولاية معسكر (٢٠) ألفاً ومن ولاية تيطري (٥) آلاف.

٢ـ اخراج السكان المدنيين من مدينة الجزائر ومعهم أمتعتهم وثرواتهم الى حدائق النزهة في ظاهر المدينة.

٣ـ ارسال الاسرى المسيحيين فوراً ـ وعددهم ١٥٤٨ أسيراً ـ الى مدينة المدية.

٤ـ الشروع فوراً ببناء سفينتين مسلحتين بالمدفعية القوية لدعم الاسطول البحري (العمارة).

غادر الاسطول الاسباني قواعده في شهر تموز (يوليو) ١٧٧٣- وأصبح لزاماً على الاسطول الجزائري المكون من (٢٥) سفينة، مجابهة اسطول العدو المتفوق بمعدل ثلاثة أضعاف تقريباً. وصل الاسطول الاسباني إلى المياه الاقليمية لمدينة الجزائر يوم ٢٩ تموز (يوليو) واصطفت سفنه في مواجهة المدينة استعداداً للانقضاض عليها وقصفها، فرفعت الحصون الجزائرية على الفور اعلامها، وبادرت سفن العدو باطلاق النار عليها.

وفي يوم ٣٠ تموز ـ يوليو ـ غادرت مرسى الجزائر بعض السفن، وسارت متحدية الاسطول الاسباني الذي اشتبك معها بالنيران، غير أنه لم يتمكن من اصابتها بسوء، واستمر تبادل اطلاق النار بين القوتين.

قامت مدفعية الاسطول الاسباني بقذف قنابلها على الميناء ـ المرسى ـ يوم ١ ـ آب ـ اغسطس ـ وردت عليها بطاريات الحصون برمايات كثيفة ومركزة. وخرجت عوامتان جزائريتان تجرهما القوارب، فاقتربتا من الاسطول الاسباني، والقتا عليه ما كانتا تحملانه من القنابل، ثم رجعتا إلى المرسى سالمتين، ثم خرجتا مرة ثانية، ومعهما سفن اخرى، وهاجمت هذه القوة الاسطول الاسباني، ثم رجعت سالمة، وخسر الجزائريون ٨ ـ ١٠ شهداء بينهم وزير الحرب.

وفي يوم ٢ آب ـ أغسطس ـ فتحت حصون الجزائر نيرانها ولم ترد عليها مدفعية الاسطول الاسباني الا بعد ساعتين تقريباً. ثم خرجت قوة بحرية جزائرية لمهاجمة الاسطول المعادي، واشتبكت معه بنيران المدفعية، فيما كانت مدفعية الحصون تتابع قذف الاسطول الاسباني باستمرار حتى الساعة (١٦,٠٠) مساء، فتوقفت المدفعية الاسبانية،

واوقفت المدفعية الجزائرية عملية القصف بعد ذلك بربع ساعة. وأثناء ذلك أصابت قنابل الاسبانيين بعض منازل المدينة، كما نزلت قذيفة بدار الحكومة (قصر الجنينة).

وتجدد القتال يوم ٤ آب ـ أغسطس ـ وخرجت السفن الجزائرية، وهاجمت الاسطول الاسباني وأصلته ناراً حامية، وكان ضرب بطاريات الارض ـ الجزائرية ـ قوياً جداً، كما كان قصف الاسطول الاسباني أشد قوة من كل الاشتباكات السابقة. ظهرت ريح قوية شرقية ـ يوم ٥ آب ـ أغسطس ـ وانتشرت غيوم الضباب الكثيف، فاعاقت حدوث اشتباكات قوية. وفي المساء أمكن تبادل القذف المدفعي. ودعم الجزائريون قواتهم بوضع مدافع اضافية.

وتقدمت السفن الاسبانية يوم ٦ آب ـ أغسطس ـ فاصطدمت بسفن الاسطول الجزائري، وتبادلت القوتان اعمال القذف. واشتركت مدفعية الحصون بدعم الاسطول الجزائري. ورجعت السفن الاسبانية في الساعة(١٨,٠٠) إلى مركز التجمع بعد أن أصابت قنابلها بعض منازل المدينة فدمرتها. وأصيبت سفينة جزائرية فاحترقت، غير أن بقية السفن انقذتها. وقتل في معركة هذا اليوم وجرح (٣٠) رجلاً. كما غرقت سفينة استطلاع جزائرية (جوالة) وغرق قائدها.

وفي يوم ٧ آب ـ أغسطس ـ اتخذت السفن الاسبانية مواقعها للقتال وتقدمتها سفينتان لرمي المدفعية، فتصدى لها الاسطول الجزائري، واشتبك معها بالنيران لمدة ساعتين، ثم انسحبت السفينتان الاسبانيتان. واستؤنف القتال في المساء. واصيبت بارجة اسبانية كانت تحتل أقصى موقع في تشكيل المعركة، فانفجرت وصدر

عنها دويٍ هائل، وعندما تقشعت سحب الدخان، تبين أنه لم يعد هناك أثر لهذه البارجة، وتوقفت المعركة، وعادت سفن الطرفين المتصارعين إلى مراكزها.

ثم القى الاسبانيون عدداً من القنابل على المرسى (الميناء) يوم ٨ آب - أغسطس - غير أن هذه الرمايات لم تكن محكمة، وسقطت بعيداً في البحر.

استعد الاسطول الاسباني للانسحاب يوم ٩ آب - أغسطس - واتجه نحو الشمال. ومرت سفينة الاميرال الاسباني اثناء انسحابها على مسافة قريبة جداً من الحصون الجزائرية، فحيتها الحصون الجزائرية بطلقتي مدفع (بالبارود وبدون قذائف).

انتهت هذه المعركة بفشل ٩ هجمات اسبانية، واطلق الجزائريون خلالها (١٥) ألف قذيفة من قذائف مدفعيتهم. وخسر المسلمون في هذه الهجمات مائة شهيد بالمرسى ولم يعلن الاسبانيون عدد قتلاهم، وخاصة ضحايا السفينة البارجة التي غرقت.

أما بالمدينة، فقد كان عدد القتلى نحو الثلاثمائة. وتم أيضاً تدمير ثلاثمائة منزل تقريباً. وبلغ عدد القنابل التي قذفها الاسبانيون على الاسطول الجزائري وعلى المدينة اكثر من (٧٥٠٠) قنبلة وقذيفة من عيارات مختلفة.

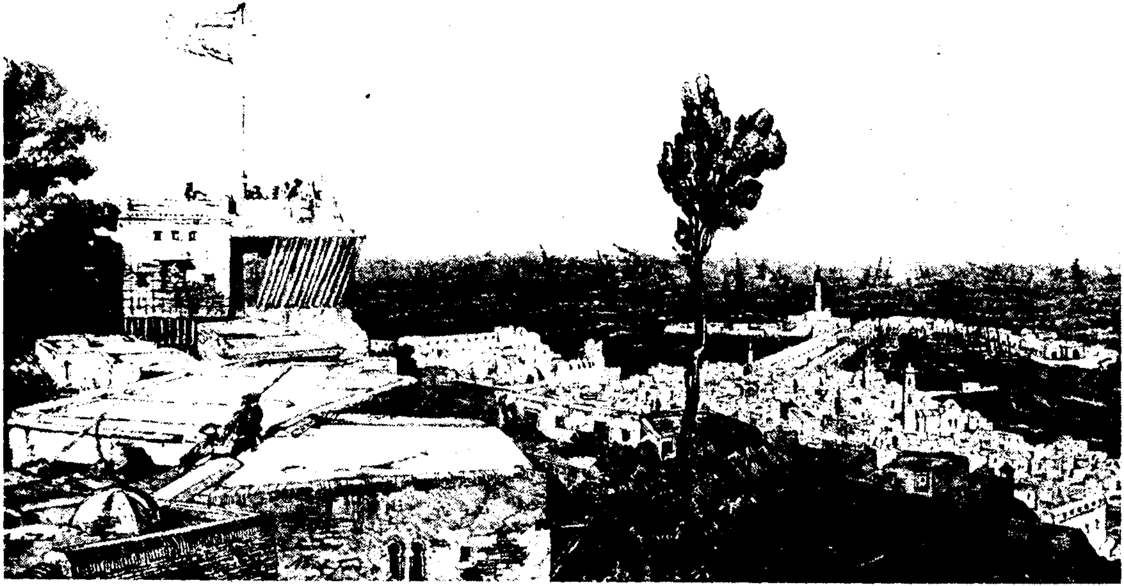

الوالي الجزائري يشرف على معركة بحرية أمام مدينة الجزائر

٧ - الجزائر تدمر الحملة

الاسبانية الكبرى (١٧٧٥ م)

لم يكن استيلاء اسبانيا على وهران والمرسى الكبير غير مرحلة في احلام الملوك الاسبانيين للتوسع عبر المغرب العربي - الاسلامي . وكان هذا الاحتلال لوهران محدود القيمة، محدود الاهمية، ما لم يصل إلى الجزائر ذاتها، ولكن الظروف لم تكن مناسبة لتطوير هذا الاحتلال، لا سيما بعد تلك المقاومة الضارية التي قدمتها الجزائر لحصار الحامية الاسبانية في وهران والمرسى الكبير والتضييق عليها، حتى اذا ما جاء (شارل الثالث) [١] حاول السير على أثر اسلافه، فجهز حملة قوية تكونت من: (٢٢٦٠٠) مقاتل و(مائة مدفع ضخم من مدفعية الحصار) و(٤٤) سفينة حربية و(٣٤٤) سفينة نقل، بالاضافة إلى وسائط القتال الاخرى والذخائر والمواد التموينية، وعندما انتهت الاستعدادات تولى (الكونت أوريلي) قيادة الحملة وتوجه بها إلى الجزائر في شهر حزيران -يونيو- ١٧٧٥م . ووصلت سفن الحملة إلى مياه الجزائر مع بداية شهر تموز -يوليو-.

---

(١) شارل الثالث: (CHARLES - III) ابن فيليب الخامس، ولد سنة ١٧١٦، وأصبح ملكاً على اسبانيا سنة ١٧٥٩، ووضع النظام المشهور باسمه في سنة ١٧٧١ م وهاجم الجزائر سنة ١٧٧٥ وتوفي سنة ١٧٨٨ م . وتولى الحكم بعده ابنه باسم شارل الرابع .

وقرر (الكونت اوريلي) قائد الحملة انزال قواته عند فجر يوم ٣ تموز (يوليو) فوق أرض الساحل الواقع إلى الجنوب من (وادي الحراش). وطلب إلى قائد الاسطول (الاميرال مازاريدو) دعم الانزال بمدفعية الاسطول للرمي على منطقة الانزال، كما أمر بأن يتم انزال ١٢ قطعة مدفعية عيار (٤) و١٢ قطعة مدفعية عيار (٨) وثمانية مدافع عيار (١٢) وذلك مع انزال الافواج الاولى من قوات الغزو. وتقرر اقتراب سفن الانزال إلى اقرب نقطة من الساحل. وحددت مهمة كل سفينة حربية ومجموعة سفن النقل المرافقة لها. غير أنه تبين صعوبة الانزال يوم ٣ تموز (يوليو) فتقرر تأجيل تنفيذ العملية إلى اليوم التالي. وهبت رياح قوية جداً صبيحة يوم ٣ تموز (يوليو) فأصبح من المحال تنفيذ عملية الانزال بسبب هياج البحر. وفي مساء هذا اليوم ذاته، جمع القائد العام للحملة هيئة اركانه فتقرر انزال القوات عند خليج (مالا موجير) الواقع غرب رأس كاكسين (غربي الجزائر بمسافة عشرين كيلو متراً تقريباً). وحددت السفن المخصصة لهذا الانزال وسفن الدعم التابعة لها. ونفذت البحرية ما هو مطلوب منها وأصدر قائد الاسطول (الاميرال مازاريدو) أوامره باقلاع السفن، وفق التنظيم التالي:

... تتحرك السفن تحت قيادة القائد العام، وتكون وراءه السفن ناقلة الجيش، تليها السفن ناقلة الفرسان وآلات الحرب والعتاد والمؤن. وتتقدم السفن إلى اقرب نقطة من الساحل حتى تتمكن قوات الغزو من النزول بسرعة والسير فوراً نحو المرتفع الذي تعلوه قلعة السلطان (برج بوليلة) المشرفة على الجزائر، وتحتل البطاريات الجزائرية الموجودة هناك..

غير أنه ما ان هبط ظلام الليل، وأزفت الساعة المحددة لاعطاء

الاوامر بالتحرك، حتى كانت الريح قد اخذت في الاتجاه نحو الشرق، واهتاج البحر واضطرب، فحال ذلك دون تنفيذ عملية الانزال. وعقد قائد الحملة من جديد مؤتمراً لهيئة اركانه، فتقرر تعديل مخطط الانزال، والعودة لانزال القوات عند المكان الذي تم اختياره من قبل (إلى الجنوب من وادي الحراش) على أن تنفذ العملية يوم ٧ تموز - يوليو - . وانصرف قائد الاسطول لوضع المخطط النهائي بنقل الجند، وتعيين السفن المكلفة بالتنفيذ، بحيث يتم انزال (٧٧٠٠) رجل في موجة الانزال الاولى ثم تليها الموجة التالية المكونة من (٧٠٠) رجل فقط. وعندما أزف الموعد المحدد للانزال (من صباح يوم ٧ تموز -يوليو) هدأ البحر قليلاً. فقام قائد الاسطول بتوزيع قائمة السفن المخصصة لكل فرقة من الفرق السبعة، وتم تعيين ضابط بحري لكل مجموعة من سفن النقل واجبه تنسيق التعاون مع قائد الفرقة التي سيتم نقلها، والتي سيرافقها حتى منطقة انزالها. ثم ذهب القائد العام (الكونت أوريلي) برفقة قائد الاسطول للاشراف على العملية. وأمكن لهما تحديد مرابض بطاريات المدفعية الجزائرية التي تم نشرها على الساحل المخصص لانزال القوات الاسبانية. فقرر القائد العام وضع سفينتين حربيتين في مواجهة كل بطارية من بطاريتي المدفعية الجزائر.

كانت الجزائر تتابع الموقف منذ أن بدأت اسبانيا بالاعداد لحملتها، وعرفت أنها هي المستهدفة من هذه الحملة. فاستعدت لتلقي صدمة الهجوم. تحت قيادة والي الجزائر (الداي محمد عثمان باشا). وهكذا فعندما وقفت قطع الاسطول الاسباني في مواجهة الجزائر، لم يكن الأمر مباغتاً. ووقف المقاتلون المسلمون وهم يتابعون حركة سفن الاسطول وهي تصطف على اشكال وخطوط مختلفة، في خيلاء وتحد، ثم عندما وجهت هذه السفن مقدماتها في مواجهة وادي

الحراش، وعندما وصلت إلى مدى رمي المدفعية الجزائرية بدأت بانزال القوات. وعلى الرغم من معرفة المجاهدين مسبقاً بأمر هذه الحملة، فقد كان حجم قوات الغزو، وتفوقها، مثيراً للقلق، وهنا انطلق قادة المجاهدين، ومشايخهم، وهم يحضون على القتال، ويرددون على اسماع المجاهدين قوله تعالى: «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» فاطمأنت النفوس لذكر الله وانزل الله السكينة على قلوب المؤمنين.

عمل والي الجزائر (محمد عثمان باشا) على استنفار كل قادر على حمل السلاح وحشده في المعركة، كما كلف الاولاد - الصبيان - ممن يتجاوزون عمر السابعة بالعمل مع المجاهدين لمساعدتهم في اعمال الدفاع والتحصين، وتم اختيار المواقع المناسبة (لمرابض المدفعية). وقسمت القوة على النحو التالي:

١ - قوة مقاتلة بقيادة (حسن الخزنجي) - وزير المالية ومركزه (عين الربط) - وهو الحي الذي يدعى اليوم باسم (ساحة المناورات) بين مدينة الجزائر وحي بلكور.

٢ - قوة مقاتلة بقيادة (القائد علي) المعروف (بآغة العرب) ومركزه عند (وادي خنيس) وهو في آخر حي العناصر حالياً (حيث حديقة التجارب).

٣ - قوة مقاتلة بقيادة (خوجة الخيل - وزير الحربية) ومركزه في (باب الوادي).

٤ - قوة باي الشرق (صالح) التي عسكرت على وادي الحراش.

٥ - قوة باي (تيطري) مصطفى باي التي اقامت معسكرها على جهة (تامانتغوس) ومعها بعض القبائل وفرسان ناحية سباو.

٦ـ قوة خليفة الغرب (محمد عثمان) التي ضمت (٤) آلاف فارس من فرسان العرب الدواير، وقد اقامت معسكرها على مقربة من معسكر (الخزنجي).

٧ـ قوة باي الغرب (ابراهيم باي) والتي اقامت معسكرها على مقربة من مدينة (مستغانم) وواجبها العمل كقوة احتياطية.

ومضى كل قائد لتنظيم قواته في المنطقة المحددة له، واقيمت التحصينات، وحفرت الخنادق، واتصل العمل في الليل والنهار، فيما كانت المدفعية تشتبك مع سفن الاسطول، وما ان سمع رجال القبائل في الجبال القريبة من الجزائر، باقتراب قوات الغزو الاسباني حتى اسرعوا من كل ناحية للاشتراك في شرف الجهاد. وتبعتهم جموع المجاهدين من كل انحاء الجزائر، وبصورة خاصة من ناحية (قسنطينة) حتى ضاقت بهم الأرض على رحبها وسعتها.

اختار قائد الحملة الاسباني خمس سفن حربية ـ من اكبر سفنه واقواها تسليحاً ـ وكانت كل سفينة منها تحمل ثمانين مدفعاً، وكلفها بالتمهيد لعملية الانزال بقذف قنابلها من عيار ٢٤ و٣٦ رطلاً. ووقفت سفينتان منها في مواجهة (برج الشرق ـ أو برج الكيفان). واثنتان منها في مواجهة (محلة الآغا) ووقفت الخامسة في مواجهة (محلة الخزنجي). واخذت هذه السفن في قصف مرابض بطاريات المدفعية الجزائرية، اعتباراً من صباح يوم ٧ تموز ـ يوليو ـ وردت عليها المدفعية الجزائرية برمايات كثيفة ومركزة استمرت طوال الليل. ثم انسحبت السفن إلى عرض البحر مبتعدة عن مدى عمل المدفعية الجزائرية، ومفسحة المجال أمام سفن النقل التي استمرت في نقل القوات وانزالها طوال اليوم والليلة التالية. وتمكنت المدفعية الجزائرية من انزال بعض الخسائر في سفن انزال العدو. واثناء ذلك نقلت مدفعية الاسطول

الاسباني رماياتها الكثيفة ضد حصون المسلمين ومواقعهم في (الحراش وخنيس). ثم اخذت سفن الانزال بالتوجه إلى مصب وادي خنيس وقامت بانزال قسم من قواتها عنده. وبادرت قوات الغزو هذه بالانقضاض على مواقع المجاهدين المسلمين غير أن هؤلاء استطاعوا تدمير الموجات المتتالية للقوات الاسبانية، ووصلت مجموعة مقاتلة اسبانية إلى البساتين حيث كان يتمركز (مخزن البارود) إلى جانب بطارية مدفعية خنيس، وهنا دارت معركة ضارية امكن بواسطتها ايقاف التقدم الاسباني.

وأمضى المقاتلون من الطرفين ليلهم في الاستعداد للقتال، وعندما ارتفع الأذان لفجر يوم ٨ تموز - يوليو - وذهب المسلمون للصلاة، دوت المدفعية الاسبانية معلنة بدء المعركة، واحتل المجاهدون مواقعهم، ووقفوا خلف تحصيناتهم، ولم تلبث نيران المدفعية الاسبانية أن غطت مواجهة الجبهة بكاملها (من مربض باي قسنطينة ما بين وادي الجميز والحرج، وحتى محلة الخزنجي ما بين وادي الحراش وعين الربط). واستمر القصف الكثيف حتى طلعت الشمس وعندها شاهد المجاهدون أن هناك اكثر من الف وخمسمائة سفينة وناقلة وفلك وقارب قد اتجهت صوب وادي الحراش وعين الربط. واسرع قادة قوات المسلمين في قيادة قواتهم نحو المكان الذي حدده الاسبانيون للانزال، واخذوا في الاستعداد للمعركة.

شحنت القوات الاسبانية فوق ناقلات الجند كل ما تتطلبه عمليات التمركز والتحصين، وحملت معها كميات مذهلة من الاكياس الفارغة (لتملأ بالتراب والرمل وتوضع بعضها فوق بعض) كما دفعت مع المقدمة وحدات من المهندسين للإشراف على اقامة التحصينات وتنظيم الأرض. وكانت السفن تتقدم بصورة بطيئة نحو

الساحل، بينما كانت السفن الحربية تلقي بمقذوفات مدافعها على معسكرات المسلمين في الشرق، وعلى معسكر الخزنجي بصورة خاصة، وقابلت بطاريات مدفعية المسلمين اعمال القصف بقصف مضاد اشتركت فيه كل المدفعية باستثناء مدفعية المرسى ومدينة الجزائر، نظراً لأن السفن الاسبانية كانت بعيدة عنها وخارج مجال عملها. ووصلت السفن الاسبانية، وألقت بمراسيها في البحر، وتقدمت القوارب تحمل الجنود حتى وصلت على مقربة من الساحل، فوضعت ألواحاً من الخشب تصل بينها وبين البر، اجتازها الجند، واستقر فوق اليابسة. وكان كل جندي من جنودهم يحمل بندقية ورمحاً برأسين من الحديد، لكي يغرسوها في الأرض حول معسكرهم، فتعيق وصول الفرسان المسلمين اليهم. وكذلك أنزلوا معهم كميات ضخمة من الاخشاب التي ربط بعضها إلى بعض من أجل اقامة الحواجز. وهكذا فما ان وطئت اقدام الاسبانيين الارض حتى اقاموا معسكرا منيعاً، دعموه بحفر خندق عميق، ثم اوثقوا حوله الحبال، ووضعوا وراءها اكياس الرمل. وغرسوا أعمدة من الخشب بين هذه الاكياس ثم ان كل فرقة من فرق الجند شبكت حول منطقتها، وعلى شكل دائري، تلك الرماح ذات الرأسين الحديديين التي أنزلوها معهم،، فكانوا يستطيعون التنقل والسير وهم محتمون بتلك الدائرة التي تمنع عنهم الهجمات المباغتة لقوات المسلمين. وأمكن انشاء ذلك المركز الذي كان أشبه شيء بمدينة صغيرة خلال فترة قصيرة من الوقت، وكان يتخلل المعسكر ١٤ طريقاً يتصل بعضها ببعض. وحفروا في الوسط بئراً يستسقون من مائه العذب.

قامت قوات المجاهدين بهجوم قوي على معسكر الاسبانيين، فقتلوا كل الجنود الذين كانوا خارج المعسكر، غير انهم لم يتمكنوا من

اقتحامه، فانسحبوا ومعهم قتلاهم وجرحاهم. ثم استؤنفت المعركة بقوة وشدة. وكانت القنابل والرصاص تسقط بكثافة عالية، وتحصن المسلمون وراء بطارياتهم وفوق كثبان الرمل المحيطة بالمعسكر الصليبي. وكانت قذائف المسلمين ورصاص بنادقهم يصيب جند الاعداء وهم في داخل معسكرهم، فكانوا لا يستطيعون الخروج منه أبداً. وكلما سقط منهم رجل أخذوه فوراً الى القوارب التي تنقله للاسطول، فربطوا رجله الى قذيفة وألقو به الى البحر حتى لا تطفو جثته فوق الماء، وكانوا أحياناً يجمعون الخمسة والستة من الجثث ويربطونها إلى قذائف ثم يلقون بها الى البحر. وهكذا يفعلون بموتاهم داخل معسكرهم. لكن هذه الاعمال لم تكن حاسمة. ولم يجد المسلمون حيلة لاقتحام مركز العدو الاسباني نظراً للعدد الضخم من القنابل الذي كان يتساقط حول المعسكر لحمايته. واقترح باي قسنطينة القيام بهجوم شامل، على أن تتقدمه الجمال كستارة وقائية، وجمعت الابل من كل ناحية بسرعة ودفعت نحو معسكر الاسبانيين تبعها عن قرب المجاهدون وعلى رأسهم القادة والولاة ودارت معركة طاحنة تحول لها النهار إلى ليل لكثرة دخان البارود والغبار المتصاعد، ولم تسفر المعركة عن نصر حاسم، فتراجع المسلمون من جديد، وأخذوا في الاستعداد للقيام بهجوم ليلي.

وكان المعسكر الصليبي محدداً جداً، وضيقاً، وفيه تكدست جماعات الجند وكميات السلاح والذخائر، واقام فيه الاسبانيون ستين نقطة محصنة، غير ان التحرك بين هذه النقاط كان صعباً جداً بسبب ضيق المعسكر، ولهذا كان من المحال القيام بأي مناورة للقوات. وكانت ميمنة هذا المعسكر على وشك الانهيار تحت هجوم المسلمين لولا تدخل السفن الاسبانية، وتوجيه نيران غزيرة عطلت تقدم المجاهدين

وأوقفته. وكذلك الأمر بالنسبة للجناح الشرقي الذي تعرض لهجوم فرسان المسلمين وكاد يسقط بدوره لولا دعم القوات البحرية. ولهذا اعادت القيادة الاسبانية تنظيم مواقعها على عمق جبهة لا يتجاوز الخمسمائة متر. واستمر الاسبانيون في المقاومة ضمن هذه المنطقة الخطرة. وكانوا يتلقون ضربات محكمة لا يعرفون مصدرها فيتساقط منهم الجنود صرعى. وكانت كل رمية بندقية يقذفها المسلمون تصيب مقتلاً من جند الاسبانيين بسبب ضيق المكان واكتظاظه بالمقاتلين. وزاد الامر سوءاً -بالنسبة للاسبانيين- نتيجة الرمايات المحكمة التي كانت تطلقها بطارية (وادي خنيس) وهي البطارية التي لم تتمكن السفينة (القديس شارل) من تدميرها. فأحدثت رمايات بطارية المسلمين خسائر فادحة في القوات الاسبانية. وزادت خسائر الاسبانيين. فامتلأت القوارب بالجرحى الذين كان يتم نقلهم الى مركز الاسطول، حيث تجرى لهم الاسعافات الاولية في السفن الحربية، لينقلوا بعدها إلى احد السفن الثمانية التي حولت الى (مستشفيات بحرية) وأدرك القائد العام للحملة بعد مضي ساعات فقط أنه من المحال أمام هذه المقاومة الضارية احراز أي نجاح أو أي تقدم. فقرر الانسحاب بقواته فورا، وأصدر أوامره الى سفن الأسطول الاسباني بالتجمع تحت حماية مدفعية الاسطول. وأخذت بعض الفرق في الانسحاب فورا ومعها بعض قطع المدفعية.

بدأ المجاهدون المسلمون هجومهم الليلي -بعد أداء صلاة المغرب مباشرة- من ليل ٨-٩ تموز -يوليو- وهطلت امطار غزيرة زادت من صعوبة القتال، وشعر المجاهدون بمحاولات العدو للانسحاب فقطعوا عليها طريق انسحابها مرات عديدة، وانزلوا فيها خسائر فادحة، فيما كانت المدفعية تقصف مواقع الاسبانيين دون هوادة،

وعندما ارتفعت الاصوات معلنة أذان الفجر توقفت مدفعية الاسطول الاسباني عن الرمي. واندفعت قوة من المسلمين إلى داخل معسكر الصليبيين فوجدته فارغاً، ووجدت فيه الكثير من الاسلحة والذخائر والمدفعية مما يدل على أن القوات المعادية قد انسحبت على عجل فلم تتوافر لها فرصة من الوقت لحمل أسلحتها وامتعتها وعتادها. واستولت قوات المسلمين على ما تركه العدو من غنائم فوق أرض المعركة من الوسائط القتالية والبنادق و١٦ مدفعاً من النحاس وقطعتين من راميات القذائف. وجمع المسلمون المقذوفات التي ارسلتها المدفعية الاسبانية فبلغت (٤٠) ألف قذيفة. واعترفت المصادر الاسبانية بمصرع (١٩١) ضابطاً و(٢٠٨٨) جندياً في اليوم الأول من المعركة. في حين تذكر مصادر اخرى أن عدد القتلى الاسبانيين يرتفع الى (٤) آلاف قتيل. أما المصادر العربية فتذكر أن عدد قتلى الاعداء يبلغ (١٠) آلاف قتيل مقابل (مائتا شهيد) من قوات المسلمين.

أمضت سفن الاسطول الاسباني أيام ٩و١٠و١١ تموز- يوليو- ١٧٧٥ وهي في عرض البحر، تنظم المستشفيات، ثم رفعت العلم الاسود علامة الحداد، ومضت خائبة في طريق عودتها إلى قواعدها. وقرر القائد العام للحملة الاسبانية، قصف مدينة الجزائر بالقنابل يوم ١٣ تموز - يوليو - انتقاماً لما نزل بقواته من الخسائر ،غير أن هيئة اركانه اقنعته بعقم محاولته وعدم جدواها، علاوة على ما تحمله من خطر التعرض لمدفعية الساحل القوية.

يذكر هنا أنه ما كادت المعركة تصل نهايتها حتى بلغت اعداد المقاتلين المسلمين الذين تدفقوا من كل انحاء البلاد اكثر من (١٥٠) ألفاً، بينهم (٦) آلاف من الاتراك، و(٣) آلاف بحار في الميناء (المرسى).

٨ - معركة بحرية جديدة
امام الجزائر (١٧٨٤)

ترك تدمير الحملة الاسبانية على الجزائر أثراً عميقاً على الطرفين المتصارعين، فمضت القوات الاسبانية في الإعداد لعملية جديدة على أمل أن تعوض بها عن هزائمها السابقة. وفي الوقت ذاته، أفادت الادارة الجزائرية من المعركة، فعقد مؤتمر ضم اعضاء القيادات البرية والبحرية بهدف استخلاص الدروس من العمليات السابقة. وتقرر اقامة مجموعة من القلاع والتحصينات الجديدة، وبناء سفن للمدفعية العائمة. ولم تمض اكثر من فترة وجيزة حتى أمكن اعادة التنظيم الدفاعي في البر واعادة تنظيم القدرة البحرية وتدعيمها. واتخذت كل الترتيبات لابقاء السفن الاسبانية على مسافة بعيدة جداً عن المدينة. اذا ما أقدمت على مغامرة جديدة.

مضت الادارة الاسبانية بدورها لاعادة تنظيم قواتها. واستطاع قائد البحرية (الاميرال انطونيو دي بارلكو) حشد قدرة بحرية تضم (١٣٠) سفينة حربية في سنة (١٧٨٤م) واعلن عن قيادة حملة صليبية جديدة، وأسرع البابا فنشر في يوم ١٨ حزيران (يونيو) من السنة ذاتها بلاغاً أعلن فيه أنه (وهب الغفران والبركة السماوية لكل مسيحي يشارك في هذه الحملة). وجاءت من البرتغال قوة بحرية لدعم الاسطول الصليبي، الذي غادر المياه الاسبانية ليصل إلى المياه

الاقليمية للجزائر يوم ٩ تموز-يوليو- وأخذ في الانتظام بتشكيل القتال. غير أن سفن الاسطول الجزائري لم تمهله طويلاً، فخرجت العوامات حاملة المدافع الكبيرة. وارغمته على البقاء بعيداً عن المدينة، وبحيث لا تصل قنابل مدفعيته إلى الجزائر.

بدأ الاشتباك الاول في يوم ١٢ تموز-يوليو حيث تقدمت سبعون سفينة اسبانية (من نوع الشالوب والتي هي مجردة من الخيام والصواري) فبرزت لها (٦٣) سفينة جزائرية من النوع ذاته، وكان منها (١٣) سفينة تحمل قاذفات القذائف و(٤٣) تحمل المدافع الثقيلة. وتقدمت السفن بعضها من بعض، واستعدت للقتال، وكانت السفن الاسبانية مدعمة بالحراقات وبالسفن الضخمة. واخذ الاسطولان المتعاديان يقومان بحركات التفاف حول خط متواز، وضمن حدود مجال عمل المدفعية. ولم يرغب الجزائريون البدء بالقتال. غير أن طلقة من مدفعية الحصون الجزائرية انطلقت في الساعة الثامنة لتأمر الجزائريين ببدء القتال. وأخذ الجزائريون على الفور برمي قنابلهم من طول الخط على السفن الاسبانية التي ردت بالمثل. واحاط بالمتحاربين دخان كثيف، وكانت القذائف الاسبانية غير محكمة، فكانت تتخطى خط السفن الجزائرية لتسقط على مسافة بعيدة في عرض البحر. وأصيبت ثلاث سفن اسبانية، فاضطرت الى الانسحاب من تشكيل القتال. وعندما ارتفعت سفن الدخان تبين أن الاضطراب قد هيمن على الاسطول الاسباني فيما كان الاسطول الجزائري محافظاً على مواقعه وعلى تنظيمه القتالي. وانسحبت السفن الاسبانية في الساعة (١١,٠٠) الى مركز تجمع الاسطول تحت حماية السفن الكبيرة. وبقي الاسطول الجزائري حتى الساعة (١٢,٠٠) قبل أن يعود إلى مركز تجمعه.

تجدد الاشتباك بعد ثلاثة ايام عندما اطلق القائد الاسباني طلقتين في الساعة (٣,٠٠) من فجر يوم ١٥ تموز - يوليو - فأخذت السفن تشكيل القتال. وفي الساعة (٦,٠٠) أطلقت السفن الجزائرية نيرانها، غير أن تشكيلها للقتال لم يكن منتظمًا. في حين كان تشكيل الاسطول الاسباني منتظمًا على نصف دائرة تحميه من الاجناب السفن الخفيفة. وبدأت المعركة الضارية التي استمرت حتى الساعة (٩,١٥) حيث انسحبت السفن الاسبانية (الشالوب) وبقيت الحراقات مستمرة في القذف العنيف. ثم قامت بالانسحاب، وبقي الاسطول الجزائري حتى الساعه (١٠,٠٠) وعاد بعدها إلى قواعده. وانفجر مدفع في احدى السفن فأغرقها ومات فيها ١٢ رجلاً، وجرح (١٤).

عادت سفن الاسطول الاسباني للقتال في الساعة (٨,٠٠) من يوم ١٧ تموز - يوليو - وقد انتظمت في تشكيل القتال على ثلاث مجموعات واجب الاولى الدفاع عن الاسطول وحمايته وخصصت فرقة لمجابهة الاسطول الجزائري، أما الفرقة او المجموعة الثالثة فواجبها قصف مدينة الجزائر. وبدأت هذه المجموعات - الفرق - بالقصف من الساعة (٨,٣٠) حتى الساعة (١٠,٣٠). غير أن عملية القصف لم تسفر عن نتائج كبيرة (مقتل جزائريين وجرح خمسة) نظراً لكون الرمايات غير دقيقة وغير محكمة. وفي هذا اليوم ظهر هلال شهر رمضان وبدأ المسلمون صومهم.

تقدمت السفن الاسبانية بعد ذلك في الساعة (٧,٠٠) من يوم ١٨ تموز - يوليو - في تشكيل القتال، وتصدت لها السفن الجزائريه، وبادرتها باطلاق النار، وبدأت الحصون الجزائرية في الوقت ذاته بارسال نيرانها ضد السفن الاسبانية التي فتحت نيران مدفعيتها في الساعة (٨,٠٠) وكان دخان مدفعية الاسبانيين يحجبهم عن انظار

الجزائريين، فتقدمت مجموعة من سفنهم نحو المدينة، وأصابت بمقذوفاتها جسر المرسى، فتصدت لها بعض السفن الجزائرية وارغمتها على الانسحاب واوقفت السفن الاسبانية قذف قنابلها في الساعة (٣٠, ٩) بدون أن تلحق بالجزائريين اضراراً تذكر. غير ان ستة مدافع جزائرية انفجرت بين ايدي سدنتها فاستشهد (٥) رجال واصيب (٨) رجال بجراح.

وتقدمت السفن الاسبانية من جديد في الساعة (٤٥, ٦) من يوم ١٩ تموز - يوليو - تحت حراسة بعض القطع الصغيرة وحراقتين. وجابهتها السفن الجزائرية في الساعة (٨,٠٠) واستمر الاشتباك المدفعي حتى الساعة (٩,٠٠) ثم انسحبت السفن الاسبانية إلى مركز تجمع اسطولها. وتقدمت بعد ذلك خمسة أو ست سفن جزائرية (شالوبات) نحو مركز الاسطول الاسباني، وهاجمته، فقاومتها سفينة الاميرال والسفن التي حولها، والقت عليها القنابل لكنها لم تحدث لها أدنى خسارة. ومات في هذه الوقعة رجلان وجرح خمسة رجال من الجزائريين.

وتم انسحاب الاسطول الاسباني نهائياً من المعركة يوم ٢٢ تموز - يوليو - مبتعداً عن مواقع القتال. وفي اليوم التالي كان هذا الاسطول يتجه نحو قواعده في الاندلس.

استشهد من جراء القصف نحو ثلاثين من المدنيين، اما خسائر الجزائريين العسكرية فكان معظمها بسبب انفجار المدافع التي يستعملونها، حيث أنهم لشدة حماستهم لمقاومة العدو لم يكونوا يتركون للمدفع بعد استعماله فترة كافية حتى تبرد حرارته، كما كانوا يبالغون في حشوه بالبارود لارسال المقذوفات لمسافة ابعد، ولهذا كانت المدافع

تنفجر احياناً. واستشهد منهم نحو المائة رجل من جراء هذه الانفجارات. ولم يعلن الاسبانيون عن خسائرهم، غير انهم ذكروا بأن مدافعهم قذفت الجزائر باكثر من (١٥١٥٠) مقذوفاً من عيارات مختلفة، لم تصب المدينة بخسائر تذكر.

لم تحقق هذه الحملة اهدافها، وحاولت الادارة الاسبانية التستر على فشلها الجديد بأنها سترسل حملة اقوى من كل حملاتها السابقة، غير أنها باتت مقتنعة، ومعها العالم المسيحي، أنه من المحال النيل من صمود الجزائر، فجنحت الى السلام والمهادنة، وأرسل الى الجزائر مندوبين (هما الكونت داسبلي، والاميرال مازاريدو) بمهمة عقد هدنة، ودارت مفاوضات طويلة انتهت يوم ١٤ حزيران (يونيو) ١٧٨٥ باتفاقية تقضي بالزام اسبانيا بدفع جزية معينة من المال للجزائر مقابل عدم التعرض لسفنها، وعلى أن تعاملها الجزائر معاملة الدولة المسالمة. غير أن هذه الاتفاقية لم تنفـذ بسبب تصميم الاسبانين على الاحتفاظ بوهران والمرسى الكبير، وبسبب مماطلة الاسبانيين في تنفيذ بقية الشروط (على الرغم من موافقة الحكومة الاسبانية على الاتفاقية).

وكان لا بد من استئناف الصراع في البحر، وفي البر ايضاً، من اجل اخراج الاسبانيين من فوق تراب الجزائر.

٩- وأخيراً تحرير وهران
(١٧٩١ م)

لم يتوقف الصراع يوماً بين المجاهدين في الجزائر وبين اعدائهم المتمركزين في وهران والمرسى الكبير، وقد أخذ هذا الصراع اشكالاً مختلفة بداية من العزل والتطويق وحرمان الحامية الاسبانية من المواد التموينية وحتى الاستنزاف المستمر بطرائق الصراع المسلح. وتعرضت الحامية الاسبانية لنكبات كثيرة، ولمحن صعبة، وكان من ابرز ما جابهته الحامية الاسبانية تلك المعركة التي فرضها عليها حاكم (بايليك الغرب) محمد بن عثمان الكردي ـ المشهور بمحمد الاكحل لشدة سمرته ـ حيث أرغمها بعد فترة من الحصار على مغادرة المدينة (سنة ١٧٨٠) والاشتباك في معركة تصادمية خارج الاسوار انتهت بتدمير قسم كبير من الحامية. واستمرت بعد ذلك اعمال الحصار حتى ١٤ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٧٨٤م. حيث أمكن قطع الماء عن مدينة وهران. ثم تعرضت المدينة للهجوم يوم ٢٦ ايلول ـ سبتمبر ـ وامكن احتلال (البرج الاحمر) بعد تضحيات كبيرة ومعارك بطولية رائعة. واستمرت عمليات الصراع بين تصعيد وتهدئة، وبين توتر واسترخاء. حتى اذا ما كان ليل ٨ ـ ٩ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٧٩٠ حدثت هزة أرضية عنيفة في الساعة الواحدة صباحاً واستمرت ولفترة ثلاث دقائق، وانتهت بتدمير وهران تدميراً شبه كامل، وأصيبت الحصون

والقلاع والكنائس بأضرار بالغة. ومات تحت انقاضها ثلاثة آلاف نسمة من سكانها وجندها ـ ومن بينهم الحاكم العام الاسباني ـ بالنيابة ـ (دون نيكولا غارسيا) والتهمت النيران بعض السفن والاماكن الاخرى. وزاد من هول الكارثة انطلاق الاسبانيين للنهب والسلب، وهو ما اورده قائد الجيش الاسباني في تقريره للملك والذي جاء فيه: «ان بعض الرجال الذين لا أخلاق لهم، من أصحاب الحياة السافلة ـ من اسبانيي وهران ـ قد اغتنموا فرصة هذه الحادثة فأمعنوا في نهب الديار الغنية بصفة أفظع مما لو كان العدو قد قام بهذا النهب، ولم يبق للمستعمرين البائسين أي شيء مطلقاً. ورغم القسوة التي قابلنا بها هذه الاعمال اللصوصية، والعقاب الصارم الذي انزلناه بمرتكبيها، فإن الاشقياء لم يرتدعوا، واستمروا في اعمال النهب والسلب».

وحدث بعد ذلك مزيد من الهزات الارضية كان من اقواها ما حدث يوم ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ويوم ٦ كانون الثاني ـ يناير ١٧٩١. ولم يتوقف الصراع خلال ذلك، وتناقص عدد افراد الحامية الاسبانية حتى بلغ (١٥٢٦) رجلاً. تم توزيعهم على اكثر المواقع اهمية، في حين كان بقية الرجال من غير المقاتلين يعملون مع النسوة في اصلاح الحصون وترميم الثغرات التي تحدثها هجمات المجاهدين. وتلقت الحامية الاسبانية على اثر ذلك دعمًا مكوناً من (٧) آلاف مقاتل. واستمرت حروب الاستنزاف طوال فصلي الربيع والصيف من سنة ١٧٩١، تخللتها معارك طاحنة كان من ابرزها معارك ٣ـ٩ ايار ـ مايو ـ ومعركة يوم ٥ تموز يوليو...

عرفت اسبانيا أنه بات من المحال عليها الاحتفاظ بقاعدتي (وهران والمرسى الكبير) وتحولت هاتين القاعدتين إلى عبء يستنزف القدرة الاسبانية، فحاولت الحصول على شروط مناسبة للصلح،

واستمرت المفاوضات مع الجزائريين طويلاً إلى أن تم الاتفاق على عقد معاهدة يوم ٩ كانون الأول - ديسمبر - ١٧٩١ - تضمنت نصوصها ما يلي:

١- تنسحب اسبانيا من وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط.

٢- تدفع اسبانيا لخزينة الجزائر سنوياً مبلغ (١٢٠) ألف فرنك (ما يعادل ٢٤٠ ألف دينار جزائري).

٣- ترجع اسبانيا للجزائر كل المدافع والقنابل والذخائر التي غنمتها عند استرجاعها لوهران والمرسى الكبير.

٤- تحمل سفينة اسبانية، بصفة رسمية، الى استانبول مفتاحين ذهبيين رمز استسلام وهران والمرسى الكبير مع جرتين من ماء عيون (وهران) للخليفة السلطان العثماني، كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الخلافة.

وتقبل الجزائر مقابل ذلك:

١- ان يكون لاسبانيا مركز تجاري في بلدة (جامع الغزوات).

٢- وأن تبتاع من البلاد الجزائرية ثلاثة آلاف كيلة من القمح سنوياً.

٣- وأن تباشر صيد المرجان على الساحل الغربي الجزائري.

وبدأت القوات الاسبانية بالانسحاب يوم ١٧ كانون الاول

ـ ديسمبر ـ من تلك السنة، وتم الانسحاب نهائياً، بعد ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليم المدينة للباي (محمد بن مصطفى) الذي دخلها على رأس المجاهدين الجزائريين يوم ٢٤ شباط ـ فبراير ـ ١٧٩٢. وكان أول عمل قام به، بعد تحرير المدينة، هو بناء ه للمسجد الكبير ـ مسجد الباشا ـ وانصرف لبناء المدينة الخالدة، حتى تستأنف دورها التاريخي.

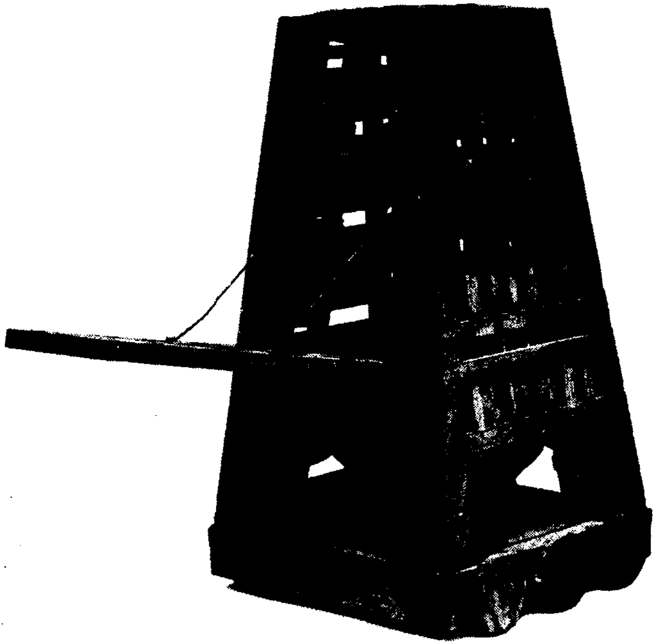

﴿الَّذينَ آمنوا وَهاجَروُا وجاهدوا فى سَبيل الله.والذين آووا ونَصروا أولَئكَ هم المؤمنون حَقاً لهمُ مَغْفَرةٌ وَرزْق كريمُ﴾.

(سورة الانفال ـ الآية ٧٤)

الفصْل الثّالث

١ـ الجزائر (المحروسة) على طريق البناء والقوة

٢ـ السياسة الاستراتيجية للجزائر

٣ـ المجاهدون والحروب الثوروية الاسلامية

١ـ الجزائر (المحروسة)

على طريق البناء والقوة

لقد فشلت كل المحاولات للنيل من الجزائر المجاهدة، وتحطمت كل اعمال العدوان على صخورها، وغرقت على سواحلها وفي مياهها كل الموجات الصليبية، ولم يكن تحرير وهران والمرسى الكبير اكثر من حلقة في صراع مرير لم يتوقف في يوم من الايام. وبقيت (الجزائر المحروسة) رائدة للجهاد في سبيل الله، تبني قوتها الذاتية وتقارع اعداءها، وكانت في ذلك كله خيرة معطاءة، فقوتها لها ولكل المسلمين والاعداء هم أعداء لها واعداء للمسلمين، هكذا كانت ابداً، ومضت الاعوام بعضها يمسك برقاب بعض والجزائر البعيدة عن مركز الخلافة الاسلامية تتبادل معها الدفاع وتنسق معها الجهد، وتحمل معها الاعباء القتالية في البر والبحر. وكانت الجزائر تمارس دورها بحرية تامة، وبمحض اختيارها وارادتها، إذ لم تكن علاقتها بالخلافة الاسلامية اكثر من علاقة اسمية، فكان الولاة يستقلون بادارة الجزائر الداخلية تمام الاستقلال، لا تربطهم بالدولة العليا سوى روابط الود والاعتراف بالحماية، وهي رابطة اشبه ما تكون بروابط الاحلاف. بل ان هذه العلاقة او الرابطة كثيراً ما تترك للجزائر الحرية لانتهاج سياسة خارجية مغايرة لتلك التي تلتزم بها

الخلافة، وعلى سبيل المثال، فقد سبقت الاشارة إلى الموقف الذي اتخذته الجزائر تجاه فرنسا التي كانت قد ارتبطت مع الخلافة العثمانية بمعاهدة (الامتيازات القنصلية) وجاءت الجزائر لترفض منح فرنسا هذه (الامتيازات) لانها وجدتها تتناقض مع مصلحتها. وفي مناسبات اخرى كانت الجزائر تفرض على دار الخلافة (استانبول) السياسة المناسبة للجزائر، وعلى سبيل المثال، فعندما حاولت اسبانيا التقرب من الخلافة لعقد معاهدة صداقة وسلام، تصدت الجزائر لهذه المحاولة واحبطتها، واعلنت بصراحة ووضوح انه: (لا سلام مع اسبانيا طالما بقيت قواتها في وهران والمرسى الكبير). وايدت دار الخلافة الموقف المبدئي للجزائر ودعمته وتم بذلك احباط الجهود الاسبانية.

كانت علاقة الجزائر بدار الخلافة اشبه ما تكون بعلاقة (الاحلاف) فكانت قوة الجزائر في قوة الخلافة، وكانت قوة الخلافة في قوة الجزائر. فلا غرابة بعد ذلك أن تكون العلاقة الحميمة قائمة على الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل. ولا غرابة في أن تترك الخلافة للجزائر النظام الذي تختاره، لادارة امورها. ولا غرابة ايضاً في قبول كل ما يصدر عن العاصمتين بروح الاخاء، حتى لو كان في بعض الممارسات خروجاً على ما هو معروف من علاقات بين الاحلاف المتشاركين في السراء والضراء.

لقد أسهبت المصادر الغربية في وصف تلك المرحلة التاريخية، لا سيما خلال الفترة الممتدة بين منتصف القرن السابع عشر وبداية القرن التاسع عشر، وأمعنت في الاساءة إلى قادة الجزائر وحكامها وشعبها، من خلال وصف الحكام (بالمزاجية وعدم الاستقرار وقبول الرشاوى بل حتى فرضها بمقادير معينة واتساع نطاق الفساد على كل

المستويات المسؤولة[1]). وتتجاهل تلك الكتابات روح العصر وطبيعته، وليس المجال هنا هو مجال الدفاع (عن الفساد) إذ أن هذه الظاهرة المرضية المرافقة دوماً لعهود الانحطاط تبقى ابداً وهي تحمل صفة (الفساد). غير أن تركيز الاحكام على السلبيات بدون إظهار للايجابيات المقابلة يشكل بدوره ظاهرة من ظواهر (الفساد). ولقد بات من الثابت أن الجزائر بلغت في طليعة القرن التاسع عشر مرتبة من القوة وضعتها في مركز أقوى دول البحر الأبيض المتوسط، وكانت مدينة الجزائر هي أحسن ميناء على ساحل البحر بقلاعها المتينة ومدافعها الضخمة وجنودها البواسل. وكان الاسطول الجزائري يزيد على (٧٢) قطعة حربية ممتازة كبيرة الحجم، و(١٤٠) سفينة متوسطة الحجم. وكانت كل هذه السفن الحربية مسلحة بما تحتاجه من المدافع والذخائر والجند، وبلغ عدد البحارة الجزائريين اكثر من (٣٠) ألف بحار اشتهروا بكفاءتهم القتالية العالية وتدريبهم الرائع. ولقد كانت تلك القدرة البحرية المتكاملة هي عدة الجزائر للانتشار في البحر الأبيض المتوسط، واتخاذ الملاحة صناعة وطنية، والقرصنة مهنة تجارية. ولكن وعلى الرغم مما كان يصيبه أهل الجزائر من المغانم الضخمة عبر غزواتهم البحرية، فانهم لم يكونوا يعتبرون أن ما يحصلون عليه من ربح طائل أو ثروة ورفاهية عظيمتين هما نوعاً من السرقة أو النهب، بل انهم كانوا يعدونها نوعاً من الحروب بين المراكب التجارية أينما وجدت.

---

(١) يمكن في هذا المجال مطالعة كتاب (العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة)١٧٧٦- ١٨١٦-لمؤلفه اسماعيل العربي-اصدار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر - ١٩٧٨ والذي يتضمن كشفاً دقيقاً عن العلاقات التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية.

ولم يكن الجزائريون يهاجمون أية سفينة يظفرون بها في عرض البحر، وانما كان على جميع الدول البحرية التي تريد أن تجتاز بواخرها البحر الأبيض المتوسط بأمان أن ترتبط مع داي الجزائر بمعاهدة صداقة، وأن ترسل قنصلاً لها يقيم في مدينة الجزائر، وتدفع لحاكمها ضريبة سنوية محددة مقابل تمتعها بالحرية البحرية. وهكذا كانت انكلترا وفرنسا والدانمرك وهولاندا وسردينيا والبرتغال والسويد والنروج وهانوفر واسبانيا والولايات المتحدة الاميريكية ترتبط بمعاهدات رسمية مع (داي الجزائر) وترسل اليه كل عام الهدايا الثمينة، وتطلب وده ومصادقته وبذلك كانت تضمن عدم تعرض بواخرها للضرر أو الأذى. وبذلك حصلت الجزائر على اعتراف جمع دول العالم بها كدولة مستقلة، تتسابق الدول لاكتساب صداقتها والتحالف معها، والاعتراف لها بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط. ومن ذلك تلك المعاهدة التي عقدت في ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٥م بين الولايات المتحدة الامريكية والجزائر، وتضمنت التصريح للسفن الامريكية بممارسة التجارة مع الجزائر مقابل دفع الرسوم المعتادة، واعفاء الادوات البحرية والحربية من هذه الرسوم على أن يصرح للسفن الجزائرية بمثل ذلك مقابل اجازات سفر لها من القنصل الامريكي في الجزائر. وليس اعلان الحرب من قبل الجزائر على امريكا في ١٢ نيسان - ابريل - ١٨٢٥ بسبب سوء استغلال امريكا للاتفاقية السابقة، ثم عقد صلح جديد، الا برهاناً على استقلالية الجزائر من جهة، وتأكيداً على ما بلغته من القوة في تلك الفترة - من جهة ثانية -[1] واذن، فالامر

(١) انظر في - قراءات ٢ - في آخر الكتاب - نصي الرسالتين المتبادلتين بين داي الجزائر والرئيس الامريكي في هذا المجال.

الذي لا يقبل الجدل هو أن حكومة الجزائر كانت تفرض ارادتها، وتعقد المعاهدات، وتعلن الحروب، وتدافع عن مصالح الجزائر دون الرجوع إلى تركيا أو غيرها من بلدان العالم.

وبلغت الجزائر مرحلة من التطور الاجتماعي والاقتصادي حسدتها عليه الدول الاوروبية الغربية، ووصلت الجزائر من القدرة الاقتصادية ما جعلها تقدم القروض والمساعدات الى فرنسا حتى بلغت ديون فرنسا للجزائر مبلغ (٧) ملايين فرنك إفرنسي (في سنة ١٧٩٨م) وأدى ذلك الى زيادة عدد السكان، حيث بلغ عدد سكان الجزائر عشرة ملايين، وعدد سكان العاصمة الجزائر (٥٠) ألف نسمة. وكانت الجزائر تعتمد في اقتصادها على الزراعة واستخراج الحديد والرصاص والملح من المناجم بالاضافة إلى التجارة والغزو (القرصنة). وعرفت الجزائر في العهد العثماني - على خلاف ما هو شائع - تطوراً ثقافياً وعلمياً مذهلاً بحيث كان كل جزائري تقريباً يعرف القراءة والكتابة، ويعود الفضل ذلك الى بقاء التعليم حراً من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرائقهم الخاصة ووسائلهم الذاتية تعليم القرآن الكريم والحديث والعلوم العربية الاسلامية، لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل الى معرفة جوهر الدين وفهم القرآن والسنة. وبقي تعليم القرآن الكريم اساس التعليم في الجزائر - كما هو في كل اقطار العالم الاسلامي - سواء كان هذا التعليم ابتدائياً أو ثانوياً أو عالياً. وكانت المدارس على اختلاف مستوياتها تمول وتغذى بالاوقاف التي يحبسها أهل الصلاح والخير من الرجال والنساء، وفي بعض الأحيان كان يحبسها موظفون كباراً في الدولة كعمل من اعمال الخير. فكان هناك أملاك خاصة وعقارات وأراضي يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف

المعلمين وتوفير المساكن للطلبة، فكانت الأوقاف هي الاساس في تدعيم التعليم وحماية الطلبة والمعلمين. وكانت الأوقاف ترعى التعليم بمراحله الثلاثة الابتدائي والثانوي والعالي.

فبالنسبة للتعليم الابتدائي كان كل طفل بين السادسة والعاشرة يذهب إلى المدرسة. والملاحظ أن هذا بخصوص الاطفال الذكور، أما الإناث فلا يذهبن الا نادراً إلى المدارس، ولكن اصحاب البيوتات الكبيرة، فكانوا يجلبون استاذاً معروفاً بصلاحه وعلمه لتعليم البنات. وكانت هناك خيمة تدعى (الشريعة) في كل قرية مهما صغرت، من أجل تعليم الاطفال، ويشرف عليها معلم (مؤدب) يختاره سكان القرية لهذه الغاية. أما في المدن والقرى الكبيرة، فقد كانت هناك مدارس تدعى المكتب (مسيد) وكانت غالباً ملحقة بالوقف، والى جانب ذلك كان كل جامع يضم مدرسة للتعليم ايضاً. أما أهل البادية، فكانوا يرسلون أطفالهم للتعليم في المدن حيث يقيمون عادة مع عائلات صديقة أو يصرف عليهم مجاناً من الأوقاف. أما المدن الكبرى، فكان عدد المدارس الابتدائية فيها كبيراً، بحيث ضمت (قسنطينة) في سنة ١٨١٠ اكثر من (٨٦) مدرسة ابتدائية، كان يختلف إليها حوالي (١٣٥٠) تلميذاً. وكان في تلمسان حوالي (٥٠) مدرسة ابتدائية في تلك الفترة ذاتها. ومدة التعليم الابتدائي حوالي أربع سنوات، يتعلم الطفل خلالها مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن وأركان الاسلام واصول الدين. ينتقل بعدها الطلاب إلى المدارس الثانوية ـ في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالاوقاف.

وكان التعليم الثانوي مجاني أيضاً. وكان للمدرس في الثانوي مكانته الخاصة، بحيث كان الاهالي يتكفلون بمتطلباته الحياتية وتقديم الخدمات له من اجل مساعدته على التفرغ وإعداد الدروس. وكان في

مجلس علمي بمسجد كتشاوه قبل تهديمه على يد الفرنسيين

العاصمة وقسنطينة وتلمسان جوامع ومدارس وزوايا لايواء التلاميذ. وعلى سبيل المثال فقد كان في (قسنطينة) ٣٥ جامعاً و٧ مدارس، وكان (١٥٠) تلميذاً من (٧٠٠) يحصلون على أجرة سنوية من دخل الأوقاف. وكان معظم هؤلاء التلاميذ من سكان الأقاليم، وقد أعدت لهم زوايا خاصة لسكناهم بلغت ست عشرة زاوية. وقد كان في العاصمة ست زوايا لهذا الغرض ثلاثة منها لعرب الغرب واثنتان لعرب الشرق أما الأخيرة فقد اعدت لايواء المدرسين في العاصمة والذين ليس لهم عائلات مقيمة. أما تلمسان، فقد كان فيها عدد كبير من هذه الزوايا. كما كانت فيها مدرستان إحداهما مدرسة الجامع الكبير، والاخرى مدرسة ولد الامام. وفي ضاحية تلمسان كانت مدرسة قرية (عين الحوت). ولم تكن الزوايا مقصورة على المدن، بل كانت هناك زوايا في الارياف تقام تخليداً لأحد المرابطين، ويقام بجانبها جامع للصلاة وبئر للشرب والوضوء. وتخصص الأرض لهذه الزوايا الريفية، فيحرثها الأهالي، ويستعمل دخلها لمساعدة المدرسين والطلبة. ويخصص أهل الخير جزءاً من محصولهم السنوي للزاوية التي توحد في منطقتهم. وكان يتلقى العلم في الثانوي حوالي (٣) آلاف تلميذ في كل اقليم من اقاليم الجزائر الثلاثة.

لم يكن هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي. ويسمى الاستاذ الذي يدرس في التعليم العالي (عالماً). أما عدد الطلبة فكان يتراوح بين ٦٠٠ و٨٠٠ طالب في كل اقليم. وكانت الدروس العالية تعطى في الزوايا وأهم الجوامع. وكانت مواد التعليم العالي تشتمل على النحو والفقه (الذي يشمل العبادات والمعاملات) والتفسير والحديث والحساب والفلك بالاضافة إلى التاريخ والتاريخ الطبيعي والطب.

تلك هي لمحات عن الحياة في الجزائر سياسياً وعسكرياً وفكرياً، خلال مرحلة (بناء الجزائر) الحرة المستقلة، ولقد خاضت الجزائر المجاهدة صراعاً مريراً على جبهة الاعداء الخارجيين وعلى جبهة البناء الداخلي، في اطار من التكامل. فدعمت وحدتها الداخلية بانتصاراتها الخارجية وحققت انتصاراتها الخارجية بفضل وحدتها الداخلية. وكان في ذلك انتصارها الاكبر. وبقي البناء الداخلي والصراع الخارجي مرتبطاً بالجامع والزاوية (المدرسة). فكان هذا (الجامع) هو القاعدة القوية والاساس الراسخ لقدرة المجتمع الاسلامي ووحدته، على الرغم من كل ظواهر التمزق التي اجتاحته، والتي عرف المغرب العربي الاسلامي منها قدراً ربما زاد على كل ما عرفته اقطار العالم العربي الاسلامي الاخرى.

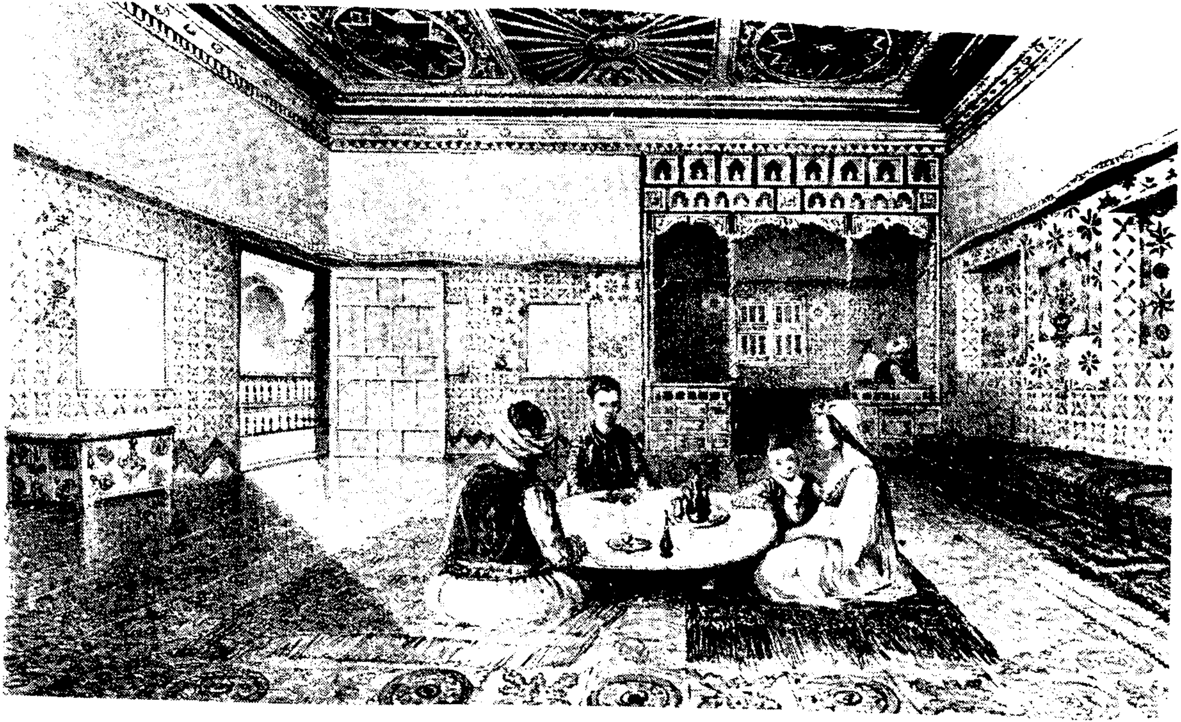

الحياة اليومية في منزل جزائري أيام العثمانيين

٢ـ السياسة الاستراتيجية للجزائر

يظهر العرض السابق لمجموعة الاحداث التي تعرضت لها الجزائر المجاهدة عبر سنوات التكون والصراع المرير مجموعة من الحقائق، لعل من ابرزها:

١ـ تكوين تحالف مع الخلافة العثمانية هدفه تنسيق الجهد العسكري على كافة المستويات.

٢ـ الاضطلاع بواجب الجهاد في البحر بصورة رئيسية، وهكذا فبينما كانت قوات الخلافة العثمانية تخوض صراعها المرير في البر ـ الاوروبي ـ بصورة رئيسية،كانت الجزائر المجاهدة تقود الجهاد على الجبهات الاخرى (الاندلس والسواحل الجنوبية لاوروبا).

٣ـ نظراً للموقع الجيواستراتيجي للجزائر، فقد اخذت على عاتقها الجهاد ضد اسبانيا بالدرجة الاولى وضد كل الدول التي ترفع راية الصليبية ضد الاسلام والمسلمين.

٤ـ عرفت الجزائر انه من المحال عليها الاضطلاع بدورها ان لم تكن مطمئنة إلى جارتيها في المشرق والمغرب. فعملت في البداية على خوض الصراع ضدها، ثم انتهى الأمر بتحقيق التكامل عندما أمكن

ربط هذين الاقليمين بالخلافة العثمانية -او بالاحرى- بسياسة استراتيجية واحدة.

لقد انعكست هذه السياسة الاستراتيجية على مستوى العمليات بمجموعة من الظواهر ابرزها:

١- تنسيق الجهد العسكري في العمليات المشتركة، حيث عمل الاسطول الجزائري في مناسبات كثيرة، منذ ايام ذوي اللحى الشقراء -بربروس- وحتى عهود بعيدة تمتد إلى اكثر من ثلاثة قرون على دعم الاسطول العثماني في العمليات الكبرى. وتولى قادة الجزائر في مناسبات كثيرة قيادة وزارة البحرية (قبودان باشا) واسهمت السفن الجزائرية بمجموعة المعارك التي تطلبت جهداً كبيراً (معركة ليبانتي) (الهجوم على طولون) الخ... كما قام الاسطول العثماني بالمقابل بدعم الجزائر في كل مناسبة ظهرت فيها الحاجة لمثل هذا الدعم (أثناء هجمات الاسبانيين) على المدن في المغرب العربي الاسلامي. وكانت الخلافة العثمانية تقدم للجزائر باستمرار الاعتدة الحربية وما تحتاجه لدعم قدرتها القتالية بشرياً، وبوسائط القتال. وجدير بالذكر ان هذه السياسة الاستراتيجية -البحرية- لم تكن الا ظلالاً متقدمة للسياسة الاستراتيجية التي وضعها (معاوية بن أبي سفيان) وطورها الامويون من بعده والتي تعتمد على تنظيم مجموعة من الاساطيل في الشام ومصر والقيروان -تونس- والاندلس. تقوم باعمال مستقلة احياناً. وتلتقي بعضها مع بعض للقيام بتنفيذ العمليات الكبرى وكان تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية هو الذي ضمن للعرب المسلمين في البداية دعم فتوحاتهم، وهو الذي ضمن للجزائر المجاهدة وللعثمانيين من بعد مجابهة الحملات الصليبية بقوة وفاعلية، واحراز الانتصارات الحاسمة.

٢ـ اعطاء افضليات لمسارح العملياتـ إذ كان من المحال على الجزائر خوض الصراع الشامل ضد كل القوى الصليبية في وقت واحد. ولهذا كان على الادارة الجزائرية، توجيه الجهد في بعض الاحـيان الى اعمال (القتال البحري) واعطاءها الافضلية الاولى، للانتقـــال بعدها الى حروب الاستنزاف ضد القواعد التي اقامها الاسبانيون فوق أرض المغرب العربـي ـ الاسلامي (خاصة وهران والمرسى الكبير) للعمل بعد ذلك في دعم الجهد ضد قوات الاعداء في المغربين الادنـى والاقصى (تونس والمغرب). وهذا ما يفسر بقاء القواعد الصليبية لفترات طويلة فوق أرض المغرب العربـي الاسلامي، في حين كانت اعمال القتال في البحر او الغزوات مستمرة على الجبهات الاخرى.

٣ـ لم تتمكن الجزائرـ بحكم خبراتها وتجاربهاـ التمييز بين القواعد الاجنبية فوق أرض اقليم الجزائر، وبين تلك القواعد في المغربين الادنـى والاقصى، وذلك لسببين متكاملين اولهما أن وحدة التراب ووحدة الدين تجعل الجهاد ضد كل عدوان اجنبي على المسلمين وعلى أرضهم هو واجب على كل مسلم، لا تمييز لحدود في ذلك، وثانيهما أن هذه القواعد لا تتهدد الاقطار الاسلامية المجاورة وحدها وانما تتهدد الجزائر ذاتها ايضاً. ومن الملاحظ ان هذه الملامح الاولية قد ارتسمت بصورة اكثر وضوحاً مع تطور الصراع ضد الاعداءـ بما في ذلك ظروف الاحتلال الافرنسي للمغرب العربـيـ الاسلامي ومقاومته. وهذا ما فرض بدوره العمل على تنسيق التعاون مع الاقطار المجاورة في مناسبات كثيرة.

٤ـ لقد خاضت الجزائر حروبها في اطار من (الدفـاع الاستراتيجي): يؤكد ذلك وقوع العدوان على أرضها، واحتلال

القوات الصليبية لقواعدها الساحلية، وقد امكن تحرير هذه القواعد واحباط اعمال العدوان. ومن هنا فقد كان من المحال على الجزائر، التوقف دائماً عند حدود انتظار وقوع العدوان لاحباطه، ولقد اشارت مصادر كثيرة بصورة غير واضحة في بعض الاحيان وبصورة واضحة تماماً في احيان اخرى (كما كانت عليه عمليات الاخوة ذوي اللحى الشقراء بربروس) إلى أن التصدي لسفن الاعداء واستنزاف قدراتهم البحرية، والاغارة على المدن الساحلية للافرنج الصليبيين لم تكن الا حرباً دفاعية ـ اكثر منها انتقامية ـ أو في افضل الاحتمالات دفاعية انتقامية. واذا ما تطورت هذه الاعمال الى ما يطلق عليه اسم (القرصنة) فذلك بنتيجة روح العصر التي جاءت من الدول الغربية البحرية، ووجد فيها المسلمون اداة دفاعية متقدمة تدعم اساليبهم في (دفاعهم الاستراتيجي) ويؤكد جدول مسيرة الاحداث في اطارها الزمني هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة.

٥ ـ لقد ادى اتساع افق الصراع، واتصال الاعمال القتالية، إلى حقيقتين برزتا خلال معظم الاعمال القتالية للقوات الجزائرية.
اولاهما: تكوين خبرات قتالية رائعة على كافة المستويات، وثانيتهما الاستعداد الدائم للقتال. وقد برزت اهمية الخبرات القتالية في مناسبات كثيرة، وكان لها الدور الاساسي والحاسم في (حوار الارادات المتصارعة) حيث خرجت الارادة الجزائرية وهي منتصرة باستمرار نتيجة ثقتها (بحتمية النصر) وايمانها المطلق بعدالة قضيتها ومعرفتها الثابتة بما يتوافر لها من القدرات والامكانات. وكان الاستعداد الدائم للقتال هو الذي احبط الاعمال العدوانية فوق المياه الاقليمية للجزائر، وهو الذي دمر اطماع الصليبيين فوق رمال الجزائر وصخورها. ولا حاجة بعد ذلك لربط هذين العاملين ـ المبدأين ـ

بمفهوم الجهاد في العقيدة القتالية الاسلامية التي كان لها الفضل الاساسي في تحقيق التكامل في اسس فن الحرب.

٦- **وأدى اتساع افق الاعمال القتالية ايضاً الى اعتماد المجاهدين على (خفة الحركة الاستراتيجية) في البحر، وخفة حركة القوات في البر.** وقد يصاب المرء بالذهول عند استعراض دقائق الاعمال القتالية، ومتابعة ما تخللها من تفاصيل عن تحرك القوات للالتحاق بميادين القتال البعيدة والقاصية، سواء في البر أو البحر، والانتقال من مسرح عمليات الى مسرح عمليات آخر. وهنا يظهر ايضاً دور الخبرات القتالية المتوارثة منذ الفتوح الاسلامية عامة، وفي ايام الصراع على جبهة الاندلس بصورة خاصة، حيث اضطلع المرابطون والموحدون وبنو مرين وأبناء المغرب العربي الاسلامي عامة بالاشتراك في حمل اعباء الجهاد على كافة الميادين المتناثرة والمتفرقة والمتباعدة.

٧- **ربط جهد الاعمال القتالية بالجهد الاقتصادي.** وتلك ظاهرة لا يمكن تجاوزها عند التعرض لمجموعة الحروب التي خاضتها الجزائر ضد اعداء الدين. إذ لم تكن المغانم الا وسيلة لحرمان العدو من امكاناته ولتدعيم قدرات المسلمين في الوقت ذاته. وهناك شواهد لا نهاية لها تؤكد ان الجزائر لم تكن تبغي مغنمًا- من اعمال القرصنة الموصوفة- الا للحصول على المزيد من القدرة القتالية، وبكلمة اخرى، فقد كانت الجزائر تكتسب قدرتها من خلال إضعاف اعدائها، وهناك معاهدات للصداقة تنص بوضوح على تقديم الدول التي تصالحها الجزائر سفناً حربية واعتدة قتالية ومدفعية وذخائر مقابل ما تضمنه لها الجزائر من الحماية أو مقابل ما تتبادله معها من السلع التجارية أو مقابل ما تقدمه لها من امتيازات في المعاملة (صيد

المرجان). وتجدر الاشارة هنا ايضاً إلى أن هذه الظاهرة بقيت ملازمة للسياسة الاستراتيجية الجزائرية في مختلف العهود.

٨ـ **وضوح الهدف في كل مرحلة من مراحل الصراع**،واختيار طرائق العمليات المناسبة لبلوغ هذا الهدف. وقد حدد الجزائريون منذ البداية هدفهم ببناء الجزائر القوية، وحددوا هدفهم بتحرير بلاد المسلمين في المغرب العربي - الاسلامي من اعداء الدين، وحددوا هدفهم ببناء العلاقات داخلياً واسلامياً ودولياً بما يضمن لهم تحقيق طموحاتهم. فكانت حروبهم نوباً، بين حروب الاستنزاف والحروب التصادمية، وبين الحروب الهجومية والحروب الدفاعية، بين الحروب الثوروية والحروب النظامية. وقد يكون من الخطأ الفادح -بل وحتى الجحود- القول بأن التنوع في اساليب هذه الحروب وطرائقها قد جاء بنتيجة ردود فعل تجاه المواقف التي جابهتها الجزائر في أصعب ايامها، والدليل على ذلك هو أن الجزائر قد رفضت في مرات كثيرة عقد معاهدة صلح أو هدنة مع اسبانيا قبل الجلاء عن وهران والمرسى الكبير، ورفضت ايضاً منح فرنسا امتيازات لا تتفق مع مصلحة الجزائر، ورفضت عقد المعاهدات مع دول مختلفة الا بالشروط المناسبة للجزائر، ومن خلال هذا الوضوح في الهدف، ومن خلال التصميم العنيد على بلوغه، تم اختيار الاساليب المناسبة لخوض الصراع في كل صراع، بما يتناسب والهدف المرحلي او الهدف النهائي.

لقد حددت هذه الاسس الاستراتيجية، وانعكاساتها على افق الاعمال القتالية، طبيعة الصراع الذي تجابهه الجزائر، والذي تشابكت فيه العوامل الجيو- استراتيجية، بالعوامل الجغرافية والديموغرافية -السكانية- مع العوامل الاقتصادية والسياسية لتشكل

بمجموعها (خصوصية) الصراع الجزائري وهو صراع تمثل في إطار تحد ديني قبل كل شيء، بدأ من الاندلس وانتهى بالمغرب العربي الاسلامي وحملت الجزائر المجاهدة راية الريادة فيه.

قد يكون من المتوقع بعد ذلك أن تخوض الجزائر صراعها في إطار (حروب الايمان). وقد يكون من المتوقع بعد ذلك ايضاً أن تكون العقيدة القتالية معتمدة في اصولها وفروعها على العقيدة الدينية الاسلامية.

لقد قيل بأنه (ما من عامل ألهب التعصب الاسلامي مثل ذلك التعصب المسيحي) وقد يكون ذلك صحيحاً في بعض المواقف وفي بعض الاحيان غير أن العقيدة القتالية التي طبقتها الجزائر لم تكن معتمدة على التعصب بقدر اعتمادها على المبدأ - بحسب كل الشواهد المتوافرة - ولم يتمكن التعصب المسيحي من اخراج المسلمين المجاهدين عن اساليبهم وطرائقهم. وفي الوقت ذاته فإن حروب الايمان هذه لم تعتمد على الحقد بقدر اعتمادها على الغضب، إذ كان من المحتمل أن يؤدي الحقد لو تفجر إلى نتائج مغايرة تماماً لما حدث، في حين جاء الغضب للاسلام وعلى الاسلام، فطهر النفوس ووحدها ودفعها الى (الجهاد في سبيل الله) فلا غرابة اذن في ملاحظة التحولات الحاسمة في مواقف المجاهدين - وفقا لما ابرزته عملية استعراض الاحداث في الفصل الثاني - والانتقال بصورة تدرجية، من مواقف التشرذم (القبلية الجاهلية) إلى مواقف الوحدة الاسلامية الصلبة في الداخل والخارج والتي امكن بفضلها تحقيق النصر في (حروب الايمان).

٣ـ المجاهدون والحروب الثورية الاسلامية

أظهر العرض الوجيز لمسيرة الاحداث ـ الفصل الثاني ـ ذلك الدور الرائع الذي اضطلعت به جماهير الشعب العربي المسلم في رفع راية الجهاد في سبيل الله، في البر والبحر، بصورة عامة، وما قام به المجاهدون فوق أرض الجزائر الحرة بصورة خاصة، في ظروف الدفاع عن أرض الاسلام والمسلمين، وفي احباط اعمال العدوان ودحرها. فقد كانت حشود المجاهدين هي القوة الحقيقية التي تحسم الصراع في كل مرة تتعاظم فيها قوى العدوان، فتتسارع إلى ميادين الجهاد في كل مرة يرتفع فيها صوت حاكم الجزائر معلناً (الجهاد في سبيل الله). وقد سجلت المصادر التاريخية في مناسبات كثيرة العبارات التالية:

«وما كاد المجاهدون يسمعون باقتراب الاعداء ـ الكفار ـ حتى يندفعون الى ميادين الجهاد حتى تضيق بهم الأرض».

و«كان المجاهدون يقبلون ومعهم نساءهم واولادهم، الذين يشتركون معهم في انقاذ الجرحى ودفن الموتى وفي المشاركة باعمال تحصين الأرض».

تلك هي الصورة الرائعة والخالدة لمفهوم (الجهاد في سبيل الله) منذ ظهر الاسلام على الأرض، والتي تكررت بأوضح معانيها وأسمى

اشكالها في مجابهة ما تعرضت له الجزائر ايام البلوى القاسية والصعبة. وهذه النفرة الاجماعية هي التي تأخذ في الحروب الحديثة اسم (الحروب الشعبية) والتي حدد المسلمون اشكالها ومضامينها من قبل أن يعرف العالم اسم (الحروب الشعبية) بقرون طويلة.

؛

وتجدر الاشارة إلى أن العالم قد عرف منذ ايام الحروب البدائية، وحتى في العصر الحديث بعض اشكال هذه (النفرة الاجماعية) فقد اشتهرت الفتيات الامازونيات باشتراكهن في الحروب وسبقهن في مجالات حمل السلام، كما أبرز عرض الاعمال القتالية قيام النسوة الاسبانيات وحتى الاولاد بمشاركة القتاليين في اعمال الحصار وترميم الحصون والثغرات. غير أن هناك ثمة فارق كبير بين هذه النماذج وبين مفهوم (النفرة الاجماعية في الجهاد) والتي تعتمد على مجموعة من الخصائص أبرزها: ١ ـ الطوعية في الاقبال على القتال. ٢ ـ الاستعداد الدائم للقتال. ٣ ـ الاستجابة الاجماعية والموحدة لنداء الجهاد. ٤ ـ ربط مفهوم الجهاد بهدف نبيل (الشهادة أو النصر) والذي يرتبط بالعقيدة الدينية الاسلامية.

ولقد استطاعت الكنيسة في الحقيقة ـ عبر الحروب الصليبية ـ تكوين مفاهيم مشابهة كمفاهيم المسلمين في الجهاد، بل انها عممت استخدام ذات العبارات التي كان يستخدمها المسلمون ويطلقونها على اعدائهم (الكفار) و(أعداء الدين) و(الجهاد) و(الغفران) و(الجنة) و(الخلود). غير أنه كان من المحال الاحتفاظ (بدفء هذه المفاهيم) و(حرارتها) في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد والحض على القتال. وهذا ما اكدته وابرزته اعمال المجاهدين عند الاندفاع لدعم المسلمين المجاهدين في الاندلس، ثم في الدفاع عن أرض الاسلام

عند انتقال العدو للهجوم على أرض المغرب العربي ـ الاسلامي. وتبرز عند هذه النقطة مجموعة من النقاط التي يجدر التوقف عندها من جديد، وأهمها:

١ـ الموقف من اعداء الداخل ـ اعداء الدين ـ.

٢ـ قوة تيار الجهاد وعمق مفاهيمه.

ولقد ظهرت فوق سطح عالم الفتوحات الاسلامية بعض الانتكاسات التي تعود في جذورها الى مفاهيم (القبلية ـ الجاهلية). غير ان هذه الانتكاسات بقيت محدودة الخطورة، محدودة التأثير، محدودة النتائج. غير أن هذه الظاهرة أخذت في رسم أبعاد خطيرة على ساحة الصراع في الاندلس، وهو الأمر الذي أدى الى سقوط طليطلة، وتعاظم قدرة حكام الاندلس واستنصار المسلمين بهم على اخوانهم في الدين. الأمر الذي ضاعف من خطورة التمزق الداخلي، والذي استطاع المعتمد بن عباد علاجه بانتصاره (بابن تاشفين). وعرف الصليبيون من خلال ذلك أن قوة المسلمين تكمن في وحدتهم فانطلقوا للاسهام بتمزيق هذه الوحدة، وكان لهم دور كبير فيها. حتى اذا ما نقلوا صراعهم الى أرض المسلمين في المغرب العربي ـ الاسلامي. انطلقوا إلى اعتماد هذه الوسيلة للتفريق بين المسلمين وضرب بعضهم ببعض ثم ضربهم جميعاً. وكانت الجزائر المجاهدة قد أدركت هذه الحقيقة واستوعبتها فلم تعد تقبل مهادنة اعداء الداخل، وكانت في بعض الاحيان اكثر قسوة في القضاء عليهم وابادتهم من قسوتها على الاعداء ذاتهم ادراكاً منها بان اعداء الداخل هم أشد خطراً من اعداء الخارج على الدين وعلى قضية الجهاد. وقد عالج أئمة المسلمين هذا التطرف ونجحوا في كبحه غير انهم لم يتساهلوا ابداً في معالجة

(المتعاونين مع العدو). ولقد ظهرت نتائج ذلك بسرعة مذهلة فقد أمكن توحيد الجبهة الداخلية للمسلمين، والانطلاق منها بحزم لمجابهة الاعداء الخارجيين وأدى ذلك بدوره إلى ضعف اعداء الداخل وانهيارهم. حتى انه في كثير من المعارك كان المقاتلون تحت راية المتعاونين مع الاسبانيين، ينفصلون عنهم بمجرد الاشتباك في المعركة، او يعتزلون القتال ضد المسلمين في أضعف الحالات.

ولقد كان الولاء لزعيم العشيرة أو الملك، وهو أمر مرتبط بجوهر الدين، هو العامل الاساسي في الانتكاسات وهو نزوع جاهلي، جاء المبدأ الخالد (لاولاية لكافر على مسلم) فعمل على الغائه. وقد برز هذا المبدأ بكل وضوحه وبأعمق معانيه في جهاد الجزائر ضد اعداء الدين فكان في ذلك بعض عدة الجزائر المجاهدة فيما حققته من انتصارات. وأما المبدأ الثاني فهو (عدم الانتصار بكافر على كافر) وهو المبدأ الذي ادى احياناً إلى اصطدام الجزائر بالخلافة، والذي ارغم دار الخلافة على الخضوع للجزائر في النهاية. فكان في ذلك ايضاً بعض عدة المسلمين في انتصارهم على اعدائهم.

كانت اعمال الجهاد في الجزائر (مبدئية وثابتة) وهو ما تؤكده جميع المواقف وكان الفضل في ذلك لعمق مفهوم تيار الجهاد من جهة، وللتجارب التي اكدت صحة هذا المفهوم في كل المناسبات، وفي كل الحروب التي خاضها المجاهدون في سبيل الله.

وظاهرة وجود (فئة من الخارجين على الاجماع) هي أمر طبيعي عرفته كل المجتمعات في القديم والحديث، وعرفت المجتمعات في القديم والحديث ايضاً ان خطورة (اعداء الداخل) تتزايد في مرحلة ضعف المجتمع وتضعف بزيادة قوته. ومن هنا فإن ظهور قوة (اعداء

الداخل) وزيادة حجمهم وقدرتهم هو المؤشر الثابت على ما يتعرض له المجتمع من الانهيارات. والعلاقة بين قوة المجتمع وقوة اعداء الداخل علاقة جدلية ثابتة. ومن هنا فإن تصفية أعداء الداخل كمرحلة لها الافضلية الاولى في بناء القدرة الذاتية هو أمر اساسي وحاسم (عبرت عنه الثورة الإفرنسية بوضوح عندما عملت على تصفية اعداء الداخل قبل الانطلاق لمجابهة اعداء الخارج) وسبقتها الجزائر عندما دمرت اعداء الداخل ووحدت الجبهة الداخلية قبل أن تنطلق للجهاد ضد اعداء الدين. وهنا ظهرت العلاقة الجدلية والثابتة من جديد فقد كان كل انتصار خارجي للمسلمين يضعف من اعداء الداخل المتعاونين مع الاعداء الخارجيين، وكان ضعف هؤلاء الاعداء الداخليين يؤدي بالتالي إلى زيادة القدرة لقتال الاعداء الخارجيين، وفي الواقع، فإن متابعة مسيرة الاحداث على جبهة الصراع بين الجزائر المجاهدة واعداء الدين تؤكد هذه الحقيقة الجدلية وتبرزها بشكل واضح على امتداد صفحة الجهاد.

وكان عمق تيار الجهاد هو العامل الاساسي في بروز هذه الظواهر وتأكيد فاعليتها واهمية دورها، وهو ما تؤكده ايضاً المقولات الشعرية والنثرية التي حفظتها الاوابد المغربية الاسلامية في الحض على الجهاد وتحرير الارض المغتصبة من ديار المسلمين، فقد بقيت وهران والمرسى الكبير تحت احتلال الاسبانيين طوال قرنين من الزمن في المرحلة الاولى وعلى امتداد خمسين سنة في المرحلة الثانية، كان أئمة المسلمين ومشايخهم وكتابهم وشعراءهم لا يتوقفون عن التذكير بمأساة (وهران) واستثارة الهمم، ولم يكن باستطاعة حكام المسلمين في الجزائر تجاهل هذا التيار المحرض القوي، وهكذا كان تيار الجهاد هو الذي يدفع الحكام ويقودهم ويوجه خطاهم، ولا ينتقص ذلك من

دور هؤلاء الحكام الذين عملوا على التتابع من اجل تنظيم تيار الجهاد واذكاء شعلته وتوجيه فعالياته وقدراته، واطلاق شعلته العالية لاضاءة ظلمات دنيا المسلمين خلال تلك الحقبة التاريخية التي تناوبت فيها المحن والنوائب على كل ديار المسلمين، فكان للجزائر المجاهدة دورها الاساسي والحاسم في رفع قيم الجهاد في سبيل الله، وتأكيد فضائلها في حماية مجتمع الاسلام والمسلمين.

ولقد كان للمسجد (الجامع) دوره في تكوين هذا التيار، واظهرت الاوابد ايضاً، وفي مناسبات كبيرة (اندفاع طلبة العلم والمشايخ إلى مقدمات الصفوف) واعطاء الامثولات في (طلب الشهادة او النصر) وفي (الحض على الجهاد والتحريض على القتال). فليس من الغريب بعد ذلك أن يبقى (القضاء على المسجد) هو الهدف الاول لكل الحملات الصليبية في المشرق كما في المغرب. واذا كان هدف المسلمين من إقامة المساجد هو (الهداية) ورفع (راية الاسلام) فقد بات من المتوقع ان تعمل الحملات الصليبية، وعلى كل الجبهات، من اجل تدمير المسجد وتحويله إلى كنيسة لحرمان المسلمين من عامل صمودهم. وعرفت الجزائر المجاهدة، كما عرف المسلمون ذلك في كل ديارهم، فكان أول عمل لهم بعد كل فتح، هو ترميم المساجد واصلاحها واقامة المساجد الجديدة حتى تتمكن من الاضطلاع بدورها في توحيد كلمة المسلمين، والمحافظة على قدرتهم الذاتية التي يكمن فيها وجودهم.

وهنا لا بد من القول ايضاً، أن دويلات المسلمين في مختلف العصور والعهود، وعلى امتداد المغرب العربي الاسلامي قد عنيت أشد العناية باقامة المساجد والاهتمام بها، واذا كانت هذه الدول قد جنحت في فترة انحطاطها الى التعاون مع اعداء الدين، فقد بقي هذا

التعاون ظاهرة مرضية تعبر عن جنوح مرحلي لم تلبث جماهير (المسجد) أن عملت على تقويمه وتصحيحه.

لقد تعاقب على حكم الجزائر عدد كبير من (البايات والدايات) بداية من الاخوة ذوي اللحى الشقراء، وحتى نهاية الحكم العثماني، بعضهم تألق في سماء قيادة الجهاد، وبعضهم قصرت همته عن بلوغ مرتبة قيادة الجهاد. غير أن تيار الجهاد بقي قوياً وثابتاً، لم يتأثر بتغير الحكام ولم يتحول بتأثير الصراعات الداخلية، ولم يضعف بتأثير الانتكاسات. وبقي (تيار المسجد الجامع) هو التيار المهيمن على الجمهور المسلم، وهو الموجه للحكام على اختلاف قدراتهم وتباين امكاناتهم. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فإن (تيار المسجد) هو الذي ازال كل التناقضات الداخلية وصهرها جميعها في تيار واحد (هو تيار الجهاد في سبيل الله) لا فارق في ذلك بين تركي وعربي أو مغربي وغير مغربي، فكان في ذلك بعض عدة المجاهدين فيما حققوه من انتصارات متتالية. وقد يكون من غير الضروري بعد ذلك البحث في فضائل (تيار المسجد - الجامع) بالمحافظة على تقاليد الجهاد، فالصبر على المكاره، واحتمال كره القتال، والاستعداد الدائم للقتال والإعداد له، والصلابة والتصميم حتى بلوغ النصر الكامل والثبات في مواطن الشدة والخطر كل ذلك هو بعض الفضائل الاسلامية التي تشكلت منها (العقيدة القتالية الاسلامية) والتي ابرزتها صفحة الجهاد على أرض المغرب العربي - الاسلامي والحروب البحريه.

بنتيجة ذلك كله، لم تكن حروب الجزائر حروباً نظامية - في مفهومها الحديث - بقدر ما كانت نوعاً من الحروب الثورية الحقيقية التي طبقت فيها اساليب الحرب النظامية، واستخدمت فيها اسلحتها، فكانت نموذجاً متقدماً للمزج بين طرائق الحرب النظامية

وطرائق الحروب الثوروية . وكانت هذه الظاهرة هي التي اذهلت قادة الصليبيين الاسبانيين الذين اعترفوا في مناسبات كثيرة (بأنهم لم يعرفوا مثل هذه الحروب) على الرغم من استمرار صراعهم مع المسلمين. ولم يكن ذلك الا بسبب اعتماد الجزائر المجاهدة على اسس (العقيدة القتاليةالاسلامية) والتي شكلت ما يطلق عليه في العصر الحديث اسم (الأصالة الثوروية) وهي الاصالة التي كان لها دورها الثابت في مجابهة كل ما تعرضت له الجزائر من قبل ومن بعد.

وقد يصاب المرء بالذهول وهو يطالع ما جابهته الجزائر المجاهدة عبر تاريخها الطويل، وما تعرضت له من غزوات واعتداءات. لقد كانت وباستمرار في (حرب طويلة الأمد) لا تكاد تنطفىء معاركها حتى تتجدد بقوة اكبر وبعنف اعظم، واشتركت في هذه الحرب الطويلة الامد، كل شعوب الأرض، فاذا كانت اسبانيا الصليبية هي التي تزعمت الحرب الصليبية ضد الجزائر وتركت للبرتغال قيادة هذه الحرب في المغرب الاقصى، فإن الدول الاوروبية الاخرى لم تلبث أن جاءت بدورها للاسهام في هذه الحرب الشاملة، حتى امريكا ذاتها لم تلبث أن جربت حظها في العدوان على الجزائر المجاهدة الصابرة المحتسبة. وانتصرت الجزائر على كل اعدائها. وبقيت (الجزائر المحروسة) نجمًا يتألق في سماء (المغرب العربي الاسلامي) وكوكباً متوهجاً يضيء دنيا الاسلام والمسلمين.

لقد بقيت (الجزائر المحروسة) لأنها حفظت الاسلام فحفظها الاسلام.

وعرفت (الجزائر المحروسة) تلك العلاقة الجدلية الثابتة ايضاً بين دفاعها عن الاسلام والمسلمين، وبين دفاع الاسلام والمسلمين

للمحافظة على وجودها وقدرتها. فكان في ذلك بناء (الاصالة الثوروية الحقيقية) التي بقيت الصخرة الثابتة ضد كل اعداء الدين. واعتمدت (الجزائر المحروسة) في تحليقها وفي انطلاقتها على جناحيها الثابتين في المشرق والمغرب. وكان في ذلك التعبير الحقيقي عن (الاصالة الثوروية الحقيقية) والتي ستبقى ابداً مصدر قوة (الجزائر المجاهدة) وقوة (المغرب العربي الاسلامي).

قراءات

١ ـ وهران وأدب الحرب

٢ ـ ترجمة رسالتين متبادلتين
بين داي الجزائر والرئيس الاميركي

١- (وهران) وأدب الحرب

كان بقاء الاحتلال الاسباني لوهران حافزاً استثار شعراء المسلمين فمضوا يحرضون على الجهاد ويحضون على القتال، ويبعثون في النفوس الحماسة ويذكرون الحكام دائمًا بواجبهم لتحرير المقدسات وكان تيار التحريض قوياً ابرزته مجموعة غير محدودة من القصائد الشعرية . منها:

١- قصيدة (محمد القوجي الجزائري) يخاطب الداي (أحمد باش خوجة)- منها:

ثم التفت نحو الجهاد بقوة … والكفر فاقطع اصله بذكور
جهز جيوشاً كالاسود وسرحن … تلك الجواري في عباب بحور
اضرم على الكفار نار الحرب لا … تقلع ولا تمهلهم بفتور
(. . .) عن وهران ضرس مؤلم … سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم قد أذت من مسلمين وكم سبت … منهم (بقرب؟) أسيرة وأسير
حلت بأرض المسلمين فهل لها … من عسكر عند الصباح مغير
يلقي كلاكله عليها بغتة … يأتيهم في غرة المغرور
فانهض بعزمك نحوها مستنصراً … بالله في جد وفي تشمير
بعساكر مثل السيول تزاحمت … للسبق تحت لوائك المنصور

بادرْ بنا نغزو العدو وسارعن   في حسم شوكتهم وفي التدبير
اقصد بلاد الكفر شتت شملها   خرب بها ما كان من معمور
اقتلهم قتلاً ذريعاً واتركن   اشلاءهم صرعى لطعم نسور

٢ـ من قصيدة (محمد بن عبد المؤمن) يحرض الداي (حسن الشريف باشا):

نادتك وهران، فلب نداءها   وانزل بها لا تقصدن سواها
صرخت بدعوتك العلية فاستجب   لندائها ولتكملن مناها
قد طالما عبثت بها أيدي العدا   حتى استباحوا أرضها وحماها
وتصرفوا في المسلمين فأصبحت   اعجوبة لمن اغتدى يرعاها
اضحى الصليب مؤيداً، والدين   قد درست معالمه فلست تراها
جعلوا بها الناقوس في أوقاتهم   بدل الأذان وغيروا معناها
كم من أسير حولها لا يفتدى   كم من فقير حل في مثواها
يا أيها الملك الذي أيامه   غُرر غدت بكماله تتباهى
جرد (قواك) لمحق أثار العدا   حتى ترى الاسلام في مغناها
وادع الغزاة لفتحها مستنجداً   وانهض اليها وانزلن مرساها
الآن آن الفتح إذ ظهرت به   آثار تنبي أنه وافاها

٣ـ ومن قصيدة (لأبي عبد الله سيدي محمد) نظمها سنة ١١١٤ هـ (١٧٠٢ م) لاستنقاذ وهران:

نرجو رضاك فربنا سبحانه   مهما رضيت بفتحه يتفضل
إنا توسلنا اليك بسادة   اقدامهم فوق الحياة تفضل
فبحقهم الا قضيت حقوقنا   وفتحت من باب العدا ما يقفل
أرجعت للاسلام رجعة مشفق   والدين ينصر والكوافر تخذل

حتى نـرى وهران دار اقـامة	الصلوات يسبقها الاذان المكمل
ونرى بها القرآن يفشو درسه	والعلم حل بها فنعم المنزل
ويبـوء عباد الصليب بحسـرة	لديار كفرهم الشنيع تزلزل
والخيل تمرح في جوانب أرضهم	سوراً ودوراً بالأسارى تقفل

٤ـ ومن قصيدة (لأبـي العباس أحمد أبـي على صاحب) في استصراخ المجاهدين لانقاذ وهران:

فمن مبلغ عني ملوك الأقـالم	وكل رئيس من رؤ وس العمائم
وكـل همام مـائل في حمـائـل	على متن جار سابق في العزائم
وكل زعيم مولع بحـدوده يصيد الضـواري من فحول الضـراغم
وسلطانها التركي في دار ملكه	وبين علاه في دهاة العظائم
وجيش بني عثمان من كل قائد	جيوشاًكموجالبحر عندالتلاطم
يريدون (وهراناً) فما سبق القضا	بتنفيذه للوقت في جفن عالم
يخوضون لجاً في سفائن رائس	حراضاً لدين الله عز العزائم
وحرز بنات العرب من كل فاتك	بابكارها الحرات في قصر ظالم
فيا آل عثمان ويا سادة الوغى	وكلكم أعمـالـه بـالخـواتم
ويا معشر الاتراك ما بال سعيكم	ووهران تزهو نخوة بالمراغم

٥ـ وعندما حرر المسلمون (وهران) انطلق الشعراء لتخليد هذا الحدث. فكان مما قاله الشيخ (أبو زيد عبد الرحمن التلمساني) فيها:

تلت رسل البشائر يوم عيـد	علينـا سورة الفتـح السعيد
فأحيت من رسوم البشر رسمًا	عفا بالشرك من زمن بعيد

وقل (وهران) يهنيك افتكاك   وانقاذ من الأسر الشديد
لك البشرى وللاسلام اخرى   بمنعك من يد الكفر العنيد
أتذكر حين كنت مناخ شرك   فصرت مقام شكر للحميد
وكنت مقام تثليث فأضحى   يقرر فيك توحيد المجيد
جزى جيش الجزائر كل خير   اله الخلق ذو الملك العتيد
هم المستنقذوك وقد أحاطت   بك الأعداء تطمع في المزيد

٦- ومن قصيدة (لأبي عبد الله محمد - المعروف بابن يوسف الجزائري):

مولاي فضلك للكروب مفرج   وبتاج عز الله أنت متوج
جهزت حقاً للجهاد عساكراً   كرب الورى بقربهم يتفرج
كم قاتلوا الأبطال يوم الملتقى   حتى محوا داجي الضلال وفرجوا
وحياهم المولى بنصر عندما   ركبوا المطايا للجهاد وأسرجوا
حتى قضوا حقاً (لوهران) التي   أمواج بحر ضلالهم تتموج
فرت خيول المشركين أمامهم   لما رأوا برق الهدى يتورج
عادت إلى الاسلام داراً مثلما   كانت، وصارت ريحها تتأرج
أضحى مؤذنها يجيعل تارة   وبها يهلل تارة ويهزج
وقراءة القرآن في أرجائها   منها نتائج الاستقامة تنتج
والدين أصبح قيمًا وكفى بها   من نعمة عنا الكروب تفرج

٧- ومن قصيدة للشيخ (محمد بن محمد بن علي بن سيدي المهدي الجزائري):

وهل طاوعت (وهران) قبل مملكاً   سواه فأضحى أنفها وهو راغم
فكم سامها من لا يناهضها وكم   حوالي حماها حام بالزور حالم
تملكها حزب الشقاء ولم يكن   زماناً لحزب الحق عنها مخاصم

بها يسمع الناقوس من نحو فرسخ ومن لغة الكفار عنه تراجم
وفي كل يوم صيحة من خيولها ينوح لها الاسلام، والشرك باسم
زهى واعتلى التثليث فيها ونكست لما دهم التوحيد منه الغمائم
فقيض للفتح المبين مهنداً، رقيق الشبا، صلب الصفيحة، صارم
إمام سقى الكفار كأس منية لهم شبه بالنمل والسيف حاطم
لقد صال فيهم صولة هاشمية فأمرهم في الحرب حيران واجم
وعاد (لوهران) السنية ريها وحن اليها عهدها المتقادم

٨ـ ومن أرجوزة للشيخ (أبو عبد الله محمد التغيرلي) من مدينة الجزائر في تاريخ تحداث وهران:

الحمد لله الذي قد فتحا وهران من أيدي الرجال الصلحا
وقهر القوم اللئام الفجرة ورفع الاسلام فوق الكفرة
في مدة السلطان فخر الناس (أحمد) خاقان أبي العباس
من ملك البرين والبحرين ومصر والشام بدون مين
للحرمين خادم طول المدى دام انتصاره على جمع العدا
يا سائلاً عما بوهران ظهر من أخذها وفتحها كما اشتهر
أخذها الكفار بالثبات مما رويناه عن الثقات
سنة أربع وعشرة مضت من بعد تسعمائة قد كملت
فمئتان مع خمس سنين عدد مكثها بأيدي المشركين
ثم بعد العزم من الاله قد جاءنا الفتح بنصر الله
ففتحت سنة تسعة عشر ومائة من بعد ألف تعتبر
في سادس العشرين من شوال صبيحة الجمعة خذ مقالي
عن يد من قد صير الجزائر جنة كل قاطن وزائر
محمد بكداش فخر الدولة وحسن صهره عالي الصولة[1]

(١) (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ص ٤٣٨ـ ٤٤٢ـ و٤٦٦ـ ٤٧٢.

٢ـ ترجمة رسالتين متبادلتين
بين داي الجزائر والرئيس الاميريكي سنة ١٨٢٥

أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة الامريكية في ١٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٢٥ ، بسبب استغلال امريكا لاتفاقياتها مع الجزائر بطريقة سيئة، وبسبب عدم وفاء امريكا بالتزاماتها. وأرسل الرئيس الامريكي (جيمس ماديسون) رسالة إلى الداي تضمنت ما يلي:

(لقد أعلنتم سموكم الحرب على الولايات المتحدة، وقد قرر الكونغرس في اجتماعه الأخير اعلان حالة الحرب مع حكومتكم، وكلف اسطولاً من بواخرنا بالتوجه إلى البحر الأبيض المتوسط لتنفيذ ذلك القرار. وسيكلف هذا الاسطول تخييركم بين الحرب والسلام، وانتم وما ترون، ولنا وطيد الأمل أن توازنوا بين ويلات الحرب ومزايا حسن التفاهم مع أمريكا التي تزداد قوتها مع الزمن، فتجنحوا الى استئناف ما كان بين الحكومتين من علاقات الود والصداقة، وليس لحكومتنا هدف الا السلام والصداقة مع الجميع).

وأجاب الداي (عمر) باسم الحكومة الجزائرية على ذلك ـ بعد أن حدد شروط الصلح، وتضمنت رسالته:

(واني ابلغكم رغبة حكومتي في استئناف علاقات الصداقة التي

ربطت بين بلدينا منذ اكثر من عشرين سنة، ولا سيما ان أمريكا كانت أول دولة عقدت معها حكومتي معاهدات سلام. ونتمنى بعون الله أن يأتينا ردكم سريعاً بالموافقة على شروطنا الموضحة آنفا، أما اذا رفضتم الموافقة عليها، فإنكم تتحملون وزر خرق قوانين الانسانية المقدسة، والاعتداء على مواثيق الامم).

وقد رضخت أمريكا لشروط الداي وتم الصلح.

(تاريخ الجزائر - مجاهد مسعود - ص ١٠٤)

المــراجع

(١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا - احمد توفيق المدني - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٧٦.

(٢) تاريخ الجزائر - تأليف الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول.

(٣) العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة - اسماعيل العربي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٧٨.

(٤) تاريخ الجزائر الحديث - الدكتور ابو القاسم سعد الله - معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية - ١٩٧٠.

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية، كارل بروكلمان، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٧٤). ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
المقدمة	٧
الوجيز في ابرز الاحداث على المسرح الاسلامي	١١
ابرز الاحداث على المسرح العالمي	١٤
ابرز الاحداث على مسرح الجزائر	١٦
الفصل الاول:	١٩
١ـ الجزائر المجاهدة.	٢١
٢ـ الموقف على الجبهة الاسلامية في المشرق	٣٤
آ ـ معركة ليبانتي. ١٥٧١م	٣٥
بـ الجهاد على الجبهة الاوروبية	٣٩
جـ تمرد جنبلاط وفخر الدين المعني	٥٤
٣ـ الموقف على جبهة الاندلس	٥٧
الفصل الثاني:	٦٩
١ـ الجزائر وبناء القدرة الذاتية	٧١
آ ـ تحرير بجاية (١٥٥٥م)	٧٧

ب- انتصار المسلمين في مستغانم (١٥٥٨م) ٨٣
ج- معركة المرسى الكبير (١٥٦٣م) ٨٧
د- تحرير تونس (١٥٧٣م) ٩٧
هـ- انتصار المجاهدين في أصيلا (المغرب)(١٥٧٥م) ١٠١
٢- انكلترا تشن الحرب على الجزائر (١٦٢٠ م) ١٠٩
٣- الاعمال العدوانية الإفرنسية (١٦٦٤-و١٦٨٢م) ١١٣
٤- القتال حول وهران وتحريرها (١٧٠٥-١٧٠٨م) ١١٧
٥- الاسبانيون يعودون إلى وهران (١٧٣٢م) ١٢٨
٦- تبادل الاسرى والمعركة البحرية امام الجزائر (١٧٧٣م) ١٣٤
٧- الجزائر تدمر الحملة الاسبانية الكبرى (١٧٧٥م) ١٤٠
٨- معركة بحرية جديدة أمام الجزائر (١٧٨٤م) ١٥٠
٩- واخيراً تحرير وهران (١٧٩١م) ١٥٥
الفصل الثالث: ١٥٩
١- الجزائر (المحروسة) على طريق البناء والقوة ١٦١
٢- السياسة الاستراتيجية للجزائر ١٧١
٣- المجاهدون والحروب الثورية الاسلامية ١٧٨
قراءات ١٨٧
١- وهران وادب الحرب ١٨٩
٢- ترجمة رسالتين متبادلتين بين داي الجزائر والرئيس الامريكي. ١٩٤
المراجع الرئيسية للبحث ١٩٦

جهاد شعب الجزائر

٣

المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي

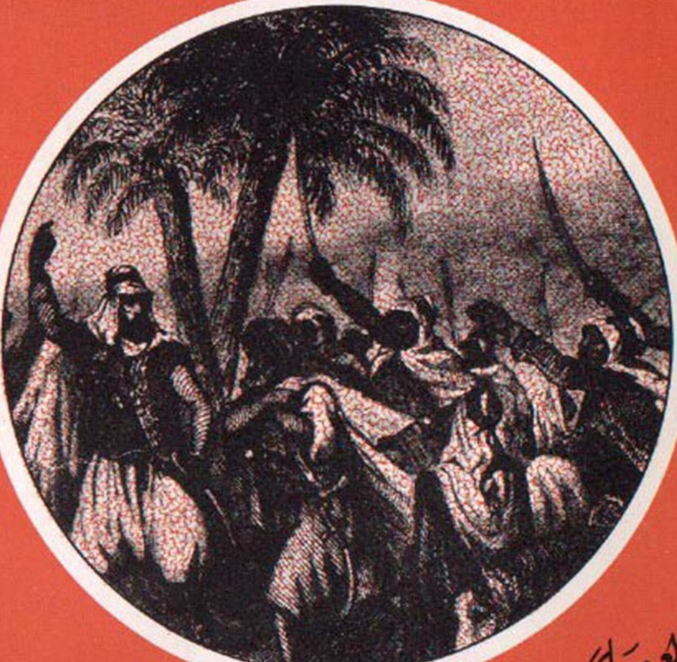

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

جهاد شعب الجزائر

المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي

(١٨٣٠ - ١٨٣٨م)

بسّام العسلي

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

(c) دار النفائس

[illegible] ، ص.ب: ٦٣٤٧ ـ ١١ ـ هاتف: ٨١٠١٩٤ ـ برقياً: دانفايسكو

الإهداء

إلى أرواح الشهداء
من الرواد الأوائل في مجابهة
الهجمة الصليبية (الاستعمارية)
والذين أضاؤوا بدمائهم درب الجهاد
فسارت جموع المجاهدين على خطاهم حتى النصر.

بسام

المقدمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة،

ومع هذه البداية يكون قد مضى على احتلال الجزائر قرن ونصف من عمر الزمن. ففي سنة (١٨٣٠ م) اقتحمت جيوش الغزو الافرنسي أرض الجزائر الإسلامية في عملية قرصنة وحشية عجزت عن مثلها جيوش البرابرة. وكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد عرف باسم (عصر الاستعمار).

ومع بداية سنة (١٩٨٠ م) يعود العالم العربي- الاسلامي ليعيش تجارب غير بعيدة في ملامحها العامة عن تلك التي عرفها منذ مائة وخمسين سنة.

الحرب واحدة وظواهرها متنوعة وأشكالها متباينة، غير ان هذا التنوع وذاك التباين لا يستطيعان إخفاء هدف هذه الحرب الشرسة وطبيعتها.

لقد كانت عملية غزو الجزائر- تحت راية الصليبية- هي بداية صراع مرير خاضه شعب الجزائر المجاهد تحت راية الاسلام، طوال فترة (عرفت بليل الاستعمار). وكان هذا الليل الطويل حافلاً

بالتجارب الثوروية وأعمال الصراع المسلح. ولم تعد هذه التجارب الثوروية ملكاً للجزائر وأهلها بقدر ما أصبحت ملكاً لشعوب العالم كله، وبصورة خاصة تلك التي عانت من (تجربة الاستعمار) ولا تزال تعاني من (رواسبه).

وتجربة الجزائر هي تجربة (فردة) فقد بدأ الاستعمار بالجزائر وانتهى فوق أرض الجزائر. وكان الجهاد طوال هذه الفترة مميزاً بخصائصه، مميزاً بأساليبه، مما حمل الكاتب العسكري الافرنسي بلوفر- على الاعتراف بهذه الخصوصية، فصنفها في إطار «الحروب الثوروية الاسلامية». وقد يكون من غير المهم الأخذ برأي الغربيين في المنجزات الثوروية للعالم العربي الإسلامي، ولكن من المهم أن يعرف العرب- المسلمون أهمية تجاربهم الثوروية، لأن هذه المعرفه تجعلهم أكثر قدرة على الالتزام بأسس «أصالتهم الذاتية».

تجربة (الجزائر المجاهدة) هي تجربة فردة، وقد يكون العرب المسلمون أحرى من غيرهم بمعرفة أبعاد هذه التجربة والافادة منها. وقد يكون من الصعب الوصول الى هذه الأبعاد إن هي لم تستند إلى بداياتها الاولى. ومن هنا تظهر أهمية العودة إلى تلك البدايات في مقاومة الهجمة الاستعمارية. لقد تميزت المقاومة الجزائرية بمجموعة من الظواهر التي ارتسمت ملامحها الأولى مع بدايات الغزو، ثم تطورت هذه الظواهر من خلال التفاعل المستمر بين قوى القمع الاستعماري وقوى الجهاد الإسلامي. وحاولت الصليبية تغطية كل سوءات الاستعمار، غير أنها فشلت في ذلك. وحاولت قوى القمع الاستعماري تدمير قواعد الصمود الإسلامية بتدمير المسلمين عقيدة وفكراً وحتى عبادة بتدمير المساجد

والاستيلاء عليها. غير أن ذلك كله ما زاد الجهاد إلا اتقادا، وما زاد من ألق الاسلام إلا توهجاً. فانطلقت الثورات المتتالية من المساجد ـ من قواعد الصمود ـ.

وحاولت فرنسا الاستعمار تدمير العرب، واللغة العربية، لأنها لغة القرآن، لغة الصمود. وهنا كان فشلها الكبير أيضاً، فكانت الصيحة المفجرة لكل ثورة ولكل معركة هي صيحة الجهاد عند العرب ـ المسلمين «الله أكبر».

وتنتصر الجزائر. ويعود الصراع من البداية، والى البداية.

غير ان أساليب الصراع تختلف، وطرائقه تتباين، لكن طبيعته ثابتة لا تتغير.

ومن هنا أيضاً تأخذ التجربة الجزائرية كل أهميتها، وتصبح ملكاً للعالم العربي ـ الاسلامي كله. وهذا ما يدفع الى (ضرورة التعرف عليها) وتذكرها دائماً، والتعلم منها.

(وقل رب زدني علماً)

بسام العسلي

وجيز الأحداث على الساحة الاوروبية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١١٩٨	١٧٨٣	نهاية حرب الاستقلال الامريكية.
١٢٠٤	١٧٨٩	انفجار الثورة في باريس وتدمير سجن الباستيل.
١٢٠٨	١٧٩٣	اعدام لويس السادس عشر، اعلان اسبانيا وانكلترا الحرب على فرنسا. تقسيم بولونيا بين روسيا وبروسيا والنمسا.
١٢١١	١٧٩٦	تعيين بونابرت قائداً للجيش الافرنسي في ايطاليا.
١٢١٢	١٧٩٧	انتصار الافرنسيين على الهولانديين والنمساويين.
١٢١٤	١٧٩٩	استئناف الحرب بين فرنسا والنمسا، ومساعدة روسيا للنمسا، هزائم الافرنسيين المتتالية في ايطاليا.
١٢١٥	١٨٠٠	عبور نابليون جبال الالب وهزيمة النمساويين في مارنجو.
١٢١٩	١٨٠٤	تتويج نابليون امبراطوراً على فرنسا.
١٢٢٠	١٨٠٥	معركة الطرف الأغر.
١٢٣١	١٨١٥	هزيمة نابليون في واترلو وارسال نابليون الى (سنت هيلانة) وتنصيب لويس الثامن عشر على عرش فرنسا.
١٢٤٠	١٨٢٤	موت لويس الثامن عشر، وتنصيب خلفه (شارل العاشر).
١٢٤٦	١٨٣٠	ثورة فرنسا وخلع شارل العاشر وتنصيب لويس فيليب.
١٢٥٨	١٨٤٢	حرب الافيون وفتح خمس موانىء في الصين للتجارة الاجنبية
١٢٦٥	١٨٤٨	ثورة فرنسا الثالثة، وسقوط لويس فيليب، واقامة الجمهورية الافرنسية الثانية.
١٢٧٠	١٨٥٣	نابليون الثالث يحول الجمهورية الثانية إلى امبراطورية.
١٢٧١	١٨٥٤	معاهدة يوكوهاما، وفتح اليابان موانئها للتجارة الاجنبية.
١٢٧٣	١٨٥٦	معاهدة فيينا، وتقييد حرية (روسيا وتركيا).

وجيز الاحداث على الساحة الاسلامية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٢١٣	١٧٩٨	غزو نابليون لمصر، وتدمير اسطوله في معركة (أبي قير).
١٢٢٦	١٨١١	محمد علي باشا والي مصر يفتك بالمماليك ويبيدهم.
١٢٣٧-١٢٥٤	١٨٢١-١٨٢٩	ثورة اليونانيين ضد العثمانيين بتحريض من روسيا.
١٢٤٢	١٨٢٦	السلطان محمود الثاني يبيد الانكشارية.
١٢٤٣	١٨٢٧	معركة (نافاران) وتدمير الاسطول العثماني من قبل دول الحلف الثلاثي.
١٢٤٧	١٨٣١	الحملة المصرية على سورية بقيادة ابراهيم باشا (ابن محمدعلي باشا)
١٢٤٨	١٨٣٢	ابراهيم باشا يهزم العثمانيين قرب قونية.
١٢٤٩	١٨٣٣	صلح (كوتاهية) وتوقيع معاهدة الصلح الروسية العثمانية.
١٢٥٦	١٨٤٠	مؤتمر لندن لتسوية العلاقات العثمانيه المصرية.
١٢٥٨	١٨٤٢	ثورة الدروز، واعادة تنظيم لبنان.
١٢٦٦-١٢٦٩	١٨٤٩-١٨٥٢	النزاع بين الدول العظمى على الاماكن المقدسة في فلسطين
١٢٧٠	١٨٥٣	حرب القرم.
١٢٧١	١٨٥٤	العثمانيون يصمدون في قلعة سلسترة في وجه الروس. وهزيمة الروس على نهر الما.
١٢٧٧	١٨٦٠	بدء العمل في ترعة السويس، ومذابح النصارى في بلاد الشام.

وجيز الأحداث على ساحة الجزائر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٣١	١٨١٦	اسطول انكليزي- هولاندي مشترك يهاجم الجزائر
١٢٤٠	١٨٢٤	حملة انكليزية ضد الجزائر.
١٢٤٣	١٨٢٧	الداي حسين يطرد القنصل الافرنسي بسبب استفزازه للداي. وفرنسا تعلن الحرب على الجزائر.
١٢٤٦	١٨٣٠	بداية حرب استعمار الجزائر.
١٢٤٩	١٨٣٣	احتلال وهران.
١٢٥٣	١٨٣٧	احتلال قسنطينة.

﴿يأيها الَّذينَ آمَنُوا مَالكُمْ إذا قيلَ لكُمْ آنفُروا في سَبيلِ اللَّه اثاقَلتم إلى الأرض، أرضيتم بالَحيوٰة الدنيا منَ الآخرة، فما متاعُ الحَياة الدنيا في الآخرة إلا قليلُ. إلا تنفروا يعذبكم عَذاباً أليمًا، وَيَستبدلْ قَوماً غيركم، ولا تَضروهُ شيئاً واللَّهُ على كلِّ شيء قدير﴾

(سورة التوبة. الايتان ٣٨ و ٣٩)

الفَصْلُ الأوّل

١ـ الموقف في دار الخلافة العثمانية
٢ـ محمد علي باشا في مصر
٣ـمعركة نافاران (١٨٢٧)

١ـ الموقف في دار الخلافة العثمانية

بدأ القرن التاسع عشر وهو يحمل معه بدايات التحول الحاسمة في غير مصلحة العالم الاسلامي، وأخذت الضربات المتلاحقة والمتسارعة تنزل بالامبراطورية العثمانية (الخلافة) بعد أن استنزف الصراع المستمر جهد طاقتها، وبعد أن أخذت الدولتان المجاورتان لها (بصورة خاصة) تتوسعان على حسابها، فقد سبق لدولة روسيا والنمسا أن انتزعتا قسماً كبيراً من أراضيها، لا سيما بعد أن ضمت روسيا اليها ولاية الكرج (جورجيا) سنة ١٧٨٤، وصار بامكانها تهديد دار الخلافة الاسلامية تهديداً مباشراً. ورافق ذلك ثورة صناعية في الغرب، أدت الى زيادة القدرات في دوله ـ وبصورة خاصة في فرنسا وانكلترا ـ وبدأت عملية البحث عن الأسواق الجديدة في العالم للحصول على المواد الأولية وتسويق المنتجات. ولما كان العالم الاسلامي يمسك بالتجارة الدولية ومفاتيح البحار، فقد أخذ البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك عن طريق ما عرف (بالاستعمار). وتوجهت الاطماع بالدرجة الاولى لتمزيق وحدة العالم الاسلامي، خارجياً وداخلياً، وكان باستطاعة الدول العظمى استخدام عامل التحريض (القومي والوطني) لتدمير القلعة

الاسلامية من الداخل، وظهرت نتائج التحريض بسرعة على المسرح الاوروبي.

وأمام هذه الأخطار مجتمعة ظهرت حاجة الخلافة العثمانية لاعادة التنظيم الشامل في كل أجهزتها ومؤسساتها. ولم تعدم دار الخلافة وجود شخصيات اصلاحية متفتحة تنزع الى الاصلاح، وكانت المؤسسة العسكرية التي أحرزت فيما مضى أعظم الانتصارات، قد انتهت الى مرحلة مذهلة من التدهور والضعف والانحطاط. وكان لا بد من العمل على البدء باصلاح هذه المؤسسة قبل كل شيء لمجابهة الاخطار الخارجية. وعندما حاول السلطان (سليم الثالث) اصلاح جيشه، وتطويره، مستفيداً في ذلك من تجربة نابليون بونابرت، تصدت له طبقة (قيادة الانكشارية) فتآمرت مع حاميات قلاع البوسفور. وارغمت السلطان عن التنازل عن العرش في ٢٩ ايار- مايو- سنة ١٨٠٧ م. بعد أن تم اقتياد جميع انصار الاصلاح الى ميدان السباق (آت ميدان) حيث تمت ابادتهم عن آخرهم.

تولى مصطفى الرابع- ابن عم سليم الثالث - الخلافة، غير أنه لم يتمكن من الاستمرار في الخلافة أكثر من سنة واحدة، أقدم بعدها (مصطفى البيرقدار- حاكم سيلسترة)[1] على خلعه ولما كان (السلطان سليم السابق) قد قتل، فقد خلفه على الخلافة أخوه (محمود الثاني: ١٨٠٨- ١٨٣٩) الذي وضع نصب عينيه تطوير الخلافة وزيادة قوتها والقضاء على (الانكشارية). وأظهر في البداية

---

(١) سيلستره: SILISTRIE مدينة بلغارية تقع على الدانوب الادنى- الاسفل- وكانت مركزا لامارة الاقاليم المحيط بها، تميزت بقلاعها القوية.

ومعه مصطفى البيرقدار رضوخه للعناصر المقاومة للاصلاح. وعندما تعرض للهزائم المتتالية أمام القوات الروسية وخسر (نيقو بوليس وسيلسترة وروسجق) واضطر الى توقيع صلح (بوخارست في ٢٨ أيار- مايو- سنة ١٨١٢) وهو الصلح الذي اعترف فيه بنهر البروت حداً فاصلاً بين روسيا ودار الخلافة والذي أعلن فيه التزامه بعدم أي توسع جديد في المستقبل، وجد أن الفرصة قد باتت سانحة للمضي في اصلاحاته، غير انه كان ملزماً على التحرك بحذر بسبب مخاوفه من حرب يشنها (نابليون) على حدود البلاد الاسلامية، وبسبب الثورات المتفجرة في أوروبا. فمنذ سنة (١٨٠٤ م) كانت بلاد الصرب قد اعلنت الثورة بقيادة (قره جورج- قره يوركي) التي قدمت دعماً كبيراً لروسيا في حربها ضد العثمانيين مقابل دعم الروس لهم من أجل الاستقلال. ثم تابع (قره جورج) حربه ضد الخلافة العثمانية، ولكن الهزائم التي نزلت به أرغمته على الفرار الى النمسا. فقام مقامه (ميلوش اوبرنوويج). وفي سنة ١٨٢٠ اندلعت نار الثورة اليونانية التي اذكتها الحماسة الأوروبية ـ الصليبية ـ. وأدت هذه الثورة الى تعقيدات كبيرة بسبب منافسات الدول العظمى على استثمارها. وكان من أبرز نتائجها، حرمان بلاد الخلافة العثمانية من اقليم له أهميته العظمى (من الناحية الجيو- استراتيجية ومن الناحية الاقتصادية والبشرية). وتبع ذلك ظهور ثورات في الروم ايلي والاناضول غير أن الخلافة العثمانية نجحت في القضاء على هذه الثورات، واستعادت هيبتها في الاقاليم. وبرهن جند الانكشارية في هذه المعارك جميعها على ضعفهم وقصورهم. وأفاد (السلطان محمود) من فترة الانتظار والهدوء، فأسند معظم مناصب الدولة الى رجال أكفاء ومخلصين. وأقدم بعد ذلك على الخطوة الحاسمة في

ربيع سنة ١٨٢٦ م حيث أصدر أمره بانشاء جيش نظامي جديد اطلق عليه اسم (معلم اشكنجي) أي (الحرس المدرب) وذلك بعد أن اتخذ التدابير الوقائية اللازمة تحت حماية الجيوش الأناضولية التي كان حاكم (بيقوز- أو بكقوز) قد حشدها على الضفة الشرقية من البوسفور. واستخدم لتدريب هذا الجيش المدربين الذين ارسلهم محمد علي والي مصر لهذه الغاية. وأمكن للسلطان ان يكتسب الى جانبه ضباط الانكشارية، فأقروا خططه الاصلاحية، في حين ازدادت معارضة من دونهم من الجند لهذا الاصلاح شدة وحدة. وحدد يوم ١٨ حزيران- يونيو ١٨٢٦ موعداً لعرض الجيش في (كآغد خانه) قرب استانبول. ولكي يحول الانكشارية دون هذا العرض، فقد اعلنوا العصيان قبل موعد العرض بثلاثة أيام، واكتفوا بادىء الأمر بالمطالبة بالغاء قوانين التدريب المستحدثة للجيش الجديد. ولكن السلطان أمر- بموافقة العلماء- بأن تنشر الراية النبوية- وكأنه يبغي قتال فئة من الكفار. وأوعز الى الجيش، بعد أن حشد على وجه السرعة، بتطويق الانكشارية في (آت ميدان) القائمة تجاه ثكناتهم، ولفظ المفتي اللعنة عليهم، ومن ثم دارت رحى مجزرة لم يسلم من هولها أحـد منهم، وقتل نحو الالف من الانكشارية في الأقسام الأخرى من المدينة وألقيت رايتهم ولباسهم المميز أي القلنسوة في الوحل وهدمت ملاهيهم ومقاهيهم التي ألفوا التردد عليها. ليس ذلك فحسب، بل حلت الطريقة (البكتاشية) المتصلة بالانكشارية، كما حلت فرق الاطفاء والحمالين ذات الصلة الوثيقة بها. ولم تغفل الدولة رجال المدفعية وحرس البوسفور، الذين تعلقوا هذه المرة بأهداب الولاء، على الرغم من أنهم كثيراً ما أيدوا الانكشارية وتضامنوا معهم، فقضت على كل امرىء منهم آنست

فيه ميولاً مؤيدة للانكشارية.

كانت المنافسة الاستعمارية الافرنسية- الانكليزية قد قطعت شوطاً بعيداً في مجال التوغل في المشرق الاسلامي، ولم تكن حملة نابليون على مصر، وتدمير الاسطول الافرنسي في أبي قير، سوى مظهراً من مظاهر هذه المنافسة (للسيطرة على تجارة الشرق - عبر طريق الهند) وقد اخذت فرنسا في انتهاج سياسة السيطرة على الشرق من خلال والي مصر (محمد علي) الذي وجه قواته الى اليمن، وبذلك وجدت بريطانيا نفوذها مهدداً بشكل قوي، ووجدت طريق الهند مقطوعة. وعلى كل حال، فان صراعاً متبايناً في الحدة كان يجري- منذ سنة ١٨١٧ م- بين القبائل اليمنية وبين القوة العسكرية المحدودة للحاكم الانكليزي في (مخا). وعند وصول الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا نفسه، ارسلت بريطانيا الكابتن (سادلر) بسرعة من بومباي- في سنة ١٨١٩- ليتابع عن قرب العمليات العسكرية ويبحث عن وسائل تعاون (انكليزي- مصري) لاعادة الهدوء الى البلاد. وكان الباب العالي ومحمد علي قد أدركا المطامع الاستعمارية الكامنة وراء هذا المسعى. فكتب السلطان الى والي مصر محذراً من النوايا الانكليزية في ١٥ تشرين الاول- نوفمبر- ١٨١٩. رسالة جاء فيها: «تهدف السياسة الانكليزية- بالنسبة للقضية اليمنية، الى ان تحتل تدريجياً بعض المواقع من أجل التمهيد لغزو محتمل لهذه المنطقة وايجاد الوسائل للتدخل في شؤونها»[1] ومع ذلك، فقد تدخلت بريطانيا بقواتها ضد (مخا)

(1) MOUSTAPHA FAHMI. EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMMED ALI ET LA QUESTION D'ORIENT. PARIS 1930P.60

وقصفت المدينة في كانون الاول- ديسمبر ١٨٢٠، وأرغمت الإمام على التوقيع على معاهدة سلام، وعلى احترام حقوق المقيم الانكليزي فيها، ممثل شركة الهند، في (١٥ كانون الثاني- يناير- ١٨٢١). ويذكر هنا أن بلاد المشرق الاسلامي كانت تتعرض في تلك الفترة لموجات من الجواسيس الذين يحملون واجهات علمية، بهدف التمهيد لتنفيذ المخططات الاستعمارية ومنهم على سبيل المثال (عالم الاثنوبولوجيا والرحالة ج. ل. بوركاردت ١٧٨٤ ١٨١٩) والذي كان يجتاز الجزيرة العربية في ثياب حاج مسلم تحت اسم الشيخ ابراهيم، فأوقفه (محمد علي باشا والي مصر) في الطائف سنة ١٨١٤ م باعتباره جاسوسياً انكليزياً. وقد استجوبه والي مصر طويلاً حول السودان والنوبة وبلاد الحبشة. وقد اثارت المعلومات التي حصل عليها محمد علي اهتمامه، واخذ في التحدث عن مشروع لغزو- الحبشة، مما أزعج بريطانيا، فبعثت بسفيرها لمقابلة محمد علي والتحدث اليه، وفي ٢٠ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٢٠، أرسل السفير الانكليزي (سالت) نتائج مقابلته مع محمد علي باشا في تقرير، تضمن ما يلي:

«اغتنمت الفرصة لاعلن له بلهجة حازمة، بأن مشروع غزو الحبشة قد سبب لي بالفعل الماً حقيقياً لانني متأكد من أنه سوف لا يروق للحكومة البريطانية، إذ أننا نعتبر ان الحبشة واقعة تحت حمايتنا. ولقد لفت نظره الى أن الحبشة هي البلد الوحيد في أفريقيا الذي احتفظ بالدين المسيحي، والى أنها صمدت صموداً مظفراً خلال أجيال أمام هجمات المسلمين، والى أنه لا ينبغي لأحد أن يتوقع من أوروبا عامة، ومن انكلترا خاصة، ان تنظر بعدم المبالاة الى هذا البلد اذا ما تعرض للهجوم. وقد التزمت انا شخصياً بزيارة

هذا البلد لاقامة علاقات ودية مع حكامه. وهناك كثيرون من جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا يهتمون بمستقبل هذا البلد. وعندما رأى سموه موقفي الجدي، غير لهجته وطمأنني بشكل معبر الى انه قد تخلى منذ الآن عن كل مطمع فيها، وذلك بالرغم من أن هذه المنطقة تغص بالذهب وبالاحجار الكريمة، وبالرغم أيضاً من أن غزوه لها مضمون وذلك حتى لا يتورط ولو للحظة واحدة مع حكومتنا»[١].

ظهر بوضوح أن (محمد علي باشا) والي مصر، كان يخشى انكلترا، ويحسب حسابها، ولهذا فإن انكلترا لم تعد تهتم بتطوير العلاقات الافرنسية وهذا ما كتبه القنصل الانكليزي في الاسكندرية في رسالة له يوم ١٩ حزيران ١ يونيو) ١٨٢٧، جاء فيها ما يلي:

«ما هي القيمة السياسية لصداقة الباشا للافرنسيين؟ انها، حتى ولو افترضناها نتيجة شعور بالعرفان، بسبب النعم والعلاقات الشخصية فماذا يمكن ان تساوي؟ فلنتركهم اذن يتمتعون بسلام بكل فوائد محبة (محمد علي) ما دمنا قادرين على السيطرة عليه بالتخويف:. هذا ما يجب أن يكون أساس سياستنا. ضعوا قوة انكلترا الهائلة في كفة الميزان، وضعوا حب الباشا للمتملقين والمتزلفين الافرنسيين في الكفة الاخرى، وسترون كفة من سترجح؟ . . »[٢].

لقد ترافقت سياسة المنافسة هذه،بمشاريع تقسيم الامبراطورية العثمانية، ولم يعد الحديث عن تقسيم تركة (الرجل المريض) سرياً

1- Ibid : PP . 66 « 68

2 « E . B. BARKER SYRIA AND EGYPT UNDER THE LAST FIVE SULTANS OF TUR KEY . P. p. 51 «52

أو في الخفاء. فقد ظهر في باريس كتيبان يتضمنان تلخيصاً لبعض الأفكار التي ظهرت في القرن الثامن عشر حول انحطاط الامبراطورية العثمانية. وضرورة توزيع مقاطعاتها على الامم الاوروبية التجارية. وكان الكتيب الأول عبارة عن منشور مغفل بتوقيع. ج.ج. صدر سنة ١٨٢١ م بعنوان (آراء حول أزمة الامبراطورية العثمانية الراهنة) ويدعو المؤلف من جديد في هذا الكتيب الى طرد الاتراك من اوروبا، وتوزيع بعض المواقع الاستراتيجية في البحر الأبيض المتوسط على الدول الاستعمارية وتبعاً لذلك ينبغي على فرنسا أن تطالب بجزيرتي قبرص وكريت أما الكتيب الثاني فمنسوب الى مؤلف يدعى. ب.أ. دوفو (١٧٩٥ـ ١٨٧٧). ويحمل عنوان (حول تقسيم تركيا الاوروبية بين روسيا وانكلترا واليونان بواسطة فرنسا) ويقترح مضمون هذا الكتيب تكوين (امبراطورية يونانية) على أنقاض السيطرة العثمانية.

وفي هذه الاثناء، كانت مسألة العمل لتقسيم تركيا مسألة مطروحة فعلياً أمام الدبلوماسية الاوروبية. وفي ٤ تموز- يوليو- ١٨٢١ م. أرسل (نسرلود)[١] مذكرة دورية باسم روسيا موجهة الى الدول الكبرى يطالبها فيها بابداء رأيها بشأن مصير الامبراطورية العثمانية وكان القيصر يحث على التفاهم بين الدول الكبرى المعنية بشأن تقسيم كان يبدو له مستعجلاً ووشيكاً.

---

(١) - نسرلود: CHARLES ROBERT COMTE DE NESSERLODE دبلوماسي روسي، من مواليد لشبونة (١٧٨٠ـ ١٨٦٢ م) عمل مفاوضاً مطلق الصلاحية لقيصر روسيا أثناء مؤتمر فيينا، ووجه السياسة الخارجية الروسية ايام حكم الكسندر الأول ونيقولا الأول (من سنة ١٨١٦ وحتى سنة ١٨٥٦ م).

وبعد ذلك باسبوعين كانت الحكومة الروسية تقترح على فرنسا تحالفاً شكلياً حول هذا الموضوع. ولكن الدوق (ريشيليو) كان يطالب بمشروع حسي- عملي- وهذا ما كان يرفضه القيصر. ورغم ذلك، كان يبدو أن شاتو بريان يؤيد هذا المشروع الروسي. حتى انه أرسل من سفارته في روما رسالة دعا فيها وزيره الى التفاهم مع قيصر روسيا بشأن تقسيم عادل للمقاطعات العثمانية - الأوروبية: «اذا اردتم- القيصر- الذهاب الى القسطنطينية فقوموا مع الدول المسيحية بتقسيم عادل لتركيا الاوروبية. أما الدول التي ليست في مركز يسمح لها بالتوسع من جهة الشرق، فتحصل على تعويضات في مناطق اخرى». وهكذا كان وزير الخارجية الافرنسي (شاتو بريان)[1] مستعداً للتنازل بكل طيبة خاطر عن القسطنطينية لروسيا مقابل مطالبته بكولونيا وريناني لفرنسا. أما الحكومة البريطانية فكانت على ما يظهر تسير على درب منفرد لوضع خريطة جديدة للقارة. أما بروسيا التي كان يجب عليها ان تتخلى عن مقاطعاتها الشرقية في رينانيا، فقد كانت ستحصل بالمقابل على مملكة (الساكس) التي سيعوض على أصحابها بمقاطعة ميلانو، وكانت

---

(١) شاتوبريان: VICOMTE FRANÇOIS RENE DE CHATEAUBRIAND كاتب افرنسي من مواليد سانت مالو (١٧٦٨-١٨٤٨ م) سافر الى امريكا، وعاد الى فرنسا مع انفجار الثورة الافرنسية، ثم عاد فهاجر الى انكلترا سنة ١٧٩٢ ورجع الى فرنسا سنة ١٨٠٠ م. وكانت علاقاته مع نابليون بونابرت سيئة. وعندما رجعت الملكية عمل سفيراً لها في لندن، ثم وزيراً للخارجية من سنة ١٨٢٢- الى سنة ١٨٢٤ م. وكان أول كتاب اشتهر به هو (عبقرية المسيحية) الذي صدر سنة ١٨٠٢، ثم كتاب (الشهداء) الذي صدر سنة (١٨٠٩) و(الطريق من باريس الى القدس) الذي صدر سنة (١٨١١ م) وكتب كثيرة اخرى تميزت بالعبارة الرشيقة والاسلوب الاخاذ.

حدود هولاندا ستتغير أيضاً وفقاً لتلك المخططات. ولم يكن على كل حال هذا المشروع هو أول مشروع في أفق الديبلوماسية الغربية خلال تلك الفترة.

لقد كانت هذه الديبلوماسية المتنافسة (أحياناً) تسير بخطوات متوازية ومتكاملة، تشترك فيها انكلترا وفرنسا بالدرجة الاولى والنمسا وروسيا بالدرجة الثانية، ثم تأتي بروسيا بالدرجة الثالثة. وكانت هذه المنافسة تصل الى مستوى الصراع احياناً، غير أنها سرعان ما تصل الى الاتفاق عندما يكون الأمر متعلقاً بالسيطرة على العالم الاسلامي من خلال الهيمنة عليه، وهو الأمر الذي أدركه حاكم مصر في مرحلة متأخرة عندما تحدث الى القنصل الروسي وهو يسدي نصائحه بصمت واهتمام، ثم قال له: **«اني أرى بأن بروسيا في عداد الدول التي باتت تتدخل في شؤوننا كما لو كانت الحكومات الاربع الكبرى غير كافية، وكأن من الضروري انضمام هذه الدوله الخامسة ـ وأرى أن المنطق يخضع لقانون الأقوى»**[1].

---

(١) رينه كتاوي (حكم محمد علي) ١٩٢ ـ ٢٠٢ اصدار القاهرة.

٢ـ محمد علي باشا في مصر(١)

بقي المماليك هم القوة الحاكمة في مصر منذ نهاية الحروب الصليبية وامتد حكمهم لاكثر من ثلاثة قرون، حتى اذا ما جاء الفتح العثماني، لم يغير كثيراً من العلاقات التي كانت سائدة، غير أن حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ م) دمرتهم في معركة الهرم،

(١) محمد علي باشا، من مواليد قواله على الساحل المقدوني (١٧٦٩ـ ١٨٤٨). كان عمه يشغل منصب (متسلم- أو نائب والي) وفي ديوان عمه هذا تمرس محمد علي بالاعمال والمعاملات من غير أن يحظى بتربية مدرسية صحيحة. حتى اذا بلغ سن العشرين كان قد نجح في تجارة التبغ وعقد الصفقات فيها، والتبغ مادة التجارة الرئيسية في بلده الام. وظهرت عليه امارات النزوع الى السلطة وقوة الشخصية منذ نعومة اظفاره. وعندما قام (نابليون) بغزو مصر، فأرسل السلطان سليم الثالث بضع سفن حاملة جنوداً الى مصر في صيف سنة ١٧٩٩. وكان على (عم محمد علي) أن يبعث الى مصر أيضاً بكتيبة مؤلفه من ثلاثمائة رجل، فعهد الى ابنه الصغير بقيادتها، وعين (محمد علي) مستشاراً لابنه. ولم تكد الكتيبة تصل الى مصر حتى تولى محمد علي القيادة الفعلية واظهر في المعارك التي قادها ضد الافرنسيين حتى اكرههم على الجلاء عن مصر من الكفاءة القيادية ما أهله للوثوب بقفزة واحدة الى منصب القيادة العامة في سنة (١٨٠١). وفي سنة ١٨٠٥، اصبح حاكم مصر بدون منازع، مستعيناً على بلوغ مأربه بشيوخ الأزهر. ووافق السلطان على تعيينه والياً على مصر. ومنحه لقب (باشا).

وأرسلت الخلافة قوة لمحاربة الافرنسيين تولى (محمد علي الالباني- الارناؤوطي) قيادة كتيبة منها، ثم لم يلبث حتى افاد من التناقضات التي اعقبت اخراج الافرنسيين من البلاد. وأصبح في سنوات قليلة الحاكم المطلق لمصر، وأظهر من الغيرة على الدين، والرغبة في الجهاد، والعمل لبناء مصر، ما جعله يستحوذ على محبة أهل مصر الذين التفوا حوله وساندوه. وخلال هذه الفترة ترك للمماليك حرية الحكم في اعالي مصر، حتى إذا ما شرعوا في مفاوضة انكلترا (وكان محمد علي قد هزم جيوشها التي حاولت النزول الى البر، عند رشيد، في نيسان- ابريل- سنة ١٨٠٧) قرر التخلص منهم. ودعا زعماءهم الى القاهرة في آذار- مارس- ١٨١١، زاعماً انه يبتغي استشارتهم في أمر حملة يريد شنها على الوهابيين في بلاد العرب. وهناك اعمل السيف في رؤوسهم (في ١١ من الشهر نفسه) وكانت عدتهم ثلاثمائة رجل. فدانت مصر لمحمد علي كما لم تدن لحاكم آخر من قبله. غير أن جنوده الالبانيين (الارناؤوط) الذين كانوا لا يزالون خاضعين خضوعاً بعيداً لتأثير الروح العثمانية، اظهروا تهاوناً فحاول قمعهم بالقوة، وادى ذلك الى نشوب فتنة في القاهرة سنة ١٨١٦ استطاع محمد علي إخمادها دون عناء كبير. وعلى أثر ذلك سرح جنوده الالبانيين واستعاض عنهم بالفلاحين المصريين الذين دعاهم الى الخدمة العسكرية. وانطلق لاعادة تنظيم البلاد داخلياً وعسكرياً على اسس جديدة.

بدأ محمد علي بالعمل للامساك باقتصاد مصر بقبضة قوية، فقام باحصاء عام للأراضي، ثم وزعها على الممثلين الرئيسيين للمجتمع المصري الريفي على أساس الاستفادة منها مدى الحياة.

ومكنه ذلك من تدعيم نظام حكمه، وكسب تأييد جماهير السكان العاملة. وفرض نفسه في الواقع كمالك فعلي وحيد للبلاد وكسيد لمصائرها الحيوية. وبعدما حقق كل ذلك، اختط لنفسه سياسة داخلية وخارجية ذات جوانب متعددة ومتكاملة: كان يسيطر بقبضته الادارية القوية على ثروات وادي النيل الضخمة، وثروات المناطق التي ضمها اليه، وكان يفرض نفسه على السلطان العثماني الذي أنهكته التهدئة العسكرية» **ورأى اتباع سان سيمون، رواد اشتراكية الدولة، في شخص محمد علي حاكماً يحمل لواء نظريتهم الاقتصادية ويعمل على تطبيقها»** والتفت محمد علي بعد ذلك الى الصناعة: «فنشر في مالطا بتاريخ ٤ نيسان- ابريل- ١٨١٤ اعلاناً يدعو فيه العمال من كافة الاختصاصات الى التعاقد معه للعمل. وفي السنة التالية أمر وكلاءه في العواصم الأوروبية الكبرى أن يزودوه بعمال مهرة ومتخصصين في صناعة النسيج التي كان ينوي دفعها الى الأمام. لقد أدرك أنئذ أهمية تحويل المواد الاولية الوطنية في مصر نفسها وبيعها مصنعة الى الخارج. وهكذا بدأت اليد العاملة في الهجرة الى مصر. وفي أثناء ذلك أقدم على مصادرة العمال الحرفيين في القاهرة والمقاطعات للعمل في المؤسسات التي أنشأها». «والى جانب صناعة النسيج أقام محمد علي صناعات اخرى مثل صناعة السكر والزجاج والدباغة والورق والبارود والمنتجات الكيميائية، وعهد بهذه الصناعات الى خبراء اوروبيين من مختلف الجنسيات» «**كذلك برزت أيضاً سياسةالانفتاح والتودد تجاه الخبراء الاجانب. والغى محمد علي القوانين التمييزية، واطلق حرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية جهاراً وإنشاء المدارس والكنائس، ومنح المساواة خاصة بالنسبة لليهود**». واقبل

الافاقون والمغامرون لتجربة حظهم في مصر، وعندما حذره المقربون اليه من الاختيار المتسرع للاجانب أجابهم: «انني اعرف انه بين الخمسين شخصاً الذين يأتون ليعرضوا علي خدماتهم هناك تسعة واربعون يمكن اعتبارهم حجارة كريمة مزيفة. الا انني لا أستطيع ان اكتشف الجوهرة الحقيقة الوحيدة بينهم دون تجربتهم جميعاً، اني اشتريهم كلهم، وعندما اكتشف العنصر الحقيقي بينهم فانه يعوض علي الخسارة التي سببها لي الآخرون» «وأرسل محمد علي عشرات الطلاب في بعثات خارجية ـ الى فرنسا بصورة خاصة ـ وسافرت البعثة الاولى المكونة من أربعين طالباً سنة ١٨١٨ م. ونظمت ادارة ومراقبة الطلاب الى الجغرافي جوزيف أيوب، استاذ اللغة العربية في ثانوية (سانت لويس الكبير) وكانت الدراسة مجانية على نفقة الحكومة وتشمل كافة الاختصاصات. وكان محمد علي ينتظر عودة المتخرجين الأوائل من أوروبا، ووصول اتباع سان سيمون الافرنسيين لكي ينظم وزارة التعليم العام. **وأقام مطبعة بولاق التي بقيت منشوراتها ذات شهرة في تكوين الثقافة العربية المعاصرة، والتي وضع اساسها الكاهن (دوم رافائيل) الى جانب ترجمات لأفضل الكتب الافرنسية والانكليزية».**

وفي مجال تنظيم الجيش، اعتمد محمد علي على ضابط فرنسي قديم اسمه «سيف ـ وعرف في التاريخ العربي باسم ـ سليمان باشا»[1] ثم اقام المدارس العسكريه لكافة الاختصاصات. وفي نهاية

(١) سيف (SEVE) واسمه جوزيف (JOSEPH) ضابط افرنسي، خدم في روسيا وغروشي وواترلو. حتى اذا رجعت الملكية الى فرنسا، بقي بدون عمل طوال ثلاث سنوات في فرنسا، ثم يمم شطر مصر، فقدمه المهندس المعماري (باسكال كوست) الى محمد علي، الذي الحقه في خدمته كمهندس أولاً، ثم عهد اليه بعد ذلك بمهمة =

سنة ١٨٢٣، انتهى محمد علي من مرحلة التنظيم، ووقف يستعرض قواته الجديدة والى جانبه قنصلا فرنسا وانكلترا.

«كانت الحكومة الافرنسية تنظر دائماً بعطف كبير، وتشجع باستمرار هذه النهضة المصرية. وقد أرسلت الى محمد علي بعد ذلك بأسابيع قليلة بعثة عسكرية استقبلها محمد علي بترحيب كبير. وكانت الحكومة الافرنسية تهدف من وراء ذلك الى توجيه مجرى الاحداث لخدمة مصالحها، وقد وصلت البعثة الى الاسكندرية بقيادة الجنرال (بوير) في ٢٤ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٢٤ م. وفي السنة التالية (أب- اغسطس- ١٨٢٥) كان عدد ضباط البعثة قد ارتفع الى الضعف تقريباً. وكان الجنرال (بليارد) الذي تفاوض مع المراجع العليا بصدد هذه البعثة قد أعطى الجنرال- بوير- تعليمات ذات مغزى مستقاة من نصائح الوزارة الافرنسية» «**وكان على- بوير- أن يقنع محمد علي بعدة مبادىء وأن يجعله يتصرف بشكل يكسب فيه عطف أوروبا المسيحية. وهكذا فقد كان عليه أن يحمله على إعادة النظر بحملة المورة التي كانت تستنزف قوته العسكرية الناشئة بدون طائل، وتجعله على تعارض مع سياسة أوروبا المسيحية. فهو اذا ما حشد قواه من أجل اعادة البناء الداخلي عن طريق اصلاح البنى القائمة، فقد يجعله ذلك يحقق كسباً أكثر في نظر- العالم**

= تدريب الوحدات الجديدة في الجيش المصري. واعتنق (سيف) الاسلام في حزيران (يونيو) ١٨٢٤ ليؤكد انصهاره الكامل في النظام، غير ان معاونيه الافرنسيين الآخرين مثل (بلانا ودومرغ وكادو وكيسون وغيرهم) لم يحتذوا حذوه. وقد اسند هذا قيادة الفرق والكتائب الجديدة الى قادة مرتزقة من الافرنسيين والاسبانيين والايطاليين وسواهم. وأصبح (سيف) مستشاراً لابراهيم باشا في كافة حروبه. «المرجع: اوروبا ومصير الشرق العربي- جوزف حجار ١٢٠- ٢٦».

المتمدن- اما اذا أراد أن ينطلق في سياسة توسع وطنية - فان افريقيا وسوريا تشكلان امكانات عظيمة لا تحمل معها مجازفات ذات شأن».

«كانت الحكومة الافرنسية تفكر في الواقع باستخدام محمد علي لتنفيذ ما عجز نابليون بونابرت عن تحقيقه وهو السيطرة على مصر لتهديد طريق الهند. وعبر القنصل الافرنسي في القاهرة- دروفيني- عن هذه النوايا بصراحة تامة في رسالته الى وزير الخارجية الافرنسي (يوم ٧ آب - اغسطس- ١٨٢٦) حيث قال: «**ان عملية البناء العسكري للقوات المصرية التي عهد بها الى بعثة الجنرال الافرنسي، تمهد للاحداث التي يجب أن تجعلنا يوماً ما نمتلك هذا البلد» وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الافرنسية منصرفة لوضع مخطط أوسع شمولاً يضم المغرب الواقع على البحر الأبيض المتوسط. وقد اثار- دروفيني- نفسه فيما بعد اهتمام البإشا بهذا المخطط، الذي انتهى باحتلال الجزائر، حيث غادر بوير وكبار معاونيه مصر بعد ذلك مباشرة.**

لم تكن الدول الغربية - وبصورة خاصة فرنسا- تهتم بزيادة القدرة العسكرية المصرية طالما أنها تسيطر على توجيه هذه القدرة ضد الامبراطورية العثمانية ذاتها من أجل اضعاف العالم الاسلامي من الداخل، ولم تكن هذه الدول تتردد في اعطاء محمد علي ظواهر الحضارة الغربية - عن طريق اقامة المصانع طالما أن هذه المصانع ترهق مصر بأكثر مما تفيدها. وهذا ما أشار اليه القنصل الافرنسي في مصر: «**ان وضع محمد علي المالي يزداد خطورة شيئاً فشيئاً. . . وان تشبثه في اقامة المعامل التي لا تعود عليه بأي ربح قد استنزف**

مواردہ. ان بناء وصيانة المصانع تقدر هذه السنة (١٨٢٦) بعشرين مليون فرنك. ورغم هذا فقد أقدم على حفر عدة أقنية اضافية، وأمر بتنفيذ اشغال اخرى من هذا النوع».

خلال هذه الفترة كانت الثورة اليونانية تتطور باستمرار. وأراد الخليفة العثماني الافادة من قدرة الجيش المصري، فطلب الى محمد علي التدخل ووعده بمنحه (المورة)[1] ونفذ محمد علي ما طلبه السلطان. وكان ذلك مخالفاً لمخططات الدول العظمى التي أرادت استخدام قوة محمد علي ضد العالم الاسلامي لا ضد الصليبية الأوروبية، فبدأت الدول الأوروبية الغربية في التحرك المضاد. وتمخض هذا التحرك عن التقارب الانكليزي- الروسي الذي انضمت اليه فرنسا بعد فترة قصيرة، وبات هذا التقارب هو الذي يوجه الدبلوماسية الاوروبية نحو حل المسألة اليونانية. فبعد مفاوضات دقيقة تم التوقيع على بروتوكول (سان بطرسبورغ) في ١٣ آذار- مارس- سنة ١٨٢٥ م. وقبل الموقعون على هذا البروتوكول مبدأ التدخل الاوروبي في شؤون الامبراطورية - الخلافة- العثمانية من أجل ما أسموه (وضع حد للحوادث التي كانت تثير الاضطراب في المشرق). وأصبح موضع العالم الاسلامي اعتباراً من هذا التاريخ تحت مبضع التشريح الذي تمسك به القبضة الاوروبية، غير أن اوروبا حاولت قبل اللجوء الى التدخل المسلح،

---

(١) المورة: (MOREE)، شبه جزيرة في اليونان حالياً، حملت هذا الاسم منذ القرون الوسطى، وهي تتبع جغرافياً شبه جزيرة البيلوبونيز (PELOPONNESE) الواقعة الى جنوب اليونان والمتقطعة بدورها الى مجموعة من شبه الجزر التي تتصل ببرزخ كورينث، وتضم الارغوليد ولاكوني ومسينا واليد واخاي واركادي.

اقناع محمد علي بالتخلي عن الخلافة العثمانية، لانها لم تكن تريد له التدخل كطرف ثالث في الصراع الدائر بين الخلافة الاسلامية وأوروبا المسيحية، واخذت الدول الكبرى تغري خياله الطموح بمناطق اخرى من الامبراطورية العثمانية تكون (أكثر ربحاً) من ولاية المورة التي منحها له السلطان العثماني، فكان البعض يغرونه بخيرات سوريا، والبعض الآخر يصورون له بمبالغة النفوذ الذي سيكسبه من فتح بلاد المغرب العربي ـ الاسلامي. وكانت الديبلوماسية الانكليزية تريد له سوريا، فكتب وزير الخارجية الانكليزي (ستراتفورد كانينغ) الى قنصله في الاسكندرية (سالت) رسالة بتاريخ ١٠ حزيران- يونيو- ١٨٢٦ جاء فيها: «اذا استطعنا أن نحمل محمد علي على فهم مصالحه الخاصة، الى حد دفعه الى تبني وجهات نظرنا، فلا شك في أن مساهمته ستساعد على نجاح مفاوضاتنا. وسيكون من الافضل له التنازل عن جزء من الجزية التي سيدفعها اليونانيون مقابل احتفاظ ابنه بولاية سوريا» وكان ستراتفورد كانينغ قد أرسل مثل هذه التعليمات الدقيقة الى سفيره في القسطنطينية (جورج كانينغ) في الرابع من حزيران- يونيو- ١٨٢٦ كالتالي: «**ان اغراء محمد علي بسوريا كحل للازمة اليونانية يدخل في نطاق بروتوكول سان بطرسبورغ، فهل من الممكن اقناع والي مصر، بالتجاوب مع الوساطة بصدد المسألة اليونانية وذلك عن طريق اعطائه الأمل في ولاية سوريا، وبوعده، اذا كان سلوكه حسناً بمساعدة معينة في مشاريعه لبناء السفن؟ اني أفهم تماماً أن بروتوكول سان بطرسبورغ لا يعني استخدام القوة، إلا أنه لا يقول بأي رفض لهذه الوسيلة...**».

كانت عروض القنصل الافرنسي (دروفيني)[٨] المبطنة ومساعدة البعثة العسكريـة والبحرية تغذي أوهام محمد علي، وفي آب- اغسطس- ١٨٢٥، نزال الكولونيل ري ومعه عدد من التقنيين في الاسكندرية، ومعه عدة نماذج من المدافع الحربية قدمها (شارل العاشر) وكان ري مكلفاً باعادة تنظيم ترسانات ومعامل الاسلحة. وفي نيسان (ابريل) ١٨٢٧، وصلت ايضاً، بناء على طلب والي مصر، بعثة بحرية افرنسية اخرى. وبعد فترة قصيرة انضمت السفن الجديدة التي أوصى عليها في أوروبا الى اسطوله البحري (بين حزيران وآب - يونيو وأغسطس - ١٨٢٧) أي قبل هزيمة نافاران مباشرة.

عملت فرنسا بعد ذلك على تطوير علاقاتها مع مصر محمد علي باشا، وتوثيق عرى التعاون في كل المجالات. ففي ١٨ آب- اغسطس- ١٨٢٨، نزلت في الاسكندرية بعثة علمية تضم بين أعضائها الشاب (شامبوليون) والسيد (لونورمان) ورسامين وعالم طبيعي ومهندس معماري وكانت مهمة البعثة القيام بأبحاث تنقيب عن الآثار، وبفك رموز الكتابة الهيروغلوفية (المصرية القديمة). وفي الخامس والعشرين من الشهر ذاته، وصلت بعثة دبلوماسية اخرى مؤلفة من (الكونت دوسان يجي) ابن اخ المسيو (دوهيد دونوفيل) وزير البحرية. والمسيو كرو، من وزارة الخارجية، واجتمعت مطولاً الى محمد علي الذي كان يعيد بناء اسطوله ويرغب في توسيع ترسانته في الاسكندرية، وان يقيم فيها ورشات لبناء السفن بمساعدة التقنيين

---

(١) دروفيني : DROUYN DE . LIUYS EDOUARD ديبلوماسي (فرنسي، من مواليد باريس (١٨٠٥- ١٨٨١ م) أصبح وزيراً للخارجيه الافرنسية في عهد الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث).

الافرنسيين. وقد وقعت مهمة القيام بهذه العملية الصعبة على عاتق (لوفيبور دوسيريزي) الذي وصل في نيسان- ابريل من سنة ١٨٢٩م. وفي غضون عام ١٨٢٩ ايضاً وصل الى مصر (مسيو بوكي ديشان) والسيدة (ايد سانت ايلم) اللذان خلقا وضعاً ظريفاً ومسلياً لاقامتها، **وكان الهدف البعيد لهذا الغزل الافرنسي المصري الطويل هو احتلال المغرب العربي- الاسلامي- (أو الدويلات البربرية كما كانت تسميها فرنسا). وبعد هذه المكاسب الاولى التي حققها- دروفيني- حاولت بعثتا (هودر- و- لانفسدورف) دفع محمد علي الى هذه المغامرة الافريقية ضد مقاطعات شبه مستقلة. الا أن رفض باشا مصر كان مهذباً. فقد كان هناك سببان رئيسيان لإيقافه عن سلوك هذه الطريق الخطرة والبعيدة: اولها التحالف مع أمة مسيحية ضد المسلمين، وثانيهما، ادراكه بأنه يستعمل اداة لهذا الاحتلال. ولقد صرح أمام دروفيني: بان مثل هذا التحالف قد يكون قاضياً بالنسبة اليه، وان العالم الاسلامي قد يتخلى عنه ساخطاً. ثم انه كان يعرف مدى معارضة انكلترا لمثل هذا التوسع الافرنسي وهو الذي كان يعير السياسة الانكليزية- طوال حياته- حذراً حقيقياً»[1].**

واذا كانت فرنسا لم تكسب اقحام قوة محمد علي في المغرب العربي الاسلامي، فيكفيها منه انها عزلت المغرب العربي الاسلامي عن الامبراطورية العثمانية، وضمنت حياد قوة مصر عند تدخلها ضد دول المغرب.

---

(1) G. DOUIN (L'EXPEDITION D'ALGER) PARIS 30

٣ـ معركة نافاران (١٨٢٧ م)[1]

اندلعت نار الثورة اليونانية ضد الخلافة العثمانية بزعامة (ابسلانتي) في سنة ١٨٢١ م. وفي سنة ١٨٢٣ اعترفت انكلترا باستقلال اليونان، وحذت روسيا حذوها حفظاً لنفوذها في البلقان، وانضمت اليهما فرنسا. فتم تشكيل التحالف الثلاثي. وأرسلت مذكرة بذلك عن طريق انكلترا، لانذار الخليفة، غير أن السلطان محمد رفض الانذار، وأنكر على دول اوروبا مجتمعة التعرض لشؤون السلطنة العثمانية، وعلى أثر ذلك بدأت دول الحلف في تنظيم قواتها للتدخل المسلح، واستثارة الرأي العام المسيحي كله تحضيراً لحرب الانفصال الاولى ضد العثمانيين، مدعمين في ذلك باندفاع رومانسي ألهب مشاعر اوروبا كلها ودفعها لحمل راية الصليبية. ومقابل ذلك طلب السلطان محمد مساعدة جيش محمد علي لسحق هذه الانتفاضة، وفي ١٦ كانون الثاني ـ يناير ـ سنة ١٨٢٤، صدر مرسوم (فرمان) يقضي بالتنازل عن ولاية المورة

---

(١) نافاران: (NAVARIN) مدينة في البيلوبونيز، اقليم مسينا، وبها خليج على البحر الايوني.

لمحمد علي. فتم بذلك تكليفه بحكم هذه المنطقة الثائرة حكماً فعلياً. وفي العاشر من شهر تموز التالي، كان ابراهيم باشا- ابن محمد علي- يبحر من الاسكندرية باسطول مؤلف من (٦٣) بارجة و(١٠٠) زورق نقل وبجيش قوامه (٦٠) ألف رجل. وكان يرافق ابراهيم باشا هيئة اركان نصفها أوروبي، ونصفها شرقي. وامكن لهذا الجيش أن يقضي على الثوار اليونانيين، ويدمرهم مع مدربيهم ومعاونيهم وانصارهم الاوروبيين. واهتمت اوروبا بهذا التطور الذي احبط سياستها الرامية الى تحرير اليونان، ودفعت الدول الصليبية الكبرى، للمرة الاولى منذ مائة عام، على التشاور والتحالف للقيام بهجوم مضاد. وكان امبراطور روسيا- نيقولا- هو أول من استثمر هذا التحالف فوجه انذاراً مباغتاً الى الخليفة العثماني يوم ١٧ آذار- مارس - ١٨٢٦م طالبه فيه بجواب حاسم خلال ستة اسابيع، والا فسيقطع العلاقات الديبلوماسية ويحمله كل العواقب المترتبة على مثل هذا الإجراء. وفي يوم ٨ أيار- مايو- وجدت تركيا نفسها مرغمة على القبول بفقرات هذا الانذار الذي كان يقضي بمنح مقاطعات مولدافيا وفالاشيا وصربيا البلقانية استقلالها الذاتي. وفي أثناء ذلك كان الاتفاق الروسي الانكليزي قد رسم بالضبط حدود هذا الاستقلال الذاتي الذي فرض على الباب العالي، تحت طائلة تدخل مسلح تشترك فيه فرنسا ايضاً، وكان يقصد من وراء ذلك إيقاف تقدم الجيش المصري الذي كان يستعد لمهاجمة أثينا بعد ان احتل (ميسولونجي).

تابعت القوات العثمانية - المصرية القضاء على ثورة المورة، وأرسل السلطان دعمًا إلى (ابراهيم باشا) يتكون من (٤) آلاف

جندي من المشاة و(٥٠٠) من الفرسان. والقى مراسيه الى جانب الاسطول المصري في نافاران. وعلى اثر ذلك اجتمع مؤتمر لندن- الذي لم تشترك فيه النمسا- يوم ٦ تموز- يوليو- ١٨٢٧، وأسفر المؤتمر عن معاهدة لحل الازمة التركية- اليونانية بالقوة - اذا ما تطلب الأمر. وأرسلت هذه الدول اساطيلها الى الشرق لانفاذ قرارها، وارسلت الاميرالية البحرية الانكليزيه الى قائد اسطولها في البحر الابيض المتوسط (الاميرال كاردنجتن) بتلقي الأوامر من سفير انكلترا في القسطنطينية. فأقلع الاميرال الانكليزي من (ازمير). ورافقه الاسطول الافرنسي بقيادة (الاميرال ريني) وتوجها معاً الى (نافاران) في جنوبي- غربي المورة ولحق بهما الاسطول الروسي. وكتب الاميرال الانكليزي الى (ابراهيم باشا) يطلب اليه التوقف عن ضرب اليونان ريثما تنتهي المفاوضات بين السفراء والباب العالي. فوعدهم ابراهيم باشا وعداً شفهياً بانه لن يحرك اية قوة ضد اليونان حتى ترد اليه اوامر جديدة من الباب العالي.

واستمر اسطول الحلفاء في محاصرة (نافاران) والاسطول الاسلامي. ورأى قائد الاسطول اعمدة من الدخان تتصاعد في الموره، فكتب الاميرال الانكليزي من جديد لابراهيم باسم الحلفاء، أن يتوقف عن كل نشاط عسكري في المورة. فورد له جواب من اركان حرب ابراهيم باشا: «بانه غاب منذ يومين ولا يعرفون له مقراً». ودخلت اساطيل الحلفاء على الفور مياه (نافاران) وحلّت بين البوارج التركية والمصرية. ودارت معركة حاسمة تركز فيها الجهد على الاسطول التركي- العثماني، وفي ظرف (٦) ساعات غرقت قطع الاسطول العثماني بكاملها مع بعض القطع المصرية. ولم تشرق شمس يوم ٢٢ تشرين الاول-

اكتوبر- ١٨٢٧ حتى كان الحلفاء قد دمروا القدرة البحرية العثمانية، ونفذوا العمل الذي بدأته المحالفة المقدسة سنة ١٥٧١م. وكان ضياع هذه القدرة البحرية هو نقطة التحول الحاسمة في الصراع الاسلامي- الصليبي. اذ أنها فصلت ما بين المشرق الاسلامي- والمغرب الاسلامي والذي كان البحر وسيلة الاتصال الاساسية فيه. وخسر العثمانيون اكثر من مائة بارجة وسفينة لم يكن من السهل تعويضها.

استجاب الباب العالي لهذا الهجوم الوحشي الذي تم في رابعة السلم، فاستولى على جميع القطع البحرية الأجنبية الراسية في القرن الذهبي. وبعد مفاوضات فاشلة، غادر ممثلو الحلف الثلاثي (استانبول). غير أن الحرب على الباب العالي لم تعلن، وبدأتها روسيا في ايار- مايو- ١٨٢٨ م بعد استعدادات ضخمة. وعلى الرغم من ذلك فقد عجزت الجيوش الروسية في السنة الاولى عن احراز أي نصر، سواء في البلقان، أو في القبق (القوقاز)، فلما كان ربيع سنة ١٨٢٩ تولى الامير (ديبتش) قيادة الجيوش الروسية في اوروبا. فحاصر (شملا) التي اوقفت تقدمه من قبل، وتابع تقدمه حتى (أدرنة) حيث فرض شروط معاهدة الصلح على السلطان في ١٤- ايلول- سبتمبر- ١٨٢٩ م. وتخلى العثمانيون بموجب هذه المعاهدة للروس عن جزر الطونة (الدانوب) والمقاطعات التركية الواقعة في (القبق- القوقاز) وارغم السلطان ايضاً على الاشتراك في معاهدة لندن، فاجبر بذلك على الاعتراف باستقلال اليونان.

وصل خبر هزيمة الاسطول الاسلامي في (نافاران) الى

الشرق في مطلع تشرين الثاني- نوفمبر- وإذ توقع حكام مصر وسوريا هياج الجماهير، اصدروا الأوامر المشددة لحماية القناصل وجاليات التجار الاوروبيين. وقد نقل القنصل الروسي في الاسكندرية هذه الوقائع الى حكومته بتاريخ ١٣ كانون الأول - ديسمبر- ١٨٢٧. واضاف ان خبر الهزيمة لم يحدث النتيجة المرجوة: أي أن يرضخ السلطان لمطالب الحلفاء. وكانت ردة الفعل الاولى لمحمد علي عند قراءته هذه الاخبار ان هتف قائلاً: (الاقوياء دائماً على حق). وبعد هذا بقليل- أي في يوم ٢٧ كانون الاول- ديسمبر- كان القنصل الروسي- بزوني- ينقل الى الاميرال- هايدن- الذي كان في- مالطا- الحالة النفسية لمحمد علي بقوله: **«. . . ان حدث نافاران لم يؤثر على نفسية محمد علي، وانه افاد من هذه الفرصة ليكرر بانه، بصفته طائعاً لارادة السلطان، لا يأسف لفقدان سفنه، وان الخليفة سيجده دائماً مستعداً لبذل كل الجهود الممكنة لمساعدته اذا ما قرر استئناف الحرب، أما بالنسبة للنكبة التي حلت باسطوله في نافاران فأشار الباشا بكل برود الى انه كان يتوقع هذا»** وعندما اطلع القنصل محمد علي على ما نشرته الصحف عن قضية نافاران، وعن العدوان الذي قام به الاتراك، اعلن هذا الأخير **«بأن هذا العدوان لم يصدر عن هؤلاء، ولكن الاقوياء يريدون دائماً أن يكونوا على حق»** لم يفصح محمد علي للقنصل، وهو الدبلوماسي المحنك، بكل ما كان يفكر به، بالرغم من أن هذا الأخير كان مكلفاً من قبل الاميرال الروسي- هايدن- بتاريخ ١٧ كانون الاول- ديسمبر- بالتأكيد له بأن الدول الكبرى لم تكن تريد شيئاً بشكل مباشر من مصر، ولا من الامبراطورية العثمانية، ولكنها كانت ترمي فقط الى منح الاستقلال الذاتي لليونان، لذلك

فقد نصح محمد علي بالبقاء على الحياد في هذا الصراع: «ليس عندي في الوقت الحاضر أية تعليمات أريد أن أبلغك اياها سوى أن في استطاعتك ان تقول لباشا مصر ان روسيا ليس لها أي مطمع لا في مصر ولا في تركيا، وان رغبتها الوحيدة هي ان ترى السلام وقد عاد عن طريق وضع حد للآلام التي تحاصر اليونان. وأن الوسيلة الوحيدة التي تراها الدول الكبرى الثلاث هي في الاعتراف لليونان بكيان سياسي يضمن لها العيش بهدوء. وان باشا مصر، يحسن صنعاً لخيره وخير الانسانية بالوقوف على الحياد في هذا القتال اذا ما قدر له أن يستأنف».

تجدر الاشارة الى تلك الحاشية التي اضافها الاميرال الروسي- هايدن- في رسالته الى قنصل بلاده في الاسكندرية- والتي جاء فيها: «**ان حوالي عشرين سفينة مصرية تركت عمداً، بمنأى عن نيران الحلفاء وذلك لكي يثبتوا لمحمد علي ان نواياهم لم تكن عدائية لمصر عندما دخلوا الميناء**» وفي مطلع عام ١٨٢٨ ابلغ الاميرال الروسي (هايدن) حاكم مصر محمد علي، بعزم الحكومة الروسية الاكيد على اقامة علاقات طيبة معه، كما كان الحال قبل الأزمة لكونه هو شخصياً مستعد للقيام بأي شيء للحفاظ على (حسن التفاهم) ورغم ذلك فقد كان وضع محمد علي يزداد صعوبة، اذ كان عليه التوفيق بين مقتضيات الطاعة للسلطان، وبين مقتضيات مصالحه الخاصة. وكانت انكلترا قد أوفدت اليه العقيد (الكولونيل كرادوك) ليقنعه بسحب جيوشه من المورة نهائياً. كما كان هو نفسه يؤكد انه سيكتب الى السلطان بهذا الموضوع، وانه سيستعمل التعابير الحازمة للحصول على نتيجة مرضية. وكانت فرنسا تريد بدورها ازالة أثار (هزيمة نافاران)،

والاستمرار في تشجيع مصر على المضي بسياستها الاستقلالية.
فعينت (دوفيتي)صديق الباشاالقديم قنصلاً عاماً في الاسكندرية.
ووصـــل (دوفيتي) الى الاسكندرية في ٦ كانون الثاني- يناير- ١٨٢٨. وهو محمل بالهدايا الملكية من قبل حكومته. ومنذ ذلك الحين، أصبح يتتبع محمد علي في كل تنقلاته وذلك بهدف استمالته وادخاله ضمن المخططات التي كان يراد منه أن ينفذها.
وكانت المسألة تتعلق بتشجيع الباشا على الاستقلال وعلى القيام بتشجيع من فرنسا، بحملات يمكن أن تبعث من جديد لصالحه، نفوذ وحقيقة الامبراطورية العربية، القومية.

لقد اراد الحلفاء تحطيم مقاومة السلطان العثماني من خلال التدمير المتعمد والمنتظم للاسطول العثماني في (نافاران) غير أن هذه الهزيمة جعلت السلطان اكثر تصلباً في موقفه. فأخذت الدول الأوروبية التي فشلت باقناع السلطان (بفضائل السلم) بالتوجه الى محمد علي للافادة منه كأداة لاقناع السلطان. واخذ محمد علي في كتابة رسائل الى السلطان والى اصدقائه بالديوان، بضرورة الجنوح الى السلم (بحجة بناء القدرة الذاتية) وفي رسالة له جاء ما يلي: «**لقد سبق وكتبت اليك بان مصيرنا مرتبط بخيط واه، وقصدت بهذا بالضبط ان اعالج العواقب الخطيرة التي تتهدد وجود الأمة ووجود الدين الاسلامي. أما بالنسبة للكرامة التي تذكرها فانها لا تعطى بل تؤخذ بالافعال التي تجهد النفس، اذا صح التعبير، وهي تقضي بالعمل على تقوية الدولة وتنمية مواردها وقوتها بمجهود كبير لا يعيقه شيء... وفي مثل هذه الظروف فان القبول بالسلام يبرز كواجب يأمرنا به مثل محمد ذاته ﷺ في حروبه مع أعدائه. ان السلام يصبح أمراً ضرورياً في حالة**

الانحطاط الراهنة التي تحل بالامبراطورية العثمانية، والتهرب من هذا عن طريق اللجوء الى المشاعر الانانية، أو الاندفاع الزائد لا يفيد شيئاً، إلا أن لا شيء يحملنا لأن نيأس ونقنط من قضيتنا نفسها،وأن نرمي بذلك الدولة والدين في كارثة نكون المسؤولين عنها أمام الله والتاريخ».

لقد بقي موقف السلطان صلباً، وهو ما عبر عنه مبعوث النمسا في رسالة كتبها الى فيينا من القسطنطينية، يوم ١٥ آذار- مارس- ١٨٢٨ وجاء فيها: «**لا شيء استطاع ان يحمل السلطان على تغيير موقفه، وسواء كان هذا الموقف صادراً عن خوف من خطر قد يتهدده اذا تراجع أمام مقترحات الدول الكبرى، أم أنه كان ناجماً عن حرج ديني مبالغ فيه، ام عن تجاهل لواقع لا علاج له، فان الواقع هو أن مقاومته ازدادت ولم تضعف**». غير انه لم يمض اكثر من شهرين حتى استطاع محمد علي وبطريقة مذهلة اقناع السلطان بالموافقة على سحب جيوشه من المورة، وكذلك استطاع اقناع ابنه ابراهيم الذي كان السلطان يريد أن يستبقيه في المورة. وكان- محمد علي- يعود مفاوضيه شيئاً فشيئاً على تقبل هذا الحدث. إلا أن الاتفاق النهائي بين الجانب المصري والاميرال الانكليزي (ادوارد كودرينغتون) لم يوقع إلا في الخامس من آب- اغسطس- ١٨٢٨ م. وكان القنصل الافرنسي دروفيني قد ساهم بقسط كبير في ازالة الصعوبات من الجانب المصري. وانسحبت مصر من المورة واخذت في الاستعداد للتحولات الجديدة.

كان من أول هذه التحولات التوقف عن دعم الامبراطورية

العثمانية في صراعها ضد روسيا وذلك استجابة لتحذير قائد الاسطول الروسي الاميرال (هايدن) الذي حمله القنصل بيزوني الى حاكم مصر. وكان في التحذير: «**فليبق محمد علي هادئاً ولا يتدخل في حربنا، هذا ما نستطيع ان ننصحه به. وسيجد نفسه مرتاحاً في نهاية المشهد. وإلا فانه سيخسر اسطوله ومصره. ان الدول الكبرى الثلاث لا تتحرش به، ولن تتحرش به وذلك من أجله ولصالحه. اننا لا نخشاه، لا بل على العكس، فسنكون مسرورين لو تمكنا من الاستيلاء على بعض سفنه الجميلة لكي نزين بها اسطولنا ولكننا وفرناه. وخاصة أنا. . .**».

أما التحول الثاني فهو الاستقلال بمصر والاستيلاء على سوريا بالتعاون مع روسيا وبدعم من فرنسا. وبحياد من انكلترا.

وكان ذلك هو الموقف الذي توافق في الزمن مع الهجوم الافرنسي على الجزائر. والذي يمكن تلخيصه بعزل الجزائر براً وبحراً عن كل امكانات للدعم من قبل الخلافة العثمانية.

مدينة الجزائر ومرساها في القرن الثامن عشر

﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا إِذَا لقِيتُمْ فئة فاثْبُتوا
وأذكُروا اللَّهَ كثيراً لَعَلكم تُفلحونْ﴾

(سورة الأنفال الآية ٤٥)

الفصْل الثاني

١ـ ذريعة الاستعمار (البراغماتية)
٢ـ عشية ليل الاستعمار
٣ـ بدايات المقاومة
آـ فئات من المجاهدين
بـ ثورة ابن زعمون
جـ سيدي السعدي والجهاد
دـ ثورة الآغا محي الدين المبارك
هـ بومزراق ـ باي تيطري ـ
وـ الحاج احمد باي قسنطينة
زـ حمدان خوجة والصراع السياسي
٤ـ الادارة الافرنسية (وتكوين وحدات خاصة)
٥ـ الادارة الافرنسية (من التردد الى التصميم)

١ـ ذريعة الاستعمار (البراغماتية)

خرجت فرنسا من مجموعة الحروب الأوروبية (وأبرزها حرب السبع سنوات وحرب الوراثة الاسبانية)[١] وهي مجردة من مناطق نفوذها في اوروبا ومن مستعمراتها فيما وراء البحار. في حين أصبحت انكلترا وقد امتلكت قدرة بحرية ضخمة جعلتها سيدة البحار في العالم، وانتزعت من فرنسا مناطق تجارتها وجردتها من مستعمراتها. وظهر بوضوح أن تفوق القوات الافرنسية في البر قد عجز عن منافسة القوات الانكليزية في البحر. غير أن انفجار الثورة الافرنسية قد ضمن لفرنسا تأمين موارد بشرية ضخمة عبرت عنها الحروب النابوليونية أفضل تعبير. وقد حاولت فرنسا الانتقام من انكلترا عبر دعمها لحرب الاستقلال الامريكية (التي انتهت سنة ١٧٨٣) غير أن هذه الحرب لم تفد فرنسا شيئاً من الناحية الاقتصادية. كما حاولت فرنسا الثورة قطع طريق الهند باحتلال نابليون لمصر (١٧٩٨) غير ان

(١) حرب السبع سنوات هي الحرب التي قادها فريدريك العظيم ضد النمسا وفرنسا وروسيا لتوحيدالمانيا ويطلق على القسم الثاني منهاالحروب السيليزية(١٧٥٦-١٧٦٣م) أما حرب الوراثة الاسبانية فهي الحرب التي قادتها انكلترا والنمسا والامارات الالمانية ضد فرنسا (١٧٠٢ـ ١٧١٤)

الاحتلال الافرنسي فشل وعاد نابليون لفرنسا ليتابع الصراع من أجل (عظمة فرنسا) وانتصرت الاحلاف التي نظمتها انكلترا على نابليون في واترلو (١٨١٥) واعيدت الملكية الى فرنسا في شخص لويس الثامن عشر، الذي توفي سنة (١٨٢٤) ليترك لخلفه (شارل العاشر) اعباء التركة الثقيلة. ولم تفلح فرنسا في كل حروبها حتى الآن في اقتحام الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليها انكلترا، فاستمرت في البحث عن اسواق لتجارتها وعن موارد المواد الاولية لصناعتها.

كانت علاقة فرنسا بالخلافة العثمانية جيدة طوال هذه الفترة، فقد وقفت استانبول الى جانب باريس اثناء صراعها ضد الاسبانيين في حروبها المتتالية (منذ ايام شارلكان أو شارل الخامس) ومنحتها (امتيازات قنصلية) للتجارة مع اقاليم العالم الاسلامي. ووقفت الجزائر الى جانب فرنسا في اصعب الظروف واقساها. وقدمت لها الدعم والعون كلما احتاجت لهذا الدعم. وكانت فرنسا قد اقامت لها من قبل اسواقاً تجارية (مؤسسات) في عنابة والقالة ورأس بونة والقل. وكانت هذه المؤسسات تدفع ضريبة سنوية متفقاً عليها الى دار الخلافة العثمانية من جهة، والى باي قسنطينة من جهة اخرى نظراً لقيام هذه المؤسسات على أرض ولايته. وكانت فرنسا مقابل ذلك تتمتع بحق صيد المرجان وتصدير الحبوب الى أوروبا[1]. وقد تطورت هذه العلاقات لمصلحة فرنسا في فترة الثورة الافرنسية، حيث اعترفت الجزائر بالجمهورية الافرنسية الجديدة في وقت كانت فيه تحت الحصار الاوروبي المحكم. وتكونت بين الدولتين علاقات ودية خاصة باستثناء فترة الحملة الافرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠٢) حين طلب

---

(1) HISTOIRE DE LA CONQUETE D'ALGER (A. NETTMENT) PARIS 50 P.P. 96 102

السلطان من الجزائر إعلان الحرب على فرنسا. وكانت الجزائر قد قدمت الى فرنسا الثورة قرضاً في سنة ١٧٩٦ بقيمة مليون فرنك ـ بدون فائدة ـ على ان تستعمل فرنسا هذا المبلغ في شراء الحبوب من الجزائر. وفي سنة (١٧٩٤) أذنت الجزائر للحكومة الافرنسية أن تتمول في موانىء الجزائر يوم كانت كل الموانىء والاسواق الاوروبية مغلقة في وجه التجارة الافرنسية. غير ان العلاقات الودية تغيرت في عهد (نابليون بونابرت) بسبب (غزو مصر). ولكن السلام عاد من جديد في سنة (١٨٠١) واعادت الجزائر الى فرنسا امتيازاتها (صيد المرجان والتجارة).

وعندما وصل قنصل نابليون الى الجزائر، لم يحمل معه الهدية التي اعتاد القناصل تقديمها ـ رمزاً للخضوع ـ وحين طلبها الباشا مصطفى رسمياً من القنصل (ديبوا تانفيل) على اساس انها شيء واجب، رد عليه نابليون برسالة ساخطة هدد فيها بتحطيم الأسطول الجزائري. وأنذر بان فرنسا على عهده ليست هي فرنسا التي كانت في عهد (آل بوربون). فتوترت العلاقات من جديد، وقامت الجزائر باحتجاز سفينتين فرنسيتين وضربت اخرى في ميناء تونس. فكتب نابليون الى الباشا مصطفى يطالبه بدفع تعويض عن الخسائر، ومعاقبة الوزراء المسؤولين عن هذه الحوادث. وكان نابليون يحلم بجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة افرنسية لذلك فقد كان يخطط لحملة كبيرة ضد دول المغرب العربي ـ الاسلامي، واقامة مستعمرات عسكرية افرنسية هناك، وضم المنطقة الى امبراطوريته في البحر المذكور. وتنفيذاً لذلك، طلب من الافرنسيين الذين كانوا أسرى في الجزائر أو الذين عاشوا فيها، معلومات عن سكانها وتحصيناتها، فأوصى قنصل فرنسي سابق في الجزائر (هو جون بون سان ـ اندري) بضرب الجزائر ضربة

قوية وسريعة وانهاء الحرب في ثمانية أيام. واقترح فرنسي آخر بنزول حملة افرنسية قرب (تنس) والهجوم على مدينة الجزائر براً. ولكن نابليون تخلى عن مشروع الحملة لانشغاله بالحروب على ساحة اوروبا. ولكنه ارسل الى الجزائر قطعة من اسطوله (بقيادة الاميرال ليسيغ) حاملاً رسالة الى الباشا (سنة ١٨٠٢) يطالبه فيها بدفع التعويضات، ويعلمه برفضه تسديد المبلغ الذي يطالب به وهو (٢٠٠) ألف فرنك. وكان (القبطان بيرج) الذي جمع عندئذ معلومات هامة عن الجزائر، من بين الذين رافقوا هذه البعثة، وهو الذي سيكون من اعضاء الحملة البارزين في سنة (١٨٣٠).

جاء (جيروم نابوليون) الى الجزائر في سنة ١٨٠٥، على رأس قطعة بحرية للمطالبة باطلاق سراح (٢٣١) أسيراً ايطالياً: ولكن الباشا أحمد (الذي خلف مصطفى) لم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفع جيروم مبلغ (٨٠) ألف فرنك. ومن جهة اخرى ادت هزيمة الاسطول الافرنسي في معركة (الطرف الأغر)[١] الى أن سحبت الجزائر الامتيازات التي كانت قد منحتها لفرنسا، وأعطتها لانكلترا (وذلك في سنة ١٨٠٧). ولكن نابوليون ما عتم أن وقع (معاهدة تبليست)[٢] مع روسيا، فعاد الى مشروع الحملة ضد الجزائر، وأمر قنصله في

---

(١) الطرف الأغر: (TRAFALGAR.) رأس اسباني الى الشمال الغربي من مضيق جبل طارق. واشتهر بالمعركة التي وقعت قريباً منه في سنة (١٨٠٥) وانتصر فيها الاميرال الانكليزي (نلسون: NELSON) على الاسطول الافرنسي- الاسباني المشترك.

(٢) تبليست: (TILSIT) وهي مدينة روسية تقع في ليتوانيا على نهر (نيمين) وتعرف اليوم باسم (سوفيتسك: SOVIETSK) عقدت فيها يوم ٨ تموز- يوليو- ١٨٠٧ معاهدة صداقة بين نابليون بونابرت وقيصر روسيا (الكسندر الأول: ALEXANDRE.I)

الجزائر بمغادرة مدينة الجزائر، وإعلام الباشا بأنه سيواجه الحرب اذا لم يطلق سراح الأسرى الجنويين والكورسيكيين والايطاليين. كما أمر وزيره للبحرية بوضع مخططات الحملة ضد الجزائر سواء كانت برية أو بحرية، والقيام بجمع المعلومات الضرورية عن وسائل التموين وطبيعة الأرض، وتحديد مكان الحملة وزمانها، واقترح التمويه على العدو حتى يظن أن الحملة موجهة الى صقليا. وطلب أن لا يزيد عدد افراد الجيش عن (٢٠) ألف رجل، وأمر أن تأتيه المعلومات في ظرف شهر واحد. وطلب من الوزير إرسال أحد جنوده الذين يمتازون بالروح العسكرية العالية والخبرة الهندسية الى الجزائر بصورة سرية للتجسس وإعداد تقرير مفصل وخطة واضحة، فوقع الاختيار على ضابط يسمى (بوتان). الذي وصل الى مدينة الجزائر في ٢٤ ايار (مايو) ١٨٠٨ م على متن سفينة تحمل اسم (لودكان). وقد ظل هناك متجسساً على الحصون دارساً خطة النزول بدقة، متنقلاً من برج البحري (كاب ماتيفو) الى سيدي فرج. وبعد أن كتب ملاحظاته، ورسم خطته، قفل راجعاً في ١٧ تموز (يوليو) من العام نفسه. غير أن الانكليز ألقوا عليه القبض في عرض البحر وقادوه الى مالطا. واثناء ذلك أعدم الخطة ولكنه أبقى على ملاحظاته التي سيعتمد عليها في اعادة رسم الخطة من جديد وفي كتابة تقريره. وامكن له بعد ذلك الفرار من مالطا متنكراً. وعاد الى فرنسا في تشرين الاول ـ اكتوبر ـ عن طريق ازمير واستانبول. وضمن تقريره معلومات دقيقة عن تحصينات الجزائر وطبيعة أرضها، وعدد قواتها، وزمن الحملة المقترحة والمدة التي تستغرقها، وعدد الجيش الضروري للحملة. واقترح (بوتان) ان يكون عدد الرجال من (٣٥ـ ٤٠) ألف محارب معظمهم من المشاة، مع بعض المدافع، وقد أظهر الاخطار التي تتعرض لها الحملة من

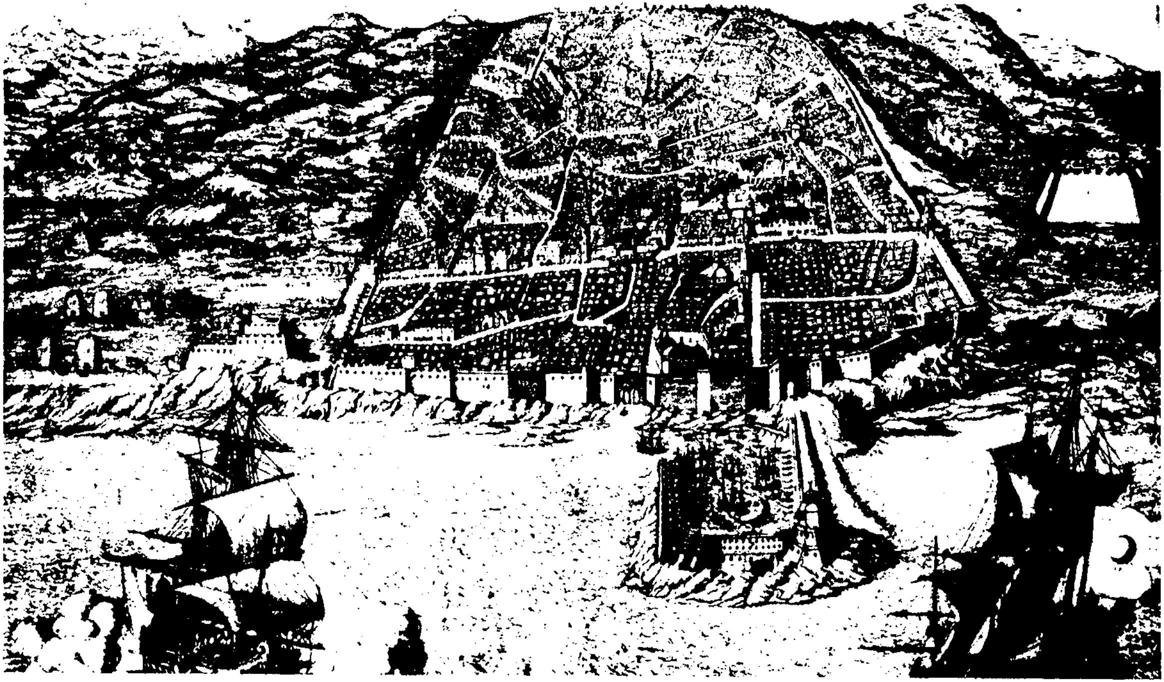

منظر مدينة الجزائر على البحر في القرن السابع عشر

البحر، ونصح بدلاً من ذلك أن تكون الحملة برية، والاستيلاء قبل كل شيء على قلعة (مولاي حسن) المعروفة بقلعة (الامبراطور) لأنها تشرف على المدينة. واقترح بان يتم الانزال في (سيدي فرج) لخلوه من المدافع والجنود. وكان من رأيه بأن أفضل وقت لتنفيذ الحملة هو في الفترة ما بين أيار وحزيران (مايو ويونيو) وألا تتجاوز مدة الحملة الشهر الواحد. ولكن انشغال نابليون في قمع (الثورة الاسبانية) ثم بالحملة على روسيا، وضعف الاسطول الافرنسي، ثم سقوط نابوليون، كل ذلك اعاق تنفيذ الحملة. عينت فرنسا قنصلاً جديداً لها في الجزائر، وهو بيير دوفال، وذلك في ٢٨ آب ـ أغسطس ـ ١٨١٥ وقد حمل الى الباشا هدايا تقدر بمبلغ (١١٢,٩٢٤) فرنك، تضم مجوهرات وساعات وأقمشة وأسلحة. ومقابل ذلك، أعاد الباشا الى فرنسا الامتيازات التي فقدتها، وكان ذلك في ١٧ آذار ـ مارس ـ ١٨١٧ (اثر حملة اللورد اكسموث على الجزائر)[1] وتساهلت الجزائر فخفضت مقدار الضريبة السنوية المقررة على فرنسا من (٣٠٠) ألف فرنك الى (١١٨) ألف فرنك. وكان القنصل الافرنسي الجديد (دوفال) ابناً

---

(١) اكسموث: (SOVIETSK) اميرال انكليزي، من مواليد دوفر (١٨٣٣ ـ ١٧٥٧ م) وتولى قيادة القوات العليا البحرية في الهند سنة ١٨٠٣، ثم قاد الاسطول الانكليزي للهجوم على الجزائر وتدمير اسطولها سنة ١٨١٦، وهو الهجوم الذي وصفه الكتاب (المقاومة المسلحة الجزائرية: ١٨٣٠ ـ ١٩٢٠) والصادر عن وزارة الدفاع الوطني الجزائرية سنة ١٩٧٤ بما يلي في ص ١٥ ـ ١٦: «وصل الاسطول الانكليزي الهولاندي الى الجزائر يوم ٢٧ آب ـ اغسطس ـ ١٨١٦. واشتبك مع الاسطول الجزائري في معركة استمرت احد عشر ساعة وثلاثة وعشرين دقيقة. انتهت باحراق كامل البواخر والسفن التجارية الجزائريه. ووصف قائد الحملة اكسموث لمعركة بما يلي: لم اعرف عدواً في حياتي يقاتل بمثل هذه الضراوة».

لمترجم افرنسي كان يعمل في السفارة الافرنسية في استانبول. وكان من قبل قد تولى جميع مهامه القنصلية الافرنسية بآسيا الصغرى حتى أصبح يتقن اللغتين العربية والتركية، وعلى الرغم من انه قد اصطدم ببعض الصعوبات في بداية عمله في الجزائر، الا انه امكن له تجاوز الصعوبات بفضل ما عرف عنه من اتباعه لاساليب الرشاوي والتوريط وخلف الوعد (فكان شخصاً مشبوهاً). وادت اساليبه المشبوهة الى اثارة غضب الداي الذي عمل على (ضربه بالمروحة ـ وهي الحادثة المشهورة في التاريخ)[١] والتي ردت عليها فرنسا بارسال قطعة من اسطولها الى الجزائر بقيادة القبطان (كولي). وقد وصلت هذه القطعة التي حملت اسم (لابروفانس) الى مياه الجزائر يوم ١٢ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٢٧ م حيث طلب قائدها من الباشا القدوم شخصياً الى السفينة للاعتذار للقنصل، ولما كان معروفاً مسبقاً أن الباشا لن يرضى بذلك، فقد تضمنت تعليمات (كولي) على اقتراحات تبادلية وهي:

١ ـ أن يستقبل الباشا القبطان ورئيس اركانه والقنصل بحضور الديوان والقناصل الاجانب ويعتذر امامهم الى القنصل دوفال.

٢ ـ أن يرسل وفداً برئاسة وزير الحربية (وكيل الحرج) الى قطعة الاسطول الافرنسي ليعتذر باسم الباشا الى القنصل.

٣ ـ وفي كل الحالات، رفع العلم الافرنسي على جميع القلاع الجزائرية، بما في ذلك قلعة القصبة، واطلاق مائة طلقة مدفعية تحية له. وكانت تعليمات (كولي) تقضي بانه في حالة قبول الباشا لاحد

---

(١) انظر قراءات ـ ١ ـ في آخر الكتاب عن قصة (الدين والمروحة) أو (اليهودي ومروحة دوفال).

المقترحات، فانه يتقدم اليه بعد ذلك بعدة مطالب افرنسية تتضمن دفع التعويضات، ومعاقبة الجزائريين المسؤولين عن الاضرار التي لحقت بالمنشات الافرنسية، وحق تسليح هذه المنشآت في المستقبل، واعلان الجزائر أنه لا حق لها في دين (بكري). كما تتضمن التعليمات أنه في حالة عدم استجابة الباشا لواحد من الاقتراحات المذكورة، فان عليه اعلان الحصار رسمياً على الجزائر.

نفذ (كولي) مهمته. فأرسل الاقتراح الثالث بواسطة قنصل سردينيا في الجزائر (الكونت د. اتيلي) الذي أصبح يرعى المصالح الافرنسية بعد انسحاب (دوفال) وذلك يوم ١٥ حزيران- يونيو- وحدد (كولي) فترة (٢٤) ساعة كمهلة انذارية لتلقي الاجابة. وكان رد (الباشا) على (د. اتيلي) أنه لا يفهم سبب هذا الإجراء، فبدلاً من أن ترسل فرنسا بقنصل جديد، وتكتب اليه مباشرة، لجأت الى ارسال الانذار المضحك مع ضابط بحرية. وعندما انقضى أجل الانذار بدون رد، أعلن (كولي) الحصار في ١٦ حزيران- يونيو- ١٨٢٧. وفي نفس الشهر الذي اعلن فيه الحصار، كلف الجنرال (الوفيردو) بإعداد مشروع (يتضمن المعلومات التاريخية والجغرافية والاحصائية والعسكرية عن الجزائر- تمهيداً لتوجيه حملة ضدها) وأنهى الجنرال عمله خلال ثلاثة أشهر. ولكن الحكومة الافرنسية لم تقرر الحملة على ضوئه، واكتفت بالحصار نظراً لحوادث اليونان، وبسبب فراغ المخازن من الأسلحة، ووجود الاسطول الافرنسي في اليونان. فتراجعت فرنسا عن مطالبها- مرحلياً- . واكتفت بالاصرار على تقديم باشا الجزائر الاعتذار لقنصلها عما ارتكبه نحوه. واثناء ذلك كانت مشاريع إعداد الحملة تنضج على نار هادئة.

فقد تم تكليف الضابط (دوبتي ثوار) بإعداد مشروع لمهاجمة

الجزائر من البحر، ولكن الحكومة الافرنسية لم تأخذ به أيضاً. ثم تولى مشروع آخر وزير الحربية عندئذ (كليرمونت تونير) واعتمد فيه على مشروع (بوتان). ورأى (تونير) أن حملة افرنسية ضد الجزائر هي أمر (ضروري وممكن). ووصف الحملة بانها: «**حرب صليبية هيأتها العناية الالهية لينفذها الملك الافرنسي الذي اختاره الله للثأر من اعداء الدين والانسانية. ولغسل الاهانة التي لحقت بالشرف الافرنسي**). وأضاف (تونير) **مخاطباً الملك ـ شارل العاشر ـ** بقوله: (**لعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الافرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين**). وتضمن تقرير (تونير) اغراءات لاصحاب رأس المال والمراكز الصناعية وذلك بوصف الحالة الاقتصادية للجزائر، وما تحتويه خزانتها في (القصبة) من كنوز متراكمه تزيد على ما قيمته (١٥٠) مليون فرنك. بالاضافة لما يتوافر للجزائر من الموانىء الكثيرة، والسهول الخصيبة، والغابات التي تؤمن الاخشاب لبناء السفن علاوة على مناجم الحديد والرصاص وجبال الملح والمواد الكيميائية الأخرى. وأثار في الوقت ذاته خيالات العسكريين ومطامعهم وذلك بالتوصية لاقامة مستعمرات عسكرية افرنسية في الجزائر. وتضمن المشروع أيضاً طريقة تنفيذ الغزو بهجوم بري، يتم فيه انزال القوات عند جزيرة (سيدي فرج) وذلك في الفترة ما بين (نيسان وحزيران ـ ابريل ويونيو). وتوقع المشروع أن يتم تنفيذ العملية خلال فترة ستة أسابيع. وحددت تكاليف الحملة بمبلغ (٥٠) مليون فرنك، وتضم (٣٣) ألف رجل بالاضافة الى فرقة من الفرسان ـ الخيالة ـ وعدد من فرق المدفعية. واقترح هذا (المشروع) احتلال الجزائر كلها احتلالاً (طويل المدى). واقترح الوزير الافرنسي ان تكون سنة ١٨٢٨ هي الموعد

لتنفيذ الحملة، باعتبار أن اوروبا كانت تعيش فترة من السلم، ولأن الرأي العام الافرنسي كان متهيئاً لها. وقد ناقش مجلس الوزراء (مشروع توفير) في جلسة يوم ١١ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ. ولكن المجلس قرر في النهاية عدم الأخذ به في تلك الفترة.

ظهر بعد ذلك (مشروع جديد) تقدم به أحد نواب البرلمان، تضمن اقامة مستعمرات عسكرية شبيهة بما فعله الرومان، ودعوة الاوروبيين للهجرة الى الجزائر بدلاً من الهجرة الى أمريكا. وقال صاحب هذا المشروع أن احتلال الجزائر سيعوض فرنسا عما فقدته في منطقة الراين، ويغنيها عن شراء بعض البضائع مثل التبغ والحرير والسكر والزيت والقطن. ولكن الحكومة الافرنسية لم تقتنع بالمشروع نظراً لأن حملة الانتخابات كانت على الأبواب، ولأن نتائج الحملة المقترحة ستأتي بعد الانتخابات وبالتالي فانها لن تؤثر في الرأي العام الافرنسي لصالح الحكومة.

وهكذا استمر الحصار على الجزائر، وكان الافرنسيون يهدفون من ورائه الى قطع التموين عن الجزائر، فكان أسطولهم المحاصر يتكون من (١٢) سفينة واجبها مراقبة الموانىء الجزائرية. وإيقاف بعض السفن المشبوهة، واحتجاز بعض السفن الأخرى. ولكن هذا الحصار لم يتمكن من ايقاف اعمال القرصنة، ووقعت مجموعة من الاشتباكات كان من أبرزها معركة يوم ٣ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ حيث انطلقت مجموعة من (١٢) سفينة جزائرية و(٣٢٠٠) مجاهد و(٢٥٢) مدفع واشتبكت مع القوة البحرية الافرنسية في معركة استمرت أربع ساعات تقريباً، ولم تسفر هذه المعركة عن نتيجة ايجابية لأي طرف من الطرفين المتصارعين.

بلغت تكاليف الحصار الافرنسي للجزائر سبعة ملايين فرنكاً في السنة، وظهر احتمال قيام انكلترا واسبانيا بالحرب ضد فرنسا ان هي تحولت عن الحصار فقامت بحملة عسكرية، كما تغيرت الحكومة الافرنسية يوم ٤ كانون الثاني- يناير- ١٨٢٨ م. وتضافرت هذه العوامل فأقنعت الحكومة الافرنسية بمتابعة الجهد الهادىء والمماطلة في الأمر عن طريق فتح باب المفاوضات مع الجزائر لرفع الحصار بطريقة مشرفة. وذهبت بعثة الى الجزائر يوم (٢٩) نيسان- ابريل- ١٨٢٨ م، برئاسة الضابط (بيزار) لاستئناف المفاوضات. غير ان البعثة فشلت في مهمتها بسبب اصرارها على ارغام الباشا بدفع تعويضات لفرنسا. ولكن فرنسا عادت فأرسلت بعثة أخرى برئاسة (بيزار) ذاته، وتكرر الفشل بسبب رفض الباشا لأحد الشروط الافرنسية الاساسية والتي تقضي بارسال وزير من حكومته الى باريس للاعتذار، واشترط الباشا أن يفعل ذلك بعد توقيع معاهدة الصلح مع فرنسا. أما الافرنسيون فقد وضعوا مسؤولية الفشل على عاتق القنصل السرديني في الجزائر والذي كان يرعى المصالح الافرنسية، وزعموا أن (طيبته) و(سلامة نيته) هما سبب هذا الفشل، كما حاولوا الحاق السبب ايضاً الى نشاط القنصل الانكليزي المضاد لفرنسا، ولم ينسو الحاق نسبة من الفشل بالمترجم اليهودي (دوران) الذي اتهموه بعدم نقل الحقيقة.

عاد الافرنسيون الى متابعة دراسة (مشروع الحملة ضد الجزائر) بعد أن فشلت المفاوضات. وقام وزير الحربية الجديد (دوكو) بتكليف لجنة خماسية (بدراسة المسائل المتعلقة بحملة ضد الجزائر، وتقديم خطة كاملة للعمل، وتعيين الوسائل الضرورية

للتنفيذ) وكانت هذه اللجنة تضم الجنرال (بيرج) الذي كان قد أرسل سنة (١٨٠٢ م) للتجسس على تحصينات الجزائر، وكان رئيسها هو الجنرال (لوفيردو).

شرعت اللجنة في عملها فور تلقيها الأمر- في صيف سنة ١٨٢٨- وجمعت المعلومات من كتب الرحالة ومعلومات الاسرى الاوروبيين والمذكرات التي كتبت عن الحملات السابقة ضد الجزائر من العام ١٦٢٨ وحتى العام ١٧٥٨. وخلصت الى نتيجة تتوافق مع رأي (بوتان وتونير) اللذين سبقت الاشارة اليهما، سواء فيما يتعلق بتحديد مكان الانزال أو فيما يتعلق بحجم القوى والوسائط، واقترحت اللجنة أن تغادر الحملة ميناء طولون في منتصف شهر نيسان- ابريل- حتى تتمكن من انجاز مهمتها والعودة في نهاية شهر آب- أغسطس- وقدرت تكاليف الحملة بمبلغ (٢٥) مليون فرنك. وتضمن تقرير اللجنة بعض التفاصيل، مثل جدول الهجوم على المراكز الرئيسية (منها قلعة مولاي حسن والقصبة) وتوقعت أن تشتبك القوات الافرنسية مع قوات بايات الجزائر الثلاثة مجتمعة- في معركة حاسمة - بعد عشرين يوماً من بدء الانزال. ولكن ظهور المعارضة القوية في البرلمان الافرنسي لمشروع الحملة، وكذلك الخسارة الاقتصادية التي نجمت عن الحصار، والظروف الدولية التي لا زالت في غير مصلحة فرنسا، كل دلك دفع فرنسا من جديد لسلوك درب المفاوضات، فأرسلت القبطان (دي نيرسيا) في سنة ١٨٢٩ الى الجزائر بمهمة مقابلة (الباشا حسين). وفتح الطريق أمام قائد الحصار الجديد (بريتونيير)- الذي خلف كولي- لتسهيل مهمته. وصدرت التعليمات بأن يصحب قائد الحصار عندما يأتي دوره في المفاوضات، مترجم افرنسي بدلاً من اليهودي (دوران).

وتم الاتفاق على خطة اجتماع الباشا وقائد الحصار بنجاح. غير ان نتيجة الاجتماع كانت سلبية، فقد طلب قائد الحصار من الباشا ارسال وفد على مستوى عال الى باريس للاعتذار والتفاوض. ولكن الباشا استغرب هذا الطلب، وأصر على عقد الصلح في الجزائر أولاً قبل ارسال الوفد الى باريس. وأثناء عودة الوفد الافرنسي خائباً، أطلقت المدافع من التحصينات الجزائرية نيرانها على سفينة قائد الحصار (لابروفانس). وقال الجزائريون أن السفينة اقتربت كثيراً من التحصينات، ولم ينكر الافرنسيون ذلك غير أنهم زعموا بأن شدة الريح هي التي دفعتهم نحو التحصينات الجزائرية.

المهم في الأمر هو أن السفينة لم تصب بأضرار فادحة، ونجح قائدها في إبعادها والعودة بها بسلام. وتبرأ الباشا من هذه الحادثة التي وقعت يوم ٣ آب - أغسطس - سنة ١٨٢٩، وعبر عن أسفه، وعاقب وزير البحرية وقائد الميناء بالطرد من منصبيهما. واستثمرت فرنسا هذا الحادث لزيادة التوتر في العلاقات الجزائرية- الافرنسية. وزاد الأمر سوءاً بتولي (دي بولينياك) رئاسة مجلس الوزراء الافرنسي في نهاية سنة ١٨٢٩ م. وهو الذي عرف بوفرة مشاريعه الاستعمارية لا بالنسبة للجزائر وحدها وانما بالنسبة للشرق كله وحتى لاوروبا. ورافق ذلك ايضاً تغيير وزير البحرية، حيث اسندت هذه الوزارة الى (البارون دو هوسيه) الذي كان من الانصار المتحمسين لفكرة غزو الجزائر في فترة لا تتجاوز ربيع سنة (١٨٣٠ م). وكان (بولينياك) قد استقبل في ايلول- سبتمبر- عام ١٨٢٩- عندما كان وزيراً للخارجية قبل أن يصبح رئيساً للوزراء، وفداً من مصر يضم القنصل الافرنسي في الاسكندرية والمغامر الافرنسي المركيز (دو ليفرون) الذي أصبح ممثلاً لمصالح محمد علي في فرنسا، وذلك لعرض مقترحات

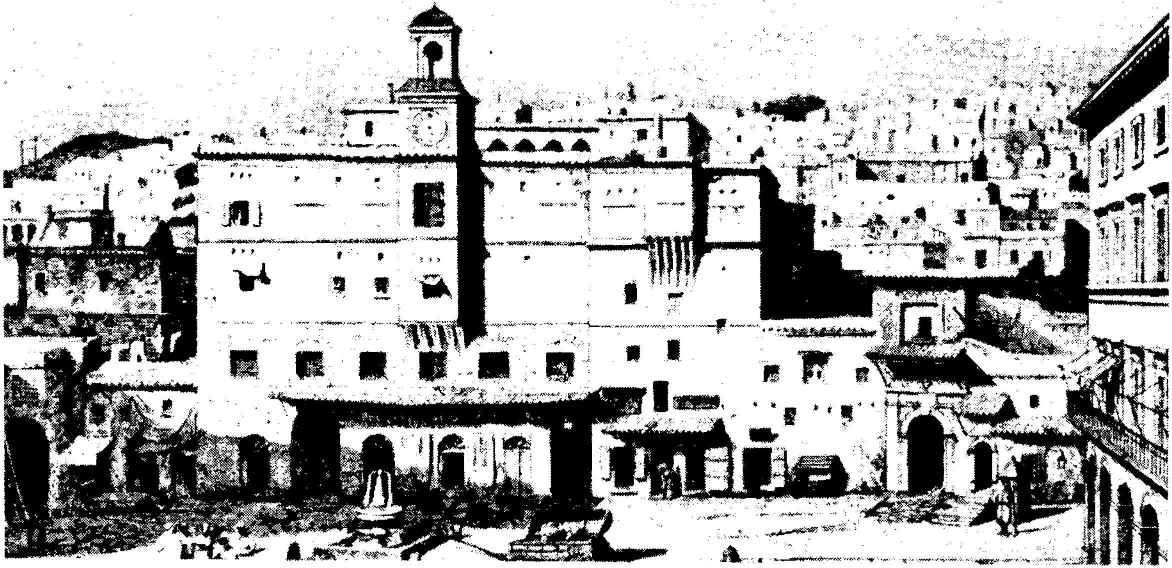

قصر «الجنينة» مقر الإدارة المركزية العثمانية قبل أن يحرقه الفرنسيون

عرفت فيما بعد باسم (مشروع محمد علي) لحل قضية الجزائر). ويتضمن هذا المشروع قيام فرنسا بدعم محمد علي ليصبح حاكماً على طرابلس وتونس والجزائر، وأن يتم ذلك بتوجيه الجيوش المصرية على امتداد الطريق الساحلي المتاخم لدول المغرب العربي الاسلامي، في حين تقوم قطع الاسطول البحري الافرنسي بدعم هذا التحرك وحمايته. واقترح- محمد علي- لتنفيذ ذلك أن تمده فرنسا مسبقاً بأربع قطع بحرية (سفن) و(٢٨) مليون فرنك. وكان يرى أن السلطان العثماني لن يعارض هذا المشروع، الذي يحقق لفرنسا في الوقت ذاته مصالحها (التخلص من مشكلة الجزائر) وسيرضي اوروبا (بتنفيذ رغبتها في إيقاف أعمال القرصنة). وقال محمد علي للقنصل الافرنسي في القاهرة، انه قادر على إنهاء (المشكلة الجزائرية) بتجنيد (٦٨) ألف رجل و(٢٣) سفينة. وتوفير (١٠٠) مليون فرنك لتغطية نفقات الحملة. واقتنع (بولينياك) بما اطلق عليه اسم (مشروع محمد علي) وهو في حقيقته مشروع افرنسي، لا سيما وان (بولينياك) كان يرى منذ سنة(١٨١٤ م) بضرورة الربط بين قضية مصر وقضية المغرب العربي- الاسلامي. حتى انه تحادث مع زملائه عندما كان سفيراً لبلاده في لندن (سنة ١٨٢٨) عن فوائد فرنسا وفوائد اوروبا ايضاً من قيام حملة ضد الجزائر.

وحين وصل الى الحكم بدأ في البحث عن الوسيلة التي يمكن استخدامها لتنفيذ هدفه. في تلك المرحلة التي لم تكن فيها فرنسا بعد مستعدة لتنفيذ الحملة وحدها وبطريقة مباشرة، لذلك تبنى مقترحات (محمد علي) وأرسل الضابط (هودير) الى مصر للتفاوض. كما أرسل تعليماته الى سفير فرنسا في استانبول لمعرفة

رأي السلطان في المشروع. ويقال أن التعليمات قد تضمنت اقناع السلطان بأن الحملة التي يمكن لمحمد علي القيام بها ستحقق للسلطان:

١ـ جزية هامة من الولايات الثلاث المتمردة عليه (تونس والجزائر والمغرب ـ مراكش).

٢ـ عدم ارسال الجنود الافرنسيين الى الجزائر.

وتذكر بعض المصادر أن الديوان العثماني (مجلس الوزراء) لم يعارض المشروع في البداية، غير أنه لم يلبث أن تحول عن موقفه، وحاول العثمانيون إقناع السفير الافرنسي بان تأييد هذا المخطط (يخالف الدين الاسلامي) وأن محمد علي لن يقدر على تنفيذ هذا المخطط. وبدلاً من التأييد الذي كان يريده الافرنسيون، وافق الديوان على إرسال شخصية هامة للتعرف على موقف باشا الجزائر، والتوسط في ايجاد حل سلمي بين الجزائر وفرنسا. وكان (السيد خليل افندي) هو الشخصية التي وقع عليها الاختيار للقيام بالوساطة نظراً للصداقة التي تربطه بالوالي (باشا الجزائر) ونظراً لما عرف عنه من كفاءة ديبلوماسية عالية. وقد وصل (خليل افندي) الى الجزائر في شهر كانون الأول ـ ديسمبر (١٨٢٨). ولكن خليل افندي فشل في مهمته بسبب عناد فرنسا وتصميمها على إعادة حق صيد المرجان وإقامة منشآت مسلحة وغيرها من الشروط التعجيزية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقد اصطدم المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء الافرنسي بمعارضة وزير البحرية (دي بورمون) ووزير البحرية (دي هوسي) حيث اعتبر مشروع التعاون مع محمد علي إهانة للشرف الافرنسي، إذ كان حاكم مصر في نظرهما لا

يختلف عن حاكم الجزائر (حسين باشا): كلاهما (بربري- مسلم) وهدد (هوسي) بالاستقالة إذا منحت فرنسا الأربع سفن إلى محمد علي. ولذلك اضطر (بولينياك) الى تعديل المشروع بتخفيض المعونة، وتقديم السفن كإعارة فقط. واشترط أن تشترك فرنسا في الحملة باسطول ضخم يحمي جيش محمد علي من البحر، مع الاشتراك ايضاً بقوة برية ضخمة من الجنود والمهندسين للمشاركة في أعمال الحصار والهجوم. وفي ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢٩ وافق الملك الافرنسي (شارل العاشر) على المشروع المعدل. فأرسل (بولينياك) على الفور بعثة الى محمد علي لحقت (بهودير) الذي كان لا يزال في (طولون) ينتظر سفينة تحمله الى مصر. وقد وصل الى الاسكندرية في ١٦ تشرين الثاني- نوفمبر- غير أن مجلس الوزراء الافرنسي قرر خلال جلسة عقدها يوم ١٩ كانون الأول - ديسمبر- ١٨٢٩، أن تقوم فرنسا وحدها بالحملة ضد الجزائر. وفي اليوم التالي وافق الملك مبدئياً على قرار مجلس وزرائه، وعاد (هودير) في هذا اليوم ذاته وهو يحمل رفض (محمد علي) للمشروع المعدل. ومع ذلك لم ييأس (بولينياك) من التعاون مع محمد علي فاقترح في جلسة مجلس الوزراء الافرنسي يوم ٣ كانون الثاني- يناير- سنة (١٨٣٠ م) إجراء تعديل جديد على المشروع، وتقرر دفع (٢٠) مليوناً- كما اشترطها محمد علي، يتم دفع نصفها عند تحرك الجيش المصري، ونصفها الباقي بعضه عند الوصول الى طرابلس، وبعضه الآخر عند الوصول الى تونس. وتقرر ايضاً دفع مبلغ (٨) مليون فرنك كتعويض على (محمد علي) مقابل السفن الأربع التي رفضت فرنسا اعطاءها أو اعارتها. وقرر مجلس الوزراء الافرنسي ايضاً إرسال الاسطول الافرنسي لحماية

الحملة ومرافقتها ابتداء من الاسكندرية . وحمل (هودير) المقترحات الجديدة ـ المعدلة ـ الى محمد علي ، ووصل الى الاسكندرية في **٢٠** كانون الثاني ـ يناير ـ ووافق محمد علي على المشروع المعدل . غير أن حملة اعلامية ـ صحافية ـ واسعة ثارت في وجه الحكومة ، وارغمتها على تعديل موقفها . فقد وصفت بعض الصحف مشروع (محمد علي ـ بولينياك) بانه مشروع غير عملي (غير ممكن ـ فظيع ـ غير مجد لفرنسا لانها تستخدم مسلماً ضد مسلم) كما اعترضت روسيا وانكلترا على المشروع.

وهكذا أرسلت الحكومة الافرنسية رسولاً آخر الى (محمد علي) في ٦ شباط ـ فبراير ـ عام (١٨٣٠ م) يعرض عليه ثمانية ملايين فرنك اذا اكتفى بطرابلس وتونس . أما الجزائر فقد رأت أن تتولاها فرنسا بنفسها . عندها يئس (محمد علي) وقطع المفاوضات مع الافرنسيين قائلاً : **(انهم لن يصلوا أبداً الى الجزائر ، واذا وصلوا فلن يجرؤوا على البقاء فيها لمعارضة بريطانيا لهم؟)** .

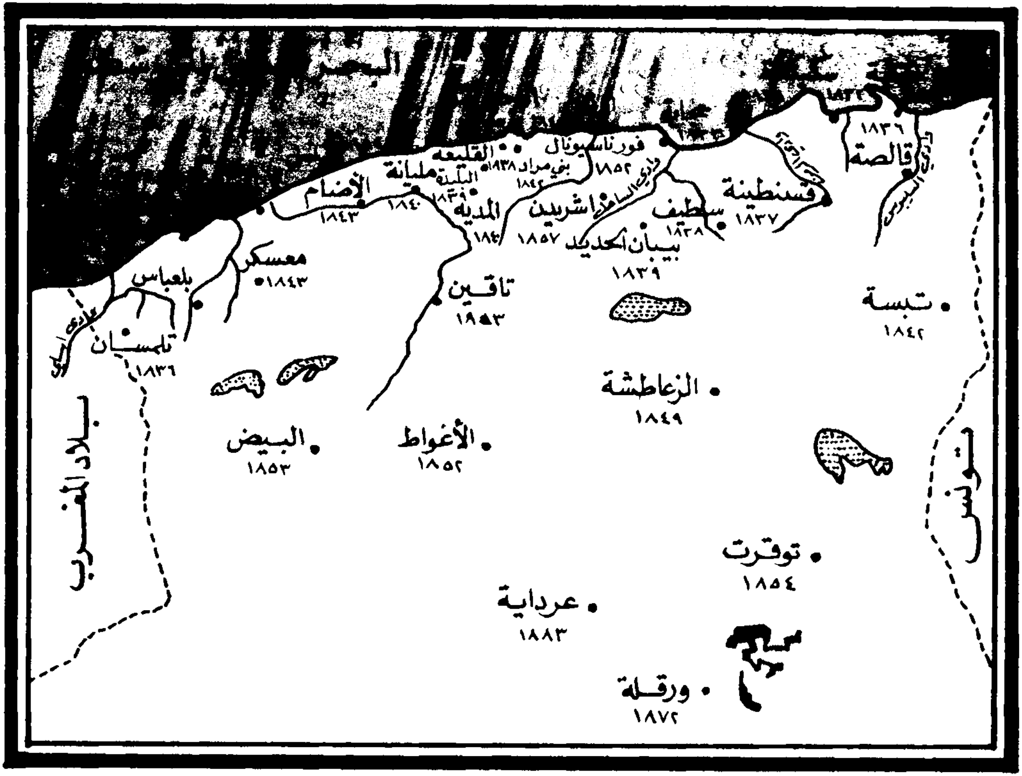

تواريخ احتلال فرنسا لمختلف مدن الجزائر

٢ـ عشية ليل الاستعمار

اجتمع مجلس الوزراء الافرنسي يوم ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٠ وقرر بعد دراسة استمرت أربع ساعات القيام بحملة ضد الجزائر، وأقر الملك (شارل العاشر) [١] مشروع الحملة يوم (٧) شباط - فبراير - وأصدر مرسوماً ملكياً بتعيين (الكونت دي

---

(١) شارل العاشر: (CHALES - X) ولد في فرساي (١٧٥٧ـ ١٨٣٦ م) حفيد لويس الخامس عشر وشقيق لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر والذي خلفه على العرش سنة (١٨٢٤ م) وقد اشتهر بخفته (رعونته) وبمزاجه المتقلب وطباعه الخاصه. وما ان اصبح ملكاً حتى أصدر قانون العقوبات لحماية المقدسات، والتعويض على النازحين الذين شردتهم الثورة الافرنسية، والقوانين ضد حرية الصحافة. وقد أثار الجزويت (البروتستانت الافرنسيين) والمجمعات الرهبانية النقمة ضده مما حرمه من محبة الشعب وتأييده، وبصورة خاصة في عهد وزيره (فيليت: VILLETE) وهي النقمة التي لم ينقص منها انتصار (نافاران) ضد المسلمين، ولا استبدال رئيس الوزراء فيليت برئيس الوزراء (مارتينياك: MARTIGNAC) سنة ١٨٢٨ وقد رفض مجلس النواب منح الثقة لرئيس الوزراء الجديد (بولينياك: POLIGNAC) فتم حل المجلس النيابي واجريت انتخابات جديدة جاءت نتائجها لمصلحة المعارضة. وتم حل الحكومة في ١٥ تموز- يوليو- ١٨٣٠ م. واسقاط شارل العاشر حيث حل محله لويس فيليب (في فترة احتلال الجزائر).

بورمون)[1] قائداً عاماً للحملة والأميرال (دوبيري) قائداً للأسطول.

وفي يوم (١٢) آذار ـ مارس ـ ١٨٣٠ م، اخطرت الحكومة الافرنسية السفراء الاجانب المعتمدين في باريس ـ بمذكرة رسمية ـ عزمها على توجيه حملة عسكرية ضد الجزائر، وذلك لحل الأزمة المتفاقمة والتي وصلت ذروتها بالحصار المفروض على الجزائر منذ يوم ١٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٢٧ م. وكان العرش الافرنسي في حاجة لانتصار عسكري يحمل هدفاً كبيراً هو (الانتقام للمسيحية) أما الذريعة فكانت موجودة (بضربة مروحة الداي).

وفي يوم (١٤) حزيران- يونيو- تمكنت الحملة التي يقودها (دي بورمون) من انزال قواتها في سيدي فريج. وكانت هذه الحملة مكونة من:

(٣٥) ألف جندي مشاة.

(٢٤) ألف بحار.

(٤٥١٢) حصان.

(٦٧٥) قطعة بحرية منها (١٠٣) قطع حربية ضخمة.

وبالمقابل كان جيش الجزائر يضم (٥٠) ألف مقاتل. غير ان هذا الرقم لا يمثل القوة الحقيقية التي حشدت لمجابهة الغزو

---

(١) الكونتلويس دي بورمون: COMTE LOUIS DE BOURMONT جنرال افرنسي، برز أيام امبراطورية نابليون بونابرت، وهو من مواليد (مين ولوار)(١٧٧٣ ـ ١٨٤٦م) تخلى عن نابليون الذي كان يعتمد عليه في معركة ليني (LIGNY) سنة ١٨١٥، وباع الاسرار التي اطلعه عليها نابليون الى الانكليز مما ساعدهم على الانتصار في واترلو، وانضم (دي بورمون) الى لويس الثامن عشر بعد أن قبض مبلغاً كبيراً من المال لقاء خيانته (لنابليون) وأصبح (ماريشال فرنسا) بسبب دعمه للملكية. وتولى قيادة الحملة ضد الجزائر.

الافرنسي للاسباب التالية: ١ـ أن القدرة الحقيقية هي أكبر من هذا الرقم غير أن اخطاء حشد القوات أدت الى زج قوات أصغر بكثير. ٢ـ أنه لم تستخدم هذه القوات في معركة واحده فاستطاعت القوات الافرنسية المجمعة تدمير القوات الجزائرية على التتابع. ٣ـ ان ادارة الحرب في الطرفين لم تكن متكافئة مما اضعف من القدرة القتالية للقوات الجزائرية. وهو ما تبرزه مسيرة الاحداث على مسرح العمليات(١).

كان حاكم الجزائر (الوالي حسين باشا) يتابع تفاصيل الحملة قبل وقوعها. ولكن يظهر أنه لم يكن على علم بمكان نزولها. فقد كان يعتقد أنها لن تتعدى الضرب من البحر، شأنها شأن الحملات الاوروبية السابقة.

---

(١) جاء في كتاب (LARESISTANCE ARMEE ALGERIENNE - 1830 - 1920) والصادر عن وزارة الدفاع الوطني ـ الجزائر ـ ١٩٧٤ ص ١٧ ـ بان قوة جيش الجزائر هي (٥٠) ألف. في حين جاء في (تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الأول ص ١١٤) ما يلي: (وارسل الداي الى عماله في المدائن والضواحي يدعوهم الى الجهاد الاكبر، ويستفز حماستهم للدفاع عن بلادهم واوطانهم... فوعدوا بارسال جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، ووضعهم تحت امرته، حتى فاق عدد الجنود التي وعدوا بها الباشا (٢٠٠) ألف رجل لم يصل منهم إلا القليل. أما تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ الدكتور ابو القاسم سعد الله ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ فيذكر في ص ٣٢ ـ ٣٥ ـ تفصيل هذه القوات بالتالي: «لم يكن جند الانكشارية ـ في الجيش النظامي يزيد على (٦) آلاف، اما ولاة الاقاليم، فقد وعد الحاج احمد باي قسنطينة بزج (٣٠) ألف محارب، ووعد حسن باي وهران بتقديم (٦) آلاف محارب. ووعد مصطفى بومزراق باي التيطري بتقديم (٢٠) ألف محارب. وجمع شيوخ جرجرة بين (١٦ و١٨) ألف محارب) وجمع أهالي مزاب (٤) آلاف محارب. غير ان معظم هذه القوات لم تصل، وعلى سبيل المثال، فان باي التيطري حين وصل الى الميدان لم يأت معه أكثر من الف رجل «وكان قد وعد بزج (٢٠) ألف منهم (١٠) آلاف برماحهم».

وما دام قد حصن الواجهة البحرية، فانه لا خوف من عواقب الحملة. ومن جهة اخرى، كان لا يزال على الاعتقاد بأن الافرنسيين لن يتخلوا عن فكرة التفاوض، على الرغم من استعداداتهم للحملة، وكان يساعده على اعتقاده هذا كثرة الرسل والبعثات التي جاءت طالبة التفاوض منذ اعلان الحصار. وكان الباشا يعتمد أيضاً على مساعدات بريطانيا، التي كان قنصلها، بالاضافة الى قنصل نابولي، يقوم بنشاط ملحوظ منذ عام ١٨٢٧ م وكانت مصالح بريطانيا تقتضي استمرار الادارة الحالية في الجزائر، على نحو ما كانت تقتضيه مصالحها في المشرق. وحين كتب محمد علي ناصحاً الباشا، رد عليه (بأن يبيع الفول للمسيحيين بدل اعطائه النصائح بدون جدوى). وكان حسين باشا قد بعث برسله للتجسس على اخبار الافرنسيين في ايطاليا واسبانيا ومرسيليا وطولون وباريس وجبل طارق ومالطا. وحين جاءته هذه الرسل تنذره بأن فرنسا تستعد للقيام بحملة ضده، اعتقد أن ذلك لن يتعدى غارة بحرية ستفشل لا محالة. وعين والي الجزائر (حسين باشا) صهره (الأغا ابراهيم) لقيادة جيش الجزائر، منذ ضرب السفينة الافرنسية لابروفانس في ٣ آب- اغسطس- ١٨٢٩ م، وسلمت له عندئذ خطة الافرنسيين للهجوم على الجزائر ومكان انزال قواتهم وعدد جنودهم ومدافعهم. ومع ذلك لم يستعد لأي شيء وكان يدعي أن قبائل الجزائريين سترغم الافرنسيين على الفرار منذ نزولهم الى البر. ولكنه لم يصدر تعليماته أو أوامره لهؤلاء المقاتلين الجزائريين أن يأتوا من بواديهم لمواجهة العدوان. فكان كل جيشه مكوناً من أهالي سهل متيجة الذين لا يعرفون سوى بيع الحليب. وكان ابراهيم يدعى أن لديه (٥) آلاف لص سيطلقهم ليلاً للهجوم على معسكر العدو، واشاعة

الفوضى والاضطراب حتى يقتل الافرنسيون بعضهم بعضاً. ولم يكتف (الآغا ابراهيم) بعدم القيام بأية استعدادات لمجابهة احتمالات العدوان، وانما وقف لمعارضة اقتراحات زملائه (أمثال الحاج أحمد باي قسنطينة) والتي تقضي بالاعتماد على (استنزاف قدرات العدو) والاشتباك معه بمعارك صغرى (كمائن واغارات) وهو النوع الذي يتقن الجزائريون استخدامه بسبب سرعتهم وخفة حركتهم ومعرفتهم الجيدة للأرض. وقرر (ابراهيم) في مخطط دفاعه على صدم قوات العدو بمعركة تصادمية في المواجهة، وكان ابراهيم يقول: (انه الوحيد الذي كان يعرف مناورات العدو الحربية وطرائقه التعبوية ـ التكتيكية). وفي مرحلة الإعداد للمعركة، اعطى (ابراهيم) كل جندي عشر رصاصات فقط. وكانت هذه الرصاصات في نظره (كافية للاطاحة بنصف الجيش الافرنسي، وبعد ذلك لن تكون هناك حاجة لتوزيع البارود).

عندما كان (الآغا ابراهيم) يجابه الموقف بمثل هذه الاستعدادات البدائية، وعندما كان الداي (حسين باشا) يعتمد على تقديراته المتفائلة ـ اكثر من اللازم، كان العالم كله يعرف أن حملة فرنسا قد باتت وشيكة (حتى ان القناصل المعتمدين في الجزائر اتخذوا كل التدابير الضرورية لحماية انفسهم وممتلكاتهم من اعمال الفوضى والنهب التي قد يقوم بها الانكشارية وقطاع الطرق من الجزائريين والانتقال الى مركب القيادة الافرنسية عند بدء العدوان[1]. غير أن اعمال النهب والفوضى جاءت من قبل جنود

---

(١) تضمن تقرير لاحد القناصل نشر في: (REVUE D'HISTOIRE ET DE CIVILISATION DU MAGHREB . FACULTE DES LETTRES D'ALGEIR. JANVIER 1968 NO 4 P.P. 35 - 49. بأن قيادة الحملة قد سمحت لعدد من =

جيش الغزو، كما ان القيادة الافرنسية لم تسمح للقناصل بمرافقة الحمله بسبب صعوبات كثيرة على ما زعمته قيادة الحملة. المهم في الأمر هو أن هذه الحملة وصلت الى الجزائر على موجات متتالية، تكونت الموجة الاولى من مائتي قطعة بحرية وصلت الى مياه الجزائر منذ ١٣ حزيران - يونيو - ١٨٣٠ والقت مراسيها في ميناء (سيدي فرج). وقامت السفن بانزال القوات فوراً واستولت على رأس (سيدي فرج) وعلى قلعة صغيرة غير بعيده عن الرأس المذكور، واستمر الانزال بعد ذلك دونما توقف وبدون مقاومة تقريباً. وجاءت بعد ذلك الموجة الثانية وهي مكونة من (١١٠) قطع بحرية من أنواع مختلفة واحجام متباينة، القت مراسيها يوم ١٦ حزيران - يونيو-، وقامت بانزال كل ما تحمله من الجنود والمواد التموينية والذخائر الحربية، وعادت بعد ذلك الى فرنسا حتى تنقل حمولات جديدة.

وصلت بعد ذلك قطع حربية بحرية من كل الانواع، وهي تغدو جيئة وذهاباً بين طولون والجزائر لتنقل كل يوم المزيد من القوات مع تأمين متطلبات القوات التي بلغ عدد افرادها (٣٥ ألف مقاتل) منهم (٢٥) ألفاً من المشاة و(٥) آلاف من رجال المدفعية والمهندسين و(١٥٠٠) فارس مع خيولهم و(٣٥٠٠) من القناصة

= الضباط الاجانب المعتمدين بمرافقة الحملة، وذلك بصفة مراقبين فقط. وهم: ١- عن انكلترا: العقيد مونتي (MONTHE) قائد سفينة مانسل. ٢- عن النمسا: الامير فريدريك شوارتز نبرغ. ٣- عن اسبانيا: قائد الكتيبة جوكين فيللا لونغا، والرائد مانويل سوريا، والعقيد جوزيه غيرورو دو تور، وانتوان لازانكا، والنقيب كونت ميرازول (الذي وصل بعد الاستيلاء على الجزائر). ٤- عن بروسيا: النقيب كلارك. ٥- عن روسيا: العقيد فيليزولف والملازم دوبينسكي (عن تقارير سويدية وثائقية في موضوع الاستيلاء على الجزائر سنة ١٨٣٠ م).

والجوالة ـ عناصر الاستطلاع ـ وقوات الدرك ووحدات اخرى خفيفة.

وأقام القائد الافرنسي (بورمون) مقر قيادته في زاوية المرابط (سيدي فرج) حيث كانت الزاوية تشرف على الخليج بكامله. وكانت تضم مسجداً صغيراً يحيط به جدار، وبه بعض الغرف. وحول الزاوية كانت مزارع الشعير والحنطة وأشجار التين والبرتقال والزيتون. وبداخل المسجد كان هناك صندوق ذخائر سيدي فرج الذي كان مرصعاً بالفضة والمرجان. فاختار (بورمون) المسجد لاقامته ونومه، وانتشر القادة في الانحاء الاخرى وقد اختار كل واحد المكان المناسب لاقامته.

بقيت القوات الافرنسية في مراكزها حتى يوم ١٩ حزيران ـ يونيو ـ دونما أي محاولة للتحرك، حتى تقنع الجزائريين بضعف القوة الافرنسية وتغريهم بمهاجمتها جبهياً. وفي الوقت ذاته للافادة من هذا الوقت من أجل ضم القوات الجديدة التي تصلهم من فرنسا، واثناء ذلك قام الجنود الافرنسيون بحفر الخنادق المتتالية لحماية معسكرهم، واختاروا لمدفعيتهم المرابض المناسبة.

عرف (حسين باشا) بخطورة الموقف عندما نزل الجيش الافرنسي فعلاً في سيدي فرج، فتحرك بسرعة، وطلب الى ولاة الاقاليم الثلاثة (قسنطينة ووهران وتيطري) ارسال الدعم، كما أرسل الى داخل البلاد المراسيل يدعون الناس للجهاد، فاستجاب لندائه الرسميون والأهالي على السواء.

وأرسل ايضاً الى باي وهران يأمره بتحصين الميناء، كما أرسل الى باي قسنطينة يأمره بتحصين ميناء عنابة، وأمر الباشا بإجراء إحصاء لعمال مدينة الجزائر وارسالهم الى القلاع للدفاع عنها.

ورغم هذه الاستعدادات الظاهرية، والتي لم تكن كافية بقدر ما كانت متأخرة، فقد كشف الواقع عن بعض الاخطاء. فبدلاً من أن يستعمل (الداي حسين باشا) هذه القوات لصد الهجوم الافرنسي من سيدي فرج، فانه احتفظ بها على مسافة عدة كيلومترات بعيداً عن العاصمة. وحين عبر له بعض الاجانب عن استغرابه لهذا الإجراء، أجابه حسين: (بأنه فعل ذلك ليسهل تحطيم العدو). وكان حسين ينظر بثقة الى جنوده وتحصيناته، وكان يعتقد بأن القصبة لا تهزم وأنها تستطيع أن تقاوم عدة سنوات. ولم يدعم معسكراته سوى ببعض مئات من الجنود. ثم جمع (الداي حسين باشا) ديوانه العسكري. واستشار رجاله في الأمر، فقر رأيهم على أن يتركوا الافرنسيين وشأنهم في سيدي فرج حتى يكملوا انزال قواتهم واعتدتهم ووسائطهم القتالية، ثم ينقضوا عليهم بجموعهم- ما هو موجود الآن وما هو قادم من الداخل، فيقذفون بالافرنسيين في البحر، فيتخلصوا بذلك منهم، ويغنموا اموالهم وذخائرهم، كما وقع مثل ذلك من قبل مع الاسبانيين (حملة شارلكان). وعندئذ تقرر اقامة معسكرين لحشد القوات في (مصطفى والي) و(اسطاوالي) وهما يبعدان (٥) كيلومترات عن جنوبي شبه جزيرة (سيدي فرج). وأقام قائد الجيش (ابراهيم آغا) في (اسطاوالي) ولكنه لم يحاول تنظيم القوات التي وردت اليه من سكان سهل متيجة وأهالي جرجرة. وكانت القوات تذهب كل يوم الى معسكر الحراش الذي يبعد مسافة أربع ساعات من (اسطاوالي) وتعود كل صباح. وقد رفض (ابراهيم) مقترحات باي (قسنطينة) التي تقضي بتوزيع القوات الجزائرية- العثمانية، وجعل جزء منها غرب (سيدي فرج) لحماية العاصمة ومنع العدو من الوصول اليها. وانتقد (الباي أحمد)

خطة (ابراهيم) وقال: (بأن وضع القوات على ما هي عليه سيكون- مرشداً للقوات الافرنسية في زحفها نحو العاصمة. وطالب بالعناية بالجيش، وأن يأخذ كل قائدمجموعة منه ويعدها اعداداً كافياً). كما طالب (الباي أحمد) بحفر الخنادق حول المعسكر. ولكن رد (الآغا ابراهيم) كان سلبياً ومثبطاً. فقد أجاب الباي بأنه: (يجهل التكتيك الحربي الاوروبي الذي يخالف التكتيك الحربي العربي). فلم يبق امام (الباي أحمد) سوى الصمت. وفي آخر لحظة، اقتنع (الآغا ابراهيم) بضرورة حفر الخندق الذي كان يرى (انه سيكون معطلاً لجيشه لا لجيش العدو) وقد أذاع الجيش: (بأن كل عربي بدون سلاح يستطيع الحضور الى المعسكر لأخذه) وعندما حضروا للمعسكر ليلاً اعطاهم الفؤوس بدلاً من الاسلحة وأمرهم بحفر الخندق، فتم تنفيذ ذلك في ليلة واحدة. ولكن الخندق لم يكن مفيداً، إذ أنه لم يؤمن حماية المقاتلين الجزائريين ولم يؤخر تقدم العدو.

حدثت خلال هذه الفترة بعض الاحداث الصغرى التي تجدر الاشارة اليها، نظراً لانها تعتبر بمثابة المؤشرات للحالة الخاصة والعامة أثناء عملية الغزو. ومن ذلك إقدام بعض الجزائريين على مهاجمة الجنود الاتراك في الليل ثم الهرب. وعندما اشتكى الجنود الى الباشا، نصحهم (بغض النظر) وعدم تضخيم الأمر. وحاول (حسين باشا) على اثر ذلك التقرب من الاهالي، فأمر باعدام سبعة من جند الانكشارية بسبب اعتداءاتهم على الجزائريين، واخذ يحقد على جنوده الاتراك، وازداد اعتماده على الجزائريين. ومن ذلك أيضاً، رفض (الآغا ابراهيم) معاقبة جندي انكشاري لانه قتل جزائرياً لكي يبيع رأسه في المدينة علىانه رأس جندي افرنسي. وقد

اثار هذا الحادث حفيظة الجنود الجزائريين الذين كانوا في جيشه.
ومن ذلك أيضاً ما حدث اثناء هذه الساعات الحرجة، عندما ذهب جزائري (يدعى أحمد بن شنعان) إلى المعسكر الافرنسي للتعرف على ما اذا كان الفرنسيون قد جاءووا مستعمرين أو محررين. وبعد قضاء ليلة واحدة، تركوه يعود من حيث أتى بعد أن زودوه بنسخ كثيرة من البيان الذي اعدوه ووجهوه الى الجزائريين وأهالي المغرب العربي عامة. (انظر نص هذا البيان في قراءات ـ ٢ـ آخر الكتاب).
وفي هذا الوقت ذاته توجه مترجم سوري كان في الجيش الافرنسي، الى المعسكر الجزائري محاولاً اقناع القيادة بالتفاوض مع الافرنسيين، ولكنه حمل من هناك إلى (حسين باشا) الذي أمر بقتله بعد أن ظن أنه يحاول التأثير عليه بوصفه للقوات الافرنسية بالكثرة والضخامة. **ومن ذلك**، قيام بعض الجزائريين بإجراء اتصالات مع الافرنسيين، والتظاهر بصداقة فرنسا، واعطاء تقارير خاطئة عن حالة البلاد وحالة الجيش. **ومن ذلك ايضاً** ما ذكر من ان (ابراهيم باشا) قد تسلم من الباشا حسين مبالغ من المال لتوزيعها على المجاهدين لتشجيعهم، ولكنه لم يعط أحداً منهم شيئاً. وكان (الباشا حسين) قد وعد الجزائريين بدفع مبلغ (٥٠٠) فرنك لكل من يحمل له رأساً للعدو. وكلف (الآغا ابراهيم) بدفع المبلغ في مكانه مقابل وصل استلام. غير أن (الآغا) لم يدفع شيئاً. وكان يقول لمن يأتيه برأس العدو: (تعال خذ المبلغ بعد المعركة). **وذكر كذلك**: (ان الآغا ابراهيم) ترك معسكره دون حراسة قوية (بحيث كان يستطيع كل انسان دخوله والخروج منه بدون أن يعترضه معترض). **وعندما تقرر مهاجمة المعسكر الافرنسي**: «خرج ابراهيم وحاشيته من المعسكر الى سيدي فرج تاركاً المعسكر خالياً إلا من حوالي (٤٠) شخصاً

لحراسة الاثاث، ولكنهم كانوا بدون سلاح». **وهكذا ـ وكما وصف أحد مسؤولي الجزائر ـ الحاج حمدان خوجة ـ الموقف بقوله: «لقد ذهب الآغا ابراهيم لمحاربة الافرنسيين، بدون جيش منظم، وبدون ذخيرة، وبدون مؤونة، وبدون شعير للخيل، وبدون المقدرة الضرورية على مواجهة الحرب»[1]. فكانت «غلطة» من الوالي حسين باشا، لا تغتفر. لانه عين الآغا ابراهيم لممارسة قيادة هو غير كفء لها في وقت هو من اخطر ما جابهته الجزائر».**

مضى اسبوع تقريباً على انزال القوات الافرنسية في المنطقة المحصنة طبيعياً حيث كانت المرتفعات الأرضية تحمي ميمنتهم وقلبهم. وفي مساء ١٨ حزيران ـ يونيو ـ اقام والي الجزائر (حسين باشا) مأدبة عشاء اشبه ما تكون (بمؤتمر حرب) حضرها: (باي قسنطينة وخليفة باي وهران، وباي تيطري، وخوجة الخيل وقائد الجيش الآغا ابراهيم) وتقرر مهاجمة المعسكر في صبيحة اليوم التالي.

بدأت المعركة الحاسمة مع بزوغ الشمس ليوم ١٩ حزيران ـ يونيو ـ والتقت القوتان في معركة جبهية أظهر فيها العرب والترك شجاعة نادرة وكفاءة عالية مما أوقع القوات الافرنسية في مأزق حقيقي ووصل المجاهدون الى تحصينات الافرنسيين، ورفعوا علم الجزائر فوقها. ولاحت بواكير النصر لمصلحة المسلمين غير أن القوات الافرنسية تلقت دعماً قوياً تعززه المدفعية في اللحظة الحرجة وتحول الموقف بسرعة. فأخذت (جيوش الباشا) بالتراجع والانسحاب، وهو التراجع الذي لم يلبث أن تحول الى (هزيمة)

---

(١) المرجع: تاريخ الجزائر الحديث ـ الدكتور أبو القاسم سعدالله ـ ص ٣٢ ـ ٣٧.

بسبب الضغط المتعاظم للقوات الافرنسية التي افادت من تفوقها فانطلقت كالسيل مجتاحة في طريقها معسكر (مصطفى والي) الذي تركه المقاتلون وهم يفرون في كل اتجاه ليقع جميعه غنيمة باردة في قبضة الافرنسيين. وهرب (الآغا ابراهيم) من الميدان مخلفاً وراءه جيشه وخيامه وأعلامه والفرقة الموسيقية. واختفى في دار ريفية مع بعض خدمه. وبدل أن يعزله (حسين باشا) فوراً ويعين قائداً تتوافر له الكفاءة والقدرة لاعادة الروح المعنوية المنهارة، ومواجهة قوات العدو، أرسل إلى صهره (حمدان خوجة) الذي كان موضع ثقته ليحاول اقناعه بضرورة استلام القيادة من جديد،وقد وجده (خوجة) في حالة انهيار تام، فلم يتمكن من اقناعه لمتابعة تنفيذ مهمته الا بعد جهد كبير. غير أن (الآغا ابراهيم) لم يتمكن من تنفيذ واجباته، فعندما تقدم الجيش الافرنسي من (اسطا والي) ماراً (بسيدي خلف) اختفى ابراهيم من جديد.

وأمام ذلك، عزله (حسين باشا) ودعا المفتي (محمد العنابي) وأعطاه سيفاً وأمره بجمع الشعب واقناع الناس بالجهاد دفاعاً عن البلاد. وكان المفتي رجلاً فاضلاً ولكنه كان صالحاً للافتاء لا للقيادة. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقط أحاط الناس- رجال الحضر- بالمفتي، وحاولوا اقناعه بعقـم محاولات الدفاع عن موقف بات الأمل ضعيفاً في انقاذه. لا سيما وان قوات الافرنسيين قد اخذت في الاقتراب من (قلعة مولاي حسن- المعروفة باسم قلعة الامبراطور) مما زاد الموقف اضطراباً وجعل الأمل بنجاح المقاومة أكثر بعداً. أما قيادة الجيش فقد تولاها (الباي مصطفى بو مزراق). ولكن تغيير القيادة لم يعد مجدياً أو مثمراً، هذا على الرغم مما تميز

به القائد الجديد من الخبرة القتالية والشجاعة. فكان كل ما عمله هو جمع الغنائم واختيار البنادق الطويلة لاطلاق الرصاص بنفسه على الافرنسيين. وتحصين البساتين حول مدينة الجزائر. وفي هذا الوقت كانت القوات الافرنسية قد توقفت لاعادة تنظيم قواتها وتحصين مواقعها التي وصلت اليها. وبعد مناوشات بسيطة خلال هذه الفترة تمكن الافرنسيون من افراغ بقية السفن، واصبحوا على استعداد لمتابعة التقدم نحو الجزائر التي لم يبق بينهم وبينها أكثر من ستة كيلومترات. فهيؤوا هجوماً منظماً، وانقضوا على جنود الداي الذين خاضوا المعركة بشجاعة عالية، واظهر الاتراك والعرب والبربر من العناد قدراً كبيراً حتى ان معظمهم لم يغادر مواقعه واستمر في المقاومة حتى ابادت نيران العدو القوات المدافعة عن مواقعها. واستطاع الافرنسيون التقدم حتى اشرفوا على المدينة، واقتربوا من (برج مولاي الحسن) وهو مركز الدفاع الاكبر لاطلاق نيران مدافعهم عن القلعة.

أثناء ذلك كان وزير المالية (الخزنجي) المكلف بقيادة الحامية المدافعة عن (برج مولاي الحسن) والذي كان موضع ثقة الداي (حسين باشا) قد أخذ في التآمر مع الافرنسيين على سيده الداي، مدفوعاً الى ذلك بما عرف عنه من الطموح- أو الطمع- الذي وصل به الى درجة الحقد. والذي كان له دوره في القضاء على حياة قائد الجيش السابق (يحيى آغا) ثم اخذ في التقرب من الانكشارية في محاولة لكسب تأييدهم له للاستيلاء على السلطة. وها هو الآن يحاول التفاوض مع الافرنسيين ويعد مشروعاً للتفاوض على شروط الصلح، في حين كانت الحامية تدافع ببطولة عن القلعة من يوم ١ تموز- يوليو- حتى يوم ٤ منه، واثناء ذلك كانت المدفعية الافرنسية قد

احدثت ثغرات في الجدران ودمرت قواعد القلعة، وقتل القسم الاكبر من أفراد الحامية، ونفدت جميع المؤن والاسلحة، ولم يبق الا ثلاثة مقاتلين خافوا أن تحتل القوات الافرنسية قلعتهم وتستخدمها ضد المواطنين الجزائريين في المدينة والقصبة، فأوقدوا النار في مستودعات البارود، فدك البرج وتهادى على الأرض. وهلك خلق كثير. وادى ذلك الى مزيد من الهياج والاضطراب، إذ عرف الناس أنه لم يعد هناك ما يحميهم من اجتياح الافرنسيين.

اخذت روح الهزيمة في الهيمنة بسرعة على الاجهزة الادارية والاجتماعية، وكان للبيان الذي وزعه الافرنسيون دوره في الترويج للهزيمة بين أوساط من يطلقون على انفسهم عادة اسم (المعتدلين) والذين اقتنعوا بان الافرنسيين قد جاؤوا حقاً كمحررين للجزائريين من سيطرة الاتراك العثمانيين. وكانوا يعتقدون أن (فرنسا المتحضرة) لا يمكن أن تعد بشيء إلا اذا كانت مستعدة لتنفيذه. فأصبح هؤلاء من انصار (الحل السلمي). ونجح البيان الافرنسي بذلك من (شل القدرة القتالية) لدى بعض الجزائريين، على الرغم من أن هذا البيان قد صيغ باسلوب غامض، وبطريقة دعائية (اعلامية). المهم في الأمر، هو أن هذه الروح الانهزامية دفعت مجموعة من ممثلي التجار وأصحاب الاموال للاجتماع في قلعة (باب البحرية) يوم ٢ تموز (يوليو). وقرروا أن ضياع المدينة أصبح امراً محتماً. وانه اذا ما دخلها الافرنسيون عنوة فانهم سيستبيحونها، وسينهبون ثرواتها ويعتدون على النساء ويقتلون الأطفال. ورأوا تفادياً لذلك، عدم مقاومة الجيش الافرنسي عند دخول المدينة، فارسلوا وفداً عنهم الى القصبة لمقابلة الباشا، واطلاعه على ما اتفقوا عليه. وأجابهم الباشا عند مقابلته لهم: «بأنني سأقاوم ما دمت

حياً، وان اردتم التسليم فسأتلف القصبة وأموت فيها» ثم نهض ليوقد النار في خزينة البارود، وما استطاعوا صده عن ذلك الا بجهد جهيد. غير أن هذا الحادث أضعف من ارادة (الباشا حسين). فأرسل (بومرزاق مصطفى) الى القائد العام الافرنسي بعد ظهر يوم ٤ تموز- يوليو- ليعرض عليه أمر الصلح، ويعد باعطائه نفقات الحملة الحربية، ويؤكد له صداقة الباشا، وحرية التجارة الافرنسية في البر والبحر. ولكن الجنرال (دوبـرمون) القـائد العـام رفض هذه المقترحات، مدعياً انها لا تساوي ثلم شرف فرنسا، ولا تعادل ثمن دماء الافرنسيين وخسائرهم، فقد قتل منهم (٤٠٠) رجل، وجرح أكثر من الفي شخص. وبعد ساعتين تقدم الى القائد العام تاجران من أغنياء الجزائر، وقالا له: انهما مندوبان عن أشراف المدينة ويطلبان الهدنة والصلح. ولما اقبل المساء ذهب (بومزراق) مع قنصل انكلترا الى المعسكر الافرنسي. وأظهر مصطفى استعداده لخيانة سيده، وحمل رأسه اليه، وتنصيب (الخزنجي) مكانه، غير أن (بورمون) أجابه: (بأنه لم يأت لمساعدة المتآمرين ولكنه جاء حتى يحارب، وانه يقبل اقتراح حسين باشا الذي ينص على الاستسلام). وعندها سأل (بومزراق) و(القنصل الانكليزي) عن الشروط التي يريدها، فدخل (بورمون) وحررها وسلمها الى (بومرزاق) الذي عاد بها الى (حسين باشا) فوقعها هذا بعد أن قرأها على رجاله وحاشيته[١].

كان أول ما فعله الكونت (دوبورمون) هو حل منظمة الانكشارية التي كان عدد افرادها العزاب (٣٥٠٠) والمتزوجين

---

(١) انظر- قراءات ٣- نص (وثيقة الاستسلام).

حوالي (الألف). وأفاد (اليهود) من هذا الموقف فانطلقوا في حملة انتقامية من أسيادهم وحماتهم سابقاً، فنهبوا أموالهم ومنازلهم، واعتقلوا عدداً من العثمانيين عندما تأكدوا من اقتراب الجيش الافرنسي، واخذوا يرقصون في الشوارع معلنين ولاءهم للسيد الافرنسي الجديد. أما (دوبورمون) فاكتفى بترحيل الانكشارية غير المتزوجين الى آسيا الصغرى بعد تجريدهم من أسلحتهم. وبعد ذلك، تبادل حسين باشا - الذي كان قد بلغ الخامسة والستين من عمره - وبورمون - الزيارات، فزار الباشا أولاً بورمون مصحوباً بحوالي خمسين شخصاً من العرب والاتراك، وطالب باسترداد أثاثه وحاجاته التي منها كيس يحتوي على (٣٠) ألف قطعة ذهبية. وكانت زيارة الباشا يوم٧ تموز - يوليو - وفي اليوم التالي زاره بورمون وخيره في المكان الذي يريد الذهاب اليه، فاختار أولاً مالطا، ولكن خوفاً من بريطانيا خيره (بورمون) في مكان آخر، فاختار (نابولي) التي كان ملكها صديقاً للباشا، فقبلت رغبته، وفي ٣١ من الشهر ذاته، وصل حسين باشا باي الجزائر السابق الى (نابولي) على متن السفينة الافرنسية (جان دارك) وكان برفقته (١١٠) أشخاص من بينهم (الآغا ابراهيم - صهر الباشا) ووزير المالية (الخزنجي) ومن بينهم أيضاً (٥٧) امرأة من الحرائر والوصيفات.

لقد كانت الاتفاقية الموقعة بين الداي حسين باشا وقائد الحمله (دوبورمون) خاصة بمدينة الجزائر، في حين كان الداي (حسين) حاكماً لكل الجزائر، وكان من المفروض أن ينتقل من ولاية الى ولاية (من بايليك الى بايليك) ومن مدينة الى مدينة، والا يستسلم بمجرد خسارته لأول معركة لم يتم الإعداد لها بصورة

مناسبة. فخان بذلك قضية الجزائر، وفرط بالامانة وترك لشعب الجزائر مسؤولية تصحيح (الخطأ التاريخي) أو(الجريمة التاريخية).

دخلت القوات الافرنسية الى مدينة الجزائر مع شروق شمس (الخامس من تموز- يوليو- ١٨٣٠) وأصبح هذا اليوم نقطة تحول حاسمة في تاريخ الجزائر. إذ يعتبر الحد الفاصل بين نهاية الاستسلام وبداية المقاومة المتصاعدة، واخذت الاجيال تتناقل مع كل تطور ذكريات (عشية ليل الاستعمار) الذي بدأ في صباح ذلك اليوم.

وطئت أقدام الغزاة البرابرة أرض الجزائر الطاهرة. واقتحموا أسوار (المحروسة) فنزعوا الاعلام الجزائرية عن الحصون والابراج ودور الحكومة، ورفعوا مكانها الاعلام الاستعمارية، واستولت القوات الافرنسية على خزينة الدولة الجزائرية واملاكها بعد احتلالها العاصمة. وانطلقت لنهب (الاملاك الاميرية) أو المؤسسات العامة، وأموال الحكومة وكنوزها وثرواتها وما تضمه مستودعاتها من المواد الغذائية والاعتدة الحربية، وتم تقويم هذه المسروقات بمبلغ (١٥٠) مليوناً من الفرنكات الذهبية. «وقد سجل المؤرخون بأن ضباط الحملة الاستعمارية اختلسوا (١٠٠) مليون فرنك لأنفسهم، ولم يطلعوا الحكومة على أكثر من (٥٠) مليون فرنك ذهبي. مدعين ان هذا هو المبلغ الذي وجدوه في الخزانة الجزائرية.

كانت الغنائم التي حصل عليها الافرنسيون ـ بالاضافة الى محتويات الخزانة الجزائرية ـ تشمل ألفي مدفع، منها ثمانمائة مدفع

من البرونز الخالص، قيمتها على مقتضى ثمن وزن البرونز، (٤) ملايين فرنك ذهبي. وكان في مخازن الحكومة من الصوف والبضائع المختلفة ما قدر الفاتحون ثمنه بثلاثة ملايين فتكون جملة الغنائم ـ بحسب تقويم الاستعماريين ذاتهم ـ:

نقداً	:	٤٨,٨٦٤,٥٢٧	فرنكاً.
مدافع برونز النحاس	:	٤,٠٠٠,٠٠٠	فرنكاً.
صوف وبضائع مختلفة	:	٢,٠٠٠,٠٠٠	فرنكاً.
المجموع	:	٥٥,٨٦٤,٥٢٧	فرنكاً.

حصلت فرنسا بذلك على أكثر من ضعف نفقات حملتها على الجزائر:

وحصلت فرنسا على ما تحتاجه من المواد الأولية المخزونة في الجزائر.

وابتلعت فرنسا ما كان للجزائر عليها من الديون المتراكمة. وكانت هذه هي الدفعة الأولى من عملية النهب الاستعماري. التي رافقت (ليل الاستعمار الافرنسي في الجزائر) وانطلق جند الغزاة البرابرة، في ذروة نشوة النصر، لتطوير عملية النهب العامة بعمليات نهب خاصة لم تعرف لها شبيهاً إلا في غزوات التتار البرابرة. ولم يسلم منها حتى دور القناصل والتجار الغربيين الذين كانوا يقيمون في الجزائر.

وحملت الغنائم (والمدافع البرونزية) والكنوز والثروات الى فرنسا لتزيين تاج (الحرية والاخاء والمساواة) بأول ثمرة من ثمار الثورة التي كانت تعيش حياة الملكية، والملكية التي كانت ترتدي ثياب الثورة.

٣ـ بدايات المقاومة

ظهر تصميم الشعب الجزائري واضحاً منذ البداية لمقاومة الهجمة الاستعمارية الافرنسية، وتجلى ذلك في الاعمال القتالية التي خاضها الجزائريون مع الافرنسيين منذ الاشتباكات الاولى، وهـذا مـا شـهـد بـه كـل الـمـراقـبـيـن الـذي رافقوا الحملة، وكذلك اولئك الذين كتبوا (تاريخ الحملة) من الافرنسيين وسواهم وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند احد مؤرخي الحملة الافرنسية وقادتها، وهو (كلوزول) [1] الذي يصف

(١) كـلوزول: (BERTRAND CLAUSES OU CLAUZEL) ماريشال فرنسا، من مواليد ميروبواكس (MIREPOIX) (١٧٧٢ـ١٨٤٢ م) قائد الجيش الافرنسي، ثم حاكم الجزائر، وهو الذي استولى على مسكره سنة ١٨٣٥ م. وكان كلوزول من قادة نابليون بونابرت، ثم اتفق مع (بورمون) على خيانة سيدهما بونابرت، والتآمر مع الانكليز ضده. مما ساعد انكلترا ـ والحلفاء على النصر، واعادة الملكية، واشتهر بالغدر والخيانة، ومن اقواله: (ان المعاهدات والمحالفات هي مجرد اوراق تمزق ان اقتضت الحاجة لذلك، واذا ما ضربت فرنسا بما بينها وبين الجزائر من اتفاقيات عرض الحائط، فالذنب ذنب داي الجزائر الذي اهان فرنسا) وكان من اشهر المحرضين على الاحتفاظ بالجزائر.

معركة (اسطاوالي) بما يلي: «قامت القوات الجزائرية يوم ١٥ حزيران- يونيو- ١٨٣٠ بهجوم شامل على امتداد الجبهة- وكان لا بد من القتال للدفاع عن كل شبرمن الأرض، وخوض الصراع خطوة فخطوة. حتى امكن في النهاية صد العرب عن الوصول الى الهدف الذي يريدونه.

لقد كانت الأرض مقطعة بالخنادق المتتالية، وكان لا بد من صدهم عند كل خندق. لقد أخفى العرب مدافعهم خلف السياج وبين الانقاض والجدران المتهدمة والغياض الكثيفة. واقاموا كمائنهم هنا بزمر صغيرة يتراوح عدد افرادها بين ستة أو ثمانية من القناصة- مهرة الرماة- فكانوا يعيقون تقدم قواتنا بكفاءة. ولم يكن أمراً نادراً أن تجد النساء وحتى الاطفال عند بطاريات المدفعية وهم يعملون على تلقيم الاسلحة التي كان الرجال يستخدمونها للرمي بدقة عالية وبحذر كبير. وبذلك كانت تتضاعف قدرتهم القتالية». «واعتباراً من هذه اللحظة انطلق الجنود الافرنسيين لعمليات انتقام وحشية. فعملوا على قتل الجرحى والاجهاز عليهم، وتشويه القتلى، وكان الجنود الجزائريون يفضلون الاشتباك بالسلاح الابيض- الخناجر أو المدى- والموت بنتيجة ذلك عن الاستسلام للافرنسيين». وعندماوصلت القوات الافرنسية الى ضواحي الجزائر، بدون مقاومة تذكر، انطلقت القوات الافرنسية لأعمال التدمير المثيرة والإبادة الوحشية والتي وصفها (كلوزول) بقوله: «عند الوصول الى المنازل الريفية، كانت قواتنا قد اجتاحتها ودمرتها وقتلت كل السكان الذين اختبؤوا فيها أو لجؤوا الى الغياض المجاورة. وكان لا بد لمن يقع بصره على مشاهد الإبادة من أن يشيح بوجهه نفوراً منها. ولم يحاول أحد إيقاف هذه الفوضى أو

الاعمال الفظيعة التي ارتكبت تقريباً تحت إشراف القادة الكبار. ولم تمض اكثر من ٢٤ ساعة على هذه الاعمال حتى استطاع الجيش الافرنسي إقامة معسكره فوق أرض مدينة هي من أجمل بلدان الدنيا».

وفي مجال الحديث عن المقاومة، ذكر (كلوزول) ما يلي: «لم تقتصر مقاومة الجزائريين عند الدفاع عن القصر، بل انهم قاوموا بضراوة في القصبة وعند باب عزون. وتميزت المقاومة داخل القلعه بالعناد والتنظيم، فكان المقاتلون يحتلون فوراً مكان من يقتل، ولم يتخل سدنة الاسلحة عن اسلحتهم ومدافعهم إلا بعد أن أصبحت هذه الاسلحة معدومة الفائدة ـ ومدمرة ـ وكان المقاتلون يحاولون سد الثغرات التي تحدثها المدافع بأكياس الصوف، كما كانوا يعملون على وضع مدافع جديدة في أمكنة المدافع المدمرة ويستأنفون رماياتهم. واستمروا في ذلك حتى أصبح من المحال متابعة المقاومة. غير أنه كان من الصعب عليهم التخلي عن مواقعهم واسلحتهم قبل العمل على تدميرها بأنفسهم»[1].

وفي معرض الحديث عن المقاومة تضمن تقرير القنصل السويدي (في ١٠ آب ـ اغسطس ـ ١٨٣٠)[2] ما يلي: «قام الماريشال الكونت دوبورمون بجولة وصل بها حتى ـ بليدا ـ القرية الصغيرة الواقعة في سفوح جبال الأطلس وعلى بعد مسافة غير بعيدة عن

---

(1) LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE PP. 17 - 19

(2) REVUE D'HISTOIRE ET DE CIVILISATION DU MAGHREB.
(FACULTE DES LETTRES D ALGER) JANVIER 1968 NO : 4 P.P 42. 44.

الجزائر. ولقد اراد بهذه الطريقة، وبما عرف عنه من أساليب رقيقة، اكتساب ثقة المواطنين العرب ومحبتهم، واعتقد انه يستطيع بذلك اقامة علاقات مع العرب المقيمين في الجبال والسهول المحيطة بالمدينة. وانطلق الماريشال لهذه الزيارة ومعه هيئة اركانه وقوة (١٢٠٠) جندي من المشاة، ومئات الفرسان (الخيالة) ومدفعي ميدان. وكان سيندم حتماً لو لم يصطحب معه هذه القوة لحراسته لمجابهة المبادرة التي استقبله بها سكان (بليدا) وما يجاورها. إذ تظاهر سكان (بليدا) باستقباله استقبالاً حسناً، وعامله أهل القرى معاملة حسنة، لكنه ما ان بدأ رحلة العودة الى الجزائر، حتى انقض عليه آلاف العرب ورجال القبائل، وارغموه على التوقف وشق طريقه في ست مرات متتالية، والقتال قتالاً تراجعياً طوال الرحلة. وفقد أثناء هذه الاشتباكات أحد معاونيه، وعدداً من ضباطه والمئات من رجاله في هذه المحاولة العقيمة لكسب ثقة الرجال المعتصمين في صياصي جبالهم واعاليها. والذين رفضوا عبر التاريخ الخضوع لأية أمة. مما يؤكد انه من المحال اقامة علاقات بين المسلمين والمسيحيين ؟ وقد يكون من الصعب الآن معرفة نوايا الافرنسيين تجاه الجزائر بحسب ما يقع تحت أبصارنا ففي حين يظهر الافرنسيون وهم في عجلة من امرهم عند نقل الغنائم والكنوز والثروات والمدافع الى فرنسا مما يشير الى احتمال عودتهم سريعاً الى بلادهم، فانهم يشقون الطرق العريضة والمستقيمة، وينظمون الساحات العامة والمسارح والملاهي الخ... مما يحمل على الاعتقاد بأن اقامة الفاتحين ستستمر طويلاً في هذه البلاد».

لم تكن هذه المقاومة إلا رد فعل أولي تجاه الاعمال الوحشية للغزاة البرابرة والتي وصفها مؤرخ فرنسي بقوله: «لم تعرف مدينة

في العالم ما عرفته الجزائر من الفوضى يوم اجتاحتها القوات الافرنسية. فقد اختفت الحلق والسلاسل والعقود والصواري والأخشاب والسنانير من الميناء، واقتلعت الابواب من المحلات العامة. ونهبت الأموال والاثاث والحلي من المنازل. وكثر الاعتداء على الأشخاص والأعراض»[1] هذا في حين كانت القوات الافرنسية تنطلق في الشوارع لتوزيع المنشورات على المحلات العامة، ولتعلق على الجدران تلك الاعلانات: «لتؤكد للسكان احترام السلطات الافرنسية للدين الاسلامي والنساء والممتلكات، وان المسلمين هم الذين سيتولون باستمرار ادارة امورهم»[2] غير انه لم يمض أكثر من شهرين على هذا التعهد، حتى أمر القائد العام بمصادرة ممتلكات الاتراك وأراضي الأوقاف، وأسرع القائد (روفيجو)[3] فأمر بتحويل أجمل مسجد في مدينة الجزائر الى كنيسة، وقام الجنود الافرنسيين باقتحام المسجد على حين كان في داخله أربعة آلاف مسلم، واعملوا فيهم القتل بالحراب وهم يؤدون الصلاة داخل المسجد الذي لم يلبث أن تحول الى (كاتدرائية الجزائر). ولم يكن من الغريب ان يستقبل الجزائريون العزل قوات الغزاة البرابرة ـ بمزيج من مشاعر الغضب

---

(1) - GABRIEL (ESQUER): LA PRISE D'ALGER 1830 - PARIS - 1929 EDITION . P : 411.

(2) - REVUE D' HISTOIRE ET DE CIVILISATION . ALGER . JANVIER. 1968 No 4 OP.42.

(٣) روفيجو: (RENE SAVARY: DUC DE ROVIGO) جنرال افرنسي (١٧٧٤-١٨٣٣) برز اسمه في معركة اوسترالانكا: (OSTROLENKA) وهي المدينة البولونية التي انتصر فيها الافرنسيون على الروس سنة ١٨٠٧، واصبح وزيراً للشرطة في عهد الامبراطورية الاولى وهو مؤلف كتاب مذكرات (MEMOIRE)

والاحتقار. وهو الأمر الذي وصفه احد المؤرخين بقوله: «**دخلت الجيوش الافرنسية مدينة الجزائر، فوجدتها صامتة يسودها سكون رهيب، وظهر لها إنها خالية من سكانها. وكانت ذهول الافرنسيين لهذه المقابله كبيراً ظهرت آثاره على وجوههم وتحركاتهم. ولم يحاول- الافرنسيون- اخفاء دهشتهم لما تركته هذه المدينة الخرساء من انطباعات غريبة في نفوسهم، مع ان المدينة لم تكن خالية تماماً، فهنا تشهد تاجراً يقبع أمام دكانه المغلق، وهناك تلمح اشباح نساء فوق سطوح المنازل، وفي ملتقى الطرق، كانت جماعات قليلة من الجزائريين والاتراك تدخن في صمت ثقيل. ولئن كانت هذه المناظر كلها تمثل للفرنسيين مشاهد (للفرجة) فان الجزائريين لم يعيروا الافرنسيين أدنى اهتمام، وكأنهم لم ينتبهوا فعلاً لوجودهم- وان هذا الاحتقار الواضح، الذي قوبل به جنود الاحتلال الافرنسي هو الذي جعل هؤلاء المنتصرين يستغربون من هذا الوضع ويتعجبون...**»(١).

هكذا استقبلت الجزائر المجاهدة قوات الغزو البربرية بمزيج من المقاومة السلبية والايجابية، غير أن هذه المقاومة لم تكن إلا البدايات المبكرة، وكانت هذه البدايات المبكرة هي الاساس الثابت للتطورات المستمرة والمتعاظمة.

وفي الواقع، فقد يكون من الصعب فصل المقاومة السلبية عن المقاومة الايجابية، فهما متداخلتان ومتشابكتان الى حد كبير لانهما تعبير عن (الرفض الكامل للاستعمار الافرنسي) واذا كان المجاهدون قد استطاعوا التعبير عن غضبهم ورفضهم بالرصاصة، فقد لجأ المجاهدون ممن لم يجدوا الرصاصة، أو لم يتمكنوا

---

(١) تاريخ الجزائر- مسعود- ص ١٣٠- ١٣١.

لعوامل كثيرة من استخدامها فقد استخدموا اسلوب (الصمت القاتل) كتعبير ثابت عن الغضب والرفض لهذا الواقع الذي فرضته قوة الاستعمار البربرية (وكلمة البربرية هنا تعبير عن الوحشية ورد على الاسلوب الذي استخدمه غلاة الاستعمار ودهاقنته في وصف المقاومة العربية الاسلامية). وقد اخذت المقاومة منذ البداية، على ما هو واضح، اتجاهان متباينة، واتبعت أساليب مختلفة. فكان منها مقاومة التجار والعلماء وزعماء المدن، وكان منها مقاومة شعبية دينية قادها المرابطون. ورؤساء القبائل تحت راية (الجهاد في سبيل الله) والدفاع (عن الاعراض والمحرمات والأرض والشرف والوطن). وكان منها أيضاً مقاومة تندرج تحت (راية الجهاد في سبيل الله) أيضاً غير انها تجد لها حوافزها (الخصوصية) وتمثلها فئة النزوع الى العهد التركي الاسلامي. وقد حاولت السلطة الاستعمارية إضعاف المقاومة عن طريق مهاجمة (الوحدة الدينية للمسلمين) واتهام المسلمين بالتعصب في اطار دفعهم للاتجاه الذي تريده فرنسا الاستعمارية وترضى عنه على انه (لا تعصب). وضمن هذا الاطار حاولت تفسير مقاومة مسلمي الجزائر احياناً بانها نتيجة تعصب المسلمين ضد اليهود (سادة المجتمع الجزائري الجدد تحت حماية الاستعمار) واحياناً اخرى بانها (نزوع الى عودة الحكم الاسلامي) ممثلاً (بحكم الاتراك العثمانيين). ويمكن التوقف قليلاً عند التفسير الافرنسي لظاهرة المقاومة.

لقد انهارت المقاومة الرسمية في الجزائر خلال عشرين يوماً اعتباراً من بداية العدوان، غير أن هذا الانهيار كان هو البداية لشكلين من أشكال المقاومة المسلحة. الشكل الأول هو الذي تولى قيادته الحكام الرسميون (ويمثلهم الحاج أحمد باي قسنطينة الذي

استمر في قيادة جهاد الناحية الشرقية حتى سنة ١٨٣٧) والشكل الثاني هو المقاومة الشعبية التي برزت بصورة خاصة في الناحيتين الوسطى والغربية من الجزائر. ويدحض ذلك مقولات التفسير الافرنسية الخاطئة للمقاومة. ان سبب المقاومة الحقيقي هو في (رفض مبدأ الاستعمار ذاته) والذي جاءت الممارسات الاستعمارية ذاتها لتدعم فكرة الرفض والمقاومة للاستعمار.

لقد كان الحكم الاسلامي، عبر تاريخه الطويل، مناقضاً للتعصب، ولم يثر التعصب الاسلامي إلا نتيجة (التعصب الصليبي) وكان المسلمون هم حماة اليهود منذ فتح الشام وحتى خروجهم من الاندلس، وخلال هذه المرحلة التاريخية المتطاولة شارك اليهود المسلمين انتصاراتهم بقدر ما استثمروا قدراتهم، وتعرضوا أيضاً لما يتعرض له المسلمون عند مجابهة (مأساة انهيار الاندلس الاسلامية». غير ان اصطناع الافرنسيين لليهود في الجزائر، واندفاع اليهود لدعم الصليبية المسيحية ضد المسلمين هي التي شملت (اليهودية والاستعمار الافرنسي الصليبي) بشعور واحد مبعثه الغضب ضد هذا الواقع المفروض بقوة السلاح.

لقد أظهرت الطائفة اليهودية في الجزائر ميلاً واضحاً الى الافرنسيين، كما أظهر هؤلاء لليهود عطفاً أوضح، واعتمدوا عليهم في ادارة العهد الجديد نظراً لمعرفته بالبلاد. وقد مارس اليهودي (ديني) وكيل التموين دوراً بارزاً في حمل القائد العام الافرنسي على حماية اليهود ودعمهم واستخدامهم. فعينت الادارة الافرنسية منذ اليوم التالي للاحتلال اليهودي (سرور) رئيساً للمترجمين غير الافرنسيين. وقد أصبح (بكري) صاحب نفوذ كبير حتى أن الجيش

كان لا يفعل شيئاً إلا باستشارته. وبذلك حصل على امتيازات كبيرة له ولطائفته. وهكذا أبرز الافرنسيون الجالية اليهودية ودعموها على حساب العرب المسلمين، على الرغم من إقرار الادارة الافرنسية بغدر هذه الطائفة وتنكرها للجميل. إذ أكدوا في مرات كثيرة استعدادهم لبيع الجيش الافرنسي في سبيل مصالحهم، وأصبحوا مرابين ومورطين غير أوفياء بالعهود ـ كعادتهم ـ. ويذكر ان اليهود اتهموا امرأة أحد الاتراك باخفاء السلاح في بيتها، حتى اذا ما تبين للافرنسيين كذب هذا الاتهام، عاد اليهود اليها وطلبوا منها دفع (٦٠٠) قطعة ذهبية حتى لا تتعرض للمعاملة السيئة، فاعطتهم ما يريدون وشكت أمرها الى الافرنسيين فتم اعتقال اليهود وسجنوا. وفي اليوم الأول من الاحتلال اتصل (بكري) بالاتراك، وحذرهم من الخطر الذي يتهددهم، ووعدهم بالحماية مقابل أن يدفعوا له مبالغ حددها لهم. كما اتصل بقومه ووعدهم ان الافرنسيين لن يفعلوا شيئاً بدون موافقته. وكان يطمح الى أن يكون رئيس الطائفة اليهودية ـ كما كان زمن الادارة العثمانية ـ. واتصل ايضاً بمحافظي الشرطة وطلب منهم تسليم كل القضايا الخاصة باليهود اليه، وقد فعل ذلك بدون علم الهيئة المركزية (المجلس البلدي) ورئيس الشرطة. وقد افاد اليهود من دعم الافرنسيين لهم، فعملوا على تهجير كثير من اغنياء العرب من المدينة، وقد تدخل اعضاء الهيئة المركزية لدى رئيس الشرطة لمنع هجرة العائلات الغنية من المدينة.

وهناك من يذهب الى أن ثورة العرب ضد الافرنسيين ـ حتى في الارياف ـ كانت تعود الى النفوذ الذي أصبح عليه اليهود في الادارة الجديدة. غير أن الامثولات السابقة ذاتها، ومسيرة الاحداث التالية، تؤكدان أن الغضب على اليهود، وتسلطهم، انما يعود لمبدأ

الاحتلال ذاته والذي أخل بتكوين المجتمع العربي الاسلامي وذلك باعتماده على اقلية عميلة (اوليغاركية) اسهمت بتنفيذ المخطط الاستعماري الذي كان من أعماله، انتزاع التجارة من قبضة ابناء البلاد واحتلال المنازل والمساجد والأملاك الخاصة والاعتداء على الاعراض وغير ذلك من انتهاك للمحرمات التي دفعت حتى تلك الفئة من (المعتدلين) والتي اعتقدت في البداية انه بالمستطاع التعايش مع المستعمرين في بعض الحدود، دفعت تلك الفئة للتنكر للاستعمار والانضمام الى صفوف المقاومة ومنظماتها.

أما بالنسبة لعلاقة الجزائر بالاتراك العثمانيين (من حيث مزاعم الافرنسيين بعمل الجزائر لاعادة الحكم الاسلامي) فما هي إلا محاولة عرفها الجزائريون قبل سواهم من كل شعوب العالم العربي- الاسلامي. وهدفها دفع الجزائر للتهرب من (الحكم الاسلامي) على اعتبار أن كل ما ينزل بالجزائر هو بسبب تمسكها بالحكم الاسلامي، ولم تكن عملية الهجوم الشامل على الدين الاسلامي فكراً، وعبادة، ومقدسات أكثر من اداة لتحطيم مواقع الصمود الجزائرية. فكان رد الفعل الطبيعي هو المزيد من الاصرار العنيد على التمسك بالاسلام والالتزام بشريعته. أما بالنسبة لطبيعة العلاقة مع الامبراطورية التركية- العثمانية، فلا مجال للحديث عنها هنا، غير انه بالمستطاع القول ان هذه العلاقة ما كانت في يوم من الايام أكثر من (تحالف مقدس) ضد (تحالف صليبي) حيث جمع الجهاد بين مسلمي الجزائر ومسلمي الاتراك. وقد كان في الجزائر، يوم وقع العدوان وفقاً لما سبق ذكره، ستة آلاف تركي، قتل منهم ألف وخمسمائة وبقي (٣٥٠٠) من العزاب وألف من المتزوجين (آباء الكراغلة). وهذا العدد لا يشكل في كل الاحوال قوة احتلال

للجزائر اذا ما ذكر ان عدد المقاتلين الذين حشدوا في الجزائر هو (بين ٥٠ و٧٠) ألفاً من أبناء الجزائر، وعلاوة على ذلك، فقد كان حكام الجزائر يلتمسون تجنيد المقاتلين من الاناضول لدعم قدراتهم القتالية في حروبهم التي لم تكن تتوقف، وعلاوة على ذلك كله، فكثيراً ما كان أهل الجزائر يثورون على حاكمهم التركي عندما كان هذا الحاكم يجأر بالظلم، أو يسلك سلوكاً يتنافى مع قواعد الشرع. ويظهر من خلال ذلك، أو من خلال الشواهد الكثيرة انه لا مجال للمقارنة ابداً بين الحكم التركي العثماني في الجزائر والذي كان يعمل لمصلحة العرب المسلمين، وبين هذا الحكم الاجنبي (الصليبي) الذي جعل من أهدافه محاربة المسلمين. ويكون من الطبيعي ان يشعر الافرنسيون بوضعهم الغريب عند مقارنة حكمهم بحكم الاتراك المسلمين فيوجهون الاتهام الى الاسلام كعامل اساسي في التحريض ضد الاستعمار الافرنسي الصليبي. ومن الطبيعي بعد ذلك كله، أن تكون العلاقات بين الاتراك المسلمين والجزائر الاسلامية علاقة وطيدة صهرتها في سداها ولحمتها دماء الشهداء من الطرفين وهم يسقطون معاً تحت راية (الجهاد في سبيل الله) على امتداد اكثر من ثلاثة قرون. .

على كل حال، لم تكن (طائفة اليهود) سوى فئة مستخدمة لتنفيذ المخطط الاستعماري، ولم تكن (فئة الاتراك- الكراغلة) أكثر من فئة أيضاً حاول المخطط الاستعماري الافادة منها واستثمارها. وكذلك الأمر بالنسبة (لما اطلق عليه اسم حضر الجزائر، وهم الفئة المنحدرة من العرب الاندلسيين) حيث حاولت السلطات الاستعمارية استخدامهم مرحلياً لتمزيق الجزائر الى (ملوك الطوائف) يضرب

بعضهم بعضاً. غير ان سياسة (فرق تسد) كانت تصطدم في كل مرة (بوحدة المسلمين تحت راية الجهاد في سبيل الله). ولم يتمكن (الخوارج) أبداً من كل الفئات الاسلامية، ومن كافة طبقات المجتمع الجزائري الاسلامي، البقاء في صف اعداء قومهم. وكان للسياسة الاستعمارية فضل لا ينكر في ذلك، إذ أن العدالة في توزيع الظلم قد مارس دوره الاساسي باستمرار في توحيد الجهد (تحت راية الجهاد).

آ ـ فئات من المجاهدين

كان (حضر الجزائر) أحفاد العرب الاندلسيين يشكلون فئة تمتلك بعض الثراء، وكانوا في العهد التركي يحتلون سياسياً المرتبة الثالثة بعد الاتراك والكراغلة (من أب تركي وأم جزائرية) وكانوا يملكون الأراضي في سهل متوجه (متيجة) وبعض الممتلكات في مدينة الجزائر ذاتها حيث يمارسون أعمال التجارة. وكانوا غالباً راضين بوضعهم ولا يطمحون للمناصب السياسية، ولو أن بعضهم تقلد مناصب القضاء والافتاء والكتابة ونحوها من الاعمال التي تتطلب ثقافة عالية. وعندما بدأ الافرنسيون في (فرز) عناصر المجتمع الجزائري تمهيداً لتمزيقه، صنفوا طبقة (حضر الجزائر) على انها منافسة وساخطة على الاتراك. وهكذا وجهوا انظارهم الى هذه الطبقة التي لم تعارض مبدأ التعاون المشروط مع الافرنسيين الذين عملوا بمجرد الاستيلاء على مدينة الجزائر، على تنحية الاتراك وإسناد بعض مناصبهم لهؤلاء الحضر، فتولى بعضهم مركز (آغا العرب) مثل حمدان بن أمين السكة، وأصبح بعضهم بايا على التيطري (مصطفى بن عمر) وتم تعيين (أحمد بوضربة) رئيساً لأول مجلس بلدي لمدينة الجزائر. ولكن فئة (حضر الجزائر) اكتشفت

بسرعة انها كانت مخطئة في اعتقادها بأن فرنسا ستعوض حكم الاتراك بحكم محلي تكون طبقة الحضر في موقع قيادته. وعرف افراد هذه الفئة ان فرنسا قد جاءت لتبقى، وأن اموالهم وأراضيهم قد صودرت لمصلحة الادارة الافرنسية، وان مساجدهم وزواياهم ومساكنهم قد احتلت من الجيش الافرنسي، أو دمرت من أجل اقامة الساحات العامة والمسارح والمستشفيات العسكرية أو تحولت الى كنائس. حتى ان املاك (مكة والمدينة) التي كانت مؤسسات خيرية للفقراء وطلبة العلم قد استولى عليها الافرنسيون، وأصبح ريعها يذهب مباشرة الى خزينة الادارة الافرنسية. وأثناء ذلك كان اعيان هؤلاء (الحضر) يعملون لصالح فكرة (الحكم الاسلامي) سواء لدى السلطات الافرنسية، أو في اتصالاتهم مع الباشا حسين (داي الجزائر السابق) أو مع باي قسنطينة (الحاج أحمد). وعند ذلك كشفت السلطات الافرنسية عن أهدافها، فعملت على عزل أو طرد أو نفي أولئك الذين قبلوا التعاون معها بحجة (عدم قيامهم بواجبهم تجاه الدولة) أو (التآمر لاستعادة الحكم الاسلامي) أو (الانضمام الى فئة الثوار). وزاد نفور (حضر الجزائر) بما اقدمت عليه السلطات الافرنسية من (غدر بعهود الامان) ومن (ذبح للقبائل المسلمة والمسالمة بكاملها، مثل قبيلة العوفية) ومن (أسر للمرابطين كرهائن- على نحو ما فعلته مع مرابطي القليعة) ومن (مطالبة بخمسين شاباً من كبار العائلات في المدينة لحملهم كرهائن الى باريس). وأمام هذه الوقائع، التجأ (حضر الجزائر) الى طرائق متنوعة للتعبير عن غضبهم، وكان أبرز دور لهم هو اثارة ضجيج عالمي لفضح أساليب الاستعمار الافرنسي في الخارج، والتحريض على الجهاد واثارة النقمة في الداخل- وكانت حياة (حمدان خوجة)

هي النموذج الامثل لهذا الجهاد، إذ اخذ علَى عاتقه الدفاع عن قضية (الجزائر) وقضية (الاسلام) خلال تلك الفترة من (بدايات المقاومة).

ولكن اذا لم يكن باستطاعة (حضر الجزائر) تجاوز هذه الحدود في المقاومة، وهي حدود مثمرة ومفيدة على كل حال إذ أنها اسهمت بوضع حجر الاساس للصراع السياسي اللاحق، فقد كان هناك فوق الثرى الجزائري من لا يزال يمتلك القدرة لحمل السلاح. وكان (المرابطون) هم الطليعة الاولى، حيث كانوا يجمعون بين مضمون (الجهاد) وبين الهدف (السياسي). وكان هؤلاء المرابطون يضمون أصالة الجزائر الاسلامية ويمثلونها أصدق تمثيل. فكان فيهم عرب الصحراء ـ البادية ـ والفلاحين وشيوخ القبائل ورجال الدين، وكلهم متفقون على الاستمرار في المقاومة وحصار الجيش الافرنسي في حدود (مدينة الجزائر، وعدم السماح له بتجاوز حدودها. فكان من الطبيعي ان يكون سكان سهل المتوجة (متيجة)[1] هم أول من يصطدم بقوات الافرنسيين.

---

(١) سهل متيجة: (كلمة متيجة هي تحريف للكلمة العربية ـ متوجة ـ بضم الميم وفتح التاء والواء والجيم) وقد اطلق اسم (سهل متيجة) على السهل الذي تحيط به الجبال وتتوجه من اغلب جهاته. وهو عبارة عن سطح مستو ومنبسط حوضي ومنخفض طولي في كل جهاته الغربية، ومفتوح نحو البحر في جهاته الشرقيه، تقرب مساحته من (١٣٠) ألف هكتار. يبلغ طوله من وادي الناطور في الغرب الى وادي بودواو في الشرق نحو المائة كيلومتر. ويختلف عرضه في الأطراف الغربية والشرقية عنه في الوسط، إذ هو عريض في الوسط حيث يبلغ ١٨ كيلومتر، وهي المسافة الفاصلة بين قرية الاربعاء الواقعة عند اقدام جبل الاطلس وبين مدينة الحراش الواقعة عند أقدام تلال الساحل أو في الاطراف الشمالية لسهل متيجة. ويقل هذا العرض الى (١٠) كيلومترات في الاطراف الشرقية والغربية. ويضم السهل مجموعة كبيرة من المدن والقرى، اشهرها البليدة والقليعة =

وكانت هناك حوالي اثنتي عشرة قبيلة منتشرة في سهل متيجة، لكل قبيلة منها مشيختها أو زعامتها، ولكل قبيلة منطقتها ـ أو وطنها ـ وعلى كل وطن قائد، فكان هناك على سبيل المثال وطن (بني خليل) وعلى رأسه الشرقي، وكان هناك وطن (بني موسى) وعلى رأسه (أوشفون) وكان هناك وطن (الخشنة) وعلى رأسه (العمري)، وكذلك وطن (الست) وعلى رأسه (عبد الوادي) وكذلك أيضاً (شرشال) التي اعترفت بالبركاني شيخ بني مناصر زعيماً لها. وكذلك (القليعة) التي كانت تخضع لعائلة (ابن المبارك) وهو مرابط له سمعة واسعة. وكانت مدينة (البليدة) هي عاصمة (سهل المتوجة) أو(المتيجة). وعندما شعرت هذه القبائل، والمدن المجاورة بالخطر، تحالفت، وقررت المقاومة، ومن ثم ابتدأت سلسلة من الاصطدامات مع العدو، وتحولت شيئاً فشيئاً الى ثورة عامة. وظهر خلال هذه الثورات زعماء مارسوا دوراً اساسياً وبارزاً خلال السنوات الاولى (من ليل الاستعمار الطويل). وقد يكون من الصعب الاحاطة بكافة الظواهر الثوروية خلال تلك الحقبة الحافلة بكل ظواهر الاضطراب، غير أنه ليس من العسير استقراء بعض تلك الظواهر.

ب ـ ثورة ابن زعمون:

كان (ابن زعمون) من قبيلة فليسة، وقد تولى قيادة قبيلته عندما احتل الافرنسيون الجزائر، وأظهر تصميمه على منع تقدم الجيش الافرنسي نحو (البليدة) فانضمت اليه قوات العرب في المنطقة، وعرض عليهم القضية بما في ذلك

= وشرشال وبوفريك (المرجع ـ مدينة الجزائر نشأتها وتطورها ـ علي عبد القادر حليمي ـ الجزائر ١٩٧٢ ص ١٥).

مشروع الدفاع عن حريتهم ووجودهم ودينهم مع الاعتراف بالسلطة الافرنسية في الجزائر، وكان ذلك في الشهر الأول من الاحتلال حين علم أن قائد الحملة (دوبورمون) يريد الزحف على (البليدة). ولذلك كتب الى (دوبرمون) يطلب منه عدم التقدم إلا بعد توقيع معاهدة مع العرب تنظم العلاقة مع الافرنسيين. ولكن (دوبورمون) قرر الذهاب الى البليدة في يوم ٢٥ تموز (يوليو) عام ١٨٣٠ على رأس جيش من ألفي جندي مشاة وبعض مئات من الخيالة ـ الفرسان ـ ومدفعين (وقد سبقت الاشارة الى ما نزل بهذه الحملة من الدمار). وعلى أثر ذلك أصبح (ابن زعمون) صاحب نفوذ كبير في اقليم الجزائر. بسبب كفاءته القيادية العالية التي اظهرها في قيادة قواته ضد الافرنسيين، وبسبب ما اظهره من البطولة لايقاف تقدم العدو، وأخذت قوته في التعاظم يوماً بعد يوم. حتى اذا ما أقبل يوم ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٠ م، هاجم ابن زعمون مدينة البليدة بقوات ضخمة، واقتحم المدينة، ودارت معركة قاسية انتقل فيها الصراع من شارع الى شارع ومن منزل الى منزل، وابيد خلالها عدد كبير من الحامية الافرنسية (التي كانت تعمل تحت قيادة العقيد روليز) وسقط عدد من سكان المدينة (اهاليها). وعندما وصل (كلوزول) في اليوم التالي قادماً من حملته الفاشلة على مدينة المدية (عاصمة اقليم تيطري) وجد المدينة (بليدة) وقد غطتها الجثث التي كان من بينها (٥٠) جندياً افرنسياً من جنود المدفعية، ممن قتلتهم قوات (ابن زعمون). وأصيب (كلوزول) بصدمة قاسية قرر على أثرها سحب القوات الافرنسية الباقية من (البليدة). وعاد بفلول جيشه الى مدينة (الجزائر).

دعمت انتصارات المجاهدين في (البليدة والمدية) من ثقة

المقاتلين بأنفسهم، وعززت ايمانهم بالنصر على قوات الغزو. وزادت قوة (ابن زعمون) بانضمام (الحاج سيدي السعدي) اليه، واضطلاعه بأعباء حشد المجاهدين ودعوته الناس لحمل السلاح والجهاد في سبيل الله، وفي هذا الوقت ذاته، كان مصطفى بومرزاق ينظم المقاومة ويقودها للقتال في منطقة بوفريك، تاركاً لابن زعمون وسيدي السعدي منطقة (الجانب الايمن لوادي الحراش) حتى تنشر قواتها عن هذه المنطقة وتدافع عنها. وبذلك كانت القوتان تضمنان حماية (سهل المتوجة ـ متيجة).

قام (ابن زعمون) بقيادة قوات المجاهدين في صيف سنة (١٨٣١ م) فهاجم بها المراكز الافرنسية الامامية، وأشعل النيران بالمزرعة النموذجية التي اقامها الافرنسيون قرب (وادي الحراش) وهي المعروفة باسم (حوش حسن باشا) والتي كان الافرنسيون يعدون العدة للاحتفال بأول حصاد لها. وتطورت الاعمال القتالية التي استمرت طوال أيام عديدة حتى باتت تهدد العاصمة (الجزائر) ذاتها. وعندئذقرر الجنرال الافرنسي (برتزين) مجابهة الموقف، فزج ست فرق عسكرية. بالاضافة الى قوة الفرسان ـ الخيالة ـ بكاملها، وبعض المدفعية. وهاجم قوات (ابن زعمون) و (سيدي السعدي) عند مكان يسمى باسم (المرابط سيدي ارزين). غير أن قوات المجاهدين تجنبت الاصطدام بهذه القوة المتفوقة وانسحبت الى الجبال المجاورة، تاركة لقوات الافرنسيين حرية العمل في منطقة (الفراغ العسكري) ولم يجد (برتزين) امامه الا أن ينسحب بقواته الى الجزائر معتقداً أنه قد نجح في وضع حد للثورة. غير أنه ما كاد يرجع حتى عادت قوات المجاهدين الى مسرح عملياتها تحت قيادة قادتها (ابن زعمون وسيدي السعدي).

قاد (ابن زعمون) بعد ذلك قواته في خريف ١٨٣١ م وخاض

معها معركة (بوفريك- أو بوفاريك) وأفادت القوات الافرنسية من تفوقها بقدر ما استثمرت سوء تنظيم القوات المهاجمة فتمزقت قوات (ابن زعمون) تمزقاً لم يتمكن معه قائدها من اعادة تنظيمها، مما أغضبه، فقرر الانسحاب والاعتزال في منزله (في فليسة) وامتنع بعد ذلك عن المشاركة بأي عمل. أما رفيق جهاده (سيدي السعدي) فقد انضم بعد ذلك الى الأمير (عبد القادر).

ج- سيدي السعدي والجهاد

كان (سيدي السعدي) من اسرة كبيرة من المرابطين المقيمين في الجزائر. اشتهر بين قومه بالتقى والشجاعة، واسهم بقدر غير قليل في اثارة القبائل ضد اعداء الدين، وفي التحريض على الجهاد وطلب الشهادة في سبيل الله، وامكن له تحقيق نجاح في مسعاه بفضل ما عرف عنه من الصدق والاخلاص. وقد خرج من الجزائر بمجرد دخول القوات الافرنسية اليها، وأقام بين قومه المرابطين في (سهل المتوجه-المتيجة) داعياً للثورة. ووجد في (ابن زعمون) كفاءة قيادية جيدة، واخلاصاً في القتال. فمضى لدعمه وتأييده. وبفضل دعوته وتأثيره، هاجم (عرب متيجة) المنتشرين في الفحص (الضواحي) المزارعين الاوروبيين الذين أخذوا في احتلال السهل والاستقرار فيه. وقد قتلوا اعداداً كبيرة منهم، واضطروهم الى الفرار واللجوء الى العاصمة. وكان لهذه الاحداث أثر على الاوروبيين الذين تزايد خوفهم وقلقهم فغادروا مزارعهم. وانتقل الخوف الى (مدينة الجزائر) فأغلق الاوربيون متاجرهم ومؤسساتهم، واخذوا في التفكير بالعودة الى اوروبا، حاملين معهم ما أمكن لهم الحصول عليه من الغنائم والثروات. وساد الاعتقاد بانه من الصعب مقاومة

هذه الثورة الشاملة، وظهر لفترة بأن المستعمرة الوليدة- الجزائر- قد ولدت وهي ميتة. واستمر (الحاج سعدي) في تجواله بين القبائل داعياً الى الثورة العامة وعلم القائد الافرنسي بتحركات (السعدي) بين القبائل، وانضمام كل شيوخ القبائل الى الثورة بفضل تأثيره من جهة، وبفضل جرائم الاستعمار من جهة اخرى، إذ اتهم الافرنسيون (قبيلة العوفية) بالاعتداء على وفد فرحات بن سعيد (الذي جاء يطلب التعاون مع الافرنسيين) وقاموا بالهجوم على هذه القبيلة ليلاً، في ٧ نيسان- ابريل- ١٨٣٢ م وابادوها عن آخرها. وحاكموا شيخها (الربيعة) وأعدموه، رغم براءة القبيلة من هذه الحادثة، وبالرغم من سلوك شيخ قبيلة العوفيه سلوكاً مسالماً، وحمله هدية الى القائد الافرنسي (دورو فيغو) وزاد هذا الحادث من سخط القبائل على الافرنسيين، حتى أن (آغا العرب الحاج محي الدين)[1] الذي عينه الافرنسيون، لم يلبث أن انضم الى الثوار، وترك لهم حرية الدعوة للجهاد في (القليعة) مقر اسرته. وقرر القائد العام الافرنسي القضاء

(١) كان الجنرال (برتزين) في سنة ١٨٣١ يحاول مهادنة العرب، فاستنصح حضر مدينة الجزائر، فنصحوه بتعيين الحاج (محي الدين بن الصغير بن سيدي علي مبارك- في منصب - آغا العرب في سهل متيجة. وكان قائد الحملة الأول (دوبورمون) قد عين (الحاج ابن عمر) في منصب الباي، وعين ابنه (حمدان بن أمين السكة- منصب آغا العرب- واثناء حملة الافرنسيين على المدية (تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٣٠) كلف الافرنسيون (آغا العرب حمدان) بمراقبة العرب في سهل متيجه. غير ان هذا ترك العمل والتزم في منزله معتكفاً، وعندما اراد الافرنسيون صب نقمتهم عليه حاول خداعهم، فعزله كلوزول في ٧ كانون الثاني- يناير- ١٨٣١، وألغى منصب (الآغا) وارسل حمدان منفياً الى فرنسا. ثم عينت فرنسا ضابطاً في منصب آغا العرب (العقيد ماندري). وبعد ذلك تم تعيين (محي الدين بن الصغير) في هذا المنصب في محاولة لتهدئة (الثورة في سهل متيجة).

على الثورة، فاتهم (آغا العرب) بالخيانة، وطلبه للمحاكمة، وخرج هو بالجيش الافرنسي الى (بئر خادم) ومن هناك وجه جزءاً من الجيش الى (القليعة) والى (سوق علي) قرب (بوفريك) التي كانت قاعدة الثوار. وقد اشترك في القتال الذي دار في بداية شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٢ م، كل من الجيش الافرنسي، وفرقة (صيادي افريقية) وفرقة (الزواف) الخاصة، وانتهت المعركة بهزيمة المجاهدين الثوار وانسحابهم الى الجبال والمدن المجاوره. (وفر الآغا محي الدين مع الحاج سيدي السعدي والتحقا بالامير عبد القادر، حيث أصبح الآغا محي الدين خليفة للامير عبد القادر على مدينة مليانة).

د ـ ثورة الآغا محيي الدين بن المبارك

لم يكن الآغا (محي الدين بن المبارك) مغموراً في قومه، فقد كان قائداً مرابطاً في (مدينة القليعة) عندما اقتحمت القوات الافرنسية الجزائر. وقد حاول القائد الافرنسي (برتزين) اخماد الثورة اللاهبة في سهل متيجة عن طريق تعيين (محيي الدين بن الصغير بن سيدي مبارك) في منصب (آغا العرب). غير أن محي الدين لم يقبل المنصب إلا بعد أن تعهدت له فرنسا بدفع مبلغ (٧٠) ألف فرنك سنوياً. وتعهد لها هو ببقاء العرب حيث هم، بشرط أن يبقى الافرنسيون حيث هم أيضاً. وبعبارة اخرى، كان هذا الشرط تجميداً للأوضاع، وأصبح الافرنسيون محاصرين في مدينة الجزائر. والتزم الطرفان بتنفيذ هذه الشروط في سنة ١٨٣١ م. وكان (الآغا) يوصي في جميع رسائله إلى القائد العام الافرنسي، بعدم السماح لأي افرنسي أن يتصل بالأهالي أو يذهب اليهم، وكان يصر

على أن يكون هو الصلة الوحيدة بين العرب والافرنسيين. ويذكر بعض المؤرخين أن مراسلاته القليلة قد أصبحت هي وسيلة الافرنسيين الوحيدة للتعرف على أحوال العرب. وقد مارس (الآغا محيى الدين) قيادته لقومه بحكمة وكفاءة، فأمكن له بذلك، وبفضل ما عرف عنه من التقي والورع، فرض سلطته ونظامه على العرب في المنطقة ووضع حداً لأعمال الفوضى. وقام بعزل بعض شيوخ القبائل وتعيين غيرهم، فعين الحاج (محمد المخفي) شيخاً على قبائل الخشنة، خلفاً لابن العمري الذي قتل أثناء الثورة. وأبقى (أحمد بن أورشيف) على قبائل (بني موسى)، و(مسعود بن عبد الواد) على قبيلة (السبت) وكان الرجلان قد شاركا في الثورة ضد فرنسا. وعين أيضاً (العربي بن موسى) على قبائل (بني خليل) خلفاً (لمحمد بن الشرقي). وقد جاءت هذه التعيينات فدعمت من قوة قادة الثورة، الأمر الذي أغضب الافرنسيين إذ أنه عزلهم وجردهم من كل اتصال مع الاهالي. فعملت الادارة الافرنسية على اتهام الآغا بأنه يعمل لحسابه الخاص، وأنه كان يتصل بالقبائل لتشجيعها على الثورة ضد فرنسا، وأنه عندما قامت هذه الثورة العامة قد انضم اليها سراً. وأن تظاهره بالعجز هو من أجل دعم الثورة. وزاد موقفه حرجاً بعدوان الافرنسيين على (قبيلة العوفية) في (٧ نيسان- ابريل-١٨٣٢م). حيث لم يكن باستطاعة القبائل العربية إلا الانتصار بعضها لبعض، وكان لا بد (للآغا محيى الدين) من أن يتخذ موقفاً واضحاً ضد الافرنسيين وممارساتهم، مما أغضب القائد العام الافرنسي الذي- عزل الآغا- عن منصبه. وعين (حمدان بن عثمان خوجة) ليكون الواسطة بينه وبين الآغا. وخصص شرطة خاصة لمضايقة الآغا ومطاردته وتتبع اخباره ومراقبة تحركاته. كما اخذ في انتهاك الاتفاق

بين الآغا وبينه (على البقاء كل من العرب والافرنسيين في مواقعهم، وامتناع الافرنسيين عن الاتصال بالاهالي إلا عن طريقه). واخذ في الاتصال بالعرب مباشرة، متجاوزاً الآغا ومتجاهلاً له. وتطور الصراع بين الرجلين، فأرسل القائد العام (دورو فيغو) حملة قوية (بقيادة الجنرال بروسارد) بمهمة مهاجمة القليعة، وتدمير قوى الثورة، والقاء القبض على (الآغا محيى الدين) وحمله الى مدينة الجزائر تمهيداً لمحاكمته. غير أن (الآغا) عرف نوايا خصمه، فلجأ الى قبيلة (بني مناد). وعندما لم يجد (بروسارد) الآغا، ذهب الى اسرته واعتقل اثنين منها (وهما سيدي علال وسيدي محمد) ابنا عم الآغا، وكلاهما من المرابطين، وحملهما الى الجزائر، وألقى بهما في السجن، لمدة زادت على السبعة أشهر. وعندما أرسل الآغا مساعده (حميدو) بمهمة نقل رسالة من قبله الى القائد (الجنرال فوارول) قام هذا بتحويل الأمر الى (الجنرال دورو فيغو) الذي كان يحقد على الآغا، فقام باعتقال (حميدو) وقرر محاكمته، ولم يحتمل (حميدو) الصدمة فمات في سجنه. وعلى الرغم من هذا الحادث، فقد استمر (الآغا) في محاولاته، فكرر الكتابة الى القائد العام الافرنسي للتأكيد على براءته مما هو منسوب اليه من اتهامات. وعندما يئس (الآغا محيى الدين) من الوصول الى نتيجة ايجابية، كتب مباشرة الى ملك فرنسا ـ لويس فيليب ـ والى وزير حربيته، مؤكداً اخلاصه. ومنها الرسالة التي وجهها يوم ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٢ الى الملك الافرنسي يخاطبه فيها باسم العرب الذين تجمعوا حوله (بني مناد) ويطالبه بوضع حد لحكم (دورو فيغو) المتعسف، واحلال العدل الذي وعدت به فرنسا الجزائريين. وكذلك رسالته الى وزير الحربية بتاريخ ٢١ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٢ م. والتي

اشتكى فيها من القائد العام واتهمه بارتكاب الاخطاء، والاصغاء الى انصار عودة الحكم التركي الى الجزائر، والعمل ضد كل ما يكتبه اليه من نصائح وآراء تخص العلاقات مع العرب. وأدى ذلك الى زيادة تطرف القائد العام (دورو فيغو) وامعانه في استخدام أساليب القهر ضد عرب الجزائر، فحاول القضاء على الآغا محي الدين بالاغتيال السياسي، وكلف احد المترجمين بالبحث عن قاتل لاغتيال الآغا غير أن هذه الوسيلة فشلت. فقرر معاقبة مدينتي (البليدة والقليعة) على دعمهما للثوره وفرض عليهما غرامة قدرها (مليون ومائة ألف فرنك). وكان عدد سكان القليعة لا يتجاوز (١٥٠٠) نسمة وهم في حالة من الفقر لا تسمح لهم بدفع الغرامة المفروضة عليهم، فقامت اسرة (المبارك) الذي كان زعيمها في سجن الافرنسيين بالجزائر، بدفع مبلغ عشرة آلاف فرنك. في حين قام (حاكم القليعة) بدفع مبلغ (١٤٠٠ فرنك) فقط بالنيابة عن سكان القليعة. وأخذ القائد العام (الدوق دورو فيغو) بعد ذلك في ممارسة سلطاته للاتصال مباشرة بشيوخ القبائل وفرض الهيمنة الافرنسية عليهم. فحاول في بداية الأمر تعيين (احمد بن شنعان) من قبيلة (بني جاد) والذي ذكر الافرنسيون أنه اتصل بهم عشية معركة (اسطاوالي) في ١٩ حزيران- يونيو- ١٨٣٠ ليحل محل (الآغا محيى الدين). ولكن أهل المنطقة رفضوه وقاوموه. وعندما حاول القائد العام فرضه على (أهل البليدة) بالقوة، رفض هؤلاء بدورهم قبول هذا التعيين ووجهوا تهديدهم الى (أحمد بن شنعان) بالقتل. فلجأ الى العاصمة بعد أن أقام فترة قصيرة في البليدة. وعدل الدوق عن تعيينه، غير انه قرر القيام بحملة ضد (البليدة) فهرب أهلها منها والتجؤوا الى الجبال المجاورة. ودخلها الجيش الافرنسي، فعاث

فيها فساداً ثم رجع الى العاصمة (مكللاً بالعار لا بالغار- كما يقول الافرنسيون ذاتهم). كما قرر الدوق تعيين رؤساء جدد (شيوخ) على القبائل غير موالين للآغا (محي الدين). فعين (ابن رباح) على قبائل بني موسى. وعين (سي حمود) على قبائل (بني خليل) وابقى (الحاج المخفي) على قبائل الخشنة. وتجاوز (الدوق دورو فيغو) بعد ذلك هذه المرحلة فأخذ في الإعداد لتصفية قادة المقاومة، واولهم (العربي بن موسى) قائد (بني خليل، و(مسعود بن عبد الواد) قائد (السبت). و(الآغا محيى الدين) على اعتبار ان هؤلاء القاده اظهروا باستمرار استعدادهم لتحريض العرب ضد فرنسا. واراد استدراجهم الى الجزائر، فكتب بتاريخ ٦ تشرين الأول - اكتوبر- ١٨٣٢ الى أهل البليدة، طالباً منهم ارسال وفد الى الجزائر يضم هؤلاء القادة. فشعر الآغا (محيى الدين) بالخطر، وامتنع عن الذهاب وانضم الى (الامير عبد القادر الجزائري) على نحو ما سبقت الاشارة اليه. أما القائدان الآخران فقد راودتهما الشكوك، وشعرا بالمكيدة، فترددا بالذهاب واشترطا الأمان. وأرسل اليهما الدوق الأمان عن طريق صديقهما (الحاج المخفي) الذي لا يشكان في نيته. وجاء معهما المخفي الى الجزائر. فتم اعتقالهما بمجرد وصولهما الجزائر، والقي بهما في السجن. واحتج صديقهما (الحاج المخفي) كما أرسلت عرائض الاحتجاج من القبائل، غير ان الدوق جاء بقضاة حاكموهما ونفذ الافرنسيون حكم الاعدام فيهما. وكان لاستشهاد (العربي بن موسى ومسعود بن عبد الواد) على هذه الصورة الغادرة دوره في زيادة غضب القبائل العربية. ونفذ حكم الاعدام في شباط (فبراير) عام ١٨٣٣ م- قبل شهرين من عودة (دورو فيغو) الى باريس ثم موته في حزيران- يونيو- من السنة ذاتها.

هـ ـ بو مزراق ـ باي تيطري:

ما ان استقرت السلطة الافرنسية في الجزائر العاصمة، حتى اخذت في البحث عن الوسائل والطرائق التي يمكن لها استخدامها للسيطرة على البلاد، وحاولت في البداية ان تعتمد على الاقليات، اليهود بصورة خاصة، وكذلك الفئات غير التركية (حضر الجزائر). ويذكر أن (كلوزول) قائد الجيش الافرنسي بعد (دوبورمون) قد طلب من اعيان مدينة الجزائر قائمة بأسماء العائلات الكبيرة في المدينة ليعين منها (بايا) على اقليم (تيطري). وحاول الافرنسيون الاستمرار في تقليد العثمانيين عند اسناد منصب (الباي) الى من يرغبون، فكانوا يخلعون على الشخص الذي يسمونه (باياً) القفطان المميز للباي ويسلمونه سيفاً، غير أن الفرنسيين لم يلبثوا أن الغوا بسرعة منصب الباي. المهم في الأمر هو أن (كلوزول) اختار مصطفى بن الحاج عمر (أو مصطفى بن عمار) ليكون باياً على تيطري خلفاً للباي (مصطفى بومزراق) الذي كان قد اتفق مع الافرنسيين ثم ثار ضدهم فخلعوه.

وكان على (مصطفى بن عمار) مواجهة ثورة (الباي السابق) ومواجهة ثورة (ابن بومزراق) وان يقمع اضطرابات الاقليم الثائر، وتنفيذ ما يطلبه الافرنسيون من اخضاع للاقليم. وزاد من صعوبة الموقف ان الافرنسيين اشترطو عليه الابقاء على الادارة السابقة، وعدم اجراء أي تغيير يدعم من سلطته.. فمضى (مصطفى بن عمار) الى ممارسة الحد الادنى من واجباته (القضاء والمخالفات ونحوها) والاقتصار في نشاطاته على حدود مدينة المدية[1] ولكن اذا

(١) كان الافرنسيون بقيادة (كلوزول) قد دخلوا (المدية) يوم ٢٣ تشرين الثاني- نوفمبر- =

نجح الافرنسيون في القاء القبض على (بومزراق) وسمحوا له بالذهاب الى الاسكندرية فان ابنه (سي احمد) قد بقي على مسرح الاحداث ينتظر الفرصة المناسبة. (ويقال ان كلوزول قد اعترف بانه ارتكب خطأ عندما لم يعتقل سي احمد عندما اعتقل والده). واقام (سي احمد) في المدية مقر حكم والده، وقاد الثائرين ضد (مصطفى بن عمار) واحتل دار الباي الريفية، وكان يدخل المدينة ويغادرها دون أن يحاول الباي ابن عمار اعتقاله. وعندما تفاقم الأمر طلب ابن عمار النجدة من القائد الافرنسي العام في الجزائر. فجاء (برتزين) بنفسه، وعندها انسحب (سي احمد بن مصطفى بن بومزراق) الى الجبال المحيطة. وعاد (برتزين) الى الجزائر مصطحباً معه (مصطفى بن عمار).

استثمر (سي احمد بومزراق) انتصاره على الافرنسيين، فطاردهم اثناء انسحابهم من المدية. واشتبك معهم عند مضائق جبل (موازية) وانتصر عليهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، واستولى على كميات كبيرة من الاسلحة والمواد التموينية. وأقام بو مزراق في (المدية). واثناء ذلك. كان الأمير (عبد القادر بن محيى الدين - الجزائري -) ينظم دولة الجزائر، ويحشد القوى ضد الافرنسيين، والتف حوله الشعب الجزائري من ايالة (تيطري) و(وهران). فما كان من (سي احمد بن مصطفى بومزراق) إلا أن أسلم القيادة

= ١٨٣٠ م، وأخذوا (بومزراق أسيراً). وعينوا بدله (مصطفى بن عمار) في تاريخ الجزائر **مجاهد مسعود** - ص ١١٨. أو (مصطفى بن الحاج عمر) في لتاريخ الجزائر الحديث - **سعد الله** - ص ٦٤) وترك (كلوزول) في المدينة حامية افرنسية بقيادة (دانليون) وعاد الى الجزائر.

(للامير عبد القادر) وانضم الى قواته، ومما حفظه له التاريخ قوله:
«لقد غرر الافرنسيون بأبي، وأرغموه على أن يكون عميلهم ضد الشعب، غير أنه أدرك بعد فوات الأوان، أن من واجب كل جزائري ألا يرضى بالاستعمار، ولقد استسلم لهم بعد أن أعطوه كلمة الشرف بأنه لن يمس بأذى، ولن يخرج من بلاده، وبعد ذلك رأوا أنه لا بد لهم من إخراجه من الجزائر، فاستولوا على أمواله، وشردوا أسرته، وعلى كل حال، فان ما قامت به فرنسا من التنكر لباي تيطري ليس بالأمر المستغرب، لأن فرنسا اعتادت على اعطاء كلمة الشرف ثم العمل على سحبها وفقاً لما تقتضيه الظروف. ويعرف العالم اجمع حقيقة أن فرنسا لا ذمة لها ولا مروءة ولا شرف. وان المعاهدات التي تبرمها مع هذا أو ذاك هي معاهدات قصيرة العمر جداً». لقد كان غدر الاستعمار الافرنسي بالجزائريين عاملاً أساسياً في جملة العوامل التي اسهمت في توسيع الهوة الفاصلة بين الاجهزة الاستعمارية والاجهزة الوطنية الجزائرية، وظهر ذلك بصورة خاصة في (وهران) حيث لم يترك المواطنون الوهرانيون وسيلة إلا استخدموها للدفاع عن مقدساتهم وحرياتهم وكرامتهم، وبذلوا جهد المستطاع لحشد كل القدرات والقوى المتوافره للجهاد ضد اعداء الدين والوطن، وكان في جملة جهودهم المبذولة ارسال وفد منهم الى (العلامة محيى الدين) ومطالبته بتولي القيادة ورفع راية الجهاد. غير انه اعتذر عن ذلك بسبب سو حالته الصحية، وكبر سنه. فما كان منهم إلا أن توجهوا الى سلطان المغرب- نظراً لاتصال التراب الوهراني بالمغربي وقرب وهران من المغرب - فقبل ملك المغرب ما طلبه منه اهل وهران، وأرسل جيشاً بقيادة احد الامراء ليكون قائداً عاماً على وهران. وقد اتخذ الامير

المغربي من (وهران) قاعدة له، وانطلق بالمجاهدين حتى وصل الى (مليانة) وبقي هناك لمدة ستة أشهر، وخافت فرنسا من بأسه، كما خافت من تعاظم قوة (احمد باي قسنطينة) وظهر احتمال تعاون القوات المغربية والجزائرية ضد فرنسا، لاخراجها من الجزائر، فأرسلت القيادة العامة في الجزائر تقريراً مطولاً الى وزارة الدفاع الافرنسية طالبة استخدام كل جهد مستطاع لحمل المغرب على سحب قواته التي كان يقودها ابن عم الملك في (وهـران). واستجابت وزارة الدفاع لهذا النداء. فوجهت انذاراً الى سلطان المغرب: «**بأنه اذا لم يأمر قواته بالانسحاب من الجزائر خلال فترة ثمانية واربعين ساعة، فانها ستضطر الى اعلان الحرب على المغرب لتدخله السافر في قضاياها**».

استقبل أهل (وهران) الانذار الافرنسي بالهزء- وحتى بالسخرية ظنـاً منهم أن (سلطان المغرب) سيكون اكثر حزماً في مواجهة الانذار الافرنسي. غير أن أملهم قد خاب عندما استجاب سلطان المغرب للانذار، وأمر قواته بالانسحاب الفوري تاركاً أهل وهران وحدهم لمجابهة العاصفة الافرنسية. وعلى أثر ذلك، اجتمع العلماء والاعيان. وقرروا التوجه من جديد الى (العالم محيي الدين) في محاولة لحشد القوى، لا سيما وان العالم محيي الدين كان من أكثر القاده المؤهلين لرفع راية الجهاد بسبب ما عرف عنه من الصلاح والتقوى والوطنية. وذهب وفد وهراني قابل (العالم محيي الدين) واعلموه صراحة بأن مصير الجزائر أصبح أمانة في يديه، وأنه الوحيد الذي يستطيع حمل هذه (الأمانة) وانه اذا ما رفض الاضطلاع بالمسؤولية خلال تلك المرحلة الخطيرة. فانه سيحمل وحده نتائج هذا الرفض - أمام الله والتاريخ-. ولم يعد باستطاعة

(محيي الدين) تجنب مجابهة الموقف، فقبل تولي قيادة الجيش، تاركاً للشعب الجزائري حرية تعيين الامير الذي يختارونه لادارة الحكم في الجزائر. وذكر للوفود انه سيعتمد كل الاعتماد على (عبد القادر بن زيان) وعلى ولده (عبد القادر الجزائري) لما يعهده فيهما من الكفاءة والبطولة. فشكرته الوفود على ذلك، وعاهدته على ان تقدم لدعمه كل ما تستطيع. وكان ذلك نقطة التحول الحاسمة التي أدت الى إعادة تنظيم الجزائر تحت قيادة (الامير عبد القادر).

كان ذلك هو الوضع العام الذي جابه قوات الغزو الاستعماري للجزائر، فالمقاومة تتعاظم في كل مكان، وتحولت الانتصارات السهلة التي احرزتها قوات الغزو في بداية الأمرالى عبءثقيل يرهق القوات الافرنسية في الجزائر بقدر ما يقلق رجال الدولة الافرنسية ذاتها، وزاد الأمر سوءاً ببقاء الوضع المضطرب في ولاية هي من أكبر ولايات الجزائر، هي (ولاية قسنطينة) والتي تولى قيادة المقاومة فيها رجل أمكن له الصمود في وجه فرنسا وقواتها طوال ثمانية عشر عاماً، على الرغم من مجموعة الظروف الصعبة التي كانت تحيط به، وتنتصب في مواجهته، خلال كل عمل من أعماله.

و ـ الحاج أحمد (باي قسنطينة):

تولى (الحاج أحمد) إمارة (بايليك قسنطينة) في سنة ١٨٢٧ من قبل (حسين باشا)، حاكم الجزائر. وكان (الحاج أحمد) مرتبطاً باقليم قسنطينة بالمصاهرة، فكان كرغلياً (أي من أب تركي وأم جزائرية) وكان أخواله من عائلة (ابن غانة) التي كانت لها مكانة وسلطة على عرب الصحراء في نواحي بسكرة والزاب: كان جده هو (أحمد القلي) الذي كان (باياً على قسنطينة) أيضاً، أما والده فقد

الحاج أحمد باي ولد شريف

Hadj Ahmed Bey, Fils de Ahmed Cherif

كان خليفة لحسين باشا. وقد تصاهر أحمد مع عدد من الأسر والقبائل العربية في المنطقة هادفاً الى نيل تأييدهم. فتصاهر مع (ابن غانة) و(المقراني) وقسم من قبيلتي (فرجاوة وزواوة). ولكن اعداءه كانوا أولاد فرحات الذين يتنازعون منصب (شيخ العرب) مع أولاد ابن غانة. وقد واجه الحاج أحمد عدواً لدوداً في شخص (فرحات بـن سعيد) عندما عزله الحاج أحمد من منصب شيخ العرب وإعطاه الى خاله (بوعزيز بن غانة) كما واجه الحاج أحمد خصوصاً في بقية فرجاوة وزواوة، وفي الحزب الذي ظهر ضده في عاصمة اقليمية.

وقف (الحاج احمد) الى جانب (الداي حسين باشا) عندما وقع الغزو الافرنسي، واشترك في معركة (اسطاوالي) وعندما ظهرت النتيجة، وتقررت معركة الجزائر- عسكرياً- انسحب (الحاج احمد) الى (وادي القلعة) ثم الى (عين الرباط - مصطفى باشا الآن) شرقي العاصمة، ثم تابع طريقه شرقاً في اتجاه قسنطينة، بينما انضم اليه أكثر من الف وستمائة مقاتل من الفارين من وجه الجيش الافرنسي ومعهم بعض النساء. وعندما وصل الى (اولاد زيتون) استلم رسالة من (دوبرمون) قائد الجيش الافرنسي يطلب فيها من (الحاج احمد) دفع اللازمة (الجزية) على نحو ما كان يدفعها الى الباشا بعد أن تم توقيع معاهدة التسليم من قبل (الباشا حسين). ووعد (دوبرمون) بالإبقاء على (الحاج احمد) والاعتراف به كما كان من قبل. غير أن (الحاج احمد) رد على ذلك بقوله: «إن مثل هذا الأمر يتطلب موافقة أهل الاقليم الذي يحكمه» ثم واصل سيره نحو (قسنطينة) التي وصل ضاحيتها (الحامة) بعد اثنين وعشرين يوماً. وتوقف (الحاج

احمد) في الحامة لأنه عرف أن خصومه الاتراك قد قاموا بانقلاب ضده، وعينوا بايا جديداً مكانه يدعى (حمود بن شاكر). ولكن انصاره تحركوا عندما علموا بعودته تحت قيادة خليفته (ابن عيسى) وبعض العلماء، وعندما تأكد خصومه من عدم تأييد أهل البلاد لهم قتلوا زعيمهم واعلنوا توبتهم وولاءهم. وتظاهر (الحاج احمد) بالعفو عنهم، ولم يلبث ان (حاكم قادة المنشقين) وأمر بقتلهم وجعلهم مثالاً لغيرهم. وحصل منذئذ كره شديد ضد الاتراك وأصبح لا يثق بهم. واعتمد على تأييد العنصر العربي- الجزائري- الذي اخذ في تكوين جيشه من رجاله. وكان (الحاج علي) يتعرض لضغوط ديبلوماسية قوية، فكان أول عمل له جمع ديوانه واستشارته في موضوع رسالة القائد الافرنسي (كلوزول) التي تتضمن (تعيين الحاج احمد باياً على قسنطينة باسم الملك الافرنسي، شريطة ان يدفع له اللازمة - الجزية-) غير ان الديوان رفض بشكل قاطع الاقتراح الافرنسي باعتبار أن الحاج احمد يستمد سلطته الشرعية من الشعب ومن السلطان العثماني- المسلم- لا من ملك فرنسا. وأرسل (الحاج احمد) رسالة الى السلطان محمود يشرح له الموقف. واثناء ذلك، أصدر (كلوزول) قراره بعزل (الحاج احمد) واتخذ في الوقت ذاته اجراءً (خبيثاً) لإضعاف موقف (الحاج احمد) حيث وقع (كلوزول) معاهدة مع تونس يصبح بمقتضاها (سي مصطفى) أخو باي تونس في تلك الفترة (باياً على قسنطينة) خلفاً (للحاج احمد)[1]. ولم توافق فرنسا على هذه المعاهدة، غير ان هدف

(١) وقعت هذه المعاهدة في ١٨ تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٣٠، وهناك معاهدة اخرى شبيهة بها وقعها الجنرال- كلوزول- مع ممثل آخر عن باي تونس (اسمه خير الدين) لحكم اقليم وهران.

المعاهدة قد تحقق بتصعيد الصراع بين (قسنطينة) و(تونس). إذ عمل (باي تونس) بعد توقيع المعاهدة على ارسال الرسائل الى اقليم (قسنطينة) داعياً الناس الى الثورة ضد (الحاج احمد) متهمة اياه بالاستبداد والطغيان والخروج على طاعة السلطان، ومعلنة انضمام قسنطينة الى تونس. وتجنبت هذه الرسائل ولو مجرد الاشارة الى الاتفاق مع فرنسا (كلوزول). وأصبح على الحاج أحمد أن يخوض الصراع على عدة جبهات: جبهة ضد فرنسا، وأخرى ضد تونس، وثالثة ضد ابراهيم الذي أعلن نفسه باياً على عنابة، وطالب بعودته الى (قسنطينة) ورابعه ضد باي (تيطري) الذي اعلن نفسه (باشا الجزائر) خلفاً (لحسين باشا) وطالب الحاج أحمد الاعتراف به. وخامسة ضد (فرحات بن سعيد شيخ العرب) الذي عزله (الحاج احمد) وعين بدلاً منه خاله (بوعزيز بن غانه) هذا بالاضافة الى المؤامرات التي حيكت ضده داخل عاصمته. ولم يقف (الحاج احمد) مكتوف اليدين، فجمع ديوانه، وعرض عليهم دعوى (باي تونس) فقرر الديوان إرسال رسالة الى باي تونس يعلمه فيها: (انه لا حق له بالمطالبة بقسنطينة. وان السلطان محمود هو المرجع، فكما ان باي تونس يستمد سلطاته منه، فكذلك باي قسنطينة، وان أهل قسنطينة راضون بحكم الحاج أحمد).

اتخذ (الحاج احمد) خطوة حاسمة بعد ذلك، إذ حمل لقب (باشا) وأمر بضرب السكة (النقود) باسمه وباسم السلطان العثماني. فانتزع المبادرة من (باي تيطري)[1] واحبط مخطط (باي

---

(١) أعلن (باي تيطري) مصطفى بومزراق نفسه باشا، وطلب من الحاج أحمد الاعتراف به لكي يرسل اليه (القفطان) فلم يرد عليه. وقال للوفد (نحن سواء) والبارود =

تونس) ثم عين وزيراً للمالية (هو مساعده بن عيسى) باسم خزنجي- وأعلن ان هذه الاجراءات الادارية تخوله ممارسة السيادة على الرأي العام. غير أن المعركة بينه وبين باي تونس لم تتوقف وانما انتقلت الى بلاط السلطان العثماني، فقد علم (الحاج أحمد) أن باي تونس قد بعث برسائل الى السلطان يصف فيها باي قسنطينة بظلم الرعية والخروج عن الطاعة. فلجأ الحاج احمد الى ارسال وفد برئاسة (سي علي بن عجوز) أحد أعيان قسنطينة ومعه أحد ثقاته وهو (الحاج مصطفى) الى استانبول، حيث ظل أربعة شهور. وقد حمل الوفد الى السلطان موقف الارادة العامة التي استندت على توقيعات رؤساء القبائل واعيان البلاد وجميعها تؤيد حكمه وتنفي عنه الاستبداد والظلم. وبعد السيطرة على الموقف في قسنطينة، التفت (الحاج احمد) الى خصومه الذين تخلص من بعضهم بمساعدة الظروف، ولكن بعضهم ظل كالشوكة في حلقه. فقد خرج لمحاربة ابراهيم وفرحات بن سعيد. فهرب الأول إلى عنابة عن طريق تونس، والثاني إلى أولاد جلال في أعماق الصحراء، حيث ظل يحارب بدون هوادة، وكان (ابراهيم) في عنابة قد تواطأ مع الافرنسيين أولاً، ثم أعلن الحرب عليهم، وأخرجهم من المدينة، ولكن ابن عيسى، مساعد الحاج أحمد، حاربه واضطره للهروب، ثم تحولت المعركة على عنابة بين ابن عيسى والافرنسيين. وعندما أيقن (ابن عيسى) من تغلب الافرنسيين عليه، خرج منها هو وسكانها، ودخلها الافرنسيون من جديد، واستقروا بها بعد سنتين

- هو الذي يقرر بيننا. فعزله بومزراق وعين بدله غريمه ابراهيم. ولكن بومزراق انهزم امام الافرنسيين وأسروه في تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٣٠ واستقر بعد ذلك في الاسكندرية، وتخلص الحاج احمد بذلك من احد خصومه.

من احتلال الجزائر. وقد كان احتلالهم لعنابة، أهم موانىءاقليم قسنطينة، سبباً في توتر مستمر بين فرنسا والحاج أحمد. وقد عين الافرنسيون على عنابة (يوسف المملوك)[1]. أما ابراهيم، فقد احتمى بالجبال، وواصل مقاومته للحاج احمد الى سنة ١٨٣٤ م. وكان في الوقت ذاته يحارب الافرنسيين، ثم التجأ الى (مدينة المدية) حيث مات، ويقال انه اغتيل من عملاء الحاج أحمد. واذا كان الافرنسيون قد خلصوا (الحاج أحمد) من خصمه (بومزراق) حين ابعدوه الى الاسكندرية (خريف ١٨٣٠ م) كان ابنه (سي أحمد) قد انضم الى الحاج أحمد وأصبح خليفة له ورشحه أن يكون صهراً له. غير أن (سي أحمد) لم يلبث أن فر من عنده، والتجأ الى الامير عبد القادر (الخصم الآخر للحاج أحمد)[٢٥].

بذل (الحاج احمد) جهوداً كبيرة للحصول على دعم عاجل من (السلطان محمود) غير أن جهوده لم تنجح في تأمين المساعدات خلال الفترة التي كانت فيها (قسنطينة) أحوج ما تكون لهذه المساعدات. وعاد الوفد الذي أرسله (الحاج احمد) لهذه الغاية وهو يحمل رداً غامضاً من السلطان (يحمل توقيع رؤوف باشا).

---

(١) يـوسف مملوك: يهودي مرتد، كان أسيراً لدى باي تونس، ووقع في غرام ابنة هذا الداي، وعندما اكتشف امره، هرب الى الجزائر، ثم التحق بالجيش الافرنسي، واصبح من المغامرين فيه. وأصبح جنرالاً كبيراً فيه، وكان له دور خطير في احتلال قسنطينة، وزعم انه ابن غير شرعي لنابليون الأول، وانه من جزيرة (البا) «تاريخ الجزائر الحديث - الدكتور ابو القاسم سعد الله ص ١٣٣ - ١٣٤».

(٢) جـاء في (تاريخ الجزائر الحديث - الدكتور ابو القاسم سعد الله - حاشية صفحة ١٣٥) ما يلي: «هرب سي احمد بأموال الحاج احمد. وقد اكرمه الامير - عبد القادر - ثم كواه بالنار عندما اكتشف انحرافه - ففر من عنده ايضاً الى الافرنسيين».

وكان هذا الرد يذكر: «بان السلطان في حالة سلم مع الدول المسيحية، وانه لا يستطيع اعلان الحرب على فرنسا بسبب قضية الجزائر، أو بالاحرى قضية قسنطينة، ولكنه طلب من الحاج أحمد متابعة جهاده ضد الافرنسيين، وألا يوقع صلحاً معهم إلا بعد استشارته». غير أن الحاج احمد لم ييأس. فأرسل وفداً آخر الى السلطان (برئاسة السيد بلهوان) الذي كان يحمل رسالة الى الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء ـ (رؤوف باشا). وألح الحاج أحمد في رسالته على طلب المساعدة المادية، وأعلن انه مستعد للتضحية من أجل الدين، وأن الافرنسيين يقتربون منه يوماً بعد يوم. ولكن (رؤوف) هذا استقبل بلهوان استقبالاً فاتراً، ووعده بارسال مندوب عنه الى قسنطينة لتقصي حقائق الموقف، فكان هذا المندوب هو (كامل بك). ولكن، وقبل وصول (كامل بك) كانت هناك الاتصالات قد استؤنفت بين الحاج أحمد وبين القائد العام الافرنسي في الجزائر (الدوق دو روفيغو) للتفاوض، حيث قام (حمدان بن عثمان خوجة) بنقل رسالة من الدوق الى الحاج (في صيف سنة ١٨٣٢ م) تتضمن اعلان (الحاج احمد) استسلام بلاده لفرنسا، ودفع ثلاثة ملايين فرنك ضريبة حرب، ودفع اللازمة السنوية ـ الجزية ـ وذلك مقابل اعتراف فرنسا بالحاج احمد (باياً) على اقليم (قسنطينة). وجمع (الحاج أحمد) أعيان المدينة، بحضور خوجة، وأطلعهم على رسالة الدوق، وبعد المناقشة استقر رأيهم على دفع اللازمة، بشرط أن تعيد فرنسا الأراضي التي احتلتها من الاقليم، ولا سيما ميناء عنابة، وإقامة قنصل فرنسي في عنابة، وإعلام القائد العام الافرنسي بعدم قدرة الاقليم على دفع ضريبة الحرب، وإبقاء ذلك كله مرهوناً بموافقة السلطان وارادته حيث

المدفعية الإسلامية في الدفاع عن قسنطينة

Raffet. Batterie Couverte Servie Par les Musulmans Lors De La Resistance De Constantine

يجب على الافرنسيين الاتصال به مباشرة. وحمل (خوجة) رأي أعيان قسنطينة إلى الدوق، ثم رجع برسالة أخرى تحمل الشروط التالية: «دفع (٥٠) ألف دورو، واللازمة السنوية، وتعهدت فرنسا بالحصول على القفطان للحاج أحمد من استانبول، ولكنها تبقي حامية عسكرية في كل من عنابة وقسنطينة، ويظل ميناء عنابة في قبضتها» ولكن الحاج أحمد لم يقبل هذه الشروط، وأحال الإفرنسيين على السلطان العثماني.

وصل موفد استانبول (كمال بك) الى قسنطينة عند هذه المرحلة، واستقبله الحاج أحمد استقبالاً حاراً. وفي اجتماع عام لأعيان المدينة ورؤساء القبائل والمسؤولين، خطب كمال بك، وقال بأن: «السلطان لم ينسهم، وأن عليهم بالصبر والايمان، وقال ان السلطان يعمل على ابقاء اقليم قسنطينة تحت طاعته، وأن عليهم أن لا يقبلوا أي شرط بدون موافقته». وقد تأكد (كمال بك) على تعلق البلاد بالحاج أحمد، وعرف أن الرسائل التي ترد إلى استانبول من باي تونس لا تستند على الواقع، وعاد كمال الى استانبول، وكتب الى الحاج أحمد يعلمه أنه أطلع السلطان على الوضع، وأنه يعمل للوصول الى حل لصالح الباي، ولكنه لم ينجح، وطلب منه أن يراسل السلطان عن طريق (سي الطاهر باشا) الذي أصبح حاكماً لطرابلس.

علم الحاج أحمد بعد ذلك أن القيادة الافرنسية قد حشدت قواتها في عنابة للقيام بحملة كبيرة ضد (قسنطينة) مستفيدة من فصل الشتاء (سنة ١٨٣٦ م). فخرج الحاج أحمد بقواته من عاصمة الاقليم وسار بها مسافة نصف يوم، وأقام معسكره عند مكان يدعى

(وادي الكلاب). وكانت قواته تضم (٥) آلاف فارس و(١٥٠٠) من الرماة المشاة. وقد التقى الجيشان في مكان يسمى (عقبة العشاري). فتظاهر (الحاج احمد) بالتراجع إذ شهد التفوق الكبير لقوات عدوه، غير انه لم يتوقف عن الاشتباك بهم واستنزاف قدرتهم وتكبيدهم الخسائر حتى دخل (قسنطينة). ونصب الافرنسيون مدافعهم على جبل المنصورة وسيدي مبروك الذي يشرف على المدينة وبدأوا في قصفها. كان الجيش الافرنسي بقيادة كلوزول. وكان الثلج والمطر يهطلان بغزارة. وحاول الافرنسيون ارغام المدينة الباسلة على الاستسلام، غير انهم فشلوا في محاولتهم، واضطروا الى التراجع عنها وانطلق الحاج احمد على رأس جيشه فطارد الافرنسيين حتى (قالمة). وفي طريق عودته الى قسنطينة، وجد عربات محملة بالمواد التموينيه التي خلفها الافرنسيون وراءهم. وقد كان لهذا الانتصار وقع كبير في رفع الروح المعنوية للمجاهدين ومواطني قسنطينة، كما أدى الى عزل كلوزول واستدعائه الى فرنسا. ورجع الحاج احمد الى المدينة بعد انتصاره الكبير، وبدأ على الفور باعادة تحصينها والاستعداد للجولة التالية، إذ كان على ثقة بانه لا بد للسلطات الافرنسية من اعادة المحاولة والانتقام لهزيمتها السابقة. وعلم (الحاج احمد) بوجود فئة كانت ترغب في تسليم المدينة الى الافرنسيين أثناء عملية القصف، فحكم على بعضهم بالاعدام. ثم ارسل الى السلطان يعلمه بانتصار المسلمين ويطلب دعمه. وفي الوقت ذاته، أبرزت هذه الاعمال القتالية كفاءة اثنين- بصورة خاصة -من قادة الحاج احمد، وأكدت قدرتهما واخلاصهما وهما (ابن عيسى) الذي أصبح رمزاً للمقاومة البطولية و(البجاوي) الذي أصبح خليفة (للحاج

أحمد). وكان مما زاد المقاومة ضراوة وعناداً، اعلان الافرنسيين عن ارادتهم بتعيين (يوسف المملوك) باياً على قسنطينة، بينما كان أهل قسنطينة يعرفون أن (يوسف) هذا لم يكن مملوكاً فقط، وانما كان أيضاً يهودياً مرتداً.

علم (الحاج أحمد) عن طريق مبعوث من استانبول بارسال مساعدات لدعمه، وقد حمل اليه هذا المبعوث (صراف افندي) معلومات عن ارسال حاكم طرابلس (سي الطاهر باشا) اعلاماً الى السلطان يخبره عن انتصار قوات قسنطينة على الافرنسيين، مما دفع السلطان الى ارسال دعم سريع- في ربيع سنة ١٨٣٧ م، عن طريق تونس، ولـم يمـض على انتصار (الحاج احمد) أكثر من اشهر قليلة، فارتفعت الروح المعنوية في صفوف المقاومة. ووصلت أربع سفن عثمانية الى ميناء تونس وهي محملة بالجنود الاتراك مع اثني عشر مدفعاً ومائة وخمسين مدفعياً. غير أن (باي تونس) الذي كان مهدداً بالضرب من الاسطول الافرنسي اذا نزل الجنود العثمانيون فوق أرضه، أرسل الى القبطان العثماني، يأذن له بانزال المدافع فقط، أما الجنود فقد اعتذر لهم عن انزالهم. وأرسل (باي تونس) الى الحاج احمد يعتذر له عن موقفه ويعلمه انه يرغب في اقامة علاقات ودية مع الافرنسيين. وهكذا عاد الجنود الاتراك بسفنهم الى قواعدهم في تركيا، واستخدم (باي تونس) المدافع التي كانت مرسلة الى حامية قسنطينة، وبقي (الحاج احمد) محروماً من الدعم في وقت كان هو أحوج ما يكون اليه.

حاول الافرنسيون استئناف المفاوضات مع (الحاج احمد) في حين كانوا يكملون استعداداتهم لغزوه في عاصمة اقليمه.

فاتصلوا أولاً باليهودي (ابن باجو) الذي كان يعمل في دار الحاج أحمد والذي كان يتاجر في (تونس). وكان القائد العام الافرنسي عندئذ هو (دامر يمون) بعنابة قادماً من الجزائر استعداداً للحملة المرتقبة. ورفض الحاج احمد اقتراحات الافرنسيين، وخرج لقتالهم في مكان يدعى (بلاد عمر). وهناك ارسل اليه (دامر يمون) يهودياً آخر هو (بوجناح) الذي كان يعمل في زي افرنسي، عارضاً عليه دفع مليونين من الفرنكات (ضريبة حرب) واقامة حامية افرنسية في قصبة قسنطينة، وذلك مقابل أن تعترف به فرنسا (باياً) على الاقليم فيما وراء (مجاز عمار) أي باستثناء الاجزاء التي كانت فرنسا قد نجحت في احتلالها. غير أن علماء قسنطينة وأعيانها ورؤساء القبائل فيها رفضوا الشروط الافرنسية. وأرسل الحاج أحمد رفضه الى (دامر يمون) عن طريق (بوجناح). ولم يلبث هذا أن عاد وهو يحمل شروطاً أخرى، ولكن الحاج رفضها، وأرسل رفضه في هذه المرة مع كاتبه لأنه لم يعد يثق باليهودي (بوجناح).

كانت الادارة الافرنسية في الجزائر قد عقدت في تلك السنة معاهدة مع الامير عبد القادر- الجزائري- وأصبح باستطاعتها تركيز ثقل قواتها للعمل ضد (الباي الحاج أحمد). وعندما فشلت مفاوضاتها معه، عرف ان المعركة مع الافرنسيين قد باتت وشيكة الوقوع، فأخذ في الاستعداد للقتال، وجمع شيوخ القبائل والقادة، وحشد (٥) آلاف فارس و(ألفين)من المشاة الرماة من المجاهدين بالإضافة الى جيشه النظامي الذي كان يعمل تحت قيادته الشخصية، وترك في عاصمة الاقليم (قسنطينة) حامية صغيرة مكونة من (١٥٠٠) مقاتل وانطلق ببقية القوات لمحاربة الافرنسيين. فهاجمهم مدة ثلاثة أيام متواصلة في معسكرهم الواقع في (مجاز عمار).

ولكنه فشل في هذه المرة في صد زحفهم على المدينة. فقد تمكنوا من نصب الحصار عليها ثم دخلوها بينما كان المواطنون يحاربونهم من دار الى دار ومن شارع الى شارع. وأثناء هذه الجولة قتل (دامر يمون) القائد العام للجيش الافرنسي فتولى مكانه الجنرال (فالي)[1] كما قتل (البجاوي) خليفة الحاج أحمد في (قسنطينة) وتكبد الحاج أحمد خسائر كبيرة وفقد أفضل جنده ومقاتليه. وغنم الافرنسيون بعد استيلائهم على المدينة، مغانم كثيرة واموالاً ضخمة، ذلك لأن الحاج أحمد كان قد رفض اخلاء المدينة، كما رفض إخراج الثروات والكنوز الثمينة عندما طلب ذلك منه أعيان المدينة حتى لا يؤثر ذلك على الروح المعنوية، وتأكيداً على التصميم في القتال حتى النهاية، وهو ما حدث فعلاً. وخسر الافرنسيون بالمقابل اعتدتهم وقسماً كبيراً من قواتهم هذا بالاضافة الى تموينهم. وجاءت الضربة الحاسمة التي زادت من متاعب (الحاج احمد) عندما تخلى عنه صديقه (ابن عيسى) وساعده الايمن وعرض خدماته على الافرنسيين. ولكن، وعلى الرغم من الهزيمة التي نزلت بقوات (الحاج أحمد) وعلى الرغم أيضاً من ضياع ملكه وعاصمته، فقد صمم على متابعة الصراع المسلح، وعرضت عليه فرنسا الأمان، وتعهدت له بنقله الى بلاد اسلامية. فرفض العرض الافرنسي، ومضى يحمل السلاح وقد وضع مخططاً جديداً لمقاومة الافرنسيين يعتمد على تهديد خطوط مواصلات الافرنسيين بين عنابة وقسنطينة، وعزلهم. غير أن صهره (ابن غانة)

---

(١) فالي: (SYLVAIN - CHARLES - VALEE) ماريشال فرنسا. (١٧٧٣- ١٨٤٠ م) من مواليد بريين لوشاتو، وهو الذي قاد العمليات للاستيلاء على قسنطينة سنة (١٨٣٧ م).

اعترض على هذا المخطط، وأراده أن يحارب (فرحات بن سعيد) أولاً، ثم الافرنسيين ثانياً. وهي الخطة التي عبر عنها الحاج احمد بقوله: «(الخطة التي فيها هلاكي) غير انه لم يكن يستطيع مقاومة اعتراضات صهره (ابن غانة) بعد أن تضافرت جميع العوامل ضده: «موت أو تخلي قادته عنه، وخلافه مع صهره بوعزيز الذي التحق بالافرنسيين فعينوه في منصب (شيخ العرب). وكذلك محاولة الامير عبد القادر بسط نفوذه على اقليم قسنطينة، بتوجيه نداء الى اعيانه، وتعيين خلفاء له فيه أمثال: حسن بن عزوز، وفرحات بن سعيد الذي لم ينس عزله له حتى بعد سقوطه على ايدي الافرنسيين، هذا بالإضافة الى جهود (باي تونس) المضادة له بسبب غيرته من (الحاج أحمد) والكيد له في وسط القبائل المجاورة ولدى السلطان، ثم فرنسا التي كانت ترى في وجوده بين العرب علامة خطر، فكانت تؤلب عليه القبائل، وتخلق له الصعوبات أينما حل وحيثما ارتحل. ويمكن أن يضاف الى ذلك سلبية السلطان العثماني الذي كان (الحاج أحمد) يعتمد عليه حتى بعد سقوطه» **وظل (الحاج أحمد) يقاوم كل هذه العوامل من سقوط قسنطينة (سنة ١٨٣٧) وحتى استسلامه (سنة ١٨٤٨) حيث كان ينتقل طوال هذه الفترة من قرية الى قرية، ومن الجبل الى السهل. وبينما كان في (جبل أحمر خدو) اتصلت به السلطات الافرنسية في (باتنة) و(بسكرة) وعرضت عليه الاستسلام، وإعادة كل اشيائه اليه وأخذه ليعيش في بلاد اسلامية. فقبل العرض بعد أن كبرت سنه ووهنت قواه. وذهب من بسكرة الى باتنة في ٥ حزيران- يونيو- ١٨٤٨ م، ومنها الى قسنطينة عاصمة ملكه القديم، التي عاد اليها مجرداً من سلاحه، واستقبله أعيانها عند مدخلها، ودخل اليها وسطهم في كوكبة من الخيل.**

وأقام فيها ثلاثة أيام كان فيها محل رعاية خاصة. فكان أهلها يأتون إليه كل يوم بالأطعمة والألبسة وبعض مصنوعاتهم. ولكن السلطات الافرنسية خشيت العاقبة، فمنعت الاعيان من زيارته وقدمتهم الى المحاكم العسكرية. ثم نقلت (الحاج احمد) الى العاصمة عن طريق (سكيكدة). وهناك عينت له أحد المترجمين لمرافقته (وهو الضابط دي روزي) وعينت له ولأهله داراً لاقامته، وخصصت له مبلغ (١٢) ألف فرنك فرنسي سنوياً لتغطية نفقاته. غير انها لم تنفذ وعدها باطلاق حريته، فبقي سجيناً- تحت الاقامة الاجبارية حتى وافقته منيته في الجزائر (سنة ١٨٥٠ م) ويوجد قبره الآن في زاوية (سيدي عبد الرحمن الثعالبي) وسط مدينة الجزائر، ولعل موته لم يكن طبيعياً.

* * *

حاول (الحاج احمد) اقامة دولة تعتمد على تأييد السلطان العثماني، وتأييد الارستقراطية المحلية فحافظ على النظام العثماني، وطلب مساعدة السلطان حتى يعطي لحكمه الهيبة والشرعية. وحاول بعد احتلال الجزائر توسيع قاعدة حكمه بتأييد الجماهير له، فكان لا يقرر شيئاً هاماً إلا بالرجوع الى العلماء والأعيان وشيوخ القبائل وقادة الجيش، واذا كان قد اعتمد في بداية أمره على الجند العثماني، فانه لم يلبث بعد الاحتلال أن غير رأيه وتخلص من هذا الجند، معتمداً على العرب الذين أراد أن يشكل لهم دولة يكونون هم سادتها. ولم يحاول (الحاج احمد) أن يوسع سلطانه حتى يشمل الجزائر كلها، فبقي مكتفياً، سواء في مفاوضاته مع الافرنسيين أو في مراسلاته مع السلطان العثماني بحدود اقليمه (قسنطينة) خلافاً لما كان يعمل له (الأمير عبد القادر) أو حتى

(مصطفى بومزراق - باي تيطري) الذي اخذ لقب (الباشا) وطالب الاعتراف به سيداً على الجزائر كلها.

لم يتمكن (الحاج احمد) من الاتفاق مع (الامير عبد القادر) لأنه كان يرى فيه (دعياً أو منتحلاً للسلطة). وزاد من شك الحاج احمد في الأمير أن هذا قد وقع اتفاقات مع الافرنسيين (معاهدة ري ميشان- ١٨٣٤- ومعاهدة تافنة سنة ١٨٣٧ م). وبعد اتصال الأمير بقبائل (قسنطينة) أثر المعاهدة الأخيرة وإخطارهم أنه متفق مع الافرنسيين أحس الحاج أحمد بالشك فيه والخوف منه. لا سيما وقد هدده الأمير عبد القادر بأنه سيهاجم قسنطينة مع الافرنسيين اذا لم يستسلم له (الحاج احمد). وزاد من اتساع شقة الخلاف بينهما أن الافرنسيين كانوا يعملون على اثارة الرجلين ضد بعضهما البعض. والواقع أن (معاهدة تافنة) التي جاءت بعد فشل المحاولة الاولى لاحتلال قسنطينة سنة ١٨٣٦، كانت مساعدة على نجاح الافرنسيين في المحاولة الثانية، فقد أطلقت أيديهم في شرق البلاد. وتذكر بعض المصادر، أن الأمير عبد القادر كان على علم بخطة الافرنسيين نحو قسنطينة، غير انه لم يتدخل لأنه كان يعتقد أن نجاحها سيزيل عنه منافساً خطيراً.

وكان للحاج أحمد رأي في اليهود الجزائريين، فقد قال عنهم: «**إنهم هم الذين عكروا دائماً الشؤون السياسية التي تدخلوا فيها، فهم لا يحاربون، ولكن مصلحتهم هي دائماً في رؤية الآخرين ممزقين. انهم كالذئاب التي تأتي لتأكل ما خلفته الأسود**». ودافع عن نفسه في التفاوض مع اليهودي القسنطيني (ابن باجو) لأن الافرنسيين هم الذين أرسلوه اليه. أما (بوجناح) الذي جاءه في (زي

افرنسي) مبعوثاً من القائد العام (دامر يمون) فقد قال عنه أنه: «**لم يكن ينتظر منه الخير، وأن القائد العام لم يحسن الاختيار، لأن بوجناح قد شكر الحاج احمد على رفض الشروط الافرنسية، وأخذ في ذمهم أمامه لأنهم: يريدون التوسع بكل الامكانيات فاليوم يطالبونك بهذا، وغداً سيطالبونك بشيء آخر**» وقد طلب (بوجناح) النقود من الحاج أحمد ليذهب الى باريس، ويتفاوض باسمه مباشرة مع الحكومة الافرنسية. وكاد الحاج احمد يضربه (**لولا أنه مبعوث القائد الافرنسي**) وذلك عندما اقترح عليه ضرب كبار رجاله اذا لم يرضوا بشروط فرنسا. وقد علم (الحاج احمد) ان اليهود قد نهبوا الأشياء الثمينة التي (يعرفون أماكنها السرية) عند دخول الجيش الافرنسي الى مدينة قسنطينة. وقد سبقت الاشارة الى موقفه من (يوسف المملوك الذي كان مرتداً والذي حاول الافرنسيون تعيينه بايا على قسنطينة خليفة (للحاج احمد).

لقد خاض (الحاج احمد) صراعه في ظروف صعبه للغاية، وقد علق آماله على السلطة العثمانية التي كانت تتعرض بدورها للمحن والهجمات والضغوط الثقيلة، وقد حفظت الوثائق التاريخية رسائل (الحاج أحمد) أو (بعض رسائله) والتي تبرز طبيعته الصراع الذي خاضه خلال تلك (**المرحلة التاريخية**)[1].

ز ـ حمدان خوجة والصراع السياسي:

ظهرت خلال فترة احتلال فرنسا للجزائر مجموعة من الشخصيات البارزة التي مارست ادوارها بصورة افرادية، بفضل ما

(١) **انظر قراءات ـ ٥** ـ الملحقة في آخر هذا الكتاب في موضوع رسائل الحاج أحمد.

توافر لها من الخبرة والثقافةوالمكانة الاجتماعية. وهذه المجموعة هي من النوع الذي يمكن وصفه (بالمعتدلين) أو(الواقعيين) والذين حاولوا التحرك في اطار الظروف الزمنيةوالمكانية ضمن مفهوم (انقاذ ما يمكن انقاذه). وظهر بعضهم وهو يحاول اقامة علاقات مع فرنسا لمصلحة الاسلام ولمصلحة الجزائر المجاهدة. غير ان هؤلاء لم يلبثوا أن سقطوا تباعاً، ذلك أن أرضيتهم الدينية والقومية والوطنية تجعلهم بصورة حتمية يقفون في النهاية في الصف - أو في الخندق - المعادي للاستعمار. وقد يكون من المناسب، إكمال صورة الموقف باستقراء الملامح العامة لبعض هذه الشخصيات وجهادها خلال مرحلة التحول الحاسم في حياة الجزائر.

١ - حمدان عثمان خوجة:

كان حمدان عثمان خوجة، منسوباً الى حضر الجزائر، تاجراً كبيراً، ومالكاً غنياً من أثرياء مدينة الجزائر وكانت له أراضي في سهل(متوجة - متيجة) وله املاك في المدينة. وقد ولد في أواخر القرن الثامن عشر من أسرة لها مكانتها البارزة في الدولة. فكان عمه أمين السكة(أي مسؤول المالية) وكان والده استاذاً للقانون، ثم كاتباً من الدرجة الأولى للدولة. وقد مكنه ذلك من الحصول على ثقافة عميقة ومعرفة شاملة بشؤون الدوله والبلاد عامة، كما مكنه من السفر الى المشرق والى اوروبا للتعرف على احوال العالم القديم (الشرق) والجديد (اوروبا) وكان ذلك في وقت دقيق يشهد تغيرات جذرية في السياسة الدولية (مؤتمر فيينا) وفي التفكير الانساني نتيجة الثورة الصناعية.

طلائع المجاهدين بقسنطينة يراقبون الفرنسيين

كان حمدان عثمان خوجة في مدينة الجزائر عندما وقع الغزو الاستعماري الافرنسي، ويظهر أنه مارس دوراً خفياً في الدعوة الى اجتماع الحضر الذين طلبوا الى الداي الاستسلام. وكان محل ثقة الباشا (الداي حسين) الذي أرسله الى صهره (الآغا ابراهيم) ليقنعه باستئناف القتال بعد هزيمته في معركة (اسطا والي)، وكان ابنه حسن هو الذي صحب بوحزبة، وكاتب الباشا للتفاوض مع (دوبورمون) على شروط التسليم. ويظهر أن (خوجة) أصبح موضع ثقة (دوبورمون) الذي ولاه عضوية المجلس البلدي لمدينة الجزائر. واحتفظ خوجة بمكانته في عهد (كلوزول) الذي عينه في لجنة تقدير تعويضات الاملاك المصادرة، وأسند اليه دراسة مطالب اليهود من فرنسا لدفع تعويضات عن القروض التي كانوا قد دفعوها لى (الكراغلة) كما أصبح (خوجة) متولياً شؤون المراسلة بين (باي تيطري بو مرزاق) وبين السلطات الافرنسية. غير أن أسهمه لم تلبث أن تدهورت، حيث تآمر اليهود ضده ووقف في وجهه المسيحيون (بسبب موقفه غير المتسامح من احتلال المساجد) مما جعله في اعين الافرنسيين من الحاقدين عليهم. وكان ذلك سبباً في عزله من الوظائف التي اسندت اليه والتي قال عنها بانه قبلها لأنه لم يكن له الخيار.

حاول (الدوق دو روفيغو) إنصاف (خوجة) فأعاد اليه داره التي كان قد استقر فيها أحد الضباط الافرنسيين. وأرسله للتفاوض مع (الآغا محي الدين بن مبارك ـ مرابط القليعه) وكلفه بمهمة سرية لدى الحاج أحمد باي قسنطينه، فذهب مرتين الى قسنطينة (آب ـ اغسطس وتشرين الأول ـ اكتوبر) ١٨٣٢ م. ودامت رحلته حتى

كانون الأول - ديسمبر - من السنة ذاتها محاولاً اقناع الباي باقتراح الدوق، وهو الاعتراف بالسيادة الافرنسية، ودفع جزية سنوية لفرنسا. ثم توترت العلاقات بين (خوجة) وبين (الدوق) فنفاه من الجزائر. كما عمل اليهودي (بكري) على اغراق (خوجة) بقضايا ماليه شائكة جعلته يتابعها لدى مجلس الدولة في فرنسا.

اجتمعت فئة (المنفيين الجزائريين) في العاصمة الافرنسية في ايار (مايو) ١٨٣٣ م حيث تولى (خوجة) قضية الدفاع عن الجزائر وشرحها للرأي العام الافرنسي والعالمي. وكان للضغط الذي قامت به فئة المثقفين الجزائريين المنفيين في باريس الفضل في تحرك البرلمان الافرنسي وتشكيل اللجنة الافريقية. وفي الشهر ذاته أرسل (خوجة) مذكرة الى مجلس الدولة الافرنسي عن حالة الجزائر. وفي ٣ حزيران- يونيو- أرسل مع ابراهيم بن مصطفى باشا مذكرة طويلة الى المارشال (سولت) وزير الحربية، واقترح فيها بعض مطالب الجزائريين. وتشكيل لجنة تحقيق، وفي ٩ تموز- يوليو- أرسل خلاصة للمذكرة الى الحكومة الافرنسية، وفي ١٠ منه أرسل نسخة من المذكره ورسالة الى الملك الافرنسي، وناشده التدخل في الجزائر. وبعد أن تكونت اللجنة أصبح (خوجة) صوت الجزائريين الذين فوضوه ليتحدث باسمهم. ولذلك رفع في ٦ أيلول - سبتمبر - رغبات الجزائريين الى الملك الافرنسي، وقد ألح فيها على شيئين: الحرية والاستقلال والتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الأوروبيون. ثم كتب كتابه (المرآة) لتنوير الرأي العام. وكان الكتاب جاهزاً تقريباً منذ تموز- يوليو- ١٨٣٣. غير أن خوجة لم ينشره انتظاراً لتحسن الأوضاع وظهور نتائج اللجنة الافريقية، غير أنه قرر نشره في تشرين

الأول ـ اكتوبر ـ وأرسل منه نسخة مع رسالة الى اعضاء اللجنة المذكوره. وينص المؤلف أن (المرآة) سيكون جزئين يتناول في الأول الجزائر في العهد العثماني وادارة بورمون وكلوزول، ويتناول في الثاني ادارة برتزين وبيشون، ولكن لم يظهر منه سوى الجزء الأول.

لقد خاب أمل (خوجة) في (اللجنةالافريقية) التي لم تحقق ما كان يريد. وقد عرضته آراؤه في (المرآة) الى المحاكمات بدعوى التشهير بالغير. ولم يقبل أي طلب استئناف حتى الذي تقدم به أمام مجلس الدولة. ومن جهة اخرى عاد كلوزول الذي كان ساخطاً عليه، حاكماً عاماً على الجزائر سنة ١٨٣٥. وقد أصدر (كلوزول) قراراً في ٢٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٣٦ بطرد (حسن بن حمدان خوجة) من الجزائر بدعوى انه كان من المتآمرين على فرنسا. أما ابنه الآخر (علي) الذي كان قد صحبه الى فرنسا، فقد عاد الى الجزائر في شهر آذار ـ مارس ـ ١٨٣٩. وأما (خوجة) نفسه فقد ذهب الى (استانبول) حيث ظل على اتصال (بالحاج أحمد باي قسنطينة) يترجم له رسائله الى التركية، ويطلع السلطان على احوال الجزائر.

لقد كان كتاب خوجة (المرآة) وثيقة من أغرب وأغنى وثائق التاريخ الجزائري الحديث. وبرزت فيه مجموعة من النقاط أبرزها:

١ ـ اثباته ان عدد سكان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين، وكان السيد حمدان هو المدير الثاني لمصلحة الضرائب في الحكومة الوطنية الجزائرية، ولهذا فان معلوماته أكثر

دقة من كل البيانات التي صدرت عن المصادر المختلفة ـ الافرنسية الاستعمارية خاصة ـ.

٢ـ انه سجل اعمال اللصوصية والنهب التي قام بها الجنود الافرنسيون. وصور أبشع الصور لتلك المنكرات التي فعلها الادنياء دون حياء أو خجل، وبعث بوثيقة افرنسية على يد محضر افرنسي، ان الافرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الاسلامية، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا.

٣ـ بيانه عن الاملاك والارزاق المصادرة، والمظالم التي ارتكبها الطغاة أثناء الاحتلال. لقد كان (حمدان عثمان خوجة) في طليعة المطالبين بتشكيل لجنة تحقيق للنظر في المظالم التي انزلها الافرنسيون بالجزائريين، وعندما تشكلت (اللجنة الافريقية) وجاءت الى الجزائر، استدعت اليها (خوجة) في جلستها الرابعة عشرة، وظهر (خوجة) وكأنه متهماً بقضية لا مدافعاً عنها، حيث قال له رئيس اللجنة: «بان اللجنة تعرف أمر الكتاب الذي وضعه عن الجزائر ـ المرآة ـ وان الكتاب يحتوي على قضايا ليس من شأن اللجنة ان تتدخل فيها، وعلى شكاوى شخصية ستنال حقها من العدالة. وطلب منه الاجابة على الامور العامة. وعلى ما أراد أن يطلع عليه الرأي العام. واتهمه بان أكثر ما جاء في الكتاب خال من البراهين. ودعاه الى تقديم البراهين إذا كانت لديه. وبناء على محضر الجلسه فان خوجة قد أجاب بأنه ليس لديه لا حقائق ولا براهين...». غير أن رئيس اللجنة لم يلبث «أن طمأن (خوجة) على أن الأمور التي اشتكى منها ستنال نصيبها من الاهتمام والعناية. فالمساجد التي

احتلتها السلطات الافرنسية ستعاد الى ما كانت عليه، وستحترم الملكية في المستقبل، وستدفع الاجور، لأن هدف الحكومة الافرنسية هو تطبيق نفس العدالة المطبقة في فرنسا على الجزائر». ثم سأل رئيس اللجنة وهو يستجوب (خوجة) عن رأيه: «في ما اذا كان يعتقد أن تطبيق مبدأ اعادة الاملاك سيحقق الازدهار للمناطق التي احتلتها فرنسا في الجزائر. كما سيؤدي الى استمالة الجزائريين الذين عارضوا حتى الآن الوجود الافرنسي، والذين هم بلا شك قد أقاموا معارضتهم نتيجة للشكاوى التي نشرها ـ خوجة ـ في كتابه، والتي بالغ فيها» وعلى الرغم من أن محضر اللجنة قد اختصر اجابة خوجة على هذا الموضوع، فانه قد عبر عن اعتقاده بأن النتيجة التي توقعها رئيس اللجنة لن تتحقق بسرعة، لأن نظام العدالة المشار اليه قد يفيد أهل المدن ـ على ما ذكره خوجة ـ غير ان لن يحقق الا القليل من الفائدة لابناء الريف.

كان من رأي خوجة ـ والذي أدلى به امام اللجنة الافريقية «بان فرنسا لن تجني شيئاً من محاولتها اغراء الجزائريين باحلال النظام الافرنسي محل النظام التركي الاسلامي، أو التظاهر باحترام الدين والمعتقدات، وقد سأله رئيس اللجنة ما اذا كان يعتقد بان احترام الدين وحماية السكان وعدل الحكومة الافرنسية الصارم قد يوفر للمواطنين فرصاً مغرية لم تكن متوافرة لهم زمن الاتراك» فكانت اجابة ـ خوجة ـ واضحة، إذ أنه عبر بهذه المناسبة وبمناسبات اخرى على انه من المحال التعايش بين الجزائريين والافرنسيين في كل شيء.

٢ ـ أحمد بو ضربة:

كان أحمد بوضربة من حضر الجزائر أيضاً، غير أن دوره لم يكن واضحاً بقدر ما كان دور (حمدان عثمان خوجة). وقد عرف عنه انه كان من التجار الميسورين في الجزائر، ومن الذين لم يكونوا على علاقة جيده مع الحكام الاتراك. غير انه كان راضياً بوضعه على الاقل، فأقام فترة من حياته بمدينة (مرسيليا) حيث مارس التجارة فيها، ونزوج من افرنسية، ثم تورط هناك بقضية افلاس مالي حملته على مغادرة مرسيليا والعودة الى الجزائر، وخلال هذه الفترة تعلم اللغة الافرنسية، وعرف عادات الافرنسيين وتقاليدهم. حتى اذا ما غزت فرنسا الجزائر، ووصلت الى العاصمة، ظهر (احمد بوضربة) في مقر (الكونت دوبورمون) قائد الحمله بصحبة (حسن بن حمدان بن عثمان خوجة) ومعهما كاتب السلطان للمفاوضة على تسليم المدينة. مقتنعاً بما اعلنه الافرنسيون: «من أنهم جاؤوا محررين للجزائريين من الاضطهاد التركي». وتوطدت العلاقات منذ هذا اللقاء بين قائد الحملة و (بوضربة). فكان القائد الافرنسي- دوبورمون- يستشيره في أمور الجزائر الداخليه ويثق به، حتى انه ولاه رئاسة أول مجلس بلدي في (مدينة الجزائـــر)[1] غير

(١) شكـل (دوبورمون) في اليوم التالي للاحتلال (٦ تموز- يوليو) لجنة حكومية افرنسية بمهمة ادارة البلاد، وتشكيل (هيئة مركزية) من الجزائريين برئاسة (أحمد بوضربة) وعضوية (الحاج علي بن أمين السكة، وابن مرابط، وابراهيم بن المولى محمد وحسن قلعايجي ومحمد ابن الحاج عمر والحاج قدور بن عشاش) ثم انضم اليها اليهوديان (ابن بكري وابن دوران). وكان معظم هؤلاء من (حضر الجزائر) حيث كانت السلطة الافرنسية تعتقد بان هذه الفئة من الفئات التي يمكن الاعتماد عليها نظرا لأنها لم تكن ذات شأن ايام الحكم التركي. ولكن سرعان ما أدرك الافرنسيون خطأ اعتقادهم، فاتهموا (الحضريين) بالتآمر والطموح. ونفوا زعماءهم من مدينة الجزائر.

أن (بوضربة) أدرك بسرعة أهداف الافرنسيين من احتلال الجزائر، ووقف على اساليبهم الخادعة، فأخذ في المكر لهم والايقاع بهم، ومبادلتهم خداعاً بخداع. مما حمل مؤرخاً فرنسياً على وصفه بقوله: «كان بوضربة رجلاً فطناً ومهذباً، واسع الدهاء، غير انه يفتقر الى المبادىء الاخلاقيه، فكان يخلق المشاكل أكثر مما يسهم في ايجاد حل لها». ولم يلبث الافرنسيون أن اتهموه بانه كان يتزعم (لجنة المغاربة) التي كانت تعمل لصالح استعادة الحكم الاسلامي في الجزائر، والتي كانت على اتصال مستمر مع الداي السابق (الباشا حسين). ولم تلبث أسهم (بوضربة) أن تدهورت، شأنه في ذلك شأن جميع الحضريين أمثاله، الذين رأى فيهم الافرنسيون مصدر خطر على الاحتلال الافرنسي، فتم ابعاد بوضربة الى باريس مع من تم إبعاده من (لجنة المغاربة) وهم الذين لفتوا اليهم الانظار بمظهرهم الجزائري - الافريقي، وباتصالاتهم مع رجال الصحافة والصالونات والبرلمانيين. على كل حال، فقد كان هناك ثمة اختلاف بين (بو ضربة) وبين (حمدان عثمان خوجة) ويعرض (بو ضربة) في مذكراته (بحمدان خوجة) ويصفه: «بانه من الذين حملوا أقلامهم لاستعمالها في هجمات شخصية» ويفخر بنفسه فيقول: «بأنه ليس من هذا النوع، وأنه ينظر الى الامور نظرة واقعية، وانه يتحرى الحقيقة، وانه يعمل لصالح مواطنيه ولفرنسا في نفس الوقت، وقد ظهر (بوضربة) أيضاً امام (اللجنة الافريقية) في ٧ تموز - يوليو - ١٨٣٣ م. فكتب اليها مذكرة، وتبرز هذه المذكرة التناقض بين الرجلين (بو ضربة - وخوجة) فبينما كان (خوجة) ثائراً على الافرنسيين، غير مؤمن بالتعاون معهم، يظهر (بو ضربة) وهو ينتقد الأوضاع، غير انه يقترح حلولاً

عملية لفائدة التعاون الافرنسي - الجزائري. ومذكرة (بو ضربة) مقسمة الى سبعة فصول تضم عناوين مثل: (التنظيم البلدي وتطبيق القضاء والعدل، والتنظيمات الخاصة بالمناطق الداخلية، وادارة المؤسسات الخيرية وغيرها). وقد اعتمدت (اللجنة الافريقية) على أفكار بوضربة «لانها- حسب تعبير رئيس اللجنة الافرنسي- لم تكن كلها تمنيات مثالية (يوتوبيا) بل ان الحكومة الافرنسية قد طبقت بعضها، ولا سيما الافكار الخاصة بالتنظيم القضائي والادارة البلدية».

وجه (بوضربة) نصائحه الى فرنسا بأن تتبع في الجزائر سياسة العدل والحزم المقترن باللين والاعتدال عند التعامل مع الجزائر، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التي تؤدي الى نتائج طيبة. ونصح كذلك بأن تتفادى فرنسا تطبيق نظام الاتراك في حكم الجزائريين، فتعتمد على البايات، باعتبار أن هذا التنظيم لا يتلاءم مع تنظيم الادارة المتبع في فرنسا. ومن آرائه- الجدلية- في هذا الموضوع اقتراحه بأن تعين فرنسا (آغا فرنسياً) على القبائل الجزائرية وليس (آغا) عربياً. ودافع(بوضربة) عن اقتراحه بأن الجزائريين يشكون في الآغا الذي هو منهم، إذا دافع عنهم امام الافرنسيين بخلافه اذا كان فرنسياً، فانهم لا يشكون في اخلاصه اذا دافع عنهم، فهم مثلاً لن يتهموه بأنه كان عميلاً لبلاده بخلاف العربي. وانتقد (بو ضربة) طريقة الاحتلال الافرنسي وقال: (أن أسوأ ما تميز به هو عدم اتباعه لنظام ثابت) وأنه «لم يضمن الحماية لأحد - حتى الذين ساندوه امثاله- فكانت النتيجة أن كل الذين كانوا مع الاحتلال قد تخلوا عنه. وأن الذين كانوا سيرحبون به لم تعد لديهم الجرأة للاعلان عن

شعورهم» وطالب بوضربة فرنسا: «بأن نعلن صراحة عن موقفها من القبائل التي خضعت لها، ومن تلك التي تريد الخضوع لها، ثم من تلك التي لا زالت تقاوم الاحتلال. فالتردد والغموض لا يزيدان الموقف إلا تعقيداً» وطلب من فرنسا ايضاً: «ان لا تعفي الأهالي من الضرائب ولكن تفرضها بعدل، وأن تعاقب المذنبين بحكمة».

واقترح (بو ضربة) أن تدمج العرب في البيئة الافرنسية الجديدة: «عن طريق بناء القرى والمجمعات التي يستوطنها الافرنسيون على أن يسمح للعرب بالاستقرار في هذه المستعمرات مما يسمح بالتعارف بين المجموعتين، وتضمن للعرب الاطلاع على حضارة الافرنسيين، بالاضافة الى أن هذه الطريقة تنهي شيئاً فشيئاً مقاومة العرب لفرنسا» واقترح ايضاً: «انشاء جريدة- صحيفة- لبث الافكار وتنوير الرأي المحلي- لأن العربي في رأيه - فضولي بطبعه، وسوف يقرأ هذه الجريدة بشغف كبير. ولكنه نصح أن لا تحتوي الجريدة على مناقشة القضايا الدينية، لأن العرب عندئذ سينفرون منها. وبدلاً من الدين، يجب أن تناقش الجريدة، وتقدم معلومات عن الصناعة والفلاحة والمواضيع العلمية. وقال بوضربة في هذا الصدد أن كل جزائري تقريباً يعرف القراءة والكتابة، لذلك فان انشاء هذه الجريدة سيفتح آفاقاً جديدة أمام الجزائريين والافرنسيين معاً. وقال أيضاً: ان في كل قرية جزائرية مدرستين، باستثناء منطقة جرجرة التي لاحظ أن التعليم فيها منحصر في طبقة خاصة، وهي طبقة الشيوخ والرؤساء». وكان (بو ضربة) يظهر متفائلاً حتى حدود الحماسة وهو ينادي «بإجراء تغييرات على النظام الافرنسي القائم عندئذ في الجزائر» فقد طالب بانهاء نظام العنف الذي كان قائماً والذي دام ثلاث سنوات «واستبداله بنظام آخر قائم على اللين

وحماية حرية المواطنين وممتلكاتهم. وعندئذ ـ بناء على رأيه ـ سيرى الافرنسيون ان النتائج ستكون مختلفة، إذ انهم لن يجدوا سخطاً أو مقاومة وانما سيجدون تعاوناً ورضى».

واعلن (بوضربة) أنه يقف في صالح عدة قضايا، من ذلك اقامة فرقة جزائرية (الزواف ـ أو الزواويين) للمشاركة في حماية البلاد، على شرط أن تؤدي الدور الايجابي المنتظر منها، وأن تتوافر لها شروط العمل الضرورية. أما بخصوص دمج اليهود في حياة الجزائريين العامة، فان (بوضربة) لم يمانع في ذلك، ولكنه الح على ألا يتم هذا الدمج على حساب العرب. وقال بأن على فرنسا أن تعطي الضمانات الكافية على ألا تنال الطائفة اليهودية في الجزائر شيئاً من مراكز النفوذ الكبيرة في البلاد. ويمكن الاعلان عن هذه الضمانات ـ بحسب رأيه ـ عن طريق اصدار بيان عام يوقع عليه علماء البلاد والمسؤولين عن الشؤون الدينية.

أما عن القوات التي كانت لدى الجزائر في تلك الفترة، فقد حاول (بوضربة) تهدئة مخاوف الافرنسيين من احتمال تجمع تلك القوات للقيام بالثورة. فقال لهم: «بان هناك ١٦ ألف رجل مسلح في مركز اسطاوالي، و٤ آلاف من القبائل الراجلين ـ من أهالي جرجرة ـ غير انه من المحال على هذه القوات ان تتجمع من جديد، واذن فلا خوف على الافرنسيين من اندلاع ثورة ضدهم».

ويبدي (بوضربة) بعض الآراء الهامة حول أملاك الدولة في (سهل متوجة ـ متيجة) فهو يقول ان دار السلطان (مدينة الجزائر وضواحيها بما في ذلك سهل متيجة) كانت تملك بين ١٢ و١٣ مزرعة في السهل المذكور، بعض هذه المزارع كان عن طريق الايجار.

وكانت هناك وزارة خاصة تقوم بادارة المزارع وتعهدها، وكانت كل مزرعة تحتوي ٦٠ـ ٨٠ زوج البقر. وكانت حدود ملكية كل قبيلة في السهل منظمة تنظيماً دقيقاً وثابتاً، ولذلك لم تكن هناك نزاعات بين القبائل على الحدود.

وقال (بوضربة) أن معظم سهل متيجة يعود الى سكان مدينة الجزائر، ولا سيما طبقة الحضر منهم. أما الأراضي المشاعة فلا توجد إلا في داخل الوطن التي هي منطقة قبلية تخضع لادارة الشيخ محلياً وادارة الدولة التي يمثلها القائد.

وهناك آراء اخرى غريبة عبر عنها (بوضربة) حول الوجود الافرنسي في الجزائر، فقد قال: «بأنهم اذا ارادوا الاكتفاء باحتلال السواحل والمدن، فانهم لن يحصلوا على نتيجة في الجزائر».ـ لذلك نصحهم- بأن يعزموا على البقاء الدائم في البلاد، وأن يكونوا لهم خلفاء من أهلها حتى تتوافر لهم شروط الاقامة. ونصحهم بانهم اذا احتلوا قسنطينة (وكان حديثه سنة ١٨٣٤ أي قبل ثلاث سنوات من الاحتلال الفعلي لقسنطينة). فيجب عليهم تعيين حاكم افرنسي عليها.

وقال ان عدد سكان (قسنطينة) عندئذ يتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألفاً. وأن عادات هؤلاء وطبائعهم تختلف اختلافاً واضحاً عن عادات سكان الأرياف في الاقليم. ونصح الافرنسيين بان يتعرفوا، قبل القيام بأي توسع، على اخلاص حلفائهم الجزائريين. وبذلك يتفادون تعريض جندهم للخطر المحقق. غير أنه أشار عليهم بضرورة اعادة المساجد التي استولى عليها الجيش الافرنسي واستخدمها لاغراض خاصة.

خلاصة القول: كان (بوضربة) نموذجاً للمتعاونين المقاومين، المتعاونين مع السلطة الاستعمارية والمقاومين للمشاريع الاستعمارية. فأفادت منهم فرنسا خلال المرحلة الاولى ثم نبذتهم مرة واحدة والى الابد. حتى انه بات من الصعب معرفة المصير الذي انتهى اليه منذ سنة ١٨٣٤ أي بعد أربعة سنوات من عمر الاستعمار الافرنسي للجزائر.

٣ ـ المفتي الحنفي سيدي محمد بن العنابي:

عرف المفتي الحنفي العنابي بانه شخصية فاضلة ومحترمة من معاصريه، وقد هاله ما كان يجري في البلاد من ممارسات واعمال تتنافى مع شروط التسليم، وتتناقض مع مبادىء الثورة الافرنسية. لذلك كتب سلسلة من الرسائل الى الجنرال (كلوزول) يذكره فيها بنصوص الاتفاق الجزائري ـ الافرنسي، وينبهه الى العواقب المدمرة التي قد تجر اليها السياسة المتبعة آنذاك. وقد أرادت السلطات الافرنسية إبعاده من الجزائر، فاختلقت له سبباً، وهو أنه كان يتآمر ضد الدولة بالاتصال مع العرب، وأنه كان يعمل لصالح عودة الحكم الإسلامي الى الجزائر. وعلى اية حال فقد ألقى (كلوزول) عليه القبض وسجنه بعض الوقت ثم نفاه. ـ ويذكر خوجة ان اعتداءً شنيعاً قد وقع على عائلة العنابي أيضاً ـ. وحاول خوجة أن يفهم التهمة الموجهة الى صديقه العنابي فكان يذهب مرة اليه ومرة الى كلوزول ـ وقد أخبره هذا بأن المفتي كان على اتصال بالعرب وأنه كان يحاول اثارتهم ضد الافرنسيين لذلك ألقى عليه القبض. وعندما ذهب الى المفتي، نفى التهمة نفياً قاطعاً. وأخيراً عرف خوجة السبب ـ الذرائعي ـ وقصه بشيء من العاطفة. فقد زار

أحد مترجمي الجيش الافرنسي المفتي العنابي، وأعلن له أن (كلوزول) سيجلو عن الجزائر، وأنه ينوي تسليم مقاليد الحكومة اليك، فهل باستطاعتك أن تنظم جيشاً وأن تعد قوة تهدىء البلاد وتدافع عنها؟. فأجابه العنابي: «بأنه سيبذل جهده في التنظيم عندما يحين الوقت» ثم سأله المترجم: «وهل ستصلك الجنود من داخل البلاد، أو أنك ستعتمد على قواتك في مدينة الجزائر وحدها؟» فأجابه العنابي: «سأجند عندما يحين الوقت من المدن ومن جميع انحاء البلاد، وسيكون في استطاعتي أن أجند ثلاثين ألف رجل» ويؤكد خوجة أن المترجم المذكور قد أخفى شخصين ليشهدا على هذه المحادثة. وبهذه الوسيلة أوقع الافرنسيون بالمفتي العنابي في الفخ- على حد زعمهم- ووجدوا له حجة من أجل اقصائه عن البلاد. وقد حضر خوجة وطلب من كلوزول أن يمهل المفتي بعض الوقت حتى يبيع املاكه وينهي التزاماته. ولم يحصل له على عشرين يوماً إلا بشق النفس وبتقديم ضمانات شخصية. وخلال هذه الفترة استطاع أن يبيع عقاراته وأثاثه ويقضي حوائجه ليغادر الجزائر بعدها الى الاسكندرية. وقد كان اتخاذ مثل هذا الاجراء سبباً لاسكات السلطات التشريعية في البلاد كالقضاة ورجال الافتاء، لانهم لم يعودوا الى الاحتجاج على خرق شروط التسليم خوفاً من مصير كمصير المفتي العنابي.

٤ـ الادارة الافرنسية

وتكوين وحدات خاصة

تلك هي بعض النماذج للمقاومة في الجزائر، وقد كانت هذه النماذج، على ضعفها، وعلى عيوبها مصدر قلق للادارة الافرنسية فعملت على إبعادها ونفيها. وقد أصبح هذا الاسلوب من الاساليب الثابتة التي طبقتها الادارة الافرنسية في كافة العهود المتتاليه (من كلوزول الى دو روفيغو وحتى بيجو). وذلك بهدف السماح للاجهزة الافرنسية بممارسة عملها في اجراء كل التغييرات بعيداً عن كل شغب أو اضطراب يعود لاسباب اجتماعية أو سياسية بين المواطنين . والى جانب ذلك، حاولت فرنسا تجنب دفع النفقات الباهظة التي يتطلبها الاحتلال، وبقاء قوات افرنسية ضخمة، فعملت على انشاء وحدات وطنية- جزائريه- تتكفل الادارة الافرنسية بتأمين طعامها واقامتها ورواتبها. وقد اصطدم تشكيل هذه الوحدات في البداية بالكثير من المقاومة، غير ان القيادة الافرنسية لم تيأس، فاستمرت في محاولاتها، متبعة في ذلك ذات الاساليب التي كان يستخدمها الاتراك في تنظيم الوحدات الجزائرية. وبدأ (دوبورمون) بتطويع الجنود من المتطوعين من قبائل(زواوة)[1] حيث

(١) زواوة: (ZOUAOUA)

أكبر تجمع لقبائل جرجورة ـ ومن هنا ظهر او اشتق اسم(الزواف)[١] وتم تشكيل الفوجين الأولين بناء على أمر (كلوزول) الصادر في الأول من تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٠. غير أن أعمال الفرار من هذين الفوجين قد اخذت في التعاظم، فكان الجنود يهربون باسلحتهم واعتدتهم، وبلغ عدد الهاربين من الفوج الأول بتاريخ ١٥ شباط ـ فبراير ـ ١٨٣١ أكثر من ٢٢٠ رجلاً من أصل (٥٢٩) رجلاً. أما الفوج الثاني والذي لم يكن عدد أفراده قد تجاوز (٨٥) رجلاً فقد بلغ عدد الهاربين منه (٦٤ رجلاً) في التاريخ ذاته. ونتيجة لذلك تقرر دمج قوات الفوجين في فوج واحد[٢] غير أن افراد هذا الفوج قد اظهروا باستمرار تعلقهم بقضيتهم الوطنية، ولم تتمكن القيادة الافرنسية من قهر تطلعاتهم أو إبعادهم عن تقاليدهم الاجتماعية أو إضعاف عاطفتهم الدينية. وتطورت ظاهرة الفرار، بحيث أن عدد المتطوعين بلغ في سنة ١٨٣٣ ـ بعد ثلاث سنوات وعندما وصلت اللجنة الافريقية الى الجزائر ـ ما قوته (١١٤٤) شخصاً لم يبق منهم في الخدمة الفعلية أكثر من (٣٦٣) جزائرياً.

لقد أرادت فرنسا توفير الدم الافرنسي، وخوض الحرب بمقاتلين يعرفون طبيعة الاقليم، ويقاتلون قومهم بدون أن تتكفل فرنسا بأكثر من نفقات زهيدة، فعملت بعد ذلك على تشكيل سريتين من الفرسان (السباهيين)، ثم طورت ذلك الى تشكيل فرق تضم المقاتلين المغامرين المرتزقة من كل الجنسيات والقوميات واطلقت عليهم اسم(اللفيف الاجنبي ـ أو الفرقة الاجنبية ـ ليجيون ايترانجيه).

(١) الزواف: (ZOUAVES).

(٢) مـن تقرير برتزين (BERTHEZENE) الى وزارة الحرب الافرنسية في ١٤ ـ آذار مارس ـ ١٨٣١ م.

٥- الادارة الافرنسية

(من التردد الى التصميم)

اجتاحت القوات الافرنسية الجزائر، وظهرت نوايا الافرنسيين منذ البداية، فقد اخذت الاعمال العدوانية تمتد من المدن الى القرى، ومن الساحل الى الداخل، ورافق ذلك جهد لابادة الشعب الجزائري بالجملة، ولم تقتصر عمليات الابادة على اقليم معين، أو فئة من المواطنين، وكانت هناك خطة عسكرية واضحه ينفذها جيش الغزو بشن حرب متطرفة ذات طابع وحشي شاذ. ولم يعد الأمر مقتصراً على أعمال عسكرية في أيام محدودة، وانما أصبحت الجزائر كلها مسرحاً غارقاً بالدماء تشتعل فيه النيران باستمرار. ولم تميز قوات الغزو بين الاشخاص والممتلكات، فالحرائق والسرقات والتخريب تختلط بالقتل والتعذيب. وليس ثمة تمييز بين الرجال والنساء والاطفال والشيوخ. وادى ذلك الى بروز الهوة السحيقة التي فصلت منذ البداية بين المواطنين والمستعمرين. ولم يعد باستطاعة الافرنسيين معرفة المرتكز الذي يستطيعون الاعتماد عليه في ادارتهم للبلاد. فقد غادر معظم الاتراك البلاد، ولم يكن باستطاعتهم الاعتماد على العرب (المقيمين منهم أو الرحل). كما لم يكن باستطاعتهم الاعتماد على القبائل الجبلية الطموحة لحريتها، والتي

لا يمكن لها الخضوع للاجنبي. فكانت تلك أول عقبة جابهت الاستعمار.

خلال تلك الفترة الحرجة، اندلعت نيران ثورة تموز- يوليو- ١٨٣٠، فاطاحت بحكم ملك فرنسا (شارل العاشر) وحملت الى الحكم (لويس فيليب). وظهر خلال ذلك احتمال استدعاء جيش الغزو الى فرنسا، وترك البلاد التي فتحوها الى أهلها وساكنيها. وتم بالفعل ارجاع (الكونت دوبورمون) وبعض الضباط القادة من هيئة اركانه، بالاضافة الى اعادة بعض القوات. ولم يبق في الجزائر إلا قوات قليلة في عددها وعدتها، ضعيفة في قيادتها.

وفي الوقت ذاته، اخذت اوروبا في متابعة احداث فرنسا بقلق، خوفاً من عودة أيام الثورة الكبرى الى فرنسا، وندمت على انها لم تتدخل ضد فرنسا عندما قامت بغزو الجزائر، حتى لا تمتلك المقدرة والموارد المالية والمواد الأولية التي تضمن لها المزيد من القدرة القتالية اذا ما تجددت حروب على نمط (الحروب النابوليونية). وشعر سفير فرنسا في لندن (تاليران)[1] بمخاوف رجال السياسة الاوروبيين، فحاول طمأنتهم، ونصح حكومته بان تقوم بأعمالها في الجزائر بمنتهى الحذر والحرص والكتمان، وان

---

(١) تاليران: (CHARLES MOURICES DE TALLEYRAND - PERI-GORD أمير بينيفان: (PRINCE DE BENEVENT) ديبلوماسي افرنسي من مواليد باريس (١٧٥٤- ١٨٣٨ م) عمدة اوتون خلال أيام النظام الملكي، وأصبح رئيساً للمجلس الوطني سنة ١٧٩٠، ثم وزيراً للخارجية اثناء حكومة المديرين (ديريكتوار) ثم عضواً قنصلياً في آخر ايام نابليون. كان له دور كبير في اعادة الملكية الافرنسية، ومارس نشاطاً بارزاً في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥. ثم عين سفيراً في لندن من قبل لويس فيليب واشتهر بخياله الخصب وامكاناته الكبيرة.

تتجنب اثارة الرأي العام الاوروبي ضدها. ومن أشهر برقياته في هذا الصدد: (**يجب أن لا تتكلموا أبداً عن الجزائر**).

حاول القادة الافرنسيون اثناء ذلك القضاء على المقاومة الجزائرية بالقوة، على نحو ما سبق ذكره في حملات الافرنسيين على (المديه) غير انهم فشلوا في ذلك وقادهم هذا الفشل الى استخلاص نتيجتين:

الأولــى: تجنب الاقدام على مغامرات غير محسوبة بدقة خشية تكرر الفشل.

والثانية: ان المقاومة في الجزائر لم تضعف بالقضاء على حكم الداي العثماني. وان السكان مصممون على الاستمرار في المقاومة (وهم أقوياء وشجعان ولديهم خبرات قتالية عالية).

ونتيجة لذلك، وأمام الظروف الدولية، تقرر اللجوء الى اتباع أساليب تبادلية تعتمد على المراوغة وكسب الوقت الى ان تتوافر ظروف أفضل. مع القيام باصلاحات ادارية تساعد على تحسين موقف الافرنسيين. غير انه كان من المحال تحقيق النجاح في هذه الاصلاحات، ذلك لان فرنسا كانت ترسل الى مستعمرتها فيما وراء البحار المغامرين من ضباطها وجنودها، وكانت تنظر الى هذه الممتلكات الجديدة نظرة الجشع، فكانت تريد استثمار الجزائر بأعنف الطرف وأقل المصاريف، ومعاملة الجزائريين بالعنف والقسوة. وادى ذلك الى زيادة المقاومة، مما حمل الساسة الافرنسيين على التردد، وطرح التساؤلات التي كان من أبرزها: **هل يجب البقاء في الجزائر أم لا؟ واذا كان لا بد من الاحتفاظ بها فما هي افضل طريقة لادارتها؟** وقد أجاب البارون ـ منتلبيرـ على هذين

السؤالين في قصر اللوكسمبورغ- في آذار- مارس- سنة ١٨٣١ بقوله: «**ان احتلال الجزائر هام جداً الى درجة ان الوزير الذي يجرؤ على توقيع صك الجلاء يستحق ان يحاكم بتهمة الخيانة العظمى**» وفي اليوم التالي أعلن ماريشال فرنسا (في ١٠ آذار- مارس) أثناء مناقشة الميزانية الحربية: «**ان الامر الحقيقي هو أن نحتل الجزائر، ولا يوجد أي مجال لأي اعتراض بأن الحكومة تفكر في الجلاء عنها**». وفي ١٩ شباط (فبراير) ١٩٣٢- أعلن وزير الخارجيه الافرنسية- الدوق دو بروغلي -[1] «**لقد ظهر بعض القلق والحذر عما يشاع من وجود اتفاقات سياسية تمنع الحكومة من ممارسة ما تريده في الجزائر، وانا أؤكد لاعضاء مجلس النواب، بأنه لا يوجد أي تعهد مع أية دولة اخرى تجاه هذا الموضوع. وان فرنسا هي مطلقة الحرية بالتصرف في الجزائر بما يتناسب مع شرفها (؟) ومصالحها**».

غير انه كان من الصعب على الحكومة الافرنسية تجاهل مجموعة العوامل التي باتت تجابه الموقف. وظهرت فكرة ارسال لجنة تحقيق واجبها دراسة الموقف على الطبيعة، وإعداد تقرير يتضمن اقتراحات واضحة حول مستقبل البلاد. وكانت العوامل التي ادت الى تشكيل هذه اللجنة التي حملت اسم (اللجنة الافريقية) هي: ١- المناقشة الحادة التي جرت في البرلمان حول تخصيص ميزانية لمواصلة الحرب في الجزائر. ٢- الحماة التي قام بها بعض

---

(١) دوبروغلي: LEONCE VICTOR DUC DE BROGLIE وزير خارجية ايام الملك لويس فيليب (١٧٨٥- ١٨٧٠). وهو من عائلة مارست دوراً كبيراً في حياة فرنسا بسبب ما قدمته من القادة العسكريين ورجال السياسة والمال والعلماء- ويعود أصل العائلة الى (بييمونت).

الجزائريين المنفيين- وبصورة خاصه حمدان خوجة -ضد تصرفات الادارة الافرنسية في الجزائر. ٣- تهدئة ثورة الرأي العام الاوروبي المضاد لفرنسا وكسب الوقت. ٤- تحديد موقف رسمي من قضية الاحتفاظ بالجزائر أو التخلي عنها ٥.. دراسة الاساليب الممكنة والطرائق الناجعة لادارة الجزائر. وقد اصدر المارشال (سولت) تصريحاً اعلن فيه رسمياً: «ان الهدف من تشكيل اللجنة هو جمع المعلومات التي تساعد الحكومة على معرفة الموقف العام للجزائر في حاضرها ومستقبلها».

وافق ملك فرنسا (لويس فيليب)(١) على تشكيل هذه اللجنة في ٧ تموز- يوليو- ١٨٣٣ كما قرر الملك في الوقت ذاته أن تنضم هذه اللجنة بعد عودتها من الجزائر، الى لجنة اخرى (أكثر اتساعاً)

---

(١) لويس فيليب: (LOUIS - PHILIPPE I.ER) ابن فيليب - المساواة (PHILIPPE - EGALITE) ولويس دوبوربون- بانتيير؛ ولد في باريس سنة ١٧٧٣، وأصبح ملكاً لفرنسا سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٨٤٨ ومات في كلير مونت CLAIRE) MONT) في انكلترا سنة ١٨٥٠ م. وكان قد أسهم بدور كبير وحاسم في معركة فالمي (VALMY) على المارن والتي انتصر فيها الافرنسيون على البروسيين سنة ١٧٩٢ م. وكذلك في معركة جيماب (JEMMAPES) وهي القريه البلجيكية القريبة من لييج والتي انتصر فيها ديمورييه أيضاً (DUMOURIEZ) على النمساويين سنة ١٧٩٢، وعاش بعد ذلك في المنفى حياة غامضة، ثم تزوج من ماري اميلي دوبوربون، وعاد الى فرنسا في عهد الملك لويس الثامن عشر، حيث نودي به قائداً عاماً للملكة، ثم ملكاً في ٧ آب- اغسطس- وساعده في البداية بعض الوزراء الليبيراليين، غير انه لم يلبث ان زاد في اعتماده تدريجيا على المحافظين وابعد عنه الليبيراليين. فقامت ضده حركة ثورية (عصيان) امكن له قمعها في ٥ و٦ حزيران- يونيو- ١٨٤٠ بعد ان استمرت منذ سنة ١٨٣٢ م. وقضى كذلك على كل الحركات المضادة التي قادها ضده النابوليون. واثار تحالفه مع انكلترا نقمة الشعب الافرنسي.

لاتخاذ القرارات المناسبة. وقد وصلت هذه اللجنة الى الجزائر يوم ٢-أيلول -سبتمبر- من السنة ذاتها. وبدأت عملها على الفور لتنفيذ تعليمات الحكومة التي حددت لاعضاء اللجنة مجموعة من التعليمات والنقاط التي ترغب الحكومة في معرفتها، والتي تتطلب منها ايجاد حلول للمشاكل الهامة التي كانت تواجهها الجزائر. كما اعطت الحكومة الى (اللجنة الافريقية) برنامج عمل مفصل تسير على ضوئه. وتبرز النقاط التي احتواها برنامج العمل المذكور أن الحكومة الافرنسية قررت مسبقاً ما ستفعله بالجزائر- الابقاء على الاحتلال. وان ارسال اللجنة المذكورة ما هو إلا محاولة لاعطاء موقفها صورة شرعية عادلة يكسبها شعبية واسعة ودعماً جماهيرياً (في فرنسا لا في الجزائر). وعلى هذا الاساس استقبلت اللجنة في اليوم التالي لوصولها أرض الجزائر ممثلي السلطات العسكرية والمدنيه في الجزائر، واعضاء الغرفة التجارية، ولجنة استعمار الأراضي، ووفود المستوطنين الافرنسيين- الكولون- ووفد التجار الاوروبيين، ووفد أعيان العرب الحضريين- المور- بالإضافة الى وفد عن يهود الجزائر.

قسمت اللجنة الافريقية عملها على أفرادها بحسب اختصاصاتهم، فاختص رئيسها (الجنرال بوني)[١] بالمسائل العسكرية،والجنرال (سونفور)[٢] بالطرق والقناطر، والسيد (دوفال داي)[٣] بالبحرية. والسيد (لورانس)[٤] بالادارة والتشريع والقضاء. والسيد(د. اوبرسار)[٥] بالمالية والضرائب والعقارات.

---

(١) الجنـرال بوني: (GEN . BONNET) (٢) مونفـور: (MONTFORT).

(٣) دوفـال داي: (D.DAILLY) (٤) لورانـس: (LAURENCE)

(٥) د. اوبرسـار: (D.AUBERSSART).

والسيد (رينار)[1] بالتجارة والصناعة والجمارك، والسيد (دي لا بينسونيير)[2] بالزراعة واستثمار الأراضي. وبقي نائب البرلمان (بيسكاتوري)[3] كاتباً للجنة.

كانت (التعليمات) التي سلمتها الحكومة الى اللجنة تحتوي على ٢٤ صفحة وفيها اسئلة كان على اللجنة أن تجيب عليها، ومنها: هل تحتفظ فرنسا بالجزائر أو تتخلى عنها؟ وفي الحالتين: ما هي فائدة فرنسا؟ ثم ما هي طريقة العمل المناسبة اذا كان الاحتفاظ بالجزائر هو الحل المقترح؟ وما الوسائل التي يجب على الحكومة استخدامها لتنفيذ الاقتراح؟ وكانت التعليمات أيضاً تقضي بان تشرح اللجنة جميع أوجه الحالة الراهنة في الجزائر. مع وصف حالة السكان الجزائريين، وطبقاتهم الاجتماعية وحالة الأراضي. والأمر الواضح هو ان مهمة اللجنة قد حددت بالبحث عن الوسائل للاحتفاظ بالجزائر على ضوء تجربة السنوات السابقة وليس الاجابة على ما اذا كان الاحتفاظ بالجزائر جائزاً أو ممكناً.

عقدت (اللجنة الافريقية) أول جلسة عمل لها يوم ٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٣٣، ثم انتقلت بعد ذلك للقيام بجولة في مدينة الجزائر وضواحيها. فزارت المؤسسات العامة. وسهل متيجة متنقلة من (الحمين) الى (البليدة). وأثناء ذلك زارت المراكز العسكرية، وتنقلت في الطرق الجديدة باحثة عن المنشآت الصناعية التي قيل لها أنها قد اقيمت فوق أرض الجزائر. وفي ١٤ من أيلول ـ سبتمبر ـ

---

(١) رينار: (LE REYNARD)

(٢) د. لابينسونيير: DE LA PINSONNIERE

(٣) بيسكاتوري: PISCATORY

قامت اللجنة بزيارة (عنابة) وتجولت في بعض مناطقها التي اصبحت خاضعة للافرنسيين. وفي ٤ تشرين الأول- اكتوبر- ذهبت الى مدينة (وهران) وتجولت في ضواحيها. وزارت خليج (أرزيو) في ١٥ تشرين الأول - اكتوبر-. وحاولت زيارة (مستغانم) غير انها لم تتمكن من ذلك. وفي ١٦ من الشهر المذكور، زار بعض أعضاء اللجنة مدينة (بجاية) التي كان الافرنسيون قد استولوا عليها حديثا. وأخيراً عادت اللجنة الى مدينة الجزائر في ٢٣ تشرين الأول - اكتوبر -، لتبدأ في اليوم التالي جلساتها التي بلغ عددها (٣٠) جلسة. تمت خلالها مناقشة الموقف من كل النواحي. وكانت العلاقات مع العرب هي أساس البحث فطرحت مناقشة الموقف من ثلاث زوايا: **١- اتباع سياسة المهادنة- اللين - مع العرب حتى يمكن دمجهم في المجتمع الاوروبي الجديد. ٢- مواصلة الحرب ضدهم دونما أي هوادة حتى تتم ابادتهم أو دحرهم وإبعادهم عن المناطق التي احتلتها القوات الافرنسية أو التي ستقوم باحتلالها. ٣- احلال التشريعات الافرنسية محل التشريعات المحلية بهدف إبعاد العرب تدريجياً عن المناطق التي تدخل تحت السيطرة الافرنسية.**

تلخصت أفكار اللجنة الافريقية ووجهات نظرها بالتالي:

١- ان السلطة الافرنسية بالجزائر غير ملزمة بالاتفاقات التي يتم عقدها مع الوطنيين الجزائريين باعتبار أن هذه الاتفاقات والمعاهدات تدخل في اطار «استراتيجية الحرب وليست سلاماً دائماً».

٢- من المحال أن تطبق فرنسا النظام الذي كانت تتبعه الادارة العثمانية، لان الاتراك كانوا على دين العرب ولهم نفس العادات

والتقاليد العربية. ولذا يجب على فرنسا تطبيق النظام والتقاليد الافرنسية.

٣ـ احلال جاليات غربية محل السكان الاصليين، وافساح المجال لغير الافرنسيين للهجرة والاستيطان في الجزائر على ان تعطى الافضلية للافرنسيين.

٤ ـ تركيز جميع السلطات في الجزائر ـ المدنية منها والعسكرية ـ في قبضة سلطة عليا، هي سلطة الحاكم العام الذي اقترحت اللجنه ايجاد منصبه. مع تحديد صلة كل وزارة افرنسية بهذا (الحاكم العام) مع تشكيل مجلس بلدي يساعده في عمله، وتكوين هيئة ادارية تشابه في تكوينها النظام المتبع في فرنسا (الوطن الام).

٥ـ الاحتفاظ بالجزائر تحت اسم (الممتلكات الافرنسية في افريقيا).

٦ـ تشكيل المجلس البلدي من عناصر مختلطه فيها ممثلين عن العرب واليهود على ألا يزيد عدد العرب عن عدد الافرنسيين، ومهمة المجلس النظر في امور الادارة المحلية.

عادت هذه اللجنة بعد ذلك الى فرنسا، فشكلت لجنة أكبر، عقدت أول جلساتها في ٢٢ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٣ ثم استمرت هذه الجلسات التي زادت على ٥١ جلسة انتهت في شباط ـ فبراير ـ ١٨٣٤. وأقرت اللجنة معظم مقترحات (اللجنة الافريقية). وكان من أبرز النقاط في قرار (اللجنة الموسعة) ما يلي:

١ـ الاحتفاظ بالمؤسسات الدينية الخيرية، حرصاً من اللجنة

على تأمين الموارد الاقتصادية للخزينة الافرنسية، حيث قدر الدخل السنوى لأملاك (مكة والمدينة) بمبلغ (٤٠٠) ألف فرنك فيما اذا تمت ادارة هذه الاملاك بصورة جيدة[١].

٢ـ أوصت اللجنة بجعل الجزائر كلها أملاكاً افرنسيةـ دائمة وثابته ـوانه يجب على فرنسا ألا تبقى في المدن الساحلية فقط، بل يجب عليها جعل تلك المدن مراكز أمامية لإمداد الجيش بضرورة حملات عسكرية توسعية في داخل البلاد لاخضاع كامل البلاد للسيطرة الافرنسية.

٣ـ مقاومة كل فكرة للتخلي عن الجزائر: «إذ أن التخلي عنها هو اهانة جديدة لشرف فرنسا (؟) علاوة على انه يشكل صدمة لذاتية الأمة الافرنسية الشرعية مما يؤدي أيضاً الى التضحية بالتجارة وبالتوسع السياسي لفرنسا والى تحطيم الآمال» وهكذا فحين جرى التصويت في البرلمان الافرنسي جاءت النتيجة ١٧ صوتاً لصالح الاحتفاظ بالجزائر مقابل صوتين لصالح التخلي عنها.

وظهر للجزائريين قبل كل شيء، وللعالم كله، أن القضية ليست قضية تأديب (للداي حسين باشا) او اخراج للاتراك من الجزائر يتبعها انسحاب افرنسي، وانما القضية قضية (احتلال واستعمار استيطاني). واسفرت فرنسا عن وجهها بعد تردد، واظهرت تصميمها على متابعة الطريق على الرغم من بعض الاحتجاجات في فرنسا ذاتها. مثل النائب الذي رفع صوته عند

---

(١) قدرت اللجنة عدد منازل وعقارات المؤسسات الخيرية ـ املاك مكة والمدينة في مدينة الجزائر (٢٦٠١) منزلاً من أصل خمسة آلاف منزل، بالاضافة الى (١٤٩) منزلاً في وهران و(٩١) منزلاً في مدينة عنابة.

مناقشة قضية الجزائر في البرلمان الافرنسي ليقول: «ان احتلال الجزائر ليس إلا محاولة جنونية، وهو هوة سحيقة تستنزف جميع خيرات البلاد الافرنسية» أو قول مقرر الميزانية الحربية عند مناقشة موازنة سنة ١٨٤٣: «انني افضل أن استبدل الجزائر بأجمعها بكوخ صغير من اراضي الراين».

خلال تلك الفترة من سنة ١٨٣٤، لم تكن فرنسا قد سيطرت عسكرياً إلا على المنطقة الساحلية، فقد احتلت وهران (سنة ١٨٣٠) في الغرب وتبعتها مستغانم وارزيو (سنة ١٨٣٣). وكانت مدينة الجزائر واطرافها بأيديهم في الوسط. أما في الشرق، فقد خضعت عنابة (بونه) لحكم متناوب للسلطات الوطنية والافرنسية، اذ احتلها الافرنسيون مرات متعاقبة واخلوها بعد أن مني الافرنسيون بخسائر جسيمة، وصلت احياناً الى حد ذبح الحامية الافرنسية بكاملها. اما بين عنابة والجزائر، وفي موقع متوسط بينهما، فقد كان هناك خليج بحري تقوم بجنوبه (بوجي) التي احتلتها في سنة ١٨٣٣ حملة افرنسية جاءت اليها من فرنسا مباشرة. غير ان قوات هذه الحملة بقيت محاصرة داخل المدينة، حيث كان رجال القبائل المنتشرين على مقربة منها يهاجمون القوات الافرنسية باستمرار. ولم يكن من السهل اخضاع هذه القبائل أو محالفتهم. أو اجتياز الطرق عبر أراضيهم، فبقيت القوات الافرنسية محاصرة فوق أرض الساحل. ولقد حاول الافرنسيون التوسع نحو الداخل، غير ان تقدمهم كان بطيئاً جداً بسبب المقاومة المتصاعدة. ولم تكن سهول متيجة (متوجة) في جنوب مدينة الجزائر هادئة أو خاضعة خضوعاً تاماً للافرنسيين وذلك بسبب سيطرة القبائل العربية العديدة على أرض هذا السهل.

[illegible]

الفصل الثالث

١- في النظرية الاستعمارية

٢- في الجهاد- والمقاومة

١- في النظرية الاستعمارية

تبرز عملية احتلال فرنسا للجزائر النموذج المتكامل للحروب الاستعمارية والتي تضم نماذج متنوعة من الاعمال القتالية التي تؤدي طبيعتها لاندلاع (الحروب الثورية). وتعتبر عملية غزو الجزائر بسيطة في خططها العامة، حيث قام (فيلق الغزو) بتركيز ثقل هجمته على نقطة معينة من أرض الساحل، ثم نظم قاعدته للقيام بهجوم حاسم ضد كتلة القوات الرئيسية، ووقعت قيادة هذه القوات بالحطيئة القاتلة، حيث بالغت كثيراً في تقويم قدراتها الذاتية وتجاربها القتالية، مما ادى بها الى الاستهانة بقوات الغزو التي لم تقدم على تنفيذ كل خطوة من خطواتها إلا بعد دراسة دقيقة للموقف، وإلا بعد جمع معلومات كافية لطبيعة مسرح العمليات وقدرات الوطنيين وامكاناتهم القتالية وأساليبهم الخ. . . وهكذا، ومقابل استهانة (الداي حسين) بقوات الخصم، كان قائد قوات الغزو (دوبورمون) يعرف مراحل عملياته بدقة، فكانت المعركة الرئيسية في (اسطاوالي) اختباراً قاسيا لحوار الارادات المتصارعة ولحوار الاسلحة المتفوقة في الوقت ذاته، وقد أفادت قوات الغزو من تفوق وسائلها النارية وكثافة قواتها لمجابهة قوات تفتقر الى

التنظيم الصحيح والى وسائل القتال المناسبة. وفي الواقع، فقد كانت الامكانات القتالية فوق أرض الجزائر متوافرة، غير أنه لم يتم حشدها بكاملها فاستطاعت القوات الافرنسية ان تلتهم القوات التي كان يتم تقديمها على مراحل متتالية. أخذت قوات الغزو بعد ذلك في التوسع (على طريقة بقعة الزيت) أو(الخرشوفة). وقد اصيبت خلال هذه المرحلة بمجموعة من الانتكاسات والهزائم الناجمة عن تعاظم المقاومة، وعندئذ لجأت السلطات الاستعمارية الى أساليب تبادلية تمزج بين (الصراع السياسي) و(الصراع العسكري) وذلك عن طريق تهدئة بعض الجبهات لتركيز الجهد على جبهة واحدة، يتم تدمير المقاومة فيها، ثم يتم الانتقال الى منطقة اخرى، وهكذا.

لقد عملت فرنسا في تنفيذ (نظرية الاستعمار) بعزل الجزائر أولاً عن العالم الخارجي (وسبقت الاشارة الى أن (احمد باي قسنطينة) كان يجد صعوبة حتى في ارسال رسائله الى دارالخلافة ـ في استانبول ـ بسبب هذا الحصارـ كما عزلت الجزائر عن جوارها (تونس والمغرب) وبذلك أمكن لها تركيز كل ثقلها العسكري ضد الجزائر. وتم تطوير هذه النظرية فوق أرض الجزائر ذاتها، فكانت الادارة الافرنسية تقود عملياتها ضد كل أقليم، أو حتى كل مدينة، بمعزل عن بقية مراكز المقاومة، وساعد في نجاح هذه الخطة ما كان بين قادة مراكز المقاومة من تناقضات استثمرتها الادارة الاستعمارية الى أبعد الحدود، حتى انها استطاعت تدمير المراكز الثوروية عن طريق ضرب بعضها ببعض مما أدى الى اضعافها جميعاً.

انصرفت الادارة الاستعمارية بعد ذلك لتأمين (هدف

الاستعمار) وتحقيق (النهب الاستعماري) وهو ما عبر عنه سفير السويد بقوله: «**كان من ينظر الى نقل المغانم الى فرنسا يظن أن فرنسا على وشك الجلاء، في حين كان من ينظر الى اقامة الحاميات وشق الطرق وتدعيم التحصينات يعرف أن فرنسا باقية في البلاد**» ولقد استمرت هذه الظاهرة في الواقع، مرافقة للعهد الاستعماري طوال فترة الاستعمار. وقد حاولت فرنسا منذ البداية تنظيم ادارتها على الاسس التالية:

١- الاعتماد على فئات الاقليات في البلاد - أو تلك القوى الوطنية والمراكز الدينية - التي يمكن لها تقديم الدعم للادارة الاستعمارية، ولو بصورة مرحلية، من أجل ادارة البلاد مع ابقاء هذه الفئات أو العناصر المتعاونة مع الادارة الاستعمارية تحت المراقبة الشديدة.

٢- تشكيل قوات عسكرية من أبناء البلاد، للتخفيف من أعباء النفقات الاستعمارية من جهة، ولتوفير القدرة البشرية الاستعمارية. مع محاولة اقتلاع هذه القوات من بيئتها وعزلها حتى تصبح أكثر طواعية لتنفيذ الارادة الاجنبية المضاده يطبيعتها للارادة الوطنيه (الزواف- واللفيف الاجنبي.. الخ...).

٣- عدم السماح بتشكيل مراكز القوى، ومحاولة التدمير المستمر لهذه المراكز (سياسياً وعسكرياً) بكل الاساليب المتوافرة للاستعمار من نهب وتشريد وتوجيه اتهامات ملفقه ومزورة.

٤- تدمير مواقع الصمود المعنوية، ومن هنا فقد جاء الهجوم على المساجد وأماكن العبادة والحملة الصليبية على الاسلام كوسيلة وغاية في وقت واحد، وسيلة لاضعاف المقاومة الجزائرية

من جهة، وغاية (في اطار الحروب الصليبية الشاملة) التي تضمن تأمين عملية النهب الاستعماري.

٥- تطوير عملية (الهجرة والاستيطان) في محاولة لايجاد مراكز قوى يمكن الاعتماد عليها بصورة ثابتة لتحقيق هدف مزدوج (تأمين النهب الاستعماري والتوسع فيه) و(تخفيف نفقات النهب الاستعماري) بتحميل هؤلاء المستوطنين قسماً من أعباء الدفاع.

٦- الافادة من الانتصارات التي تحرزها القوات العسكرية لدعم مبدأ الاستعمار (تفوق الرجل الاوروبي- الابيض) وتعزيز (الهيبة الاستعمارية للقوة التي لا تقهر). واعادة ذلك الى (تفوق الديانة المسيحية) وفضائلها وكذلك التقدم الحضاري للغرب والذي يقابله التخلف الحضاري والوحشية للعرب والمسلمين بصرف النظر عن المضامين الحقيقية لهذه الشعارات، وينخدع المواطنون - بعضهم بداهة - فيصدقون المزاعم الاستعمارية، وينتقلون بصورة طبيعية إلى المعسكر المضاد للتطلعات الوطنية والقومية ويصبحون - ولو إلى حين - في الخندق المعادي لأمتهم.

المثير في الأمر هو تبدل الادارات الافرنسية بسرعة مذهلة خلال مرحلة الغزو الاستعماري للجزائر، فقد سقط شارل العاشر مع بداية مرحلة الهجمة الاستعمارية، وتغيرت انظمة متتالية، وفي الوقت ذاته تبدلت الاجهزة القيادية العسكرية تبدلاً سريعاً سواء بنتيجة التحولات السياسية في فرنسا، أو بسبب الفشل الذي كان يلاحق عمليات الغزو. وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم أيضاً من ظواهر التخبط، فقد بقي هناك محرض ثابت يكمن وراء الغزو والتوسع:

أولها: وجود محرض عسكري خلفته الثورة الافرنسية للتوسع

فيما وراء البحار، فقد كونت الثورة وما أعقبها من حروب (الحروب النابوليونية) أجهزة عسكرية ضخمة تطمح لاثبات وجودها من جهة وللتعويض عما فقدته فرنسا في عهود الملكية من مستعمرات فيما وراء البحار (انتزعتها من قبضتها بريطانيا بفضل قدرتها العسكرية المتعاظمة في البحر). ومن الملاحظ أن معضم القادة (الجنرالات) كانوا من الذين خاضوا الحروب تحت راية نابليون بونابرت.

ثانيها: وجود محرض اقتصادي أبرزته القدرة الصناعية المتعاظمة والحاجة للاسواق الخارجية وظهر ذلك بوضوح تام منذ أن وطئت أقدام الغزاة أرض الجزائر.

ثالثها: وجود محرض ديني يشكل حافزاً قوياً لتغطية عملية الاستعمار القذرة بغطاء ديني (ايديولوجي) فاضل، واستخدام هذا الحافز لتحريض المقاتلين على تنفيذ عملياتهم بوحشية وقسوة (وهذا ما يترجم أو يفسر عملية الابادة الوحشية للمسلمين والاعتداء على مقدساتهم ومساجدهم وأوقافهم). وعلى الرغم من أن هذا المحرض قد يحتل المرتبة الثالثة بعد العاملين السابقين، إلا أنه احتل المرتبة الاولى عند التطبيق العملي والممارسة الواقعية، وذلك لأن النجاح في تحقيق أهداف المحرضين أو العاملين السابقين انما يرتبط بالقدرة على تدمير المقاومة الجزائرية. وتدمير هذه المقاومة يرتبط بدوره بحرمانها من قاعدتها الدينية الصليبية واضعاف هذه القاعدة باحلال قيم جديدة تحمل ظواهر (حضارية) خادعة. وعندما يتساوى الطرفان المتصارعان - أو يلتقيان- على القاعدة المعنوية الجديدة، يبقى التفوق المادي في قبضة الارادة الاستعمارية التي يمكن لها حسم الصراع النهائي لمصلحتها.

غير ان الوصول الى هذا الهدف، يتطلب وجود تفوق حقيقي- لا وهمي- وقد كانت فرنسا تتفوق على الجزائر تفوقاً وهمياً (في حجم القوى وفي القدرة القتالية وفي المستوى العلمي والاجتماعي) ومن هنا كان من الصعب على فرنسا اقناع الجزائر بقصورها وتخلفها أو بضعف قاعدتها الدينية فكان لا بد - بالتالي- من استخدام وسيلة الاكراه بالقمع والقوة لتكوين هذه القناعات الجديدة، مع ايجاد الوسائل الكفيلة بدحر الجزائر في هذه المجالات. وهذا ما يفسر أساليب الادارات الافرنسية المتتالية لتعميم الجهل ولإفقار الشعب الجزائري (وتجويعه) حتى يستكين للادارة الاستعمارية. ومن الملاحظ أن الاسس والعوامل هذه والتي رافقت الاستعمار منذ بدايته قد استمرت وتطورت بصورة منهجية وثابتة طوال عهود الاستعمار، على الرغم مما كان بين هذه العهود من متناقصات ومفارقات مثيرة.

٢- في الجهاد والمقاومة

لم تكن الجزائر المجاهدة (المحروسة) يوم اجتاحتها جحافل الغزاة البرابرة بالبلد الفارغ من القدرة (فقد كان سكانه في حدود العشرة ملايين). ولم يكن أفراد شعبه بالجهلة، (فقد كان معظم ابنائه من المتعلمين الذين يجيد أكثرهم القراءة والكتابة) واذا كانت بعض التخصصات العلمية مفقودة، فقد كان هناك ما يملأ هذا الفراغ من الخبرات الطبية المتوارثة والتي عادت اليوم للظهور رغم كل تطور علمي وتقني (التداوي بالاعشاب والطرائق الطبيعية الخ..) ولم يكن الشعب الجزائري فقيراً، أو بائساً، فقد كانت موارده وفيرة وتجارته مزدهرة بحسب كل الشواهد المتوافرة. ولم يكن أفراد هذا الشعب يجهلون استخدام السلاح، إذ كانت لهم خبراتهم القتالية بسبب ممارساتهم المستمرة للجهاد في البر والبحر.

من هنا ظهرت الصعوبة الاولى التي جابهت الارادة الاستعمارية والتي اصيبت بالاحباط إذ انها لم تتمكن بعد انتصارها الأولي من الحصول على انتصارات سهلة ورخيصة. ولكن على الرغم من ذلك، فلا بد من الاشارة الى الثغرات التي ظهرت في

أوساط المقاومة وأضعفتها، مما ساعد الارادة الافرنسية على تنفيذ مخططاتها الاستعمارية:

١ـ خاضت قوات المقاومة معاركها بصورة متنافرة، ومتضادة في معظم الاحيان، وكان كل مركز من مراكز القوى هذه يعتقد في نفسه القدرة على مجابهة (جيش الغزو). وقد استطاعت بعض المعارك الظافرة من تعزيز هذا الشعور بالقوة الوهمية. وتجاهلت قيادات مراكز هذه القوى الارادة الواحدة الموجهة للقوى الاستعمارية والتي يمكن لها باستمرار تأمين تفوق بالقوى وبوسائط القتال لاحراز نصر عسكري حاسم.

٢ـ لم تفد مراكز القوى المقاومة من تجاربها القتالية السابقة، فقد أمكن لها تحقيق الانتصارات في معاركها باستمرار عن طريق استنزاف قدرة العدو قبل الانتقال للمعركة الحاسمة. في حين خاضت فرنسا معاركها في هذه المرة بطريقة الجزائر ذاتها، حيث عملت على استنزاف القدرة الجزائرية في معارك متتالية قبل الوصول الى الحسم. وكانت موارد فرنسا تسمح لها بالتعويض عما تفقده في حروب الاستنزاف في حين كانت وسائل المجاهدين محدودة في التعويض عن خسائرهم، وهذا ما يفسر انهيار قيادات المقاومة بعد خسارة كل معركة حاسمة.

٣ـ خاضت الجزائر معاركها السياسية بمعزل عن معاركها العسكرية، ولقد تولى (حضر الجزائر) قيادة الصراع السياسي مع السلطات الاستعمارية بصورة افرادية، وبصورة منعزلة تقريباً عن القيادات العسكرية في الاقاليم. ومن هنا كان الطابع العام للصراع السياسي فردياً. وقد اسهمت الادارة الاستعمارية بتعزيز هذه الفردية

لاضعاف كل تكتل سياسي. فكان الجزائريون يقولون ما يريدون وتفعل الادارة الاستعمارية ما تريد.

٤- لقد رافق عزل الجزائر عسكرياً ضرب نطاق مماثل من العزلة السياسية. فأمكن بذلك إضعاف المقاومة معنوياً، الأمر الذي انعكس على القدرة القتالية للمجاهدين.

٥- ساعد هذا المناخ على ظهور المغامرين والطامعين والانتهازيين الذين اسهموا في إضعاف قدرة الجزائر على الصمود والمقاومة. وشكلوا طابورا خامساً لمصلحة اعداء البلاد. وعلى الرغم من (صحوة كثير من هؤلاء) غير أن عودة الوعي جاءت متأخرة. فانتهى الأمر بهم الى نهايات مأساوية إذ أصبحوا منبوذين داخليا ومنبوذين من الادارة الاستعمارية بعد أن استنزفت غايات وجودهم.

٦- مارست الاقلية اليهودية دوراً كبيراً في تثبيت دعائم الاستعمار الافرنسي في الجزائر بفضل تحالفها معه، وعلى الرغم من أن (فكرة الصهيونية) لم تكن قد ظهرت بعد، إلا أن تجربة يهود الجزائر قد أفسحت المجال أمام (المخططات الاستعمارية) للافادة من هذه التجربة وتطويرها خلال مرحلة المد الاستعماري عبر العالم العربي- الاسلامي.

٧- لم تحاول المقاومة الجزائرية، ولو مجرد محاولة، مهادنة الاستعمار الصليبي، فقد عرفت بفضل خبراتها المتوارثة، وبفضل عقيدتها الاسلامية الصلبة، ما يراد لها عبر الهجمة الصليبيه الشرسة، فانسحبت من وجه الاستعمار، وتقوقعت في عزلتها، محتفظة بأصالتها الثورية، متمسكة بقواعد ثباتها وصمودها،

مجاهدة بكل قدراتها على احباط مخططات اعداء الدين- مختارة في كل مناسبة الطرائق المناسبة، فاذا كانت قد عجزت عن ايقاف الزحف الصليبي على الجزائر المحروسة إلا أنها لم تعجز عن ازدراء هؤلاء الصليبيين (بالسلبية والصمت).

٨- وكما كان شعب الجزائر المجاهد هو المحرض على الجهاد، وهو الذي يوجه التيار امام القادة في عهود النصر (ايام الاتراك العثمانيين ضد الاسبانيين، وخلال أعمال الجهاد في البحر). فقد بقي هذا الشعب هو المحرض على الجهاد أيام الانتكاسات والهزائم، اذ انه كان يتحرك خلف القيادات الأكثر اخلاصاً والأكثر التزاماً بحمل أعباء الجهاد في سبيل الله. وهذا ما يفسر على سبيل المثال قدرة (باي قسنطينة) على الصمود طويلاً، رغم كل الظروف الصعبة التي كانت تحيط به. وعلى الرغم من كل المؤامرات الداخلية والخارجية.

قد يكون من المثير بعد ذلك ملاحظة هذه العوامل، ومراقبة تطوراتها عبر الصراع الطويل الذي خاضته الجزائر المجاهدة طوال ليل الاستعمار.

لقد انتصرت فرنسا في الجولة الاولى، واسقطت (الداي حسين باشا) غير انها لم تتمكن من الانتصار على شعب الجزائر. وتمكنت من تمزيق القيادات الجزائرية، غير انها لم تتمكن من تمزيق الشعب الجزائري. ونجحت في تكوين فئة من العملاء، غير أنها لم تتمكن من تحطيم ما يملكه الشعب من أنفة وكبرياء ودمرت المساجد الإسلامية غير أنها لم تتمكن من إضعاف المسلمين ونهبت ثروات الجزائر

وما فوق ارضها، غير انها لم تتمكن من سحب الارضية الصلبة من تحت أقدام المجاهدين في سبيل الله. لقد اصيبوا بهزيمة، ونزلت بهم نازلة، غير أن القاعدة الاسلامية أقوى من كل هزيمه وأكبر من كل نازلة، فكان لا بد من الاستمرار في حوار الارادات عبر صراع مرير لم تعرف له البشرية مثيلاً في ضراوته وعنفه وقسوته. وكان من المحال على شعب الجزائر الاستمرار في الصمود والمقاومة لولا التزامه (بحروب الايمان).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَٰفِرُونَ﴾ .

(سورة الصف الآية ٧ و ٨)

قـراءات

١ـ قصة اليهودي ومروحة (دوفال)

٢ـ نداء (دوبرمون) الى اهالي الجزائر عشية الغزوة الصليبية الافرنسية

٣ـ معاهدة الاستسلام التي وقعها الداي(حسين باشا) يوم ٤ تموز (يوليو) ١٨٣٠ م

٤ـ من تقرير (اللجنة الافريقية سنة ١٨٣٣)

٥ـ رسائل وثائقية (للحاج احمد باي قسنطينة)

- ١ -

قصة اليهودي ومروحة دوفال

كانت الحكومة الافرنسية تشتري ما تحتاجه من المواد الغذائية من الموانىء الجزائرية بطريقة مباشرة. وتولت ذلك (الشركة الملكية الافرنسية) ثم (الوكالة الوطنية الافرنسية)(١) التي كانت تدفع ثمن ما تشتريه الى الحكومة الجزائرية. ثم غيرت فرنسا طريقة الدفع- أثناء حكومة المؤتمر- فلجأت الى التاجرين اليهوديين- بكري وبوشناق- ليقوما بالدفع الى الحكومة الجزائرية نيابة عن الحكومة الافرنسية.

كان (ميشيل كوهين بكري- المعروف باسمه المستعرب ابن زاهوت) قد أقام تجارة له في أوروبا قبل أن يفتح له مركزاً في الجزائر سنة (١٧٧٠ م). وكان هذا المركز متواضعاً في البداية، غير انه لم يلبث أن ازدهر بسرعة عندما انضم اليه الاخوةاليهودالثلاثه لبكري- ابن زاهوت- وابنه داوود، وصهره نافتالي بوشناق (المعروف باسمه

---

(١) الشركة الملكية الافرنسية: (COMPAGNIE ROYALE D'AFRIQUE) وقامت بدلاً عنها بعد الثورة الافرنسية الوكالة الوطنية: AGENCE NATIONALE

المستعرب أيضاً ـ بوجناح ـ والذي كان بدوره من اسرة لها علاقات تجارية في الخارج وجاءت الى مدينة الجزائر سنة **١٧٢٣** تقريباً).

اعتمد (بوجناح) الاسلوب الذي اتقنه اليهود في جمع الثروة واكتنازها، ووجد ضالته في تلك البيئة المتحللة من القيم الدينية والاجتماعية، وهي متوافرة في كل مجتمع وكل زمان، وقد مثلها في تلك الفترة طبقة من حكام الجزائر، وقد حفظ تاريخ الجزائر نماذج عديدة من تلك الفئة. منهم على سبيل المثال (مصطفى بن عصانجي) (باي التيطري بين **١٧٧٥ـ ١٧٩٥**) الذي كان يخشى غضب الباشا عليه بسبب رحلاته الرتيبة الى مدينة الجزائر في كل ثلاث سنوات، مما حمله على اعتزال الناس حتى لم تعد له الجرأة على مقابلة أحد. وهنا قام (بوجناح) بالوساطة وشجعه ومنحه ما يحتاجه من المال وتوسط له عند الباشا حتى تم تعيينه باياً (حاكماً) على قسنطينة. وحفظ (مصطفى بن عصانجي) في نفسه هذا الجميل وقدره، فجعل من (بوجناح) موضع ثقته ورجل اعماله، مما مكن (بوجناح) من استثمار نفوذه وسلطته للحصول على الثروة. ويذكر هنا ان (الباي مصطفى) أراد أن يتقدم بهدية ثمينة الى امرأة الباشا فطلب من (بوجناح) أن يأتيه بهدية ثمينة تعرف في الجزائر باسم (الصريمة) فجاءه بها وثمنها (٣٠) ألف فرنك. ولم يدفع له الباي ثمنها، وإنما أعطاه بالمقابل (٧٥) الف كيلة قمح بسعر الكيلة الواحده أربع فرنكات. وحمل (بوجناح) القمح وباعه في فرنسا ـ وكان محتكراً لتجارة الحبوب ـ فبلغ ربحه من هذه الصفقه (٣,٤٥٠,٠٠٠) فرنك فرنسي.

وبذلك ازدهرت تجارة (بكري) و(بوجناح ـ بوشناق) تحت حماية بعض الباشوات (مثل حسن ومصطفى) وأصبح نفوذ اليهوديان

(بوجناح) و(ابن زاهوت) قوياً في كل المجالات الحيوية في دولة الجزائر. وكانا على علم بأحوال البلاد الداخلية، وكانا يتجسسان على المواطنين الجزائريين لصالح الحكام. واذا كان (ابن زاهوت) قد حدد فعالياته في مجال التجارة، فان (بوجناح) قد تجاوز ذلك الى حدود نشاط الدولة، فكان يرفع الموظفين والبايات ممن يخضعون له ويدمر من يقاومه او يعترض سبيله، مما جعل الجزائريين يطلقون عليه اسم (ملك الجزائر). وبلغ من نفوذه أنه كان يستقبل هو وزملاءه - باسم الباشا - القناصل الأجانب، كما فعل مع قنصل الدانمارك والسويد وهولاندا (سنة ١٨٠١ م) كما قام هو وشركاءه اليهود بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال. وفي سنة (١٨٠٤ م) استقبل مبعوث السلطان إلى الجزائر. وتجاوز نشاط اليهوديين الجزائر، وتطور ليشمل البحر الابيض المتوسط، فأصبحت لهما مراكزهما التجارية في مرسيليا وجنوا ونابولي وأزمير والاسكندرية وتونس وليفورنيا وقرطاجنة (الاسبانية) ومنطقة الراين وبلجيكا. وأصبح لهما بالتالي نفوذهما الواسع لدى الدول الكبيرة أو الصغيرة نظراً لما كانا يقدمانه من قروض - وعمولات - للمتعاونين معهما. وكان هذين اليهوديين مدينين للدولة الجزائرية في حين كانت فرنسا مدينة لليهوديين بمبلغ تم تقديره في سنة ١٧٩٥ م بمبلغ مليونين من الفرنكات. أما دين اليهوديين للجزائر فقدر بمبلغ (٣٠٠) ألف فرنك. وعين اليهوديان ممثلاً لهما في مرسيليا هو (يعقوب البكري) الذي لم يلبث ان نقل نشاطه الى باريس. وقد ثار الرأي العام الافرنسي ضد نفوذ اليهود الجزائريين في فرنسا، ولكن الوزير الافرنسي (تاليران) الذي كسبه اليهود، تدخل لمصلحتهم، وحمل الحكومة الافرنسية على التراجع عن تنفيذ الاجراءات التي كانت

تعتزم اتخاذها ضدهم. كان من نتيجة ذلك، أن تورطت الحكومة الجزائرية في قضية الدين الافرنسي المتوجب دفعه لليهود، إذ كتب (حاكم الجزائر مصطفى باشا) الى (تاليران) يطلب اليه أن تقوم الحكومة الافرنسية بدفع الدين الذي عليها الى رعاياه اليهود، وأصبحت قضية الدين مطروحة على المستوى الحكومي. وأصبح (سيمون أبوقية) بعد فترة، هو ممثل تجارة يهود الجزائر في باريس، وتقدم بمذكرة الى فرنسا عن القرض الذي بلغ (٣,٣٧٧,٤٤٥) فرنك. وفي سنة ١٨٠٢، ارتفع هذا الدين حتى بلغ (٨,١٥١,٠٠٠) فرنك. وكان (باشا الجزائر) لا يفتأ يطالب الحكومة الافرنسية بالدين الذي يجب عليها دفعه لرعاياه اليهود. ولكن بدون جدوى، ومما يذكر أن الحكومة الافرنسية قد سجنت ممثلي يهود الجزائر في بلادها إثر اعلان الحرب بين الدولتين (١٧٩٨ م) على اساس انهم رعايا جزائريون، ثم أطلقت سراحهم بعد انتهاء الحرب (١٨٠١ م). وفي الجزائر، كان اليهود عامة، وابن زاهوت وبوجناح خاصة، يتعرضون للاضطهاد بسبب نشاطاتهم غير النظيفة، وكانت حماية (الباشا) لهم حماية مؤقتة لهدف معين (على نحو ما كان عليه الباشا مصطفى). وأدى تدخل اليهود السافر- والفاضح- في شؤون الدولة الى كراهيتهم، وكان ذلك هو السبب الذي دفع أحد الانكشارية الى قتل (بوجناح الملقب بملك الجزائر) في صيف سنة ١٨٠٥، وتبع ذلك رد فعل عنيف ضد اليهود، وفي السنة ذاتها اغتيل (مصطفى باشا) الذي كان يعمل على حمايتهم. وعندما تولى (احمد باشا) الحكم في الجزائر، صادر املاك (بوجناح) واضطهد الافراد البارزين من اسرة (بكري- ابن زاهوت) وقد مارس (داوود دوران) منافس (ابن زاهوت) و(بوجناح) دوراً هاماً

في المصير الذي لحق بصاحبيه، وفي رئاسة الطائفة اليهودية في الجزائر. غير أن أيام ازدهار (دوران) لم تكن طويلة، فقد استعاد (يوسف بكري) سمعة العائلة، كما حل ابنه (داوود) محل (دوران) في رئاسة الطائفة اليهودية. وتابع (دوران) ممارساته في الكيد لهما إلى أن نجح في تجريدهم من جميع سلطاتهم. ففي سنة ١٨١١، قطع رأس (داوود بكري) الذي اتهم بالوشاية بالباشا لدى السلطان، وحل (دوران) محله. ولكن هذا لم يستمر في عمله سوى ثمانية شهور، لأن يوسف بكري الذي كان عجوزاً قد ثأر منه لابنه داوود. غير أن سلطة يوسف لم تدم طويلاً أيضاً، لأن (عمر آغا) قد أمر بنفيه (سنة ١٨١٦) فذهب يوسف الى (ليفورنيا). وقد حل محله بالجزائر (يعقوب بكري) الذي كان ممثلاً لتجارة هؤلاء اليهود الجزائريين في باريس والذي لم يكن محل ثقة العائلة. ومما يذكر أنه كان قد حصل على الجنسية الافرنسية. وأصبح يعقوب في الجزائر هو المسؤول عن التجارة التي تديرها اسرة بكري، وهو زعيم الطائفة اليهودية في الوقت ذاته.

عينت الحكومة الافرنسية لجنة رباعية لدراسة الدين الذي على فرنسا لرعايا الجزائر اليهود في سنة ١٨١٩، وقدرته اللجنة بمبلغ (٤٢) مليون فرنك. ولكن هذا المبلغ انخفض شيئاً فشيئاً حتى وصل (٧) ملايين فرنك فقط، نتيجة مطالبة أطراف أخرى بديونها على اسرة (بكري- بوشناق) ولكن المذكرة التي اصدرتها الحكومة الافرنسية في ٢٨ تشرين الأول ـ اكتوبر- ١٨١٩ م. اكدت ان ملك فرنسا عازم على ارضاء مطلب باشا الجزائر للمحافظة على العلاقات الودية بين الجزائر وفرنسا. (غير ان المذكرة نصت على أن فرنسا لن تسدد الدين إلا بعد اعلان الباشا التخلي عن مطالبته

بتسديد الدين له بدل بكري). واعلن الباشا رسمياً- يوم ١٢ نيسان- ابريل- انه يوافق على أي طريقة لتسديد الدين- حتى لو سددت الحكومة الافرنسية الدين الذي عليها الى يعقوب بكري مباشرة. والأمر الواضح هو أن يعقوب سيدفع ما عليه من الدين للجزائر بمجرد استعادته لما له من دين على الحكومة الافرنسية. وفي ٢٤ تموز- يوليو- سنة ١٨٢٠ م. صدر قانون عن البرلمان الافرنسي بتخصيص (٧) ملايين فرنك لتسديد الدين الى يعقوب بكري. وعندئذ واجهت الحكومة الافرنسية- على ما قيل- مطالب كثيرة يدعي أصحابها بأن لهم دين عند يعقوب بكري. وأمام ذلك، أحالت الحكومة الافرنسية القضية بكاملها الى القضاء، وكان ذلك يعني عدم حصول (حاكم الجزائر) على ديونه المتراكمة عند (يعقوب بكري).

كان (الباشا حسين) قد تولى حكم الجزائر سنة (١٨١٨ م) خلفاً للباشا (علي خوجة). وقد اشتهر بالغيرة على الدين، وباليقظة الدائمة والميل الى الاهالي. وكان دون الخمسين من عمره حين تولى الحكم. وقد ورث قضية الدين الذي على فرنسا لرعاياه اليهود. كما واجه عدة ضغوط من فرنسا وبريطانيا، بعد مؤتمر فيينا لالغاء الرق وإبطال دفع الضريبة السنوية على الدول الاوروبية والواقع أن هناك أقوالاً متضاربة حول شخصيته ومزاجه وقدرته، فبعضهم يتهمه بالقسوة والتهور والتهاون، وبعضهم يصفه بالخيرية والأمانة والشهامة. والمهم في الأمر هو أن الباشا طلب من فرنسا أن تدفع اليه شخصياً الدين الذي عليها ليعقوب بكري، وسيتولى هو وليس المحاكم الافرنسية تسديد الديون التي على البكري للدائنين. وكتب الباشا بذلك الى الحكومة الافرنسية التي لم تحاول

الرد بحجة ان وزير الخارجية (البارون داماس) لم يفهم طلب الباشا طالما أن سلفه قد وافق على ان تدفع فرنسا مباشرة الى (بكري). وقد اتهم الباشا القنصل الافرنسي (دوفال) باخفاء رد فرنسا عنه، وزاد في سو التفاهم بينهما ما قاله (يعقوب البكري) من أنه دفع بعض الأموال للقنصل الافرنسي، فزاد ذلك من عدم ثقة الباشا في القنصل. ولذلك طلب الباشا الى فرنسا استدعاء قنصلها، ودفع الدين الذي لبكري له شخصياً. ولكن فرنسا بدلاً من أن تسمي قنصلاً جديداً- وفقاً للعادة المتبعة في التمثيل الديبلوماسي- وبدلاً من أن تجيب الباشا بخصوص الدين، أرسلت الى الجزائر سفينة حربية بقيادة الضابط (فلوري). طالبة من الباشا دفع تعويضات معينة، ومدعية عليه ادعاءات مختلفة.

ويذكر هنا أن (الباشا) قد سجن في سنة (١٨٢٦) يعقوب بكري لعدم وفائه برد الدين المستحق للقنصل الانكليزي. كما حمله على التنازل عن كل الديون التي يدعيها (بكري) على اسبانيا وفرنسا وسردينيا، وإجراء هذا التنازل للداي (حسين باشا). الذي كرر مطالبته لفرنسا بتعيين قنصل جديد ودفع الديون، وعادت فرنسا من جديد فأرسلت في هذه المره أربع سفن حربية بقرار من مجلس الوزراء وذلك في شهر نيسان (ابريل) ١٨٢٧ م.

أقبل عيد الفطر الأول من شوال سنة ١٢٤٣هـ ـ مصادفاً ليوم ٢٧ نيسان ـ ابريل- ١٨٢٧، وحضر القناصل الاجانب كالعادة الى الديوان لتهنئة الباشا بالعيد. ودخل قنصل فرنسا (الجنرال دوفال) ليهنئه بعيد الفطر السعيد (وكان يتقن التركية ـ في حين تذكر مصادر اخرى انه لا يتقن التركيه إلا بقدر ما كان والي الجزائر حسين باشا

يتقن الافرنسية: . فسأله حسين باشا عن سبب عدم رد ملك فرنسا على رسالته. فما كان من (دوفال) إلا أن أجابه محتداً: (ليس من العادة أن يخاطب الملك من هو أدنى منه بدون وساطة) ففهم منها الباشا ان ملك فرنسا لا يتنازل لاجابته، فاشتد غضبه وثارت ثائرته لهذه الاهانة، وصاح بالقنصل مشيراً بمروحة من ريش النعام كانت بيده (اخرج من هنا!) وبتلك الاشارة لمست أطراف المروحة وجه القنصل. فعظم هذا الأمر على (دوفال) الذي خرج صاخباً متوعداً، وطير الى فرنسا برقية ينبىء حكومته بما جرى له، وكيف لطمه الباشا بمروحة على وجهه، فأتاه الأمر بمبارحة الجزائر حالاً فهيأ أمتعته وغادر الجزائر ورافقه أكثر الافرنسيين المقيمين هناك[1] فلما رأى الداي ما فعلت فرنسا بنقل رعاياها، أدرك أنها لا بد لها من أن تحاربه، فأصدر أمره بالقبض على من بقي من الافرنسيين في بلاده، وضبط أملاكهم، وخرب قلعة- دي كار- الفرنسية. فأعلنت **فرنسا الحرب على الجزائر في ١٦ من حزيران - يونيو - سنة ١٨٢٧ م.**

---

(١) جاء في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال - الدكتور أبو القاسم سعدالله - الجامعة العربيه ١٩٧٠- القاهرة، ما يلي: «وأمر الباشا القنصل بالخروج، وعندما لم يتحرك، ضربه بالمروحة التي كانت بيده. وادعى دوفال في تقريره الى حكومته بأنه ضربه ثلاث مرات. أما الباشا فقال بأنه ضربه لأنه أهانه. وتذهب رواية اخرى الى ان الضرب لم يقع أصلاً ولكن وقع التهديد بالضرب- وفي حاشية المصدر المذكور ص٢٠- يقر خوجة - حمدان عثمان مؤلف كتاب- المرآة-: بوقوع ضربة المروحة، ولكنه يلقي المسؤولية على دوفال».

- ٢ -

نداء (دوبرمون) الى أهل الجزائر

عشية الغزوة الصليبية الافرنسية

بعث مارشال فرنسا (دوبرمون) وهو يقود حملته لغزو الجزائر، منشوراً عملت اجهزة الاستخبارات والمباحث الافرنسية على الترويج له، ونشره في الاوساط الجزائرية كتمهيد للحملة، وتضمن المنشور ما يلي:

«باسم المبديء المعبود نستعين؛ ويا سادتي القضاة والأشراف وأكابر المشايخ والاختيارية، اقبلوا مني أكمل السلام وأشمل أشواق قلبي بمزيد العز والاكرام. أما بعد!

اعلموا هداكم الله الى الرشد والصواب أن سعادة ملك فرنسا، الملك شارل العاشر، سيدي عز جنابه الأعلى وعز نصره، قد أنعم علي بتوليته اياي- كونت دوبرمون- منصب قائد الحملة، ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر، ومن ينتمي اليكم من شعب المغرب. اعلموا:

أن حاكمكم الداي حسين قد تجرأ على تحقير العلم الافرنسي المستحق كل الاعتبار، وأقدم على اهانته، وبسبب جهله هذا ضرب القنصل الافرنسي- دوفال - بالمروحة. ولم يعرف انه

بعمله هذا انما هو يجلب اليكم الكوارث والضربات، وانه دعى عليكم الحرب من قبلنا، وان عزة ملك فرنسا، القادر، دام ملكه، نزع الله من قلبه رحمته المعهودة ورأفته المعروفة المشهورة تجاه هذا الداي حاكمكم الذي جلب على نفسه الانتقام الهائل- لقلة بصيرته وعماوة قلبه- وقد اقترب منه القدر المحتوم وعن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين. أما انتم يا شعب المغاربة، شعب الجزائر وجيرانه، اعلموا وتأكدوا يقيناً اني لست قادماً لمحاربتكم، وعليكم البقاء في أماكنكم آمنين مطمئنين، وان تتابعوا اعمالكم وتمارسوا صنائعكم وحرفكم براحة، وأعدكم انه ليس بيننا من يريد ضركم لا في مالكم ولا في اعيانكم، وأضمن لكم ان بلادكم وأراضيكم وحقولكم ومتاجركم، وكل ما هو لكم صغيراً كان أو كبيراً، فسيبقى على ما هو عليه، ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا، فآمنوا بصدق كلامي. ثم اننا نعدكم وعداً حقيقياً مؤكداً غير متغير أن تبقى جوامعكم ومساجدكم معهودة معمورة على ما هي عليه الآن وأكثر، وأن لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم. وان حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم. وانما قصدنا محاربة حاكمكم (الباشا الظالم) الذي بدأ وأظهر لنا العداوة والبغضاء. فيا أيها الاحباب سكان المغرب (الجزائر وجيرانها)! وحتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطانه على كل خير، وحتى يفرج عنكم ما انتم فيه من الغم والشدة وسوء الحال، اسرعوا واغتنموا الفرصة، ولا تعمى أبصاركم عما أشرقه الله عليكم من نور اليسر والخلاص. ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم، بل استيقظوا لكي تتركوا حاكمكم (الباشا) هذا وتتبعوا طريقنا الذي يؤول الى خيركم وصلاحكم وتحققوا أنه تعالى لا يبغي قط ضرراً بخليقته، بل يريد

لكل واحد من مخلوقاته ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها على سكان أرضه.

يا أيها الجزائريون أهل الاسلام! ان كلامنا هذا تعبير عن الحب الكامل لكم، ويشتمل على الصلح والمودة، فان انتم بعثتم مندوبيكم الى مبعوثنا، فنتكلم حينئذ واياهم، والمرجو من الله تعالى أن تؤدي محادثتنا مع بعضنا بعض الى ما فيه منافعكم ومصالحكم. هذا وأما ان كان منكم معاذ الله خلاف ذلك، حتى تختاروا مقاومتنا ومحاربتنا فاعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر انما يكون بسببه من جهتكم، فلا تلوموا إلا أنفسكم، وأيقنوا أنه ضد ارادتنا، فليكن عليكم محققاً ان عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام، ودون تعب، وان الله تعالى يسلطها عليكم، فانه تعالى كما يأمر من يجعل له النصر والظفر بالرحمة والتسامح مع الضعفاء المظلومين، فكذلك بحكم بأشد العذاب على المفسدين في الأرض، فلا بد لكم ان تعرضتم لنا بالعداوة والشر من الهلاك عن آخركم.

هذا ما بدا لي أيها السادة أن أكلمكم به، فهو نصيحة مني اليكم، فلا تغفلوا عنه. واعلموا أن صلاحكم هو في قبوله والعمل بما جاء به، وان هلاككم لا يرده عنكم أحد ان انتم اعرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به، واعلموا يقيناً مؤكداً بان كلام ملكنا المنصور المحظوظ من الله تعالى هو كلام لا يمكن تغييره، لأنه مقدر. والمقدر لا بد من تحقيقه، والسلام على من اتبع وسمع وأطاع»(١).

---

(١) تاريخ الجزائر ـ مجاهد مسعود ـ الجزء الأول ـ ١١١ ـ ١١٢.

- ٣ -

معاهدة الاستسلام التي وقعها داي الجزائر

(حسين باشا) يوم ٤ تموز (يوليو) ١٨٣٠ م

توجه (بومزراق) مندوب الداي (حسين باشا) ومعه قنصل انكلترا الى المعسكر الافرنسي مساء ٤ تموز- يوليو- ١٨٣٠، وسألا القائد العام عن شروط الصلح التي يريدها، فحررها لهما، فأخذها (بو مزراق) وعاد بها إلى حسين باشا فجمع رجاله وحاشيته، وتلا عليهم نص هذه الشروط، وحينئذ لم يجد الباشا بداً من توقيع المعاهدة والتسليم بهذه الشروط، التي كانت:

أولاً: يتسلم الجند الافرنسي حصن القصبة، وسائر الحصون الاخرى التابعة للجزائر ومرسى هذه المدينة، في الساعة العاشرة من صبيحة يوم ٥ تموز- يوليو- ١٨٣٠ م.

ثانياً: يتعهد القائد العام للجند الافرنسي، لصاحب السمو داي الجزائر بأن يترك له حريته وكل ثروته الخاصة.

ثالثاً: يستطيع الداي بكل حرية أن يسافر بصحبة عائلته وأمواله الى المكان الذي يختاره، ويكون تحت حماية القائد العام الافرنسي طوال اقامته في الجزائر، وتسهر فرقة من الجند الافرنسي

على حراسته وحراسة عائلته.

رابعاً: يتمتع كافة الجنود الاتراك التابعين لجيش الجزائر بالحقوق المقررة في الفقرات السابقة.

خامساً: تكون اقامة الشعائر المحمدية الدينية حرة، ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأملاكهم، ولا بتجارتهم وصناعتهم، وتحترم نساؤهم ويتعهد القائد العام بذلك عهد الشرف.

سادساً: يتم تبادل هذه الوثيقة بعد توقيعها قبل الساعة العاشرة من صباح يوم ٥ تموز- يوليو- ١٨٣٠ م. ويتسلم الجنود الافرنسيون فوراً القصبة وقلاع المدينة الاخرى.

الكونت دوبورمون

ختم حسين باشا داي الجزائر

- ٤ -

من تقرير اللجنة الافريقية

(سنة ١٨٣٣)

مضت ثلاث سنوات على احتلال فرنسا للجزائر، لم تعرف فرنسا خلالها الهدوء أو الاستقرار وتشابكت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية التي دفعت ملك فرنسا، لويس فيليب، الى تشكيل لجنة عرفت باسم (اللجنة الافريقية) وذلك في ٧ تموز- يوليو - ١٨٣٣، مهمتها دراسة الموقف الشامل للجزائر، وتحديد اسس العمل للمستقبل وتضمن تقرير اللجنة المذكورة ما يلي:

«لقد قضينا تماماً على املاك المؤسسات الدينية، وصادرنا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ملكيتها، وبدأنا استعمال سلطتنا بفرض غرامة قدرها (١٠٠) ألف فرنك كقرض إجباري، وذهبنا أحياناً الى حد أن أجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات المؤسسات الخيرية الى الغير. . . وقتلنا رجالاً يحملون منا ورقة الأمان. وانتهكنا دون خجل بيوت الله والمقابر والدور، وكلها ذات حرمة لدى المسلمين. وذبحنا سكان قرى عن آخرهم لمجرد الشك فيهم، ثم تبينت لنا بعد ذلك براءتهم. وحاكمنا رجالاً يعرفون بالتقوى في البلاد، رجالاً محترمين لأنه كانت لديهم

الشجاعة الكافية لمقابلتنا والتعرض لغضبتنا، لا لشيء سوى السعي لإخوان لهم بائسين. وقد قام قضاة منا بمحاكمتهم، وارتكب رجال متمدينون منا إعدامهم. لقد فقنا في البربرية هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم»[1].

---

(١) تاريخ الجزائر- مسعود - ١٣٤/١.

- ٥ -

رسائل وثائقية

(للحاج أحمد باي قسنطينة)

ما ان سقطت العاصمة الجزائر تحت سيطرة قوات الغزو الافرنسي، حتى اخذ الحاج احمد باي قسنطينة على عاتقه قيادة الجهاد في سبيل الله في اقليمه، ومضى مستنفراً الهمم، منظماً للقدرات والامكانات، موجهاً القوى لأعمال القتال، عاملاً على ادارة الحرب، منظماً للعلاقات الجديدة، حريصاً على صراع الاعداء سياسياً وعسكرياً، محافظاً في كل ذلك على نقل الموقف بامانة الى السلطات العليا في دار الخلافة (استانبول) فكانت رسائله وثائق تاريخية تصور الموقف بدقة، يوم اجتاحت قوات الاستعمار الافرنسي دار الاسلام في الجزائر. ويمكن في هذا المجال اقتطاع مقتطفات من تلك الرسائل المتشابهه احياناً في مضمونها، والهادفة ابداً لتحقيق الغاية الواحدة: الحصول على دعم اقليم قسنطينة حتى يتمكن من مجابهة (الحملة الصليبية):

١ - وفي رسالة احمد باي قسنطينة الى الصدر الاعظم بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٢٥١ هـ: المصادف ليوم الخميس ١٦ تموز -

يوليو ـ ١٨٣٥ . جاء ما يلي[1]:

«انه تقرر في شريف علمكم ما قد حل بساحة قطرنا من المحن وتراكم الاهوال، واشتعال نار الفتنة عند دخول الافرنسيين للجزائر دار الاسلام، وتشتت حال المسلمين، الذين هربوا بدينهم لا يدرون أين يذهبون، وصاروا في حيرة وشدة، لكون متولي أمرهم أخطأ في تدبيره، ولم يعلم أحداً من عماله وجنوده، واشترط على العدو نجاة نفسه وأهله وماله وترك المسلمين في حيرة عظيمة، فكبسهم العدو على غرة، اذ لم يكن لهم استعداد ولا عدة فاستولى عليهم الأعراب، واستحلوا منهم ما دون أنفسهم. وكنا ممن حضر وقت جباية المال بغير عدة قوية من الرجال، فقمنا باعانة الله، وجمعنا شتاتهم، وحاربنا عدوهم، وما سلكنا بهم الطريق إلا بعد شدائد وأهوال حتى بلغوا محل الأمن من البلاد، وقهرنا أهل الشر والفساد، وبذلنا في سبيل الله وطاعتكم أنفسنا، ومالنا المخلف عن اسلافنا، وكسرنا شوكة أهل الفتن، الموقدين نارها، الخائضين تيارها، وجلبنا الرعية بالبذل الكثير والرفق والاحسان، وأسقطنا عنهم جميع المظالم السالفة والبدع الشاقة الباطلة، واكتفينا منهم بالقانون الشرعي، فطابت نفوسهم، وقرت عيونهم وسكن روعهم، ثم أمرناهم بالاستعداد والوقوف في حراسة الوطن والحذر من مكر أهل الكفر، وما زلنا على تلك الحال، باذلين النفس والمال، حيث أن الدخل الشرعي أقل من خرج ما يلزم صرفه في الجيوش والجند الكثير الوافر، ونحن واقفون به بعون الله وعزه

(١) نقلت هذه الرسائل عن (خط همايون)ونشرت بكاملها في نشرة(أبطال المقاومة الجزائرية ـ الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية باشراف احمد توفيق المدني ـ الجزائر ـ ١٩٧٦) كما كانت قد نشرت في مجلة التاريخ رقم ٤ ـ نوفمبر ـ ١٩٧٦ .

ونصره في عين الكافر. منقادين لطاعة الدولة الخاقانية، وخدمة المملكة العثمانية، نأمر بها البوادي وأهل الحاضر، معلنين بذكر اسمه الشريف في الخطب والدعاء الصالح على المنابر، مستيقظين لاحوال الرعية، والحكم بينهم بالسوية، وتسديد شأن أهل الملة الاسلامية، والوقوف عند حدود الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية. غير أننا في ضيق وهم وكرب وغم من تعذر الطرقات البرية والمسالك البحرية التي حالت بيننا وبين التوصل والوصول بأخبارنا، وانما أعرض حالنا إلى الحضرة السعيدة، ولو كان بيدنا أقرب المراسي الينا (مثل عنابة) لكان حبلنا متصلاً بمقامكم وودنا متأكد عندكم وخدمتنا مستحسنة بين يديكم ونحن الآن لا يتهيأ لنا ارسال مكتوب إلا بالحيلة والتلطف والوسيلة، فانظروا أعزكم الله في شأن من هو عاكف على الطاعة ملازم للخدمة. فان الأمور مرجعها اليكم، وشرح حالنا لا يخفى عليكم والسلام ختام».

٢ـ ووجه أحمد باي قسنطينة رسالة الى الصدر الاعظم نامق **باشا في ٢ ربيع الأول ١٢٥٣هـ ـ الموافق ليوم الثلاثاء ٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٧ م. وهي رسالة أقرب الى الانذار، وفيها ما يلي** بعد الديباجة:

«لا يخفاكم ما حل بقطرنا ونزل بساحنا من تراكم الاهوال منذ ذهبت الجزائر الى الآن، وقد كابدت جميعها، وقواني الله عليها. وتحملت المشاق العظام والشدائد التي لا يطيقها أحد من الأنام، كل ذلك لرفع منار الدين واظهار طاعة أمير المؤمنين، وتماديت على ذلك منتظراً الفرج وازاحة الحرج على يدكم. ولما قدم سفير الدولة

السيد كامل بايك، عرفته بأمورنا، وكتبت معه عرض الحال لسيدنا ادامه الله للأنام، وكذلك مكاتبي ورسلي لم ينقطعا عن السيد طاهر باشا بتفصيل حالنا، وانهاء جميع ما عندنا، والى الآن لم يصلنا جواب، وقد طال علينا الحال، وتواترت الأهوال، خصوصاً حيث كان عدو الدين في طلبنا، فلا راحة لنا منه إلا بسطوتكم، . . . وواجب عليكم ان تشيروا علينا، وتجبروا صدعنا. . . وان لم ترفعوا بطرفكم الاعز هذا الجانب كان عرضة للتلف والمصائب ويسألكم الله عنا. . . وعليكم إبلاغ خبرنا مع طوائف الكفار، ومعاشر البغاة الفجار».

٣ ـ ووصف أحمد باي قسنطينة سقوط المدينة في قبضة الافرنسيين، والمقاومة الضارية للمسلمين في رسالته التي وجهها إلى (حسين باشا) وإلى طرابلس الغرب في ١٥ رجب ١٢٥٣ هـ الموافق ليوم الأحد ١٥ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٧ م والتي جاء فيها بعد الديباجة:

«لا يخفاكم أمرنا مع الافرنج وعدم متابعته له في مرامه، من أن أكون تحت طاعته ومن ايالته ورعيته، فلما يئس منا أتانا في عام اثنين وخمسين. ومائتين وألف ـ قاصداً هلاك الاسـلام وخراب البلد بين الانام بجيوش كثيرة، فحمانا الله تعالى منه، ورجع بالويل والبؤس بعد أن قطعت منه آلاف الرؤوس، فزاد غضباً على غضبه، وشكا لجنده وحزبه، واتانا في العام التالي بجيش وعدة أكثر من الأولى، فتهيأنا للقتال، امتثالاً للكبير المتعال، فحاصر البلد ثمانية أيام بلياليها، وتكلم مدفعه حواليها، فألفى رجالها كالاسود، راغمين العدو الحسود، جزاهم الله عن دينهم خيراً، لقد اذاقوه السم الأمر، فالتفت بالرمي على السور، إلى أن لم يبق منه إلا القليل، وأهل المدينة

بين جريح وقتيل، فهجم عليهم بالدخول لانني من خلفه بأهل الايمان أقطعناه المأمول، فلما وجد أهل الايمان وهنوا من الضرب والطعن ما ونوا، دخل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. . . وقد قتل بعد الدخول من أهل الايمان كثيراً. . . وهاأنا الآن بالبادية في غاية السلامة. . . وقد اجتمع علينا خلق كثير لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، قاصدين إعزاز دينهم، وقد كاتبنا المولى الأعظم السيد قبطان باشا ليعملوا لنا تأويلاً ان كان غرضهم نصر الدين المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وإعزاز هذا الاقليم بين الانام، وإلا يأمرونا بالقدوم اليهم، ويعينوالنا طريقاً مأموناً، لأموت بين أيديكم عزيزاً، ولا أرضى بالمذلة، لاننا ان مكثنا بالبادية، وطال الأمر علينا، يحصل لهم الملل، والوطن دخلته رائحة الكفر، وأهل البوادي ضعفاء القلوب، لا سيما وأن (ابن محي الدين- الامير عبد القادر) منهم وهو الآن في اعانة العدو. فلا بد أيها السيد الجليل ان تعرفوا السيد قبطان باشا، وان تعلموا أمير المؤمنين بهذه البلية العظيمة والثلمة الواقعة في ايالته. عساه يبلغ الاسلام في العدو المأمول، فكيف والله تعالى سائل اميرنا وسلطاننا عنا ويتركنا مهملين».

٤- وفي رسالة مماثلة كتبها أحمد باي قسنطينة للصدر الاعظم أحمد قبطان باشا بتاريخ ١٥ رجب ١٢٥٣ هـ (في ذات اليوم الذي ارسلت فيه الرسالة السابقة) جاء ما يلي:

«أما بعد. . . . اصغوا الى ما حل بنا واهمال ديننا، فكيف تتركونا للأعادي، وأنتم موجودون، ويشتت شملنا، وأنتم المخاطبون كلا، والله انكم مسؤولون عن تسليمنا للكافر ومقته، وكل راع مسؤول عن رعيته، وذاك انه لا يخفاكم شأننا، ومعاداتنا للافرنج منذ

أخذ الجزائر ونحن معه في غاية الحرج، ويخاطبنا على الدخول تحت طاعته، وان اكون من ايالته ورعيته. وأنا لا أزيد إلا فراراً، حرصا على الدين القويم، وامتثالاً للملك العليم، فكيف أنبّه في مراده الضنين وأكون خائناً للمسلمين بعد قوله تعالى: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)».

المراجع الرئيسية للبحث

(١) تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال- الدكتور أبو القاسم سعد الله- معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية- القاهرة- ١٩٧٠

(٢) تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الأول- الجزائر- ١٩٧١.

(٣) ثورة الجزائر- جو ان جليبي- ترجمة عبد الرحمن صدقي أبوطالب - الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة ١٩٦٦.

(4) POLITIQUES COLONIALES AU MAGHREB- (CHARLES- ROBERT AGERON) PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE 1973. PARIS.

(5) L'AFRIQUE DU NORD. (JEAN DESPOIS)PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE 1964 PARIS.

(6) LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE (1830» 1920) ETUDE DOCUMENTAIRE «MINISTERE DE LA DEFENSE NATIONALE «ALGER 1974.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
المقدمة	٧
وجيز الاحداث على الساحة الاوروبية	١٠
وجيز الاحداث على الساحة الاسلامية، وعلى ساحة الجزائر	١١
الفصل الأول:	١٣
١ـ الموقف في دار الخلافة العثمانية	١٥
٢ـ محمد علي باشا في مصر	٢٥
٣ـ معركة نافاران	٣٥
الفصل الثاني:	٤٥
١ـ ذريعة الاستعمار (البراغماتية)	٤٧
٢ـ عشية ليل الاستعمار	٦٧
٣ـ بدايات المقاومة	٨٥
آـ فئات من المجاهدين	٩٦
ب ـ ثورة ابن زعمون	٩٩
جـ سيدي السعدي والجهاد	١٠٢

د - ثورة الآغا محي الدين المبارك	١٠٤
هـ - بو مزراق - باي تيطري	١٠٩
و- الحاج احمد باي قسنطينة .	١١٣
ز- حمدان خوجة والصراع السياسي .	١٣٠
٤- الادارة الافرنسية (وتكوين وحدات خاصة)	١٤٦
٥- الادارة الافرنسية (من التردد الى التصميم)	١٤٨
الفصل الثالث:	١٥٩
١- في النظرية الاستعمارية	١٦١
٢- في الجهاد والمقاومـة	١٦٧
قراءات:	١٧٣
١- قصة اليهودي ومروحة (دوفال)	١٧٥
٢- نداء (دوبرمون) الى الجزائريين عشية الغزوة الصليبية الافرنسية	١٨٣
٣- معاهدة الاستسلام التي وقعها الداي (حسين باشا) يوم ٤ تموز- يوليو- ١٨٣٠ م	١٨٦
٤- من تقرير (اللجنة الافريقية) سنة ١٨٣٣	١٨٨
٥- رسائل وثائقية (للحاج احمد باي قسنطينة)	١٩٠
المراجع الرئيسية للبحث	١٩٧

جهاد شعب الجزائر ٤

الأمير عبد القادر الجزائري

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير عبد القادر الجزائري

(١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ = ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م)

بسّام العسلي

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م
الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

© دار النفائس
بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

إحياء لذكرى السيف الذي عاد إلى غمده

بعد قرن من غيابه

إلى روح الذي رفع راية الجهاد في سبيل الله

فتناقلتها الأجيال حتى يوم النصر.

بسام

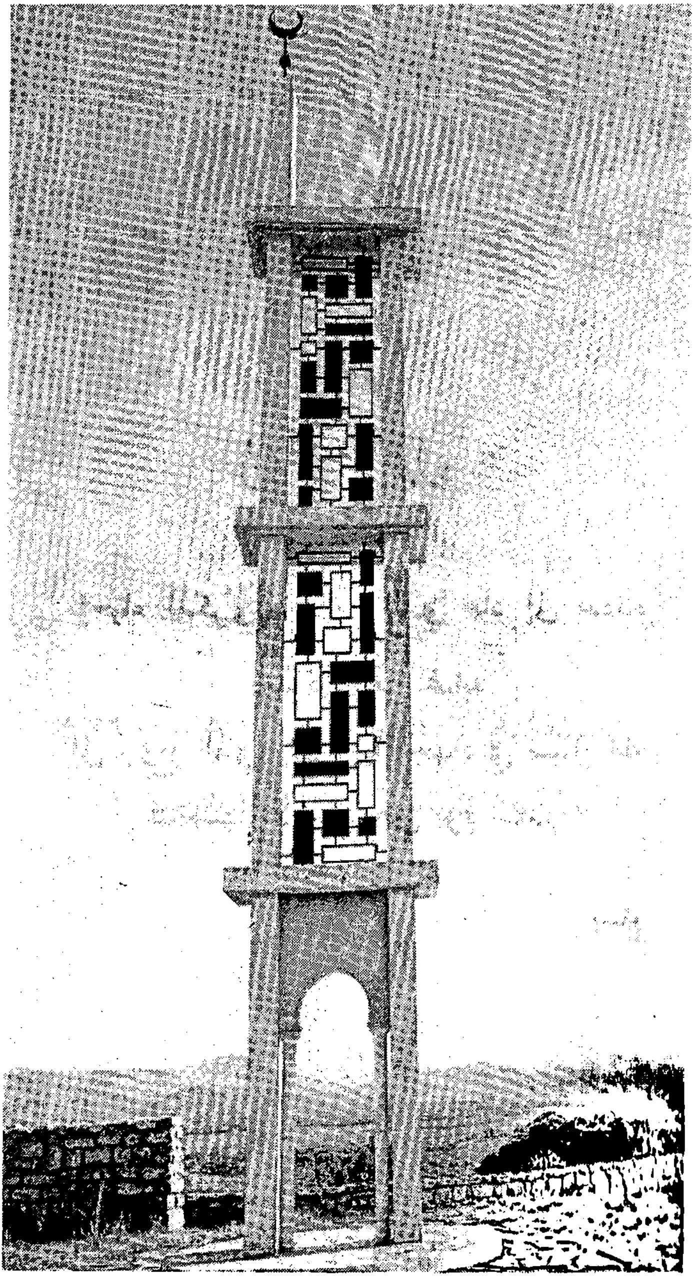

نصب تذكاري في عين المكان الذي صُدِّقَ فيه على معاهدة تافنا

المقدمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة.

وببدايته يكون قد انقضى قرن كامل على غياب سيف من اشهر سيوف الاسلام في العصر الحديث، ففي سنة (١٣٠٠ هـ) غيبت دمشق الخالدة في ثراها الامير الجزائري عبد القادر بن محيى الدين الذي كان (مرابطاً) من الاسرة الهاشمية التي تنتسب الى رسول الله ﷺ.

وحياة الرجل ليست بالحياة المجهولة او المغمورة، فقد استثارت أعماله في ميادين القتال خيال الكتاب والمؤرخين، فمضوا الى تسجيل منجزاته ووقائعه. وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى حتى باتت سيرته، وستبقى، محور جدل قائم ومستديم.

لقد ظهر الامير عبد القادر في فترة تحول حاسمة في تاريخ المسلمين، فترة الانقضاض على الخلافة الإسلامية والإجهاز عليها، وخلال هذه الحقبة التاريخية ظهرت تناقضات مثيرة لا تزال ترسم أبعادها على صفحة العالم العربي ـ الاسلامي على الرغم من انقضاء قرن من عمر الزمن وعلى الرغم من اندحار القوى الاستعمارية العسكرية وجلائها عن اوطان العرب ـ المسلمين. ومن هنا فقد كانت

حياة عبد القادر وسيرته الشخصية انعكاساً لصورة عصره. وقد ادرك هو هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله: «**اني لم أصنع الاحداث، بل هي التي صنعتني، إن الانسان مثل المرآة، والمرآة لا تعكس الصور الحقيقية الا اذا كانت واضحة وصافية**» غير أن الأخذ بهذه المقولة ـ حتى لو جاءت على لسان الامير ذاته ـ يحتمل تفسيراً سلبياً، وهذا التفسير يناقض الواقع. فالامير لـم يكن مجرد ـ مرآة ـ سلبية تعكس احداث بلاده وأحداث العالم، وانما كان يمارس دوراً ايجابياً في (تصنيع الأحداث) وتشكيلها. ومن هنا، فقد كان الأمير عبد القادر في حياته العامة فاعلاً ومنفعلاً، مؤثراً ومتأثراً، وعبر هذا التفاعل الدائم والمستمر ظهر الامير عبد القادر، لا ليطفح فوق سطح الأحداث، وانما ليسير مع أعمق تياراتها في محاولة منه لتحقيق الهدف الثابت (رفع راية الإسلام والمسلمين) والدفاع عن (قضية الإسلام والمسلمين) تجاه اشرس حملة صليبية عرفها التاريخ في القديم والحديث.

والأمير عبد القادر، قبل ذلك وبعده، انسان مسلم ، لا تأخـذه الاهواء، ولا تحركه ردود الفعل، وانما ينطلق في كل ممارساته من قاعدته الصلبة، قاعدة الايمان بالله، وبما أنزله على رسوله ﷺ. وقد كان هذا الايمان هو زاده في رحلته الشاقة، وهو عونه فيما جابهه من صعوبات وأزمات، تعجز عن حمل أعبائها همم الرجال، وتقصر عنها عزائم الابطال.

لم يكن الأمير عبد القادر في الحالات كلها، ممثلاً لجهاد شعب الجزائر، ولو أنه قاد الجهاد المرير والشاق فوق أرض الجزائر. فقد عرف الامير عبد القادر بصدق احساسه وصفاء نفسه ان (حرب الجزائر) لم تكن ابداً بمعزل عن الحرب الشاملة التي تخوضها الامة

الإسلامية فوق كل دنيا المسلمين. فجرد حسامه وقلمه، مدافعاً عن القضية الشاملة أينما سار وحيثما اتجه.

وعندما نزلت به النوازل والخطوب، تقبلها بايمان وصبر نافذين، إيمان الرجل المؤمن بربه، المؤمن بقدره، فكان كبيراً وهو في معتقله، وكان خصومه صغاراً وهم في أوج قوتهم وذروة انتصارهم.

وكبر الامير عبد القادر باعدائه بمثل ما كان كبيراً في قومه وبين أهله وعشيرته. واصبح الامير عبد القادر بطلاً عالمياً بعد أن كان بطلاً عربياً مسلمًا.

وامضى الأمير عبد القادر ردحاً من حياته في دمشق. وانطلق منها في زيارات قصيرة لمصر والاماكن المقدسة في الجزيرة العربية.

ثم قضى في دمشق، التي طالما غيبت أشرف السيوف، ودفنت أنبل الرايات، لتبعثها من جديد وهي أشد وضاء وأرفع سمواً واشراقاً.

ومضى قرن من الزمن؛

وبدأ القرن الخامس عشر للهجرة،

وانتصرت الجزائر المجاهدة، وتحقق لها ما يريده البطل (الامير عبد القادر) ولم ينس المجاهدون رائد جهادهم فحملوا رفاته لتستقر الى جانب رفات الشهداء الابرار ـ وما اكثرهم فوق أرض الحرية والأحرار.

بسام العسلي

الوجيز في حياة الامير عبد القادر

١٢٢٢- ١٣٠٠ هـ= ١٨٠٧- ١٨٨٣م

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٢٢	١٨٠٧	ولادة عبد القادر بن محيي الدين بقرية (قيطنة ـ غتنا)ـ وهران.
١٢٣٨	١٨٢٢	انتهاء دراسة عبد القادرـ وحفظه للقرآن الكريم.
١٢٣٩	١٨٢٣	مرافقة عبد القادر لوالده في رحلة الحج الى الديار المقدسة
١٢٤١	١٨٢٥	التوجه للحج بعد احتجاز في الجزائر لمدة سنتين
١٢٤٤	١٨٢٨	العودة من الحج.
١٢٤٦	١٨٣٠	غزو فرنسا للجزائر
١٢٤٨	١٨٣٢	مبايعة الامير عبد القادر ومعاهدته على الإمارة والجهاد
١٢٥٠	١٨٣٤	عقد أول معاهدة بين الامير وفرنسا
١٢٥١	١٨٣٥	معركة (المقطع) اشهر معارك الامير
١١٢٥٣	١٨٣٧	عقد ثاني معاهدة بين الامير وفرنسا (تافنة)
١٢٥٥	١٨٣٩	إعلان الحرب على فرنسا بعد نقض المعاهدات
١٢٦٥	١٨٤٨	هزيمة الامير ونقله معتقلاً الى

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
		طولون ثم بو ثم امبواز.
١٢٧٠	١٨٥٣	اطلاق سراح الامير وانتقاله الى (بروسة)
١٢٧٣	١٨٥٦	انتقال الامير الى دمشق
١٢٨٠	١٨٦٣	زيارة الامير لمصر ـ ثم الحج للديار المقدسة
١٢٨١	١٨٦٤	العودة الى دمشق والاستقرار فيها، والقيام بزيارات قصيرة للغرب (باريس)
١٣٠٠	١٨٨٣	وفاة الامير عبد القادر في دمشق

الوجيز في ابرز الاحداث المعاصرة لحياة
الامير عبد القادر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٥٦	١٨٤٠	سقوط شارل العاشر وصعود لويس فيليب في فرنسا
١٢٥٦	١٨٤٠	مؤتمر لندن لتسوية العلاقات العثمانية المصرية.
١٢٥٨	١٨٤٢	ثورة الدروز واعادة تنظيم لبنان.
١٢٦١	١٨٤٥	بو معزه يثور في الجزائر.
١٢٦٥	١٨٤٨	وفاة محمد علي باشا حاكم مصر، وتولي عباس.
١٢٦٥	١٨٤٨	سقوط لويس فيليب - وصعود نابليون الثالث
١٢٦٦	١٨٤٩	فيصل بن تركي يخرج المصريين من الحجاز
١٢٦٦- ١٢٦٩	١٨٤٩- ١٨٥٢	النزاع على الاماكن المقدسة في فلسطين.
١٢٧٠	١٨٥٣	حرب القرم
١٢٧٧	١٨٦٠	مذابح الستين (طوشة

وجيز الأحداث	السنة الميلادية	السنة الهجرية
النصارى) وبدء العمل في فتح قناة السويس		
افتتاح ترعة السويس رسمياً.	١٨٦٩	١٢٨٦
ظهور المهدي محمد بن عبد الله في السودان	١٨٧٠	١٢٨٧
هزيمة نابليون في سيدان وسقوط الامبراطورية (ثورة تموز)	١٨٧٠	١٢٨٧
الحرب العثمانية في الصرب والجبل الاسود.	١٨٧٦	١٢٩٣
الحرب الروسية العثمانية	١٨٧٧ - ١٨٨٨	١٢٩٤ - ١٣٠٥
مؤتمر برلين	١٨٧٨	١٢٩٥
فرنسا تحتل تونس	١٨٨١	١٢٩٨
هزيمة عرابي باشا وبريطانيا تحتل مصر.	١٨٨١	١٢٩٨

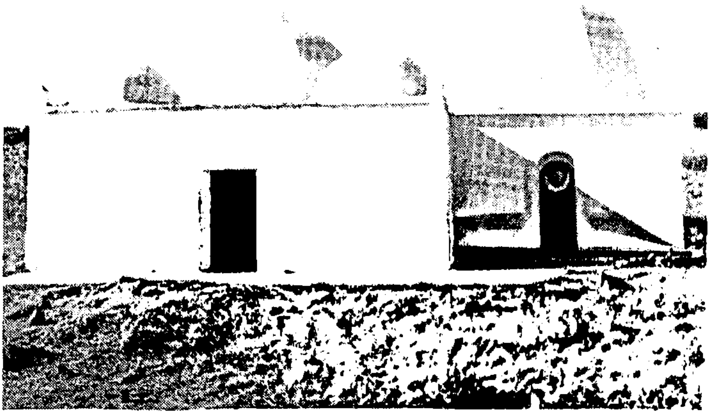

قبر سيدي محيى الدين والد الأمير في سيدي قاده

«لو فرشت لي مسالك فرنسا وسهولها بالديباج والذهب ووضعت في كفة وحريتي في كفة لاخترت حريتي. وإنني لا أطلب عفواً ولا إحساناً، اطلب فقط احترام العهود التي قدمت لي. لقد طلبت وعداً فرنسياً، فأجابني إليه جنرال فرنسي. ثم أكده جنرال آخر وهو ابن الملك. وبذلك أصبحت فرنسا مرتبطة إزائي، كما هي مرتبطة بما قطعته على نفسها. ولن أتخلى عما وعدتموني به، وسأموت مع وعدي حتى اكشف عن نواياكم الحقيقية»

(الامير عبد القادر في خطابه من سجنه في فرنسا إلى سجانيه)

الفصل الاول

الامير عبد القادر وبداية الرحلة الشاقة

١ - الأصالة وبناء القاعدة الصلبة

٢ - بناء دولة الحرب

آ - تنظيم الجيش

ب- التسلح والصناعة الحربية

ج - الحصون والتنظيم الدفاعي

د - التنظيم الإداري والتموين

٣ - بناء الدولة الإسلامية.

٤ - في أفق العمليات والتكتيك

١ ـ الاصالة وبناء القاعدة الصلبة

ولد مع ولادة ربيع الحياة، في يوم من ايام شهر أيار ـ مايو ـ سنة ١٨٠٧، وقد جاء الى الدنيا ليكون رابع اخوته، ولم تكن قرية (قيطنة ـ أو غتنا) المغمورة تعرف وهي تستقبل المولود الجديد انها ستكتسب شهرة ما بعدها شهرة، وستنال شرفاً ما بعده شرف إذ هي ترحب بهذا القادم الوليد. لقد بقيت قرية (قيطنة) طويلاً وهي نائمة بهدوء، على ضفة وادي الحمام في منطقة (اغريس) بالقرب من (معسكر) الى الجنوب الشرقي من مدينة وهران. وقد آن لهذه القرية أن تهتز لتستيقظ من غفوتها حتى تسير على صفحات التاريخ.

واذا كانت (قيطنة) مغمورة، فان قاطنيها لم يكونوا بالمغمورين، فقد سبقتهم شهرتهم فتجاوزت أفق الجزائر بفضل ما عرف عن كبيرها من التقى والورع والحكمة والكرم وأصالة المحتد، لقد كان شيخاً كبيراً من شيوخ المرابطين المجاهدين، اولئك الذين اشتهرت بهم ايام الاندلس واشتهروا بها، حتى اذا زالت دولة الاندلس انتقلوا الى ربوع المغرب العربي الاسلامي ليقيموا بين اهلهم وذويهم وليحملوا معهم راية الجهاد في سبيل الله، وزاد الشيخ شرفاً على شرفه انتسابه الى (الهاشميين) قرابة رسول الله ﷺ.

كان نبلاء المغرب العربي ـ الاسلامي خلال تلك الفترة ينتمون الى فئتين متميزتين: فئة المرابطين وفئة الاجواد. وكانت الفئة الاولى تستمد هيبتها ونفوذها من زعامتها (الدينية) في حين كانت الفئة الثانية تعتمد في وجودها على (السيف). ولم تكن المنافسة معدومة بين الفئتين، فكان المرابطون يتهمون الاجواد بالعنف والتهور وحب النهب، في حين كان الاجواد يتهمون المرابطين بالطموح المقنع، وبالبحث عن النفوذ والسلطة والثروة من خلال العمل للدين وللدين فقط. ولم يكن في هذه الاتهامات ما يعيب الطرفين على كل حال اذ كانت هذه الفضائل بمجموعها قاسمًا مشتركاً اكثر منها فارقاً فاصلاً، ولو أن الهدف النهائي كان مختلفاً، فالمرابطون يعملون لآخرتهم باكثر مما يعملون لدنياهم، والاجواد يعملون لدنياهم اكثر مما يعملون لآخرتهم.

فتح الوليد عينيه ليتعرف على الدنيا من حوله، فكان أول ما أدركه شدة حدب أبيه عليه وحنوه وهو يحتضنه اليه، وايثاره على أخوته، ولم يكن في ذلك ما يثير الحياء او الخوف، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر وهو (يخاف حتى من ظله). ولعل نعومة تكوينه كانت مصدر مخاوفه فقد خلق جذاباً وسيمًا، يكاد جماله يقترب به الى الجمال الانثوي من الجمال الرجولي، له انف متوسط يبرز من وجهه بشكل رائع لا هو بالأنف الاغريقي ولا هو بالروماني، وانما هو وسط بينهما، وتحته شفتان منحوتتان بدقة ومضغوطتان قليلاً تنمان عن التحفظ المهيب والثقة بالهدف. بينما تشع عيناه الصافيتان العسليتان تحت جبهة عريضة في بياض الرخام مع نعومة مكتومة وحزينة، أو تتألقان بأشعة العبقرية والذكاء.

كان ذلك هو عبد القادر بن محيي الدين ـ المشهور بالجزائري.

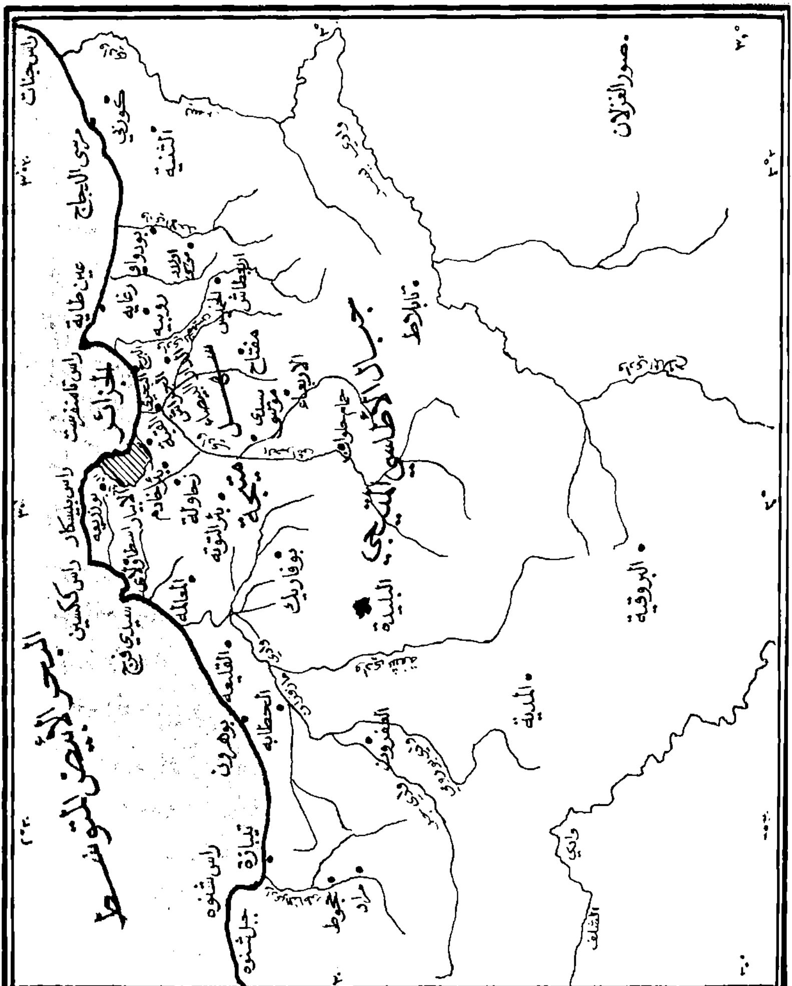

البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
متيجة
البليدة
البروقية
المدية
القليعة
الحطابة
بوفاريك
تيبازة
صور الغزلان

واخذت مواهب عبد القادر في التفتح مبكراً، فها هو قد أتقن القراءة والكتابة ولما يتجاوز الخامسة من عمره، وتمكن من قراءة القرآن واصول الشريعة والحديث وهو في الثانية عشرة من العمر، واصبح من حفظة القرآن وهو في الرابعة عشره حيث ارسله والده الى وهران للدراسة في مدرسة يسيرها (سيدي أحمد خوجة) غير أن عبد القادر نفر من اسلوب الدراسة بقدر نفوره من حياة وهران فلم يستقر اكثر من سنة ليعود بعدها الى (فيطنة) حيث كلف (سيدي احمد بن الطاهر قاضي آرزو) بتدريسه واطلاعه على العلوم الحديثة: علم الفلك والحساب والجغرافيا بالاضافة الى اطلاعه على الشؤون الاوروبية. ولم يجد بعد ذلك ما هو افضل من الانضمام الى جماعة رجال الدين وطلاب المعرفة ممن كانوا يلتفون حول والده ـ محيي الدين ـ لدراسة العلوم القرآنية. حيث كانت تعطى ـ مجاناً ـ دروس في الآداب والحقوق والتوحيد. ورافق هذا النضج الفكري نضج جسدي مبكر ايضاً، فما كاد يبلغ السابعة عشرة من عمره، حتى اكتملت بنيته المتناسقة (فبلغ طوله خمسة أقدام وخمسة بوصات) وأصبح له صدر عريض ومنكبين قويين، في جسد لا يعرف التعب او النصب، قادراً على احتمال أشد الصعاب. وبرز في مجال الفروسية، فكان فارساً مهيباً لا يدانيه أحد أو ينافسه، ولم يعد (يخاف من ظله) بعد ان اكد تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروسية التي تحتاج العين الثابتة واليد القوية والرجولة الحقة. وها هو يصبح حديث الناس: إنه يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع احدى يديه على ظهر الفرس، ثم يقفز الى الجانب الأخر، او انه يدفع الفرس الى اكبر سرعة ممكنة، ثم ينزع قدميه من الركاب، ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة، وبلمسته الخفيفة الماهرة يثني الفرس العربي المدرب ركبتيه،

أو يمشي مسافات على قائمتيه الخلفيتين بينما تضرب قائمتاه الاماميتان في الهواء. أو يلوح ويقفز بهما كالغزال. اما في ميدان السباق فكان يركب جواداً فاحم السواد يتضاد في لونه مع بياض برنسه، ثم يتقدم الى الحلبة ببرود ظاهر وضبط كامل للنفس، لينطلق فيسبق منافسيه بمسافات كبيرة تجعله يصل الى الهدف وحده، وسط هتافات الاعجاب وزغاريد مئات النساء. وكان كساؤه بسيطاً غاية البساطة، وليس سوى سلاحه يظهر الزينة. فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة. اما مسدسه فقد كان مرصعاً بالجواهر. وكان سيفه الدمشقي مغمداً في غمد من الفضة. وكانت متعته في ممارسة هوايته المفضلة (الصيد). وأتقن صيد الباز والغزال والنعامة والخنزير البري والنمر. ولم يكن في رحلة الصيد يميل الى تلك التظاهرات الفخمة التي كان يتعمدها (الاجواد) فكان يكتفي بمرافقة خادمين او ثلاثة ويتوغل في اعماق الغابة بحثاً عن صيده المفضل (الخنزير البري) حتى اذا ما حقق هدفه، عاد من رحلته الرياضية ليعزل نفسه للدراسة بحيوية متجددة، وللتفرغ للعبادة. واشتهر بقدرته (على النوم خلال اسابيع والتعرض للصدام، وندرة اغماد سيفه ـ فكان عرشه قائماً على سرج جواده) ولم يكن ذلك الا نتيجة لتلك المواهب الفطرية التي صقلتها المكتسبات الفكرية والجسدية.

وتزوج عبد القادر وهو لا يزال يافعاً، التزاماً بالحديث الشريف «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أحصن للفرج» وكانت زوجته (لالة خيرة) بنت عمه سيدي علي بو طالب. وكان على هذه الزوجة الفاضلة ان تحتمل مع زوجها مشاق الرحلة الطويلة ـ رحلة العمر في الجهاد.

بلغ محيي الدين والد عبد القادر الخمسين من عمره، فاراد أداء

فريضة الحج، واتخذت استعدادات كبيرة للحدث الهام، ورغب الكثيرون في مرافقة الشيخ المرابط للحج، وفي طليعتهم ابناؤه وحاشيته. وقرر (محيي الدين) الخروج وحده تخلصاً من الموقف الحرج، غير انه عاد فعدل عن قراره، واعلن ان (عبد القادر) هو الوحيد الذي سيرافقه، ورضخ الجميع لهذه الارادة وقلوبهم يغمرها الحزن. وغادر الاب والابن قريتهما (قيطنة) في تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٨٢٣. وما ان انتشرت اخبار عزم (محيي الدين) على الحج حتى ترددت في كل انحاء وهران صيحة (الى الحج.. الى الحج) وأقبل الآلاف من كل الجهات وهم يحملون خيامهم ومتاعهم، وتجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في (سهل شلف) وارعبت هذه التظاهرة حاكم (وهران). فأرسل الى (محيي الدين) يستدعيه لمقابلته. وامتثل (محيي الدين) فتوجه مع (ابنه عبد القادر) الى وهران، وكانت المقابلة ودية، غير أن حاكم وهران الزم ضيفيه (محيي الدين وابنه) بالبقاء في وهران بما يشبه الاقامة الاجبارية، حتى اذا ما مضت سنتان، وعرف حاكم وهران ان مخاوفه لا تستند الى أي اساس مقبول، علاوة على ما كانت تثيره عملية (الاحتجاز) من ردود الفعل السيئة التي وصلت الى (ديوان الباشا) وحتى الى (منزله) حيث وقفت ام الداي وزوجته ضد هذا الاجراء التعسفي، فقرر الداي السماح (للمحتجزين) باستئناف رحلة الحج. وعندها قرر (محيي الدين) عدم العودة الى (قيطنة) مرة اخرى لوداع اسرته حتى لا تتكرر قصة (الحشد المرعب) فغادر وهران بسرعة في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٢٥. ووصل ومعه عبد القادر الى تونس مارين (بالمدية وقسنطينة) وهناك انضما الى قافلة تضم الفي حاج، ركبوا جميعاً البحر الى الاسكندرية. وكانت هذه الرحلة مثيرة جداً للشاب عبد القادر الذي أخذ في

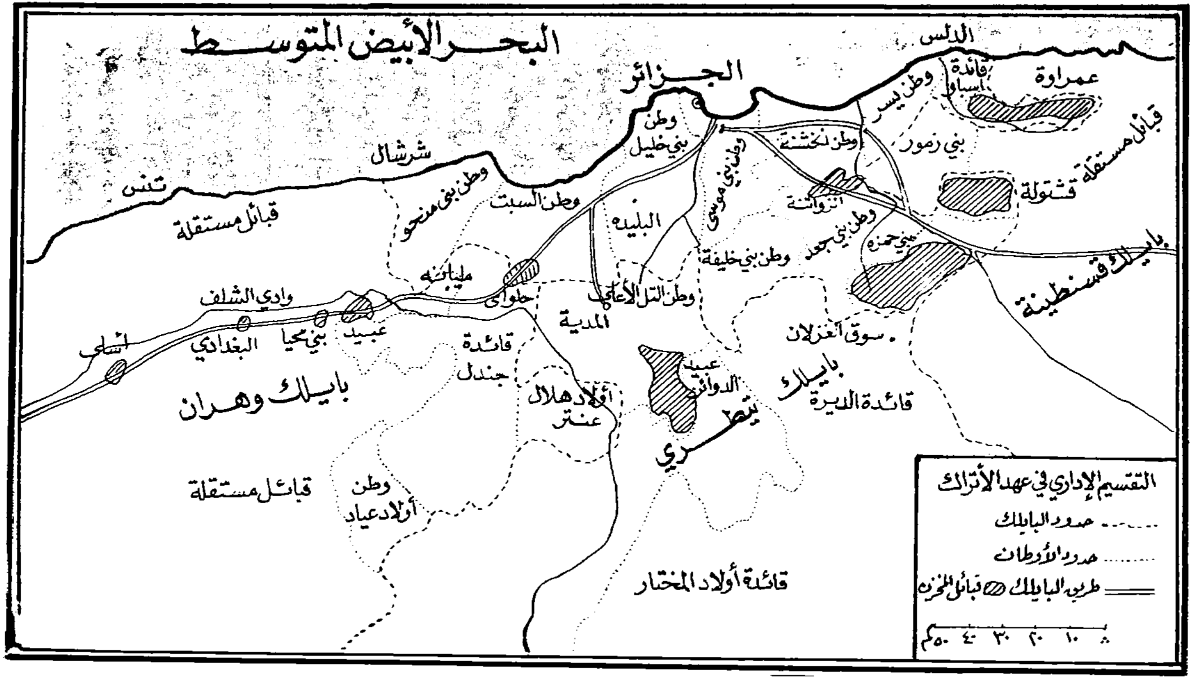
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
الدلس
عمراوة
قائدة إسباو
وطن يسر
بني زمور
قبائل مستقلة
قشتولة
وطن لخشنة
وطن بني خليل
وطن بني موسى
الزواتنة
وطن بني جعد
بني جمزه
بايلك قسنطينة
شرشال
تنس
قبائل مستقلة
وطن بني منحو
وطن السبت
البليده
وطن بني خليفة
مليانة
حلواي
وطن التل الأعلى
المدية
سوق الغزلان
وادي الشلف
عبيد
بني محيا
البغدادي
أسلي
قائدة جندل
أولاد هلال عنتر
عبيد الدوائر
بايلك تيطري
قائدة الديرة
بايلك وهران
قبائل مستقلة
وطن أولاد عياد
قائدة أولاد المختار
التقسيم الإداري في عهد الأتراك
حدود البايلك
حدود الأوطان
طريق البايلك
قبائل المخزن
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ كم

الاطلاع على (عالم جديد) لا سيما عندما توجه من الاسكندرية الى القاهرة، حيث رأى عبد القادر للمرة الاولى والاخيرة محمد على باشا حاكم مصر الذي طبقت شهرته الأفاق، وأخذ يتأمل طويلاً في هذا الجندي الناجح الذي عرف بكفاءته الادارية التي كانت تنافس كفاءته العسكرية. واكمل محيي الدين مع ابنه رحلة الحج، فكانت متعة روحية لا توصف وبعد اداء مناسك الحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، انفصلا عن الحجيج ويمما شطر دمشق، ليقضيا معظم وقتهما في التردد على الجامع الاموي الكبير، وليفيدا من هذه المناسبة لقراءة الحديث وتدارسه مع الشيخ عبد الرحمن الكزبري. وكان لا بد لهما وهما في دمشق من اكمال الرحلة بزيارة قبر الصالح (عبد القادر الجيلاني - حارس الجزائر) فتوجها الى بغداد عن طريق تدمر ووصلاها بعد ثلاثين يوماً. ولما كانا من عائلة شهيرة بالهدايا الثمينة التي تقدم بها كثير من اعضائها الى قبر الصالح الجيلاني، فانهما لقيا استقبالاً حاراً كريماً من قاضي المدينة (السيد محمد الزكريا) الذي كان ينحدر بدوره ايضاً من الولي الصالح الجيلاني، وقدم (محيي الدين) كيساً من الذهب، على ما جرت به عادة المرابطين تجاه احياء ذكرى هذا الرجل الصالح الذي لا يشك احد من المرابطين بكراماته[1]. وبعد اقامة في بغداد لمدة ثلاثة اشهر، ارتحل محيي الدين وابنه عبد القادر في طريق

---

(١) اشتهر الصالح (عبد القادر الجيلاني) بجهاده في القرن الثاني عشر، وكان له مقامات اثرية - تذكارية - في معظم بلاد المشرق، وقد نسجت حكايات كثيرة عن كراماته. ويذكر ان (مصطفى بن المختار) جد عبد القادر، قد زار اكثر من مرة ضريح (عبد القادر الجيلاني) واجازه الشيخ مرتضى الزبيدي، وهو الذي انشأ قرية (قيطنه - أوغتنا) ونشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، ومات اثناء عودته من الحج، ودفن في (عين غزالة) قرب (برقة) بليبيا سنة ١٢١٢ هـ وأثناء عودة محي الدين وولده من الحج بالبر توقفا لزيارة قبره.

العودة، وقد نفذت مواردهما، فكان لا بد لهما من اكمال الرحلة على نفقة اخوانهم المسلمين، الحجاج مثلهما والذين كانوا عائدين من اداء الفريضة، وانتهت الرحلة بالوصول الى (قيطنة) بعد غياب استمر اكثر من سنتين وكان ذلك في بداية سنة ١٨٢٨ م. وعرفت (قيطنة) احتفالات وولائم لم تشهدها من قبل فقد توافد كل عرب وهران ووفود تمثل القبائل الصحراوية بزيارة (سيد بني هاشم) وتهنئته بالحج والعودة بالسلامة. ولم يعد الهدوء الى (قطنة وادي الحمام) الا بعد فترة طويلة.

كان لهذه الرحلة الروحية اثرها العميق في اعماق نفس (الشاب عبد القادر) الذي أخذ في الاعتزال عن الناس، والانصراف الى العبادة، وقضاء الوقت في الرياضات العقلية التي تضمها مؤلفات القدماء امثال افلاطون وفيثاغورس وارسطو، علاوة على مؤلفات كبار المشاهير من اعلام المسلمين والتي شملت علوم التاريخ الاسلامي والفلسفة واللغة والفلك والجغرافيا والطب فتكونت لديه خلال هذه الفترة مكتبة ضخمة كانت هي ثروته الدنيوية، وقد استمرت هذه الهواية في مرافقته طوال حياته.

اقتحمت جحافل الغزو الافرنسي الاستعماري مدينة (الجزائر المحروسة) يوم ٥ تموز (يوليو) ١٨٣٠ واستقبل المجاهدون هذا الحدث بثبات، دون أن يداخل نفوسهم أي شعور بالخوف أو القلق، فقد ارتفعت رايات الغزاة الاسبانيين من قبل فوق معظم المدن الساحلية، غير أنها لم تلبث أن سقطت ممرغة بالوحل، وتعرضت مدن الجزائر لإغارات بحرية كثيرة، دحرت كلها وتراجعت، وظن رجال القبائل، وابناء المدن الداخلية للوهلة الاولى أن القضية لن تكون أكثر من قضية غزوة عابرة، أو

أنها في أسوأ الاحوال، لن تتجاوز حدود الصراع مع جهاز الحكم (التركي العثماني). غير أن النوايا الافرنسية تكشفت بسرعة، عندما اخذت الادارة الاستعمارية في التطلع الى ما وراء المدن الساحلية، وزاد الأمر سوءاً بما أقدمت عليه جحافل الغزو من (أعمال إبادة وحشية). وبدأت الغشاوة في السقوط عن أبصار اولئك الذين تعاونوا في بداية الأمر مع السلطات الاستعمارية أو حتى هادنوها. ولم تلبث قوات المرابطين وقياداتها أن رفعت (راية الجهاد في سبيل الله) وكان ذلك بداية تطوير الصراع المسلح.

رافق الغزو الافرنسي انتشار موجة من الفوضى والاضطراب وانقطاع حبل الأمن، وتشردت جموع المسلمين الذين كانوا يسكنون المدن الساحلية وهربوا بدينهم وعائلاتهم نحو الداخل وقد سيطر عليهم الذعر واليأس. وزاد من بؤسهم تعرضهم لقطاع الطرق الذين اخذوا في نهب هؤلاء المشردين والتعرض لهم دونما شفقه أو رحمة. ولم يكن باستطاعة شيخ المرابطين (محيي الدين) البقاء في عزلته وتجاهل المأساة التي نزلت بالمسلمين. فأرسل اولاده مع حامية قوية للتجول في السهل وحماية المشردين المنكوبين، وتقديم الدعم لهم، وحملهم الى أماكن مأمونة لا تصل اليها عصابات اللصوص وقطاع الطرق. غير أن عملية الانقاذ هذه كانت دون المستوى المطلوب في تلك الفترة الحرجة لا سيما وقد ظهرت الثارات المدفونة بين رجال القبائل، في المدن والقرى، فبات من الضروري اخضاع البلاد لسلطة قوية تحركها يد واحدة. وعقد المرابطون مشاورات طويلة لدراسة الموقف، فاتفقت كلمتهم على اللجوء الى (محيي الدين) واستشارته في أنجح وسيلة لعلاج الأزمة. وعندما اجتمع المرابطون، خاطبهم محيي الدين ناصحاً بالعبارات التالية: «منذ عدة شهور وأنا أحاول كما تعلمون جيداً،

المحافظة على درجة من النظام وسط الفوضى العامة التي تسود الآن. ولكن اقصى الجهود التي بذلتها لم تفلح في انقاذ اكثر من عدد قليل من الضعفاء والمشردين وحمايتهم من ايدي أناس قساة غلاظ. إن طغيان الاتراك قد كبح طاقاتنا وأوهنها، ولكن اذا استمرت الامور على ما هي عليه الآن، فانها ستحطم كل طاقاتنا تحطيمًا. فأواصر المجتمع تنحل، ورفع كل فرد يده في وجه جاره. وأرضى شعبنا العنان لغرائزه الرذيلة بعد ان أصبح يستهتر يومياً بقوانين الله والانسان. وفي نفس الوقت، فان النكبات التي تهددنا من الخارج لا تقل خطراً عن ذلك الذي ينهشنا من الداخل. فهل سنستنجد بالافرنسيين؟ ان ذلك غير ممكن. وان الاستسلام اليهم يعتبر خيانة لواجبنا نحو إلهنا ووطننا وعقيدتنا فما بالكم بالاستنجاد بهم؟. ولكن الافرنسيين أمة محاربة، قوية العدد، واضحة الغنى، تشتعل حباً في الاحتلال، وماذا لدينا نحن من قوة نصدهم بها؟ ان القبائل على خلاف مع بعضها. وزعماء البلاد شرهون يتآمرون ضد بعضهم، ولا يصارعون الا من اجل الثروة الشخصية. اما الدهماء التي رمت عنها كل قناع فبعضها قد أغنى نفسه بالنهب، وبعضها الآخر لا يكاد يجد قوت يومه. فالطرفان غير متعادلين. وأمام هذه الحالة، فحتى تصور نجاح المعركة مع الكفار يعتبر حماقة. أما محاولة المعركة نفسها فهو جنون.

لا، ان الملك الافرنسي قوياً، ولا يمكن أن يواجهه بفاعلية الا ملك مثله، على رأس دولة محكمة النظام، يملك خزانة ضخمة، ويقود جيشاً تام الانضباط. وليس هناك حاجة الى أن نذهب بعيداً للبحث عن هذا الملك. ان سلطان المغرب قد عبر عن عاطفته نحونا، ويجب أن يعرف أن الخطر الخارجي الذي يهددنا نحن اليوم قد يهدده هو غداً. ان حضوره بيننا سيشجع ويدعم حالاً الخير، ويصرف

الشر. وبفضل ذلك، سيقوى النظام. واذا حاربنا تحت لوائه، فسنتقدم نحو انتصار مؤكد».

وتوجهت بعثة جزائرية نحو (فاس) وهي تضم عشرة افراد من كبار شيوخ المرابطين واكثرهم نفوذاً وتأثيراً. ومضت ستة أشهر قبل أن يعلن سلطان فاس عن موافقته على ما طلبه اليه شيوخ المرابطين. ووجه جيشاً بقيادة ابنه (علي) ومعه (٥) آلاف فارس ومدفعيّ ميدان وعسكر هذا الجيش في تلمسان (الواقعة في اقليم وهران). وأسرعت القبائل فاعلنت ولاءها لسلطان المغرب. وأخذت المقاومة في التعاظم، وادركت الحكومة الافرنسية ما يتهدد مشاريعها من خطر، فوجهت تهديدها الى سلطان المغرب الذي اظهر خضوعه للتهديد فأمر (ابنه علي) بالانسحاب الى ما وراء الحدود المغربية. واجتمع شيوخ المرابطين، وقرروا اسناد منصب السلطان على (محيي الدين) وتوجهوا في جماعة منهم الى (قيطنة). غير ان (محيي الدين) رفض العرض بتواضع، وأوصى بتوجيه نداء جديد الى المغرب. وفشلت هذه المحاولة باقناع (سلطان المغرب) بتحمل مسؤوليته التاريخية. واتجهت الانظار مرة اخرى نحو (محيي الدين) الذي لم يتمكن من رفض طلبات شيوخ العرب فقال لهم: «انني لا أصلح أن أقوم بواجبات سلطان العرب. ولكنني سأقوم بما يحتمه علي الدين. وسأذهب معكم الى الجهاد». وكان العرب قد بذلوا محاولات متعددة لاستعادة وهران التي احتلتها قوات الافرنسيين. فقام محيي الدين بدخول المعركة تحت قيادة ابنه عبد القادر.

كانت قد مضت فترة على العرب وهم يحاصرون (وهران) ويركزون جهدهم بصورة خاصة على (قلعة فيليب) الواقعة الى جنوب المدينة، غير ان هذه الاغارات لم تؤد الى نتيجة تذكر، فقرر (عبد

القادر) تنفيذ عملية ضد هذه القلعة ووضع الخطة وأشرف على تنفيذها، فقاد قواته من المشاة والفرسان حتى وصل بها الى اسفل القلعة ذاتها، وزج بجنود المشاة في الخنادق وكلفهم بمناوشة الحامية الافرنسية المدافعة عن القلعة. ثم قاد قوة الفرسان ووضعها في موقع مناسب يتحكم بالطريق المؤدي الى القلعة، وذلك لعزلها، ومنع أي تسلل قد يقوم به العدو. وكانت الكثافة النارية لاسلحة الافرنسيين وقذائفهم كبيرة الى درجة كافية لتمزيق افضل الجيوش انضباطاً وتدريباً. غير أن عبد القادر استطاع اثارة حماسة المجاهدين وهو يتجول بينهم، ويوجههم، وامكن له بذلك التغلب على الصدمة النارية. واثناء ذلك، نفدت ذخيرة المجاهدين في الخنادق - المشاة - واحجم كل فرد عن التحرك لجلب الذخيرة. وشاهد ذلك (عبد القادر) فصاح بهم: (ايها الجبناء! اعطوني الخرطوش) ووضع الظروف في جناحي برنسه، وركب فرسه وعبر السهل كالسهم حتى وصل القلعة، فرمى بالخرطوش في الخندق. وحث رجاله على الثبات والاستمرار في الرمي. وعاد بدون ان يمسه اي اذى. واحاطت (بعبد القادر) مناسبات كثيرة مليئة بالخطورة والمبادرة. استعمل فيها سيفه البكر للدفاع عن نفسه. وأدت شجاعته وفروسيته لا الى الثناء عليه فقط، بل الى الاعجاب المنقطع النظير به. واخذ العرب ينظرون اليه باكبار، ويحيطونه بهالة من التكريم، بعد أن أخذت شخصيته الوسيمة تندمج بشخصيته الشجاعة عندما كان يتقدم الصفوف دونما خوف من اذى، ليقتحم مواطن الخطر، فهو مرة يمر كالسهم من صفوف الرماة الاعداء. ومرة يطلق النار ويكتسح حربات البنادق بسيفه، واخرى يقف بثبات عجيب والقنابل تتفجر من حوله وتحت قدميه. وافادت العرب من هذه التجربة القتالية قدر افادتها من تجاربها السابقة،

عرفت ان هذا الهجوم المفكك ليس حرباً. وان كل جهودهم وتضحياتهم لن تكون مثمرة الا اذا وجهتها ارادة واحدة تحت قيادة قائد مسؤول. وعقد مؤتمر كبير في مدينة (معسكر). ودعي (محيي الدين) الذي كان قد توجه الى (قيطنة) لقضاء فترة قصيرة من الراحة، لحضور هذا الاجتماع. فلبى الدعوة وما كاد يصل ويترجل حتى تجمهر من حوله شيوخ المجاهدين وارتفعت الاصوات من كل مكان: «الى متى يا محيي الدين ونحن بلا قائد؟ الى متى وانت واقف متفرج على حيرتنا؟ انت يا من يكفي اسمه فقط ان يجمع كل القلوب لتشجيع القانط وردع الخبيث، وتدعيم وتماسك القضية المشتركة؟ لقد سقط أفضل فرساننا غمّاً وفرقاً؟ واستل شيوخ المرابطين سيوفهم ونادوه (اختر بين ان تكون سلطاننا أو ان تموت الان..)

كان الموقف مثيراً، غير ان شيخ المرابطين جابهه بثبات، فوقف يخاطب زعماء المرابطين بقوله: «تعرفون جميعكم انني رجل عبادة وتقوى. ويتطلب الحكم استخدام القوة والعنف وحتى سفك الدماء. ولكن ما دمتم تصرون على أن أكون سلطانكم فاني أقبل، ولكن أتنازل عن ذلك لصالح ابني عبد القادر». واستقبل الحضور هذا الحل المباغت بالموافقة. فقد كان عبد القادر معروفاً لديهم. وتوجه فارس الى (قيطنة) لاحضاره. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، الموافق ٢١ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٣٢ م. دخل عبد القادر مدينة (معسكر). وقد غصت كل الشوارع والطرق المؤدية الى المدينة بجموع المسلمين. وكان الرجال والنساء والاطفال يتبادلون التهاني في مظاهرة ترحيب بهجة بسلطانهم الجديد. وبعد ادخاله الى (الرحبة) حيث كان المجلس منعقداً، اعلم عبد القادر بكل ما حدث. وفي هدوء، ودونما زهو، اجاب عبد القادر: «ان من واجبي

اطاعة أوامر والدي - أنا لها، أنا لها» وانفجرت حماسة الناس وصاحوا بصوت واحد: «الحياة والنصر لسلطاننا عبد القادر». وجلس السلطان الشاب للناس يتقبل بيعتهم، وكان أبوه اول من بايعه ولقبه (بناصر الدين). وعندما أزفت صلاة الظهر قام بالناس إماماً، ثم خطب فيهم، وشرح لهم الاخطار المحيطة بهم، وما كاد ينهي حديثه حتى ارتفعت صيحات (الجهاد - الجهاد) (لبيك عبد القادر، فكلنا رهن اشارتك).

ذهب عبد القادر في اليوم التالي (٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر) الى وادي خصيبية الذي يبعد مسافة عشر دقائق عن (معسكر). حيث كان في انتظاره عشرة آلاف فارس عربي لاستقباله والترحيب به. وكانوا قد اصطفوا على شكل هلال، بحسب قبائلهم، حول خيمة ضخمة اقيمت وسط السهل. وكان جميع اهالي معسكر قد تجمعوا ايضاً في المنطقة. وفي اللحظة التي بدأت فيها اشعة الشمس المائلة تنبسط على جبل (مسمط)، ظهر موكب عبد القادر. تتقدمه كوكبة من الفرسان حاملي (راية الجهاد) ثم تبع ذلك رؤساء بني عامر وبني مجاهر وبني يعقوب وبني عباس على صهوات خيولهم المندفعة، وهم يحملون سيوفهم اللامعة. ثم ظهر عبد القادر وهو يغطي كتفيه ببرنسه الاحمر، وممتطياً جواده الاسود، وكان رؤساء بني هاشم (قبيلته) يسيرون في مؤخرة الموكب العظيم. وعندما وصل عبد القادر الى (الخيمة) ترجل، واختفى عن الانظار دقائق قليلة، ثـم خرج وابوه محيي الدين يمسك بيده ليقدمه الى الشعب: «انظروا - هذا هو السلطان الذي اعلنته النبوءة! هذا هو ابن الزهراء! اطيعوه كما لو كنتم تطيعونني! فليحفظ الله السلطان» وردد الناس: حياتنا واملاكنا وكل ما عندنا له، لن نطيع قانوناً غير قانون سلطاننا عبد القادر واجاب عبد القادر: وانا

بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده. فلو ان أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات. وانطلق (عبد القادر) ليستعرض القوات، وليقف بين فترة واخرى ليردد على مسامع الجميع اهداف العهد الجديد: **(الجهاد الجهاد! لا حرية ولا استقلال الا بالجهاد! الجنة تحت ظلال السيوف! هلموا جميعاً الى راية الجهاد).**

عاد (عبد القادر) الى (معسكر) بعد نهار شاق كان اشبه (بعرس المجد) وما كاد يستريح قليلاً حتى استدعى (كتابه) واملى عليهم اول بيان له، هو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. الى القبائل، وخصوصاً نبلائها وشيوخها واعيانها وعلمائها. هداكم الله وارشدكم ووجهكم الى سواء السبيل، وجعل النجاح حليف اعمالكم ومسعاكم. وبعد: ان اهالي معسكر، واهالي شرق غريس وغربها، وجيرانهم وحلفاءهم بني شقران والبرجيين وبني عباس واليعقوبيين وبني عامر وبني مجاهر وغيرهم قد وافقوا بالاجماع على تعييني، وبناء عليه انتخبوني لادارة حكومة بلادنا. وقد تعهدوا ان يطيعوني في السراء والضراء، وفي الرخاء والشدة، وان يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة. ومن أجل ذلك، اذن، تولينا هذه المسؤولية الصعبة ـ على كره شديد ـ آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين، ومنع الفرقة بينهم، وتوفير الامن العام الى كل اهالي البلاد، ووقف كل الاعمال غير الشرعية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين. وصد العدو الذي اعتدى على بلادنا حتى يتم طرده، وحتى لا يتمكن من ان يغل

أعناقنا بقيوده. ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل اولئك الذين منحونا السلطات المطلقة، ان عليهم دائمًا واجب الطاعة. في كل أعمالهم، التزاماً بنصوص كتاب الله وتعاليمه، والى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم، والاخذ بسنة النبي ﷺ في المساواة بين القوي والضعيف، الفقير والغني دونما محاباة، وقد قبلوا بهذا الشرط.

لذلك! ندعوكم الى المشاركة في هذا العهد والعقد، بيننا وبينكم، سارعوا لاعلان الولاء والطاعة. وجزاؤكم على الله في الدنيا والآخرة. ان هدفي الاساسي هو الاصلاح. وعمل الخير ما دمت حياً. ان ثقتي في الله، ومنه وحده أرجو التوفيق والنجاح».

بأمر من المدافع عن الدين، صاحب السيادة علينا، أمير المؤمنين عبد القادر محيي الدين ـ نصره الله ـ آمين.

حرر في مدينة معسكر ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٢ م

لقد تحققت النبوءة، وأصبح الحاج عبد القادر سلطاناً بايعته الجزائر بسيوفها وقلوبها. واغمض (عبد القادر) عينيه وتذكر زيارته لضريح (عبد القادر الجيلاني) في بغداد. ففي تلك الفترة، حلم (محيي الدين) بان «ملاكاً وضع مفتاحاً في يده، واخبره ان يسرع بالعودة الى وهران. وعندما سأله عما يفعله بهذا المفتاح اجابه الملاك: ان الله سيوجهك» وفسر محيي الدين هذا الحلم بانه كرامة من كرامات الصالح (عبد القادر الجيلاني) اختصه بها لتولي وهران وتكررت مثل هذه الشواهد الغامضة التي تشير الى ان (عبد القادر بن محيي الدين) سيصبح ذا شأن في قومه. ولم تمض فترة حتى سرت نبوءة غربي البلاد بأن شاباً عربياً سيصبح سلطاناً ويقيم العدالة بين الناس.

وعرف عبد القادر أن ما وصل اليه اليوم ان هو الا نتيجة ما توافر له من الاصالة التي لم ينكرها او يتنكر لها، فحددها بقوله:

«انني عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار ابن عبد القادر بن احمد بن محمد بن عبد القوي بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت محمد رسول الله وزوجة علي بن أبي طالب عم الرسول. كان اجدادنا يقطنون المدينة المنورة، وأول من هاجر اليها هو ادريس الاكبر الذي أصبح فيما بعد سلطاناً على المغرب، وهو الذي بنى (فاس). وبعد ان كثر نسله، توزعت ذريته، ومنذ عهد جدي فقط، قدمت عائلتنا لتستقر في (اغريس) قريباً من (معسكر) واجدادي مشهورون في الكتب والتاريخ بعلمهم واحترامهم وطاعتهم لله»(١)

ولكن، ومع معرفة (الامير عبد القادر) لهذه الحقيقة التي يحق له أن يفتخر بها ويفاخر، فقد أدرك ان ما وصل اليه، يتطلب منه العمل والجهد، حتى يكون جديراً بشرف الأجداد، وها هو يقول:

«لا تسألوا ابداً ما هو أصل الانسان وفصله، بل اسألوا حياته، وأعماله وشجاعته ومزاياه، وعندئذ تدركون من يكون».

فالعمل هو الذي يشهد على قيمة الرجل، وها هو رجل الموقف ينطلق للعمل.

---

(١) الامير عبد القادر ـ سلسلة الفن والثقافة ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر ١٩٧٤ ص (١٠).

٢ ـ بناء دولة الحرب

تلقى (عبد القادر) البيعة تحت شجرة الدردار (الدردرة) الضخمة، وهي الشجرة التي طالما اعتاد الأعيان على الالتقاء تحت ظلها، للشورى، كلما دهمهم خطب، أو بغتتهم نائبة، فيجمعهم (وادي مروحة ـ من قبيل غريس) ليخرجوا وقد استمدوا من ضعفهم قوة، وتجمعوا من بعد تفرق. غير أن تجمعهم في هذه المرة تمخض عن أمر جلل، لقد أسندوا قيادتهم الى عبد القادر وحددوا له مهمته: «اننا في حاجة لمن يقود سفينتنا ويقف في وجه العدو في الداخل والخارج ليذيقه العا اب، ولهذا فقد اتفق العام والخاص على اسناد الإمارة لعبد القادر بن محيى الدين».

اراد المرابطون والمجاهدون أن يكون (عبد القادر بن محيى الدين) سلطاناً عليهم، وبايعوه على ذلك، وتبعهم رجال القبائل على هذه البيعة، غير أن (عبد القادر) عزف عن (لقب السلطان) حتى يكسب صداقة سلطان مراكش (المغرب) واكتفى بلقب (أمير المؤمنين) وهو لقب ألصق بمفهومه للحكم، وأقرب الى أصالته العربية ـ الاسلامية. ثم مضى الى بناء (الدولة الحديثة) التي يمكن لها مشاركته

في حمل اعباء الحرب، ورفع راية الجهاد في سبيل الله، خلال تلك المرحلة التاريخية.

بدأ (الامير عبد القادر) مرحلة التنظيم بتشكيل جهاز الحكم (الوزارة) والتي تكونت كالتالي:

١ ـ رئيس وزراء ـ ويقوم بهذه المهمة الامير عبد القادر (ناصر الدين)

٢ ـ نائب رئيس
٣ ـ وزير خارجية
٤ ـ وزير خزانة المملكة
٥ ـ وزير الخزينة الخاصة
٦ ـ وزير الأوقاف
٧ ـ وزير الاعشار والزكاة

ثم يأتي بعد الوزراء الكتبة، وهم ثلاثة حسب الحاجة، ثم الحاجب، واتخذت هذه الوزارة من مدينة معسكر مقراً لها. واختار الامير لشغل هذه المناصب افضل الرجال ممن تتوافر لهم الكفاءة العلمية والخبرة الفنية والمهارة السياسية والقدرة القيادية الى جانب الفضائل الخلقية والدينية قبل كل شيء، وبذلك استطاع الوزراء الاضطلاع بمسؤولياتهم على أفضل وجه ممكن، فلم تمض اكثر من فترة قصيرة حتى اشتهرت عن جدارة بانها (من افضل الوزارات التي عرفها القرن التاسع عشر). واختار الامير لحاشيته الخاصة رجالاً عرفوا بأنهم من اخلص قادة البلاد العسكريين، ومن العلماء والقضاة، فكون منهم

(مجلساً للشورى) بلغ عدد افراده أحد عشر عضواً يمثلون المناطق المختلفة، وجعل على رأسهم (قاضي قضاة الجزائر) . وما كاد يفرغ الامير من تنظيم أجهزة الدولة ، حتى أرسل الى عمال الحكومة السابقة (في العهد التركي) والذين لا زالوا في مناطق لم يغتصبها الاستعمار الافرنسي، طالباً اليهم الامتثال الى (الطاعة والجماعة). حاثاً إياهم على إعلان الولاء للحكومة الجديدة ، والرجوع اليها في كل امورهم. فاستجابت له الاغلبية الساحقة ، واعربت عن غبطتها بالخضوع لطاعته. أما الذين أبوا الدخول في طاعة الامير الجديد، مغتنمين الذعر والفوضى التي انتشرت في البلاد على اثر احتلال العدو لبعض مناطقها فقد اختاروا الاستقلال بادراتهم تدفعهم الى ذلك شهوة التحكم والطمع، غير مبالين بما يحدق بالبلاد من خطر مدمّر، وما يترتب على عصيانهم من تشتيت لوحدة الشعب، وتبديد لقوته، في الوقت الذي كان فيه العدو يجند كافة موارده ويحشد جميع قواته لاجتياح الوطن الجزائري. هؤلاء المارقون، سرعان ما أفحمهم الأمير بالمنطق أو أخضعهم بالقوة، مستدركاً الخطر الذي ينتج عن عنادهم. وعين في مناصبهم رجالاً توافرت لهم الكفاءة والقدرة والعدل والإخلاص. وبذلك استقرت الأمور الجديدة، وبدأت تعمل جاهدة على أرساء قواعد الحكم النزيه على أسس متينة قوامها الدين الإسلامي وقواعده وأسسه الفاضلة. وكان أول عمل قامت به الحكومة هو الاعلان عن الغاء المظالم. وإبطال القوانين التي كانت تفرض على المواطنين الجزائريين بين ضرائب ثقيلة ومغارم مرهقة. وأزال ما كان يعرف (بقبائل المخزن) فحقق المساواة بين كل المواطنين أمام القانون. وضبط نظاماً بسيطاً للحكم، وأنقص ما يمكن من الوسطاء، بهدف الوصول إلى أكبر، وتأمين السرعة في التنفيذ، ومنح أعضاء الحكومة سلطات

واسعة، وحرص في الوقت ذاته على مراقبة ممارساتهم. وحدد للموظفين رواتب كافية حتى لا تمتد أيديهم إلى الحرام (الاختلاس والابتزاز). وكانوا مسؤولين أمام الأمير، كما كانت الرقابة الشعبية- بلغة العهود الحديثة- مطبقة بصورة شاملة، حيث كان منها ديةً يرفع صوته بين القبائل وفي الأسواق، داعياً الناس لممارسة هذا الحق بقوله: «من كانت له شكوى على الخليفة أو الآغا أو القائد أو الشيخ، فليرفعها الى الديوان الأميري من غير واسطة، فان الأمير ينصفه من ظالمه ومن ظلم فلم يرفع ظلامته إلى الأمير فلا يلومن إلا نفسه» وقد أكد مفهومه في مشاركة الشعب في الحكم من خلال رسالته التي كتبها إلى ملك فرنسا- لويس فيليب- والتي قال له فيها: «عليك أن تعلم أن أي إجراء لن يكون صالحاً إذا لم يحظ بمصادقة الشعب».

يمتد الوطن الجزائري على مساحة جغرافية واسعة، على ما هو معروف، ولم تكن وسائط الاتصالات متوافرة، بمثل ما اصبحت عليه اليوم، ولهذا عمل الامير عبد القادر على اعادة تقسيم البلاد الى مقاطعات وهذه الى دوائر، ووضع في كل منها آغا، وهذه الدوائر تشمل على القبائل النازلة فيها، وتشمل القبيلة على (بطون وعشائر). فجعل على كل قبيلة قائداً وعلى كل بطن وعشيرة شيخاً. فكانت الأوامر الاميرية تصدر الى العمال المعروفين (بالخلفاء) ومنهم الى الأغوات، ومنهم الى القواد ومنهم الى المشايخ . ويقوم المشايخ برفع القضايا التي تحدث والمشكلات التي تقع الى القواد، وهم يرفعونها الى الآغوات ومنهم ترفع الى الخلفاء، ثم تعرض على الحضرة الاميرية، وفي وقت الحرب يصبح هؤلاء الرؤساء قادة عسكريون، فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويقودها الى الحرب. وكان (الامير عبد القادر) يحرص عند تجميعه للقبائل على ما بينها من روابط، وعلى

ما يربطها ببيئتها المقيمة فوقها من روابط جغرافية وتاريخية. فلم يكن يتردد في تحويل بعض القبائل خوفاً عليها من الضعف تجاه ترغيب العدو وارهابه، وكان وهو يمارس ذلك كله يدرك تماماً أهمية التنظيم. وقد عبر عن ذلك بقوله:

«كانت أوامري تصل الى الخلفاء، ومنهم تنزل في تسلسل مضبوط الى المشايخ، ثم ترفع تقارير المشايخ بنفس التسلسل، الى أن تصل إلي. لقد كان هدفي هو طرد المسيحيين من أرض آبائنا. وكنت دوماً أتحاشى استعمال الجواده (الأجواد) وأستعين بالعلماء وأهل الدين في تسيير الحكم. وقد أثبت طول المعركة بانني كنت على صواب... كما انني ابعدت بطريقة مطلقة ودون أي استثناء الممثلين السابقين للحكومة التركية، لانهم كانوا دنيئين، وكان بودي أن يقارن الناس بسرعة بين الذين يتملكهم العجب، وتغريهم زينة الحياة الدنيا. وبيني أنا الذي لم يكن لي الا هدف واحد وهو انتصار المسلمين. وأدركت بانني لن أوفق الى منع القادة الذين عينتهم من أن يقترفوا اختلاساً أو أستطيع معاقبتهم ـ في حال ما اذا اقترفوا شيئاً من ذلك ـ الا اذا وفرت لهم مرتباً يكفيهم مؤونة العيش. ولذا خصصت للخليفة (١١٠) دورو، شهرياً، وصاعاً من القمح يومياً حتى يتمكنوا من النفقة على ضيوفهم الكثيرين والذين يستقبلونهم بحكم مركزهم ومسؤوليتهم. وخصصت للآغا (عشر) جميع ما يتقاضاه من ضرائب وذلك نقداً أو عيناً. وكان القائد يعامل أقل من الآغا بحكم مستوى دائرته ومسؤوليته بالنسبة للآغا. وهكذا فان كل واحد كان يتقاضى ما يناسب مهمته. ولحماية الرعية مما قد يلحقهم من مظالم من طرف رؤسائهم. فقد اقسم (حلف) الخلفاء والآغوات على صحيح البخاري بأن لا يعدلوا عن الحق، وأن يكونوا صادقين في خدمة

مواطنيهم. وكنت اسهر بنفسي على جميع اعمالهم»[1]

ولم تمض اكثر من سنوات قليلة (في سنة ١٨٣٧) حتى أصبحت الجزائر عبارة عن دولة اتحادية (فيدرالية) تضم ثماني مقاطعات، على رأس كل مقاطعة خليفة مهمته الرئيسية العمل على احترام الاجهزة الاجتماعية التقليدية، وتحقيق الوحدة الضرورية لمواصلة الحرب. فكان على رأس (تلمسان) السيد (محمد البوحميدي الولهاصي) وبها (١٣) ألف مقاتل. وعلى رأس (معسكر) صهر الامير السيد الحاج (مصطفى بن أحمد التهامى) وبها (١٥) الف مقاتل. ولما امتدت طاعته إلى ما وراء (وادي شلف) جعل (مليانة) مقاطعة ثالثة، وولى عليها السيد (محيى الدين بن علال القليعي) ولما مات ولي عليها السيد (محمد بن علال) من اقاربه، وكان معه (٤٤٠ , ١٠) مقاتل. ولكل من هذه المقاطعات الثلاث مرسى تخصها فلتلمسان مرفأ (رشقون-أو رشكون) ومرفأ معسكر هو (آرزو). اما (شرشال) فقد بقي مرفأ لمقاطعة (مليانة) كما ولى أحد القادة العسكرين البارزين (وهو السيد محمد البركاني) على المدية، والسيد (ابن الطيب بن سالم) حاكمًا على (برج حمزة) ومعه (٤٣٥٠) جندي، وبإمكانه- بالاضافة الى ذلك ن يعتمد على المتطوعين من بلاد القبائل. وولى السيد (طبال بن عبد السلام) خليفة على مجانة). أما الجنوب الصحراوي فكانت به مقاطعتان، إحداهما مقاطعة (الزيبان) وعلى رأسها السيد (بن عزوز) ومقاطعة الصحراء الغربية، وولى عليها السيد (قدور بن عبد الباقي) الذي كان تحت قيادته ما يزيد عن (٨) آلاف مجاهد. وفي المجموع كانت هناك (٨) مقاطعات تضم ما يزيد على (٥٩) الف مقاتل، منهم قرابة (٦) آلاف جندي منظم. وهذا

---

(١) الامير عبد القادر- سلسلة الفن والثقافة- الجزائر- ١٩٧٤ ص ٥٣- ٥٦.

ما يوضح لنا الدور العسكري الذي اضطلعت به الحكومة المنظمة لمقاومة الغزاة.

آ- تنظيم الجيش:

أخذ الامير عبد القادر - منذ لحظة مبايعته بالامارة - ببذل جهود جبارة لاعادة تنظيم الجيش- ووضعه في مصاف الجيوش المعاصرة له في الدول العظمى. فقسمه الى ثلاث فرق - أو اسلحة - وهي (المشاة والخيالة والمدفعية) ووحد زيه - لباسه - وأصدر القوانين العسكرية التي يجب على الجندي التمسك بها، مع تحديد العقوبات الصارمة والرادعة على المخالفات والاخطاء المرتكبة. ووضع سلم التسلسل العسكري كالتالي:

جاويش (رقيب) لقيادة ١٢ جندياً.
رئيس الصف لقيادة ٢٠ جندياً.
السياف لقيادة ١٠٠ جندي.
الآغا لقيادة ١٠٠٠ جندي.

ويعاون الآغا والسياف في عمله (كاتب) مهمته تنظيم المحاسبة والرسائل والتقارير، ويشرف هذا الكاتب على أعمال توزيع الطعام والرواتب الشهرية على الجند. ولكي يتميز الرئيس عن المرؤوس، منح الضباط بحسب رتبهم علامات فارقة من الذهب والفضة والجوخ الأحمر. ونقش على هذه العلامات آيات وعبارات تحمل جميعها طابع النظام والطاعة والجهاد. وتقرر منح الاوسمة لمستحقيها من شجعان الجنود: «فالجندي الذي ينقض على صفوف العدو فيغلب خصمه» ويجرده من سلاحه، أو يدعو الجنود للصمود عندما يكونون «إلى

وشك المزيمة، ويمنع بمثاله وحضور عقله وقوع الفشل أو الهزيمة، سيعلق له السلطان شخصياً الوسام أمام الجيش كله، وتعلن بطولته بدق الطبول» ويختلف هذا الوسام في مظهره بحسب جدارة مستحقه، فهو يتكون من يد فضية، أو فضية مموهة بالذهب ممتدة الأصابع. وعدد الاصابع الممتدة يشير الى عدد مواقف البطولة التي وقفها الجندي. وكل اصبع ممتد يجعل البطل مستحقاً لراتب اضافي يبلغ شلناً واحداً شهرياً. وفي وسط الوسام كتبت عبارة(ناصر الدين). وكان الوسام يلصق لا على الصدر ولكن على أحد جانبي رأس البرنس. وكان الوسام يمنح ايضاً للمدنيين الذين قاموا بخدمات ادارية عظيمة. كانت بدلة الجندي تتكون من سروال أزرق داكن مع حمرة ومن معطف بني له غطاء للرأس وطاقية وشاش صغيرين. وكان راتبه يبلغ تسعة فرنكات شهرياً. وعلى الكم الايمن لكل قائد خيطت العبارة التالية: «**الصبر والمثابرة مفتاحا النصر**» وعلى الكم الايسر: «**لا اله الا الله محمد رسول الله**». وعلى الكتف الايمن للآغا - وبدلاً عن الشارة العسكرية لدى الاوروبيين - كتبت العبارة التالية: «**لا شيء يفيد كالورع والشجاعة**» وعلى الكتف الأيسر: «**لا شيء يضر كالجدل والعصيان**». وكان جميع ضباط الجيش يحملون عبارات مكتوبة على بدلاتهم مشابهة لهذه في مضمونها. فالصبائحية - او الفرسان النظاميون - يلبسون بدلات بنية فقط، وكان قادتهم يحملون عبادة : «**ثق في الله ورسوله - جاهد وانتصر**». وكان المدفعيون يحملون عبارة: «**وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى**».

... لم يتجاوز عدد افراد الجيش الاسلامي في عهد الامير عبد القادر (١٦) الف مقاتل، في صفوف الاسلحة الثلاثة، وكانت اعباء الجهاد

اكبر من حجم هذا الجيش النظامي. ولهذا فقد اعتمد الامير عبد القادر على (مجاهدي القبائل) الذين بلغ عددهم في بعض الاحيان (١٥٠) ألف مجاهد.

وقسمت الوحدات الاساسية في الجيش النظامي إلى (كتائب) تضم الكتيبة منها (مائة جندي) أما الوحدة الاساسية في الفرسان فكانت السرية، وهي تضم (٥٠) رجلاً. وبقي المدفع هو وحدة الرمي، ويبلغ عدد سدنة المدفع (١٢) جندياً.

عندما بدأ (الامير عبد القادر) في تكوين جيشه النظامي، وضع مجموعة من الاوامر التنظيمية العسكرية، تتضمن ادق التفاصيل المتعلقة بالانضباط والرواتب وملابس الجند. وكانت هذه الاوامر التنظيمية تقرأ مرتين في الشهر على مختلف الوحدات، وكانت تتخللها الوصايا والوعود للسلوك الطيب. ويكفي هنا التعرض لتوجيه يعتبر نموذجاً لتلك الوصايا وفيه ما يلي: «**من الضروري أن يكون القائد شخصياً شجاعاً ومقداماً، وأن يكون من أسرة محترمة، ليس محلاً للانتقاد الأخلاقي، محافظاً على دينه، صبوراً، حليمًا، حذراً، حاضر البديهة، ذكياً في لحظة العسر والخطر، ذلك ان القائد بالنسبة لجنوده هو بمنزلة القلب من الجسد، فاذا كان القلب عليلاً فلا فائدة من الجسد**».

لقد تحدث (الامير عبد القادر) عن الصعوبات التي جابهته منذ البداية، وعن الطرائق التي اتبعها للتغلب على تلك الصعوبات بما يلي: «ان تجنيد جيش نظامي من شعب لم يعرف التجنيد الاجباري حتى ايام الحكم التركي، هو تجربة خطيرة تحتاج الى حنكة وحذر كبير، لا سيما مع ما عرف عن هذا الشعب من الاستعداد للثورة بمجرد طرح فكرة التجنيد الاجباري ولهذا كان من المحال الاعلان عن خطة

من هذا النوع صراحة، فتم توجيه الدعوة الودية بشكل اقتراح وتلميح، ووزعت على كل المدن والدوائر، وهي:

«على كل من يرغب في ان يلبس لباساً أنيقاً وأن يصبح ابناً للسلطان، عليه أن يأتي ويلتزم بذلك، فانه يحصل على راتب محترم، وسيعفى من كل شيء» وقد استجاب بعض الشبان لما تضمنه النداء. وقدموا أنفسهم للتجنيد. وبذلك أمكن البدء بتشكيل الجيش النظامي بدون أن يشعر أحد بذلك تقريباً. وقد وصف الامير عبد القادر تنظيمه العسكري بالتالي: «أصبح لدي جيشاً نظامياً مكوناً من (٨) آلاف جندي وألفي فارس- أو صبائحي- و(٢٤٠) مدفعاً. وكان عندي (٢٠) مدفع ميدان بالاضافة الى مخزون كبير من المدافع الحديدية والنحاسية مما خلفه الاتراك، والتي كان عدد كبير منها غير صالح للاستعمال عملياً. والى جانب ذلك، كانت هناك القوات التي ترسلها الي القبائل الخاضعة لي وقوات خلفائي، والتي كانت تشكل قوة احتياطية ضخمة، رغم انها مؤقتة، ما دمت لا أستطيع ان احتفظ بالجنود لمدة طويلة بعيداً عن قبائلهم ـ ومن هنا كان لا بد من زيادة الاعتماد على الجيش النظامي ـ فكان باستطاعتي إمداد كل خليفة من حلفائي بألف جندي و(٢٥٠) فارساً، ومدفعين أو ثلاثة. وكان جنودي المشاة يجندون من المتطوعين فقط، ولكنهم كانوا أكفاء اذا أخذنا في الاعتبار وسائلي المالية والاسلحة التي كانت تحت يدي . . . وكان مدربو جيشي النظامي من المشاة هم جنود (النظام) من تونس وطرابلس، بالاضافة الى الفارين من الجيش الافرنسي. وقد ازداد عدد هؤلاء حتى تم تشكيل كتيبة خاصة منهم، وقد حاربوا ضد مواطنيهم بكل شجاعة وإقدام، ولقد وزعتهم على خلفائي. أما النظاميون من فرساني، فقد

رفضوا الخضوع لتدريب المدربين. انهم كانوا في اسلوبهم الحربي تقودهم شهامة مستقلة تمنعهم من الاعتراف بسيد يخضعون له. وكانوا يعرفون بانهم لا يساوون شيئاً عند قتال الصدمة، غير انهم كانوا يعتقدون ان ما من احد ينافسهم في الاشتباك الفردي وفي الكمين وفي المباغتة وفي المناوشات الخفيفة. ولم يكن الهروب في نظرهم يحط من قدرهم حتى أمام قوة أصغر منهم، لأن هروبهم لم يكن في الغالب سوى خدعة. وكان المبدأ الذي علمتهم اياه هو ان يلحقوا الاضرار بالعدو قدر استطاعتهم بدون أن يتعرضوا هم لأي ضرر».

ب- التسلح والصناعة الحربية :

أمكن للامير عبد القادر تسليح جند جيشه النظامي كلهم بالبواريد الافرنسية او الانكليزية. وحصل على هذه البواريد اما عن طريق الغنائم التي اكتسبها نتيجة معاركه الظافرة، أو من الجنود الافرنسيين الفارين، أو بالشراء من المغرب الاقصى (مراكش). وكان على كل عربي يمتلك بارودة افرنسية ان يبيعها الى الدولة بمبلغ جنيهين انكليزيين، ثم ان هذا العربي يحصل لنفسه على بندقية محلية الصنع، أو بطرقه الخاصة من الاسواق، أو من قبائل الصحراء التي تأتي الى التل، فتغرق البلاد بأسلحة تحملها معها من تونس، ومن تقرت، ومن ميزاب، ومن اولاد سيدي الشيخ. وأدرك الامير عبد القادر ضرورة الاعتماد في تسلحه على القدرة الذاتية للبلاد، فأقام مصانعه التي كان يديرها اوروبيون، والتي اخذت تنتج بكفاءة واتقان ما يحتاجه الجيش من مصانعها في اهم المدن الخاضعة للامير.

ففي (تلمسان) اقيم مصنع لصهر المدافع، كان ينتج يوميا اثنا

عشر، وستة مدكات مدافع ـ تحت اشراف هارب اسباني قدم الى المغرب. وكان أحد الافرنسيين الاختصاصيين في علم المعادن (يدعى السيد دوكاس) قد أنشأ في مدينة مليانة مصنعاً للبنادق وآخر لإنتاج البارود، وكان الحديد يحضر من منجم بالقرب من مليانة. وكانت مناجم ملح البارود والكبريت والحديد والنحاس محل عمل متواصل. وقد تركزت صناعة البارود في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدامت. وبالإضافة الى ذلك، فقد اشترى (الامير عبد القادر) كمية كبرى من البارود ـ من المغرب الاقصى ـ واشترى ايضاً أحجار الصوان نظراً لعدم توافره في المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ وتم استيراد الكبريت من فرنسا، أما ملح البارود فكان متوافراً في كل مكان. وكانت المدن الافرنسية الساحلية تقدم للامير ما يحتاجه من الرصاص ـ خلال فترات السلم ـ بالإضافة الى الكميات الهائلة التي قدمها له المغرب الأقصى. وأمكن بعد ذلك فتح منجم للرصاص في جبل (الونشريس) غير ان تكاليف استخراج الرصاص هنا كانت باهظة جداً، ولهذا السبب، حرص الامير على الاحتفاظ بالذخائر في مخازن الدولة، وعدم التوزيع على الأعراب الا بكميات محدودة نظراً لأنهم كانوا يبذرون في استخدامه خلال احتفالاتهم ومهرجاناتهم. ولم يخرج عن هذه القاعدة الا عندما كان يتطلب الأمر إمداد الجند الذين يحاصرون الافرنسيين، أو في ميادين القتال، حيث كان يتم الإمداد بالذخائر في مواقع القتال ذاتها. وعندما اخذ الامير في بناء قاعدة (تاقدامت) ـ اعتباراً من سنة ١٨٣٦ م ـ عمل على تحويل السراديب الرومانية القديمة الى مخازن للذخيرة والكبريت وملح البارود والنحاس والرصاص والحديد. ولكل الآلات والأدوات التي اشتراها (مولود بن عراش) من فرنسا بمبلغ اربعة آلاف جنيه استرليني. وكان مصنع

البنادق في (تاقدامت) ينتج ثماني بندقيات يومياً. وهو عمل من انتاج صناع افرنسيين جاء بهم من باريس بأجور حرة. وهناك وثيقة عن صناعة الذخائر ـ في المصانع الحربية الجزائرية ـ خلال تلك الفترة، جاء فيها ما يلي:

«يعمل العرب قبل كل شيء على لف المقوى ـ الورق ـ حول قضيب معدني مجوف، ثم يدخلون الرصاصة في الانبوب، حتى اذا ما صنعوا عدداً منها جاؤوا بالبارود المحمول على جلد الخراف حيث يقوم عدد من الجنود بدهن الانابيب (التي تحولت الى خراطيش، أو ظروف) مع املائها بالبارود مستخدمين في ذلك مقياساً صغيرا من القصب، في حين يعمل الآخرون على إحكام اغلاق الخرطوشة ووضعها في علب تتسع الواحدة منها الى خمسة عشر خرطوشة ـ طلقة ـ ثم تغلف هذه بورق يكون عرضه مساوياً تقريباً لطول الطلقات ويحزم الجميع»[1]

ج ـ الحصون والتنظيم الدفاعي:

اقتنع الامير عبد القادر بنتيجة نجاح الافرنسيين في احتلال (معسكر وتلمسان) دونما عناء كبير، بأنه من الضروري إقامة مراكز للاستيطان تكون بعيدة عن قبضة الافرنسيين. وكان لا بد له في الوقت ذاته من اختيار مواقع هذه المراكز الاستيطانية ـ أو المدن ـ بحيث يمكن لها الإشراف على مناطق استيطان العرب لابقائها تحت هيمنته، وإشعار القبائل الصحراوية المضطربة بالسلطة، وحمايتها من هجمات الافرنسيين. وقد اختار خط التل في الجنوب لإقامة هذه

---

(1) LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE. P. 160

المدن، فاقام مدينة الى جنوب كل مدينة كبرى سيطر عليها الافرنسيين. وعلى الرغم مما كان يعانيه (الامير عبد القادر) من ضعف الموارد، فقد انصرف بكليته لإقامة هذه التحصينات والمدن في المواقع الجيو - استراتيجية الحصينة، فكان منها (سيبدو) في الغرب، و(سعيدة) في الجنوب من تلمسان و(تاقدامت) الى الجنوب من معسكر، و(بوغار) الى الجنوب من مليانه، و(بلخورط) الواقعة جنوب - شرق مدينة الجزائر مقابلة المدية، واخيراً (بسكرة) الى الجنوب من قسنطينة. وكان الامير عبد القادر وهو يقيم هذه المدن مقتنعاً بانه عند استئناف الحرب سيكون مضطراً لاخلاء كل المدن الواقعة على الخط الاوسط للاطلس، وبذلك سيكون من المحال على الافرنسيين الوصول الى الصحراء قبل مضي مدة طويلة على الأقل، لا سيما وأن الذيل الاداري الثقيل للقوات الافرنسية سيعيق من تحركها السريع. وقد رغب في تدمير المدية ومليانة ومعسكر وتلمسان، حتى يحرم الافرنسيين من التوغل بسرعة نحو الصحراء غير أن هذا المخطط الذي يعتمد على ما هو معروف باسم (الأرض المحروقة) قد لقي مقاومة بحجة ان الافرنسيين يستطيعون بناء ما تهدم، كما أن عملية إعادة بناء هذه المدن عند الانتصار على الافرنسيين سيكلف مبالغ طائلة (فظيعة). وكان من رأي الامير أن هذه المدن التي يرغب في تدميرها هي (حجر المرتقى) الذي سيصعده الافرنسيون للوصول تدريجياً الى جوف الجزائر. ويعتبر بناء (تاقدامت) في طليعة منجزاته في هذا المجال، وقد كانت (تاقدامت) مدينة رومانية قديمة لم يبق منها الا الأنقاض التي اراد (الامير) الافادة منها لاقامة عاصمة لامارته. وكانت تقع على مسافة ستين ميلاً الى الجنوب الشرقي من وهران، ويبلغ محيطها العشرة اميال،وفيها معبدين كبيرين. وبقيت هذه المدينة خلال

عهد الازدهار الاسلامي مركزاً للحكومة وفيها مدرسة ثانوية تخرج منها عدد من العلماء والشعراء. غير ان الصراع بين حكام القيروان و (فاس) في نهاية القرن العاشر الميلادي تسبب في تدميرها نهائياً، فجاء الامير عبد القادر، وصمم على اعادة مجدها لها، مستفيداً من موقعها الجيو - استراتيجي الحصين، فوضع حجر الاساس لأول حجرة (غرفة) فيها - في شهر ايار (مايو) سنة ١٨٣٦، ووضع بنفسه خطة التحصينات التي يجب ان تحيط بها، ودفع جوائز الى كل القبائل القريبة منها حتى ترسل له العمال للإسهام في بناء الحصون. وأحضر سكان (معسكر) ومعهم معاولهم ومجارفهم وسلالهم للعمل فيها. كما ارسلت (المدية ومليانة) الاجبان والفواكه المتنوعة، وقد كانت هذه المواد التموينية بالإضافة الى الخبز الأبيض الجيد، والى وجبات اللحم والاجور، من العوامل التي اسهمت بانجاز العمل، فسرعان ما شيدت المنازل وظهرت الشوارع، وتقاطر عليها المواطنون من مختلف الاجناس للاستقرار فيها واستيطانها، فكان هناك العرب والاندلسيون والكراغلة (أب تركي وأم عربية جزائرية) الذين قدموا مع عائلاتهم لسكناها بالإضافة الى بقية المواطنين القادمين من (معسكر ومازغران - مازغنان - ومستغانم).

وقد تحدث الامير عن هذا الانجاز بقوله: «كانت - تاقدامت - ستصبح مدينة كبيرة، وهمزة وصل للتجارة بين التل والصحراء. وقد سر العرب بموقعها، وجاؤوا اليها في غبطة لأنها تمنحهم فرصاً كبيرة للربح، وبالاضافة الى ذلك، كانت تاقدامت شوكة في عين القبائل الصحراوية المستقلة، فهم لا يستطيعون الهروب مني. وقد سيطرت عليهم بمجرد التحكم في حاجاتهم المادية. فما دامت الصحراء لا تنتج الحبوب فهم مضطرون أن يأتوا إلي للتموين، لقد بنيت - تاقدامت -

فوق رؤوسهم. وعندما شعروا بذلك سارعوا الى عرض طاعتهم. والواقع أنه منذ هذا الوقت كان باستطاعتي دائمًا أن أفاجئهم بفرساني غير النظاميين (القوميين ـ أو القوم). وإذا لم أتمكن من حمل خيامهم معي فقد كنت على الأقل أسوق مواشيهم. وكانت العقوبات القاسية التي طبقتها على بعض القبائل النائية قد جعلت البقية تدرك بسرعة أنه لا أمل في الهروب مني. وهكذا انتهى الأمر بالجميع الى الخضوع لسلطتي، ودفع العشور والزكاة بانتظام. بل لقد كان من عادتي أن أرسل من يحصي مواشيهم دون أن ينبسوا بكلمة واحدة». وكان الأمير عبد القادر يشرف على كل الاعمال برقابة شخصية مستمرة. وقد وصف السيد (دي فرانس) الذي كان أحد المساجين عندما كانت تلك الأعمال في أوج نشاطها، ما رآه فقال: «بعد زيارة الأنقاض جئنا الى استحكام كان عبد القادر يقيمه على بعد حوالي مائتي خطوة من قلعة ـ تاقدامت ـ وقد اقتربنا من السلطان الذي كان متكئاً، بصحبة كاتبه ـ ابن عبود ومولود بن عراش ـ على مرتفع من تراب القى به العمال حديثاً من خندق كانوا يحفرونه باجتهاد. كان لباسه من البساطة بحيث لا يميزه المرء عن العمال الا بصعوبة. وكان يضع على رأسه مظلة كبيرة مصنوعة من سعف النخيل، وكان محيط حافة المظلة التي كانت مخيطة بخيوط من الصوف ومزينة بالعذبات، يبلغ ثلاثة أقدام. أما المظلة نفسها فقد كان علوها قدماً ونصفاً على الأقل. وكانت تبدو كأنها نفق منته بهامة. وعندما مررت بالسلطان حياني بجلال فريد، وبابتسامة عذبة، وأشار علي بيده للجلوس. وقد بادءته بالحديث قائلاً: اذا حكمنا من الانقاض، فان المدينة لا شك كانت فيما مضى واسعة ومزدهرة. فأجابني: نعم لقد كانت جميلة جداً وعظيمة جداً فسألت: هل تعتقد أنني سأكتشف أي حجر عليه كتابات قديمة؟

فاجابني: «انك سوف لا تجد شيئاً، لأن هذه المدينة لم تكن ذات يوم مسيحية. ولقد كانت احدى اوائل المدن التي بناها العرب. وكان اجدادي السلاطين الذين كان مركزهم - تاقدامت - يحكمون من تونس حتى المغرب الأقصى» ثم سألني السلطان رأيي في بناء التحصينات. فأجبته بأنها تظهر لي جيدة في موقعها وفي هندستها. وكان من الواضح أنه استفاد في بناء تحصيناته من نظرة نقدية الى تحصيناتنا الخشبية. ويبدو أنه قد سر كثيراً من جوابي. ثم استأنف حديثه معي قائلاً بحيوية: . - « **اني ما زلت آمل أن أعيد الى تاقدامت ماضيها المجيد. وانني سوف أجمع القبائل فيها حيث سنكون في مأمن من هجمات الافرنسيين. وعندما تكون كل قواتي قد اجتمعت فانني سوف أنزل من هذه الصخرة الشماء، كما ينزل النسر من عشه، لكي أطهر مدن الجزائر وعنابة ووهران من المسيحيين. ولو أنكم راضون حقيقة بهذه المدن لتركتكم تعانون فيها، لأن البحر ليس من شأني، وليس لي سفن. ولكنكم تريدون أيضاً الاستيلاء على سهولنا ومدننا الداخلية وجبالنا. بل انكم طمعتم حتى في خيلنا وإبلنا وخيامنا ونسائنا. لقد تركتم بلادكم وأتيتم لتأخذوا الأرض التي وضع فيها محمد ﷺ شعبه. ولكن سلطانكم ليس فارساً ولا مرابطاً، وستتعثر خيولكم وتسقط عن جبالنا لأنها ليست ثابتة الأقدام كخيولنا، وسيموت جندكم مرضاً، وحتى اولئك الذين سينجون من المرض سيسقطون برصاصنا**».

اراد الامير عبد القادر جعل (تاقدامت) قاعدة صلبة للدولة المحاربة، لا مجرد قلعة حربية فقط، فوضع في اعتباره ضرورة إقامة مراكز علمية فيها، وإنشاء مدرسة ثانوية، وإقامة مكتبة عامة شرع في

إحضار الكتب اليها من كل أنحاء المشرق العربي - الاسلامي (وقد كلفت المكتبة كثيراً من الوقت والجهد) على حد تعبير الأمير، واقام في (تاقدامت) داراً لسك النقود الفضية والنحاسية (**التي حمل أحد وجهيها عبارة - باسم الله - نعم المولى ونعم النصير - وحمل وجهها الآخر عبارة: ضرب في تاقدامت بأمر السلطان عبد القادر**). كما اقيمت في (تاقدامت) مصانع النسيج التي اخذت في انتاج الأقمشة ذات النوعية الممتازة. علاوة على مصانع الاسلحة والذخائر. ونظمت حماية المدينة، فكان هناك اثني عشر مدفعاً وستة مدافع هاون منتشرة بين التحصينات القوية.

د- التنظيم الاداري والتموين:

كان على (الامير عبد القادر) استثمار كافة الموارد لما يطلق عليه اسم (اقتصاد الحرب). فقد كان عليه، كما قال هو ذاته: «**توفير المصاريف لاداري. كان علي أن أصنع كل شيء من العدم، رغم انني قيدت نفسي بالانفاق على ما هو ضروري فقط. فكان لابد من فرض الضرائب الثقيلة**» ومن اجل ذلك، أمر خلفائه في الاقاليم بمراقبة الموارد مراقبة شخصية، فكانوا يقومون بجولة مرتين في السنة، مرة في الربيع لجمع الزكاة، واخرى أثناء الحصاد لجمع العشور. وكان عليهم خلال جولاتهم مراقبة إدارة الآغوات وتنظيمها، ورفع التقارير الى الأمير عن أي شكوى ضدهم، كما كان عليهم الإشراف على الاعمال الاخرى التي تجري في املاك الدولة. وكان يتبع - الخلفاء - في جولاتهم، عادة، فرقة نظامية وقوة من الفرسان غير النظاميين - الاحتياطيين - المعروفين باسم (الصبائحية). ذلك انه كان من الصعب حمل الأعراب على دفع الضرائب طوعاً، لا سيما عندما كان

يتعرض الامير للهزيمة في مجابهته لقوات الافرنسيين، فكان لسان حالهم كما وصفهم عبد القادر يردد في السر: «ان السلطان مشغول بالمسيحيين، فهو لا يستطيع فرض الضرائب علينا، دعنا لا ندفع اليه، بل دعنا نرى ما سيحدث» وما كان يحدث هو انهم كانوا في النهاية يدفعون كل شيء، مع المتأخرات، ولكنهم لم يتعظوا أبداً فالعرب ـ على حد تعبير الامير « لا ينظرون دائمًا الا الى اللحظة التي هم فيها».

وكان الامير عبد القادر يحاول وهو يطالب القبائل بدفع ما هو ضروري لدعم الدولة، أن يتوافق ذلك في الوقت ذاته مع مصالحهم الخاصة، بحيث يتم الجمع بين المصلحة العامة للدولة والمصالح الخاصة للمواطنين. ومن أجل ذلك طلب الى خلفائه ان يقبلوا، بدل الضرائب والغرامات، المواد الاستهلاكية والبغال والابل، وبالأخص الخيول. وكان يستفيد من ذلك كله، فيقدم الخيول لفرسانه، ويستخدم البغال والإبل في عمليات النقل والإمداد. أما المواد الاستهلاكية فكانت تقدم لتموين الجنود مع حفظ الفائض منها في مستودعات ـ مخازن ـ للطوارىء. ولقد تزايدت مصادر دخل (الامير) عن طريق الغزوات التي كان يقوم بها كلما لجأت القبائل الى السلاح لحل خلافاتها فيما بينها. فجعل من دولته المرجع الوحيد للاحتكام من أجل حل مثل هذه الخلافات، وامكن له توسيع هذه القاعدة وتعميمها بحيث باتت لا تطلق رصاصة واحدة الا باذن الامير وموافقته. وكان يعمل على توزيع الخيول والبغال والابل التي تزيد عن حاجته بين القبائل للعناية بها ورعايتها لقاء اجور كافية. وقد برهنت هذه الطريقة على اهميتها وفاعليتها لمجابهة الظروف الصعبة الناجمة عن الحرب،حيث كانت خسائر الخيول في الفرقـة النظامية كبيرة جداً،

حتى انه ما من فارس لم يقتل تحته سبعة أو ثمانية من الخيول، وفي بعض الاحيان اثني عشر حتى ستة عشر فرساً. ويذكر الامير عبد القادر هذا الموضوع بقوله: «وعلى سبيل المثال: **فهناك ابن يحيى، ذلك الجندي الهمام الذي فضل موتاً محققاً على أن يعيش بعد هزيمتي، خلال معركتي الاخيرة مع المغاربة. (في كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٨٤٧) فقد ثمانية عشر حصاناً قتلت كلها تحته. وقد بلغت المنافسة درجة كبيرة في هذا المجال حتى ان أي فارس يقضي سنة دون ان يكون له حصان جرح أو قتل تحته، كان ينظر اليه باحتقار**». وكان (الامير) لا يكتفي بتوزيع الخيول على الفرق النظامية، بل انه كان يقدم الخيول ايضاً الى الفرسان غير النظاميين (القوميين ـ او القوم) ممن تقتل خيولهم في المعركة حتى بلغ عدد الخيول التي قدمها لهؤلاء اكثر من (٦) آلاف حصان. ولم يكن باستطاعته دائماً تأمين هذه الخيول، فكان يعمل في مثل هذه الحالات على تعويض الفارس الذي يقتل فرسه بجملين أو ثلاثين رأساً من الغنم يقوم الفارس ببيعها وشراء حصان بثمنها لركوبه. وقد تحدث (الامير عبد القادر) عن بعض مصاعبه في مجال التنظيم الاداري والمالي، فقال: «لكي اعطي فكرة عن استهلاك الخيول، أقول انني خلال سنة واحدة، أعطيت (٥٠٠) حصان لغرابة وهران، وحوالي نفس العدد (لحاجوط) في سهول مدينة الجزائر. وفي الوقت ذاته هناك كثيرون لم احاول ابداً تعويضهم، اما لأن أصحابهم اغنياء، واما لانني لم أعد أملك الوسائل لتعويضهم. وكانت الأغنام والأبقار التي تدفع بعنوان الزكاة تعطى للقبائل تحت إشراف القادة. وكان واجب هؤلاء المسؤولين أن يحسبوها، وأن يعينوا لها رعاة لإطعامها والعناية بها. وكانت هذه الحيوانات، التي توجد في مقر حكم كل خليفة، تستخدم لسد تكاليف الضيوف،

ولمعونة الفقراء ومساعدة الطلبة ولتموين جيشي الذي كان يأكل اللحم مرتين في الاسبوع. وبهذه الطريقة استطعت أن أقيم نظاماً كاملاً لادارة الضرائب في كل ولاية (خلافة). ولكن عندما استؤنفت الحرب، لم استطع منع الغش، وقد اغتنم العرب في كل مكان فرصة انشغالي، ولم يستطع سوى خليفتين أن يحافظا على النظام الذي أقمته إلى آخر لحظة، وهما: البوحميدي وابن علال، وقد كان الناس يخشون كلاً منهما لصرامته. ولم تكن الاحتياطات التي ذكرتها تكفي لتموين جيشي في كل المجالات التي دعاه واجب الحرب للعمل فيها. لذلك أمرت تفادياً لوضع عبء جديد على الاهالي وهو اقامة (مطامير) أو مخازن للحبوب تحت الارض في كل ولاية (خلافة) وكانت هذه المخازن توضع تحت حماية قائد كل قبيلة وبحيث لا يمكن للعدو العثور عليها، وكانت هذه المطامير - او المستودعات مخصصة للحبوب التي تدفع كعشور، أو من أراضي الدولة، والتي كانت تحرث وتزرع مقابل أجور يتم دفعها للمزارعين، وأحياناً بالقوة.

وبهذه الطريقة، برهنت للعرب، الذين من طبيعتهم الشك انني لم آخذ شيئاً من الضرائب لمصلحتي الشخصية. لقد جعلتهم يدفعون للصالح العام فأجابوني. والواقع ان هذه المخازن هي التي أخرت سقوطي، فعندما جردت من مخازن تمويني، أصبحت مضطراً لفرض مطالب جديدة على القبائل. ولما شعرت هذه القبائل بالضغط الشديد من الجهتين، العدو والصديق، ارتخى حماسها للجهاد. اما بالنسبة لي، فما حاجتي الى اللجوء للخزينة العامة لدفع مصاريفي الخاصة، فالى اللحظة التي وضع فيها الافرنسيون ايديهم على املاكي القليلة، لم أمس قط أي شيء مما أعطاني العرب للمصاريف العامة. وعندئذ لم آخذ الا ما كان ضرورياً جداً. فملابسي كانت تصنعها نساء بيتي،

ودخلي القليل كان يكفي لحاجات أسرتي. بل حتى الفائض القليل الذي ترك لي كنت أصرفه في مساعدة الفقراء والمسافرين، وبالأخص المحتاجين من أصحابي في السلاح الذين كانوا قد جرحوا أثناء الجهاد. وبذلك كان في استطاعتي باستمرار أن أنادي العرب للتضحيات الكبيرة، لانني أريتهم ان الزكاة والعشور والغرامات والمساعدات، وكل مواردي في الحقيقة، كانت مخصصة لخدمة الصالح العام فقط. وعندما اضطررت لدعوة العرب من أجل تقديم قرض كبير، كانت استجابتهم بطيئة فبعت فوراً كل مجوهرات عائلتي بالمزاد العلني في أسواق معسكر، واعلنت على الملأ أن ثمنها سيرسل الى الخزانة العامة، فجاء القرض حينئذ بسرعة، حتى ظهرت مشكلة من يدفع أولاً».لقد كان على (الأمير عبد القادر) الاهتمام بكل المتطلبات، صغيرها وكبيرها، ومن ذلك انه عين لدى حكومة كل خليفة من خلفائه خياطين وصانعي الدروع والسروج لكي يصنعوا ملابس الجنود ويصلحوا أسلحتهم ويحافظوا على عدة خيولهم. كما وزع مثل هؤلاء على القبائل حتى يكون رجالها على استعداد دائم للحرب، وحتى يمكن لهم الاستجابة لنداء القتال فوراً.

ولم يكن باستطاعة الامير عبد القادر انجاز مخططاته وتحقيق اهدافه لو لم يسهر بنفسه على تنفيذها بهمة لا تعرف الكلل، وكان دائم الحركة يفتش جنوده، ويزور مخازنه الحربية، ويتفقد مدارسه، ويدير القضاء. تدفعه الى ذلك غيرة متقدة لتحقيق مهمته العظيمة على اكمل وجه ولهذا فهو لم يضع ساعة واحدة من ليل أو نهار بدون أن يصرفها في التخطيط والترتيب وتنفيذ مشاريع جديدة للتقدم والاصلاح.

٣ ـ بناء الدولة الاسلامية

كان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب الجزائر شعباً واحداً، ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وايقاظ كل قدراتهم الكامنة، لبناء مجتمع الحرب والسلم، ولدعم اقتصاد الحرب بزيادة الانتاج في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة. ولم يكن الطريق ممهداً، واصطدم بعقبات كثيرة، غير أنه تابع بذل جهوده بدون كلل أو ملل لايقاظ الشعور الديني للعرب وتوحيدهم وتوجيههم نحو الهدف الاسمى (الجهاد في سبيل الله ضد الغزاة ـ أعداء الدين والوطن). ومن اجل ذلك فقد عمل منذ البداية على تنظيم التعليم العام ونشره بين القبائل. وقد تحدث عن ذلك بقوله: **«كان من واجبي كحاكم مسلم أن ادعم علوم الدين وأن أبعثها. لذلك فتحت المدارس في المدن وبين القبائل. فكان الأطفال في هذه المدارس يتعلمون بدون مقابل العبادات والصلاة وحفظ تعاليم القرآن وفروضه ومعرفة القراءة والكتابة والحساب بصورة جيدة» وكان الذين يريدون مواصلة تعليمهم بعد ذلك يرسلون الى الزوايا والمساجد لتعلم التاريخ وعلوم الدين. وخصصت للطلبة رواتب على حسب معارفهم ودرجاتهم. وظهر لي ان العلم هام جداً،**

فعملت على تشجيعه، حتى انني عفوت اكثر من مرة عن أناس مجرمين محكوم عليهم بالموت لمجرد أنهم طلبة ومعروف أن المرء في بلادنا يحتاج الى وقت طويل حتى يصل الى مرتبة عالية من التحصيل في العلم. لذلك لم تكن لدي الشجاعة لاضاعة ثمار احتاجت الى سنوات من الجهد في يوم واحد. ان الساكن في كوخ قد يقطع نخلة لا تريحه، ولكن كم سنة يجب عليه أن ينتظر قبل أن يصبح بامكانه تذوق ثمار نخلة أخرى يغرسها. ولكي أساعد الطلبة على دراستهم بذلت أقصى جهد ممكن للمحافظةعلى الكتب والمخطوطات من الضياع. وكان هناك اكثر من سبب يدفعني الى بذل هذه الجهود، ذلك انه بالنسبة الينا يلزم المرء عدة شهور لكتابة نسخة واحدة. ومن أجل ذلك أعطيت أوامري المشددة في جميع المدن والقبائل لبذل اقصى عناية ممكنة من اجل المحافظة على المخطوطات. واشتملت اوامري على فرض عقوبات شديدة لمعاقبة كل من يتلف أو يفسد مخطوطا. ولما كان جنودي يعرفون مدى اهتمامي بهذا الموضوع فقد كانوا يحرصون على احضار كل ما تقع عليه أيديهم من مخطوطات اثناء الغزوات. وكانوا يقومون بذلك بعناية فائقة. ولكي اشجع غيرتهم وحماستهم في هذا المجال كنت دائمًا اعطيهم جوائز كبيرة على ذلك. وشيئاً فشيئاً جمعت مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات ووضعتها في اماكن أمينة في الزوايا والمساجد وأوكلتها الى الطلبة الذين كانوا موضع ثقتي. وبنفس الهمة التي وضعت بها نظام التعليم العام أسست نظام القضاء. فقد خصصت للقضاة رواتب شهرية، بالإضافة الى علاوات يتقاضونها لقاء قيامهم ببعض الواجبات الأخرى، كان النظام الذي اريده يقوم على ان ممثلي القضاء يجب أن يظهروا في كل مكان، بل ان يتبعوا جيشي في مسيرته. ولم اكن اسمح بأي تنفيذ

للإعدام الا بعد حكم مطابق لشريعة الله التي لم اكن سوى منفذ لها. ولذلك كان يرافق جيشي أينما ذهب، قاض ومساعدين، أحدهما رئيس الشرطة (الذي كان ينفذ الأحكام). ولم يكن الناس ينظرون اليه باشمئزاز على فعله ذلك، ما دام ليس هو في الواقع المنفذ للقتل بل القانون. ولا شك أن كثيراً قد عانوا من نظامي هذا، ولكن لم يعان أحد بدون حكم شرعي. وجميعهم قد ارتكبوا نوعاً ما من الجرائم أو خانوا دينهم. ان شريعتنا صريحة، في ان كل من أعان العدو ببضائعه فقد أحل بضائعه، وكل من أعانه بسلاحه فقد أحل حياته.

ولقد أصبحت الطرق آمنة تماماً، بفضل يقظة خلفائي وأعواني وقادتي، وبفضل المسؤولية التي حملتها القبائل عن كل الجرائم والسرقات التي تقع في مناطقها. وكانت يقظة الشرطة قد جعلت الناس آمنين مطمئنين، وبعبارة أخرى، فرغم وجودي بين شعب يعيش تحت الخيام، وكان لذلك من الصعب أن يدار وأن يوجه لاتساع المساحة التي كان منتشراً فيها، فقد استطعت أن أصل الى عهد أصبحت فيه سرقة الخيول بالليل غير معروفة، وأصبحت المرأة تستطيع الخروج وحدها دون أن تخاف المهانة. وعندما يعلق الناس على هذه النتيجة الكبيرة ويطلبون السبب، كان العرب يجيبون: (ان مصائد السلطان منصوبة وليس هناك حاجة لنصب مصائدنا الخاصة). وفي الوقت ذاته أدت اصلاحاتي الى الارتفاع بالروح العامة. فالعهر قد حورب بشدة. ولو شاء الله لانتهيت باعادة العرب الى طريق القرآن الذي ابتعدوا عنه كثيراً. لقد منعت منعاً باتاً استعمال الذهب والفضة في ثياب الرجال، لانني كنت اكره التبذير والتحلل الذي يؤدي اليه، ولم اتسامح الا بتزيين الأسلحة والسروج. اليس من واجبنا ان نعز وأن نكبر ما ساهم كثيراً في

سلامتنا؟ أمـا النساء فان الحظر لم يشملهن. ان الجنس الضعيف يحتاج الى تعويض، لان الرجل في امكانه التمتع بجميع انواع اللذائذ التي يرغب فيها، الحرب والصيد والأشغال الفكرية والحكومة والدين والعلوم.

لقد كنت أول من ضرب المثل بلبس ثياب بسيطة بساطة ثياب اكثر خدمي تواضعاً. وما فعلت ذلك خوفاً من تمييز نفسي أمام ضربات قنابل العدو. ولكنني فعلته لانني كنت أرغب أن لا أفرض على العرب إلا ما أفرضه على نفسي، وأن أظهر لهم أنه من الأفضل أمام الله أن نشتري سلاحاً وذخيرة وخيلاً للحرب من ان تكون ثيابنا مزينة وغالية ولكن غير مفيدة.

أما الخمر والميسر فقد منعتهما تماما، كما منعت التدخين. وليس معنى ذلك أن ديننا يمنع التدخين ولكن جنودي كانوا فقراء، ولذلك كنت حريصاً على أن أبعدهم عن عادة معروفة بزيادة الفقير فقراً حتى أنها اوصلت بعض الناس الى ترك عائلاتهم في فقر مدقع، وحتى بيع ثيابهم من اجل اشباع نهمهم في التدخين. حقا لقد بقي بعض الناس يدخنـون، ولكن ذلك كان في مناسبات فقط وفي سرية ايضاً. وكانت هذه الخطوة كسباً كبيراً. أما المرابطون والطلبة وكل من له علاقة بالحكومة فقد أبطلوا عادة التدخين تماماً. وعلى اية حال فان هذا يظهر إلى أي مدى نجحت في كسب الطاعة».

أمكن للامير عبد القادر توحيد الوطن الجزائري، واقامة دولة (الحرب) واتبع في ذلك وسائل مختلفة، واساليب متنوعة. وقد تحدث هو عن ذلك بقوله: «لم يعد في الصحراء سوى اربعة مراكز لم تصلها بعد سلطتي، وهي ميزاب ووارقلة ونقرت ووادي سوف. أما أولاد

(سيدي الشيخ)[1] فقد اعترفوا جميعاً بسلطتي. حقاً لقد منحتهم بعض الامتيازات، وسمحت لهم بدفع ضرائب منخفضة، ولكنهم كانوا قبيلة من المرابطين، ومن واجبي أن أعاملهم بدرجة خاصة من الإكرام. وأما أهل القصور - والذين يستوطنون مجموعة من القرى الصحراوية - فهم لا يدفعون الا القليل، ولا يهمني أن أكون متصلباً معهم، وهم ينظرون الى موقفي هذا منهم على أنه رفق بهم لفقرهم».

ولقد فرض الأمير سيطرته على اقليمي وهران وتيطري بالقوة - على نحو ما سيأتي شرحه - غير انه اتبع أساليب أخرى في فرض هذه السيطرة على القبائل الكبرى، المنتشرة في تلك القطعة الساحرة من جبال (جرجرة) والممتدة من مدينة الجزائر شرقاً حتى بجاية. وذلك نظراً لما تميزت به هذه القبائل من النزوع الشديد للاستقلال، والولع المتطرف بالحرية، مما مكنهم من الاستعصاء على كل المحاولات لاخضاعهم، وساعدهم على الاحتفاظ بشرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وسط حكومات متقلبة قامت وسقطت من حولهم. وكان من الواضح أن هذا المربض للجنود سيعطي عبد القادر، اذا ما كسبه الى جانبه، عنصر دعم ثابت لا يتراجع وسيكون له عوناً للزحف على اعدائه اذا ما تطلب الأمر، ولهذا قرر عبد القادر، أن يحقق وحده باللين والاغراء ما عجز الآخرون عن تحقيقه بقوة السلاح، وهكذا ظهر فجأة في ايلول (سبتمبر) ١٨٣٩ في (برج حمزة) متبوعاً بخمسين فارساً فقط، وكان الى جانبه خليفته المخلص (ابن سالم). وقد سأله

---

(١) مجموعة من القبائل في الجنوب الغربي من الجزائر، وجزء من الجنوب الشرقي للمغرب، وقد قاموا بعدة ثورات ضد الافرنسيين منها ثورة (١٨٦٤) وثورة (١٨٨١) بقيادة الشيخ (بوعمامة). وسيتم التعرض لهذه الثوارت في البحث المقبل من هذه المجموعة.

بعضهم عما يريد عمله فأجابهم (اريد ان اكسب تأييد جرجرة). وقطع الركب المرتفعات الاولى بسرعة. وكان منظر هذه الكوكبة الصغيرة من الفرسان، منحدرة الى اعماق الوديان والشعاب أو صاعدة مرتفعات تكاد تكون عمودية، قد أثار العجب والاستغراب بين الجبليين الذين كانوا ينظرون من أكواخهم الى هذا المنظر المثير. وانتشر الخبر بسرعة عن تقدم (الامير عبد القادر) فتداعى الناس من كل جانب لتحية ضيفهم الشهير. وزاد العدد الذي تجمع حول خيمته على الآلاف. وغص مدخل الخيمة بالشيوخ والمرابطين واشتد الزحام حول الخيمة، واخذ بعضهم في التسلل بخشونة لرفع اطراف الخيمة وإشباع فضوله بالتعرف على (الامير) غير ان المرافقين ردوهم عنه قائلين لهم: «عودوا الى الوراء، انكم ستدوسون سيدنا». وعندما رأى عبد القادر خيبة الأمل وهي ترتسم على وجوههم، قال لمرافقيه: «دعوهم يقتربوا، دعوهم يقتربوا - انهم اشداء صلاب مثل جبالهم، اعذروهم فانتم لا تستطيعون تغيير طباعهم في يوم واحد». وعندما طلب عبد القادر مقابلة زعماء الأهالي، كان الجواب: «اننا نطيع امناءنا ومرابطينا» وعندئذ تقدم الامناء للترحيب وتقديم الولاء. وسألهم عبد القادر عمن يمثل الجميع، فاجابوه: «ليس عندنا زعيم واحد نمنحه كل الصلاحيات. ان امناءنا الذين اختيروا بالانتخاب الشعبي هم الذين يعبرون عن ارادتنا العامة». فكان حقاً جواب قوم يحرصون على حريتهم وهنا أمر عبد القادر بافساح المجال، وطلب الى الجمهور المتراص أن يجلس، فتكونت بذلك دائرة كبيرة ووقف هو في الوسط. والسبحة في يده. وبدأ حديثه اليهم حديثاً يمر بالعقل ليصل الى القلب، وطالبهم بالانضواء تحت لوائه لدعم قضية الحق التي يدافع عنها، قضية الله ورسوله. ومما قاله لهم: «انه تمكن من هزم

الكفار الذين جاءوا لاحتلال أرضهم، اكثر من مرة، وكان جهاده ضدهم مجيداً من أجل الاسلام. وان كل غرب الجزائر قد أطاع أوامره، واذا شاء فإنه من السهل عليه أن يخضع شرق البلاد بغربها، وأن يقلب بساط غربها على شرقها، تماماً كما يقلب البساط الذي يقف عليه» واستمر عبد القادر في مخاطبته لهم قائلاً: «واذا قلتم لي أن الشرق أقوى من الغرب، فان جوابي هو أن الله قد أيدني بنصره لوضوح الاهداف التي تقودني وتوجهني. . وتأكدوا أنني لو لم أقف في وجه الافرنسيين المعتدين، ولو لم أظهر لهم ضعفهم وعدم قدرتهم، لانقضوا عليكم انقضاض البحر الهائج. ولرأيتم عندئذ ما لم يخطر على قلب بشر لا في الماضي او في الحاضر. ان الافرنسيين قد تركوا بلادهم، ولم يأتوا الا لاحتلال أرضنا واسترقاق أهلها، غير أنني سأكون لهم الشوكة التي وضعها الله في أعينهم واذا ساعدتموني فسأرميهم في البحر. أما اذا لم تساعدوني فإنهم سيسترقونكم ويدوسون حرماتكم فاشكروا الله على انني أنا عدوهم الألد.

استيقظوا يا أهل جرجرة، وانتبهوا من غفلتكم. وثقوا أن ليس في قلبي سوى الرغبة في سعادة وصلاح ورفاهية جميع المسلمين. وأن كل ما أطلبه منكم اليوم هو الطاعة والوفاق والمحافظة التامة على شرائع ديننا المقدس حتى ننتصر على الكفار، ولا أطلب منكم لتعضيد جيشنا سوى ما فرضه الله العلي القدير. انني لا أرغب في تغيير تقاليدكم، ولا في إبطال قوانينكم وأعرافكم، ولكن القيام بالعمليات الحربية تتطلب مسؤولاً. انني أدعوكم الى الجهاد في سبيل الله، فاختاروا رئيساً عليكم. وانني اقترح عليكم اختيار (ابن سالم) فاذا ما اخترتموه فسيكون لكم الدليل والموجه في ساعة الخطر والعسرة، والله شاهد على ما أقول. أما اذا لم يلامس قولي هذا مكاناً في قلوبكم، فسيأتي يوم

تندمون فيه، ولات ساعة مندم. انني أحاول اقناعكم بالتي هي أحسن لا بالقوة. وانني أدعو الله أن يهديكم الى سواء السبيل».

وعندما انتهى عبد القادر من حديثه، انطلقت صيحة عامة تقول: «اعطنا ابن سالم! اعطنا ابن سالم. وخذ منا الزكاة، وخذ منا العشور، وقدنا ضد الكافرين. اننا أبناؤك وجندك وخدمك».

وبعد ان ولى (ابن سالم) خليفة للامير على (جرجرة) وسط الافراح والمهرجانات، تابع الامير عبد القادر مسيرته السلمية عبر قرى الأرض الطيبة. وكانت مسيرته مجموعة من الافراح والاعياد التي استمرت ثلاثين يوماً. إذ ما كان السكان يعرفون في كل مرة مكان توقفه، حتى كانوا يسرعون اليه ببساطتهم العفوية وحماستهم المثيرة وهم يحملون معهم (ضيفتهم) التي كانت عبارة عن قصاع كبيرة من الأرز المغطى بقطع اللحم. وكان كل واحد يضع قصعته أمام خيمة الامير، ويصر على أن يتناول الامير منها قائلاً له: (كل - انها ضيفتي) ولكي يتفادى عبد القادر جرح العواطف، فقد كان مضطراً أن يذوق من كل قصعة على حدة. وبذلك تعرف أهل (جرجرة) على أميرهم، وتعرف هو عليهم، وكانت هذه المعرفة هي طريق الحب المتبادل، والولاء المطلق الذي استمر حتى آخر ايام الأمير فوق أرض الجهاد.

٤ ـ في افق العمليات والتكتيك

كان لا بد للامير عبد القادر بعد ذلك من تحديد المبادىء العامة لاعماله القتالية والتي تتناسب مع الطبيعة الجيو استراتيجية للاقليم، وحجم القوى، والتي لخصتها المقولة التالية: **«ان العرب لا ينكرون قوة فرنسا وقدرتها، غير اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام. وان خرجت كتائبكم وقواكم نتقهقر أمامها متوغلين في الصحاري بأهلنا وأثقالنا، ولا نترك مجالاً للقتال حتى ترجعوا، ثم نبقى على هذه الحال حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم»** وكانت هذه المقوله التي خاطب نائب الأمير فيها القائد الافرنسي (دي ميشيل) ايجازاً لاسس (حرب الحركة). وقد سبقت الإشارة الى ما اتخذه الامير من اجراءات إدارية للتخفيف من حركة القوات، وعدم إرهاقها بالاعباء التموينية (إقامة المطامير) وتأمين الخيول ووسائط النقل. غير أن عبقرية الامير في مجال تطوير حرب الحركة أسفرت عما عرف باسم (الزمالة). وهي عبارة عن جزء من تنظيم (المدينة المتنقلةالضاربة في عرض الصحراء) وكانت هذه المدينة المتحركة تتكون من ثلاثة أقسام:

اولها: (الزمالة) فيها مقام الأمير وآل بيته وحاشيته.

ثانيها: (الدوائر) وفيها المدنيون من شعبه والنساء والاطفال والباعة والصناع.

ثالثها :(المحلة) وهي معسكر الجند المحارب ومضارب صنع السلاح، ومستودعات الذخائر والمؤن وبها مكان فسيح لاجتماع المجلس العام. واتخذ (الامير عبد القادر) فيها مسجداً ونظم مضارب الباعة وأهل السوق، تضرب بعيداً عن الزمالة والدائرة والمحلة. فكانت تستحضر اليها الذخائر وما يلزم الانسان من صنوف البضائع، وما تدعو الضرورة اليه لجميع الحرف. وبالجملة فقد كانت الزمالة ومتعلقاتها على أتم ما يكون من الانتظام والالتئام المدني، وكان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كأنها مدينة حافلة ذات قصور مشيدة وأبنية جليلة.

وتعتبر (الزمالة) مركزاً حربياً، ومقراً مدنياً، بها مائتا ألف نفس، وكان الأمير يبث من هذه المدينة المتحركة عيونه (جواسيسه) ويرسل منها بعوثه، وفيها يستعد للحرب. ولم تزل تزداد قوة وتتسع حتى أصبحت ملجأ عظيًا وحصناً منيعاً. وقد عين لحراستها وحماية حوزها أربع قبائل من العرب وفرقة من الجند النظامي. ولقد طارت شهرة هذه المدينة المتحركة (الزمالة) التي كانت تملأ النجود والأغوار وهي تتردد بين الحل والترحال، بين الإقامة والانتقال. وقد حرص الامير على جعل نظام التعسكر محترماً من الجميع، ومنظًا تنظيًا دقيقاً. وفي ذلك يقول: «عندما أضرب خيمتي يعرف كل أحد المكان الذي يشغله. لقد كان معي ثلاثمائة أو أربعمائة جندي نظامي، الى جانب الفرسان غير النظاميين من بني هاشم ـ الاغريسيين ـ الذين كانوا مخلصين لي اخلاصاً شديداً. ولم يكن من السهل الوصول الي.

ولم أفعل ذلك حرصاً على أمني الشخصي. ولكني شعرت بضرورة تأمين متطلبات الجهاد في سبيل الله. وقد وضعت فيه ثقتي لحماية الذراع الذي يحمل نواءه». وكانت الزمالة بحجمها الكبير، تحتاج لموارد مائية ضخمة، لا سيما في المناطق الصحراوية، فحيثما حلت، تجف الآبار ومياه الجداول. ولهذا أقام الامير قوة خاصة من الشرطة لمنع تلويث المياه أو تبذيرها من قطعان الماشية. أما المواد التموينية (الحبوب والقمح والشعير) فكانت تجلب الى الزمالة، أو تقوم قبائل الشمال بتقديمها عندما يطلب اليها ذلك.

«هل تعرفون أين تكمن قوة عبد القادر؟ إنها في عدم إمكان العثور عليه، إنها في فسحة الأرض، إنها في حرارة شمس افريقيا، إنها في انعدام الماء، إنها في حياة الترحل بين العرب، هنا تكمن قوته. ولا بد من إخضاعه، يجب القضاء عليه. وبدون هذا فإنكم لن تحصلوا على طائل».

(الماريشال بيجو، ألد اعداء الامير)

الفصل الثاني

الامير عبد القادر وادارة الحرب

١ ـ اعداء الداخل والخارج (١٨٣٣ م)
٢ ـ معاهدة (عبد القادر ـ دو ميشال) ١٨٣٤ م
٣ ـ معركة المقطع (٢٦ ـ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٥ م)
٤ ـ الانتقام الافرنسي، واحتلال (معسكر) ٦ كانون الاول ـ ديسمبر (١٨٣٥ م)
٥ ـ الصراع المرير على تلمسان (١٨٣٦ م)
٦ ـ معاهدة (عبد القادر ـ بيجو) ٣١ ـ ايار ـ مايو (١٨٣٧ م)
٧ ـ نقض المعاهدة ـ واستئناف الحرب (١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ م)
٨ ـ سنوات الصراع المرير (١٨٤٠ ـ ١٨٤٤ م)
٩ ـ على حدود المغرب (١٨٤٥ ـ ١٨٤٧ م)
١٠ ـ وداعاً يا جزائر الاحرار (١٨٤٨ ـ ١٨٥٢)

كان الأمير عبد القادر دوماً على رأس وحداته وجنوده

١ ـ أعداء الداخل والخارج

(١٨٣٣)

بويع الامير عبد القادر (أميراً على الجزائر) في مدينة (معسكر) بتاريخ **٢٢** تشرين الثاني (نوفمبر) **١٨٣٢** م. غير أن هذه البيعة كانت محدودة، إذ لم يكن الذين بايعواالأمير يمثلون الجزائر كلها. وقد عرف الامير منذ البداية، أن وحدة القيادة لبناء دولة الحرب هي العامل الاساسي للنجاح. فمضى لتحقيق هذه الوحدة، وعندما حاول بعض الزعماء المحليين الخروج على الطاعة والجماعة، استفتى العلماء والفقهاء فقرروا بالاجماع مقاتلة المرتدين، حتى لو قصروا في تنفيذ شرط واحد مثل أداء الضرائب ودفع الزكاة، وأرسل الامير عبد القادر بهذه الفتوى الى علماء مراكش يستشيرهم في شرعيتها، فأفتوا بصحتها وعلق عليها سلطان مراكش بما يلي: «**ان هذه الفتوى موافقة للسنة والقياس والاجماع وأن من عرض لتنفيذها، أو أولها تأويلاً آخر، فانه يعتبر من الظالمين، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**». وأصبح باستطاعة الأمير، الاستناد الى هذه الفتوى، لمحاربة اعداء الدين، اعداء الداخل، والذين كان بعضهم قد أخذ في توطيد صلاته بفرنسا، وبعضهم لا زال يحاربها غير أنه لا يرغب في الخضوع لسلطان هذا الشاب الذي لا يعتبر من وجهة نظرهم اكثر من

منافس لهم. وكان في طليعة هؤلاء (**سيدي العريبي**) وهو قائد قوي وله تأثير مطلق على قبيلة (فليته) في سهل الشلف - ناحية وهران- وكذلك (**الغماري**) قائد بني انجاد الذي رفض إطاعة الأمير. وشعر (**محمد بن نونة**) الذي كان يحب أن يقول أنه يحكم تلمسان باسم سلطان المغرب، انه من السفالة الاعتراف بالولاء للامير عبد القادر. أما (**مصطفى بن اسماعيل**) الذي كان محارباً قديماً ومجرباً والذي ابيضّ شعر رأسه في خدمة الاتراك (كزعيم للمخزن)[1] فانه قد عبر عن تقززه من تقبيل يد (ولد ما يزال أمرد) حسب تعبيره.

ومضت أشهر ثلاثة فقط على (البيعة) يوم وجه الامير عبد القادر دعوة لاجتماع عام في مدينة معسكر تحضره جميع القوى يوم ١٨ ايار- مايو - ١٨٣٣ م. واستجابت القبائل الكبرى في التل والصحراء لهذه الدعوة الخيرة، ورحبت بها، أما قبائل المخزن، وهي التي طالما كانت آلة في يد الاتراك، فقد تملص بعضها واتخذ موقفاً سلبياً، في حين رد بعضها الآخر على الدعوة رداً مهيناً، وكان من الصعب على مثل هؤلاء التخلص من الفوضى التي الفوها في هذه الفترة. وأثناء ذلك، كان (بنو هاشم - الغرابة) وهم قبيلة الأمير، قد انطلقوا نحو وهران، واخذوا في الاشتباك مع القوات الافرنسية وازعاجها. واجتمعت القبائل في اليوم المحدد، (يوم ١٨ - ايار - مايو) واصطفت للعرض المهيب، فكان هناك (٨) آلاف فارس و(ألف) راجل. ونشر الامير علمه الخاص في سهل (خصيبية) - وهو علم كبير ابيض تتوسطه يد مفتوحة - وقد رفع أمام الجمهور الغفير في ابتهاج واحتفال كبير. وبعد ان استعرض الصفوف على فرسه. وخاطب الجمهور ببعض العبارات

---

(١) المخزن: تعبير يقصد منه تلك القبائل التي تحالفت مع الاتراك العثمانيين.

القصيرة الصارمة، والتي كانت كافية لاثارة الحماسة وتفجير الغضب ضد اعداء الدين، قادهم في اتجاه وهران، ووصل الامير وقواته في الوقت المناسب لدعم قبيلته (بنو هاشم) والتي كانت تتعرض في ذلك اليوم لهجوم قوي شنه ضدها القائد الافرنسي (دو ميشيل). فكان أول ما فعله هو أن قسم قوته الى قسمين، وجه القسم الأول منها لمهاجمة الجناح الأيسر للقوات الافرنسية، بينما قاد هو القسم الثاني للهجوم على حصن أقامه الجنرال الافرنسي في مكان يدعى (الكرمة). وكانت هناك حامية تدافع عن هذا الحصن تضم فرقة مشاة ـ الف جندي تقريباً ـ قطعتين من المدفعية بالاضافة الى فصيلة من قناصي افريقية. وقد حاول الامير وفرسانه تسلق الاسوار، غير أن حامية الحصن نجحت في احباط المحاولة، وعندها قاد الامير عبد القادر قواته ودعم القسم الاول الذي كان يشتبك مع الافرنسيين في السهل. وقد بذلت القوات الافرنسية جهداً كبيراً للصمود امام الهجمات الكثيفة والضربات المباغتة للمجاهدين، غير ان هؤلاء استطاعوا سحق الصفوف المنظمة للمشاة ودمروا التشكيلات المقاتلة، واستمرت المعركة القاسية طوال النهار، حتى اذا ما هبط الليل قرر (دي ميشيل) سحب قواته الممزقة تحت حماية مدفعيته، وتحت ستار الظلام.

توقفت الاشتباكات في الايام التالية، ولم يقبل الأمير عبد القادر الخضوع لهذا الجمود، فنظم قوة من مائة فارس، وقادها بنفسه لنصب كمين في أجمة قريبة من وهران، كانت القوات الافرنسية قد اعتادت على دفع فصائل من فرسانها اليها للعمل كمراكز مراقبة متقدمة. وظهرت سرية من القناصة الافرنسيين في الموعد المعتاد. وعندما

وصلت الى موقع الكمين فتح الامير عبد القادر ورجاله النار عليها فمزقوها على الفور. وسقط عدد من قتلى الاعداء كما وقع (٣٠) أسيراً في قبضة المجاهدين واكتفى الامير بما حققه من نصر محدود في هذه المعركة التي اراد فيها اختبار رجاله وبعث الثقة في نفوسهم. وعاد الى (معسكر) ليقطف ثمار عمليته التي انعكست على الصفحة الداخلية للبلاد. إذ اسرع اليه عدد كبير من الرؤساء والشيوخ الذين رفضوا الخضوع لسلطته حتى الان، ليقدموا له دعمهم وولاءهم. وكان في طليعة هؤلاء (الحاج ابن قيسى) الذي كان مرابطاً شهيراً، والذي جاء ومعه وحده نواباً يمثلون عشرين قبيلةصحراوية.

أصبح بالامكان توجيه الصراع ضد اعداء الداخل، حيث كان (سيدي العريبي) زعيم قبيلة (فليتة) التي تضم بطون كثيرة وعشائر عديدة، يحشد قواته، ويعلن صراحة أنه (سيوجهها ضد ابن محيي الدين الطموح). وقد باغته الامير عبد القادر بقوة تضم (٥) آلاف فارس انطلقت للهجوم وهي تطلق نيرانها بكثافة، وتصرخ بصيحات الجهاد، مما شل قدرة (سيدي العريبي) وحرمه من كل إمكانات الدفاع، فمضت قوات الأمير وهي، تقتلع الخيام، وتجمع الأسرى، وتقود الماشية، ولم يحصل (سيدي العريبي) على العفو عن جرائم الماضي وقبول التزامه بالمحافظة على الأمن - في المستقبل - الا بعد أن أرسل تعهداً مكتوباً بالطاعة، وتقديم ابنه رهينة لدى الامير. وضمن بذلك خضوع أقوى المنافسين، كما ضمن زوال تلك الاعمال الشائنة من سلب للاموال وقطع للطرق وتهديد للنفوس، ولكن، وقبل ان يغادر الامير عبد القادر البطحاء (المعروفة الان بهبزة) بلغه انتفاض قبائل عكرمة وبني مديان ، فسار اليهم وحثهم على الرجوع عن غيهم، فاظهروا تصميمهم على الخلاف والتمرد. فأغار عليهم،

واستولى على ممتلكاتهم، غير انهم لم يلبثوا أن أظهروا الندم، فرد اليهم اموالهم، وضمن لهم أمنهم، وطلب اليهم الالتفاف حوله لمحاربة الاعداء. فاستجابوا لطلبه. وعملوا على دعم الوطن ورفع راية الجهاد بدلاً من راية العصيان. وبينما كان الامير في سبيله لاخماد الفتن والقضاء على الثورات المضادة، حاول عمه وأخوه مصطفى استثارة القبائل ضده، **واتفق عمه واخوه مع زاوية الدرقاوة، وكذلك مع المرابطين في (الونشريس) وشكلوا كتلة تضم (٦٠٠) مقاتل**، وحاول الامير استمالتهم، غير أنهم رفضوا الاذعان لرغبته، وصمموا على مجابهته، فاضطر لمحاربتهم، وقد تغلب عليهم وفروا هاربين، أما عمه وأخوه، فقد وجدا لهم ملجأ في الجبال، ثم طلبا العفو، فعفا عنهما، وفرض على المهزومين مائة حصان والف بندقية وخمسمائة سلطاني فضة كضريبة. ومضى الامير عبد القادر وقواته في سهل (الشلف) الواسع والمناطق المجاورة له، حيث انضم اليه عدد من القبائل الهامة، وخاصة القبائل الساكنة في بلدة (مليانة) والتي كانت خاضعة في ذلك الوقت للشيخ (ولد السائح) فخطبت وده، ووضعت جميع امكاناتها تحت تصرفه. كما انضم اليه رؤساء قبائل (جحوط، ومرايا صومال وابن مناد وابن مناصر). وعندما وصل الى (مليانة) اتصل بأسرة الوالي الصالح (سيدي أحمد بن يوسف) الذين يتمتعون بصيت كبير، فقدم اعضاء هذه الاسرة خدمات جليلة، وتقدم علاوة على هؤلاء مشايخ (جندل) وجميع الجنود الذي كانوا تحت قيادتهم. وقابلوا الأمير بحفاوة تامة وتوقف الامير فترة في (مليانة) ريثما تمكن من اعادة تنظيم امورها وعين عليها (خليفة) من انصاره. **جاء الان دور مدينة (ارزيو) وحاكمها القاضي (سيدي أحمد بن الطاهر)** الذي كان قد خالف تعليمات الامير بعدم اجراء أي اتصال

مع الافرنسيين، فأقدم بصورة علنية على إمداد الافرنسيين بالماشية والعلف، وحتى الخيول التي كان يعتبر بيعها للافرنسيين جريمة نكراء لا تغتفر. وقد حاول الامير ايقافه عن الاسترسال في غيه، فكتب اليه محذراً من سوء تصرفاته، ومنذراً له من العقاب الشديد ان هو صمم على الاستمرار في سلوكه، غير أن (القاضي الطاهر) لم يتمكن من مقاومة إغراء الارباح الضخمة التي كانت تؤمنها له تجارته، فاستمر في تعامله مع الافرنسيين معتمداً على دعمهم له ووعودهم بحمايته. ودخل الامير عبد القادر (مدينة ارزيو) بصورة مباغتة وألقى القبض على القاضي، واقتاده مثقلاً بالقيود الى سجن (معسكر)، حيث اصدر تعليماته الصارمة بعدم اتخاذ أي اجراء ضده في الوقت الحاضر. وركب في اتجاه (بني عامر) لمعالجة بعض القضايا التي اضطرته للبقاء هناك عدة ايام. وكان في نية عبد القادر اعطاء الفرصة للقاضي حتى يفتدي نفسه (التي كان قد أحلها) بمبلغ (٥) آلاف فرنك. ولكنه حين عاد الى معسكر وجد أن القاضي قد قتل، وقد اذهله هذا الأمر، وعلم ان والده (محيي الدين) هو الذي امر بمحاكمته، وأصدرت المحكمة ضده حكمًا بالعقاب الصارم. ونفذ فيه الحكم على الفور، وقد فقئت عيناه (وقطعت يداه ورجلاه ووضع في ساحة الصراية حتى مات بعد ثلاثة ايام بحسب ما تذكره بعض المصادر[١]) وكان لا بد للامير عبد القادر من تحمل تبعات هذا العمل، على الرغم من براءته منه.

أراد الامير عبد القادر دعم قدرته بالاستيلاء على تلمسان (التي تبعد مسافة ستين ميلاً تقريباً الى الجنوب ـ الغربي من وهران) وهي

(١) تحفة الزائر (الأمير محمد) ١ / ١٠٧

تقع على نجد في سفح جبال منحدرة عالية، وهي مشهورة بكثافة وقوة أسوارها التي طالما أعيت أعمال الحصار. وكانت قوة عبد القادر الرئيسية في هذه الفترة تتمثل في (بني عامر وبني هاشم). وبعد أن أخذ معه وحدات قوية من هذه القبائل اقترب من (تلمسان) وكان أهاليها منقسمين الى حزبين: الاتراك والكراغلة. وكان الكراغلة يحتلون القلعة ويدافعون عنها، في حين كان العرب يعملون تحت قيادة (نونة) المتمرد والذي سبقت الاشارة اليه. وقد طلب عبد القادر من (نونة) الاستسلام، ولكنه رفضه. غير أن المقاومة التي حاولها سرعان ما انهارت، لأنه بينما كان عبد القادر يهاجمه من جهة فتح عليه الكراغلة النار من القلعة. وبعد انتصاره في تلمسان عامل عبد القادر أهلها بكل احترام. لقد كان يأمل أن يعترف الكراغلة بسيادته. غير أنهم رفضوا كل العروض التي تقدم اليهم بها لأنهم شعروا بالأمان في تحصيناتهم، كما رفضوا البقاء معه على صلات طيبة. وما دام هو لا يملك المدفعية التي يخضعهم بها فقد قبل المساومة، وأقام أحد مساعديه حاكماً على المدينة ثم عاد الى (معسكر). وفي الطريق سمع بنعي أبيه. وقد شعر الابن الشجاع بفداحة الخطب الذي تركه فقدان الوالد الذي خلع عليه منذ طفولته كل حب وود، والذي كان يعامله دائماً كصديق مقرب وزميل، والذي يدين له في الحقيقة بالمكانة التي وصل اليها. ولما كان لا يجد الوقت للدخول في عزلة مؤقتة يقتضيها المصاب الاليم، فانه لم يستطع سوى ان يتبع جثمان والده الى مثواه الاخير

كان القائد الافرنسي (دي ميشيل) قد استولى على (أرزيو ومستغانم) ولم يكن باستطاعة (عبد القادر) اضاعة لحظة واحدة. لقد كان واجباً عليه أن يبذل قصارى جهده لايقاف هذا التوسع الافرنسي

في اقليم وهران. وفي يوم (٢ آب ـ اغسطس ـ ١٨٣٣) كان الامير عبد القادر قد وصل بقواته الى أسوار مستغانم التي هاجمها على الفور. وبعد ان ترك (دو ميشيل) معسكره ليدافع عن نفسه، عاد تواً الى وهران. لقد كان يأمل في الافادة من وجود الامير عبد القادر أمام مستغانم للقيام بحركة تسلل ناجحة طالما فكر فيها. وفي يوم (٥ ـ آب ـ أغسطس) وهو اليوم التالي لوصوله الى وهران، أرسل (دو ميشيل) قوة من (٣) آلاف فارس وراجل مع ثلاث مدافع ميدان لمهاجمة (الدوائر والزمالة) وهما القبيلتان اللتان تسببتا في خسائر فادحة للافرنسيين عند قيامهما بتنفيذ الحصار الذي أمر به عبد القادر. وفي فجر يوم ٦ آب ـ أغسطس ـ حل الجيش الافرنسي بمضارب الخيام العربية. وفتحت المدفعية نيرانها على الفور، وتقدم المشاة في صفين وأطلق الفرسان النار. ولم يقم العرب الذين اخذوا على غرة فاذهلتهم المباغتة بأي رد فعل مناسب، فرفعوا خيامهم، وتركوا وراءهم مواشيهم وكثيراً من النساء والأطفال في يد العدو وفجأة بدأت حركة فرارهم تتوقف، بينما كان الافرنسيون في حالة من الذهول، لقد اخذت قوات العرب بالتجمع. واخذت أعدادهم في التزايد بسرعة. وتحول انسحابهم الى دفاع، ثم تحول هذا الدفاع الى هجوم، وحدث ذلك كله كما لو كانت عصا سحرية قد صنعته.. لقد وصل الأمير عبد القادر...

كان الامير قد شعر بنوايا العدو عند مغادرته (مستغانم) فتخلى عن إدارة الحصار في مستغانم وسارع الى النقطة التي كان يتهددها خطر أكبر، وأمكن له الوصول في اللحظة المناسبة تماماً. ولم يكلفه تحويل المعركة كثيراً من الجهد، فقد أسرع المشاة الافرنسيون

بالتراجع، ونجح بعضهم في تشكيل تربيعات مقاتلة بسرعة، غير أن ذلك جعل صفوفهم غير كاملة. أما الفرسان فقد اطلقوا العنان لخيولهم، ولم يبق غير المدافع التي قامت بدورها بصورة جيدة. وتخلى الجنود الافرنسيون عن غنائمهم التي اكتسبوها بسهولة. وداهمتهم عضة الجوع والظمأ علاوة على لهيب الشمس الحارقة فوق رؤوسهم، وفي الحال، أحاط بهم العرب من كل جانب. وهنا صاح عبد القادر بقومه (احرقوا السهل) وسرعان ما ركض مئات الفرسان بعيداً، وأشعلوا النار في الاعشاب الجافة والأجمات الممتدة وراء خطوط الافرنسيين. وقد كان على الجنود المنكوبين الذين تأخروا في تقدمهم بسبب الجرحى الذين أبى عليهم الشرف تركهم، أن يمشوا فوق الجمر، وأن يخوضوا معركة التقدم عبر امواج اللهيب. غير أن هذه المقاومة لم تلبث ان انهارت عندما تجاوزت المصاعب قدرة احتمال الطاقة البشرية. فألقى كثيرون منهم بأسلحتهم، واختنق بعضهم بالدخان، وقذف آخرون بأنفسهم فوق الأرض وهم في حالة من اليأس. ومكثوا يتعجلون الموت المحيط بهم، وعلم (دي ميشيل) بالنكبة التي نزلت بالحملة - عن طريق بعض الجند الفارين - فأمر على الفور بتحرك كل القوى الافرنسية في معسكر وهران لنجدة رفاقهم، غير ان هؤلاء وصلوا متأخرين ولم يتمكنوامن القيام بأي عمل بعد ان ابيدت قوات الحملة السابقة إبادة تامة.

لم يتوقف الامير عبد القادر فوق ميدان المعركة، الا بقدر ما تحتاجه عملية مطاردة القوات الافرنسية وتدمير فلولها، ثم قاد قواته ورجع الى (مستغانم) لتشديد الحصار عليهاوكان مشاته قد توغلوا في الضواحي، واخذوا في مهاجمة احدى القلاع القريبة من البحر. وعندما ظهرت سفينة شراعية فرنسية واطلقت النار عليهم، خلع

العرب ملابسهم، وسبحوا في اتجاهها وهم يحملون بنادقهم فوق رؤوسهم، وحاولوا الصعود الى السفينة، غير أن بحارة السفينة استطاعوا دحرهم وإبعادهم.

بدأ الامير عبد القادر بحفر الملاغم لتدمير الاسوار في محاولة منه للتعويض عن غياب المدفعية، ووصلت عملية التلغيم حتى أسفل السور، فأحدثت فيه ثغرة محدودة، وصدرت الاوامر بالهجوم العام واندفع العرب بحماسة غير ان قوات الافرنسيين التي اصطفت فوق جانبي أعلى السور، امكن لهم ايقاف حدة الهجوم، وركزوا نيرانهم الكثيفة على الثغرات، مما اضطر العرب للتوقف، ثم البدء بالتراجع في حالة من الفوضى بعد صراع مرير يائس. ووجد الامير ان موارده المعدة للحملة قد نضبت، فرفع الحصار وعاد الى قاعدته معسكر.

كان لهذه المعركة نتائجها البعيدة على اقليم (وهران) والقبائل المنتشرة فيه، إذ شعرت هذه القبائل بشدة وطأة الافرنسيين وثباتهم-رغم الهزيمة التي نزلت بهم. وفي الوقت ذاته كانت معركة (المدية) قد تركت نتائج مضادة، إذ أنها دفعت قائد القوات الافرنسية (دو ميشيل) الى البحث عن طرائق اخرى لضرب العرب بعضهم ببعض واستنزاف قدرتهم، وإضعافهم جميعاً، مما يسمح بإخضاعهم بحد أدنى من الجهد.

٢ـ معاهدة عبد القادر ـ دو ميشال (١٨٣٤م)

تقع مدينة (المدية) الى جوار مدينة (مليانة)، ونظراً لأهمية موقعها، فقد حاول الافرنسيون الاستيلاء عليها، وفي الوقت ذاته كان (باي قسنطينة) يفكر باحتلالها نظراً لأنها تقع على مفترق الطرق، ولأنها همزة الوصل مع المغرب، ولذلك قرر الامير عبد القادر احتلالها ليتخذها ذريعة للهجوم على (باي قسنطينة). غير أن أصدقاء الأمير القدامى (الحاج موسى) وهو من اسرة شريفة قد أصبح من اعدائه، وأخذ في استثارة جميع القبائل العربية، نظراً لمناهضته للباي حاكم قسنطينة الذي كان يخوض صراعاً مريراً وجهاداً مشرفاً ضد الكفار. ونادى (الحاج موسى) جهاراً، فطالب الناس بالجهاد، ورفع رايته، وجاءته جموع المجاهدين من (باي قسنطينة) و (باي تونس) فامكن له بذلك حشد قوة من (١٢٠٠) فارس. وقادهم الى باب (المدية) وطلب من حراسها ان يفتحوا له باب الحصن، فامتنعوا، ودارت بين الطرفين مجموعة من المعارك استمرت اسبوعين انتهت بنجاح (الحاج موسى) في فرض إرادته على (المدية) التي فتحت له ابوابها، واتفقت معه على دعمه بالمؤن لمهاجمة الافرنسيين. غير ان الحاج موسى طلب الى الامير عبد القادر قبل قيامه بالهجوم أن ينضم اليه ليجاهدوا معاً في سبيل الله.

وكان الامير عبد القادر في هذه الفترة قد بدأ اتصالاته مع الافرنسيين لتوقيع (هدنة) فأجاب (الحاج موسى) بأنه اتفق مع الافرنسيين. وان دينه يأمره بتنفيذ الاتفاق، وانه يمنع (الحاج موسى) منعاً باتاً من أن يمر على أراضيه عند تقدمه لمهاجمة الافرنسيين. ومضت ثلاثة ايام ظهر للحاج موسى بعدها أن يهاجم الامير، فخاض ضده معركة قصيرة وحاسمة، انتهت بمصرع (٦٠) مقاتلاً من رجال الحاج موسى ووقوع (٩٥) أسيراً في قبضة الامير عبد القادر. الذي أسرت قواته ايضاً (٢٦٠) امرأة وولداً، واضطر (الحاج موسى) للانسحاب تاركاً وراءه الغنائم والمواشي لخصمه الامير عبد القادر الذي استثمر الموقف فأسرع بالاستيلاء على (المدية) ودمر جميع الذين أيدوا الحاج موسى ووقفوا الى جانبه، وبصورة خاصة منهم الكراغلة.

كان الجنرال(تريزيل) [1] قائد وهران يتابع الموقف، وفي اعتقاده ان القبائل ستنتصر على الامير عبد القادر وعندئذ يمكنه قيادة قواته ضدها لتدميرها، وبذلك يكون قد شارك في هزيمة الأمير، وفي كسب مناطق شاسعة يضمها للحكم الافرنسي. ومن اجل ذلك نظم شبكة من الجاسوسية لزيادة تدهور الموقف، ودفع لجواسيسه مبالغ طائلة، كما وجه رسائل الى زعماء القبائل تحمل وعوداً وامنيات مغرية. غير أن الاخبار وصلته بسرعة وهي تشير الى انتصار الامير على منافسيه، ليس ذلك فحسب، بل ان بعض القبائل انضوى تحت راية الامير. وعندئذ اسرع (تريزيل) فوقع معاهدة مع (ود بن اسماعيل) زعيم (الدوائر والزمالة)

---

(١) تريزيل: (CAMILLE TREZEL) جنرال فرنسي من مواليد باريس (١٧٨٠-١٨٦٠) اكتسب شهرة في الجزائر، وبصورة خاصة في معركة المقطع (١٨٣٥) واصبح وزيراً للحرب في فرنسا سنة ١٨٤٧ م.

في اقليم وهران نصت على ما يلي:

اولاً: أن تكون تلك القبائل تحت حماية فرنسا وان تقف الى جانبها.

ثانياً: تخضع هذه القبائل لمن يولى منهم، بالموافقة مع القائد لولاية ـ ايالة ـ وهران.

ثالثاً: تدفع هذه القبائل ما كانت تدفعه قبل اليوم للحكومة الجزائرية ايام الحكم العثماني أو ما كانت تدفعه للامير عبد القادر.

رابعاً: لا يسوغ لهذه القبائل ان تأتي أمراً الا بعد الحصول على الإذن من حاكم وهران.

وعلم الامير عبد القادر بهذا الانحراف الثقيل، فجمع الناس وقام فيهم خطيباً فقال:

«الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله واصحابه. أما بعد. فاعلموا أن الله تعالى قلدني هذا الأمر للمدافعة والدفاع عن الدين والوطن، وقد بلغكم خبر هذا الرجل ـ ابن اسماعيل المتنصر ـ فان تركته وشأنه فإني أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الافرنسيين على حين غفلة. وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا اصلاحه» وبعد ذلك قرر الحاضرون على ضرورة محاربته، وكرروا له أنهم يؤيدونه.

زعمت (الدوائر والزمالة) أنها خضعت لفرنسا بسبب قربها من مواقعها، غير أن هذه الذريعة لم تقنع الامير، إذ لا يمكن له القبول بذريعة (القسوة والمعاناة) ان تكون سبباً للخيانة، لا سيما وانه اذا قبل

الأخذ بهذه الذريعة، فان كل مخططاته لحصار الأعداء وتحرير البلاد ستنهار من اسسها. وفي هذا الوقت، رفع حاكم وهران (تريزيل) المعاهدة التي وقعها مع (ود بن اسماعيل) الى الحاكم العام (دو ميشال) الذي رد على ذلك بأن (هذا الود بن اسماعيل) اضعف من أن يقف في مواجهة الأمير، وانه من الافضل التعامل مع (الامير مباشرة). ولكنهـ أي دو ميشالـ كان في حاجة للمناسبةالتي تفتح له مجال الحوار مع الامير، وجاءت هذه المناسبة مع نهاية تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٣ م. عندما توجه عربي (اسمه قدور) من قبيلة (البرجية) الى مدينة ارزيو، وباع مواشيه الى الافرنسيين. وعند رحيله، طلب من القائد الافرنسي أن يعين له قوة لمرافقته لانه بات يخشى بطش جند الأمير عبد القادر. واستجاب القائد الافرنسي لهذا الطلب، فكلف اربعة فرسان بموافقته، غير ان هؤلاء لم يبتعدوا عن المدينة اكثر من كيلومترات قليلة حتى انقضت عليهم قوة من المجاهدين فقتلت أحد الفرسان، واقتادت البقية أسرى إلى مدينة (معسكر). واستقبل (دو ميشيل) خبر هذا الحادث بالغبطة، اذ وجد الفرصة لكتابة رسالة للأمير عبد القادر جاء فيها ما يلي: « إنني لا أتردد مطلقاً في أن اكون البادىء في اتخاذ هذه الخطوة، على الرغم من أن وضعي لا يسمح لي بذلك، ولكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة اليك، لذلك فإنني أطلب حرية اولئك الإفرنسيين الذين سقطوا في كمين بينما كانوا يحمون عربياً. وإنني لا أتوقع أن تجعل إطلاق سراحهم مرهوناً بشروط معينة، ما دمت أنا قد أطلقت في الحال سراح بعض أفراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة، عندما سقطوا في يدي نتيجة الحرب وأطلقتهم من غير شروط، بل لقد عاملتهم أحسن معاملة، وبناء عليه آمل من سمو الأمير إذا كان يرغب في أن يأخذ من

التقدير قدراً عظيماً، ألا يطيل المراجعات، وأن ينعم بإطلاق الاسرى».

ولم يرغب الامير من عدوه أن ينال ما وصفه (بالقدر العظيم من التقدير) فتجاهل الرد فكتب اليه (دي ميشيل) رسالة ثانية جاء فيها: «من الجنرال دي ميشيل الى الامير عبد القادر بن محيي الدين. لي امل بأن تطلق الحرية للأسرى الأربعة التعيسي الحظ والمحبوسين في قلعة معسكر. وما كنت اتردد عن السعي لديكم فيما تمنعني وظيفتي الرسمية عنه، حيث تدفعني الانسانية اليه.

ولعلمي أن البشر الراقين الى الدرجات العليا عليهم أن يمتازوا بأعمال كريمة دالة على التفاوت الذي وضعه الله بينهم، فأرجو الافراج عن الافرنسيين الذين وقعوا في شر مكيدة وهم في الدفاع عن بعض العرب لتخليصهم من انتقام أبناء جنسهم. ولا أظن أنكم تضعون في طريق ذلك العقبات، لانكم اذا رغبتم ان تعدوا من كبار أهل الأرض لا تتأخروا عن اظهار أخلاقكم، واذا أوقعت الحرب بين يدي بعض أتباعكم فأنا أعدكم بارجاعهم دون تعويض- او مبادلة».

ومرة ثانية تجاهل الأمير عبد القادر رسالة (دي ميشيل) فجاءته الرسالة الثالثة وفيها:

«الى الأمير عبد القادر بن محيي الدين.

بما أنني لم أتلق جواباً على رسالتي التي بعثتها اليكم منذ شهر، فأحب إلي القول بأنه لم تصلكم من أنكم لم تلتفتوا الى قبول طلبي وعليه، جئت للمرة الثالثة اكرر طلب إطلاق سراح الاسرى الافرنسيين المحتجزين لديكم، لأنهم لم يؤخذوا في ساحة الحرب، بل سقطوا في أقبح خدعة واسوأ مكيدة، وعلي أن أذكركم أن فرنسا هي أقوى دولة في الدنيا، فليس من الحكمة ان تستمروا في مقاومتكم لها، واذا كان

باستطاعتي اليوم أن انتصر عليكم قبل وصول النجدات التي انتظرها فما تكون حالتكم اذا فرغ صبر فرنسا نحو العرب، وأرسلت ما تهيؤه لي، فعندها تهاجمكم قواتنا فتبعثركم كما يبعثر الهوى الرمال. فاذا رغبتم البقاء في مركزكم السامي، فما عليكم الا الاجابة على دعوتي لعقد معاهدة بيننا، وتعود القبائل لزراعة حقولها الخصبة حتى تقدم ما يحتاجه الشعب العظيم».

عند ذلك، لم يجد الامير عبد القادر حرجاً في الرد على هذه الرسالة المثيرة، فكتب رسالة جاء فيها ما يلي:

«من الامير عبد القادر بن محيى الدين - الى الجنرال دو ميشيل، اما بعد:

فقد وصلنا كتابكم المتضمن أفضل النصائح، فقدرناها قدرها، وعلمنا أنكم تحثونا في كتبكم الثلاثة على الإفراج عن الأسرى، وتندبون حظكم، مع أننا نعتني بشأنهم غاية الاعتناء، وليست عملية الافراج عنهم ذات أهمية عندنا، غير أن الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم دون فدية، فاذا رغبتم في الاتفاق قبل تسليم الأسرى اليكم عند المعاهدة بيننا، لأن ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداء، ويسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا. وان الثقة التي منحتمونا اياها في تحاريركم حملتنا على أن نبادلكم المخابرة، وان المفاوضة التي تطلبونها تقتضي ان تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم، ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتوني شروطكم وما تطلبونه مني، وأنا أعرفكم بمثلها والله المعين. وكيف تفاخروني بقوة فرنسا، ولا تقدرون القوة الاسلامية، مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على قوة الاسلام وانتصاراتهم على اعدائهم، ونحن وان كنا ضعفاء على حد زعمكم،

فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو ولا شريك له. ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائمًا. بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، عم أن الموت مسر لنا، وليس لنا ثقة الا بالله وحده لا شريك له... وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لألذ لنا من الصوت الرخيم، فاذا صممتم على عقد صلات ودية بيننا وبينكم، فأفيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا، مأذونين بالمفاوضة معكم، وحينئذ تتم أمانيكم بمعونة الله. ولا تظنوا بأننا نأسف اذا اضطررنا الى ترك البلاد، لأننا نعلم يقيناً أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده. وان سلمنا وراثتها، فحيث ما كنا نجد أمتنا. وقد ظهر لنا من مضمون كتبكم انكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال، ومسابقتهم للنزال في كل زمان ومكان، واذا عدتم الى كتب التاريخ، قرأتم ما أجروه في آسيا وجهات الشام من الجرأة والثبات والاقدام والفتوحات التي أظهرها الله على أيديهم».

وجاء رد (دو ميشيل) في رسالة أكد فيها رغبة فرنسا بالتفاهم مع الامير عبد القادر، ورأى الامير الرد على مضمون الرسالة بما حملته رسالته التالية:

«بعد التحية، وصلني كتابك الذي أظهرت فيه رغبتك في الحصول على اطلاق سراح الأسرى الذين أوقعتهم الأقدار الربانية بين ايديكم. وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب. ومن المعلوم عندكم أن جميع الأسرى الذين وقعوا في أيدي عساكركم في ميادين الحرب، لم اتعرض لكم ولا لمن قبلكم في اطلاقهم، ولا أتعب أفكاركم بمراسلة قط، لان حكمهم عندي حكم الاموات، وموتهم أعتبره حياة لهم، غير أني كنت أتألم عليهم شفقة

ورحمة. وقولكم أن هؤلاء الاسرى الذين تطلبون اطلاق سراحهم ما كان خروجهم لأمر يتعلق بكم، بل كانوا يحمون عربياً من انتقام ابناء وطنه، فهذا لا أعتبره وسيلة لاطلاقهم، فان المحافظ والمحافظ عليه كلاهما أعداء لنا، وانتهاز الفرصة في الانتقام منهم غاية مقصودة، وسائر العرب الذين عندكم أوغاد وأرذال، يجهلون واجباتهم الدينية، هذا واني رأيتك تفتخر بأنك أطلقت الأسرى من الغرابة والزمالة، من غير شروط، مع انك لو راجعت أفكارك لوجدت أن رحمتك انما كانت لأناس استظلوا بظلكم، واحتموا بحماكم، وكانوا عيوناً لكم على المسلمين، ويخدمونكم بكامل الصدق. ومع ذلك فان عساكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه. فلو كان هذا المعروف الذي تذرعتم به مع غير هؤلاء كالحشم وبني عامر مثلاً، لكان يحق لكم الفخر، وكنتم تستحقون الشكر. وعلى كل حال، فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم أو يومين، يظهر للعيان من يستحق الفخر منا».

عند هذه المرحلة توقفت المراسلات التمهيدية، واستمر الصراع. ووجدت القوات الافرنسية انها تجابه اكثر من جبهة، وأنها تتلقى الهزيمة تلو الهزيمة على كافة الجبهات، فقررت مهادنة بعض الجبهات للتفرغ للجبهات الاخرى، وكان يهمها إسكات الجبهة الاقوى ـ جبهة الامير عبد القادر ـ والذي كان بدوره يحتاج لنوع من الهدنة حتى يتفرغ جزئياً لبناء دولته وتطوير قدراته. وعاد (دو ميشيل) للامساك بالمبادأة، فأرسل رسالة جاء فيها:

«الى سمو الامير عبد القادر:

حيث لا تجدني ايها الامير غافلاً أبداً عن كل فعل حسن، فاذا

كان سموكم يريد ان نتباحث في أمر المعاهدة، فأنا مستعد لذلك، مع الأمل بأنه يمكن الحصول على معاهدة موفقة يتوقف بها سفك دماء أمتين اقتضت الارادة الالهية الا تكون تحت سلطة واحدة».

وفضل الأمير عبد القادر في هذه المرحلة، اظهار موقف اللامبالاة من العرض الافرنسي، فلم يرد على الرسالة واستخدم في الوقت ذاته مندوبه في وهران (اليهودي مردخاي عمار) لتهدئة ثائرة (دو ميشيل) من عدم الرد، واختلاق المعاذير المناسبة. فاضطر (دو ميشيل) لكتابة رسالة جديدة يرد عليها الامير بما يلي: «وصلتني رسالتك، وفهمت مضمونها، ويسرني أن اجد عواطفك تتفق مع عواطفي. انني اشعر بثقة نحو نواياك المخلصة، ويمكنك ان تثق بأن أي التزام يمكن أن نتوصل اليه سيكون محل احترام من جانبي، انني ارسل اليك ضابطين من جيشي، وهما (مولود - مليود - بن عراش، وولد محمود) وسيجتمعان خارج وهران (بمردخاي عمار) وسيعلمانه بكل المقترحات فاذا قبلتها تستطيع أن ترسل الي، وعندئذ سنكتب معاهدة تقضي على البغضاء والعداوة اللتين تفصلاننا الان عن بعضنا، وتحل محلها صداقة لا انفصام لها. ويمكنك الاعتماد علي لانني لم اخل ابداً عن كلمتي».

تمت المقابلة المقترحة يوم ٤ شباط - فبراير - ١٨٣٤م

حمل ابن عراش شروط دو ميشيل يوم ٢٥ شباط - فبراير - ١٨٣٤. وجاء فيها:

١ - تتوقف الحرب منذ اليوم بين العرب والافرنسيين.

٢ - ستكون عادات المسلمين وشرائعهم الدينية موضع الاحترام.

٣ ـ يتم اطلاق سراح الأسرى الإفرنسيين.

٤ ـ تبقى الاسواق التجارية حرة.

٥ ـ يعيد العرب كل هارب إفرنسي.

٦ ـ يتنقل كل مسيحي داخل البلاد، على ان يحمل جواز سفر ممهور بخاتم قنصل عبد القادر وختم الجنرال دو ميشال.

ووضع الامير شروطه، ثم دمجت هذه الشروط في معاهدة واحدة حملت اسم (معاهدة الامير عبد القادر ـ الجنرال دو ميشال)[1].

الأمر الواضح هو أن الامير عبد القادر قد اراد لهذه المعاهدة ان تكون اكثر من هدنة، اما الإدارة الإفرنسية فارادتها أقل من ذلك. وظهر ذلك في المهمة التي حددتها الإدارة الإفرنسية لقنصلها لدى الأمير عبد القادر وهو (عبد الله ميسون) الذي كان من مماليك الأمراء المصريين ثم تطوع في الجيش الافرنسي، وأخلص في خدمة فرنسا، فأرسلته الى عاصمة الأمير وكلفته بالتالي:

أولاً: أن يكثر اتصالاته برجال ديوان الأمير والوزراء والمسؤولين في ولاية ـ ايالة ـ وهران وإغداق الاموال عليهم حتى يميل هؤلاء الى القيادة الافرنسية، وحتى يمكن له الحصول على اسرارهم، والاستعانة بهم إذا ما فكر الأمير بنقض المعاهدة.

ثانياً: الاندماج بالشعب، مستفيداً من أصله العربي، لإبراز قوة فرنسا وادخال الرعب في نفوس الجماهير حتى لا تتجاوب مع الأمير، وحتى تخذله في الوقت المناسب.

ثالثاً: تجنيد المتعلمين والمثقفين، لمراقبة الامير من جهة، وجمع

---

(١) انظر ـ قراءات (١) في نهاية هذا الكتاب.

المعلومات عن حالة البلاد بصورة دقيقة.

وانطلق (عبد الله ميسون) لتنفيذ مهمته، واتبع كل اساليب الغدر والنفاق في محاولاته لاستثارة عواطف الجزائريين، فكان يجتمع بالمثقفين بالأندية، ويحاضرهم، ومن بين ما كان يردده على أسماعهم: ان الجزائر لا يمكن ان تستغني عن فرنسا. وأن الأمير بما عرف عنه من يقظة الضمير، والتعمق في الدين لا بد له وان يتفق معها حتى يعيش الشعبان في رفاهية ورغد. وأن الامير سيدرك أن الحضارة الإفرنسية قد أثرت الإنسانية وأغنتها. وكم كانت دهشة (عبد الله ميسون) عندما تصدى له أحد حضور ندواته من المواطنين، ليقول له: «لقد أعلن الإفرنسيون بألسنتهم وأقلامهم تحرير الانسان، والغاء الرق، والمساواة أمام القانون، ثم راحوا يفرضون علينا رقاً آخر، من نوع أقسى وأمر، رقاً بغير قانون، وعبودية بقيود متطورة. إن ما تقوله الان وتتشدق به هو ظلم وبهتان. وإن ما يريد الجيش الافرنسي أن يفرضه من الرق اليوم على شعب الجزائر، انما هو أسوأ مما حاول أن يفرضه الدخلاء الذين جاءوا الى الجزائر بقصد التحكم في مصائرها. لئن سبق للدخلاء في الماضي السحيق استغلال حاجة الفقير الى لقمة العيش، ويستغلوا ضعفه واضطراب الخائنين من بطش الطغيان وجبروت الحديد والنار، وقسوة الحكم الغاشم، واتخذوا الفقر والجهل والخوف مرافق استغلال في نفوس الضعفاء، فان الوضع اليوم اصبح يختلف كل الاختلاف عما كانت عليه في الماضي. فبفضل سياسة (فرق تسد) التي جاء بها الدخيل، قد أصاب الشعب الجزائري عبء ثقيل من الرزايا أثر في بلده الأمين ووضع من قدره. ولكن لم يتمكن هؤلاء الاجانب من أن يقذفوا ببلائهم، ويرموا بسهامهم المسمومة، الا بعد افتراقنا وتدابرنا أما الان، فقد ظهر الحق من الباطل، ولا يأتي

لدو ميشيل أو من يعمل في ركابه من أن يلمح بسيف العدوان في وجوهنا». فسكت (عبد الله ميسون) واعتذر للحاضرين، وعرف أن مهمته ليست بالمهمة السهلة، لا سيما وقد أخذ الامير الذي كان يقابله ببشاشة في تتبع خطواته، وكلف عدداً من أبناء الجزائر بمراقبة كل تحركاته حتى لا يثير الشك في أذهان المواطنين. وبدأت العزلة تحيط به حتى وجد نفسه مرغمًا في النهاية على الكتابة للحكومة الإفرنسية معتذراً عن الاستمرار في تنفيذ مهمته، وشارحاً لها الموقف القوي للامير عبد القادر بقوله: **«إن الامير على صلة متينة بتونس والمغرب وليبيا ومصر ومكة. وان امير مكة الذي يعتبر خليفة للمسلمين قد أعانه كثيراً، وهو يتلقى منه كل تأييد وتشجيع. ولهذا لن تتمكن فرنسا من السيطرة على الامير إلا إذا أوقفت هذه الاعانات المستمرة»**.

٣ـ معركة المقطع

(٢٦ حزيران - يونيو- ١٨٣٥ م)

لم يقبل كل المسؤولين الإستعماريين في فرنسا - والجزائر - بمعاهدة (عبد القادر- دو ميشال) ولا قبل بها كل المسؤولين من عرب الجزائر المسلمين، وكانت حوافز الرفض للمعاهدة متباينة لدى الطرفين، ومختلفة في كل طرف من الطرفين أيضاً، وكان لا بد للأمير عبد القادرمن خوض صراع مريرضد المناوئين والخصوم الذين ظهروا بغتة ليشكلوا جبهة واحدة ضد الأمير. وكان من أكثر ما أزعج الأمير وآلمه هو وقوف (بنو عامر) ضده وامتناعهم عن دفع الضرائب نظراً لتوقف الحرب - من وجهة نظرهم وقد كان هؤلاء هم أكثر اتباعه غيرة وحماسة، وبفضلهم أمكن له تحقيق معظم انتصاراته. وأمام هذا الموقف لجأ الأمير الى عدوه القديم وحليفه الحالي (مصطفى ود بن اسماعيل) وكلفه بإعداد قبائل (الدوائر والزمالة) في تلمسان لتأديب بني عامر واخضاعهم. واغتنم الزعيم (ابن اسماعيل) الذي كان على رأس (المخزن التركي) هذه الفرصة السانحة للانتقام من أعدائه القدامى وقاهريه، وفرح بما تضمنه له هذه الفرصة من غنائم وفيرة، بقدر فرحته في تدعيم هيبته على القبائل التابعة له نتيجة اعتماد الأمير عليه في تنفيذ مهمة من أخطر المهام. غير أن حدثاً تدخل بصورة طارئة

ليحول من مسيرة الأحداث، فبينما كان الأمير عبد القادر يلقي خطبة صلاة الجمعة كعادته في مسجد معسكر، وقع بصره على بعض شيوخ بني عامر، فتوجه إليهم على الفور بحديثه: «**وأنتم يا بنو عامر، ألستم أول من دعاني الى المركز الذي أتولاه الآن؟ ألستم أول من رجاني أن أقيم حكومة منتظمة توحي الى الأخيار بالثقة والى الأشرار بالخوف؟ ألم تتعهدوا بشرفكم بأن تضعوا حياتكم وأموالكم وكل ما هو عزيز ومقدس لديكم لدعمي ومساعدتي في مهمتي الشاقة؟ فهل ستكونون أول من يتخلى عن القضية المشتركة، وأول من يؤيد ويشجع، بإعطاء المثل، المؤتمرات ضد نفس الحكومة التي أقمتموها؟ كيف يمكن لأية حكومة الاضطلاع بواجبها بدون ضرائب، وكيف يمكن أن تبقى بدون اتحاد وتأييد الجميع؟ هل تظنون أن أصغر قطعة نقدية في الضريبة التي أطلبها ستستخدم في مصارفي الشخصية أو العائلية؟ إنكم جميعاً تعلمون ان أملاك والدي تكفي لحاجاتي الشخصية. إن ما أطلبه هو ما فرضه قانون الرسول ﷺ كمسلمين حقيقيين. وإنني أقسم بالله العظيم ان ما يدخل يدي سأحتفظ به كأمانة مقدسة من أجل انتصار الإسلام**».

تأثر شيوخ بني عامر لهذا النداء الصادر من القلب والذي يخاطب العقل. فتنادوا الى الاجتماع وجددوا بيعتهم وولاءهم، وتعهدوا بدفع الضرائب التي يطلبها الأمير. وأرسل الأمير عبد القادر على الفور رسولاً الى (مصطفى بن اسماعيل) يطلب إليه وقف مسيرته ضد بني عامر. ولكن ما أن مضت أيام ثلاثة حتى أقبل فارس يسابق الريح ليعلم الأمير بأن (مصطفى بن اسماعيل) قد بدأ هجومه على الرغم من الأمر الصادر اليه. وسرعان ما جمع (عبد القادر) قوة

من الفرسان وسار بهم حتى إذا ما اقترب من قوات (ابن اسماعيل) أرسل إليه طلباً بالانسحاب. وحين رفض هذا تنفيذ الطلب، هاجمه بفرسانه، ولما كان عددهم قليلاً، فقد تمكن (بن اسماعيل) من تمزيقهم حتى لم يبق مع الأمير الا قلة من الرجال الذين احاطوا به، وحاربوا معه حتى قتل معظمهـم، ولم ينسحب الأمير الا بعد ان خاض معركته اليائسة بما يشبه المعجزة. فقد اخترق برنسه عدد كبير من الرصاص، وأصيب حصانه بجراحات كثيرة. وأمكن له في النهاية اختراق قوات العدو المحيطة به، والمرور من بينها كالسهم ليعود وحده الى (معسكر) في أعقاب الليل.

ما كادت أخبار هزيمة عبد القادر تنتشر، حتى استيقظت روح التمرد، فهذا (سيدي العريبي) يرفع لواء الثورة. وهذا الغماري وبنو نجاد يتبعونه ويستعدون للانضمام الى حاكم تلمسان (سيدي حمادي) الذي كان على صلة (بمصطفى بن اسماعيل). ولم تزعج هذه الأخبار الأمير أو تضعف من ارادته وها هو يجمع (١٥) ألف فارس من بني هاشم القرابة وبني مجاهر وبني عباس وبني عامر، ويتولى قيادتهم للمعركة، وانسحب ابن اسماعيل بقبائل الدوائر والزمالة الى مكان حملاتهم القديم قرب وهران، على أمل تلقي دعم الافرنسيين. غير أن هؤلاء خذلوه. وتقابل الأمير مع ابن اسماعيل في سهول (محرز) يوم ١٣ تموز - يوليو - ١٨٣٤ ودارت رحى معركة طاحنة لم تصل الى الحسم بقدر ما استنزفت قوات الطرفين ووجد الطرفان أن مصلحتهما تفرض عليهما (المصالحة) فتم الاتفاق على ذلك. ومضى عبد القادر حتى اخضع كل خصومه. وتخلص من أخطر خصمين له هما (سيدي العريبي) الذي مات في السجن و(الغماري - رئيس بني أنجاد) الذي

حوكم وحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم. عاد الأمير الى (معسكر) منتصراً. وأثناء ذلك استبدلت ادارة الجزائر الافرنسية، فتم تعيين (ديرلون) حاكماً عاماً على الجزائر[1] خلفاً للجنرال (دي ميشيل) وكتب الأمير الى الحاكم الجديد مهنئاً، ومعلماً اياه بنصوص معاهدته، فأظهر (ديرلون) استغرابه من هذه المعاهدة التي يجهل عنها كل شيء. كما أعلم الأمير بأنه ليس من حق (دي ميشيل) توقيع معاهدة تتجاوز حدود الولاية التي يحكمها (وهي وهران) وتضمن رده ايضاً ما يلي: «إن رأيي الخاص هو أن لا تجتاز الشلف الأسفل في اتجاه الشرق. فإذا حكمت الاقليم الذي هو الآن تحت يديك طبقاً للقوانين الإسلامية، وبعدل صارم، فسنكون أصدقاء ولكننا لن نسمح لك بدخول إقليم تيطري. فما يجري في هذا الاقليم هو من شأني. واني لست في حالة حرب مع سكانه. وليس لي حاضراً مشاريع لاقامة منشآت في البليدة أو بوفاريك. ولكن اذا رأيت ذلك في المستقبل من أجل مصلحة فرنسا، فاني لن أسمح لأحد باعتراض سبيلي».

كان ذلك يعني الغاء المعاهدة، وكان لا بد للأمير من التعويض عن ذلك بعمل عسكري فانصرف للقضاء على أعمال التمرد التي قادها (أولاد سيدي العريبي) في (وادي شلف) وما أن فرغ منها، حتى

---

(١) ديرلون: «DROUET D ERLON» ويعرف بجان بابتيست JEAN - BAPTISTE ماريشال فرنسا، ولد في ريمس (REIMS) عاش في الفترة (١٧٦٥ ـ ١٨٤٤) وظهرت عبقريته في معركة واترلو ـ وكان أول حاكم عام عين في الجزائر سنة ١٨٣٤، وقد تم ذلك بعد تبني وجهات نظر (اللجنة الافريقية) التي قررت ضم الجزائر نهائياً الى فرنسا. وكان الحكام الافرنسيون قبل ذلك يحملون لقب (قائد الحملة الافرنسية) أو قائد قوات الغزو.

التفت لقمع حركة (الحاج موسى بن حسن الملقب بأبي حمار) وهو من أشراف الصحراء، دخل المدية، ونشر فيها الطريقة الشاذلية، وأمكن له جمع القوى حوله. وكان لا بد للأمير من تجاهل تحذير (ديرلون) فاجتاز نهر الشلف وخاض معركة حاسمة انتصر فيها على (الحاج موسى)، واستولى الأمير على اقليم تيطري، وأعاد تنظيمه. وعندئذ وجد (ديرلون) أنه من الأفضل الالتزام بالسياسة الافرنسية التي كانت ترى في تلك الفترة ضرورة مهادنة الأمير الذي اعتقدت فيه وسيلتها للصعود الى أعالي الأطلس. فأرسل مسودة معاهدة جديدة للأمير عبد القادر الذي أرسل بدوره مسودة ضمنها شروطه. وكان ذلك ضد رغبة (تريزيل) الذي كان يريد التصدي للأمير ومجابهته بالقوة. وفي تلك الفترة عادت قبائل (الدوائر والزمالة) الى سابق عهدها في التعاون مع فرنسا وإمداد قوتها بمتطلباتها وتجاوزت ذلك عندما وقعت مع فرنسا معاهدة وضعت فيها نفسها تحت الحماية الافرنسية. الأمر الذي يعتبر تحدياً صارخاً للأمير الذي لم يقف صامتاً، فأرسل احتجاجاً جاء فيه: **«إن الدوائر والزمالة هم رعيتي، وبناء على قانوننا فإن لي الحق في أن أفعل بهم ما أشاء. فإذا سحبت منهم حمايتك وتركتهم يطيعوني كما كانوا، فذلك ما أريد. واذا كان موقفك عكس ذلك، فأصررت على التنكر لالتزاماتك، فاستدع في الحال قنصلك من مدينة - معسكر - لأنني لن أرفع يدي عن قبائل الدوائر والزمالة، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران، إلا بعد أن يندموا ويتوبوا وبالإضافة الى ذلك، فإن ديني يمنعني من السماح لمسلم أن يكون تحت سلطة مسيحي، فاختر ما يحلو لك، أو أن إله الحرب سيحكم بيننا»**. ولم يبق امام (تريزيل) حاكم وهران إلا الاستعداد للحرب. وكانت الاشتباكات قد بدأت بالفعل قبل ذلك بوقت قصير، إذ كان الأمير عبد القادر قد أرسل

بعض قواته لازعاج قبائل (الدوائر والزمالة) وأمكن أسر بعض شيوخهم والاستيلاء على مواشيهم. فأرسل حاكم وهران (تريزيل) قوة عسكرية لحماية مخيماتهم قرب (مسرغين) وفي ١٦ حزيران - يونيو- ١٨٣٥ م. وقعت الزمالة والدوائر معاهدة الحماية مع (تريزيل). ولم يلبث حاكم وهران هذا (تريزيل) أن أرسل قوة من الفرسان للإغارة على مزارع بني هاشم الغرابة بحجة الحصول ما تحتاجه القوات الإفرنسية من الشعير، وما ان علم الأمير عبد القادر بالعدوان على قبيلته الخاصة حتى أرسل (ألفي) فارس و (٨٠٠) راجل الى نهر (سيق). وقرر (تريزيل) مهاجمة هذه القوة قبل أن يتم دعمها بقوات أكبر. لذلك قاد يوم ٢٦ حزيران (يونيو) ١٨٣٥، تضم (٥) آلاف من جند المشاة، وفرقة من قناصي أفريقيا وأربع قطع مدفعية وعشرين عربة إمداد وتموين ومستشفى ميدان عـادي . ووصلت هذه القوة (غابة مولاي اسماعيل) وأخذت في اقتحام الغابة، وشرعت في اطلاق النار على ما ظنته كتيبة عربية ضالة (شاردة) ولكن النار أعيدت بعنف وقوة. وسرعان ما ظهر الفرسان لقد كانوا طلائع عبد القادر قادمين من جهة نهر السيق ولم تمـض اكثر من دقائق قليلة على هذا الاشتباك الأولي، حتى هوجمت القوات الافرنسية بهجمات عنيفة على جبهتها ومجنباتها، وكان ذلك مباغتاً الى حد مذهل للقوات الإفرنسية، وزاد من تأثير المفاجأة كثافة الغابة، وطبيعة الأرض المتموجة التي كانت تخفي العدد الحقيقي للمجاهدين المسلمين. هذا بالاضافة الى صيحات الحرب (الله أكبر) والتي كانت تثير فزع الجند الافرنسي، وتحمله على الاعتقاد بتقدير قوة المسلمين أضعاف ما كانوا عليه في الحقيقة. وأدى ذلك الى تمزيق التنظيم القتالي - نظام الصف - للقوات الافرنسية. التي حاولت

إجراء بعض التغييرات لإصلاح التشكيل القتالي، غير ان هذه المحاولات فشلت. وأثناء ذلك صدر الأمر الى الفرق الخلفية الإفرنسية بالتقارب لتشكيل سد، كما صدر أمر مماثل الى الوسط للتلاحم، مع إبعاد قوة الفرسان. وفي وقت قصير، دبت الفوضى في كامل الجيش الإفرنسي. فدخل الفرسان في الميدان، ولم يكن المشاة والمدفعية قادرين سوى على إطلاق النار بدون هدف. وبعد فترة قصيرة بدأت حدة الهجوم العربي في التباطؤ، وأخذ الافرنسيون في المرور عبر صفوفهم، وكانت عربات المؤونة قد احتجزت وأفرغت، كما حطمت براميل الخمر. وكان الجميع يأكلون ويشربون بشراهة. وبذل الضباط الافرنسيون جهوداً جبارة في محاولة للسيطرة على الموقف، وأمكن لهم في الواقع استئناف التحرك نحو الأمام، ووصل الجيش الافرنسي عند الغروب الى (نهر سيق) وهناك نصبوا معسكرهم في مربع ثابت. ولحسن حظ الافرنسيين كان جيش عبد القادر الرئيسي، الذي انطلق في تقدمه السريع من (تلمسان) قد اضطر للتوقف خلال فترة قصيرة على بعد فرسخين من ذلك النهر، لذلك استطاع الافرنسيون الحصول على بعض الراحة في الليل. وعند الفجر، بدأ (تريزيل) بالانسحاب ولكن الأمير عبد القادر كان يتحرك بسرعة أكبر، فقد عمل خلال الليل على قيادة بعض قواته، ووضعها على محاور الاتصال مع وهران. ولم يكن باستطاعة (تريزيل) تجديد الاشتباك مع قوات الأمير، لذلك قرر السير الى مدينة (أرزيو) عن طريق الساحل. ولكنه كان يعرف مدى الصعوبات التي تجابهه اذا ما تحرك مباشرة في ذلك الاتجاه (حيث كانت هناك اجزاء من الأرض غير صالحة لسير العربات أو حاملات المدافع) فقرر أن يتحول الى (جبال حميان) وأن يظهر على سهل أرزيو عن طريق مضيق نهر الهبرة، حيث

يغير نهر الهبرة اسمه ليحمل اسم (نهر المقطع). وحين رأى الأمير عبد القادر حركة القوات الافرنسية، عرف هدفها على الفور، فإذا استطاع أن يستولي على مضيق نهر الهبرة، قبل أن يصلوا إليه فانه يعلم أنهم سيكونون تحت رحمته. ولكن المسافة كانت بعيدة جداً على المشاة لتحقيق ذلك الهدف خلال الفترة الزمنية المتوافرة له. فاختار (عبد القادر) ألف فارس، وأمر كل راكب أن يردف معه جندياً من المشاة، وأن يسرعوا الى المكان المعين. وأمكن تحقيق العملية بنجاح كامل. فالفرنسيون، بعد أن عانوا مشقة كبرى، استطاعوا عبور سهل سيراط، وبعد مطاردة الفرسان العرب لهم طوال الطريق، دخلوا مضيق (الهبرة) حوالي منتصف النهار. وقد ذهلوا عندما وجدوا منحدري المضيق مدججين بالسلاح. وحين تقدموا رميت عليهم قطع كبيرة من الصخور وبينما كان الجند الإفرنسيون مشغولين بالمناوشات خلال ساعتين، أمكن لهم فتح الطريق ببطء وبتضحيات كبيرة. وأثناء ذلك، كان عبد القادر وجيشه كله قد سد عليهم الطريق من الخلف. وقد خشيت مؤخرة الافرنسيين من عزلها عن بقية الجيش. فاندفعت الى الامام وهي في حالة من الفوضى المريعة، فقد تحول جزء من مستشفى الميدان والمدفعية الى اليمين وغرق في المستنقع. أما رجال المدفعية فقد فصلوا المدافع عن حاملاتها، وهربوا. واختلطت القوات بعضها ببعض، وأسرعت الكتائب أو أجزاء منها، هنا وهناك، باحثة عن مخبأ أو مفر. وأفسح لهم العرب مجال المرور من بينهم، لمعرفتهم إنهم لن يذهبوا بعيداً. وجرف التيار كل الجنود الذين حاولوا الفرار سباحة، وغرقوا في مياه النهر. ثم حل الليل، وسارت فلول القوات الممزقة نحو مدينة (أرزيو) وهي تحمل كل مرارة الفشل.

انطلقت قوات المجاهدين طوال الليل للبحث عن فلول

القوات، وكانت صيحات البهجة وأصوات التهليل والتكبير تمزق سكون الليل في حين كانت المشاعل تضيء ظلمته. وكانت كومة رؤوس جنود الأعداء تتحول تدريجياً لتأخذ شكل تل كبير، أما المهندسون فكانوا يعملون على ضوء المشاعل لإصلاح الممرات والطرق. وتوجه الأمير مع منتصف الليل الى المضيق، فصدمه مشهد (تل جماجم الجند الافرنسيين) وصيحات جنوده وهم يرددون (مزيداً من الرؤوس) ووقف لحظة في صمته المهيب، لقد أرهقته متاعب الأيام الماضية، غير أن صوتاً داخلياً كان يحفزه للمزيد من العمل، فلوى رأس حصانه الأسود. ومضى في ظلمة الليل.

اهتزت فرنسا كلها عندما وصلتها أخبار (معركة المقطع). وارتفعت صيحات (التحقيق والعقوبة والانتقام) في جوقة واحدة. وهكذا استدعي (ديرلون) وحل الجنرال (دارلانج) محل تريزيل. كما عين (كلوزول) من جديد ليفتتح عهداً جديداً فيما كان يسمى عندئذ (المستعمرة الافريقية لفرنسا). وفي جلسة من جلسات البرلمان الافرنسي، في سنة ١٨٣٥، وقف النائب (تيير)[1] لينتقد بقوة النظام الافرنسي الذي كان مطبقاً في الجزائر، وليطالب بدعمه وتطويره حيث قال: «**إنه ليس استعماراً، انه ليس احتلالاً على مدى واسع، وليس**

(١) تيير: (ADOLPHE THIERS) رجل دولة ومؤرخ فرنسي، من مواليد مرسيليا (١٧٩٧ - ١٨٧٧) بدأ حياته محامياً في ايكس (١٨١٩) ثم قدم الى باريس ليعمل في الصحافة، وأسس جريدة (الاناسيونال) سنة ١٨٣٠، واشترك في اقامة ملكية تموز - يوليو - ١٨٣٠، وأصبح وزيراً سنة ١٨٣٢، ثم رئيساً للوزراء سنة ١٨٣٦ - ١٨٤٠، ورئيساً لحزب النظام في مجلس سنة ١٨٤٨، واعتقل سنة ١٨٥١، ثم أطلق سراحه سنة ١٨٥٢، وانتخب نائباً مرتين (١٨٦٣ و١٨٦٩) وأصبح رئيساً للجمهورية بعد سنة (١٨٧١) على أثر سقوط نابليون الثالث. واشتهر بأنه ملكي محافظ.

احتلالاً على مدى ضيق، انه ليس سلاماً، وليس حرباً ولكنه حرب سيئة الادارة». وتحركت الحكومة الافرنسية للعمل بقوة، فزادت من عدد الجيش في الجزائر. وأمرت بإدارة قوية للحرب مع عبد القادر، وأصدرت قراراً باحتلال مدينة (معسكر). وكان الاعتقاد السائد هو أن الاستيلاء على عاصمته سيجبر السلطان على الاستسلام. ووصل (كلوزول) الى مدينة الجزائر يوم ١٠ آب - اغسطس - ١٨٣٥ م. وقام باستعراض الجيش، وحاول رفع روحه المعنوية المتدهورة، فخطب في جنوده قائلاً: «لقد عزمنا على الانتقام من الأمير، لأنه انتصر على تريزيل في المقطع، وكبده من الخسائر مالا يعلمه إلا الله، ولن نرتاح حتى نكيل له خسائر فادحة، ونقصيه عن دار ملكه - معسكر - وبذلك يدرك الجزائريون أن وضع الأمير مزعزع، وان امكاناته قد انهارت» وصفق الحاضرون وقد أخذتهم الحماسة، وباتوا ينتظرون ترجمة هذه الوعود الى حقيقة.

٤ ـ الانتقام الافرنسي واحتلال (معسكر)
(٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٥)

مضى (كلوزيل) في الإعداد لغزوته الكبرى، ووضع خارطة تظهر المستعمرة (الجزائر) وقد قسمت إلى عدد من المناطق (البايليكات) مع وضع أسماء البايات المحليين المعينين لحكمها. ولم يكن الأمير عبد القادر غافلاً عما يعمل له (كلوزول ـ أو كلوزيل). فقد كانت عيونه (جواسيسه) تعمل بنشاط لتنقل له الأخبار فوراً وبصورة دقيقة، وعندما علم بما يعتزم خصمه (قائد وهران كلوزول) تنفيذه، صمم على أخذ المبادأة، واستنفر القبائل، ودفعها نحو العاصمة (الجزائر) تحت قيادة خليفته (في مليانة). وقد أفاد هذا الخليفة من الدعم الذي وصله (وهو خمسة الاف مقاتل) فانطلق من قاعدته (مليانة) واجتاح سهل (متوجة أو متيجه) فهزم القبائل المتنصرة، وقتل منهم أعداداً كبيرة وأسر منهم اعداداً اكبر. ومضى في تقدمه حتى وصل أبواب (الجزائر). وعندما كثرت المغانم، وتزايدت أعداد الأسرى، أوعز خليفة الأمير في مليانة إلى نائبه باصطحاب فئة من الجند لحراسة المؤن والأسرى وتسليمها لإرادة الأمير. وفي الوقت الذي كان خليفة (مليانة) يحقق انتصاراته الرائعة على القبائل المتنصرة وعلى الحاميات الإفرنسية، كان خليفة الأمير (بتلمسان) يقاوم

الإفرنسيين وينتصر عليهم في ولاية - ايالة - (وهران) وأخيراً تمكن هذا الخليفة من محاصرة وهران، وعزلها، والسيطرة على طرق مواصلاتها، وفصل القيادة الإفرنسية بوهران عن القبائل المتنصرة، وقد كانت المعارك التي خاضهـا أمير تلمسان (خليفة الأمير عبد القادر) ضد قائد وهران (كلوزول) قوية الى درجة وصفها أحد المؤرخين بقوله: «**لقد نفذ البوحميدي جميع ما طلب الأمير تنفيذه، وصار الإفرنسيون داخل وهران في أشد الضيق، إلا أنهم أحسن حالاً من أسرى الحرب. وكاد الأمير يحقق وعيده بأن لا يسمح للطير أن يحلق من غير إذنه فوق المدن التي استولى عليها الافرنسيون الذين أصبحوا مشلولين تماماً، يطلبون الخلاص من قيودهم، ويجدون صعوبة في تنفس الهواء، وتتفتت أكبادهم غيظاً. وأقاموا يترقبون وصول الدعم مع أوامر الهجوم ليندفعوا على ذلك الأمير الذي رماهم بسهام ذكائه المدهش**».

ذهب (كلوزول) إلى وهران يوم ٢١ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٣٥ لإنهاء استعداداته، وحدد واجب العمليات بقوله: «إن أول ما نبدأ به هو الزحف بجيوشنا على عاصمة الأمير، فإذا ما ساعدنا الوقت في الاستيلاء عليها، فسنثأر لأنفسنا من العرب، ثم نعقد مع الأمير صلحاً لكل نزاع». وحشد (كلوزول) لمعركته جيشاً من (١٢) ألف مقاتل؛ في حين كانت قوات الأمير تضم (٨) آلاف فارس، و(ألفي) جندي من المشاة (الراجلين)، بالإضافة الى (٤) مدافع. وغادر (كلوزول) وهران يوم ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) للاستيلاء على (معسكر). ونظراً لأن هذه المدينة لم تكن مجهزة للدفاع. كما أن قوات الأمير منظمة على أساس حرب الحركة وليس على أساس واجبات الحصار، بالاضافة إلى أن استراتيجية الامير كانت قائمة على أساس

تجنب الصدام مع قوات متفوقة في معارك جبهية فقد أصدر الأمير عبد القادر أوامره الى سكان معسكر بالخروج منها.

اجتاز (كلوزول) بقواته غابة (مولاي اسماعيل) وخاض نهر (سيق) دونما مقاومة تذكر. ولكن عندما اقترب الجيش الافرنسي من نهر (هبرة) ظهر له العرب وهم يتحركون في اتجاه متواز مع خط تحركه، وعلى امتداد المرتفعات المجاورة. كان الأمير عبد القادر يراقب تحرك اعدائه وينتظر الفرصة المناسبة التي يقع فيها خلل في الصفوف الأمامية الافرنسية ليعطيه نقطة ضعف صالحة للهجوم. غير أن (كلوزول) شعر بنوايا الأمير، فتوقف لفترة ريثما أعاد تنظيم صفوفه فسدّ الثغرات وتحصن بالأرض، ثم أطلق قواته في وحدات صغرى للإغارة على العرب. ولكن عبد القادر رفض الدخول في المعركة. فقد ترك خصمه يتمتع بالثمار الضحلة لتغيير خط هجومه، واندفع هو بسرعة لوضع نفسه على محور التقدم الرئيسي الذي يقود الى مدينة (معسكر)، ونشر جناحه الأيسر على مرتفع اختار فيه المرابض المناسبة لمدافعه، أما يمينه فكان محمياً بصورة طبيعية، وكان اختياره لهذا الموقع مناسباً جداً من وجهة النظر (الجيواستراتيجية). ودفع بعد ذلك طلائع قواته للاستيلاء على أربعة أماكن للعبادة موقوفة على (سيدي مبارك). ولكن الافرنسيين أمكن لهم معاودة الاستيلاء عليها بعد قتال مرير. وأطلق الفرسان العرب نيرانهم في جهات مختلفة، غير أن قنابل الافرنسيين وقذائفهم استطاعت تدمير المقاومات العربية. وتولى الأمير عبد القادر توجيه نيران مدافعه بنفسه، واستطاعت بعض القذائف الموجهة بدقة إحداث الفوضى في إحدى الكتائب الإفرنسية فقاد الأمير على الفور مشاته ضدها. واندفعت القوات العربية بحماسة للاشتباك

مع العدو. غير أن كثافة نيران المشاة الافرنسيين تمكنت من إيقافهم وتكبيدهم خسائر فادحة. واستمر الصراع بقسوة، ولكن ظهر بسرعة أن الهجوم بات عقيمًا بعد أن تمزقت القوات العربية، فاضطرت للانسحاب. ومضت ساعات على هذا الصراع المرير، الذي انتهى باستيلاء الإفرنسيين على غابة (بغيلة) الواقعة على يمين المواقع العربية. بينما تقدمت مدفعيتهم إلى الامام على محور الطريق الرئيسي. وتخلى العرب عن جميع النقاط في ميدان المعركة. وحاول الأمير عبد القادر المحافظة على بعض النظام أثناء تنفيذ الانسحاب. غير ان جهوده لم تفلح في إصلاح الخلل. وخلال نفس الليلة، انحلت فرق مشاته النظامية، أما فرسان القبائل، فإن بعضهم عاد الى منازله، في حين توجه بعضهم الآخر الى مدينة معسكر، ليمارس فيها أعمال النهب قبل أن ينهبها الافرنسيون. وأما الأمير عبد القادر نفسه، فقد انسحب الى (كاشرو ـ أو قرية كاشن) التي كانت ملكاً لأسرته، وهي تبعد حوالي فرسخين عن معسكر.

لقد ذاب جيش الأمير عبد القادر كما تذوب قطعة الثلج تحت وهج حرارة حارقة. وظهر بوضوح أن الطريق الى (معسكر) قد بات مفتوحاً. وقد تسقط (تلمسان) في أيديهم بعد فترة قصيرة. ومن الممكن بنتيجة ذلك ان تستسلم القبائل بأجمعها طلباً للأمن، بل ان بعض الرؤساء الذين كان عبد القادر يعتمد عليهم أكثر من غيرهم قد تخلوا عنه. وهكذا كانت حالته تبدو يائسة. لقد كان يشعر بالألم والضيق. وكان الغضب يتملكه بنتيجة الاهانة التي لحقت بسمعته ونتيجة ضعف بعض أنصاره وخيانة بعضهم الآخر. غير انه بالرغم من ذلك استطاع كبح جماح عواطفه فالتزم الصمت، ولم ينبس ببنت

شفة. ولقد حاول بعض الذين بقوا مع عبد القادر معرفة نواياه وسبر أغوار نفسه. فأظهر لهم التجلد، وحاول التخفيف عن المنزعجين، ورفع الروح المعنوية للمنهارين. وعندما تقدمت منه أمه بحنان الأمومة وعطفها لتبث في أذنه همسات الصبر والعزاء، أجابها بهدوء وهو يمسك يدها بكلتي يديه: «إن النساء يا أماه هن الحَريَّات بالشفقة، وليس الرجال».

دخل (كلوزول) مدينة معسكر يوم ٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٥، ولم يبق بها سوى نفر من اليهود. لقد خرجوا من كهوفهم ليركعوا عند أقدام المنتصرين الافرنسيين واشمأز المسلمون من السماح لهم بمصاحبتهم عند رحيلهم من المدينة. وفي اليوم التالي، اشتعلت النيران في أجزاء مختلفة من المدينة، ولكنها سرعان ما أخمدت. وبدأت القوات الافرنسية بالاستراحة من الجهد المبذول، والاستعداد للاقامة في المدينة. فكان ذهولهم كبيراً عندما صدرت الأوامر إليهم بالاستعداد للرحيل، وهكذا جلوا عن مدينة معسكر في الثامن من الشهر. ورجع كلوزول الى وهران تاركاً بها القبائل المتنصرة التي أرادت أن تنتقم من الأمير.

قرر الأمير عبد القادر العودة إلى دار الامارة في (معسكر) ولما يمض على احتلالها أكثر من ثلاثة أيام. وانتشرت أخبار حضوره بسرعة. فجاءت القبائل تعتذر عن تفريطها. وعملت القبائل التي استولت على الذخائر بردها إلى الأمير طالبة منه العفو، فلم ير بداً من العفو عنها وتجاوز أخطائها. وكان (الهواري ـ آغا بني هاشم) بين هؤلاء، وهو الذي كان قد نهب مظلة السلطان أثناء الحرب فجاء بها الآن فقال له عبد القادر في ابتسامة ساخرة؛ (احتفظ بها لنفسك،

فلعلك تصبح سلطاناً في يوم من الأيام). وعندما تقدم النهار، جاء بعض الرؤساء الذين كانوا قد فروا. فنظر إليهم عبد القادر باحتقار- واخيراً تشجع أحدهم، وسأله، ما إذا كان عنده أوامر جديدة لهم فتعجب قائلاً: «**أوامري! نعم، ان أوامري هي أن تعفوني في الحال من ذلك العبء الذي ألقيتم به على عاتقي، والذي ساعدني ديني وإيماني على حمله حتى هذه الساعة. دعوا القبائل تختار خلفاً لي وتعلم الحاج الجيلالي بالنتيجة، أما أنا فإنني ذاهب مع عائلتي الى المغرب الأقصى**». وفي حركة واحدة جثموا، رؤساء واتباع، امامه والتمسوا منه برجاء حار العفو عن الماضي. ووعدوه باخلاص على متابعة الجهاد معه، وتقديم الدعم له. وأشرق وجه الأمير بنور اضاء أعماق نفسه وقال لهم: «فليفعل الله ما يشاء! ولكن تذكروا انني أقسم ان لا أدخل مدينة معسكر باستثناء الجامع - حتى تثأروا لهزيمتكم النكراء. لقد كان الأحرى بكم أن تواظبوا على الجهاد حتى تنقذوا بلادكم من براثن العدو وتعيشوا أحراراً، أو تموتوا عن آخركم فتحرزوا الشهادة» واستعاد الأمير سلطته، فأرسل في الليلة ذاتها مجموعة من الرسل الى كافة القبائل تدعوهم إلى الجهاد مجدداً. وفي الغد، انبرى عبد القادر على رأس قوة من (٦) آلاف فارس. وهدفه الوصول الى (تلمسان) لحمايتها ومنع الافرنسيين من الوصول اليها، غير انه كان لا بد له في الوقت ذاته من خوض مجموعة من المعارك ضد تلك القوى التي ارتضت لنفسها الاستظلال بحماية الافرنسيين والخضوع لحمايتهم.

٥ـ الصراع المرير على تلمسان

(١٨٣٦)

كبرت الهزيمة على (كلوزول) إذ رأى أن هجومه على (معسكر) ما زاد الأمير إلا قوة وعناداً. ففكر في وسيلة تخرجه من المأزق الذي يجابهه، فكلف (بوشناق) الذي أصبح قائداً لفرنسا على (مستغانم) بالتوجه إلى دار الامارة (بمعسكر) ليشاغل الأمير. وخرج هذا العميل الى المكان الذي يعرف باسم (البطحة) ووقعت بينه وبين جيوش المسلمين وقائع عديدة. ولو لم يتنبه (بوشناق) في الوقت المناسب إلى فتح أفواه نهر (هبرة) لفصل قواته عن جيوش المسلمين، لكانت هذه الجيوش قد دمرت قواته تدميراً كاملاً. وعادت هذه القوات بفلول ممزقة لتضيف الى هزيمة (كلوزول) هزيمة جديدة. وتابع الأمير عبد القادر بعد ذلك تقدمه للالتقاء مع عدوه (كلوزول) وكان أول ما قام به الأمير هو الهجوم على (قوة المزمالة) التي باتت متحالفة مع الافرنسيين، فقتل قائد هذه القوة، وتمزق أفرادها، ولم ينج من الابادة إلا الذين فروا في الشعاب تاركين أموالهم وراءهم بحيث أن الأمير كلف فرقة كاملة من جنده لحمل الغنائم وتسليمها الى دار الإمارة. وبينما هو سائر الى تلمسان بلغه أن قبيلة (أنجاد، أو أنكاد) تحاول ارسال دعم الى مصطفى بن اسماعيل قرب تلمسان، وفي الوقت ذاته، خرج هذا

المتمرد (ابن اسماعيل) من تلمسان ومعه أنصاره للقاء الأمير. غير انهم لم يصمدوا لضربات للأمير، الذي أمكن له من أن ينتصر أولاً على (مصطفى بن اسماعيل) الذي تمزقت قواته، ورجعت بفلولها الى تلمسان تاركة فوق أرض المعركة مئات القتلى وآلاف الجرحى. أما قبيلة (أنجاد) فلم تتمكن من مجابهة الأمير، بل فرت منذ بداية النهار، تاركة وراءها كل ما تملك حتى انها سلمت في حريمها وأولادها، وجرح قائد قبيلة أنجاد المعروف باسم (عبد الله غماري).

تبين للجنرال (كلوزول) ان كل آماله قد تدهورت، غير أنه حاول التكتم على هزائمه فأرسل تقريراً الى حكومته «**أشاد فيه ببطولة جيشه التي حققت له النصر على الأمير، والاستيلاء على دار الامارة بعد معارك طويلة» إلا أن الحكومة تلقت تقارير مناقضة من عناصر استخباراتها تفيد: «بأن القوات الافرنسية قد دخلت دار الامارة، دون أن يكون الأمير فيها، أو يجدوا من يقاومهم، وفي اعتقادهم أن عدم مجابهة الأمير للافرنسيين كانت خطة عسكرية والدليل على ذلك، أن الأمير اتخذ من استيلاء الافرنسيين على معسكر حجة للفتك بالقوات الافرنسية وتدمير القبائل المؤيدة لها- وعلى كل حال، فإن كلوزول ليس بالرجل الذي يمكن له أن يكون كفوءاً للأمير، وان ما يرسمه كلوزول من الخطط لم ولن يجدي نفعاً**».

وكتبت وزارة الدفاع الافرنسية الى كلوزول رسالة جاء فيها: **«بان هناك شائعات تقول بخلاف ما تدعيه أنت في تقاريرك، وعليك أن تكون صريحاً مع وزارة الدفاع حتى تتمكن من معالجة المشكلات بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة في الجزائر»**. وأمام هذا الموقف، أعاد (كلوزول) تقدير موقفه، فوجد نفسه أمام مأزق لا يخرجه منه الا استيلاؤه على تلمسان، فنظم قوة من (٨) آلاف جندي، وتوجه بها

الى هدفه وبلغ الأمير ذلك، فاتخذ نفس الخطة التي نفذها في (معسكر) وأمر السكان بمغادرة المدينة. وجاء الافرنسيون، وعندما علم (مصطفى بن اسماعيل) باقترابهم خرج هو وأنصاره، وفتحوا لهم أبواب القلعة، ولم يدخل الافرنسيون إلا بعد دفاع مستميت، حيث وقف جند الأمير سداً في وجوههم. ولما لم تسفر المعركة عن نتيجة، توقفت قوات (كلوزول) غير أن القبائل التي خرجت من تلمسان استجابة لأمر الأمير، عادت الأن فانضمت الى الافرنسيين. ولم يبق امام الأمير إلا الانسحاب بقواته الى مدينة وجدة (على الحدود المغربية) ودخل كلوزول تلمسان يوم ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٦ م. وقد تقدم ابن اسماعيل والكراغلة، متبوعين بجميع اليهود لاستقبال الحاكم العام، ومجلس قيادته، رافعين إليه أسمى آيات الولاء والاستسلام، داعين اياه (بمنقذهم، وولي أمرهم). أما كلوزول، فقد طلب منهم (١٠٠) ألف فرنك كعربون على اخلاصهم. وحاول أولئك المنخدعون المندهشون أن يقنعوه بعجزهم عن جمع مثل هذا المبلغ، ولكن بدون جدوى، لأن كلوزول كان لا يرحم، واستخدم الضغط الشديد والتهديد بل وحتى الضرب، وادى ذلك الى أن يبيع الرجل لباسه وفراشه حتى يؤدي ما افترض عليه، وان تبيع المرأة ثيابها ومصوغها حتى تجمع المبلغ، جزء منه نقدا والجزء الأخر من الماس والجواهر وقد أدى ذلك الى ظهور نقمة عارمة، مما أدى الى انتشار مقولات مختلفة على الألسنة منها المقولة الساخرة التالية: **«ما أعظم قادتنا، انهم يطالبون القبائل الجزائرية بالانضمام اليهم، حتى اذا ما استجابت هذه القبائل لهم، فرضوا عليها الغرامات القاسية لتمويل خزينتهم»** أما الأمير عبد القادر فقال: **«إذا كانت تلك هي معاملة الافرنسيين لأصدقائهم، فماذا عسى أن يتوقع منهم أعداؤهم»**.

وشاع خارج المدينة، وذاع، أن يهودياً قد ترأس محكمة حاكمت (الكراغلة المسلمين) وعاقبتهم، فزادت نقمة العرب بذلك، ان هذا الانتهاك لحرمات المسلمين لم يسمع به أبداً من قبل. وكان من نتيجته ان عاد (الأنجاد) للاتصال بالامير عبد القادر. كما أرسل اليه (الكراغلة) بصورة سرية من يعلمه بأنهم ينتظرون بفارغ الصبر رحيل الإفرنسيين لتسليمه القلعة. غير أن (كلوزول) لم يكن يرغب بالرحيل عن المدينة، وكان هدفه هو اقامة اتصال مباشر بين تلمسان، والساحل. وكان فم (تافنة) هو اقرب نقطة صالحة لهذا الغرض. غير ان المسافة الواقعة في الوسط هي منطقة جبلية. وقرر ان يحقق هدفه يوم ٢٣ كانون الثاني ـ يناير ـ فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام عبد القادر الذي كان يقود جيشه. وبدأت على الفور المعركة التي استمرت عشرة أيام أظهر فيها العرب شوقهم للموت انتقاماً لهزيمتهم السابقة، وقاتلوا بعناد وتصميم لا يمكن وصفهما. وكان الامير عبد القادر طوال هذه الاشتباكات يتجنب الدخول في معركة تصادمية ـ جبهية ـ مع قوات الافرنسيين، مكتفياً بالسيطرة على النقاط ذات الاهمية الاستراتيجية. فنشر قواته على الهضاب وفي الوهاد وعند الانهار. واصطدمت القوات الافرنسية بعقبتين: اولاهما عدم قدرتها على مجابهة هذا النوع من اساليب (الحروب الثوروية) وثانيتهما: عدم معرفتها للأرض على مسرح العمليات. ونتج عن ذلك ان انهزم كلوزول، وتقهقر الى تلمسان، مخلفاً وراءه خسائر فادحة. ثم لم يلبث أن ترك حامية في قلعة تلمسان بقيادة نائبه (كافينياك) ومضى في رحلة مثيرة في اتجاه (وهران) حيث كانت قوات الامير عبد القادر تطارده حتى ابوابها، وقد وصفت المصادر الافرنسية هذه الرحلة المثيرة بما يلي:

«خرج الماريشال كلوزول بجنوده من تلمسان، راجعاً الى وهران،

فصادف في طريقه أهوالاً جمة، وتعرض لمصائب شديدة، منها هزائم جنده،وتشتيت شملهم بوادي عشبة» «وقد عدل كلوزول عن طريقه الذي جاء منه، وسلك طريق الساحل الى مرسى (رشقون) فوصله على أسوأ حال، ذلك أن الأمير أخذ بمخنقه وحاصره مدة شهرين كاملين، لا يخلو يوم منها دون قتال، ثم لما أعياه الأمر، وضاقت به الحيلة، بعث صريخه الى نائبه في وهران، الذي أرسل اليه المراكب، فركبها بجيوشه، وحمل ما أمكنه من ذخائر ولحق بوهران». وفي وهران، توقف كلوزول فترة قصيرة، عين فيها الجنرال (دارلنــج) قائداً على وهران، والجنرال (بهاراجوا) على الجند ومضى هو الى الجزائر. وعندما وصلها، حاول التستر من جديد على (مغامراته الفاشلة)، فاصدر بياناً اعلن فيه «ان الحرب ستنتهي، وأن عبد القادر قد ضرب ضربات قاضية، وانه دحر، وانه فر الى الصحراء». ثم سافر الماريشال كلوزول الى فرنسا في شهر (نيسان ـ ابريل) تاركاً وراءه تعليمات الى (دارلنــج) في وهران، باقامة معسكر حصين على نهر (تافنة) استعداداً لفتح خط الاتصال مع تلمسان من هناك.

خلال هذه الفترة تسرب(كافينياك)[1]الى (بريغو)[2] حيث القبائل النازلة في وادي الشلف. والمعروف ان هذه القبائل قد

(١) كافينياك: (LOUIS EUGENE CAVAIGNAC) الابن الثاني (لجان بابتيست كافينياك) وهو- اي لويس- من مواليد باريس (١٨٠٢ ـ ١٨٥٧)، خدم في الجزائر، ثم أصبح حاكمًا لها، وعين رئيساً للهيئة التنفيذيه سنه ١٨٤٨، فقضى على ثورة حزيران. غير انه فشل في فرض مرشحيه لرئاسة الجمهوريه ضد لويس نابليون.

(٢) بريغو: (PERREGAUX) هي مقاطعة في اقليم وهران. في وادي نهر (هبرة) وتقع عند تقاطع الخطوط الحديدية (الجزائر ـ وهران) مع تلك الواصلة بين (وهران وكولومب بيشار)

استمرت بتأثير من رؤسائها أبناء (سيدي العريبي) في التأرجح بين الولاء للامير عبد القادر، وبين العمل ضده، وذلك على الرغم من العقوبات التي نزلت بها، وها هي الان تمتنع عن دفع الضرائب، بعد ان رفضت تقديم فرسانها لدعم جيش الامير، ثم هي تجاوزت ذلك في حلف جديد مع الإفرنسيين بحجة تعرضها لضغط القوات الإفرنسية المستمر.

وكان الأمير عبد القادر مشغولاً جداً في الوقت الحاضر بحصار تلمسان، وباجراءات (دار لانج) على (تافنة) وليس بامكانه التوجه الى (بريغو). غير ان العرب الذين نكثوا بعهدهم، ورحبوا بالجنرال الافرنسي، سرعان ما شعروا بغضب السلطان، اذ لم يكد الافرنسيون ينسحبون حتى نزل عليهم عبد القادر كالصاعقة. ففرض الضرائب الثقيلة على ثمانية عشر قبيلة منهم، واقتيدت مواشيهم، وقد اخذت قبيلة (البرجية) كمثال مريع، فهلك منها عدد كبير، وشرد الباقي ليجد المأوى حيث يستطيع. ووصل (دار لانج) بصعوبة كبيرة الى (تافنة) يوم ١٦ نيسان - أبريل - ١٨٣٦ م ومعه (٣) آلاف جندي من المشاة وثماني قطع مدفعية. وبعد ان اكمل إقامة المعسكر الحصين على ضفة النهر، تقدم في ٢١ من الشهر لفتح الطريق الى تلمسان تنفيذاً لتعليمات (كلوزول). وعلم الأمير بالأمر فسار الى (ندرومة) حيث يمكنه متابعة تحركات العدو من كل جهة في المكان الذي تتشعب منه الطريق من (تافنة) الى تلمسان. فقطع جبال القبائل الممتدة حول تافنة، ومضى محرضاً القبائل على الجهاد، ثم توجه بجيشه، واعترض العدو في وادي (تافنة) والتحم القتال بينهما نهاراً كاملاً. ثم ضرب الجنرال معسكره في الوادي ورتب صفوفه على هيئة قلعة، ونزل الأمير بجنوده وضرب حصاراً محكمًا حوله. وفي يوم ٢٤ نيسان (ابريل) تهيأ

الجنرال للانتقال من مكانه، فجاءه المجاهدون من كل مكان وزحفوا اليه دفعة واحدة، غير مبالين بنيران المشاة أو قذائف المدفعية حتى وصلوا الى مرابض المدافع واستولوا عليها. واخذ الجنرال بالانسحاب، واستمرت قوات المجاهدين في مطاردته حتى اعجزته عن التحرك فقرر التوقف من جديد، وأعاد تنظيم معسكره الدفاعي. وعندما قرر استئناف المسير، انقض عليه جند الأمير، واستولوا على عتاده، وقتلوا من جنده أعداداً كبيرة. ثم توجه الجنرال الى (تافنة) يجر معه فلوله الممزقة، فاعاد تنظيمهم، غير أن قوات المجاهدين لم تترك له فرصة للراحة، وعادت فاحكمت الحصار حوله، ومنعته من التحرك، ولم يبق أمامه الا ان يشق طريقه بين صفوف المسلمين، حيث تعرضت بقية قواته للمزيد من التدمير، وعندما وصل الى (وهران) ارسل الى حكومته يعلمها بما نزل بقواته من الخسائر، ويطلب اليها الدعم لايقاف الموقف المتدهور.

تابعت الحكومة الافرنسية ارسال الامدادات لقواتها في الجزائر، بعد ان أجمعت كافة التقارير على تصعيد المقاومة بصورة لم تكن متوقعة. ووصل الجنرال(بيجو)[1] على راس ثلاثة فرق عسكرية الى (تافنة) يوم ٦ حزيران - يونيو - ١٨٣٦، وفي الحال شرع الافرنسيون في تجديد محاولتهم لفتح الطريق الى (تلمسان) بالقوة،

(١) بيجو: (THOMAS- ROBERT- BUGEAUD DE LA PICONNERIE-) دوق ايسلي DUC D'ISLY، ماريشال افرنسي، من مواليد ليموج (١٧٨٤ - ١٨٤٩) اسهم بقدر كبير في دعم الاستعمار الافرنسي للجزائر وتقويته. وقد تم تعيينه سنة (١٨٤٠) حاكمًا على الجزائر فطور الادارة الافرنسية، ودعم الزراعة لمصلحة المستوطنين. وخاض في سنة (١٨٤٤) معركة (ايسلي) ضد المغرب وانتصر فيها فمنح لقب كونت - او دوق - ايسلي. ووقع مع الامير عبد القادر معاهدة لم يلبث ان عمل هو ذاته على نقضها.

واخيراً نجحوا في هدفهم، فقد حارب عبد القادر معركة طويلة يائسة ضد القوات المغيرة على ضفاف (الزقاق ـ أو سكاك) ولكنه تعرض في هذه المرة لهزيمة كاملة. أدرك الامير ان سبب هزيمته انما يعود الى تخلي جنوده عنه وهو في أوج انتصاره، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي تتكرر فيها مثل هذه الظاهرة:

كانت المرة الاولى، عند استيلاء الافرنسيين على عاصمته (معسكر).

وكانت المرة الثانية، بعد غزوة تلمسان.

وها هي المرة الثالثة في معركة الزقاق.

وكل حادثة من هذه الحوادث كافية لأن تكون سبباً قوياً لسقوط قوة أعظم سلطان راسخ القدم. ومع ذلك، فانها لم تو ثر في الأمير، ولم تحصل دولة فرنسا منه على طائل مما دفع احد الكتاب للقول:

«ان تلك الوقائع تسحق عقل القوي وتضعف عزمه، ولو كان كالصخر، الا انالأمير، كان لا يبالي بذلك لأنه كان يعرف انه اذا ما ابتسم له الحظ، فإن باستطاعته التغلب على العصاة المتمردين بحد سيفه البتار». وهذا بدقة ما فعله وهو في ذروة المأزق، إذ ما كاد يبلغه أن (سيدي ابراهيم) قد اختار هذه الساعة الحرجة ليعلن ثورته ضده، ولينتحل لقب سلطان، حتى جرد سيفه من غمده، وعلقه في سرجه، وأقسم أن لا يغمده، وأن لا ينزل عن فرسه حتى يقطع رأس ذلك الخائن. واسرع بمفرده تقريباً الى قبيلة (بني عامر) حيث كان يعلم أن الخائن بينهم وطلب تسليمه في الحال. وبعد أن أفاقت هذه القبيلة من دهشتها وتأثرها من هذا القرار الصارم، سلمت الثائر (سيدي ابراهيم) الى عبد القادر، خائفة من أن يؤدي الرفض الى الاتهام

بالتآمر معه. وقطع رأس الخائن فوراً.

وكالعادة، رجع جند الأمير من ديارهم نادمين على ما فعلوه، طالبين من الامير العفو، فقال لهم: «**لقد عفوت عنكم كثيراً، وان هفواتكم كثيرة، وان العدو لنا بالمرصاد، وأخاف أن يجد ثغرة في صفوفنا فيجرنا حتماً الى النهاية - ويؤسفني أشد الأسف ان ينتصر جنودنا على بيجو، وان تهزمه هزيمة ساحقة، ثم تتقاعس في نفس اليوم الذي انتصرت عليه، وتخرج من المعركة لتسمح له بأن يتعقبها، وأن يقتل منها ذلك العدد الكبير... لقد جاءت التقارير بأن بيجو كاد ينتحر في منتصف النهار عندما رأى جندنا يتقدمون ويفتكون بقواته دونما هوادة ويستولون على الغنائم، ويبيدون ضباطه بالعشرات، حتى ان الكثيرين من جنوده سلموا أنفسهم وعتادهم. وبدلاً من أن تتابع جيوشنا الجهاد حتى نهايته، اكتفت بما حققته، ورجعت الى ديارها تاركة وراءها عدداً قليلاً من المجاهدين، ففتك بهم بيجو واعتبر هذا الانتصار التافه، انتصاراً لا نظير له. ايها الاخوة! ان الجنرال بيجو اذ يعتبر انتصاره في هذه المعركة انتصاراً، فانه على حق، لأن المعارك التي خاضها قادة فرنسا قبله كان نصيبهم منها الخذلان. وعليه فأقول لكم اني تأثرت بواقعة الزقاق التي هي في الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر، وانما غرور بيجو قد خلق منها معركة كبرى حتى يشق لنفسه الطريق الى السلطة، حيث ان الحكومة بعثته على سبيل الاختيار، فان هو نجح، فسترسله للجزائر، وان فشل فستبقيه في فرنسا. ولقد علم هو بهذا السر فأجهد نفسه حتى انتصر بسبب نقصان عدد جنودنا**».

رجع (بيجو) بعد معركة (الزقاق) الى وهران، وطير الخبر الى

دولته يبشرها بانتصاره، ويتبجح بما أحرزه من النصر في أول معركة له في بلاد الجزائر. ثم توجه الى فرنسا لاستثمار هذا النصر، وإعداد نفسه لممارسة دور اكبر، مستفيداً من اخطاء خصمه (كلوزول)، ومعززاً مكانته بقوله: (افسحوا المجال لعبقرية فرنسا). وبتأثير من (بيجو) أرسلت وزارة الحرب الافرنسية الى (كلوزول) رسالة جاء فيها: «انك لم تقم بواجبك، حيث انك لم تتخذ الضمانات الكافية في وهران، وعلى أية حال، فان الوضع بعد الانتصار الضئيل الذي احرزه بيجو يهدد الوجود الافرنسي في الجزائر بالخطر» وطلب (كلوزول) دعم حكومته لمجابهة الموقف المتدهور، وعندما استشير (بيجو) في موضوع إرسال الامدادات أجاب: «ان الوقت غير ملائم لذلك، ويجب أن يترك الأمر الى الجنرال كلوزول حتى يجد الحل المناسب، فاذا ما عجز عن ذلك، فيجب اخراجه من الجزائر» ولم يجد كلوزول امامه سوى التوجه الى باريس في محاولة للحصول على الدعم. غير انه لم يجد هناك من يستمع اليه، وعندما طلب الى وزير الدفاع الخطة التي يقترحها، اجابه: «اننا هنا نجهل كل شيء عن الجزائر. ولك بصفتك قائداً عاماً اختيار الخطة المناسبة وتنفيذها بما يتوافر لديك من القوات، فان نجحت فذاك، وان فشلت فللوزارة ان تفكر في الامر» ورجع كلوزول خائباً، فقرر غزو (قسنطينة) في محاولة لاخضاع (الباي احمد) على أمل إحراز نصر يدعم موقفه. وحشد كل القوات، وشرع في التحرك - في شهر تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٣٦ م. فوصل الى (عنابة- بونة) ثم انتقل الى (قالما) حيث استراح وجنده لمدة ثلاثة ايام، سار بعدها الى (قسنطينة) ولما وصلها اشتبك في معركة قاسية، أبلى فيها القائد (ابن عيسى) أفضل البلاء، وامكن له في يوم واحد القضاء على كلوزول وقادة جيشه الذين جاؤوا معه.

وتركوا وراءهم القتلى والعتاد، ولم ينج أي واحد منهم؛ وتمكن كلوزول من إنقاذ نفسه والنجاة من الموت بأعجوبة؛ ولكن بعد ان ترك ابنه قتيلاً في هذه المعركة. وعزلت فرنسا (كلوزول) الذي غادر الجزائر حاملاً معه قلب ابنه القتيل وتوجه إلى اسبانيا حيث قضى فيها بقية ايام حياته.

كان الامير عبد القادر يتابع الموقف، ويحشد قواته، ويحكم الحصار على القوات الافرنسية التي نجحت في اقامة بعض المراكز الداخلية، غير أنها لم تكن قادرة على الاتصال بها أو الوصول اليها، وكانت رسائلها تحجز، وتقطع رؤوس حامليها بدون تمييز، ولم تتمكن القبائل المتحالفة مع الافرنسيين إمدادها بالمؤونة. وسواء كان الافرنسيون في وهران أو في تافنه، فانهم كانوا لا يستطيعون التحرك الا في فرق كبيرة. وكانوا في هذه الحالة يحتاجون الى تموين ضخم، وحيوانات تحمل الاثقال ووسائل للنقل. وكان أهل الدوائر والزمالة، طلباً للأمن تحت حصون وهران، يعيشون على مؤونة مقترة يتصدق بها عليهم حماتهم من حين لآخر. اما في تلمسان فان (كافينياك) كان يشتري القطط لمائدته بمبلغ اربعين فرنكاً للقط الواحد. وعندما علم (الامير عبد القادر) بنوايا (كلوزول) وبتحركه نحو (قسطينة) امتنع عن اتخاذ أي إجراء قد يفسد التطور الكامل لتلك الخطة. ومنى نفسه بأنه سيكون هو المستفيد في النهاية سواء نجح الافرنسيون في خطتهم أو فشلوا. ذلك انه اذا ما انهزم احمد باي قسنطينة فانه سيتخلص من منافس خطير، دون جهد من جانبه، وستكون القبائل العربية في قسنطينة عندها حرة للانضمام اليه والعمل تحت لوائه. اما اذا انتصر الحاج احمد باي قسنطينة، فان الافرنسيين قد يغادرون الجزائر بعد أن تكون قواتهم قد استنزفت، غير أن ذلك قد يفتح مجال الصراع الطويل

مع احمد باي قسنطينة. ولكن توقف الامير لم يستمر طويلاً، وانتصر الحاج احمد. وعندها عرف عبد القادر ان ساعة الحسم قد اقبلت. فأصدر امره من مقر قيادته في المدية، للقيام بهجوم شامل ضد كل المراكز الافرنسية بين الأطلس والساحل. وتدفقت آلاف العرب والقبائل من الجبال كالسيل الجارف، وانضمت اليها قوات تيطري، فعملت على تدمير المؤسسات الافرنسية الاستعمارية واحراقها، واسرت المستوطنين الافرنسيين، وبلمحة واحدة لم يبق للافرنسيين وجود حقيقي في اقليم وهران. وأصبح سهل (متوجة ـ متيجة) تحت رحمة قوات الأمير الذي أصدر امره الى خليفتيه (مصطفى بن التهامي وابن حميدي) بالتوجه الى وهران والاستيلاء عليها، وعزلها عن كل اتصال بالسيطرة على محاور الطرق المؤدية اليها. وتم تنفيذ ذلك بنجاح. وفي الوقت ذاته كلف الامير عبد القادر خليفته (محمد بن علال) بالتوجه الى الجزائر، فأشعل ناراً حامية على قيادة الجيش هناك، وضيق على القبائل المتنصرة، بل على الافرنسيين انفسهم، وسار حتى دخل مدينة الجزائر ذاتها. وأصبحت القيادة الافرنسية في الجزائر غير موجودة عمليا.

توجه الامير بعد ذلك الى (تلمسان) ودخلها، وذهب لزيارة قبر الولي الصالح (سيدي بومدين). وهناك كانت تنتظره مباغتة غير متوقعة. فقد كان القائد (ابن نونه) متعلقاً باستار الضريح، لائذاً به، فأمنه الامير بعدما اعترف على ملأ من الناس بأنه أتى نكراً واقترف ذنباً ولم يكتف الأمير بتأنيبه، بل انه تجاوز عن اعماله، فأقره على طائفته، بعد أن أماط كل لثام، وجلا كل شك وشبهة عن عصيان هذا القائد.

أصبحت حالة الحاميات الافرنسية مثيرة للشفقة، فقد أصبح

الرعب من المجاعة مسيطراً على جند هذه الحاميات. وهنا ظهر (اليهودي دوران) ليمارس دور الوساطة. فقد اقنع الامير: «بان الفوائد التي سيحصل عليها من إطعام الافرنسيين ستفوق كثيراً ـ حتى من الوجهة العسكرية ـ قيمة أي نصر يمكن ان يحققه عن طريق تجويعهم». وفي الوقت ذاته، وبعد موافقة الامير على هذا المبدأ، توجه (دوران) لمفاوضة (بروسارد) الذي اصبح قائداً على وهران ليفاوضه بقوله: «ان الافرنسيين في حاجة الى القمح واللحم، والسلطان من جهته في حاجة الى الحديد والرصاص والكبريت. فليبتع كل طرف ما يحتاجه من الطرف الاخر، وسيكون الجميع راضين. ويجب ان لا يخشى ابدا بان هذا الاجراء سيكون على حسابك ولصالح السلطان. فهو لن يظهر ابداً في القضية، اذ انني أنا الذي سأبيعكم القمح واللحم. وانتم ستبيعونني الحديد والكبريت، ولن يعرف السلطان سوى عن طريق غير مباشر بان المواد الاولى لكم، والمواد الاخيرة له. بل ان السلطان مستعد للسماح لكم باستئناف تموين تلمسان. ولكن ما دام هذا الامتياز بدون شك سيغضب ويثير سخط العرب الذين يحقدون على الوجود الافرنسي في تلك المدينة، فان السلطان لن يأخذ على عاتقه سوى كراهية ومسؤولية الترخيص به، على شرط ان يطلق الافرنسيون سراح جميع الأسرى الذين سجنوهم اثر معركة الزقاق وان يعيدوهم اليه». وفي الحال، قبل (بروسارد) هذا الاقتراح وتم الاخذ به وتنفيذه. وكان ذلك بداية الطريق الى معاهدة (تافنة) او معاهدة (عبد القادر- بيجو)

٦ـ معاهدة (عبد القادر ـ بيجو)
٣١ـ ايار ـ مايو (١٨٣٧ م)

صدمت الحكومة الإفرنسية لدى وصول أخبار هزائم قـواتها في الجزائر. فأسرعت بعزل (كلوزول) وعينت (الجنرال بيجو) مكانه. وحددت له مهمته بالتالي (اما أن يعقد الصلح مع عبد القادر واما أن ينتصر عليه). ووصل بيجو الى الجزائر، وبدأ على الفور اتصالاته بالامير. وجرت مرحلة طويلة من المفاوضات، وتبادل الرسائل. غير انه كان من المحال على الامير الانفراد بأمر خطير بدون استشارة قادته وزعماء قومه. فدعا الى مؤتمر عام يجتمع على ضفة نهر (هبرة) يوم ٢٥ ايار ـ مايو ـ ١٨٣٧. وفي الموعد المحدد، حضر شيوخ القبائل الكبار وزعماء الفرسان العسكريين، وشيوخ المرابطين وأعيان المجاهدين في اقليم وهران. وافتتح الامير المؤتمر بقوله: «لا اريد ان أسمع أحداً منكم يتهمني بالرغبة في عقد السلام مع المسيحيين. ان قضية السلام والحرب هي قضية انتم الذين تقررونها» ثم تابع حديثه فشرح طبيعة المراسلات التي تمت بينه وبين بيجو، والاقتراحات والعروض التي تقدم بها كل منهما للاخر. وتبع ذلك حوار طويل وعاصف. إذ وقف عدد من المخلصين لقضية الجهاد لمعارضوا الاتفاق مع اعداء الدين وانضم اليهم الراغبون في مقاومة

الامير. وكذلك الذين شعـروا بان الحرب توفر لهم المناخ الملائم للكسب والمساومة غير أن شيوخ المرابطين تصدوا للموقف وعالجوه بطريقة حكيمة تعتمد على التمييز بين السلام والاستسلام، بين سلام مقبول وسلام مطلوب وقالوا لهم بأن القرآن الكريم لم يقر ابداً اهدار الدم بدون جدوى، بعد أن استسلم الكفار، ونادوا بوضع السيف في غمده، ان الافرنسيين قد استسلموا وطلبواالصلح. وان السلطان قد املى شروطه عليهم. وتغلب هذا المنطق على المعارضة. وتم التوقيع على المعاهدة (التي عرفت بمعاهدة تافنة حيث تم تبادل الوثائق)[1]. وما ان عاد (بيجو) الى الجزائر، حتى أصبح حر اليدين لتطوير العمل العسكري فزج قواته كلها ضد (احمد باي قسنطينة) وامكن له تحقيق انتصار حاسم ضده، ودخلت القوات الافرنسية مدينة (قسنطينة).

أصبح باستطاعة الامير عبد القادر التفرغ لبناء الدولة، واعادة تنظيمها، وزيادة قدرتها، وهو يدرك تماماً انه لا بد وأن يتجدد الصراع ضد قوى الاستعمار الافرنسي. واصطدمت عملية اعادة التنظيم الشامل بمجموعة من العقبات، لم يكن اقلها امتناع قبائل كثيرة عن دفع الضرائب، بحجة عدم الحاجة لمثل هذه الضرائب طالما أن الحرب قد توقفت. فاضطر في البداية لاخضاع تمرد المتحالفين من بني مختار وبني نائل وبني موسى وبني عبيد والزناخرة الذين كان يترأسهم محمد ابن عودة زعيم اولاد المختار (قرب قصر البخاري). وجهز من اجل ذلك جيشاً يضم (١٢) الف فارس (والفي) راجل مع بعض المدافع. وامكن له الانتصار على قوات التمرد. ثم قرر الانتقال بقواته الى منطقة الاغواط (جنوبي الصحراء العظمى والواقعة على بعد مائتي ميل

---

(١) انظر قراءات (٢) في نهاية هذا الكتاب حيث نصوص هذه المعاهدة.

جنوب وهران) وذلك لاخضاع بنو عراش (في عين ماضي) والذين كان يتزعمهم (التيجيني) ودارت معارك طويلة، استنزفت فيها قوات الطرفين المتصارعين، وانتهت بانتصار الامير عبد القادر. أصبحت الجزائر الان دولة مكتملة الاركان، ثابتة البنيان، وشعر الامير عبد القادر انه قد انجز الواجب الذي حملته الامة الجزائرية اعباءه. فقد هزم الافرنسيين، ووقع معاهدة سلام مشرف، وكانت مملكته نموذجاً للتنظيم الرائع، لقد لبى نداء واجبه الديني في ساعة العسرة، وانقذ قومه في ساعة البلوى. غير انه اضاع نفسه في امته، لقد هجر أهل بيته، وفقد عزلته التي كان يجد فيها متعته العقلية، فمنذ اليوم الاول لمبايعته، وقف امام زوجته ليقول لها:

«لقد وضع القوم أمانة في عنقي، ومن الواجب علي القيام بها، وان ذلك لا يدع مجالاً لي حتى اقوم بواجباتي الزوجية على اكمل وجه، ولك ان اردت البقاء معي من دون التفات الى طلب حقوقك المقدسة، فاني اوافق الموافقة التامة على ذلك. وأما ان كان قصدك الا تفرطي فيها فأمرك بيدك، وذلك لاني قد تحملت ما يشغلني عنك» واجابته الزوجة الصالحة ـ ابنة عمه ـ «لقد رضيت لنفسي ما ارتضيته لنفسك» وأخلص الزوجان لقضية الاسلام.

وبعد التوقيع على معاهدة تافنه، وبينما كان هو في سبيله لمحاربة الخارجين عن الطاعة والجماعة، مر الامير عبد القادر بالقرب من (معسكر) وعلمت زوجته بذلك، وكانت قد مضت شهور عديدة لم تره خلالها، فبعثت اليه الرسل ترجوه ان يعرج نحوها، ولو يوماً واحداً، غير انه اجاب «بأنه مزفوف الى بلاده». ولقد حدث مرة ان

مضت عليه فترة تزيد على السنتين لم يسمح لنفسه بوقت يذهب فيه لرؤية عائلته.

وها هو الان يحاول استئناف حياته الخاصة، والقاء اعباء المسؤولية على عاتق سلطان المغرب، وتسليمه الامانة، فيكتب له - بعد الديباجة - ما يلي:

«ان شعب الجزائر متحد الان، وان علم الجهاد قد طوي، فالطرق آمنة وعامرة، والعادات السيئة قد قضي عليها، وتستطيع المرأة ان تعبر البلاد وحدها، ليلاً ونهاراً، من الشرق الى الغرب، دون خوف على نفسها. وقد يلتقي الرجل بقاتل أخيه، فلا يجرؤ على الانتقام منه، بل يحتكم الى القضاء. وان كتاب الله وسنة رسوله هما فقط اساس الاحكام. والمواد الضرورية لجيشنا كثيرة، الى جانب الرجال الذين يملؤون صفوفه. كل ذلك بفضل الله وتأييده، وبفضل دعواتكم ورضاكم عنا. ولولا ذلك لكنت اضعف الناس عن انجاز كل هذا...

انني لم اتقدم لتولي مسؤولية الحكومة بدافع الطموح، او الرغبة في السلطة والجاه، أو حباً في ثروات الحياة الدنيا. ولكن - والله وحده يعلم اسرار القلوب - لأحارب في سبيل الله، ولأحقن الدماء بين المسلمين، ولأحمي املاكهم، ولأمهد البلاد، كما تقتضي ذلك الغيرة على الدين والوطن. ومنذ تحملنا المسؤولية ونحن بالمرصاد ليلاً ونهاراً، متنقلين في طول البلاد وعرضها، في السهل والجبل، مرة نقود المعارك، وأخرى ننظم شؤون الدولة **ونحن الان نرجو من سموكم ان ترسلوا أحد ابنائكم أو أحفادكم أو خدامكم لتولي سلطان الحكم، لان البلاد الان موطدة وليس هناك معارضة من اية جهة.**

وسأكون أول من يعمل تحت ـ قيادة ـ من ترسلونه، وان أسخّر كل امكانياتي الضعيفة الى أقصى حد لذلك، وان اساعده بالرأي والنصيحة.

انني أثق في ذلك الاعتبار والسماحة، التي تميزكم، من أنكم ستقبلون رجائي في اعفائي من الحمل الذي يثقل كاهلي. وانني أرسل الى مقامكم بعض الهدايا التي كان ملك الافرنسيين قد أرسلها الي، والتي لم أبق منها عندي سوى بندقيتين صغيرتين. كما أرسل اليكم بعضاً من أفضل البغال في الجزائر. ان عددها، بالاضافة الى عدد الأشياء الاخرى، يوجد مفصلاً في مرفق داخل هذه الرسالة. واننا نرجوكم ان تقبلوا عذرنا، ونأمل في رضاكم وسروركم- وسيحمل اليكم الهدايا المذكورة، أخي الذي وكلته عني ليتشرف بمقابلة سموكم، وليحمل اليكم تقدير وتأكيد اخلاص ابنكم وخادمكم».

عبد القادر بن محيي الدين

محرم ١٢٥٤- تشرين الاول- اكتوبر- ١٨٣٨

ورد السلطان (عبد الرحمن) برسالة حملت تقديره العالي للامير، ورفضه حتى ان يسمع لحظة واحدة هذا التخلي عن الحكم من شخص اظهر كفاءة عظيمة في القيادة والتنظيم والتجديد وانقاذ بلاده، ودعى الامير عبد القادر، باسم الاسلام، أن يظل كما كان، بطلا للجهاد، وأن يكمل عمله الشريف، وأن يوسع وينجز واجبه، واخيراً طلب الى الامير أن يرسل اليه قميصه كأثر يحتفظ به في مسجده الخاص.

لم يكن الامير عبد القادر، وهو يتنازل عن قيادته العامة، يهرب من الواجب، ويتخلى عن المسؤولية وانما اراد توسيع دائرة الجهاد،

فقد وعد سلطان المغرب (عبد الرحمن) بوضع سيفه وعقله تحت تصرف من يوليه السلطان أمر الجهاد ضد اعداء الدين. وكان يدرك يقيناً أن ما هو مقبل من الاحداث سيكون اكثر خطراً مما مضى، وهذا ما يتطلب حشد كل القوى. ومن اجل ذلك كان لا بد له من الاعتماد على جناحين قويين في المغرب وتونس، وعلى دعم من كل العالم الاسلامي فكتب الى السلطان العثماني رسائل عديدة، غير ان ابراهيم باشا- شغل الخلافة العثمانية بأمورها-وجاء تدخل روسيا في الشمال ليصرف دار الخلافة عن كل امر يتجاوز حدود الخطر المباشر الذي بات يدق ابواب عاصمتها. ولم يبق على الامير الا زيادة الاعتماد على قدراته الذاتية، فالتفت الى البلاد ينظمها والى القوى يحشدها. ولم تمض فترة حتى تأكدت مشاعر الامير، وأصبح الظن يقيناً. فقد أخذ الافرنسيون في البحث عن الثغرات لنقض معاهدة (تافنة) من اجل تطوير استعمارهم للجزائر، لا سيما بعد أن زالت معظم المقاومات، ولم يبق فوق أرض الجزائر سوى قوة وحيدة متماسكة هي قوة الامير عبد القادر. وقد تذرعت فرنسا بتفسيرها الخاص لنصوص البند الثاني من معاهدة (تافنة). فاعتبرت ان فقرة (تملك فرنسا في اقليم الجزائر، مدينة الجزائر والساحل متيجة ممتداً نحو الشرق الى وادي القدرة وما وراءه) في حين كان النص العربي يتضمن كلمة (فوقه) مما يخضع للامير عبد القادر. وكان هذا الهامش الجغرافي هو البداية لتجدد الصراع.

٧ـ نقض المعاهدة واستئناف الحرب

(١٨٣٨- ١٨٣٩ م)

تم تعيين الماريشال (فالي)[١] حاكماً عاماً على الجزائر في ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٧. وقد طلب عند تعيينه تعليمات الوزارة الافرنسية، فجاءه الجواب بسيطاً **«التمسك بمبدأ امتلاك الجزائر ـ ويجب ان يكون المفهوم من عبارة ـ وادي القدرة وما وراءه ـ كل البلاد الواقعة في اقليم الجزائر والواقعة وراء وادي قدرة حتى اقليم قسنطينة، وان وضوح الدليل مستقلاً عن الاعتبارات السياسية، لا يسمح بأي تنازل عن هذه النقطة. وما دمنا اسياد اقليم قسنطينة فاننا لا نستطيع أن نبقى بدون طرق أرضية تصلنا به»**.

وأرسل (فالي) هذه التعليمات الى الامير عبد القادر، وأخذ في مفاوضته على شروط تنفيذها، ولكن الامير اتخذ الاجراء المناسب والعملي بشأن المنطقة المتنازع عليها، او بالاحرى تلك التي تريد فرنسا السيطرة عليها، ما بين الجزائر وقسنطينة ـ فركز جهده للسيطرة على كل المناطق جنوب (تيطري). وامسك بقبضته القوية كل القبائل

---

(١) فالي: (SYLVAIN« CHARLES« VALLEE) ماريشال فرنسي (١٧٧٣- ١٨٤٠) المترك في سنة ١٨٣٧ باقتحام قسنطينة وأصبح حاكماً على الجزائر.

الواقعة على حدود اقليم قسنطينة. وارسل قواته فاحتلت كل الاراضي المتنازع عليها وراء (وادي القدرة). وبالاضافة الى ذلك جعل هذه الأراضي مسرحاً لنموذج من اعماله الصارمة التي لا تعرف المساومة نحو الذين خانوا الدين. فهناك مجموعة من الكراغلة كانت قد استوطنت هناك حديثاً تحت حماية الافرنسيين. وقد دعاهم عبد القادر الى قطع علاقتهم الخائنة مع الافرنسيين، ولكنهم رفضوا. وكان الافرنسيون يمدونهم بالسلاح والذخيرة حتى يقاوموا عبد القادر، ولكن الامير نزل عليهم وسحقهم وقطع رأس القائد العميل. وفي الحال، اعلنت كل قبائل مقاطعة (سباو) الواسعة خضوعها. وقد عين عبد القادر أحمد بن سالم ليكون خليفته عليهم. وأصبح عبد القادر الآن صاحب السيادة المطلقة على ثلثي الجزائر. وان المناطق التي احتلها اخيراً والتي تقع في جنوبي ـ شرقي اقليم الجزائر كانت ذات فائدة كبيرة للافرنسيين، لان معسكرهم في (قسنطينة) كان يعتمد في مواده الغذائية عليها. فأخذوا يشعرون بعد ذلك الحادث ان عبد القادر يمكنه في أية لحظة ان يوقف التموين والإمداد عن الافرنسيين، وقد عرف الامير عبد القادر ان حركته الاخيرة ستستثير فرنسا، ووجد انه من الضروري اجراء تحرك ديبلوماسي لتغطية تحركه العسكري، فكتب رسالة الى ملك فرنسا (لويس فيليب) يشكره على هديته التي كان قد أرسلها عشية التوقيع على معاهدة (تافنة) وحمل رسالته هذه الى (ميلود أوـ مولود بن عراش، واليهودي دوران) واخذا معهما ستة أحصنة عربية مسومة. وكانت مهمة الوفد تتجاوز حدود المجاملة، فقد كان على الموفدين تهدئة المخاوف الافرنسية من جهة. والتفاهم في موضوع بقاء المنطقة المتنازع عليها تحت سلطة الأمير. غير أن هذا الوفد عاد من مهمته فاشلاً. وعلم الامير وهو في (تاقدامت) يوم ١٠

كانون الثاني - يناير - **١٨٣٩** م. عن طريق وفده بتصميم فرنسا على التوسع والاستيلاء، فكان رده: «**ابداً - ابداً - لن اصادق على معاهدة تمنح الافرنسيين جسراً ارضياً بين قسنطينة ومدينة الجزائر، لأخسر بذلك كل الثمار التي جنيتها نتيجة قصر نظرهم بجعل الجزائر محاطة بحلقة مكونة من البحر والشفة وجبال الأطلس الصغرى الواقعة مباشرة فوق وادي القدرة**». ولكن على الرغم من هذا الرد الحاسم. فقد استمر الامير عبد القادر في بذل جهد المستطاع لتجنب اندلاع الحرب. وتابع اتصالاته بالمارشال (فالي) الذي رغب في بذل الجهود ايضاً لتحقيق اهداف فرنسا بطريقة سلمية، فارسل الضابط (دوسال) في شهر شباط - فبراير- **١٨٣٩** الى (مليانه) حيث كان الامير قد عقد مؤتمراً لكل القادة والشيوخ لاستشارتهم. وتحدث (دوسال) الى المؤتمرين، فكان جوابهم جميعاً: (الحرب اولى من التنازل عن المناطق المتنازع عليها) وعزز الامير جهوده السلمية بكتابة عدد من الرسائل الى ملك فرنسا (لويس فيليب) وإلى وزير الحربية الإفرنسي، غير أن كل[1] هذه الجهود احبطت بارسال (دوق- دي اورليانز) ابن ملك فرنسا (لويس فيليب) والذي ما ان وصل الى الجزائر حتى بدأ عمله بالإشراف على حملة تتحرك من ميلة في أقليم (قسنطينة) مارة بمضيق- باب الحديد- عابرة المنطقة المتنازع عليها، متقدمة منها إلى مدينه الجزائر. وأحيطت خطة العملية بنطاق محكم من الكتمان والسرية. وبدأت القوات الإفرنسية تحركها نحو (بجاية). فاسرعت القبائل

---

(١) دوق دي اورليانز (DUC D'ORLEANS) من اسرة اورليانز الشهيرة وقد عرف باسم دوق دومال (HENRI DUC D'AUMALE) وهو الابن الرابع للملك لويس فيليب الأول. جنرال ومؤرخ افرنسي (١٨٢٢-١٨٩٧) وهو من مواليد باريس اكتسب شهرة من خلال حرب الجزائر. وكان في الحملة التي استولت على (الزمالة) مقر الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٣

للدفاع عن بلادها ضد العدوان، وغادر المارشال (فالي) و (الدوق) مدينة ميلة يوم ١٨، تشرين الثاني- اكتوبر- ١٨٣٩. ووصلا مدينة (سطيف) من اتجاهين متقابلين يوم ٢١ منه. وطلب شيوخ القبائل مقابلة المسؤولين الإفرنسيين، وعندما قابلهم كبار الضباط، ابرزوا لهم جوازات سفر تحمل خاتم الأمير عبد القادر تسمح للقوات الإفرنسية بالمرور، فرضي الشيوخ بذلك، وكانت هذه الجوازات مزورة. كما كان ختم الأمير قد زور ايضاً. وبدلا من دخول جبال القبائل، عادت القوة التي تحركت نحو بجاية القهقرى. ثم تقدمت نحو (باب الحديد) بعد ان انضمت إلى قوات (فالى). وقام شيوخ القبائل بوظيفة الادلاء المرشدين عند التقدم عبر المنطقة الجبلية الصعبة، وكانوا مغتبطين بتسهيل تقدم اصدقاء الأمير وحلفائه. وبفضل هذه الخدعة، مرت القوة الإفرنسية المكونة من (٥) آلاف مقاتل تقريباً عبر المضيق الهائل لباب الحديد دون طلقة واحدة. ولو كان الأمير عبد القادر هناك بقوة لا تزيد على (٥٠٠) رجل لما كان بوسع الإفرنسيين دخول (باب الحديد) أو لما كان في استطاعتهم الخروج منه.

مر الافرنسيون في اليوم التالي وسط قبيلة بني منصور التي باغتتهم كما لو نزلت عليهم من السماء. ووصلت القوة الافرنسية يوم ٣١ تشرين الثاني - اكتوبر - الى (بني يني) وهناك تبادل العرب والافرنسيون النار اخيراً. ولم يكن (لابن سالم) خليفة الامير عبد القادر في تلك المنطقة الوقت الكافي للاستعداد من أجل مواجهة تقدم الافرنسيين، لذلك اندهش عندما سمع بتقدمهم. واخذ في الاستعداد متأخراً، إذ لم يلبث (الدوق) ان دخل الجزائر ومعه (فالي) يوم ١ تشرين الثاني - نوفمبر - دخول المنتصرين، واستقبلوا فيها استقبال الفاتحين. وقد دامت الاحتفالات بهذا الحادث أربعة ايام

كاملة. واقيم احتفال ضخم في ساحة (باب الواد) تكريما لابطال (باب الحديد). عندما علم الامير وهو في (تاقدامت) بهذا الانتهاك الصارخ، ركب فرسه وسار ليلاً ونهاراً حتى وصل الى مدينة المدية بعد (٤٨ ساعة). وارسل الى (فالي) برقية احتجاج شديدة اللهجة كما كتب لابن سالم، تعليمات جديدة لمجابهة الموقف الجديد جاء فيها:

«ان خرق الاتفاق قد جاء من المسيحيين! ان العدو امامكم. اجمعوا امركم واستعدوا للمعركة. ان الدعوة الى الجهاد قد وجهت الى كل مكان. وانت رجل هذه الجهات. وانني اضعك هناك لتمنع دخول العدو. . . احذروا البلبلة. اربطوا احزمتكم وكونوا مستعدين لكل شيء. كونوا على مستوى الحوادث. وتعلموا الصبر فوق كل شيء. لا تدعوا للضعف الانساني مجالاً بينكم. انها محن أرادها الله. وان هذه المحن قد خالطت مصير كل مسلم صالح تعهد ان يموت من اجل دينه. وسيكون النصر ان شاء الله حليف خطاكم. والسلام من عبد القادر بن محيي الدين» وفي الوقت ذاته وجه الى خلفائه الاخرين رسائل ذات مضمون واحد جاء فيها:

«ان الكافر قد جبهنا بالخيانة، ودليل خيانته واضح كالنهار، لقد عبر بلادي دون اذني، فاجمعوا شملكم، واربطوا احزمتكم استعداداً للمعركة. انها على الابواب. وان الخزينة العامة غير غنية. وانتم انفسكم لا تملكون النقود الكافية تحت ايديكم لتواجهوا الحرب. فاجيبوا اذن حالما تتلقون الأوامر بضريبة اضافية. كونوا عجلين في عملكم. وسارعوا الى الانضمام إلي في المدية حيث انتظركم». واجتمع الخلفاء والشيوخ والزعماء في المدية، واستمر **النقاش طويلاً**، وطرحت قضية الحرب «فنادت الاصوات ـ باستثناء

صوت واحد ـ بالجهاد» فقال عبد القادر: «ليكن ذلك ما دامت هذه هي رغبتكم. ولكني اقبل المسؤولية بشرط واحد. انكم ستتعرضون للتعب والمشقة والمحن والخيبات. وقد تقنطون أو تتعبون من الحرب. فأقسموا لي اذن على القرآن الكريم انكم لن تتخلوا عني ابداً ما دمت احمل راية الجهاد» فأقسم له جميع الشيوخ والخلفاء.

وفي يوم ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر ـ ١٨٣٩. اعلن عبد القادر رسميا الحرب على الافرنسيين وذلك ضمن رسالة وجهها الى المارشال جاء فيها:

«من الحاج عبد القادر امير المؤمنين، الى المارشال فالي. السلام على من اتبع الهدى. لقد اتصلت بأول رسائلك واخرها. وقد قرأناها وفهمنا محتواها. لقد سبق لي أن اخبرتكم بان جميع العرب من ولهاصة حتى الكاف (من حدود المغرب حتى حدود تونس) مجمعون على الجهاد، وقد بذلت كل مجهوداتي لتهدئتهم لكن بدون جدوى. ويجب علي طبقاً لشريعتنا الخضوع للإجماع. وانني اعمل بوفاء لكم حين اخبركم بما يجري. فارسلوا الي قنصلي الذي هو في وهران. ويمكنه ان يعود الى اسرته. وكونوا مستعدين. فالمسلمون جميعاً قد اعلنوا الجهاد. ومهما حدث فانكم لن تستطيعوا اتهامي بنقض العهود. ان قلبي صاف ولن تجدوني اعمل خلافاً للعدل» **كتب مساء الاثنين بالمدية في الحادي عشر من شهر محرم سنة ١٢٥٥ (١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٩).**

لقد لمع البرق وسط السحاب، وانفجرت العاصفة، ولم تمض ساعات على اعلان الحرب، حتى كان الامير عبد القادر يقف فوق مرتفعات (بني صالح) ليتابع منظراً نادراً ما يحدث في التاريخ، لقد

تدفقت جموع العرب وقبائلهم فغطت سهول مدينة الجزائر، في حين كانت افواج جديدة تنحدر من مختلف الجبال المجاورة لتنضم الى ذلك الحشد الهائل. وغصت مضائق الاطلس وشعابه بالفرسان والمشاة، لقد انحدروا وكأنهم انهيارات ثلجية ضخمة حطت فوق سهول مدينة الجزائر.

كان خليفتا المدية ومليانة قد عبرا نهر الشلف يتقدمان جنودهما. واحاط ابن سالم بجيشه من القبائل بالمراكز والمستعمرات الافرنسية المنعزلة من الشرق. وجاء اهل (حاجوط) هائجين من الغرب. وفي الحال، هوجمت المستعمرات وخربت المؤسسات الزراعية ودمرت المراكز الافرنسية بهذا الطوفان، وغطى دخان القرى المحترقة الجو، فأظلم. وهرب الافرنسيون الى الجزائر (المدينة)، التي اجتاحتها موجة من الفزع وملأت الشائعات المرعبة المدينة. فجلى الناس عن منازلهم وقاد الأمير قواته لمهاجمة (قلعة بودور) وهنا ظهرت اول صدمة عنيفة حيث استطاعت نيران المدفعية الإفرنسية إيقاف موجة المقاتلين العرب بفضل كثافة نيرانها ودقتها. وتحركت قيادة (فالي) بسرعة. فدعمت حامياتها وبصورة خاصة في (البليدة وبوفاريك) على أقدام جبال الأطلس. وأعلنت الحكومة الإفرنسية في الوقت ذاته «**انها لن تقبل بعد اليوم مساومة أو تراجعاً ـ وان الجزائر قد أصبحت منذ الآن والى الابد مقاطعة فرنسية**». ووصلت التعزيزات العسكرية بسرعة الى مدينة الجزائر. وارتفعت القوة الفعلية التي أصبحت تحت تصرف المارشال ـ فالي ـ الى (٣٠) الف محارب. ووضع (فالي) خطة جديدة للهجوم تختلف عن مخططات القادة السابقين الذين كانوا ينفذون عملياتهم بهجمات مباغتة تتبعها عمليات انسحاب مباغتة. وكانت خطة (فالي) تتلخص فيما يلي:

١ ـ الاستيلاء على المراكز التي أقامها عبد القـادر وتخريبها، بما في ذلك مخازن أسلحته ومستودعات تموينه..

٢ ـ مهاجمة وتدمير قواته النظامية التي تعتبـر العمود الفقري لجهاز الحرب الجزائري.

٣ ـ الاحتلال الدائم للمقاطعات الآهلة بالقبائل العربية الكبرى، حتى تقنعها بقدرة فرنسا على حمايتها والدفاع عنها، وبالتالي تدمير سلطة عبد القادر والقضاء على نفوذه وفي هذا الوقت ذاته، حاولت الادارة الافرنسية في الجزائر استثارة القبائل العربية ضد الامير (قبائل بني شجران وبني غدو والحشم والشراقة والغرابة وبني شقران وسواهم). غير ان هؤلاء جميعاً اجابوا ـ على لسان شيوخهم ـ برسالة واحدة اكدت رفضهم (لاقتراحات النصراني) والتزامهم بدعم (الامير) حامل راية الجهاد في سبيل الله.

٨ ـ سنوات الصراع المرير

(١٨٤٠- ١٨٤٤ م)

ركز المارشال (فالي) قواته في (البليدة) على أقدام جبال الأطلس الصغرى استعداداً للقيام بهجومه الاول بالتحرك نحو (المدية ومليانة). وعبرت قواته نهر الشفةيوم ٢٧ نيسان (ابريل) سنة ١٨٤٠م. وهناك ظهرت فرسان الأمير عبد القادر بأعداد كبيرة. وسار الجناح الأيمن للقوات الافرنسية نحو (بحيرة) لكنه لم يصل اليها، فقد أسرع الامير عبد القادر بقواته وعبر المساحة الوسطى واختفى، وبذلك أصبح سهل مدينة الجزائر معرضاً لضرباته، وظهر احتمال تقدم الامير كالسيل الجارف، ولكن تلك الحركة لم تكن سوى خدعة منه. فقد كان هدف عبد القادر ارغام (فالي) على ايقاف تقدمه في سهل (وادي الشلف) وارغامه على الدخول في الجبال عن طريق مضائق المزاية. وقد نجح في ذلك.

كان الامير عبد القادر قد عمل في الليل والنهار، وطوال شهور عديدة، لتصبح تلك المضائق الهائلة اكثر قدرة واكثر منعة واقوى تحصيناً حتى يتحقق الهدف التالي: «ان يلاقي الجيش الإفرنسي حتفه هنا» ومن اجل ذلك حفرت الخنادق على كل مرتفع وهضبة. ونشر الامير قواته النظامية من المشاة في هذه المواقع المحيطة بمدن (المدية

ومليانة ومعسكر وسباو وتاقدامت) وافاد من الضباط الافرنسيين الذين هربوا اليه، فعينهم لقيادة القوات في هذه المواقع. وتدفق العرب ورجال القبائل من كل جهة، فاحتلوا تلك المواقع والملاجىء مستعدين لاطلاق النار من عال، ضد القوات الافرنسية عندما تدخل متثاقلة الممر الضيق المعلق وسط المنحدرات الجبلية.

قسم (فالي) قواته الى ثلاثة مجموعات. وغادر جنود هذه المجموعات بقيادة قادتهم (دوفيفييه ولاموريسير ودوتبول) الطريق، وراحوا يقفزون في الوهاد، وتغلبوا على صعوبات الطبيعة الجغرافية للارض (الاشجار والصخور والحفر العميقة). ووصلوا الخنادق ببطء لكن بثبات. وفجأة غطى المنظر ضباب كثيف. لقد انطلق البارود ولم يتوقف، ودارت رحى معارك طاحنة استخدمت فيها كل وسائط الصراع، واظهر المجاهدون والجند النظاميون قدراً غير قليل من الشجاعة والبأس، غير ان الكثافة النارية والتفوق بالقوى على نقاط الهجوم مكن القوات الافرنسية من انتزاع النصر، ونجحت هذه القوات في رفع علمها فوق ذرى الاطلس بين دقات الطبل وصيحات الحرب المنطلقة من كل مكان. وانسحب الامير ببقايا قواته الى مليانة، التي كانت في حالة من الهياج والاضطراب والتي امكن للأمير تهدئتها بسرعة. غير ان المارشال (فالي) دخل مدينة (المدية) فوجدها مهجورة ونصف محروقة. واستخلص الامير عبد القادر الدرس بسرعة، فأصدر اوامره الى خلفائه «بتجنب الاشتباك مع القوات الافرنسية بمعركة نظامية. وبممارسة الاعمال القتالية في اطار (الازعاج والإغارة على اجنحة القوات المعادية ومؤخراتها وقطع محاور تحركاتها والاستيلاء على معداتها ووسائط النقل لديها، ونصب الكمائن والهجمات المباغتة ثم الانسحاب دائمًا بسرعة)» وكان النجاح رائعاً في

تطبيق هذه الطرائق مما وضع القوات الافرنسية في (المدية ومليانة) في حالة انهيار معنوي «واوشك معسكر ومليانة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٠ على الاختفاء تحت تأثير مجموعة من العوامل، واهمها الجوع والمرض والغربة فمات ٧٥٠ جندياً من اصل مجموع الحامية البالغ ١٥٠٠ جندي، ودخل المستشفى ٥٠٠ جندي لاصابتهم بالحمى، أما البقية وعددهم ٢٥٠ جندياً فكانوا هياكل متحركة لا يكادون يمسكون ببنادقهم».

ونجح الامير عبد القادر في ايقاف تقدم الافرنسيين في جبال تيطري، ليس ذلك فحسب، بل انه وضعهم دائمًا تحت رحمته، من حدود المغرب الى حدود تونس، عائقاً أو ملغياً عملياتهم بجهوده التي تكاد تكون فوق طاقة البشر. فهو دائمًا على صهوة جواده، يتحرك بصورة مباغتة وسرية، يحارب اليوم الافرنسيين ليظهر في اليوم التالي وهو على بعد مسافة مائة ميل لجمع شمل قبيلة عربية ممزقة ولرفع روحها المعنوية، لذلك كان يبدو انه ـ بنظامه الحديدي الصارم ـ قد تخلى عن الراحة والاستجمام. وكأنما قد أصبح جسمه شيئاً روحانياً بالروح التي كانت تتقد فيه.

تولى الجنرال (بيجو) منصب الحاكم العام للجزائر يوم ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٤١. واخذ على عاتقه تنفيذ مخططات حكومته التي كانت قد درست قوة خصمها العنيد فوضعت تحت تصرف (بيجو) قوة تزيد على (٨٠) ألف محارب، مدعمين بأقوى وسائط القتال والاسلحة الحربية الحديثة.

ولكن الصعوبة الكبرى لم تكن في هزيمة عبد القادر بقدر ما كانت في اللحاق به. لقد كان الافرنسيون أقوى منه ولكنه كان أسرع

منهم. فقد كانوا مرغمين على التحرك فوق الطرق الممهدة، بأرتال طويلة تثقلها المدافع ومركبات الاسعاف والأعتدة. أما هو فبعد ان يرى هدف هجوم عدوه، يتجنبه مؤقتاً، ثم ينقض عليه عندما يكون في ورطة- مأزق- متخبطاً في الشعاب، ضائعاً في الوهاد. ونتيجة لذلك، أوقف (بيجو) العمل بأساليب أسلافه، ووزع قواته على أرتال متباعدة تعمل على محاور مختلفة، مما أرغم الأمير على توزيع قواته، وابقاه في حالة من الريبة والشك في نوايا عدوه. وفي الوقت ذاته تخلت القوات الافرنسية عن معداتها الثقيلة ومدافعها الضخمة، بل انها تخلت حتى عن ارتال تموينها، وكان للعرب مزية اساسية تفوقت فيها على القوات الافرنسية، ذلك انهم كانوا يجدون المواد الغذائية اينما حلوا، داخل مخازن الحبوب المنتشرة تحت الأرض، في كل الجهات، بينما كانت القوات الافرنسية ملزمة بحمل موادها التموينية. ولكن (لامورسيير) قد حل المشكلة حينما قال: «ان العرب لا يحملون تموينهم معهم. فلم نحن؟...» ولذلك فانه منذئذ أصبح رجال (لامورسيير) يحملون معهم بعض المطاحن اليدوية الصغيرة، وعندما يصلون الى مكان معين من البلاد ينتشرون هنا وهناك على مسافات تصل أحياناً بضعة كيلومترات. وأثناء تقدمهم كانوا ينقبون الأراضي امامهم بسيوفهم وحربات بنادقهم فيضربون الصخور التي كانت تغطي مخازن الحبوب، والتي لم تكن مغطاة الا بطبقة خفيفة من التراب. وهكذا اكتشفت مخازن الحبوب التي كان العرب يخفونها عن عدوهم، ومن جهة اخرى ضمنت الغارات الحصول على الغنم، وتحول القمح الى دقيق بواسطة المطاحن اليدوية. وبهذه الطريقة أصبحت القوات الافرنسية تمون نفسها في المكان الذي توجد فيه. ووضع (بيجو) مخططات عملياته العسكرية

على اساس تحقيق مبدأين (الصيانة والاعتداء). وحدد اهدافه الرئيسية باعادة تموين حامياته التي لا تكاد تقوم بتأمين مواردها الحياتية الا بجهد كبير وسط العرب المحيطين بهم من كل جانب. والاحتفاظ بالقبائل العربية التي نجح في اخضاعها تحت سلطته، وتنظيمها تنظيمًا محكمًا تحت اشراف الافرنسيين، مع ارهاب القبائل الاخرى بواسطة إغارات مرعبة لإبادتها وإحراق محاصيلها. واخيراً، في ضرب قوة الامير عبد القادر، دون هوادة ولا تردد، واحتلال مراكزه الحصينة، وتدمير مخازن اسلحته، أملاً في ارغام الامير على التراجع نحو الصحارى القاحلة.

افتتح (بيجو) حملة سنة ١٨٤١ م بمحاولة اعادة تموين مدينتي (المدية ومليانة). وكانت خسائر الافرنسيين قبل تحقيق هذا الهدف، فادحة، ذلك ان عبد القادر قد نازعهم كل شبر اثناء تقدمهم. وكان (بيجو) قد ذهب الى اقليم (وهران) ومن مستغانم قاد شخصياً حملة ضد (تاقدامت) وعند وصوله يوم ٢٥ ايار- مايو، وجدها مهجورة، بينما كانت اجزاء منها تحترق. ثم تلى ذلك تخريب (بوغار وسعيدة وتازة). وقرر الامير عبد القادر، طبقا لتنظيمه الجديد، عدم اضاعة قواته أو تشتيتها للدفاع عن قلاعه، ولذلك تخلى عنها جميعا. وكان جيشه النظامي اكثر فائدة ونجاحاً في استخدامه لعرقلة الافرنسيين اثناء تقدمهم، أو في الاحتفاظ بولاء القبائل التي ظهر عليها التردد. وقد أصبحت المدن المحصنة بالنسبة لطرائق الحرب الجديدة التي دعي عبد القادر لمواجهتها، حملاً، بل عبئاً ثقيلاً، كان يشعر بالغبطة للتحرر منه. ونجح الامير عبد القادر في اعادة تنظيم القبائل، حتى باتت تتحرك بدافع واحد، تنبسط أو تنقبض تبعاً لأوامر القيادة. وكانت تهاجم عند اقل خطر، وتختفي عندما تشعر بتتبع العدو لها.

وهذا هو المبدأ الحاسم الذي أصبح منذ الان الاساس في عمليات الامير. ومقابل ذلك، أصبح الهدف الاول للمارشال (بيجو) هو كسر حلقات هذه السلسلة المترابطة، وتحطيم السلطة التي تجعلها مجتمعة ومتماسكة، وذلك باقامة مراكز عمل دائمة في وسط القبائل والمجمعات العربية، وارسال حملات سريعة متتالية انطلاقاً من هذه المراكز حتى يتيح لجيشه ان يثبت وجوده دائما بين العرب. واعتبر (اقليم وهران) هو المسرح الاساسي للعمليات باعتباره القاعدة التي يستمد منها الامير قوته. فاحتل (لامورسيير) مدينة (معسكر) واحتفظ (بيدو)[1] بمدينة تلمسان. وكان (وشانقارنيي)[2] يراقب الحدود الغربية لسهل مدينة الجزائر. وقد ارسلت ثلاثة أرتال للتحرك من وهران ومستغانم نحو القبائل الواقعة في المنطقة الواسعة الممتدة بين البحر والأطلس، بالاضافة الى تلك التي تقع في اتجاه الصحراء. وكان الرتل الاول تحت قيادة (بيجو) شخصياً، وكان يتقدم محاذياً لسهل وادي الشلف، ثم التقى بالرتل الثاني الذي كان يتحرك تحت قيادة (شانقارنيي) منطلقاً من البليدة. أما الرتل الثالث الذي كان يقوده (لامورسيير) فقد كان يهدف الى رد عبد القادر ودفعه نحو الجنوب لعزله عن القبائل التي كان (بوجو وشانقارنيي) يهاجمانها. وهنا بدأت القصص المدهشة، والمثيرة في وقعها والسامية في عظمتها، تلك

---

(١) بيدو : (MARIE ALPHONSE BEDEAU) جنرال فرنسي من مواليد فيرتو (VERTOU) في اللوار السفلي (١٨٠٤- ١٨٦٣) برز اسمه في الجزائر.

(٢) شانقارنيي :(NICOLAS CHANGARNIER) جنرال افرنسي ورجل سياسي. من مواليد اوتن (AUTUN) (١٧٩٣- ١٨٧٧). اصبح حاكمًا في الجزائر ثم أبعد منفياً بعد انقلاب فرنسا ١٨٥١، واعيد إلى فرنسا (١٨٥٩).

القصص العجيبة التي تمتزج فيها الجرأة بالعبقرية والايمان. والتي طبع بها عبد القادر صراعه المجيد الذي كان يقوده بشخصيته القوية.

كان (لامورسيير) ينفذ بحماسة التعليمات المعطاة اليه لمطاردة الامير عبد القادر والقبض عليه، وسمع فجأة ان الامير كان أمام (معسكر). وعندما أعد خطته للوصول بسرعة الى ذلك المكان، عرف أن عبد القادر قد مر قريباً من مؤخرة قواته، وانه كان يقوم بغزوة ضد قبائل البرجية. وعادت المطاردة، ولكن عبد القادر عبر من جديد (نهر الشلف) بمناورة جريئة وسريعة، تاركاً خصمه وراءه في حيرة وذهول، ومر بين قوات (بيجو) والبحر وسرعان ما استرجع مكانته بين القبائل التي فرت منه في ذلك الاتجاه، وقام بغزوة اخرى سريعة في جنوب (مليانة). ثم اسرع نحو الصحراء،. حيث ظهر بكامل قوته. في نفس الوقت الذي كان الفرنسيون قد رجعوا الى قواعدهم يائسين من العثور عليه. أثناء ذلك، كان الجنرال (بيدو) قد نجح في فرض سيطرته على عدد من القبائل المنتشرة على الحدود (المغربية- الجزائرية) ومن ابرزها قبيلة (ندرومة) مماهدد مؤخرة الامير وطرق تموينه الرئيسية. فقاد الامير عبد القادر قواته واسرع نحو الحدود المغربية، وبمجرد وصوله انضمت اليه (قبائل ندرومة وبنو سناسن) ودعموا قوته بثلاثة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل. فمضى بهم الى القتال. واصبحت هضاب ووديان جبال ترارة وندرومة وضفاف تافنة والزقاق مسرح اشتباكات طاحنة بين الامير و (بيدو) طوال شهري آذار ونيسان (١٨٤٢)- مارس وابريل- وافاد (لاموريسير) من غياب الامير ليبسط سيطرته على (مدينة معسكر) وليوسع عملياته في اتجاه الصحراء، بعد ان نجح في اخضاع الكثير من القبائل- بمن فيهم قبائل بنو هاشم- قبيلة الامير نفسه- فانتقل الامير بسرعة، وعالج الموقف بمزيج من القسوة المتناهية والتسامح غير

المحدود تبعاً لمعرفته لمن خضع كرهاً أو خيانة للافرنسيين، فأمكن له بذلك استعادة السيطرة على الموقف. وهكذا استمر الصراع المرير على كافة الجبهات والذي اخذ شكل اشتباكات دموية عنيفة في بعض الاحيان. ونظراً لما كانت تتعرض له القبائل العربية ـ وخاصة النساء والاطفال ـ فقد اضطر الامير لتطوير (الزمالة) حتى اصبحت عاصمة ضخمة متنقلة تتبع حركة الامير في تقدمه وتراجعه. ولم تلبث هذه الزمالة ان تحولت لاداة فعالة في قبضة الامير لمنع القبائل من التأرجح بين الخضوع للافرنسيين، وبين الولاء للامير. فعندما كان الافرنسيون يقدمون الاغراءات لرجال القبائل بقولهم: «هلموا الينا فاننا سنحميكم» كان هناك صوت خفي يهمس في آذانهم قائلاً: «ان لدي نساءكم واطفالكم وقطعانكم فاحذروا». واصبحت (الزمالة) نتيجة ذلك هي الهدف الاول للافرنسيين. حيث تركزت هجمات الربيع لسنة ١٨٤٣ من اجل مطاردة الزمالة. وقد استطاع الامير احباط هجومين قام بهما (لامورسيير) غير ان (دومال) نجح في الاغارة على (الزمالة) يوم ١٦ ايار ـ مايو ـ ١٨٤٣ بمساعدة خائن (هو عمر العيادي ابن فراح). وكانت غنائم الافرنسيين كبيرة. بقدر ما كان وقع الكارثة مفزعاً للعرب. وعندما بلغ الامير الخبر (وهو في غابة سرسو) أظهر تجلده للنكبة، رغم انه فقد فيها كل ثروته المالية وجوهراته ومكتبته التي جهد في جمعها، فقال لاولئك الذين كانوا ينتظرون كلمته: «الحمد لله ـ ان كل تلك الاشياء التي كنت اقدرها حق قدرها والتي كانت عزيزة على قلبي، والتي شغلت عقلي كثيراً، لم تزد على أن أعاقت حركتي وحولتني عن الطريق الصحيح. اما في المستقبل، فسأكون حراً في محاربة الكفار» وكتب الى خلفائه: «قام الافرنسيون بالإغارة على الزمالة. ولكن علينا ان لا نفقد الشجاعة وسنكون منذ

الان اخف حملاً وافضل استعداداً للحرب.»

كانت صدمة (الزمالة) قوية الوقع على الأمير، وصفها بقوله: «كنت قرب (تاقدامت) أراقب الحامية الافرنسية القريبة مني (بوهران)، عندما قام الافرنسيون بهجومهم المباغت على (الزمالة). كان معي (١٥٠٠) فارس، وكان (ابن خروب) مع فليته، وابن علال في الونشريس، ومصطفى بن التهامي بين بني ورغة، ولم اكن ابداً أتوقع نكبة كالتي حدثت من جهة (المدية) ولم يكن أحد من خلفائي يراقب تحركات ابن الملك (دوفال). ولكن رغم ذلك كله، لم نكن لنباغت بالحادث لو ان الله لم يطمس عيون شعبنا. فقد اعتقد أهل الزمالة، عندما رأوا جنود ـ الصبائحية ـ متقدمين ببرانسهم الحمراء، أن هؤلاء هم جنودي غير النظاميين عائدين، بل ان النساء قد رفعن اصواتهن بالزغاريد ترحيباً واحتفاء بهم، ولم يشعرن بخيبة الأمل الا بعد اطلاق النار، ثم تلا ذلك اضطراب لا يوصف شل جميع جهود الذين حاولوا الدفاع عن أنفسهم. ولو كنت حاضراً لكان علينا أن نحارب من أجل نسائنا وأطفالنا، ولعاش الافرنسيون يوماً لن ينسوه، ولكن الله اراد غير ذلك، ولم اسمع بالنكبة الا بعد ثلاثة ايام من حدوثها، وكانت الفرصة عندئذ قد ضاعت».

كانت قوة الافرنسيين التي قامت بالاغارة قليلة، لهذا لم تتمكن من اقتياد اكثر من (٣) آلاف اسير، كان من بينهم عدد من عائلات كبار الضباط والقادة في جيش الامير، ولم تكن (نكبة الزمالة) اكثر من بداية لصراع مرير وقاس على كل الجبهات، وأصبح اقليم وهران مسرحاً للاشتباكات الدموية المستمرة، ولم تتوقف القوات الافرنسية من مطاردة الامير، وتمكنت في يوم ٢٢ ايلول ـ

سبتمبر - ١٨٤٣ من مباغتته عندما كان معسكراً بالقرب من زاوية المرابط (سيدي يوسف) وقد صحا الامير على صرخات (الافرنسيين - الافرنسيين). وكان لا يجد الوقت حتى لامتطاء فرسه، غير انه لم يفقد رباطة جأشه وهو في أشد ساعات الضيق. فأخذ في اطلاق النار وأسرع جنده الى اسلحتهم، واخذوا في التجمع حوله تقودهم صيحاته الحادة، وأمكن له تمزيق الافرنسيين والخروج بجنده وأهله. ومضى (بزمالته) التي لم تعد تضم اكثر من الف نسمة، ليجوب بها الأرض في شقاء ويأس. وتبع ذلك قتال مرير، وكانت النسوة تحمس المحاربين بالزغاريد والاهازيج. وكان عبد القادر ورجاله يحاربون على مرأى ومسمع من زوجاتهم واطفالهم، فابدوا شجاعة لا توصف. وامكن للامير بذلك قيادة الزمالة الصغير بأمان الى (بوك شبكة) على حدود المغرب الاقصى. أما (بيجو) فقد كتب الى حكومته: «بعد حملة الربيع ١٨٤٣، كان باستطاعتي ان أعلن بان احتلال الجزائر واخضاعها قد انتهى. غير أنني فضلت ان اذكر ما هو أدنى من الحقيقة، ولكني الان، وبعد معركة ١١ - تشرين الاول - اكتوبر - والتي قضي فيها على بقية مشاة الامير وقتل فيها أول وأشهر خليفة له (ابن علال) فاني اعلن على الملأ وبكل جرأة، ان كل قتال جدي قد انتهى، حقاً ان عبد القادر قد يقوم بحفنة الفرسان الذين ما يزالون معه، ببعض الحركات المباغتة المعزولة على الحدود، ولكنه لن يحاول ابداً القيام بأية حركة هامة من جديد».

٩ـ على حدود المغرب

(١٨٤٥ م)

اتخذ الأمير عبد القادر من حدود المغرب قاعدة لغزواته في الجزائر لفترة من الوقت، ثم ينسحب الى الأرض المغربية مما دفع القوات الافرنسية لزج فرقة عسكرية ضخمة بقيادة (لامورسيير) لاحتلال الجزء الذي ينطلق منه الامير عبد القادر، ولم يكن خط الحدود الجزائرية ـ المغربية محدداً بدقة. واختار (لامورسيير ـ وبيدو) مقراً لهما في زاوية حملت اسم (لاللامغنية) وهي امرأة مرابطة اشتهرت بورعها وتقواها. (ولا يزال هناك ضريح اقيم لها رسمياً في المكان ذاته) وفي (لاللامغنية) حفر الافرنسيون خنادقهم، وعلقوا معداتهم وغنوا اغانيهم، واهرقوا خمورهم، وعربدوا عربدتهم، فكان في ذلك تدنيس لحرمة المكان المحترم، وانتهاك مثير ووحشي لمشاعر المسلمين. وانطلقت صرخة الغضب فترددت لها اصداء قوية في كل المغرب الاسلامي. مما دفع سلطان المغرب (سيدي عبد الرحمن) لتوجيه جيش بقيادة القائد (القناوي) الذي كان شريفياً متعصباً مرتبطاً بالدم مع عائلة السلطان. وطلب القناوي من الافرنسيين الجلاء عن (لاللامغنية) يوم ٢٢ ايار ـ مايو ـ ١٨٤٤. غير ان الافرنسيين سخروا من هذا الطلب وفي يوم ٣٠ ايار (مايو) تقدم الجيش المغربي، واشتبك

مع الافرنسيين في معركة قصيرة وحاسمة وارغمهم على الانسحاب. وعاد (بيجو) يوم ١١ حزيران ـ يونيوـ في محاولة للتفاهم مع (القناوي) غير ان هذه المحاولة فشلت، وبعدئذ وجه (بيجو) انذاراً خطياً الى (القناوي) جاء فيه: «نرغب ان تكون لنا نفس الحدود التي كانت للاتراك ثم لعبد القادر، اننا لا نريد ان نأخذ منكم شيئاً. ولكن يجب ان نصر على عدم إيواء عبد القادر بعد اليوم، وان لا تمنحوه المساعدة أو التأييد، وان لا تدعموه بعد ان أوشك على الهلاك ثم تطلقوه ضدنا من جديد. ان عملاً كهذا ليس من الصداقة في شيء، اننا نخوض حرباً، وانكم كنتم تقومون بالحرب ضدنا على هذا المنوال منذ سنتين. اننا نطلب منكم ان تحصروا دائرة عبد القادر وكبار مساعديه في غرب الدولة، وان تفرقوا جيشه النظامي، المشاة منه والفرسان، ونطلب منكم ايضاً ان ترفضوا منذ الان السماح بهجرة قبائلنا الى مناطقكم، وان تعيدوا الينا حالاً اولئك الذين لجؤوا اليكم. واننا نلزم انفسنا بالمعاملة بالمثل تجاهكم فيما اذا حدث مثل ذلك بالنسبة الينا. وهذا ما يمكن تسميته حقاً التطبيق العملي لمبدأ الصداقة الحقيقية بين أمتين. وبهذه الشروط سنكون اصدقاءكم، وسنشجع تجارتكم، وسنكون الى جانب حكومة مولاي عبد الرحمن بقدر ما نستطيع أما اذا تصرفتم غير ذلك فسنكون اعداء لكم. فأجب في الحال وبدون تملص لانني لا أفهمه»

لم يأت هذا الانذار بنتيجة تذكر، وتراجع الجيش المغربي الى داخل البلاد، واحتل (بيجو) مدينة (وجدة) بصورة مؤقتة، وتطور الصراع على الحدود. فأرسلت الحكومة الافرنسية قطعة من اسطولها

الى الساحل المغربي بقيادة (دوجوانفيل)[1] في شهر حزيران (يونيو) ١٨٤٤ لتدعيم مطالبها الرسمية. وتلقى المارشال (بيجو) في الوقت ذاته تعليمات للبدء بعملياته الهجومية البرية واضطر السلطان (عبد الرحمن) للرضوخ لمطالب الافرنسيين بعد قصف طنجة وموقادور بقنابل الاسطول، وبعد معركة (ايلسلي)[2] وفرضت معاهدة الصلح على السلطان فرضاً، وتضمن البند الرابع منها. «**يعتبر عبد القادر خارجاً على القانون في جميع انحاء الدولة المغربية وفي الجزائر. ونتيجة لذلك، ستطارده القوات الافرنسية من الجزائر والقوات المغربية من المغرب، الى أن يطرد من هناك، أو يقع في قبضة قوات احدى الدولتين. ففي حالة وقوع عبد القادر في أيدي القوات الافرنسية، تتعهد حكومة جلالة ملك فرنسا أن تعامله باحترام وكرم. وفي حال وقوعه في أيدي القوات المغربية يتعهد جلالة سلطان المغرب باجباره على الاقامة، مستقبلا، في احدى مدن الساحل الغربي لدولته، الى ان تتوصل الحكومتان الى اتخاذ اجراء يمنعه من استئناف القتال، وتعكير الهدوء في الجزائر والمغرب**».

انسحب الامير عبد القادر بعيداً في جوف الصحراء، غير ان المعاهدة المفروضة استثارت غضب المسلمين في المغرب كله، ووصلت الى الامير رسائل من كل المستويات تطالبه بقيادتها للاطاحة بالسلطان، غير ان الامير رفض استثمار هذا الموقف الذي يضعف

---

(١) دوجوانفيل: PRINCE DE . JOINVILLE - FRANçOIS DE BOURBON - ORLEANS) اميرال افرنسي - من مواليد نويي (NEUILLY) (١٨١٨ـ١٩٠٠) الابن الثالث للملك لويس فيليب. (شقيق دومال الذي سبق ذكره).

(٢) ايسلي: ISLY نهر مشترك بين الجزائر والمغرب، يرفده نهر تافنة من يساره.

المغرب بدلاً من تقويته، ومضى يستثير حماسة القبائل في الجزائر، متنقلاً باستمرار، من (تيارات) في أقاليم التل حتى الحدود المغربية. وكانت مطاردة الإفرنسيين له لم تتوقف. وفي لحظة اليأس وصلته رسالة من خليفته (ابن سالم) يعلمه بقدومه إليه عندما تتوافر له ظروف مناسبة. واثناء ذلك عقد خلفاء الأمير الثلاثة في الشرق الجزائري وقرروا المضي في جهادهم، ومما قاله (ابن علال) لإخوته في الجهاد وهو يعانقهم ويقبلهم مودعاً: «ليجمعنا الله في الآخرة، لأنني ضعيف الأمل باجتماعنا من جديد في هذه الدنيا» فاجابه ابن علال: «قد يكون ذلك صحيحاً اذا استسلمنا للمسيحيين، وهو أمر حرمه الله علينا».

يصور ذلك الوضع الذي كانت عليه الجزائر، في الوقت الذي مضت فيه السلطة الاستعمارية بالمطاردة الأمر الذي زاد على قدرة احتمال القبائل، فانفجر الموقف في آذار (مارس) ١٨٤٥ بقيادة محمد ابن عبد الله- الملقب بو معزة- من مشايخ (الدرقاوه). ورفع (بو معزة) لواء الجهاد في منطقة الظهرة وسهل الشلف. وعلى الرغم من ان قوة- بو معزة- لم تتجاوز المئات فقد كانت شرارته هي التي احرقت السهل، اذ اندلعت المقاومةفي كل مكان (باسم بو معزة). وافاد الامير من هذا الموقف، فقاد قواته التي بقيت مخلصة له الى سهل (تافنة) فدمر الحامية الافرنسية في (سيدي مخلصة). واستسلمت له كتيبة كاملة (من ستمائة جندي) في (تموشنت). وشعرت فرنسا بالخطر المتعاظم. فاعادت (بيجو) الى الجزائر، ودعمته بقوات جديدة حتى بلغ عدد القوات الافرنسية في الجزائر (١٢٠) الفا ووصل بيجو الى مسرح العمليات يوم ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٥ وتولى قيادة (١٤) فرقة. وطبق اسلوب (الطابور الجهنمي) الذي يعتمد على الابادة

للسكان واحراق الأرض والزرع والقرى. وخاض الامير عبد القادر صراعاً مريراً ضد ارتال القوات الافرنسية، ونجح في احراز عدد من الانتصارات كاد في بعضها ان يسحق رتلا كاملاً من ارتال القوات الافرنسية في كانون الاول - ديسمبر - ١٨٤٥ م.

وأصبح لزاماً على الامير عبد القادر أن يخوض صراعاً مريراً على ثلاث جبهات: الجبهة الداخلية المتداعية تحت ضربات الافرنسيين المدمرة، وعلى جبهة الصراع ضد الافرنسيين، وعلى جبهة المغرب، وكان هذا الصراع يتطلب امكانات ضخمة، في حين انقطعت عنه كل الموارد بعد ان نجحت فرنسا في عزل الجزائر عن جناحيها (تونس والمغرب). وباتت الحلقات تضيق حول الامير حتى كاد يسقط في قبضة اعدائه عدة مرات (منها ما حدث له يوم ٧ شباط - فبراير - ١٨٤٦ عندما بوغت في منتصف الليل بقوات الافرنسيين وهي تحيط به، ولم تنقذه الا شجاعته من هذا المأزق).

استمر عبد القادر بقيادة هذا الصراع المرير على امتداد عامين، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٧ وقف مع القوات المتبقية لديه (٥) آلاف مقاتل في (اقدين) دائرة معسكره على الضفة اليسرى لنهر (ملوية) واعاد تقدير موقفه، كان شارداً عن كل ما حوله يسير على رأس قوته تتبعه (الزمالة) التي اوهنها الحل والترحال، وزاد من ارهاقها غضب الطبيعة التي ارسلت امطارها كالسيول، ووقف الامير فجأة، وطلب الى رجاله الاقتراب منه. لقد اتخذ قراره، وها هو يترجم على رجاله الذين اخذتهم مهابته: «**هل تذكرون القسم الذي اقسمتموه قبل ثمانية** اعوام في المدية عند استئناف الحرب... انني دائما كنت **اعتبر ذلك** القسم ملزم لي نحوكم، كما هو ملزم لكم تجاهي. ان هذا

الشعور وحده هو الذي جعلني اتابع حمل راية الجهاد في سبيل الله حتى اليوم. فاذا كنتم تعتقدون انه ما زال بوسعي ان اقوم الان بأي شيء فاخبروني. وان كنتم لا تعتقدون ذلك فاني اسألكم ان تعفوني من القسم الذي التزمت به تجاهكم» واجابه الجميع بصوت واحد، «اننا جميعاً نشهد أمام الله انكم فعلتم كل ما في وسعكم لاعلاء كلمته، وسيجزيكم الله بعدله يوم القيامة» وقاد الامير الحديث من جديد: «واذا كان هذا هو رأيكم، فامامنا ثلاثة احتمالات: امّا العودة الى الدائرة حيث نكون مستعدين لمواجهة اية عقبة، واما محاولة ايجاد طريق الى الصحراء. وفي هذه الحالة لا تستطيع النساء والاطفال والجرحى ان يتبعونا، وسيسقطون لا محالة في ايدي العدو، واما الاستسلام» فاجابوه: «ليهلك النساء والأطفال، اهلنا واهلك، ما دمت انت سالما وقادراً على متابعة الجهاد في سبيل الله. انك قائدنا وأميرنا، فحارب واستسلم كما تشاء، اننا سائرون وراءك الى حيث تقودنا» ودار نقاش في معالجة هذا الوضع اليائس، وانتهى عندما اخرج الامير قطعة من الورق، ووضع عليها خاتمه، لقد كان المطر الغزير يعيقه عن الكتابة، فترك للفارسين المكلفين بنقل الرسالة الى القائد الافرنسي كتابة الشروط.

استقبل الجنرال (لامورسيير) في ليل ٢١ كانون الاول ـ ديسمبر ـ فارسين ابلغاه رغبة الامير في الاستسلام. فوافق على الفور غير انه لم يكن قادراً بدوره على الكتابة للسبب ذاته، فالامطار الغزيرة اعاقته عن الاجابة خطياً فأعطى سيفه، وخاتم الضابط (بازين)[1] الى المبعوثين

(١) بازين: (ACHILLE - BAZAINE) مارشال فرنسي ـ من مواليد فرساي (١٨١١ ـ ١٨٨٨م) خدم في الجزائر، واشتهر في حرب (القرم). وأصبح قائداً اعلى للقوات الافرنسية في =

لتقديمها الى عبد القادر علامة على قبول شروطه.

افاد الامير من توقف المطر قليلاً، فكتب رسالة الى (لامورسيير) ضمنها شروطه، وعاد فأرسلها مع مبعوثيه. واثناء ذلك كان (لامورسيير) قد نقل الخبر الى (الدوق دومال) الذي اصبح حاكمًا عاماً للجزائر. وكتب لامورسيير الى الدوق ما يلي: «كنت مضطراً ان التزم بتعهدات، انني فعلت ذلك وأنا على يقين ان سموك والحكومة ستوافقون على تعهداتي، اذا قبل الامير كلمتي. انني الان ممتط جوادي في طريقي الى الدائرة، وليس لدي الوقت لارسل لكم نسخة عن الرسالة التي وصلتني من الامير أو نسخة من جوابي عليها. ويكفيني ان اذكر بانني وعدت ووافقت على ان يؤخذ الامير وعائلته الى عكا او الاسكندرية، ولم اذكر سوى هذين المكانين، وهما اللذان ذكرهما في مطلبه واللذان قبلتهما».

غادر الامير قرية (تريرات) صباح يوم ٢٣ كانون الاول - ديسمبر - تتبعه مجموعة من قادته واتباعه الذين ارتضوا لانفسهم مشاركته رحلة العمر الشاقة، حتى اذا ما وصل الى زاوية المرابط (سيدي ابراهيم) استقبله العقيد (مونتوبان) على رأس قوة من (٥٠٠) فارس، وأدى له المراسم كرئيس دولة. وبعد استعراض حرس الشرف، طلب الامير السماح له باداء الصلاة في الزاوية واستجاب القائد الافرنسي لطلبه، فترجل عن فرسه. وبوصوله الى الزاوية نزع

- المكسيك. وكلف سنة ١٨٧٠ بقيادة جيش اللورين ضد بروسيا، غير انه اضاع المبادأة مما سمح للقوات البروسية بتطويقه في ميتز. وحكم عليه بالموت سنة ١٨٧٣ لتقاعسه، غير انه استطاع الهرب الى اسبانيا وقضى بقية حياته في (مدريد).

سيفه، وسلمه الى احد المرافقين له. وبعد ساعة قضاها الأمير في الصلاة، خرج فتابع رحلته. ووصل في السادسة مساء الى (جامع الغزوات) حيث اتخذه الدوق دومال مقراً له. وعندما تمت المقابلة بحضور القادة الافرنسيين، قال الامير للدوق «ان الجنرال - لامورسيير) قد اعطاني وعداً، واني اثق به كل الثقة، ولست اخشى ان يخلفه ابن ملك عظيم مثل ملك الافرنسيين» أقام (الدوق دومال) عرضاً للقوات الافرنسية في الجزائر، في اليوم التالي، ووقف الامير الى جانب الدوق، وعند انتهاء العرض، قدم الامير للدوق جواده، وقال له: «انني اقدم اليك هذا الجواد الذي هو آخر جواد امتطيته، لقد كان جوادي المفضل، ولكن يجب ان نفترق الان» واجابه الدوق: «انني اقبله باعتباره اكراماً لفرنسا، البلد الذي ستمتد حمايته اليك منذ الان وعلامة على ان الماضي قد نسي».

وركب الامير وعائلته ومرافقيه واتباعه (ومجموعهم ثمانية وثمانين شخصاً) السفينة (اسمودس) يوم ٢٥ كانون الاول - ديسمبر - ١٨٤٧ م. واتجهت السفينة الى طولون. وباعت فرنسا كل ممتلكات الامير وحقائبه وخيامه وجياده وبغاله وإبله، بمبلغ (٦) آلاف فرنك، ولكن حتى هذا المبلغ التافه لم يقدم له الا على شكل صدقة وبالتقسيط.

وعمت فرنسا انباء استسلام الامير، فاستقبل الافرنسيون (شعبا وحكومة) ذلك بفرح طاغ وبهجة عارمة، لقد اصبحت الجزائر الان (مستعمرة فرنسية). واصبح باستطاعة فرنسا الان سحب (مائة الف جندي) لاستخدامهم حيث تتطلب الحاجة.

خرج السيف من غمده، وغادر الامير ارض الأباء والأجداد، وودع السلاح، مستسلمًا لقدره بايمان ثابت، وعزيمة صلبة ليجابه الصعاب على امتداد سنوات العمر.

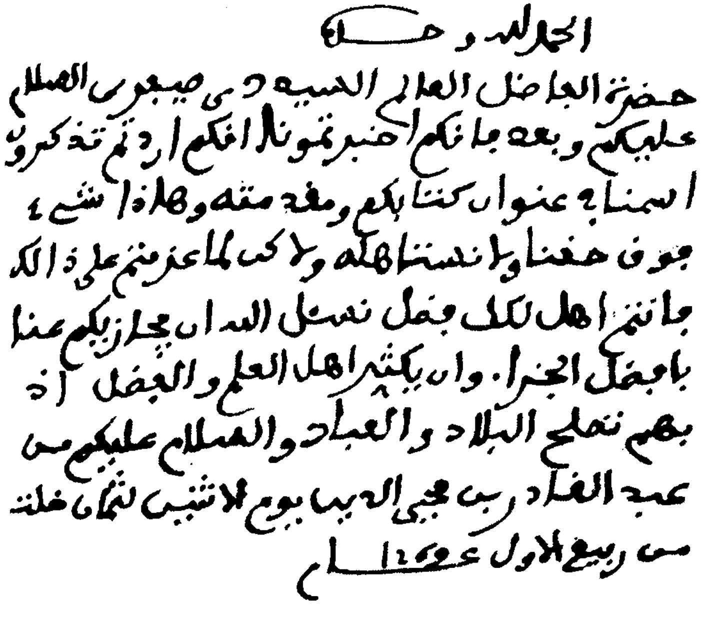
الحمد لله وحده
حضرة الفاضل العالم الحسيب دي صيفري السلام
عليكم وبعد فانكم اخبرتمونا انكم اردتم تذكرون
اسمنا في عنوان كتابكم ومقدمته وهاذا شيء
فوق حقنا ولا نستاهله ولكن لما عزمتم على ذالك
فانتم اهل لذلك وفضل نسال الله ان يجازيكم عنا
بافضل الجزا. وان يكثر اهل العلم والفضل اذ
بهم تصلح البلاد والعباد والسلام عليكم من
عبد القادر بن محيي الدين يوم الاثنين ثمان خلت
من ربيع الاول عام ١٢٦٨

رسالة بخط الأمير إلى العالم دي سيفري في ١٨٥٢

١٠ـ وداعاً يا جزائر الاحرار
(١٨٤٨ـ ١٨٥٢)

الامير في سجون فرنسا

وداعاً يا جزائر الاحرار! وداعاً يا جزائر المسلمين المجاهدين الصابرين!

ومضى الامير، وما كاد يصل (طولون) حتى وجد نفسه وعائلته وحاشيته في القيود، لقد فرضت فرنسا عليهم الاقامة في قلعة (لامالق). واحتج الامير، فعرضت عليه فرنسا اختيار البقاء في فرنسا ومنحه قصراً لاقامته وحاشيته، غير ان الامير رفض كل العروض والاغراءات. لقد كان يفضل البقاء في ديار الاسلام عن كل كنوز اعدائه وثرواتهم. ولم تمض عليه فترة طويلة في سجنه حتى بلغته اخبار انهيار (ملكية لويس فيليب) في ٢٨ شباط ـ فبراير ـ ١٨٤٨ م. وعرف ان الضمانات التي قدمت له قد زالت بزوال الحكم الذي تعهد له بها، على الرغم من غدر هذا الحكم بما تعهد به. فكتب (الامير من سجنه) الى الحكومة المؤقتة للجمهورية. منددا بما لحق به من غدر. فكان كل ما فعلته حكومة الجمهورية ان نقلته الى قصر (هنري الرابع) في مدينة (بو)[١] والتي وصلها الامير يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٤٨م. وكان

---

(١) بو: (PAU) عاصمة اقليم بيارن (bearn) في البيرينه السفلى (BASSE-PYRNEES) تقع على نهر الكاف، وهي الى الجنوب الغربي من باريس وعلى بعد (٧٦٠) كيلومتراً منها.

يتردد على الامير في هذه المرحلة بعض القادة الافرنسيين والاساقفة، وقد اذهل الامير جميع زواره بثباته، رغم ما نزل به من البلاء بفقد اعز الناس لديه (ابنه وابنته وابن اخيه) الذين قضوا حياتهم بين يديه، وكان الامير يمضي وقته بالعبادة صابراً محتسباً متجلداً. صلباً كجبال الاوراس، غير أن هذه القسوة كانت تنهار لدى تذكر اولئك - اخوان الجهاد- الذين سقطوا فوق ثرى الجزائر الطهور، وهم يرفعون راية الجهاد في سبيل الله، فتترقرق عيون الامير بالدمع لتذكرهم. وحاول الافرنسيون فصل الامير عن حاشيته واتباعه، غير أن هؤلاء هددوا بالموت ان هم أبعدوهم عن اميرهم. أصبح (لامورسيير) وزيراً للحربية الافرنسية في (حزيران - يونيو- ١٨٤٨) وكتب له الامير مذكراً بوعده الشخصي، علاوة على ما يجب ان يلتزم به من الشرف باعتباره ممثلاً لفرنسا. وفي حالة من حالات اليأس، فكر اتباع الامير بعملية انتحارية للموت من اجل اثارة قضية الامير، وذلك بالتصدي للحرس المسلح، وخوض الصراع معه، وعلم وزير الحربية بذلك، فقرر نقل الامير وحاشيته الى (قصر امبواز)(١) وتم ذلك يوم ٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٤٨ م. وصعد (لويس نابوليون) الى عرش فرنسا، وبعد ٢٤ يوم من انتخابه، تم عقد مؤتمر لمناقشة قضية الامير عبد القادر (يوم ١٤ كانون الثاني - يناير - ١٨٤٩) ووقف نابوليون الثالث الى جانب طلب الامير في الافراج عنه، والسماح له بالتوجه الى البلد الذي يريد، غير ان (الجنرالات) عارضوا ذلك. وارسل (بيجو)

---

(١) امبواز: (AMBOISE) مدينة في دائرة (تور) مقاطعة (ايندر واللوار) تقع على نهر اللوار بها ولد ومات شارل الثامن. وقد استخدم قصره لاقامة الامير عبد القادر (١٨٤٨- ١٩٥٢).

رسالة الى الامير يقترح فيها على الامير البقاء في فرنسا واعتبارها وطناً له. غير ان الامير عاد فرفض هذا العرض مفضلاً السجن على (الاستمتاع بمباهج فرنسا وطبيعتها الجميلة- وفقاً لما اقترحه بيجو)، وظهر ان اقامة الامير في سجن (امبواز) ستكون طويلة، واسلم الامير امره لربه، ومضى في عبادته وفق نظام دقيق اختطه لنفسه، واثناء هذه الفترة انجز مؤلفيه (وحدانية الله) و(ذكرى العاقل وتنبيه الغافل).

ومضت الايام متثاقلة. حتى اذا ما اقبل يوم ١٦ تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٥٢ م وصلت الى الأمير رسالة من نابوليون شعرمنها الأمير بقرب الافراج عنه. وتوجه الامير الى (باريس) في ٢٨ تشرين الثاني - اكتوبر حيث اجريت له استقبالات شعبية ورسمية. وقام بزيارة عدد من الاماكن التاريخية والاثرية (الاوبرا، وكنيسة سانت كلود) **وهناك قدمت الى الامير ورقة مكتوبة - يلتزم فيها الامير بوعد خطي الا يعود لحمل السلاح. وجاء فيها«الحمد لله وحده، ادام الله حفظه ورعايته على مولانا لويس نابليون، وهداه وأرشده في احكامه وحكمه. ان الذي يقدم اليك نفسه هو عبد القادر بن محيي الدين، لقد جئت لسموك لاشكرك على افضالك ولامتع نفسي بالنظر في طلعتك. انك في الحقيقة اعز علي من أي صديق آخر، لأنك غمرتني بفضل يتجاوز قوة الشكر لك عندي. ولكنه جدير بنبل شخصك وعظمة مكانتك. فرفع الله قدرك.** انك لست من اولئك الذين يقيمون اعتراضات بلا طائل، أو يخيبهم الرياء والنفاق. لقد وضعت ثقتك فيّ، ولم تصغ الى الذين لا يثقون بي. لقد منحتني الحرية، وانجزت تعهدات كان الاخرون قد التزموا بها دون ان ينجزوها. بل انك فعلت ذلك دون ان تأخذ مني اي وعد. انني اذن جئت لاقسم لك بالله العظيم، وبكل الانبياء والرسل، ان لا أفعل شيئاً يتنافى مع الثقة التي وضعتها فيّ،

وعلي ان التزم بهذا القسم التزاماً دينياً بان لا أعود أبداً الى الجزائر. فعندما أمرني الله بالنهوض، نهضت، وقد استعملت البارود الى أقصى حد مكنتني منه وسائلي وطاقتي. ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلـك فقط تخليت عن السلطة واستسلمت.

ان ديني وشرفي يأمرانني بالاحتفاظ بقسمي، ويستنكران الحنث. انني شريف، وليس هناك من سيتهمني بالخيانة. وكيف يمكن ان يقع ذلك مني بعد ان نلت افضالاً عظيمة على يديك. ان الاحسان سلسلة ذهبية تطوق عنق الانسان النبيل. انني أغامر بان آمل ان ستتفضل بالتفكير فيَّ حتى عندما اكون بعيداً عنك، وانك ستضعني في قائمة اصدقائك المقربين، لانني وان كنت قد لا أساويهم خدمة لك، فانني على الاقل اساويهم في حبهم لك، ضاعف الله من حب اولئك الذين يحبونك، وصعق قلوب اعدائك»

ورد لويس نابليون على ذلك بقوله:

«يا عبد القادر، انني لم افقد فيك ثقتي ابداً، وليس لي حاجة الى هذه الورقة المكتوبة التي تفضلت بتقديمها إليَّ بكل نبل، انني لم أطلب منك ابداً، كما تعلم، وعداً أو قسماً. ومع ذلك فقد اخترت ان تكتب، وان تقدم بين يدي هذه الوثيقة. انني اقبلها. ان هذا الاقرار العاطفي منك وشعورك نحوي قد برهن لي على انني كنت على حق عندما وضعت فيك ثقتي غير المحدودة»

امضى الامير عبد القادر بعد ذلك اياماً في زيارة معالم باريس (فرساي، كنيسة المادلين، الانفاليد) كما زار المستشفيات، وزاره الوزراء ورجال الدين المسيحي، وكبار القادة، والضباط الذين كانوا

اسرى لديه ثم اطلق سراحهم، (بصورة خاصة اولئك الذين تم اطلاق سراحهم في ٢١ ايار - مايو - سنة ١٨٤١ في (سيدي خليفة) وهو التبادل الشهير الذي تم بناء على وساطة اسقف الجزائر (دوبوش) وعندما جرى انتخاب لويس نابليون امبراطوراً لفرنسا يوم ٢١ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٥٢ طلب الامير اعطاءه حق الانتخاب، فادلى بصوته، واشترك في احتفالات التنصيب (في التويلري) ثم جاء يوم ٢١ كانون الاول - ديسمبر - ١٨٥٢، وفيه صعد الامير وحاشيته السفينة (لابرادور) التي اقلتهم الى (صقليا) ومنها الى اسطنبول، حيث وصلها يوم ٧ كانون الثاني - يناير - ١٨٥٣. واقيمت احتفالات لاستقبال الامير، وزاره وزراء الدولة ثم انتقل بعد ذلك الى جزيرة (بروسة) فاقام فيها ثلاث سنوات، وحينما تعرضت للزلزال الشهير (سنة ١٨٥٥) أظهر الامير رغبته في الانتقال الى دمشق، حيث وصلها في نهاية تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٥٦.

فتحت (دمشق) عاصمة المسلمين وقاعدة مجد الامويين دراعيها للامير، واحتضنته كسيف من اشهر سيوف الاسلام. وكانت قد استقبلت افواج المجاهدين المسلمين الذين رفضوا البقاء تحت حكم (الكفار) فوجدوا في دمشق غايتهم، واقاموا في حي مستقل بهم عرف بحي المغاربة. وجمعت دمشق شمل السيوف، وضمت الأهل الى الأهل.

مضى الامير لممارسة حياته العادية، واختار من مسجد بني امية قاعدة له، فكان يمضي فيه معظم وقته في تدارس العلم مع العلماء وطلبة العلم، وأحب الامير دمشق بقدر ما احبته وفتح لها قلبه بقدر ما فتحت له قلبها.

أثناء ذلك كانت بلاد الشام تتمخض عن احداث مثيرة (فقد كان الانكليز يبسطون حمايتهم على الدروز بعد ان شملت فرنسا النصارى بحمايتها بينما اخذت روسيا على عاتقها حماية الكنيسة الارثوذكسية) واخذت هذه الدول في تسليح الطوائف التابعة لها وتحريضها على التمرد والثورة. الامر الذي انتهى بما هو معروف شعبياً باسم (طوشة النصارى) التي انفجرت في ايار - مايو - ١٨٦٠. واذ ذاك، دفع الامير فرسانه المسلحين لحماية النصارى من الدروز، وامكنه خلال ايام الفتنة العشرة حماية الالاف منهم (بما في ذلك قناصل الدول الاجنبية).

لقد أمنت فرنسا للامير دخلاً يكفيه له ولعائلته واتباعه (اربعة آلاف جنيه استرليني سنوياً). واستخدم الامير فائض هذا المبلغ على المعوزين وفي سبيل العلم، حيث حرص على جمع اكبر قدر من المخطوطات القديمة التي حرصت دمشق دائماً على اقتنائها وحفظها. وها هو الان يحظى بتكريم كل الدول المسيحية التي اعترفت بجميله فأرسلت اليه أرفع الاوسمة لقاء ما قدمه من خدمات في حماية المسيحيين الذين كان يحاربهم بالأمس كمستعمرين وهو ينقذهم اليوم (كذميين) في حماية الاسلام «وبلغ عدد من انقذهم الامير - ١٥ - الفاً».

غادر الامير عبد القادر دمشق - بعد الحصول على تصريح من نابليون الثالث - في سنة ١٨٦٣ للقيام بالحج. واستقبله شريف مكة بما هو أهل له من التكريم واقام حجتين مجاوراً، ثم غادر الديار المقدسة عائداً الى بلاد الشام. وتوقف بالاسكندرية في حزيران - يونيو - ١٨٦٤ م.

كانت الماسونية في تلك الفترة في اوج نشاطها، غير انها لم تكن معروفة الاهداف، وكانت تسعى لضم كبار القوم حتى تكتسب زخماً معنوياً. وفي مساء يوم ١٨ حزيران- يونيو- اقامت الجمعية الماسونية في الاسكندرية حفلاً كبيراً للترحيب بالعضو الجديد الشهير. ودعى المحفل الماسوني «المعروف بمحفل الاهرام» كبار اعضائه للاحتفال بهذه المناسبة، واضيفت صفة «مجاور النبي» الى جوار عبارة «ماسوني حر ومقبول». وعاد الى دمشق فوصلها في نهاية شهر تموز - يوليو - ١٨٦٤. بعد أن انهى تسجيل ارض منحه اياها والي مصر.

وصل الامير عبد القادر الى مبتغاه، جمع خير الدنيا والآخرة، فمضى يتابع رحلة العمر وقد اثقلت السنون كاهله، فتفرغ للعبادة والعلم، واشرف على اهله وعشيرته، وقضى بقية حياته في مثافنة العلماء، وإسداء الخيرات، وكان كل يوم يقوم الفجر، ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في حي (العمارة) لا يتخلف عن ذلك الا لمرض، وكان يتهجد الليل. ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية. وما زال مثالا للبر والتقوى حتى توفي رحمه الله في سنة ١٨٨٣، فدفن بمقام الشيخ محيى الدين بن العربي. وترك من الامراء محمد باشا، ومحيى الدين باشا والهاشمي وابراهيم وأحمد وعبد الله وعلي وعبد الرزاق وعبد المالك، فالامير محمد ومحيى الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتهما الدولة في مجلس الاعيان الى ان توفيا، وكان الثاني منهما (محيى الدين) شاعرا اديبا، عالي الهمة، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم ابيه الى الجزائر للاشتراك في ثورة المقراني والحداد (ثورة القبائل) فلما بلغ الخبر اباه اعلن سخطه عليه لان الامير بعدما اعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى الممات. واما الهاشمي فمن ولده الامير خالد الذي تزعم الحركة الوطنية في الجزائر سنة ١٨٢٠. وكذلك

الامر بالنسبة لبقية الاخوة والابناء الذين تابعوا طريق الجهاد على سيرة الامير وخطاه.

وافاقت الجزائر على ثورة الفاتح من نوفمبر (١٩٥٤) وخاضت الصراع المرير حتى تم لها الاستقلال، ووقفت تبحث عن كل تراث الاجداد الذين بذلوا وضحوا في سبيل الله وفي سبيل الوطن الجزائري. ولم تنس رائدها الاول، ومؤسس دولتها. فطلبت الى دمشق إعادة (السيف الى غمده). وحملت رفاة الامير لتستقر الى جوار المجاهدين الابرار الذين مزقتهم سيوف الاعداء - فوحدتهم سيوف المجاهدين الاحفاد وأعادتهم الى ميادين جهادهم.

قـــراءات

١ ـ معاهدة عبد القادر ـ دو ميشال (١٨٣٤ م)
٢ ـ معاهدة عبد القادر ـ بيجو (١٨٣٧ م)
٣ ـ من رسالة الامير عبد القادر الى ملك فرنسا لويس فيليب (١٨٣٩)
٤ ـ من رسالتين الى المارشال (١٨٤٠)
٥ ـ لوحة حضارية نقلتها فرنسا الى الجزائر (الارتال الجهنمية)

جندي من المشاة النظاميين التابعين لعبد القادر

(١)

معاهدة الأمير عبد القادر- دو ميشال

(٢٦ شباط- فبراير- ١٨٣٤ م)

ان الجنرال دو ميشال قائد القوات الافرنسية في اقليم وهران، وأمير المؤمنين سيدي الحاج عبد القادر بن محيى الدين قررا العمل بالشروط التالية:

المادة الاولى: يتوقف النزاع بين الافرنسيين والعرب ابتداء من اليوم، ويبذل القائد العام للقوات الافرنسية وأمير المؤمنين جهدهما، كل من جهته، لإحلال الود والاخلاص بين شعبين حكم الله عليهما ان يعيشا تحت نفس السلطة. ولهذا الغرض، سيرسل امير المؤمنين ثلاثة قناصل من جهته، احدهم الى وهران، وثانيهم الى ارزيو، وثالثهم الى مستغانم. وسيرسل الجنرال من جهته ايضاً قناصل الى معسكر لمنع النزاع بين الإفرنسيين والعرب.

المادة الثانية: ستكون عادات المسلمين وديانتهم دائما موضع الاحترام والحماية.

المادة الثالثة: يتم اطلاق سراح المساجين الافرنسيين فوراً، وكذلك المساجين العرب.

المادة الرابعة: ستكون السوق حرة ولن يعترض اي من الطرفين فيها طريق الاخر.

المادة الخامسة: يجب على العرب اعادة كل العسكريين الذين يفرون من عند الافرنسيين وتسليمهم الى السلطات الافرنسية. ومقابل ذلك يقوم الافرنسيون بتسليم العرب الذين يلجؤون اليهم فراراً من العقوبة عن مخالفة ارتكبوها، ويتم تسليم هؤلاء فوراً - في عين المكان - الى قنصل الامير في وهران او في أرزيو أو في مستغانم.

المادة السادسة. يحمل كل اوروبي يريد التنقل داخل البلاد جواز سفر عليه ختم قنصل الأمير وختم القائد العام للاقليم، حتى يكون حامل هذا الجواز محل احترام وحماية اينما حل في البلاد[1].

(كتبت هذه الشروط في اعمدة متوازية بالعربية والافرنسية ووقعها وختمها امير المؤمنين عبد القادر والقائد الافرنسي دو ميشال- في ٢٦ شباط- فبراير- ١٨٣٤ م).

---

(١) المرجع: حياة الأمير عبد القادر (شارل هنري تشرشل) ص ٧٨- ٧٩و٣٠٠- ٣٠١ وكذلك تاريخ الجزائر- مجاهد مسعود- ص ١٧٩.

(٢)

معاهدة الأمير عبد القادر- بيجو

(معاهدة تافنة)

٢٣ صفر ١٢٣ هـ= ٢٠ ايار- مايو ١٨٣٧م

ان اليوتنان جنرال بيجو قائد الجيوش الافرنسية في اقليم وهران، والامير عبد القادر، قد اتفقا فيما بينهما على الشروط التالية:

المادة الاولى: يعترف الامير عبد القادر بالسلطة الافرنسية في افريقية (في الجزائر).

المادة الثانية: تحتفظ فرنسا لنفسها في وطن بلاد وهران ومستغانم ومازغران ونواحيها (المحيطة) بوهران وأرزيو، ومنطقة اخرى محددة كما يلي: من الشرق بنهر المقطع والسباخ التي يجري فيها. ومن الجنوب بخط يبدأ من السباخ المذكورة ماراً بالضفة الجنوبية للبحيرة وممتداً الى وادي المالح في اتجاه سيدي سعيد، ومن هذا النهر الى البحر سيكون تابعاً للافرنسيين. أما في اقليم الجزائر فتعتبر منطقة إفرنسية: مدينة الجزائر والساحل وسهل متيجه (متوجة) محدوداً من الشرق بوادي القدرة (او الخضرة) الى قدام وقبله لحد رأس اول جبل حتى وادي شفة، وداخل في ذلك البليدة وسائر نواحيها، وغرباً من شفة الى المد المقابل لوادي مزغران (مازغنان) ومن هناك خط مساوي لحد البحر، ومتضمن في هذا الحد القليعة وكامل نواحيها.

المادة الثالثة: يحكم الامير اقليم وهران واقليم تيطري (المدية) والجزء الذي لم يقع النص عليه من الشرق في الحدود المذكورة في المادة الثانية من اقليم مدينة الجزائر. وليس له حق الدخول في اي جزء آخر من الولاية.

المادة الرابعة. ليس للامير اي سلطة على المسلمين الذين يرغبون في الاقامة في المنطقة التابعة لفرنسا. ولكن لهؤلاء حرية الانتقال منها والاقامة في المنطقة التابعة للامير. وفي نفس الوقت يمكن للسكان المقيمين في المناطق التابعة للامير ان ينتقلوا منها ويقيموا في المناطق الافرنسية .

المادة الخامسة: يتمتع العرب المقيمون في المنطقة الافرنسية بحرياتهم الدينية، ويمكنهم إقامة المساجد، وممارسة شعائرهم الدينية في كل خصوصياتها، تحت سلطة قضائهم ورجال دينهم.

المادة السادسة: يقدم الامير للجيش الافرنسي (٣٠) ألف مكيال من القمح و(٣٠) ألف مكيال من الشعير و (٥) الآف رأس من البقر. ويتم تسليم هذه المواد في وهران على ثلاث مرات اولها في ١٥ ايلول - سبتمبر - ١٨٣٧ م. اما الباقي فبعد كل شهرين متتاليين.

المادة السابعة: يستطيع الامير ان يشتري من فرنسا البارود والكبريت والاسلحة التي يحتاجها.

المادة الثامنة: للكراغلة الذين يرغبون البقاء في تلمسان أو في غيرها، حرية التمتع باملاكهم هناك. وسيعاملون كمواطنين. اما اولئك الذين يرغبون في الانتقال الى المنطقة الافرنسية، فلهم ان يبيعوا او يؤجروا أملاكهم بحرية.

المادة التاسعة: تتخلى فرنسا للامير عن (راشقون ـ أورشقون) و(تلمسان وقلعتها) وكل المدافع التي كانت فيها قديماً. ويتعهد الامير بنقل كل الامتعة الى وهران. بالاضافة الى العتاد الحربي التابع للحامية الافرنسية في تلمسان.

المادة العاشرة: تبقى المبادلات التجارية بين العرب والافرنسيين حرة، ويمكن لكل طرف ان يقيم مبادلة في منطقة الاخر.

المادة الحادية عشرة: سيكون الافرنسيون محل احترام بين العرب، وكذلك العرب بين الافرنسيين. وتكون الاسلحة والاملاك التي اقتناها الافرنسيون، او التي يمكن لهم ان يقتنوها في المنطقة العربية مضمونة لهم. ويستطيعون التصرف بما يقتنونه ـ يمتلكونه ـ بحرية، ويتعهد الامير بتعويضهم عن أي خسارة قد سببها العرب لهم.

المادة الثانية عشرة: يتعهد الامير بعدم تسليم أي جزء من الساحل الى أية دولة أجنبية مهما كانت بدون اذن فرنسا.

المادة الثالثة عشر: يعاد المجرمون في كلتا المنطقتين مبادلة.

المادة الرابعة عشرة: لا تجوز المعاملات التجارية للولاية الا في الموانىء الافرنسية.

المادة الخامسة عشرة: تبقي فرنسا على ممثلين لها لدى الأمير، وفي المدن الخاضعة لسلطته حتى يعملوا كوسطاء لصالح الرعايا الافرنسيين. وللنظر في كل الخصومات التجارية التي قد تنجم بينهم وبين العرب. ويتمتع الامير بنفس الامتياز في المدن والموانىء الافرنسية.

كتب (برشقون) في ٢٦ صفر عام ١٢٥٣ هـ.
التافنة ـ في ٣١ ايار ـ مايو ـ ١٨٣٧ م.

ختم الامير عبد القادر تحت النص العربي.
ختم الجنرال بيجو تحت النص الافرنسي[1]

واقيم نصب تذكاري، في موضع تبادل وثائق معاهدة تافنا (تافنة) كتب فيه ما يلي: «في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٥٣ الموافق لفاتح يوليو سنة ١٨٣٧ م وعلى الساعة الثالثة مساء غداة التوقيع على معاهدة تافنة التي اعترفت فرنسا بمقتضاها بالدولة الجزائرية الحرة السيدة تقبل الأمير عبد القادر بهذا المكان ووسط جيوشا آيات التكريم والاجلال من الجنرال بيجو قائد الجيوش الفرنسية النازلة بمنطقة وهران».

---

(١) المرجع: حياة الأمير عبد القادر (شارل هنري تشرشل) ص ١١٧ـ ١١٩ و ٣٠٢ـ ٣٠٤ وكذلك تاريخ الجزائر- مجاهد مسعود- ص ٢٧٠ـ ٢٧١ والأمير عبد القادر. سلسلة الفن والثقافة- وزراء الإعلام والثقافة- الجزائر- ١٩٧٤ ص ٣٤ـ ٣٩.

(٣)

من رسالة الامير عبد القادر الى ملك فرنسا

(لويس فيليب)

وجه الامير عبد القادر في سنة ١٨٣٩ مجموعة من الرسائل الى القادة الافرنسيين يحضهم على الالتزام بنصوص معاهدة (تافنة). وعندما شعر بنواياهم السيئة، كتب الى ملك فرنسا رسالة جاء فيها:

«الحمد لله وحده.

من عبد الله الحاج عبد القادر بن محيي الدين امير المؤمنين ـ الى سعادة لويس فيليب ـ ملك الافرنسيين، اطال الله حكمه، وجعله سعيداً ومجيداً. اما بعد.

فانه منذ ظهور الاسلام كان المسلمون والمسيحيون في حرب. وقد كان هذا يعتبر واجباً مقدساً لدى الطرفين. ولكن المسيحيين، بعد أن نسوا دينهم ومبادئه، أصبحوا ينظرون الى الحرب مجرد وسيلة للتوسع الدنيوي اما بالنسبة الى المسلمين الحقيقيين فهم على النقيض من ذلك، ينظرون الى الحرب ضد المسيحيين على انها مجرد التزام ديني. وهل هناك أهم من هذا الالتزام حينما جاء المسيحيون للاعتداء على أرض اسلامية! وبناء على هذا المبدأ فقد حدت عن القواعد التي نص عليها كتابنا المقدس، عندما وقعت معكم انتم ملك المسيحيين،

منذ سنتين، معاهدة سلام، وبالاخص عندما بذلت كل جهودي لتدعيم هذا السلام بكل الوسائل التي كانت لدي. انكم تعلمون الواجبات التي يفرضها القرآن الكريم على كل حاكم مسلم. اذن، الواجب عليكم شكري على ما قمت به شخصياً لتخفيف صرامة احكامه نحوكم. انك تطلب مني تضحية تتنافى وديني، وهي الخضوع. واراك أعدل من ان تكلفني مثل هذا. انك تطلب مني ان أتخلى عن قبائل ـ هم اخواني في الدين ـ تلقيت منهم الوفاء والطاعة، وجاءوا بأنفسهم راضين يدفعون إلي ما فرضه القرآن من جزية، وتضرعوا إلي وما زالوا بأن أكون عليهم أميراً. وقد جلت بنفسي عبر مناطقهم ـ والتي هي خارجة عن الحدود التي خصصتها المعاهدة لفرنسا ـ وتريدون مني اليوم ان أطلب من هذه القبائل أن تخضع لهيمنة المسيحيين. ابداً. واذا كان الافرنسيون اصدقائي، فليس لهم ان يطلبوا مني شيئاً يحط من قيمتي لدى شعبي»...

(٤)

رسالتين من أمير المؤمنين عبد القادر

إلى الماريشال بيجو

اصيبت القوات الافرنسية بمجموعة من الهزائم التي باتت تتهدد عملية (الغزو) بكاملها بالفشل، فعملت الحكومة الافرنسية على اجراء تغيير شامل في اجهزتها القيادية العسكرية، وعينت الماريشال بيجو قائداً عاماً في بداية سنة ١٨٤٠ م. ودعمت قواتها بالجزائر، ووصل بيجو (الأسد العجوز) كما لقبوه، وشرع على الفور باعادة دراسة الخطط العسكرية والاستعداد لتطوير عملية الغزو الاستعماري بهدف اخضاع (الامير عبد القادر) الذي كان يتابع عن طريق جواسيسه ما يحدث في العاصمة - الجزائر - فكتب الى الماريشال (بيجو) رسالتين، جاء فيهما:

١ - «السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى. أما بعد:

لقد بلغني انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما يزيد على ثمانين ألف جندي، زيادة على جنودكم السابقة فيها، فاعلموا أنني بعون الله تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم، ولا أهتم بقوتكم، لعلمي انكم لا تضروني بشيء إلا أن يشاء الله. ولا يلحقني منكم الا ما قدره الله علي، وانني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني خصماً لكم، ما

قاتلتكم بجنود يزيد عددهم على ثلث عدد جنودكم التي تحاربونني بها، ومدة ملكي لا يخفى ثماني سنين، ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين، وآلاتكم الحربية قوية، ومع هذا البون الشاسع الذي بيني وبينكم، فاني اعرض عليكم أمرين فاختاروا واحداً منهما: اما أن تعطوني ما أحتاج اليه من ادوات الحرب بالشراء. ثم انظم جنودي، واما أن تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها، وأبقى انا في بلادي التي تحت حكمي ثم لا يقرب أحدنا من الآخر مدة اثني عشر سنة، فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة. وحينئذ اقاتلكم، فان غلبتم فلا عار عليكم، إذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة، وان انتصرتم تكونوا قد انتصرتم على رجل له قوة فيحصل لكم الفخر، وأما اليوم، فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول، وانتصاركم علي لا يعد فخراً حيث انكم غلبتم رجلاً عمر ملكه ثماني سنين، ولا قُوَّة عنده يقابلكم بها».

وجمع بيجو هيئة اركانه، وعرض عليهم الرسالة، فتقرر بعد مناقشة حادة عدم الرد عليها وتجاهلها، فأعقبها برسالة ثانية:

٢ ـ «من الامير عبد القادر الى الماريشال بيجو:

ان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الأرض ما يكفي رعاياها، وأرسلتكم لتغتصبوا اراضينا، وتبذلوا في ذلكم أنفسكم وأموالكم، فنحن نتخلى لها عما هو في ايديها الان من السواحل، ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم ببعض، وان ابت الا أن تستولي على جميع وطننا، فنحن سنبذل ما في وسعنا في مدافعتها وحماية ارضنا منها إلى ان يقضي الله بيننا وبينها بما شاء، فان البلاد بلاده، والعبيد عبيده، ولا يخفى عليكم ايها الحاكم ان غزوكم لبلادنا سبب قتل الكثير من جنودكم وإتلاف ذخائركم، وكذلك نحن، وهذا شيء لا يرضى به

عاقل فضلاً عن فاضل. ودولتكم تدّعي انها أول دولة في العالم تحب الانصاف وتفضله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به، ففعلها هذا يكذب دعواها ويبطل ادعاءها. وانتم ومعظم رجالها نراكم دائماً تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب، وتبذلون انفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها، ولو كان عندكم أدنى نظر سديد، ما وافقتموها على موت جنودها في الحرب، ومواسم الأمراض المختلفة التي لا تبقي ولا تذر. فيا ترى بأي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال والكراع. فان كان يرضيها منكم ان تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر، أو من تراب الأراضي التي اغتصبتموها فافعلوا. واني أراك ايها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا، ظناً منكم ان ذلك اقوى سبب لخضوع أهل البلاد لكم، والحال أن هذا ليس بشيء عندهم، فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والاشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يمسكون به رمقهم ويقيم أودهم كيفماكان على أن عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في المطامير المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين اتية وما تأخذونه أنتم من ذلك فهو جزء من جملة الأجزاء، ولا أراكم في هذا الامر الا كمن ملأ قدمه من البحر معتقداً انه ينقصه. وبالجملة، فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد الى اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها الى قانون يحصرها. بل نحن فيها مخيرون مطلقون، نصرفها كيفما شئنا. وأما أنتم، فقد بذلتم اموالكم، وأفنيتم قوى شبابكم في تعلم طرقها، ولا أخالكم تجهلون انه جاء في كتب التواريخ القديمة ان العرب يبتهجون في معامل القتال. فلا يخطر في بالكم انهم يضجرون

منها، او يتركونها من ذات أنفسهم، ما دامت الاقدار الالهية مساعدة لهم، فان حكمت عليهم بغير ذلك، فمن المعلوم ان الأرض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده. فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى».

(٥)

لوحة حضارية نقلتها فرنسا إلى الجزائر

(الأرتال الجهنمة)

أعلنت فرنسا منذ وطئت جحافلها أرض الجزائر أنها تقوم بعملها (لتمدين المتوحشين) وتعريفهم (بالحضارة الغربية) فاتبعت في ذلك اساليبها الحضارية التي رافقت (ليل الاستعماري للجزائر) بطوله. وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند الملامح الحضارية الاولى، والتي تطورت باستمرار مع التطور الحضاري لفرنسا.

جاء في أحد التقارير الرسمية ـ الافرنسية ـ.

«بناء على تعليمات القيادة الافرنسية، خرجت قوة من الجنود ـ في مدينة الجزائر ـ وانقضت قبل الفجر على افراد القبيلة، وهم نيام تحت خيامهم، فذبحتهم جميعاً دون أن يستطيع أحد الدفاع عن نفسه، وقد لقي الجميع حتفهم دونما تمييز بين رجل أو امرأة، وعاد الافرنسيون من هذه الحملة وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة الرماح».

وجاء في تقرير فرنسي آخر:

«بيعت كل الماشية الى قنصل الدانمارك. وعرضت بقية الغنائم للبيع في سوق باب عزون في عاصمة الجزائر ذاتها، ووزع ثمنها على

ذابحي اصحابها. وفي ليل ذلك اليوم أصدرت الشرطة ـ البوليس ـ امرها الى اهل المدينة باضاءة الانوار في حوانيتهم علامة على الابتهاج».

وجاء في تقرير احد اللجان الرسمية الافرنسية:

«لقد ذبحنا اناساً كانوا يحملون اجازات بالتنقل، كما قضينا على مناطق بأكملها اتضح فيما بعد ان ضحايانا فيها ابرياء. رجال عرفوا بالقداسة بين عشيرتهم، وآخرون لا تنقصهم صفة الاحترام بين ذوي قرابتهم لمجرد انهم مثلوا أمامنا سائلين الرحمة بزملائهم. وقد وجدنا قضاة ليحكموا عليهم ورجالاً متمرنين لشنقهم».

وكتب الماريشال سانت أرنو ـ الى اهله:

«ان بلاد بني منصر بديعة، وهي من اجمل ما رأيت في افريقيا، فقراها متقاربة واهلها متحابون. لقد أحرقنا فيها كل شيء ودمرنا كل شيء... اني افكر فيكم جميعاً، واكتب اليكم ويحيط بي افق من النيران والدخان. لقد ذهبت الى افراد قبيلة (البراز) فاحرقتهم جميعاً، ونشرت حولهم الخراب، وانا الآن عند (السنجاد) اعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع».

وكتب موتيناك في كتاب له اسماه ـ رسائل جندي ـ ما يلي:

«لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والافنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان. وقد أحصيناهم في جو هادىء بعد الاستيلاء على المدينة، فكان عدد القتلى من النساء والاطفال الفين وثلاثمائة. اما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر، لسبب بسيط، وهو اننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة».

وكتب القائد الافرنسي ـ الكونت هيربسيون ـ ما يلي:

«فظائع لا مثيل لها، أوامر بالشنق تصدر عن نفوس كالصخر، يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر، بالرمي بالرصاص احيانا، وباستعمال السيف في احيان اخرى، في اناس مساكين كل ذنبهم انهم لا يستطيعون ارشادنا الى ما نطلب منهم أن يرشدونا اليه. ومع ذلك فان الميل الى سفك الدماء، وحب التعذيب بازهاق الارواح جملة، وبابادة القرى والقبائل، واحراق البيوت والتمثيل بالموتى والاجهاز على الجرحى، والفتك بالاطفال والشيوخ والنساء، والاتجار باعضائهم المبتورة، وحليهم ومتاعهم الغارق في دمائهم. هذا الميل لم يجد في كل الذي رويت لك طرفاً منه ـ ما يشبعه أو يرضيه، فأخذ الافرنسيون يتفننون في ابتكار وسائل اخرى لم يعرفها تاريخ البشرية على كثرة ما حفل به هذا التاريخ من الفظائع والآثام، فهدتهم غريزة التدمير والتخريب النامية عندهم الى طريقة اسموها انفسهم (بجهنم) وخلاصة هذه الطريقة، أن يسد الجنود الافرنسيون باب الكهف أو المغارة التي يلجأ اليها الجزائريون بنسائهم واطفالهم ومواشيهم فراراً من الموت والقتل والاحراق، ثم يشعلوا في بابها ناراً حامية، فيختنق القطيع البشري داخل المغارة مع قطعان الماشية التي صاحبته الى جوفها، فاذا انبلج الفجر، ذهب الافرنسيون لمشاهدة هياكل الثيران والحمير والخرفان ويظهر انها اندفعت بغريزتها نحو مخرج الكهف بحثاً عن الهواء الذي انعدم في الداخل فتكدست بعضها فوق بعض، وتكومت جثث الرجال والنساء والاطفال بين هذه الحيوانات ومن تحتها. وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه وقد أمسكت يداه قرن ثور محترق وبجواره امرأة ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت، مما

يدل على ان هذا الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله اللذين اختنقا أيضاً إثر هجوم الثور عليهما»[1]

---

(١) ـ تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ١ / ٣٣٩ ـ ٣٤١

المراجع الرئيسية للبحث

١ ـ تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الاول ـ الجزائر.

٢ ـ حياة الامير عبد القادر ـ تأليف شارل هنري تشرشل ـ ترجمة وتقديم ـ الدكتور ابو القاسم سعد الله ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٧٤

٣ ـ الامير عبد القادر ـ سلسلة الفن والثقافة. اصـدار وزارة الاعلام والثقافة الجزائرية ـ طبع مدريد ـ ايار (ماي) ١٩٧٤.

٤ ـ الثورة الجزائرية ـ احمد الخطيب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ايار (مايو) ١٩٥٨

---

5 - POLITIQUES COLONIALES AU MAGHREB - (CHARLES-ROBERT AGERON) PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE - PARIS 1972

6 - L'AFRIQUE DU NORD(JEAN DESPOIS) PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE - PARIS - 1964.

7 - LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE 1830 - 1920 (ETUDE DOCUMENTAIRE) MINISTRE DE LA DEFENSE NATIONALE) ALGER 1974.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
المقدمة	٧
الوجيز في حياة الامير عبد القادر	١٠
الوجيز في ابرز الاحداث المعاصرة لحياة الامير عبد القادر	١٢
الفصل الاول: «الامير عبد القادر وبداية الرحلة الشاقة»	١٥
١ ـ الاصالة وبناء القاعدة الصلبة.	١٧
٢ ـ بناء دولة الحرب.	٣٥
آ ـ تنظيم الجيش.	٤١
ب ـ التسلح والصناعة الحربية	٤٥
ج ـ الحصون والتنظيم الدفاعي.	٤٧
د ـ التنظيم الاداري والتموين.	٥٢
٣ـ بناء الدولة الاسلامية.	٥٧
٤ ـ في افق العمليات والتكتيك.	٦٥
الفصل الثاني: «الامير عبد القادر وادارة الحرب»	٦٩
١ ـ اعداء الداخل والخارج (١٨٣٣ م).	٧١
٢ـ معاهدة عبد القادر ـ دو ميشال (١٨٣٤ م).	٨١

الموضوع	الصفحة

٣ ـ معركة المقطع (٢٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٥ م). ٩٣

٤ ـ الانتقام الافرنسي واحتلال (معسكر) ٦ كانون الاول ـ ديسمبر (١٨٣٥ م). ١٠٣

٥ ـ الصراع المرير على تلمسان (١٨٣٦). ١٠٩

٦ ـ معاهدة (عبد القادر ـ بيجو) ٣١ ايار ـ مايو (١٨٣٧ م) ١٢٣

٧ ـ نقض المعاهدة واستئناف الحرب (١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ م) ١٢٨

٨ ـ سنوات الصراع المرير (١٨٤٠ ـ ١٨٤٤ م) ١٣٦

٩ ـ على حدود المغرب (١٨٤٥ ـ ١٨٤٧ م) ١٤٦

١٠ ـ وداعاً يا جزائر الاحرار (١٨٤٨ ـ ١٨٥٢) ١٥٥

قراءات ١٦٤

١ ـ معاهدة عبد القادر ـ دو ميشال (١٨٣٤ م) ١٦٦

٢ ـ معاهدة عبد القادر ـ بيجو (١٨٣٧ م) ١٦٨

٣ـ من رسالة الامير عبد القادر الى ملك فرنسا (لويس فيليب) ١٨٣٩ ١٧٢

٤ـ رسالتين من الامير عبد القادر إلى المارشال بيجو (١٨٤٠ م) ١٧٤

٥ ـ لوحة حضارية نقلتها فرنسا الى الجزائر (الارتال الجهنمية). ١٧٨

المراجع الرئيسية ١٨٢

جهاد شعب الجزائر ٥

محمد المقراني

وثورة ١٨٧١ الجزائرية

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد المقراني

وثورة ١٨٧١ الجزائرية

بسام العسلي

دار النفائس

جَمِيعُ الحقوق محفوظة

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية صفي الدين
ص.ب ١١/٦٣٤٧ أو ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
الطبعة الثالثة : ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

مُقدّمة الكِتابْ[٧]

احتفلت الجزائر، حكومة وشعباً، في يوم ٨ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٧١ بالذكرى المئوية للثورة الكبرى التي تركت أثرها العميق ونتائجها الثقيلة على شعب الجزائر المجاهد. وفي الواقع، فان هذه الثورة التي قمعتها السلطة الاستعمارية الافرنسية بما عرف عنها من قسوة ووحشية، هي التي رسمت طريق المستقبل على امتداد قرن من عمر الزمن تقريباً، وأظهرت قوة الإسلام والمسلمين وما حققوه من نجاح في القضاء على فكرة «مستعمرة الجزائر». وهناك كثير ممن يجهلون، أو ينسون في كثير من الأحيان، بان جزائر الاسلام والمسلمين قد ارتبطت مع فرنسا بمستقبلها السياسي. لا سيما عندما حاول نابليون الثالث بذل جهده لتطوير المسلمين على حساب تقليص ظل النفوذ الاستعماري. غير ان الجزائريين لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم بعد سقوط نابليون الثالث وهم يبتعدون عن فرنسا أكثر فاكثر، واستمر ذلك طوال العشرين سنة التي تلت هزيمتهم العسكرية، فتعاظم لديهم الشعور بالظلم، وانهم ضحية فرنسا ومصالحها الاستعمارية.

أعلن الشيخ الحداد الجهاد المقدس ضد فرنسا يوم السبت في ٨

نيسان - ابريل - ١٨٧١ في صدوق. وتلقى «الاخوان المسلمون الرحمانيون» نداء شيخهم بحماسة، واسرعوا لحمل السلاح. وتضمن بيان الشيخ الحداد «انه ليس من الصعب على المجاهدين في سبيل الله طرد الإفرنسيين، اذا ما أيد الله المجاهدين بنصره» واندلع لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الكبرى في التل وحتى الحدود الشرقية للجزائر، بحيث بلغ عدد المجاهدين زهاء (٦٠٠) ألف مقاتل. وارتفعت راية الجهاد فوق سماء الثورة الباسلة بداية من شهر كانون الثاني- يناير- ١٨٧١ غير ان ضرام الثورة ولهيبها تزايد عنفاً في ١٤ آذار- مارس- بقيام الباشآغا المقراني باعلان الثورة في «مجانة» حيث انضمت اليه ثلاثون قبيلة تقريباً.

وعلى الرغم من أن نداء الثورة قد وجه إلى كافة مسلمي الجزائر، إلا ان «الإخوان الرحمانيين» هم الذين اضطلعوا بالعبء الأكبر للثورة، وعلى عاتقهم وقعت أعباؤها ونتائجها، وقد أمكن لهم في الواقع ضم ٢٥٠ قبيلة الى الثورة، مما أعطى لهذه طابعها الوطني الشامل فوق كل التراب الجزائري، واشترك بالثورة ثلث عدد سكان الجزائر مما ساعد على انتشارها في قسنطينة ومنطقة القبائل الكبرى ووهران. وقد حاولت السلطات الإستعمارية الافرنسية خنق لهيب الثورة، غير ان هذه استمرت في التأجج على موجات متتالية ما بين نيسان- ابريل- وتموز- يوليو- ١٨٧١ ولتستمر بعد ذلك في تعثر حتى كانون الثاني- يناير- ١٨٧٢.

تلك هي الملامح العامة لثورة ١٨٧١ في الجزائر، فهل كانت ثورة تحمل اسم الشيخ الحداد ام هي ثورة محمد المقراني، ام هي ثورة الإخوان الرحمانيين؟ ثم هل كانت هذه الثورة مستقلة في حد ذاتها؟

وهل كانت محصورة بتفاعلاتها وعملياتها ونتائجها بظروفها الزمانية والمكانية؟ .

لقد كان «للإخوان المسلمين الرحمانيين» دورهم الأساسي والحاسم في كافة الأعمال القتالية لهذه الثورة الرائدة، فكانت بحق ثورة الإخوان الرحمانيين.

وكان لعائلتي المقراني والحداد دورهما الأساسي في قيادة الثورة وتحمل أعمالها وتبعاتها. ومن الوفاء تجاوز كل المقولات والهنات في مجال تقويم جهاد أفرادهما.

وكانت قبل ذلك وبعده ثورة الجزائر كلها، تحت راية الجهاد في سبيل الله، ومن هنا، وإذا كان لا بد للثورة من رمز تحمله، فقد يكون «محمد المقراني» هو رمز هذه الثورة، واذا كان لا بد للثورة من إطار شامل يضمها، فيكفي وضعها في إطارها الزمني. أما بالنسبة لنسيج الثورة، فقد كان امتداداً لأعمال المقاومة التى بدأها الشعب المجاهد منذ الأيام الأولى للغزو الإستعماري الإفرنسي للجزائر المحروسة بقيادة الباي أحمد وعبد القادر، ومروراً بثورات لالافاطمة وابن خدومة والصبايحية وأولاد عيدون وأولاد خليفة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن هذه الثورة لم تكن إلا بداية لثورات لاحقة، اتصل بعضها برقاب بعض، فبقيت أرض جزائر الأحرار، جزائر الإسلام والمسلمين، وهي تلتهب لتحرق أقدام الطغاة حتى جاءت الثورة الكبرى (الفاتح من نوفمبر- تشرين الثاني- ١٩٥٤) لتصل بالجهاد إلى ذراه، ولتسير بالجزائر إلى مستقبلها الحتمي، وكان النصر تتويجاً لكل الجهود والتضحيات.

وبعد، لقد كانت ثورة الجزائر سنة ١٨٧١، غنية بمعطياتها،

بأحداثها ووقائعها، غريبة في ظروفها. وبنتيجة ذلك كله، فإنه من المحال الإحاطة بها وإعطاءها حقها. كما انه من العسير أيضاً تجاوزها أو الاقلال من دورها الريادي، ومن هنا ظهرت صعوبة البحث بين ما يتطلبه من الشمول، وبين ما يتضمنه من التفاصيل، وكان لا بد في النهاية من إهمال بعض الشمول على حساب بعض التفاصيل واسقاط بعض هذه التفاصيل لحساب شمول البحث، والأمل كبير في أن يكون هذا البحث قد حقق بعض التوازن المطلوب.

والله الموفق

بسام العسلي

الوجيز في مسيرة الأحداث التي كان لها دورها في ثورة السبعين

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٦٢	١٨٤٥	المرابط بومعزة يثور في الجزائر، ونهاية ثورة الأمير عبد القادر الجزائري
١٢٦٦ - ١٢٦٩	١٨٤٩- ١٨٥٢	الصراع على الاماكن المقدسة في فلسطين
١٢٧٠- ١٢٧٣	١٨٥٣- ١٨٥٦	حرب القرم، ووقوف فرنسا وبريطانيا الى جانب الامبراطورية العثمانية
١٢٧٧	١٨٦٠	الاضطرابات في بلاد الشام (طوشة النصارى)
١٢٧٧	١٨٦٠	بدء العمل في فتح قناة السويس
١٢٨٦	١٨٦٩	افتتاح قناة السويس
١٢٨٧	١٨٧٠	ظهور المهدي محمد بن عبد الله في السودان
١٢٨٧- ١٢٧٩	١٨٧٠- ١٨٧١	الحرب الفرنسية البروسية وسقوط نابليون الثالث.
١٢٧٩	١٨٧١	اندلاع الثورة في الجزائر

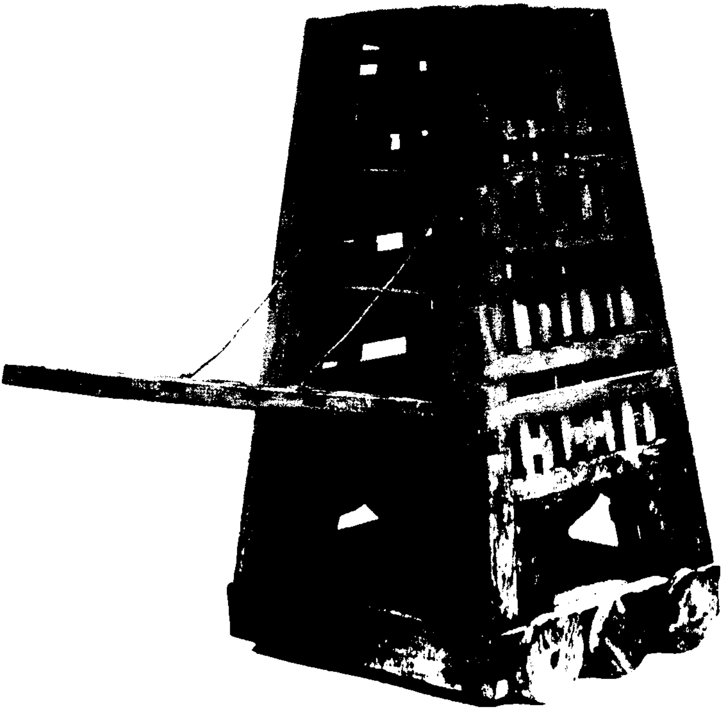

ثورة «الاخوان الرحمانيين» في سطور

انطلقت الثورة من مجانة يوم ١٦- آذار- مارس- ١٨٧١، وامتدت لتشمل نصف البلاد تقريباً، من الجزائر العاصمة غرباً إلى القل شرقاً، ومن البحر شمالاً إلى عين الطيبة في أعماق الصحراء جنوباً. وقد انتهت هذه الثورة باعتقال- البطل الثائر- بومزراق- يوم ٢٠ كانون الثاني- يناير- ١٨٧٢. وحدث خلال الثورة ثلاثمائة وأربعين معركة كبيرة، زيادة على المعارك الصغيرة. وارتفع عدد الثوار الجزائريين إلى مائتي ألف محارب، في حين بلغ مجموع أفراد القوات الإفرنسية التي اشتركت في قمع الثورة، ثمانمائة ألف رجل من الجيش الإفريقي والبحرية- والميليشيا من المستوطنين المهاجرين- والاعوان (العملاء).

* * *

HISTOIRE DE L'INSURRECTION DE 1871 . EN ALGERIE. (ALGER. IMP. JOURDAN. 1891) RINN LOUIS P.P 634 - 646 ET 658 - 659

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون كما كَفَرُوا فتكونُونَ سَواءً، فَلاَ تَتخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتى يُهاجِرُوا فِي سَبِيل الله. فَإنْ تَوَلَّوا فخذوهُمْ واقتلُوهُم حَيْثُ وَجَدْتموهُمْ وَلاَ تَتخِذُوا مِنْهُمْ وَلِياً وَلاَ نَصيراً﴾.

الفصل الأول

الوضع السياسي العام

١ـ الموقف على جبهة المشرق

٢ـ عودة الى محمد علي باشا

٣ـ اللعب بورقة الامير عبد القادر

٤ـ البدايات الأولى للصهيونية

١- الموقف على جبهة المشرق

كان احتلال فرنسا للجزائر بداية تفاعلات كثيرة تجاوزت حدود الجزائر، قدر تجاوزها لحدود فرنسا ذاتها، فقد كان من المحال على الامبراطورية العثمانية (او بالاحرى دار الخلافة) التسليم باقتطاع جزء من بلاد الاسلام ووضعه تحت سلطة دولة نصرانية. ولكن دار الخلافة في «استانبول» كانت عاجزة عن مجابهة القدرة الحربية الافرنسية، لا سيما بعد أن تعاظم خطر والي مصر محمد علي باشا، وبات يتهدد عاصمة الدولة ذاتها باستيلائه على سوريا. وفي الوقت ذاته، أظهرت قدرة محمد علي باشا المتعاظمة مقدار ما وصلت إليه الخلافة العثمانية من الضعف والتمزق. فانطلقت الدول العظمى «الروسيا والنمسا وبريطانيا وفرنسا» للتحالف أحياناً والتناحر في أحيان أخرى من أجل فرض وصايتها على الخلافة العثمانية، والقيام بعمل متكامل لإضعاف دولة الإسلام من الداخل والخارج، وذلك عن طريق مراكز القوى غير الاسلامية في داخل الدولة، وعن طريق العدوان الخارجي الذي تزعمته روسيا القيصرية بقيادة نيقولا الأول[1]. وأدى ذلك إلى بعث القومية العربية والقومية اليهودية في

(١) نيقولا الأول: (NICOLAS 1er) ابن بولس الأول PAUL ، ومن مواليد سانت =

وقت واحد. ومن الملاحظ أن هذه التفاعلات قد رسمت أبعادها بعمق على صفحة العالم العربي- الإسلامي. ويظهر ذلك حقيقة ثابتة وهي أن استعمار فرنسا للجزائر قد شكل رأس الحربةلتمزيق العالم الاسلامي، في إطار الهجوم الصليبي الشامل ضد العالم الإسلامي. ونظراً لأهمية تلك الأحداث في التأثير على الموقف الخاص بالجزائر من جهة، وتأثيره على العالم الإسلامي كله من جهة أخرى، فقد يكون من المناسب استقراء صفحة تلك الأحداث بشيء من التفصيل والإسهاب.

توالى على حكم الدولة العثمانية في تلك الفترة محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩) ثم عبد المجيد الأول (١٨٣٩- ١٨٦١) ثم السلطان عبد العزيز (١٨٦١- ١٨٧٦) وجاء بعد ذلك السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩).

ومقابل ذلك، خضعت فرنسا للأنظمة التالية: النظام الملكي- شارل العاشر- (١٨٢٤- ١٨٣٠) ثم النظام الملكي- لويس فيليب- (١٨٣٠-١٨٤٨). ثم النظام الامبراطوري- نابليون الثالث (١٨٤٨) حتى الاول من ايلول - سبتمبر - ١٨٧٠(معركة سيدان مع بروسيا).

كانت الدولة العثمانية مشغولة بحرب المورة ومجابهة محمد علي عندما أرسلت فرنسا قواتها لحصار الجزائر، وفي الوقت ذاته، كان

= بيترسبورغ،(١٧٩٦- ١٨٥٥) أصبح قيصراً لروسيا سنة١٨٢٥، انتزع إقليم إبريغان من بلاد الفرس سنة ١٨٢٦، وقاد التحالف مع فرنسا وإنكلترا للتدخل في بلاد اليونان ضد العثمانيين (١٨٢٧- ١٨٢٩). كما دفع قواته لخوض حرب القرم، وهي الحرب التي لم تحقق فيها روسيا أهدافها بسبب وقوف فرنسا وانكلترا إلى جانب العثمانيين. كان من أشد أعداء الإسلام والمسلمين.

الباب العالي يعتقد انه بالإمكان تسوية الخلاف الإفرنسي الجزائري بصورة سلمية، على نحو ما حدث في مرات كثيرة سابقة. وعندما أعلن عن اجتياح فرنسا للجزائر أخذت الدولة العثمانية في بذل الجهود ـ مع انكلترا ـ لاقناع فرنسا بالانسحاب وأعلن الباب العالي من جهته: «حق الدولة العثمانية في الجزائر». كما أرسل مذكرات إلى فرنسا، من بينها المذكرة المرسلة في ذي الحجة ١٢٤٦ هـ الموافق ١٣ أيار ـ مايو ـ ١٨٣١ والتي «تبين حقوق الدولة العثمانية في الجزائر، إذ بموجب المواثيق والأحكام المرعية بين الدولة العلية والدول الصديقة منذ القديم فان حقوق الدولة السنية بالجزائر ثابتة في جميع الأزمان. ولهذا يجب استرداد الجزائر، إذ لا إشكال في انها ملك موروث للدولة العلية». وانطلق السفراء العثمانيون في محاولاتهم للتسوية السلمية بشأن الجزائر، وأخذوا في العمل مع «بالمرستون»[1] في انكلترا و«مترنيخ»[2] في النمسا.

قدم السفير العثماني «نامق باشا» مذكرات كثيرة للحكومة البريطانية من اجل «تخليص الجزائر من الإحتلال الإفرنسي، وكان من بينهامذكرةباللغة الافرنسية مؤرخةفي ٢ آذار ـ مارس ـ ١٨٣٣، وكان رد «بالمرستون» ورجال الدولة الإنكليز: «بأنهم لن يستطيعوا

---

(١) بالمرستون: (LORD PALMERSTON,·HENRY TEMPLES) رجل دولة إنكليزي، (١٧٨٤ـ ١٨٦٥) قاد سياسة انكلترا بعنف ضد فرنسا طوال أربعين عاماً.

(٢) مترنيخ: (PRINCE DE METTERNICH WINNEBURG, KLEMENS LOTHER WENZEL) رجل دولة نمساوي، من مواليد كوبلنز (١٧٧٣ـ ١٨٥٩) عمل سفيراً لبلاده في باريس سنة ١٨٠٦ـ ١٨٠٩، قاد المفاوضات بشأن زواج ماري لويز من نابليون بونابرت وبعد سقوط نابليون، أصبح بموجب الحلف المقدس عمدة لأوروبا ـ ووصياً عليها ـ وفرض الحكم المطلق داخل بلاده ـ النمسا ـ.

قبول أي شيء للحكومة الافرنسية بخصوص الجزائر دون تصفية قضايا بلجيكا والبرتغال، وهكذا رفضوا من البداية تكليف الدولة العثمانية».

أما النمسا، فكانت تتصرف بميوعة ازاء القضية الجزائرية، وعلى هذا كتب السفير العثماني إلى رئيس وزراء النمسا «مترنيخ» طالباً تدخله لدى الحكومة الافرنسية «وكتب مترنيخ مذكرة سرية، أرسل الباب العالي نصها الى السفير العثماني بباريس، وفيها يخمن أن الافرنسيين لن يستطيعوا ادارة الجزائر مدة طويلة بعد فشلهم في قسنطينة، ويقترح على الباب العالي البقاء شاهداً ـ متفرجاً ـ في الوقت الحاضر»(١).

أدرك رجال الدولة العثمانيون، وبشكل قطعي، أن استرداد الجزائر من فرنسا بالمباحثات السياسية فقط، هو أمر غير ممكن. وكان على الدولة العثمانية أن تسلك طرقاً أخرى للوصول إلى الهدف. وأرسلت أسطولها إلى طرابلس الغرب، واقتربت كثيراً من الحدود الجزائرية. غير أن الحكومة الافرنسية لم تتأخر في إتخاذ التدابير اللازمة. وأعلن قائد الأسطول الافرنسي «الأميرال روسين» يوم ٧ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٥ : «بأن اسطولاً فرنسياً أقلع لحماية المصالح التجارية والسياسية الافرنسية في حوض البحر الأبيض وشواطىء اسبانيا». وأمام هذا الموقف، وجد الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء العثماني ـ أنه من غير المناسب حدوث صدام بين الأسطولين الافرنسي والعثماني. فأمر بعودة الأسطول الى استنبول. واعلن: «ان الدولة

---

(١) السياسة العثمانية تجاه الإحتلال الإفرنسي للجزائر ـ الدكتور أرجمند كوران ـ ص ٥١ و ٦٦ و ٦٧.

العثمانية تحتفظ لنفسها بحقها في تلك البلاد» ورد «الأميرال روسين» على ذلك يوم ٨ آب- أغسطس- ١٨٣٦ : «أن فرنسا لن تعيد الجزائر». و «أن فرنسا لن تغض الطرف أبداً عن وجود وال معاد لها في تونس، ويجب على وزارة الخارجية العثمانية عدم التدخل في شؤون قسنطينة» حيث كان أحمد باي يتابع صراعه من قسنطينة ضد الافرنسيين. ومعروف أن أحمد باي، قد طلب من الدولة العثمانية مساعدته ودعمه، وأعلن الباب العالي: «أن من حقه مساعدة باي قسنطينة» فردت فرنسا على ذلك بقولها «أنها تعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية إذا ما أقدمت هذه على دعم باي قسنطينة». غير أن الأسطول العثماني غادر المياه التركيه. ووصل إلى طرابلس، فقابلت فرنسا ذلك بإرسال أسطولها إلى الميناء نفسه، وفقاً للقرار الذي اتخذته حكومتها يوم ٢٤ أيلول - سبتمبر- ١٨٣٧. وأعلنت الدولة العثمانية : «أن لها الحق في منع الافرنسيين من القيام بحملة على القسنطينة». وتدخل السفير البريطاني، فأعلن «وجوب عدم تدخل العثمانيين في تونس والجزائر». وأخذ الأسطول العثماني في الانسحاب والأسطول الافرنسي يطارده حتى مضيق الدردنيل. وانتهت بالفشل محاولة الحاق تونس مباشرة بالإدارة العثمانية لتأمين امكانية انقاذ الجزائر من الاحتلال الافرنسي ومعروف بعد ذلك أن أحمد باي قاوم بضراوة الحملة الافرنسية على قسنطينة حتى يوم ١٣ تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٣٧، حيث استطاعت القوات الافرنسية اقتحام قسنطينة، وبسط سيطرتها على المنطقة الشرقية من الجزائر بكاملها.

أرسل باي قسنطينة (الوالي) رسالة الى الباب العالي يوم ١٥

تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٣٧ : «يعلم باستيلاء الافرنسيين على المدينة، ويطلب المعونة، . . . وإذا لم يتمكن من إيصالها إليه فانه يسترحم السلطان إذناً بالانسحاب لديار المسلمين» ولم تجد أركان الباب العالي امكانية لمساعدة أحمد باي، ولم يكن باستطاعة السلطان محمود الثاني- في الوقت ذاته التخلي عن الباي وخذله بعد أن برهن على ارتباطه الثابت بالدولة العثمانية. فأصدر أمره بالتحقيق في القضية من جديد. وفي مجلس الشورى الذي عقد بالباب العالي وضم وزير البحرية، تقرر ارسال أمر لباي تونس من أجل مساعدة باي قسنطينة. ولم يكن لهذا القرار من نتيجة إيجابية، ذلك أن باي تونس كان مرغمًا على عدم استثارة الافرنسيين الذين وصلوا إلى حدود بلاده.

يذكر هنا أن الدولة العثمانية كانت تعتمد في مطالبتها بحقها في الجزائر، على المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر الجزائري من جهة وأحمد باي قسنطينة من جهة أخرى. وعندما أعلن عن اتفاق الأمير عبد القادر مع فرنسا، أرسل السفير العثماني في باريس رسالة بتاريخ ١١ حزيران- يونيو- ١٨٣٧، إلى وزير الخارجية الإفرنسية، أظهر فيها «استغرابه وأسفه الكامل بسبب وضع شخص عادي تابع للسلطنة العلية، بشكل حاكم، وأن مصالحة دولة فرنسا مع الأمير عبد القادر هو أمر مخالف لأصول روابط الإخلاص والصفاء القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية العلية» ورد وزير خارجية فرنسا على ذلك برسالة في ١٨ حزيران - يونيو- ١٨٣٧؛ جاء فيها «ان فرنسا توضح بصراحة أنها لم تعترف مطلقاً بحق أية دولة أجنبية في التدخل بشؤون الجزائر». المهم في الأمر هو أن الباب العالي لم يعترف باتفاقية فرنسا مع الأمير عبد القادر (معاهدة تفنا ٣٠ أيار - مايو- ١٨٣٨). ولم تلبث

فرنسا أن نقضت معاهدة تفنا، بعد أن فتحت قسنطينة. وعاد الأمير عبد القادر لحمل السلاح، كما استمرت الدولة العثمانية في تطوير الصراع السياسي، وأثناء ذلك، أخذت قضية تونس بالتدرج بعد قضية الجزائر، وحاولت الحكومة العثمانية فرض وجودها في تونس غير ان فرنسا احبطت محاولاتها بالقوة. واستمر الموقف على ذلك حتى سنة ١٨٤٧ حيث استسلم الأمير عبد القادر للافرنسيين،وفي السنة التالية، ترك أحمد باي المقاومة. وودعت الدولة العثمانية حقها في المغرب العربي- الاسلامي.

لقد برهنت هذه المرحلة من الصراع السياسي، أن الامبراطورية العثمانية باتت تعتمد على التحالفات السياسية والتناقضات الدولية بأكثر من اعتمادها على قدرتها الذاتية. كما أن الصراع الداخلي الذي تزعمه والي مصر محمد علي باشا، قد أفسح المجال الواسع أمام الدول الأوروبية للمضي في سياستها من أجل استنزاف ما بقي لدى الدولة العثمانية من القدرة. ولقد حاولت الدولة العثمانية إعادة بناء قدرتها الذاتية، والاعتماد على الخبرة العسكرية البروسية. غير أن الدول العظمى لم تترك لها الفرصة لذلك.

٢ـ عودة إلى محمد علي باشا

أوضح سفير مترنيخ «فون اوستن» موقف بلاده من أحداث المشرق في ١٦ حزيران- يونيو- ١٨٣٣ بالتالي: «لم يعد هناك مفر من إقامة امبراطورية عربية تحت لواء محمد علي في القريب العاجل» وقد يظهر هذا المشروع غريباً، لكن شتى الدوافع قد أجمعت على تحقيقه فعلاً. فمن جهة سيندفع باشا مصر بطموحه وتهوره إلى العمل على تحقيقه، ومن جهة أخرى تسهل ظروف الموقف السياسي والعسكري الجديد نفسها خلق مثل هذه الإمبراطورية. واني أرى إلى جانب امكانيات الباب العالي المعدومة، وهيبته المتداعية يوماً عن يوم، جيشاً عربياً مدرباً أحسن تدريب، مزهواً بالنصر، واسطولاً جباراً، وموارد كافية لزيادة حجم هذا الأسطول وذلك الجيش الى ثلاثة أضعافهما، وادارة في غنى تام تقريباً عن الأتراك، وانبعاث الروح القومية عند العرب. وميلاً واضحاً لدى أوروبيين كثيرين إلى حكومة محمد علي، وأخيراً تقديراً متعاظمًا وواسعاً يتمتع به هذا الأخير على امتداد البلاد الناطقة بالعربية»[١].

---

(١) أوروبا ومصير الشرق العربي. حجار- ص ٨٤ و ٨٥ و ٨٦.

لقد كان هذا الخط السياسي مرتبطاً باتفاق أباطرة روسيا والنمسا وبروسيا بعد اجتماعهم في ميونيخ من ٩ـ ١٩ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٣٣ واتفاقهم على وضع أسس (الحلف المقدس)[١] المعقود سنة ١٨١٥ موضع التنفيذ.

كـان مهندس السياسة الأوروبية «مترنيخ» قد استدعى سفيره في القاهرة يوم ١٥ أيلول ـ سبتمبر ـ للاطلاع منه على مهمته المكلف بها وهي: «تقديم مذكرة عن القوات العسكرية المصرية الراهنة ومقارنتها بقوات الباب العالي». وقد خولته معلوماته المستقاة من مصادر موثوقة، وخبرته المباشرة، أن يمثل دوراً مهمًا في تلك الظروف، خاصة وأن مترنيخ كان يرتاح إلى استلهام أرائه، الأمر الذي جعله يتبوأ مركزاً قوياً واضحاً حتى في نظر الامبراطور. وقد استمع يوماً، وهو على مائدة الغداء، إلى المبعوث الروسي وهو يتحدث عن نهاية الامبراطورية العثمانية الوشيكة، وهو رأي كان سائداً آنذاك في وسط البلاط الروسي. هذا وكرر له الامبراطور بعد ذلك ـ في حديث خاص ـ الآراء نفسها، عن الإمبراطورية المحتضرة. أما ما كان يشغل امبراطور الروسيا بشكل خاص «نقولا الأول» فهو محمد علي الذي كان يعتبره الامبراطور رجلاً موهوباً جداً، لكنه طموح ولا يحلم الا بتقويض الاسرة الملكية العثمانية الحاكمة واحتلال مركزها. غير ان السفير النمساوي في القاهرة اوضح للامبراطور ان محمد علي لا يطمح مطلقاً في الاستيلاء على آسيا الصغرى، وانه لن يتخطى جبال طوروس اذا ما اعطي وعد شرف بان تضمن له فتوحاته الحالية. وبدا أن نقولا الأول، أخذ بهذا التحليل الجديد للوضع».

---

(١) الحلف المقدس: (LA SAINT ALLIANCE).

ويظهر من خلال ذلك أن دول الحلف المقدس، كانت تعمل لإقامة الدولة العربية، ولكن مع إبقاء حدود هذه الدولة فيما وراء جبال طوروس، لا سيما وأن روسيا أفادت من الخلاف المصري ـ العثماني أكثر من سواها لتعزيز مكانتها ودعم نفوذها لدى الباب العالي. وأمام هذا الموقف اتخذت انكلترا أسباب الحذر، ذلك لأنها لم تكن ترضى مطلقاً بهيمنة روسيا على القسطنطينية. فقامت بمناورة ديبلوماسية، أشارت فيها: «الى أن دخول محمد علي إلى العاصمة العثمانية، وتقويض حكم السلطان ببضع ساعات، سيساعده على إغلاق البوسفور فعلاً في وجه القوات الروسية».

على هذا الاساس أخذت انكلترا في تطوير علاقتها مع محمد علي باشا، بهدف تصديع عرى العلاقات الروسية ـ العثمانية. وكان محمد علي بدوره يصبو في الوقت ذاته لإقامة تحالف مع انكلترا، ويسعى إليه بشتى الوسائل من ايماء وتنازلات وإقناع، وقد كتب السفير الإنكليزي في القاهرة لحكومته رسالة يوم ٢٧ تشرين الأول عام ١٨٣٣ ـ جاء فيها: «... هناك فائدة أخرى قد نجنيها من احتلال محمد علي لمودكا واليمن بالنسبة لأي اتصال نود أن نقيمه في المستقبل مع الهند عبر البحر الأحمر. إن محمد علي بامتلاكه لمصر، يسيطر تقريباً على شاطىء البحر الأحمر الغربي كله، وبامتلاكه للحجاز وللجزيرة العربية يسيطر على الشاطىء الشرقي ما عدا المنطقة الصغيرة التي تحيط بموقة. فاحتلال هذه المنطقة يضع بالضرورة شاطىء البحر الأحمر تحت حكم واحد، ويسهل مواصلاتنا مع الهند، خاصة متى كان هذا الحكم حسن الطوية نحو بريطانيا كما هي حال محمد علي...»

ويظهر من خلال ذلك، أن انكلترا، ومعها فرنسا، قد اتفقتا في الهدف مع دول الحلف المقدس (روسيا والنمسا وبروسيا) في دعم محمد علي باشا لإقامة دولة عربية قوية تستطيع منافسة الباب العالي، ولكنها لا تستطيع القضاء على الدولة العثمانية. وهذا ما أشار اليه تقرير القنصل البريطاني بتاريخ ٢٩ أيار- مايو- ١٨٣٤ وفيه: «اذا انتظمت الأقاليم التي يحكمها حالياً محمد علي في مملكة، فان هذه المملكة، بحكم موقعها، ستحمل طابعاً اوروبياً وآسيوياً في آن واحد. وستتدخل كلما قويت داخلياً في شؤون احدى القارتين. فاذا لم توجه في وجه احداهما، فلن تكون هناك أية فائدة سياسية من إقامتها. ان اقامة هذه المملكة - بحد ذاته- يعطي الباشا بغداد والبصرة، عبر شمال سورية، وتجعله يسيطر على سلسلة طوروس الشرقية، باسطاً نفوذه، حتى حدود بلاد فارس، وستمتد سلطته المتزايدة الى قلب آسيا، من شيراز إلى مسقط وحتى البحر الأحمر، مروراً بالجزيرة العربية».

لقد فتح الصراع بين محمد علي والباب العالي المجال الواسع أمام الدول الكبرى للحصول على المغانم، على حساب الطرفين المتصارعين، وبالتالي على حساب الأمة الإسلامية. وهذا ما أشار إليه القنصل الإنكليزي في مصر والذي كتب في ٧ شباط- فبراير- ١٨٣٨ ما يلي: «قبل تعييني، لم يكن يصل أي مركب أو أية بضاعة إلى مرفأ بيروت من إنكلترا مباشرة. ولم يكن في سوريا كلها أي مركز تجاري إنكليزي. وكانت موارد سوريا وامكانياتها ومنتجاتها مجهولة في إنكلترا، ومنذ تعييني- سنة ١٨٣٠- بدأت تصل مباشرة من الوطن مراكب انكليزية حمولةكل منها من ١٢٠ إلى ١٥٠ طناً، حاملة منتجات إنكليزية من انكلترا أو مستعمراتها وقد تم افتتاح مراكز

لمارية إنكليزية جديدة في مدن البلاد الكبرى، وخاصة في دمشق وحلب وبغداد على أمل أن يتسع نفوذها فيشمل البلدان المجاورة».

خلال هذه الفترة، كانت هناك قناعة ثابتة تتشكل في البلاط البريطاني، وتتلخص هذه القناعة بأن التحالف مع السلطان هو وحده السبيل القادر على إنقاذ العثمانيين من وصاية روسيا. وقد أعطى المرستون تعليماته بهذا الشأن لسفيره لدى الباب العالي- وأضاف المرستون إلى تعليمـاته أن هذا التحالف على كل حال يثبت السلطة العثمانية، ويكبح المطامع المصرية. وإلى هذا كان يميل سفير فرنسا في القسطنطينية، والذي كان يعتقد بأنه يجب مساندة السلطان ضد مروسيه، لأن تشجيع هذا الأخير- يدفع من جديد بالباب العالي إلى أحضان روسيا، ويسبب ذلك حرباً لامفر منها.

لم تكن قصة «الحاجة إلى السلام» بالقصة الجديدة، فقد كان الباب العالي يستعد لشن الحرب ضد قوات ابراهيم باشا في سوريا. فقام سفراء الدول الغربية بإقناع السلطان بعدم شن الحرب «**لأن المحافظة على السلام في الشرق أمر ضروري جداً لمصلحة أوروبا كلها**»، وفي الوقت ذاته أعلن قادة البحر الافرنسيين والإنكليز- الأميرالات- بأنهم تلقوا تعليمات من حكوماتهم «أن يتدخلوا بين الأسطولين العثماني- المصري اذا ما تطلب الأمر لمنع أي اشتباك بينهما[1]»

ووجد محمد علي في ذلك تراجعاً عن التزامات أوروبا- وخاصة فرنسا- تجاهه. فقرر الإمساك بالمبادأة، وقام يوم ٣ أيلول سبتمبر-

---

(١) أوروبا ومصير الشرق العربي- حجار- ص ٩٦.

١٨٣٤ بتسليم مذكرة سرية إلى قنصلي فرنسا وبريطانيا «طالباً مساعدة الحكومتين البريطانية والافرنسية على اعلان استقلاله، وفي ١٢ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ من السنة ذاتها، أبلغ بلاط ڤيينا نفس الطلب. وكانت الحكومة الروسية هي وحدها التي لم تعلم بالأمر. وأكد محمد علي في هذه المذكرة: «بأن حربه ضد الباب العالي إنما تهدف إلى إيقاظ طاقة الأمة الإسلامية الراكدة، وإلى إقامة الامبراطورية العثمانية على اسس جديدة، وفي سبيل هذا يعلن محمد علي استقلاله قبل أن يقوم بحملة صليبية جديدة ضد الباب العالي وروسيا».

لقد ظن محمد علي باشا أنه يستطيع أن يلعب بورقة العداء ضد روسيا القيصرية ليمارس دوره في إقامة المملكة العربية التي كانت تدعمها الدولتان العظميان، وجهل أو تجاهل بأن الدول العظمى لا تريد من هذا المشروع الا خلق تناقض داخل الامبراطورية العثمانية ـ لا أكثر ـ وانما تريده كل هذه الدول بقاء هذا التناقض لتفجيره في الوقت المناسب. وتجاهل محمد علي، أو جهل، حقيقتين اساسيتين وهما:
١ ـ ان فرنسا التي كان يعتمد عليها في مشاريعه، لم تعد في حاجة إليه بعد أن احتلت الجزائر وجعلتها قاعدة لها، وانها باتت في حاجة المتعاون مع الباب العالي لحل مشكلات الاحتلال أكثر من حاجتها لمحمد علي الذي منحها كل شيء، ولم يبق لديه ما يمنحه. ٢ ـ ان التنافس بين الدول العظمى هو قبل كل شيء ضد العالم الإسلامي كله، وأن هذا الخط يشكل القاسم المشترك بين سياسات الدول الأجنبية كلها ـ وعلى هذا فان روسيا تبقى أقرب إلى النمسا وحتى إنكلترا وفرنسا، منها إلى مصر محمد علي. وهذا ما عبر عنه البلاط القيصري الروسي في رسالة تحمل تاريخ ٣١ كانون الأول ـ ديسمبر ـ

١٨٣٤ وجاء فيها: «لقد أوقع محمد علي نفسه في ورطة خطيرة من جراء جهله المطبق لعلاقات الثقة الحميمة التي تربط بلاطي فيينا وبيترسبورغ، فجاءت نتيجةمسعاه وبالاً عليه: وأنه بمحاولته إثارة الخوف والحسد لدى الحكومات الأوروبية ضد روسيا، فانه حكم على آماله كلها بالفشل الذريع» ويمكن من خلال الموقف المشترك للدول الأوروبية استخلاص نتيجتين: اولاهما، اتفاق الدول الكبرى مبدئياً على تجنب خطر اشتباك عام في الشرق، بالرغم من اختلاف وجهات النظر. وثانيهما: رفض القوتين البحريتين، لفرنسا وانكلترا، مشاريع باشا مصر بالاستقلال، على الرغم مما هما عليه من تنافس ضد روسيا. ولهذا فيجب على باشا مصر أن يتخلى نهائياً عن أية محاولة لإثارة بعض الدول الاوروبية ضد بعضها الآخر، وعلى كل حال، فنشاطه مراقب عن كثب بحيث أنه لا يستطيع أن يفلت من أنظار الدول ليحيك الدسائس ضد روسيا.

وهكذا اتفقت أوروبا كلها على تجميد الوضع، والابقاء على «الحالة الراهنة». وظهر بوضوح: **«أن فرنسا وانكلترا اللتين دللتا محمد علي طوال سنين كثيرة، وتعهدتا نوعاً ما بتعزيز قوته، ولم تتراجعا أمام أي أمر في سبيل تأجيج طموحه، تتركانه اليوم وحيداً، وتتلذذ انكلترا خاصة بجرح عنفوانه وذلك بعدم اكتراثها،به، هذا على أخف تعبير»**(١) ومقابل ذلك، نصحت روسيا الباب العالي بما يلي: «... ان النصيحة الوحيدة التي رأت حكومة الامبراطور أن توجهها لكم في السابق، والتي ترى من واجب الصداقة أن تكررها لكم الان هي الافادة من عامل الزمن. ان حكومةالامبراطور، وقد

---

(١) المرجع السابق ـ ص ١٠٦

تملكتها هذه الحقيقة لا تستطيع الا أن تكرر النصيحة التي غالباً ما وجهتها للباب العالي باتباع سياسة التريث بانتظام، وهي التي تبدو أكثر ملاءمة لمصالح تركيا الحقيقية، وللحفاظ على استقرار الشرق عامة».

لقد سمحت سياسة الاستقرار في الازمة الشرقية للباب العالي وللدول الاوروبية أن تنفذ سياساتها الاستراتيجية بهدوء، فكانت الفترة ما بين ١٨٣٤ و ١٨٣٨ فترة هدوء نسبي لم يعرف الشرق مثلها منذ أعوام طويلة. وافاد محمد علي من ذلك لتدعيم قواته والقيام بجولات تنظيمية في مصر وحتى في جزيرة كريت التابعة لسلطته. وافاد الافرنسيون من ذلك لتطوير عملية «فرنسة مصر» عن طريق توظيف اكبر عدد ممكن من مواطنيهم في خدمة الوالي، وفي شتى فروع الادارة. مبعدين من هذه الميادين سائر الاجانب. وفرضت انكلترا نفسها فأصبح جانبها مرهوباً في الاسكندرية كما في القسطنطينية. ووضعت النمسا تحت تصرف والي مصر هيئة من الخبراء في الجيولوجيا لتجوب لبنان ومصر بحثاً عن الثروات المعدنية. في حين بقيت روسيا واقفة تراقب مسيرة الاحداث وهي سعيدة بانقسام الامبراطورية العثمانية وضعفها. وكانت بروسيا تدخل مسرح الأحداث، فتضع تحت تصرف الباب العالي أول بعثة عسكرية مهمتها اعادة تنظيم الجيش العثماني.

ونتيجة لذلك، ظهرت حتمية تجدد الصراع بين الباب العالي والوالي محمد علي، وقد ظهر ذلك واضحاً في رسالة القنصل الروسي في ٢٣ أيار- مايو- ١٨٣٦ وفيها: «. . . يظهر بوضوح أنه ستطرأ عما قليل تطورات خطيرة على الأوضاع في المشرق، فالبحث يجري في

امور كثيرة، كالتقارب بين انكلترا والباب العالي، ثم ارادة السلطان في حصر قوة محمد علي مهما بلغ الثمن في اطار ضيق هو إطار مرؤوس عادي، وذلك بارغامه على تقليص قوة اسطوله وجيشه، واخيراً الموافقة التي يلقاها هذا المشروع من جميع الدول الكبرى. والمفاوضات عاجزة بمفردها عن بلوغ هذه النتيجة. لذا سوف يلجأ الى قوة السلاح وستنشب الحرب»(١)

كانت قوات محمد علي قد بسطت نفوذها على الجزيرة العربية، ووصلت الى منطقة الخليج، ووجدت بريطانيا في ذلك مناسبة للتدخل، وفي ١٥ حزيران- يونيو- ١٨٣٨ صرح وزير الخارجية البريطاني: «بأن وجود مصر في الخليج العربي لا يمكن احتماله. وهذا ما جعل الاشتباك بين القوتين أمراً يصعب تجنبه، إذ أن النفوذ المصري سيمتد بسرعة من البصرة الى بغداد». واجتمع محمد علي بالسفير الروسي، وشكا اليه صلف بريطانيا، ونقل السفير ذلك برسالة في ٦ ايلول- سبتمبر- ١٨٣٨ جاء فيها ما يلي: «ذكر محمد علي التحذير الذي تلقاه مؤخراً، والذي جاء فيه من أن بريطانيا تعتبر أي اعتداء تقوم به القوات المصرية على عدن يعتبر بمثابة اعلان للحرب، ويذكر ان الحكومة البريطانية اشترت عدن مؤخراً من أمير محلي بمبلغ (١٥٠٠) جنيه. واحتج بشدة ضد هذه الادعاءات بقوله: علي هذه المرة ايضاً أن أخضع لقانون الاقوياء كما هي الحال في قضيتنا. ان الدول الكبرى تصدر إلي الأوامر لأنها أقوى مني... ولا بد لي وانا أنهي تقريري من أن استرعي انتباه فخامتكم جدياً الى أمر يبدو تافهاً في الظاهر، ولكنه قد يتسبب في المستقبل بنتائج خطيرة: لقد قامت شركة الهند الشرقية

---

(١) المرجع السابق ١٠٥ و ١١٢ و ١١٣

باحتلال مدينة عدن الصغيرة ومرفأها في شبه الجزيرة العربية احتلالاً عسكرياً، حيث انزلت فيه ٣٠ عسكرياً وكلهم مسلحون، بقيادة ملازم انكليزي يساعده ضابط هندي».

لم تقف انكلترا عند حدود العدوان السافر لفرض سيطرتها على عدن، ومن ثم على منطقة الخليج، بل انهامضت لتحريض الدروز على الثورة، وحذت حذوها بقية الدول العظمى، فأخذت روسيا في تسليح الأرثوذكس، في حين اعتمدت فرنسا على الموارنة والكاثوليك، ونشط القناصل الأجانب نشاطاً مثيراً، ودفع ذلك ابراهيم باشا إلى اتخاذ إجراءات بالغة العنف تجاه القناصل الأجانب في سوريا، وخاصة قناصل بيروت وحلب ودمشق. وقد صرح ابراهيم باشا للقنصل النمساوي في الإسكندرية بما يلي: «هؤلاء القوم مصدر عذاب لي، إذ يعرقلون في كل لحظة سير شؤون حكومتي. وليس السلطان والباب العالي بشيء إذا ما قورنا بحضرات القناصل. فمع السلطان والباب العالي نستطيع تدبير أمورنا، ونلزم جانب الحذر، أما القناصل فهم مصدر عذابي، ولا أستطيع عمل أي شيء حيالهم، إنهم كارثة على البلاد».

واوضح القنصل الروسي الموقف بقوله: «يتمادى القناصل في سوريا بأكثر مما يفعلونه في سائر المشرق. ولقد استطاعوا أن يخرجوا أكثر من نصف سكان المدن عن طاعة السلطة المحلية بحمايتهم تحت اسم «ترجمان- وقواص- وخازن- وخادم الخ...». ويكفي للبرهان على دور القناصل في التحريض على الثورة، والإمداد بالأسلحة، ان ابراهيم باشا جمع (٢١) ألف بارودة، عقب نجاحه في قمع ثورة الدروز. وان القنصل الروسي كتب إلى وزيره في بيترسبورغ بعد

ذلك بسنة- أي في سنة ١٨٣٦- «بأنه نزع من أهالي سوريا ١٢٨ ألف بارودة ما عدا المسدسات والسلاح الأبيض منذ القضاء على الثورة في السنة الماضية».

وخلال تلك الفترة، عكفت مراكز البحوث في الدول الكبرى على إجراء دراسات مستفيضة عن وضع الأقليات لاستخدامها في الترويج للقضية القومية- المناهضة بالضرورة للاسلام- ومن ذلك (مجلة ألمانية)(١) «اعتبرت من أفضل المجلات الدينية في تلك الآونة وخصت الموارنة والدروز والإسماعيليين والعلويين بدراسات وافية تناولت وضعهم الديني والسياسي والاجتماعي في أدق تفاصيله، فانعكست الأحداث المعاصرة على لوحة خلفية تضم مختلف هذه الجماعات».

قد يكون من غير المهم بعد ذلك الدخول في تفاصيل مسيرة الأحداث. فقد وقعت معركة نصيبين يوم ٢٤ حزيران - يونيو- ١٨٣٩ وانتصر فيها إبراهيم باشا على العثمانيين انتصاراً حاسماً خلال ساعتين فقط. وتدخلت الدول الأوروبية المتحالفة بعد ذلك، فأرغمت محمد علي باشا على الانسحاب من سوريا، وجرت مفاوضات انتهت بتوقيع معاهدة ١٥ تموز- يوليو- ١٨٤١، وعادت مصر محمد علي إلى حجمها الطبيعي. وعاد محمد علي تابعاً للسلطان، ولكن بعد أن حققت الدول العظمى، وخاصة بريطانيا وفرنسا والنمسا كل أهدافها في العالم الاسلامي.

(1) ARCHIV FUR ALTE AND NEUE KIRCHENGES 'CHICHTE

عن أوروبا ومصير الشرق العربي - حجار- ص ١٢٣

٣ـ اللعب بورقة الأمير عبد القادر

كان خروج قوات محمد علي باشا من سوريا هو البداية لمجموعتين من الأحداث المتتالية، أولاهما: مشكلة الأقليات في بلاد الشام، والثانية: المشكلة اليهودية. وارتبطت المشكلتان ارتباطاً وثيقاً بالأمن الذي باتت أعباء تحقيقه في سوريا ملقاة بكل ثقلها على الحكومة العثمانية. ومن المعروف أن معظم هذه الأقليات (الدروز والموارنة خاصة) كانت قد استقرت في جبال لبنان منذ أجيال وظهرت منها عائلات مارست دوراً قيادياً من أمثال المعنيين والتنوخيين والشهابيين. وظنت الحكومة العثمانية أن بوسعها كسر شوكة زعامة هذه العائلات بمثل الطريقة التي سبق للسلطان محمود اتباعها في آسية الصغرى، من أجل إخضاع لبنان مباشرة لسلطة الوالي العثماني.
وكان الأمير بشير الشهابي، الذي أسلم البلاد يوماً إلى ابراهيم باشا قد فر إلى مالطا في تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٤٠ على متن سفينة حربية بريطانية. وكان ابنه الأكبر ضعيف العقل، في حين كان ابنه الأصغر غير كفء لخلافته. ولكن فرنسا التي انتحلت لنفسها حق حماية نصارى الشرق ـ والموارنة منهم بصورة خاصة، كانت غير مستعدة للموافقة على اضمحلال الإمارة المسيحية من غير أن تحرك ساكناً. ونزولاً عند

ضغط الدول، عين الباب العالي أحد المتقدمين في السن من أبناء أخي الأمير بشير حاكماً. ولكنه حرك الدروز في الوقت نفسه للثورة، مما اقتضى احتلال لبنان كله إحتلالاً عسكرياً. حتى إذا رفع النصارى صوتهم بالشكوى، عين الباب العالي لجنة انهت أعمالها برفع شكوى إلى الباب العالي تلتمس فيها إقامة ادارة تركية في البلاد. واتخذت الدولة العثمانية قرارها في آب- أغسطس- سنة ١٨٤٢ بتقسيم لبنان إلى منطقتين إداريتين، يحكم إحداهما زعيم من الزعماء الدروز، في حين يحكم الأخرى زعيم من زعماء الموارنة، يحمل كل منهما لقب، «قائم مقام» أما في المناطق المختلطة، مثل منطقة المتن الهامةالواقعة على طريق دمشق، حيث كانت أكثرية مارونية تعيش في ظل المشايخ الدروز، فقد توجب على كل قائم مقام تعيين نائب عنه. وحيث أن الدول العظمى كانت تلح على أن يدفع الدروز التعويضات عن الخسائر الناجمة عن ثورة ١٨٤٢، فقد اندلعت نار الحرب الأهلية، من جديد، في نوار- مايو- سنة ١٨٤٥. عندئذ عمد الباب العالي إلى نزع السلاح من الفريقين، وأقام إلى جانب كل قائم مقام مجلساً يتمتع بصلاحيات إدارية وقضائية، ويتألف من ممثلين عن مختلف طبقات الشعب.

مات محمد علي باشا سنة ١٨٤٨، وكان ابنه ابراهيم باشا قد توفي قبله بثمانية أشهر. وخلفه ابنه عباس باشا، وكان مسلما حقاً يزدري التربية الأوروبية ازدراءً بعيداً. ولم يكد يرتقي العرش حتى وضع المشروع القاضي بشق قناة السويس لوصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط. وإذ كان أصحاب رؤوس الأموال من الافرنسيين يبدون اهتماماً بهذا المشروع فقد عارضه البريطانيون، وروجوا لمشروع مضاد يقضي بمد خط حديدي عبر برزخ السويس، وقد

بدىء بانشائه فعلياً سنة ١٨٥١ . ومهما يكن من شيء فالحق ان مسألة المواصلات هذه، التي انتهت فيما بعد إلى أن تكون ذات أهمية عظمى بالنسبة الى العالم كله، لم تكن هي التي قررت مصير الشرق في السنوات التالية. وإنما الذي قرر مصيره مسألة أخرى كان الباب العالي يعتبرها تافهة، ولكنها قدمت إلى الدول الأوروبية ذريعة لفرض سيطرتها على الشرق، ألا وهي مسألة الأماكن المقدسة الشهيرة.

كان الفرنج منذ أيام الحروب الصليبية القديمة يتخذون من قضية الأماكن المقدسة في فلسطين حجة للتدخل بشؤون المشرق الإسلامي، كلما أنسوا من أنفسهم قوة ومن العالم الإسلامي ضعفاً، وذلك بزعمهم أن لمنطقة القدس وما يحيط بها مكانة دينية خاصة لهم، لما تحفل به من ذكريات عن حياة يسوع. وقد استقرت في هذه المنطقة جمع يمثل ست طوائف نصرانية هي: اللاتين - أتباع الكنيسة الرومانية- والروم الأرثوذكس، والأرمن والسريان والأقباط والأحباش وكانت الكنائس الثلاث الأخيرة قد دخلت بسبب من ضعفها تحت حماية الأرمن الذين لم يكن للباب العالي غنى عنهم، بسبب إخلاصهم للدولة، وبسبب دورهم الاقتصادي في العالم الإسلامي. ومهما كان عليه الأمر، فقد بقيت الكنيسة الأرثوذكسية أسمى هذه الكنائس رتبة بوصفها ممثلة لعشرة ملايين من رعايا السلطان الأرثوذكسيين، وبسبب حماية الروسيا لها أيضاً. وكان رجال الأكليروس اللاتيني، ومعظمهم من أصل إسباني وإيطالي، يتمتعون بامتيازات أجنبية وبحماية وزارة الخارجية الافرنسية. والواقع أن هذه الطوائف المختلفة كانت بحكم العادة، لا بحكم القوانين والأنظمة المكتوبة، تتمتع بحقوق متعارف عليها. ولم تكن هذه الحقوق على كل

حال محددة بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر، تحديداً واضحاً، ومن هنا فكثيراً ما احتكمت الطوائف النصرانية إلى السلطات الاسلامية لحل خلافاتها. وفي كنيسة القيامة ببيت المقدس، وكانت ملكاً مشتركاً بين جميع الطوائف، لم يكن من النادر أن تنشب أعمال العنف والاقتتال بين رجال الدين، الذين تميز عددهم بالوفرة بقدر ما تميزت مهامهم بالضآلة، حتى لقد كان الحرس التركي هو المسؤول عن الأمن والنظام في القبر المقدس طوال أيام عيد الفصح.

حدث في صيف سنة (١٨٤٧) أن فقدت في كنيسة المهد في بيت لحم نجمة مزخرفة بالنقوش الفضية، كانت معلقة فوق مسقط رأس المخلص، فاتهم الأرثوذكس بنزعها. ولكن السلطات التي كلفت بالتحقيق لم تقطع برأي جازم في هذا الحادث. وفي سنة ١٨٤٩، وعندما تسرب النفوذ الأكليركي كرة أخرى إلى الحكومة الافرنسية، اتخذت هذه الحكومة من ذلك الحادث ذريعة لمقاومة النفوذ الروسي في الشرق. وهكذا، أمرت سفيرها في استانبول بأن يطالب، استناداً إلى إمتياز ممنوح منذ سنة ١٧٤٠، بتوسيع حقوق اللاتين التقليدية توسيعاً كبيراً. ولكن الروسيا تهددت الباب العالي بقطع العلاقات الديبلوماسية إذا ما أدخل أي تعديل على الوضع الراهن في الأماكن المقدسة. وبعد مفاوضات واجتماعات لجان تطاولت نحواً من سنتين، قرر السلطان إبقاء القديم على قدمه في القدس. على أن يعطي اللاتين المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية للكنيسة العذراء، وبالسراديب القائمة تحت كنيسة المهد، في بيت لحم. ورغم كل شيء، فقد ظل مفتاح المدخل الرئيسي الى كنيسة المهد من جهة الغرب في غير حوزة اللاتين، ومع ذلك، فقد اضطر السفير الافرنسي

إلى أن يعلن ارتياحه لهذا الإمتياز السخيف، وهو الذي أقام الدنيا وأقعدها قبل ذلك، منذراً بالويل والثبور وعظائم الأمور، لأن كرامة امبراطوره قد امتهنت. ولكن الروسيا وطنت العزم على استغلال هذه الفرصة للقضاء على نفوذ عدوتها السياسي في الشرق. فاحتالت لحمل الباب العالي على أن يوعز لمتصرف القدس بأن يوضح للاتين في القدس لدن تسليمهم المفاتيح، أن هذا الاجراء لا يفيد أن لهم الحق في الدخول من الأبواب. ليس هذا فحسب، بل لقد أصدر السلطان أمره أيضاً بتدوين جميع حقوق الأرثوذكس في الأماكن المقدسة، في سجلات محاكم المدينة، واعتبار كل مطلب آخر من مطالب اللاتين باطلاً. حتى إذا مرت فرنسا بهذا التحدي أيضاً مراً هادئاً، طالب القنصل الروسي العام في فلسطين بأن يتلى فرمان الباب العالي الجديد، في القدس، علانية. ولقد احتج السفير الافرنسي على هذا، وتهدد الدولة بالقاء الحصار على الدردنيل إذا ما نزلت بعد اليوم عند إرادة الروسيا. حتى إذا تجاهلت الدولة هذا الإنذار، وأذعنت لمطالب الروسيا، لم تجرؤ فرنسا هذه المرة أيضاً، على أن تصنع شيئاً.

لم تقنع روسيا بما احرزته من نصر، فتمادت في طلباتها، وأرسلت سفيراً فوق العادة إلى استانبول، طالب الباب العالي بتسوية مسألة الأماكن المقدسة عن طريق معاهدة خاصة مع الروسيا، وبأن يعترف بالبطريرك الأرثوذكسي رئيساً روحياً مستقلاً. ورفض الباب العالي هذه المطالب التعسفية الجائرة، فغادر السفير «منشيكوف» استانبول. وفي ٢٦ حزيران- يونيو- ١٨٥٢، وجه القيصر نيقولا الأول، رسالة إلى شعبه أعلن فيها: «أن الروسيا تضطلع منذ القدم بواجب الدفاع عن الأرثوذكسية. وإن هذا الواجب قد الزمه، بعد أن

تدخل الباب العالي في حقوق الكنائس الشرقية، بان يبعث بجيوشه الى امارات الدانوب، لا لكي تشهر حرباً، ولكن لكي تحصل على ضمانة لإعادة هذه الحقوق السليبة» وبعد أسبوع عبرت الجيوش الروسية نهر البروت. وبدأت «حرب القرم» التي وقفت فيها انكلترا وفرنسا إلى جانب تركيا، واستمرت الحرب حتى ٢٨ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٥٥.

كانت نتائج حرب القرم كثيرة، لعل من أبرزها افادة الدول الغربية من هذه الفرصة ايضاً للمزيد من التدخل في شؤون الدولة الإسلامية. ففرضت على السلطان إصدار (منشور إصلاحي) عرف باسم (خط همايون) وذلك في شهر شباط (فبراير) ١٨٥٦ وأكد السلطان فيه الحقوق التي سبق له أن منحها لرعايا الدولة في الخط الشريف المعروف باسم «كلخانة». وبموجب هذه الوثيقة، لم تبق المسائل المدنية الخاصة بالرعايا النصارى منوطة برجال الدين دون غيرهم، شأنها من قبل، بل عهد في إدارتها إلى مجلس مختلط من المدنيين والأكليركيين ينتخبه الشعب بنفسه. **وازيلت نعوت (التحقير) التي كانت تتردد حتى ذلك الحين على لسان الخطباء في يوم الجمعة ضد النصارى والكفار. ليس هذا فحسب، بل لم يعد بالامكان إكراه المسلمين الذين يعتنقون النصرانية على الارتداد، كما كان عليه الموقف من قبل. وفتحت أبواب الإنتساب إلى معاهد التعليم الرسمية (الخاضعة لتوجيه المبشرين). وبالتالي الى وظائف الدولة المدنية، في وجه النصارى، وفرضت عليهم الخدمة العسكرية أيضاً. وكانت من قبل امتيازاً خاصاً بالمسلمين باعتبار الجهاد في سبيل الله فرضاً من فروض الإسلام، ولكن النصارى منحوا حرية دفع البدل العسكري. ووعدوا بأن يمثلوا تمثيلاً أكثر فاعلية من قبل في**

مجالس الولايات والمجالس المحلية. وسمح للأجانب بامتلاك الأراضي على شروط معينة. وأخيراً وضع السلطان نظاماً للضرائب، وميزانية سنوية، مع اتخاذ التدابير لقطع دابر الرشوة.

لم تتقبل الرعية إعلان «خط همايون» بمثل الحماسة التي تقبلت بها الخط الشريف الكلخاني في الماضي. اذ وجد المسلمون فيه انتهاكاً صارخاً لحقوق المسلمين في ديارهم وأوطانهم. وأما النصارى فلم يتوقعوا الحصول على فوائد عملية من القوانين الجديدة. وزادت الشكوك بقيمة هذا المنشور وفائدته عند المسلمين والنصارى على السواء. لأن فرض مضمونه من قبل الدول الأوروبية لم يكن خافياً على أحد.

عقد بعد ذلك مؤتمر باريس في آذار- مارس- ١٨٥٦ لتسوية المشكلات الناجمة عن حرب القرم. وظهر أن الشرق سيعيش فترة من الهدوء والاستقرار. غير أنه لم تمض أكثر من أربع سنوات حتى وجدت الدول الأوروبية فرصة جديدة للتدخل في شؤون الامبراطورية العثمانية- الداخلية- وذلك بأن نظام الحكم الثنائي الذي أنشىء في لبنان، ساعد على قيام حالة من الصراع المستمر بين الدروز والموارنة. وانفجرت نار الحرب الأهلية كرة أخرى في نوار- مايو- ١٨٦٠. وطغت على البلاد موجة من التقتيل والنهب دامت حتى شهر تموز- يوليو- وانتقلت الحرب الأهلية في لبنان من الجبل إلى السهل حتى وصلت دمشق. وانبرى الأمير عبد القادر الجزائري لبسط حمايته على النصارى، يساعده في ذلك إخوانه من المهاجرين الجزائريين. وترددت أصداء هذه الحرب في فرنسا بصورة خاصة. ووجه الباب العالي حاكماً مزوداً بسلطات واسعة «اسمه فؤاد باشا». كما أرسلت

فرنسا حملة إلى سوريا تضم ستة الاف جندي . وأصدر القضاء أحكاماً قاسية جداً على زعماء الثورة في لبنان ودمشق . ومهما يكن من شيء، فقد وجد الدروز تأييداً عند الإنكليز الذين كانوا في حاجة اليهم كقوة يلقونها في الكفة الأخرى من ميزان التنافس الدولي في لبنان، بعد أن شملت فرنسا النصارى بحمايتها . والواقع، فإن الاحتجاج البريطاني حال دون مواصلة حملة الإعدام التي كانت قد شنت على زعماء الدروز. وأبعد (٢٤٩١) درزياً إلى طرابلس، ولكنهم ما لبثوا أن منحوا بعد خمس سنوات حرية العودة إلى بلادهم.

وجدت فرنسا في الحرب الأهلية في سوريا (طوشة النصارى ١٨٦٠) فرصة لتحقيق هدف مزدوج أولها: إحياء فكرة القومية العربية بالترويج لإقامة دولة عربية في بلاد الشام بعد أن فشل محمد علي باشا في تحقيقها . وثانيهما: دعم وجودها بالجزائر عن طريق دعم الأمير عبد القادر الجزائري وعن طريق تطوير نفوذها في المشرق الإسلامي.

وهكذا ، وعلى أثر طوشة النصارى، وطوال الفترة ما بين سنة ١٨٦٠- ١٨٦٥، اجتاحت فرنسا حملة سياسية صورتها المقولات التالية : **(عبد القادر ملك مملكة عربية في المشرق) و (عبد القادر حاكم سوريا ونائباً عن الملك)**. ولقد كانت مثل هذه المقولات مرتبطة في أذهان رجال الصحافة والاعلام من الإفرنسيين بمبدأ (**إقامة امبراطورية عربية**) أو التأكيد على فكرة (**الحقوق الوطنية العربية**). التي أخذت بالترويج لها- خاصة- صحيفة «بيرغس باريس»[1] غير ان

---

(١) POLITIQUES COLONIALES AU MAGHREB CHARLES-ROBERT.
P.P 93 - 108 وفيها: ص ٩٣- . . . . إن مجلة بيرغس

هذه الصحيفة وما تحمله من أفكار لم تلق استجابة مناسبة في بلاد الشام، وهذا ما تؤكده رسالة الأمير عبد القادر للصحيفة المذكورة، والتي تم نشرها في عدد ١٠ حزيران (يونيو) وفيها: «لقد قدمتم نصائحكم الغالية، وعليكم سماع الرد:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

والتقطت صحيفة «لوكورييه دوهافر» هذه النقطة لتنطلق منها في حملتها الاعلامية لمصلحة الأمير عبد القادر. وذلك بعد أن عملت على نشر رده السابق في عددها الصادر يوم ١٣ تموز- يوليو- ١٨٦٠. وهنا يمكن التساؤل عما إذا كانت فكرة القومية العربية والدولة العربية التي ظهرت في هذه الفترة إنما هي نكوص للفكرة النابوليونية- البونابرتية- والتي وجدت لها طريقاً في سياسة نابليون الثالث؟ كان نابليون بونابرت هو أول رئيس دولة في العالم الغربي فكر بامكانية بعث

= باريس أو نسر باريس (BIRGYS- PARIS (L'AIGLEDE DE PARIS: كانت مجلة تصدر باللغة العربية، ترأس تحريرها رشيد الدحداح، وكان يتم تقديمها على أنها صحيفة عربية وطنية، ولكنها كانت جريدة رسمية. وهو ما تؤكده قراءة هذه الصحيفة نصف الإسبوعية التي بلغ عدد نشراتها (١٧٩) عدداً ما بين حزيران- يونيو- ١٨٥٩ وحتى ١٨٦٦. حيث يظهر بوضوح أنها لم تكن أبداً صحيفة وطنية أو عربية- الا في لغتها- وإنما كانت صوتاً تابعاً لجهاز الدعاية الكاثوليكية الموجهة إلى السوريين قبل كل شيء، ويديرها القس ف. بورغاد F. BOURGADE مدير معهد سان لويس، في تونس، وقد أسس إتحاد سان لويس بهدف (نشر الحضارة المسيحية بين المسلمين) عن طريق المؤلفات المكتوبة أو الترجمات المنتقاة والمنقولة إلى اللغة العربية. وضمت جمعية سان لويس في عضويتها عدداً كبيراً من القسس والشخصيات البارزة في الإمبراطورية الإفرنسية سنة ١٨٦٠. وكانت صحيفة (برغس باريس) تترجم إلى اللغة العربية ما هو ملائم وما يجب تقديمه للعرب والشرقيين (من أفكار فرنسية عالية) وقد طالبت الصحيفة السوريين (باتباع سياسة حضارية معتدلة إذا ما استمرت الأمور الراهنة على ما هي عليه. ذلك لأن الحكومة العثمانية تسير نحو الدمار، وستدمر معها سوريا، غير أن هذه ستعود بعدئذ إلى طريق الرفاهية- عدد ٢٥ نيسان- إبريل- ١٨٦٠).

إمبراطورية عربية ودولة يهودية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية. ولعل نابليون الثالث اعتقد أن من واجبه، ومن مصلحة فرنسا أيضاً، المساعدة على بعث الإمبراطورية العربية. وإذا كان نابليون بونابرت قد عجز عن التعاون مع شخصية إسلامية مناسبة، للقيام باعباء هذه الدولة تحت هيمنته. فان باستطاعـة نابليون الثالث (على ما يعتقد في نفسه) الاعتماد على عبد القادر حتى يصبح بطل هذه القضية. ولا بد من القول قبل كل شيء بان تدخل الحكومة الافرنسية في سوريا سنة ١٨٦٠ (أثناء طوشة النصارى) قد اشتمل على مخطط (لإقامة مملكة عربية تحت حكم عبد القادر) أو (تعيينه قائداً لها ببساطة). وقد وضع نابليون الثالث باعتباره ما قام به الأمير عبد القادر أثناء الحرب الأهلية سنة (١٨٦٠). ولقد ظهرت تناقضات كثيرة في تفسير علاقات الأمير عبد القادر بفرنسا، وزاد الأمر غموضاً واضطراباً بسبب الترجمة الافرنسية السيئة والمتعمدة لأعمال الأمير وأقواله ونواياه. المهم في الأمر؛ هو أن مذابح سنة (١٨٦٠) في سوريا ولبنان قد أسقطت (٢١,٩٠٠) قتيلاً وفقاً لما تذكره المصادر الكاثوليكية، أو (١١,٥٠٠) قتيلاً بحسب ما تذكره المصادر العثمانية. وقد برز من خلال هذه المذابح اسم الأمير عبد القادر الذي استطاع إنقاذ (٥- ١٠) آلاف مسيحي في دمشق. وكان تدخله الشجاع سبباً في حقن دماء الآلاف من المسيحيين ولم يزد عدد الجزائريين العاملين تحت قيادة الأمير عبد القادر على (٨٠٠) رجل مسلح، بعضهم من الفرسان. واستطاع هؤلاء بسط حمايتهم على ثمانية آلاف مسيحي، أرسل إلى بيروت منهم كل من رفض البقاء في مدينة دمشق. ومعروف أن وزير الحربية الافرنسية آنذاك، سمح بتجنيد الجزائريين وإرسالهم كقوة جديدة

واجبها دعم الأمير في سوريا. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أمنت السلطات المحلية (العثمانية) للمهاجرين الجزائريين كل التسهيلات الممكنة للوصول إلى سوريا. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قدم القنصل الافرنسي في دمشق إلى الأمير عبد القادر ما يكفيه من الأموال والبواريد لتسليح ألف جزائري. **وعلى كل حال ، فإن الأمير عبد القادر لم يكن يرمي إلى خدمة فرنسا أو خيانة المسلمين، وهو ما تؤكده رسالته التي كتبها في ١٥ آب ـ أغسطس ـ ١٨٦٠ وفيها : «إن ما قمنا به تجاه المسيحيين هو أمر يفرضه الدين وتفرضه الإنسانية» وكذلك قوله للمسلمين الثائرين في دمشق: «حذركم مما تفعلون. إنكم تلطخون شرف الاسلام وستضيعون أنفسكم ومدينتكم معكم، إذ أن أوروبا لن تقف غير مبالية تجاه ما يرتكب هنا من الجرائم ضد المسيحيين. فكروا قليلاً ، ولا تسمحوا للفرصة حتى يأتي قسيس ليقيم في مسجدنا الكبير الذي كان كنيسة من قبل»**[1].

غير أن فرنسا لم تكن تنظر لأعمال الأمير عبد القادر وأقواله ، الا من خلال أهدافها وسياساتها الخاصة. وهكذا أخذت الصحافة الافرنسية في قرع الأجراس منذ يوم ٩ تموز ـ يوليو ـ ١٨٦٠ مطالبة بالتدخل العسكري في سوريا. وفي يوم ١٧ تموز ـ كتبت الصحافة الافرنسية: «بأن التدخل الافرنسي في سوريا إنما يعتمد على الأمير عبد القادر» وفي صحيفة: «لوكورييه دو هافر»[2] عدد يوم ١٣ تموز ـ يوليو ـ ١٨٦٠ جاء ما يلي: «تقضي الظروف الراهنة، ويتطلب تحقيق العدالة (؟) العمل بسرعة لتسمية الأمير عبد القادر نائباً لملك فرنسا ـ

(١) السياسات الاستعمارية في المغرب ـ شارل روبرت ـ ص ٩٥ و ٩٦

(٢) LE COURRIER DE HAVRE

في سوريا» وتحت عنوان «صرخة الدم» في العدد ذاته جاء ما يلي: «سلموا الأمير عبد القادر قضية تهدئة سوريا بصورة فورية، وسينفذ ذلك بصورة ناجحة، وبأقل حد ممكن من العنف. إنه رجل مؤمن وعالم ومحارب، وإذن، فهو الرجل الذي يمكن للمسلمين الخضوع له. والذي يستطيع أن يفرض عليهم متطلبات العصر والحضارة».

تلقت الصحافة الباريسية هذا الموضوع، وأخذت في الترويج له، فطالب بعضها «باقامة حكومة قوية ومتحضرة للعمل مع الأمير عبد القادر» في حين طالب بعضها الآخر: «بتنصيب الأمير عبد القادر نائباً لملك فرنسا على أن يبقى تابعاً للسلطان». وكتبت صحيفة «بيرغس باريس» في عددها الصادر في نهاية شهر تموز- يوليو- ما يلي: «ليس هناك من هو أجدر من الأمير عبد القادر برئاسة حكومة دمشق، إذ أنه يمتلك جميع الفضائل المناسبة للسلطة. إنه شجاع وحازم وعالم وسياسي وذكي وليس هناك من هو أفضل منه لتحقيق السلام في سوريا». ولقد عكست الصحافة الجزائرية أصداء هذه الدعاية الافرنسية، فكان مما كتبته: «إن إقامة امبراطورية جديدة في المشرق يكون الأمير رئيساً لها هو الحل للمسألة الشرقية التي تسببت في حدوث صراعات كثيرة، أهرقت فيها دماء غزيرة». وأخذت فكرة الدعاية: «لاقامة امبراطورية عربية بقيادة الأمير عبد القادر» تنتشر في كل مكان. وظهر مشروع فرنسي أعلنته صحيفة فرنسية يقضي: «بقيام فرنسا ببذل الجهد لاقامة امبراطورية عربية تضم من ١٠- ١٢ مليون عربي، على أن تكون هذه الامبراطورية معزولة عن مصر، وتحت قيادة الأمير عبد القادر، ويكون من واجبها ضمان الحقوق المدنية والسياسية لكل أفراد الشعب، للمسلمين كما لغيرهم، وفقاً للنموذج الافرنسي الذي وضعه نابليون بونابرت، ويكون لهذه الامبراطورية عاصمتان،

إحداهما سياسية في بغداد والأخرى دينية في مكة».

على هذا الأساس ، وانطلاقاً من هذه الفكرة، توجهت الحملة الإفرنسيةالى لبنان بقيادة الجنرال «بوفورت دوتبول»[1] بعد أن قابل قائد الحملة الامبراطور نابليون الثالث وتلقى تعليماته يوم ٢ أب- أغسطس- ١٨٦٠ . ولم تعرف هذه التعليمات ، غير أن الأمر المعروف هو أن الحملة وصلت إلى بيروت يوم ٢٠ آب- أغسطس- . ولما كان من الصعب على قائدها التوجه إلى دمشق لمقابلة الأمير عبد القادر. فقد أوفد اليه المقدم «شانزي »[2] يحمل رسالة إلى الأمير «يؤكد فيها رغبته بتوثيق عرى الصداقة معه».

ترى هل كان لدى فرنسا فكرة واضحة عن «الامبراطورية العربية التي تزعم انها تريد إقامتها؟ » هذا ما تبرزه رسالة وزير الحربية الافرنسية الى «الجنرال بوفورت» يوم ٢٢ أيلول- سبتمبر- والتي جاء فيها: **«هل تعتقد إنه باستطاعة الأمير عبد القادر تشكيل حكومة في سوريا؟ وهل تعتقد أن مراكز القوى الممثلة في بيروت تريد- او توافق على مثل هذا التعيين؟ . إنني لا أبحث عن وسيلة لتحقيق تطلعاتنا في المستقبل، وهي التطلعات المرتبطة بامتلاكنا لأفريقيا. إنني لا أريد إلا وسيلة تضمن في الوقت الراهن الوصول إلى تسوية سلمية ودائمة في سوريا. ويخيل الي انطلاقاً من هذه الفكرة أن عبد القادر هو أفضل من يمكن اعتماده بسبب الشهرة التي اكتسبها في الجزائر، وبسبب دوره الشجاع في الظروف الأخيرة»**[3] ويتابع الجنرال «بوفورت»

---

(١) بوفورت دوتبول : (BEAUFORT D'HAUTPOUL)

(٢) المقدم شانزي : (LT.COL.CHANZY)

(٣) السياسات الاستعمارية في المغرب- شارل روبرت - ص ١٠١ .

تقزيمه للموقف فيقول : «إنني لا أعتقد بأن الدول الكبرى توافق على إقامة حكومة برئاسة الأمير عبد القادر تشمل سلطتها سوريا كلها. كما أن الحكومة التركية لا توافق على ذلك أبداً. وقد يكون بالمستطاع تعيينه حاكمًا على «دمشق» وأن تمتد سلطته لتشمل عكا والجليل. غير أنه ما من وسيلة لإقناع أوروبا المسيحية بتسليم القدس لحكومة مستقلة. ويمكن للدولة العربية برئاسة عبد القادر أن تبسط نفوذها بعد ذلك على مدينة حلب وجزءٍ من شمال سوريا، لتشكل نواة الامبراطورية العربية التي تمتد بصورة تدريجية حتى بغداد والبصرة» أما بالنسبة للبنان: «فإنه يجب إقامة لبنان الكبير والمستقل، والذي تحكمه حكومة مسيحية برئاسة الأمير مجيد شهاب» ويذكر هنا أن أرملة بشير عمر شهاب كانت قد قدمت إلى الحكومة الافرنسية قصرها وكذلك قصر «بيت الدين». وكتب بوفورت رسالة في ٦ تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٦٠ جاء فيها: «يجب الا ننسى أن الأمير عبد القادر هو إنسان مسلم قبل كل شيء». ولقد أرادت فرنسا على ما هو واضح إستخدام الأمير عبد القادر كعميل لها، غير أن الأمير قاوم المحاولات الافرنسية باستمرار. وهكذا فعندما استشير في أمر حضور قوة فرنسية إلى دمشق لإجراء عرض فيها، كان رد الأمير: «إن حضور قوات فرنسية إلى دمشق هو أمر خطير جداً، لأنه يستثير مشاعر المسلمين». غير أن فرنسا قد نجحت في الواقع - جزئياً- بتحطيم هالة البطولة والشرف التي أحاطت به، ففي الجزائر، أخذ الجزائريون من رجال القبائل يرددون: «إذا كان باستطاعة الأمير حماية المسيحيين في الشام، فلماذا لا يعمل على حماية المسلمين في الجزائر». أما في دمشق، فقد قال المسلمون للأمير عبد القادر: «هل تريد تسليم بلدنا إلى الافرنسيين

كما سلمت لهم بلادك الجزائر؟»[1] ولكن مقابل ذلك، فإن تعاظم قدرة الأمير حملت إلى القبائل الجزائرية، أو بعضها، الأمل في عودة عبد القادر للعمل مع إخوانه في قيادة الصراع ضد الافرنسيين. وهنا يظهر سؤال وهو: إذا كانت فرنسا تريد إقامة امبراطورية عربية، فلماذا لا تنفذ ذلك في الجزائر التي أصبحت تحت حكمها؟

لقد طرحت هذه الفكرة في الواقع، عندما قام الأمير عبد القادر بزيارة لفرنسا سنة ١٨٦٥. وظهر بوضوح عندها أن كل ما طرحته حكومة نابليون الثالث في هذا المجال، إنما كان: «للإفادة من الأمير عبد القادر لدعم قضية فرنسا» وإن هدف الامبراطور هو: «إقامة حكم عربي على أنقاض الحكم التركي- المسلم» أو «قيادة ثورة ضد تركيا». وقد اصطدمت كل هذه المخططات برفض الأمير عبد القادر الذي حدد بنفسه ما يريده وذلك بقوله: «لقد حاربت فرنسا طوال خمسة عشر عاماً، لأنني كنت أؤمن بانها إرادة الله لضمان إستقلال وطني وحماية ديني. وعندما وجدت أن قواتي قد استنزفت، وإن القبائل الجزائرية قد امتنعت عن دعمي وتأييدي، وأن المغرب تريد تسليمي لفرنسا، عرفت أن دوري قد انتهى. وانها إرادة الله هي التي تفرض علي إلقاء السلاح. وقد فعلت ذلك راضياً ومصمماً على التفرغ للعبادة وإقامة الصلاة والاستمرار في دراساتي الدينية طوال ما تبقى لي من أيام على هذه الأرض».

---

(١) المرجع السابق- ص ٩٦ و ١٠٣ و ١٠٧

٤ـ البدايات الأولى للصهيونية

وقف نابليون بونابرت أمام أسوار عكا، وقد عجز عن اقتحامها، فحاول الاستعانة بيهود يافا وحيفا والقدس لمساعدته من أجل فتح المدينة الصامدة، ووجه يوم ٤ نيسان ـ إبريل ـ **١٧٩٩** بياناً جاء فيه: « . . يا ورثة فلسطين الشرعيين، يا أبناء الأمة العظيمة، هذا بيان أوجهه اليكم لاستعادة ما استلب منكم، اسرعوا، فقد أزفت اللحظة المناسبة حتى تستعيدوا حقوقكم المدنية، وحتى تنتقموا لأنفسكم، وتحققوا وجودكم السياسي كأمة، وإلى الأبد دونما ريب»[١] لقد كانت صرخة نابليون للاستغاثة باليهود واستخدامهم في الحملة الصليبية الجديدة، هي باكورة التطورات اللاحقة والتي تطورت بسرعة في إنكلترا، حيث ظهر كتاب يحمل عنوان «بعث اليهود ـ أزمة كل الأمم ـ لمؤلفه جيمس بيشنو»[٢] وذلك في سنة ١٨٠٠ . وتضمن الكتاب نداءاً لبعث اليهود اعتماداً على نبوءات التوراة، ويقدم الحل للازمات التي كانت تأخذ بخناق البلاد المسيحية

(1) CITATION TIRE DE (A « QUI LA PALESTINE?) DE . J.P. MIGEON ET . J. JOLLY EDIT: J. LANZAMANN, PARIS.1970

(2) THE RESTORATION OF THE JEWS, THE CRISIS OF ALL NATIONS BY JAMES BICHENO.

والامبراطورية العثمانية. وحتى يتم لفت انظار الرأي العام البريطاني لمضمون هذا الكتاب، قام رجل اسمه «ويزربي» بوضع كتاب حمل عنوان «برسم اليهود ـ ملاحظات حول كتاب بيشنو»[١] وقد تضمن الكتاب رفضاً لكل تغيير، أو تمرداً على الكنيسة الرومانية. واعترض «ويزربي على رؤى بيشنو» غير أن هذا لم يستسلم، واستمر النقاش بينهما، فأمكن بذلك توسيع نطاق الجدل الذي اشتركت فيه دول وحكومات بات تزاحمها على الشرق واضحاً جداً. وكان «بيشنو» قد عبر في كتابه الأول عن أمله في أن تكون فرنسا هي الأداة التي سخرتها «العناية الإلهية» لتحقيق هذه العودة إلى فلسطين، وفي رده على «ويزربي» الذي صدر سنة ١٨٠٤ـ في كتاب ـ حمل عنوان «محاولة لإزالة الإجحاف اللاحق بالأمة اليهودية»[٢] سعى «بيشنو» إلى احلال الحوار مكان الخصام. وكان قد تغير محط آماله السياسية. فلم يعد يبدو أن فرنسا نابليون ستوفر شروط تحقيق هذا العمل. كما ظهر أن رجوع كل اليهود إلى فلسطين غير ممكن. مما جعل القضية الآن قضية عودة جزئية فقط، وذلك بفضل «تقوى» الدول البروتستانتية هذه المرة، خاصة وإن مبادرة نابليون لجمع المجلس الأعلى لليهود القدماء، بغية تحويلهم الى أداة لسياسته كانت قد انتهت إلى الفشل.

كانت هذه الأفكار التي تدور حول رجوع «الأمة اليهودية» إلى فلسطين، والتي بثت بين الجمهور الانكليزي قد أخذت تشق طريقها وتستأثر بالاهتمام. ولم تكن الأوساط البريطانية الحاكمة وأجهزة

---

(1) DEDICATED TO THE JEWS OBSERVATION ON MR. BICHENO'S BOOK»

(2) ANATTEMP TO REMOVE PREJUDICES CONCERNING . THE Jewish NATION

استخباراتها بعيدة عن تحريض هذا الموضوع وإثارته. وعلى كل حال، فقد يكون من غير المهم متابعة الحوار التمهيدي الذي كان يدور في أوساط الغرب، المهم في الأمر هو الانتقال لمسرح العمليات في فلسطين، حيث ظهرت البواكير الأولى لتنفيذ المشروع الصهيوني وذلك عندما قام المبشر الانكليكاني «نيكولايسون» بشراء قطعة أرض في جبل صهيون لبناء هيكل عبادة إنكليكاني، (في ٢٣ كانون الثاني- يناير- ١٨٣٨) وتبع ذلك تعيين قنصل إنكليزي في القدس (١٩ أيلول - سبتمبر- ١٨٣٨) وقد اصطدمت إقامة هاتين القاعدتين من قواعد النفوذ السياسي- الديني لبريطانيا في القدس، بعقبات كثيرة لكنها تمكنت من التغلب عليها وتجاوزها. ومن المعروف أن «نيكولايسون» ظل طوال أكثر من عشر سنوات وهو يمارس نشاطه في المدينة المقدسة بين اليهود، تحت إشراف «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود»(١).

لقد حددت أهداف إقامة الدولة اليهودية في فلسطين منذ البداية وفقاً لما تؤكده الكتابات التي طرحت في تلك الفترة من بداية القرن التاسع عشر، ومنها على سبيل المثال المقولة التالية: «عندما تصبح فلسطين المكان المميز والطبيعي لتجمع اليهود الجدد، وكمستعمرة للاقتصاد الانكليزي الذي كان يسير في طريق التوسع» وعلى هذا الاساس أقيمت الكنيسة الانكليكانية بهدف تحسين أوضاع اليهود اجتماعياً ودينياً، حتى تقام كل يوم الطقوس الدينية باللغة العبرية تشجيعاً لهذا العمل... وأخذ العمل يسير على قدم وساق، حيث تشكلت طائفة صغيرة ولكنها متدينة جداً، من اليهود-

---

(١) LONDON JEWISH SOCIETY . L.J.S.

المسيحيين المهتدين، وأخذت تستمع يومياً في هذه المدينة المقدسة إلى الحقائق الإنجيلية بلغة الأنبياء وبروح الرسل. وهكذا كان إنشاء الكنيسة اليهودية ـ المسيحية الجديدة، هو: «أحد الأحداث الأكثر إثارة للاهتمام في التاريخ المعاصر، فإلى جانب الأرثوذكس والكاثوليك والأرمن والأتراك ، جاء إبراهيم باشا وأعطى اليهود نفس الامتيازات . وبذلك كانت مذاهب الإصلاح الانكليكانية الوحيدة التي لم تكن ممثلة حتى ذلك الحين بين كل هذه المذاهب الفاسدة» وأخذت وزارة الخارجية البريطانية في إظهار اهتمامها المتعاظم والشديد بمصير يهود فلسطين: «إذ أنه من حق الشعب اليهودي في أن يكون له مكان في الامبراطورية العثمانية الشاسعة. وانه ليس هناك شعب في العالم حتى الآن قد اسيء فهمه، وتجوهلت حقيقته كهذا الشعب. وبدأت مرحلة جديدة في العمل، ففي يوم ٣١ كانون الثاني- يناير- ١٨٤٠، أعطى المسؤول عن الخدمات القنصلية، تعليمات محددة الى نائب القنصل الانكليزي الجديد في «القدس» بناء على تعليمات بالمرستون: بأن يعتبر حماية اليهود واجباً من واجبات الدولة البريطانية. وكان عليه، بالإضافة إلى ذلك، أن يزود وزارة الخارجية البريطانية بأسرع وقت ممكن بمعلومات دقيقة عن حالة السكان اليهود في فلسطين[١] وبدأت تقارير نائب القنصل البريطاني، تصل بشكل منتظم إلى وزارة الخارجية البريطانية، وهي تضم كافة المعلومات المتعلقة بأوضاع اليهود والبروتستانت التجارية منها

(١) أوروبا ومصير الشرق العربي- حجار- ص ٢٣٠- ٢٣١ . ومن الملاحظ اعتماد السياسة البريطانية اصطلاح «الشعب اليهودي» الذي لم يكن له وجود، إلا على شكل أقليات ممزقة في العالم كله.

والسياسية، وعلى كل حال، فلم يكن القنصل هو الوسيلة الوحيدة التي اعتمدتها الخارجية البريطانية للحصول على ما تريده من معلومات، ففي تلك الفترة، كان هنالك انكليز آخرون يجوبون فلسطين أيضاً، وهم يقومون بتنفيذ مهمة مماثلة كلفوا بها من قبل الجمعية العمومية لكنيسة اسكوتلندا. وكان هؤلاء يجتمعون بعضهم ببعض لتبادل المعلومات وتنسيق الأعمال وكتابة التقارير بصورة مشتركة. وكانت هيئة (الجمعية العمومية للكنيسة الاسكوتلندية) تعمل في فلسطين بالتعاون الوثيق مع (الجمعية اليهودية اللندنية) التي كان أفرادها يعملون كأدلاء، وكان من الواضح على هؤلاء سعادتهم بما كانوا يضطلعون به في عملهم التبشيري في كتاب بعنوان: «تقرير بعثة الكنيسة الاسكتلندية الاستقصائية حول أوضاع اليهود في العام ١٨٣٩» ولاقى الكتاب نجاحاً كبيراً، وأعيد طبعه ثلاث مرات في نفس السنة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الدعوات توجه من كل الجهات الى المؤلفين للتحدث عن رحلتهم المثيرة وعن الاهتمام الذي كانوا يظهرونه تحبيذ للبعثة اليهودية في فلسطين، ولاستعمار هذه البلاد من قبل «الشعب المختار». ويظهر أن كل ذلك لم يكن كافياً لإثارة الانفعال على المستوى العالمي لجذب الانتباه نحو مشروع «الشعب اليهودي» . فتم اللجوء إلى الوسيلة التقليدية التي اتقنت السياسة الاستعمارية البريطانية- خاصة- استخدامها، وهي « الاضطهاد والاغتيال السياسي». وحدث في مطلع شباط (فبراير) ١٨٤٠، أن اغتيل رئيس دير الفرنسيسكان الإسبانيين في دمشق على يد يهود، قيل أنهم استعملوا دمه في إقامة طقوس سرية لها علاقة بعيد الفصح. وكان هذا الكاهن من التابعية النمساوية . واستخدمت هذه الحادثة بمهارة عالية، لتحريك الرأي العام الليبيرالي في أوروبا، في

وقت كانت الأزمة الشرقية قد بلغت ذروتها. وقد تدخل مترنيخ شخصياً في هذه القضية. واغتنمت الديبلوماسية الافرنسية هذه الفرصة لتؤكد حقها في حماية المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية. وتشكلت محكمة ترأس القسم الأكبر من جلساتها قنصل فرنسا «راتي منتون»[١] والقي بالعشرات من يهود دمشق في السجن وتعرضوا للتعذيب. وأفادت الأوساط اليهودية في أوروبا لتصعيد حملتها المؤيدة لعودة اليهود إلى فلسطين، ووضعهم تحت حماية بريطانيا. وتزعمت (الجمعية اليهودية اللندنية) التظاهرة السياسية. وتحدت كل الذين كانوا يؤكدون بأنّ اليهود كانوا يقتلون المسيحيين ليستعملوا دمهم من أجل غايات دينية. وتضمن الاحتجاج الذي أصدرته هذه الجمعية: «إن هذه التهمة، التي كثيراً ما تأكدت في الماضي، ليست أكثر من كذبة غير معقولة. وقد أيد اليهود ـ المسيحيون (أو المهتدون الجدد) الانكليز هذا الاحتجاج العلني الذي كان يحمل (٥٧) توقيعاً. وقد صاحبت هذه المبادرة حملة دعائية واسعة. فنظمت في لندن مظاهرات جماهيرية توجت بمذكرة وجهت إلى ملوك ورؤساء دول إنكلترا وإيرلندا وبروسيا وهولندا والسويد والنروج والدانمرك وهانوفر وفورتمبرغ والمقاطعات السويسرية والولايات المتحدة الأمريكية. كما وجهت أيضاً إلى كبار ممثلي البروتستانتية العالمية الزمنيين. وقد حدث ذلك قبل ثلاثة أشهر من التوقيع على الحلف الرباعي. وانطلقت الصحافة البريطانية، والتي كان يوجهها «بالمرستون» لتطرح المقولات المختلفة المتعلقة بإقامة «الدولة اليهودية» و «إعادة اليهود إلى فلسطين». ومما قيل بهذا الشأن: «ان الحكومات البروتستانتية

---

(١) راتي منتون (RATTI - MENTON)

بتشجيعها لعودة اليهود وإقامتهم في فلسطين، تكون قد قامت بأحد التزاماتها الدولية وأسهمت بعودة السلام إلى الشرق» و «إن إنشاء أو بالأحرى إحياء، مثل هذه المملكة هو ضرورة من ضرورات السياسة الشرقية، وتخدم مصلحة المملكة المتحدة- بريطانيا» و «لقد مهد اتفاق لندن في ١٤ تموز- يوليو- ١٨٦٠ الطريق أمام هذا الأمل- أمل إعادة إقامة الدولة اليهودية- ويتطابق ذلك مع كلام الكتاب المقدس: لقد مهدت الطريق أمام ملوك الشرق. . . اليهود» و «لقد تحمل اليهود في دمشق العقوبات التي نزلت بهم اثر اغتيال الأب الفرنسيسكاني توماس، غير ان العزاء في ذلك هو أن هذه القضية المحلية قد ساعدت على دفع الحركة الكبرى ليهود أوروبا من أجل الهجرة إلى فلسطين قدماً إلى الأمام. وفي هذا المنظور كان دور محمد علي كحاكم عادل يفيد كثيراً هذا الشعب. أما العزاء الثاني فهو قيام بالمرستون بإرسال تعليماته للعمل لدى الباب العالي من أجل حماية اليهود وتشجيعهم». وقد استمرت البحوث والدراسات التي تسير في هذا الاتجاه، ومنها المذكرة التي تبناها «بالمرستون» وجاء فيها: «إن إقامة دولة يهودية في المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والفرات يضمن فرصاً لتحقيق نمو اقتصادي كبير. ويمكن تجاوز الاعتبارات التاريخية والأخذ بالمعطيات الاجتماعية والبشرية التي ترتبط بوجود هذه المنطقة وازدهارها. لقد أفقرت الظروف هذا البلد وجعلت من المحال استقلاله فمصادر رزقه شبه ناضبة بالمقارنة مع الثروات التي قد تمتلكها هذه المنطقةفيها لو أدخلت إليها الصناعة. إلا أن هذا يتطلب يدا عاملة ورؤوس أموال ورساميل في الوقت ذاته. ويتطلب توظيف الرساميل بدوره، ضمانات أمنيةبالنسبةللممتلكات أو الأرواح. ومتى تأمنت هذه الضمانات فإن حب الربح سيكون دافعاً قوياً لهجرة

اليهود. . . وان مثل هذه الفوائد الماليةقد تكفي لتجذب إلى المنطقة أناساً يهمهم الثراء. وستفعل الدولة الكبرى التي ستحكم هذه البلاد حسناً إذا ما التزمت علانية بإدخال الإصلاحات الأساسية التي تساعد على إشاعة الثقة ونشر مبادىء الحضارة الأوروبية. وأخيراً، يجب أن ينظر إلى هذه البلاد من خلال «شعب محترم رغم أنه مشتت». إن الشعب اليهودي يميل إلى استرجاع أرض فلسطين. ولقد كانت كل ذكرى من الماضي وكل تطلع نحو المستقبل يحركان هذا الأمل. ولم يكن يمنع تحقيق هذه الأمنية سوى الخوف على الحياة وعلى الممتلكات. فإذا ما أصدرت الدولة الكبرى التي ستحكم المقاطعة السورية تشريعاً عادلاً، وإذا ما تعهدت بمنح حماية متكافئة لليهود ولغير المؤمنين بكفالة دول الحلف الرباعي. فقد يمهد الطريق عند ذلك لعودة اليهود. وتعود الثقة من جديد وتصبح البلاد محط انظار حملة لواء المبادرة في العالم بأسره وبشكل خاص محط أنظار ثروة الشعب اليهودي».

معروف بعد ذلك، إن الامبراطورية العثمانية، على ضعفها، وعلى تمزقها، قاومت بتصميم وعناد إقامة «الدولة اليهودية» أو السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين تنفيذاً للمخطط البريطاني. ولكن تبقى هذه المحاولات واستمرارها مرتبطة بظاهرتين تاريخيتين، ظهور محمد علي واستعمار فرنسا للجزائر.

﴿الذِّينَ يَتَّخِذُونَ الكافِرِينَ أَوْلياءَ مِنْ دُونِ المؤْمنينَ. أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ. فَإِنَّ العِزةَ لله جميعاً﴾.

الفصل الثاني

الوضع الخاص في الجزائر

السياسات الاستعمارية

آ ـ الهجرة والاستيطان
ب ـ القضاء على مقومات الأمة العربية ـ الإسلامية
ج ـ المسألة اليهودية ـ وقانون كريميو
د ـ التحريض الخارجي (البروسي ـ العثماني)
هـ ـ الكوارث الطبيعية
و ـ الثورات التمهيدية

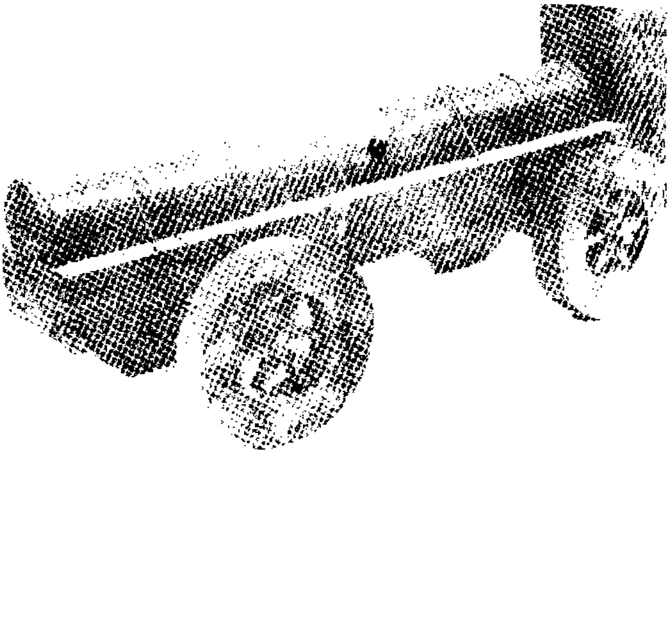

السياسات الاستعمارية

استسلم الأمير عبد القادر لفرنسا في سنة ١٨٤٧، وتبعه باي قسنطينة بعد ثمانية أشهر، وظن الجنرال بيجو أن الأمور قد استقرت لفرنسا بصورة نهائية. فمضى يفرض الحكم العسكري في الأقاليم التي احتلتها القوات الافرنسية. وبقيت مناطق القبائل الجبلية الممتدة بين سهل متوجة «متيجة» غرباً، والقل شرقاً وهي تنعم باستقلالها، وبعيدة عن الخضوع لسيطرة جيش الإحتلال. وأخذ المجاهدون في التوجه لهذه المناطق المستقلة ليجدوا فيها ملجأ وملاذاً يحميهم من الخضوع «لاعداء الدين والوطن» وأثناء ذلك، كانت الإدارة الافرنسية العسكرية في الجزائر تتخبط باستمرار وهي في حالة من العجز عن تقديم الحلول المناسبة لما تجابهه من مشكلات ومصاعب، الأمر الذي عبر عنه أحد القادة الإفرنسيين في سنة ١٨٥١ بقوله: **من سوء حظ مستعمرتنا - الجزائر- انها تعرضت للتنظيم وإعادة التنظيم عشر مرات خلال فترة خمسة عشر عاماً. وعلى الرغم من كل هذه التحولات المتتالية، فلا زال النظام يشكل المطلب الأول في طليعة الاحتياجات الرئيسية الكبرى للجزائر. وبات من المحال اليوم،**

ضمان الاستقرار بدون إجـراء تغييرات جديدة»[1] .

استجابت حكومة الامبراطور «نابليون الثالث» لمتطلبات التغيير، فعينت «الجنرال راندون»[2] حاكمًا عاماً على الجزائر في كانون الأول - ديسمبر- ١٨٥١ . وتقدم «راندون» بمشروع يربط فيه التشريع في الجزائر بهيئة مركزية، وعرض هذا المشروع على وزير الحربية «سانت أرنود»[3] في ١٤ كانون الثانـي - يناير- ١٨٥٢ . وأدخل وزير الحربيةتعديلات أعلنها في ٢٦ نيسان- إبريل- فأصبح المشروع يتكون من ٢٨ فقرة، وأهمها المادة الثامنة التي تعطي رئيس الجمهورية حق اصدار التشريعات التي لا تعرض على مجلس الشيوخ، واخضاع المستعمرة الجزائرية لإدارة الامبراطور مباشرة. وعلى كل حال فقد رفض هذا المشروع يوم ٧ تموز- يوليو- فتم وضع مشروع من ٣٢ فقرة، يوم ١٣ تموز- يوليو- ١٨٥٢ وعرض على مجلس الشيوخ للاطلاع عليه فقط، وقد تميز هذا المشروع بليبيراليته (تحرريته) وبمنح الأقاليم الجزائرية إدارة ذاتية (غير مركزية). ولكن «راندون» قيد هذا المشروع بأن فرض على حكام الأقاليم العودة إليه

---

(١) السياسات الاستعمارية في المغرب - شارل روبرت اغرون - ص ٤٧

(٢) الجنرال راندون (RANDON , CESAR ALEXANDRE , MARECHAL DE FRANCE) من مواليد غرونوبل (١٧٩٥- ١٨٧١) برز اسمه في حروب الجزائر، وكان له دور أساسي في إخضاع مناطق القبائل الكبرى ، وأصبح وزيراً للحربية من سنة ١٨١٥ حتى سنة ١٨٦٧ .

(٣) سانت أرنود (ماريشال فرنسا SAINT ARNAUD , ARMAND LEROY) من مواليد فرنسا (١٨٠١- ١٨٥٤) وهو أحد المنظمين الأساسيين لانقلاب ٢ كانون الأول- ديسمبر، انتصر على الروس في معركة ألما (١٨٥٤) وهي المعركة التي اشتركت فيها القوات الإنكليزية أيضاً.

في كل الأمور والالتزام بتعليماته التنفيذية. ثم استقال «سانت أرنود» في آذار - مارس- ١٨٥٤ وخلفه على وزارة الحرب الماريشال «فايانت» الذي كان يتوقع أن يصبح حاكمًا عاماً على الجزائر. فأخذ في الاستماع إلى وجهات نظر مرؤوسيه من القادة «الجنرالات» في كافة المواضيع المتعلقة بادارة الجزائر ومن هنا بدأ بالاصطدام مع «راندون» والتصدي لمشاريعه. وأخيراً، وعندما حاول «راندون» وضع موازنة مستقلة للجزائر، تدخل «فايانت» [1] وأحبط له مخططه، فما كان من راندون الا أن أخذ بالاتصال بالامبراطور نابليون مباشرة من أجل تنفيذ رغباته بإعادة تنظيم الجزائر. ومن أجل توسيع صلاحيات الحاكم العام للجزائر. وهذا، وبينما كان راندون يقدم مشروعه تحت عنوان مبسط: «تحويل السلطات الإدارية المسندة حتى اليوم إلى وزير الحربية، ووضعها في قبضة الحاكم العام» كان فايانت يطرح مشروعه المضاد بالعبارات التالية: «لا يمكن للجزائر ان تكون امبراطورية صغرى إلى جانب الامبراطورية الافرنسية... ولقد شعرت الحكومات في كافة العصور وفي كل البلاد بالحاجة لإجراء توازن مع السلطات التنفيذية لممثليها فيما وراء البحار وقد تم لها ذلك عن طريق إجراء رقابة فعالة ومركزية على تلك السلطات التنفيذية» [2] وأمام هذا التناقض والتضاد، قرر نابليون الثالث تعيين وزير في حكومته باسم «وزير الجزائر» وظيفته التنسيق الإداري بين الإدارة الجزائرية والحكومة الافرنسية وتم تعيين الأمير نابليون لمنصب ادارة الجزائر في ٢٣ حزيران

---

(١) فايانت: (VAILLANT, J.B. PHILIBERT) ماريشال فرنسا. ولد في ديجون (١٧٩٠- ١٨٧٢) أصبح ماريشالاً كبيراً في البلاط الامبراطوري أيام نابليون الثالث، ثم وزيراً للحربية.

(٢) السياسات الاستعمارية في المغرب- شارل روبرت أغرون- ص ٤٩.

ـ يونيو ـ ١٨٥٨ ، غير أن هذا الأمير لم يتمكن من حل التناقضات القائمة بين هؤلاء المطالبين «بحكم مدني» واولئك المطالبين «بحكم عسكري» فتم في ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٨ ، تشكيل «هيئة استشارية عليا لشؤون الجزائر والمستعمرات». واستمر الأمير نابليون في عمله «وزيراً للجزائر والمستعمرات» مدة تسعة أشهر فقط، وجد نفسه في نهايتها عاجزاً عن تحقيق أهدافه السياسية، فاستقال من منصبه وخلفه «شاسلو لوبا» [1] الذي قام بتوسيع الحدود المحتلة، فزاد عدد المواطنين الخاضعين للاستعمار من (٧٤٨,٩٩٥) نسمة إلى مليون و (٨٥٤,٩٩٠) نسمة. واستعاض عن (المكاتب العسكرية العربية) (بالمكاتب المدنية العربية). كما عمل على إعادة تنظيم القيادات، واستبدال قادة بقادة. وكان ذلك كل ما فعله لتطوير نظام الإدارة في الجزائر الذي اعتبر إنتصاراً للادارة المدنية على الإدارة العسكرية. وتولى الماريشال راندون وزارة الحرب الافرنسية في ٥ أيار ـ مايو ـ ١٨٥٩ ، فأخذ في العمل من أجل إعادة دور الإدارة العسكرية بحجة «الأوضاع الخاصة بالجزائر»؛ حتى اذا ما جاء يوم ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٦٠ ، ألغي منصب «وزير الجزائر»

---

(١) شاسلو لوبا : (CHASSELOUP - LAUBAT). لم تكن له قوة شعبية جماهيرية بين رجال الاستعمار في الجزائر الذين رفعوا عريضتين إلى الامبراطور نابليون الثالث يطالبون بإعادة تعيين الأمير نابليون وزيراً للجزائر، غير أن شاسلو لوبا أصدر يوم ٧ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٥٩ قراراً منع بموجبه رفع مثل هذه العرائض. كما منع إرسال البرقيات في هذا الموضوع ذاته. ثم لم يلبث أن أصدر ثلاث قرارات دعمت سلطة الرجال الاستعماريين. كان تاريخ القرار الأول ١٦ آب ـ أغسطس ١٨٥٩ لتنظيم الجزائر، وقرار ١١ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٦٠ لتنظيم إقليم وهران ـ وقرار ٢٧ شباط ـ فبراير ـ ١٨٦٠ لتنظيم اقليم قسنطينة.

واعيد التنظيم العام للحكومة لمصلحة «الماريشال بيليسييه»[1] الذي أصبح حاكمًا للجزائر يعاونه جهاز إدارة مدني، مع نواب للحاكم العام في الأقاليم. وحصل «بيليسييه» على سلطات واسعة، بما في ذلك تنظيم موازنة مستقلة بالجزائر. على ان يكون اتصال الحاكم العام للجزائر بالامبراطور نابليون الثالث اتصالاً مباشراً. فنظم جهازاً تشريعياً ومجلساً استشارياً أعلى لمعاونة الحاكم العام للجزائر في إدارة الأقليم. وقد عمل «بيليسييه» على دعم سلطة المهاجرين، وتعميق جذور الخط الاستعماري، مما زاد من اضطراب الجزائر. الأمر الذي دفع نابليون الثالث للقيام بزيارته الأولى للجزائر في الفترة من ٣ أيار - مايو - وحتى ٧ حزيران- يونيو ١٨٦٥. وحاول خلال هذه الجولة معرفة المشكلات الاستعمارية على الطبيعة، وعندما عاد إلى فرنسا في ٢٠ حزيران - يونيو- حاول بالتعاون مع «ماكماهون» وضع القوانين لجعل الجزائر جزءاً من فرنسا بالإضافةالى أمور تنظيمية اخرى[2] وضع «ماكماهون» اسسها وقواعدها غير ان الأمور على الساحة الجزائرية لم

---

(١) الماريشال بيليسيه: (PELISSIER , AIMABLE JEAN JACQUES) ماريشال فرنسا، ودوق مالا كوف(DUC DE MALAKOF) من مواليد ماروم في مقاطعة السين السفلي (١٧٩٤- ١٨٦٤) استولى على سيبا ستوبول سنة ١٨٥٥ (أثناء حرب القرم) وأصبح سفيراً لفرنسا في لندن سنة ١٨٥٨، وتم تعيينه سنة ١٨٦٠ حاكمًا عاماً على الجزائر

(٢) ماكماهون: (MAC - MAHON , MARIE EDME PATRICE DE MAC) ماريشال فرنسا، ودوق ماغينتا (DUC DE MAGENTA) من مواليد سولي SULLYمقاطعة السين واللوار (١٨٠٨-١٨٩٣) برز اسمه أثناء حرب القرم حيث استطاع احتلال مالاكوف، بمساعدة بيليسييه، وانتصر في معركه ماغنتا في إيطاليا، وأصبح حاكمًا على الجزائر من سنة ١٨٦٤ حتى سنة ١٨٧٠، هزمه البروسيون في معركة رايخهوفن: (REICHSHOFEEN) واصيب في معركة سيدان (١٨٧٠) بجراح. وعلى الرغم من كونه ملكياً، فقد أصبح الرئيس الثاني للجمهورية الإفرنسية من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٩.

تختلف باختلاف التشريعات أو تبديل الحكام والقادة. الأمر الذي أوصل الجزائر في النهاية إلى إعلان الثورة.

تثير مطالعة السطور السابقة دونما ريب مجموعة من التساؤلات عن وضع هذه الدولة التي امتلكت القوة الطاغية الوحشية، والتي أمكن لها بواسطتها الاستيلاء على الجزائر، ثم وقوف هذه الدولة عاجزة عن إدارة ما سيطرت عليه بالقوة. وتعبر ظاهرة الاضطراب المستمر، والتبديل المتتابع للأنظمة والقادة على مدى القصور الناجم بين القوة وبين القدرة على استخدام القوة بصورة صحيحة. وهو الأمر الذي أكدته مسيرة الأحداث بعد ذلك عندما اصطدمت القوة الإفرنسية، بقوة أكثر كفاءة منها، هي القوة البروسية، في ميدان «سيدان» سنة ١٨٧٠، فسقطت القوة الإفرنسية ضحية تناقضاتها الذاتية. وفي الوقت ذاته، فإن بروز هذه التناقضات وظهورها، لم يكن في واقعه إلاّ نتيجةمن نتائج ردود فعل مسلمي الجزائر، في مجابهتهم لقوة الاستعمار الوحشية. وهنا أيضاً وعلى الرغم من قصور الوسائط المادية، وعلى الرغم ايضاً من عزلة مسرح العمليات، فقد استطاع المجاهدون في سبيل الله ممارسة دورهم في الدفاع عن ديار الإسلام. مما أوقع السلطة الاستعمارية في شباك تناقضاتها، وتأكدت مرة أخرى في التاريخ تلك الحقيقة الخالدة، وهي أنه من المحال قهر شعب مؤمن ومصمم على تحقيق أهدافه مهما بلغت به درجة الضعف، ومهما تعاظمت في مجابهته قوى الشر والعدوان.

المثير في الأمر هو أن تلك التناقضات كانت تعتمد باستمرار على اللعب «بورقة المواطنين الجزائريين»، و «المزاودة أو المناقصة على حقوقهم الإنسانية والدينية»، وعلى حقوقهم الطبيعية في «الأرض

والوطن». وهنا قد يكون من الضروري التعرض لبعض ما تم طرحه من مقولات أو بعض ما تم تنفيذه من ممارسات تؤكد على حل كل التناقضات في النهاية على حساب الجزائريين المسلمين.

لقد تصدى «راندون» طوال الفترة ما بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٨ لمقاومة عمليات استثارة المواطنين عن طريق الاستيلاء على أراضيهم وإقامة المستعمرات الإفرنسية فوقها: وجاء في رسالة «راندون» إلى قائد اقليم قسنطينة ما يلي: «إن عملية التهجير الجماعي للمواطنين هي عملية جائرة، علاوة على أنها عملية تتناقض مع السياسة التي يجب علينا تنفيذها. وأرى لزاماً علي أن أجعل هذه الفكرة مهيمنة على تفكير الوزير، والالحاح في ذلك حتى يتم قبولها، ذلك لأنها تشتق وجودها من قوة الأشياء وطبيعتها» (١) غير أن «راندون» تعرض للضغوط التي الزمته بتنفيذ السياسة الاستعمارية، مما دفعه إلى القول: «أرجو ألا نشعر بالندم في وقت لاحق لاننا لم نضمن للعرب حقوقهم في أرضهم التي يزرعونها ويعيشون عليها»(٢).

صدر مرسوم ٣١ آب- اغسطس- ١٨٥٨ بهدف إعادة تنظيم الإدارة في الجزائر، وتضمن التقرير الإيضاحي- التفسيري- لهذا المرسوم والذي تم إعلانه بوضوح تام «بأنه يجب على الحكومة من الان فصاعداً، أن تجعل من الإستعمار والهجرة والاستيطان هدفاً أساسياً لها، ومن أجل ذلك، يجب علينا إخمـاد المقاومة الصادرة عن شعب

---

(١) رسالة «راندون» في ٢١ آذار- مارس- ١٨٥٥ محفوظات وزارة الحرب الفرنسية AG . H 264.

(٢) السياسات الاستعمارية في المغرب. ص ٤٨

مسلح ويتمتع بالنشاط والحيوية. وهناك أمل في الواقع بأن يتم استخدام التمثيل الإداري ، من أجل تهجير الشعب العربي، وتمزيق التلاحم القائم بين القبائل، ويجب العمل بدهياً من أجل اضعاف نفوذ الزعماء الكبار- البارزين- للوصول الى درجة القضاء على هذا النفوذ تماماً»[1]. و «ان علينا تحرير الافراد من سيطرة زعمائهم، وخلق ملكيات فردية متنافسة لدى الجزائريين. ويجب ان تتم عملية إقامة الملكيات الفردية عند العرب، عن طريق استيلاء الحكومة على مساحات واسعة من الأرض تعمل الدولة بعدها على طرح هذه الأرض للبيع بصورة مباشرة»[2] وعلى كل حال، وإذا لم يتوافر لوزير الجزائر في الحكومة الامبراطورية ما يكفيه من الوقت لتنفيذ هذا الهدف، فقد أفاد المستعمرون من الفرصة التي اتيحت لهم بموجب مرسوم ١٦ شباط- فبراير- ١٨٥٩ ، لينطلقوا في تحركهم عبر المناطق العسكرية، لتوسيع حدود ممتلكاتهم.

وعملت السلطات على إظهار حركة نشطة جديدة لدفع القبائل العربية وإبعادها عن أراضيها. مع تمليك بعض الأفراد ملكيات صغرى. وأدرك المسلمون بسرعة مضمون هذه السياسة الجديدة التي تعرض لها تقرير فرنسي بما يلي: «**تهيمن على المسلمين في هذه الأيام فكرة ثابتة وقوية. وتتلخص بإن الإفرنسيين يريدون طردهم من بلادهم، وإبعادهم عن أرض أجدادهم. وتحويلهم إلى أقنان- عبيد- يعملون في خدمة المستعمرين. وقد عمل المستعمرون بممارساتهم على تعميق هذه الفكرة وتثبيتها، ولم يحاول هؤلاء المستعمرون إخفاء أهدافهم أو التمويه على آمالهم. ويقف**

(١) تعليمات الحكومة الافرنسية بتاريخ ٩ أيلول- سبتمبر- ١٨٥٨ .

(٢) السياسات الاستعمارية في المغرب- ص ٥٢ و ٥٣ و ٥٥ .

الأوروبيون اليوم على حافة مرحلة ستقودهم الى معاملة الوطنيين الجزائريين مثل معاملة المهاجرين للهنود الحمر في أمريكا الشمالية» [1] وتجدر الإشارة هنا إلى تعميم صادر عن الإدارة الإفرنسية في الجزائر بتاريخ ٧ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٥٩، جاء فيه ما يلي: «من الضروري الحرص على أن تكون الأراضي المخصصة لإقامة القبائل العربية، لا تزيد بحال من الأحوال عن احتياجاتهم، وأن تكون متناسبة مع عدد أفراد هذه القبائل. ويجب بذل العناية الممكنة لتمييز العائلات الأجنبية التي يمكن أن توجد مؤقتاً في مناطق هذه القبائل. هذا وقد تم تكوين مراكز للمستعمرات في الفترة من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦٠ بلغ عددها ٢٧ قرية. تم منحها مجاناً للمهاجرين الأوروبيين وبدون منح أي تعويض للمواطنين. أما نفقات هذه المستوطنات وتكاليف إقامتها فقد تحملها المواطنون أيضاً عن طريق الموازنة الخاصة التي تم بموجبها فرض سنتيم إضافي على الضرائب التي يدفعها العرب. وهي الضرائب التي فرضها راندون لمصلحة المهاجرين المستوطنين حصراً».

لقد كان الصراع حاداً بين المدنيين والعسكريين على إدارة الحكم في الجزائر، المستعمرة، وفقاً لما سبقت الإشارة اليه، وكان كل طرف من الطرفين المتصارعين يتهم الآخر بالقصور الأمر الذي تبرزه المقولة التالية عن مصدر فرنسي: «ليس من واجبنا هنا الدخول في تفاصيل ما قام به المدنيون تجاه المواطنين الجزائريين؛ وتكفي الإشارة إلى عزل زعماء المسلمين وقضاتهم المرة بعد المرة، وحشد القبائل في معسكرات

---

(١) تقرير من محفوظات وزارة الحرب الإفرنسية ـ تموز ـ يوليو ـ ١٨٦٠
(AG. H 171)

الجنود، وطرد المواطنين من بعض المناطق، مثيرين بذلك بحسب الشواهد الموثوقة حالة من الذعر بين المواطنين الذين ارتفع لديهم الحقد حتى بلغ ذروته. وقد عمل بعض العسكريين على قرع الأجراس، محذرين من الخطر الناجم عن قصور المدنيين ادارياً وعدم كفاءتهم. غير أن قادة الجيش ـ الضباط ـ يبتعدون بأنفسهم أيضاً عن المسلمين، ويبعدون المسلمين عن مناطقهم. ويحرمونهم من رفع شكاواهم او التذمر أمام محاكمنا، ولا يتورعون عن إزدراء زعماء المسلمين وتحقيرهم بصورة خطيرة».

وكانت الحكومة الافرنسية تطالب رجال إدارتها في الجزائر بالاعتدال، وهو ما أكده «راندون» الذي أوضح هدف الاعتدال بقوله: «إن تكتيك الاعتدال هو أمر ضروري لسحق الأفعى أو خنقها» وكان المدنيون يهاجمون العسكريين: «بأنهم يعملون على إشعال نار الثورة، وإثارة الاضطراب، حتى يطيلوا أمد العداء ويزيدوا من عمقه». أما الامبراطور نابليون، فكان يوصي حاكم الجزائر بقوله: «عليكم إجراء التغييرات بهدوء، ودونما أي ضجيج قدر المستطاع»[1] وعندما انفجرت الحرب الأهلية في لبنان والشام، انعكست على صفحة الجزائر، حيث صرح حاكم الجزائر يوم ١٩ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٦٠ بما يلي:

«يتلخص واجبنا الأول بتأمين السعادة لثلاثة ملايين عربي، وضعتهم قوة السلاح تحت هيمنتنا... إن واجبنا هو الارتفاع بمستوى العرب إلى مرتبة الرجال الأحرار. ونشر التعليم فيما بينهم

---

(١) رسالة من محفوظات وزارة الحرب الإفرنسية تاريخها ١٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٩١.

مع احترام دينهم، وتحسين مستواهم المعيشي- الحياتي- عن طريق استخراج الكنوز والثروات الباطنية التي أودعتها العناية الالهية في جوف الأرض. تلك هي مهمتنا التي سنضطلع بها» [1].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما قاله نابليون الثالث عند زيارته للجزائر، وحديثه إلى جماهير المسلمين بقوله: «إنكم تعرفون أهدافي وما أنوي فعله؛ إنني أؤكد تأكيداً جازماً حقكم في ملكيتكم للأرض التي تشغلونها. وقد عملت على معاملة رؤسائكم بشرف، واحترمت دينكم. وأريد زيادة رفاهكم وثروتكم، كما أريد زيادة اشتراككم في إدارة البلاد أكثر فأكثر لما فيه الخير للحضارة» [2].

ولكن، وبينما كان نابليون الثالث يطرح أفكاره ووجهات نظره بإدارة الجزائر، كان حاكم الجزائر يتابع أساليبه **«لتدمير الأرستقراطية العربية- الإسلامية مصمماً على عدم قبول أي إصلاح لأحوال العرب، وإخضاعهم لنظام إقطاعي لا يتعارض مع مصالح فرنسا»** وأنه من واجب فرنسا العمل على **«صهر القبائل، وتدمير الأرستقراطية العربية بحيث يمكن الوصول بالجزائر إلى الغاء القضاء الإسلامي والتشريع الإسلامي وتحييد العرب»** [3].

وهنا قد يكون من المناسب تجاوز كلمة «الأرستقراطية العربية» وفقاً لمضمونها العلمي، والأخذ بما هو مقصود منها عملياً، من قضاء على القيادات العربية والإسلامية وترك الشعب محروماً من القيادات

---

(١) السياسات الإستعمارية في المغرب ص ٥٧

(٢) خطاب نابليون الثالث في الجزائر يوم ٦ أيار- مايو- ١٨٦٥

(٣) السياسات الاستعمارية في المغرب. ص ٦٠ و ٦٩

التي يمكن لها التجاوب مع مطالب الجماهير، وخلق حالة من الفراغ القيادي الذي لا يملؤه الا الوجود الاستعماري، وهو ما يؤكده تعميم الحاكم العام للجزائر «راندون» يوم ١٤ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٦٨ والذي جاء فيه: «علينا الافادة من عامل الوقت باستمرار، وتسخير كافة الظروف للقضاء على وظائف الخليفة والباشآغا والآغا حتى لا يبقى من يمارس القيادة في أقاليم الجزائر الثلاثة إلا القائد والشيوخ» وكان راندون هذا قد كتب رسالة في يوم ٢١ آذار- مارس- ١٨٦٦ جاء فيها: «يجب تكثيف الجهود لاتباع سياسة متحفظة وحكيمة هدفها إبطال النفوذ الذي تتمتع به العائلات الجزائرية منذ أجيال عديدة»(١).

قد يكون من المحال بعد ذلك جمع كل المقولات والشواعد المتعلقة بالسياسات الإستعمارية الإفرنسية، وما تم تطبيقه من ممارسات إجرامية على أرض الجزائر، بسبب وفرة تلك المقولات والشواهد التي يضيق البحث عن حصرها واستيعابها. غير أنه بالمستطاع حصر الخطوط العامة لتلك السياسات بما يلي:

آ- الهجرة والاستيطان:

ظنت الحكومة الإفرنسية أنها بقضائها على الثورتين الرئيسيتين اللتين تزعمهما بالمشرق أحمد باي قسنطينة، وفي بقية الجزائر الأمير عبد القادر. قد باتت قادرة على الانطلاق من المناطق الساحلية المحتلة للتوغل- دونما مقاومة- في عمق الوطن الجزائري. فكان أن شجعت الحكومة الافرنسية جيشها على غزو المناطق الداخلية في البلاد: «فاتبع

---

(١) رسالة راندون إلى ماكماهون- محفوظات وزارة الحرب الإفرنسية:
(AG. H265, ET, AN, F 80 - 1680)

الجيش أسلوب الأرض المحروقة، وأحرق عشرات القرى، وقطع آلاف الاشجار من التين والزيتون، أملاً في الوصول إلى نتيجة إيجابية، هي ارغام السكان على الخضوع للسيطرة الإفرنسية»[1]. وعندما عين «راندون» حاكماً عاماً على الجزائر في كانون الأول- ديسمبر- ١٨٥١، عزم على تطوير سياسة التوسع والغزو لبلاد «جرجرة» و«البابور»، وكان من أتباع مدرسةسلفه «بيجو» في الاحتلال بواسطة التجويع والحرق والتخريب وقطع الأشجار المثمرة- واهتم بإنشاء شبكةمن طرق المواصلات لتسهيل عمليةالغزو وشجعته حكومة الامبراطور على عمليات التوسع هذه، فجهز جيشاً كبيراً سنة ١٨٥٣ اقتحم به الشمال القسنطيني مرة اخرى، وغزا وسيطر على المنطقة الممتدة بين جيجل والقل وقسنطينة بجبال البابور. وبعد ذلك اخذ «راندون» بغزو المنطقة الغربية من جبال جرجرة. وفي العام ١٨٥٦ غزا بقواته منطقة ذراع الميزان. واكتفى ببعض العمليات العسكرية التي اعتبرت بمثابة تظاهرة عسكرية ذات هدف استطلاعي تمهيداً لعمليات أكثر اتساعاً وشمولاً. وفي العام ١٨٥٧، أذنت حكومة الامبراطور نابليون الثالث لحاكم الجزائر «راندون» بغزو جبال جرجرة، واحتلالها بصورة رسمية. فجهز حملة كبيرة ضمت أكثر من عشرة آلاف رجل، وانطلق بها من «تيزي أوزو» في ثلاثة اتجاهات ابتداء من يوم ٢٤ أيار- مايو- وانتهت عمليات هذه الحملة بفرض غرامات حربية ضخمة على السكان زادت على مليوني فرنك، علاوة على ما لحق بالعرب المسلمين من تدمير لقراهم وتخريب لمساكنهم

---

(1) HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE. CH. JULIEN- PARIS 1964 P.P. 385« 387

ومزارعهم وابادة لحيواناتهم. وانطلقت القوات الاستعمارية بعد ذلك من جرجرة والبابور إلى جهات كثيرة من البلاد.

استمرت سياسة الغزو والتوسع الاستعماري طوال عشرين سنة رافقت عهد الامبراطورية الثانية، وعانى الجزائريون ويلات الحروب والتشرد والدمار. غير أن هذه السياسة لم تكن إلا وسيلة لتطبيق أساليب الهجرة التي فتحت أمام الأوروبيين عامة وأمام الافرنسيين خاصة لتوطينهم في الجزائر المحتلة. ولقد ارتبطت عملية الهجرة والاستيطان بعملية الاستعمار، منذ البداية. غير أنه ما ان تم الإعلان عن قيام امبراطورية نابليون الثالث (في تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٥٢) حتى فتحت حكومة الامبراطور أبواب الجزائر على مصاريعها أمام أفواج المجرمين العاديين والخصوم السياسيين وزعماء المعارضين وكل المغامرين والطامعين، وخلاصة القول، فقد حاولت الحكومة الامبراطورية حل كل مشكلاتها دفعة واحدة على حساب الجزائر. ونشطت حركة الهجرة بعدئذ، حيث تقرر تهجير مائة الف أوروبي، واعتمد المجلس الوطني الافرنسي مبلغ خمسين مليون فرنك لإنشاء مراكز استيطانية ومستعمرات أوروبية. وتم تخصيص الأراضي للمهاجرين من ٢- ٢٠ هكتاراً، بالاضافة الى المنازل والحيوانات والآلات. وبلغ عدد القرى الاستعمارية التي أنشئت فيما بين أعوام ١٨٥١ و ١٨٥٧ ما مجموعه ثمانٍ وستين قرية[١].

---

(١) كانت الحكومة الافرنسية مرغمة على إيجاد الحوافز لتشجيع الهجرة، وقد أثار ذلك انتباه جيروم بونابرت الذي قال: «يكلف جهاز الإدارة الإفرنسي الذي يضم- ١٨٠- ألف أوروبي في الجزائر، بأكثر ما تبلغه موازنة بلجيكا بكاملها- السياسات الاستعمارية في المغرب- ص ٥٤- كما جاء في الصفحة (٦٠) من المصدر ذاته ما يلي: تتطلب إقامة العائلة وتوطينها مبلغ أربعة آلاف فرنك، وعلى هذا فالعائلة الإفرنسية التي تحصل على مبلغ كهذا =

عملت حكومة الامبراطور نابليون الثالث على تدمير القيادات العربية- الاسلامية، وهي القيادات التقليدية، بحجة القضاء على ما أطلقت عليه اسم «الارستقراطية العربية» وذلك بهدف خلق نوع من الفراغ السياسي- على نحو ما سبقت الإشارة إليه- ومقابل ذلك: «تبنى الامبراطور عدداً من المشاريع لإقامة مستعمرات عسكرية يتولى إدارتها القادة الكبار من الفرنسيين. وكان هدفه من ذلك خلق أرستقراطية عسكرية فرنسية قائمة على امتلاك الاقطاعات الكبيرة من قبل القادة ذوي الرتب العليا العاملين في خدمة الجيش الافرنسي» [1] واعتمدت حكومة الامبراطور أيضاً على كبار الرأسماليين لدعم الهجرة والاستيطان، وكذلك الشركات الرأسمالية الكبرى، باعتبار ان كثيرا من رجال الأعمال والمصارف (البنوك) وكبار الرأسماليين- وخاصة السويسريين- كانت تربطهم صداقات شخصية بالامبراطور، الذي كان بدوره يميل إلى دعم هذه السياسة حتى لا تتكلف حكومته بتحمل اعباء اقتصادية، أو تضطر إلى تقديم المعونات المالية. وهو الأمر الذي دفعه لإصدار ما عرف باسم «مشروع بياريتز» والذي يسمح لهؤلاء بتأسيس المشاريع الكبرى بالجزائر لصالح الاستعمار الاستيطاني. وكان ممن استفاد من هذه السياسة على سبيل المثال- المقاول الباريسي «دومونشي» الذي منح سنة ١٨٥٤ أرضاً بلغت مساحتها ٢٦٧٢ هكتاراً في تيبازه طرد منها ست وتسعين عائلة جزائرية، ليقيم فوقها وحدات سكنية للمهاجرين

= في فرنسا، فإنها لن تهاجر إلى الجزائر، وعلينا أمام هذا الموقف السلبي، تشجيع الرأسماليين للتوجه نحو الجزائر، مع إيجاد المغريات لهم. وبذلك يتأمن للجزائر الذراع الذي تحتاجه.

(١) السياسات الاستعمارية في المغرب- ص ٦٨

الأوروبيين. وكذلك شركة «جنيفواز- السويسرية» التي تألفت عام ١٨٥٣ من طرف رأسماليين من جنيف، وحصلت خلال عشر سنوات على مساحة (٢٨١) ألف هكتار؛ من أجل بناء القرى، لاستقبال المهاجرين الأوروبيين، وخاصة السويسريين. كما منحت «الشركة العامة الجزائرية» مساحة مائة ألف هكتار سنة ١٨٦٥، لتوطين عشرين ألف عائلة أوروبية، مقابل قرض قدمته للدولة بمبلغ مائة مليون فرنك. ومنحت «الشركة العامة للهبرة ومقطع الحديد» مساحة (٢٥,٥٠٠) هكتاراً عام ١٨٦٥، مقابل انشاء سد فرقوق قرب المحمدية. وحصلت «شركة جمعية الغابات» على مساحة (١٦٠) ألف هكتاراً من الغابات لتستغلها لمدة ستين عاماً، فقامت ببيعها الى ثلاثين معمراً أوروبياً.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ان السلطات الافرنسية كانت تنتزع الاراضي من الجزائريين، وتهبها للجمعيات الدينية المسيحية والهيئات الكنسية، والتي كانت تبيعها بدورها الى المعمرين الاوروبيين. ونتج عن هذه السياسة الاستعمارية- الاستيطانية حرمان الجزائريين من اراضيهم وممتلكاتهم وموارد رزقهم وحياتهم، وعزلهم عن مناطق انتاجهم، فتحولوا الى طبقة بائسة محرومة من كل الحقوق. وزاد الامر سوءاً بحرمانهم من كل حقوقهم السياسية. فبات المخرج الوحيد هو اللجوء الى السلاح، كتعبير طبيعي عن حق الوجود، وكانت الادارة الافرنسية الاستعمارية تتوقع مثل هذه الردود، وتعد المخططات لاستثمارها من اجل المزيد من التوسع.

ب- القضاء على مقومات الأمة العربية الإسلامية

لم يرض الأوروبيون، ولم يقنعوا، بما تم تطبيقه من سياسة

استعمارية في إطار الهجرة والاستيطان فانطلقوا لشن الحملات الصحافية ضد السلطة العسكرية والمكاتب العربية، مع المطالبة بدمج الجزائر سياسياً في إطار نظام مدني، وبطرد الجزائريين من أراضيهم، وتشجيع بيعها للمستوطنين بصورة أوسع (١) . واستجابت حكومة الامبراطور نابليون الثالث لمطالبهم، فأنشأت يوم ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٥٨ ما أطلق عليه إسم «وزارة الجزائر والمستعمرات» وأسندت رئاستها إلى «الأمير جيروم نابليون» الذي كان له دور في هذا التغيير لما له من تأثير على عمه الامبراطور فاستحدث مجلساً أعلى إلى جانبه، ومجالس إقليمية في كل مقاطعة، بهدف الإدماج الكامل للجزائر في فرنسا (٢) ومن أجل ذلك تم إنشاء ست دوائر عمالية مدنية، وجرت محاولة لإدماج العدالة الاسلامية في القضاء الافرنسي ـ المدني. . ولم يبق للسلطة العسكرية بعد هذه الإجراءات سوى منصب القيادة العليا للقوات البرية والبحرية التي أسندت رئاستها إلى ماكماهون. وكان من المفروض أن تسير الأمور سيراً طبيعياً. ولكن الوزير الجديد

---

(١) يمكن هنا الإشارة إلى العريضة التي وقعها (٤٢٠) مهاجراً أوروبيا ورفعوها إلى الحكومة الافرنسية يوم ٢٧ شباط ـ فبراير ـ ١٨٦٣، وفيها ما يلي: «إذا ما توقفت الحكومة عن الاستجابة لمتطلبات المستعمرين الأوروبيين، ولم تترك لهم حرية إستثمار المناطق، إلا ما تم انتزاعه من القبائل منذ الاحتلال وحتى اليوم فإن ساعة الجلاء عما حصل عليه المنتصرون في سنة ١٨٣٠ قد حانت. وستظهر حكومة عربية، أي أمة بدون جنسية، أو تجمع من المتوحشين ورجال القبائل المتصارعين بعضهم ضد البعض الاخر»

(٢) من المعروف، ان نابليون الثالث، لم يفكر أبداً في التخلي عن الجزائر، بعكس ما تشير إليه بعض المصادر. وهو الأمر الذي عبر عنه لويس نابليون بونابرت يوم ٦ أيار ـ مايو ـ ١٨٦٥ بقوله: «إن الجزائر هي لفرنسا، كما إن إيرلندا لإنكلترا، وكما إن بولونيا لروسيا، وليست الجزائر إلا كرة كبيرة، فقطعوها إلى شرائح، واجتثوا منها حياتها، فيسهل عليكم الإمساك بالكرة» السياسات الاستعمارية في المغرب ـ شارل روبرت ـ ص ٦٣ و ٦٨

وجد نفسه في أوضاع غير مرضية، لكونه اختلف مع عمه الامبراطور حول سياسته بإيطاليا. كما اصطدم بمعارضة العسكريين بالجزائر لسياسته التي تؤيد بصورة مطلقة إتجاه المعمرين الأوروبيين الذين يرون أن الجزائر فتحت بالقوة، ومن حقهم أن يطردوا لذلك الجزائريين من أراضيهم وممتلكاتهم، ليستولوا عليها ويتقاسموها. وقد أكد «ماكماهون» بان الأمير وإن كان قد درس جميع الوسائل الإستعمارية في الأمريكيتين، إلا أنه رغم ذلك لم يكن يحسن «فهم المعضلة الجزائرية». ولم يكن يضع في اعتباره حساب مليونين ونصف مليون من الجزائريين الشجعان «الذين صمموا على القتال دفاعاً عن استقلالهم ودينهم». وأوضح أن السلطات الإفرنسية بما تنشره - صحافتها - من سباب وإهانات للجزائريين قد أسهمت بدفعهم للثورة الدائمة. وأن الأمير لم يعمل على إيقاف ذلك بالرغم من إلحاح القيادة العسكرية وضباط الشؤون العربية عليه في ذلك. كما أوضح «ماكماهون» بأنّ الذين كانوا ينشرون مقالات الطعن والسباب ضد الجزائريين معظمهم من المنفيين المعارضين لسياسة الامبراطور وحكومته. وبنتيجة هذه المشاكل كلها، اغتنم الأمير جيروم فرصة ذهابه إلى إيطاليا لعقد قرانه على ابنة ملك سردينيا، فأعلن من هناك تنازله عن منصب وزارة الجزائر والمستعمرات يوم ٧ آذار- مارس- ١٨٥٩ فتم تعيين «الكونت شاسلو لوبا» بصورة رسمية في مكانه، وتعرض هذا بدوره لعداء العسكريين، وانتهى الأمر بإلغاء هذا النظام تماماً. وتم بدلاً عنه تشكيل الحكومة العامة للجزائر في كانون الأول- ديسمبر- ١٨٦٠ تحت رئاسة القائد العام للقوات البرية والبحرية، والذي كان عليه الاتصال مباشرة بالامبراطور في الأمور السياسية تحت مراقبة وزير الحربية، على أن يكون إلى جانبه مجلس

استشاري ومجلس أعلى. وعين «الماريشال بيليسييه» حاكماً عسكرياً جديداً، وبذلك عاد الحكم العسكري بسرعة إلى الجزائر. واتبع «بيليسي» سياسة «راندون» ذاتها فيما يخص مصادرة الأراضي لصالح الهجرة والاستيطان الاستعماري، ومد الطرق المعبدة ، والسكك الحديدة، لخدمة مشاريع الأوروبيين الاقتصادية، ومستقبلهم السياسي. وكان في نيته تطوير هذه السياسة والوصول بها إلى أبعد الحدود. ولكن الامبراطور نابليون الثالث، كان يفكر في سياسة جديدة تجاه الجزائريين خاصة بعد زيارته القصيرة للجزائر في العام ١٨٦٠، حيث شعر بالقلق نتيجة تجريد المواطنين المسلمين من ملكيتهم الشخصية. فقرر إصدار قانون يمنحهم حق البقاء في الأراضي التي يستثمرونها ويعيشون عليها. ونصح الأوروبيين بالتوجه للمجالات الأخرى مثل استثمار الغابات والمعادن واستصلاح الأراضي وإنشاء السدود والطرقات والصناعات المتنوعة. كما نصح بالحد من هجرة الأوروبيين إلى الجزائر، وختم رسالته التي وجهها إلى «بيليسييه» بهذا الشأن في ٦ شباط- فبراير- **١٨٦٣** بما يلي: «إن الجزائر مملكة عربية، **وأنا امبراطور العرب مثلما أنا امبراطور الإفرنسيين**». غير أن هذه السياسة- الليبيرالية- لم تعجب العسكريين الذين كانوا يطالبون بالعودة إلى «نظام السيف» باعتباره الوسيلة الوحيدة لاخضاع الجزائر الثائرة. وامام هذه الضغوط أصدرت السلطة الإفرنسية قانون ٧ تموز- يوليو- **١٨٦٤** الذي أعاد السلطة للحكام العامين للفيالق العسكرية على الحكام المدنيين للمقاطعات الجزائرية الثلاثة. وبذلك اشتدت قبضة العسكريين على الجزائر التي تحولت إلى مستعمرة عسكرية ، كما كانت خلال الفترة الأولى للاحتلال «فترة حكم بيجو». وتم تعيين الماريشال **«ماكماهون»** حاكماً

جديداً للجزائر في أيلول ـ سبتمبرـ ١٨٦٤ من أجل تنفيذ هذه السياسة. غير أن المدنيين والعسكريين على السواء استقبلوا «ماكماهون» بالغضب رغم كونه سيمارس سياسة سلفه «بيليسييه» الأمر الذي اضطر نابليون الثالث للقيام بجولته الثانية في الجزائر (٣ أيارـ مايوـ حتى ٧ حزيرانـ يونيو ١٨٦٥) حيث تنقل في جهات كثيرة، قابل خلالها شخصيات أوروبية وعربية، وعندما عاد إلى فرنسا، وضع سياسته الجديدة في رسالة بعث بها إلى «ماكماهون» في ٢٠ حزيرانـ يونيوـ ١٨٦٥ وانتقد فيها الأوضاع السائدة. ومما تضمنته رسالته ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ: «بأنَّ الجزائر مملكة عربية، ومستعمرة فرنسية ومعسكر أوروبي. وأنه من الضروري الاعتماد على أريحية الجزائريين في التطوير، ذلك لأنه من المحال القضاء على ثلاثة ملايين جزائري أو رميهم في الصحراء كما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر. واعترف ان هناك بالجزائر عسكريون يمكرون بالجزائريين. كما أن مصالح الغابات تضايقهم كثيراً، وتمنعهم من قطع ولو محراث خشبي. وذكر أن من أخطاء فرنسا انها تطبق بالجزائر قوانين وضعت خصيصاً لفرنسا ـ مثل قانون الصيد ـ وذلك مما جعل الجزائريين يفقدون أملاكهم ويتعرضون للافلاس».

لقد كانت سياسة نابليون الثالث قائمة على المرونة وكسب الوقت لتعميق جذور الاستعمار، مع التظاهر بعملية «النقد الذاتي» لتغطية سوءات الاستعمار، ورفع الشعارات الفاضلة، بهدف التضليل والخداع. وقد طلب نابليون إلى العرب إظهار أريحتهم لتطوير الجزائر، كما طلب إلى الجيش الافرنسي في حديثه يوم ٩ حزيران ـ يونيوـ ١٨٦٤ ما يلي: «إنكم أول من يجب عليه مد يد العون

إلى العرب المزقين بروح من الصداقة، والتعامل معهم بكرم وعدل، باعتبارهم جزءاً من العائلة الافرنسية الكبيرة». وكان مشروع نابليون للإصلاح يتضمن: «**إعادة تنظيم قبائل المخزن وإقامة مجالس في مناطق القبائل. وإقامة جامعة عليا للقانون الإسلامي في الجزائر. وإعادة تنظيم المدارس الابتدائية، حيث كان هناك ٢٣١٣ مدرساً يدرسون القرآن الكريم وعلوم الدين لطلاب المرحلة الابتدائيةالذين كان عددهم يزيد على (٢٦,٥٠٠) طالب وبذلك يتم اخراج التعليم من ايدي المشايخ**»[١] . وعلى كل حال، فقد جاءت الممارسات والاعمال التطبيقية لتفضح كل المزاعم الايديولوجية والمقولات النظرية. وظهر بوضوح أن «السياسة العربية للامبراطور» لم تكن الا الوسيلة لخدمة المصالح الافرنسية فمحاولة استمالة الجزائريين: «لم تكن الا لدعم مركز فرنسا، وتأمين سلامة الجيش الافرنسي وضمان أمن المهاجرين، وإمداد الجيش الافرنسي بالمقاتلين الجزائريين الذين عرفت القوات الافرنسية شجاعتهم في حروبها بالقرم وايطاليا والصين والمكسيك وكذلك خدمة الاقتصاد الافرنسي باستثمار ثروات الجزائر الوطنية التي ستسفر عنها حركة تجارية عظيمة لمصلحة فرنسا».

أما هدفه من الاهتمام بالزوايا الاسلامية «فليس المقصود منه تطوير التعليم العربي ـ الاسلامي، وإنما هدفه تشكيل طبقة من «العملاء والجواسيس» تعتمد عليهم فرنسا في تحقيق سياستها وفرض رقابتها الفكرية والسياسية، والحيلولة دون قيام حركات ثورية ضدها تنطلق من داخل تلك الزوايا»[٢] ولم يكتف بفرض هذه الرقابة على

(١) السياسات الاستعمارية في المغرب. ص ٦٩.

(2) LETTRE SUR LA POLITIQUE DE LA FRANCE EN ALGERIE (L'EMPEREUR NAPOLEON III) PARIS 20 JUIN 1865 P.P.3 - 10.

الزوايا، فعمل على تدعيم الوجود الكنسي في هذا البلد العربي المسلم. ورفع درجة أسقف مدينة الجزائر إلى مستوى الأبرشية، وأمر بتأسيس أبرشيتين في كل من قسنطينة ووهران. **وكشفت اقتراحات نابوليون الثالث -حول التركيز الاستعماري، حقيقة نواياه ومشاريعه التوسعية- الاستعمارية. حيث خصص معظم مناطق التل للجاليات الأوروبية، والتوطن الاستعماري في المقاطعات الثلاثة. وذلك يعني تحطيم المجتمع الجزائري وطرده من أراضيه الخصبة إلى قسم الجبال الجرداء والصحراء القاحلة. وحتى عندما اقترح تخصيص مائة مليون فرنك للتطوير الاقتصادي بالجزائر، وزعها توزيعاً لا يخدم سوى مصالح الجالية الأوروبية فقط ومشاريعها الاقتصادية، ولم يخصص أي مبلغ لصالح الجزائريين.** وبالاضافة إلى هذا طالب بالاقتصاد في النفقات، وعدم الاهتمام بالأمور الفنية لأن البلد في نظره، حديث، والغرض، إنجاز الأعمال بكيفية أكثر بساطة تؤدي إلى «تركيز الاستعمار». وبعد أن أكد على ضرورة تدعيم فرق رجال المخزن على أطراف إقليم التل، لتخفيف الأعباء على الجيش الإفرنسي فيما يخص الحراسة والمراقبة، وتقوية فرق «الزمالات والصبايحية» والاختيار المناسب لرؤساء المكاتب العربية من رجال المخابرات واقترح- نابليون الثالث- اعتبار الجزائريين فرنسيين، تطبيقاً للقوانين والتشريعات الإفرنسية السابقة التي تعتبر الجزائر أرضاً افرنسية مكملة للتراب الإفرنسي منذ سنة ١٨٤٨. ولكي يرغب الجزائريين في حمل الجنسية الإفرنسية، نص إقتراحه على السماح لهم بالاحتفاظ بدينهم الاسلامي، إلا من يرغب في غير ذلك بعد أن يطلب إليه الاختيار، هذا إلى جانب فتح أبواب الوظائف العمومية لهم، على أساس خدمة

المدني في الجزائر والعسكري في سائر أنحاء الامبراطورية[1].

أقامت الإدارة الافرنسية في الجزائر، منذ الأيام الأولى للاستعمار، مكتباً خاصاً أطلق عليه اسم «المكتب العربي» بمهمة تأمين الاتصال بالجزائريين. وقد أطلق على هذا الاسم اعتباراً من سنة ١٨٣٧ «مصلحة الشؤون العربية» وكانت هذه المصلحة تعمل تحت إشراف الضباط الإفرنسيين. وفي نهاية شباط - فبراير- ١٨٤٤ صدر قرار بإنشاء وظيفة «مدير الشؤون العربية»، لإدارة المصلحة السابقة تحت إشراف الحاكم الأعلى في كل دائرة وناحية وبذلك برزت «المكاتب العربية» التي حدد واجبها بتنظيم شرطة العرب، وجباية الغرامات والضرائب، ومساعدة الرؤساء الجزائريين الخاضعين لفرنسا، ومراقبة السكان من الناحية السياسية. وعلى هذا الأساس اعتبر الافرنسيون نظام المكاتب العربية ورؤساء الأهالي مهمًا لهم «يؤدي خدمة جليلة ومفيدة». وقد توسعت سلطات هذه المكاتب العربية بالتدريج وقوي نفوذها حتى أصبح ديوان المكتب العربي هو المركز الحقيقي للسلطة بالجزائر، وصارت تمارس مسؤوليات الحراسة والمراقبة، والتوجيه السياسي والديني والمالي والعسكري والإداري. كما صارت إدارة مستقلة حتى عن الجيش، ويخضع لها تسعة أعشار البلاد. واعتمد ضباطها في إدارتهم على الزعماء الوطنيين. ولكن ذلك لم يمنع الأوروبيين من التمتع بحقوق وامتيازات سياسية متعاظمة اعتباراً من سنة ١٨٤٨. كما لم يمنعهم ذلك من تنظيم معارضة شديدة ضدها ومناصبتها العداء طوال عهد الامبراطورية، مع محاولة القضاء

---

(١) صدر المرسوم المنظم لمنح هذه الجنسية في ١٤ تموز- يوليو- سنة ١٨٦٥. وحدد امتيازاتها وطريقة حصول الجزائريين عليها.

عليها باعتبارها تمثل في نظرهم حاجزاً ضد تسلطهم على البلاد سياسياً وإدارياً، واعتبروها دعامة للسلطة العسكرية التي يعارضون وجودها باستمرار- منذ سنة ١٨٤٨-. ودفع ذلك السلطة الإفرنسية إلى إصدار تعليماتها في ٢١ أذار- مارس- ١٨٦٧ والتي نصت على إشراف الحكام العسكريين للمقاطعات والنواحي، على توقيع الأوامر والتعليمات، وعلى حصر عمل المكاتب العربية في إدارة بشؤون الأهالي وجعل ضباطها «مجرد ضباط إتصال بين السلطتين المدنية والعسكرية».

لقد كان الجدل بين المدنيين والعسكريين من دهاقنة الاستعمار مركزاً في الواقع على أفضل السبل لتأمين «النهب الاستعماري» بأفضل الوسائل وأكثرها سهولة. والشواهد على ذلك غير محدودة، ومن ذلك على سبيل المثال: «تحتاج الجزائر إلى سيف الأباء حتى تتوافر فيها السعادة. والحكومة العسكرية هي التي تستطيع ممارسة الحكم بدون أن تصاب «بالارتعاش». وهي التي يمكن لها تذليل العقبات أمام المعمرين غير المدربين والمعزولين في كل مكان» وكذلك ما قيل: «من أنه بعد ثمانية وثلاثين عاماً من الاحتلال العسكري لا زالت فرنسا أجنبية عن هذا الشعب، مثل اليوم الذي وصلت فيه إلى الجزائر. وهذا ما يفرض دعم الحكم العسكري حتى لا تضيع الجزائر، وحتى لا تفقد فرنسا الطاقات العسكرية التي تستفيدها منها» ولم تتورع المجلة العسكرية الإفرنسية من دعم هذا الاتجاه فجاء في أحد أبحاثها ما يلي: «إن القوة وسيطرة الجيش هما الوسيلة الوحيدة للمحافظة على الأمن، وكسب ود الأهالي، وجلبهم إلى الحضارة الأوروبية»(١) هذا في حين حاولت بعض المصادر الافرنسية معالجة

---

(1) LA REGIME DU SABRE EN ALGERIE (LA REVUE MILITAIRE FRANÇAISE PARIS 1869 P.P.13, 17,31,48

الموقف من أرضية واقعية- ولمصلحة فرنسا أيضاً- فكتبت ما يلي: «وجد الأهالي- الجزائريون- أنفسهم، وهم مرغمين على البقاء تحت أشواك المسيحيين واليهود لأنهم لم يبق فيهم أي غني بورجوازي، وحولت مساجدهم إلى كنائس، واضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة نحو المغرب وتونس. أما ما بقي لأهالي الجزائر من الأعمال، فهي: السخرة والاغارات والضرائب والجفاف والسلب والنهب والربا وكروب الجوع والثورات، ونطلب منهم بعد ذلك كله أن يبقوا أصدقاء لنا في حالة الحروب»[1].

لقد وضح للجزائريين من خلال الصراع الدائر بين مراكز القوى الاستعمارية، أن شعب الجزائر ومشكلاته لم تكن تعني بالنسبة للاستعماريين شيئاً. وان كل اهتمام هؤلاء موجه لتجنيس الجزائريين وصهرهم في بوتقة المجتمع الافرنسي، بعد إعادة تشكيلهم، سواء كان ذلك بصورة بطيئة أو مستعجلة وكان لا بد لذلك من أن يثير كوامن الغضب في أعماق نفوس المسلمين المؤمنين.

ج- المسألة اليهودية وقانون كريميو

استقبل اليهود في الجزائر جحافل الغزو الاستعماري الافرنسي بالفرحة والابتهاج (سنة ١٨٣٠) حتى أنهم «ركعوا على ركبهم لتقبيل أقدام ضباط وجنود الحملة وأيديهم» وأصبحوا بعد ذلك وسيلة الإفرنسيين للسيطرة على البلاد. ووثقوا روابطهم بهم، وبدأ البعض منهم في الحصول على الجنسية الإفرنسية بصورة شخصية. حتى إذا ما أقبل العام ١٨٤٣، تم وضع أول مشروع لتحقيق تجنيس جماعي

(١) ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى أبو عزيز ص ٣٧- ٣٨.

لهم. واتضح بعد ذلك أن من مصلحة فرنسا ربط يهود الجزائر بها وتحويلهم إلى فرنسيين. واقترح المجلس العام لمدينة قسنطينة عام ١٨٥٨ تجنيسهم بصورة جماعية، ووجه يهود الجزائر عام ١٨٦٤ مذكرة إلى مجلس السيناتوس كونسولت بفرنسا في الموضوع ذاته حتى يحصلوا على حق الإنتخاب والعضوية في المجالس العامة. ولم يطل الأمر كثيراً، ففي ١٤ تموز- يوليو- ١٨٦٥ صدر قرار من المجلس نص على منح الجنسية الافرنسية لليهود والمسلمين معاً بصورة شخصية مع إحتفاظهم باحوالهم الشخصية «حيث نصت المادة الثانية من قرار التجنيس على أن الأهالي اليهود يصبحون فرنسيين مع احتفاظهم بالشخصية الموسوية. ولهم الحق في العمل بالجيش والوظائف العامة بالجزائر». واكتسب اليهود بعض الحقوق المدنية. وأخذت المجالس العامة بالجزائر، تطالب كل سنة إبتداء من هذا التاريخ بتحقيق الجنسية الجماعية لهم. وقد حمل المحامي «كريميو»[1] على عاتقه

---

(١) كريميو- أدولف: (CREMIEUX ADOLPHE, ISAAC MOISE) محام يهودي وسياسي افرنسي، من مواليد نيم (NIMES) (١٧٩٦- ١٨٨٠) أصبح نائباً في سنة ١٨٤٢ و١٨٤٦، عمل مستشاراً «يسارياً» للملك لويس فيليب. وتآمر ضده في انقلاب سنة ١٨٤٨، كما أسهم في انتخاب لويس بونابرت (وثلاثتهم من المحفل الماسوني الإفرنسي). وانتخب نائباً عن اليسار المتطرف في باريس سنة ١٨٦٩، وبذل نشاطاً كبيراً من أجل إعلان الحرب على بروسيا. وعندما اجتاحت القوات البروسية فرنسا وطوقت باريس شكل كريميو مع رفاقه حكومة «تور». ولم يلبث أن أصبح في ٢٠ تشرين الأول- أكتوبر- منتخباً عن الجزائر. وفي ٢٤ تشرين الأول- ١٨٧٠- أعلن قانونه المشهور بمنح الجنسية لليهود. وأصبح عضواً في مجلس الشيوخ- السيناتور- مدى الحياة في سنة ١٨٧٥. ومن أعماله أنه فرض على الجزائر بعد قمع ثورة سنة ١٨٧١ قانوناً بتجريد الجزائريين من ممتلكاتهم التي بلغت مساحتها (٤٤٦,٤٠٦) هكتاراً منها (٣٠١,٦١٥) هكتاراً من الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى غرامات بلغت (٦٤,٧٣٩,٧٥) فرنك إفرنسي، أو ما =

تحقيق هذا الهدف منذ عهد ملكية لويس فيليب، ووثق صلاته بيهود الجزائر خلال عهد الامبراطورية. وقام بحوالي سبع عشرة رحلة إلى الجزائر للاتصال بزعمائهم والاتفاق معهم على الاطار الذي يتم فيه مشروع التجنيس. واستمر في بذل الجهد وتذليل الصعوبات، حتى إذا ما أتيحت له الفرصة في حكومة تور وبعد سقوط نابليون الثالث، استغل الظروف الصعبة التي تمر بها فرنسا انذاك لتحقيق ما دعاه «أكبر حلم في حياته» فأصدر قانون ٢٤ تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٧٠ الذي يقضي : «بتجنيس اليهود في الجزائر بصورة جماعية واجبارية» ونزع اليهود عنهم ثيابهم القديمة- العربية- ولبسوا لباس الأوروبيين، بعد أن تطبعوا بأخلاقهم وعاداتهم.

اختلفت ردود الفعل تجاه «قانون كريميو» حتى بين يهود الجزائر. ومن المقولات التي طرحت في هذا المجال: «لقد رأينا كثيراً من اليهود متألمين من ذلك الأمر، لأنه أوقعهم فيما ليسوا أهلاً له من حمل السلاح والتوجه إلى الحرب وغير ذلك، مع أنهم لا يقدرون على شيء منه. وقد شوهد من حالهم الأمر الغريب عندما زجوا في معركة «المليلة» وصاروا عبرة لكل من رآهم» ورفع كبار المسلمين في ولاية- ايالة- وهران- عريضة للسلطات الافرنسية جاء فيها:

«تتصل قضية التغيير في الشريعة الإسلامية وعوائد المسلمين بمرسوم التجنيس. الذي ينص- من بين ما ينص عليه- على استحداث محاكم الجنايات بالجزائر، وإسناد وظيفة القضاء للمحلفين

= يعادل ٧٠ بالمائة من رأس المال المتوافر في الجزائر».

LE DEFI ISRAELIEN (LUCIEN CARVO - DEMARS) LIBAN , 1971. P.P. 44 - 45.

الأوروبيين واليهود، والاستغناء بالتدريج عن المحاكم الاسلامية. . . لقد علمنا بطلب تغيير أحكام شرعنا، فلم نقبل هذا الطلب، وعارضناه بالكلام والكتابة. ورفعنا شكايتنا اليكم نطالب بالإبقاء على شريعتنا وعلى أصلها، وأن لا يقع فيها تبديل ولا تغيير، وفاء بالعهد الصادر من الدولة يوم استيلائها على الاقليم الجزائري في ٥ تموز- يوليو- ١٨٣٠. وكذلك العهد الواقع بين كبراء مخزن وهران وبين الدولة يوم ٦ حزيران- يونيو- ١٨٣٥ . . ونحن معشر المسلمين لاعمدة عندنا سوى ديننا وهو رأس مالنا، ولا يخفى أن الشرع عندنا هو الدين، والدين هو الشرع، فلا فرق بينهما كما يتوهمه بعض الناس، وإذا وقع أقل القليل من التغيير في شرعنا فقد تغير ديننا لأنهما شيء واحد. . .»[1].

أما «ابن علي الشريف باشآغا شلاطة» المشهور بعمالته لفرنسا، فقد صرح أمام قائد فرنسي بما يلي: «كم نحن مجروحون من تجنيس اليهود بالجملة، دون تفريق أو تمييز بين الرجال الفاهمين وبين اليهود الذين تعرفهم مثلي، وتعرف أننا رافقناكم في كل المعارك، وبدلاً من أن تشجعونا، أبقيتمونا مرؤوسين محتقرين. إن الصحافة تتهمنا باطلاً وتشتمنا وتهددنا في أملاكنا وشرفنا. ولقد حملنا السلاح لنذافع عن أنفسنا». ونقلت «صحيفة الشمال» عن أحد الزعماء الجزائريين قوله: «إن الجزائريين كلهم على كلمة واحدة، في إنه ليس اليهود هم

---

(١) تاريخ الرسالة ١ كانون الثاني- يناير- ١٨٧٢ وهي تحمل تواقيع: أحمد ولد القاضي باشآغا فرندة بمنطقة معسكر، ومحمد عبد الله بن والي خليفة ميرا والشلف بمنطقة مستغانم. وحامدبن حامد آغا أولاد رباح بتلمسان. وعبدالقادرولد الدين آغابني عامر بيلعباس. وبذلك فهم يمثلون كل سكان ولاية- ايالة- وهران. (عن ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى ابو عزيز- ص ١٤٥- ١٤٦) فصل الموقف من تجنيس اليهود.

الـذين أصبحوا فـرنسيين، ولكن فـرنسـا هي التي أصبحت يهودية». [1] وحاول «كريميو» الدفاع عن مشروعه بقوله: «كيف تمنح جمهورية ١٨٤٨ الحرية والقوانين للسود، ولا تعطي جمهورية ١٨٧٠ التجنيس لليهود الذين يرتدون الثياب الافرنسية منذ سنوات، قبل أن يرتدوا البذلة الشرقية» غير أن «كريميو» اعترف ان قرار ٢٤ تشرين الأول- اكتوبر- هو الذي جعل اليهود قضاة، وهو الذي دفع المسلمين إلى الثورة. وقال: «نعم هذا هو الواقع». وعلى غرار «كريميو» دافع المجلس الملي المركزي الإسرائيلي في فرنسا، على القرار باعتباره «ضرورة اجتماعية» ونفى أن يكون سبباً في ثورة الجزائريين. وادعى أن الأسباب المادية لثورتهم تكمن في أنهم كانوا على استعداد في كل وقت للثورة ضد المسيحيين.

واعتبر أحد القادة العسكريين المعاصرين للحادث: «بأنّ قرار التجنيس الكئيب النتائج هو الذي أشعل النار في كل مكان ويجب إعدامه. وروي عن بعض الأهالي قولهم: «بأنّ اليهود الذين لا يدفعون الضرائب. ولا يشمون رائحة البارود، أصبحوا مساوين للافرنسيين. ونحن الذين قدمنا عشرين ألفاً من أبنائنا للحرب، وأعطينا شرفنا، نعامل هكذا كالمغلوبين».

أما الحاكم العام للجزائر سنة ١٨٧١ «الأميرال الكونت دو غيدان» فقد رفع تقريراً إلى وزير الداخلية الافرنسية في ٢٩ نيسان- إبريل- ١٨٧١ جاء فيه: «لقد جرح العرب في أعماق قلوبهم وفي وطنيتهم النظيفة بسبب تجنيس اليهود الجماعي الذي سمح لليهود باحتلال مناصب عالية إدارية وقضائية».

---

(1) LE NORD DU 9 ET LE 10 MAI 1871.

وصرح حاكم «تيزي أوزو»: «بأنه استمر طوال ثلاثة سنوات وهو يسأل الناس ويستفسرهم عن سبب ثورتهم، وأنه خرج بالنتيجة التالية: لقد ثار المسلمون ضد السوقة اليهود وضد التصرفات الحمقاء لحكومة الرابع من أيلول- سبتمبر-».

واستنكر «قارو» [1] قرار التجنيس بقوله: «حصل أربعون ألف يهودي في يوم واحد، وهو يوم النكبة والكارثة، وبواسطة الغش والخداع، على المزايا التي لم يحصل عليها اللاتين في روما إلا بعد نضال قرنين من الزمن» وأكد أن: «قرار ٢٤ تشرين الأول- اكتوبر- هو غلطة ضد الوطن، وحرض الجزائريين على الثورة».

تلك هي بعض المقولات التي طرحت في مجال «قانون كريميو» لتجنيس اليهود جماعياً، وتقابلها مقولات كثيرة للدفاع عن هذا القانون. المهم في الأمر هو أن هذا القانون قد أخذ طريقه للتنفيذ، رغم معارضة المسلمين في الجزائر ومقاومتهم له، وعلى الرغم أيضاً من تصدي بعض الافرنسيين من مدنيين وعسكريين- وحتى اليهود لمعارضته ومقاومته. وهناك من ينكر أن يكون لهذا القانون علاقة بثورة ١٨٧١- في حين يرجع آخرون لهذا القانون سبب الثورة وذريعتها. والأمر الذي لا يقبل الجدل هو أن هذا القانون قد ترك أثراً عميقاً في نفوس الجزائريين المسلمين المجاهدين في سبيل الله، ودفعهم لحمل السلاح دفاعاً عن مقدساتهم.

المهم في الأمر بعد ذلك، ربط هذا القانون بما كان يحدث على جبهة المشرق (في بلاد الشام) وفقاً لما سبق ذكره، وكذلك ربط هذا

(1) GARROT (LA MYSTIFICATION DU DECRET CREMIEUX) ALGER 1898 P.P. 14 - 21 , 38 , 65 - 68

القانون بما تم تطبيقه عند احتلال تونس، وفقاً لما أورده الشيخ المجاهد أحمد توفيق المدني، ومنه ما يلي: «كانت بتونس خاصة، وبمختلف بلاد المملكة التونسية يومئذ عامة، طائفة يهودية كبيرة العدد، مسالمة، تشتغل في أمان وفي حرية مطلقة بالتجارة. وأخرجت المدرسة الحديثة طائفة من الشبان اليهود تعلموا وأصبحوا محامين وأطباء وصيادلة. وأخذ الشيطان ينفخ في أوداجهم، فأنفوا البقاء رعايا تونسيين، وراموا الاحراز على الجنسية الإفرنسية أسوة ببني ملتهم في الجزائر منذ صدور قانون كريميو سنة ١٨٧٢، فأصبحوا حاكمين بعد أن كانوا محكومين. ورفعوا عقيرتهم يومئذ. وتوالت إجتماعاتهم وأخذوا في أقوالهم وفي بعض كتاباتهم يمتهنون جنسية تونس، ويفحشون القول للتونسيين. . «وتحدثت إلى أحد اليهود في الأمر، فقال لي: نحن اليوم نجتمع حول ثلاث من النقط لا خلاف بيننا فيها إطلاقاً؛ اليهودية والتوراة وأورشليم- القدس. ونحن رعاية لمصالحنا، وصوناً لتجارتنا، وحفظاً لأموالنا، نريد أن نكون دوماً مع الغالب لا مع المغلوب. . . ونحن نرى أن نكون من الآن فرنسيين حتى لا يسير الركب الفرنسي الجامح بدوننا. . . ومآلنا المحتم هو أن نرجع لفلسطين وأن نبني دولتنا من جديد على أنقاض دولة داوود. وعندئذ يعود لأورشليم عزها وازدهارها ويكون لليهود صوت في العالم. . . وعندئذ يحكم سلطان التوراة»(١).

ويكمل «لوسيان كورفو» صورة الموقف ونتائج «قانون كريميو» على أفق المستقبل بقوله: «ولنتذكر أيضاً أن هناك ثمانون بالمائة من

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر / ٤٩٧- ٧٦ / ص ٥١.

اليهود الافرنسيين الذين هاجروا إلى إسرائيل عند إقامتها من الجزائريين اليهود الذين تم تنظيمهم وتدريبهم على توجيه الأمور الإدارية والسياسة وتكوين الأجهزة القيادية «الكادرات» لتنفيذ السياسة الإفرنسية بالتعاون مع أبناء دينهم في باريس»[1] .

د- التحريض الخارجي (البروسي- العثماني)

١- التحريض البروسي:

انفجرت الحرب البروسية- الافرنسية في شهر تموز - يوليو- ١٨٧٠ . وعلى أثر ذلك نشطت أجهزة الدعاية البروسية وشبكات جاسوسيتها في العمل ضد فرنسا، في أوروبا وخارجها على حد سواء. وانعكس ذلك بصورة طبيعية على صفحة الجزائر، حيث حاولت بروسيا استثمار النقمة المتعاظمة ضد فرنسا وممارساتها وتوظيف الغضب الشعبي ضد الوجود الافرنسي في الجزائر. وقد تم اختيار تونس لتكون قاعدة للنشاط المضاد لفرنسا بسبب قرب الحدود من جهة ، ونظراً لتوافر أعداد ضخمة من اللاجئين والمنفيين من الجزائريين الذين كانوا يستقرون في المناطق المتاخمة للحدود التونسية - الجزائرية، من جهة ثانية. وعلى هذا، نظم البروسيون شبكة إعلامية سرية في صيف ١٨٧٠ بهدف التحريض ضد السيطرة الإفرنسية بالجزائر، خاصة بعد انفجار أحداث الرابع من أيلول- سبتمبر- . وكان على رأس هؤلاء العملاء والجواسيس البروسيين «جيرارد روهلف» و «الدكتور وتزستاين» اللذان وصلا إلى تونس بحراً- عن طريق حلق الوادي في شهر اب- أغسطس- ١٨٧٠. وقد وقع الاختيار

---

(١) التحدي الاسرائيلي- لوسيان كارفو- لبنان (طبعة فرنسية) ص ٤٥.

على «جيراردروهلف» لتنفيذ هذه المهمةبسبب معرفته القديمةللمنطقة ومعرفته أيضاً للغة العربية معرفة جيدة. حيث كان يعمل جندياً مرتزقاً في حرس الشرف بالجزائر ثم غادرها في العام ١٨٦٩ إلى طرابلس للقيام بنشاط مضاد للسياسة الإفرنسية بالجزائر. غير أن إقامته في طرابلس لم تستمر طويلاً، إذ اكتشفت السلطات التونسية نشاطاته فأبعدته ورفيقه إلى صقليا- بعد اعتقالهما لفترة قصيرة. وقد استمر بعد ذلك تسرب الجواسيس البروسيين من تونس إلى مدن الجزائر الوسطى الساحلية، وإلى المغرب الأقصى حتى طنجة لنشر دعايتهم ضد الإفرنسيين، واستمالة الأعوان اليهم. ولكنهم على ما يظهر لم ينجحوا في مهمتهم النجاح المطلوب، ولم يستميلوا إلا نفراً قليلاً لم يؤد دوراً مفيداً لهم... ولعل هذا الفشل هو الذي دفع البروسيين إلى تزوير رسائل تأييد باسم الجزائريين إلى الامبراطور البروسي. فقد نشرت الجريدة الرسمية الألمانية في أواخر تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٧٠ رسالة مزعومة من الجزائريين إلى الامبراطور «غليوم» يعلنون فيها تأييدهم له وفرحهم بانتصاره. واضطر الجزائريون بالعاصمة إلى تكذيب ذلك في رسالة طويلة وجهوها إلى محرر جريدة (المبشر) لنشرها. وكان في مقدمة الموقعين عليها: حسن بن بريهمات، وعدد آخر من القضاة ورجال الإفتاء والأئمة والعدول [1].

لم يحاول الإفرنسيون فهم حجج الثورة الدائمة في الجزائر وأسبابها، فاتهموا البروسيين بالتحريض عليها، كما اتهموا في الوقت ذاته حلفاءهم الإنكليز بالتحريض على الثورة، في محاولة لاستثمار

---

(١) المبشر عدد ٧٣٢ (٥ كانون الثاني- يناير- ١٨٧١) والأخبار ١٨ كانون الأول ديسمبر ١٨٧٠ وبريد وهران (٢١ كانون الأول- ديسمبر- ١٨٧٠).

الخلافات القائمة بين فرنسا وبريطانيا بشأن التنافس الاستعماري.
وقد لا تكون هناك أهمية لاستعراض ما كانت تتبادله الصحافة البروسية- الافرنسية- البريطانية من اتهامات بشأن التدخل في الجزائر والتحريض على الثورة. غير أن الأمر الثابت هو أن الجهود الأجنبية وعمل أجهزةالاستخبارات والدعايةكان- من حيث النتائج- محدوداً.
غير أن سقوط فرنسا وانهيار امبراطورية نابليون الثالث أمام البروسيين كان ذا أثر حاسم، إذ أظهر ضعف فرنسا من جهة، وفتح باب الأمل الواسع أمام الجزائريين في التحرر من ربقة الاستعمار الاستيطاني الذي كان يجثم بكل ثقله، وبكل وحشيته، على صدورهم.

٢- التحريض الوطني الجزائري (محيي الدين بن عبد القادر):

كان محيي الدين يعيش مع أبيه الأمير عبد القادر في منفاه بدمشق واشتهر بثقافته الواسعة، وحماسته للقضية الإسلامية. وحظي باحترام الدولة العثمانية التي أنعمت عليه «بالنيشان العثماني من الدرجة الثالثة» أيام السلطان عبد العزيز. وأسند إليه في سنة ١٨٦٥ منصب «قاضي أزمير». وبقي يمارس نشاطه بصورة عادية حتى سنة ١٨٧٠، غير أنه كان يكثر من التبرم والشكوى، ويتحرق شوقاً لاستئناف الجهاد من أجل تحرير الجزائر. وعندما تأزمت العلاقات البروسية- الإفرنسية، تظاهر محيي الدين بالمرض، وحصل من الأطباء على تصريح له بضرورة السفر للاستجمام. فأذن له أبوه الأمير عبد القادر بالتوجه إلى الاسكندرية. وعندما اندلعت الحرب البروسية- الافرنسية، ظن محيي الدين أن أمدها سيطول، وأراد انتهاز الفرصة لتحرير وطنه الجزائر من ربقة الاستعمار الافرنسي، فغادر الإسكندرية متوجهاً إلى تونس بصورة

خفية- وبدون أن يعلم أحداً بوجهته- وذلك في آخر شهر تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٧٠ . واستقبلته السلطة الرسمية التونسية بحفاوة، ومنحه الباي محمد الصادق «نيشان الافتخار التونسي» في ١٨ تشرين الثاني- نوفمبر-. وتظاهر «محيى الدين» بالإنصراف لدراسة المخطوطات العربية- الإسلامية في تونس، وتجنب الاتصال بالناس- قدر المستطاع، واكتفى بتحرير نحو المائتي رسالة لزعماء الجزائر حتى «يستعدوا لمحاربة فرنسا عند قدومه اليهم، وأرسلها بصورة سرية مع المراسلين». غير أن أجهزة الاستخبارات الإفرنسية المتعاونة مع الاستخبارات التونسية شعرت بنشاطه الخفي على ما يظهر. فغادر «محيى الدين» تونس إلى مالطا، وعاد فاتجه نحو طرابلس الغرب، ومنها إلى توزر، ونفطة ونغزاوة، متنكراً في ثياب مغربية ، ومعه عدد من اخوانه المجاهدين. وعند ذلك أصدرت السلطة التونسية بتحريض من الاستخبارات الإفرنسيةأوامرها إلى ولاةالأقاليم وأجهزةالشرطة بمطاردته واعتقاله. واستطاعت السلطات التونسية اكتشاف قافلة من أهل سوف كانت متجهة إلى الجزائر، ومعها كمية من البارود وزنها (٦٣) رطلاً، فصادرتها منهم. غير أن «محيى الدين» استطاع الوصول إلى منطقة الحدود، حيث التف حوله عدد كبير من الجزائريين اللاجئين أو المنفيين إلى تونس، ومنهم ابن ناصر بن شهرة الذي كان متمرداً ثائراً ضد السلطات الافرنسية منذ العام ١٨٥١، واستقر في «نفطة» وجعل منها قاعدة لجهاده ضد الافرنسيين، متنقلاً ما بينها وبين نغزاوة والجريد. كما انضم إليه الشيخ سليمان بن جلاب السلطان السابق في «تقرت» والذي أبعد إلى هناك منذ العام ١٨٥٤.

وكذلك الشيخ ابراهيم بن عبد الله، مقدم اخوان عبد القادر الجيلالي «بورقلة» والشيخ مصطفى بن عزوز، مقدم زاوية

نقطة الرحمانية الذي فتح أبواب زاويته لاستقبال كل الجزائريين المنفيين والفارين الى هناك، ومحمد بن العشابي البسكري الذي التجأ الى نغزاوة منذ مدة طويلة، والشيخ الميزوني، مقدم زاوية الكاف، الذي وضع تحت تصرف محيى الدين كاتباً لمساعدته في تحرير الرسائل والبيانات، ومحمد بن أحمد الصغير، ابن الخليفة السابق للأمير عبد القادر في «الزيبان وسيدي عقبة»، ومحمد بن علاق رئيس اولاد يعقوب، وزيادة على هؤلاء، حضر مع «محيى الدين» من طرابلس، ضابط الاستخبارات البروسي «جيرارد روهلف». وابن هلال كاتب أبيه، والشيخ محمد رزوق بن سيدي صالح البسكري الذي كان قد اضطلع بدور كبير في أحداث «ثورة الزعاطشة عام ١٨٤٩» والتجأ إلى طرابلس. وكل هؤلاء على ما هو واضح من كبار المجاهدين في سبيل الله ـ باستثناء البروسي جيرارد طبعاً ـ وممن كانت لهم أيامهم المجيدة ضد الاستعمار الافرنسي. ويدل تجمعهم حول «محيى الدين» في أواخر العام ١٨٧٠، على أنه قد تم الاتصال معهم بصورة مسبقة، وقبل أن يحضر الى هناك. كما يؤكد ذلك أن «محيى الدين» كان مصمماً على الافادة من ظروف انهيار فرنسا أمام الضربات البروسية لتحرير وطنه وقومه. وقد كتب «محيى الدين» عدداً كبيراً من الرسائل خلال شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٧٠ الى عدد من الزعماء الجزائريين: «يدعوهم الى الجهاد، وتدبير المؤن والذخائر، وتجنيد الناس». واستعمل محيى الدين في بعض رسائله، خاتم أبيه، للتأثير على الناس. ولكن، وبينما كان «محيى الدين» يقوم بهذا النشاط في منطقة الحدود، اتصلت الحكومة الافرنسية بالقائم بأعمال قنصليتها في دمشق، ليطلب من الأمير عبد القادر أن يعلن استنكاره لنشاط ابنه، فعمل الأمير عبد القادر على تأكيد التزامه وعهوده تجاه فرنسا. وقام

بتحرير الرسائل التالية:

١ـ رسالة إلى أعضاء حكومة «تور» ببوردو، واستنكر فيها استغلال اسمه لإثارة سكان الصحراء[١].

٢ـ رسالة إلى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب، طلب منه العمل على إعادة ابنه. وأحاطه علمًا بأنه كاتب الوزير التونسي «مصطفى خزندار» والقنصل الافرنسي، فلم يردا عليه[٢].

٣ـ رسالة إلى القائم باعمال القنصلية الأفرنسية بدمشق جاء فيها: «بأن عدو الله وعدوي وعدو نفسه، المجنون محيي الدين، وصل إلى الحدود بين حكومة تونس وحكومة الجزائر» وطلب منه الحصول على اذن لتوجيه نداء إلى سكان الجزائر: «ليتحقق الناس أنني بريء منه ومن فعله»[٣].

٤ـ رسالة إلى ابن عمه «قاضي معسكر الطيب بن المختار» طلب منه أن يحذر الناس من اتباعه «فإنه محض عبث»[٤].

٥ـ رسالة بشكل نداء موجه لسكان الجزائر يحذرهم من مغبة اتباع ابنه الذي عبر عنه «بالشقي» هو ومن انضم إليه، وأعلن أنه

---

(١) تاريخ الرسالة ٢٠ شوال ١٢٨٧ هـ (٣ كانون الثاني- يناير- ١٨٧١) ونشرتها صحيفة المبشر، العدد ٧٣٦ (تاريخ ٢ شباط - فبراير- ١٨٧١).

(٢) تاريخ الرسالة ١٨ ذو القعدة ١٢٨٧ هـ (الموافق ٩ شباط- فبراير ١٨٧١)

(٣) تاريخ الرسالة منتصف محرم ١٢٨٨ هـ (الموافق ٩ نيسان- إبريل ١٨٧١) ونشرتها صحيفة المبشر، العدد ٧٥٤ (تاريخ ٨ حزيران- يونيو- ١٨٧١).

(٤) تاريخ الرسالة ٢٠ محرم ١٢٨٨ هـ (٤ نيسان- إبريل- ١٨٧١) ونشرتها صحيفة «المبشر» العدد ٧٥٣ (١ حزيران- يونيو- ١٨٧١)

سيتبرأ منه إذا رفض الانصياع إلى أوامره وطلب منهم أن «يطردوه من بينهم» [1].

استطاعت فرنسا بذلك، وعن طريق الأمير عبد القادر، إحباط معظم الجهود التي بذلها «محيي الدين» طوال أشهر عديدة. وزاد موقفه حرجا عند قيام حكومة تونس بحذو حذو الأمير عبد القادر في مطاردة «محيي الدين» والقاء القبض على كل «الغرباء» الذين يفدون بحراً إلى الجزائر. ولكن وعلى الرغم من الضجيج الذي أثارته رسائل الأمير عبد القادر، وما نزل بابنه من تدهور في الروح المعنوية بنتيجة ذلك، وعلى الرغم أيضاً من مضايقات الحكومة التونسية، فقد صمم «محيي الدين» متابعة أعماله في بداية سنة ١٨٧١، فتقدم بمن انضم إليه من المجاهدين والأنصار إلى قرية «نقرين» فى أواخر شهر شباط- فبراير- وسيطر على قرية «فركان» وراسله سكان الصحراء ليتجه اليهم جنوباً. ولكنه فضل أن يتجه نحو «الشريعة» و «تبسة». وفي يوم ٩ آذار - مارس دخل إلى «نقرين» ووفد عليه هناك وفد من أولاد خليفة، الثائرين بالشريعة. فاتجه معهم إلى «سكرانه» ثم إلى «الشريعة» و «جبل الدكان». وشعر المعمرون الأوروبيون بالخطر، فتحصنوا بمدينة «تبسة» وأغلقوا أبوابها، والتجأ معمرو حلوفة الأوروبيون إلى «مسكيانة». وفي يوم ٢٦ آذار- مارس- اصطدم محيي الدين بقوات فرنسية متفوقة في «وادي الحميمة» ودارت رحى معركة طاحنة أظهر فيها المجاهدون قدراً كبيراً من الثبات، غير أن القوات الا فرنسية المتفوقة بالقوى والوسائط النارية، استطاعت إحراز النصر، واضطر

---

(١) تاريخ الرسالة أواخر المحرم ١٢٨٨ هـ (٢٠ نيسان- إبريل- ١٨٧١) ونشرتها صحيفة «المبشر» العدد ٧٥٤ (٨ حزيران- يونيو- ١٨٧١).

محيى الدين أن ينسحب بفلول قواته إلى «بلاد النمامشة- داخل الحدود التونسية» ورجع محيى الدين بعدها إلى مدينة صيدا في بلاد الشام، وأقام فيها سنة تقريباً بعد أن رفض أبوه استقباله، وبعد أن طرد عائلته من منزله غير أن بعض اصدقاء الأمير عبد القادر في دمشق (أمثال عادل الصلح ومحيى الدين الجوهري) تدخلوا في الصلح بين الأب وابنه. كما تدخل القائم بالأعمال الافرنسي بدمشق بعد أن تسلم أمراً من حكومته بطلب العفو عليه من أبيه، فعفا عنه في رسالة وجهها إلى القائم بالأعمال الإفرنسي يوم ١٥ شعبان ١٢٨٨ هـ (تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٧١). كما كتب إلى والي الجزائر العام الافرنسي، يخبره بوصول ابنه إلى دمشق.

٣- التحريض العثماني

لم تتوقف الدولة العثمانية عن بذل ما تستطيعه من الجهود في محاولة لاستعادة نفوذها في المغرب العربي- الإسلامي. وعندما وقعت الحرب البروسية- الإفرنسية، حاولت الدولة العثمانية من جديد استثمار الموقف. سواء عن طريق «محيى الدين» الذي يقال أنه توجه إلى الجزائر بتحريض من السنوسيين بسوريا، والذين كان لهم ألف من الأتباع والدعاة في الجزائر، يجوبون البلاد «ويدعون إلى الجهاد ضد المسيحيين» أو عن طريق «الجمعية الخيرية الإسلامية للجزائر المحروسة» التي كانت على اتصال بالباب العالي. وجدير بالذكر أنه عندما ظهر «محيى الدين» في خريف سنة ١٨٧٠ بمنطقة الحدود التونسية- الجزائرية، أشاع أتباعه أن جيشاً عثمانياً من ستة آلاف جندي هو في طريقه إلى تونس للسيطرة عليها وتحرير الجزائر. ورافق ذلك انتشار دعاة من قبل العثمانيين في «قابس» و «صفاقس»

و«جربة» أظهروا نشاطاً في الدعاية لصالح السلطان العثماني، هذا بالإضافة إلى قيام ثمانية ضباط من الأتراك الذين يجيدون التحدث باللغة العربية في الجنوب التونسي، ببذل نشاط واضح لاستمالة الأنصار وتنظيمهم وإمدادهم بالأموال.

لم تقف فرنسا موقف اللامبالاة من التحريض العثماني، فعملت على تحذير «الباب العالي» ومارست ضغوطاً قوية أرغمت الدولة العثمانية على سحب ضباطها من تونس إلى طرابلس في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ كما عملت على سحب المؤن والذخائر الحربية التي وصلت إلى تونس بعد ذلك في شهر نيسان ـ إبريل ـ ١٨٧١ . وعلى أثر ذلك، وجه زعماء «الجمعية الخيرية الإسلامية للجزائر المحروسة». رسالة إلى الصدر الأعظم «محمد نديم باشا» في أواخر عام ١٨٧١، جاء فيها «إن أصل محاربتنا وعصياننا ضد أعداء ديننا كان باختيار الدولة العلية ورغبتها. ولم نقصر في شيء مما رغبت به الدولة العلية وأشارت به علينا بواسطة المرحوم عالي باشا السابق، وحضرة تورس باشا، وما وعدنا به من الإعانة السرية والعلنية بالأسلحة والنقود، وغريب بعد ذلك سكوت الدولة العلية عن إنجاز ما وعدتنا به بعد تحريضنا على القتال والعصيان، مع أننا نحن نبلغ الخمسة ملايين، وكلمتنا كلمة واحدة، وإيماننا ولله الحمد ثابت، وإقدامنا في الحروب بات حديث الركبان» (١) وفي رسالة أخرى وجهها زعماء الجمعية الخيرية جاء ما يلي: «إننا نقترح على السلطان اختيار واحد من الأمور الثلاثة التالية لحل مشكلة الجزائر: فإما توسيط بعض الدول حتى تسلم فرنسا بسيادة السلطان على الجزائر، وإما مطالبة فرنسا بالتنازل

---

(١) تاريخ الرسالة هو ١٠ رجب ١٢٨٨ هـ (الموافق ٢٥ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٨٧١)

عن الجزائر مقابل مبلغ مالي نلتزم بدفعه. وإما إعلان الحرب عليها إذا رفضت الأخذ بالحلين الأولين»[1] **ويظهر بوضوح ان التحريض العثمانـي، وجهود «محيي الدين بن عبد القادر»، وكذلك التحريض البروسي، لم يكن بعيد الأثر في تفاعلات ثورة سنة ١٨٧١، لا سيما وان الشواهد المتوافرة لا تؤكد يقيناً ارتباط قادة هذه الثـورة بالمحرضات الخارجية.**

هـ ـ الكوارث الطبيعية

عرفت الجزائر كل أنـواع الكوارث الـطبيعية والنكبـات الاقتصادية والأزمات السياسية والمآزق الاجتماعية منذ أن وطئت جحافل الغزو الاستعماري الاستيطاني بأقدامها ثرى الجزائر. وكانت السياسة الوحشية التي طبقتها السلطات الإفرنسية ضد الجزائريين أساس كل هذه المحن، التي عملت على تحويل الجزائريين إلى طبقة بائسة محرومة من كل ضرورات الحياة ومتطلباتها، فالعمليات العسكرية التي شنها الجيش الإفرنسي، ومنها العمليات في منطقة القبائل عام ١٨٥٧، أدت إلى فقدان السكان لاستقلالهم السياسي، وتدمير إنتاجهم الزراعي وثروتهم الحيوانية، بالإضافة إلى تخريب صناعتهم التقليدية والقضاء على أسواقهم التجارية، وجـاءت الغرامات الحربية الفادحة والضرائب الباهظة المفروضة لتزيد من بؤس المواطنين الجزائريين. ولتلقي على كاهلهم ما لا قبل لأحد باحتماله.

تعرضت الجزائر لغزو أسراب الجراد في العام ١٨٦٤، **وأخذ**

---

(١) تاريخ الرسالة هو ١٨ محرم ١٢٨٩ هـ (الموافق ٢٨ آذار. مارس- ١٨٧١).

هذا الغزو شكلاً خطيراً مع بداية العام ١٧٦٦ الذي أطلق عليه اسم «عام الجراد». حيث عبرت أفواج الجراد جبال الأطلس من الجنوب إلى حقول الشمال ومزارعه «في شهر نيسان- إبريل» ملتهمة في طريقها كل ما تجده من الخضار والثمار. ففقد الناس إنتاجهم، وتعرضوا لضائقة مادية شديدة، واستمرت بعد ذلك هجمات الجراد في كل عام. وبينما كان الأهالي يعانون هذه المحنة، حدثت زلازل في البليدة وقرى متيجة (متوجة) في مطلع العام ١٨٦٧. وانتشر مرض الكوليرا والتيفوس. وكان وباء الكوليرا قد ظهر في العام ١٨٦٦ بشكل محدود، ثم تعاظم خطره في العام ١٨٦٧، وانتشر في البلاد عن طريق المسافرين الأجانب الذين كانوا يفدون إلى البلاد عن طريق الموانىء. ومع انتشار الكوليرا، انتشر أيضاً مرض «التيفوس» فأخذ الجزائريون يموتون بالجملة في القرى والطرقات العامة، مما أرغم السلطات الإفرنسية على تسخير السكان لحفر الخنادق العميقة لدفن الموتى. «وذكر أن عدد الضحايا من المواطنين الجزائريين هو مما يصعب تقديره، وأن الذين ماتوا خلال شهرين فقط قد وصل إلى مائتي وخمسين ألفاً»[1] «وأن ضحايا الكوليرا في منطقة دللس وحدها بلغوا عشرة آلاف مواطن». أما في بسكرة «فقد مات أكثر من ألف مواطن خلال فترة (١٥) يوماً فقط- ما بين ١٥ و ٣٠ تموز- يوليو- ١٨٦٧».

لم تقف الكوارث الطبيعية عند حدود انتشار الأوبئة، وإنما تجاوزتها بسبب ما حدث من القحط والجفاف، مما أدى إلى نفاد المحصولات الزراعية والغذائية. فمنذ العام ١٨٦٥ والمطر يشح ولا ينزل إلا بمقدار، وفي أيام قليلة من فصل الشتاء. ودام هذا القحط

---

(١) ثورة ١٨٧١، الدكتور يحيى ابو عزيز- ص ٨٣- ٩٢.

ثلاث سنوات، وخاصة عام ١٨٦٧ الذي قلت فيه حتى مياه الشرب، وجفت الينابيع في الصيف، واشتد البرد في الشتاء، فيبست الحشائش، وماتت المواشي، خاصة في الهضاب العليا. وتفشت من جراء ذلك المجاعة في البلاد، حتى أصبح الناس يؤرخون بها ويقولون حدث ذلك «عام الشر».

أخذ سكان الهضاب العليا يهاجرون أفواجاً وجماعات إلى أقليم التل بحثاً عن الطعام. وكان سكان التل الذين توجه اليهم هؤلاء المنكوبون يعيشون في ضيق شديد. وأقدم بعض الأهالي على ارتكاب جرائم القتل والسرقات، حتى يلقى عليهم القبض فيضمنوا لقمة العيش داخل السجون. وعندما كثر ازدحامهم في الطرقات والساحات العامة بمدن الشمال وقراه بحثاً عما يسد الرمق، تصايح الأوروبيون، وطلبوا إلى السلطات الحاكمة أن تطردهم. بدعوى أنهم كانوا يهددون الأمن والصحة العامة. واستجابت هذه السلطات للأوروبيين، فأعطت أوامرها لضباط الجيش من اجل إقامة المعسكرات لحشد المواطنين الجزائريين المنكوبين في مليانة والأصنام وغيليزان، وبالفعل، تم فيها حشد حوالي خمسمائة وأربعين ألف مواطن. وقضت هذه المجاعة على أكثر من ثلاثمائة ألف جزائري- في حين قدر بعضهم عدد الضحايا بضعف هذا الرقم. ففي ولاية «عمالة» قسنطينة مات مائة وستون ألف شخص، وفي مدينة الجزائر بلغ عدد الموتى مائة ألف شخص. وتجاوز عدد الموتى في عمالة وهران مائة ألف شخص. وتناقص عدد مواطني القطر الجزائري خلال عشر سنوات، نتيجة التناقص المستمر في معدل الولادات منذ الاحتلال من جهة، وبسبب الكوارث الطبيعية من جهة ثانية، بأكثر من أربعمائة ألف شخص حتى سنة ١٨٧١. وبينما كان الأهالي يتناقصون على هذا

النحو، كان عدد الأوروبيين يتعاظم باستمرار. فقد كان عددهم (٢٢٠) ألفاً سنة ١٨٦١، وارتفع هذا العدد إلى (٢٧٢) ألفاً عام ١٨٧٢. وذلك راجع لعدم تأثرهم بالأزمة لأنهم كانوا يملكون الأراضي الجيدة والمسقية في المناطق الساحلية كثيرة الأوطار، ولأنهم كانوا يحتفظون بمدخرات كافية من المواد الغذائية.

استغل اليهود المجاعة عامي ١٨٦٧ و١٨٦٨، لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض التي كانوا يقدمونها للمنكوبين بفوائد فاحشة تتراوح بين أربعين ومائة بالمائة لمدة شهرين أو ثلاثة فقط من العام. مما جعل الكثيرين من الجزائريين يفقدون في نهاية الأمر أملاكهم ويتحولون إلى عمال بالخماسة. وبات من المحال على الجزائريين الوفاء بديونهم حتى عندما تخصب أراضيهم ويرتفع مردودها؛ إذ كان السماسرة اليهود والمعمرون من الأوروبيين، يتدخلون لخفض أسعار الحبوب بنسبة عشرين وحتى ثلاثين بالمائة. مما حمل الحاكم ماكماهون على القول: بأنّ رؤساء الأهالي الجزائريين دفعوا كل ثرواتهم التي استردوها من صغار الفلاحين إلى السماسرة اليهود أرباحاً فاحشة عن القروض التي أخذوها منهم.

والحقيقة، أن سعي اليهود وراء الأرباح الباهظة، لم يكن بالأمر الغريب عليهم، وهو ما أشار إليه أحد الأوروبيين في رسالة له بعثها إلى الامبراطور «نابليون الثالث» في ١٥ أيار- مايو- ١٨٦٥ وفيها: «أحيط جلالتكم علماً بأن الشعب الأهلي لعمالة وهران يدفع لصالح (ربا) اليهود، مبالغ تعادل أربعة أضعاف ما يدفعونه لفرنسا من ضرائب». وقد زادت الأزمة الاستعمارية حدة، عندما رفض بنك الجزائر تقديم «سلف- أو تسبيقات» لجمع المحصولات كما كان معتاداً.

واستعجل الدائنون بقسنطينة في استعادة قروضهم، وخاصة من الحاج محمد المقراني، الذي كان قد اضطر إلى أخذ القروض من البنوك والسماسرة اليهود بأرباح عالية، حتى يساعد الفلاحين على توفير البذار. ولما كان الوطنيون الجزائريون عاجزين عن دفع ديونهم، فقد أحدث ذلك موجة من السخط والغضب في كثير من الجهات، وخاصة في منطقة حكم المقراني التي باتت تعيش حالة من اليأس القاتل.

ولم تحاول السلطات الاستعمارية في الجزائر مد يد العون للوطنيين الجزائريين. وانطلق دهاقنة الاستعمار ومبشريه في القاء اللوم والمسئولية على الجزائريين أنفسهم، ومما قاله القسيس بورزي على سبيل المثال: «لم يقاوم العرب الجراد، وقالوا بأنّ الله الذي بعثه هو الذي سيطرده» في حين قال بعضهم: «لقد حدثت المجاعة بسبب كسل الجزائريين الفطري عن العمل، وكذلك لا يمكن، ولا ينبغي مساعدتهم». «وفي حين كان الجزائريون يعانون من انعدام وسائل الوقاية الصحية لهم، ومن سوء حالتهم الاقتصادية والمعاشية، وعدم اهتمام السلطات الإفرنسية بتحمل مسؤولياتها في مجابهة هذه الأوضاع، بينما كان الأمر مختلفاً في أوساط الأوروبيين الذين كانت حالتهم الاقتصادية حسنة، والوقاية الصحية متوافرة لديهم». وكان كل ما فعلته فرنسا ـ كعادتها ـ إرسال لجنة للتحقيق في أسباب مجاعة ١٨٦٧، وقد تقدم الى هذه اللجنة بعض النواب الجزائريين هم «حسن بريهمات والمكي بن باديس وأحمد ولد القاضي» وجاء في شهاداتهم ما يلي:

«... كان معظم الفلاحين يحتفظون بفائض منتجاتهم الزراعية ـ من الحبوب ـ في المطامير لاستخدامه في أيام الجوع أو القحط «وقت

المسغبة» ليدفعوا الضر عن أنفسهم. ولما حل بهم غلو السعر في استئجار الأراضي التي احتلها المستوطنون ،مع الزيادة في المغارم، صارت الحاجة تدعوهم إلى الاستدانة، والحصول على القروض بفوائد فادحة تزيد على الستين بالمائة، ممن انتصب لذلك ولم يرحم خلق الله. واضطر الفلاحون الجزائريون إلى بيع الزرع والصوف قبل أوانه بأقل من نصف القيمة. فصار الزرع الذي يحصدونه في الصيف، يخرج كله من أيديهم في الشأن المذكور. ولم يبق بأيديهم فاضل يدخرونه». ولقد حاول شيوخ الجزائر وزعماؤها في الواقع بذل كل جهد مستطاع لتقديم المساعدات الطبية والمواد الغذائية. وأخرجت الأسر الموسرة ما عندها من مخزون الحبوب ووافر المال وقامت بتوزيعها على المتضررين والمنكوبين. واضطر بعض هؤلاء الزعماء- ومنهم محمد المقراني- إلى الاقتراض من السماسرة اليهود بأرباح فاحشة من أجل اسعاف المحتاجين. وقد وجهت حكومة «ماكماهون» نداءاً لكبار التجار، طلبت منهم أن يقدموا قروضاً مالية- بضمان الدولة- لرؤساء الأهالي، ليقدموها بدورهم إلى مواطنيهم الجزائريين. واستجاب المقراني وتسلف من اليهودي «مسرين» الذي كان يملك أسهمًا في بنك الجزائر، قرضاً بمبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف فرنك، في شكل صكوك «سندات» غير أن هذا المبلغ لم يلبث أن ارتفع بالفوائد إلى نصف مليون فرنك. كما اقترض - المقراني أيضاً- مبلغ مائتي ألف فرنك من اليهودي « عبادي- من عائلة لافي» وثلاثمائة ألف من اليهودي «أبو قاية» فارتفعت ديونه بذلك إلى مليون فرنك. وكان ذلك سبباً في إيقاعه بمشكلات ومصاعب لا نهاية لها مع دائنيه.

و- الثورات التمهيدية

لم تعرف الجزائر المجاهدة الهدوء أو الاستقرار منذ وطئت أقدام الغزاة المستعمرين ثرى الجزائر الطهور، ولم تكن ثورة باي قسنطينة في المشرق، وثورة الأمير عبد القادر في بقية أنحاء القطر الجزائري إلا البدايات الأولى للمقاومة التي لم تتوقف في يوم من الأيام.

١- كان في منطقة «سور الغزلان» معلم يعلم القرآن الكريم للأطفال، اسمه محمد الأمجد بن عبد المالك، ولقبه «الشريف بوبغلة»،أغضبه ما كان يقوم به الإفرنسيون من انتهاكات ضد الإسلام والمسلمين، فأعلن ثورته في العام ١٨٥١ بعد أن انتقل إلى «بني مليكش» في حوض وادي الساحل الغربي، حيث انضم إليه الحاج عمر شيخ زاوية محمد بن عبد الرحمن الرحمانية وأتباعه الذين امتدت حركتهم إلى معظم مناطق جبال جرجرة والبيبان والبابور وحوض الصومام. وفي سنة ١٨٥٤، قاد الحاكم العام للجزائر «راندون»[١] قوات ضخمة لاقتحام جبال جرجرة، واغتنم فرصة تمرد السكان ضد «آغا سباو بلقاسم اوقاسي» بتحريض من الشريف «بوبغلة» وتوغل بها إلى حوض سباو لمطاردة الثوار، واستطلاع المنطقة تمهيداً للعمليات العسكرية المقبلة. وأمكن له خلال هذه المطاردة القضاء على «بوبغلة» في كانون الأول- ديسمبر- ١٨٥٤. غير ان الثورة استمرت في «ذراع الميزان» بقيادة الحاج عمر « و «الإخوان الرحمانيين» حتى سنة ١٨٥٦.

---

(١) راندون: (RANDON , CESAR ALEXANDRE, MARECHAL DE FRANCE) قائد فرنسي، من مواليد غرونوبل (١٧٩٥- ١٨٧١). قام بدور كبير في حروب الجزائر التي برز فيها اسمه، وهو الذي قمع ثورات منطقة القبائل، وأصبح وزيراً للحربية طوال الفترة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٦٧.

حيث استطاع «راندون» إخمادها والقضاء على الثورة بعد جهود كبيرة، واضطر الحاج عمر إلى الانتقال بقواته في اتجاه شرق البلاد.

٢ـ تحرك الحاكم العام «راندون» من جديد في سنة ١٨٥٧، لإخضاع المناطق الثائرة بقوة تزيد على عشرة آلاف مقاتل [١] وخاض السكان العزل والثوار ضده عدداً من المعارك غير المتكافئة، منها معركة «ايشريضن- او- ايشريدون كما يكتبها الإفرنسيون» وهي المعركة الكبيرة التي وقعت يوم ٢٤ حزيران- يونيو- جنوب شرق قرية الاربعاء - نايث إيراثن- .وأبديفيها الثوار بطولةرائعةوشجاعة لا توصف. ولم تتوقف المعارك إلا بعد اعتقال الحاج عمر يوم ٧ تموز - يوليو- مما أضعف موقف زعيمة قبيلة بني «لالافاطمة» التي قادت الثورة بكفاءة نادرة حتى وقعت في قبضة القوات الإفرنسية يوم ١١ تموز- يوليو- وانهارت معها مقاومة قبيلة «ايسومار».

٣ـ كان «سي الصادق، بن الحاج» من أولاد سيدي منصور في جبل «أحمر خدون» بالأوراس، قد شارك في مقاومة الغزو الإفرنسي في «واحة الزعاطشة» منذ العام ١٨٤٩، وعندما تمكنت القوات الافرنسية من القضاء على الثورة في هذه المنطقة، اعتصم بالمناطق الجبلية. حتى إذا ما قام الافرنسيون بغزو جبال جرجرة سنة ١٨٥٧، دعا الناس لحمل السلاح واستئناف الثورة عام ١٨٥٨ وبقي مستمراً في رفع راية الجهاد ضد الأعداء الافرنسيين حتى وقع أسيراً في معركة

---

(١) كذا في ثورة١٨٧١- الدكتور يحيى أبو عزيز- ص ١٧. أما في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان. فذكر إن القوة الإفرنسية تزيد عن (٣٠) ألف مقاتل.

٢٠ كانون الثانـي ـ يناير ـ ١٨٥٩، ووقع معه في الأسر عدد كبير من أخواته المجاهدين.

٤ ـ كان «محمد بن بو خنتاش» من أولاد سيدي رحاب البراكتية في «الحضنة» وقد أظهر غضبه منذ البداية على الغزاة الافرنسيين الذين انتهكوا حرمة بلاده وقدسيتها. ونجح في دفع سكان الحضنة الى الثورة سنة ١٨٦٠، فانضم اليه «سي العربي باش عدل أولاد سحنون ببريكة، وسي أحمد باي من أولاد منصور»، وامتدت ثورته من المسيلة والحضنة حتى الجهات الشمالية، وسطيف. ولم تتمكن القوات الافـرنسية من إخماد نار هذه الثورة في سنة ١٨٦٠ إلا بعد جهود كبيرة ومكثفة.

٥ ـ بقيت عائلة أولاد بن عاشور محتفظة بمكانتها القيادية في فرجيوة، ومثلها كانت عائلة أولاد عز الدين في الزواغة بالبابور. وعلى الرغم من خضوع العائليتين ظاهرياً للحكم الاستعماري الافرنسي، إلا أن نار الثورة بقيت متأججة في نفوس الأبناء. حتى إذا ما أقبلت سنة ١٨٦٤، أثمرت جهود «الإخوان الرحمانيين» في إيقاد نار الثورة بالجنوب الوهراني. وقام اولاد سيدي الشيخ بقيادة الجهاد ضد الإفرنسيين في فرجيوة والزواغة. وقامت السلطات الافرنسية بقمع هذه الثورة بوحشية، وحولت هذه المناطق إلى مستعمرات عسكرية خاضعة مباشرة لحكم فيالق الغزو والحكام العسكريين «حكم السيف».

ظنت الإدارة الافرنسية أنها باتت متمكنة من حكم البلاد بعد قضائها على هذه الثورات، وبعد أن أوغلت قواتها في عمق الصحراء. غير أنه تبين أن لهيب الثورة لا زال متقداً في أعماق ضمائر

أبناء الجزائر. وقد عبر هذا اللهيب عن وجوده بمجموعة من الظواهر في بداية سنة ١٨٧٠، فعندما حل موعد الدراسة في تشرين الأول- أكتوبر- لوحظ مقاطعة الأطفال الجزائريين للمدارس الافرنسية. خاصة في «برج بوعريريج» حيث رفض خمسة عشر طفلاً العودة إلى مدارسهم، رغم أنهم كانوا يتقاضون منحة دراسية. وانتشرت كذلك ظاهرة الإتجار في البارود الذي كان يتسرب إلى البلاد عن طريق مالطا وتونس شرقاً، وجبل طارق وطنجة غرباً. وكثر تنقل رجال الدين بين المناطق المختلفة للوعظ والإرشاد في الظاهر، ولحض الناس على الجهاد في الواقع. وأخذ الناس يهربون حبوبهم وحيواناتهم وحاجياتهم الثمينة- الهامة- إلى مناطق الجبال النائية والبعيدة عن الأخطار. ويشترون الأسلحة والخيول. وتم قطع عدد من الأسلاك الهاتفية التي تربط بين المناطق المختلفة، مما جعل الأوروبيين يتخوفون من الوضع، فأخلوا حواضر العمل في عدة أماكن.

بقي الوضع مضطرباً طوال هذه الفترة في شرق البلاد، حيث كان أولاد سيدي الشيخ الشراقة في منطقة وهران، ما يزالون يحملون السلاح ويخوضون المعارك الكبيرة ضد قوات الجيش الافرنسي ومنها معركة «ماقورة» في ١٧ نيسان- إبريل- ١٨٧٠ بمنطقة الحدود المغربية. ورافق ذلك مجموعة من الأعمال الثورية في جهات مختلفة.

٦- حركة «ابن خدومة». كان «بو بكر بن قدور بن خدومة» من بلدة زمورة الواقعة قرب «عيليزان» قد اشترك في تمرد محلي بالمدية، مع رجل آخر ادعى أنه (صاحب الساعة) وذلك في سنة ١٨٥٩، ثم اختفى عن الأنظار، ليظهر من جديد في شهر نيسان- إبريل- ١٨٧٠

بمنطقة «ذراع الميزان» باسم الحاج محمد بن عبد السلام. وادعى أمام الناس أنه قدم من «فاس» وسبق له أن تعلم في تونس- على الطريقة الشاذلية- ولهذا استضافه الشيخ أحمد- أو يحيى الشاذلي في «تازروت» قرب بجاية. وانتشر نفوذ «ابن خدومة» في جرجرة بفضل دعم الشيخ أحمد أو يحيى، فأسس زاوية في «ايت عوانه» وتكاثر فيها أتباعه. وشكت السلطات الإفرنسية في سلوكه، فنفته إلى المغرب الأقصى، وهدمت زاويته، رغم تأكيد رئيس المكتب العربي بتيزي أوزرو بأنه لم يكن يقوم بأي نشاط سياسي. ولكنه عاد متخفياً في نهاية شهر أيلول- سبتمبر- إلى الشيخ أحمد أو يحيى، ودعا أتباعه إلى الثورة، واعتصم في غابة «بني غبري» بعض الوقت. ثم انتقل إلى منطقة المدية. وأخذ يستميل بعض جنود الصبايحية في البرواقية ومجبر، وبعض أهالي أولاد ديد وسور الغزلان. ولما عجزت السلطة الإفرنسية عن إخضاعه، لجأت إلى الحيلة، واستعانت ببعض أنصارها للتغرير به (قائد قواد أولاد عبيد والحاج الجيلالي بن الحاج). ووقع ابن خدومة في الكمين المنصوب له في أوائل شباط- فبراير- ١٨٧١. ونفاه الافرنسيون مع عدد من أتباعه إلى جزيرة «سان مارڤوريت».

كان من أبرز نتائج حركة ابن خدومة أنها أيقظت، أو بعثت، جذوة الجهاد في النفوس المؤمنة، فتكاثر الحجاج إلى «زاوية صدوق» و «استيقظت الحمية الدينية» بشكل واسع حتى في أوساط النساء وأصبح سكان إقليم القبائل يعلنون عن «وصول صاحب الساعة» وحلول وقت الخلاص من السيطرة الافرنسية. وأصبح من المتوقع اندلاع نار الثورة بين لحظة وأخرى. واستخلص مؤرخ فرنسي العبرة من «حركة ابن خدومة» ولخصها بما يلي: «لم يكن هناك أي

حجة لابن خدومة وغيره في حمل السلاح، والحجة الوحيدة هي أن الجزائري لا يقبل أبداً السيطرة الافرنسية، فمنذ اليوم الأول للاحتلال وهو على استعداد دائم للثورة. وهو لا يفرط في استثمار الفرص لتحقيق ذلك، سواء في شهر أو في عام أو حتىعشرة أعوام حتى يرمي الافرنسيين في البحر. ونقل عن الجنرال- دوماس- قوله: خذ عربياً وإفرنسياً وضعهما في قدر واحدة لمدة أربع وعشرين ساعة، لتصنع منهما مرقاً. فإنك ستجد في النهاية مرق المسيحي والمسلم منفصلين عن بعضهما، ولن يختلطا أبداً»(١).

٧- حركة الصبايحية في الزمالات: كان الحاكم العام للجزائر «راندون» قد نظم فرق «الصبايحية» وطورها في عهد نابليون الثالث وهي عبارة عن قوات من المتطوعين الجزائريين الذين أطلق عليهم اسم: (الحركة، والأورطة، والصبايحية). وواجبهم هو حراسة المناطق التي يقيمون فيها، ومراقبة السكان سياسياً تحت إشراف الضباط الافرنسيين، وقد أطلق على الثكنات التي يتمركزون بها اسم «الزمالات» وكان معظم المتطوعين من المتزوجين الذين يتقاضون رواتب شهرية، ويعملون في أراضيهم الخاصة، أو التي تضعها السلطات الافرنسية تحت تصرفهم. ولم يكن من العادة تجنيدهم للحرب خارج الجزائر، غير أن السلطات الافرنسية أرادت تجنيد البعض منهم للحرب في فرنسا- في أوائل العام ١٨٧١- فأصدر وزير الحربية الافرنسية قراراً بتاريخ ١٨ كانون الثاني- يناير- لنقل عـــدد منهم إلى أوروبا. وكان ذلك سبباً مباشراً لثورة الزمالات في مجبر

---

(1) SOUVENIR DE L'ARMEE D'AFRIQUE (WATBLED ERNEST) PARIS, CHALLAMEL, AINE, 1877, PP. 197 - 201

والطارف وبو مجار وعين قطار بشرق البلاد ووسطها. غير أن ثورة الصبايحية كانت قد بدأت في الحقيقة قبل هذا التاريخ. ففي زمالة «مجبر» على بعد ثلاثة عشر كليومتراً شمال- شرق «بوغار» بدأت الحوادث فيها أواخر أيلول- سبتمبر- ١٨٧٠ عندما فر بعض الصبايحية من ثكنتهم إلى مستغانم. غير أن السلطات الافرنسية اعتقلتهم وأعادتهم إلى بوغار، وحاكمتهم بتهمة السرقة، وفر البعض منهم من السجن واختفوا.

وهرب بعد ذلك خمسة وسبعون جندياً من جنود الزواف في الأيام الأولى لشهر تشرين الثاني- نوفمبر- ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم. وغادروا معسكر «بوغار» إلى المدية وقصر البخاري فلاحقهم رجال الدرك والصبايحية وأوقفوهم وأحالوهم على محكمة عسكرية حكمت عليهم بأحكام مختلفة تتراوح بين سنتين حتى عشر سنوات سجناً مع الأشغال الشاقة.

وصل قرار وزير الحربية الافرنسي القاضي بتجنيد الجزائريين، إلى الجزائر، يوم ٢٠ كانون الثاني- يناير- ١٨٧١. وكان الصبايحية الذين شملهم القرار في «مجبر- ببوغار» فتم اقتيادهم إلى الجزائر العاصمة يوم ٢٣ من الشهر ذاته، من أجل نقلهم إلى فرنسا. ولكن أبناءهم ونساءهم وأهاليهم اعترضوهم في الطريق خارج البليدة ليحولوا دون ترحيلهم. فحصل اضطراب وهيجان، رافقه إطلاق نار قتل فيه أحد المواطنين، فعاد الصبايحية على الفور إلى زمالتهم. وحضرت مجموعة من فرسان «بوغار» اقتادتهم بالقوة إلى الجزائر العاصمة. غير أن الإدارة الافرنسية بالجزائر أعلنت أن السفر إلى فرنسا حر للمتطوعين فقط، ولا يجبر أحد على ذلك[1]. في هذا الوقت

---

(١) ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى أبو عزيز. ص ١٨٤ - ١٨٨

ذاته، كان الصبايحية في شرقي البلاد يعلنون ثورتهم بالطريقة ذاتها أيضاً ولكن على نطاق أوسع وبشكل أخطر، سواء كان ذلك «بالطارف» على بعد (٢٢) كيلومتراً جنوب- غرب القالة، أو في «بوحجار» على بعد (٤٣) كيلومتراً شمال- شرق سوق أهراس، أو في «عين قطار» على بعد (٢٢) كيلومتراً جنوب- شرق سوق أهراس أيضاً.

وبدأت الثورة في «عين قطار» عندما رفض الصبايحية تنفيذ أوامر السفر إلى فرنسا. وهرب مائة وخمسة وثلاثون منهم بأسلحتهم وامتعتهم إلى مزرعة «عمي موسى» على بعد أربعة كيلومترات من زمالتهم وذلك يومي ٢٢ و٢٣، كانون الثانـي- يناير- وتبعهم في اليوم التالي مائة واثنان آخرون. وتوالى بعد ذلك تجمعهم حتى أصبحوا حوالي ألفي رجل، وتجمع حولهم أهاليهم والغاضبون على السلطة الإفرنسية وانضم إليهم عدد من أهالي «الحنانشة» بزعامة الصالح بن رزقي والفضيل بن رزقي. كما انضم إليهم محمد بن الكبلوتي بن الطاهر بن رزقي الحناشي من تونس. وقام هؤلاء بقتل صف ضابط فرنسي، وأشعلوا الحرائق في بعض مزارع الأوروبيين حول «سوق أهراس» وقتلوا تسعة منهم. ثم زحفوا على «سوق أهراس» نفسها يوم ٢٦ كانون الثاني- يناير- وحاصروها لمدة ثلاثة أيام. وقطعوا أسلاك الهاتف التي تربطها بمدينة «قالة». وخاضوا معركة كبيرة في «عين سنور» يوم ٣٠ من الشهر ذاته. واستمرت الاشتباكات حتى يوم ٨ شباط - فبراير- ١٨٧١. وارتفع عدد قتلى الافرنسيين إلى (١٥) قتيلاً. ثم انسحب الصبايحية، والكبلوتي، وأتباعه، إلى داخل الحدود التونسية حيث استقبلهم الشيخ الميزوني بحفاوة في مدينة «الكاف». وعلى أثر ذلك، قامت السلطات الافرنسية بتطبيق عقوبات صارمة

ضد عائلات الثائرين. فحاكمت مائة وأربعة وثلاثين شخصاً أمام محكمة عسكرية استثنائية «بعنابة» أصدرت الحكم بالإعدام على خمسة، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على عشرين، وبالنفي والإقامة الجبرية على أربعين. وغرمت الثوار بمبلغ (٣٧٦) ألف فرنك. وأعدم الافرنسيون عدداً من المواطنين الجزائريين في الساحة العامة لمدينة «سوق أهراس» بعد فك الحصار عنها مباشرة. وصادروا أملاك وأراضي سبعة دواوير (قرى) بالجملة. وأخذوا رهائن من المواطنين حتى يتم دفع الغرامات المطلوبة أما الأوروبيون الذين اتهموا بافتعال الحوادث أو ارتكاب الجرائم، فقد برأتهم المحكمة .

ولقد وضعت سلطات منطقة«القالة» الافرنسيةتقريراً عن الأحداث جاء فيه: «إن المشاكل السياسية في منطقة الحدود لها دخل في حوادث الصبايحية الذين كانوا يتفجرون غضباً. ولم يكن قرار النقل إلى فرنسا بأكثر من وسيلة لإظهار غضب الصبايحية وانفجارهم. ولقد امتدت أصداء هذه الحوادث إلى المناطق الداخلية البعيدة. . . » ويعني بذلك أحداث أولاد عيدون بالميلية، والأحداث الأخرى- بما فيها ثورة محمد المقراني.

٨- ثورة أولاد عيدون بالميلية وأولاد خليفة بتبسة. انفجرت الثورة في الوادي الكبير (بالميلية)ولم يكن قد مضى على انتهاء أحداث الصبايحية بسوق اهراس أكثر من أسبوع واحد. فقد أعلن أولاد عيدون ثورتهم يوم ١٤ شباط- فبراير- ١٨٧١ في أكثر من عشرين نقطة. وزحفوا على مدينة الميلية في اليوم الثاني، وحاصروها بحوالي ألفي رجل، وقطعوا عنها قنوات مياه الشرب وأسلاك الهاتف،وأرغموا عدداً من الحراس والأوروبيين والصبايحية ورجال المخزن وقائد

الحامية الافرنسية على الاعتصام بقلعة المدينة. وأحرقوا عدداً من مزارع الأوروبيين بالمنطقة. واقتفى «بنو تليلان» أثر أولاد عيدون. فحملوا السلاح، وهاجموا قافلة نجدة واستطلاع فرنسية بين مدينة قسنطينة والماء الأبيض يومي ٢٢ و٢٣ من الشهر ذاته. وبعد أن نجح الافرنسيون في رفع الحصار عن (الميلية) يوم ٢٧ شباط- فبراير- تمركز الثوار في «كاف الغراب» والقرى المجاورة له. وحاول الافرنسيون القضاء على هذه الثورة الخطيرة بإمكاناتهم الخاصة فعجزوا عن ذلك، فما كان منهم إلا أن لجؤوا الى خصوم الثوار- من المواطنين الجزائريين- واستعانوا بهم على أهلهم، وجندوا حوالي ستمائة من جنود البحرية الافرنسية، وسبعة فيالق أخرى، فرضوا بها الحصار على المنطقة، وأحرقوا معظم القرى المعزولة. واعتصم الثوار «بجبل سروج» وخاضوا معركة «كاف زرزور» يوم ٢٦ شباط- فبراير- أي قبل أن يفكوا الحصار على المليلة بيوم واحد. وقد أخذ الافرنسيون كعادتهم أربعمائة رجل من أولاد عيدون كرهائن. وسجنوا عدداً آخر منهم. وصادروا الأسلحة التي عثروا عليها وهي تزيد على تسعمائة بندقية.

أما في المنطقة الشرقية، فقد أفاد أولاد خليفة من قيام حاكم منطقة تبسة باعتقال عدد من المواطنين بحجة الاشتباه بهم، والقيام بمحاولة استطلاع «مضيق رفانة» فاعلنوا ثورتهم، وحملوا السلاح، واعترضوا سبيله، وانضم إليهم أولاد سيدي عبيد والعلاونة والرشايش والبرارشة، وهاجموا قطعان مواشي أحد الأوروبيين، وقتلوا شريكه الجزائري. وأخذوا يحرضون الناس على الجهاد لمحاربة الافرنسيين، واضطر هؤلاء إلى اللجوء إلى «مسكيانة» وتابع الثوار جهادهم، فأحرقوا بعض مزارع الأوروبيين ومطاحن الحبوب وأكوام

التبن «القش» في أحواز تبسة التي اعتصم بها الأوروبيون، وأغلقوا أبوابها عليهم. كما اعترضوا سبيل قافلة إفرنسية بوادي الحميمة، حيث دارت مجموعة من المعارك القاسية في الوادي، وعند بحيرة الأرنب ورأس الذيب. غير أن عدم التكافؤ بالقوى ووسائط القتال والكفاءة القيادية أرغم الثوار على الانسحاب واللجوء إلى داخل الحدود التونسية. في الوقت الذي كانت ثورة محمد المقراني قد انطلقت من «مجانة» وأخذت تنتشر في جبال البابور والبيبان وونوغة والهضاب العليا لقسنطينة[1].

---

(١) يذكر أن القوات الأفرنسية تعاونت مع القائد ابن باحمد والقائد علي بن العربي والقائد بو ضياف بن صالح الذين حشدوا قواتهم بين حلوفة ومسلامه، ودعموا هجوم القوات الافرنسية (ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى أبو عزيز- ص ١٨٩ ١٩٢).

- صدوق - مهد الثورة الكبرى لعام ١٨٧١ م إقليم بجاية ووادي الصومام

﴿لا ينهاكُمْ الله عن الذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكم
في الدِّين، وَلَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُم
أنْ تبرُّوهُم وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إنَّ الله يُحِبُّ
المُقسطينْ إنما ينهاكُمْ عَن الذينَ قاتَلُوكُمْ
واخرَجُوكُمْ مِنْ ديارِكُمْ وظاهَـرُوا عَلى
إِخراجكُم أنْ تَولُوهُمْ. ومَن يتولاهم،
فأولئك هُمْ الظالمون﴾

الفصل الثالث

ثورة ١٨٧١

١- ثورة محمد المقراني (مجانة)
٢- ثورة الشيخ الحداد (صدوق)
٣- ثورة أحمد بو مزراق- (سور الغزلان وونوغه)
٤- في أفق الثورة

١ـ ثورة محمد المقراني (مجانة)

يتفق معظم المؤرخين على أن نسب أسرة المقراني يعود إلى فاطمة بنت الرسول عليه السلام. ويذكرون أن أجدادها من قبائل عياض هاجروا إلى إقليم المغرب العربي في القرن الحادي عشر الميلادي خلال الزحف الهلالي على الإقليم(تغريبةبني هلال)واستقروا بجبال قلعة بني حماد في المعاضيد شمال مدينة المسيلة ، وجنوب شرق مدينة برج بوعريريج. وارتبط تاريخهم هناك بالأمراء الحماديين. وقبائل عياض، فرع من عرب اثبج من هلال بن عامر- من الطبقة الرابعة. وتفرعت بعد ذلك منهم بطون ، مثل «بطن المرتفع» و «بطن الخراج ـ بكسر الخاء». وفي خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ، ترك الأمير عبد الرحمن- جد المقرانيين- منطقة جبل عياض بالمعاضيد، وانتقل إلى جهات البيبان، فاستقر أولا بقرية موقة، ثم بالشواريخ، وأخيراً بقلعة بني عباس شمال غرب «سهل مجانة» داخل المنطقة الجبلية الغربية على الضفة اليمنى لوادي الساحل. وعاش هناك حتى توفي سنة (١٥٠٠م) فخلفه ابنه أحمد الذي تلقب بالسلطان على المنطقة الواسعة بين واد الساحل والحضنة، وبعد وفاة أحمد خلفه ابنه عبد العزيز الذي اتخذ قرية (القلعة) عاصمة

له، وكون لنفسه نفوذاً واسعاً، واستعان بقوات الأخوين «عروج وخير الدين» اللذين كانا يتمركزان في «جيجل» ويعملان على طرد الإسبان من «بجاية». واشترك مع الوالي حسن بن خير الدين من أجل إنقاذ تلمسان من أطماع سلطان المغرب والإسبان معاً. وتمتعت إمارة المقرانيين بالقوة وسعة النفوذ خلال عهد حكم عبد العزيز واخيه أحمد أمقران، فمدت نفوذها إلى الهضاب العليا، وتحكمت في الطريق الواصل بين الجزائر العاصمة وقسنطينة.

انقسم المقرانيون على أنفسهم بعد وفاة أحمد أمقران، وظهرت منهم عدة فروع متناحرة فيما بينها على السلطة والنفوذ، فكان من أهمها: ١ـ فرع أولاد الحاج. ٢ـ فرع أولاد عبد السلام. ٣ـ فرع أولاد بورنان. ٤ـ فرع أولاد بلقندوز. واستمر ذلك حتى قام الافرنسيون بغزو البلاد.

كان باي قسنطينة متزوجاً من «عيشوش» ابنة الحاج محمد عبد السلام العايب المقرانـي غير أن ذلك لم يمنع من قيام المشاكل بين الحاج أحمد باي قسنطينة وبين الحاج محمد عبد السلام. مما أدى إلى اعتقاله عام ١٨٢٥، ولم ينقذ حياته ألا ابنته عيشوش في حين أعدم الآخرون من أقاربه. وخلال حملة الاحتلال الافرنسية، شارك المقرانيون مع الباي الحاج أحمد في مقاومتها، وانسحبوا معه بعد ذلك الى الشرق. وكان الزعيم البارز آنذاك هو أحمد المقرانـي من فرع أولاد الحاج، فقربه إليه وعينه شيخاً على مجانة. حتى إذا ما قام الافرنسيون بالغزو الثانـي لمدينة قسنطينة عام ١٨٣٧، اغتنم محمد عبد السلام العايب فرصة الفوضى التي حلت بالمدينة، فهرب من سجنه (سجن الكدية) يوم ١٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ والتحق بمجانة مباشرة. واستحوذ على

السلطة بها في غياب شيخها أحمد المقراني الذي كان آنذاك يحارب على رأس قواته ـ مع الباي أحمد ـ قوات الغزو الإفرنسي.

عمل الأمير عبد القادر ـ بعد معاهدة تافنة عام ١٨٣٧ ـ على تعيين محمد عبد السلام العايب المقراني أميراً على مجانة وإقليمها واستبعد أحمد المقراني نظراً لعلاقته بخصمه الحاج أحمد باي قسنطينة. وأفادت فرنسا من ذلك، حتى إذا ما تجددت الحرب، أصدر الفريق فالي قراراً بتعيين أحمد المقراني خليفة على مجانة، وتم تنصيبه رسمياً يوم ٢٤ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٨٣٨ في قصر الباي بقسنطينة. ونص قرار التعيين على أن يحكم المنطقة بنفس الشروط والأوضاع التي كانت لعائلته في عهد الأتراك. على أن يتصل مباشرة بالفريق الحاكم على مقاطعة قسنطينة. وحددت منطقة حكمه بين فرجيوة بالبابور شرقاً والتيطري غرباً ومنطقة شيخ العرب جنوباً. وخضع لسلطته سكان حمزة والجلفة والحضنة وبوسعادة وأولاده نايل وبسكره وحوض وادريغ.

كان لابـد للخليفة أحمد مقراني من دفع الثمن، فعندما استأنفت فرنسا الحرب ضد الأمير عبد القادر، وأرادت اختراق مضيق «البيبان» في تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٨٣٩، استعانت بالخليفة أحمد مقراني وقواته، وأمكن لها بذلك تحقيق النصر على الأمير عبد القادر، وخليفته على مجانة «محمد عبد السلام العايب».

كان الخليفة «أحمد المقراني» يتوهـم بأن السلطة الافرنسية ستدعم نفوذه، فمضى للعمل بحماسة، غير أنه لم يكد يمضي عامان حتى أخذت السلطات الافرنسية بمضايقته. فأقامـت منطقتين عسكريتين في «سطيف» و «المسيلة» وأصبح الخليفة تابعاً لحاكم

- مضيق البيبان الذي عبره الفرنسيون بمساعدة الخليفة أحمد القراني في اكتوبر ١٨٣٩ م.

سطيف، أما المسيلة فتم تعيين منافسه لحكمها «وهو بوضياف بن بوراس». وأرغمت السلطات الافرنسية الحاج أحمد المقراني على التخلي عن أراضي أبناء عمومته؛ أولاد بورنان وأولاد بلقندوز وأولاد عبد السلام، حتى تضمن ولاءهم بعد أن استسلموا لها. كما انتزعت من الخليفة الحاج أحمد ثلاثة أرباع المنطقة الواسعة التي كانت تخضع له. **واستمرت بعد ذلك المضايقات حتى وفاته في ٤ نيسان- إبريل- ١٨٥٣ حيث عينت السلطات الافرنسية ابنه محمد في مكانه، ولكن بلقب «باشآغا» وهو لقب دون لقب «الخليفة»** وقد حاول الباشآغا الجديد «محمد المقراني» القيام بدوره، بما عرف عنه من الكفاءة والذكاء، وبدأ عهده بالحج إلى الديار المقدسة، ثم عاد عن طريق تركيا وفرنسا، حيث استقبل مثل أبيه من طرف أصدقائه الافرنسيين. ورجع إلى الجزائر مسروراً في العام ١٨٥٥، وهو يرى نفسه احد الممثلين الكبار للنظام والسلطة العسكرية بالجزائر. غير ان السلطات الافرنسية لم تكن لتسمح له، ولا لسواه من الجزائريين، بزيادة قدرته الذاتية. فأخذت في إضعافه مادياً ومعنوياً. وكان من جملة الإجراءات المتخذة ضده:

١- كان الخليفة في مجانة يعتمد في قوته على فرسان «الحشم» الذين ينتمون إلى قبيلة الحشم الهلالية، المستقرة في منطقة معسكر. وكان الجد «أحمد مقران» قد اصطفاهم لتحرير مدينة وهران من الإسبانيين في سنة ١٥٦٣ م. ووطنهم في سهل مجانة على سفح جبل مريسان، وأصبحوا منذ ذلك الوقت مصدر الفرق والحرس، واعفاهم من الضرائب. واستمروا على ذلك حتى سنة ١٨٥٨ حيث فرضت السلطات الافرنسية عليهم الضرائب ويظهر أن وجود عدد كبير من الفرسان الحشم والصبايحية تحت تصرف الباشآغا محمد المقراني، قد

أثار قلق السلطات الافرنسية، فعادت في سنة ١٨٦١ وفرضت عليه أن ينقص عددهم. فهاجر الذين سرحهم إلى تونس. وأبدى هو نفسه الرغبة في الهجرة إلى هناك غضباً من هذه السياسة.

٢- استبدلت السلطة الافرنسية وكلاء الباشآغا محمد المقراني، والمكلفين بجمع الضرائب. وقامت بتعيين شيوخ ووكلاء من قبلها لهذه الغاية. وفرضت عليه تحويل الأموال والضرائب إلى خزينة الدولة بعد أن كان يحتفظ بها لإدارة منطقة حكمه.

٣- انتزعت من أبناء عمومته «أولاد بلقندوز» خمسة آلاف هكتار في منطقة البرج لتوطين المعمرين «المهاجرين» الأوروبيين.

٤- عينت ضابطاً صغيراً «نقيب- كابتن» من الجيش الافرنسي حاكماً للبرج، والزمت الباشآغا محمد المقراني في الرجوع إليه بكل أموره. وقد عمل هذا الضابط (واسمه بيان) على مضايقة الباشآغا وإخضاعه للرقابة الصارمة.

٥- وجهت السلطة الافرنسية رسالة توبيخ (باسم الجنرال ديغو) إلى الباشآغا محمد، أثرت فيه لدرجة أنه اعتزل الناس عدة أيام من شدة الألم. وذلك لتعاطفه مع «بوعكاز بن عاشور» زعيم فرجيوة، والذي أودع عند الباشآغا بعض حوائجه بعد أن اتهمته فرنسا بإشعال الثورة في فرجيوة والزواغة بالبابور.

٦- منعت السلطة الافرنسية الباشآغا محمد المقراني من تطبيق نظام «التويزة» أو «السخرة» الذي كان متبعاً للقيام بالأعمال التي تتطلب جهداً جماعياً... الحصاد الزراعة، أعمال البناء الخ..

٧- تشديد المراقبة على محمد المقراني، واستدعائه إلى مركز

«البرج» لاستجوابه عما دار من أحاديث بينه وبين أبناء عمومته أثناء زيارته لهم. وإثارة الشكوك حوله.

٨ـ مضايقته لسداد ديونه المالية التي اقترضها لمساعدة الفلاحين والمواطنين في سنوات «الجفاف ـ والجراد ـ والأوبئة» وارغامه على بيع بعض أملاكه. وكان الحاكم العسكري ماكماهون قد وعده بالمساعدة، غير أن الحكومة التي جاءت في أعقاب أحداث سنة ١٨٧٠ تنكرت للحكومة العسكرية التي سبقتها. وكان باستطاعة المقراني وفاء ديونه التي بلغت مليون وثمانمائة ألف فرنك لو أعطيت له الفرصة الكافية. غير أن الحكومة المدنية رفضت ذلك.

٩ـ استثمار فرنسا للتناقضات القائمة بين الباشآغا محمد المقراني وخصومه من عائلته أو غير عائلته من أجل إضعاف نفوذ الجميع، وفرض السيطرة الإفرنسية عليهم.

١٠ـ نقمة الباشآغا محمد المقراني، على قانون تجنيس اليهود. وما كان ينزل بمواطنيه من مظالم.

تجدر الإشارة إلى أول رد فعل لمحمد المقراني تجاه قانون تجنيس اليهود «قانون كريميو» حيث أعلن المقراني: «.. **لا أطيع أبداً يهودياً. وإذا كان جزء من بلادكم وقع تحت أيدي يهودي فقد انتهى الأمر، وسأضع عنقي بسرور تحت السيف ليقطع رأسي. أما تحت يهودي فلن يكون ذلك أبداً. وإني أعطيت كلمة شرف للحاكم العام، ولكن لم أعطها للحكم الذي خلفه وهو النظام المدني..» وأخذ الجزائريون يتناقلون هذه الأقوال ـ في المقاهي والأماكن العامة ـ وانقسم المرأي بين ثلاث فئات: «فئة متنورة تقول ان فرنسا قد انتهى أمرها، ولم يبق لها شيء ما دام يحكمها يهودي. وفئة أقل منها وعياً: وتردد بأن الله قد**

أعمى قلوب الافرنسيين وهذا موعد رحيلهم وهو انتصار للإسلام وفئة ثالثة: كانت عارفة بحقائق الأمور وأخذ أفرادها يعدون العدة لحرب دينية مقدسة- وهي فئة المقراني والحداد». ويذكر أن الباشآغا محمد المقراني، كان يتوجس خيفة من قيام النظام المدني منذ البداية، فعندما قامت الحرب في شهر تموز- يوليو- ١٨٧٠ طلب المقراني من الحاكم العام ماكماهون الإذن له بتسليح كتيبة من «القوم» تتألف من ألف وخمسمائة رجل يذهب على رأسهم للمشاركة في الحرب باوروبا، فاعتذر له. غير أن المقراني ألح عليه في قبول الطلب، وقال: «إذا طالت الحرب، فإن المدنيين سيستولون على السلطة بالجزائر، وأنا الذي انحدر من سلالة الجنود، لا أطيع أبداً ولا أخضع لمن لا يكون عسكرياً»(١) وعلى أي حال، فقد شارك عشرون ألفاً من الجزائريين في الحرب. وقتل نصفهم على أرض القتال. وكانوا أبطالاً ومغاوير وأشجع كل الفرق الأخرى باعتراف القادة الافرنسيين ذاتهم، غير أن هؤلاء المقاتلين أصيبوا بجراح في أعماق نفوسهم بسبب إهانة الأوروبيين لهم، بعد سقوط الامبراطورية بصورة خاصة.

لقد صح ما توقعه الحاج محمد المقراني «الباشآغا» من متاعب عند قيام الحكم المدني، وأصبح السخط عاماً في منطقة البيبان بسبب سوء الإدارة الافرنسية، وكانت السلطات الافرنسية تقوم في تلك الفترة بفتح الطريق العام بين الجزائر وقسنطينة تحت إشراف مقاول

---

(١) طلب عدد من قادة الجزائر الإشتراك في الحرب إلى جانب فرنسا- ضد بروسيا- فبالإضافة إلى محمد المقراني تقدم ابن باحمد خليفة الأوراس بطلب مماثل. وكذلك فعل الأمير عبد القادر الذي كتب من دمشق رسالة إلى وزير الدفاع الافرنسي أعلن فيها استعداده للحرب مع الافرنسيين. (ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى أبو عزيز- ص ١٢٩- ١٣١).

أوروبي، استخدم في عمله حوالي مائتين وخمسين عاملاً بينهم أوروبيون ومغاربة، وتمركز هذا المقاول بجبال البيبان، واتبع سياسة غير عادلة تجاه العمال الجزائريين. فكان لا يعطيهم الأجور التي تتناسب مع ما يبذلونه من الجهد. كما كان يماطل في دفع الأجور لهم، على عكس العمال الأوروبيين. وفي أوائل عام ١٨٧١، مر أكثر من شهر دون أن يدفع أجورهم، فساءهم ذلك، وامتد الغضب إلى عائلاتهم وأقربائهم. وحدث في يوم ١٨ شباط- فبراير- ١٨٧١، أن قتل أربعة عمال أوروبيين في الغابة المجاورة لمكان العمل، ولم تتعرف السلطات على الجناة. وحاول محمد بن عبد السلام المقراني خصم الحاج محمدالمقراني استثمارالموقف. فأطلق أتباعه للإشاعة بأن هذا الحادث قد وقع بتحريض من الباشآغا محمد المقرانـي ذاته. وعلى أثر ذلك أرسلت المصالح الإدارية بسور الغزلان برقية إلى السلطات المحلية بالبرج تخبرها بأنّ المقرانـي بصدد إعداد ثورة مسلحة. فتخوفت من الأمر، وأصدر حاكم البرج وسطيف أمراً إلى المقرانـي نفسه يوم ٢٥ شباط- فبراير- بإيقاف العمل في البيبان وإعادة العمال إلى بلادهم. وذهب المقرانـي إلى مكان العمل، صحبة أخيه «بومزراق» وابن عمه «حمود بودنات» فوجد الوضع مضطرباً. واحتج لدى المقاول المذكور على عدم دفع أجور العمال، ودفع هو من ماله الخاص مبلغ ألف وخمسمائة فرنك سلفة لهم. وجهز البغال والحمير التي حملت أمتعتهم إلى مدينة البرج تحت حراسة أخيه وابن عمه. وفي الوقت ذاته وقعت اضطرابات أخرى في مدينة المسيلة جنوب مدينة «برج بوعريرج» فقد تخوف الأوروبيون الموجودون بها، وشعروا بالخطر على حياتهم بسبب الظروف المضطربة، والإشاعات الكثيرة حول تصميم الجزائريين على القيام بالثورة. وقرروا الانسحاب إلى

مدينة بوسعادة الواقعة جنوبها، وحملوا معهم أمتعتهم واتجهوا إليها يوم ٢٥ شباط- فبراير- ورافقهم قائد الحضنة «السعيد بن بوداد المقرانـي» حتى أوصلهم إلى هناك سالمين وكان من المفروض أن ينسحبوا إلى البرج شمالاً حيث يكثر الأوروبيون. ولكن أوضاع هذه المدينة كانت آنئذ مضطربة كثيراً، حيث أشيع بأنّ الجزائريين سيهاجمونها يوم ٢ آذار- مارس- بمناسبة عيد الأضحى. ولذلك تم إرسال قائد الفرقة الثامنة بسطيف، وكلف بقيادة الحراسة والاستعداد للطوارىء. وتسبب هذا الاجراء في استياء المقراني، لا سيما وإن صحافة سطيف والأوروبيين أخذوا في المطالبة بإعدامه. وقد حدثت على أثر ذلك مجموعة من الحوادث في برج بوعريريج وسور الغزلان والمدية ودللس. مما يشير إلى الغضب الشامل والاستعداد العام للثورة. وأدى ذلك الى نفاد صبر الحاج محمد المقراني، فقدم استقالته من منصبه يوم ٢٧ شباط- فبراير- وعاد فأكدها خلال حديثه- في أوائل شهر آذار- مارس- (مع الكابتن أوليفي) حيث قال له: «كيف **تريدون مني أن أخدم حكومتكم؟ أنني لا أعترف بجمهوريتكم لأنها منذ أن أعلنت وأنا أرى أشياء فظيعة، فأنت حاكم أعلى لمدينة البرج. ولكن أرسل إليها رئيس جديد لقيادة الكتائب، وحارس مدني ليراقب إدارتك. فإلى من أتوجه أنا؟ إليك أنت، أم إلى الرئيس الجديد؟ أم إلى الحارس المدني؟ في الحقيقة أنا لا أفهم شيئاً من هذا، وفي الوقت الذي كنا نحن جميعاً مطيعين لكم، عوضتمونا بالمركانتية (التجار الأغنياء)- واليهود، أنا لا أقبل هذا أبداً»** وفي رسالة الاستقالة الثانية التي وجهها إلى الجنرال «لالمان» يوم (٩- آذار- مارس- ١٨٧١)- **أكد فيها**: أنه أصبح حراً طليقاً بعد توقيع الصلح بين فرنسا وأعدائها، «وأنه لما أصبحت الحكومة مدنية في الجزائر، فإني أجدد

استقالتي الأولى من وظيفة الباشآغا» وفي رسالة ١٤ـ آذار ـ مارس. التي بعثها إلى أوجورو، وأوليفي، رداً على رسالة الحارس الاداري ـ روستان ـ أعلن المقراني قائلاً: «أني **لا أقبل أن أكون تحت شخص من حكومة المدنيين يتهمني ويشيع عني بأني ثائر، ويعتقل أتباعي في سطيف وسور الغزلان**». وحاول «الكابتن أوليفي» إقناع الباشآغا محمد المقراني بالعدول عن استقالته، غير أن المقراني: «عاد فأكد له بأنه لا يقدر منذ الآن أن يخدم فرنسا، لأنه يرفض الخضوع لحكومة الجمهورية، التي منذ أن تأسست وهو يعيش المقلقات. كما أضاف: بأنه لا يريد الثورة ضد فرنسا إلا إذا رفضت استقالته، وعندئذ سيجد نفسه مضطراً لحمل السلاح، لأن رفضها بالنسبة إليه يعني ـ الحكم عليه وبالاعدام».

أجاب المفتش الإداري ـ روستان ـ على استقالة الباشآغا يوم ١٢ آذار ـ مارس ـ بطريقةمثيرة، «اذ طلب إليه أن يجدد إليه استقالته كتابياً وبصورة رسمية، باعتباره المسؤول والممثل للنظام المدني في عمالة قسنـطينـة. وأنه يبقى بعد ذلك مسؤولاً عن كل ما يحدث في منطقته طوال مدة انتظار الجواب بالقبول أو الرفض».

خلال ذلك، حاول شيخ فرجيوه بو عكاز بن عاشور إصلاح الموقف، وتطوع مرتين بقسنطينة أن يذهب بنفسه إلى مجانة لتسوية مشاكل المقرانـي. غير أن السلطات الافرنسية رفضت طلبه. **فما كان من المقراني إلا أن كتب رسالتين يوم ١٤ آذار مارس ـ إلى «أوجورو»** وأوليفي حاكم مدينة البرج: «**أكد لهما بأنه كان قد قدم استقالته إلى الماريشال ماكماهون. وأنه كان قد قبلها منه. غير أنه بقي مستمراً في عمله بسبب انشغال فرنسا بالحرب. أما اليوم، وبعد أن هاد السلم،**

ـ الحاج محمد المقراني، أحد أبطال ثورة ١٨٧١ م.

فانه أصبح حراً طليقاً، ورفض أن يتحمل مسؤولية ما قد يحدث بعد ذلك». ولكي يقطع صلاته بسلطات البرج، قطع خط الهاتف الذي يربط مجانة بالبرج. ودعا في مساء اليوم ذاته إلى اجتماع عام لكل أقربائه من أولاد الحاج وقواد الدواوير والأعراش التابعين له في منطقة مجانة والبرج وتدارس معهم الوضع الجديد والخطط الأولى لحركته المقبلة، وأعلن لهم أن الوقت قد حان للثورة ضد حكومة التجار واليهود ولقد تقرر في هذا الاجتماع على أن يزحف المقراني بنفسه على مدينة البرج بقواته يوم (١٦) آذار- مارس- وتطوير الحرب في غرب عمالة قسنطينه، في حين يتجه أخوه «بومرراق» للعمل في منطقةونوغه وسور الغزلان، بينما كلف ابن عمه وصهره «السعيد بن داوود» بقيادة الثورة في منطقة الحضنة وبو سعادة وأولاد نايل الجلفة جنوب شرق سور الغزلان، وكان على ابن عمه الحاج بوزيد بن عبد الرحمن (شقيق السعيد بن داوود) أن يزحف من الحضنة على رأس حوالي خمسة عشر ألف رجل إلى البرج والمناطق الشمالية لتدعيم الثورة.[1]

تجمعت قوات المقراني في مجانة يوم الأربعاء ١٥ آذار- مارس-

---

(١) كان قاضي بني عيدن «الحسين بن حالة» من عرش الماين شمال مجانة، قد حضر اجتماع المقراني بمجانة مساء ١٤ آذار- مارس- وكان عميلاً للافرنسيين، فقام باليوم التالي بالتوجه لمدينة «البرج» وأبلغ المسؤولين الافرنسيين عن خطة المقراني للهجوم على المدينة يوم ١٦- صباحاً- كما أعلم الافرنسيين بإنه سيكون هو- أي الحسين بن حالة على رأس أربعمائة رجل في موخرة المقراني، وإنه لن يتأخر في الانضمام إلى القوات الافرنسية بعد ذلك. وهذا ما جعل الافرنسيين يكافئونه بعد الثورة بتعيينه قائداً على عرش الماين والجعافرة. وبقيت اسرته تتوارث هذا المنصب حتى ثورة ١٩٥٤ (ثورة ١٨٧١ الدكتور يحيى بو عزيز- ص ٢٠٦)

وقد أقبلت من كل الجهات بصورة مستعجلة، بعد أن توزع المبعوثون في كل أنحاء مجانة لإبلاغ الناس قرار الباشآغا وقواده بإعلان الثورة. وفي صباح يوم الخميس ١٦ آذار- مارس- استعرض المقراني رجاله الذين بلغ عددهم ستة آلاف رجل «بعين السريحة» وكان هؤلاء الرجال يرتدون أزياء مختلفة ومعهم أسلحة متنوعة، وما هو ضروري من متاع الحرب. وكان من ضمنهم «قوم» الحضنة الغربية وأولاد تبان، وأولاد إبراهيم والأربعاء بزعامة مقدميهم. ثم توجه المقراني بهذه القوات إلى البرج، حيث أنضم إليه على الفور «القائد الصغير بن عدة» مع بعض أفراد «القوم» - بأسلحتهم - وكانوا ضمن قوات الحرس الإفرنسية. وفرض المقراني الحصار على المدينة- وسط زغاريد النساء- وبدأت الإشتباكات الأولى بالنيران حوالي الساعة التاسعة، ولكن القتال الحقيقي لم يبدأ إلا حوالي منتصف النهار. واستمر حتى غروب الشمس. وفي المساء أخذ اليهود الذي كلفوا بالحراسة، يفرون إلى داخل قلعة المدينة، بعيداً عن الأسوار. ووجهت السلطات داخل المدينة عدة رسائل استنجاد إلى عدة جهات، وخاصة سطيف، ومرت أربعة أيام من الحصار، بدون حوادث مثيرة، حاول الثوار بعدها تلغيم الجدران لفتح ثغرة فيها، غير أن الحامية المدافعة عن المدينة أحبطت هذه المحاولات. وبدأت قوات الدعم في الوصول، وكان في مقدمتها قائد عن تاغروط «محمد بن عبد السلام المقراني» الذي كان أول من وصل إلى البرج صباح يوم ٢٦ آذار- مارس- وعندما اقترب من أسوارها، صاح في وجهه قائد حامية المدينة «دوشيرون» وطلب إليه الابتعاد حتى لا يضربه لأنه أصبح يشك في كل «لابس برنس» ولو كان خادماً لفرنسا ومخلصاً لها. وكان من حسن حظه أنه وصل معه ضابطان فرنسيان، فحالا دون تعرضه لأي أذى.

ووصلت بعد ذلك قوة دعم فرنسية تمكنت من رفع الحصار عن المدينة. وجهز الأوروبيون، وأرسلوا في اليوم التالي تحت حراسة فرقتين من الصبايحية والقوم بقيادة محمد بن عبد السلام المقراني- رافقتهم حتى سطيف.

انسحب المقراني بعد فشله في السيطرة على مدينة «برج بوعريريج» واستقر بقواته في جبل مريسان (أم الريسان) شمال شرق مجانة. وعسكر هناك في مكان مرتفع يطل على سهل البرج وعين السلطان ومجانة. وأخذ في بذل الجهود لإعادة تنظيم قواته، وتوسيع نطاق الثورة. فكان أول عمل له هو إرسال عدد من المبعوثين إلى جهات كثيرة من ولايتي الجزائر وقسنطينة. واقترح على رؤساء العائلات الكبيرة الذين وجه إليهم مبعوثين: «أن يتحدوا معه لتكوين جبهة قوية يقاومون بها النظام المدني، ويحمون سلطاتهم وامتيازاتهم». ونظم المقراني شبكة من الاستخبارات: «فكان لديه حوالي تسعمائة مخبر من بني عباس يقطنون بالمدن الساحلية، ويزودونه بانتظام بالأخبار والمعلومات الكافية عن الأوضاع».وكان المقراني في رسائله يركز على نقطتين: ١- الجهاد في سبيل الله. ٢- أسفه على سلخ أيام من عمره في خدمة الاستعمار. وقد جاء في رسالته إلى الشيخ البشير بن كابة، وسكان بو جليل ببني عباس قوله: «وبعد، تتوكلوا على الله ورسوله، وتقدموا إلى الجهاد لنصرة دينكم عزماً. وتأتوا لنا إلى برج مجانة» وفي رسالته إلى باشآغا تيطري «ابن يحيى بن عيسى» وقائد قواد أولاد مختار الشراقة ببوغار والمدينة «علي بن عبد الرحمن» جاء ما يلي: «لقد فتحت أبواب الجهاد في سبيل الله ويجب عدم تفويت هذه الفرصة، والاسراع بالانضمام إلى المجاهدين... وتحسر على ضياع حياته وحياتهم هباء في السابق دون فائدة».

المهم في الأمر. هو أن معظم جهود المقراني قد ضاعت ، إذ رفض أكثر الذين اتصل بهم الاستجابة لدعوته. فأولاد بن قانة بالصحراء الشرقية أعلنوا معارضتهم له ولثورته في رسالة وجهوها إلى الحاكم الافرنسي بقسنطينة منذ يوم ١٨ آذار- مارس- وأكدوا فيها استعدادهم لمحاربة المقراني الذي وصموه بالمجنون وفعل مثلهم «محمد بن هني بن بوصياف» قائد صحارى سكرة في رسالته إلى الحاكم الإفرنسي بقسنطينة يوم ٢١ آذار- مارس وسلم باشآغا التيطري رسالة المقراني الى الحاكم الأعلى الافرنسي في المنطقة. وقاد «علي بن عبد الرحمن» حامل الرسالة ، إلى رئيس المكتب العربي هناك وحتى وجهاء قسنطينة الذين نعتوا أنفسهم «بالحضريين» وجهوا أيضاً تأييدهم إلى نائب الأميرال ـ الكونت دوفيدون- يوم ٢٦ نيسان- ابريل: «استنكروا فيها أعمال المقراني وأخوان الحداد الرحمانيين. الذين نعتوهم- بالبدويين- المحبين للتخريب وسفك الدماء والمعادين للخبز والفلاح. وطالبوا بإنزال العقوبات القاسية ضدهم»

على أن المقراني. وإن فشل في استمالة رؤساء العائلات الكبيرة مثله. إلا أنه نجح في استمالة الشيخ الحداد إليه بأتباعه، وهو مكسب هائل عوضه عن كل ما فقده في الآخرين من تأييد. ذلك أن انضمام الحداد إلى الثورة غير من طابعها واتجاهها. وجندها ما عجز المقراني عن تحقيقه من تأييد شعبي واسع. نظراً لما كان للحداد من نفوذ معنوي قوي على سكان جرجرة والبابور وحوضي وادي الساحل ووادي الصومام

ما ان علمت السلطات الافرنسيه بالجزائر العاصمة. باندلاع

ثورة المقراني منذ اليوم التالي لحدوثها، حتى كلفت الجنرال «سوسي» بمواجهته وملاحقته في منطقة مجانة. فتوجه «سوسي» إلى هناك، ووصل إلى البرج يوم ٢ نيسان- إبريل- ١٨٧١ وضم اليه الحامية الموجودة في المدينة، فأصبح لدية خمسة آلاف جندي، ثم توجه صباح الثامن من الشهر إلى مجانة، وهو نفس اليوم الذي نجح فيه المقراني في ضم الحداد إلى الثورة هو وابنه وإخوانه، مما جعل الثورة تتخذ شكلاً آخر وطابعاً جديداً.

خاض الثوار معركة كبيرة في «ساقية الرحى» قرب جبل «تافرطاست» شمال مجانة يوم ١٢ نيسان- ابريل- وقامت القوات الإفرنسية التي يقودها «سوسي» بإحراق قرية صوناف وكل منازل مجانة- ما عدا قصر الباشآغا الذي تمركز فيه، ووقع الشريف بن عبد الرحمن قائد الدريعات، وقريب المقراني، في أسر القوات الإفرنسية. وترك الحاج المقراني قوة كافية لمناوشة الإفرنسيين بمنطقة مجانة ومريسان. وانتقل هو إلى «زمورة» ثم إلى «فمور» شرقي مدينة البرج لإجراء مفاوضات مع أبناء عمومته الذين كانوا معارضين له، بعد أن أصبح الوضع خطيراً. وعسكر «بعين التراب» وعقد يوم (١٤) نيسان- ابريل- اجتماعاً مع كبار رجاله في «قبة سيدي علي بوناب» وتدارس الوضع معهم وفقاً للتطورات الجديدةفي سير حركة الثورة. وتم الاتفاق على ضرورة توحيد الصفوف **فاجرى المقراني اتصالات مع أولاد عبد السلام وأولاد عبد الله وأولاد بلقندوز، ونجح في استمالتهم إليه بعد يومين من المفاوضات. وتبعهم عدد آخر من الناس، كانوا من قبل، خارج الصف معادين أو مترددين.**

ظهرت نتائج هذا التحول بصورة فورية، فقد قام الثوار من «أولاد تبان» و «الأربعاء» و «ريغة» بقيادة محمد بن عدة، بالهجوم على عدد من المزارع حول العلمة، بعضها للأوروبيين، وبعضها للمتعاونين معهم أمثال «الزين بن أحمد وأولاد قليل»، وقتلوا ثلاثة أفراد. وتمركز محمد بن عبد السلام ومحمد الصغير بن الشيخ ساعد، في قرية رأس الواد بأمر المقراني. وحاولت مفرزة فرنسية (بقيادة النقيب ترانجان) تنفيذ المهمة التي أسندت إليها يوم ٣٠ آذار- مارس- وهي حراسة الطريق بين سطيف والبرج، ودعم قوات (الجنرال سوسي) الذي كان يهاجم «مجانة». غير أن هذه المفرزة فشلت في تنفيذ مهمتها. وتعرضت للهزيمة يوم ١٨ نيسان- إبريل- في «عين تاغروط» واضطرت للانسحاب إلى سطيف. فاتهمت القيادة الافرنسية قائد المفرزة «بتهمة التقصير في أداء واجباته العسكرية»، وقدمته إلى مجلس عسكري، والذي برأه من التهمة المسندة إليه وذلك يوم ٢١ آب اغسطس- ١٨٧١.

أعادت القيادة الافرنسية تقويم الموقف، على ضوء فشل مفرزة «ترانجان» في تنفيذ مهمتها، وتزايد ضغط الثوار في وادي الشعير، وأصدرت أمرها إلى «الجنرال سوسي» بالانسحاب من مجانة إلى البرج لنجدة سطيف التي أصبح الثوار يهددونها. فنسف «سوسي» قصر الباشآغا المقراني، وأحرقه يوم ١٥ نيسان- ابريل- ودمر بقية منازل القرية قبل أن ينسحب منها.

كانت خطط الثوار تعتمد على إخلاء مدن السهل وقراه. والاعتصام بالربوات الحصينة، فأخلوا رأس الواد، وعين تاغروط، وتجمع عدد منهم في سهل سيدي مبارك شرق البرج، وفي عدة نقاط

أخرى. واعترضوا سبيل القوات الإفرنسية التي غادرت البرج متجهة إلى سطيف يوم ٢٠/٤/١٨٧١. وعلى أثر ذلك، عقد قادة الثورة اجتماعاً لهم في «مصالتة- قرب عين مسعود» بهدف دراسة الموقف الجديد. وحضر هذا الاجتماع بو مزراق ومحمد بن عبد السلام وعبد الرحمن بلقندوز وعزيز الحداد ومحمد الصغير بن الشيخ ساعد والمقدمان الرحمانيان: قارة بن حباش من قرقور، ومحمد أكلي أو بوعرون من البابور. وتم وضع الخطة لمواجهة القوات الافرنسية التي كانت تضايقهم من سطيف والبرج معاً. وخاض الثوار بعد ذلك مجموعة من المعارك الناجحة في جبل طافات وثنية مقسم والعيون. وأحرقوا برج قائد وادي الساحل القبلي «السعيد بن عبيد في الماوكلان» ومزرعة قائد قرقور «أحمد بن زيدان» الموالين للافرنسيين، وأكرهوا الأوروبيين في قرية وادي الذهب والوريسية والمهوان على الجلاء الى العلمة وبقية المراكز الافرنسية.

وأسند الحاج المقراني قيادة الأعمال القتالية في وادي الشعير، شرق بوعريرج، لأخيه بو مزراق ومعه بعض المقدمين الرحمانيين بزعامة عزيز الحداد. وتوجه هو إلى بني عباس لتفقد أمور المنطقة، وبذل المزيد من الجهد لكسب الأنصار والمؤيدين. ويظهر أن نجاحه في ضم الإخوان الرحمانيين إلى الثورة، وتوحيد صفوف أبناء عمومته على هدف الجهاد، هو الذي جعله يطمئن بعض الشيء للجبهة الشرقية، على الرغم من أن الأعمال القتالية في وادي الشعير لم تصل إلى مرحلة الحسم.

لم يتوقف الحاج المقراني طويلاً في بني عباس، فاتجه إلى «أولاد جلال» يوم (٢٥) نيسان - إبريل- ثم إلى جبل «موقرنين» بسور

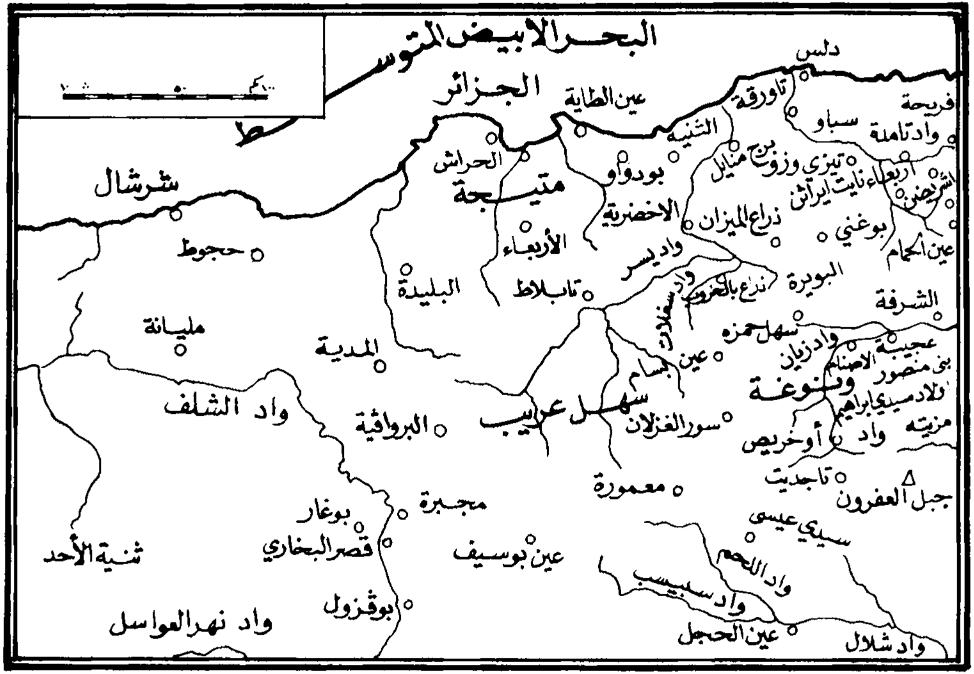

ـ مدينة الجزائر وسهل متوجة (متيجة)

الغزلان الذي جعل منه بو مزراق اكبر معسكر للثوار منذ اندلاع الثورة. وعقد هناك اجتماعاً كبيراً مع قادة الثورة والمقدمين الرحمانيين بالمنطقة. وحاول أن يخطط معهم أسس العمل والطرائق التي يجب اعتمادها لمجابهة القوات الافرنسية التي أخذت في غزو المنطقة منذ يوم ١١ نيسان- إبريل- تحت قيادة الجنرال سيرير وبصحبة تروملي وفورشود، وبدعم من آغا البويرة «بو زيد بن أحمد[١]».

ثم انتقل الحاج المقراني بعد ذلك من «جبل موفرين» إلى «عين الطاقة» ثم إلى «ثنية أولاد داوود» و «وادي الشعير» بين واد أخريص وسيدي بن داوود. وقضى هناك ليلة ٢٧ نيسان- ابريل- وعاقب أولاد سالم الذين استسلم البعض منهم إلى الجنرال سيريز بتحريض من الآغا بوزيد. وحصلت في اليوم التالي «معركةطكوكة»على ربوات دراع المؤمن جرح فيها. عـــدد من الأوروبيين وقتل من الثوار ثلاثمائة رجل نظراً لتفوق الأعداء بالقوى والوسائط. ولم يحضر الباشآغا المقرانـي هذه المعركة، غير أن رجاله نجحوا في اعتقال سبعة رجال من أتباع بوزيد

غادر الحاج المقرانـي منطقة ونوغه بعد معركه طكوكة مباشرة، فوصل إلى بني عباس يوم ٢٩ نيسان- إبريل- وأخذ في حشد الأنصار والأتباع بعد أن تأكد من عداء الآغا بو زيد الشديد للثورة، وعلم

---

(١) كان الاغابو زيد بن أحمد- أحد احفاد محمد الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر على البويرة- وقد أصبح من عملاء الإفرنسيين. وشكل عقبة كبيرة أمام ثورة المقراني والإخوان الرحمانيين في منطقة ونوغة وسور الغزلان والبويرة. وزادت حماسته لمحاربة الثورة حماسة الإفرنسيين ذاتهم. وحرص باستمرار على تزويدهم بأخبارها منذ بدايتها وحتى نهايتها (ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى بو عزيز- ص ٢٢)

بزحف قوات كبيرة من الجزائر العاصمة نحو ونوغة «تحت قيادة سيريز». وقد استدعى أخاه «بومزراق» من الماوكلان لمعالجة الموقف والإستعداد للمجابهة.

نجح الحاج المقراني بجمع حوالي أربعة آلاف محارب، وعاد بهم بسرعة إلى الجبهة الغربية عبر جبال البيبان وانضم إليه في الطريق عدد كبير من رجال بو خليل وبني مكيلش وبني عباس وبني يعلى وبني منصور. وأخذ طريقه إلى مدينة البويرة (مركز قيادة الآغابوزيد بن أحمد)،وذلك في اليوم الأول من أيار- مايو- بينما كان الثوار الآخرون يواجهون قافلة من القوات الافرنسية - يقودها تروملي- على الضفة اليسرى لواد سفلات. بالإضافة إلى قافلة ثانية على الضفة اليمنى لواد الجمعة- بقيادة قورشود- وكان الثوار يهيمنون عليها من ربوات سلامات.

وصل الحاج المقراني بقواته إلى مدينة البويرة يوم ٢ أيار- مايو- وفرض عليها الحصار. وحاول اقتحامها، غير أن الآغابوزيد وأنصاره من أولاد بليل وأولاد عريب بزعامة القائد محمد بن منصور والقائد محمد بن إبراهيم قاوموه بشدة، فتراجع عنها إلى قرية «بوشرين» وعسكر بقواته في اليوم التالي بتسالة في أوساط بني مناد، وأخذ يستعد لمواجهة قوات سيريز التي كانت تتابع تحركاته، والتي اعترضتها قبائل صنهاجةواشتبكت معها ورفضت الاستسلام لها هي وأولاد سالم. وكانت صدمة المقراني كبيرة نتيجة فشله في إخضاع خصمه «الآغا بوزيد»، وكان قد حصل على ستة من رجاله في معركته، فحاول الافادة منهم لمساومة «الآغابوزيد» والاتصال به وبذل كل جهد مستطاع لاستمالته وضمه إلى صفوف الثورة، غير أن «الآغا بوزيد» كان مصممًا على متابعة طريقه في خدمة الافرنسيين، ومحاربة المقراني وأنصاره الرحمانيين. على كل حال، لم يكن باستطاعة الحاج المقراني

- خريطة واحات الصحراء الشرقية التي كانت مسرحاً لمطاردة المقرانيين الى داخل الحدود التونسية اوائل ١٨٧٢ م.

التوقف طويلاً في «نساله» فغادرها بقواته التي بلغ عدد أفرادها ثمانية آلاف مقاتل، واتجه الى الربوات المحيطة «بوادسفلات» عبر واد الجمعة في اليوم الرابع من أيار- مايو- وانتشر الثوار في وادي سيدي سالم، بينما أقام الحاج المقراني معسكره في «وادي الرخام» الرافد الأيسر لوادي الجمعة، عند مصب «وادي غالو» على ربوة تدعى «كدية المسدور»

وكان اختيار هذه المنطقة ناجحاً، ذلك لأنها كانت منطقة وعرة المسالك ذات حوافي صيقة، وربوات صخرية، وهضاب معقدة التضاريس، يصعب على الافرنسيين التنقل فيها بدون أدلاء من أبناء المنطقة. غير أن «الآغا بوزيد» تكفل بحل هذه المشكلة. وأخذ على عاتقه إمداد الافرنسيين بسيل من المعلومات عن تحرك الباشآغا المقراني، كما تعهد بتوجيه القوات الافرنسية في تحركها عبر المناطق الصعبة. وبذلك استطاعت القوات الافرنسية الوصول في يوم ٥ أيار- مايو- إلى «دارع بلخروب» غير بعيد عن معسكر الحاج المقراني، وأخذت هذه القوات بدفع مفارز الاستطلاع لتحديد مواقع الثوار، فاشتبكت معهم منذ طلوع الفجر، واستمرت حتى منتصف النهار بصورة متقطعة وعلى الرغم من أن الافرنسيين كانوا على علم بوجود الحاج المقراني في تلك المنطقة، إلا أنهم لم يكونوا على علم بوجوده في ذلك المكان بالذات.

خفت حدة الاشتباكات في فترة الظهيرة حتى كادت تتوقف تقريباً. فمضى الحاج المقراني ورَفاقه لأداء فريضة صلاة الظهر، ويظهر إنه لم يتخذ الاحتياطات الكافية، ولم يكن يعرف بوجود عدد من جنود «الزواف» الافرنسيين يترصدونه هو ورفاقه على بعد أقل من ألف متر. وبينما هو يصلي رماه أولئك الزواف بأربع رصاصات أصابته في جبهته، فسقط شهيداً على الفور وهو يردد شهادة التوحيد،

كما سقط معه ثلاثة من إخوانه. وتوقف الرمي تماماً لهول الصدمة التي نزلت بأتباعه. وحمل الثوار في الحال جثة المقراني الى «قلعة بني عباس» ودفنوه بمسقط رأسه.

حاول «بومزراق» وقادة الثورة، إخفاء خبر استشهاد الحاج المقراني في بدايه الأمر. وأشاعوا أنه جرح جروحاً بليغة بسبب انفجار قنبلة بين يديه، غير أن ثلاثة أشخاص من الستة الذين اعتقلهم في معركة ٢ أيار- مايو- فروا أثناء استشهاده مستغلين فرصة ما حدث من هيجان واضطراب، والتحقوا «بالآغابوزيد» وأحاطوه علمًا بالأمر. فقام هذا بواجبه وأبلغ ذلك إلى السلطات الافرنسية.

وهكذا اختفى الحاج محمد المقراني من ميدان الجهاد بسرعة، وبعد واحد وخمسين يوماً فقط من بداية ثورته. ولم يعش خلالها أحداثاً حاسمة. وكان من نصيبه تذليل العقبات والاصطدام بالصعوبات، ومعاناة مرارة الفشل، وفقد قصره بمجانة وكل أثاثه وأملاكه، وفشل في احتلال «برج بوعريريج» و «البويرة». ولم يتمكن من اخضاع «الآغا بوزيد»؛ كما رفض أصدقاؤه القدامى «أمثال ابن علي الشريف» أن ينضموا إليه ويدعموا جبهته.

ومقابل ذلك، حقق نجاحاً رائعاً في إيقاد جذوة الثورة، وتوحيد جبهة أبناء عمومته ضد المستعمرين. ودعم الثورة بتعاونه مع الشيخ الحداد، وإقناعه برفع راية الجهاد في سبيل الله، مما ضمن للثورة القدرة على الصمود والاستمرار.

مضى الحاج محمد المقراني للقاء ربه صابراً مجاهداً، وترك جذوة الثورة متوهجة في قبضة المجاهدين، ومنهم بصورة خاصة «الإخوان الرحمانيين».

٢- ثورة الشيخ الحداد (صدوق)

«أو ثورة الإخوان الرحمانيين»

تنتسب الطريقة الرحمانية إلى مؤسسها الأول محمد بن عبد الرحمن (١٧٢٨- ١٧٩٤ م) وهو من مواليد قرية آيت إسماعيل في فروحة على بعد (١٥) كيلومتراً إلى الشرق من مدينة ذراع الميزان بجبال جرجرة. وتلقى تعليمه في قرية آيت إيراثن، ثم أكمل تعليمه بمصر- في الجامع الأزهر- وعاد إلى الجزائر، واستقر في بجاية، ثم انتقل إلى «حي الحامة» قرب العاصمة الجزائر، وعاد أخيراً إلى مسقط رأسه «آيت إسماعيل» . وعندما توفي عزم أتباعه وأخوانه بالحامة على نقل جثته إلى الجزائر سراً، ونفذوا ذلك. وحصل خلاف بين أهل الحامة ، وأهل آيت إسماعيل، حيث ادعى كل طرف بأنّ جثة محمد بن عبد الرحمن في منطقته، فأطلق عليه منذ ذلك لقب «بوقبرين» ولا يزال أحفاده حتى اليوم يحملون هذا اللقب.

اشتهر محمد بن عبد الرحمن بالتقى والعلم والورع، وأسس مدرسة دينية (المدرسة الحفناوية نسبة إلى أستاذ محمد بن عبد الرحمن في الأزهر- الشيخ محمد بن سالم الحفناوي). وأصبح لمدرسته أتباع وأنصار كثيرون، ولهم دعاتهم وزواياهم- مدارسهم التعليمية- وعندما غزت فرنسا الجزائر، قام الإخوان الرحمانيون بدور كبير في مناهضة

الغزو الاستعماري ومقاومته. فكان للإخوان دورهم في ثورة الأمير عبد القادر وثورة الشريف بونبلــة (سنة ١٨٥٦). وقاد الحاج عمر مقدم الرحمانيين -زوج لالافاطمة المجاهدة الشجاعة شيخة أيسو مار واحدى بنات الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس زاوية الرحمانيين- بنفسه مقاومةجماهير الإخوان الرحمانيين ضد الجيش الإفرنسي الذي كان يقوم بعمليات الاستطلاع في جبال جرجرة تمهيداً لغزوها. وعندما نجحت فرنسا بالقضاء على ثورة الإخوان وأبعدت شيخهم الحاج عمر إلى مدينة نفطة التونسية، وتم لها اعتقال لالافاطمةبعد ذلك. **تولى الشيخ محمدأمزيان بن علي الحداد مقدم زاوية صدوق الرحمانية قيادة الإخوان الرحمانيين، وأمكن له المحافظة على وحدتهم.**

كان الموطن الأصلي لأجداد الحداد هو قرية بني منصور في جبال البيبان، على الضفة اليمنى لوادي الساحل والصومام- في مواجهة السفوح الشرقية لجبال جرجرة- (وغير بعيد من قرية أقبو الحالية). وانتقل البعض من هذه القرية إلى قرية «تيفرة» و «إيمولة» و «صدوق- أو فلة الفوقانية» ببني العيدل على الضفة اليمنى لوادي الصومام. وقد اكتسبت العائلة اسمها من احترافها لمهنة «الحدادة». وقد ولد محمد أمزيان الحداد سنة١٢٠٨ هــ١٧٩٣ م. وتلقى تعليمه في زاويةالشيخ ابن اعراب في قرية «آيت إيراثن» بجبال جرجرة حتى إذا ما توافر له القدر الكبير من العلم والمعرفة عاد إلى صدوق، وتفرغ للوعظ والإرشاد، وتكاثر الطلاب حوله بالزاوية التي أنشأها. فكان عدد الطلاب الملازمين لزاويته أكثر من مائتي طالب، يأكلون ويشربون ويقيمون مجاناً، في حين ارتفع عدد الإخوان من المئات إلى الآلاف. وتدفقت على الزاوية أموال الهدايا والزيارات، وحبس الإخوان عليها

أوقافاً كثيرة من الأراضي ذات المردود الواسع من الحبوب والغلال والخضار، مما ساعدها على أداء مهمتها الثقافية والدينية والاجتماعية، ومكنها من تقديم إعانات كثيرة للمعوزين والمنكوبين خلال المجاعة الكبيرة عامي ١٨٦٧ و ١٨٦٨. وعندما نفت السلطات الافرنسية شيخ الرحمانيين الحاج عمر. أصبح الشيخ محمد الحداد هو الزعيم الملهم للإخوان الرحمانيين وامتدت سلطته الروحية ونفوذ زاويته على كل المنطقة الواسعة التي تشمل جبال البابور وحوض الصومام وجبال جرجرة وحوض الحضنة.

عرف عن الشيخ محمد الحداد عزوفه عن السلطة الرسمية، وقوة عاطفته الدينية، فكان أتباعه هم الممثلين الحقيقيين للطبقة الشعبية الفقيرة. ومن هنا جاءت المنافسة مع أولاد عبد السلام المقراني الذين كانوا يطمعون في التعاون مع السلطات الافرنسية لدعم سلطتهم الدنيوية. وهذا ما حمل الحاج محمد المقراني لبذل وساطته في نهاية عام ١٨٧٠ لتأمين الوفاق بين أبناء عمومته والشيخ الحداد. وأمكن له إزالة أسباب الخلاف وتوثيق الروابط بين مجانة (الحاج محمد المقراني) وصدوق (الشيخ محمد الحداد).

وعندما أشعل الحاج محمد المقراني ثورته في «مجانة» وأخذ في العمل على توسيع نطاقها، أرسل وفداً إلى «صدوق» يوم ٦ نيسان- إبريل- ١٨٧١ يضم ابن عمه الحاج بوزيد وصديقه محمد العربي بن حمودة وأربعة مقدمين آخرين من زعماء بني عباس، سلموا إلى الشيخ محمد الحداد رسالة «دعاه فيها إلى إعلان الثورة ودفع أخوانه إليها».

ولم يكن الإخوان الرحمانيون بحاجة لمن يستثيرهم للثورة، فقد كانوا في حالة ثورة دائمة، غير أن اشتراكهم كان- إفرادياً- إذ صح

التعبير. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد كان الشيخ الحداد متقدما في العمر، ويميل بطبيعته للسلم، ويفضل التفرغ لأمور الدين، غير أنه كان من المحال فصل الدين عن أمور الدنيا، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالجهاد ضد أعداء الدين. ولم يكن الشيخ الحداد لينفرد في معالجة مثل هذا الأمر الخطير بنفسه، فكلف ابنيه «سي عزيز» و«محمد» بدعوة كل المقدمين المجاورين لصدوق للتشاور معهم، فأخذوا يتوافدون حتى أكمل جمعهم صباح يوم ٨ نيسان- إبريل- واحتشدوا بجوار القرية. **وخرج إليهم شيخهم الوقور المسن ذو اللحية البيضاء، متكئاً على عصاه. وحوله ابناه «سي عزيز» و «محمد» وبعض المقدمين المقربين إليه فوعظهم وأرشدهم، وأعلن لهم عن خلافة ابنيه له من بعده، ودعاهم بعد ذلك إلى الجهاد. وسلم لهم علم الجهاد الذي صنع قبل ذلك، وصاح قائلاً- بعد أن رمى عصاه على الأرض-: «بإذن الله وعون رسوله سنرمي الافرنسيين في البحر، ونطردهم من البلاد»**(١)

ما كاد الشيخ الحداد يعلن ثورته، حتى اندفع كل الناس لحمل السلاح تحت راية «الإخوان الرحمانيين» في ولايتي «عمالتي» الجزائر وقسنطينة، من جحوط ومليانة وشرشال غرب مدينة الجزائر إلى جيجل والقل شرقاً، وباتنة وبو سعادة وسور الغزلان جنوباً. وشمل ميدان الثورة جبال البابور والوادي الكبير وحوض الصومام وجبال جرجة والبيبان وحوض الحضنة وجبالها. وامتدت إلى سهل متيجة «متوجة» وحاصر الثوار مراكز الإفرنسيين وقلاعهم العسكرية في بجاية ودلس وتيزي أورو وأربعاء نايث إيراثن وبرج منا. ذراع الميزان،

---

(١) ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى بو عزيز- ص ٢٣٥ - ٢٤٠

وابن هني (الأخضرية حالياً)، وسطيف ونقاوس وجيجل والقل وشرشال وبوداود وغيرها. واندفع الى الثورة في أقل من شهر أكثر من مائة وعشرين ألف رجل محارب. في حين لم يستطع المقراني قبل ذلك تجنيد أكثر من (٢٥) ألفاً من مناطق برج بوعريريج وسور الغزلان وبو سعادة.

أصيبت الإدارة الافرنسية في الجزائر بالذعر، وانطلقت الأبواق الاستعمارية للهجوم على الثورة، ومما قيل فيها: «باتت المراكز الدينية مصدر خطر كبير على الافرنسيين. ولم تعد الزوايا مكاناً لتعليم القرآن فقط وإيواء البؤساء، وإنما تحولت إلى مراكز للثورة من أجل القضاء على المسيحيين. وهذا ما فعله الأخوان الرحمانيون بالجزائر بزعامة الشيخ الحداد، بفضل التأثير الديني والسياسي الكبير لهم، وارتباطهم بالقاعدة الشعبية ارتباطاً وثيقاً»[١].

وقيل أيضاً: «من أن النيران التي اشتعلت في كل الجزائر، كانت مدعمة بالتعصب الديني للإخوان الرحمانيين الذين انتشروا في مصيف جرجرة، ومن حدود المغرب الأقصى إلى حدود تونس. وأن إخوان ١٨٦٣ و ١٨٦٥ ما يزالون اليوم يقودون الحرب الدينية، وجاؤوا من مكة لزرع التشويش الديني في الجزائر»[٢].

قد لا تكون هناك حاجة للتوقف عند مثل هذه المقولات التي

---

(1) LES CONFRERIES ISLAMIQUES EN ALGERIE, RAHMANIA TIDJANIA (SIMON- MARCEL) ALGER JOURDAN 1910- PP. 35- 42, 56- 65.

(2) L'INSURRECTION DE LA GRANDE KABYLIE EN 1871. (ROBIN. N. COLONEL) PARIS, IMP: HENRI- CHARLES- LAVOUSELLE 1901- P197.

باتت معروفة الأهداف ، منذ أن طور الغرب هجومه الصليبي ضد العالم الإسلامي . فوصف «التعصب الديني» ليس إلا وسيلة لدفع المسلمين من أجل التخلي عن أراضيهم الإسلامية الصلبة ، والتحلل من التزاماتهم ، وأولها الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الله . وهنا يمكن الاتفاق مع بعض مؤرخي الغرب في القول ـ إذا ما كان هناك تعصب : «بانه لم يثر التعصب الإسلامي إلا التعصب المسيحي الذي دل عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء»(١) وأما الهجوم على الزوايا والمساجد والمدارس الإسلامية فليس من هدف له إلا تدمير قواعد الصمود. يبقى هدف الهجوم على مكة المكرمة ـ عبر اتهامها بإرسال من يقوم «بالتشويش الديني بالجزائر» هو تمزيق الرابطة التي تربط المسلمين بمقدساتهم ، علمًا أن هذه الأماكن المقدسة ـ الحجاز ـ كانت معزولة عن العالم العربي ـ الإسلامي في تلك الحقبة ، بفضل جهود محمد علي باشا حاكم مصر ، وحلفائه من الإفرنسيين . المهم في الأمر : «هو أن ثورة الإخوان الرحمانيين ، أثرت على أصدقاء فرنسا من تونس إلى المغرب الأقصى ، وأصبح الشيخ عزيز مثل السلطان لكل سكان بلاد القبائل»(٢) .

وما إن رفع الشيخ محمد الحداد لواء الجهاد في سبيل الله ، حتى انطلق ولداه «سي عزيز ومحمد» للعمل الجاد ، فأمر «سي عزيز» بقطع خط الهاتف الذي يربط بجاية بأربعاء نايث إيراثن (يوم ١٠ نيسان ـ إبريل) وكلف أتباعه ومقدمي أبيه بالدعاية الواسعة لحشد الناس في صف الثورة . وأمر بإشعال النيران ليلاً على الربوات وقمم الجبال

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ـ ١/٤٠٥ .

(٢) ثورة ١٨٧١ ، الدكتور يحيى بو عزيز ـ ص ٢٣٩

لإشعار الإخوان الرحمانيين بانطلاقة الثورة. وأخذ الرسل والدعاة في التنقل بسرعة إلى كل الجهات، لإبلاغ نداء الشيخ الحداد إلى السكان. وشرع سي عزيز في جمع الرجال وتنظيمهم، وتعيين القادة والرؤساء، فاستمال إليه زعيم «بني يمل- المدعو أورابح» وعينه قائداً على ثوار الجبابرة، بينما فر القائد أحمد أورابح بأسرته إلى بجاية. وبعد أن تجمع لدى سي عزيز عدد كبير من المحاربين، نظمهم وقسمهم إلى قسمين: قسم وضعه تحت قيادته المباشرة ويتكون من خمسة آلاف محارب تقريباً، يعاونه القائد عبد الله بن عبد القادر الوهراني- مقدم بني سليمان- والبشير بن علي وعبد الله بن الأعلى. أما القسم الثاني، فقد وضعه تحت قيادة أخيه محمد، ويتكون من أربعة آلاف محارب، يعاونه القائد عمر أبو جمعة، وبو جمعة بن نحمان، والعريف حمو (الذي كان من ضمن حرس ابن علي الشريف وانضم إلى الثوار).
ونظم «سي عزيز» جهاز الاستخبارات فعين جماعة لهذه الغاية تعمل تحت قيادة عبد العزيز صهر الشيخ محمد بن الحداد، ومحمد أكلي بن بوعرون مقدم بني سليمان، ومحمد أو يحيى مقدم فيانة ورزقي بن بوزيان من الجبابرة.

أكمل سي عزيز وأخوه استعداداتهما، ثم أقاما معسكرهما في قرية «ذراع تاقاعت» شمال الضفة اليمنى لوادي الصومام يوم ١٢ نيسان- إبريل- وفي هذا الوقت ذاته كان ثوار «بني» و «غليس» في الضفة اليسرى يحشدون الناس للجهاد، وكانت العقبة الرئيسية لهما تتمثل في معارضة «**ابن علي الشريف- باشآغا شلاطة**» و «**محمد أمزيان ابن الموهوب- شيخ زاوية العراش**». فوجها إليهما رسالتي تهديد في اليوم التالي لإعلان الثورة. كما كتبا رسائل مماثلة إلى شخصيات أخرى. ولم يترددا في مهاجمة برج شيخ العراش في- إيمولة- بعد يومين

من إنذاره، لرفضه الانضمام الى الثورة، وألحقا به أضراراً فادحة. وخربا له منزل سكناه. وعندئذ استنجد «ابن علي الشريف» بحاكم بجاية الإفرنسي، الذي كان يعسكر في قرية القصر منذ يوم ٩ نيسان- إبريل- فأمده ببعض البنادق القديمة، التي لم تفده. فاستنجد بالجنرال الإفرنسي «لاباسي» الذي وصل بقواته بحراً إلى بجاية يوم ١٤ نيسان- إبريل- غير أن هذا اعتذر عن تقديم الدعم بحجة أن الثوار قد باتوا مسيطرين على الطريق في سيدي عيش وتاقريت، مما يجعل إرسال النجدات أمراً صعباً.

انتقل «سي عزيز» بقواته يوم ١٦ نيسان- إبريل من «ذراع بلوزير» إلى «جبل عديسة»، وعاقب بني جليل لتقاعسهم عن الاستجابة السريعة لنداء الثورة، وفرض عليهم غرامات مالية. وبدأ هو وأخوه بعد ذلك في ممارسة أعمال العنف ضد أعداء الثورة من الجزائريين والأوروبيين ثم توجها إلى «بجاية» لمهاجمتها عبر منطقة الجبابرة. بينما كان ثوار «إفناين وآيت إسماعيل» يعسكرون أمامها على يمين معسكر القصر. وجرت اشتباكات بسيطة، تراجع بعدها سي عزيز وأخوه إلى «إيغيل» أو عزوز- أمام مضيق تيزي الجمعة. وفي يوم ٢٠ نيسان- إبريل- وصلت رسالة ثانية من الحاج محمد المقراني إلى سكان «يلولة أو سامر» يحثهم على الجهاد، ويتبرأ من «ابن علي الشريف» الذي «يثبط الناس عن الجهاد». وأبلغهم بأنه ذاهب إلى سور الغزلان لاعتراض القوات الإفرنسية. ووعدهم أن يتجه فور عودته إلى «أقبو» ليتعاون مع الشيخ عزيز- في تخريب «عزيبه» ومنازل السكان الذين نعود. ولكن المقراني لم يعد من هذه العمليه، إذ قتل في معركة واد سقلات- كما سبق ذكره. فبدأ سي عزير نقدمه من جديد

Si AZIZ -
CHEF DE L'INSURRECTION KABYLE

- الشيخ عزيز بن الحداد

على رأس قواته يوم ٢١ نيسان - إبريل- وهدفه الوصول الى بجاية عبر وادي الصومام. وعندما وصلت طلائع قواته على مسافة (١٣) كيلومتراً من المدينة، اصطدمت بطلائع القوات الإفرنسية، فتراجع سي عزيز بقواته إلى قرية «تاوديرت الأربعاء»، وانسحب قسم كبير من القوات الإفرنسية الى الجزائر العاصمة بعد أن تلقت هذه القوات مهمة جديدة هي الدفاع عن قرى سهل متيجة «متوجة» وحماية العاصمة التي باتت مهددة بقوات الثوار.

تمركز الشيخ محمد بن الحداد (بعد اشتباكات يوم ٢١ نيسان- إبريل) في ثلاثة مواقع لمتابعة حصار مدينة «بجاية» على بعد سبعة كيلومترات منها. فوضع قوة في «بوشامة داخل جبل قوراية» ووضع قوة ثانية في «تيزي»،أما القوة الثالثة فتمركزت في «تيرياهنت» على الضفة اليمنى لوادي الصومام. وحدثت بعض الاشتباكات جرح خلالها القائد أحمد أورابـح المتعاون مع الإفرنسيين. وفي هذا الوقت ذاته، كان الثوار في «إيلولن» يهاجمون ابن علي الشريف في شلاطة.

خاض «سي عزيز» والمجاهدون معركة كبيرة ضد الإفرنسيين في جبل طافات يوم ٣٠ نيسان- إبريل- واتجه في اليوم الأول من أيار- مايو- لمهاجمة برج بلقاسم بن حبيلس المتعاون مع الإفرنسيين بمنطقة البابور، ، بصحبـة صهره وعدد من وجهاء أولاد مقران وزعماء المنطقة، وذلك ليسهل عليهم الطريق للزحف على مدينة سطيف نفسها، غير أن ابن حبيلس حصن برجه، واستدعى أخاه عمر بن حبيلس وجماعة من بني فوغال للدفاع عنه. وأمكن له إيقاف هجوم الثوار.

وكلف «سي عزيز» بعضاً من قواته بمهاجمة قرية «العلمة» وحاول

هو أن يهاجم قرية «الوديسية» ولكنه فشل في محاولته- كما حاول استمالة الزروق بن يللس وداوود بن كسكاس وضمهما إلى صف الثورة، ففشل في محاولته هذه أيضاً. وحدثت بعد ذلك مجموعة من المعارك يومي ٦ و ٧ أيار- مايو، تمكن خلالها سي عزيز من التقدم إلى زمالة عين عبيسة وتدمير برجها، وذلك بالرغم من النجدات الافرنسية وحملات أنصار الافرنسيين من أمثال داوود بن كسكاس، وأحمد بن زيدان قائد قرقور، والحاج بوعكاز. واستطاع سي عزيز تدمير القوة الافرنسية المدافعة عن «برج عين عبيسة» هي ومن كان معها من الصبايحية والقواد وأولاد تابت

ترددت أصداء انتصارات سي عزيز هذه بقوة، واستقبل الناس أخبارها بحماسة، فأقبلوا على الانضمام إليه. وعسكر بمن معه في جبل عنيني، وكان عددهم حوالي ستة آلاف محارب. وتصدت هذه القوات للإفرنسيين بعين رواح في ثنية الماجن. كما خاض ثوار أولاد ناصر معارك ضد داوود بن كسكاس على بعد عشرين كيلومتراً من جبل باوش في عين الكحلة، واستشهد في هذه المعارك عدد من المجاهدين. وعلى أثر هذه المعارك، انسحب «سي عزيز» إلى عموشة لاستشارة أولاد صالح واستنهاض هممهم. في حين انسحبت القوات الافرنسية إلى تاقيطونت، تحت وابل رصاص الثوار

غادر سي عزيز بعد ذلك عموشة، وانضم إلى معسكر أخيه الشيخ محمد في «تيزي الجمعة» حول بجاية. ولم يلبث أن انضم إليهما بو مزراق يوم ١٦ أيار- مايو- وتم تنظيم مجموعة من الهجمات ضد القوات الافرنسية وأعوانها في المنطقة. وقامت البوارج الافرنسية بقصف القرى المجاورة لمصب وادي الصومام. ثم اتجه سي عزيز

وبومزراق إلى عموشة حيث التقيا بمقدم فرجيوة- القريشي بن سيدي سعدون- في قرية تاسة، والذي كان الافرنسيون قد هاجموا زاويته يوم ١٧ أيار- مايو- ودمروها تدميراً تاماً بمساعدة بلقاسم بن حبيلس. وكان ثوار «عموشة» قد باغتوا القوات الافرنسية التي أرادت أن ترغمهم على الاستسلام في «وادي البرد» وقتلوا منها ثمانية جنود، وجرحوا عشرين، كما حاصروا قوة منها غير أن النجدات الإفرنسية تمكنت من رفع الحصار وإنقاذ القوة التابعة لها. وأثناء ذلك، قام عبد الرحمن بلقندوز المقراني، ومحمد بن عبد الله من أولاد ريغة وأتباعهما، بمهاجمة معسكر القائد ابن الجودي من أولاد موصلي الموالي للافرنسيين. واشترك عدد من ثوار أولاد صابة وبني ملول وأولاد عبد الله بن علي وبني سعيد بالبابور، في مهاجمة برج بلقاسم بن حبيلس انتقاماً منه لمساعدة الافرنسيين ضدهم.

خاض المجاهدون الثوار بزعامة سي عزيز وبو مزراق عدداً من المعارك بداية من يوم (٢٠) أيار- مايو. وشمل مسرح العمليات: ربوات ثنية الغنم وقرية تاسة والحمام وحول عموشة. جرح خلالها المقدم القريشي بن سيدي سعدون. كما وقعت معركة كبيرة في «جبل منتانو» يوم ٢٥ أيار- مايو. وحاول ثوار أولاد صالح اعتراض أرتال القوات الافرنسية التي كانت تحاول التوغل في وادي البرد وشعبة عيسى، وذلك قبل أن يتجه سي عزيز إلى أولاد عزيز وبني فوغال في تابابورت وجيجل عبر جبال البابور، حيث وصل إلى «بو مراو» يوم (٢٦) أيار- مايو- ثم إلى الحامة. حيث التقى بصهره عمر بو عرعور الذي أحاطه علماً بالصعوبات والمشاكل التي كان يثيرها صده وضد الثوار- أخوه محمد بو عرعور والصبايحية التابعون له، ومحمد امقران قائد بني سيار، الذي يرجع أصله إلى عائلة المقراني وعائلة ابن منية

وعائلة ابن حبيلس. وعلى أساس هذه المعلومات، حاول سي عزيز أن يضع استراتيجية جديدة للحرب. فقسم قواته يوم ٢٨ أيار- مايو إلى خمس كتائب: الأولى، وجهها إلى بني عزيز لتدمير برج القائد بلقاسم بن حبيلس الذي رفض الإجابة على رسائله والتجأ إلى جيجل. ونفذت هذه الكتيبة مهمتها بنجاح. أما الكتيبتين الثانية والثالثة فقد وجههما إلى «بني فوغال» على طريق فج العوانة وقرية سلمة. وكلفت الكتيبتان الرابعة والخامسة بالتوجه عبر منخفض دار الوادي لمهاجمة بعض قرى بني فوغال التي عارض سكانها حركة الثورة.

شهدت قرية سلمة وأحوازها معارك كثيرة، وقام سي عزيز خلال يومي ٢٩ و ٣٠ أيار - مايو- بإحراق كل مراكز الأوروبيين والقادة الجزائريين الموالين لهم والذين التجؤوا إلى جيجل. وعسكر يوم ٣١ أيار- مايو- في أولاد خديم علام، بعد أن غادر فج سلمة، ودمر برج القائد أحمد بن منية في يوم ١ حزيران- يونيو- بسبب رفضه التعاون مع الثورة.

غادر سي عزيز منطقة جيجل إلى عموشة- عبر فرجيوة- في اليوم الثاني من حزيران - يونيو- وخلف وراءه المقدمين الثلاثة: القريشي ابن سيدي سعدون وعمر بو عرعور والطيب بن مبارك بودفيش، لإدارة الأعمال القتالية ضد جيجل، مع عدد من النواب والقادة الآخرين. فاتجه القريشي وعمر بن أمقران- مقدم بني شقوال بقواتهما إلى الشمال- نحو ساحل البحر- وترك- القريشي- عدداً من الثوار لحراسة سكان وادي جنجن من بني يدر وبني حبيبي. واتجه هو إلى جيجل بمن معه من الثوار يوم ٧ حزيران- يونيو- وتعرض لقصف

البوارج الإفرنسية من البحر، وعاود الهجوم على المدينة صباح يوم ٩ حزيران - يونيو- من أعاليها الغربية، واستمر في هجومه حتى منتصف النهار. وكررت قواته الهجوم يوم (١١) من عدة جهات، ودمرت قنوات المياه التي تزود المدينة بمياه الشرب، واستشهد في هذه المعارك عدد كبير من الثوار. وتعاونت القوات البرية الإفرنسية مع القوات البحرية في صد هجوم الثوار عن جيجل، كما قصفت البوارج الافرنسية مركزاً للثوار طوال معارك الأيام الثلاثة، مما اضطر القريشي وابن أمقران إلى الانسحاب نحو شرق المدينة، لإعادة تنظيم القوات للمعركة ومواجهة الموقف الجديد، بينما تابع عمر بو عرعور حصار المدينة من أحوازها بعدد من الثوار. وقد اتجه عمر بو عرعور والقريشي الى بني حبيب قرب مصب الوادي الكبير، ومن هناك إلى زاوية سيدي ورتيز لمقابلة شيخها ومقدمها الرحماني- محمد بن فيالة- ودعوته إلى حمل السلاح. وراسل القريشي القائد بلقاسم بن رابح بوزيان قائد أولاد عوات، لاستمالته وضمه إلى صف الثورة. غير أن هذا الأخير قام بتسليم الرسالة إلى الحاكم الافرنسي لمنطقة المليلة.

بينما كان القريشي ورفاقه يخوضون المعارك حول جيجل في محاولة لاقتحامها والسيطرة عليها، كان «سي عزيز» يخوض معارك أخرى ضد الافرنسيين في كدية البيضاء قرب الوديسية، وضد الافرنسيين وأنصارهم من أولاد نابت وأولاد صعدة في جنوب سطيف. وقامت القوات الافرنسية بإحراق عدد من القرى في خراطة وذراع القايد وساحل قبلي وبني سليمان. ودافع الثوار ببسالة عن شرفهم، غير أنهم تعرضوا لخسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات. ثم توجه «سي عزيز» إلى «جرمونة» يوم ٢٢ حزيران- يونيو- ١٨٧١- ووجه فور وصوله إليها نداءاً طالب فيه سكان بني سليمان وصدوق

بالتوجه إلى قرى شمال سطيف عن طريق الساحل القبلي، نظراً لما كان يجابهه المجاهدون من صعوبات في عملياتهم ضد القوات الافرنسية في قصر الطير. وعقد اجتماعاً مع زعماء الثوار في جرمونة صباح يوم ٢٤ حزيران- يونيو- تم فيه الاتفاق على مهاجمة معسكر الافرنسيين في كدية البيضاء، وتالة وزران- أو ايفاسن- وتوجهت القوات التي كان عدد مقاتليها يزيد على (٨٠) ألف رجل إلى «تالة وزران» وخاضت هناك معارك ضارية في ظروف غير متكافئة استشهد خلالها حوالي مائة وخمسون من المجاهدين مقابل ثمانية من قتلى الأوروبيين. **وعلى أثرها اتجه سي عزيز إلى صدوق، وعلامات الفشل بادية عليه وعلى أتباعه. وهناك، في صدوق ، أصيب سي عزيز بإحباط جديد، فقد وجد جبهة أخيه الشيخ محمد وهي في حالة سيئة من التمزق، بحيث لم يتمكن من إحراز أي نصر منذ معركة «تالة وريان» في أواخر شهر نيسان- إبريل- وعندئذ انتقل سي عزيز إلى جبال جرجة. فوجد فيها الأوضاع متدهورة الى درجة سيئة، فقد خاض المجاهدون معركة «إيشريضن» يوم ٢٤ حزيران- يونيو- وهي المعركة التي تعاونت فيها القوات الإفرنسية حتى أنزلت بالثوار خسائر فادحة، وألحقت بهم الهزيمة، وقامت بعد ذلك بإحراق قراهم وتشتيت عائلاتهم على نحو ما كانت قد فعلته من قبل في معركة عام ١٨٥٧ في نفس اليوم وفي المكان ذاته، مما أدى الى إضعاف الثوار في هذه المنطقة. واتجه سي عزيز إلى معسكر «علي أوقاسي» الذي كان يعاني هو الآخر من مصاعب لا نهاية لها. وعندئذ قرر سي عزيز الأخذ بنصيحة والده، والاستسلام لاعدائه**

كانت الخطوة الأولى في هذا المضمار قيام «علي أوقاسي» بتوجيه

رسالة إلى حاكم «تيزي أوزو» الافرنسي يوم ۲۷ حزيران- يونيو- يعلمه فيها بأنّه سيقود بنفسه في اليوم التالي (٤٤) مدنياً أوروبياً. سبق للثوار إلقاء القبض عليهم وأسرهم في برج منايل. وفي الموعد المحدد، وصل المعمرون الأوروبيون إلى مسجد سيدي بو بهير تحت حراسة محمد أمقران أوقاسي، ومحمد السعيد وموسى وأحمد بن يسر، وأحمد بن محيي الدين من تاورقة ثم انتقل هؤلاء الأسرى، وهم تحت الحراسة- إلى سبت آيت يحيى حيث تسلم قائد الحامية الافرنسية المدنيين الافرنسيين. وتتابعت بعد ذلك الأحداث بسرعة.

فقد استسلم سي عزيز للافرنسيين في معسكر آيت هيشم يوم ۳۰ حزيران- يونيو- ومعه علي أوقاسي ومحمد أمقران أوقاسي ومحمد لونيس أوقاسي.

وتم اعتقال إخوة الشيخ محمد قرب بجاية يوم ٢ تموز- يوليو- واستسلم الشيخ محمد أمزيان بن الحداد يوم ١٢ تموز- يوليو. وتم وضع الجميع في السجن تمهيداً لمحاكمتهم كمجرمين عاديين، وكان استسلام «آل حداد» نقطة تحول حاسمة في مسيرة الثورة. إذ لم يلبث الإخوان الرحمانيون أن أصيبوا بالانهيار. فبدءُوا بالتساقط تباعاً تحت ضربات الافرنسيين.

٣- ثورة أحمد بو مزراق
«سور الغزلان وونوغة»

كان أحمد بو مزراق، شقيق الباشآغا محمد المقرانـي ، قائداً على عرش «ونوغة» بمنطقة سور الغزلان، وحمزة بجبال البيبان، وبقي في منصبه هذا حتى العام ١٨٧١ . وعندما انفجرت الثورة، كلفه أخوه بقيادة الثورة في منطقة ونوغة وسور الغزلان نظراً لما توافر له من المعرفة بالإقليم وسكانه. فتوجه بو مزراق إليها، واصطحب معه ابن عمه «علي بورنان» قائد مزيتة، وعدداً من فرسان الحشم. .

كان أول مكان استهدفه بو مزراق هو مركز «وادي أخريص» الواقع على بعد (٢٨) كيلومتراً من سور الغزلان، حيث كان يتمركز به قائد أولاد سالم، وعدد من العسكريين الأوروبيين، وجنود الزواف. فاتجه إليه وهاجمه صباح ١٦- آذار- مارس. (في نفس الوقت الذي كان أخوه الباشآغا يهاجم مدينة برج بو عريريج) وأحكم عليه الحصار، ولكنه لم ينجح في اقتحامه ، لأن الافرنسيين أرسلوا دعمًا عاجلاً للحامية المدافعة عن المركز، مما اضطر بو مزراق لسحب قواته إلى «جبل العطوش» وأخذ يواصل من هناك هجماته وإغاراته ضد الافرنسيين والمتعاونين معهم- خاصة الحداد بن قليل- قائد أولاد مسلم- الذي تمركز مع «قومه» على بعد (٨) كيلومترات من المركز

المذكور. وقد نجح بو مزراق في التغلب على ابن قليل، وانتزع منه مواقعه. مما جعل عرش أولاد سالم المجاورين يخافون من سيطرة بو مزراق عليهم. فحاولوا دعم مركزهم عن طريق زيادة التعاون مع الافرنسيين، بينما انضم بعض سكان عرش أولاد سالم لقوات الثورة.

تمركز بومزراق يوم ٢١ آذار- مارس- في جبل السروج بثنية بوبصلة، وجمع سكان المنطقة بعض الأسلحة- البنادق- وقدموها له، كما انضم إليه عدد جديد من الأنصار. وخاض المجاهدون معه معركة ضد القوات الافرنسية قتل خلالها ثمانية أوروبيين. ثم انتقل إلى ثنية أولاد داوود على بعد (٢٠) كيلومتراً من سور الغزلان وحاول مهاجمة مركز «وادي أخريص» مرة أخرى. ونشط في كتابة الرسائل الى السكان المجاورين يحثهم على القدوم إليه ليشتركوا معه في اقتحامه. وبذل كل جهد مستطاع حتى أمكن له احتلال المركز يوم ٢٦ آذار- مارس- بعد أن هرب كل من كان بداخله. فعمل «بومزراق» على تدميره، وأحرقه، وقطع خط الهاتف الذي يربط المركز بمدينة سور الغزلان. ثم عاد إلى ثنية أولاد داوود، وتوجه منها إلى جبل موقرنين الذي حوله منذ ذلك اليوم إلى معسكر كبير للثورة في منطقة ونوغة.

اشتدت حماسة الجزائريين في البداية لدعم الثورة والانضمام الى صفوف المجاهدين. فانضم إلى «بومزراق» أولاد سيدي هجرس وأولاد عبدالله وأهل القصر وبني يعلي. وفي الوقت ذاته لم يقصر «بومزراق» في بذل كل جهد مستطاع لحشد القوى والامكانات، والتحريض على الجهاد في سبيل الله- وكان فيمن استحثهم كبراء عرش مركالة والمدادرة. وحدد هدفه التالي بالاستيلاء على برجي «الأصنام» و «بني منصور» العسكريين. وهنا أيضاً تصدى لمقاومة الثورة آغا البويرة «بو

المقراني بو مزراق

ESQUER, G, ICONOGRAPHIE HISTORIQUE DE L'ALGERIE

T. III, PLANCHE. N. 996

زيد بن أحمد» وقائد أولاد بليل «محمد بن منصور» وأخذ بوزيد على عاتقه إعلام الإفرنسيين عن كل تحركات «بومزراق» وما تقوم به قوات الثورة من جهد في «برج الأصنام» وفي «جبل موقرنين». غير أن بومزراق لم ييأس من إمكانات التأثير على عملاء فرنسا وأنصارها والمتعاونين معها، واتبع في ذلك أسلوب «الترغيب والإرهاب» غير أن ما حققه من نجاح كان محدوداً.

تمركز «بومزراق» في حمام أولاد زيان بأوساط بني يعلي وبني منصور على بعد ثلاثين كليومتراً من سور الغزلان وذلك اعتباراً من يوم ٥ نيسان- إبريل-. وأظهر المواطنون حماسة كبرى لمساعدته ودعمه من أجل مهاجمة برج البويرة ومعسكر بني منصور. وحاول الاستيـــلاء على مركز تخزين الحبوب خلال اليومين التاليين، ثم اتجه إلى بو جليل في السفوح الغربية لبني عباس، واستقر لدى ابن عمه «علي بن بورنات- قائد مزيتة»، واتصل من هناك بكبار بني منصور والشرفة والسكان المجاورين. ودعاهم إلى إحكام الحصار على برج بني منصور حتى: «لا يفر من بداخله من الأوروبيين والحراس، ومتوعداً إياهم فيما إذا غفلوا وأفلت الأوروبيون منه». وقد تعاون ثوار الشرفة وبني منصور على محاصرة هذا البرج، تنفيذاً لتعليمات بو مزراق، وأحكموا الحصار عليه، وعزلوه عن سور الغزلان ، ابتداء من يوم ٨ نيسان- إبريل- (وهو اليوم الذي أعلن فيه الشيخ الحداد الجهاد- بصدوق). وفي يوم ١٠ نيسان-ابريـل- عاد بو مزراق إلى معسكر حمام أولاد زيان قرب «برج الأصنام» وخاض المعركة التي تحمل منذ ذلك الوقت اسم ذلك المكان «أولاد زيان» ولكنه لم يحصل على طائل، فغادر المكان، وعاد إلى معسكر ابن عمه «علي بن بورنان» في بو جليل الذي كلف

بحصار برج بني منصور. وبقي هناك عدة أيام، يستنهض همم الناس للثورة، إلى أن استدعاه أخوه الباشآغا المقرانـي إلى جبل مريسان ووادي الشعير.

عندما كان الثوار يخوضون صراعاً مريراً في برج بني منصور، قام الجيش الافرنسي بإحراق عدد من المنازل، وإتلاف مطامير الحبوب، كان من بينها برج بو مزراق الكائن قرب قبة سيدي داوود بالمنطقة.

عندما استشهد الحاج المقرانـي أسرع أخوه مزراق ، فحاول إخفاء الخبر في البداية، غير أنه أدرك أنه من المحال الاستمرار في ذلك، فأشاع الخبر، غير أنه وجه في الوقت ذاته رسائل إلى كل الأنحاء- منها رسالته إلى أهل الشرفة: «أخبرهم بما حدث وأكد لهم اتحاد أولاد مقران وتصميمهم على متابعة الجهاد حتى الموت». وقد حاول الافرنسيون معرفة مكان بو مزراق لمباغتته بهجوم حاسم ، ومتابعة تحركاته ونشاطه،غير أن بو مزراق كان في حركة دائمة، مما ساعده على متابعة الصراع بعزم ثابت وإرادة صلبة.

انتقل بو مزراق بعد وفاة أخيه مباشرة إلى معسكر الشيخ محمد ابن‌الشيخ الحداد في قرية تيزي الجمعة قرب بجاية. ومن هناك اخترق بو مزراق وأبناء عمومته وادي الساحل يوم ١١- أيار- مايو. والتحقوا ببرج بني منصور حيث كانت قوات الثورة تعمل على محاصرته (بأكثر من ثلاثة آلاف محارب). وقد وفد على «بو مزراق» إلى معسكر بني منصور، سكـان بني يعلي وأهل القصر ومشداله، ليعزوه فـي وفاة أخيه، ويتشاوروا معه في القدوم إلى ناحيتهم . واغتنم بومزراق هذه الفرصة، فاتصل بقائد الحامية المدافعة عن «برج بني منصور» وطلب

إليه إخلاء البرج وإجلاء الافرنسيين المحاصرين داخله، ونقلهم إلى البويرة. غير أن «بومزراق» لم ينتظر نهاية المفاوضات، وغادر معسكر الثوار يوم ١٣ أيار- مايو- واتجه إلى معسكر الشيخ محمد بن الحداد في تيزي الجمعة مرة أخرى- عن طريق مجانة- ليشترك في الهجوم الواسع على مدينة بجاية، والذي تم تنفيذه يوم ١٧ أيار - مايو-.

انتقل بو مزراق وسي عزيز إلى جبال البابور بعد فشل الهجوم على مدينة بجاية، حيث اشتركا مع ثوار المنطقة في المعارك التي دارت هناك ضد القوات الافرنسية، إبتداء من يوم ٢٠ أيار- مايو- والتي كان من أبرزها معركة جبل منتانو يوم ٢٥ أيار-مايو-، وقد استغل بومزراق الأوضاع الصعبة التي كان يعانيها قائد أولاد عامر الظهرة «أحمد باي ابن الشيخ مسعود»، فاستماله إليه وضمه إلى جبهة الثورة[1] مع بعض أفراد عائلة أولاد ويللسن، واشتركوا جميعاً يوم ٢٦ أيار- مايو- في كتابة رسالة إلى داوودي بن كسكاس المعارض للثورة طلبوا منه الانضمام إليهم، وهددوه بنسف منزله وإحراق قرية رأس الماء التي يقطن بها إن هو رفض ذلك، غير أن ابن كسكاس لم يستجب لندائهم.

انتقل بو مزراق من جبال البابور إلى جبال قلعة بني عباس يوم ٢٧ أيار- مايو- وهناك وافاه في اليوم التالي باشآغا شلاطة- ابن علي الشريف- بصحبة ابنه ليعزيه في وفاة أخيه المقراني، ولينصحه بالكف

---

(١) ثورة ١٨٧١-الدكتور- يحيى بو عزيز- وفي الصفحة ٢٨٨ ما يلي: «كان أحمدباي مخلصاً للسلطات الفرنسية، ولكن هذه السلطات أهانت الرسول الذي أوفده إليها ليحيطها علماً بنشاطات الثائر السعيد بن دبيش، كما قامت القوات الإفرنسية بقتل حوالي ستين شخصاً كانوا يحصدون زرعهم تحت حمايته ورعايته. ولهذا نجح بو مزراق في ضمه إلى الثورة».

عن مواصلة الثورة التي لا طائل منها- في نظره- بعد أن أعادت فرنسا تنظيم قواتها العسكرية. واستعادت المزيد من كتائبها وقواتها من أوروبا. ولكن بومزراق رفض حتى مجرد السماع لمثل هذه الآراء والنصائح. فافترقا في الحين. ولم تدم المقابلة سوى وقت قصير في جو من البرودة والفتور والامتعاض.

كان بو مزراق على علم بتحرك قوات فرنسية إلى منطقة بني منصور للقضاء على الثوار فيها. فأخذ يستعد لمجابهتها، ويحث المجاهدين على الصمود وعدم الاستسلام. واعترض بو مزراق هذه القوات قرب البويرة في يوم ٢٩ ايار- مايو- ودارت رحى معركة قاسية استخدم المجاهدون فيها السلاح الأبيض. واستشهد عدد كبير منهم.

عاد بو مزراق من جديد إلى جبال البابور، في أول شهر حزيران - يونيو- للمشاركة في المعارك التي كانت محتدمة هناك تحت قيادة سي عزيز، بينما كان الثوار يتابعون صراعهم حول برج بني منصور خلال يومي ١٢ و ١٣ حزيران- يونيو- ولم تطل إقامة بو مزراق في البابور، فقد عاد بسرعة إلى البيبان. وهاجم يوم ١٥ حزيران- يونيو- دوار بني عامر وقرية الأصنام وقرية عين حازم، بسبب تعاون بعض سكانها مع الافرنسيين. وتمركز بعض الوقت في عين تازة، في حين اتجه السعيد بن بوداوود قائد الحضنة إلى أولاد مسلم لجمع الأنصار الجدد، وتأمين متطلبات المجاهدين من الأعتدة والتموين. والتقى بو مزراق مع محمد ابن عبد السلام والسعيد بن داوود في يوم ١٩ حزيران- يونيو- وخاضوا معركة «بو عساكر» في اليوم التالي، وقتلوا تسعة من الأوروبيين، وجرحوا تسعة.

استسلم أفراد عائلة الحداد واحداً بعد الآخر في أقل من نصف شهر (أواخر شهر حزيران- يونيو- وبداية شهر تموز- يوليو ١٨٧١- على نحو ما سبق ذكره) وأدى استسلامهم على هذه الصورة، إلى استسلام عدد من القادة الآخرين الذين كان لهم دورهم الكبير في الثورة، وكان ذلك انتكاسة ثانية لمسيرة الثورة تزيد في خطورتها على استشهاد مفجر الثورة الحاج المقراني ذاته. ذلك لأن هذه الانتكاسة حولت مواقع الثوار من القوة والهجوم إلى الضعف والدفاع، وانتقل مسرح أعمالها القتالية بالتدريج من التل إلى أعماق الصحراء، وقد شعر بو مزراق بخطورة هذا التحول، غير أن عزيمته لم تضعف، ولم يتسرب إليه الخور أو الوهن، وحاول أن يرمم ما تصدع من الجبهة. ومضى يحض الناس على متابعة الجهاد ويحفزهم للمزيد من الصمود والثبات.

مضى بو مزراق إلى جنان البايليك بصدوق حيث أقام معسكره لإعادة تنظيم أمور الثورة، ثم انتقل إلى ذراع الأربعاء على ربوات الماتن، وعاقب بعض سكان بو جليل ممن استسلموا للسلطات الافرنسية. وواجه القوات الافرنسية في معركة قاسية يوم ١٢ تموز- يوليو- انسحب على أثرها إلى وادي الساحل- عبر بني عيدل وبني ورتلان، وتوقف يومين في قرى بني عباس المجاورة لحوض الوادي، بهدف حشد المزيد من المقاتلين. واتجه يوم ١٥ تموز- يوليو- إلى تيروردة ليعترض مسيرة رتل فرنسي كان في طريقه لغزو قلعة بني عباس- قاعدة المقرانيين- ثم اتجه من هناك إلى قرية «تيمثليت» أمام قرية «تازملت» ثم إلى جبل أزرو الحصين ببني ورتلان.

أعاد «بو مزراق» تنظيم بعض الكتائب العسكرية في جبل

أزرو، ثم غادره بسرعة بعد أن توافرت له المعلومات عن قيام الافرنسيين بمحاولة لتطويقه، منطلقين في محاولتهم هذه من قرية «تاونساوت»غرباً ـ عند ملتقى وادي بوسلام ومهاجر ـ وأخذ طريقه إلى الجعافرة، وعندما وصل إلى قرية «تاخراط» على الضفة اليسرى لوادي مهاجر، اعترضه عدد من جنود «القوم» والقوات الافرنسية، فخاض ضد هذه القوات معركته يوم ٢٠ تموز ـ يوليو ـ وهي المعركة التي اشتهرت باسم «**يوم تاخراط**».

غادر بومزراق «تاخراط» ومضى متنقلاً بجبال بوندة وأوشانن، بين جبال قلعة بني عباس غرباً وجبال تفرق والقلة شرقاً، وهو يستحث المواطنين ويحرض المجاهدين، طالباً إليهم مجابهة رتل القوات الإفرنسية التي كانت تتقدم عبر مجرى وادي مهاجر ـ إلى الجنوب ـ حتى وصلت إلى قرية لشبور على أقدام مصب وادي زمورة يوم ٢٨ تموز ـ يوليو ـ وقد تعرضت القوات الافرنسية ـ في وادي الساطور بهذه المنطقة ـ طريق قافلة كبيرة للمقرانيين كانت متجهة من القلعة إلى جبال بوندة، **محملة بما استطاعت أن تنقذه من الأمتعة والحبوب والحيوانات، بعد أن غزتها القوات الإفرنسية الأخرى يوم ٢٢ من الشهر ذاته ـ بمساعدة ابن علي الشريف باشآغا شلاطة ـ ويظهر أن انسحاب المقرانيين من القلعة كان بأمر من بومزراق نفسه، الذي كان قد توجه إلى هناك بعد معركة تاخراط، غير أنه لم يكمل طريقه بعد أن علم بغزو الإفرنسيين للقلعة واحتلالها. وكان من ضمن من اعتقلهم القوات الافرنسية في القلعة، زوجة الباشآغا المقراني وابنته وابنه بومزراق والشيخ جرابة ابن بودة الذي كان حارساً لأملاك عائلة المقراني. وعملت القوات الافرنسية بعد ذلك على تدمير كل منازل المقرانيين والاستيلاء على كل**

ما تحتويه من المتاع والأثاث ثم أحرقت القرية كلها، واستسلم أولاد حمادوش جميعاً للافرنسيين.

انسحب بو مزراق بعض الوقت إلى المسيلة بالحضنة، بعد معارك تاخراط وجبال بوندة والقلعة، ثم عاد مرة أخرى الى منطقة مجانة وبني عباس، وجدد نشاطه الحربي ضد القوات الإفرنسية والقوات المتعاونة معها من الجزائريين. واستطاع يوم ٢٦ آب- أغسطس- أن ينتزع من القوات الإفرنسية حوالي ثمانين بغلاً في معركة بسهل مجانة، اتجه بها إلى ونوغة، ليستغلها في وسائل النقل، وأشاع بين المواطنين هناك بأن الثورة مستمرة في جبال بو طالب والوادي الكبير وتبسة والصحراء وشرشال، وأن فرنسا عاجزة عن قمع الثورة، وقد كان لهذا الأسلوب دوره في رفع الروح المعنوية للمواطنين، واكتساب أنصار جدد. وتعرض الثوار يوم ٩ أيلول- سبتمبر- لقافلة فرنسية بقرية عجيبة وقبوش، كانت متجهة إلى سور الغزلان بمغانم الحرب وضرائبها التي أخذت من سكان بني منصور وبني عباس. وهاجم بو مزراق القوات الافرنسية في سهل مجانة مرة أخرى، ونشط في تجنيد المواطنين ودعم الثورة بالمجاهدين من كل المنطقة الممتدة بين برج بني منصور وسور الغزلان. وكانت معركة أولاد سيدي إبراهيم بو بكر يوم ٢٥ أيلول- سبتمبر- من أهم المعارك التي خاضها الثوار في هذه الفترة. ثم انتقل بومزراق الى قلعة بني عباس يوم ٣٠ آب- أغسطس- وكان الإفرنسيون قد انسحبوا منها، فعاد أولاد حمادوش إلى صفه، وقبلوا بالعمل معه. ولكن سكان «أغيل أعلى» و «بلعيال» و «بو جليل» رفضوا ذلك. واعترضوا طريقه بزعامة الصبايحي حميمي (الذي كان بومزراق قد أسره سابقاً مدة من

الزمن مع الشيخ بشير بن كابة شيخ بو جليل) ولذلك هاجم بومزراق قرية أغيل أعلى يوم أول تشرين الأول أكتوبر- عقاباً لأهلها. ووجه تهديده إلى بني عباس وسكان قرية بلعيال، غير أنه أدرك بأن هذه المنطقة قد باتت خارج قبضته، فغادر منطقة البيبان واتجه الى جبل المعاضيد، حيث وصلها يوم ٣ تشرين الأول- أكتوبر- وتسلم فيها رسالة من ابن عمه «**السعيد بن بوداوود**» ومن «أحمد باي بن الشيخ مسعود» فعلم بأنّ هناك ثلاثة أرتال افرنسية تتجه إلى جبال بو طالب وبريكة لملاحقة الثوار ومحاصرتهم، بعد أن أخذ هؤلاء في مغادرة الشمال متجهين الى الصحراء.

هنا قد يكون من المناسب التوقف قليلاً، والعودة إلى جهد «السعيد بن بوداوود» الذي شارك بو مزراق مصيره، وكان له دوره معه اعتباراً من هذه المرحلة.

كان السعيد بن بوداوود، بحسب مخطط المقراني، مكلفاً بقيادة الثورة في جبال الحضنة وبوسعادة، فركز جهوده على إحكام الحصار على مدينة بوسعادة والمنطقة المحيطة بها. وأخذ في التردد باستمرار على منطقة ونوغة وجبال البيبان للاتصال بجماهير المواطنين وحثهم على حمل السلاح، والخضوع لتوجيهات بومزراق وسواه من قادة الثورة- المقرانيين- واهتم الافرنسيون كثيراً بمتابعة نشاطاته وملاحقة أخباره عن طريق عملائهم الذين كان من أبرزهم: «الآغا بوزيد، والصخري بن بو ضياف- قائد السوامة بمنطقة بو سعادة- والشلالي بن الدوسن- قائد السلامات».

انتقل«ابن بو داوود» إلى ونوغة للاتصال «ببو مزراق» وغيره من قادة الثورة. ووصل إلى مجانة عبر جبال البيبان- ثم عاد إلى مدينة

المسيلة بعد معركة بو عساكر يوم ١٩ حزيران- يونيو- وبصحبته عدد من أفراد عائلة أولاد مقران الذين تجمعوا هناك رجالاً ونساء وأطفالاً، وأخذ من هناك يزود بو مزراق بالفرسان والجنود والمؤن. وشد قبضة الحصار على مدينة «بوسعادة» وهاجم أعوان الافرنسيين في سيدي عيسى يوم ٧ تموز- يوليو- والذين كانوا يستعدون لمهاجمته. وكاتب وجهاء المدية وبوغار بالتيطري محاولاً استمالتهم، كما نشط دعاته في جمع الأنصار الجدد بقريتي قطيفة وسيدي بلخير. ولكي ينجح بو داوود في احتلال بوسعادة، قطع خط الهاتف الذي يربطها بالجلفة، وهاجم الافرنسيين الموجودين في قرية العليق، وكرر هجماته على بوسعادة نفسها يومي ٢٠ و ٢١ تموز- يوليو- ثم عسكر في قصر الديس، وتجمع حوله ثوار المنطقة، واشتركوا معه في شن الهجوم الثالث الواسع على بو سعادة يوم ٢٣ من الشهر ذاته- بأمر من بو مزراق- واضطر الافرنسيون أن ينجدوا أعوانهم وقواتهم المحاصرة بالمدينة، في حين انسحب ابن بوداوود وأتباعه إلى قرى أولاد جلال جنوب- شرق المدينة.

خاض الثوار المقرانيون عدداً من المعارك بمنطقة بوسعادة في بداية شهر آب- أغسطس-، وامتد ميدان العمليات إلى «ملوزة». وتجمع الثوار بعد ذلك في «كاف العقاب» حيث اصطدموا بقوات الافرنسيين، وخاضوا معها معركة كبيرة يوم ٥- آب- أغسطس- ١٨٧١ عرفت «بمعركة كاف العقاب». واتجه «ابن بوداوود» وأولاد مقران بعدها إلى أولاد حناش بالمعاضيد- إلى جوار آثار قلعة بني عباس- واتفقوا على مهاجمة مدينة المسيلة، لاعتراض القوات الإفرنسية. وكتب بو مزراق رسالة إلى جماعة مزيتة بالبيبان يعلمهم فيها بما اتفق عليه هو وكبار أهل الحضنة والسعيد بن داوود من مواصلة المعركة. وفي يوم ٢٤ آب- أغسطس- اتجه بو مزراق وابن داوود وحمود

ابن بورنان إلى المسيلة، واشتبكوا مع القوات الإفرنسية في مجموعة من المعارك التي لم تكن نتائجها في مصلحة الثوار. فاقام ابن بوداوود معسكره في جنوب المسيلة بصحبة زعيم أولاد نجاح- الشيخ جنان بن دري- وانطلق للتنقل في المنطقة من أجل حشد المجاهدين وجمع المؤن والذخائر الحربية، واستمر في ذلك نحواً من نصف شهر عاد بعدها إلى المسيلة. أما بو مزراق فقد اتجه إلى ونوغة لجمع الأنصار أيضاً، ونشط حمود بن بورنان في منطقة مزيتة وبني منصور والمنصورة في أوائل ايلول- سبتمبر- ولم تطل إقامة ابن داوود في المسيلة، فقد عاد مسرعاً الى بلاد السوامع بالمعاضيد قرب قلعة بني حماد، بينما تمركز بو مزراق في وراسن قرب أولاد خلوف بالبيبان.

اعترض ابن داوود طريق قافلة تموين فرنسية كانت في طريقها إلى المسيلة. وذلك في منطقة «بضاية العتروس» يوم (٧) أيلول- سبتمبر- ثم انتقل بعدها إلى جهات ونوغة في منتصف الشهر بهدف حشد الأنصار والذخائر الحربية، وكلف عدداً من المبعوثين بالتوجه إلى عدد من من المناطق للاضطلاع بتنفيذ المهمة ذاتها. وعاد هو بعد ذلك إلى المسيلة- عبر منطقة أولاد سيدي هجرس- فوصلها يوم ٢٠ ايلول- سبتمبر- . وانصرف على الفور لوضع خطة العمل في جبال الحضنة، مع عدد من أبناء عمومته، واتفقوا على جمع المزيد من وسائط النقل، كالبغال والحمير والجمال، من أجل نقل أفراد عائلة اولاد مقران، وما بقي لهم من متاع، بعد أن ظهر تصميم الإفرنسيين على ملاحقتهم ومطاردة بو مزراق - رأس الثورة بعد أخيه- ولم يتأخر بو مزراق عن الالتحاق بهم للاشتراك معهم في تدبير الأمور. وكان الاتفاق تاماً بينهم على مغادرة الشمال والاتجاه الى الجنوب بعد أن أخذ

الإفرنسيون في إحكام الحصار عليهم. فتجمعوا كلهم بجبال عياض وكيانة بالمعاضيد بما تبقى لهم من متاع وحبوب وحيوانات.

أخذ المقرانيون طريقهم صوب الجنوب، إلى أعماق الصحراء، يوم ٨ تشرين الأول-اكتوبر-، وعندما وصلوا إلى «قبر السلوقي» بجوار قلعة بني حماد في سفح جبل الجفان بجبال عياض، باغتتهم القوات الإفرنسية، فخاضوا ضدها معركة ضارية «دعيت بمعركة قبر السلوقي». واستبسلوا في الدفاع عن حريمهم وشرفهم، وفقدوا أثناء المعركة معظم ما كان معهم من المتاع والحبوب والدواب والأغنام. وكانت هذه المعركة نهاية لقوة المقرانيين ونفوذهم في الشمال، وقررت مصيرهم النهائي. وأقنعتهم بالحاجة إلى الفرار بأنفسهم إلى خارج الوطن. فأسرعوا في الحال إلى مغادرة المكان، مخلفين وراءهم عددا من فرسان الحشم لحماية مؤخرتهم، وإشغال الافرنسيين عن مطاردتهم. ومروا بالمسيلة، ووصلوا الى سد الجير مساء يوم ٩ تشرين الأول- أكتوبر- ووصلوا في اليوم التالي إلى «اوقلت البيضاء على شاطىء حوض الزاغر الشرقي». وكان في رأي بعضهم العودة لمجابهة القوات الافرنسية في معارك أخرى، غير أن الأغلبية ومنهم بو مزراق، كانوا يريدون التوجه إلى تونس عبر تقرت وسوف ونفطة وتوزر.

انتقلت قافلة المقرانيين من شاطىء الزاغر إلى «وادي مجدل» وفشل الافرنسيون في مطاردتهم على الرغم من كل الجهود التي بذلوها، هم وعملاؤهم من أمثال «بلقاسم بللحرش- باشآغا أولاد نايل» و «الصخري بن بوضياف- قائد السوامة».واخترق المقرانيون بسلام بلاد أولاد نايل وأولاد زكري خلال يومي ١٤ و ١٥ تشرين

بوشوشة

ESQUER, G, ICONOGRAPHIE HISTORIQUE DE L' ALGERIE

T. III PLANCHE N. 995

الأول- أكتوبر- . واعترض سبيلهم يوم ١٧ مخازنية أم العدم، غير إنهم تمكنوا من متابعة سيرهم إلى الجنوب حتى وصلوا «ورقلة» وحلوا بها يوم ٢٠ تشرين الأول- أكتوبر- حيث استقبلهم بحفاوة بالغة كلاً من «بوشوشة»[١] و «بن شهرة» و «الزبير ولد سيدي الشيخ» واتفق رأيهم على الهجرة إلى تونس، والأخذ باقتراح بومزراق.

تحركت معظم أرتال الافرنسيين نحو الصحراء، واستعانت بأنصارها وأعوانها لمطاردة المقرانيين وعسكر هؤلاء في حاسي بوروبة مع ابن ناصر بن شهرة يوم ١٧ كانون الاول- ديسمبر- ومن هناك انتقلوا إلى «حاسي قدور» جنوباً، ثم إلى «حاسي تامزقيدة» حيث اشتركوا يوم ٩ كانون الثاني- يناير- ١٨٧٢ في مواجهة القوات الافرنسيةالتي داهمت قافلة«بوشوشة»، واضطروا للتخلي عن معظم متاعهم وجمالهم المتعبة وقطعان مواشيهم حتى يستطيعوا النجاة بأنفسهم ، ومع ذلك، أسر الافرنسيون لهم شخصين هما : عبد العزيز

---

(١) كان «بوشوشة» لاجئاً في عين صالح منذ أيار- مايو- سنة ١٨٦٩، وقد استغل قيام الثورة، فزحف بأتباعه نحو الشمال، وهاجم في طريقه الشعانية ، المعارضين له في متليلي. وشجعته عائلة بوشمال «بتقرت» وبنو سيسين «بورقلة والرويسات» على مهاجمة «تقرت وورقلة» وانتزاعهما من علي باي- الموالي للإفرنسيين في قاعدته سوف- كما وصلته رسائل من محيى الدين بن عبد القادر وابن ناصر بن شهرة يدعوانه للتوجه إلى الشمال، وفي يوم ٥ آذار- مارس- سيطر على «نقوسة وورقلة» بتأييد من المخادمة، وعاقب الميزابيين الذين لم يتحمسوا لسلطته وحركته. وقد عسكر المخادمة في قور بقرات شرق ورقلة، وخاضوا معارك ضد المخازنية الذي كان يقودهم الأخوان: نعمان بن ذباح وأخوه سليمان- بتأييد من الإفرنسيين ، وعلي باي آغا توقرت وورقلة وفقدوا عدداً من الرجال والجمال. وبذلك أصبحت منطقة الصحراء الشرقية اوائل عام ١٨٧١م .مضطربة، لا كلام فيها إلا للأسلحة مع اختلاف الظروف والعوامل. (ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى أبو عزيز- ص ١٩٣ و ٢٩٤- ٣٠٧).

ابن محمد- قاضي ساحل قبلي- ومحمد العربي بن حمودة- قاضي مجانة- أما بوشوشة فقد خسر كل زمالته خلال المطاردة، وكان تحت حوزته قبل ذلك آلاف القطعان والجمال والهوادج والزرابي والخدم.

انتقل المقرانيون من «قورد عيش» إلى «حاسي جريبية» ومن ورائهم القوات الافرنسية تطاردهم،وعندما وصلوا إلى عين الطيبة، اصطدموا بمجموعة من القوم الذين كانوا يقومون بدورية استكشاف يوم ١٧ كانون الثانـي- يناير- ومن هناك قادهم ابن ناصر بن شهرة إلى داخل الحدود التونسية. **ولم يكن بو مزراق حاضراً معهم معركة «عين الطيبة» لأنه تاه عن القافلة منذ يوم ١٤ كانون الثانـي- يناير- هو وابن عمه مسعود بن عبد الرحمن عندما حاولا أن يقوما بعملية استطلاع لتأمين الطريق لها. وبقيا في الصحراء. وتعرضا للجوع والعطش طوال ستة أيام. وفي يوم ٢٠ كانون الثانـي- يناير- ١٨٧٢، عثرت عليهما دورية استطلاع فرنسية، أمام بركة ماء قرب «واحة الرويسات» الواقعة على بعد كيلومترين اثنين من مدينة ورقلة، وهما في حالة إغماء، فحملتهما إلى المعسكر الافرنسي بالرويسات حيث أسعفا حتى استفاقا وتم التعرف على «بو مزراق».**

انطفأ لهيب الثورة- إلى حين- ومضت السلطة الاستعمارية الافرنسية لتنفيذ مخططاتها، فأحالت زعماء الثورة إلى المحاكم أفراداً وجماعات. ووزعتهم إلى عدة مجموعات رئيسية في عدة محاضر وجلسات، أكبرها المحضر الذي أعد في محكمة الجزائر العاصمة ضد مائتين وثلاثة عشر متهمًا، بينهم أربعة وستون شخصاً تمت محاكمتهم بصورة غيابية- وحوّل هذا المحضر إلى محكمة الجنايات بمدينة قسنطينة يوم ٢١ أيول- سبتمبر- ١٨٧٢. وكان من بين المتهمين فيه الشيخ الحداد وابناه سي عزيز ومحمد، وتسعة عشر شخصاً من المقرانيين

كلهم في حالة غياب ما عدا «بو مزراق» وابن عمه «علي بن بوزيان» وابن عمه «مسعود بن بعد الرحمن» واستمرت المداولات حوالي ستة شهور.

وصدر الحكم على «بو مزراق» بالإعدام يوم ٢٧ اذار- مارس- ١٨٧٣.

وصدر الحكم على الشيخ الحداد وابنيه يوم ١٩ نيسان- إبريل- ١٨٧٣، فحكم على الشيخ الحداد- الذي كان يتجاوز الثمانين من عمره- بالسجن الانفرادي لمدة خمس سنوات، وعلى عزيز بالنفي العادي خارج البلاد،وعلى أخيه بالسجن الانفرادي عشر سنوات. ولم يعش الشيخ الحداد بعد صدور الحكم عليه. وروي عنه أنه قال عند سماعه للحكم «لقد حكمتم علي بخمس سنوات وأرادها الله خمسة أيام». وتوفي مساء الاثنين ٢٩ نيسان - إبريل- ١٨٧٣ .وعندما وصلت هذه الأحكام إلى رئيس الجمهورية الافرنسية للتصديق عليها، يوم ١٩ آب- أغسطس- ١٨٧٣، تم تعديلها بالنفي للجميع في مدينة نومية عاصمة جزيرة «كاليدونياالجديدة» .وبلغ عدد المجاهدين الذين أبعدوا إلى المنفى في كاليدونيا (١٠٤) جزائرياً.

أذنت السلطات الافرنسية للجزائريين المنفيين «بكاليدونيا» بالعودة إلى الوطن في سنة ١٨٨٢، غير أن بو مزراق بقي في منفاه، وحاول إقناع بعض إخوانه بالبقاء معه، فرفضوا كما رفضت زوجاته الثلاث ذلك، وطلبن الطلاق منه. وبقي بالجزيرة ما يقرب من ربع قرن، إلى أن حصل له ابنه «الوانوغي بو مزراق» مفتي الأصنام- على إذن بالعودة إلى الجزائر، فوصلها في بداية شهر تموز- يوليو- ١٩٠٤م. بعد غيبة واحد وثلاثين عاماً. ووجد أن كل شيء قد تبدل وتغير. واستقر بالجزائر العاصمة ما يقرب من عام بعيداً عن ابنه بالأصنام

التي لم يستطع أن يتكيف مع مناخها وجـوها، فقد رأى فيها جيلاً من الأحفاد والأقارب لا يعزفهم إطلاقاً، بعضهم تركهم صغاراً، وبعضهم ولدوا بعد رحيله، وأصبحوا كلهم آباء لعائلات جديدة، ولم يعثر على أية زوجة من زوجاته. ولم يلبث أن توفي يوم ١٣ تموز- يوليو- ١٩٠٥ عن ستة وستين عاماً. ودفن بمقبرة الحامة التي تعرف اليوم باسم «مقبرة سيدي محمد».

أما «سي عزيز المقراني» فقد أقام بكاليدونيا وهو يتحرق شوقاً للعودة إلى الوطن، حتى إذا ما أذنت السلطات الافرنسية للجزائريين المنفيين بالعودة إلى الوطن ومنعته من ذلك سنة ١٨٨١، ركب سفينة انكليزية بطريقة خفية حملته إلى سيدني باستراليا، وواصل رحلته منها إلى الديار المقدسة في الجزيرة العربية. وأمضى فترة متنقلاً بين جدة ومكة المكرمة مع إرسال الرسائل إلى أهله وأقاربه في الجزائر. وفي الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر، حصل له أحد أبنائه على إذن بالعودة إلى الجزائر، فرجع عن طريق فرنسا، التي دست له السم فمات في مرسيليا، وتولى ابنه وأهله أمر نقل جثته إلى الوطن، وما أن علم شعب الجزائر حتى زحف الى الميناء للمشاركة في دفن رفاته، وخافت السلطة الإفرنسية من وقوع صدام مع الجماهير الثائرة، فوجهت الباخرة إلى ميناء سكيكدة، حيث تم دفنه إلى جانب أبيه في مقبرة قسنطينة. وأما أخوه محمد فقد بقي بجزيرة كاليدونيا يعيش حياة الهدوء والاستقرار ويظهر أنه توفي غريباً هناك بعد عام ١٨٨٨.

ومضت السيوف المجاهدة في سبيل الله، إلى أغمادها، واحداً بعد الآخر ولكنها استطاعت شق الطريق أمام أجيال المجاهدين في سبيل الله، الذين توارثوا الشعلة- جيلاً بعد جيل- حتى وصل جيل الأحفاد إلى هدف الأجداد.

٤ـ في أفق الثورة

وبعد، فقد اغتالت فرنسا الثورة الشهيدة، ودمرت ابطالها، فهل كانت تضحيات الشهداء وجهود الابطال رخيصة؟ ولماذا كانت الثورة ان لم تترك على صفحات تاريخ الامة بصماتها الواضحة؟

لقد مضت عشرات العقود من السنين، ولا زال سكان «ونوغة» يطلقون على عام١٨٧١ « عام بومزراق».

ومضت عشرات العقود من السنين، وما تزال الاجيال في منطقة القبائل تتناقل كابراً عن كابر تلك الاغاني الشعبية التي تتحدث عن المقراني واخيه بو مزراق وثورة الشيخ الحداد وابنه سي عزيز. بل ان بعض أصداء الاشعار الشعبية التي قيلت في تلك الفترة ترددت باصدائها القوية في قلب دمشق الشام، عن طريق مجاهدي الجزائر المنفيين الى دمشق. وليس ذلك الا برهاناً على عمق اثر الثورة في النفوس وهو الاثر الذي رسم كل أبعاده على مسيرة الجهاد في المراحل التالية والتي انتهت ببلوغ الجزائر المجاهدة هدفها في الحرية والاستقلال سنة ١٩٦٢.

لقد تعرضت ثورة سنة ١٨٧١ للكثير من الأبحاث والدراسات،

وانقسمت وجهات النظر في تقويمها انقساماً كبيراً نتيجة الاختلاف في المنطلقات الأساسية لعملية تحليل هذا الحدث التاريخي: ولعل من أبرز الإدانات التي وجهت اليها:

١ ـ الاختيار السيئ لتوقيت تفجير الثورة، بحيث كان لزاماً تفجير هذه الثورة بتواقت واحد مع الحرب البروسية الافرنسية حيث كانت القوات الافرنسية منصرفة للحرب مع بروسيا.

٢ ـ غياب الحزم والتصميم عن أذهان قادة الثورة وذلك منذ اللحظات الاولى لتفجيرها (ويشمل ذلك كل القادة من المقرانيين وآل الحداد).

٣ ـ عدم تلاحم الجبهة الداخلية للجزائريين، وعجز القادة عن تحقيق مثل هذا التلاحم، بسبب تكوينهم القبلي (الارستقراطي) او الانفعالي (الديني).

٤ ـ عدم توافر الكفاءة في ادارة الحرب، وعدم تطبيق مبادىء الحرب بدقة، مثل المباغتة، والمبادأة، وتحقيق أمن القوات.

٥ ـ عدم حرص قيادة الثورة على تأمين متطلبات الثورة- وبصورة خاصة ضعف الوسائط القتالية وعدم توافرها في قبضة المجاهدين.

٦ ـ اعتماد الثورة على عوامل التحريض الخارجي (البروسي- العثماني).

تلك هي أبرز الانتقادات الموجهة لثورة ١٨٧١ وقيادتها، وهي انتقادات تبرز بشكل واضح محاكمة الثورة تاريخياً في غير إطاريها التاريخيين الزماني والمكاني. ومن هنا تظهر الضرورة لمعاودة التقويم

على أساس موضوعي من جهة، وعلى أساس نتائج الثورة وما تركته من ظلال على أفق المستقبل من جهة ثانية.

لقد اعتمدت السياسة الاستراتيجية للاستعمار- عامة- والاستعمار الافرنسي- خاصة على مجموعة من العوامل، ابرزها بشكل واضح العرض السابق لمسيرة الاحداث ومنها:

١ - الإفادة من التفوق العلمي والتقني لإبراز- تفوق الرجل الابيض، الاوروبي- ونشر القناعة بافضليته للحكم، وقدرته على حكم البلاد.

٢ - تسخير- أو خلق- الظروف السياسية لعزل المستعمرات عن محيطها الجغرافي ، وهكذا كانت الجزائر معزولة عن عالمها العربي- الإسلامي وحتى عن جوارها- المغرب وتونس.

٣ - الانتشار كبقعة الزيت، بالاعتماد على فئات مختارة يتم استخدامها مرحلياً لضرب الفئات المناوئة.

٤ - افتعال الأزمات والأحداث لدفع أبناء المستعمرات للثورة والتمرد، من أجل استثمار نتائجها لإجراء التصفيات الاجماعية تمهيداً لتطوير الاستعمار الاستيطاني.

٥ - العمل على تدمير القيادات التقليدية والقواعد الصلبة (الدينية والاجتماعية) لتكوين قيادات عملية يقتصر دورها على تنفيذ المخططات الاستعمارية، الامر الذي يضع هذه القيادات في حالة من العزلة عن جماهير الشعب، مما يدفعها الى الاعتماد كلياً والتبعية نهائياً للاستعمار وقادته.

٦ ـ تغطية وحشية الاستعمار بغطاء ميثولـوجي، وستار من الفضائل الحضاريـة المزعومة ضمن إطار حرب صليبية ـ علمية. (وهذا احد تناقضات الاستعمار). **وتؤكد أحداث ثورة ١٨٧١، كل تلك الأسس الاستراتيجية، وهي الأحداث التي يمكن تلخيصها بالتالي: «كانت الثورة الدفينة منتشرة في كل مكان من الجزائر، فشكلت تياراً عاماً، وكانت في حاجة للمفجر، فجاء المقرانـي وفجرها، وعمل الحداد على دعمها، ثم ظهر لقيادة الثورة صعوبة الاستمرار أمام أعداء الداخل والخارج وأمام ظروف العزلة الدولية، وأمام الضعف في وسائط القتال. وظن قادة الثورة أنهم يستطيعون إنقاذ ما يمكن لهم إنقاذه إن هم استسلموا لفرنسا على نحو ما فعله الأمير عبد القادر، في محاولة لتخفيف أعباء الحرب عن مواطنيهم، غير أن فرنسا مضت لاستثمار ظروف الثورة وتوظيف نتائجها لتطوير استعمارها الاستيطاني».**

لم يكن أمام قيادة ثورة ١٨٧١ غير طريق الثورة، كما لم يكن أمامهم فيما بعد من طريق غير طريق الشهادة لمن استشهد والاستسلام لمن وقع في الاسر. تلك هي الخيارات الضيقة التي بقيت مفتوحة أمام أبناء البلاد التي خضعت للاستعمار ـ وفي طليعتها الجزائر المجاهدة.

واكد الاستعمار الافرنسي على طبيعته وعلى دوره في أحداث ثورة سنة ١٨٧١ من خلال ما ارتكبه من جرائم ووحشية ضد المجاهدين الجزائريين. ومن خلال الأحكام القاسية على قادة الثورة وزعمائها، ثم من خلال أعمال المصادرة لممتلكات الجزائريين وأراضيهم وهو ما تبرزه المقولة التالية:

«كانت أعمال المصادرة في ثورة ١٨٧١، مصدراً لكسب المزيد

من الأراضي الجيدة وتوفيرها لصالح الاستعمار الاوروبي ، خاصة بعد ان قويت حركة التهجير الأوروبي من الالزاس على اثر هزيمة فرنسا خلال حرب ١٨٧٠ أمام بروسيا، وصدور قرار (١٥) ايلول -سبتمبر- ١٨٧١ القاضي بتخصيص مائة الف هكتار لتوطينهم بالجزائر. وقراري ١٦ و٢٨ تشرين الاول- اكتوبر- ١٨٧١ القاضيان بتنظيم عملية توزيع هذه الاراضي بعد ان وصل الى الجزائر (٢٢٠٠) عائلة اوروبية تضم (١٠,٥٠٠) اوروبي. وفي الحقيقة فان الاستعمار الافرنسي لم يتمكن حتى سنة ١٨٧٠ من تأمين الأراضي لتطوير الاستعمار الاستيطاني الأوروبي. فتألفت لجان للتعجيل بالمصادرة، وتحولت في نهاية ١٨٧٢ أكثر من (٣٣) قبيلة وفرع قبيلة (افخاذ وبطون) من مالكة لأراضيها الى أجيرة بعد أن صودرت منها أراضيها في حوض «وادي الساحل». ولعل اصدق تعبير عن حالة البؤس التي عمت الاهالي نتيجة لقسوة المصادرة شهادة ذلك الفلاح من بني عباس، والذي قال: «**بأن كثيراً من الناس اشتروا حياتهم وأرواحهم بكل ثرواتهم، وبقوا بعد ذلك كالجيف في حلوق حيوانات بني آوى. لا يسمع لهم ولا يلتفت أحد الى احتجاجاتهم**».

لقد تنوعت اعمال المصادرة فشملت الاملاك الشخصية لكل من مارس دوراً في ثورة المقراني والحداد، كما شملت مصادرة جماعية لسكان الاعراش والدواير (القرى) الذين ارغموا على دفع جزء من أراضيهم الجيدة لصالح الاستعمار الأوروبي وحتى الذين لم يكونوا يملكون الاراضي صودرت املاكهم الاخرى كالدور والاثاث والحيوانات وبيعت عن طريق البلديات ونتج عن ذلك:

آ- تغريم الثوار بمبلغ (٩١٤، ٣٢٥، ٣٨) فرنكاً، خفض فيما

بعد الى ٣٦ مليون ونصف من الفرنكات. خصص قسم منها لتوطين مهاجري الالزاس واللورين.

ب- صودرت بصورة جماعية املاك واراضي (٣١٣) قبيلة ودواراً، تشتمل على (٥٩٤٨) رئيس عائلة عزلوا من وظائفهم بتهمة المشاركة في الثورة. وبلغ مجموع مساحات الاراضي المصادرة منها (٦١١,١٣٠) هكتاراً قدرت قيمتها الحقيقية نقداً بمبلغ (٩١,٩٤٨,٤٥٠) فرنكاً.

ج- صودرت املاك شخصية لعدد (٣٦٠) رئيس عائلة، بلغ مجموع المساحات المصادرة منهم (٥٤,٤٦١) هكتاراً.

تلك كانت طبيعة المصادرات ضد الثوار بصورة عامة في ثورة ١٨٧١. والتي كانت ثورة طبيعية في مناخها الطبيعي، كما انها التعبير الطبيعي والعفوي عن غضب الجماهير العربية- الإسلامية في مواجهة الغزو الغربي- الصليبي الامر الذي عبر عنه «بو مزراق» في رسالة له الى «كبراء عرش مركالة» جاء فيها: **«وكما في علمكم، فوضنا أمرنا الى الله لأجل الجهاد في سبيل الله»**[1]. وفي رسالة ثانية: **«نخبرك بأننا قمنا للجهاد... ونحمد الله ونشكره على هذه الساعة بفتح أبواب الجهاد، حتى يغسل المسلمون ذنوبهم»**.

وفي رسالة ثالثة: **«وبعد، أيها الأحباب، إننا نريد منكم الدخول في دين الله ورسوله، ولا تتركوا حقكم في الدين والجهاد في سبيل الله»**.

وبذلك، تكون ثورة سنة ١٨٧١ الرائدة نموذجاً لتلك

---

(١) ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى بو عزيز. ص ١٠٠- ١٠١.

الثورات التي تمخض عنها العالم العربي- والإسلامي طوال فترة عهد الاستعمار، بداية من افغانستان ومروراً ببلاد الشام ومصر والسودان ونهايــة بالمغرب العــربي- الاسلامــي. كما أنــها مشابهة ايضاً في ظروفها ونتائجها لتلك الثورات كلها. ولقد ألقت ثورة سنة ١٨٧١ بظلالها على أفق المستقبل، وكان من أبرز نتائجها إسقاط مقولة (دمج الجزائر بفرنسا) وتعميق الهوة بين المجاهدين في سبيل الله والغزاة الغربيين- الافرنسيين- تحت راية «الحملة الصليبية الجديدة».

لقد دفع ثوار سنة ١٨٧١، الثمن غالياً، من دمائهم وجهودهم وتضحياتهم. ولم تكن تنقصهم الكفاءة الادارية او الخبرة لإدارة الحرب، غير ان ما كان ينقصهم هو «الظروف المناسبة لانتصار الثورة»، فكانت تجربة ثورة سنة ١٨٧١- بظروفها ونتائجها هي احدى المنارات المضيئة، ان لم تكن من اكبر تلك المنارات على درب الثورة والجهاد.

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى
حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو
الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي
جاءك من العلم ما لك من الله من ولي
ولا نصير﴾.

قـراءات

١ـ نص القرار الخاص بمصادرة أملاك المقرانـي
٢ـ نص قرار مصادرة أملاك المقرانـي والحداد وأفراد عائلتيهما
٣ـ مصادر أملاك المقراني والحداد وأفراد عائلتيهما
٤ـ الحرب الصليبية في الجزائر

- ١ -

نص القـــرار الخـاص بمصـــادرة أملاك المقراني(١)

نحن والي الجزائر، بعد النظر في الفصل العاشر وما يليه من الأمر المؤرخ في ٣١ تشرين الأول- أكتوبر- سنة ١٨٤٥، واطلاعه على الشرط الثاني من الفصل الثانـي والعشرين من المرسوم الاشتراعي المؤرخ في ١٦ نيسان حزيران- يونيو سنة ١٨٥١، والفصل السابع من قانون ديوان أعيان الدولة المؤرخ في ٢٢ نيسان- إبريل- ١٨٦٣، وبعد دراسة ما ارتكبه الحاج محمد المقرانـي باش آغا مجانة، كان في ولاية قسنطينة من العداوة البينة والفتنة الثابتة لدولة الجمهورية الافرنسية، أمرنا بما سيأتي ذكره مفصلاً:

الفصل الأول: قد أجرينا الثقاف على جميع ممتلكات الحاج محمد باش آغا المذكور، ووضعنا يد الحيازة عليها سواء كانت منقولة أو غير منقولة، مما يثبت وجوده في أوطان ولايـة الجزائر.

الفصل الثانـي: قد ألزمنا جميع حايزي أملاكه ومستودعيها ومستعيريها وعامليها ومكتريها والمتصرفين فيها بأي وجه كان، وكل من

---

(١) نص الوثيقة في قراءات (١) وكذلك الوثيقة التالية في قراءات (٢) في المرجع: (ثورة ١٨٧١- دور عائلتي المقراني والحداد) الدكتور يحيى أبو عزيز. ص ٣٨٧- ٣٩٠

عليه دين له، أو عناء أو نحو ذلك من التعلقات المالية أن يصرحوا بما عليهم وما بذمتهم في مدة ثلاثة أشهر تبدأ من تاريخ أمرنا هذا، وقد أطلقنا لإدارة «الدومين- أو الحراسة» أن تتصرف بجميع أملاكه على مقتضى الشروط المشمولة في الفصل الثاني من هذا الأمر المؤرخ في ٣١ تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٤٥.

الفصل الثالث: قد أجرينا الثقاف أيضاً على أنواع أملاك الأعراش والعرب الذين خرجوا عن الطاعة مع المقراني، ومن سيخرج، ووضعنا عليها يد الحيازة سواء كانت شخصية أو مشاعة ثم ان أمرنا هذا العام الشأن سيفصل أحكاماً خصوصية تصدر كلما طلبها من له النظر فيها والاحتياج إليها، ويكون كل فرد معنياً فيها باسمه.

الفصل الرابع: سينجز من الآن أمرنا هذا الموجه إلى وزير الداخلية للموافقة عليه.

الفصل الخامس: إن عمال العمالات (الولايات) ومتصرفي الأمور التابعين للحكم العسكري هم المكلفون بإنجاز- وتنفيذ- أمرنا هذا كل واحد منهم فيما يخصه.

كتب في الجزائر يوم ٢٥ آذار- مارس- سنة ١٨٧١

- ٢ -

نص قرار مصادرة أملاك

عائلة الشيخ الحداد

نحن والي ولاية الجزائر، بعد النظر في الأمر المؤرخ بتاريخ ٣١ تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٤٥. واطلاعه على الشرط الثاني من الفصل الثاني والعشرين من المرسوم الاشتراعي المؤرخ في ١٦ حزيران- يونيو- سنة ١٨٥١، والفصل السابع من قانون ديوان أعيان الدولة المؤرخ في ٢٢ نيسان- إبريل- ١٨٦٣،والأمر المؤرخ في ٣١ أذار- مارس- ١٨٧١ الموافق عليه وزير الداخلية يوم ٧ أيار- مايو-١٨٧١، والأمر الصادر من رئيس الحكم المؤرخ في ١٥ تموز- يوليو- ١٨٧١، وبعد مطالعة الحكم الذي أصدره الجنرال حاكم ولاية قسنطينة من وضع الثقاف- الحراسة- على أملاك من سيأتي ذكرهم منقولة كانت أو غير منقولة. وهذا نص حكمه:

نحن الجنرال الحاكم على ولاية قسنطينة، بعد أن ثبت لدينا أن الشيخ الحداد، مقدم طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمن القاطن بدشرة «صدوق» في عرش «بني عيدل» من دائرة بجاية، وولديه سي عزيز بن الشيخ الحداد قائد «عموشة» وسي محمد بن الشيخ الحداد قاضي «بني عيدل وريغة»، قد باشروا جميعاً أعمال الفتنة الواقعة في ولاية قسنطينة. فالأول حرض أخوانه في الطريقة على الجهاد. وأما ولداه

الاثنان فاجتهدا في إثارة الناس للتخريب والعصيان ؛ وتقدما أمام الثائرين للقتال، وأعطيا رأيهما للثائرين من أجل الهجوم على البلدان العامرة بالإفرنج. فلذلك تعين علينا وضع الحراسة- الأثاقف- فوراً وحكمنا بما سيأتي مفصلاً:

الفصل الأول: وضعنا الحراسة- الثقاف- مؤقتا على جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة، المنسوبة للشيخ الحداد مقدم طريقة سيدي محمد بن عبد بن عبد الرحمن، القاطن بدشرة «صدوق» في عرش «بني عيدل» من دائرة بجاية. وكذلك المنسوبة لولديه الاثنين وهما «سي عزيز بن الشيخ الحداد» قائد عموشة، و «سي محمد بن الشيخ الحداد» قاضي بني عيدل وريغة.

الفصل الثاني: إن حائزي الأملاك المثقفة المذكورة ومستودعيها ومكتريها والمتصرفين فيها، وكذلك من في ذمته دين أو عناء أو غير ذلك من أنواع الحقوق الراجعة إلى المضروب بالثقاف، لا بد أن يعترف بما عليه في مدة ثلاثة أشهر مبدؤها غداة اليوم الذي يعلن بالصحف- الجرائد- المرقوم فيها أسماء المثقفين. ثم ان نظارة «الدومين- الحراسة» تتصرف في الأملاك المثقفة على وفق الشروط المقررة في الأمر المؤرخ في ٣١ تشرين الأول- أكتوبر- ١٨٤٥.

الفصل الثالث: يكلف عامل ولاية قسنطينة والعقيد (الكولونيل) الحاكم على قسمة «سطيف» بتنفيذ كل فيما يخصه من أمرنا هذا الذي سيعلن باللغتين الإفرنسية والعربية في الصحيفتين المونيتور الجزائري والمبشر.

كتب بقسنطينة في ١ أب- أغسطس- ١٨٧١-

الجنرال دو لاكروا

الهامش: بعد دراسة ما طلبه الجنرال حاكم ولاية قسنطينة، والاطلاع على اجتهاد اللجنة التي أقمناها يوم ٧ حزيران- يونيو- ١٨٧١، أمرنا وأبرمنا ما سيأتي: وهو أننا وافقنا على الحكم المسطور أعلاه، وعلى نشره في المونيتور الجزائري والمبشر.

كتب بالجزائر يوم

٦ أيلول- سبتمبر- ١٨٧١ — ١٨ أيلول- سبتمبر- ١٨٧١

الكونت دوقيدون — شارل تاسان

- ٣ -

مصادرة أملاك المقراني والحداد
وأفراد عائلتيهما

آ- مصادرة أملاك المقراني وأفراد عائلته:

مرت مصادرة أملاك المقراني وأفراد عائلته بمرحلتين اثنتين، بدأت المرحلة الأولى بعد عشرة أيام فقط من إعلان الثورة. ففي يوم ٢٥ آذار- مارس- ١٨٧١ أصدر «لامبير» المحافظ فوق العادة لولاية الجزائر، قراراً جاء فيه، بعد استعراض الحيثيات المختلفة، انه نظراً: «إلى ما ارتكبه الحاج محمد المقراني، باش آغا مجانة سابقاً في ولاية- أيالة- قسنطينة من العداوة البينة والفتنة الثابتة ضد الجمهورية الإفرنسية، أمرنا بما سيأتي ذكره مفصلاً: الاستيلاء على جميع ممتلكات الحاج محمد باش آغا، ووضعنا الحراسة عليها سواء كانت منقولات أو غير منقولات مما ثبت وجوده في أوطان ولاية الجزائر. والاستيلاء - الثقاف- أيضاً على أنواع أملاك الأعراش والعرب الذين خرجوا عن الطاعة مع المقراني، ومن سيخرج. ووضعنا عليها يد الحيازة سواء كانت شخصية أومشاعة».واستناداً إلى هذا القرار صدر يوم ٥ نيسان- إبريل- ١٨٧١ القرار رقم (١١٠) الذي نص على مصادرة ملكية للمقراني تدعى «جنان بو طالب» توجد في قرية «ابن عكنون» ببلدية «الأبيار» في أحواز مدينة الجزائر العاصمة، تبلغ مساحتها العامة ١٦

هكتاراً و ٤٥ آراً و ٦٥ سنتياراً. وتحتوي على برجين وحديقة وقطعتي أرض لزراعة الخضار والأشجار المثمرة ومقهى عربي وإصطبل وبئر ونافورة مياه. وهي أول عملية مصادرة لأملاك المقراني بعد صدور القرار الخاص بذلك. وفي يوم ٨ أيار- مايو- ١٨٧٢ صدر القرار رقم (٢٢٦) والذي نص على مصادرة ملكية ثانية للمقراني في بلدية «سماغير» بدوار «عين حازم» على الطريق العام بين «سور الغزلان وسطيف» في منطقة سكان «بني عامر»، وتبلغ مساحتها العامة ٣٣ هكتاراً و ٣٧ آراً .وتوالت بعد ذلك عمليات المصادرة لأملاكه وأملاك عائلته حتى النصف الثاني من العام ١٨٧٣.

لقد كانت المصادرة في المرحلة الأولى جزئية على أملاك المقراني وبعض أفراد أسرته. وكان أهم شيء تم خلالها هو صدور قرارات المصادرة، ثم عكفت السلطات على إحصاء أملاك كل فروع عائلة أولاد مقران في فترة امتدت حوالي عامين. ابتدأتها بإصدار القرار (٢٢٠) بتاريخ ٢٦ أيار (مايو) ١٨٧٢ الذي نص على المصادرة الجماعية لكل أملاك الفروع الأربعة من العائلة. ومن أهم ما جاء فيه- بعد الحيثيات- ما يلي:

المادة الأولى: تطبيقاً لقرار ٥ كانون الثاني- يناير- ١٨٧٢ من الجنرال الحاكم على مقاطعة قسنطينة، تطبق المصادرة على الأملاك العقارية وغير العقارية المملوكة لأربعة فروع من أولاد مقران هم: أولاد عبد الله وأولاد بورنان وأولاد عبد الرحمن وأولاد الحاج.

المادة الثانية: تطبق المصادرة كذلك على الأملاك العقارية وغير العقارية المملوكة للسعيد بن بوداوود، قائدالحضنةالسابق، وسي بن الشلال ابن عمه، ومسعود بن عبد الرحمن المقراني. ولخضر بن عبد

الرحمن المقرانـي القائد السابق لبني عيدل .وهؤلاءالأربعة أولاد مقران رؤساء الثورة بالحضنة.

وبعد أن انتهت السلطات من إحصاء كل أملاكهم ، وفرغت من محاكمة من وقع منهم في قبضتها أصدرت يوم ٢٩ تموز- يوليو- ١٨٧٣ ستة قرارات أخرى تحوي بالتفصيل كل الأملاك العقارية وغيرها لستة فروع من عائلة المقرانـي كالتالي:

فرع أولاد الحاج صف الباش آغا: ٨٢, ٧٠, ٤٨٨١ هكتاراً.

فرع أولاد عبد الله: ٥٢ , ٥٨ , ٤٧٢١ هكتاراً.

فرع أولاد عبد السلام: ٤٩ , ٦٠ , ٤٠٦٠ هكتاراً.

فرع أولاد بلقندوز: ٨٠ , ٥٣ , ٣٧٨٧ هكتاراً.

فرع أولاد عبد الرحمن: ٢٥ , ٧٥ , ٣٤٧١ هكتاراً.

فرع أولاد بورنان: ٦٧ , ٧٠, ١٩٠٦ هكتاراً.

وبلغت مساحة هذه الأراضي التي وضعت سلطات البلديات قبضتها عليها (٥٥, ٨٩, ٢٢٨٢٩) هكتاراً. ضمت (٥٦٩) قرية زراعية (ضيعة) لزراعة الحبوب وأشجار التين والزيتون و (٣٩) بستاناً مسقياً (مروياً) للخضار والفواكه المتنوعة و (٧٩) منزلاً ، وثلاث مطاحن لطحن الحبوب وثلاثة اصطبلات ومقهى وحماماً ومسجداً.

الغريب في الأمر، هو أنّ السلطة الاستعمارية الإفرنسية ، عملت بعد أن صادرت أموال «عائلة المقرانـي» على دفع مبلغ

«ثمانمائة ألف فرنك لعائلة «لافي» اليهودية سداداً لديونها المزعومة على المقراني، كما دفعت للبنوك والمصارف ما ادعته من ديون لها على المقراني. في حين رفضت دفع الديون المماثلة للجزائريين، ومنهم الحاج «حمود بو تليس» الذي اضطر أن يكتب إلى الحاكم العام «الكونت دوقيدون» مطالباً بمبلغ «ألفي وثمانمائة وأربعة وخمسين فرنكاً وخمسة وتسعين سنتيماً» كانت له على محمد المقراني. وحاول الحاج حمود الا يصدق ما كان الناس يشيعونه قائلاً إلى الحاكم العام: «**بأنه لم يخطر ببالي ما يذكره الناس من أن ما بذمةالباشآغا للمسلمين لا يؤدونه لهم، ويرضون النصارى واليهود ما يخصهم من الديون**».

ب- مصادرة أملاك الشيخ الحداد وأفراد عائلته

تعرضت عائلة الشيخ الحداد لما تعرضت له عائلة المقراني. وطبق الإفرنسيون ضدها نفس الأسلوب في المصادرة الجماعية لكل أملاكها العقارية وغير العقارية، على الرغم من أنها لم تكن في مستوى عائلة المقراني من حيث الغنى ووفرة الممتلكات، ويكاد يكون مصدر ثرائها وغناها الوحيد هو هدايا الإخوان الرحمانيين، والأوقاف التي كان الأغنياء يحبسونها لزواياها ومشايخها. ومن هنا فقداعتبرت عائلة الحداد فقيرة لا تختلف كثيراً عن وضع بقية الأهالي. ومع ذلك استعملت السلطات الإفرنسية ضدها القسوة المتناهية. وصادرت كل أملاكها وأملاك أتباعها في محاولة لتدمير «سلطتها الروحية الخطيرة على الإفرنسيين». واذا كان المقراني قد تعرض للمصادرة بعد عشرة أيام فقط من إعلانه الثورة. فإن عائلة الحداد لم تتعرض لذلك الا بعد عدة شهور. وبالضبط في اليوم الأول من شهر آب- أغسطس- ١٨٧١. حيث أصدر حاكم قسنطينة العسكري «دولاكروا» قراره رقم

(٢٠٨) والذي صادق عليه «الكونت دوقيدون» يوم ٦ أيلول- سبتمبر- ووقعه شارل تاسان المدير العام للشؤون المدنية والمالية يوم ١٨ أيلول - سبتمبر- ١٨٧١ ومما جاء فيه بعد الحيثيات: «لقد وضعنا الحراسة- الثقاف- بصورة مؤقتة على جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة، المنسوبة للشيخ الحداد مقدم طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمن القاطن بدشرة «صدوق» في عرش «بني عيدل» من دائرة بجاية، وكذلك المنسوبة لولديه سي عزيز بن الشيخ الحداد، قائد عموشة سابقاً، وسي محمد بن الشيخ الحداد قاضي بني عيدل وريغة سابقا»

كان هذا القرار هو بداية العمل لإحصاء كل أملاك هذه العائلة، والذي استمر بعد ذلك حتى أواخر العام التالي (١٨٧٢) حيث صدر قرار رقم (٣٩٧) بتاريخ ١٦ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٧٢، وهو يضم تفاصيل الأملاك التي تم إحصاؤها ومصادرتها. ووقعه مدير مصلحة البلدية. وصادق عليه «دوقيدون» يوم ٢ كانون الأول- ديسمبر- من العام ذاته.

بلغ مجموع مساحة الأراضي التي صودرت من عائلة الشيخ الحداد (٥٠٢,٥٢,٠٥) هكتاراً تضم (٦٢) قرية- ضيعة- لزراعة الحبوب والتين والزيتون والغلال البعلية، وستة بساتين مروية- مسقية- للخضار والأشجار المثمرة وسبعة منازل و (١٥) دكاناً ومخزناً للتجارة، وثلاثة اصطبلات وثلاث طواحين لطحن الحبوب، ومعصرة زيتون ومسجد، وبلغ مجموع الأشجار المثمرة التي تم حصرها (١٤٥٢٨) شجرة اغلبها من الزيتون، والباقي من التين والبرتقال والتفاح والاجاص والرمان وغيرها...

ومرة اخرى، يظهر من الغريب حقاً سلوك السلطة الاستعمارية

الافرنسية تجاه الشيخ محمد عبد الرحمن وابنيه سي عزيز وسي محمد. فقد كان الهدف الواضح من «المصادرات» هو القضاء على النفوذ الديني، في حين كان هدف مصادرة أموال « محمد المقراني وعائلته » هو القضاء على ما أطلق عليه اسم «الارستقراطية العربية». وبكلمة أكثر وضوحاً ، تدمير القيادات السياسية والدينية للوطنيين الجزائريين. بينما كانت السلطة الافرنسية الاستعمارية ذاتها تعتمد في سياستها على إقامة الاقطاعات الزراعية والصناعية والتجارية، وتفسح المجال الواسع أمام «رأس المال» لاستغلال موارد الوطن الجزائري واستثماره. ومن المعروف تاريخياً ان هذه الطبقة الغريبة ـ الطفيلية ـ قد أسهمت منذ فجر استعمار الجزائر وحتى نهايته بخلق المتاعب أمام الادارات الافرنسية المتتالية ـ من مدنية وعسكرية ـ. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هذه الادارات الافرنسية تكافئها بالمزيد من الامتيازات. أما نصيب الوطنيين الجزائريين من ذلك، وكما هو واضح، فهو دفع القيادات الدينية والسياسية للثورة، وخلق المثيرات المختلفة من أجل إشعال نار الثورة، ثم العمل على قمعها بقسوة ووحشية، وتوظيف نتائجها لمصلحة الاستعمار الاستيطاني.

- ٤ -

الحرب الصليبية في الجزائر

بقيت الحرب الصليبية أحد وجوه الحرب الشاملة للدول الاستعمارية. وكانت في كثير الأحيان تشكل الغطاء المناسب لستر سوءات الاستعمار وقباحته. ومن المعروف ان الجزائر قد تعرضت سنة ١٨٦٧، وفي السنوات التالية لمجموعة من الكوارث والنكبات الطبيعية التي قضت على عشرات آلاف الاسر والعائلات الجزائرية. وخلفت وراءها عشرات الآلاف من الأطفال الايتام- علاوة على ابناء الشهداء- الذين قضوا فوق ميادين الجهاد في سبيل الله. فوجد رجال الدين المسيحي في ذلك الفرصة المؤاتية لتنصير اولئك الأطفال، وتمسيحهم، بتقديم فتات الخبز لهم. واندفع اسقف مدينة الجزائر (لافيجري)[١] لتطوير هذه العملية واستغلال الجوع لصالح الكنيسة. ووجد من نابليون الثالث تشجيعاً زاد من حماسته حيث

---

(١) الاسقف لافيجري: (LAVIGERIE, CHARLES. MARTIA CARDINAL)-هو اسقف افرنسي، من مواليد بايون (BAYONNE) (١٨٢٥- ١٨٩٢) مؤسس المدارس التبشيرية في المشرق. واطلق عليه اسم «والد البيض المسيحيين». رائد نشر لواء المسيحية في افريقيا الشمالية (المغرب العربي الاسلامي) اشتهر بحماسته وبعمله لدمج المغرب بفرنسا.

وجدت رسالة تحمل تاريخ ٢٩ كانون الثاني- يناير- ١٨٦٧ وفيها ما يلي: «**علمنا وأخبرنا بنبأ جديد له أهميته، وهو أن الاسقف الجديد- لافيجري- قد حصل على إذن من الامبراطور بتنصير الأهالي مع تزويده بصلاحيات واسعة، ويعتزم الاسقف انشاء اديرة هنا وهناك بالتعاون مع رجال الدين المطرودين من ايطاليا لتنصير المسلمين**»[1].

وكانت حجة الكاردينال في ذلك هي، «أن هؤلاء الايتام بقوا بدون آباء وامهات معرضين للموت في كل وقت. وجزاء الكنيسة عندما تؤويهم هو أن تنصرهم وتحولهم عن عقيدة آبائهم واجدادهم الاسلامية. وكان يرى أن هذا التنصير ينبغي أن يتم ولو بالقوة. وحتى بالتفرقة بين الجزائريين من اجل القضاء على تأثير القرآن الكريم». وعلى هذا الاساس جمعت الكنيسة حوالي عشرة آلاف يتيم من تتراوح اعمارهم بين الثامنة والعاشرة، واخذت تجمع الاموال باسمهم لتستغل ذلك دينيا وسياسياً، واعطاء عملها «تظاهرة الانسانية- الحضارية». غير ان هذه التظاهرة لم تخدع الجزائريين- اذ لم تلبث ممارسات الكاردينال ذاته واتباع مدرسته ان فضحتها. وهو الأمر الذي تبرزه تلك المحادثة التي اجراها الكاردينال مع يتيم جزائري عمره عشر سنوات، زعم انه التقى به في حي باب الواد بالجزائر العاصمة في شهر تشرين الاول- اكتوبر- عام ١٨٦٨ واسمه عمر:

س: من أين جئت يا بني؟

ج: من الجبل، من بعيد، بعيد!

س: وأبواك اين هما؟

---

(١) ثورة ١٨٧١- الدكتور يحيى ابو عزيز- ص ٩٢- ٩٨

ج: أبي مات، وأمي في القرية. (الغوربي).

س: لماذا تركتها؟

ج: هي التي قالت لي لا شيء هنا، اذهب الى قرى المسيحيين، وسألحق بك أنا كذلك.

س: ماذا فعلت في الطريق؟

ج: كنت آكل الاعشاب في النهار، وأختفي في الليل داخل الكهوف، حتى لا يقتلني العرب إذا رأوني. لأنهم يقتلون الأولاد ويأكلونهم.

س: والآن الى أين أنت ذاهب؟

ج: لا أدري.

س: أتذهب إلى أحد الأولياء العرب- المشايخ-؟

ج: آه! لا، لأني عندما أذهب اليهم يطردونني، واذا رفضت يسلطون علي الكلاب لتقتلني.

س: أتريد أن تبقى معي؟

ج: آه! نعم.

س: ايه، حسناً، سر معي الى دار الأولاد، وسأعتبرك مثلهم، وأسميك شارل. وبعدة مدة سألته عن بقائه:

س: اتريد أن تذهب إلى أمك؟

ج: لا أذهب، ولا أحب ذلك؟

س: لماذا؟

ج: **«لأنني وجدت أحسن من أمي»**.

* * *

ان هذه المحادثة القصيرة تدين نفسها، بقدر ما تدين (الكاردينال المحترم) بما تبرزه من تناقض في النقاط التالية:

١ـ ان نص الاسئلة واسلوب الحوار دول على الخبث واللؤم في تلقين الطفل بما يجب عليه قوله.

٢ـ من غير المعهود يدل العرب المسلمين ان تتخلى أم عن ابنها بمثل هذه السهولة. وتتركه يقطع الجبال والوهاد وحده. ولو كان الأمر صحيحاً، لكان من المحتمل ان ترافق الأم ابنها لتعرف مصيره.

٣ـ ليس من عادة العرب المسلمين، ولم يعرف عنهم حتى في أقسى الظروف، ذبح الاطفال وأكلهم.

٤ـ ليس من عادة الاولياء ـ المشايخ ـ طرد طفل جائع او محروم، واموال الاوقات والزوايا ـ في تلك الفترة ـ كانت وفيرة ومحبوسة لمثل هذه الاعمال الخيرية.

٥ـ ليس من عادة العرب المسلمين ادخال الكلاب الى الزوايا والمساجد واستخدامها لطرد الغرباء، ويقتصر استخدامها عندهم لحراسة قطعان الماشية والصيد. في حين تستخدم النساء الافرنسيات والرجال الكلاب لأكثر من غرض، ومنها حراسة المنازل وطرد الغرباء.

٦ـ اذا كان عمل الكاردينال المحترم «حضارياً ـ انسانياً» فلماذا يغير اسم الطفل من عمر الى شارل.

٧ـ ثم هل هناك، وفي مثل هذا العمر، من يرضى عن أمه

بديلاً. إلا اذا تم توجيهه بروح من الحقد والكراهية؟

مهما يكن من أمر، فقد اصطدمت مشاريع «الكاردينال المحترم» بمقاومة المسلمين الضارية، وانعكس ذلك بالضرورة على المهاجرين- المستوطنين في الجزائر من الاوروبيين. وثارت ضجة مفتعلة،ذلك لأن الرأي العام الغربي كان مؤيداً للكاردينال فيما يخص بدمج الجزائر بسرعة في فرنسا والمجتمع الاوروبي- عن طريق التنصير- ولم يكن الامبراطور ذاته ورجال دولته ضد هذه الممارسات. ولكن الخلاف كان معه في الوسائل فقط. فهو كرجل دين متعصب، نظر الى المشكلة من زاوية الحرب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين، ورأى أن ينفذ اهدافه بحزم وقوة وسرعة، بدون أن يقيم وزناً للعواقب السياسية. أما رجال الدولة والمسؤولين، فقد عالجوا المشكلة من الناحية السياسية والعسكرية- وشعروا بالصعوبات التي قد تسببها لهم سياسة التنصير، بحكم اطلاعهم على تمسك الجزائريين بدينهم وعقيدتهم الاسلامية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فانهم لم يكونوا في عجلة من امرهم، حيث كان عامل الوقت - بنظرهم- كفيل بتحقيق هدف النصير على مهل وبدون أي استثارة. وقد اعترفت المصادر الغربية بما لقيه الكاردينال المحترم من مقاومة- وفقاً لما تبرزه المقولة التالية: «لقد اعترضت الكاردينال وكنيسته عقبة حقيقية،وهي رفض الجزائريين رفضاً حازماً لتنصير أبنائهم. فقد أحسوا بأنهم طعنوا في عقيدتهم الدينية. وكان هذا الشعور عاماً حتى لدى الموالين للسلطات الافرنسية والموظفين لديها» ولقد كان ابن علي الشريف باشآغا شلاطه- من رجال فرنسا المعتمدين وأشد أنصارهم حماسة لسياستهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد صرح للماريشال

«ماكماهون»: «بأنه لن يكون مسيحياً أبداً، ولا يعرف اذا كان أبناؤه أو أبناء أبنائه سيكونون في يوم من الأيام مسيحيين».

لقد شكلت فرنسا لجنة للتحقيق اثر الاضطرابات التي اجتاحت الجزائر- وأشار حسن بن بريهمات، والمكي بن باديس وأحمد ولد القاضي الى التذمر واسبابه بما يلي: «لقد تجاوز الاوروبيون في بعض العمالات، الولايات، جدودهم، وخرجوا عن المقصود. حتى انهم تكلموا فيما يخص الشريعة الاسلامية». فلا غرابة ان تكون سياسة التنصير عاملاً في دفع الجزائريين الى الثورة. وعلى الرغم من أن رسائل المقراني وبومزراق وقادة الاخوان الرحمانيين، لا تشير صراحة الى قضية التنصير، الا أن العامل الديني كان الحافز الاساسي لاستنفار الناس وحضهم على الجهاد وحمل السلاح. ففي رسالة الباشآغا الى الشيخ بن كابه، وكبراء قرية «بو جليل ببني عباس» قال بعد التحية: **«وبعد فتوكلوا على الله ورسوله، وتقدموا الى الجهاد لنصرة دينكم عزماً». فهو يدعو الناس الى الجهاد لنصرة دينهم. وتلك هي عقلية جماهير الجزائريين تجاه النصارى- المسيحيين المسيطرين على بلادهم. ولا بد أنها عقلية جاءت نتيجة سياسة التنصير التي عملت الكنيسة على تحقيقها منذ الاحتلال. وكما قال مؤرخ صليبي: «لقد عرف الاسلام بالتسامح، ولم يظهر التعصب على المسلمين الا نتيجة لما** أظهره الفرنج الصليبيون من التعصب».

المراجع

١ـ السياسة العثمانية تجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٢٧ـ ١٨٤٧)ـ الدكتور أرجند كوران، نقله عن التركية الدكتور عبد الجليل التميمي ـ تونس ـ ١٩٧٤ .

٢ـ أوروبا ومصير الشرق العربي ـ تأليف: دكتور جوزف حجار، اصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٦ .

٣ـ ثورة ١٨٧١ (دور عائلتي المقراني والحداد) الدكتور يحيى بو عزيز. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع «سنيد» الجزائر ـ ٧٨ .

1- POLITIQUE COLONIALES AU MAGHERB (CHARLES-ROBERT AGERON) PRESS UNIVERSITAIRES DE FRANCE « PARIS 1972

2- L'AFRIQUE DU NORD (1) JEAN DESPOIS, PRESS UNIVERSITAIRES DE FRANCE PARIS 1964

3- LE DEFI ISRAELIEN, LUCIEN CARVO- DE- MARS, LIBAN - BEIRUT, 1971.

4- HISTOIRE DE L'INSURRECTION DE 1871 EN ALGERIE, (RINN LOUIS) ALGER. IMP. HPURDAN 1891.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	**٥**
الوجيز في مسيرة الاحداث التي كان لها دورها في ثورة السبعين	**٩**
ثورة الاخوان الرحمانيين في سطور	**١٠**
الفصل الأول: (الوضع السياسي العام)	**١٣**
١ـ الموقف على جبهة المشرق	**١٥**
٢ـ عودة الى محمد علي باشا	**٢٢**
٣ـ اللعب بورقة الأمير عبد القادر	**٣٣**
٤ـ البدايات الأولى للصهيونية	**٤٨**
الفصل الثاني: (الوضع الخاص في الجزائر)	**٥٧**
ـ السياسات الاستعمارية	**٥٩**
آـ الهجرة والاستيطان	**٧٠**
بـ القضاء على مقومات الأمة العربية ـ الإسلامية	**٧٤**
جـ المسألة اليهودية وقانون كريميو	**٨٣**
دـ التحريض الخارجي (البروسي ـ العثماني)	**٩٠**
هـ الكوارث الطبيعية	**٩٩**
وـ الثورات التمهيدية	**١٠٥**

الفصل الثالث: (ثورة ١٨٧١) ١١٧
١ـ ثورة محمد المقراني (مجانة) ١١٩
٢ـ ثورة الشيخ الحداد (صدوق) ١٤٤
٣ـ ثورة أحمد بو مزراق (سور الغزلان وونوغة) ١٦٠
٤ـ في أفق الثورة ١٧٩
قراءات وثائقية: ١٨٧
١ـ نص القرار الخاص بمصادرة أملاك المقراني ١٨٩
٢ـ نص قرار مصادرة أملاك الشيخ الحداد ١٩١
٣ـ مصادرة أملاك المقراني والحداد وأفراد عائلتيهما ١٩٤
٤ـ الحرب الصليبية في الجزائر ٢٠٠
المراجع الرئيسية للبحث ٢٠٦

جهاد شعب الجزائر ٦

الأمير خالد الهاشمي الجزائري

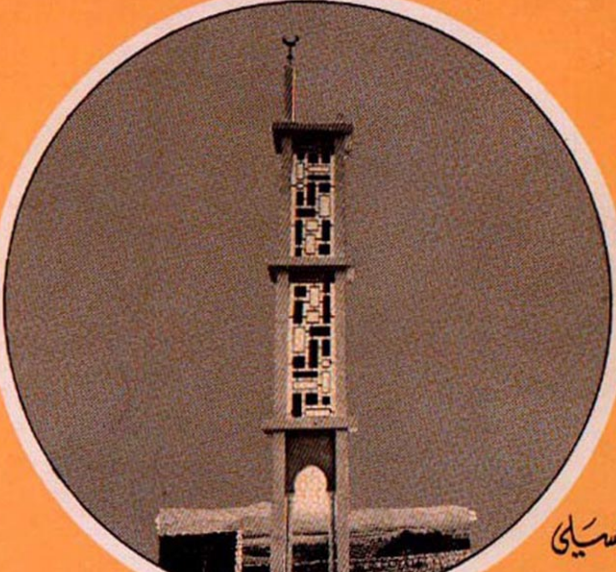

بسام العسيلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

جهاد شعب الجزائر

الأمير خالد الهاشمي الجزائري

والدفاع عن جزائر الإسلام

بسّام العسلي

دار النفائس

جَمِيعُ الحقوقِ مَحفُوظَة

الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

○ دار النفائس
بيروت: ص.ب ١١/٦٣٤٧ - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

مُقَدّمة الكِتَاب

هذه الجزائر المجاهدة ما هوى منها شهاب إلا أتبعه شهاب آخر، وهذا هو شعب الجزائر المجاهد، ما مضت منه قافلة إلا وأتبعتها قافلة. وتستمر الشهب في إضاءة سماء العروبة والإسلام، وتستمر القوافل تترى على سبيل الجهاد في سبيل الله. ما عاشت الجزائر، جزائر العرب المسلمين، يوماً من الأيام لنفسها، لقد كانت أبداً، وعلى امتداد قرون طويلة وهي تحمل الراية، راية الريادة، لم تتعب وقد أتعبت كل من عاداها. حتى أصبحت أمثولة الدنيا في التضحية والفداء والصبر والثبات. وعرف العالم، وعرف المسلمون في مشارق الارض ومغاربها، ما احتملته الجزائر وما عاناه شعبها المجاهد، فحملوا لأرضها وشعبها كل الحب والتقدير والإكبار.

وتاريخ جهاد شعب الجزائر بعد ذلك نسيج متلاحم صنعته تضحيات لا نهاية لها، وبرزت من خلاله شهب وكواكب ونجوم لا حصر لها. ويقف المرء حائراً أمام هذه الوفرة من الرواد المتشابهة

في تألقها، المتماثلة في حجومها وأشكالها وأضوائها. وعلى هذا، فالانتقاء لا يعني الأفضلية قدر ما يعني تصوير مرحلة تاريخية من خلال قيادة تاريخية معينة.

هكذا كان الأمير عبد القادر الجزائري، وهو يقول: «أما بعد، فإن الفرنسيس المعتدين على البلاد الإسلامية، بعدما عاهدناهم وسالمناهم، نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن المعلوم أن التهاون في مثل هذا، والاغضاء عنه يزيدهم طغياناً واعتداء علينا... ومما علم من كتب التواريخ، أن العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العريس ليلة عرسه، فلا يخطر في بالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم ما دامت الأقدار الإلهية مساعدة لهم. فإن حكمت عليهم بغير ذلك، فمن المعلوم ان الأرض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده، فلا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه».

وها هو محب الدين الخطيب يقول عن الأمير الشيخ طاهر الجزائري ما يلي: «هو الذي ربى عقلي، وهو الذي حبّب إليّ هذا الاتجاه الفكري منذ كنت طفلاً الى أن صرت رجلاً. ولا أعرف مؤلفاً ولا حامل قلم في ديار الشام، إلا وقد كانت له صلة بهذا المربي المعظم والإفادة من عقله وسعة فضله. وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية، وفي سبيل المعارف، ولإحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام، إنما كانوا من إخوانه. وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم؛ أو من طبقة تلاميذه، وهو مضرب المثل عندهم في كمال العقل وسعة الاطلاع التي لا حد لها.

وبالإجمال، هو جرثومة الخير الأولى من أيام ولاية مدحت باشا على سوريا، الى أن هاجر الرجل العظيم إلى مصر سنة ١٣٢٥هـ».

وها هو محمد الشريف بك الجزائري يصدر صحيفة «البوستة» في مصر (١٨٩٦ـ ١٩٠٤) للدفاع عن قضايا العرب والمسلمين.

وها هو الأمير علي باشا الجزائري نجل الأمير عبد القادر يتولى الدفاع عن دنيا العرب والمسلمين.

وها هو الأمير سليم الجزائري، «الضابط الأستاذ بالمدرسة الحربية والخائض غمار الحروب دفاعاً عن الإسلام وحامل الأوسمة البطولية، يمضي في قوافل الشهداء دفاعاً عن العرب والإسلام».

وها هو الأمير عز الدين الجزائري، يحمل السلاح في الثورة السورية الكبرى، دفاعاً عن دنيا العرب المسلمين، ويمضي شهيداً للقاء وجه ربه وقد أدى الأمانة.

وها هو الأمير خالد الهاشمي الجزائري. يلتمع كالشهاب في سماء العرب المسلمين، ثم يمضي، بصمت، بعد أن بذل الجهد المستطاع، وأكثر مما هو مستطاع، لحمل راية الريادة دفاعاً عن الإسلام والمسلمين.

هؤلاء سطور في الملحمة الخالدة التي عاشها شعب المسلمين في أصعب مرحلة من تاريخهم. وهم سطور فخر تنحني الدنيا إجلالاً لها وتقديراً.

إنهم فخر الجزائر، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.
وهم فخر العرب، في كل دنيا العرب.
وهم فخر المسلمين في كل دنيا المسلمين.

حملوا السيف والقلم، خاضوا الصراعين السلمي والمسلح، وجاهدوا في الله حق جهاده، وتركوا للدنيا سطوراً مضيئة، تهدي الباحثين عن الهدى في كل زمان ومكان. وتجربتهم التاريخية، ليست ملكاً للجزائر ولشعبها المجاهد فحسب، وإنما هي ملك العالم العربي- الإسلامي كله.

وتتعاظم أهمية هذه التجربة التاريخية، على مر العصور والأيام. ذلك لأن نسيج التاريخ لا زال متصلاً، ولا زالت الحرب قائمة، ولكن بأساليب أكثر تطوراً وأكثر خبثاً ولؤماً.

وهذه تجربة الأمير خالد الهاشمي الجزائري - وهي تجربة تاريخية خالدة- ترسم ظلالها على الأفق الممتد، وترسل جذورها إلى أعماق الأرض العربية- الإسلامية. وعسى أن يجد فيها القارىء الفائدة والمتعة.

والله ولي التوفيق

بسام العسلي

الوجيز في حياة الأمير خالد

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٢٩٢	٢٠ شباط ـ فبراير ١٨٧٥	ولادة الأمير خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق ـ الشام ـ
١٣١٠	١٨٩٢	انتقال الأمير خالد مع والده إلى الجزائر.
١٣١١	١٨٩٣	دخول الأمير الكلية العسكرية الإفرنسية «سان سير»
١٣١٣	١٨٩٥	ترك الأمير خالد الكلية، قبل التخرج، بسبب اتهامه بالشعب والنوايا السيئة ضد فرنسا.
١٣١٤	١٨٩٦	عودة الأمير خالد إلى الكلية الحربية الإفرنسية وتخرجه برتبة ملازم. وتعيينه في كتيبة إفرنسية.
١٣٢٥	١٩٠٧	ترفيع الأمير خالد إلى رتبة نقيب (كابتن) واشتراكه في حرب المغرب.
١٣٢٨	١٩١٠	إستقالة الأمير خالد من الجيش الإفرنسي

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣٢٩	١٩١١	إعادة الأمير خالد للجيش، ومنحه إجازة لمدة ثلاثة أشهر من أجل زيارة أقاربه في دمشق.
١٣٣١	١٩١٣	بدء الأمير خالد بتنظيم «الجزائر الفتاة» أو «الجزائر الفتية» في باريس.
١٣٣٤	١٩١٥	إشتراك الأمير خالد في الحرب.
١٣٣٥	١٩١٦	عودته إلى الجزائر بعد (١٨) شهراً من الخدمة في الجبهة.
١٣٣٨	١٩١٩	إحالة الأمير خالد على التقاعد نهائياً، وانصرافه الى العمل السياسي.
١٣٤٤	١٩٢٥	حاول الأمير خالد التوجه إلى سوريا- بأوراق شخصية مزورة للاشتراك في الثورة فاعتقل وحوكم وحكم عليه بالسجن لمدة (٥) اشهر.
١٣٥٥	١٩٣٦	وفاة الأمير خالد في دمشق، وإعلان الحداد العام لوفاته في دمشق والجزائر.

وجيز الأحداث المعاصرة للأمير خالد
في العالم العربي- الإسلامي

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٢٨٨	١٨٧١	ثورة المقراني والحداد (الإخوان الرحمانيون) في الجزائر.
١٢٩٩	١٨٨١	فرنسا تحتل تونس، هزيمة عرابي باشا عند التل الكبير واحتلال بريطانيا لمصر.
١٣٠٠	١٨٨٢	بداية ثورة المهدي بالسودان.
١٣١٢- ١٣٢٥	١٨٩٤-١٩٠٧	السلطان عبد العزيز المراكشي.
١٣١٠	١٨٩٢	الإنكليز يقضون على ثورة السودان.
١٣٢٩- ١٣٣٠	١٩١١- ١٩١٢	إيطاليا تستولي على طرابلس الغرب.
١٣٣٢- ١٣٣٦	١٩١٤- ١٩١٨	الحرب العالمية الأولى- وقيام الثورة الشيوعية بروسيا.
١٣٣٩	١٩٢٠	احتلال فرنسا لسوريا ولبنان. والإنكليز في العراق وفلسطين.
١٣٤٠	١٩٢١	ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الصحراء المغربية.
١٣٤٢	١٩٢٣	إلغاء الامبراطورية العثمانية وقيام الدولة التركية.
١٣٤٤	١٩٢٥	الثورة السورية الكبرى.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣٤٥	١٩٢٦	إقامة الكيان اللبناني المسيحي (النصراني).
١٣٥٢	١٩٣٣	الثورة الفلسطينية الكبرى ضد الإنكليز واليهود.

«وهب الأمير خالد للجزائر كل حياته ونشاطه وذكائه، وقدم للإسلام كل عواطفه وقلبه، قلب رجل شريف نبيل لا يخشى في الله وفي سبيل إحقاق الحق صولة جاهل ولا لومة لائم»

جريدة الدفاع الجزائرية- عدد ٢٤ كانون الثاني- يناير- ١٩٣٦- في تأبين الأمير خالد.

الفصل الأول

١ - انطلاقة الاستعمار من الجزائر إلى العالم الإسلامي

٢ - الهجوم الاستعماري - الاستيطاني في الجزائر

٣ - السياسة الاستعمارية والظهير البربري

٤ - الثورة الجزائرية (١٨٩٧ - ١٨٩٩) ومواقف الاشتراكيين

١ ـ انطلاقة الاستعمار من الجزائر إلى العالم الإسلامي

ما إن انتهت فرنسا من القضاء على ثورة الإخوان الرحمانيين سنة ١٨٧١ (ثورة المقراني والحداد) حتى انطلقت لتعميق جذور وجودها الاستعماري في الجزائر، ولتوسيع مناطق نفوذها إلى ما وراء حدود الجزائر. وكان هدفها التالي هو فرض نفوذها على تونس. وكان الإيطاليون يطمعون منذ وقت طويل، بحذو أسلوب فرنسا في السيطرة الاستعمارية، غير أن روما ترددت في السير على هذا الطريق خشية أن تخلق بذلك أزمة دولية. وأفادت فرنسا من أول فرصة سنحت لها لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية في الاستيلاء على تونس. وتم لها ذلك عندما نشب خلاف بين «باي تونس» وإحدى الشركات التجارية الإفرنسية في سنة ١٨٨١. فعملت فرنسا على تجريد الباي من سلاحه في العاصمة بواسطة جيش كان قد اجتاح الإقليم بحجة تأديب قبيلة بدوية اخترقت الحدود، وقامت بأعمال عدائية في الجزائر. والحق أن الإفرنسيين أبقوا للباي عرشه اسمياً، غير أنهم سلبوه جميع السلطات الحقيقية بلا استثناء.

حاولت فرنسا بعد ذلك التوسع في اتجاه الغرب، غير انها اصطدمت بمقاومة الدول الغربية (إنكلترا والمانيا). وفي سنة ١٩٠٤، انتزعت فرنسا موافقة بريطانيا وإسبانيا على مشروعاتها التوسعية بعد أن اعترفت لإنكلترا بحق استعمار مصر، وبعد أن منحت إسبانيا منطقة نفوذ أوسع في ممتلكاتها السابقة في المغرب. وكان الإفرنسيون قد قدّموا لسلطان مراكش ـ السلطان عبد العزيز ـ مشروعاً للإصلاح الإداري، يتم تنفيذه بمساعدتهم.

عندما وصل الامبراطور البروسي ـ ويلهلم الثاني ـ أرض طنجة في ٣١ آذار ـ مارس ـ ١٩٠٥ ـ وكان يقوم برحلة في البحر المتوسط ـ بعد أن حرضه على ذلك مستشاروه الذين كانوا يؤيدون مصالح (الأخوة مانسمان) الاقتصادية في مناجم مراكش.

وهناك في طنجة، ألقى القيصر ويلهلم خطاباً أيّد فيه استقلال السلطان، وعلى أثر هذا الخطاب، نجح السلطان عبد العزيز في عقد مؤتمر دولي لبحث المسألة المراكشية. ولقد عقد هذا المؤتمر في الجزيرة الخضراء في الفترة من ١٥ كانون الثاني ـ يناير ـ الى ٧ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٠٦، لينتهي إلى الاعتراف بسيادة السلطان، والاتفاق على تنظيم شرطة دولية ـ بوليس ـ لحراسة المرافىء، وإقامة مصرف للدولة يكون رأس ماله أوروبياً.

لسبب تعاظم التدخل الاجنبي بأمور مراكش في اضطراب النظام والامن، وبدأ الموقف في الخروج من قبضة السلطان عبد العزيز، واستثمرت فرنسا ذلك لتقوم باحتلال «وجدة» و«الدار البيضاء» في سنة ١٩٠٧. وما لبث عبد الحفيظ أن ثار على أخيه السلطان عبد العزيز مستغلاً الاستياء العام في طول البلاد وعرضها، وحمل الفقهاء

على خلعه. وتمكن من إخضاع البلاد كلها لطاعته خلال فترة وجيزة. واعترفت به ايضاً كلٌ من إسبانيا وفرنسا بعد أن أعلن اعترافه باتفاقات الجزيرة الخضراء.

ولكن عبد الحفيظ لم يكن أقدر من أخيه على مواجهة الأوضاع العسيرة التي خلقها التحريض الخارجي، فطوقه الثوار في فاس سنة ١٩١١، مما دفعه إلى التماس الدعم من فرنسا. والواقع، أن هذا الحادث قرر مصير البلاد، على الرغم من أن المانيا ظلت تحاول أن تضمن لنفسها بعض الحقوق عن طريق هجومها على أغادير (وهو الهجوم المعروف بوثبة النمر، إذ أرسلت إلى اغادير مركباً حربياً، سمه النمر (تايغر) بعد أن كانت اسبانيا قد وسّعت منطقتها أيضاً احتلال العرائش والقصر.

ومهما يكن من أمر، فقد اعترفت المانيا ذاتها، آخر الأمر، الحماية الافرنسية لمراكش - وهي الحماية التي حددت شروطها بصورة رسمية في المعاهد التي عقدت مع السلطان في ٤ تشرين الثاني نوفمبر - سنة ١٩١٢. وخلف عبد الحفيظ السلطان يوسف، حتى إذا توفي هذا سنة ١٩٢٧، خلفه ابنه محمد الثالث. ووطد المارشال «ليوتي»(١) بما شن على القبائل المعادية، سلطة الحكومة التي

---

(١) ليوتي - لويس هيبرت غونزالف : (Lyautey, Louis Hubert Gonzalve) ماريشال إفرنسي، من مواليد مدينة نانسي (١٨٥٤ - ١٩٣٤). برز اسمه في استعمار الهند الصينية (فييتنام) ثم في استعمار مدغشقر وفي الأعمال القتالية في جنوب وهران نظم في سنة ١٩١٢ عملية الحماية على المغرب - مراكش - الأمر الذي أثار المانيا وكان حافزاً أساسياً في هجومها على فرنسا في الحرب العالمية الأولى. وقد أصبح وزيراً للحربية الافرنسية (١٩١٦ - ١٩١٧). وهو صاحب الدور الأساسي في قانون الظهير البربري.

انتهى السلطان الى أن يصبح مجرد رئيس اسمي لها. واحتفظت فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى بالمركز الذي اكتسبته في مراكش، لتبسط نفوذها على البلاد كلها ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤ وذلك عن طريق مجموعة من الحروب التي أرهقت فرنسا. ودفع المغاربة (المراكشيون) ثمناً غالياً لها من دمائهم وتضحياتهم.

وعرفت بلاد المغرب ـ مراكش ـ في هذه الفترة بطلاً من أشهر أبطال الحروب الثوروية في العالم الاسلامي هو «الأمير عبد الكريم الخطابي» الذي كان يعيش مع أسرته منذ عهد بعيد في منطقة الريف، عند أجدر على خليج الخزامى.

وفي سنة ١٩٢١، أعلن الأمير عبد الكريم ثورته ضد الاسبانيين للدفاع عن قومه. ولم يكن مع الأمير آنذاك سوى عدد قليل من الرجال، غير أن لهيب ثورته لم يلبث أن انتشر سريعاً بين القبائل كلها في مراكش الشمالية. وأنزل عبد الكريم بأعداء المسلمين خسائر فادحة، ثم هاجم منطقة الاحتلال الافرنسية، وتهدد فاس بالاحتلال؛ وعندئذ تعاونت قوى الاستعمار الإسباني ـ الإفرنسي للقضاء عليه وعلى ثورته، وتم لها ذلك في شهر شباط ـ فبراير ـ سنة ١٩٢٦ حيث اضطر الأمير عبد الكريم إلى إلقاء السلاح، فنفي في بداية الأمر إلى مرسيليا ثم أبعد الى جزيرة «ريونيون» بالقرب من جزيرة القمر ـ مدغسكر ـ ومنذ ذلك الحين، وطدت إسبانيا أيضاً سلطتها في مراكش ـ المغرب..

لم تلبث ايطاليا بعد ذلك أن انضمت الى ركب الدولتين الاستعماريتين (بريطانيا وفرنسا). فاتجهت الى طرابلس الغرب

(ليبيا)، وطلبت الى رجال تركيا الفتاة الموافقة على السماح للقوات الإيطالية باحتلال طرابلس الغرب، وعدم التصدي لمقاومة قواتها، غير أن تركيا رفضت الطلب الإيطالي الغريب، فاعلنت هذه الحرب على تركيا يوم ٢٩ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩١١، فوطئت قواتها الأرض العربية ـ الإسلامية يوم (٥) تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ووقع عبء الدفاع على عاتق أنور باشا ومصطفى كمال، الذي كسب هنا أول إكليل من أكاليل مجده العسكري.

وعلى الرغم من دعم جماهير العرب المسلمين للقوات التركية، ومشاركتهم لها بحماسة في رفع راية الجهاد. إلا أن القوات الايطالية حققت نجاحاً انتهى بعقد معاهدة «أوشي» سنة ١٩١٢. وتخلت تركيا لإيطاليا عن طرابلس وبنغازي. ولم يحتفظ الخليفة إلا بحق تعيين الموظفين الدينيين في تلك البلاد.

ليس المجال هنا التعرض للاستعمار الايطالي وطرائقه الوحشية في قهر الشعب العربي المسلم في ليبيا، فلذلك مجاله الخاص، وبحثه المستقل، غير أن ما يهم البحث هنا هو الإشارة إلى نقطتين أساسيتين ترتبطان بالاستعمار الإفرنسي للمغرب الإسلامي: اولاهما أن استعمار فرنسا للجزائر هو الذي فتح المجال أمام تطور الهجمة الاستعمارية الصليبية ضد العالم الاسلامي؛ وثانيهما: أن ايطاليا بما عرف عنها من تخاذل وضعف وخور في الحروب قد استأسدت في إبادة الشعب العربي ـ الإسلامي في طرابلس، محاولة التأكيد لمنافسيها الأوروبيين أنها ليست أقل منهم حماسة للحرب الصليبية ضد المسلمين.

لم تتوقف مقاومة المجاهدين في سبيل الله في طرابلس على الرغم من كل الظروف السيئة التي أحاطت بالبلاد، ومارست «زوايا السنوسيين» هنا ما مارسته زوايا الإخوان الرحمانيين وسواهما في الجزائر المجاهدة. وتصدى لقيادة أعمال الجهاد عدد من المشايخ والزعماء، لعل من أبرزهم محمد بن عبد الله (في فزّان) وأحمد الشريف (ومعه قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة) وسالم بن الزنقاني، ورمضان السويحلي زعيم مصراته.

ويحتل بعد ذلك عمر المختار مرتبة الريادة في قيادة الجهاد (في برقة) (من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣١). والذي أرغم الإيطاليين على الدخول معه في مفاوضات سنة ١٩٢٩ فكان في جملة شروطه: «عدم تدخل الحكومة الإيطالية في أمور الدين الإسلامي، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في دوائر ودواوين الادارة الايطالية، والسماح بفتح المدارس الدينية التي تدرس فيها علوم القرآن، والتفسير والحديث والفقه وسائر العلوم. وكذلك إلغاء القانون الذي وضعته إيطاليا والذي ينص على عدم المساواة في الحقوق بين الوطني - الليبي - والايطالي، إلا إذا تجنس الليبي بالجنسية الايطالية». غير أن ايطاليا لم تكن جادة في المفاوضات وكان هدفها كسب الوقت، تماماً كما فعلت فرنسا مع الأمير عبد القادر الجزائري في معاهدة «تافنة» الشهيرة. فتم استئناف الحرب الى أن تم لإيطاليا القضاء على الثورة، وإعدام البطل «عمر المختــار».

المهم في الأمر، هو أن أساليب الإيطاليين ضد الشعب العربي الإسلامي في ليبيا لم تختلف عن نظيرتها من الأساليب الإفرنسية ضد

الشعب الجزائري. ولقد أرادت ايطاليا: «إقامة مملكة لاتينية في ليبيا ـ لإعادتها كما كانت في عهد الرومان ـ ولتأمين استيطان ثلاثة ملايين إيطالي فيها» ومن اجل ذلك: «أقدم الايطاليون على ارتكاب آلاف الافعال الوحشية بدون موجب، سوى الانتقام من المسلمين واستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة».

ولما كانت اراضي الجبل الاخضر من برقة، هي أجود قطعة من بر طرابلس، وفيها المياه الجارية والعيون الصافية والغابات الملتفة والمروج الخصبة، فقد توجهت أنظار الإيطاليين الى استعمارها قبل غيرها. وقاموا بإجلاء القبائل العربية الساكنة في الجبل الأخضر وجواره عن أراضيهم، وجمعوا منهم ثمانين ألف نسمة رجالاً ونساء وأطفالاً، وساقوهم إلى صحراء سرت ـ في الأراضي الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية، وأنزلوهم في معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها بشر، فمات عدد كبير منهم جوعاً وعطشاً، وماتت مواشيهم كلها من فقد الكلأ والماء. وكان أهالي طرابلس وبرقة يزيدون على المليون ونصف المليون قبل الغزو الإيطالي.

ولم تمض فترة طويلة، حتى انخفض هذا العدد الى سبعمائة الف نسمة. وبلغ عدد السكان الذين أعدمهم الايطاليون شنقاً من أهالي طرابلس وبرقة خلال فترة الاحتلال، عشرين ألف نسمة، وكثيراً ما شنقوا أناساً بمجرد إرادة قائد، أو مجرد رغبة ضابط صغير. وقد وقع لهم أنهم شنقوا نساءً جرّدوهن من ثيابهن وأبقوهن عاريات عدة أيام. كما وقع أنهم كانوا يسلكون ستين أو سبعين شخصاً في سلسلة

واحدة، ويحبسونهم على هذه الصورة مدة إلى أن يموتوا.

وجند الإيطاليون من أهالي الجبل الأخضر - برقة - كل الرجال من سن البلوغ إلى الخامسة والأربعين ليحاربوا بهم إخوانهم. ثم عمدوا إلى الأحداث من فوق ٤ سنوات حتى ١٢ سنة، فأخذوهم قهراً من أحضان ابائهم وأمهاتهم، في يوم تشيب من هوله الأطفال ودفعوهم الى ايطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم في النصرانية. واغتصبوا النساء في أعراضهن وقتلوا منهن الكثيرات ممن دافعن عن شرفهن حتى النهاية. وكان نحوٌ من مائتي امرأة من نساء الأشراف، قد فررن الى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالي إلى الكفرة، فأرسلت القيادة الإيطالية قوة في إثرهن لمطاردتهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن الى الكفرة، حيث خلا بهن ضباط الجيش الايطالي واغتصبوهن. وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة، الذين كانت الشمس تقريباً لا ترى وجوههن من الصون والعفاف.

ولما احتج بعض الشيوخ على هتك أعراض السيدات المذكورات، أمر القائد الايطالي بقتلهم. ثم استباح الايطاليون الزاوية السنوسية بالكفرة - المسماة بالتاج - وأراقوا الخمور فيها، وداسوا المصاحف الشريفة بالأقدام. وحملوا الشيخ سعد (شيخ قبيلة الفوائد)، وخمسة عشر رجلاً معه من الشيوخ، وقذفوا بهم من الطائرات على مشهد من أهلهم، حتى إذا وصل أحدهم الى الأرض وتقطع إرباً، صفق الايطاليون طرباً، ونادوا بالعرب قائلين: «ليأتِ محمدٌ هذا نبيكم البدوي الذي أمركم بالجهاد، وينقذكم من أيدينا».

وعندما اجتاحت القوات الايطالية طرابلس، قبضت على الوف من أهلها في بيوتهم، ونفتهم بدون أدنى مسوغ إلى جزر إيطاليا، حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة. وأباد الايطاليون في غير ميدان الحرب، كل عربي يزيد عمره على (١٤) سنة، وأحرقوا يوم ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١١ حيا خلف بنك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والأطفال.

وفي اليوم التالي (يوم ٢٧ تشرين الأول ـ أكتوبر) وصف أحد المراسلين ما وقع عليه بصره بقوله: «صادفت ٥٠ جندياً يقودون ستة من العرب إلى خرابة يستعملها الجنود لقضاء الحاجة، ولما أدخلوهم إليها، اشترك الضباط والجنود في قتلهم بالمسدسات والبنادق، وما كدت أفر من هذا المشهد حتى رأيت ما هو أشدّ هولاً، وهو طائفة من الجنود يسوقون (٥٠) عربياً بين رجال وأطفال، وأدخلوهم إلى مكان قد تهدم، وبدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم وبنادق جنودهم مدة عشرين دقيقة. وكلما سمعوا أنيناً من جثة أعادوا عليها النار حتى انقطع الأنين».

واستمر الجيش الإيطالي ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب. فهلك عدد من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى خلال ثلاثة أيام، أربعة آلاف عربي. ولما كانت (واحة جغبوب) هي مركز السادة السنوسية، فقد حرص الإيطاليون على إبادة رجال الدين فيها ومحو معالم الإسلام. وأصدرت الحكومة الإيطالية أمراً بإقفال جميع الكتاتيب التي تعلم الأطفال أمور دينهم، وتحفّظهم قرآنهم الكريم.

وبهذه الطرائق: «استطاع الإيطاليون تشريد ثلث مليون من السكان، وأبادوا ثلث مليون آخر، وتركوا بعد ذلك للمدارس الإيطالية إكمال المهمة، فلم يتركوا في طول البلاد وعرضها مدرسة غير إيطالية. وضمنت المدارس الإيطالية القضاء على الدين الإسلامي بجعل التعليم فيها إجبارياً. وتكفلت دور الفحش والدعارة بواجب إفساد أخلاق الشبان. وبدؤوا بالتمييز بين العرب والبربر، على أمل تنصير الجنس البربري من اهل طرابلس وبرقة»(١).

وتبقى المنافسة الاستعمارية بين إنكلترا وفرنسا للسيطرة على مصر، هي البداية للصراع على العالم العربي، وقد برزت هذه المنافسة بشكلها الواضح في عهد «محمد علي باشا» وورثته على حكم مصر. حتى اذا ما أمكن توريط هؤلاء الورثة بمشكلات اقتصادية مستعصية على الحل. وجدت أوروبا فرصتها لإحكام قبضتها على مصر، فتم تشكيل لجنة أوروبية لتسوية الديون والحد من سياسة الخديوي توفيق المالية. وكانت هذه «الوصاية المالية» كافية لفرض الهيمنة على الدولة بكاملها.

كانت بريطانيا تتطلع في الواقع منذ عهد بعيد للسيطرة على

---

(١) لمطالعة المزيد عن أعمال الايطاليين خلال فترة الغزو. يمكن الرجوع إلى: حاضر العالم الإسلامي ـ الأمير شكيب ارسلان ٢/٦٤ ـ ١٢٨. وفي الصفحة ٨٤ رسالة للبطل عمر المختار، يشير فيها إلى أن كل ما سبق وصفه ليس إلا قليلاً من كثير. وأن ما ارتكبه الايطاليون بحق الشعب العربي المسلم هو مما يعجز الإنسان عن وصفه او الاحاطة به.

مصر، بحجة تأمين طريق الهند للتجارة، وجاء احتلال فرنسا للمغرب العربي - الإسلامي ليمهد الطريق أمام إنكلترا للسيرنحو قلب العالم العربي الإسلامي. وقد تظاهرت انكلترا في البداية أنها راغبة بمشاركة الدول الأوروبية في الهيمنة على مصر. وقد أدى تدخل «اللجنة الأوروبية» في أمور مصر الداخلية، (كإنقاص عدد أفراد الجيش المصري - بهدف التوفير) إلى ظهور تناقضات حادة، برزت من خلالها الإرادة المصرية - الوطنية في شخص أحمد عرابي، الذي أصبح وزيراً للحربية في شهر شباط - فبراير - سنة ١٨٨٢ م. والذي تولى قيادة الحزب الوطني، والمطالبة بالإصلاحات لمصلحة الفلاحين المصريين ضد أصحاب الاقطاعات الواسعة من ذوي الأصول التركية. ولكن الضباط الأتراك في قيادة الجيش المصري دبروا مؤامرة ضد (الزعيم أحمد عرابي)، انتهت إلى نشوب خلاف بينه وبين الخديوي. وهنا دعا أحمد عرابي مجلس النظار إلى عقد مجلس من الأعيان رغم إرادة الخديوي.

واغتنمت بريطانيا الفرصة لتعلن أن سلامة الأوروبيين في مصر باتت (مهددة بالخطر). وأوعزت الى أسطولها للقيام مع الأسطول الإفرنسي بتظاهرة عسكرية في مياه الاسكندرية. وأسرع - عرابي باشا - الى تحصين الاسكندرية والاستعداد لمجابهة احتمالات العدوان. وفي هذه الفترة استدعت فرنسا أسطولها، وتركت لبريطانيا حرية العمل ضد مصر، فوجهت إنذارها الى أحمد عرابي بايقاف العمل في تحصين الاسكندرية.

وازدادت حدة التوتر في مصر، ووقعت بعض الاعتداءات على

الاوروبيين في ١١ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٨٢، وعندما رفض عرابي الإنذار البريطاني، قامت البوارج الحربية البريطانية بقصف الاسكندرية يوم ١١ تموز ـ يوليو ـ ولم تلبث القوات البريطانية أن وطئت أرض مصر، وانضمت إليها على الفور قوات الخديوي توفيق، الذي كان قد طلب من بريطانيا حمايته. وتوجه أحمد عرابي بقواته إلى التل الكبير لمجابهة القوات (البريطانية ـ الخديوية). ووقعت معركة يوم ١٣ ايلول ـ سبتمبر ـ لم تكن في مصلحة القوات المصرية، رغم ما أظهرته هذه القوات من الاندفاع والحماسة وذلك بسبب عدم التكافؤ في القوى والوسائط التي زجها في المعركة. ولم يمضِ أكثر من يومين، حتى تم اعتقال أحمد عرابي في القاهرة، حيث تم نفيه إلى جزيرة سيلان ليقضي فيها عشرين عاماً تقريباً، وقد تم السماح له بالعودة إلى وطنه سنة ١٩٠١.

قررت معركة «التل الكبير» في الحقيقة، مصير أرض الكنانة ومستقبلها لفترة ثلاثة أرباع القرن تقريباً. فقد فرضت بريطانيا رقابتها على المالية المصرية وقيادة الجيش المصري، وأقامت حاميات بريطانية في مناطق كثيرة، على امتداد قناة السويس ومنطقة البحر الاحمر بصورة خاصة..

ليس هذا فحسب، بل إنها اصطنعت منصب «القنصل العام» الذي يقيم إلى جانب الخديوي؛ ليكون الحاكم الفعلي للبلاد. شأن المقيمين البريطانيين الذين جرت عادتها على تعيينهم مستشارين للحكام الوطنيين في الهند. إذاً فقد أصبح تاريخ مصر ـ طوال هذه المدة ـ مرتبطاً بتاريخ الامبراطورية البريطانية. وتم فصل مصر عن

العالم الإسلامي، وعزلها عنه، مع إفساح المجال أمام الأجانب لاستغلال الموارد الوطنية ـ ومن الامتيازات الضخمة التي اغتصبها الغربيون، توجيه الزراعة لمصلحة الاقتصاد البريطاني، والتحكم فيه، بما يتناقض مع مصلحة الوطنيين المصريين، وتحميل الشعب المصري نفقات الاحتلال البريطاني، ونفقات أجهزة الحكم البريطانية التي امتدت لتشمل كل فروع الدولة. وفرضت بريطانيا ثقافتها على مصر، تماماً على نحو ما فعلته فرنسا في الجزائر، وإيطاليا في ليبيا، ولو أنه كانت هناك ثمة فوارق في الأساليب والطرائق.

ولعل حادثة «دنشواي» في دلتا مصر، والتي قتل فيها انكليزي بضربة شمس. وقيام البريطانيين باستغلال الحادثة لإنزال أشد العقوبات بالفلاحين، وشنق أربعة منهم يوم ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٩٠٦، مع جلد (١٧) مواطناً بالسياط بطريقة وحشية، هي حادثة كافية لتصوير التشابه بين الطرائق الاستعمارية كلها.

أفادت بريطانيا من ظروف الحرب العالمية الأولى، لتنفيذ مخططها في الإجهاز على الدولة العثمانية، بالتعاون مع حلفائها الأوروبيين، ففرضت على مصر نظام الحماية في ٤ آب ـ اغسطس ـ سنة ١٩١٤. وجعلت بريطانيا من مصر وشعبها أداة الهجوم على القوات العثمانية ـ الألمانية، حتى إذا ما انتهت الحرب، انصرفت الإدارة البريطانية في مصر، إلى إدارة البلاد عن طريق استثمار التناقضات بين الأحزاب بعضها ضد بعض أحياناً، وبينها وبين القصر في أحيان أخرى. ورافق ذلك اضطرابات مثيرة، لعل أبرزها تلك التي رافقت اعتقال الزعيم سعد زغلول وثلاثة من إخوانه في ٨ آذار ـ مارس ـ ١٩١٩.

وتبع ذلك محاولات للاتفاق بين القيادات المصرية والسلطات المحتلة، من اجل الحد من نفوذ الاستعمار البريطاني. غير أن بريطانيا كانت تحيط هذه المحاولات، المرة بعد المرة، عن طريق خلق التناقضات الداخلية وتظاهرات القوة.

وكما أخذت فرنسا بالتوسع ـ كبقعة الزيت ـ من الجزائر نحو الشرق ونحو الغرب ونحو الجنوب، (للقضاء على دولة رباح ـ حول بحيرة تشاد وحوض الكونغو). **فقد انطلقت بريطانيا من مصر نحو السودان والصومال.** ولما كانت ثورة المهدي تشكل العقبة الأولى في وجه كل توسع بريطاني (منذ أن أعلن المهدي ثورته في سنة ١٨٨١)؛ فقد أخذ (كتشنر) على عاتقه القضاء على ثورة أتباع المهدي. وهكذا تحرك كتشنر (القائد العام للجيش البريطاني ـ المصري) في خريف سنة ١٨٩٦ ليقود ضد السودانيين معركة أم درمان الشهيرة، والتي قتل فيها الخليفة (عبد الله التعايشي)، كما قضي على الدولة المهدية. غير أن السودانيين استمروا في المقاومة، ولم يتمكن البريطانيون من توطيد نفوذهم قبل سنة ١٩٢٨.

أما في الصومال، فقد تولى محمد بن عبد الله حسن ـ من قبيلة اوغادين ـ مقاومة الإيطاليين والبريطانيين منذ سنة ١٨٩٩، وأمكن له توجيه ضربات موجعة لقوات الدولتين، واستمر في ذلك حتى سنة ١٩٢٠، حيث قررت بريطانيا تصفية مقاومته بصورة نهائية. واستخدمت أسطولها الجوي لتدمير مواقع المسلمين كلها. وفي الوقت ذاته انطلقت القوات البريطانية لمطاردته، وأمكن لها في النهاية قتله يوم ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠.

تجدر الاشارة إلى أن هذه الهجمة الصليبية الشاملة، لم تتوقف عند حدود العالم العربي، وإنما تجاوزته الى أقصى المشرق. وهنا قامت روسيا بدور المنافس للبريطانيين، إذ احتلت قواتهابخارى وسمرقند في سنة ١٨٦٨، ثم ضمت إليها خوارزم سنة ١٨٧٣، كما ضمت اليها خواقند سنة ١٨٧٦ حتى إذا ما أقبلت سنة ١٨٨٤، استولت روسيا على مرو، وبذلك توطد مركزها في المشرق.

ومقابل ذلك قامت بريطانيا باجتياح أفغانستان، واستولت على كابول وقندهار في سنة ١٨٧٨، وعقدت معاهدة مع أفغانستان سنة ١٨٧٩ تنازلت فيها أفغانستان لبريطانيا عن مجازبولان ووادي قرم.

أما بالنسبة لبلاد فارس (إيران)، فقد بقي الصراع الروسي ـ البريطاني مستمراً عليها، حتى سنة ١٩٠٧، حيث أمكن لروسيا ـ بعد هزيمتها في الحرب الروسية ـ اليابانية (١٩٠٤) أن تتفق مع بريطانيا، فحصلت هذه على قاعدة في جنوب فارس تمتد من حدود الأفغان حتى بندر عباس. ومقابل ذلك، حصلت روسيا على الجزء الشمالي من البلاد، والذي يمتد من قصر شيرين ـ شرقاً حتى الحدود الروسية ـ الأفغانية غرباً ويشمل أصفهان ويزدوكاخ. ومع انتقاص العالم الإسلامي من أطرافه، وتمزيقه، بات من السهل على الحملة الصليبية توجيه حرابها إلى قلب العالم الإسلامي (الممثل بالامبراطورية العثمانية) للإجهاز على بقية الروابط التي كانت توحد جهد العالم الإسلامي.

جاءت الحرب العالمية الأولى، بعد ذلك، لتصل بالحملة الصليبية حتى نهايتها. واستطاعت الدولتان الاستعماريتان بريطانيا وفرنسا،

أن تنسقا الجهد فيما بينهما لتمزيق بقايا العالم الإسلامي في إطار معاهدة سايكس ـ بيكو الشهيرة، وفي إطار إقامة كيان صهيوني في فلسطين (وفقاً لما تضمنه تصريح بلفور في ٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩١٧). وأكد ذلك أن الحلفاء قد انتهوا إلى قرارات مختلفة جداً عن نص البيان الإفرنسي البريطاني، الذي أعلن بعد هدنة مودرس في ٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩١٨ وفيه: «أن هدف الدولتين هو تحرير الشعوب الخاضعة للنير العثماني، وأنهما مستعدتان لإقامة حكومات مستقلة في سوريا والعراق تكفل للقطرين تطوراً سياسياً حراً».

وظهرت النوايا الحقيقية للدولتين الاستعماريتين الكبيرتين (فرنسا وبريطانيا) من خلال البيانات التي أذاعتها روسيا في اعقاب قيام الثورة الشيوعية، وكذلك من خلال التناقضات في تصريحات رجال السياسة في الدولتين الاستعماريتين.

ولقد أدركت فرنسا بأن الفرصة باتت مناسبة لها لاستثمار ما بذلته من جهد، طوال قرون عديدة، من حق حماية النصارى في بلاد الإسلام، ومن خلال نشر الثقافة الافرنسية في بلاد الشام. كما أن بريطانيا وجدت أخيراً الفرصة مناسبة لتنفيذ مخططاتها في التوسع واكتساب قواعد جديدة.

ولقد حاول الزعماء العرب بقيادة الشريف فيصل حمل قيادات الحلفاء على الوفاء بالتزاماتهم تجاه العرب، غير أن هذه الجهود باءت بالفشل، وعقد مؤتمر سان ريمو في ٢٥ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٢٠ فتقرر

وضع سوريا كلها تحت الانتداب الافرنسي، ولم تكن هذه التسمية سوى الغطاء الرسمي لإخفاء بشاعة الاستعمار وسوءاته، وهو ما أكده وزير الخارجية البريطاني - اللورد كرزون - في خطابه أمام مجلس اللوردات، يوم ٢٥ حزيران - يونيو - سنة ١٩٢٠، حيث أعلن: **«بأن انتدابات جمعية الأمم ليست إلا حديث خرافة، ذلك لأنها الوسيلة لتوزيع البلاد المفتوحة بين المنتصرين»**[١].

ومضت فرنسا لتنفيذ مخطط «الانتداب»، فوجهت إنذاراً إلى الملك فيصل[٢] في ١٤ تموز - يوليو - سنة ١٩٢٠ للاعتراف بالانتداب الافرنسي على الساحل. ورفض الملك فيصل الإنذار، فاحتلت القوات الإفرنسية حلب يوم ٢٣ تموز - يوليو - وأعقبها احتلال دمشق (بعد معركة ميسلون التي انتصر فيها الجنرال غورو على جيش يوسف العظمة الحديث التكوين). ودخلت القوات الافرنسية دمشق يوم ٢٥ تموز - يوليو.

ولم تلبث فرنسا أن قسمت سوريا إلى أربع دول؛ هي أ - لبنان الكبير. ب - دمشق. ج - حلب. د - دولة العلويين (وهي منطقة النصيرية الواقعة شمالي لبنان بين العاصي والبحر المتوسط). ليس هذا فحسب، بل لقد ضمت بيروت وطرابلس والبقاع إلى دولة لبنان الكبير. وهكذا، وبينما كان في لبنان قبل ذلك (٢٠٠) ألف ماروني موالين لفرنسا، شكلت فرنسا كياناً يضم الأقليات

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان - ص ٧٦٢

(٢) كان الشعب السوري قد بايع الأمير فيصل بن الشريف حسين ملكاً على سوريا في ٨ آذار - مارس - ١٩٢٠.

ومنهم(١٣٥) ألفاً من النصارى المنتمين إلى مختلف الطوائف ، و(٣٠)الف أرمني ،و (٢٠) الفاً من الأجانب، و (٤٤) ألف درزي و (١٠٥) آلاف من الشيعة. وثارت سوريا لهذا التقطيع في أوصالها، فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت في سنة ١٩٢٢ تشكيل دولة اتحادية سورية تضم دول دمشق وحلب والعلويين. وبدأت فرنسا بتنفيذ مخططاتها لتدمير قواعد الصمود والأصالة في المجتمع السوري الإسلامي ـ مما أدى الى الثورات المستمرة.

وتم انتداب فلسطين من قبل بريطانيا في ٢٤ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٩٢٢ (بموجب اتفاق سان ريمو ايضاً). وتم تعيين مندوب سامي بريطاني ـ يهودي ـ أطلقت يده في تقسيم البلاد الى مقاطعات إدارية، مع منحه السلطات المطلقة لتوزيع الأراضي العامة ـ أملاك الدولة ـ واستثمار الموارد المعدنية والثروات الطبيعية للبلاد، وكذلك تعيين الموظفين وعزلهم. واعتبرت الانكليزية والعبرية والعربيةلغات رسمية متساوية. وانطلق اليهود تحت حماية المندوب السامي «هربرت صموئيل» لتنفيذ المخطط الصهيوني، وإقامة المستوطنات، والهيمنة على الصناعات والتجارة في المدن الكبرى. وأدى تعاظم نفوذ اليهود الى انتشار الغضب في أوساط المسلمين الذين وجدوا أنفسهم وقد تحولوا في بلادهم إلى كتلة مهملة ومهددة باستمرار في حاضرها ومستقبلها؛ الأمر الذي أدى إلى ثورة سنة ١٩٣٦ الكبرى والتي لم تتوقف إلا باندلاع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م.

وعملت بريطانيا في الوقت ذاته على تقسيم جنوب بلاد الشام إلى

قسمين، فلسطين وشرقي الأردن. وأعلنت قيام إمارة أردنية مستقلة في منطقة شرقي الاردن ولم تلبث أن تحولت الإمارة إلى مملكة حملت اسم «المملكة الاردنية الهاشمية».

وأصبح العراق بدوره تحت سلطة الحماية البريطانية ـ منذ هدنة مودرس ـ وأخذت بريطانيا على عاتقها فرض هيمنتها على العراق، وذلك وفقاً لمضمون التصريح البريطاني ـ الافرنسي الصادر في آذار ـ مارس ـ سنة ١٩١٨. غير أن العراق تصدى لمقاومة المخططات البريطانية، وانتقلت المقاومة من مجال الصراع السياسي الى مجال الصراع المسلح. مما أدى ببريطانيا إلى القيام بمحاولة إحكام سيطرتها، وانتهى الأمر بثورة شبه عامة في ٣٠ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٩٢٠ م ضد التدخل البريطاني في الشؤون الداخلية للعراق. وقامت بريطانيا بقمع الثورة بصورة وحشية في ربيع سنة ١٩٢١. لكنها أدركت بأنه المحال عليها حكم العراق مباشرة، فقررت إقامة نظام ملكي.

وفي الوقت ذاته كانت الحركات الوطنية في العراق تطالب الملك فيصل الذي أخرجته فرنسا من سوريا، أن يتولى عرش العراق. ووطىء فيصل البصرة في ٢٣ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٩٢١. واستقبلته بغداد استقبالاً حماسياً. وجرى استفتاء أعلن على أثره السير «برسي كوكس» المندوب السامي البريطاني، تنصيب الأمير فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ آب ـ اغسطس ـ سنة ١٩٢١ م. غير أن الصراع ضد بريطانيا ـ وانتدابها ـ لم يتوقف.

بدأ بعد ذلك الهجوم على قلب الامبراطورية العثمانية التي رفعت

راية الإسلام طوال قرون عديدة. وكانت تركيا قد خسرت البلقان خلال الحرب العالمية الأولى، وانتهى بها الأمر الى الخروج من الحرب (بعد اقتطاع البلاد العربية منها) وذلك في ٣٠ تشرين، الاول- اكتوبر- ١٩١٨م وذلك بموجب هدنة مودرس وبدأ الحلفاء في دفع قواتهم لاجتياح تركيا، فقامت اليونان باحتلال أزمير في ١٥ أيار- مايو- ١٩١٩ بعد أن شجعتها بريطانيا على ذلك.

وعاشت تركيا فترة من الاضطراب في الحكم، فقام الحلفاء بالتمهيد لقيام مصطفى كمال، بأن قاموا باعتقال مناوئيه وخصومه وتشريدهم؛ كما قام اليونانيون بمذابح وفظائع وحشية في مدينة أزمير لم يسمع بمثلها. وانطلق مصطفى كمال لتنفيذ دوره. فأسس جمعية وطنية في الأناضول واستثار حماسة الأتراك للدفاع عن بلادهم. وأمكن له تحقيق انتصار على اليونانيين في سقارية، ثم عقد مع فرنسا معاهدة حصلت فيها فرنسا على امتياز استثمار مناجم الحديد والكروم والفضة في وادي نهر خرشوط الذي يصب في البحر الأسود. كما عقد معاهدة مع روسيا تنازل فيها عن «باطوم» التي ضمت إلى جمهورية جورجيا السوفييتية.

في ٢٩ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٩٢٣، أعلن انتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية، وفي ٣ آذار - مارس - سنة ١٩٢٤، ألغيت الخلافة من تركيا. وقام أتاتورك (مصطفى كمال) باستثارة مراكز القوى الدينية، وعمل على تدميرها، وانتقل بعد ذلك إلى إلغاء وزارة الأوقاف في ٢ آذار - مارس - سنة ١٩٢٤ وعهد في

شؤونها إلى وزارة المعارف. وذهب أتاتورك إلى ما هو أبعد من ذلك فحدد عدد المساجد، ولم يسمح بغير مسجد في كل دائرة يبلغ محيطها خمسمائة متر. كذلك خفض عدد الأئمة الى ثلاثمائة شيخ فقط. وفرض عليهم أن لا يقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية، بل أن يتعرضوا للمشكلات الزراعية. وأوصدت أبواب عدد من الجوامع أشهرها جامع أيا صوفيا الذي حول إلى متحف، ومسجد السلطان محمد الفاتح الذي حول إلى مستودع وعمل أتاتورك بعدئذ على إلغاء الأحرف العربية واستبدالها بأحرف لاتينية في ٢٨ آذار ـ مارس سنة ١٩٢٨. وأمكن بذلك القضاء على تركيا الإسلامية، والسير بها نحو الغرب. وتبع ذلك استبدال القوانين الإسلامية بقوانين أوروبية ـ وانتهت بذلك وحدة العالم الإسلامي.

٢ ـ الهجوم الاستعماري الاستيطاني على الجزائر

فتحت فرنسا أبواب الجزائر أمام المهاجرين الفرنسيين والاوروبيين على السواء. فكان عدد المهاجرين الافرنسيين في البداية أقل من عدد المهاجرين الأوروبيين، وفي سنة ١٨٣٩ بلغ عدد المهاجرين إلى الجزائر (٢٥) ألف أوروبي من أصلهم (١١) ألف فرنسي. وفي العام ١٨٤٧ بلغ عدد الإفرنسيين (٤٨) ألفاً من أصل (١١٠) آلاف مهاجر أوروبي، بينهم (٣٢) ألف اسباني و(٨ـ ٩) آلاف من الإيطاليين والألمان والمالطيين والسويسريين. وبلغ عدد الافرنسيين في العام (١٨٦٠) مائة وعشرون ألفاً من مجموع مائتي ألف. وارتفع هذا الرقم في العام ١٨٧١ إلى (١٣٠) ألف فرنسي مقابل (١١٥) ألف أوروبي. وتعادل الرقمان تقريباً في العام ١٨٧٦.

وفي العام ١٨٨٩ صدر قانون بمنح الجنسية الافرنسية بصورة آلية لجميع الأفراد الذين ولدوا في الجزائر من أبوين أجنبيين، وتفوق الافرنسيون في الجزائر على غيرهم من الأوروبيين في عددهم لأول مرة. وتابع الافرنسيون بعد ذلك تطوير الهجرة إلى الجزائر، بينما

هبطت نسبة المهاجرين من الجنسيات الأخرى إلى حد كبير بعد العام ١٨٩٥. وتوقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم استؤنفت بعد ذلك، غير أن نوعية المهاجرين تبدلت. فلم يعد المزارعون هم الذين يهتمون بالهجرة إلى الجزائر، بل اقتصرت الهجرة على العمال والتجار ورجال الأعمال وموظفي الحكومة وعمالها. وتعود هذه الظاهـرة إلى مكننة الزراعة من جهة (إدخال الزراعة الآلية) وإلى تناقص مساحات الأراضي الصالحة للزراعة من ناحية أخرى.

يبرز العرض السريع السابق أن الجزائر تعرضت لهجمة استيطانية واسعة في أعقاب القضاء على ثورة الحداد والمقراني (ثورة ١٨٧١)؛ ويعود سبب ذلك إلى هجرة الافرنسيين من مقاطعتي الألزاس واللورين اللتين احتلتهما بروسيا سنة ١٨٧٠، كما أن الآفة الزراعية التي لحقت بالكثير من كروم العنب في فرنسا عام ١٨٧٨، دفعت عدداً من صانعي الخمور إلى الجزائر. المهم في الأمر هو أن هذه الهجرة أدّت إلى مجموعة من الظواهر، أو العوامل، التي رسمت أبعادها على صفحة الجزائر وعلى مستقبلها. وهذه الظواهر هي: أ ـ النزعات الاستقلالية للمستوطنين ـ المهاجرين. ب ـ التكون النفسي الخاص بالمستوطنين. ج ـ موقف الجزائريين من الهجرة.

أ ـ النزعات الاستقلالية للمهاجرين (المستوطنين): أظهر المستوطنون الأوروبيون في الجزائر جنوحاً نحو الاستقلال بأمور الجزائر وإدارتها منذ البداية، وكان هذا الجنوح عاملاً أساسياً في جملة عوامل اضطراب الإدارة الافرنسية في الجزائر، وتأرجح هذه الادارة بين المدنيين والعسكريين، حتى إذا ما سقطت امبراطورية نابليون

الثالث إثر الحرب البروسية ـ الافرنسية، ظن المستوطنون أن الفرصة باتت مناسبة لهم للاستقلال بأمور الجزائر، فقاموا بمهاجمة المراكز العسكرية الافرنسية، وأنزلوا الإهانات بالعسكريين، وأقاموا لجان الدفاع والأمن العام. وقاموا في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٨٧٠ بضرب الحاكم العام العجوز «الجنرال إيستر هازي» وطردوه من مقره.

في هذه الفترة من ظهور الروح الانفصالية للمرة الأولى عند المستوطنين، جرت اتصالات مع «غاريبالدي» في إيطاليا، ومملكة إنكلترا، ولكن الحكومة الافرنسية المؤقتة سرعان ما استعادت سيطرتها على الجزائر. وأخذ المستوطنون بعد ذلك في استخدام قوتهم الاقتصادية الجديدة لممارسة الضغوط السياسية ضد الحكومة الإفرنسية، ولتطبيق السياسة المناسبة لهم. وعندما حاولت فرنسا تطبيق سياسة الدمج بهدف معاملة الجزائر كأي مقاطعة إفرنسية أخرى، انبرى المستوطنون لمقاومة هذه السياسة وإحباطها. وظهر خلاف حاد بين المستوطنين وبين الحكومة الافرنسية ـ في باريس ـ في عهد الجمهورية الثالثة بسبب التناقض في وجهات النظر تجاه القضايا الاقتصادية، ومشاريع الاستثمار ونفقات الإدارة في الجزائر، وبسبب التناقض أيضاً بشأن الدور المقبل للجزائريين في بلادهم.

وكان معظم المستوطنين يعتقدون بوجوب إبادة الجزائريين وإفنائهم، بينما كان الليبراليون في فرنسا يعتبرون أن من الواجب تدريب الجزائريين على الأعمال الرخيصة. وهو ما تبرزه مقولة

«جوليوس فيري»[1] رئيس الوزراء الافرنسي سنة ١٨٩٢ حيث كتب ما يلي:

«قمنا بدراسة نفسية المستوطن دراسة دقيقة ووثائقية، فوجدنا أنه إنسان محدود الأفق للغاية. ومن المؤكد أن الكفاءة العقلية ليست هي السبب في ظاهرة تحكم المستوطن في مصير أهل البلاد. غير أن هذا المستوطن ليس مجرداً من الفضائل، ففيه تتجسد كل صفات العامل المجدّ، والإنسان الوطني، ولكنه لا يملك ما يمكن للإنسان أن يسمّيه «بفضيلة الفاتح» وهي التي تتمثل في إنصاف الروح والقلب، وفي الإحساس بإنصاف الضعيف، وإحقاق الحق بما لا يتعارض مطلقاً مع صلابة الحكم والإدارة. ومن الصعب على المستوطن الأوروبي أن يفهم بأن ثمة حقوقاً أخرى غير حقوقه في البلاد العربية- الإسلامية.. وأن أبناء هذه البلاد ليسوا شعباً خلق للعبودية، أو للتكبيل بالأصفاد وفقاً لرغباته. ويعلن المستوطنون أن الشعب الخاضع للاستعمار هو شعب غير قادر على تحسين أوضاعه، أو على تقبل العلم، دون أن يبذل هؤلاء المستوطنون أي جهد أو محاولة لرفع مستواه العقلي والأدبي من الحالة البائسة التي يعيشها. وليس من شك في أن نيتنا لا تتجه إلى إبادة أهل البلاد، ولا القذف بهم إلى ما وراء الصحراء، ولكن

---

(١) جوليوس فيري: (FERRY - JULES) رجل دولة فرنسي، من مواليد سان دييه (١٨٣٢- ١٨٩٢) اشتهر بأنه من غلاة الاستعماريين ومتطرفيهم، وقد أسهم بدور كبير في وضع الأسس الأولى لإدارة المستعمرات، كما مارس دوراً هاماً في التوسع الاستعماري الافرنسي بالاستيلاء على تونس وطونكين (الهند الصينية) والكونغو.

ليس ثمة فائدة في الاستماع إلى شكاواهم، ولا الاهتمام تكاثرهم، وهو تكاثر يزداد بصورة مضطردة مع فقرهم».

وهذا ما عاد الجنرال كاترو فأكده بقوله:

« يعيش المستوطنون أكثر من غيرهم من الناس تحت سيطرة غرائزهم، أكثر مما يعيشون وفقاً لمتطلبات العقل ومعطيات المثل العليا. وقد ظلّوا عن طريق الوراثة الرجعية، على النحو الذي كان عليه آباؤهم عندما ذهبوا إلى أفريقيا لاستيطانها، وهم يشكلون الرواد الأوائل، حاملين معهم طبيعتهم الميالة إلى العمل وإلى العزلة، فنفذوا بحماسة رائعة ونجاح منقطع النظير مشاريع تحمل طبيعتهم الفردية ومصلحتهم الشخصية. وهم على ضوء هذا يمثلون مجموعة من الأفراد، أكثر من تمثيلهم لجماعة محددة تقوم على مجموعة من الأسس والتقاليد. وهم لا يتنادون إلى التجمع والعمل المشترك إلا دفاعاً عن مصالحهم. ولكن هذه المصالح، التي هي في حد ذاتها مصالح طبقية، لا تكون دائمًا منسجمة مع مصالح فرنسا. ويفتقر هؤلاء الرجال، على الرغم من حسن نيتهم، إلى الفضائل الخلقية الروحية، والتقليل من المفاهيم المادية والأنانية الشديدة الغرور تجاه علاقاتهم مع أهل البلاد. وهم- أي المستوطنون- يفتقرون أيضاً إلى خميرة كريمة وأصيلة من الثقافة غير المتحيزة، وإلى تذوق الأفكار، ويتضخم هذا الافتقار مع مرور السنين، ومع ازدياد الثروة»[1].

---

(١) الجزائر الثائرة (جوان غيلسبي) ص ١٨- ٢٤.

المهم في الأمر هو أن امتلاك المستوطنين للثروة قد مكنهم من فرض إرادتهم على الحكم الإفرنسي في باريس، وقد اعترف رئيس الوزراء الافرنسي «جوليوس فيري» بفشل سياسة «الدمج» في سنة ١٨٩٤ ،فتم تشكيل مجلس أعلى للجزائر، يضم ستين عضواً بينهم سبعة عشر فقط من الجزائريين.

وخففت فرنسا في العام ١٨٩٦ من ارتباطاتها بالجزائر، وأصبح من حق الجزائر- جزائر المستوطنين - في سنة ١٩٠٠ أن تشرف على شؤونها المالية، ونص قانون صدر في العام ١٨٩٨ على تكوين هيئات مالية جزائرية تضم (٢٤) عضواً من الجزائريين و(٤٨) عضواً من المستوطنين - وكانت هذه الهيئات المالية هي التي تقترح الموازنة الجزائرية التي أطلق عليها اسم «باستيل المستوطنين» وظلت تسيطر على البلاد من العام ١٨٩٨ إلى العام ١٩٤٥. وكان المستوطنون والجزائريون من أعضاء هذه الهيئات المالية يمثلون المصالح الضخمة لأصحاب الأملاك. ولم يكن المستوطنون يبدون أي اهتمام بمصالح الجزائريين ورفاهيتهم وكانوا يعزون مشاعر القلق عند الجزائريين إلى التأثيرات الخارجية.

لقد حارب عدد كبير من أبناء الجزائر (ومن أبناء المغرب العربي الإسلامي عامة) تحت العلم الإفرنسي وللدفاع عن «شرف فرنسا» غير أن تضحياتهم قوبلت بالجحود والانكار من قبل المستوطنين، فقد تصدى هؤلاء لمقاومة كل إصلاح أرادته الحكومة الافرنسية، لا من أجل مصلحة الجزائريين وإنما من أجل مصلحة فرنسا بالدرجة

الأولى. وهكذا فعندما طرح (كليمنصو)[1] بعض الاقتراحات التي زعم أنها إصلاحية، جابهه المستوطنون بما يشبه الثورة، وهددوا بالانفصال، على نحو ما كانوا قد فعلوه سنة ١٨٧١، ووجهوا حملة من الاحتجاجات والعرائض والضغط من قبل النواب الذين يمولهم المستوطنون. وهكذا وجد المحاربون الجزائريون أنفسهم أمام موقف عسير في وطنهم ففضلوا الهجرة الى فرنسا على البقاء في وطنهم.

لقد أطلق الافرنسيون على العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين لقب «أيام زهو المستوطنين في الجزائر» هذا على الرغم مما تعرضت له الجزائر في هذه المدة من النكسات الاقتصادية التي دفع الجزائريون ثمنها لحساب المستوطنين، ومنها على سبيل المثال «أزمة الخمور» التي وقعت في فرنسا مع مطلع الثلاثينات، وأدّت إلى قيام أصحاب صناعة الخمور فيها بالمطالبة بتخفيض مستوردات الخمور من الجزائر. وعلى أثر تهديد المستوطنين بالانفصال ومقاطعة المنتجات الإفرنسية، مما أرغم حكومة «باريس» على إلغاء التعرفة الجمركية العالية التي كانت تعتزم فرضها على خمور الجزائر، ويكفي هنا القول: «أن الجزائر البلد المسلم بات بفضل الحضارة الافرنسية مصدراً للخمور. وقد كان التوسع في هذه الزراعة على حساب

---

(١) كليمنصو- جورج (CLEMENCEAU - GEORGES) رجل دولة وسياسي إفرنسي من مواليد موبرون - آن باريد (MOUILLERON. EN . PAREDS) (١٨٤١- ١٩٢٩) شغل منصب وزير للحربية، ورئيس مجلس النواب سنة ١٩١٧، وكان له دور كبير في مباحثات الصلح التي أعقبت الحرب، ووضع معاهدة فرساي (١٩١٩). ويعتبر كليمنصو من كبار الاستعماريين، وغلاتهم.

زراعة المواد الغذائية الأخرى التي يعيش عليها، ويقتات من خيرها شعب الجزائر».

ب- التكوين النفسي الخاص بالمستوطنين: تضمنت الفقرة السابقة بعضاً من الشواهد التي تبرز التكوين النفسي الخاص بالمستوطنين في الجزائر، وفي الحقيقة فإن هذا التكوين ليس خاصاً، وإنما ينطبق تماماً على كل الهجرات الاستيطانية التي رافقت أعمال الاستعمار. فشعور المستوطن بقوة دولته، وما يشهده من أعمال إجرامية وفظائع لإخماد ثورات المواطنين ومقاومتهم للاستعمار، ثم ما تزعمه الدول الاستعمارية من ممارستها للاستعمار بهدف «القيام بدور حضاري ناجم عن تفوق الإنسان الأوروبي- تفوق الرجل الأبيض» وتغطية ذلك بغطاء ميثولوجي- ديني- في إطار حرب صليبية، كل ذلك مما يجعل المستوطن إنساناً عنصرياً، وفردياً ومميزاً بقسوته الوحشية على أبناء البلاد الخاضعة للاستعمار.

وهنا لا يمكن في الحقيقة المساواة في نظرة المستوطنين إلى أبناء البلاد الأصليين، إذ أن آراء عضو مجلس الشيوخ (هنري بورغو- الذي كان يلقب بملك الخمور في الجزائر، بسبب كثرة ما يملكه من كروم العنب في البلاد) أو جورج بلاشيت (الذي كان يلقب بملك الحلفاء- بسبب تملكه لمئات الأفدنة من الأرض التي تزرع فيها نباتات الحلفاء اللازمة لصناعة الورق المصقول) هي آراء تختلف كل الاختلاف عن آراء زارع الشاي ذو الأصل الإسباني، أو حتى الموظف الافرنسي الأصل الذي يعمل في دائرة الحاكم العام في

الجزائر. ومع ذلك، يبدو أن المستوطنين يتحدون في اتخاذ مواقف مشتركة، إذ أن المستوطن الثري يفرض رأيه إلى حد ما على «المستوطن الصغير» الذي لا يشاركه في مصالحه.

لقد كتب أحد الإفرنسيين الليبراليين في موضوع المستوطنين ما يلي: «يشترك هؤلاء المستوطنون الافرنسيون في الجزائر مع الجنوبيين في الولايات المتحدة في أكثر من صفة واحدة. ولعل في طليعة هذه الصفات: الشجاعة والديناميكية- الحركة المستمرة- وضيق الأفق، والاعتقاد المتأصل في نفوسهم بأنهم خلقوا ليكونوا سادة. وليكون غيرهم عبيداً، وأن أية محاولة لتبديل هذه الفروق هي عملية تستهدف نشر الفوضى، وصحيح من وجهة نظرهم، بأنه يجب العطف على الخدم، ولكن بشرط أن يظهر هؤلاء الرغبة للبقاء دائماً في طبقة الخدم».

هذا فيما كتب كاتب آخر:

«تكون البلاد ملكاً للناس الذين يعرفون كيف يستثمرونها، وكيف ينهضون بأهلها، ويقيمون لهم المؤسسات، ويوطدون لمصلحتهم دعائم الحياة الثقافية والمادية. ويجب أن يفهم كل فرنسي، أن هذا الكفاح الذي يخوضه إخوانه في الجزائر، إنما هو كفاح هدفه الدفاع عن الوطن الأب المشترك، وحماية الحضارة المسيحية، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من شمول ومن عمق في المضمون، على تربة أفريقيا. ولقد كانت فكرة الحضارة المسيحية هي سبب وجود فرنسا والحافز لعظمتها، ولهذا فإن إضعاف هذه الفكرة عن طريق الخطر الكبير الذي تتعرض له فرنسا في الجزائر

سيعرض فرنسا ذاتها لخطر الزوال»[1] .

تبرز المقولات والشواهد السابقة تلك المواقف المشتركة التي كونها النظام الاستعماري ذاته. فالمستوطن، مثله كمثل أي إنسان آخر، يتشكل ويتكيف ضمن إطار المجتمع الذي يعيشه، ومن هذا المجتمع يستمد قيمه وأفكاره. ولقد أفسد النظام الاستعماري التكوين النفسي للمستوطنين، وبات لزاماً عليه تحمل تبعات ما أفسده. ومن غير الصحيح إلقاء التبعات على المواطنين- أو المستوطنين الذين وجدوا أنفسهم، بحكم السياسة الاستعمارية، وهم في وسط معادٍ لهم في مجموعه، مناوىء لثقافتهم، إدراكاً من هذا الوسط بأن تراثه وثقافته ومذهبه الديني، هي بمجموعها القاعدة الصلبة لمجابهة ما يتعرض له.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد وجد المستوطنون أن الحلول الديموقراطية للمشكلات الجزائرية الوطنية، وتحقيق الانفتاح على المواطنين الأصليين، سيفسد عليهم متعة الامتيازات التي يمارسونها ويستثمرونها. ومن هنا برز الجدار الفاصل، ونشأت الهوة العميقة بين المستوطنين الأوروبيين من جهة، وبين المواطنين الجزائريين من جهة أخرى. وكان لا بد لهذا الحاجز الفاصل من أن يتزايد تعاظمًا مع الأيام، بتأثير الأخطاء المتراكمة، مما خلق الوضع المتفجر بصورة دائمة فوق أرض الجزائر.

---

(١) الجزائر الثائرة (جوان غيلسبي) ص ٢٤- ٢٦.

ج- موقف الجزائريين من الهجرة : جابه الجزائريون جحافل الغزو الافرنسي بالمقاومة الضارية منذ بداية الاحتلال الأجنبي وظل رجال القبائل يقاومون بعنف توسع الافرنسيين طوال الفترة من عام ١٨٣٠ وحتى عام ١٨٧١ . واستخدم الجيش الإفرنسي أشد الوسائل وحشية في حملاته المتطاولة لإخماد جذوة الجهاد المتألقة أبداً فوق ثرى جزائر الأحرار.

ولم تكن مقاومة الجزائريين قائمة فقط بسبب تحريض القيادات المؤمنة، بداية من الأمير عبد القادر وأحمد باي قسنطينة والإخوان الرحمانيين والشيخ الحداد والمقرانيين وسواهم، كما لم تكن هذه المقاومة نتيجة سخط الشعب على وحشية الافرنسيين ووسائلهم البربرية. وإنما كانت مرتكزة أيضاً، ولعل هذا هو المهم، على تعلّق الجزائريين بدينهم الإسلامي وتمسّكهم بأرضهم الطيبة الطهور.

لقد قامت القوات الإفرنسية بتدمير أراضي الجزائريين تدميراً شاملاً ثم أدى اغتصابهم لها فيما بعد إلى تمزيق الروابط الأساسية للمجتمع الريفي. وصدر مرسوم في العام ١٨٤٠ يقضي بمصادرة أملاك الجزائريين الذين امتشقوا الحسام ضد الإفرنسيين ، والاستيلاء على أراضيهم. وفي سنة ١٨٤٣م، صدر مرسوم آخر يقضي بمصادرة أراضي «الداي التركي» وأراضي الوقف الإسلامي (الحبوس) التي ينفق ريعها على المساجد وغيرها من شؤون المسلمين ؛ فأتاح هذا المرسوم للافرنسيين فرصة السيطرة على شؤون المسلمين. وفي عامي ١٨٤٤ و١٨٤٦ صدرت مراسيم اشتراعية تسمح بمصادرة الأراضي التي لم يكن لأحد فيها حقوق مشروعة- من وجهة نظر القوانين الاستعمارية الافرنسية-.

واستمرت الإدارة الافرنسية في إصدار مراسيم المصادرة للأراضي الجزائرية، مغتنمة كل فرصة مناسبة لإحكام سيطرتها على البلاد. وكان فشل ثورة الإخوان الرحمانيين (ثورة المقراني والحداد ١٨٧١) فرصة مناسبة للافرنسيين من أجل اغتصاب عدة ملايين أخرى من الأفدنة، مما انزل ضربة أخرى بالمجتمع الريفي الجزائري.

وأدّى هذا العمل إلى إفقار الكثيرين من رجال القبائل الذين كانوا من أشد الناقمين على فرنسا. ودفع بهم إلى الهجرة، والانتشار في كل أنحاء الجزائر بحثاً عن العمل. وصدر قانون إفرنسي في العام ١٨٧٣ سمح ببيع أراضي القبائل أو أراضي الوقف. وكانت الأرض إذا بيعت، انتقلت إلى الخضوع لقوانين الأراضي الافرنسية، وأصبح من المحال إعادتها إلى القوانين الجزائرية الإسلامية، حتى لو كان من ابتاعها جزائرياً. وأدّت الفوارق بين قوانين تملّك الأراضي الافرنسية والإسلامية إلى بقاء هذه المشكلة حتى في القرن العشرين سبباً من أسباب نقمة الجزائريين وسخطهم، لا سيما وأن هذه القوانين في جملتها فرضت على رجال القبائل الإقامة في مناطق معينة، وقيدت حركتهم وحركة قطعان مواشيهم عبر المنتجعات ومناطق الرعي الخصبة التي كانت لهم من قبل. كما أدّت عمليات الاغتصاب المتعددة، إلى تراجع الجزائريين عن المناطق الساحلية التي تضم الأراضي الخصبة، وانسحابهم نحو الداخل حيث الأراضي الجبلية المقفرة، والتي تصعب زراعتها.

وهكذا تمزقت الطبقة المتوسطة الجزائرية وضعفت، وعلى سبيل المثال، فقد كان عدد سكان الجزائر يقدرون تقريباً بـ(٧٥) ألفاً قبل

اجتياح فرنسا للجزائر، وهبط هذا العدد مع بداية الاحتلال إلى (٦٠) ألفاً، ثم إلى (٢٥) ألف جزائري فقط. ومرّت مدن بليدة وميدية والمعسكر وتلمسان وعنابة وقسنطينة وغيرها، بفترات من الحصاروالمذابح،وفـــر الكـثيرون من أبناء المدن إلى الأرياف. واستمرت الهجرات على نطاق واسع أيضاً إلى بلاد الشام، طوال القرن التاسع عشر، احتجاجاً على الاجراءات الإفرنسية.

غير أن مدينة «قسنطينة» انفردت عن سواها من مدن الجزائر، بأنها استطاعت استعادة مكانتها بسرعة، فأصبحت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مركزاً سياسياً ودينياً لمقاومة المخططات الاستعمارية الافرنسية. وقد تم لها ذلك بفضل الطبقة المتوسطة ذات الجذور العريقة والتقاليد الراسخة والثقافة الدينية الرفيعة. علاوة على ما يتوافر لهذه المدينة من انفتاح على داخل البلاد، ووجود فئة متعلمة لها قدرة قيادية. وقد تمكنت هذه الطبقة المثقفة المختارة - بمعونة باي قسنطينة،من تجنّب الدمار الذي ألحقه الافرنسيون بالمدن الجزائرية الأخرى، ولم يعد من الغريب والحالة هذه أن تكون هذه المدينة مهداً لظهور عدد كبير من قادة الثورة الجزائرية وزعمائها في وقت لاحق.

على كل حال، أدّى نجاح الافرنسيين في القضاء على ثورة القبائل (سنة ١٨٧١) إلى نهاية فترة من الوطنية الريفية، وبداية فترة أخرى من جهود أهل المدن، يقودهم سكان قسنطينة، للحصول على بعض حقوقهم بوسـائل الصـراع السلمي. وظلت الطبقـة المختارة متماسكة، متلاحمة، في مدينة قسنطينة، لتأخذ على عاتقها قيادة

الجهاد الديني والصراع السياسي. وهكذا كمنت المعارضة للحكم الافرنسي في تعابير دينية.

وأثناء ذلك، كان المستوطنون قد حصلوا بين عام ١٨٩٦ وعام ١٩٠٠ على درجة لا بأس بها من الحكم الذاتي. فجعلوا من الجزائر وحدة إدارية مستقلة عن المقاطعات الافرنسية ذاتها. واعتباراً من هذا التاريخ، أخذ الجدال في الاحتدام حول وضع الجزائريين في بلادهم، حيث لا يتساوى الفريقان في نفس الحقوق الافرنسية. وتقرر أن يكون للجزائريين نسبة الثلث في التمثيل في اللجان المالية. ومع ذلك لم يعين إلا جزائريان في الفترة الأولى، وهما ينتسبان إلى الطبقة الثرية من أصحاب الأراضي. وعين في العام ١٩٢٢ واحد وعشرون جزائرياً في هذه اللجان[1] وكانت نسبة الأقلية التي أعطيت للجزائريين في هذه اللجان سبباً في بقائهم بدون أية سلطة حقيقية وفعلية.

حدثت في الجزائر انتفاضات وثورات قصيرة (في العام ١٩٠٧ وفي العام ١٩١١) وتمكنت القوات الافرنسية من قمعها بالقوة. وقامت بتفريق التظاهرات التي جرت احتجاجاً على نتائج الانتخابات المزيفة التي حدثت في تلك الفترة. وتألف في الوقت ذاته أول حزب جزائري هو حزب «الجزائر الفتاة» بزعامة الأمير خالد الجزائري، غير أن هذا الحزب لم يعمر طويلاً. وقد أعلن هذا الحزب موافقته على الالتزامات التي فرضت حديثاً على الجزائريين لأداء

---

(١) ارتفع هذا الرقم في العام (١٩٣٧) إلى (٢٤) عضواً.

الخدمة العسكرية ـ الإلزامية دفاعاً عن فرنسا، ولكنه طالب بتوسيع تمثيل الجزائريين في الجمعيات والمجالس المنتخبة، وبتطوير التعليم وتوسيعه، وبإنهاء الضرائب الخاصة المفروضة على العرب، وإلغاء قانون «السكان الأصليين».

وقرر نحوٌ من ثمانمائة مواطن من أهالي تلمسان في العام (١٩١١) الهجرة من مدينتهم والنزوح إلى بلاد الشام «دمشق» احتجاجاً على: «قانون التجنيد الذي يرغم الجزائريين على الخدمة تحت راية الصليبيين، ومصادرة أملاك الوقف، وقانون «السكان الأصليين» وجوازات التنقل داخل البلاد، وعدم المساواة أمام المحاكم، وزيادة الضرائب، وعدم تمثيل الجزائريين تمثيلاً كافياً في المجالس المنتخبة، ومنافسة الصناعات الأوروبية للصناعات الوطنية ـ المحلية ـ وعنف نظام الغابات، والامتيازات الممنوحة لليهود، والغرائم الجمركية والضرائب الثقيلة، وحماية الإدارة الافرنسية لموظفيها حتى ولو أساؤوا، وعدم اهتمام السلطات بشكاوى الجزائريين». وقد دلّت هذه الهجرة الجماعية على إحساس المواطنين الجزائريين باليأس من بذل الجهود لحل مشاكلهم في ظل النظام الاستعماري الجاثم على صدر البلاد.

بدأ بعض الجزائريين بالهجرة من المناطق الريفية إلى فرنسا بحثاً عن العمل، وفراراً من الواقع الذي كانت تعيشه الجزائر، وذلك قبيل الحرب العالمية الأولى. لكن الحرب ذاتها هي التي شكلت الحافز الأساسي لهجرة جماعية واسعة النطاق. وارتفع عدد الجزائريين العاملين في فرنسا من نحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف

قبيل الحرب إلى نحو ثمانين ألفاً إبانها. واستمرت هذه الهجرة حتى العام ١٩٢٤، لسد الفراغ في حاجات فرنسا إلى اليد العاملة. وأخذت الهجرة في الهبوط بصورة حادة بعد العام ١٩٢٤، ولا سيما في العام ١٩٢٩، بسبب حدوث الأزمة الاقتصادية العالمية. وعندما استؤنفت الهجرة ثانية في العام ١٩٣٦، بلغ عدد الجزائريين العاملين في فرنسا نحواً من اثنين وثلاثين ألفاً. مقابل نحوٍ من مائة ألف في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٤.

أدّت جهود العمال والجنود الجزائريين، وتضحياتهم، أيام الحرب العالمية الأولى، وموجة الغضب التي هيمنت على الجزائر، إلى قيام اليسار الافرنسي بتأييد حركة الإصلاح. ورفض رئيس الوزراء «كليمنصو» الإذعان لمقاومة المستوطنين وضغوطهم، من أجل صرفه عن تنفيذ ما أطلق عليه صفة «اقتراحات معتدلة». وصدر تبعاً لذلك قانون في عام ١٩١٩، يسمح للمتعلمين الجزائريين - في فرنسا - بالحصول على الجنسية الافرنسية، شريطة التخلي عن حقوقهم الخاصة بموجب القانون المدني الإسلامي. (وكان القانون الذي بني على تقرير لجنة مجلس الشيوخ الافرنسي في العام ١٨٦٥ قد سمح بمثل هذه الإجراءات. غير أن التعقيدات التنفيذية جعلت من المحال على الجزائري الحصول على هذه الجنسية).

ولكن عدد الجزائريين الذين استجابوا للقانون الجديد لم يكن كبيراً، وعندما حل العام ١٩٣٦، لم يكن عدد الذين اكتسبوا الجنسية الافرنسية يزيد على بضعة ألوف. وهنا لا بد من الإشارة إلى ذلك الجهد الكبير الذي بذلته «جمعية العلماء المسلمين الجزائرية»

والتنظيمات الإسلامية الأخرى من أجل توعية المواطنين، وإقناعهم بالتمسك بهويتهم الإسلامية، ورفض التجنس بالجنسية الافرنسية.

وعلى كل حال، فقد شرع بعض الجزائريين ممن تعلموا في فرنسا، وتكيفوا مع حياتها، بالمطالبة لقبولهم مواطنين إفرنسيين، على الرغم من القانون المدني الإسلامي. وكان هؤلاء «المعتدلون» يبحثون عن نموذج جديد من الإدماج، ومن المساواة في الأوضاع، ضمن المجتمع الجزائري. وأدت الانتخابات العامة في فرنسا ـ في أيار، مايو، ١٩٣٦ـ إلى فوز اليسار الافرنسي بانتصار بارز، وقيام حكومة للجبهة الشعبية بقيادة الاشتراكي «ليون بلوم»[(١)].

واستجابت الحكومة الافرنسية لطلبات «المعتدلين الجزائريين» فوافقت على القانون الذي اقترحه «بلوم ـ فيوليت» والذي كان من المقرر أن يعطي الجنسيةـ الافرنسية إلى فئات معينة من الجزائريين المثقفين (المتعلمين في فرنسا) بدون أن يتخلى هؤلاء عن حقوقهم التي يضمنها لهم القانون المدني الإسلامي، ولكن هذا القانون لم يصدق عليه في البرلمان الإفرنسي، بسبب معارضة المستوطنين القوية له. وأدى فشله إلى خيبة أمل الكثيرين من «المعتدلين» الجزائريين، الذين حاولوا الإخلاص لمدرستهم الافرنسية التي نشؤوا فيها.

---

(١) ليونـ بلوم (BLUM - LEON) رجل سياسي فرنسي، من مواليد مدينة باريس (١٨٧٢ـ ١٩٥٠) زعيم الحزب الاشتراكي. شكّل حكومة الجبهة الشعبية في العام ١٩٣٦ وأبعد إلى ألمانيا منفياً في العام ١٩٤٣. وعاد إلى فرنسا بعد انتهاء الحرب ليشكل الحكومة الافرنسية في العام ١٩٤٦.

٣ ـ السياسة الاستعمارية والظهير البربري

أصدرت الحكومة الافرنسية في ١١ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩١٤ القانون الذي اشتهر باسم «الظهير البربري»[١] أو «قانون ليوتي». ونصت المادة الأولى منه على ما يلي: «تبقى القبائل البربرية خاضعة في إدارتها لشرائعها وعاداتها وقوانينها الخاصة، تحت رقابة السلطات الافرنسية». ونصت المادة الثانية على أن «تختار السلطات الافرنسية في الوقت ذاته لكل قبيلة ما يناسبها من القوانين والأنظمة».

ولقد ظهر هذا القانون بعد مرحلة من الأبحاث والدراسات والممارسات، بدأت مع بداية الغزو الافرنسي للجزائر، واستمرت حتى قيام الثورة الجزائرية الكبرى (١٩٥٤)، غير أن السبب المباشر لظهوره هو التمرد المستمر لما كان يطلق عليه اسم «بلاد

---

(١) الظهير البربري DAHIR BERBERE.

المخزن»[1] وبصورة خاصة ما وقع في «خنيفرة» في شهر تشرين الثاني - نوفمبر- ١٩١٤ حيث تصدى رجال المخزن لرتل من القوات الإفرنسية، وقتلوا من أفراده (٦١٣) جندياً، وجرحوا (١١٨٧) جندياً، وكان الهدف الأساسي هو «تأكيد السياسة الاستعمارية وفقاً لمبدأ: فرّق تسد».

وفي الحقيقة فقد أثار ظهور قانون «الظهير البربري» جدلاً كبيراً، وحواراً حاداً، في كل أنحاء العالم الإسلامي وحاولت الإدارة الاستعمارية الافرنسية بالمقابل والأجهزة الإعلامية التابعة لها وكتابها وباحثوها وأعوانها، التقليل من أصداء هذا القانون ونتائجه.

غير أن ذلك كله لم يتمكن من حجب الحقيقة، وهي أن الإدارة الاستعمارية قد أرادت من خلال هذا القانون، وتطبيقاته، التأكيد على ما تزعمه من أن: «الشعب المغربي ليس شعباً عربياً» وأن هناك فارقاً مميزاً بين «الشعب المغربي، والكتلة البربرية».

---

(١) بلاد المخزن: (PAYS - DU MAKHZEN) هي البلاد الصحراوية والجبلية من مناطق القبائل الممتدة ما بين المغرب - مراكش - والجنوب الجزائري، وكانت هذه البلاد خاضعة لسلطات المغرب، بخلاف (البلاد السايبة) التي كان ارتباطها بالسكان اسمياً. وتضم مقاطعات مستقلة، وتبلغ مساحتها أربعة أو خمسة أضعاف مساحة «بلاد المخزن» وكانت بلاد المخزن تقدم للسلطان الجنود المقاتلين. وتؤدي الضرائب. وكانت علاقات السلطان بالمرابطين حسنة، نظراً لما لهم من نفوذ على البربر، ولم تكن قبائل «بلاد المخزن» خاضعة لحكومة منظمة بحسب المفهوم الغربي- فكان «القادة: CAIDS» من قادة قبائل بلاد المخزن هم الذين يمارسون الحكم والقضاء وإقرار الأمن.

وأن: «الشعب المغربي الذي لم يتم تعريبه بعد يجب توجيهه للتعامل مع الحضارة الافرنسية، وعزله عن كل تأثير عربي». وأن «المغرب الذي بقي كتلة بربرية، لم يؤثر فيها الإسلام إلا تأثيراً سطحياً وضعيفاً، ولم تتوغل فيها العروبة إلا بصورة جزئية ومحدودة جداً، هي كتلة يمكن لها، ويجب لها، أن تمارس دوراً من أجل تحقيق فائدة عظمى لفرنسا». وكانت هذه السياسة تستند إلى معطيات قديمة قائمة على وجود لهجة بربرية، يمكن الإفادة منها لخلق واقع جديد عن طريق تكوين عقيدة بربرية جديدة.

أسرع من يطلقون على أنفسهم ألقاب «علماء الأجناس ـ أو العروق» لوضع «نظرية عرقية» تدعم السياسة الاستعمارية، فقالوا: «إن هذا العرق البربري، ينحدر مثلنا نحن ـ الأوروبيين ـ من العرق الآري، وهو عرق مميز بمجموعة من الخصائص التي تطبع بميسمها معظم الافرنسيين مثل: الصراحة والإخلاص والإحساس بأهمية الروابط الاقتصادية، وغياب أو ضعف النزعات العدوانية!... والكفاءة المتوارثة في العمل، فهذه الكتلة البربرية هي التي جعلت من أفريقيا أهراء ـ مستودعاً ـ يموّن روما بما كانت تحتاجه من الحبوب والغلال. وأخيراً، فهناك حب الحرية، فالتقاليد البربرية قد جعلت من الإنسان البربري، رجلاً حراً، يعشق حريته إلى أبعد الحدود، وهو على استعداد للقتال دفاعاً عنها».

ولقد جعلت هذه الحريات التي تتم ممارستها إجماعياً ـ كأسس ديمقراطية ـ وإفرادياً ـ كمواطنين أحرار ـ جعلت من الصعب إخضاع

البربر بالقوة وحدها. وهذا ما يؤكده «النظام الاستبدادي الجائر» الذي حاولت الإدارة الافرنسية تطبيقه سنة ١٨٨٤، فكان من نصيبه الفشل الذريع. ولقد مرّت على ذلك سنوات، ويجب تهنئة البربر خاصة على ما أظهروه من عدم الاهتمام بالاضطرابات السياسية ومن إرادة صلبة. فالبربري لا يحلم، لا ببرلمان، ولا بالاستقلال العربي. ويظهر أن البربر، الديمقراطيون منهم والمحافظون على حد سواء. بقوا محتفظين بفضائلهم السياسية التي يعتمدونها لإظهار الأخطاء العربية.

أما بالنسبة للعقيدة؛ «فإن الجهود المستمرة طوال ثلاثة عشر قرناً، لم تتمكن من إدخال البربر في الإسلام. وضاعت كل الجهود في الهواء. وليس من قبيل التعصب القول بأن العرق البربري الصافي- النقي- لم يعتنق الإسلام، أو يمارس عباداته. فهم لا يقيمون الصلاة أبداً. وأما الأعياد الدينية بالنسبة لهم، فهي ليست أكثر من مناسبات لإطلاق القنابل، ومن المؤكد أنها تعديل للأساليب الوحشية في التعبير عن الحرية. وهي، في بعض الأحيان، يمكن اعتبارها وسيلة ساذجة للدجل والخداع مما تمارسه الزوايا والمساجد، وهي وسيلة عرف البربر كيف يسخرون منها، لا سيما وأن المعجزات التي ينتظرونها لم تحدث أبداً» وهنا يقع دهاقنة الاستعمار - من العلماء - في تناقضاتهم، عندما يكتشفون: «بأن البربر يجنحون للتمسك بالدين، وبالإسلام خاصة، وليس ذلك إلا تعبيراً عن استعداد البربر لتبني أية ديانة من الديانات...».

ما من حاجة في الحقيقة للتوقف عند مثل هذه المقولات

وأشباهها ونظائرها مما سبق ذكره أو مما سيأتي عرضه، فالشواهد التاريخية المعروفة جداً، تدحض ما تتضمنه مثل هذه المقولات الخبيثة في نصوصها واللئيمة في أهدافها، فمن المعروف أن جيش فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير قد ضم أعداداً ضخمة من مسلمي العرب والبربر على حد سواء. وقد استمر المسلمون في رفع راية الجهاد في سبيل الله قروناً طويلة في بر الأندلس وبحره، وفي المغرب العربي الإسلامي ذاته، ولم تكن جيوش المرابطين والموحدين ومن جاء بعدهم، حتى الغزو الصليبي للمغرب العربي الإسلامي (من الاسبانيين ثم الافرنسيين) بما في ذلك جيش الأمير عبد القادر، إلا جيوشاً إسلامية رفعت راية الإسلام لتضم تحتها ودونما تمييز وتفريق المجاهدين من المسلمين عرباً وبربراً، وسواهم سواء بسواء ويؤكد ذلك وحده افتراء المزاعم الاستعمارية للتفريق بين العرب والبربر، والتمييز فيما بينهما على أساس عرقي- قومي.

غير أنه من المفيد في كل الأحوال، التوقف عند هذه المقولات التي سيصطدم بها كل باحث تاريخي عند التعرض لما أطلقوا عليه صفة «الأدب الاستعماري في الجزائر». ذلك لأنه لا بد لكل باحث من أن يذهل لأساليب التضليل التي اتبعت من أجل اختراع الأكاذيب التي تخدم أهداف الاستعمار، ثم تضخيم هذه الأكاذيب والترويج لها حتى تظهر وكأنها ذات صلة حقيقية بالواقع. وقد أمكن بذلك خلق ما أطلق عليه اسم «الأسطورة القبلية» أو «الأسطورة البربرية» والتي تم دعمها بأبحاث عرقية، قيل أنها علمية، وهي ليست في حقيقتها ذات صلة «بالعلم» إلا من وجهة

خدمة «الأقوياء البيض من الأوروبيين»، والإسهام في ضمان مصالحهم، شأن كل الواجهات العلمية والتقنية التي تسخرها الدول العظمى حالياً للهيمنة على الشعوب المستضعفة.

المهم في الأمر، هو ألا يصدم القارىء عندما يقرأ في المراجع الاستعمارية اصطلاح «برابرتنا» لإبراز ذلك الرابط المشترك بين الافرنسيين والبربر - على ما كان يزعم ضباط الاستعمار وكتابه والعاملون في إدارته، والمنفذون لما يخططه دهاقنته وقسسه ومفكروه.

ومن ذلك قولهم: «يتشابه رجال قبائلنا في أفريقيا الشمالية مع رجالنا في إقليم - أوفيرن -[1] فهل يمكن التفريق بين البربري الأصيل ذو العرق الأبيض عن مواطن أوفيرن؟ إن أكثر هؤلاء البرابرة وحشية هم الأقل ممّن اتصلوا بالحضارة الخارجية المستوردة. إنهم مميزون بطول القامة، والبياض الناصع للبشرة، والرشاقة في التكوين والنحول مع الصدر البارز المقبب وهي كلها من الملامح التي يشتركون فيها مع مواطنينا في أوفيرن. ويتميز هؤلاء عن سواهم - حتى بين البربر - بخصائصهم المتفوقة

---

(١) أوفيرن: AUVERGNE. إقليم قديم من أقاليم فرنسا، قسم في القرن الرابع عشر إلى مقاطعة دوفينيه (DAUPHINE) ودوقية أوفيرن، وأعيد توحيدها في سنة ١٥٢٧ أيام الملك فرانسوا الأول. وعاصمة أوفيرن هي كليرمونتد فيراند CLAIR MONT - FERRAND. وشكلت فيما بعد مقاطعات «باي دو دوم PUY DE DOME»، وكانتال. وقسماً من اللوار العليا. وطبيعة الإقليم جبلية بركانية مع سهول خصبة تتشابه مع طبيعة الجزائر.

فيزيولوجياً، وهم أقل الناس تأثراً بالإسلام. هؤلاء الفلاحون الطيبون، ذوو الطباع الخشنة، لديهم كفاءة عالية في اختراع الحيل البسيطة. إنهم نموذج حقيقي للقيم الأخلاقية التي تتعارض بقوة مع القيم الإسلامية. وهكذا فإن الروح القديمة للبربر، هي ذات الروح القديمة لفلاحينا الإفرنسيين. إن حبهم للأرض هو الذي يوجه فضائلهم الحربية. لقد حرث ـ المسلمون ـ في المخزن كمن يحرث في البحر، وكان الموج دائماً يعمل من ورائهم على إزالة ما يتم بناؤه على الرمال».

وحتى يسهل على الاستعماريين الإفرنسيين إدارة هذه القبائل والهيمنة عليها، فقد حاولوا النفخ في بوق «ديموقراطية الشعب» لخلق خصائص مميزة بين قبائل المخزن وبين بقية مواطني الجزائر، وهو ما تبرزه المقولة التالية:

«تظهر الديموقراطية هنا ـ في الأطلس الأوسط ـ بكل أبعادها، فالشعب وحده هو القائد والشعب وحده هو الذي يتكلم، والشعب وحده هو الذي يغني». وحتى يفصل الاستعماريون بين رجال القبائل وبين الدين الإسلامي، فقد زعموا مرة أن أصول هؤلاء آرية، وزعموا مرة أخرى، أنهم من أصل روماني، وفي مرة ثالثة زعموا أنهم من أصل يهودي، وفقاً لما تتضمنه المقولة التالية: «انحدر بربر الأطلس الأوسط من اليهود، ثم انتقلوا إلى الإسلام».

وفي إطار هذه الحرب الصليبية، طرحت مقولات، ونظريات، لا نهاية لها، تصورها المقولة التالية: «عداء البربر للشريعة القرآنية ـ الإسلامية ـ هو عداء ثابت، ويعتبر مميزاً للعرق

البربري، البعيد عن الإسلام أو المعادي له، فالبربر جميعاً لا يقبلون شريعة لهم إلا شريعة عاداتهم الوطنية، حتى أنه بالإمكان القول بأن البربر لا يخضعون للشرع إلا بقدر ما نخضعهم له بالقوة من أجل مساواتهم ببقية المسلمين. . . إن القانون الذي يحكم البربر هو قانون العُرْف، الذي ينسجم في كثير من الأحيان مع قوانيننا الافرنسية بأكثر مما ينسجم مع القوانين الإسلامية. وإن من مصلحتنا جميعاً استخدام عاداتهم المدنية من أجل إخضاعهم لسيطرتنا».

لقد كانت السلطات الاستعمارية الافرنسية تعرف تماماً أن ما تطرحه من مقولات، وما تبذله من جهد في هذا المضمار، هو أمر يتناقض مع حقيقة الموقف في الجزائر المجاهدة، فبعد عقود من الجهد عبر سنوات الصراع الوحشي المرير، لإعادة تنظيم القضاء بهدف إضعاف الإسلام والمسلمين، ظهرت وثيقة في سنة ١٩٣٠ تنص على ما يلي: «الإسلام بين هذه القبائل عميق الجذور جداً، وقد بقيت القبائل متعلقة بعاداتها المحلية في كل ما يتعلق بأمورها التي يحكمها القادة والشيوخ. وهم - أي رجال القبائل - يرجعون إلى القاضي للفصل في كل الأمور المتعلقة بأوضاعهم الشخصية».

ولكن على الرغم من ذلك، فإن السلطات الاستعمارية لم تيأس من إمكانية إبعاد المسلمين عن قواعدهم الصلبة، لتكوين «مسلمي الهوية»[1] مركزين الجهد على القبائل البربرية في الأوسط

---

(١) مسلمو الهوية MUSULMANS D'ETIQUETTE .

الأطلسي «حيث تشكل القبائل في جبال جرجرة قلعة الاستقلال للناطقين باللغة البربرية. وحيث يمكن ـ أو يجب تحويل السكان في هذه المنطقة إلى فرنسيين لساناً وقلباً».

وللوصول إلى هذا الهدف، عملت السلطات الافرنسية على اختيار «قبائل الشلوح»[1] والزيانيين كأساس لتوحيد كتلة البربر وإعدادها لتكوين «جمهورية بربرية» تشمل القبائل البربرية في المغرب العربي الإسلامي، وللوصول إلى الهدف، أعطيت التوصيات إلى رجال الاستعمار الافرنسي بالجزائر: «**من أجل منع الحديث باللغة العربية في وسط البربر ـ وتعليمهم كل شيء ما عدا العربية والإسلام**».

وكان يتم إعداد الضباط الافرنسيين والإداريين المدنيين ـ من الافرنسيين أيضاً ـ في دورات تعليمية لتطبيق سياسة مستقلة خاصة بالقبائل. وكان في جملة التوجيهات الثابتة التي يلقونها على مسامع هؤلاء، ولا يتعبون من تكرارها باستمرار، تلك التي تنص على ما يلي:

«**يجب العمل من أجل إيقاف توغل الإسلام عميقاً في نفوس أولئك الذين يعتنقون الإسلام ظاهرياً ـ مسلمي الهوية ـ وعدم السماح لأولئك البربر بالتعريب عن طريق الشرع الإسلامي. وحرمان القضاة من ممارسة دورهم، وصرفهم عن صلاة الجمعة، وعدم الاستهانة بتأثيرها في نفوس المسلمين**» كل ذلك

---

(١) قبائل الشلوح: KABYLE CHLEUHS.

مع دعم العادات الوطنية للبربر وبعثها. «فالسياسة الحقيقية للبربر تقوم على احترام عاداتهم وتنظيماتهم، وإحاطة هذه العادات والتنظيمات بإصلاحات نقوم بادخالها إلى البلاد... والعمل قدر المستطاع بسرية لتعزيز الفوارق اللغوية والدينية والاجتماعية بين العرب من سكان السهول والبربر من سكان الجبال. والحد من اتصال القبائل البربرية بالسكان العرب ومن ثم، الاعتماد على هؤلاء البربر، لتشكيلهم بمرونة من أجل قبول الحضارة الافرنسية، وإغرائهم بالمساعدات المادية الزهيدة».

لم تسقط الحملة الصليبية من حسابها إمكانات تحويل مسلمي البربر إلى النصرانية، إكمالاً لمخطط «فرّق تسدّ» وإمعاناً في دعم قاعدة الاستعمار. فكان الدين هو أحد وسائل السياسة البربرية التي وضعت النشاط الكاثوليكي في مقدمة وسائلها من أجل استثمار التأثير الجيد للمسيحيين المخلصين والمتحمسين لدينهم، ومن أجل تغطية سوءات الاستعمار بحجاب الأعمال الخيرية «للإخوات البيض» وما تبذله البعثات الفرانسيسكانية من جهد تعليمي وخيري. هذا بالإضافة إلى ما تبذله الهيئة (الأفريقية-الافرنسية) من جهد في هذا المضمار[1] وكانت التوجيهات المعمول بها هي: «يجب استخدام القسس الأفاضل، لا من أجل

---

(١) بلغ عدد هذه المؤسسات الخيرية في الأول من تموز - يوليو- ١٩٣١ما يلي: ١- مستشفى، ١ مصح، ٤ دور أيتام، ٤ مستوصفات، ٤ معامل لتشغيل الفتيات، ٩ دور أطفال. وضمت الجمعيات النسائية ٢٥٦ امرأة (السياسات الاستعمارية في المغرب- أغرون. ص ١١٨).

الوعظ والإرشاد ، بل من أجل الإيحاء بالثقة والصداقة واكتساب حب البربر. فالسياسة البربرية ذات أهمية كبرى، بالنسبة لفرنسا، ويجب دعم المدارس والإرساليات العلمانية لاكتساب محبة البربر عن طريق إظهار الطيبة وإقامة العلاقات الجيدة، وتقديم الخدمات».

ذهب بعض الكاثوليكيين إلى ما هو أبعد من ذلك: «**فقد أرادوا إعادة البربر إلى الحظيرة المسيحية، بزعم إعادتهم إلى دين أجدادهم. وبزعم أنهم لا زالوا أقرب إلى الوثنية منهم إلى الإسلام» ومن المقولات التي طرحت في هذا المجال: «يمكن غزو البربر، لا بالسلاح، وإنما بالغزو المعنوي وسيكون الغزاة هم من رجال الإرساليات المسيحية - والمبشرين - الذين يتحدثون إلى هؤلاء - البربر - عن السيد المسيح، وعن تاريخ المسيحية الحافل بأسماء المنقذين، وبالكثير من الأشخاص الأسطوريين».**
ويظهر هدف المبشرين، وأعمال الإرساليات من خلال المقولة التالية:

«لنفسح المجال أمام المسيحية حتى تمارس دورها في التأثير على نفوس البربر... وسيساعد ذلك دونما ريب على عزل العرب بطريقة فعالة جداً، مما يؤدي بالتالي إلى إبعاد المسلمين عن طريقنا في أفريقيا الشمالية. وسيكون ذلك لمصلحة حضارتنا ولفائدة عرقنا - الآري -». فيما ذهبت مقولة استعمارية إلى المطالبة: «بإطلاق كامل الحرية للإرساليات - التبشيرية - في تحركها وعملها حتى تستطيع الاضطلاع بواجباتها» وكان من هذه

الواجبات: التبشير بفكرة شرب النبيذ والخمر الذي يثير في النفس البهجة والحبور حتى تحل المشروبات الروحية محل الشاي الأخضر والنعناع، وهي المشروبات التي كان البربر قد اعتادوا على شربها، واعتبار شرب النبيذ والخمر علامة مميزة لهؤلاء الذين سيعتنقون المسيحية. والاهتمام بتعليم الأطفال خاصة، ومضاعفة عدد المدرسين عن طريق الاستعانة بالبربر الذين يرتدّون عن دينهم الإسلامي ويصبحون مسيحيين. هذا إلى جانب مضاعفة أعداد الكنائس في «المغرب الكاثوليكي» من أجل الوصول إلى إعادة الفتح المسيحي الجديد للمغرب.

يظهر من خلال ذلك أن إصدار قانون «الظهير البربري الأول» في ١١ أيلول- سبتمبر ١٩١٤ لم يكن إلا تتويجاً لمجموعة من الجهود الكثيفة والمركزة والتي بدأت مع البدايات الأولى لاستعمار الجزائر، غير أن المقاومات والثورات المستمرة قد شكلت عقبات كؤود في وجه المخططات الاستعمارية. حتى إذا ما جاء ليوتي إلى الجزائر في سنة ١٩١٤، ظن أن الفرصة باتت مناسبة للانتقال من مرحلةالعمل السري - أو المتحفظ - إلى مرحلة العمل العلني. وقد تم على أثر إصدار قانون الظهير البربري، تكوين «هيئة للدراسات والأبحاث البربرية» في ٩ كانون الثاني- يناير ١٩١٥.. وقد حددت مدينة «الرباط» مقراً لهذه الهيئة. وقد كشف تكوين هذه الهيئة وتنظيمها أنها لم تكن مجرد جهاز للأبحاث الاجتماعية. فقد تشكلت هذه الهيئة برئاسة الأمين العام للمحميات الفرنسية. وضمت في عضويتها مدير شعبة الاستخبارات ورئيس المكتب السياسي لحاكم الجزائر (ليوتي)

وكان واجب هذه الهيئة هو إعداد المخططات التطبيقية في مجالي السياسة والإدارة. وتحديد القبائل التي تنطبق عليها مواصفات «القبائل البربرية».

وقد دمجت هذه الهيئة فيما بعد «بالمدرسة العربية العليا» والتي كان قد تم تأسيسها في الرباط سنة ١٩١٤. وأسندت إدارتها إلى «بربري» تم إعداده وتبنيه من قبل وتثقيفه للاضطلاع بهذه المهمة. وكان برنامج هذه المدرسة يتضمن إلقاء محاضرات وإعداد دورات لتطوير اللغة البربرية التي يستخدمها صغار الضباط والمترجمين، وتحولت المدرسة بسرعة إلى زمرة نشطة تحتل المرتبة الأولى في التخطيط لبرامج «البربر».

لقد قيل عن الجنرال ليوتي ـ الحاكم العام للجزائر ـ عندما أعلن قانون «الظهير البربري» بأنه ـ أي ليوتي ـ يمارس سياسة ملونة ومضادة للبربر، وأنه يعمل مخلصاً لقضية بناء المغرب الواحد ـ والموحد ـ وأنه أيضاً يتخذ موقفاً براغماتياً ـ ذرائعياً ـ بحيث أنه لا يضع حلاً واحداً لأي مشكلة، وإنما لديه دائماً مجموعة من الحلول.

وقد وجد دونما ريب أن السياسة الإفرنسية التي كانت مطبقة قد أخطأت في تقديرها عندما بالغت في قضية «تكوين كتلة البربر» ومن أجل ذلك فإنه أخذ في وضع صيغ مختلفة مع تنويع في الأساليب المستخدمة حتى يصبح بالإمكان التكيف مع الظروف والمواقف المعقدة جداً في المغرب العربي ـ الإسلامي. غير أنه من المعروف عن «ليوتي» أيضاً بأنه هو الذي أرغم الضباط على

دراسة العلاقات الجدلية مع البربر. كما عمل- من الناحية الإدارية- على بعث المجالس البربرية.

وظهرت أهداف سياسته بوضوح في رسالته إلى حكومة «باريس» يوم ٦ تموز - يوليو ١٩١٥. وفيها: «أعتقد بأنه يجب علينا بعث العادات والمؤسسات البربرية، ومنها الجمعة على سبيل المثال، ذلك لأن خصوصية الخيال تشكل أفضل وسيلة لإبراز التناقض أو التضاد مع الإسلام». وهناك أيضاً التعميم الذي أصدره (ليوتي) رداً على رسالة أحد ضباط الاستخبارات، بشأن أحد الطلاب العرب الذي دخل المدرسة واستمر في ممارسة عبادته- الصلاة - فكان في تعميم ليوتي ما يلي:

«هنا يجب أن تسير السياسة البربرية في الاتجاه المضاد، وعلينا تجنب تعليم اللغة العربية للسكان، والتي تربطهم بماضيهم دائماً. إن العروبة هي عامل من عوامل انتشار الإسلام ذلك لأن اللغة العربية هي اللغة التي يعلمها القرآن. وتفرض علينا مصلحتنا تطوير البربر بعيداً عن إطار الإسلام. وعلينا من الناحية اللغوية نقل البربر مباشرة إلى الافرنسية، ومن أجل ذلك فإننا في حاجة لمدرسين من البربر، كما يجب فتح مدارس فرنسية - بربرية يتم فيها تعليم الافرنسية إلى أطفال البربر. وعلينا بعد ذلك التدخل بحذر على مستوى المخططات الدينية. فالإسلام غير مستقر في وسط البربر. وقد علمت من هؤلاء الذين احتفظوا باستقلالهم، أن فهمهم للإسلام لا زال سطحياً، وأن هؤلاء البربر قد رفضوا كافة الأحكام التشريعية- القضائية-

واعتمدوا على العرف والعادة. وعلى كافة ضباطنا استيعاب هذه المبادىء: وعليهم أن يتجنبوا بصورة خاصة التعرض لذكر الإسلام أمام السكان البربر».

وعلى هذا الأساس، تم وضع مخطط شامل يتضمن إقامة «مدرسة فرنسية ـ بربرية» و«تنظيم قضاء مدني بربري» و«تطوير الظهير البربري ودعمه بظهير جديد ـ أعلن في سنة ١٩٣٠».

لقد نص قانون الظهير البربري: «على ضرورة تشكيل مدارس إفرنسية ـ بربرية، يكون فيها المعلم هو فاتح منطقة القبائل». وواجب هذه المدارس هو: «إسهام المدرسة البربرية في المحافظة على تقاليد البربر ومؤسساتهم. ومعارضة تأثير المدارس القرآنية ـ الإسلامية، وتوجيه البربر نحو فرنسا» بحيث يصبح من الطبيعي، ومن المتوقّع، أن يظهر بين البربر من يقول بعد زمن ليس ببعيد: «بأن أجدادنا هم الغول ـ أجداد الافرنسيين». ويتم في هذه المدارس تعليم القراءة والكتابة، باللغة البربرية وبالأحرف اللاتينية، ثم الانتقال إلى التعليم باللغة الافرنسية للقراءة والكتابة والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والصحة، واستبعاد تعليم اللغة العربية والقرآن وعلوم الدين، مع إجراء توجيه نحو الحياة العملية وخاصة الزراعة، والإفادة من حدائق المدارس لهذه الغاية. وتبقى اللغة الافرنسية هي أساس التعليم كله في المدارس البربرية.

وتنفيذاً لهذا المخطط، تم في بداية شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٢٣، فتح (٦) مدارس ابتدائية في «عيط سفوشن» ومدرستين في زيان، وبعد خمسة أشهر تم فتح (٧) مدارس ضمت (٢٠٠)

طالب. وكانت كل مدرسة تضم على الأقل معلمًا واحداً مسيحياً من القبائل. وفي تشرين الأول- اكتوبر سنة ١٩٢٤ عملت هيئة الدراسات العليا للمغرب، على تكليف المدرسين بإعداد برامج للبربر تعتمد على عادات البربر وتقاليدهم. واختيار مدرسين من القبائل لضمهم إلى صفوف جهاز التعليم. ومن أجل تجنب كل خطأ في هذه البدايات ، فقد تم إعلام هؤلاء المدرسين «بأن هذه المدارس ليست مجرد مراكز تربوية وإنما هي تنظيمات سياسية وأجهزة دعائية. وعلى هذا فيجب على المدرسين اعتبار أنفسهم عملاء ومتعاونين مع قادة المراكز. وعلى المدرسين الرجوع إلى هؤلاء القادة في كل مناسبة لتلقي توجيهاتهم».

استمر العمل في السنوات التالية لتكوين المزيد من المدارس في كل حدود منطقة «الأطلس الأوسط»، فبلغ عدد المدارس في بداية سنة ١٩٢٧ ستَّ عشْرَةَ مدرسة فرنسية- بربرية ضمت (٦٠٠) طالب. وبلغ عدد هذه المدارس في بداية سنة ١٩٣٠- ثلاثين مدرسة ضمت (٧٠٠) طالب وحققت هذه المدارس التي أطلق عليها المسلمون اسم «مدارس الروم» ما أرادته السلطات الإفرنسية من إنشائها. ولم يعد «للمدرس الفقيه» دوره في التعليم وتدريس القرآن. واقتصر دوره في المسجد على تولّي الدفاع ضد هذا الهجوم الشامل. وقد زعمت السلطات الاستعمارية بأن الضباط والطلاب البربر- المتخرجين من هذه المدارس، قد أكدوا أنهم متفوقون عقلياً على أمثالهم من طلاب المدارس العربية الريفية.

وظهر خلال هذه الفترة للسلطات الافرنسية أن هناك حاجة لتكوين مدرسة عليا من أجل إعداد المدرسين حتى تصبح هذه المدارس «خالصة للبربر ويضطلع بها البربر ذاتهم» وحتى يتم «عزل الجيل وحمايته من كل تأثير عربي أو إسلامي» وقد تمّ تنظيم هذه المدرسة وإنشاؤ ها في «عزرو» في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٢٧.

وكان الحاكم العام للجزائر ـ الجنرال ليوتي ـ قد حدد منذ يوم ٢٥ كانون الثاني ـ يناير ١٩٢٤ أهداف هذه السياسة في رسالة له تضمنت ما يلي: «يجب المحافظة بحزم وثبات على الفوارق القائمة بين سكان بلاد المخزن من العرب، وبين سكان الجبال البربر والذين يجهلون العربية. وأعتقد أنه يجب الإشارة إلى تلك الأهمية التي أعلقها على هذه القضية التي ترتبط بعملنا السياسي والتي تعتبر نتيجة مباشرة من نتائج التهدئة المستمرة للبلاد ذات العادات البربرية».

وتبقى الظاهرة الأكثر خطورة في «قانون الظهير البربري» هي ظاهرة إبعاد البربر عن القضاء الإسلامي «قضاء الشرع» وإخضاعهم لحكم «المحكمين». وكانت السلطات الإفرنسية قد أقامت منذ سنة ١٨٥٧ في منطقة القبائل الكبرى ما أطلقت عليه اسم « الجمعة القضائية» واقتصر عملها في البداية على منطقة «القلعة الوطنية» وفقاً لمرسوم ٢٩ آب ـ اغسطس ١٨٧٤. وفي ٢٥ آب ـ اغسطس ـ ١٨٨٠ كلّف هذا المركز بإعداد النصوص القانونية للحكم والقضاء بما يتوافق مع القانون الافرنسي. وقد تم تطوير

«الجمعة القضائية» فأصبحت تضم كل السلطات الإدارية والسياسية في المنطقة «الدوار» بالإضافة إلى الصلاحيات القضائية . .

ومع صدور قانون الظهير البربري ، تم في ٢٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩١٥ إعادة تنظيم «الجمعة القضائية» فتقرر اعتماد اللغة الإفرنسية ، وبدأ البحث في «مكتب دراسات القضايا البربرية ـ في مكناس» لإعداد النصوص القانونية التي تساعد «القضاة ـ المحكمين» على أداء عملهم . واستمر العمل حتى ٨ آذار ـ مارس ١٩٢٤ حيث صدر الأمر «بتسجيل العرف» الذي يتم الاعتماد عليه في القبائل الكبرى ، مع الأخذ بعين الإعتبار عادات البربر وتقاليدهم . وكان الحكام الافرنسيون هم الذين يشرفون على مجالس «الجمعة القضائية» . وحددت صلاحيات المحكمين ـ من القادة ـ بالمخالفات والجنح التي تبلغ عقوبتها السجن لمدة سنة ، والغرامة بمبلغ ألف فرنك فرنسي . وحتى السنتين والغرامة بألفي فرنك إذا ما اشترك في المحاكمة ممثل عن الحكومة الافرنسية . أما بقية الجرائم ، فتقدم إلى «المجلس القبلي الأعلى» الذي يصدر بدوره أحكامه استناداً إلى التقاليد والعرف .

وقد ظهر من خلال الممارسة العملية أن هناك تناقضاً وتضاداً في إصدار الأحكام ، لا بين «أحكام الشرع الإسلامي» و«أحكام الجمعة القضائية» فحسب ، وإنما أيضاً بين الأحكام الصادرة في كل «جمعة قضائية» بسبب اختلاف «الأعراف والتقاليد والاجتهادات» ما بين جمعة وأخرى ، غير أن السلطات الافرنسية لم تجد في ذلك ما يثير

الاهتمام، وهو ما عبرت عنه المقولة التالية: «ليس هناك أي خطر ـ أو محذور ـ في تحطيم وحدة التنظيم القضائي ضمن منطقة الحكم الافرنسي، طالما أن الأمر يتعلق بدعم العنصر البربري. وطالما أن الأمر يتعلق بإيجاد ثقل معاكس يمكن له ممارسة دوره ـ ضد المسلمين ـ ولعل تحطيم المرآة الواحدة هو ـ من الناحية السياسية أمر مفيد جداً».

وهكذا تم تعميم الجمعة القضائية. فبلغ عدد محاكمها في الأول من كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢٩ ما يقارب (٧٢) جمعة، ووصل عددها في سنة ١٩٣٠ الى (٨٠) جمعة. وامتد حكمها ليشمل ثلث المناطق الإسلامية في المغرب العربي ـ الإسلامي، وبقيت (١٤) قبيلة أو بطناً وفخذاً من القبائل والبطون والأفخاذ المصنفة، على أنها «بربرية» وعددها الإجمالي (٨٤) قبيلة، غير خاضعة لأحكام «الجمعة القضائية». وكانت هذه النتيجة كافية لإقناع السلطات الافرنسية بنجاحها في إمكان دعم الظهير البربري بظهير جديد (في سنة ١٩٣٠) تمهيداً لإحلال الحكام والقضاة الافرنسيين، وتطبيق القانون المدني الافرنسي.

تلك هي بعض ملامح ما أطلق عليه اسم «الظهير البربري»[١] وليس المجال هنا هو مجال تقويم نتائج هذا «الظهير» أو التعرض لما جابهه من مقاومة الإسلام والمسلمين من عرب وبربر على حد

---

(١) REF: POLITIQUE COLONIALES AU MAGHREB (CHARLES ROBERT AGERON)1972. p.p. 109 - 148.

سواء، مما سيتم التعرض له في أبحاث قادمة. غير أنه من المهم هنا الإشارة إلى ما يتعرض له العالم العربي - الإسلامي من حملات معاصرة مختلفة في أساليبها وطرائقها، غير أنها تنطبق في أهدافها مع ما سبق عرضه.

٤ـ الثورة الجزائرية (١٨٩٧ـ ١٨٩٩)
ومواقف الاشتراكيين

باتت المواقف العقائدية ـ المبدئية ـ للاشتراكيين تجاه الاستعمار والامبريالية معروفة تماماً. غير أن هذه المواقف، ليست كذلك تجاه العمل السياسي للاشتراكيين في تعاملهم مع القضية الجزائرية. وفي الحقيقة، فإنه لم يكن للاشتراكيين الافرنسيين مواقف واضحة وموحدة، مع الاستعمار أو ضده، وعلى هذا، فإنه بالإمكان اعتبار «جوريس»[١] و«بلوم» ومدرستهما الاشتراكية نموذجاً لما كانت عليه مواقف الاشتراكيين الافرنسيين من القضية الجزائرية.

---

(١) جوريس ـ جان (JAURES - JEAN) رجل سياسي فرنسي. من مواليد كاستر CASTRES (١٨٥٩ـ ١٩١٤) اشتهر ببلاغته في الخطابة وقوة حجّته. وهو واحد من أبرز الزعماء الاشتراكيين الافرنسيين، أسّس جريدة أومانيتيه L'HUMA-NITE، كما أسس الحزب الاشتراكي الموحد. مارس دوراً كبيراً في إضراب مقاطعة كرامو ـ CRAMAUX وفي قضية اليهودي دريفوس DREYFUS. وقد اعتبر ممثلاً للاشتراكية والفكر الاشتراكي ورائداً من رواده لا في فرنسا وحدها وإنما على المستوى العالمي. وقد قتل غيلة عشية يوم اندلاع الحرب العالمية الأولى.

كتب «جوريس» بأن أول معرفة له بالقضية الجزائرية، قد جاءته من طريق «محاسب معهد كاستر» حيث كان «جوريس» في سنته الدراسية الثالثة عشرة. وإن هذا المحاسب ذكر له بأنه أمر حاجبه بمساعدته من أجل ضرب عامل الحديقة ضرباً مبرحاً. وذلك عندما كان يعمل في الجزائر، لأن عامل الحديقة العربي تجرأ على استخدام «المرحاض» الخاص ببيت المحاسب فشعر الشاب اليهودي جوريس «بالهوة التي انحدرت إليها عبودية الإنسان» وكتب عن ذلك ما يلي: «شعرت بالشفقة الكبيرة تجاه هذا العرق العربي، الذي يعمل الجنود والقسس على تجريده وسلبه كل حقوقه. وتخيلت هذا الرجل وقد جلس يحكي لأطفاله، بكل هدوء، تلك الأعمال البشعة والمجردة من الشجاعة. ولا ريب أن العادة المستمرة في ممارسة الضغط غير المسؤول قد جرد هؤلاء الناس من ضمائرهم».

تجدر الإشارة إلى أن ظاهرة «الشفقة على مخلوقات المستعمرات- من العرب المسلمين خاصة» كانت في تلك الفترة هي البدعة السائدة - المودة - في وسط دهاقنة الاستعمار. فتولّى الجمهوريون الإفرنسيون، قضية الدفاع عن حقوق مواطني المستعمرات. وعمل «بول بيرت» وزير التعليم الإفرنسي، على تشكيل «جمعية حماية الجزائريين» في سنة ١٨٨٣، وكذلك عمل الاقتصادي «ليوري- بوليو» صاحب نظرية التوسع الاستعماري والذي ترأس «الجمعية الافرنسية لحماية أبناء البلاد الجزائريين». ومن المعروف أن «ظاهرة الشفقة» هذه كانت مرتبطة تاريخياً بعملية النهب الاستعماري، واستغلال اليد العاملة في المستعمرات.

المهم في الأمر، وبصرف النظر عن تلك البدايات لذكريات «جوريس»، فإن اهتمامه بالقضية الجزائرية لم يظهر واضحاً قبل رحلته إلى الجزائر في «نيسان ـ ابريل ـ ١٨٩٥» ويذكر عنه أنه أثار أمام التحالف الإفرنسي في سنة ١٨٨٤ : «ضرورة نشر اللغة الإفرنسية في المستعمرات، وبصورة خاصة بين العرب والقبائل، وذلك لمساعدة المستعمرين الافرنسيين في مهمتهم الصعبة لإنجاح عملية الدمج والغزو المعنوي». وكان من رأيه في عملية الدمج: «بأنه ليس هناك في الجزائر حالياً إلا جمع من الناس المغلوبين على أمرهم ومائة ألف من المنتصرين. وليس هناك ما يمكن أن يطلق عليه اسم «شعب حقيقي» إلى جانب «الشعب الإفرنسي» وهذا ما يتطلب تعميم اللغة الإفرنسية».

وكان الشاب «جوريس» في تلك الفترة، مرشحاً للبرلمان على لائحة «الاتحاد الجمهوري» في سنة ١٨٨٥. ولهذا لم يكن من الغريب أن يظهر تعلقه بسياسة التوسع الاستعماري للجمهوريين، وكان قوله المعروف في ذلك: «لقد أضاعت علينا الامبراطورية إقليمين ومنحتنا الجمهورية مستعمرتين» والمقصود بالإقليمين: الألزاس واللورين اللذين فقدتهما فرنسا بنتيجة حربها مع بروسيا سنة ١٨٧٠ وانهارت على أثرها امبراطورية نابوليون الثالث، أما المقصود بالمستعمرتين فهما: المغرب العربي الإسلامي والمكسيك.

في الوقت ذاته، لم يحاول «جوريس» التستر أو إخفاء إعجابه بالاستعماري «جوليوس فيري» الرجل الذي استطاع خلال ثلاث

سنوات: «**نقل مركز ثقل فرنسا إلى بلاد بعيدة فيما وراء البحار**».
وفي سنة ١٨٨٧ «استنفر كل إمكاناته لإثارة حماسة الجنود وفخر المواطنين بانتصارهم على القبائل، واحتفل بأبطال هذه المعارك الرائعة». ولم يعرف عن «جوريس» أنه أظهر اهتماماً بتلك المناقشات البرلمانية بشأن القضية الجزائرية، لا بصفته نائباً في مجلس النواب، ولا بصفته صحافياً، ولا حتى بصفته ممثلاً لليسار. مع العلم أن تلك المناقشات التي احتدمت في سنة ١٨٩٢، قد استأثرت باهتمام الجميع.

لم يعد «جوريس» نائباً عن الجمهوريين في سنة ١٨٩٣، وإنما أصبح ممثلاً للاشتراكيين. وبصفته هذه ذهب إلى الجزائر- لاكتشافها والتعرف عليها- في نيسان- ابريل١٨٩٥. وفي الجزائر، اشترك جوريس «بالمؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي العمالي الجزائري»،ولم يعرف عن «جوريس» أنه تحدث في هذا المؤتمر، أو تعرض لأي موقف من المواقف. وما إن مضى شهر على مغادرة «جوريس» للجزائر، حتى فرضت السلطات الإفرنسية الحصار على (٦٥) عضواً من أعضاء المؤتمر في ضاحية «مصطفى»- حالياً حي الجزائر - خلال أيام ٢٢و٢٣ و٢٤حزيران - يونيو-. ولم يحرك «جوريس» ساكناً حول هذه القضية. وعبر «جوريس» عن مشاعره تجاه «المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي العمالي الجزائري» بقوله: «**من المعتقد بأن الجزائر المستعمرة تسير في طريقها نحو الاستقلال الإداري، وستعلن بحزم أنها ضد اليهود**». **كما أعلن عند مغادرته للجزائر**: «**بأنه من الصعب القيام بعمل له أهميته بشأن الجزائر**».

يمكن هنا التوقف قليلاً عند مقولة «ضد اليهود» وهي التي سبقت مقولة «ضد السامية» في الجزائر. ويتطلب ذلك العودة إلى ردود فعل المهاجرين اللاتين تجاه اليهود، والذين هاجروا للاستيطان في الجزائر حاملين معهم أفكارهم ومعتقداتهم المضادة لليهود. ومعروف أن اللاتين يحملون حقداً ضد اليهود «قتلة السيد المسيح- بحسب اعتقادهم». وقد بقي هذا الاعتقاد قوياً في وسط الاسبانيين الذين استوطنوا في «وهران» والمالطيين والايطاليين الذين استقروا على ساحل قسنطينة وفي «الجروة». وعندما صدر «قانون كريميو»- بمنح الجنسية الإفرنسية لليهود -أفاد هؤلاء الكاثوليك منه لإثارة الأحقاد في أوساط المواطنين الجزائريين المسلمين، والتظاهر في الوقت ذاته بالأسف لاضطرارهم لمحاباة اليهود- الذين أصبحت لكتلة أصواتهم الانتخابية ثقلها في التحكم بانتخاب نوابهم. وأصبحت الحركة المضادة لليهودية في الجزائر، منذ ذلك الحين، قاعدة في لعبة الانتخابات البرلمانية.

تشكلت أول «جمعية ضد اليهود» في الجزائر، غداة انتخابات تموز- يوليو- ١٨٧١. وقام أفراد المعسكر الذي فشل في الانتخابات بتوجيه اتهاماتهم لليهود، كما أدانوا قانون كريميو الذي تسبب في إثارة القبائل الكبرى التي احتضنت ثورة المقراني والحداد (سنة ١٨٧١). واستخلص الجمهوريون (الانتهازيون) النتيجة من ذلك، فقرروا استثمار القوة الانتخابية لليهود، وأخذوا في اجراء الاتصالات مع سماسرة اليهود الذين تعهدوا لهم بضمان النجاح في الانتخابات بصورة مستمرة. وذهب اليهودي الشهير

«سمعون كانوي»(١) الى ما هو أبعد من ذلك، فقد أعطى اسمه لجهازه (الكانوي) الذي ضمن النجاح في الانتخابات «للحزب الجزائري» طوال عشرين عاماً، وهو الحزب الذي كان من أبرز نوابه المعروفين «برتانيا وطومسون»(٢).

وأمام هذا الموقف، قرر اليسار الراديكالي - المتطرف - والذي كان محروماً من السلطة، استخدام ورقة «الحركة المضادة لليهود» كبوق انتخابي، ولم يلبث أن أطلق على «الحزب الافرنسي» صفة «الحزب المناضل ضد الحزب اليهودي». وعندما خاض اليساريون الجزائريون الانتخابات البلدية، انبرى الحزب اليهودي لمحاربتهم فأطلق عليهم ألقاب «الانتهازيين الجزائريين» و«نقابة الانتهازيين»، وأمكن لهم دونما كبير عناء الانتصار على اليساريين الجزائريين. وعمل هؤلاء على إثارة الفضائح المتعلقة بتزوير الانتخابات، وأضعفت هذه الفضائح من قوة «الحزب اليهودي» غير أنها لم تزحزحه عن مواقعه. وأمام هذا الموقف، قرّر الحاكم العام للجزائر «تنظيف إسطبلات أوغياس»(٣) ولم يتردد في إفساح

---

(١) سمعون كانوي: SIMON KANOUI.

(٢) برتانيا وطومسون: BERTAGNA ET THOMSON.

(٣) تنظيف إسطبلات أوغياس (NETTOYER LES ECURIES D'AUGIAS) تعبير ورد في اسطورة أوغياس (AUGIAS) ملك الألياذة: ELIDE، والذي كانت إسطبلاته تضم ثلاثة آلاف ثور. وقد تركت هذه الاسطبلات بدون تنظيف طوال ثلاثين عاماً. وقد قام ملك مسينا: MYCENE (الملك أوريثينية EURYSTHENE) بإرسال هرقل (لتنظيف إسطبلات اوغياس) الذي عمل على تحويل نهر الفيه: ALPHEE لتنظيف الإسطبلات بعمل تميز بالبطولة: وأصبح =

المجال أمام المواطنين الجزائريين المقربين من السلطة، ودعم انراديكاليين المعادين لليهود بصورة سرية. وهكذا ظهرت في انتخابات سنة ١٨٩٥، البيانات الانتخابية التي تصف اليهود ـ بالأجانب والغرباء ـ. ومنذ ذلك الحين تعاظم نفوذ الراديكاليين اليساريين المدعومين من قبل الإدارة الحكومية. وتبع ذلك اقتراب الحزب الافرنسي من السلطة، مستفيداً في ذلك من الاستثمارات المالية الضخمة التي كانت تجنيها فرنسا من الجزائر.

لم تكن الظروف السياسية هي التي صنعت كل شيء على كل حال، فلقد انفجرت المشاعر المضادة لليهود اعتباراً من سنة ١٨٩٥، وكان ذلك بعد الأزمة الاقتصادية الحادة (١٨٩٣ـ ١٨٩٤) والتي عرفت باسم «أزمة الخمور». وكان باستطاعة المصارف مجابهة هذه الأزمة بسهولة عن طريق تقديم «السلف» للمزارعين الأوروبيين. غير أن المصارف «البنوك» امتنعت عن تقديم مثل هذه السلف، بحجة الضغط الكبير الذي تتعرض له والذي يفوق قدرتها. ولم يبق أمام المستوطنين «المعمرين» إلا اللجوء للمرابين من اليهود «مستثمري البؤس والشقاء»؛ وأدى ذلك إلى تعاظم النقمة ضد اليهود، مما أدى إلى انتشار أرجوزة مضادة لهؤلاء المرابين التاريخيين تقول:

= اصطلاح «تنظيف اسطبلات اوغياس» رمزاً لما تقوم به قيادات الدول والأحزاب والتنظيمات لتطهير أجهزتها من الفساد، وإعادة تنظيم أمورها الداخلية على أسس سليمة.

عشنا طويلاً في بؤس وشقاء

وعلينا اليوم طرد الغرباء

فلنبعد ولنطرد هؤلاء الغرباء

عصابة اليهود القذرة

وعلى الرغم من كل الظواهر، فقد تبين بوضوح بأنه لم يبق إلا خطوة واحدة للانتقال من الحركة «المضادة لليهود» إلى «الاستقلال الإداري». وقد أدان «جوليوس فيري» و«جوليوس كامبون»[١] بصورة رسمية، سياسة الدمج التي عرفت منذ سنة ١٨٨١ بسياسة «إلحاق الجزائر بفرنسا». وكانت سياسة الدمج أو الإلحاق هذه هي سياسة «الانتهازيين واليهود» كما وصفها اليساريون الراديكاليون، ومقابل ذلك تبنى هؤلاء سياسة الاستقلال الإداري للجزائر، وإقامة موازنة خاصة وبرلمان خاص لها. ولقد كان هذا الاتجاه تعبيراً عن ظهور الجيل الجديد من الافرنسيين الاستعماريين، وهو الجيل الذي أخذ في الجنوح إلى الاستقلال بالجزائر، والذي رفع شعار «الجزائر الحرة». وكان الاعتقاد السائد في وسط هذا الجيل هو: ضرورة صهر العروق الأوروبية فوق أرض الجزائر لتكوين شعب جديد. وظهر عدد من

---

(١)جوليوس كامبون: (JULES CAMBON) ديبلوماسي إفرنسي، من مواليد باريس (١٨٤٥- ١٩٣٥) أصبح حاكماً عاماً على الجزائر، ثم سفيراً لبلاده في برلين من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٤.

الكتاب والزعماء الذين عبروا عن هذا الاتجاه، لعلّ من أبرزهم «دانييل سوران»[1] الذي كان من رأيه:

«الجزائر غير فرنسا ، ولو أن الجزائريين فرنسيون. فغداً أو بعد غد، ستكون الجزائر مستقلة. إن فرنسا ترزح على صدورنا دونما شفقة أو رحمة، وهي بذلك تدفعنا لسوء الحظ نحو المخرج المرعب، وسيأتي يوم لن تكون الجزائر هي فرنسا، هذا إذا لم تصبح عدوة لها». ولماذا لا يستقل الإفرنسيون المهاجرون إلى الجزائر؟ ألم يحصل الإنكليز الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة- على الاستقلال، وحاربوا الإنكليز ذاتهم بقيادة جورج واشنطن؟

وعلى هذا، فعندما عقد المؤتمر الاشتراكي الثالث، بحضور «جوريس» سنة ١٨٩٥. تحدث الخطباء كثيراً عن اليهود، وهاجموهم بعنف، غير أن المؤتمر لم يتخذ توصيات محددة

---

(١) دانييل سوران: (DANIEL SAURIN) محام وصحفي، بدأ حياته فوضوياً وكتب نشرة بعنوان «النظام عن طريق الفوضى» ثم انتهى إلى الإشتراكية. وأصبح في سنة ١٨٩٨ رئيساً لهيئة (سانت فانسان دوبول)، وزعيماً للحركة المضادة للسامية، ثم منظماً أساسياً في حركة الإشتراكيين الجزائريين. وهي الحركة التي ولدت في الجزائر في وسط الظروف الاقتصادية الصعبة. وكان ينكر على اليهود «اختلاساتهم واستخدامهم لرأس المال كوسيلة للضغط» غير أنه كان مضاداً للسامية بقدر معادل لمعاداته للرأسمالية. وهو الذي نظم المؤتمر الاشتراكي الأول في قسنطينة سنة ١٨٨٧، ثم المؤتمر الإشتراكي الثاني في بونة- عنابة- سنة ١٨٩٣ وبعد ذلك المؤتمر الإشتراكي الثالث سنة ١٨٩٥ في الجزائر.

وواضحة ضدهم. وتركز الحوار حول الاستقلال الإداري للمستعمرين، وإجراء تشريع يناسبهم.

ومما قيل في هذا المجال: «يجب إعداد القوانين هنا في الجزائر، حيث بإمكاننا الإسهام بدعمها على الأقل، بدون انتظار طويل أو بذل عناء كبير» و«تقضي الضرورة بوضع تشريع يستجيب لحاجات المستعمرين- المستوطنين». ولم يمارس «جوريس» في المؤتمر دوراً كبيراً، باستثناء بعض الملاحظات والتوجيهات والتوصيات التنظيمية والإدارية. أما الحوار حول العلاقة مع أبناء البلاد الأصليين - العرب المسلمين - فلم يتعرض له أعضاء المؤتمر إلا من ناحية متطلبات أمن الأوروبيين، ومما قيل بهذا الشأن: **«إن الاستجابة لما يرضي - العرب المسلمين - في حدود الشرعية، ستسهم يقيناً في إزالة القسم الأكبر من ظواهر العنف القائمة بين الاستعماريين والمواطنين- انديجين»**.

كان ذلك هو موقف الافرنسيين - الجزائريين - الاشتراكيين في مؤتمرهم سنة ١٨٩٥. وخرج «جوريس» من المؤتمر بنتيجة واحدة وهي: «أن العرب والمستعمرين متفقون في نقطة واحدة على الأقل - وهي عداءهم لليهود». وأمام هذا الموقف كتب مقالاً جاء فيه:

«ما هو التطور الدقيق للممتلكات العربية؟ وما هو العدد الأقصى للعائلات العربية التي انتزع اليهود بمهارتهم ملكيتها؟ ثم ما هي حركة أو معدلات الرواتب بين العرب والأوروبيين؟ ثم ما هي نسبة الأوروبيين والعرب واليهود في مختلف الفروع الإدارية

ومختلف المؤسسات القائمة في الجزائر؟». وطرح «جوريس» قضية تعليم العرب، فأجابه المستوطنون بأنه : لا فائدة ترجى من تعليم العرب الذين يشكلون خطراً في عدائهم للأوروبيين. وعندئذ قال لهم جوريس بحزم: «ألم يحتفظ العرب بمؤهلاتهم الفكرية وقيمهم الأخلاقية؟ أليست لديهم القدرة على سبيل المثال، لإدراك معطيات الأعمال الجيدة، والأخوة الإنسانية والشجاعة والإخلاص والعرفان بالجميل، وهي القيم التي لم تزدهر في التاريخ بمثل ما ازدهرت في التاريخ العربي؟ وبالاختصار، هل توقف عرب الجزائر عن ممارسة دورهم في التاريخ، وأصبحوا يعيشون على هامشه؟».

وحمل «جوريس» على فكرة انفصال الجزائر عن الوطن الإفرنسي، بزعم أنه من المحال فصل السياسة الجزائرية، عن السياسة العامة للاشتراكية الافرنسية في العالم. وأعلن عن اعتقاده بإمكانات قيام اليهود بدور الوساطة- المصالحة بين الأوروبيين والعرب في الجزائر. وحدد لاشتراكيي الجزائر - الإفرنسيين - دوراً مزدوجاً: طرد الانتهازيين من اليهود وإبعادهم عن السلطة، وتنسيق جهودهم مع الاشتراكيين الافرنسيين، والاهتمام كذلك بالعرب- على اعتبار أنهم كتلة من البروليتاريا الفقيرة والمحرومة والتي تعيش أقسى درجات البؤس.

لقد حدد «جوريس» دور الاشتراكية في عالم الاستعمار بقوله:
«لا ينتظر التيار الإنساني منا إيقافه من أجل تصفية شوائبه. وكل ما يجب على الاشتراكيين عمله، هو أخذ المبادأة لتقديم مقترحات إنسانية أو تقديم الاحتجاجات الضرورية، سواء كان الأمر يتعلق

بالهندوس الذين يستعمرهم الإنكليز أو العرب الذين يستعمرهم الافرنسيون».

استمرت بعد ذلك أعمال التحريض ضد اليهود في الجزائر، جنباً إلى جنب مع نشاط الجيل الافرنسي الجديد العامل على الاستقلال الإداري. وأمكن بذلك خلق مناخ مثير ساعد على تشكيل موقف درامي، تفجر عن اضطرابات مثيرة في شهر أيار- مايو- ١٨٩٧، حيث دمرت المخازن والمتاجر اليهودية، وقام الأوروبيون بانتهاك حرمة المعابد اليهودية، كما هاجموا العمال العرب في معتقلاتهم، وأشعلوا النيران التي امتدت ألسنة لهيبها لتحرق الجزائر كلها. وامتدت الاضطرابات من مستغانم إلى أنكرمان ثم إلى عين تيموشنت ووصلت إلى وهران ثم إلى الجروة فالجزائر. ووقف رجال الشرطة موقف المتفرج، ولم يحاولوا مجابهة مثيري الاضطراب أو التعرض لهم. كما قامت البلديات بإبعاد اليهود. وعندما استدعت السلطات الجيش للتدخل، أظهر الضباط رغبة في عدم التعرض لمثيري الاضطراب، نتيجة حقدهم ضد اليهود، وتأثرهم بالخائن اليهودي دريفوس (الضابط الافرنسي الذي خان فرنسا لمصلحة بروسيا)[١].

---

(١) دريفوس- ألفريد: (DREYFUS - ALFRED) ضابط فرنسي، يهودي، من مواليد مولهاوس: MULHOUSE (١٨٥٩- ١٩٣٥). قام بالتجسس لمصلحة بروسيا، فأدانته المحكمة العسكرية في ٢٢ / ١٢ / ١٨٩٤ بتهمة الخيانة العظمى، وأرسل إلى «جزيرة الشيطان في غيانا الافرنسية» حيث قضى خمسة أعوام. ومارس اليهود خلال ذلك نشاطاً محموماً حتى أعيد دريفوس إلى فرنسا وأعيدت محاكمته، فأدانته المحكمة من جديد، غير أن رئيس الجمهورية «لوبيه» أصدر مرسوماً بالغاء =

واستؤنفت الاضطرابات طوال الفترة من ١٩ حتى ٢٥ كانون الثاني- يناير- ١٨٩٨، وفي هذه المرة: «وخلال دقيقتين فقط، احترقت مخازن اليهود في شارع باب الواد. واقتلعت الأبواب والنوافذ وألقي بها وسط الشارع. وتطايرت البضائع في الفضاء. غير أن أحداً لم يسرق- أو ينهب- شيئاً. ولم يشترك العرب في ذلك باستثناء بعض الأولاد». ولم تتوقف الاضطرابات إلا عندما تدخلت كتائب القناصة المسلمين، والتي قامت باعتقال خمسمائة من المتظاهرين. وكانت الظاهرة المثيرة في هذه «الحركة الشعبية الكبرى» اقترانها بطلب الاستقلال والعداء لليهود. واتخذ الاشتراكيون موقفاً واضحاً من «اللاسامية» ومن العداء لليهود، فكان موقفهم هذا ممثلاً بالمقولة التالية: «**ليسوا اشتراكيين أولئك الذين يناصبون اليهود العداء**».

لقد كان هدف «جوريس» ومدرسته الاشتراكية الإفرنسية، على ما يظهر بوضوح هو: ١ - إصلاح سوءات النظام الاستعماري لمصلحة فرنسا. ٢- إصلاح الإنحرافات اليهودية لمصلحة اليهود ذاتهم. ٣- تنفيذ مخطط دمج العرب المسلمين بالمجتمع الافرنسي وهو ما تبرزه المقولات التالية:
«لماذا لا يسمح للعرب بانتخاب عدد من ممثليهم الذين يتم

= تجريد «دريفوس» من رتبته، وتبرئته، وفي ١٢ / ٧ / ١٩٠٦ صدر الحكم ببراءة دريفوس والغاء كل الأحكام السابقة. مع منحه وسام جوقة الشرف واعادته إلى الخدمة. وقد قسمت قضية دريفوس فرنسا إلى معسكرين متصارعين، معسكر القوى اليمينية والدينية المتعصبة- ضد دريفوس- والقوى التقدمية والليبرالية مع اليهود مع قضية دريفوس.

استدعاؤهم للحضور إلى هنا بصورة دورية للمثول أمام مجلس الوزراء الإفرنسي من أجل مناقشة ميزانية الجزائر، ومن أجل طرح رغبات الشعب العربي وتطلعاته، وللاشتراك في المناقشات وفي الاقتراع على القوانين التي تتعلق بالجزائر». غير أن «جوريس» حدّد أمام مجلس الوزراء شروط اختيار من يجب منحهم حق تمثيل الجزائريين ـ من العرب ـ «وأن يقتصر هذا الحق على الموظفين والعسكريين المسلمين بالإضافة إلى أولئك الذين تخرجهم المدارس الافرنسية» و«منح العرب المسلمين ضمانات المواطنين الافرنسيين، حتى يعتادوا شيئاً فشيئاً على التنكر للضمانات التقليدية التي يجدونها في كتابهم المقدس ـ القرآن الكريم».

بذلك يمكن لفرنسا على ما يعتقده «جوريس» امتصاص نقمة العرب المسلمين: «فالغضب عند المسلمين هو أقوى من الخوف» ويمكن عن طريق الاشتراكية: «جمع كل البروليتاريا على صعيد واحد سواء منهم الافرنسيون أو الايطاليون أو الاسبان أو العرب البؤساء ـ وبذلك يتم توحيد كل العروق في الجزائر، وتوفير مناخ الثقة المتبادلة فيما بينهم» و«يبقى موقد العدالة الاجتماعية هو الوسيلة لصهر العناصر المتنافرة التي تثير الاضطراب في الجزائر. وإننا على ثقة بأن المستقبل والسلام، مرتبطان بهذه العدالة».

عقد بعد ذلك المؤتمر الخامس «للحزب الاشتراكي للعمال الجزائريين» في سنة ١٩٠٢ وقدم فيه، وللمرة الأولى، تقرير عن سياسة الاشتراكيين تجاه المسلمين، وتضمن هذا التقرير: «١ـ يجب على البروليتاريا الجزائرية الاهتمام بالمواطنين ـ المسلمين ـ

والدفاع عن حقوقهم لفرض المساواة في الرواتب. ٢ـ تطبيق سياسة الدمج وفرضها بالقوة. ٣ـ جعل التعليم الإفرنسي إلزامياً ومجانياً. ٤ـ فرض اللغة الإفرنسية على كل المواطنين المسلمين، حتى في المساجد. ٥ـ منع إصدار الصحف باللغة العربية».

وكان تعليق «جوريس» على هذا التقرير ـ ما يلي: «أهنىء نفسي وأنا أرى ما يتم اتخاذه من إجراءات ضد الفقر وما يتم التوصية به من مضاعفة لعدد المدارس والمستوصفات، وإحياء تلك الصناعات الوطنية الأصيلة التي كان يمارسها الجزائريون. ومنح هذا الشعب أخيراً الشعور بأن فرنسا تستخدم تجاهه الكرم والطيبة». وحدد «جوريس» الهدف من ذلك، وهو: «دعم التوسع السلمي بأساليب معقولة لمصلحة فرنسا والحضارة الإفرنسية، وتجنب التوسع عن طريق الغزو العسكري»[١].

عقد بعد ذلك مؤتمر أمستردام سنة ١٩٠٤، والذي ضم ممثلي اليسار في العالم، وتمخض عن هذا المؤتمر ولادة «الحزب الاشتراكي الموحد». ثم عقد هذا الحزب مؤتمراً في شتوتغارت بألمانيا سنة ١٩٠٧، واتخذ مواقف واضحة ضد الاستعمار واستغلال الشعوب بعضها لبعض وأدان سياسة الدمج التي كان يتبناها الحزب الاشتراكي الإفرنسي. وأوصى بتوجيه نداء للمسلمين في العالم كله من الهند حتى المغرب، لإعادة بعث مؤسساتهم الدينية، غير أنه كان من المحال تحقيق ذلك، بعد أن

---

(١) المرجع الرئيسي لهذا البحث إفرنسي (السياسات الاستعمارية في المغرب ـ أغرون) ص ١٥٢ ـ ١٧٧.

عملت الدوائر الاستعمارية على تحطيم كل القيادات والمؤسسات الدينية في المغرب العربي- الإسلامي.

غير أن الجزائر لم تعدم الوسيلة للتأكيد على أصالتها الثوروية، وبرز ذلك من خلال جهد «الأمير خالد» لتأسيس «حزب الجزائر الفتاة». والغريب في الأمر أن «الحزب الاشتراكي الافرنسي» لم يحاول بذل أي اهتمام بقضايا المواطنين الجزائريين، إلا عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، في سنة ١٩١٤. وكان ظهور حزب الجزائر الفتاة، في واقعه، وعلى الرغم من كل الظروف التي أحاطت به، مجرد تعبير عن «يقظة الإسلام». كما كان اشتراك الجزائريين في الحرب، وما قدموه من تضحيات تعبيراً آخر عن «الوجود الإسلامي» غير أن هذا التعبير بقي مرتبطاً بالإدارة الاستعمارية. ولعلّ ذلك هو الذي دفع بالحزب الاشتراكي الافرنسي إلى إعادة تقويم موقفه من الجزائر الإسلامية وقضيتها.

«فليشهد الله: بأنني لست من أولئك الباحثين عن شرف الوصاية . لقد اقتحمت مجال العمل السياسي، وخضت الصراع في مجالس النواب ـ المنتخبين ـ للدفاع بكل ما وهبني الله من القوة، وبكل ما في قلبي من الحب، عن مصالح إخواني المسلمين ورفع الضرر عنهم».

الأمير خالد الهاشمي

الفصل الثاني

١ـ الأمير خالد ـ من دمشق إلى الجزائر ـ

٢ـ في أفق الصراع السياسي (١٩١٣ـ ١٩١٩)

٣ـ مع لعبة التمثيل والانتخابات (١٩١٩ـ ١٩٢٢)

٤ـ الصفحات الأخيرة في جهاد الأمير خالد (١٩٢٣ـ ١٩٣٦)

١ـ الأمير خالد ـ من دمشق إلى الجزائر

كان صورة عن عصره، ومرآة انعكست عليها أحداث أمته ووطنه، غير أنه لم يكن مجرد صورة سلبية أو مرآة جامدة فحسب، بكلمة أوضح، لم يعش حياته العامة منفعلاً بقدر ما كان فاعلاً، ولم يشترك في أحداث قومه متأثراً بقدر ما كان إيجابياً ومؤثراً. لقد حمل في أعماق نفسه، وهو ما زال صغيراً، جراح أسرته، وما كانت تعانيه من مرارة البعد عن الوطن، وضغوط القهر. وصحيح أن العالم الإسلامي كان في تلك الحقبة التاريخية مفتوح الرحاب أمام كل المسلمين للحركة والتنقل، لا حدود ولا سدود أمام الإنسان المسلم في وطنه الكبير، وصحيح أيضاً أن العرب والمسلمين قد احتفظوا حتى تلك الفترة بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة منذ مئات السنين، ومنها استعدادهم الدائم للارتحال والاستيطان في أي مكان يختارونه، وأي موقع يريدونه في كل ديار الإسلام. وصحيح بعد ذلك، أن دمشق الخالدة بقيت أبداً كعهدها، قاعدة صلبة للعروبة والإسلام، بحيث يستطيع الإنسان

المسلم أن يركن إليها ويرتاح فيها، ويجد في رحابها أهلاً تربطه بهم وتشدهم إليه روابط الإسلام الوشيجة. غير أن الظروف التي أحاطت بانتقال أهله وعشيرته وذوي قرابته وبني قومه، لم تكن في كل الأحوال ظروفاً طبيعية.

لقد احتل الاستعمار الإفرنسي موطن الآباء والأجداد. وقام جده بتولي قيادة الجهاد في سبيل الله، حتى إذا ما انتصر الباطل على الحق في غفلة من الزمن، لم يعد باستطاعة قائد الأحرار البقاء فوق ميادين جهاده ومنتجع قومه، فغادر موطن صباه، ومضى في رحلة العمر الشاقة حتى وصل «دمشق». وهنالك، استقر بمن معه، واستمرت دورة الحياة في مسيرتها. فكبر الأبناء وتكاثر الأحفاد. وكان منهم ذلك الشاب الذي نشأ وهو يحمل في أعماق نفسه آمال أمته وآلامها، ذلك هو **الأمير خالد بن الهاشمي بن الحاج عبد القادر الجزائري، أبرز قادة المقاومة الجزائرية في وجه الاستعمار الإفرنسي**.

ولد الأمير خالد في دمشق يوم ٢٠ شباط ـ فبراير ـ ١٨٧٥. وكان أبوه الهاشمي بن الأمير عبد القادر، أما أمه فكانت سوداء. ولم يكن العرب ، المسلمون، يفرقون بين العروق والأجناس منذ أن أطلق الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم صيحته الإنسانية الخالدة في الديار المقدسة: (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). وهكذا نشأ خالد في «بيت التقوى». وتردد على معاهد دمشق الدينية، وأمضى في رحاب دورها ومساجدها ومراتعها مرحلة طفولته المبكرة وشبابه الغض، حتى إذا ما بدأ ساعده

يصلب على الحياة، وحتى إذا ما أخذ عوده يقسو على الأيام، قرّر «الهاشمي» العودة إلى الجزائر، في سنة ١٨٩٢، وخلف وراءه مئات الأفراد من أبناء عمومته، ممّن ضمتهم الدولة العثمانية إلى أجهزتها وقياداتها العسكرية والسياسية والإدارية، ومضى الأمير خالد وأخوه في رفقة أبيهما إلى موطن الآباء ومثوى الأجداد في «الجزائر المحروسة».

لم يستقر الأمير خالد في الجزائر طويلاً، إذ لم تمض سوى أشهرٍ قليلة حتى تمّ إرساله وأخيه إلى باريس للدراسة في ثانوية «ليسيه لويس لوغراند» بصفتهما طلاباً داخليين يتقاضى المعهد منهما التعويضات المقررة للدراسة.

استخدمت السياسة الاستعمارية الافرنسية، في جملة وسائلها، أسلوب اختيار أبناء زعماء البلاد الخاضعة لاستعمارها، وضمهم إلى الجيش، فكانت بذلك تحتفظ بهم كرهن ـ رهائن ـ. وتضعهم في الوقت ذاته تحت مراقبتها المباشرة، بالإضافة إلى استخدامهم لضرب الحركات الوطنية إذا ما تطلب الأمر.

وميزت السلطات الافرنسية بين هؤلاء الذين يقبلون التخلي عن جنسيتهم ويقبلون الجنسية الافرنسية، حيث كانت تفتح لها المجالات للترفيع في سلم الرتب العسكرية، مع تعيينهم في القوات الافرنسية. أما أولئك الذين يرفضون اعتناق الجنسية الافرنسية، فكان ترفيعهم يتوقف عند رتبة نقيب (كابتن)، مع تعيينهم في القوات الوطنية فقط (الأنديجين). وعلى هذا، قبلت

الكلية العسكرية الإفرنسية (سان سير)[1] الأمير خالد- بدون إجراء الفحص العادي للقبول - وذلك في ٧ تشرين الثاني - نوفمبر- ١٨٩٣. وحاولت الإدارة الإفرنسية قبول الأمير خالد لا كأجنبي، وإنما كمواطن فرنسي- على أمل قبوله الجنسية الافرنسية قبل تخرجه من الكلية.

وأظهر الأمير خالد تفوقاً واضحاً في دراسته العسكرية، غير أنه ترك الكلية قبل الوقت المحدد لامتحانات التخرج- وغادر باريس في مطلع سنة ١٨٩٥. وذكر أن السبب في ذلك هو ما تضمنته إضبارته من أوصاف في غير مصلحته مثل: «متكتم منطوٍ على ذاته، يميل إلى العنف، يحتقر رؤساءه ويزدريهم». والحقيقة أن سبب تركه للكلية هو إصابة والده بمرض وصل به إلى مرحلة خطيرة، ونفاد موارده المالية، مما دفعه إلى استدعاء ابنه خالد للوقوف إلى جانبه في آخر أيامه. المهم في الأمر هو أن حكومة باريس شعرت بالقلق تجاه تقلب مزاج الأمير الهاشمي، ونواياه المضادة لفرنسا. علاوة على الديون الضخمة التي بات يرزح تحت أعبائها، مما قد يدفعه إلى الثورة أو ترك الجزائر مع كل أفراد

---

(١) سان سير: (SAINT - CYR, L'ECOLE) مدينة صغيرة تقع في مقاطعة (السين والواز- SEINE - ET - OISE) في دائرة فرساي. وبها الكلية الحربية التي تحمل اسمها، وقد أنشئت هذه الكلية سنة ١٨٠٨ في منزل قديم كان شيّد لتعليم الفتيات الصغيرات في سنة ١٦٨٥- أيام الملك لويس الرابع عشر، وباشراف السيدة مانتونون: MAINTENON. وقد دمرت الكلية الحربية أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠- ١٩٤٤) فنقلت مؤقتاً إلى كوتكيدام COETQUIDAM سنة ١٩٤٧. وأعيدت بعد ذلك إلى مكانها في «سان سير».

أسرته مما قد يثير النقمة في ظروف كانت الإدارة الافرنسية تحرص كل الحرص خلالها على تهدئة البلاد وإخماد عوامل النقمة. وعلى هذا تلقى رئيس المباحث الخاصة أمراً بإعاقة سفر الأمير خالد إلى الجزائر. ولكن هذا الأمر لم يكن ليعيق عائلة الأمير الهاشمي من ركوب البحر بصورة سرية ومغادرة الجزائر، وعلى هذا فرضت السلطات الإفرنسية على عائلة الهاشمي الإقامة الاجبارية في «بوسعادة».

وكانت السلطات العسكرية الإفرنسية تتابع باهتمام ما كانت تقوم به السلطات المدنية من أعمال ضد عائلة الهاشمي، وأدركت مدى الخطأ الكبير الذي وقعت فيه هذه السلطات المدنية، فأخذت على عاتقها تصحيح الموقف، ونجح الجنرال «كوليه»[١] في رفع هذه العقوبة، وأعيد قبول الأمير خالد من جديد في الكلية الحربية «سان سير» فالتحق بها يوم ١٥أيار- مايو - ١٨٩٦ وذلك لإكمال المدة المحددة لدراسته العسكرية.

تجاوز الأمير خالد هذه البدايات الشاقة، ورفض قبول الجنسية الافرنسية، ولم يبق أمامه إلا متابعة حياته العسكرية العادية (ضابطاً في جيش المواطنين الجزائريين)[٢].

تخرج الأمير خالد برتبة ملازم ثان في الجيش، وكان عليه الانتظار لمدة خمس سنوات حتى يتم ترفيعه لرتبة ملازم- هذا في

---

(١) كوليه: GENERAL COLLET - MEYGRET

(٢) ضابطاً في جيش المواطنين - ترجمة الاصطلاح: OFFICIER AU - TITRE INDIGENE.

حين كانت المدة المحددة للترفيع هي أربعة أعوام فقط ـ ولم يكن باستطاعة الأمير خالد تفسير هذا التأخير إلا أنه وسيلة للازعاج المتعمد. وقد مارس الخدمة في وحدات فرنسية لمدة سبعة أعوام وذلك خلافاً لرغبته حيث كان قد طلب تعيينه في إحدى كتائب الصبايحية الجزائرية. وكان تعليقه على ذلك ـ في وقت لاحق ـ بما يلي: «لقد كنت دائماً، وبدون أي حجة أو ذريعة موضعاً للشبهات والشكوك».

كان الأمير خالد يعاني في هذه الفترة من الإحباطات المتتالية، فقد كان يعتبر نفسه ممثلاً لقومه، غير أن السلطات الافرنسية لم تكن لتتعامل معه إلا كملازم في الجيش الجزائري. ولعلّ هذا ما يفسر سبب إرساله لبرقية التهنئة التالية لرئيس مجلس النواب الافرنسي في الأول من كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٠٢: «لنضرع إلى الله من أجل رفاه فرنسا وعظمتها». وقد ردّ الرئيس الافرنسي على هذه التهنئة، غير أن الحاكم العام للجزائر تدخل في الأمر، وعمل على تأخير تسليم الرد حتى يوم ١٤ تموز ـ يوليو ـ حيث مناسبة عيد الثورة الافرنسية.

وكان الأمير خالد قد طلب في سنة ١٩٠٠ منحه لقب ـ آغا ـ غير أن السلطات الحاكمة في الجزائر رفضت الاستجابة حتى لهذا الطلب المتواضع الذي لا يشير إلا إلى رغبة الأمير في تجاوز حدود رتبة الملازم ـ التي هي رتبة أصغر من شأنه دونما ريب ـ. وخلال ذلك، لم تكن هموم مواطنيه لتغيب عن أنظاره، مما تركه نهباً لمشاعر القسوة والمرارة. يضاف إلى ذلك ما كان يعانيه من نقص

الموارد المالية، الأمر الذي جعله ـ كأبيه ـ ساخطاً باستمرار على مجمل الأوضاع العامة والخاصة في أموره الحياتية.

المهم في الأمر، هو أن الأمير خالد نقل لفترة قصيرة، للخدمة في كتيبة الصبايحية الأولى، في سنة ١٩٠٤ أو ١٩٠٥، وفي سنة ١٩٠٧، استدعيت كتيبته للعمل في المغرب ـ مراكش ـ للإسهام فيما أطلق عليه صفة «عمليات تهدئة الشوايا». وأظهر الأمير خالد كفاءة عالية في قيادة قوته تحت نيران المعركة، الأمر الذي استحق الاشادة بسلوكه في تعميم «الأمر اليومي للجيش». وتم ترفيعه سنة ١٩٠٨ إلى رتبة نقيب (كابتن) فكانت هذه أعلى رتبة يمكن أن يبلغها ضابط جزائري لا يحمل الجنسية الافرنسية. وكان رؤ ساؤه قد وعدوه بمنحه وسام جوقة الشرف (ليجيون دونور) تقديراً لجهوده وبطولته، كما وعدوه بتعيينه نائباً للحاكم العام للجزائر غير أن شيئاً من هذه الوعود لم يتحقق. ومقابل ذلك، أقر له الحاكم العام للجزائر حق تقاضي تعويض سنوي قدره (٢٨٠٠) فرنك إفرنسي، تم رصده في موازنة الجزائر، بالإضافة إلى التعويض السنوي الذي كان يتلقاه من وزارة الخارجية الافرنسية، شأنه في هذا التعويض شأن كل ورثة وأحفاد الأمير عبد القادر الذين كانوا يتقاضون تعويضات مماثلة. وعلم الأمير خالد في هذه الفترة بأن رئيسه قد تلقى توبيخاً من الحاكم العام للجزائر، لأنه أرسل الأمير خالد إلى «الشوايا» بدون استشارته او اخذ رايه.

لقد كانت الادارة الافرنسية ترغب يقيناً في عدم إتاحة الفرصة أمام الأمير خالد للحصول على هيبة عسكرية، غير أن سلوكه في

المغرب ضد رغبة الافرنسيين هو الذي ساعد الحاكم العام للجزائر علي اتخاذ موقفه العدواني، فقد كانت فرنسا تتظاهر بالحياد من الصراع الدائر في المغرب بين السلطان عبد العزيز وبين ابن عمه الثائر ضده مولاي عبد الحفيظ. وقد اتخذ الأمير خالد موقفاً صريحاً إلى جانب السلطان عبد العزيز، وعندما نجح مولاي عبد الحفيظ في خلع السلطان، حاول التحرك لدعمه. وهكذا اتجه الأمير خالد للالتقاء بعمه الأمير عبد الملك الذي كان قائداً سابقاً ـ جنرالاًـ في الجيش العثماني، ثم انتقل للعمل مع القوات الإفرنسية، فقاد رتلاً فرنسياً من طنجة بهدف استثارة القبائل لمصلحة السلطان المخلوع والذي لجأ إلى طنجة. وصرح الأمير خالدـ فيما بعدـ بأنه تحرك لإنقاذ عمه ودعمه، وذلك بعد أن أعلم رؤساءه بتحركه. وزعمت السلطات الافرنسية أن هذا التحرك قد سبّب لها حرجاً كبيراً في المغربـ وفقاً لتقويم الجنرال ليوتي الحاكم العام للجزائرـ . وصدر الأمر إلى النقيب خالد بتجنّب إجراء أي اتصال مع عمه الأمير عبد الملك.

اعترفت فرنسا بنظام السلطان الجديدـ مولاي عبد الحفيظ، وأصبح الأمير خالد خصماً في نظر النظام الجديد في مراكشـ المغربـ ولم يعد باستطاعته العودة إلى المغرب بصفته ضابطاً في الجيش الإفرنسي. وهكذا فعندما جاء دور كتيبته للتوجه إلى (وجلة) في سنة ١٩١٠، طلب إليه عدم مرافقة كتيبته من جند الصبايحية، الأمر الذي أغاظ الأمير خالد، ودفعه إلى الاستقالة من الجيش في نيسانـ إبريلـ ١٩١٠. وهنا تدخل قائد الفيلق

الإفرنسي التاسع عشر- الجنرال بايود -[1] والذي كان شأنه شأن معظم القادة الإفرنسيين ممّن كانوا ينظرون بتقدير كبير لكفاءة الأمير خالد وقدراته. وطلب إلى السلطات الإفرنسية في الجزائر السماح له بضم الأمير خالد إلى قواته في الدار البيضاء - كازابلانكا- غير أن وزير الخارجية الافرنسية رفض هذا الطلب بتحريض من الحاكم العام للجزائر- الجنرال ليوتي-. غير أن الجنرال بايود نجح في النهاية باقناع الأمير خالد بالعدول عن استقالته وسحبها، كما حصل له على إجازة من القيادة في تموز- يوليو- ١٩١١، لمدة أشهر عديدة يقضيها في دمشق.

وعندما عاد إلى كتيبته في سنة ١٩١٢ كان على هذه الكتيبة ركوب البحر، والانتقال إلى المغرب، **وعادت المشكلة للظهور من جديد: ماذا يفعلون بالأمير خالد؟ وقام الجنرال بايود بطرح المشكلة مباشرة على الجنرال ليوتي، بقوله: «يجب أن يرافق الأمير خالد سريته، ذلك لأنه إن لم يرافقها فسيصاب بحرج - معنوي- قد يدفعه ليصبح عدواً». ولكن الحاكم العام للجزائر، ليوتي، أجاب بقوله: «إني أعرف خالداً معرفة وثيقة جداً،**

---

(١) الجنرال بايود: GENERAL BAILLOUD - قائد إفرنسي، كان الأمين العام لرئيس الجمهورية الإفرنسية فيليكس فور FELIX - FAURE، ١٨٩٥ - ١٨٩٩. ثم تولى قيادة الفيلق التاسع عشر في الجزائر والتابع للجيش الإفريقي، وأحيل إلى التقاعد سنة ١٩١٤، فرشح نفسه لانتخابات المجلس النيابي- نائباً عن الجزائر- وممثلاً لجبهة الدفاع عن العلاقات الإسلامية- الإفرنسية. غير أن خصمه «بروسه- BROUSSAIS» المدافع عن مصالح الاستعماريين- الكولون- فاز عليه في الانتخابات.

واعترف له بذكائه الحاد جداً، وبإخلاصه لأصوله ووفائه بالتزاماته تجاه تقاليده العرقية. غير أنه سبب حرجاً لنا في أزمة سنة ١٩٠٨. إنه عنصر شغب واضطراب. خذه إلى الجزائر».

على كل حال، لقد شعر النقيب خالد بالشكوك وهي تحيط به، فقرر أخذ المبادأة، وتقدم إلى حكومة باريس بطلب لإعفائه من الخدمة وتسريحه من الجيش، ولم يستسلم للوعود أو الإغراءات بإمكانية استدعائه في وقت لاحق للخدمة في المغرب ـ مراكش ـ. ولم يبق أمام وزير الحربية الافرنسي (ميسيمي) إلا أن يعبّر عن أسفه، وقبل استقالة النقيب خالد في ١٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٩١٣. ولكن هذه الاستقالة حدّدت على شكل إجازة مفتوحة لمدة ثلاث سنوات، ومنح وسام جوقة الشرف برتبة فارس للأمير خالد مكافأة له على شجاعته في حملة سنة ١٩٠٨.

حانت الفرصة التي طالما تطلّع إليها الأمير خالد وهي الانتقال للعمل السياسي، وإظهار خصومته الدفينة للاستعماريين. ولم يبق لديه مجال للانتظار، فقد تفجّرت القروح التي طالما عانى من آلامها بعد كل تلك المتاعب والعقبات. فبدأ بالتدخل منذ سنة ١٩١٣، في الانتخابات المخصصة لاختيار المندوبين الماليين. وعمل على دعم أحد أصدقائه « زروق الحلاوي» ضد مرشح الإدارة الإفرنسية «بن سيام» وكان الفشل من نصيب صديق الأمير خالد.

وأفادت الإدارة الإفرنسية من هذه المناسبة لتوجه إلى الأمير خالد اتهاماً: «بأنه يخطط لإثارة الاضطرابات» وأنه «يحرض على

توجيه الانتخابات بصورة مسيئة» وأنه يجب ـ نتيجة لذلك حرمانه من «التعويض السنوي الذي يتقاضاه من خزانة الجزائر». فكان ردّه على ذلك: **«بأنه لم يترك له الخيار لخدمة فرنسا من أجل المال»**. ولم يعد من الصعب على الأمير خالد اتخاذ قراره للمضي قدماً في مجال الصراع السياسي. وقد التفّ حوله أصدقاؤه وهم يشجعونه لممارسة دوره السياسي. وقال الأمير خالد في ذلك: **«لم أرغب أبداً أن أكون أكثر من جندي. غير أنني لم أعد قادراً على الخدمة منذ الآن فصاعداً، بدون أن أخسر علاقاتي بفرنسا وبإخواني في الدين»**.

بدأ الأمير خالد اعتباراً من هذا التاريخ في الظهور كواحد من أبرز قادة حركة «الجزائر الفتاة» وكانت هذه الحركة السياسية قد أخذت طريقها إلى الظهور منذ سنة (١٩٠٠) وضمت في صفوفها نفراًمن الشباب الجزائريين المسلمين الذين تلقوا دراساتهم في المدارس الافرنسية بالإضافة إلى العناصر المستقلة من رجال الإدارة الافرنسية. وبذلت الحركة جهداً واضحاً لضم العناصر المثقفة والنشطة والتي تعتقد بجدوى الدمج مع فرنسا، مع فتح المجال أمام المسلمين، لتمثيلهم بدرجة أكبر في المجالس المحلية وأجهزة الإدارة الوطنية.

وقد اصطدمت هذه الحركة، منذ البداية، بالإدارة الافرنسية في الجزائر والصحافة التابعة لها، غير أنها لقيت بالمقابل دعماً قوياً من فرنسا، ومن الشخصيات السياسية الليبرالية بصورة خاصة[١]

---

(١) كان في مقدمة هذه الشخصيات ألبان روزيه ALBIN ROZET

غير أن حركة «الجزائر الفتاة» بقيت حركة محدودة لا تمثل أكثر من فئة محدودة من المواطنين، ولا تحتل مركزاً مناسباً بين مراكز القوى المتصارعة على الساحة الجزائرية- الافرنسية. وقد حاولت الحركة إقناع الرأي العام في أوساط المسلمين بقبول الخدمة العسكرية الالزامية في الجيش الإفرنسي (والتي فرضت بموجب قانون صدر سنة ١٩١٢)، وذلك مقابل منح المواطنين المسلمين الحقوق السياسية. غير أن الحركة فشلت في إقناع المسلمين كما فشلت في الحصول على الحقوق السياسية. ورفض المسلمون المحافظون الذين كانت تدعمهم الإدارة الاستعمارية الجزائرية الاعتراف بحركة «الجزائر الفتاة» التي اعتبروها حركة لا تمثل الا الشباب السياسي الطموح.

أما الاستعماريون فكان رأيهم حاسماً وواضحاً: «اطردوا هؤلاء الشبان الأتراك - أنصار الجامعة الإسلامية». في حين كان الموقف في فرنسا مناقضاً تماماً لموقف الاستعماريين في الجزائر، حيث أخذت أكثر العقول السياسية المتطرفة في مناصرة حركة «الجزائر الفتاة» والمطالبة بفتح المدن الافرنسية أمام هذه النخبة المتطورة، وذلك تجنباً لما قد يحدث في المستقبل من اضطراب أو ثورة. وكان هذا الموقف السياسي لحركة «الجزائر الفتاة» الذي يصدم الإدارة الافرنسية في الجزائر، هو الذي جذب إليه الأمير خالد بن

=ومسيمي: A. MESSIMY وآبيل فيري: ABEL FERRY وجورج ليغس: GEORGES LEYGUES وجورج كليمنصو: GEORGES CLEMENCEAU.

الهاشمي. وقد كان هناك يقيناً بعضاً من التناقض بالنسبة لهذا الضابط، الذي يمثل في سلوكه السيد الشرقي الكبير والذي أخذ إخوانه في مناداته منذ ذلك الحين «بالأمير خالد». ثم أصبح لزاماً عليه أن يمثل دوره السياسي، باعتباره بطلاً لنظام الدمج مع فرنسا.

غير أن هذا التناقض لم يكن مثيراً في تلك الحقبة التاريخية، وها هو نائب نانسي- المقدم دريانت - يقدم الأمير خالد إلى أعضاء الحركة بقوله: **«إنه رجل له مكانته السامية، يتحدث باللغة الإفرنسية بطريقة مثيرة للإعجاب، وهو يعرف تماماً متطلبات مواطنيه واحتياجاتهم، وليس إخلاصه لهم بالأمر المثير، كما أنه من غير المثير أيضاً وفاءه بالتزاماته تجاه فرنسا وطنه بالتبني»**. ثم أليس الأمير خالد، واحداً من هذه النخبة المختارة من أبناء المسلمين الذين اكتسبوا الظواهر الافرنسية واللسان الافرنسي، مع بقائهم أوفياء لتقاليدهم العربية وعقيدتهم الإسلامية؟ وهل باستطاعة الأمير خالد التنكر لما يحق له أن يفخر به من أصالة المولد ونبل المحتد، الشريف، بالإضافة إلى تلك السنوات الطوال التي عاشها في ظروف متناقضة وصعبة؟ فلماذا لا يمارس بعد ذلك الدور الذي يتناسب مع تكونه الطبيعي وليعمل على استرداد الحقوق السياسية المسلوبة من قومه؟ وليحاول أن يكون مفيداً لقومه ولإخوانه في الدين بما لا يتناقض مع مصلحة فرنسا.

٢- في أفق الصراع السياسي
(١٩١٣- ١٩١٩)

غادر الأمير خالد الجزائر، وتوجه إلى باريس، فوصلها مع نهاية سنة ١٩١٣، وبدأ جولته بإلقاء المحاضرات عن «الظروف السياسية والاجتماعية التي يعيشها المسلمون في الجزائر». وطرح خلال محاضراته برنامج حزب «الجزائر الفتاة» ودافع عنه بكبرياء ولكن بطريقة ديبلوماسية.

ومما قاله: «نحن أبناء عرق له أمجاده، وله عظمته، وهو ليس بالعرق الأدنى، غير أنه يعاني في هذه المرحلة من قصور كبير في التقويم، وهو يرفض أن يزج نفسه على طرق المستقبل التي يفتحونها أمامه. ولكنه لن يستمر في رفضه هذا» ومما قاله أيضاً: «يشتكي المسلمون من حرمانهم من فرص التعليم، كما يشتكون من النظام الاستثنائي الذي فرض عليهم». ويتعرض الأمير خالد لمواقف جده الأمير عبد القادر حين يقول: «عندما نعتقد بأن تاريخنا قد انتهى، فإنه سيبدأ معكم أنتم الافرنسيون. تماماً على نحو ما انتهى تاريخ أجدادكم الغول ليبدأ مع روما». وفي النهاية

أثار الأمير خالد قضية التقارب الإفرنسي- العربي في الجزائر فقال: «إن الحلف العضوي الذي يمزج قوى الإفرنسيين بقوى المواطنين الجزائريين من شأنه تحقيق التقارب في المستقبل بين العرقين- أو الجنسيتين- ومن الحكمة بمكان منح هؤلاء الذين قبلوا أداء كل واجباتهم بما في ذلك دفع الضرائب- وضريبة الدم خاصة- أن ينالوا بالمقابل حقوقهم» وأنهى محاضرته بقوله: **«افتحوا أمامنا أبواب العلم، واعملوا على مساعدتنا قدر ما تستطيعون في أيام السلم. وشاركونا في رفاهكم وعدالتكم. وعندئذ سنقف إلى جانبكم في ساعات الخطر».**

استقبل الليبراليون الافرنسيون بالهتاف والتصفيق هذا الأسلوب الذي طرح فيه الأمير خالد قضية بلاده في محاضراته طوال سنة ١٩١٤، وبلغة امتزج فيها الفخر بالسياسة، وضم فيها ما تميَّز به العرق العربي من الفخر بالماضي التليد والاعتزاز بأرض الأجداد، واستعادة الأصالة السياسية التي تجمع بين الشعبين. وكتبت صحيفة (الأزمنة) الإفرنسية في ذلك: «لقد نظرت باريس إليه بعيون امرأة خاضعة لتأثيره». غير أن الحاكم العام للجزائر استقبل ردود الفعل هذه بغضب جامح. وأصبح الأمير خالد واحداً من دعاة ومؤسسي الاتحاد الإفرنسي- الجزائري الموجه لإجراء إصلاحات ليبرالية في الجزائر. ولم يتردد الأمير خالد في دعم هذا الاتجاه فكان مما قاله بهذا الشأن: **«إذا كان من السهل التفاهم مع الافرنسيين في فرنسا، فإن ذلك يعني أن وجود مشكلة اسمها «مواطني الجزائر» هو تعبير عن خطأ الافرنسيين في الجزائر».**

وصرّح الأمير خالد بعد ذلك: «إنه لا يستطيع الثقة بالإدارة الجزائرية التي يجب عليها تطبيق القوانين التي وضعت - أو التي سيتم وضعها- أو تنفيذ السياسة الجديدة التي حددها مجلس النواب الإفرنسي في شهر شباط - فبراير- ١٩١٤». وعلى هذا طلب إلى الأمير خالد- برجاء- أن يحدد مباشرة الحقوق التي يرغَب حزب «الجزائر الفتاة» في استردادها لمصلحة المواطنين. فطلب الأمير خالد: «١- استخدام اليد العاملة الجزائرية في فرنسا وتأمين الحماية لها. ٢- رفع الضغط الذي يمارسه النظام عن المواطنين والقبائل جميعها ودونما استثناء. ٣- اجراء تمثيل صحيح ونزيه للمواطنين الجزائريين في كل الهيئات الاستشارية والمجالس التشريعية».

وكان مما قاله بهذا الشأن: «إن من يطلق عليهم اسم ممثلينا قد صنعوا في الحقيقة للعمل ضد استرداد حقوقنا الشرعية وخدمة مصالحهم الشخصية فقط، في حين أن الجزائر الفتاة، باستقلاليتها وعدم وجود مصالح شخصية لأفرادها، تمثل أصدق تمثيل الرأي العام الجزائري».

يظهر مما سبق، وبشكل واضح تماماً، أن الأمير خالد، قد وضع نفسه في موضع الخصم العنيد للإدارة الافرنسية في الجزائر ولمن يتم انتخابهم من قبل هذه الإدارة باسم «نواب إداريين».وقام منذ ذلك الحين صراع بين الحكومة الإفرنسية في الجزائر، والتي أخذت في العمل للتخلص منه، وبين وزارة الخارجية الافرنسية التي التزمت طويلاً بالدفاع عنه وحمايته. وبينما كانت الإدارة

الافرنسية في الجزائر ترى في الأمير خالد عدواً للجمهور الجزائري، كانت الوزارة الافرنسية تعتبره رجلاً مستقلاً يدين بالولاء لباريس.

ما أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى حتى أسرع النقيب خالد للتطوع على الفور في وحدات المتطوعين الجزائريين «القوم». وقد نظرت باريس إلى هذه المبادأة بتقدير كبير. في حين اعتبر الحاكم العام للجزائر أن هذه المبادأة تنطوي «على سوء النية وذات طابع تحريضي مثير».وفكّر وزير الحرب الافرنسي- في كانون الأول - ديسمبر، ١٩١٤- بإرساله إلى سوريا من أجل العمل ضد الأتراك - العثمانيين.

غير أن الحاكم العام للجزائر عارض هذه الفكرة وأسقطها. أما الأمير خالد، فكان من أنصار مبدأ قيام «الثورة العربية» التي أقرها المؤتمر العربي الأول في باريس (في كانون الثاني- يناير- ١٩١٣) والتي كانت تحتضنها الحكومة الافرنسية وتشجعها وتروّج لها منذ زمن بعيد. وقد أظهر الأمير خالد حماسته للإسهام في مشروع الثورة العربية ومعه فرسان الصبايحية الجزائريين. وصرّح بعدئذ في كانون الثاني- يناير- ١٩١٥، لصحيفة الأزمنة، «بأن تدخل الألمان في شؤون الامبراطورية العثمانية سيكون حافزاً للقيام بالثورة ضد السلطة غير الشرعية».غير أن حماسة الأمير خالد اصطدمت بعقبات أحبطت تطلعاته. وكان في جملة هذه العقبات غير المتوقعة رغبة الإدارة الافرنسية في مقاومة الطموح لدى سلالة الأمير عبد القادر، وما يتميّز به أفراد هذه السلالة من الفخر

والاعتداد بقوة الشخصية القيادية.

وجاءت مسيرة الأحداث مؤيدة لوجهة نظر الإدارة الاستعمارية، ففي ١٠ آذار ـ مارس ـ ١٩١٥ غادر عبدالملك ـ عم الأمير خالد ـ مدينة طنجة بصورة مباغتة، والتحق بمنطقة الاستعمار الاسباني ليرفع في منطقة الريف راية «الجهاد في سبيل الله» ضد المستعمرين. وانتقلت عائلة الأمير خالد بدورها إلى منطقة الاستعمار الاسباني أما الأمير خالد، فقد أعلن على الملأ التزامه بالولاء لفرنسا. وفي هذه الفترة أعلنت أجهزة الإعلام الألمانية ـ في رسائل مزعومة من عبد الملك وعلي باشا ـ تاريخها ١١ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩١٤، الاستيلاء على تازه، وأعقب ذلك نشر رسالة مزعومة ثالثة تاريخها ٢٥ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩١٥، تعلن توجه الأمير خالد إلى الصحراء ومعه (٧) آلاف رجل.

وأكدت السلطات الاستعمارية في الجزائر بأن الألمان قد أعلنوا عن تنصيب الأمير خالد سلطاناً على الجزائر في ١٢ كانون الثاني ـ يناير ـ. واجتاحت الجزائر خلال هذه الفترة شائعة تقول: «أن هناك نبوءة تنتشر من قبل الحرب عن ظهور أحد أبناء هذا الذي أضاع الجزائر، يأتي لانقاذ الجزائر، وأن هذا الابن سيحمل لقب السلطان، وسيأتي إلى الجزائر من الريف. وخدمت هذه الشائعة قضية عبد الملك الذي اختار له اسماً حركياً هو: الحاج قداح».

وعلى أثر ذلك، فكر وزير الحرب الإفرنسي بإيقاف الأمير خالد واعتقاله، غير أن الحاكم العام شكّ في صحة المعلومات التي توافرت لديه، واكتفى بالرد: «أن مثل هذا الاجراء سيؤكد

للمواطنين الجزائريين ما يتم تناقله من شائعات». وأثناء ذلك، كان الأمير خالد يمارس عمله في جبهة القتال، وقد أرسل إلى زوجته وابنه أمراً حاسماً بترك تطوان والعودة إلى الجزائر. كما التمس من الحاكم الافرنسي تقديم المساعدة لإرجاع زوجته وابنه، وقد تم تنفيذ ذلك فعلاً. واعترفت الحكومة الافرنسية بسلامة موقف الأمير خالد، وقررت منحه التعويض السنوي الذي كان يتقاضاه عمه عبد الملك، وهو مبلغ خمسة آلاف فرنك.

ولم تمض على ذلك أكثر من فترة قصيرة حتى منح الأمير وسام جوقة الشرف، وكان للشجاعة التي أظهرها في القتال تقديرها، فتم منح الأمير خالد وسام الصليب الحربي، مع الإشارة ببطولاته في عدد من المرات (بواسطة تعميم الأوامر اليومية). وقد كان لذلك دوره في إرغام الحاكم العام للجزائر على إخفاء حقده الدفين ضد الأمير خالد. غير أن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في اعتراض رسائل الأمير خالد ومراقبتها، وإحاطته بشبكة من الجواسيس حتى في وحدته، شأنه شأن المواطنين عامة. وكانت هذه الجاسوسية مصدر إثارة حقيقية للضباط وصف الضباط المسلمين مما دفع بعضهم للفرار، وإعلانهم أنهم لجئوا إلى الفرار للتخلص من هذه الرقابة المزعجة.

بقيت السلطات العسكرية مستمرة، على كل حال، في التعامل مع الأمير خالد بتقدير واحترام كبيرين. على نحو ما كان أمرها معه باستمرار. وكان الأمير خالد أثناء ذلك، في حركة دائمة وتنقّل مستمر بين الوحدات الجزائرية، لمعالجة كل ظاهرة من ظواهر

الضعف، وليعيد الهدوء والثقة لنفوس المقاتلين، وليثير حماسة الرماة بكلماته البليغة، وليؤم الصلاة علناً ويقيم شرائع العبادة الإسلامية، حتى بات من المعروف في الجزائر بأن الأمير خالد يمارس دور الشيوخ ورجال الدين.

عاد الأمير خالد إلى الجزائر مع نهاية سنة ١٩١٦، بعد أن أمضى في الجبهة فترة ثمانية عشر شهراً، لقضاء إجازته، غير أنه عاد في الحقيقة بسبب ما كان يعانيه من مرض (التدرن الرئوي-السل). وأظهرت الإدارة الافرنسية تذمرها على الفور من وصول الأمير خالد إلى الجزائر، وذلك لأنه لم يتم إعلامها مسبقاً، ولأن محرضي الشعب كانوا في انتظاره. ولم تلبث الإدارة الإفرنسية في الجزائر أن أعلنت بأن هذا المرض منتشر جداً في أوساط الشبيبة الجزائرية، وقام مدير صحيفة الإسلام - صادق بن دندون - بالترويج لهذه المقولة. وأعلنت الإدارة الإفرنسية في الجزائر- في سنة ١٩١٧- بأن مرض الأمير خالد هو «مرض مزعوم» وكانت حجتها في ذلك أن عودته قد ترافقت مع فترة الإصلاح في الجزائر، وأن الأمير خالد قد أقدم على خطبة حفيدة باشآغا مسكره - ولد القاضي- على الرغم من كونه متزوجاً وله ابن من زوجته السابقة.

وأضيف إلى ذلك رحلة الأمير خالد إلى باريس، للاشتراك في مؤتمر (جامعة حقوق الإنسان) الأمر الذي لم ترضَ عنه الإدارة الإفرنسية في الجزائر. ذلك لأن هذا المؤتمر الذي عقد في تشرين الثاني- نوفمبر- ١٩١٦، قد طالب بأن تتضمن معاهدة السلام المقبلة: «الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها» وكان

الحزب الوطني التونسي هو أول من رفع هذا الشعار وطالب بتنفيذه. وقد عمل مؤتمر سنة ١٩١٧ على دراسة المشكلة الجزائرية، وقرر قبول اعتناق قدامى المحاربين الجزائريين للجنسية الافرنسية مع احتفاظهم بوضعهم الإسلامي، مع منحهم حق الاشتراك في انتخابات مجلسي النواب والشيوخ، وكذلك حقهم في ترشيح أنفسهم لشغل المناصب البرلمانية في المجلسين المذكورين؛ وكذلك تعميم التعليم وجعله إلزامياً للجنسين الذكور والإناث. وفي الواقع، فقد تأثر الأمير خالد تأثراً كبيراً بمقررات هذا المؤتمر، وتكوّنت لديه قناعة بأن العالم السياسي الافرنسي بات مستعداً لمنح المسلمين حق التمثيل النيابي- البرلماني- بدون أن يتخلى هؤلاء عن أوضاعهم الدينية.

ما إن تماثل الأمير خالد للشفاء من مرضه حتى طلب إلى القيادة الافرنسية إعفاءه من الخدمة بصورة نهائية، لكن القيادة رفضت طلبه هذا، فعاد إلى الخدمة، ووجد نفسه، عندما تم توقيع الهدنة، قائداً لسرية في كتيبة الصبايحية الأولى- في المدية- وكانت الإدارة الإفرنسية في الجزائر تتابع تردده الدائم على مدينة الجزائر واتصالاته بحزب الجزائر الفتاة وأعضائه العاملين. كما كانت تهتم بما يظهره من تفاخر بعلاقته مع «ماريوس- موتيه»[١] ومع

---

(١) ماريوس موتيه: (MARIUS MOUTET) نائب اشتراكي فرنسي، ارسله كليمنصو إلى الجزائر ومنحه سلطات مطلقة للتحقيق في الأسباب التي أثارت الاضطرابات في أوريس، ووضع مقترحات إصلاحية تم إصدارها في قانون ٤ شباط - فبراير- ١٩١٩.

الحاشية المحيطة بالرئيس الأمريكي «ويلسون» وبنتيجة هذه العلاقة، أخذت الإدارة الافرنسية في الجزائر باتهامه بإقامة علاقات غير مباشرة مع الرئيس ويلسون والإيحاء له: «لوضع مبادئه في حقوق الشعوب لتقرير مصيرها، وبالتالي استعادة الجزائر لاستقلالها».

واستطاع الأمير خالد باستمرار الدفاع عن نفسه، وتحدي متهميه لإثبات صحة أقوالهم. وكان يردد: «لو فعلت ذلك، لغادرت الجزائر منذ عهد بعيد، ولما بقيت فيها». وظهر أن تلك الاتهامات لم تكن تستند إلا على تقارير الشرطة، وهي تقارير كانت تفتقر إلى الصحة والدقة، كما أن التقارير التي قدمها ـ المتطوعون ـ عن علاقاته بالحزب الدستوري التونسي، لم تكن صحيحة. الأمر الذي دفع الإدارة الافرنسية في الجزائر إلى طي الموضوع، وعدم رفعه إلى حكومة باريس، ووضع حد حاسم للحوار حول هذا الموضوع. غير أن الحقيقة الثابتة هي أن المبادىء التي طرحها ويلسون بشأن «حق تقرير المصير» قد تركت أصداء قوية في أوساط المواطنين الجزائريين حتى بات الحديث عن هذا الحق هو محور أحاديث العامة والخاصة في المجتمع الجزائري لمدة طويلة من الزمن.

بقي الأمير خالد محافظاً على ولائه لفرنسا بصورة عامة، على الرغم من كل المداخلات والاغراءات. وها هو أحد رؤسائه «العقيد كلوزيه» يسجل في تقريره عنه سنة ١٩١٩ ما يلي: «**أعرف النقيب خالد منذ واحد وعشرين عاماً، إنه ضابط يتمتع**

بكفاءة عالية جداً، وهو يدرك تماماً الموقف والسلوك اللذين يفرضهما عليه أصله... وإني أعتبره ـ شخصياً ـ بمثابة نموذج رائع للجندي. وإن ما حصل عليه من الأوسمة والثناءات لتؤكدان ذلك. إنه رجل واجب ومسؤولية، فخور وأبي ومتحفظ ووفي بالإضافة إلى ما ينفرد به من فضائل نبيلة وأخلاق عالية».

انطلاقاً من هذا الموقف، فإن الأمير خالد لم يشترك في مؤتمر «المغاربة الوطنيين المنفيين في لوزان» سنة ١٩١٦. كما لم يشترك في المؤتمر الثالث للوطنيين المضطهدين والذي طالب باستعادة تونس والجزائر لاستقلالهما. ولم يشترك أيضاً في «جمعية المسلمين لاستقلال الجزائر وتونس» وهي الجمعية التي تأسست في برلين (في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩١٦) (والتي ضمت إليها عمه الأمير باشا وابن عمه الأمير سعيد) [١]. وهكذا بقي الأمير خالد ملتزماً بحزب (الجزائر الفتاة) لا أكثر ولا أقل، وهو الحزب الذي صنفته المانيا في الحرب العالمية الأولى بأنه حزب معاد لها، لأن اعضاءه لم ينقادوا للوطنيين المنفيين والذين اجتمعوا في مؤتمر برلين.

وقد أعلن الأمير خالد في بداية سنة ١٩١٩، أنه من أنصار

---

(١) الأمير علي باشا هو الذي وضع «النداء الشهير للمسلمين» وطالبهم بالخدمة في جيوش الحلفاء لإنقاذ الخليفة وإنقاذ المسلمين وأماكنهم المقدسة وتحرير الجزائر وتونس والمغرب. وقد صدر هذا النداء باللغة العربية في برلين سنة ١٩١٦. أما الأمير سعيد فقد انضم إلى الحلفاء، وتولى القيادة في دمشق قبل دخول الجيش العربي إليها.

تشكيل وفد جزائري وإرساله إلى «مؤتمر السلم». ذلك لأن إنكلترا قررت على ما يقال إحاطة نفسها بممثلين عن مستعمراتها والدول التابعة لها - الدومينيون - ، وأن على فرنساأن تفعل ذات الشيء بالنسبة لمستعمراتها ومحمياتها. وقد أثارت هذه المقولة الإدارة الإفرنسية التي اعتقدت: «بأن الأمير خالد يريد تقليد الوطنيين الهنود، وإنه يعمل على تحقيق الاستقلال للجزائر من خلال مؤتمر السلم». ويجب أن يضاف إلى ذلك، أن الإرادة الافرنسية فرضت على الجزائر في تلك الفترة ستاراً من الشكوك حول كل شباب «الجزائر الفتاة»: **«هذه الحفنة من المتعلمين والطموحين والمتآمرين»** والذين ما فتؤوا يثيرون المتاعب لأنهم لم يفيدوا شيئاً من اصلاحات سنة ١٩١٩ ، وذلك لأن نسبة النواب المسلمين لا زالت محددة بما لا يتجاوز معدل ربع عدد الأعضاء في المجالس الاستشارية العامة، وثلث عدد أعضاء المجالس البلدية، وثلاثين بالمائة من عدد المنتخبين الماليين. وباتت الادارة الافرنسية تخشى من أن تقف وهي عاجزة عن تعيين المرشحين للانتخابات واحتواء نشاطاتهم وأعمالهم. لقد كان عدد من يحق لهم الانتخاب في سنة ١٩١٤ لا يتجاوز خمسة آلاف ناخب، وها هو العدد يقفز إلى مائة الف (أو على وجه الدقة ١٠٣,١٤٩ناخب يشكلون أحدعشر بالمائة من مجموع المواطنين الجزائريين الذكور والذين يتجاوزون الخامسة والعشرين من عمرهم) فهل تستطيع الإدارة الافرنسية في الجزائر توجيه هذا العدد؟... لقد كان لزاماً على الإدارة الافرنسية إعداد هؤلاء الناخبين الجدد، وتعليمهم في مؤسسات التعليم الخاصة

بالدولة، غير أن الادارة عملت بدلاً من ذلك على اتباع أسلوب مبتكر يتلخص بانقاص عدد الناخبين، وإثارة الانشقاق بين الشبيبة الجزائرية وخلق التناقضات بين العروق ـ الأجناس ـ الجزائرية وضرب بعضها ببعض.

أمام هذا الموقف، حاول الأمير خالد تشكيل حزب إسلامي واحد وموحد يضم القبائل والعرب وسواهم ويكون لهذا الحزب فروعه في كل مكان. وكان مما يردده بهذا الشأن: «لنبتعد عن العقلية العرقية فالدين الإسلامي ـ يضمنا جميعاً». ولم تقف الإدارة الافرنسية أمام هذه المحاولة موقف المتفرج، فأسرعت إلى دفع عملائها ورجال أجهزة مخابراتها للعمل بنشاط ـ في المدن الكبرى خاصة ـ من أجل إثارة التناقضات، وشحن العداء بين العرب والقبائل ـ البربر ـ والنصارى، وتحريض بعضهم على بعض. وعملت على بعث الأحقاد فيما بين القبائل، عن طريق نشر قوائم الخصوم المرشحين للانتخابات البلدية المقبلة.

بقيت «الجزائر الفتاة» تضم حتى تلك الفترة في صفوفها المسلمين ـ الافرنسيين (أي الذين حصلوا على الجنسية الافرنسية). وأراد قائد الشرطة استثمار هذا الموقف فالقى قنبلته لتمزيق وحدة الحزب من خلال طرح السؤال المتعلق بقانون الجنسية.

وكان هذا السؤال هو: هل يجب قبول الجنسية التي جاء قانون سنة ١٩١٩ ليفسح المجال أمام الجزائريين لاكتسابها، الأمر الذي يساعد ويدعم بعض أعضاء حزب الجزائر الفتاة، من أمثال

الدكتور ابن شامي والمحامي بو دربا والأستاذ صوالاح وكلهم يحملون الجنسية الإفرنسية مما يجعلهم في يوم من الأيام يقفون على قدم المساواة مع الأوروبيين عن طريق غزو المجلس الجزائري؟. أو هل يجب العمل بما يناقض ذلك، والتنكر لكل حاملي الجنسية الإفرنسية وذلك بتطبيق مبدأ التنازل عن الحالة الشخصية للمسلم كشرط لحصوله على الجنسية الافرنسية. حتى لا يسترد إلا حقوقه السياسية؟...

كان الشيخ العجوز الحاج موسى عضواً منتخباً في المجلس الاستشاري لبلدية الجزائر منذ سنة ١٨٨٤، وقد احتفظ دائماً بإخلاصه لعقيدته الإسلامية، كما احتفظ بقدرته على تحسس مشاعر قومه والاستجابة لهم. ولهذا فقد أقر الوضع الذي تفرضه الاجابة على السؤال الثاني. ووافقه على ذلك عدد من شباب حزب الجزائر الفتاة، وفي مقدمتهم الأمير خالد، والمهندس قائد حمود ومدير صحيفة الجزائر الفتاة (الأقدام) وهو الحاج عمار حمو. وأخيراً تم وضع لائحتين انتخابيتين معاديتين. وبقي أمل حزب الجزائر الفتاة معلقاً بحسم القضية- قضية الجنسية- عن طريق انتخابات المسلمين في الجزائر.

٣ - مع لعبة التمثيل والانتخابات
(١٩١٩- ١٩٢٢)

أحيل خالد بن الهاشمي على التقاعد في تشرين الثاني- نوفمبر- ١٩١٩ ، فتقدم لانتخابات بلدية الجزائر، منافساً للحاج موسى مصطفى الذي تم انتخابه بعدد (٩٤٠) مقابل (٩٢٥) للأمير خالد. في حين هزمت قائمة حزب «الجزائر الفتاة» وفشلت بسبب تبني الحزب لقضية اكتساب الجنسية الإفرنسية. وأصابت هذه الهزيمة الدكتور ابن شامي بجرح لأنه كان يعتقد في نفسه أنه زعيم حزب الجزائر الفتاة منذ سنة ١٩١٢ ، وزاد من عمق جرحه أنه لم يحصل على أكثر من (٣٣٢) صوتاً. الأمر الذي دفعه الى أتهام الأمير خالد « بالتآمر ضد السلطة الافرنسية، واستثمار تأثيراته الفوضوية».

وتبنى مدير مكتب الشرطة هذا الاتهام، فقاد الدكتور ابن شامي إلى «باريس» حتى يقوم بعرض شكاواه ضد الأمير خالد. كما تابع ابن شامي حملاته ضد الأمير خالد في صحيفة الحزب «المستقبل الجزائري» ومما كتبه بهذا الشأن: **من المعروف أنه**

استنفر الجمهور علناً، طالباً تدخله الفوضوي، ومثيراً التعصب الإسلامي ضد سياسة الدمج، وضد الحصول على الجنسية الافرنسية، متهماً حامليها بالكفار، أصحاب القبعات الافرنسية ـ البيريه». وعلقت صحيفة الأخبار على ذلك: «يجب إلغاء نتائج الانتخابات لأنها الحقت الهزيمة بسياسة الدمج، وهي السياسة غير الشرعية لفرنسا ذاتها».

المهم في الأمر، هو أن مستشارية الشرطة ألغت نتائج انتخابات البلدية بزعم أن هذه الانتخابات قد اعتمدت على «التعصب الإسلامي».

جرت بعد ذلك انتخابات نيسان (إبريل)ـ حزيران (يونيو) ١٩٢٠، وعلى الرغم من معارضة الإدارة الإفرنسية، فقد تم انتخاب الأمير خالد ـ وعلى التتابع ـ نائباً مالياً، ثم مستشاراً عاماً، وتم انتخابه بأكثرية ساحقة ضد مرشحي الإدارة الافرنسية، حيث حصل على (٧) آلاف صوت مقابل (٢٥٠٠) صوتاً نالها محيى الدين رزوق الذي كان أميناً عاماً للاتحاد الإفرنسي ـ الجزائري منذ سنة ١٩١٤، ومستشاراً عاماً بأكثرية (٢٥٠٥) صوتاً مقابل (٢٥٦) صوتاً أحرزها الدكتور تامزالي.

وفي انتخابات ١٨ نيسان ـ إبريل ـ استطاع الأمير خالد دعم أصدقائه، فأمكن ضمان النجاح لأربعة منهم، وهم محمد بن رحال والدكتور موسى وابن عموره وقائد حمود. وتم انتخاب مدير صحيفة «الأقدام ـ راشيدي» الحاج عمار حمو، مستشاراً عاماً ضد باشآغا بن سيام، والذي هزم في الانتخابات المالية من قبل شيخ

الزاوية (بن تونس). وبذلك أصبح باستطاعة حزب الأمير خالد أيضاً احتلال ٥ مناصب من مراكز المستشارين العامين البالغ عددهم ٢٩ مستشاراً.

وعلى الرغم من أن الأمير خالد ورفاقه الناجحين في انتخابات ١٨ نيسان - ابريل - لم يشكلوا أكثر من خمسة، من أصل ٢٠ منتخباً، فقد أعلن المستعمرون والإدارة الإفرنسية، الويل والثبور لما بات يتهدد الافرنسيين من خطر، على حد زعمهم[١].

وعمل رئيس الشرطة على توجيه رسالة مفتوحة لكل عمداء المدن - مخاتير - طالباً اليهم إعلامه عن متطلباتهم من البواريد والرشاشات لضمان الدفاع عن المراكز الاستعمارية.

وعقد بعد ذلك مؤتمر لعمداء الجزائر في شهر أيار - مايو - ١٩٢٠؛ تم فيه توجيه احتجاج شديد اللهجة ضد الحقوق الانتخابية التي أقرها البرلمان الافرنسي للمواطنين الجزائريين المسلمين. وأخذ هذا المؤتمر على عاتقه إثارة الاضطرابات ضد تلك القوانين.

وحذر الحكومة الافرنسية من مغبة «**المسؤولية التي تتحملها وهي تتجاوز الاعتبارات، وتخطىء التقويم، بتطبيقها للقوانين التي تتم دراستها والتصويت عليها خارج الجزائر والجزائريين**». **وأعلن رئيس منتخبي الاستعماريين، أمام النواب الماليين: «بأنه**

(١) هناك تقرير يعود تاريخه إلى شهر اب - أغسطس - ١٩٢٠ وفيه: «ليس الموقف خطيراً إلى درجة كبيرة، إذا ما أمكن لنا دعم الحزب الذي يبرهن على إخلاصه، بأكثر مما يفعله الحزب المنافس له».

يجب عدم الوقوع في خطأ منح كتلة ـ المسلمين الجزائريين ـ حقوق الانتخابات التي لا تتناسب مع حالتهم الاجتماعية ـ وهي الحالة التي كان يتم وصفها من قبل الاستعماريين بأنها حالة العصر البرونزي، إن لم تكن حالة العصر الحجري». وفي ١٥ أيار ـ مايو ـ أعلن أستاذ في جامعة الجزائر ـ هو الدكتور برنارد لافيرن ـ «بأن قانون سنة ١٩١٩ قد أفسح المجال الواسع أمام المنتخبين المسلمين بحيث أنه لن تمر أكثر من أربعة أعوام حتى تحمل الانتخابات ممثلي عائلات الزوايا والمساجد بالرغم من أنهم لا يرتبطون مع الإدارة الافرنسية بأية روابط».

والمهم في الأمر هو أن هذه التظاهرة العنيفة قد حظيت بالدعم الاجتماعي والموحد لممثلي البلديات البالغ عددهم (٢٤٦) ممثلاً. وأدى ذلك إلى قيام حملة حقيقية في مجال الصحافة، بدأتها صحيفة «صدى الجزائر» بمقال يحمل عنواناً مثيراً: «الجزائر في خطر». وأثارت في مقالها الشكوك حول صحة ولاء الجزائري المسلم، والنقيب السابق خالد. وفي ٢٠ آب ـ أغسطس ـ ١٩٢٠، أجمعت الصحافة الاستعمارية على المطالبة: «باعتقال كل المحرضين من حزب خالد».

ومضت صحيفة «برق القسنطينة» لتشير ـ حسب زعمها ـ إلى ذلك «الحقد الدفين، والقسوة الوحشية التي تطبع بطابعها العرق بكامله ـ العرق العربي الإسلامي ـ والذي مضى قرابة قرن على تحضيره بدون أن تقتلع هذه الحضارة شيئاً من وحشيته؟».

والغريب في الأمر أن الصحافة الاستعمارية ـ وهي تردد مثل

هذه الترهات، لم تحاول التعرض لما نزل بالمواطنين المسلمين من المجاعة في سنة ١٩٢٠، (حيث كانت النسوة يحملن على سواعدهن ابناءهم الموتى من الجوع). ولم تعمل هذه الصحافة ـ إلا على شحن عواطف الاستعماريين بالمزيد من الكراهية والبغضاء ـ هذا إذا كانوا في حاجة لمثل هذا المزيد ـ ضد أولئك الذين تصدوا لمجابهة الشر، والذين رفضوا الخضوع لسياسة الضغط، فقاموا للدفاع عن حقوق المسلمين، وطالبوا بتمثيلهم تمثيلاً سياسياً صحيحاً.

نشرت صحيفة (الأزمنة) في عددها يوم ٢٠ أيار ـ مايو ـ ١٩٢٠، وعلى صفحتها الأولى، موضوعاً عن التمثيل النيابي ـ البرلماني ـ للمسلمين الجزائريين، جاء فيه: «يجب أن يكون للمسلمين نوابهم في مجلس النواب والشيوخ، ذلك أن تطوير المصارحة الاستعمارية، يجب أن يتبعه تطوير مماثل وعلى ذات المستوى من الصراحة ـ من طرف المواطنين المسلمين».

وتحركت على الفور وفي الاتجاه المضاد، الدوائر الاستعمارية، فطرحت قضايا «طرح الجنسية الإفرنسية على المسلمين» و «مشكلة الأمن». وتجاوزت ذلك إلى ما يمكن تسميته «بتنظيم مؤامرة حقيقية» لاستصدار قانون «إعادة فرض السلطات التأديبية و تشديد الرقابة على المواطنين » وذلك عشية وصول الأمير خالد مع وفد جزائري إلى باريس يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ١٩٢٠.

وهنا قد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند الطريقة التي تم

اتباعها لاستصدار هذا القانون، نظراً لأنها تمثل أسلوب الاستعماريين في المكر والخداع.

كان هناك مشروع تم تقديمه من قبل السلطات الإفرنسية في ٢٠ أيار ـ مايو ـ ١٩٢٠ من أجل تمديد العمل بقانون ١٥ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٩١٤ لمدة سنتين إضافيتين. وكان لزاماً تقديم هذا القانون إلى «هيئة الشؤون الخارجية والمستعمرات» في مجلس النواب الافرنسي، غير أن تعديل هذا القانون والموافقة عليه لمصلحة المواطنين الجزائريين، كان سيحظى بدعم النائب «موتيه» صديق الأمير خالد، ولهذا فقد عمل الاشتراكي «ليون بلوم» على تحويل المشروع إلى «هيئة الإدارة العامة» وتم طرحه أمام مجلس النواب في جلسة تغيب فيها النواب الذين يدافعون عن التمديد ـ وفي مقدمتهم ـ موتيه ـ وذلك في يوم ٢١ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٢٠ . وأصبح هذا المشروع هو القانون المعروف بقانون ٤ آب ـ أغسطس ـ ١٩٢٠ . وفيه تم تمديد العمل بقانون سنة ١٩١٤ لمدة سنة واحدة فقط.

المهم بعد ذلك أيضاً، متابعة ذلك الحوار الذي تردد في البرلمان الإفرنسي. فقد وقف النائب «موتيه» لاستجواب الحكومة في موضوع السياسة التي تعتزم تبنيها تجاه المواطنين الجزائريين المسلمين. فتصدى للاجابة عليه نواب الجزائر ـ من الإفرنسيين ـ وأعلنوا: «**بأنهم يستغربون عدم إقدام الحكومة حتى تلك اللحظة على اعتقال الأمير خالد زعيم المتعصبين المسلمين**». «**وطالبوا بتكوين هيئة تتولى التحقيق في موقف النقيب السابق خالد**» ورد

موتيه على هـذا الهجوم بقوله: «إن الأمير خالد يحمل الصليب الحربي، ولديه ما يكفي من أكاليل الغار لتحميه ضد العار الذي يراد إلصاقه به»[1].

ووقف أيضاً نائب فرنسي ليقول: «بأنه كنائب اشتراكي، ارتكب عملاً شائناً وقبيحاً ضد مصلحة فرنسا، عندما حمل مجلس النواب الذي يستظل بالعلم الافرنسي - الأزرق السماوي - على الموافقة على قانون قدمه النواب الجزائريون» وكانت الكلمة النهائية والحاسمة للنائب - موتيه - الذي عاد ليخاطب المنتخبين الجزائريين - الافرنسيين بقوله: «إن سياستكم ستدفع بالمسلمين للتجمع خلف علمهم الأخضر».

هل من الغريب توجيه كل هذه السهام للأمير خالد بن

---

(١) المقصود بالعار الذي يراد إلحاقه بالأمير خالد، هو الاتهام الذي نشرته صحيفة «صدى الجزائر» وذكرت فيه أن الأمير خالد دفع ابنه للهرب إلى سوريا فراراً من الخدمة العسكرية في الجيش الإفرنسي.

وهذا الابن هو من مواليد سنة ١٩٠٠، وكان محمياً من نظام الخدمة الإلزامية بصفته ابناً لمواطن من مواطني المحميات. وعلى كل حال. فقد تطوع هذا الابن في الجيش الإفرنسي في بيروت بتاريخ ٢٢ تموز - يوليو - ١٩٢٠. وقد وجه إليه والده رسالة طلب إليه فيها أداء خدمته في الجزائر وليس في سوريا «لإعطاء المثل لإخواننا في الدين».

وقام النائب الإفرنسي - موتيه - بقراءة الرسالة التي وجهها الأمير خالد إلى ابنه - أمام مجلس النواب الإفرنسي. وجاء فيها: «إنك بتطوعك رددت السهم إلى صدور أولئك الخونة والانتهازيين الذين يهاجموننا عبر الصحافة. وأحبطت خطط الحاقدين الذين ما فتؤوا يستخدمون كافة الوسائل، ليضعونا في موقع العداء من فرنسا».

الهاشمي، وهو ما زال يحتل موقعاً ثانوياً ومتواضعاً في أفق العمل السياسي؟ في الحقيقة، أبرزت الانتخابات البلدية بصورة مباغتة نجماً تألق في ليل الظلام لمسلمي الجزائر، وأخذت كتلة المسلمين في التعرف عليه، عن كثب، وأعجبتها فيه دونما ريب قدرته على التصدي للإدارة الاستعمارية في الجزائر والانتصار عليها.

هذا السيد الكبير، الذي ينتعل دائماً الحذاء البني ويلبس القفاز الأبيض، خلق ليكون أميراً في كل ملامحه، بما في ذلك لحيته، وهو كما وصفه تقرير من تقارير الشرطة الإفرنسية: «إنه يلهب مشاعر الجماهير المسلمة حيثما اتجه، وهو يصر على طرح نفسه بصفته حفيداً للأمير عبد القادر».

وقد أخذت الشخصيات الإسلامية التقليدية في التقرب إليه والاحاطة به ومبايعته على العمل معه والاشتراك في الصحيفة التي بات يرأس تحريرها ـ صحيفة الأقدام. ولا ريب أن الأمير خالد قد تأثر بذلك أشد التأثير، فكان يسلك في ممارسته مذهب الزعماء الدينيين ـ المشايخ ـ فيؤم المصلين في صلواتهم، ويذهب لتعزية ومواساة العائلات الشهيرة بمعاداتها للاستعمار منذ أجيال عديدة. ويذكر له اشتراكه في العيد السنوي لسيدي عمار الشريف في قرية «آبو» ووقوفه لوعظ أكثر من ثمانية آلاف مسلم، تقاطروا من كل مكان للاشتراك في إحياء هذه المناسبة.

عملت الإدارة الاستعمارية من جهتها على تقديم الأمير خالد منذ فوزه بانتخابات البلدية، بصفة «الأمير المزعوم» و «رئيس

الشيوخ ذوي العمائم» و «بطل المسلمين المحافظين». وكانت ترى في نجاحه المباغت «يقظة مفاجئة للتعصب الإسلامي». وكتب الحاكم العام للجزائر رسالة إلى الوزارة الإفرنسية بتاريخ ٤ أيار ـ مايو ـ ١٩٢٠ جاء فيها: «لم تتوقف كتلة المسلمين عن الخضوع لفكرة دينية تختلط فيها تطلعات غامضة وقوية عن الوطنية الإسلامية».

كما أن منظمة الاستخبارات لشؤون الوطنيين المسلمين، خضعت للرعب من فكرة «الرابطة أو الجامعة الإسلامية» والتي كان يتم طرحها من قبل الأمير خالد قبل سنة ١٩١٤، ثم استبدالها بعد هذه السنة بشعار «الوطنية الإسلامية».

وقد اشتركت الصحافة في إذكاء مخاوف منظمة الاستخبارات من خلال طرحها لما يجسده الأمير خالد، ولو أنها كانت تعالج هذه المخاوف بأسلوب ساخر، مثل قولها: «الفزاعة القديمة للجامعة الإسلامية» «والجهاز الحربي لخصومنا: الوطنيين».

ذلك هو الموقف العام للأوروبيين في الجزائر من الأمير خالد، غير أن بعض الافرنسيين الليبراليين والذين عرفوه عن قرب اتخذوا موقفاً مؤيداً له، من أمثال فيكتور باروكاند و بوجيفا وفيكتور سبيلمان الذي سيصبح فيما بعد رئيساً لتحرير «صحيفة الأقدام».

أما في باريس، فكان هناك تناقض في الرأي تجاهه. وعلى سبيل المثال، فقد كان رأي مساعد الأمين العام للدولة في وزارة الداخلية والمسؤول عن الجزائر ـ روبرت داوود ـ والذي عمل من قبل رئيساً لمكتب الحاكم العام للجزائر فاكتسب معرفة جيدة

بأوضاع الجزائر السياسية، كان هذا الرأي واضحاً في تصريحه في شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٢٠ والذي تضمن ما يلي: «أكد الأمير خالد باستمرار ولاءه التام لفرنسا ولو أنه حشد حوله كل جماعة المشايخ، مما بات يدفع إلى التفكير بأنه تولى قيادة الحاقدين على فرنسا».

كما أن رئيس استخبارات شؤون الجزائر في وزارة الداخلية ـ بينر ـ والذي كان يستطيع أن يقوم بصورة صحيحة ما ترسله استخبارات الجزائر من معلومات، لم يعتقد أيضاً بصحة ما يقال عن دور الأمير خالد «التخريبي» فقال معلقاً على مثل هذه المعلومات: «يظهر أن هناك مبالغة كبيرة في القول بأن مشاعر الأمير خالد هي مشاعر مضادة لفرنسا».

أما الجنرال «ليوتي» فإنه لم يتوقف منذ سنة ١٩٠٨، عن إثارة الشكوك ضد الأمير خالد، فكتب الى صديق له في الجزائر يوم ٤ آذار ـ مارس ـ سنة ١٩٢٠ ما يلي: «أعرف الأمير خالد معرفة جيدة، وأعرف أية محنة أو كارثة يمثلها بشخصه» وعاد في ٦ أيار ـ مايو ـ ١٩٢٢ للقول: «لا أثق بهذا الشجاع المتهور الذي يندفع كما تندفع النار».

يظهر من خلال العرض السابق لمقومات الأمير خالد طوال سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠، أنه بقي مخلصاً، من وجهة النظر السياسية، لمبادىء حزبه ـ الجزائر الفتاة. ويبرزذلك واضحاً عبر ما كانت تطرحه «الأخبار» «من ترحيب بالحقوق التي أمكن اكتسابها بقانون سنة ١٩١٩ وخاصة ما تميز به من الصراحة في

مناقشة المجالس البلدية، الأمر الذي تحول إلى مدرسة كبرى لتعلم الحريات السياسية» وكذلك قول الأمير خالد إلى إخوانه المسلمين وهو يطلب إليهم«منح ثقتهم الكاملة لأولئك الافرنسيين الفرسان والذين يعملون بصدق من أجل تمثيلنا تمثيلاً صحيحاً».

وحدد الأمير خالد في حزيران ـ يونيو ـ ۱۹۱۹ ـ في صحيفة الأقدام مطالب الجزائريين المسلمين وهي:

١ ـ إزالة ـ أو رفع ـ القوانين الاستثنائية.

٢ ـ إقامة المجمعات المشتركة أو المختلطة (وكان الافرنسيون يقيمون مدنهم الخاصة بهم).

٣ ـ إزالة الحواجز العسكرية.

٤ ـ ضم أقاليم الجزائر الثلاثة وإخضاعها للقوانين المطبقة على الأقاليم الافرنسية ذاتها.

وعاد الأمير خالد فطالب باسم مسلمي الوطن الجزائري إجراء تمثيل للمواطنين الجزائريين في المجالس الافرنسية ـ التشريعية والتنفيذية ـ مع منح مسلمي الجزائر حقوق المواطنين الإفرنسية ذاتها بدون أي تعرض أو تغيير في حالة المسلمين الشخصية.

ويظهر من ذلك أن الأمير خالد كان يعارض سياسة الدمج الكامل للجزائر بفرنسا. وخاض في سبيل ذلك صراعاً حاداً مع صديقه «جان ميليا» الذي كان يطالب بدمج الجزائريين إدماجاً كاملاً بالافرنسيين وإصدار قانون جديد مثل «قانون كريميو» خاص بالمسلمين. وكانت حجّة الأمير خالد في ذلك:

أ ـ إن مشروع الدمج هو مشروع خيالي لأن كتلة المسلمين لا

تريده، وهي لا ترغب في نوعية المواطن الافرنسي، ولا ترضى لحالتها بديلاً بسبب تمسكها بعقيدتها الدينية.

٢ ـ إن فرنسا ذاتها لا توافق أبـداً على مثل هذا البرنامج الاجتماعي خوفاً من قيام خمسة ملايين مسلم جزائري بإغراق الافرنسيين في وطنهم[١].

وجاء في تقرير للشرطة أن خالداً رد على «جان ميليا» خلال حفل تكريم أقيم على شرفه بما يلي: **«إن إصدار قانون ـ مثل قانون كريميو ـ لا يمكن له أن يرضي المواطنين المسلمين الذين يريدون الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم والذين يتطلعون للعيش بهدوء وسلام. ولا يمكن للمواطن المسلم أن يتخلى عن وضعه الشخصي»**.

وبينما كان الأمير خالد يعارض سياسة الدمج، فإنه طرح بديلاً عن هذه السياسة «بسياسة الاتحاد». وكان يردد: «لندع الحديث عن الدمج، ولنأخذ بسياسة الاتحاد». وقد أخذ في هذا المجال بالمقولة التي طرحها بعض الافرنسيين وهي: «اعملوا على اتحاد العرقين ـ الجنسيتين ـ في إطار من الاحترام المتبادل للطرفين». وتبنى في هذا المجال شعار «فرنسا والإسلام». ومن أجل ذلك، فقد طالب بجعل التعليم الإبتدائي «عربياً ـ فرنسياً» في وقت واحد. وجعل هذا التعليم إلزامياً في الجزائر، إلى جانب إقامة

---

(١) مجلة الأقدام الإسبوعية ٢١ ـ ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٩١٩. أما تقرير الشرطة المشار إليه فتاريخه ٢٥ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢١.

جامعة عربية تقف إلى جانب الجامعة الافرنسية في التعليم العالي.

لقد كان ذلك كافياً جداً حتى يعتبر (مجلس الاستعماريين) الذي عقد في حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٩١٩ بأن الأمير خالد يجعل من نفسه «بطل العقل الوطني المسلم» وأن تعمل الصحافة الاستعمارية على وصفه «ببطل بعث الجامعة الإسلامية».

غير أن الأمير خالد استطاع أن يتجنب بكفاءة عالية ما تثيره مثل هذه المقولات من ردود فعل عند الاستعماريين الافرنسيين فقال في حديث له مع المستشار العام للإدارة الجزائرية: «بأن عائلته في سوريا وقعت ضحية العنف التركي ـ مشيراً بذلك إلى إقدام جمال باشا على إعدام الأمير عمر وابنه يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٩١٦ ـ ثم ان عائلته دفعت الثمن مرة أخرى على أيدي الوطنيين العرب».

غير أن ذلك لا يمكن أن يعيقه من الحفاظ على علاقاته مع عائلته. والبقاء على حذر من مسيرة الأحداث وتطوراتها في سوريا. «وأنه إذا ما كان يصر على طرح القضية الوطنية، فليس ذلك إلا من أجل اشراك إخوانه في الدين للعمل عبر القنوات الشرعية من أجل الوصول الى موقف أفضل». ولكن مثل هذا الدفاع لم يمنع المستشار الافرنسي من تأنيبه: «لأنه قال لخصومه ممن قبلوا الجنسية الافرنسية، بأنهم تنكروا لدينهم ولأصلهم ـ جنسيتهم».

لم يكن العمل السياسي للأمير خالد، بعد ذلك، في وسط المجالس الجزائرية، إلا ترجمة أمينة لأقواله المعروفة، ومواقفه

السياسية الثابتة، فعندما تم انتخابه مستشاراً عاماً، أعلن عن تمنياته:

١ـ بأن يتم إلغاء وعزل كافة القوانين والمجالس الاستثنائية.
٢ ـ عدم العودة للسلطات الزجرية التي كان يعتمدها رجال الإدارة الإفرنسية.
٣ ـ الموافقة على التمثيل النيابي ـ البرلماني ـ للمواطنين المسلمين.

وأما في مجال عمله في الإدارة المالية ـ بصفته عضواً منتخباً فيها ـ فقد حاول الاحتجاج على الضرائب التي تضمنها مشروع قانون يعيد فرض السلطات الزجرية ـ الانضباطية ـ وكان رد الفعل على هذا الاحتجاج كما وصفه الحاكم العام الافرنسي: «كان معظم الأعضاء المنتخبين من الكهول الذين حافظوا على وفائهم في خدمة الإدارة الافرنسية. ولهذا فإنهم رفضوا احتجاج الأمير خالد وأحبطوا له أمنيته».

وقد نقلت الاستخبارات الافرنسية في الجزائر للحكومة الإفرنسية معلومات ـ وصفتها بأنها مؤكدة ـ عن تصميم الأمير خالد على مقابلة مؤتمر عمداء الجزائر الذي عقد في أيار ـ مايو ـ ١٩٢٠ وذلك بمحاولة تنظيم مؤتمر موسع لتمثيل المواطنين المسلمين. وأن سي بن رحال والدكتور موسى يعملان مع الأمير خالد في هذا الاتجاه. ولكن لم يتحقق شيء من ذلك ـ . وكان لهذه الفكرة التي طرحها الأمير خالد ثمارها فيما بعد، حيث تم عقد أول مؤتمر «للنواب المسلمين» في الجزائر يوم ١١ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٢٧

(وهو تاريخ ولادة حركة اتحاد النواب المنتخبين للمسلمين).

وتبع ذلك توجه الأمير خالد والدكتور موسى وابن رحال إلى باريس لطرح وجهة نظرهم ومعارضة الوفد الذي أرسله الحاكم العام للجزائر (وضم محيى الدين زروق والدكتور بنثاني - أو ابن شامي - وقائد صياح سي حني) بهدف إقامة النظام (الخاص بالمسلمين). وقد وصل الأمير خالد ورفيقاه في وقت متأخر، حيث كان مجلس النواب الافرنسي قد أقر إقامة النظام الذي اقترحه الحاكم العام للجزائر. وقام رئيس مجلس النواب الإفرنسي باستقبال الأمير ورفيقيه، وخفف من مخاوفهم بشأن الأساليب التي سيتم اتباعها في تطبيق هذا القانون.

وقابل الأمير خالد مساعد الأمين العام لوزارة الداخلية الإفرنسي. وطلب تقديمه لمحكمة تنظر في الاتهامات الموجهة إليه. ومنها (ما تضمنه برنامجه الانتخابي لسنة ١٩١٩ عن استقلال الشعب العربي) وكذلك ما كانت تتضمنه الحملة الصحافية التي كان يوجهها الاستعمار ضده ومنها تهمة «تنظيمه لبؤرة الاضطرابات في الجزائر على نحو ما سبق له أن فعله في المغرب».

غير أن مساعد الأمين العام لوزارة الداخلية أجابه بقوله: «لنضرب صفحاً على الماضي» وأكد ذلك بأن الدوائر المركزية في باريس لم تأخذ بما كانت تتبناه الإدارة الاستعمارية في الجزائر من تحريض ضد الأمير خالد. غير أن هذا التأكيد لم يعمل على إزالة الشكوك من إمكانية تطوير الموقف نحو اتجاه أكثر ثورية.

قدم الأمير خالد ومعه مستشارو البلديات المسلمين في الجزائر استقالاتهم من أعمالهم في يوم ٩ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٢٠ . وذلك على الرغم من عدم تطبيق قرار إلغاء الانتخابات الذي اتخذه مدير شرطة الجزائر. غير أن احتجاج المرشحين الفاشلين في الانتخابات أمام مجلس الدولة جعل قرار الإلغاء معلقاً. وكان أصدقاء الأمير خالد يتوقعون إجراء انتخابات جديدة، وكان يهمهم من أمر هذه الانتخابات إبراز المصالحة التي تمت بين أعضاء حزب «الجزائر الفتاة» بأكثر مما يهمهم الفوز فيها.

ولقد بدأت هذه المصالحة في أثر ذلك النداء المؤثر الذي وجهه الشيخ ـ الكهل ـ ابن رحال وطلب فيه «إقامة الوحدة بين أولئك الذين يمزق بعضهم بعضاً، والذين يجب عليهم توحيد جهودهم لما فيه خير المسلمين ومصلحتهم». وانتهت المحاولات الأولى بإجراء المصالحة بين الأمير خالد والدكتور موسى بن شفوف، النائب المالي عن خنشلة وذلك بحضور ابن شامي « بنشامي ».

كما حدثت مصالحات كثيرة طوال سنة ١٩٢٠ ، وأقبل القسم الأكبر من أعضاء حزب الجزائر الفتاة على إجراء المصالحة فيما بينهم، وتقارب الخصوم بعضهم من بعض في يوم واحد، مما دفع رئيس شرطة الجزائر الذي عمل طويلاً من أجل هذا الانقسام والتمزق للقول: «لقد ظهر بأن الانقسام بين الأمير خالد وأعضاء حزب الجزائر الفتاة، لم يكن انقساماً نهائياً أو حاسماً». وأن

تظاهرة المصالحة هي تعبير عن الحقوق، وتأكيد على الخطأ السياسي الذي تم ارتكابه بتطبيق قانون المواطنين المسلمين».

كانت الثمرة الأولى للمصالحة هي وضع قائمة انتخابية موحدة برئاسة الأمير خالد وضمت قائد حمود والدكتور العربي والحاج عمار ـ وكان الحاج موسى قد توفي ـ بالإضافة إلى الدكتور تامزالي وشيكيكن وساطور رشيد والياس بن سمعان وفيكتور باروكان وضمت القائمة أيضاً كافراً ويهودياً وإفرنسياً (وكان على رأس القائمة في وهران اليهودي مردخاي شالوم).

ومقابل ذلك تم وضع قائمة برئاسة الدكتور بنثامي «ابن شامي» وتوجيه الدكتور صوالح ودعم الإدارة الافرنسية التي يمثلها الباشا آغا صحراوي وصياح مصطفى سي حنة ومحيى الدين زروق والقائد الإبراهيمي الأخضر وكان لهذه المجموعة صحيفتها (المستقبل الجزائري) والتي كان يديرها الدكتور بنثامي، ثم أصبحت تحمل عشية الانتخابات اسم (مستقبل الجزائر) وانتقلت إدارتها أيضاً إلى الدكتور صوالح يوم ٧ كانون الثاني ـ يناير ١٩٢١.

وعلى الرغم من دعم الإدارة الافرنسية المطلق للقائمة المضادة لقائمة الأمير خالد، فقد انتصر الأمير خالد ونجحت قائمته بكاملها، فكتب يوم ٩ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢١ رسالة إلى وزير الداخلية الإفرنسي ـ في باريس ـ جاء فيها: «على الرغم من الضغوط التي لا توصف، فقد نجحت القائمة التي أترأسها بكاملها». وتجدر الإشارة إلى أن عدد الناخبين في الجزائر بلغ (١٨٨٠) ناخباً؛ اشترك منهم في الاقتراع ٨٦٦ مواطناً وحصل

الأمير خالد على (٧٢٠) صوتاً، أما الدكتور بنثامي ، الذي فشل في الانتخابات، فلم يحصل على أكثر من (٢٦٣) صوتاً. أما الدكتور العربي الذي أخرج من قائمة الأمير خالد في اللحظة الأخيرة، فإنه سقط في الانتخابات، ولم يحصل على أكثر من (٢٦٣) صوتاً. وبرهنت هذه النتيجة، وللمرة الرابعة، ثقة الجزائريين المسلمين المطلقة بالأمير خالد، ودعمهم لقيادته.

لم يعد لدى الإدارة الاستعمارية في الجزائر، إعتباراً من هذا التاريخ، أدنى شك أو ريبة في أن «خميرة الوطنية الإسلامية قد ثبتت في الجزائر». وبات الهم الأساسي الذي تعانيه أجهزة الاستخبارات هو متابعة تحرك المواطنين المسلمين في انتظار «إعادة بعث الحضارة الإسلامية - في الجزائر - بكل أبعادها وشموليتها». وهي الحضارة التي سيتم التمهيد لها - من وجهة نظر الإدارة الاستعمارية في الجزائر - «بنشر التعليم العربي على نطاق واسع».

واستخلصت الإدارة الاستعمارية مخطط عمل الوطنية الإسلامية، ومراحله بالتالي:

١ - إقامة تحالف مع الاشتراكيين الأوروبيين.

٢ - تركيز الجهد في مرحلة وسيطة للحصول على المساواة بين العروق - الجنسيات - وتنسيق التعاون مع الدولة التي تحتل بلاد المسلمين.

٣ - الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة الاستقلال الكامل.

وكان هدف الإدارة الاستعمارية من إبراز هذا المخطط المزعوم، أو المفروض، هو إحراج الأمير خالد أمام حكومة باريس.

ومقابل ذلك فإن شباب «حزب الجزائر الفتاة» لم يتوقفوا أبداً عن التصدي لمجابهة مثل هذه المقولات الخبيثة ـ في تلك الفترة ـ فكان مما يقولونه عن خصومهم في الإدارة الإفرنسية في الجزائر: «إنهم يحاولون إظهار وطنيتنا على أنها مضادة لفرنسا، وكل ذلك لأننا مستقلون ـ ولم نخضع لهذه الإدارة الافرنسية». وأظهر نائب جزائري صورة الموقف بالمقولة التالية: «**يجب ألا يغيب عن الأنظار أبداً بان الإدارة الافرنسية تضع الانتخابات دائماً في ظروف صعبة للغاية. فإما أن يفوز المرشح للانتخابات بدعم من الحكومة فيكون عبداً لها ـ مملوكاً ـ، واما أن يفوز مستقلاً عنها فتصفه ـ أو تتهمه ـ بأنه محرض على الثورة**».

أما مجلة الأقدام ـ الناطقة باسم «حزب الجزائر الفتاة» فقد نشرت في عددها ٢٣ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٢١ ما يلي: «اليوم، ونحن نمارس ذات الحقوق، ونضطلع بذات الواجبات التي يضطلع بها الافرنسيون، بات لزاماً علينا ممارسة الحقوق بصورة مشتركة دونما أي احتواء أو احتجاج».

وفي الحقيقة، فقد احتج أصدقاء خالد على توصية المستشار العام للجزائر الذي طالب بإلغاء تجنيد المسلمين مقابل رفض منحهم الحقوق الوطنية. كما عمل خالد بدوره على توجيه رسالة إلى رئيس الحكومة الافرنسية بهذا الشأن، مركزاً بالحاح على عدم

المساواة في مدة الخدمة العسكرية بين الجزائريين والإفرنسيين[1].

بقيت قضية التحالف مع الشيوعية، وهي القضية التي أخذت صفتها الشرعية من خلال اقتراح شخصي تقدم به الوفد الجزائري ـ التونسي إلى مؤتمر مدينة تور، وتضمن هذا الاقتراح ما يلي: «إذا ما وافقت الجزائر ـ وصوتت ـ في المؤتمر فإن ذلك بسبب ما تضمنته بنود المؤتمر الثالث الدولي بشأن الاستعمار، وهي البنود التي أوجدت فيها البروليتاريا الجزائرية تعبيراً عن تطلعاتها في استرداد حقوقها».

وتولت مجلة الأمير خالد إدانة الشيوعية بقولها: «قضية المسلمين الجزائريين هي قضية عرقية ولا يمكن حلها بوسيلة صراع الطبقات»[2]. وعادت المجلة للقول: «لنتحدث بصراحة، فحزب الجزائر الفتاة لا يحتاج لاخفاء عواطفه تجاه الشيوعية التي لا يمكن له اعتناقها بسبب عقيدته الدينية»[3]. وقد أدان الحزب الشيوعي الافرنسي ـ الجزائري ـ ما حملته مقررات المؤتمر الدولي الثالث للأحزاب الشيوعية في العالم. وهاجم أيضاً «الوطنية الإسلامية الجزائرية» كما أدان المبادىء الوطنية والإقطاعية للبورجوازيين العرب.

---

(١) رفع المستشار للجزائر توصيته يوم ١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٢١. واحتجت عليها مجلة (الأقدام) في عدد يوم ٢ وكذلك في عدد يوم ١٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٢١.

(٢) مجلة الأقدام ـ الافتتاحية ٨ نيسان ـ إبريل ـ ١٩٢١.

(٣) البرق الجزائري (Depeche Algérienne) عدد يوم ١٩ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٢١.

لم يلبث الأمير خالد أن استقال من مناصبه التي تم انتخابه لإشغالها وهي «المستشار العام» و «المنتخب المالي». وكانت استقالته المباغتة يوم ٢ أيار ـ مايو ـ ١٩٢١، بسبب ما أوضحه الأمير خالد ذاته في مقولته التالية: «**إنني لا أرى فائدة من وجودنا في هذه المجالس. إننا غارقون في وسط أكثرية ساحقة. وعلاوة على كوننا أقلية، فهناك عدد كبير منا من الأتباع ـ المرتبطين ـ وعلى هذا فستكون أصواتنا معدومة، وأعمالنا ملغاة**».

وزاد من تأثير هذه المباغتة أنها حدثت عشية افتتاح مؤتمر «النواب المنتخبين الماليين» والتي تميزت عند افتتاحها في يوم ١٧ حزيران ـ يونيو ـ بخطاب ألقاه «ابن رحال» والذي وصفه ليوتي بقوله: «بأنه ذو فائدة عظيمة» في حين وصفته صحافة الجروة بأنه: «**تظاهرة تعبر عن بعث الروح الإسلامية وهي تستعيد حقها في النهوض أمام السيادة الافرنسية**»[1].

ويظهر أن الأمير خالد أراد باستقالته، إثارة انتباه أعضاء البرلمان بشأن استعادة الحقوق الجزائرية. وقد كتب الأمير خالد في رسالة استقالته: «علينا اليوم وأكثر من أي وقت مضى، توجيه أنظارنا نحو الوطن الأم ـ فرنسا ـ ونحوها وحدها فقط، على أمل رؤية هذا الوطن وهو يقرر مصيرنا بصورة حقيقية». هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد اتخذ الأعضاء الماليون المنتخبون المسلمون ـ من العرب والبربر ـ قراراً بالاجماع يوم ٣١ أيار ـ مايو ـ ١٩٢١ يعارض مباشرة ذلك القرار الذي قدمه ممثل الإدارة الافرنسية إلى

---

(١) مجلة الأقدام ٢٣ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٢١.

«المجلس الاستعماري الجزائري». وطالب النواب ـ المنتخبون المسلمون بصورة أساسية إجراء تمثيل خاص بهم، وانتخاب حر لهم، وإقامة مجلس للنواب الجزائريين المسلمين وأن يكون لهم نسبة الخمسين في المجالس الجزائرية القائمة أو التي ستتم إقامتها في المستقبل.

وجدير بالذكر هنا، أن النزعة الإستقلالية البارزة للمسلمين، لم تكن إلا رد فعل لما ظهر لدى المستوطنين الأوروبيين في الجزائر من نزعة استقلالية، استثارت المسلمين جميعهم، ودفعت رئيس النواب الماليين للقول: «إن التجمع الجزائري يسمح لنا بالتصويت على الأسس والأنظمة والتي لا يمكن الاعتراف بها أو قبولها إلا بواسطتنا ومن قبلنا».

وكان من الطبيعي، ومن المتوقع، أن تثير استقالة الأمير خالد جدلاً حاداً بين الأصدقاء والأعداء على السواء، كما كان من الطبيعي، ومن المتوقع أيضاً، أن يتعرض الأمير خالد ذاته لضغوط بمجرد إصابته بإحباط، أو ردة فعل فقط على ما أظهره المستوطنون من نزعة استقلالية. وكان في جملة ما تعرض له الأمير خالد تلك الحملة الصحفية التي شنتها ضده الصحف التابعة للدوائر الاستعمارية.

وبالمقابل فقد تصدى آخرون للدفاع عنه، ومما قيل بهذا الشأن: «يجب ألا تنجح تلك العقول السقيمة والنفوس الخبيثة في مسعاها لترجمة الرغبة في التحرر من هيمنة فرنسا واستغلالها لخنق أصوات المسلمين الجزائريين».

وكان مما عاناه الأمير خالد هو إظهار بعض أصدقائه ـ وفيهم من كان شديدالحماسة ـ رغبتهم الواضحة في التخلي عن الصراع، واعتزال ميدان الجهاد. كما كان في جملة ما عاناه أيضاً تعرض صحيفته «الأقدام» لمتاعب مالية؛ مما اضطره لاصدارها في صحيفة واحدة، بل حتى إيقافها عن الصدور من يوم ١٠ حزيران ـ يونيو ـ وحتى يوم ٢٢ تموز ـ يوليو ـ. وكان أن اجتمع مؤتمر النواب المنتخبين المسلمين للبلديات، وتقدموا إلى الأمير خالد برجاء العدول عن استقالته. ورشح نفسه بعد ذلك للانتخابات الفرعية في شهرتموز ـ يوليو ـ ١٩٢١، وعادت الإدارة الإفرنسية في الجزائر لبذل جهودها لإسقاطه غير أنها فشلت في مساعيها، ونجح الأمير خالد بأكثرية ألفي صوت، وانتصر على منافسه «محيى الدين زروق» الذي كان مرشح المخابرات الافرنسية.

أدى هذا النجاح، والذي لم يكن متوقعاً تماماً، إلى إعادة تنظيم صفوف حزب «الجزائر الفتاة» كما أعيد تنظيم إدارة صحيفة «الأقدام». فاختفى من إدارتها الحاج عمار وقايد حمود. وفي يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ أعلن الرجلان «تنازلهما عن عملهما لمصلحة الأمير خالد» الذي أسند إدارة الصحيفة إلى أحمد بلول، وهو أستاذ مجاز في العلوم الفيزيائية. كما أدى نجاح الأمير خالد إلى مصالحة بينه وبين «بنثامي» أو بن شامي. وعندما جرت الانتخابات الفرعية في تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٢١، أفاد «بنثامي» من دعم الأمير خالد له، ففاز في المدية بانتخاب «المستشار العام»، كما عمل الأمير خالد على دعم مرشح آخر في هذه الانتخابات «في المليانة» مما أدى إلى نجاح هذا المرشح.

عاد التفاؤل مهيمناً على مناخ حزب الجزائر الفتاة في نهاية شهر تموز - يوليو - ١٩٢١ وذلك لدى استقبال الحاكم العام الجديد للجزائر، والذي عمل فور وصوله على إعادة قانون سنة ١٩١٩ إلى مجلس الشيوخ. وعبرت مجلة «الأقدام» عن تفاؤلها هذا بقولها: «إننا على يقين من أن - الحاكم الجديد - سيسرع إلى تأمين حل مناسب لقضية إعادة حقوقنا، نظراً لعدالة قضيتنا»[1]؛ وهي القضية التي تشمل، فيما تشمله: التمثيل النيابي - البرلماني - والإلحاق السياسي والإداري بفرنسا، والتي باتت اليوم تحتل أكثر من أي وقت مضى - الأفضلية الأولى على كل ما عداها من الأمور.

ولم يحاول حزب الجزائر الفتاة - في كل ذلك - إخفاء مخاوفه من إقامة نظام (المحمية الجزائرية - أو الدومينيون الجزائري) نظراً لأن إقامة مثل هذا النظام ستضع الجزائريين المسلمين تحت رحمة الاستعماريين. وقد حاول الأمير خالد من جهته طرح ذلك، على أحد الوزراء، لدى مروره بالجزائر، غير أن السلطات الجزائرية حالت بينه وبين مقابلة هذا الوزير. فانتقم الأمير خالد لنفسه بأن طرح ما يريد قوله على وفد برلماني إفرنسي كان قد وصل إلى الجزائر في أيار - مايو - ١٩٢١، لمشاهدة المعرض الذي أقيم فيها.

وفي هذا اللقاء، عارض الأمير خالد منح حقوق الإستقلال للمستوطنين الافرنسيين وطالب بإلحاق الجزائر بالوطن الأم - فرنسا - سياسياً وإدارياً - مع الاستجابة لرغبات المسلمين في الاحتفاظ

(١) الأقدام ٢٣ أيلول - سبتمبر - ١٩٢١.

بحالتهم الشخصية. وكان من رأيه أن تستمر فرنسا بممارسة دورها الوسيط أو الحكم بين المستوطنين ـ الكولون ـ وبين الجزائريين المسلمين. وكان يردد باستمرار: «اننا نريد أبداً البقاء تحت الوصاية الافرنسية ـ فرنسا ـ ذلك لأنها هي وحدها القادرة على توجيه مصالح جميع العناصر من سكان الجزائر بصورة متوازنة وعادلة»[1]. **وتجدر الإشارة إلى ذلك السؤال الذي طرحته صحيفة جزائرية على الأمير خالد وهو: «ما هو الحال الذي ستكون عليه الجزائر في سنة ١٩٥٠؟ وهل ستكون فرنسية أو عربية؟ فأجاب الأمير خالد بقوله: سيكون هناك أجانب ـ أغراب ـ تحت قبضة الأوروبيين المستوطنين في الجزائر؟» وهو ما حدث فعلاً.**

قام «أحمد بلول» بتقديم مقترحات الأمير خالد ـ سابقة الذكر ـ إلى لجنة مجلس الشيوخ الإفرنسي وذلك في يوم ٢٣ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٢٢، واستهلها بقراءة تقرير «قائد حمود» والذي تبناه نواب العرب والقبائل في مؤتمرهم يوم ٣١ ـ أيار ـ مايو ـ ١٩٢١. ثم اقترح الموافقة على منح حق الاقتراح ـ الانتخاب لهذا التمثيل للهيكل الانتخابي الذي تنبثق عنه مجالس المنتخبين ـ أو النواب الماليين» ـ وهذا يعني منح هذا الحق إلى مائة ألف ناخب تقريباً من المسلمين الجزائريين. وقام أفراد لجنة مجلس الشيوخ بتهنئة «أحمد بلول» على تواضعه وعلى ما تميزت به مقترحاته من الواقعية. كما أن النواب الإفرنسيين بصورة عامة لم يكونوا معادين أو ضد مثل هذا

(١) الأقدام ٢٧ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢٢.

التمثيل، غير انهم لم يكونوا في الوقت ذاته على استعداد للتضحية بمستوطني الجزائر، أو التعرض لمقاومتهم العنيدة بصفتهم ممثلي الاستعمار. وهكذا تم تشكيل جامعة إفرنسية لتمثيل المواطنين المسلمين الجزائريين في مجلس النواب ـ البرلمان ـ وأسندت رئاسة هذه الجامعة إلى الفرنسي «إداوار هيريوت»؛ غير أن هذه الجامعة ولدت ميتة، ولم تمارس أي نشاط. وأثناء ذلك، حاول الأمير خالد تنظيم «جمعية الأخوة الجزائرية» في الجزائر بهدف تأمين الوسائل الضرورية للعمل من اجل دعم المطالب السياسية. غير أن دور هذه الجمعية اقتصر على جمع الاشتراكات، وتأمين الدعم المالي، ولم تتحول إلى حزب سياسي حقيقي.

قام رئيس الجمهورية الافرنسية «ميلراند» بزيارة للمغرب العربي ـ الإسلامي (الذي كان يطلق عليه الاستعماريون اسم شمال أفريقية لفصله عن العالم العربي ـ الإسلامي. فأفاد حزب «الجزائر الفتاة» من هذه المناسبة لإثارة انتباه فرنسا، وتركيز الأنظار على قضية مطالب الجزائريين ـ المسلمين . . . وحصل الأمير خالد على موافقة الحاكم العام للجزائر من أجل مقابلة رئيس الجمهورية الإفرنسية ـ بالرغم من معارضة رئيس الشرطة في الجزائر ـ. وتم هذا اللقاء يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٢٢. في المكان الذي اختاره الحاكم العام للجزائر وهو «مسجد سيدي عبد الرحمن» في الجزائر العاصمة. وأراد الأمير خالد تفسير انتقال

رئيس الجمهورية «ميلراند»[1] إلى المسجد «بمثابة تعبير عن رغبة في الإعلان لسكان الجزائر، دونما تمييز بين معتقداتهم، ودونما تفريق بين عروقهم- أجناسهم - أنهم جميعاً أبناء لفرنسا، وأن لهم حقوقا متساوية في أوطانهم».

وطالب الأمير خالد باسم التضحيات التي قدمها الجزائريون المسلمون في الحرب، ومن أجل التطور البطيء والثابت للمصالح والأفكار، أن يتم تطوير الحريات التي قدمتها فرنسا بسخاء وذلك حتى يأخذ الجزائريون المسلمون مكانتهم في صف العائلة الإفرنسية الكبيرة. وكان مما قاله: «لقد أتينا للاشتراك في تمثيل نيابي- برلماني- في البرلمان الإفرنسي. ونحن نستحق هذا الشرف. وسيعتبر الوطن الأم دونما ريب، أن من واجبه إقرارنا ومنحنا هذه الحقوق تلقائياً.».

ولقد وصف نائب فرنسي كان يرافق رئيس الجمهورية، بأن الأمير خالد قدم مطالبه بفخر وتعال ولكن باحترام. ورد الرئيس الافرنسي الذي ما جاء إلى الجزائر إلا من أجل دعم الإفرنسيين المستوطنين وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم. فقال بوضوح وصراحة: «لا ريب عندي بأنه سيأتي يوم يتم فيه زيادة الحقوق

---

(١) ميلراند- اتيين الكسندر (MILLERAND, ETIENNE — ALEXANDRE) رجل سياسي إفرنسي، من مواليد باريس، (١٨٥٩-١٩٤٣) اشتراكي، عمل وزيراً للحربية (١٩١٤- ١٩١٥) ثم أصبح رئيساً للجمهورية (١٩٢٠- ١٩٢٤) ثم انسحب من ميدان العمل السياسي بسبب معارضة (كارتل اليساريين) ومقاومتهم له.

السياسية التي سبق منحها للمواطنين الجزائريين. . . وأعتقد أنه من الحذر انتظار النتائج التي سيسفر عنها قانون ١٩١٩».

الأمر الواضح هو أن هذه الإجابة السلبية لم تغلق الباب نهائياً أمام مطالب الأمير خالد، وعلّق الأمير خالد على ذلك بقوله: «إن رئيس الجمهورية الإفرنسية لا يستطيع قول ما هو أكثر من ذلك، وإلا فإنه سيخرج على سلطاته المحدودة والضعيفة والتي حددها له الدستور الإفرنسي». أما مرافقو الرئيس الإفرنسي- مساعدوه- فكان تعليقهم على لقاء خالد برئيس الجمهورية، كالتالي: «لقد كان لقاءاً مشهوراً ومتّسماً بالعظمة ولعله أمر مثير رؤية حفيد الأمير عبد القادر وهو يتحدث من موقع الند للند، مع رئيس الجمهورية الافرنسية».

هذا في حين أخذت دوائر المستوطنين الاستعماريين اعتبار خطاب خالد أمام رئيس الجمهورية بأنه لا يمثل «أكثر من صوت نشاز-منعزل» إلا أن خطاب قائد حمود أمام الرئيس الإفرنسي في بليدا، وكذلك خطاب محمد بن رحال في وهران، دحض مقولة أولئك الحاقدين اللذين اعتبروا أن موقف الأمير خالد هو موقف «لا يحتمل، ولا يجوز التهاون بشأنه» وأخذوا في تناقل النبأ على أنه «حدث خطير».

وقامت الدوائر الاستعمارية في الجزائر بنقل المعركة ضد الأمير خالد إلى الصحافة الافرنسية في فرنسا. فأخذت هذه- عن عمد وتصميم- في التعليق على خطاب الأمير خالد تحت عناوين مثيرة، مثل: «الخطاب المباغت» و«الموقف غير المتوقع» و«الخطاب الذي جاء في غير وقته، وفي غير محله» و«ضربة قوة حقيقية» أو «الانقلاب

الحقيقي» و«تظاهرة وطنية للجزائريين المسلمين على غرار التظاهرة التونسية». وذهبت بعض الصحف للتذكير «برحلة الأمير خالد ورفيقه انفر باشا إلى موسكو في أيلول- سبتمبر- ١٩٢٠». وقامت الحكومة الافرنسية بنشر كتيب خاص تحت عنوان «رحلة الرئيس إلى الجزائر» وتضمن في موضوع خطاب الأمير خالد، الفقرة التالية: «لم يكن من المتوقع أبداً، على ما يظهر، أن يلقي الأمير خالد مثل هذا الخطاب، لا سيما وأن عائلته تعيش مع عدونا- عمه عبد الملك».

وهكذا استطاعت الدوائر الاستعمارية في الجزائر- الكولون- تجنيد أكثر من مائتي صحيفة لتضخيم ما أطلقت عليه **«أسطورة الحدث الشهير ليوم ٢٠ نيسان- ابريل- ١٩٢٢»**. غير أن رجلاً واحداً لم يغير موقفه من الأمير خالد، وهذا الرجل هو الحاكم العام للجزائر، الذي قال في مقابلة صحافية: **«لقد رفع البعض أصواتهم بالصراخ عالياً... أليس من الواجب رؤية الأمور من زاوية مضادة، والنظر إلى مطالب الأمير خالد على أنها علامة إيجابية على التعلق بفرنسا، مما يثير الإعجاب بمؤهلاته ومواقفه»**[1].

لم يكن الإفرنسيون في الجزائر مستعدين على كل حال للتساهل تجاه هذه القضية التي طرحها الأمير خالد. وفي ٢٠ أيار- مايو- ١٩٢٢، أعلن النواب - المنتخبون- الماليون بأنهم لا يستطيعون الموافقة على التعديلات في تكوين المجالس الجزائرية. وهي التعديلات التي منحت المستوطنين الاوروبيين حق التمثيل في البرلمان

---

(١) صحيفة «برق تولوز» ٣٠ نيسان - إبريل - ١٩٢٢ (DÉPÈCHE DE TOULOUSE)

ـ مجلس النواب ـ الإفرنسي، مع زيادة عدد ممثليهم، مستشاريهم ـ.

وعارض رئيس مجلس النواب ـ المنتخبين ـ تسجيل هذا الطلب الذي تقدم به النواب المسلمون في إعلانهم. وعندئذ غادر النواب المسلمون قاعة الاجتماع احتجاجاً على موقف رئيس المجلس. وأخذ حزب «الجزائر الفتاة» بالمطالبة بتحقيق المساواة مع الأوروبيين في مجال التمثيل النيابي (أي ٦ ممثلين لمجلس النواب و٣ ممثلين لمجلس الشيوخ). وذهبت صحيفة إفرنسية ـ مذهب السخرية من ذلك ـ فقالت: «يمكن تأجيل منح الحقوق السياسية ـ للمسلمين الجزائريين ـ حتى وقت متأخر ـ وإلى سنة ٢٣٢٥ م. تقريباً».

انتقل الصراع إلى مجلس النواب الإفرنسي، حيث تقدم نائبان فرنسيان بمشروع قانون لتأجيل تطبيق نظام «المواطنين المسلمين». ويقترح مشروع القانون هذا منح حق التمثيل النيابي ـ البرلماني ـ لخمسة ملايين من المسلمين»، وذلك بمعدل نائب واحد لكل مقاطعة من مقاطعات الجزائر الثلاث، وممثل واحد عن الجزائر كلها لمجلس الشيوخ. ودافع أحد النائبين اللذين قدما هذا المشروع ـ وهو السيد موتيه ـ عن مشروعه أمام لجنة شؤون المسلمين بقوله: «يجب الاهتمام بالمسلمين الجزائريين، وتأهيلهم للحياة السياسية الافرنسية... ويجب إفساح المجال أمام المسلمين الجزائريين حتى يستديروا بوجوههم نحو فرنسا ومعاملتها كحكم ـ أو وسيط ـ عادل... ولقد أزفت الساعة لإظهار أنفسنا بصفتنا متحرّرين جداً ـ ليبراليين ـ... ويجب عدم الانتظار حتى تقوم الحركة التي ترتسم على صفحة الجزائر بانتزاع هذا الاصلاح، وتحقيقه بالقوة... ولعله من

الأفضل إجراء هذا الإصلاح في الوقت المناسب»[1].

جاء رد النواب الجزائريين المسلمين على هذا المشروع في رسالة إجماعية تتلخص بأن مشروع القانون ليس أكثر من «هيمنة إفرنسية». في حين دافع أصحاب المشروع عن مشروعهم فوصفوه بأنه «فأل حسن». وعندئذٍ استخدم النواب الجزائريون الإفرنسيون حججاً أخرى تتلخص بأن: مطالب المنتخبين الجزائريين هي مطالب تتناقض مع مبادىء الحقوق الافرنسية، وأنها تعيق عملية الدمج؛ وهي بنتيجة ذلك ظاهرة تعبر عن الوطنية الإسلامية.

وهذا ما عبّر عنه نائب ـ وهران ـ الافرنسي بقوله: «يشعر الجزائريون شعوراً غامضاً ـ ضبابياً ـ عن تخمّر الوطنية الإسلامية في نفوسهم، وهم يتعاطفون بقلوبهم مع الأتراك. ويريدون التعبير عن تطلعاتهم هذه بمجموعة من التظاهرات، ويعتقدون أن باستطاعتهم الوصول إلى أهدافهم الجديدة عن طريق طرح قضية التمثيل النيابي ـ البرلماني».

ورافق ذلك الجدل، توجيه الاتهامات وإثارة الشكوك حول شخص الأمير خالد. وفي يوم ٥ تموز ـ يوليو ـ ١٩٢٢، وقف أحد النواب في مجلس النواب ليوجه اتهامه للأمير خالد بانه «محرّض الثورة» و«قاتل الجزائر»، في حين وقف نائب آخر ليثير قضية «علاقة الأمير خالد بعمّه الخائن لفرنسا ـ عبد الملك. وكان الإفرنسيون على

---

(١) جلسة مجلس النواب الإفرنسي يوم ٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٢٢.

حق- من وجهة نظرهم طبعاً- بتوجيه كل أحقادهم ضد الأمير خالد وحزبه «الجزائر الفتاة» الذي تبنى في هذه الفترة الحكمة التالية شعاراً لعمله: **«لا أحد يدافع عمّن لا تمثيل له في مجلس النواب- البرلمان»**.

٤ـ الصفحات الأخيرة في جهاد الأمير خالد
(١٩٢٣ - ١٩٣٦)

بينما كان النواب الجزائريون في صراع مع مجلس النواب الافرنسي لإسقاط القانون الذي يمنح النواب المسلمين تمثيلاً في البرلمان الإفرنسي، كان الحاكم العام للجزائر يكتب رسالة إلى وزير الداخلية يؤكد فيها وجهة نظره: «وهي أن الإصلاحات التي تم إدخالها منذ سنة ١٩١٩ هي إصلاحات كافية حتى تلك الفترة».

وأثناء ذلك كانت الإدارة الاستعمارية في الجزائر تهاجم بعنف ما أسمته: «الحفنة الصغيرة من أنصاف المتعلمين الذين يتلقون أوامرهم وتعليماتهم من الأمير خالد». هذا في حين عملت هذه الإدارة على تكوين أربع دوائر انتخابية جديدة في أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٢٢ وذلك بطريقة تسمح بتعديل نتائج الانتخابات القادمة للمستشارين العامين بحيث يكون نصف عددهم من المسلمين، وقد تم اقتطاع هذه الدوائر الانتخابية بما يضمن عزلها عن نفوذ دوائر «الجزائر الفتاة».

وعندما جرت الانتخابات في العاصمة الجزائر، نجحت الإدارة الإفرنسية في إسقاط ثلاثة من مرشحي حزب «الجزائر الفتاة» وذلك على الرغم من فوز الأمير خالد في هذه الانتخابات. وكانت نتائج هذه الانتخابات تمثل انتصاراً لرئيس الشرطة الذي تمكن من إسقاط كل أصدقاء الأمير خالد وإخوانه. وشعر الأمير خالد بخيبة أمل مريرة لهذا الفشل غير المتوقع عبر عنها بقوله: **«إننا ضحايا قضية عادلة. وتشاركنا كتلة الجماهير كلها طريقتنا في معالجتنا للأمور. وإنهم قليلون أولئك الذين يمتلكون الشجاعة للتعبير عن آرائهم»**.

اتسع أفق الصراع فور ظهور نتائج الانتخابات بين الأمير خالد وأعدائه. فمنذ شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٢٢، أخذت الصحافة التابعة للدوائر الاستعمارية ـ الكولون ـ في فرنسا ذاتها بالترويج بالفكرة: «إن مطالب الأمير خالد لا تقف عند حدود التمثيل النيابي ـ البرلمان ـ وإنما تتجاوزها للمطالبة بتوسيع نطاق التعليم للأدب العربي. وأنه يحاول جمع الأموال لإقامة مدرسة كبرى، يتم فيها تعليم اللغة العربية بصورة حرة».

وفي ٢٠ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٢٢، وقف نائب في مجلس النواب الافرنسي ليناقش قضية التعويضات التي تدفعها فرنسا لأحفاد الأمير عبد القادر بقوله: «يجب عدم مساعدة أولئك الذين لا يعملون على مساعدتنا»[1]. واستنكر من جديد تلك الحملة من

---

(١) يذكر ان مجموع ما كانت تخصصه فرنسا لورثة الأمير عبد القادر هو (٦٠) ألف فرنك تقريباً ـ من موازنة الخارجية الإفرنسية، وكان نصيب الأمير خالد يمثل أكبر حصة فيها ـ حيث خصص له مبلغ (٧٥٠٠) فرنك في سنة ١٩٢٣.

الاضطرابات التي يقودها الأمير خالد، والتي تتخمر فيها الثورة ضد فرنسا. واتهم الأمير خالد: «بأنه يثير الحرب الأهلية ويحرض على انفصال الجزائر عن فرنسا».

وأورد هذا النائب «مورينو» ما كان قد كتبه الأمير خالد في صحيفته محذراً الأوروبيين بقوله: «إنكم تدفعون بالجزائريين المسلمين إلى مهاوي اليأس، وتثيرون فيهم مشاعر الغضب، عندما تبرهنون بأنهم لن يحققوا شيئاً من المكاسب عن طريقكم، وعندئذ لا يجدون أمامهم سوى اللجوء إلى السلاح، وهم لا يخافون أن يخسروا شيئاً بعد كل ما فقدوه منذ وقت طويل بفضل أعمالكم، وهم عندها لن يقولوا لكم أبداً: «افسحوا لنا المجال بقربكم» وإنما سيقولون لكم: لماذا أتيتم، وماذا تفعلون هنا؟ عودوا إلى بلادكم».

ثم تابع - النائب مورينو - هجومه على الأمير خالد، مشيراً إلى تلك النداءات التي كان يوجهها الأمير إلى مواطنيه المسلمين وإلى الكتلة الوطنية. وعاد من جديد إلى ما كان يتقاضاه الأمير خالد من تعويضات، طالباً إيقافها ومنعها عن «هذه الأفعى التي تنفث سمها في صدر من يقدم لها الغذاء». ونهض نائب فرنسي آخر - عن الجزائر - (وكان قد أحيل من قبل إلى القضاء بتهمة التحريض على العصيان العسكري وإثارة حركة عصيان) فوجه حديثه إلى رئيس مجلس النواب: «مطالباً بإعادة النظر في اضبارة - ليوتي - وما تتضمنه من إدانة للأمير خالد وما قام به من تحريض ثوري في المغرب». ثم حصل على موافقة مجلس النواب بتمديد «قانون أو نظام التعامل مع

المواطنين المسلمين» لمدة خمسة أعوام، بعد أن كان من المقرر تطبيقه لمدة سنتين فقط.

وتبع هذه الهدية التي قدمتها فرنسا إلى الأمير خالد مع قدوم عيد الميلاد ـ نويل ـ أن وقف بعض أصدقاء الأمير خالد، ووجهوا إليه التقريع واللوم باعتباره المسؤول عن الاقتراع الذي أدى إلى تمديد (نظام التعامل مع المواطنين المسلمين). ودافع الأمير عن نفسه، غير أن هذا الدفاع لم يخفف من العبء الثقيل الذي بات يرزح على صدره، وهو العبء الذي زاد من ثقله استمرار الصحافة في حملتها الشرسة ضده.

وكان من أبرز ظواهر الحملة الجديدة، تخصيص زوايا اعتباراً من بداية كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢٣. يتم فيها نشر مقولات زعماء المسلمين والشخصيات البارزة من أتباع فرنسا ـ والتي تتركز ضد: «المحرض خالد عدو فرنسا وعدو مواطنيه المسلمين». وظهر بوضوح أن هذه الحملة ليست إلا تمهيداً للانتخابات القادمة من أجل تجديد انتخاب المندوبين أو النواب الماليين.

أما صحافة الدوائر الاستعمارية ـ في فرنسا والجزائر ـ فقد ركزت هجومها في شهري شباط ـ وآذار (فبراير ومارس ١٩٢٣) على مقولة (اتهام الأمير خالد بالعمالة لموسكو). وكان مما قيل بهذا الشأن: «هذا الأمير الذي تموله فرنسا ليقود بالتعاون مع البولشفيك في موسكو حملة هدفها إشعال نار الثورة وذبح الافرنسيين». وكذلك: «هذا السيد العظيم المسلم الذي يسير وهو يضع يداً بيد مع الحزب الشيوعي في الجزائر، ويلتقط اليهود في البلد، ويجمع الناقمين من الموظفين

ويحشدهم جميعاً في حزب وطني جزائري، للعمل ضد فرنسا».

وقالت إحدى صحف الدوائر الاستعمارية: «لقد ذهب الأمير خالد إلى موسكو لتلقي التوجيهات والتعليمات، ثم عاد إلى عنابة ـ بونة ـ للدفاع عن حزبه ـ الجزائر الفتاة ـ ودحض حملة الافتراءات الموجهة إليه شخصياً. ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً. كما استطاع توجيه حملته لإثارة الاضطرابات ضد الافرنسيين. وقد عملت الإدارة الإفرنسية منذ زمن بعيد على إعاقته حتى لا يتحرك على هواه».

وأثناء ذلك أقام ابن النائب ـ مورينو ـ دعوى على الأمير خالد بتهمة «القدح والذم» ضده وذلك لأن ابن هذا النائب «قارن خدمة النقيب المتقاعد خالد في الجبهة بنزهة من نزهاته التي يتسكع فيها بالشوارع» وكان أن حكمت المحكمة على الأمير خالد بدفع غرامة ألف فرنك كتعويض وخمسة آلاف فرنك ـ عطل وضرر... وأثناء ذلك أيضاً، كان الأمير خالد هو المرشح عن الدائرة الانتخابية الأولى للجزائر العاصمة ـ منذ يوم ٢٣ آذار ـ مارس ـ ١٩٢٣، غير أنه امتنع عن دخول المنافسة الانتخابية.

وفي يوم ٦ نيسان ـ ابريل ـ أعلنت صحيفة «الأقدام» «بأن الأمير خالد يتنازل عن حقه في الانتخاب لمصلحة منافسه عبد النور تامزالي». وامتنع عن الظهور في المحافل العامة. وكان قد كتب يوم ١٦ آذار ـ مارس ـ ما يلي: «فليشهد الله بأنني لست من أولئك الباحثين عن شرف الوصاية، لقد اقتحمت مجال العمل السياسي، وخضت الصراع في مجالس النواب ـ المنتخبين ـ للدفاع بكل ما

وهبني الله من القوة، وبكل ما في قلبي من الحب لحماية مصالح إخواني المسلمين ورفع الضرر عنهم».

أثار انسحاب الأمير خالد من المعركة الانتخابية جواً من الشك، فمضى المواطنون بين مصدق ومكذب، غير أن الأمير خالد قطع الشك باليقين في رسالته التي وجهها إلى الصحافة يوم ١١ نيسان - ابريل - ١٩٢٣ وجاء فيها: «لقد أتعبتني خدمتي العسكرية الطويلة، فأحلت على التقاعد بحالة عجز صحي كامل - مائة بالمائة - وأرغب في أخذ استراحة باتت ضرورية، أو حتمية، لصحتي المتدهورة. وأنسحب من مجال العمل السياسي، متنازلاً عن كل المناصب التي تم انتخابي لها - في النيابة المالية، والمستشارية العامة، والبلدية». فهل كانت استقالة الأمير خالد حقاً بسبب سوء حالته الصحية؟ للرد على هذا السؤال، يمكن العودة لما كان قد كتبه يوم ٢٦ - آذار - مارس - ذلك الخصم العنيد للأمير خالد - الجنرال ليوتي - وجاء فيه: «لقد أصابني ما يشبه الدوار خلال إقامتي في الجزائر، وأثناء أحاديثي مع أصدقائي القدامى من الجزائريين بشأن التطورات الطارئة... إنني لم أعرف من قبل مثل هذا الشعور العميق بالمرارة، والإحباط، والحقد. إنها سياسة إجرامية حقاً».

والجنرال ليوتي، لا يحاول معرفة أسباب هذه المشاعر - التي لم يعرفها من قبل على حد زعمه - وكل ما أمكن له معرفته هو تدهور الوضع في الجزائر إلى مرحلة خطيرة. وعلاج هذه الحالة من وجهة نظر الاستعماريين معروف ويتلخص بالقمع ولا شيء غير القمع.

ونظراً لما يتطلبه مثل هذا القمع من أضحيات، فلماذا لا يكون

الأمير خالد وحزبه- الجزائر الفتاة- ضحية جديدة في جملة ضحايا الاستعمار؟ وفي الواقع، فإن الإدارة الاستعمارية الإفرنسية في الجزائر حققت نجاحاً كبيراً في تنفيذ مخططاتها خلال هذه المرحلة. وأمكن لها في انتخابات ١٥ نيسان - ابريل - ١٩٢٣ إسقاط كل مرشحي حزب الجزائر الفتاة، وجاءت بعد ذلك لاستثمار هذا النجاح وترجمته رسمياً على أنه ارتداد المواطنين الجزائريين المسلمين عن سياسة الأمير خالد، واتجاههم لتأييد الشخصيات المعروفة بولائها - عمالتها - لفرنسا.

وقد جاء في تقرير الموقف السياسي والإداري عن مسلمي الجزائر - يوم الأول من أيار - مايو - ١٩٢٣ ما يلي: «تمت ترجمة انسحاب الأمير خالد من الانتخابات - في كل مكان - بأنه شارة تدل على الرغبة في التهدئة والاتفاق والمصالحة، على نحو ما يحدث في المعارك الانتخابية. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن عزوف الناخبين عن الانتخابات، وتجنب حدوث أي صدام، قد طبع هذه الانتخابات بطابع الإدانة، فلم يظهر إلا كل معتدل حذر أو من الموالين للسلطة وأتباعها».

لقد أدى انسحاب الأمير خالد من المعركة الإنتخابية إلى زوال ما يمكن أن يطلق عليه اسم «معركة انتخابية» فاقتصرت بيانات مرشحي القوى المتوازنة والمتعاكسة على تبادل التهاني، وحتى أصدقاء خالد لم يضمنوا بياناتهم شيئاً أكثر من عرض قضية التمثيل النيابي - البرلماني- وأكثر من قضية مدة الخدمة العسكرية، وامتداح واقعية القوانين الشرعية للناخبين الذين يعرفون من يفضلون من مرشحي النظام والمصالحة.

غير أن هناك على كل حال رغبة ـ تمثل احتجاجاً ـ رفعها المجلس البلدي لمدينة «سطيف» في أيار ـ مايو ـ ١٩٢٣ ونقلت إلى حكومة باريس. وهي توضح تماماً ما كانت عليه هذه الانتخابات. وقد جاء في هذا الاحتجاج ما يلي: «يطلب مستشارو البلدية الأوروبيون، ألا تكون الانتخابات القادمة للمسلمين خاضعة لأي نوع من أنواع الضغوط أو الإرهاب، وأن تترك لهم حرية انتخاب المرشحين الذين يرغبون في انتخابهم».

وقف الحاكم العام للجزائر أمام نواب المالية المنتخبين، واكتفى بالقول: «كان الفشل من نصيب أولئك المحرضين الذين يكثرون من شقشقة اللسان». ذلك لأنه كان يعتبر من وجهة نظره بأن مطالب حزب «الجزائر الفتاة» لا تستجيب للتطلعات العميقة، غير أنها تمهد الطريق للاقتراحات النظرية التي كان يطرحها الأمير خالد ورفاقه. وهي اقتراحات في غير وقتها ـ هذا مع إزالة الشكوك المحيطة بها ـ ذلك لأن الحاكم العام لم يكن ليأخذ بهذه الشكوك القائلة بوجود مؤامرة وطنية مضادة لفرنسا.

حققت الإدارة الإفرنسية في الجزائر، المرحلة الأولى من مخططها، فقد أمكن لها إرغام الأمير خالد على الانسحاب من مجال العمل السياسي، وألحقت الهزيمة بحزبه في الانتخابات. وجاءت المرحلة الثانية لإبعاده عن الجزائر. ولم تكن هذه الإدارة في حاجة لاستصدار مرسوم بالإبعاد أو افتعال أزمة تزيد ـ أو تعيد للزعيم المهزوم قوته، وتمنحه مزيداً من الرصيد المعنوي. لا سيما وأن العمل الرسمي ضد الأمير خالد كان سيصطدم حتماً بعقبات كؤود وليس أقلها كون الأمير

خالد (ضابطاً سابقاً في الجيش الافرنسي) علاوة على كونه (نائباً منتخباً) حتى بعد استقالته.

وعلى هذا فقد كانت الضغوط غير المباشرة أفضل وسيلة تمتلكها الإدارة الافرنسية للوصول إلى أهدافها في محاربة الأمير خالد، لا سيما بعد أن حققت وسائل الضغط هذه نجاحاً كبيراً في المرحلة السابقة، ولم يعد من الغريب أن تظهر عملية إبعاد الأمير خالد- أو نفيه- على أنها مجرد رغبة شخصية. وقد عبر الأمير خالد عن رغبته هذه في رسالته التي حررها في «عين البيضاء» يوم ١١ نيسان- ابريل - وأعلن فيها استقالته، كما أعلن رغبته بالتوجه إلى سوريا.

غير أنه أرجأ الحسم في قرار الإبعاد الاختياري حتى نهاية شهر تموز- يوليو - ١٩٢٣، حيث أعلن «الشيخ عبد العزيز الثعالبي» أيضاً رغبته في مغادرة تونس والتوجه إلى الشرق بعد هزيمته[1]. وقد كتب الأمير خالد إلى أصدقائه رسالة في ٣٠ تموز - يوليو - ١٩٢٣ جاء فيها: «**لم يعد بمقدورنا إطلاقاً العيش في الجزائر حيث أصبحت الحياة فيها - بالنسبة لي - أمراً لا يطاق ولا يحتمل، ولم يعد أمامي إلا الانسحاب إلى بلد يتوافر فيه قدر أكبر من الإنسانية**».

---

(١) يظهر أن سياسة الإبعاد عن البلاد والتي كانت تستعمرها فرنسا . قد تشابهت في طرائقها وأساليبها فقد أدعى الشيخ الثعالبي- أنه يغادر البلاد لأسباب صحية. وأثارت قضية إبعاده تعليقات متناقضة غير أن الأمر الثابت هو أن الشيخ الثعالبي قد تعرض لضغوط وظروف مشابهة لتلك التي عاناها الأمير خالد، ومنها نجاح السلطات الإفرنسية الاستعمارية في تفتيت حزبه، وإثارة الخلافات مع أقرب أنصاره، وعلى كل حال، فقد تكشفت كل هذه الأساليب بعودة الشيخ الثعالبي من منفاه إلى تونس في شهر تموز - يوليو- سنة ١٩٣٧ . واستقباله فيها استقبال الأبطال المنتصرين.

كانت سياسة «السوط والجزرة ـ أو الترغيب والترهيب» هي إحدى السياسات المعروفة للاستعمار، وقد طبقت فرنسا هذه السياسة على «الأمير عبد القادر ـ وورثته». وقد تحدث الشيخ ابن باديس الذي كان يعتبر الأمير خالد زعيمًا عظيمًا، بأن موضوع مغادرة الأمير خالد للجزائر قد طرح على المناقشة. وأن فرنسا قد أخذت على عاتقها وفاء ديونه التي بلغت (٨٥) ألف فرنك. كما التزمت بدفع نفقات سفره، وأبقت له تعويضاته السنوية[١]

وصل الأمير خالد إلى مصر، وشرع على الفور بالعمل لتسوية قضية (الخلافة الإسلامية) ووجه نداءاً طالب فيه بعقد مؤتمر إسلامي في كابول. باعتبار أن أفغانستان هي البلد الإسلامي الوحيد الذي لم يخضع للاستعمار. ومن المعروف أن «كمال أتاتورك» قد أزال منصب الخلافة الإسلامية في ٣ آذار ـ مارس ـ ١٩٢٤، مما أثار نقمة عارمة في كل انحاء الوطن الإسلامي، وبصورة خاصة في المشرق الإسلامي. وفي الأول من نيسان ـ ابريل ـ ١٩٢٤ نشرت صحيفة الأهرام (القاهرية) نداءاً وجهه الأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر، طالب فيه عقد مؤتمر إسلامي عالمي، وكان الأمير سعيد هو رئيس الرابطة الإسلامية لبلاد المشرق الإسلامي. فكان من الطبيعي، ومن المتوقع، أن ينضم الأمير خالد إلى الأمير سعيد، ليعملا معاً لدعم قضية العالم الإسلامي.

حدثت بعد ذلك تطورات على الساحة الإفرنسية دفعت بالأمير خالد للتفكير في استئناف نشاطه السياسي. فقد جاءت نتائج

---

(١) جريدة الشهاب ـ شباط ـ فبراير ـ ١٩٣٦.

انتخابات أيار ـ مايو ـ ١٩٢٤، لتحمل تحالف اليسار (الكارتل اليساري) إلى سدة الحكم، فاستقال رئيس الجمهورية «ميلراند» وتولى «هيريوت»[1] تشكيل الحكومة. وهو الرجل الذي كان معروفاً بتعاطفه الشديد مع حزب «الجزائر الفتاة». واشتهر بتشجيعه لهم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان من مقولاته المشهورة، «لنشجع أولئك الفتيان المغمورين في الجزائر، والذين أخذ الوطن الإفرنسي في استقبالهم واحتضانهم، كأبنائه الآخرين، منذ أن سقط إخوانهم قتلى إلى جانب أبنائنا ـ في ميادين القتال».

وعندما أعلن «هيريوت» بيانه الوزاري، ضمنه تأكيده: «بأننا سنأخذ بعين الاعتبار مصالح مستعمراتنا. وذلك عن طريق تعميم ثمار حضارتنا على أبناء المستعمرات والذين لا تعتبرهم فرنسا موضوعاً من موضوعاتها وإنما أبناء لها». ومع استلام الرئيس «هيريوت» لمسؤولياته، ترأس «الجامعة الافرنسية» لتمثيل المواطنين المسلمين الجزائريين في المجلس النيابي الافرنسي. وأدى ذلك إلى بعث التفاؤل في نفس الأمير خالد الذي أرسل في ذات اليوم الذي تشكلت فيه الوزارة الافرنسية الجديدة ـ وهو يوم ١٤ حزيران ـ يونيو ـ برقية عاطفية ومثيرة جاء فيها:

«إننا نرى في تسلمكم السلطة، بشائر عصر سعيد، ومقدمة

---

(١) هيريوت ـ ادوار (HERRIOT EDOUARD) كاتب إفرنسي ورجل سياسي، من مواليد تروي، TROYES سنة ١٨٧٢ وهو أحد رؤساء الحزب الراديكالي ـ الاشتراكي. شغل منصب رئيس مجلس الوزراء في مرات عديدة، كما عمل رئيساً لمجلس النواب (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠) ثم رئيساً للجمعية الوطنية سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٥١.

عهد جديد، يتم فيه إدخال المواطنين الجزائريين المسلمين في طريق التحرر، وإزالة القوانين والتدابير الاستثنائية وإجراء تمثيل في المجلس النيابي الافرنسي - البرلمان - وإصدار عفو سياسي عام، وتأمين حرية التعليم، وتحقيق المساواة في الأعباء العسكرية. وأملنا كبير بنفسكم الحرة الليبرالية» التوقيع - الأمير خالد - في المنفى -.

لقد كان تذييل البرقية الموجهة للرئيس الافرنسي بصفة «المنفى» هو تأكيد ثابت بأن مغادرة الأمير خالد لوطنه الجزائر، لم تكن مغادرة طوعية، وهو ما أكده الأمير خالد أيضاً بعد ذلك في تصريحاته أثناء جولة له في فرنسا بقوله: «أنه أبعد عن وطنه لأنه دافع عن المصالح الحيوية لمواطنيه المسلمين الجزائريين». وأخذ في الاستعداد أو للسفر إلى فرنسا، غير أنه كان لا بد له قبل سفره من الاشتراك في استقبال الزعيم المصري الكبير سعد زغلول باشا في الاسكندرية، وذلك لدى عودته من منفاه للمرة الثانية ظافراً باعتراف حكومة العمال البريطانية بزعامته للحركة الوطنية المصرية.

ولقد كان لتواقت الأحداث في عودة الزعيم المصري من منفاه وفوز تحالف اليسار الافرنسي دورهما الثابت في حفز الأمير خالد لمتابعة الجهاد والتوجه إلى فرنسا حيث وصل إليها في بداية شهر تموز - يوليو - وفي نفسه أمل كبير بأن يتمكن من الدفاع عن قضية إخوانه المسلمين في الجزائر.

استقبل الحزب الشيوعي الأمير خالد بمجرد وصوله إلى باريس، في محاولة منه لاحتضانه والمتاجرة باسمه. ونشرت صحيفة «اومانيتيه»(١)

---

(١) اومانيتيه (L'HUMANITE) ٣ تموز - يوليو - ١٩٢٤.

صورته مع صورة عن رسالة «المنفي الأمير خالد» إلى الرئيس هيريوت. وأعد الحزب الشيوعي في برنامجه تكليف الأمير خالد بالقاء محاضرتين حدد موعدهما في يومي ١٢و١٩ تموز- يوليو- حضرهما حشد كبير من أبناء المغرب العربي - الإسلامي بالإضافة إلى عدد من أبناء المستعمرات الأخرى ممن يعملون أو يقيمون في العاصمة الافرنسية. وقدم عريف الحفل الأمير خالد إلى جمهور الحضور بالعبارة التالية: «القائد الذي أرهب الاستعمار وأدانه بأكثر مما فعله أحد سواه».

وقد استقبل أبناء المغرب المسلمين الأمير خالد بنداء: «عاشت أفريقيا الشمالية حرة مستقلة» غير أن الصحافة الشيوعية تجنبت الإشارة من قريب أو بعيد إلى نداء أبناء المغرب المسلمين الذين كانوا يرددون الهتاف دونما توقف.

وفي المحاضرة التي ألقاها الأمير خالد يوم ١٢ تموز- يوليو- نهض النائب الشيوعي الافرنسي - أندريه برثون - والذي تولى من قبل الدفاع عن الشيخ الثعالبي - فوعد الحضور: «بأن تعمل الشيوعية الدولية على تحرير مسلمي الجزائر» ثم ختم مقولته بنداء وجهه الأمير علي بن الأمير عبد القادر (والذي كان عضو الهيئة المركزية للحزب الشيوعي) إلى حضور المحاضرة.

وظهر واضحاً أن الأمير خالد لم يخضع لهيمنة الحزب الشيوعي، على الرغم من كل المحاولات، وهذا ما أشار اليه تقرير الهيئة المركزية - فرع أفريقيا الافرنسية- غير أنه أيد الاتحاد بين أبناء المستعمرات ودافع بصورة موضوعية عن قضية« التبعية لحزب

سياسي» مشيراً بذلك إلى ما كانت قد نشرته صحيفة «الأقدام»[1] حيث رد الأمير خالد على صحيفة «العمل الافرنسي» بالجملة التالية: «من المحال علينا التبعية لحزب أوروبي - لم نشكله نحن نظراً لما عليه حالنا البائسة ونحن خاضعون للقوانين الاستثنائية».

واكتفى الأمير خالد بتوجيه الشكر إلى ممثلي الأحزاب الاشتراكية والشيوعية «الذين يدافعون عن المسلمين». وأشار بصفته ممثلاً وحيداً لفكر المسلمين الجزائريين الى التكتل الاتحادي «تريدينيون» والذي كان يوجهه صديقه - فيكتور سبيلمان - الذي وصفه أمير البيان شكيب أرسلان «بأنه الملاك الحارس للشعب الجزائري»[2].

غير أن ذلك لم يمنع الحزب الشيوعي من استثمار هذا التجمع لتشكيل حزب «نجمة شمال أفريقيا» وهو الحزب الذي تبنى هدف «المطالبة باستقلال أقطار الشمال الأفريقي الثلاثة- تونس والجزائر والمغرب- استقلالاً كاملاً، وسحب جيوش الاحتلال الإفرنسية من هذه الأقطار». وأصدر هذا الحزب صحيفة ناطقة باسمه، اختار لها اسم المجلة الأسبوعية التي كان يصدرها ويحررها الأمير خالد وهي «مجلة الأقدام» وأضيف لها اسم الأمير خالد بصفة «مدير شرف».

تميزت محاضرات الأمير خالد بالموضوعية، وبوفرة المعلومات قدر تميزها بقوة العاطفة والحماسة، وقد نشرت هذه المحاضرات تحت

---

(١) الأقدام ٣٠ آذار مارس- ١٩٢٣
(٢) الأمة العربية (LA NATION - ARABE) كانون الثاني (يناير) نيسان (ابريل) ١٩٣٧.

عنوان «موقف المسلمين في الجزائر - محاضرات ألقيت في باريس بحضور أكثر من (١٢) ألف مستمع» وذكر أن عدد العمال الجزائريين في مقاطعة السين أكثر من (١٥,٤٥٠) عاملاً[١]. وركز الأمير خالد في محاضراته على ما تضمنته رسالته إلى الرئيس الإفرنسي من مطالب، وأبرزها:

١- التمثيل النيابي البرلماني- للمسلمين بما يتعادل مع تمثيل الأوروبيين المستوطنين في الجزائر (أي ٦ منتخبين لمجلس النواب و ٣ منتخبين لمجلس الشيوخ مع تجاوز التفاوت الكبير في العدد، حيث كان عدد المسلمين في الجزائر يتجاوز الخمسة ملايين)

٢- إزالة النظام المفروض على المواطنين المسلمين- أنديجين.

٣- المساواة في أداء الخدمة العسكرية بين الجزائريين والافرنسيين.

٤- إفساح المجال أمام الجزائريين للترفيع في المناصب المدنية والرتب العسكرية حتى أرفع المناصب والرتب.

٥- ضمان حرية الصحافة وحرية التعليم.

٦- ترك حرية التعليم الديني وفصله عن تدخل الكنيسة والدولة.

٧- تطبيق القوانين الاجتماعية - الضمانات - الممنوحة للافرنسيين على المواطنين الجزائريين.

---

(١) تقرير مدير شرطة باريس ١١ تشرين الأول- اكتوبر- ١٩٢٣. أما «التقرير عن موقف المسلمين في الجزائر» فقد نشرته مؤسسة الاتحاد (تريدينيون)- الجزائر- ١٩٢٤.

٨ـ منح العمال الجزائريين حرية العمل في فرنسا بصورة تامة.

لقد اصطدمت هذه المتطلبات بمقاومات مختلفة، ففي مجال عمل الجزائريين في فرنسا، صرح رئيس اتحاد عمداء الجزائر ـ الافرنسي آبو ـ «بضرورة تقييد خروج اليد العاملة الجزائرية من الجزائر. وقال: بأن هذه اليد العاملة ضعيفة غير أنها مفيدة في كل الأحوال للعمل في الجزائر وفي الجزائر وحدها»[1]. وكذلك فعلت كافة الصحف التابعة للدوائر الاستعمارية. أما صحيفة الشيوعيين ـ اومانيتيه ـ فقد عالجت الموضوع بأسلوب ساخر، وذكرت: «أنها مع إقرارها لهذه الحقوق الأساسية إلا أن البورجوازيين يهدفون من خلالها غزو الديموقراطية بأجمل الوسائل وأمضى الأسلحة»

على كل حال، وبالرغم من خلو محاضرات الأمير خالد من المطالب الجديدة، فإن ما طرحه أصبح فيما بعد هو الأساس الذي تبناه الوطنيون الجزائريون في برامجهم الحزبية. وبصورة خاصة ما أعلنه الأمير خالد ـ بلسانه ـ للمرة الأولى، وعلى رؤوس الأشهاد، عن وضع الجزائر قبل الاستعمار الإفرنسي من تطور علمي ورفاه اقتصادي (حيث كانت أموال الأوقاف ـ الحبوس ـ وحدها تتجاوز مئات ملايين الفرنكات الافرنسية، وأن قسمًا من هذه الأموال كان مخصصاً لتعليم أكثر من ٣٠٠ ألف طفل في مدارس تعليم القرآن الكريم). وقارن ذلك بما أصبح عليه حال الجزائر من فقر وبؤس متعاظمين نتيجة النهب الاستعماري.

---

(١) صحيفة الكومونات (JOURNAL DES COMMUNES) ١ ـ كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٩٢٣.

تصدى الليبراليون واليساريون للعمل على مستوى المخطط السياسي الإفرنسي، فأدانوا تفاهم الأمير خالد مع الشيوعيين واعتبروا ذلك ـ ذنباً لا يمكن الصفح عنه ـ. وعمل مدير «مجلة المواطنين الجزائريين ـ بورداري»[1] على اتخاذ قرار بقطع علاقاته مع الأمير خالد «الذي فضل ـ بزعم مدير المجلة ـ الاستسلام للإرهابيين المغامرين الشيوعيين».

. أما الرئيس الإفرنسي الاشتراكي ـ هيريوت ـ فقد صرح فيما بعد ـ وبمناسبة الحديث عن تونس:

«بأنه يعارض هذا التحالف الوحشي الغريب بين الشيوعية والوطنية» وكان هذا الرأي هو المهيمن بصورة عامة على وسط اليسار الافرنسي. أما اليمين الإفرنسي فقد عاد لتبني اتهامات فرنسيي الجزائر للأمير خالد «المجند في خدمة البولشفيك». بالإضافة إلى افتراءات كثيرة ـ منها إقدام الأمير على تنظيم العمال المسلمين في فرنسا...

انعكست هذه الحملة الجائرة التي اشترك فيها اليمين واليسار بصورة قوية على الصفحة النفسية للأمير خالد، وأشعرته باليأس. فطلب من جديد إلى صحيفة ـ او مانيتيه ـ نشر رسالة له تضمنت ما يلي: **«ما أن يرفع مواطن مسلم صوته عالياً في الجزائر للاحتجاج ضدها ينزل به من الظلم حتى يتهمونه بأنه محرض على التخريب وأنه عامل ضد فرنسا... وليست محاولات تغطية احتجاجاتي ضد**

---

(١) مجلة المواطنين الجزائريين : (LA REVUE INDIGÈNE- DIREC TEUR- BOURDARIE)

نوعية الوصاية المفروضة على المواطنين المسلمين في الجزائر إلا كمن يحاول اعتراض ضياء الشمس بالمظلة».

كانت هذه الرسالة البليغة والاحتجاجية آخر محاولة علنية بذلها الأمير خالد لطرح قضية وطنه. وعرف من ردود الفعل الافرنسية أن إقامته في باريس لم تعد موضع رضى السلطات فيها. كما شعر بأن جهده مع «كارتل اليسار» قد وصل إلى منتهاه. فغادر فرنسا، ووصل إلى الاسكندرية ـ في مصر ـ مع بداية فصل الخريف لسنة ١٩٢٤، ولم يتمكن من تحقيق رغبته في التوجه إلى دمشق، نظراً لمنع السلطات الافرنسية له من اقتحام مناطق نفوذها.

وفي الاسكندرية حاول الأمير خالد الهرب من رقابة القنصل الافرنسي، واستخدم جواز سفر وأوراق ثبوتية زائفة لمغادرة مصر. غير أن أمره اكتشف فأحيل إلى محكمة قنصلية في الاسكندرية، واعتقل، وأصدرت المحكمة حكمها عليها في شهر آب ـ أغسطس ـ سنة ١٩٢٥ بالسجن لمدة خمسة أشهر...

ضاع بعد ذلك كل أثر للأمير خالد، وترددت شائعات كثيرة عن اشتراكه في ثورة الريف بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي. كما ترددت شائعات مماثلة عن اشتراكه في الثورة السورية الكبرى (سنة ١٩٢٥) غير أنه ما من وثائق رسمية تؤكد ذلك أو تنفيه.

أفاقت دمشق على خبر مباغت صباح يوم ١٠ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٣٦ معلناً وفاة المجاهد الأمير خالد بن الهاشمي الجزائري. وأقيمت عليه الصلاة في مسجد بني أمية الكبير. وانتقل إلى جوار

ربه عن عمر يناهز الستين عاماً. وانتقل الخبر بسرعة في أقطار العالم الإسلامي. فصدرت الصحافة الجزائرية- الإسلامية- وهي «نعلن الحداد العام في الجزائر. لقد مات الأمير خالد».[1] وكتبت صحيفة الدفاع: «تبكي جزائر المسلمين اليوم في الأمير خالد فارساً ومجاهداً مضى،غير أن اسمه الخالد سيبقى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحركة الجزائر الفتاة التي أسسها ودعمها بكل ما في نفسه من العزم والقوة، وغذاها بكل حماسته وإيمانه»

لم يشمل الحزن إخوانه من حزب الجزائر الفتاة فقط. فقد شعر الجميع بالخسارة الفادحة لفقده، فمضى العلماء لتأبينه، واشترك الشيوعيون في مأتمه.

لقد مضى الإنسان المؤمن والمجاهد الصادق للقاء وجه ربه، غير أن تضحياته وجهوده ومعاناته لم تلبث أن أينعت ثماراً عمت بفائدتها كل الوطن الجزائري[2].

---

(١) الدفاع ٢٤ كانون الثاني- يناير- ١٩٣٦.

(٢) المرجع الرئيسي للبحث: السياسات الاستعمارية في المغرب (شارل روبرت أغرون) ص: ٢٤٩ - ٢٨٤ (إفرنسي) وكذلك مجلة تاريخ وحضارة المغرب - كلية الآداب الجزائر - يناير - ١٩٦٨ العدد ٤ ص ١٩ - ٣٩.

سيدنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أشرف البشر، فمن ذا الذي يستطيع الانتقاص من قدرنا».

«أضرم أجدادنا حرباً حامية الوطيس لمدة خمسة عشر عاماً، وأزيد، لم يكن النصر حليفهم. غير أن تقدير بطولتهم وشجاعتهم هو حق ثابت لا ينبغي أن ينكره المنتصرون علينا. كما لا ينبغي لي، أنا حفيد الأمير عبد القادر، أن أسكت عنه مثلما فعل كثير من النواب المنتخبين».

الأمير خالد الهاشمي الجزائري

الفصل الثالث

١ـ الأمير خالد في موقعه التاريخي

٢ـ من الجد عبد القادر إلى الحفيد خالد

١ـ الأمير خالد في موقعه التاريخي

قد يقف الباحث أو المؤرخ حائراً أمام هذا الركام المتناقض من المقولات، وهو يحاول تقويم الموقف الصحيح للأمير خالد. وقد تتزايد حيرته إذا ما حاول إجراء مثل هذا التقويم بعيداً عن إطاري الأحداث الزماني والمكاني، بمعنى إسقاط الموقف العام ـ الدولي والمحلي ـ لتلك الحقبة التاريخية وإهمال الموقف الخاص لما كان عليه موقف مراكز القوى الاستعمارية والإسلامية في الجزائر خلال مرحلة تصدي الأمير خالد لتوجيه مسيرة الأحداث. وهنا قد يكون من المناسب قبل كل شيء الأخذ ببعض المعطيات التي أصبحت بمثابة المسلمات الوصفية نظراً لالتقاء كثير من وجهات النظر المتباينة عندها، وأبرزها:

١ ـ لقد ظهر الأمير خالد ـ في المرحلة الوسيطة بين تطور الهجوم الاستعماري الشامل، وبين البدايات المبكرة للهجوم المضاد للاستعمار عامة. يؤكد ذلك التوسع الاستعماري الذي أعقب الحرب العالمية الأولى (باسم الانتداب أو الحماية أو

الوصاية) وما قابله من انتفاضات في العالم الإسلامي (ثورات تونس ومقاومات ليبيا والحركات الوطنية في مصر وثورة المهدي في السودان والثورة السورية الكبرى ١٩٢٥).

٢ ـ وظهر الأمير خالد بعد قرن من استعمار فرنسا للجزائر تقريباً حيث اجتاحت جحافل الغزو الاستعماري الجزائر في سنة ١٨٣٠ م على ما هو معروف، وبدأ الأمير خالد نشاطه للعمل في الفترة ١٩١٥ـ ١٩٢٥ . وخلال هذه الفترة نجحت قوى الاستعمار في إزالة الكثير من قواعد الصمود والمجابهة ـ إذا صحّ التعبير ـ فقد أمكن لفرنسا ومؤسساتها خلال هذه الفترة القضاء على القيادات القبلية والزعامات الدينية وتركت الساحة الجزائرية في حالة من الفراغ أخذت هي بإملاء فراغها بأجهزة وتنظيمات تابعة لها. مع استثمار كافة التناقضات الممكنة لإفراغ هذه التنظيمات من أهدافها.

٣ ـ وعاش الأمير خالد بعد ذلك متنقلاً بين دمشق ـ وطنه بالولادة ـ والجزائر وطن آبائه وأجداده، وفرنسا ـ الوطن الأم ـ كما كان يطلق عليها، فكان لا بدّ له من معالجة آلام وآمال مواطنيه من منظار شامل، ولقد عرف بحكم مواطنته أبعاد القضية التي يعيشها. والأخذ بقضية الجزائر على أنها قضية خاصة وعامة، تعود خصوصيتها إلى طبيعة ما يعانيه مسلمو الجزائر، وتعود عموميتها إلى ارتباطها بالهجوم الاستعماري الصليبي الشامل. ولقد عاصر الأمير خالد أحداثاً مثيرة، لم يكن أقلها إزالة الخلافة الإسلامية، ولم يكن أقلها تمزيق العالم الإسلامي واقتسامه بين الدولتين

الاستعماريتين الكبيرتين بريطانيا وفرنسا. ولم يكن أقلها أيضاً ظهور حركات اشتراكية تبعها انفجار الثورة الشيوعية في المانيا وروسيا. وكان لذلك كله دوره في التحرك السياسي وفي المعاناة الصعبة لظروف الصراع.

٤ ـ والأمير خالد قبل ذلك وبعده سليل أسرة منسوبة إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وهو أصيل المحتد كريم المنبت. فكان لا بد لذلك من أن يطبعه بطابعه وأن يسمه بميسمه، فهو أحق الناس بالدفاع عن الإسلام والمسلمين، لا سيما وهو يعيش كل ظروف القهر والمعاناة الناجمة عن ظروف الحملة الصليبية الجديدة. وهو إلى ذلك، لا يرى في غير الإسلام وسيلة لدعم الصمود، ولإحياء الأمل في النفوس. فكان من نتيجة ذلك أن ربط الأمير خالد بين ماضي المسلمين وحاضرهم وما يجب أن يكون عليه مستقبلهم. ووضع بذلك أساس قاعدة العمل.

٥ ـ وكان المسلمون في الجزائر يجدون في العالم الإسلامي متنفساً كلما أثقل صدرهم كاهل الاستعمار، فكان الزعماء يفرون بدينهم إلى تونس وإلى المغرب أحياناً، وإلى مصر في أحيان أخرى، وإلى بلاد الشام خاصة في كل الظروف، غير أن جحافل الغزو الاستعماري سبقتهم ـ أو لحقت بهم ـ لاحتلال هذه البلاد. فبات المخرج عسيراً، وضاقت دنيا المسلمين بما رحبت. ولم يبق أمام المحكومين إلا الاحتكام إلى حاكميهم وصدقت المقولة (فيك الخصام وأنت الخصم والحكم). ولكن، وحتى في ظروف (ليل الاستعمار الحالك السواد) لم يفقد الأمير خالد كل الأمل في

إمكان صيانة قواعد الصمود، والابقاء على ما بقي منها، فمهّد بذلك الطريق، وأضاء شعلة النور وسط الظلام، لتهتدي بهداها، ولتستضيء بنورها الأجيال المقبلة.

وبعد، قد يكون من السهل على الباحث أو المؤرّخ أن يقف اليوم، ليصدر إدانته على ما قام به الأمير عبد القادر الجزائري، وأن يتهم قادة ثورة ١٨٧١ـ المقراني والحداد بالقصور أو التقصير، وأن يعود إلى مقاومة الحاج باي أحمد في قسنطينة، وأن يصف بومزراق وبو معزه ولالا فاطمة والإخوان الرحمانيين وحتى الأمير خالد، بأنهم ضلّوا السبيل وأخطأوا التقدير. غير أن مثل هذه الأحكام تفتقر إلى النزاهة قدر افتقارها للموضوعية. لقد كان كل واحد منهم صورة صحيحة للفترة التي عاشها، ومن المحال إدانة مرحلة تاريخية بدون الأخذ بجميع العوامل المحيطة بتلك المرحلة وما سبقها ثم ما رافقها وما تبعها أيضاً. وفي إطار اتصال هذا النسيج التاريخي يمكن تقويم أهمية عمل تلك النجوم التي أضاءت السبيل وهي تضحي بوجودها وبكل ما تملك للدفاع عن قيمها ومثلها العليا وفضائلها الخالدة.

عند هذه النقطة، يمكن العودة لاستقراء سيرة الأمير خالد وأعماله، لا من أجل الدفاع عنه، فقد دافع عن نفسه طوال حياته بإباء الرجال، وشمم الأبطال، وإيمان المجاهدين الذين يحتسبون جهادهم في سبيل الله ورسالته الإسلامية. وإنما من أجل إجراء تقويم وجيز لتلك الأعمال، واستخلاص أبرز دروسها.

عندما بدأ الأمير خالد نشاطه السياسي لخوض انتخابات البلدية

سنة ١٩١٩، ترافق ذلك مع الصراع بشأن قانون ٤ شباط ـ فبراير ـ ١٩١٩[1] وأدى ذلك إلى تطور الحركة الوطنية الجزائرية، وتكوين شخصية الشعب الجزائري الإسلامية، وتركز الصراع حول سياسة الإدماج أو ضدها، من خلال التجنّس بالجنسية الإفرنسية أو رفضها. وقد أراد بعض الشبان الجزائريين ـ المتفرنسين ـ الإفادة من القانون المذكور على حد زعمهم لزيادة عدد الناخبين والمنتخبين. وهنا اتخذ الأمير موقفه التاريخي الذي عبر عنه بقوله: **«لا يقبل المسلم الجزائري بديلاً عن جنسيته بجنسية أخرى إلا في نطاق شخصيته الخاصة، لسبب جوهري واحد، هو المحافظة على دينه وشريعته الإسلامية»**.

وفي معركة الانتخابات ـ سابقة الذكر ـ ظهرت ثلاث قوائم، عبّرت عن الاتجاهين المتصارعين على الدمج والتجنّس، وضده، فكانت القائمة الأولى برئاسة شيخ عظيم التقوى والورع هو الشيخ الحاج موسى الذي كان مستشار بلدية الجزائر منذ سنة ١٨٨٤، ولم تضم هذه القائمة أي جزائري متجنّس بالجنسية الإفرنسية، وكانت الشخصية البارزة المرموق إليها من بين كل المرشحين،

---

(١) كان قانون ٤ شباط ـ فبراير ـ ١٩١٩ يخوّل بعض المسلمين من الملاك والتجار وحاملي الأوسمة من أعضاء الغرف التجارية والزراعية الذين يزيد عمرهم على ٢٥ سنة، حق الاقتراع في الانتخابات. فتزايد عددهم من (٥) آلاف ناخب إلى (٤٣١) ألف ناخب، وكانوا جميعهم من غير الخاضعين لقانون الرعوية INDEGINAT الخاص بغيرهم، ومن جملة الميزات الممنوحة لهم التجنّس بالجنسية الإفرنسية، والارتقاء إلى المواطنة الإفرنسية بعد التصريح والاعلان بنبذ الشريعة الإسلامية، والتخلّي عن الأحوال الشخصية الإسلامية.

هي شخصية الأمير خالد. ومقابل ذلك، كانت القائمة الثانية برئاسة السيدين «وليد عيسى» و«ابن شامي أو بنثامي» لا تضم إلا الشخصيات والأعيان المتجنسين بالجنسية الافرنسية أو المؤيدين للتجنيس والداعمين له. أما القائمة الثالثة، فقد شملت مرشحين جزائريين غير معروفين بالإضافة إلى إفرنسيين عرف عنهم دفاعهم عن حقوق المواطنين المسلمين، وهما: المحامي - لادميرال- والصحافية «باروخان» مديرة جريدة الأخبار.

ومن المفيد ملاحظة ما رافق الحملة الانتخابية من بيانات تبرز طبيعة الصراع. فقد هاجمت صحيفة - الأقدام- الناطقة باسم «حزب الجزائر الفتاة» بقولها: **«لم يبق في الجزائر متجنّس واحد يمكن أن يشرف أقرانه بتمثيلهم في المجالس، لأن قائمة السيد بنثامي- ابن شامي- قد لمّت شملهم جميعاً» هذا فيما كان الأمير خالد يدعو الناخبين الجزائريين إلى التصويت على «قائمة المرشحين المسلمين غير المتجنسين لئلا يتولى أمورهم المرتدون- الكفرة- أصحاب القبعات- البيريه». وكان يذكر الناخبين في كل مناسبة: «بأن المسلم الصادق يحرم عليه انتخاب إفرنسيين أو أشخاص ينتمون إليهم. ويستعمل في مخاطبتهم عبارة الاعتزاز بالإسلام، والإعراض عن الجهل والجاهلين التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم مع هرقل عظيم الروم- والتي كان الأمير عبد القادر يستعملها في مراسلاته مع الماريشال بيجو متحدّياً له- وهي:- السلام على من اتّبع الهدى -» ومقابل ذلك: «كان المرشحون على قائمة بنثامي- ابن شامي- يندِّدون بالقومية الإسلامية والتنكر لأساليبها والشكوى من خصومهم الذين**

يصفونهم للعامة بالمارقين المرتدين عن الدين».

يمكن فهم محاولة الأمير خالد، وإخوانه المجاهدين، بسهولة ودونما كبير جهد أو عناء، لقد استطاعت فرنسا تكوين تيار جارف، فكان لا بدّ للمؤمنين المخلصين من تكوين سد في وجه هذا التيار، وعدم تمكينه من اقتلاع ما بقي من جذور الأصالة الذاتية الكامنة في الإسلام، وفي الإسلام فقط، وعلى هذا أيضاً يمكن فهم الحوافز التي دفعت بالأمير خالد وإخوانه إلى طرح المطالب التي تؤدي- بمجموعها- إلى تطوير السد القائم بين فرنسا والمسلمين. ولئن طلب الأمير خالد في كل مقولاته معاملة الجزائريين كالفرنسيين، فإن ذلك للتخفيف عنهم من جهة، ولتوفير المناخ أمام بناء القاعدة الثوروية الصلبة.

وهذا بدقة ما أبرزه بحث للباحث الجزائري «محفوظ قداش»[1] جاء فيه ما يلي:

«كان نشاط الأمير خالد يرتكز على مبدأ مستقر، ألا وهو الاعتصام بالإسلام، ولهذا المبدأ أثر عميق في السياسة الجزائرية، الماضية والحاضرة، فهو محورها، ولم يكن في الإمكان حينذاك أن يعبر الناس علناً عن الوطنية والقومية السياسية. غير أن الدين وقضية الدفاع عن الشخصية الإسلامية، كانا يفتحان للأمير خالد مجالاً رحباً لإفراغ ما في جعبته.

---

(١) مجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب، الجزائر، العدد ٤ - يناير-١٩٦٨. بحث بعنوان (الأمير خالد ونشاطه السياسي) للباحث: محفوظ قداش. ص ١٩- ٣٩.

ويجب ألا ننسى أن الإسلام هو الذي بقي طوال عهد الاستعمار الإفرنسي الضمان الأول للشخصية الجزائرية. فلم تشق القومية الجزائرية طريقها إلى الإستقلال، ولم تهمس مطالبها الأولى، إلا بفضل انتسابها إلى العالم العربي ـ الإسلامي، وأخذ نصيبها من نهضته الميمونة، فكان الأمير خالد في الجزائر رائداً من روادها العظام. فنشر في «الأقدام» عدة مقالات عن المدنية العربية، وطلب إلى الأدباء المسلمين إعداد دراسات خاصة بها وتراجم أقطابها وعلمائها المشهورين لمقابلتها بالاكتشافات الأوروبية الحديثة، التي كاد ظهورها وتطورها السريع بعد حرب ١٩١٤ـ ١٩١٨ أن يخطف أبصار المسلمين، ويضعف إيمانهم بمبادئهم وأعمالهم ومستقبلهم. فانبعثت النهضة في الجزائر العاصمة، فكانت وثبة وطنية، ورغبة شديدة في ثورة كبرى، وأخذ الزعماء يحلمون وقتئذٍ بإنشاء دولة إسلامية عظمى، وإحياء مجد الأجداد وحضارتهم الزاهرة زمن الخلافة في دمشق وبغداد وقرطبة».

وتصدى الأمير خالد لفضح سوءات الاستعمار، وإسقاط الأقنعة عن مزاعم الحضارة الغربية التي حملها الاستعمار الإفرنسي لجزائر المسلمين، فكان في جملة مقولاته بهذا الصدد: «لم يعمل الاستعمار شيئاً لنا أو لأهلنا، فالجوع يقف على الأبواب، وليس لنا إلا أن نركب القطارات ونسلك الطرق والمحطات المخصصة لكبار المعمرين ـ المستوطنين ـ. نعم! إنهم ينشئون لنا بعض المدارس في الأكواخ. ولكنهم يقتطعون في نفس الوقت أراضينا، ويسلبون أولادنا، ويغتصبون أموالنا، ويعلّموننا الخمر والميسر، ويحملون إلينا جميع الأمراض والموبقات والرذائل التي يتصف

بها رجال يدعون أنهم متحضّرون. . . وعندما نمرّ بضواحي العاصمة وعند المرور على بعض الدواوير بما فيها الداخلة في المزارع النموذجية، نكاد أن نقطع ونجزم أن فرنسا لا وجود ولا أثر لها في الجزائر منذ (٩٥) عاماً. فليس هناك لا مدارس ولا طرق ولا آبار ولا سدود، ولا أطباء ولا بيطريون ولا مستشارون زراعيون» «. . . إن حقوق الأهالي مهدورة منسية. . . فكأن المسلم الجزائري لا يصلح إلا أن يكون جندياً أو دافعاً للضرائب الباهظة، ولو كلفه ذلك بيع آخر عنزة من ماشيته».

وفي مقولة أخرى:

«. . يقول لنا بعض الأوروبيين: لو كنتم تحت سيطرة الألمان أو الإنكليز لكنتم تقدرون سلوك فرنسا تجاهكم! وأقول: هل هناك، اللهم، جور أقسى من جور فرنسا. . . لا يمكن أن يتمنى المرء بعد هذا الظلم الغاشم إلا الموت. . . ! فإذا كانت سياسة الإدارة الافرنسية قائمة على تقويض اللغة والدين وإفقار الشعب، فقد نجحت كل النجاح: فالشعب غارق في الجهل، والدين ورجاله في محنة، والفقر مدقع».

والأمير خالد، وهو يطالب معاملة المسلمين الجزائريين كالإفرنسيين، يصرخ مع أفراد حزبه في وجه الاستعماريين: «في هذه الأفريقية، التي تتجه إليها كل الأطماع الشرسة الدفينة، والتي عاث فيها على تعاقب العصور كل نوع جديد من جنود ومرتزقة ومعمّرين وموظفين، أصبحنا نتهم بإثارة الثورة لأننا نقول: إن الناس يموتون جوعاً. ونتهم بعداوة فرنسا ومقاومتها لأننا نطالب

بالمساواة بين خلق الله. . . إذن، فلنكن فوضويين وشيوعيين وأعداء لفرنسا، ووطنيين وكل ما شئتم من صفة، ولكن لنبق رجالاً قبل كل شيء. . .».

ويحذر الأمير خالد الافرنسيين من التمادي في سياساتهم الاستعمارية، فيقول لهم: «أيها الأوروبيون: إن كل الاجراءات التي تتخذونها ضد هؤلاء وأولئك لن تجدي نفعاً، لأن الحوادث المقبلة ستكتسح كل هذا العبث والفساد، ولأن الأجل لذلك قد حل. . . إن الافرنسيين القاطنين بالجزائر، باتوا وهم ينتظرون بمرارة اليوم الذي سيرغمون فيه على شد أمتعتهم وحقائبهم للعودة إلى الوطن الأم. . . فمستقبلهم غامض مجهول، والأفق أمامهم ملبّد بالغيوم والسحب والعاصفة على وشك الرعد والقصف على رؤوسهم، وهم منذ الآن يتألمون من ذلك ويتحسّرون عليه. . . ! وقد حق لهم أن يشتكوا ويتألّموا. . . فأي شيء أعزّ عليهم، وأي ألم أشدّ من مغادرة بلد كانوا يعيشون فيه عيشة الأمراء والأسياد في ثراء واسع بلا كدّ أو تعب، تخدمهم أقوام وأمم من العبيد، دون أملٍ في الرجوع يوماً إلى ذلك الفردوس؟ إني لأشفق على كربهم حقاً، وعلى عدم انبثاق بصيص من نور في أفقهم».

ويرتفع صوت الأمير عالياً وهو ينذر الاستعماريين بما يشبه إعلان الحرب، فيقول لهم: **«الحذر ثم الحذر، اننا دخلنا لأمد طويل في طور من الحروب الأهلية والعالمية والفتن التي لا يدري أحد بعواقبها. فإذا تماديتم في تعسير حياة الأهالي ـ المواطنين ـ بعد يسرهم في أوطانهم، فستكون شدة انفجار ثوراتهم على قدر**

شد الخناق عليهم» ولقد كان هذا التحذير الذي يشبه النبوءة بما سيحدث، مرتبطاً برؤية الأمير خالد ـ الواضحة ـ لمسار خط الاستعمار، على الرغم من شدة ظلام ليل الاستعمار في تلك الفترة، وها هو يربط خط هذا المسار بمجمل قضية الاستعمار، وذلك من خلال مقولته: «أيها اللبنانيون والسوريون والجزائريون والتونسيون والمغاربة... إنكم عبيد خاضعون لنير بعض السماسرة والبورجوازيين الذين سوّغوا لأنفسهم تدنيس أرض أوطانكم العزيزة. إن لكم في بعض معاقل الحرية في الخارج أصدقاء يقظين... أجل، وقولي لكم هو عين الحق والصدق والأمانة ... سننتقم جميعاً».

وكان لا بد للأمير خالد، في إطار تحركه السياسي، من توجيه غضبه نحو أولئك المتجنّسين الذين كانوا لا يؤيدون مطالبة الجزائريين بالتمثيل النيابي، وظهر ذلك في تعامله ـ على سبيل المثال ـ مع «مسيو صوالح» الذي وصفه: «بالخيانة لبني جلدته، والكفر والارتداد عن دينه. وقال عنه: إنه يعتقد أن تجنسه وكفره، وقطع الصلة بينه وبين ملّته، وأكل لحم الخنزير، ولبس القبعة أو البرنيطة، كل ذلك يخوّله صفة الإفرنسي النبيل. فمثله كمثل الوطواط، لا هو عصفور ولا هو فأر، إنما يتجسّم في خلقه الرياء والنفاق، ولن يجد إلا اللعنة والخزي، أينما ولى وجهه».

والمعروف ـ في الجزائر ـ عن «مسيو صوالح» هذا، أنه لم تبق له في تلك الفترة أية علاقة مع إخوانه الجزائريين. فكانت جريدته «الناصح» تعتبر لسان حال الإدارة الإفرنسية. وكانت الولاية العامة

هي التي تتولّى تغطية نفقاتها ومصاريفها. وحدت الوقاحة «بمسيو صوالح» أنه بات يجادل في مبدأ تمثيل المسلمين في مجلس النواب الإفرنسي ذاته. فكان يتساءل كمن لا يعلم ولا يدري شيئاً بقوله: «هل هذا التمثيل ممكن؟ وهل هو ناضج قد أتى أوانه؟».

وقدر ما كان يهتم الأمير خالد بكبار الأمور المتعلقة بالسياسة الاستراتيجية، فقد كان يظهر قدراً مماثلاً من الاهتمام بشؤون مواطنيه الصغرى: «فهو يعمل قدر استطاعته من أجل التطوير الاجتماعي للمسلمين، مثل إنارة «حي القصبة» في الجزائر العاصمة، وجلب المياه النقية إلى المساكن، وإنشاء مراكز صحية، وإغلاق دور البغاء بالقصبة، ومقاومة شرب الخمور والكحول، وتوسيع مقبرة «سيدي محمد» وغير ذلك. وتضمنت جهوده دعم المزارعين وإرشادهم، وعتقهم من ربقة الاستعمار، ولم تكن مطالبته بفتح المجال للعمال من أجل العمل في فرنسا إلا بهدف تحرير العمال من سيطرة المستعمرين ـ الكولون ـ وتطويرهم اقتصادياً واجتماعياً وكان الوحيد من العائلات العريقة الجذور الذي رفع صوته بقوة ضد نظام الرعوية البغيض.

وعلى هذا الأساس طلب «يوسف حمدان» الأمين العام للأخوة الجزائرية ـ وهو تنظيم شيوعي ـ إلى المواطنين بنداء حار: «أن تتم إعادة الأمير خالد إلى وطنه وإماطة اللثام عن أصدقائه القدماء الذي دفعتهم السلطة الاستعمارية في الجزائر للوقوف ضده».

وبسبب ذلك، تعرض الأمير خالد، في جملة ما تعرّض له من اتهامات، اتهامه بالشيوعية، وقد سبق في عرض سيرة الأمير

الإشارة إلى رفضه الخضوع لهيمنة الشيوعيين، أو تسليم قضية بلاده لغير أبنائها معتمداً في ذلك على القدرة الذاتية للعالم العربي الإسلامي، وتناقض هذه القدرة الإسلامية مع معطيات العقيدة الشيوعية.

غير أن ذلك لم يمنع الأمير خالد من الإشارة إلى السبب الذي يدفع اليائسين المسلمين من التعلق بأي أمل يخرجهم من مأزقهم، فقال في ذلك: «إن المسلمين اشتراكيون وتعاونيون واتحاديون بالطبع، كما تدل على ذلك بيئتهم وعيشتهم، ولكن لم يكونوا متطرفين أبداً. وإذا كان إلى يومنا هذا عدد كبير منهم قد انقادوا إلى النظرية الشيوعية واعتنقوا مذهبها. فالسبب الجوهري في ذلك هو السياسة الحمقاء التي يمارسها الولاة والعمال الإفرنسيون في الجزائر والتي يتضاعف فيها يوماً بعد يوم عدد الساخطين والناقمين».

وأبرز الأمير خالد أسباب ما يحيط به من بؤس، وما يعانيه مواطنوه. فنسب ذلك إلى الاستعمار وإدارته وأساليبه، وفضح طريقة الاستعماريين في الاستحواذ على الأراضي الخصبة، وذكر أن ثروات المعمّرين الطائلة لم تأتهم من عمل المحاريث والأدوات الزراعية فقط، وإنما من عرق الفلاح الجزائري وجهده. وقارن بين دخل المعمرين الذين كانت أرباحهم تبلغ الملايين، وبين أجور الفلاحين المسلمين التي كانت تتراوح بين ٢ و٤ فرنكات في اليوم. فصبّ جامّ غضبه على المسؤولين عن ذلك.

كما انتقد بقسوة الإدارة الإفرنسية في الجزائر على تقصيرها

وتهاونها. وانتقد أيضاً قلة نواب المسلمين والممثلين الجزائريين في البلديات ووفرة عدد الموظفين الأوروبيين فيها بحيث كانوا يبتلعون وحدهم موارد ميزانيتها كلهـا.

وطرح الأمير خالد أيضاً «وضع البلديات العسكرية، فندّد بالتعسّف والإرهاب فيها، وكان يعتمد في كثير من الحجج على مقولات الأوروبيين ذاتهم، مستفيداً في ذلك من التناقضات بين القيادات الإفرنسية ذاتها وبين القيادات الاستعمارية في الجزائر، والحكومة الإفرنسية في باريس. ومن ذلك ما قاله أحد الولاة الإفرنسيين القدامى: «إن تطبيق الحضارة على الجزائريين في بعض النواحي معناه الزيادة المطردة في الضرائب والغرامات ونهب أموالهم وأخذها غصباً وتجريدهم من أملاكهم والوصول بهم إلى الخراب والهلاك».

٢ـ من الجد عبد القادر إلى الحفيد خالد

عملت الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وهي تحكم قبضتها على الوطن الجزائري أرضاً وشعباً، على تشويه سمعة الأمير عبد القادر وذلك على نحو ما فعلته مع كل القيادات الجزائرية المتتالية ضمن إطار الحملة الشاملة لتدمير قواعد الصمود، وفصل الجماهير عن قياداتها، وتدمير الجماهير وقياداتها معاً بعد ذلك حتى تفرغ الساحة من كل زعامة دينية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.

وقد أدرك الأمير خالد ذلك لدى انتقاله بصحبة والده وأفراد عائلته من دمشق إلى الجزائر. فكان لا بد له من التصدي لتصحيح المواقف الخاطئة والأفكار المشوهة، ولهذا لم يعد من الغريب عليه أن يحاول الإفادة من كل موقف للتذكير بأعمال جده العظيم، والإشادة بجهوده ومنجزاته، والتذكير بتضحياته ومعاناته. ولم يكن هدف الأمير خالدـ يقيناًـ التأكيد على رابطة عصبية كتلك العصبية الجاهلية، بدلالة عدم وقوفه إلى جانب أقاربه في المواقف التي

تتناقض مع هدفه السياسي.

وهكذا ـ وعلى سبيل المثال ـ فعندما نسب إليه سلوك أقاربه من أمثال خاله الأمير علي باشا وابن عمّه الأمير سعيد من أعضاء اللجنة الإسلامية لاستقلال الجزائر وتونس، المنشأة في برلين في شهر يناير ـ كانون الثاني ـ ١٩١٦. رد الأمير خالد على ذلك بقوله: «بأنه يطلب ألا يحاكم إلا على نشاطه السياسي فقط، وعلى أعماله وحدها، لا على أعمال أقربائه». ومن هنا يظهر أن تركيز الأمير خالد على سيرة جده إنما كان بهدف تحقيق ما يلي:

١ ـ ربط وحدة الجهاد على أرض الجزائر في نسيج متصل.

٢ ـ الالتزام بالقيم والأهداف التي جاهد في سبيلها الأمير عبد القادر والتي يسير عليها هو أيضاً باعتبار أنها تشكل القاعدة الثابتة والصلبة للجهاد ضد الحملة الصليبية الجديدة.

وليس من الغريب أن يردد الأمير في كل مناسبة على أسماع مواطنيه العبارة التالية: «لا تنسوا أن آباءكم قد هبّوا للنضال لأول إشارة من جدي الكريم».

وعند هذه النقطة، نقطة الجهاد والنضال يلتقي الجد والحفيد في قضية الدفاع عن الإسلام والمسلمين، في الجزائر المجاهدة خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، وقد تكون ملاحظة هذا الخط المشترك واضحة من خلال المواقف المعروفة والتي يمكن استقراء بعض ملامحها عبر النماذج والأمثولات التي لا تشكل في كل الحالات إلاقليلاً من كثير، ووجيزاً من ملحمة متطاولة تتجاوز في

مضمونها وأهدافها كل الحدود.

كانت الفكرة الشائعة، والتي طالما روّج لها الاستعماريون في فرنسا: «بأن جماهير المسلمين لا تزال تعيش في غياهب الجهل، وهي بعيدة كل البعد عن- نور الحضارة الأوروبية. فالمسلمون متخلفون جداً، منعزلون بأنفسهم بسبب تعصبهم الديني، الذي لا ينسجم مع مطالبتهم بالحصول على حق التمثيل السياسي والاجتماعي على قدم المساواة مع الإفرنسيين، وعلى هذا فإن منحهم مقاعد النيابة أو عضوية مجلس الشيوخ هو أمر سوف لا يجديهم نفعاً، وهم في حاجة أكيدة إلى زيادة في التربية والتعليم- الإفرنسي- حتى تصبح لديهم القابلية لفهم المدنية الأوروبية، ويصبحوا قادرين على اكتساب الأساليب الحديثة للتنمية الاقتصادية وتطبيقها. وقد يطالب نوابهم باستقلال الجزائر- باسم مبادىء ويلسن- في الحين الذي تباع فيه نساؤهم رقيقاً».

ويتصدى الأمير خالد للرد على هذه المقولة، بنخوة الرجل العربي، وإيمان الإنسان المسلم، فيقول: «لقد أفاد المسلمون أوروبا إلى حد بعيد جداً بحضارتهم ومدنيتهم. وإذا كانوا متأخرين الآن، فلأن (٣٠) ألفاً على الأكثر من أصل خمسة ملايين جزائري يترددون على المدارس. ويمكن للجزائريين على غرار السنغاليين، الذين اعتبروا مواطنين إفرنسيين مع احتفاظهم بنظام أحوالهم الشخصية الإسلامية، أن يكون لهم ممثلون في مجلس النواب. وأنه لا جدوى من الحديث مع الوطنيين الجزائريين عن أساليب التنمية، ما دام هناك استمرار في إحداث مراكز جديدة

للاستعمار، وما دام تطبيق قانون- طورانس- مستمـراً[1].

أما ما قيل عن المرأة المسلمة بأن الصداق الذي يؤديه لها زوجها إنما هو ثمن شرائها... ففي بلادكم أنتم أيها الأوروبيون، تشتريكم نساؤكم. وفي أوروبا كلها تعقد زيجات المنفعة والمتعة، وفيها كلها لبس وإكراه. وكذلك يشاهد المرء اليوم في شوارع باريس فتيات يكاد عمرهن لا يتجاوز (١٢) سنة، وهن يتعاطين البغاء جهرة...

وأما بالنسبة لقضية الربط بين التعليم والتمثيل، فالأمر المعروف هو أن الاستعماريين الأوروبيين وأعوانهم فضلوا أناساً جهلة عينوهم تعييناً- في الانتخابات- على المثقفين المسلمين المخلصين والذين كان الشعب يريد انتخابهم. فحالوا دونه ودون ذلك. واتهموا هؤلاء المثقفين بالوطنية المتعصبة، وبالنزوع إلى الاستقلال التام. والحال أن الأوروبيين هم الذين يطالبون باستقلال الجزائر الذاتي- ليتحكموا بالمواطنين المسلمين، وليستأثروا بخيرات البلاد- بينما يكتفي النواب المسلمون بالمطالبة بربط العمالات الجزائرية الثلاث إلى العمالات الإفرنسية، وجعلها سواء بسواء معها في كل الشؤون».

وقرأ الأمير خالد- وهو في منفاه بسوريا سنة ١٩٣٤- مقالاً مهيناً

---

(١) جريدة الأقدام ٩ حزيران- يونيو- ١٩٢٢. وقانون طورانس، هو القانون الذي يتم بموجبه تحديد ملكية المسلمين. غير أن عقد الملكية الذي كان بيد المسلم الجزائري لم يكن يحميه من قيام المعمّر الأوروبي بالاستيلاء على أرضه.

بالرسول صلى الله عليه وسلم ـ كتبه صحفي إفرنسي ـ وتعرّض فيه أيضاً لأزواجه رضي الله عنهن، فوجّه إليه الأمير برقية شديدة اللهجة يخبره أنه مسلم غيور على دينه، وأنه من سلالة ذلك النبي العظيم، ويقول فيها أنه يترك له الخيار بين اثنين: إما الاعتراف علناً بذنبه، وإما المنازلة بالسلاح. فأجاب الصحفي، وهو المسمى ـ بيير ماريل ـ الأمير برسالة اعتذار[1].

هنا يمكن العودة إلى مواقف الجد ـ الأمير عبد القادر ـ يوم اجتمع عدد من القسس في فرنسا، ووجهوا إليه أسئلة عديدة، منها السؤال التالي:

«**إن دعوة محمد اكتنفها الغموض من جميع جوانبها، وإن العرب بوجه عام، والشرقيين منهم بوجه خاص قد كابروا، وادّعوا أن دعوة محمد دعوة يقرها العقل والمنطق**». ورد الأمير عبد القادر بالتالي:

«لم تكن رسالة محمد دعوة تهويس وإسعاف، ولكنها دعوة اتساع أفق وشمول نظر، فاستطاعت بذلك تلبية حاجة البشر كافة، من خاصة وعامة، وذلك لأنها الرسالة الوحيدة بين الرسائل التي لا مسخ فيها ولا إسفاف، ولا غش ولا إجحاف، وهي فوق هذا وذاك بدأت باسم الله الرحمن الرحيم. وختمت بأنه ربّ العالمين. وجاءت رسالة الإسلام في وقت كان العالم كله في تأخر من جميع الوجوه، دينياً وعلمياً ومدنياً وسياسياً.

---

(١) جريدة الدفاع ـ الجزائرية ـ ١٨ أيار ـ مايو ـ ١٩٣٥.

فلم يمرّ قرن واحد، حتى أوجدت للعالم كله ديناً قيّماً وعلماً محكماً ومدنية سعيدة وسياسة رشيدة، فنفخت في الإنسانية روحاً جديدة، لا تقبل الفناء، ما دامت الأرض والسماء. فهي كالينبوع الذي تفجّر في أرض وفاضَ على غيرها، فأحياها بعد موتها. وكان ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. ولا تقف صفات الإسلام عند هذا الحد في الصفات التي تتميز بها الديانات والرسالات، بل كان من أهم صفاته أنه دين الهداية إلى الحق، والارتفاع بقيمة العقل من الانسياق وراء المعميات والخوارق الغريبة عن الطبيعة المدنية في الاقتناع والتصديق.

واستمرت رسالة الإسلام، تغزو الممالك والبقاع، وأخذت راية الدين الحنيف ترفرف على البلدان والأمصار ،وتغلغلت دعوة النبي العربي في أوروبا وغيرها من البلاد التابعة للديانة المسيحية، وعزّ على الكنيسة أن ترى دين محمد يعلو على كل دين ويدحض كل فرية وكل دعوة تقوم على الزيف والأباطيل. فجنّدوا لها إرسالياتهم التبشيرية، وبعثروها في الممالك والأصقاع، ظانّين أنها تجدي مع رسالة من عند الله.

وحاول مبشرو أوروبا أن يصفوا الإسلام بالنقائص، فمنهم من قال: إن دعوة محمد استهوت الناس حسب غرائزهم، وإرضاء أثرة المنافع والثروة فيهم. وفات هؤلاء أن الإسلام جاء لتنظيم حياة الناس. وزعم فريق آخر منهم، أن الإسلام لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان، ويقصدون بذلك محمداً صلوات الله وسلامه عليه.

وفات هؤلاء أيضاً أن رسالة محمد جاءت مليئة بالرحمة والبر والحنان وأن صفاتها صفات الحكمة والخير، وأنها اتّسمت بأهداف سامية لا تمت إلى طلب السلطان والجاه. وفريق ثالث من هؤلاء، زعم بكل سخافة وحمق أن الطمع في الأقاويل تبطل هذه الدعاوى وتنقضها. وجلية الأمر أن محمداً لم يكن كغيره، يرضى بأوضاع كاذبة، أو يسير تبعاً لاعتبارات باطلة، أو يقبل أن يتّسم بأكاذيب وأباطيل زائفة، فجاء نتيجة لذلك صوته منبعثاً من الطبيعة ذاتها. ولهذا وجد آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، فانتشرت رسالته، وعمّت الناس كافة. وتلك هي رسالة السماء، قام بها خير رسول وخير إنســان»[1].

وعاد القسس لطرح سؤال آخر: «لماذا يحفظ العرب القرآن؟ مع أن هذه الطريقة تؤثر كثيراً على عقول الناس، وبخاصة الصغار منهم، وهذا الاجراء سيكون أثره السيء على النشء الجديد. وأجاب الأمير عبد القادر:

«إن هذا السؤال غريبٌ ومتسم بالعصبية، وإني لأفهم الأسباب التي تدفعكم إلى هذا النوع من التفكير، ولو أنكم واجهتم الحقيقة كما يجب أن تواجه لأدركتم أن حفظ القرآن له مميزاته. ومما لا شك فيه أن الحفظ من أهم الأسباب لاستدعاء الفهم. فإنما طلب الفهم والإدراك إنما يكون عند ظهور الحاجة إليه. وعند الإحساس بعدم الفهم، وحينئذٍ يلجأ الحافظ إلى السؤال عن معنى ما سمع أو

---

(١) تاريخ الجزائر- تأليف الأستاذ مجاهد مسعود- الجزء الأول- ص ٣٧٩- ٣٨٩.

ما حفظ من الدين، يظن أنهم يعرفون ذلك الذي خفي عليه. وعلى ذلك يكون حفظ آيات القرآن من أعظم الدواعي إلى دراستها وطلب معرفتها.

وكثير من العلماء الأعلام الذين حفظ التاريخ آثارهم، وجرى ذكرهم في الخافقين، وكانت لهم اليد الطولى في الدرس والإفادة والتأليف، وخدمة العلم والأدب، كانوا من أولئك الذين لقنوا القرآن وهم صغار أحداث لم يبلغوا رشدهم، وكانوا هم الذين فهموا كتاب الله واجتهدوا في تأويله، واستنبطوا منه الآداب والأحكام، وأصبحوا أئمة يستضاء بنورهم، ويهتدى بهديهم وقد خدم كثير منهم الدين، وأحيوا علوم اللسان، وحذقوا كثيراً من ألوان المعارف، وأصبحوا بها مضرب الأمثال.

لقد فتح القرآن الكريم لكثير من النابهين باب النبوغ، ولم يعطل لواحد من الذين عنوا به، وأقبلوا عليه، ملكة من الملكات، بل إنه هو الذي نبّه فكرهم، وشحذ عزائمهم، وجعل لهم ذكراً في العالمين. وكان البيت المسلم يحرص أشد الحرص على أن تلقى فيه آيات القرآن ، يسمعها الرجال والنساء والولدان كل صباح، لا يكاد يخلو من ذلك بيت من بيوت المسلمين. وكان التنادي في الإغراق على قراء القرآن ومحفظيه للأحداث مضرب الأمثال. كما كان الولدان أنفسهم يتنافسون في حفظه ويتبارون في تلاوته.

كان ذلك من تقاليد المسلمين، حتى سرت عوامل الضعف وتتابعت الأحداث، ووفد الاستعمار على بلاد المسلمين، مختفياً

وراء ما يزعم من أصول التربية الحديثة، وكأن هذه التربية شيء غريب عن الإسلام والمسلمين، وكأنه لم يكن في هذه الأمة مفكرون في أصول التربية، نظروا في أسسها، وشرحوا أهدافها، ووضحوا مناهجها، ولذلك فإن هذه التربية الحديثة لا تستقل على هؤلاء الصبيان شيئاً إلا أخذهم بحفظ كتاب الله، وتنشئتهم على هداه، وما أسرع ما استجاب ضعاف النفوس لهذه الدعوة، غير ناظرين إلى ما تخفي هذه الدعوة وراءها من عمل الاستعمار على المباعدة بين ناشئة هذه الأمة، وبين المأثور الصالح من تقاليد السلف وأصول العقيدة، ولن يتمكن العرب من فهم دينهم إلا إذا اهتموا بالقرآن الاهتمام التام.

إن القرآن هو أسمى الكتب السماوية التي تبدو فيها سمات الرقي جلية ناصعة مهما سخر أولئك السذّج المتعصبون لآلية العصر، والمتذيلون للمدنية المادية التي تقوم على أساس الغرائز والتي لا بد أن تهوي في العاجل القريب إلى التلاشي والفناء. بل قل: إنها بدأت تسير في طريق الفناء بخطوات واسعة، لن تغيثها منه سلطة الاختراعات، ولن تنجيها قوة الحديد والنار.

حقاً إن ما يحتويه القرآن بين ثناياه من إمارات السمو وعلائم الكمال لهو خليق بالدرس والتأمل. ولم لا؟ ألسنا في الوقت الذي نرى فيه أنصار المدنية المادية، وأشياع الحرية الزائفة، يوغلون في الظلم والجشع والكذب والنفاق، نشاهد مبادىء هذا الكتاب تنتصب وسط الدائرة الجهنمية المؤلمة من الآثام والجرائم منارة عالية بها بعد الطبيعة تشع من ثناياها الأنوار السماوية، وتنبعث من

خلالها الأصوات الأبدية، هاتفة باسم الحق، مؤيـدة كلمة الفضيلة، ناطقة بقداسة الشرف واحترام العدالة والإنصاف، ولا تكاد هذه الأنوار تبدو، حتى تغشى عيون الآثمين ، ويخطف سنا برقها أبصار المجرمين، ولا توشك تلك الأصوات أن تهتف حتى ترتجف منها قلوب الظالمين. وترتعد لها فرائص المنافقين.

ويحس أولئك وهؤلاء في أفئدتهم بالرهبة من السماء، تهددهم وتنذرهم بالويل والثبور، وعندئذ يحنقون على أهل هذه التعاليم القوية الكاشفة عن تضليلهم ، والفاضحة لتغريرهم، ويودون أن يمزقوهم شذر مذر ليزول سلطانهم، ويتزلزل كيانهم، وعندئذٍ لا يجدون أمامهم أنجع من وسائل الدسّ والتفريق، ولا أنجح من بثّ الشقاق والتمزيق. ولا أحدّ من سيف الاغراء والاغواء، وتملّك المطامع، والتزلّق إلى الأهواء. وإنشاب أظافر الاستعمار في بلادهم، والهيمنة على مواقفهم، والتسلّط على مواردها ومصادرها حتى يستذلّوا فيخفتون بهذا الاستذلال ذلك الصوت الذي يروعهم نهاراً ويقض مضاجعهم ليلاً.

ولكن لو أن المسلمين أخلصوا لدينهم، واتّبعوا تعاليم كتابهم، وتخلّقوا بأخلاق نبيّهم، لسخروا من كل إغراء، ونظروا إلى المثل الأعلى المرسوم في قرآنهم، وتطلّعوا إلى السمو المتمثّل في كل آية. وأيقنوا أن هذا الكتاب، شأنه أن يقودهم إلى الحرية والسعادة. بل إلى الرفعة والسيادة. ذلك بأنه إذا انتصرت في قلوب المؤمنين روح الخير التي تمثل الألوهية على الأرض، تعهدت هذه الروح العلائق بين الإنسان وربّه بالتقوية والإنماء.

ومتى تفرقت تلك العلائق، جعلت النفس المؤمنة تتلقى أوامر السماء بهيئة نقية صافية، ثم تمليها أولاً على حياتها العملية الخاصة، حتى يطبق العلم على العمل، فتحقق الحكمة: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتيَ خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو الألباب».

فإذا تمّ للمؤمن ذلك أفاض تلك الأوامر الإلهية على بيئته ومجتمعه، وقد تتسع هذه الدعوة حتى تعم الإنسانية جمعاء، وإذ ذاك تصلح حال الدنيا ويسودها السلام وتشملها العدالة. ويحل الرضاء محل النزاع، وتحل المحبة محل البغض والحفيظة، ومن آيات ذلك أن الأوامر الإلهية كانت منذ غابر العصور ولا تزال وستظل، تقود بني الإنسان إلى الفلاح والكمال إذا وضعوها موضع الاحترام والعناية والتطبيق، ولكنها تشهد دمارهم وفناءهم إذا هم سحبوا عليها ذيول الإهمال والنسيان.

فالقرآن إذا هو روح الإسلام الذي أشع ولا يزال يشع في الوجود، وهو قلبه الذي ينبض بالحياة، وعقله الذي به يفكر ويتأمل، والذي ضمن له ذلك الامتياز على جميع ما عرفته البشرية من أديان، والذي أفاض تلك المبادىء السامية الخالدة. ويشتمل القرآن على كل خير الإنسانية وعوامل رقيها وتقدمها، محتوياً على جميع عناصر الصلاحية لكل الأزمنة، والأمكنة والبيئات والمجتمعات على اختلاف نزعتها، وتباين مشاربها، مما حقّق لنبيه أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين. وجعل رسالته غاية الغايات ونهاية النهايات، وأسند إليها الكلمة الفاصلة، والقول الحاسم في جميع التشريعات الفردية والعلائق الأسرية والقوانين

المدنية والأنظمة الدولية، والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسلمية والحربية والمعاهدات السياسية. وبالإجمال كل ما يحتاج إليه الفرد أو الأمة، في الحياة الخاصة أو العامة.

إن القرآن هو نظام عالمي واقعي موحى، فهو ينظم تطبيق كل حادثة من أحداث الوجود وشرحها وتقديرها. إنه بالنسبة إلى جميع المؤمنين بمثابة ذاكرة قد أعدت أتم الإعداد. أو مذكرة إحصائية للمفردات اللغوية أو قاموس من القواميس له. وهو بالنسبة إلى كثيرين أيضاً كتاب للتعريفات المضمونة والقابلة للتطبيق دائماً. إنه مجموعة من اللغات للأفعال العملية وللتأملات الباطنية التي تركّز الانتباه في البراهين على المجد الإلهي وقوة الله. والقرآن هو الذي يقوم بدور تبسيط مشكلة منهج الحياة أمام المؤمنين. لأن هذه المجموعة من القوانين الموحاة هي التي تغذي الذاكرة، وتحل عقال العمل دون أن يكون لدى الفكر حاجة للتردد. ويكفينا اعترافات بعض النصارى الذين درسوا الإسلام.

يقول مستشرق: «حسب هذا الكتاب جلالاً ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرّت عليه، لم تستطع أن تخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس».

ويقول مستشرق آخر: «ولقد أتى محمد بكتاب تحدّى به البشر جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله، فعاقهم العجز وشملتهم الخيبة وبهتوا أمام ذلك الإحراج القوي الذي أغلق في وجوههم كل باب».

ويقول مستشرق ثالث: «لقد تحدى محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل. ولم يكن الأمر في القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية، فان محمداً كان يحتقر الشعراء. ودفع عن نفسه أن يكون واحداً منهم».

هذا هو مجمل آراء فريق من العلماء الذين يبتغون من بحوثهم مرضاة العلم في ذاته، ويقصدون وجه الحقيقة حيث كانت فلا يخرجون عنها. غير أن هناك فريقاً آخر من الباحثين الغربيين يخضعون في بحوثهم لأهواء شخصية أو مطامع فردية أو أهداف سياسية أو تعصبات دينية تعميهم عن الحق وتضلهم عن الصراط السوي، فهم حين يدرسون القرآن دراسة عميقة ويتأملون في مبادئه الأساسية وعناصره الأولية تأملات دقيقة، يتبينون ميزاته التي لا نظير لها في أي كتاب سماوي آخر، نراهم بدلاً من الإشادة بهذه الحقائق الناصعة، يسارعون فينظرون إلى بني جلدتهم بأن القرآن كتاب خطير، لأنه اشتمل على مبادىء يمكن أن تقيم الدنيا وتقعدها، وذلك إثر اليقظات الإسلامية التي أصبحت تطل من الشرق والغرب. ولقد خاف هؤلاء أن تكون هذه اليقظات الإسلامية، والحركات الاستقلالية هي أشعة من تباشير الصباح لمستقبل العالم الإسلامي الباسم، وحملة شعلة المعرفة والنور وتطبيق شريعة الله .

ذلك هو مشعل النور الذي استمر الأمير عبد القادر في حمله وهو في غياهب سجنه (في سارية امبواز بفرنسا ـ حيث أقام أربعة سنوات ١٨٤٧ـ ١٨٥١) ثم تناقل الأبناء والأحفاد في رفع هذا

المشعل حتى جاء الأمير خالد، فقام بأداء دوره مدافعاً عن الإسلام والمسلمين، حتى مضى للقاء ربّه راضياً مرضياً. غير أن جهده بقي حديث الأجيال. وجاء من بعده سلف تابعوا رفع مشعل النور. ولعل أصدق ما يطبق على وصف حال الأمير خالد، قوله تعالى لرسوله الكريم الذي هو أسوة حسنة للناس أجمعين، وإماماً هادياً للمسلمين، ونموذجاً لما كان - ويكون عليه - الرسل والصديقون والمجاهدون في سبيل الله، وفي سبيل رسالته الخالدة أبداً على الدنيا - مادام في الدنيا صوت للمسلمين، قوله تعالى:

«وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنونَكَ عَن الذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَينا غَيْرَهُ، وَإِذاً لاتّخَذُوكَ خليلاً * وَلَوْلا أن ثَبّتْناكَ لَقد كِدْتَ تَركَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً * إذاً لأذَقْناكَ ضِعْفَ الحياةِ و ضِعْفَ المَمَات ثمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصيراً * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاّ قليلاً * سُنّةَ مَنْ قَدْ أرسلْنا قبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنّتِنا تَحْويلاً»(١)

---

(١) سورة الإسراء - الجزء الخامس عشر - الآية ٧٢ - ٧٦.

قـراءات

١ ـ رسالة الأمير خالد الى المؤتمر العربي الأول.
٢ ـ في رثاء الأمير خالد.

(١)

الأمير خالد والمؤتمر العربي الأول

انعقد المؤتمر العربي الأول في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية ـ بشارع سان جرمان ـ في باريس وذلك في الفترة ١٨ـ ٢٣ حزيران ـ يونيو ـ ١٩١٣، بهدف مقاضاة الدولة العثمانية في حقوق العرب ـ في ظل الخلافة العثمانية ـ. ولم تكن الجزائر المجاهدة غائبة عنه، إذ كان من المتوقع أن يحضره الأمير خالد، حيث وجهت إليه الدعوة للمشاركة فيه، غير أن الأمير خالد كان في هذه الفترة مشغولاً بالاستعداد للسفر إلى دمشق، ولم يترك الفرصة تفوت دون أن يسجل موقف الجزائر في المؤتمر، فبعث بالرسالة التالية التي تليت في الجلسة الختامية:

الجزائر ـ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣١.

إلى السادة الأفاضل العظام أعضاء المؤتمر العربي

اتصلت بدعوتكم لأبناء الأمة العربية بكل فرح وسرور. وأدعو الله من صميم الفؤاد أن يثبت سعيكم، وإني واحد منكم قلباً وقالباً. وما دامت الأفكار شريفة، والمقاصد عفيفة فلا شك من النجاح. وأخبركم بأن دعوتكم كان لها صوت رنان، وقد انتشرت في جميع الآفاق. وأتتنا الجرائد الشرقية والغربية بما يسر الخاطر، ويبعث على الأمل بنجاح هذه النهضة العامة، ولا شك في أن

الدولة العثمانية توافق على طلبنا بتحسين الإدارة الداخلية، حتى ترقى سوريا في أوج المعالي. وبترقيتها تكون نتيجة حسنة للدولة العلية. هذا مع أن المراد عدم الخروج من تحت سلطتها فالمولى يوفّق الجميع لما فيه صلاح الوطن والأمة. وكنت أود أن أحضر بنفسي في مؤتمركم العظيم، ولكنني مشتغل بالسفر إلى زهرة سوريا، منشئي ووطني دمشق. وهنالك أقف حسب طاقتي بما هو واجب على كل وطني غيور. والسلام.[1]

خالد

ابن الأمير الهاشمي الحسني

حفيد الأمير عبد القادر

---

(1) الجزائر والأصالة الثورية- صالح خرفي- ص ٩١.

(٢)

في رثاء الأمير خالد

الجزائر المجاهدة ترتدي السواد حداداً على الأمير خالد، ويقيم شعب الجزائر المجاهد احتفالاً تأبينياً، يقف فيه الشاعر الجزائري المجاهد ـ محمد العيد ـ ليلقي قصيدة في رثاء أخيه المجاهد (الخالد) بما قدمه لشعبه (تحت عنوان يا بلاداً)[١].

يا بلاداً، يخزى الكرام عليها
ويعز الأسافل الأوغاد
يا بلاداً، يطوى الجميل وينسى
العهد فيها، ويخلف الميعاد
يا بلاداً، لا يثبت الرأي في شيء
عليها، ولا يدوم الوداد
يا بلاداً، يلقى النبوغ بها الشؤم
ويسعى في قتله الحساد
يا بلاداً، ما للزعامة فيها
قوة، أو لزاعميها اتحاد
لا تسومي آسادك الغلب ضيماً
فمن الضيم تأنف الآساد

---

(١) من قصيدة محمد العيد التي ألقيت سنة ١٩٣٦ في تأبين الأمير خالد ـ في (صفحات من الجزائر) الدكتور صالح خرفي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ١٩٧٣.

إكتفي في البرور مني يا أرض
بشعر به يجيش الفؤاد
ذي معان، أبيها مستجيب
وقواف، عصيها منقاد
كل جهدي عليك قول مقفى
كل مالي يراعة ومداد
إنا مهما بكاك مني (امرؤ
القيس) وحيا حماك مني (زياد)
لست أجدي عليك. يا أرض
ما يجدي عليك النجار والحداد
غير حي على البسيطة شعب
ليس فيه صناعة واقتصاد

مراجع البحث الرئيسية

١ـ الجزائر الثائرة (جوان غيلسبي) دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٦١.

٢ـ حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ١٩٧٧.

٣ـ الجهاد الأفضل (عمار أوزيغان) دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٦٤.

٤ـ الجزائر والأصالة الثورية (صالح خرفي) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٧٧.

٥ـ مجلة تاريخ وحضارة المغرب (كلية الآداب ـ الجزائر) العدد ٤ يناير ١٩٦٨.

6 - LA DECOLONISATION 1919 - 1963 (HENRI GRINAL) LIBRAIRIE ARMAND COLIN: 1965.

7 - POLITIQUES COLONIALES DU MAGHREB

(CHARLES - ROBERT AGRON) PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE 1972.

8 - HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE (CHARLES - ROBERT AGRON) QUE SAIS - JE. NO 400. PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE- 1969.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الوجيز في حياة الأمير خالد	٩
الفصل الأول	١٣
١ـ إنطلاقة الاستعمار من الجزائر إلى العالم الإسلامي	١٥
٢ـ الهجوم الاستعماري ـ الاستيطاني في الجزائر	٣٦
٣ـ السياسة الاستعمارية والظهير البربري	٥٣
٤ـ الثورة الجزائرية (١٨٩٧ـ ١٨٩٩) ومواقف الاشتراكيين	٧٣
الفصل الثاني:	٨٩
١ـ الأمير خالد ـ من دمشق إلى الجزائر ـ	٩١
٢ـ في أفق الصراع السياسي (١٩١٣ـ ١٩١٩)	١٠٤
٣ـ مع لعبة التمثيل والانتخابات (١٩١٩ـ ١٩٢٢)	١١٧
٤ـ الصفحات الأخيرة في جهاد الأمير خالد (١٩٢٣ـ ١٩٣٦)	١٤٩

الفصل الثالث: ١٦٩
١ـ الأمير خالد في موقعه التاريخي ١٧١
٢ـ من الجد عبد القادر إلى الحفيد خالد ١٨٥
قراءات: ١٩٩
١ـ رسالة الأمير خالد إلى المؤتمر العربي الأول ٢٠١
٢ـ الشاعر محمد العيد ـ يرثي الأمير خالد ٢٠٣
مراجع البحث الرئيسية ٢٠٥

جهاد شعب الجزائر ٧

عبد الحميد بن باديس

وبناء قاعدة الثورة الجزائرية

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الحميد بن باديس

وبناء قاعدة الثورة الجزائرية

بسّام العسلي

دار النفائس

جَمِيعُ الحُقوقِ مَحفوظَة

الطبْعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

○ دار النفائس

بيروت - ص.ب: ١١/٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقيا: دانفايسكو

مُقـدّمة الكِتـابْ

يشكل الصراع المسلح أحد وجهي السياسة الاستراتيجية، في حين يشكل الصراع السلمي وجهها الآخر، وتتشابك في حالتي الصراع العوامل الاقتصادية والإجتماعية والفكرية الخ... وقد باتت هذه الحقيقة من المسلمات وذلك منذ أن أطلق «كلاوزفيتز» مقولته الشهيرة: «بأن الحرب ليست إلا استمراراً للسياسة، ولكن بوسائل أخرى - هي وسائل العنف والإكراه».

ولقد بات من المعروف - عبر التجربة التاريخية الطويلة - أن الصراع السياسي هو الأساس في كل صراع، وهو الذي يسبق الصراع المسلح ويرافقه ويستمر بعده.

ولقد استطاعت فرنسا، بتفوقها العسكري، تدمير مراكز القوى العسكرية، وإزالة قواعدها. واستيقظ شعب الجزائر ليجد نفسه وقد بات محروماً من كل قدراته، ومجرداً من كل أسلحته، ولم تكن فجيعته بفقد أسلحته المادية أكثر خطراً عليه من التدمير المستمر لقواعده المعنوية.

عند هذه النقطة، تظهر صعوبة الموقف الذي تعرضت له الجزائر المجاهدة، غداة الحرب العالمية الأولى ـ وهي تتحسس ما حولها لشق طريقها نحو المستقبل، في وسط (ليل الاستعمار) المدلهم الظلام.

وعند هذه النقطة أيضاً، تبرز فضيلة الرواد التاريخيين الذين استطاعوا مجابهة كل الصعوبات وتحدي كل العقبات، وهم يبنون قاعدة الثورة حجراً بعد حجر، حتى أصبح البناء شامخاً، وفي شموخه القدرة الجبارة لمجابهة كل الأعاصير.

لقد عرف أولئك الرواد التاريخيون، أنه من المحال عليهم وهم يبنون قاعدة الثورة، إقامة هذه القاعدة فوق أرض رملية رخوة. ولم يكن من الصعب عليهم الاستناد إلى الأرضية الصلبة التي بقيت على الرغم من تطاول عهد التخريب فيها، وعلى الرغم من كل جهود المخربين، قادرة على احتضان قاعدة الثورة وحمايتها.

وظهر لأولئك الرواد التاريخيين أن الأصالة الذاتية هي الأرضية الوحيدة التي يمكن اعتمادها لبناء قاعدة الثورة. وبدأت عملية تطوير الربط التاريخي بين ماضي الأمة وحاضرها وبناء مستقبلها. وهنا ظهرت قوة الإسلام العظيم الذي ما اعتنقه المسلمون يوماً إلا وكان النصر حليفهم، وما ابتعدوا عنه يوماً إلا وكان نصيبهم الفشل والخذلان.

ولم تكن الجزائر المجاهدة مفتقرة للرجال، وهي أرض البطولات والأمجاد منذ أن عرفت الإسلام، ممن يستطيعون حمل الرسالة وأداء الأمانة. وفي البحث السابق (الأمير خالد الهاشمي

الجزائري) بزر بوضوح شكل الصراع المتوقع وطرائقه وما كان عليه حال الجزائر.

عند هذه المرحلة ، ينتصب جيل من العمالقة الرجال، العمالقة لا في حجمهم وانما في شدة إيمانهم بحتمية انتصار قضيتهم، قضية الإسلام والمسلمين فوق أرض الجزائر المجاهدة، وفي كل دنيا العرب المسلمين.

وبين جيل أولئك العمالقة من الرجال ينتصب الشيخ المجاهد عبد الرحمن بـن باديس وإلى جواره حشد من عظماء الرجال المؤمنين؛ فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك بن محمد الميلي والشيخ أحمد توفيق المدني والشيخ محمد العيد آل خليفة. والعربي التبسي وإبراهيم أبو اليقظان والأمين العمودي ويحيى عمودي ومحمد خير الدين والطيب العقبي والسعيد الزاهري ومحمد علي دامرجي والشيخ عبد الرحمن الجيلالي. وعمر راسم (الملقب بابن المنصور الصنهاجي) وأبو اليقظان (رائد الصحافة الوطنية الجزائرية) وسواهم كثير يصعب حصرهم، وليس الهدف هو عرض جيل أولئك الرواد، وإنما الهدف هو إبراز ما توافر للجزائر من رجال عمل معظمهم تحت راية الإسلام وفي نطاق جهد (رابطة العلماء).

لقد ترك هؤلاء، وإخوانهم، على صفحة الجزائر المجاهدة أخاديد عميقة، ورفعوا في سمائها منارات مضيئة، فبات من الصعب «الإمساك بكل النجوم» أو الإحاطة بما في القبة الزرقاء من «شهب وكواكب ونجوم» غير أن اعتراف هؤلاء جميعاً بما كان

لرائدهم ومفجر طاقاتهم ـ الشيخ عبد الرحمن ابن باديس ـ من الفضل في الريادة والجهد، هو أمر كاف للتركيز على جهده بهدف الوصول إلى أرضية الثورة.

وإذا كان للثورة الافرنسية كتابها وأدباؤ ها وفنانوها الذين رسموا الطريق ـ طريق الثورة ـ أمام أجيال الثورة.

وإذا كان للثورة الروسية كتابها ومنظروها وباحثوها الذين حددوا معالم الطريق أمام أجيال الثورة.

فإن للثورة الجزائرية من كل ذلك نصيب لا ينافسه منافس، ولا يطاله مطاول ولا ينكره إلا مكابر.

ولهؤلاء الرواد جميعاً فضل على كل مفكري الثورات وواصفي نظرياتها ومفجري طاقاتها، فقد عمل جميع اولئك في ظروف أقل ما يقال فيها أنها كانت متفتحة على آمال النجاح، مبتعدة إلى حد كبير عن ظروف القهر المرعب والضغط الوحشي. أما هؤلاء: علماء ثورة الجزائر، وكتابها وفنانوها وأدباؤ ها وشعراؤ ها ورجال صحافتها، فقد عملوا وسط ظروف يصعب وصفها، ووسط مناخ من اليأس القاتل. غير إن القلوب التي يعمرها الإيمان بالله الواحد القهار. والنفوس التي يضيئها نور الإسلام الخالد، استلهمت من إيمانها وإسلامها كل الثقة بالنجاح وكل الأمل في المستقبل.

لقد عمل عبد الحميد بـن باديس وجيل الرواد، بإيمان لا تزعزعه الجبال بحتمية انتصار الإسلام والمسلمين، ونـصروا الله، فصدق الله وعده وأيدهم بنصره، وأمكن لهم بذلك (بناء قاعدة الثورة)

بسام العسلي

سيد المجاهدين وامام المصلحين العلامة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

من أقوال عبد الحميد بن باديس

لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر! قد يقول قائل: إن هذا ضيق في النظر، وتعصب للنفس وقصور في العمل، وتقصير في النفع، فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية. ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان. ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية. ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام. فأقول: نعم، إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهرتفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربية نفوس الناشئة عليه. ولكن هذه الدائرة الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة، ونفعها دون واسطة. فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع.

إذا قلنا العرب، فإننا نعني الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلنطيقي غرباً، والتي فاقت سبعين مليوناً عداً، تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها، وتحمل

مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة.

إن الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية، بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي، هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم، بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام... أما نحن ـ ونحن أعرف بأنفسنا ـ فإننا نتيقن أن هذه الأمم الإسلامية العربية استيقظت من سباتها، وهبت للنهوض من كبوتها، وشعرت بكرامتها، وأخذت تذكر ماضيها، أيام حريتها واستقلالها وهو غير بعيد، فانتبهت تعمل لفك قيودها ونيل حريتها[1].

الإسلام هو دين الله، ويجب أن يكون أيضاً دين الإنسانية، لما فيه من سمو. فهو دين يكبر العقل ويمجده، ويدعو إلى تطبيق جميع أعمال الحياة على أحكام المنطق. والإسلام يستنكر استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، كما يستنكر الطغيان في جميع مظاهره وأشكاله.. والإسلام دين ديموقراطي في كل شيء، فهو لا يقبل بالاستبداد مطلقاً، وهو دين إحقاق الحق لكل إنسان عادل ومنصف.

إن الشعب الجزائري ليس فرنسياً، ولا يريد أن يكون فرنسياً، وحتى لو أراد، فلا يستطيع أن يكون فرنسياً لأنه بعيد كل البعد عن

---

(١) صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ـ ١٩٧٣ ص ٥ و٧٩ و٩٠

فرنسا، بلغته وعاداته وأصوله وديانته. وإن التجنيس - الذي هو في الحقيقة اختيار جنسية غير إسلامية للمسلمين، ينطوي على التنكر للشرائع المقدسة التي تنظم شؤون حياة المسلمين، وتضع لهم قوانين دنيوية وبشرية[1].

---

(١) الجزائر الثائرة، جوان غيلسبي - تعريب خيري حماد - دار الطليعة - بيروت - ١٩٦١

ومما قاله عبد الحميد بن باديس «شعراً»

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن أصله أو قال مات، فقد كذب
أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل والـ إحسان واصدم من غصب

يا قوم هذا نشوءكم وإلى المعالي قد وثب
كونوا له يكن لكم وإلى الأمام ابناً وأب
وأمزج نفوس الظالمين السم يمزج بالرهب
وأقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامدين فربما حيي الخشب

نحن الألى عرف الزمان قديمنا الجسم الحسب
ومعين ذاك المجد في نسل العروبة ما نضب
من كان يبغي ودّنا فعلى الكرامة والرحب

أو كـان يـبـغـي ذلّـنـا فـلـه المـهـانـة والـحـرب

هـذا نـظـام حـيـاتـنـا بـالـنـور خـط وبـاللـهـب
حـتـى يـعـود لـشـعـبـنـا من مجـده مـا قـد ذهـب
هـذا لـكـم عـهـدي بـه حـتى أُوَسَّـدَ فـي الـتُّـرَبُ
فـإذا هـلـكـت فـصـيـحـتـي تحـيـي الجـزائـر والعـرب[1]

أشعب الجزائر روحي الفـدا لمـا فيك من عـزة عربيـة
بنيت على الـدين أركـانـهـا فكانت سلاماً على البشرية[2]

---

(١) الثورة الجزائرية ـ أحمد الخطيب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي. ص ٩١.

الوجيز في حياة «ابن باديس»

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣٠٧	١٨٨٩	ولادة عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي إبن باديس في مدينة قسنطينة. وبها تلقى تعليمه الأولي.
١٣٢٦	١٩٠٨	توجه إلى تونس لإكمال تعليمه في جامعة الزيتونة.
١٣٣١	١٩١٢	توجه إلى الحجاز وأدى فريضة الحج.
١٣٣٢	١٩١٣	باشر عمله في قسنطينة لتعليم النشء الجزائري
١٣٤٥	١٩٢٦	أصدر جريدة «المنتقد» التي اغلقتها السلطات الاستعمارية بعد إصدار (١٨) عدداً منها.
١٣٤٥	١٩٢٦	أصدر مجلة «الشهاب» التي صدر منها في حياته (١٥) مجلداً، تعتبر مرجعاً لتاريخ الجزائر بين الحربين العالميتين.
١٣٤٩	١٩٣٠	انتخب رئيساً «لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين»
١٣٥٥	١٩٣٦	توجه إلى باريس في وفد جزائري للمطالبة بفصل الدين عن الدولة.
١٣٥٩	١٩٤٠	توفي في الجزائر، وقيل مات مسموماً.
		أصدر في حياته صياته صحف الشريعة، والسنة المحمدية، والصراط وله «تفسير القرآن الكريم».

تحية وإهداء

هـذا «ابن باديس» يحمي الحق متئداً
كـذاك يـتئـد الـشـمـل الأمـائـيـل
«عبـد الحميـد» رعـاك الله من بـطل
مـاضـي الشكيمـة لا يلويـك تـهـويـل
عليــك مني وإن قصــرت في كلمـي
تحـيــة مــلؤهـا بــشــر وتهـليـل(١)

(١) الشاعر الجزائري محمد العيد ، صفحات من الجزائر - الخرفي - ص ٧٥

﴿ ياأَيُّها الَّذين آمَنُوا. لاَ تَتَّخِذُوا بطانَةً مِنْ دُونِكُمْ، لاَ يَأْلُونكُم خَبالاً، وَدُّوا مَا عَنِتُّمُ، قَدْ بَـدَت البَغْضَـاء مِنْ أَفـواهِهِمْ، ومَـا تُخفي صُدُورُهُمْ أكبر، قَدْ بَيَّنَا لكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلون﴾

الفصل الأول

١ ـ نظرية الاستعمار الافرنسي وتطبيقاتها في الجزائر
٢ ـ حرب الحضارة الصليبية ضد الإسلام
٣ ـ الأهداف التربوية للتعليم الاستعماري
٤ ـ الفَرْنَسَة ، والتنصير، نتائجهما
٥ ـ الانهيار الكبير
أ ـ الجزائر سنة ١٩٢٥
ب ـ أحمد بن عليوه ـ والرحمانية
ج ـ الشيخ عبد الحليم بن سماية
د ـ عمر راسم
هـ ـ احتفـال فرنسا بمرور مائة عام على احتلال الجزائر

١ـ نظرية الاستعمار الافرنسي
(وتطبيقاتها في الجزائر)

هل يحتاج أبناء الشعب العربي خاصة والأمة الإسلامية عامة للتعرف على الاستعمار من خلال النظرية؟ وهل أصبحت فترة «ليل الاستعمار» بعيدة العهد، متقادمة البعد، حتى لم يبق منها إلا ذكريات باهتة، وأثار جراح مندملة؟

كلا، ليس الأمر كذلك، فلا زالت جراح الاستعمار تدمي الروح والجسد، ولا زال حضوره يؤنس الأمة العربية ـ الإسلامية. وهل الاستعمار الاستيطاني في فلسطين الشام، إلا امتداداً لفضائل الاستعمار الغربي في بلادنا؟ وهل الممارسات الصهيونية وأعمال القمع الوحشية، والاستفزازات اليومية، غير تجسيد عملي لما رسمه الوجود الاستعماري على الصفحة الجغرافية لعالم العرب المسلمين؟ وهل المعاناة التي يعيشها الشعب العربي من عقابيل ذلك إلا واحدة من فضائل الاستعمار؟ . ثم هل توقفت الهجمة الاستعمارية الصليبية حتى يمكن استحضار الشواهد والنظريات من أجل ربط الأحداث التاريخية وإبرازها؟ وهل...

الأسئلة كثيرة ولا نهاية لها. ويعرفها إنسان العالم العربي الإسلامي بقدر ما يعرف إجاباتها. غير أنه بالرغم من ذلك كله. فلا بد، التزاماً بمبادىء البحث العلمي وأساليبه، من العودة إلى النظرية للانطلاق منها إلى عالم التطبيق العملي، مما يبرز بوضوح أكبر أهمية الجهد الكبير لدحض النظرية ذاتها وإسقاط تطبيقاتها. وتبرز هنا «**التجربة التاريخية لشعب الجزائر المجاهد**» بمثابة أبرز نموذج وأوضح مثال للصراع بشأن تطبيق النظرية الاستعمارية الافرنسية من جهة، ومحاولات مقاوماتها وإسقاطها من جهة ثانية، على أيدي مجاهدي شعب الجزائر، ورواده التاريخيين.

الأمر الثابت تاريخياً أن الاستعمار الغربي بانطلاقته المذهلة طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ خاصة ـ لم يعتمد على نظرية واضحة المعالم، محددة الأبعاد، وإنما انطلق من خلال ـ فرض منطق القوة الوحشي، والاستجابة لمتطلبات النهب الاستعماري ـ (تلبية لاحتياجات الثورة الصناعية). ولعله كان من الأفضل للعالمين، عالم الاستعمار، والعالم الخاضع للاستعمار، البقاء دون نظرية إستعمارية، إذن لكان من المحتمل جداً أن يصل الطرفان المتصارعان إلى صيغة تسمح بتبادل المنافع ـ على نحو ما يتم بذله من جهود في الوقت الراهن، ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته، للوصول إلى مثل هذه الصيغة، ولو أن رواسب النهب الاستعماري لا زالت تعترض سبيل مثل هذه التسوية السلمية العادلة والتي يمكن لها ضمان حد مناسب من مصالح كل الأطراف.

* * *

والنظرية الاستعمارية، بعد ذلك، ليست نظرية واحدة ولا موحدة، فهناك نظريات كثيرة مما أبدعته عقول دهاقنة الاستعماريين من مفكرين ومنظرين وباحثين، في كل مركز من مراكز القوى الاستعمارية والمراكز المضادة لها، وفيما بينها أيضاً، كمثل ذلك التناقض ـ أو بالأحرى التباين ـ بين النظرية الاستعمارية البريطانية أو الافرنسية أو البرتغالية أو الاسبانية أو حتى الإيطالية والهولاندية. وهناك تباين أيضاً في أسلوب تطبيق النظرية حتى بالنسبة للدولة الاستعمارية الواحدة، فتطبيقات الاستعمار الافرنسي للمغرب العربي ـ الإسلامي لم تكن واحدة في أقطار المغرب الإسلامي (تونس والجزائر والمغرب) وكذلك بين هذه الأقطار، وبقية البلاد والأمصار التي أخضعتها فرنسا لنظريتها الاستعمارية.

ولكن ، وعلى الرغم من كل تباين واختلاف، فإن أكثر النظريات رواجاً وشمولاً لتطبيقات النظرية الاستعمارية هي التالية:

«الاستعمار ، هو إقامة علاقات مع بلاد جديدة لاستثمار كافة موارد هذه البلاد بكل أنواعها، ووضعها في خدمة الوطن ـ الاستعماري ـ. والعمل في الوقت ذاته لنقل فضائل التفوق العلمي والاجتماعي والفكري والأخلاقي والفني والأدبي والتجاري والصناعي الذي تنفرد به العروق المتفوقة للشعوب البدائية التي يتم إخضاعها للاستعمار. وهكذا فإن الاستعمار هو مؤسسة قائمة في البلاد الجديدة الخاضعة للاستعمار، والتي

يقيمها عرق متفوق لتحقيق الهدف المزدوج الذي أشرنا اليه)[1].

قد لا تكون هناك حاجة لدحض مثل هذه المقولة، التي تدحض ذاتها بذاتها، على ضوء التجربة التاريخية. فالتفوق العرقي - المزعوم - لم يكن في يوم من الأيام مرتبطاً بالتفوق الحضاري. كما أن أسس هذا التفوق الحضاري تختلف من عصر إلى عصر ومن قارة إلى قارة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن تعميم معطيات الحضارة الغربية باعتبارها عاملاً متمماً - أو واجهة تجميلية - لعملية الاستعمار الاقتصادي، إنما تعني القضاء على أسس حضارات أكثر تفوقاً من الحضارة الغربية ذاتها وأكثر أصالة منها: (**مثل الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية**). المهم في الأمر، هو أن النظرية الاستعمارية (**قد انتحلت الحق الذي تكمن شرعيته في أهداف الاستعمار ذاتها**) ومن خلال إنتحال هذا الحق، عملت الدول الاستعمارية على تأميم الشعوب الخاضعة للاستعمار ومواردها وجعلها حقاً لما أطلق عليه الاستعماريون وصفاً تجميلياً هو: (الكنز أو الثروة المشتركة للإنسانية) وبكلمة أكثر وضوحاً: حرمان الشعوب التي يتم إخضاعها للاستعمار من حق التصرف بثرواتها ومواردها بما يتوافق مع مصالحها ومع وجودها ذاته، بعد أن أصبح حق الوجود ذاته مرتبطاً بمصلحة القوى الاستعمارية.

لقد عملت مراكز القوى الاستعمارية على فرض نظريتها الاستعمارية، دولياً، من خلال إعطائها الطابع الشرعي في

---

(1) LA DÉCOLONISATION 1919- 1963. (H. GRIMAL) P. P. 6- 8, 28, 67, ET 93.

(معاهدة فرساي) و (مبادىء عصبة الأمم) التي انبعثت عنها، وتضمنت فيما تضمنته:

«ليست الامبريالية إلا الشكل الخارجي - وغير الشرعي في استطالاته المتطرفة - لفكرة ولحاجة لهما أساسهما الشرعي المطلق. . . . لقد عملت الطبيعة على إجراء توزيع غير عادل، وغير متساو، لقدراتها البشرية ولمخزونها من المواد الأولية في الكرة الأرضية كلها، فبينما توضعت في النهاية القصوى للقارة الغربية - التي هي أوروبا - العبقرية المبدعة للعروق البيضاء، ووفرت لها علم استخدام هذه الموارد الطبيعية ، تركت أضخم احتياطيات لهذه الموارد في إفريقيا وآسيا الاستوائية والمحيطات الاستوائية، والتي تتجه إليها المتطلبات الحياتية حيث تندفع لاستثمارها البلدان المتحضرة. . . فهل يجب أن تترك تلك المساحات الشاسعة جرداء مقفرة؟. . . وهل يجب أن تهجر للأشواك تلك المناطق غير المزروعة والتي يمكن أن تنبع فيها الحياة والغذاء؟ . . . إنه من الواجب على الإنسانية كلها أن تفيد من هذه الثروة الموزعة على الكرة الأرضية كلها، إفادة كاملة . إن هذا الغنى هو الثروة المشتركة للإنسانية. وما من سلطة ، أو قوة ، حتى لو مضى على وجودها ألف سنة ، تستطيع التصدي للحق العالمي في استخدام الموارد التي تقدمها الطبيعة في كل مكان من أجل تلبية الاحتياجات الشرعية للإنسانية؟. . .

ليست القضية هنا قضية رثاء للإنسانية التي ارتكبت باسمها أبشع الجرائم التي عرفتها البشرية، ولكن الظاهرة المثيرة هي

انتحال الأقوياء- الاستعماريين- لأنفسهم حق تصحيح الأوضاع التي كونتها الطبيعة. وبكلمة أخرى، محاولة تصحيح أخطاء الطبيعية- إن كانت الطبيعة التي يؤمنون بها معرضة للخطأ- استجابة للنوازع الاستعمارية. وإعطاء هذه النوازع ما أطلقوا عليه اسم «الحق الشرعي- لعمل غير شرعي». وإلباس ذلك كله الرداء «الإنساني». وحرمان الشعوب التي تم إخضاعها للاستعمار من حق ارتداء هذا الثوب الإنساني؟.

المهم في الأمر ، هو أن الدول الاستعمارية تبنت النظرية السابقة، وتخلت عن مبدأ الاستثمار البسيط الذي اعتنقته في البدايات الأولى لظهور الاستعمار، وسارت عليه ردحاً طويلاً من الزمن. وأصبح لهذا الاستعمار أجهزته المتكاملة التي تمارس عملها تحت مظلة غطاء شرعي. غير أن هذه الشرعية في التغطية جاءت من طرف أوروبا الاستعمارية وحدها، التي اعتبرت أن قدرتها تسمح لها بفرض حضارتها حتى لو كانت الشعوب الإسلامية الخاضعة لها ذات حضارات تفوق حضاراتها أو تتعادل معها خلال فترة بداية الاستعمار. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن فرض هذه الحضارة بالقوة من جهة والاستمرار في إضعاف المسلمين الخاضعين للاستعمار من جهة ثانية قد أخل بالمبدأ الذي زعم الاستعمار الافرنسي- خاصة- أنه قادر على إقامته، وهو تحقيق التوازن في العلاقات المتبادلة، وأدت الممارسات الاستعمارية إلى زيادة الهوة بين الاستعمار الافرنسي والدول الخاضعة له، وظهر بوضوح أنه من المحال ردم الهوة الآخذة بالتباعد في العمق والاتساع. وإذ ذاك بات المخرج الوحيد هو في

فصم الروابط بين الدول الاستعمارية والدول الخاضعة لها (لا سيما وقد ظهر أن هذا الاستعمار يحمل في جوفه بذور مصرعه) غير أن الرجال الذين عايشوا، فترة ما بين الحربين العالميتين. لم يكونوا يتوقعون حدوث مثل هذه القطيعة بين ليلة وضحاها. وكان الكثيرون ينظرون إلى هذه القطيعة على أنها (أمل بعيد المنال). هذا على الرغم من أن الظروف الاقتصادية الناجمة عن النهب الاستعماري قد زادت من بؤس مواطني البلاد المستعمرة. وتفاقمتْ خطورة الوضع بإقتناع الدول الاستعمارية ـ والمقصود هنا فرنسا بصورة خاصة ـ عن تقديم أية مساعدة للمواطنين المسلمين في الجزائر ـ الانديجين ـ . الى جانب الاستمرار في تطبيق المادة (١٣) من القانون المالي لسنة (١٩٠٠) والتي تنص على ما يلي:

«يجب على البلاد الخاضعة للاستعمار أن تتحمل أعباءها المالية عن طريق الضرائب والغنائم» وعلى هذا، لم تكن الموازنة الإفرنسية تضم في بنودها إلا ما يخص الدفاع، وتغطية قسم من نفقات الأجهزة الإدارية. باعتبار أن هذه الأجهزة مخصصة للموظفين الافرنسيين ولا يجوز استخدام الموظفين المسلمين فيها نظراً لتخلفهم الثقافي ـ على حد زعم المستعمرين ـ وتجدر الإشارة إلى أن ما حققته هذه الأجهزة الادارية من نجاح في تحقيق المخططات الاستعمارية، قد أدى إلى خلق مناخ من اليأس في قلوب معظم سكان البلاد الخاضعة للاستعمار. **وقد برزت هذه الظاهرة بوضوح في المعرض الاستعماري الذي أقيم في سنة ١٩٣١، والذي عرضت فيه، عينات من مواطني البلاد الخاضعة للاستعمار بالبستهم الوطنية التقليدية. وهم المواطنون الذين**

كانوا يتباينون بعروقهم- ألوان بشرتهم- ويختلفون في أنماط حياتهم وعاداتهم، غير أنهم يتساوون- على ما كانت تزعمه فرنسا الاستعمارية- بفخرهم إنهم يخدمون جميعا تحت راية- العلم الافرنسي- الذي يخفق فوقهم جميعاً.

* * *

٢ـ حرب الحضارة الصليبية ضد الإسلام

كان في مدينة الجزائر وحدها يوم وطئتها أقدام الغزاة الصليبين- الافرنسيين- سنة ١٨٣٠ مائة وستة مساجد، وعندما حرر المسلمون الجزائريون بلادهم سنة ١٩٦١ لم يكن في عاصمة الجزائر أكثر من ثمانية مساجد فقط. وهكذا اختفى ٩٨ مسجداً كانت من أعظم منارات الدنيا.

وكانت الأوقاف الإسلامية في جزائر المسلمين تبلغ نحو (٦٦) في المائة من مجموع الأملاك العقارية والزراعية. ويعود السبب في ذلك إلى شغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد وأضرحة الأولياء وأندية العلم عامة والحرمين الشريفين خاصة. وكان الجزائريون يديرون هذه الأموال بمهارة وكفاءة، بواسطة إدارة أهلية، ولم يكن أحد يشكو يومئذ فقراً لأن جميع الفقراء كانوا يأخذون حصتهم ونصيبهم من خيراتها. وهكذا استمرت الجزائر في بحبوحة من العيش أيام عزها ومجدها، حتى غزتها جحافل الصليبيين الافرنسيين. وعندئذ تطلعت فرنسا إلى تلك الخيرات فحاولت انتزاعها من أيدي أصحابها، ولكنها وجدت

شروط الواقفين حائلة بين الافرنسيين وبين ما يطمعون. فخلقوا مشكلة التدخل في أمورها بحجة التنظيم والاصلاح.

واشتهر القضاء الإسلامي، عبر التاريخ، بنزاهته واستقلاليته، ووجد الاستعمار الافرنسي في هذا القضاء عاملاً قوياً في المحافظة على شخصية الجزائر الإسلامية والإبقاء على أصالتها، فراح يخطط لفرض هيمنته على هذا القضاء، فأصدر قراراً يوم ١٠ نيسان- إبريل- ١٨٣٤ ينص على «استئناف الأحكام التي يصدرها القاضي المسلم أمام مجلس الاستئناف» وفي هذا ما يخالف الشريعة الإسلامية، إذ أنه ليس لحكم الله استئناف أو تمييز، أو مماطلة وتسويف. وزاد الأمر خطورة بإسناد حق الاستئناف إلى قضاة الاستئناف من النصارى أو اليهود. وزاد في العدوان الافرنسي الأثيم- أيضاً- إرغام القضاة المسلمين على إصدار أحكامهم (باسم الملك الافرنسي- إبان حكم الملكية، وباسم الامبراطور- في أيام نابليون الثالث، وباسم الدولة الإفرنسية- في عهد بيتان). وأضيفت إلى ذلك مجموعة من الصعوبات والعراقيل، جعلت اختصاص القضاة المسلمين بعد سنة ١٨٤١، محصوراً في دائرة ضيقة النطاق لا تتجاوز الدعاوى المتعلقة بالأحوال الشخصية والإرث. وكانوا قبلاً ينظرون في الدعاوى الجنائية والمدنية والتجارية وقضايا العروض والعقارات. ولم يتوقف نشاط الاستعمار الافرنسي المعادي للقضاء الإسلامي عند حد تضييق الخناق عليه والحد من صلاحياته، بل تجاوزها إلى أعمال حذف المحاكم الإسلامية وإبطالها. ففي ٢٨ آب- اغسطس- سنة ١٨٧٤، صدر أمر بحذف المحاكم الإسلامية

(بمنطقة القبائل) وإبدالها بجماعات أهلية أطلق عليها اسم (الجامعات القضائية). وخصصت صلاحياتها بالحكم حسب العرف والعادات الأهلية لا الدين.

فكيف تم هذا التحول؟ للإجابة على ذلك، قد يكون من الأفضل التوقف عند بعض المقولات التي طرحت في إطار الحرب الصليبية- الحضارية- ضد المسلمين.

لقد بدأت عملية احتلال المساجد، مع البدايات الأولى لغزو الجزائر، ففي سنة ١٨٣٢، صرح «روفيغو»[١]: «بأنه يلزمني أجمل مسجد في المدينة لنجعل منه معبد إله المسيحيين» وخاطب رجاله قائلاً: «عجلوا بذلك، فجامع كتشاوه- كيجاوه- هو اجمل مسجد في المدينة خاصة وأنه يتاخم القصر، ويقع وسط الدوائر الحكومية والحي الأوروبي[٢] وتملك الجزائريـون الفزع، وتساءلوا جميعاً: إلى بيوت الله توصل المستعمرون الفجرة؟ وهرع المسلمون إلى المسجد يحمونه بقلوبهم. ودخل أربعة آلاف منهم رحاب المسجد، وأقفلوا الباب عليهم، وقد عقدوا

---

(١) روفيغو SAVARY- RENÉ DE ROVIGO واسمه سافوري، رونيه - دوق - (١٧٧٤ - ١٨٣٣) تولى منصب وزير الشرطة أيام نابليون بونابرت، ثم عين حاكماً للجزائر.

(٢) مسجد كتشاوة: يوجد حالياً في ساحة ابن باديس، وكان موجوداً منذ القرن الرابع عشر، وأعيد بناؤه أيام حسان باشا - بن خير الدين بربروس ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ - ١٧٩٥) ليكون من أعظم مساجد الجزائر. وتعرض المسجد لتشويه مرعب سنة ١٨٤٥ وتحول إلى كنيسة، ثم استعاده المسلمون سنة ١٩٦٢.

النية على الإستشهاد معه. وفي يوم ١٨ كانون الأول- ديسمبر- ١٨٣٢، حضرت قوات من المدفعية والمشاة الافرنسيين، وأحاطوا بالمسجد. واقتربت فرقة من حاملي الفؤوس، وأخذت تكسر الباب الموصد، وبينما كان صياح الأهالي واستغاثاتهم تعلو عنان السماء، كانت القوات الافرنسية تقتحم رحاب المسجد وتنطلق بوحشية وهي تطعن الأهالي بحد الحراب والسيوف. وقتل المسلمون عن آخرهم وطلي الجامع بدمائهم. وقام القساوسة يتلون أناشيد الغفران على أشلائهم الممزقة. وتم تحويل المسجد إلى كنيسة عرفت باسم (كنيسة سان فيليب).

واستمرت بعد ذلك عملية هدم المساجد، وتحويلها إلى كنائس للنصارى وبيع لليهود وثكنات للجيش والشرطة وإصطبلات للخيل والدواب. وتعرضت المدن الجزائرية الأخرى لما تعرضت له العاصمة (الجزائر) حيث ذكر أحد رؤساء الأديرة والنائب العام لمطران الجزائر، فقال ما يلي: «إن الحاكم الافرنسي- فالي- هو رجل عميق الإيمان، صاحب ذمة وضمير، يحكم الجزائر كالملك المنفرد بحكمه. هذا هو الرجل الصالح للمستعمرة. فهو يبغي تثبيت دعائم الدين، وفرض احترامه في كل مكان. ويريد أيضاً مضاعفة الصلبان والمعابد في الجزائر. كما أن صاحب السيادة بإمكانه تنفيذ إرادته مع أي رجل كان. وقد اختار أجمل مسجد في قسنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة- وهو مسجد صالح باي».

لم تكن عملية التدمير البربرية لأماكن المسلمين المقدسة إلا

واحدة في جملة وسائل التدمير المادي والمعنوي للقدرة الإسلامية، وكانت الوسائل الأكثر خطورة هي: ١ـ أعمال الإبادة الوحشية للمسلمين. ٢ـ نشر الأمراض والأوبئة وإهمال الشؤون الصحية. ٣ـ إفساح المجال بعد ذلك للإرساليات التبشيرية حتى تكمل عملها فيما أطلق عليه سياسة التنصير. ٤ـ توجيه التعليم بما يتوافق مع الأهداف الاستعمارية.

وقد تنضب الأقلام وتضيق الصحف عن جمع الشواهد الثابتة والبراهين الواضحة عما بذلته السلطات الاستعمارية الإفرنسية وهي تمضي لتنفيذ المخطط المتكامل الذي عرضت أبرز نقاطه السابقة، لإبادة الشعب الجزائري المسلم وتصفية وجوده المادي والمعنوي. ولقد رافقت عملية الغزو البربري للجزائر، واستمرت معه، فظائع رهيبة، وأعمال إبادة إجماعية لم يعرف لها مثيل، ومن شواهدها الشهيرة والمتناقلة، قيام جند الغزو بقتل الشيوخ والأطفال والنساء، ثم تقطيع آذان النسوة وأيديهن لنهب الأقراط والعقود «**حتى كانت الأقراط المعلقة في آذان الجزائريات، تشحن بالبراميل، وتكدس أكواماً في سوق باب عزون في العاصمة لبيعها بالمزاد**». وهكذا كانت تباع حلي الحرائر الطاهرات من النساء المسلمات وهي تقطر من دمائهن البريئة. واستثارت هذه الوحشية بعض الافرنسيين فمضوا في وصفها: «لقد قلت أن الاستعمار هو عملية اغتصاب. ولكن هذا أيضاً لا يكفي، يجب أن أقول عملية اغتصاب هائلة. عملية إبادة شعب بأسره» وقال كاتب فرنسي: «دعونا من الخداع والمواربة، فما نفع تمويه الحقيقة. إن الاستعمار لم يكن في البدء حركة حضارة وإرادة حضارية. كان

حركة قوة نفعية، إنها مرحلة صراع من أجل الحياة، صراع التزاحم الحيوي الكبير الذي انتقل من الأفراد إلى الجماعات، ومن الجماعات إلى الأمم. وراح ينشر ألويته فوق العالم الفسيح. . . إن من يقول حضارة، إنما يعني منفعة الغير- ورغبة كريمة في مساعدة هذا الغير. في حين أن الاستعمار في أساسه، ليس سوى عملية منفعة شخصية- أنانية- يفرضها القوي على الضعيف.».

ويعرف السفاح الاستعماري «بيجو» الاستعمار بقوله:

إن الاستعمار هو الفتح البربري الكبير، وهو أشبه شيء بمرور قوافل الرحالة الذين يهجمون على بلد ما، فيقتلون ويذبحون وينهبون كل شيء»[1] وسار المارشال «سانت آرنو» على نهج.. «بيجو» فكتب في وصف إحدى عمليات الإبادة ما يلي: «إن بلاد بني مناصر رائعة حقاً. وهي إحدى المناطق الغنية التي شاهدتها في أفريقيا... فالقرى والمساكن متقاربة جداً... لقد أحرقنا ودمرنا كل شيء... إنها الحرب، وكم من نساء وأولاد لاجئين إلى ثلوج الأطلس، قضوا نحبهم من البرد والبؤس» وفي «رسائل جندي» كتب - مونتانياك- يصف ما فعله بأحد الجزائريين: «قطعت رأسه، وقبضته اليسرى، وقدمت إلى المعسكر شاكاً رأسه على حربة، معلقاً يده على قضيب بندقية. ثم أرسلناهما إلى الجنرال - باراقاي ديلليار- الذي كان في المعسكر القريب منا. وكم كان الجنرال شديد السرور والفرح». أما كريستيان، صاحب كتاب «أفريقيا الافرنسية» فإنه بعد أن يصف كيفية إقدام القوات الافرنسية

---

(١) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٥٩ - ١٦٣.

بقيادة الجنرال «روفيغو» على ذبح جميع أفراد قبيلة «الوفية» وهم نيام (يوم ٦ نيسان- إبريل- سنة ١٩٣٢) يقول: «وهكذا أبيد من كان حياً دون تفريق بين الشاب والشيخ والذكر والأنثى» ويقول «بن» واصفاً إحدى المجازر: «لقد كانت المذبحة رهيبة، فالمساكن وخيام الأجانب منتصبة في الميادين والشوارع والساحات، مغطاة بالجثث، وتبين بعد الاستيلاء على القرية بأن عدد الضحايا بلغ ٢٣٠٠ قتيل بين إمرأة وطفل، أما الجرحى فكان عددهم معدوماً . . . وقام الجنود باكتساح البيوت ونهبها وإحراقها وإحراق الأشجار . . .

وفي اليوم التالي، نزلت الحملة إلى «البليدة» وأحرقت كل شيء في طريقها، وهدمت هذه القرية الجميلة . . . وكان خط النيران المشتعلة في الجبل هو المرشد إلى طريق سير الحملة» ويكتب الكولونيل «دومونتانياك» إلى «الجنرال لامورسيار» «طلبت مني في مقطع من رسالتك أن أخبرك عن مصيرالنساء اللواتي نسبيهن، إننا نحتفظ ببعضهن كرهائن، وبعضهن نستبدلهن بالجياد، ثم نبيع الباقيات بالمزاد العلني باعتبارهن حيوانات لنقل الأحمال . . . ولكي أطرد الأفكار السوداء التي تمتلكني بعض الأحيان، أقوم بقطع رؤوس . . . لا ليس رؤوس نبات «الأرضي شوكي» بل رؤوس رجال حقيقيين» ولا بد لهؤلاء المساكين الذين يصبحون بدون مأوى، حفاة، عراة، أن يلجؤوا إلى الكهوف التي هي آخر ملجأ طبيعي للإنسان، تقيه الحر والقر، وتحميه من غوائل الليل ووحوش القفار».

وفي هذه الكهوف، حدثت أشنع أعمال الإبادة، ضد قبيلة

«أولاد رباح» التي جاءها إنذار من الكولونيل «باليسي» (يوم ١١ حزيران- يونيو- عام ١٨٤٥) يأمرها فيه بالاستسلام خلال عشر ساعات. ولما كان الاستسلام يعني مد الرقبة للجزار فقد اشترطت القبيلة لخروجها انسحاب القوات الافرنسية. وبدون إنذار آخر، أوقد «باليسي» النار أمام الكهوف، وسلط الدخان على المحتمين فيها طوال الليل حتى قضوا خنقاً. وهذا وصف مريع للعملية- وقد اقتطف من كتاب «رسائل جندي» مؤلفه- مونتانياك: «**أية ريشة تستطيع رسم هذا المنظر، عند منتصف الليل، وتحت ضوء القمر، لقد انشغل قسم من القوات الافرنسية في تحضير نار جهنمية... إننا نسمع الأنات المتقطعة المنبعثة من الرجال والنساء والأطفال والحيوان. وطقطقة الصخور المحترقة وهي تتساقط. وطلقات الأسلحة المستمرة... لقد حدث في هذا اليوم أعنف صراع بين الإنسان والحيوان، فعند الصباح، وبينما كنا نخلي مداخل الكهوف، فوجئنا بأفظع مشهد يقع عليه النظر. لقد وجدنا في داخل الكهوف جثث الثيران والأغنام والحمير المندفعة بغريزتها الطبيعية إلى استنشاق الهواء الطلق الذي حرمت منه في الداخل، وقد تكتلت بين هذه الحيوانات، وتحتها جثث الرجال والنساء والأطفال. ورأيت رجلاً ميتاً جاثياً على ركبتيه، يمينه تمسك بقرن ثور، بينما كانت بالقرب منه امرأة وعلى ذراعيها طفلها... من السهل التعرف على هذا المنظر، فالرجل قد اختنق مع المرأة والطفل والثور، في الوقت الذي كان يحمي فيه عائلته الصغيرة من ثورة هذا الحيوان... لقد كانت الكهوف واسعة، حتى إننا أحصينا فيها سبعمائة وستين جثة، ولم ينجح في الخروج**

منهم سوى ستين ما لبث أن فقد أربعون منهم الحياة. ونقل رجال الإسعاف عشرة في حالة صحية خطيرة أما العشرة الباقون، فقد أطلقنا سراحهم ليعودوا إلى قبائلهم يكون أطلالاً وخراباً».

لم تقف جهود فرنسا- الحضارية - عند حدود أعمال الإبادة المباشرة للجزائرين المسلمين، وإنما تجاوزتها إلى أعمال الإبادة غير المباشرة وفي طليعتها إهمال الناحية الصحية، ونقل الأمراض والأوبئة الحضارية إلى الجزائر- ومنها أمراض السل والسرطان والأمراض التناسلية. ومعروف أن الجزائر- وأفريقيا كلها عامة- لم تكن تعرف قبيل الاحتلال الاستعماري شيئاً عن مثل هذه الأوبئة، ولم يأت بهذه الأمراض الفتاكة غير جنود الحملة الإفرنسية المكونين من السجناء واللقطاء والمرتزقة. وهكذا فقد رافقت الحملة الاستعمارية، حملة أخرى من الأوبئة المخيفة التي صدرها المجتمع الافرنسي القذر. وجدير بالذكر التنويه إلى ما كتبه «البروفيسور ليفي فالنسي» في هذا المجال. وفيه ما يلي: «تضم الجزائر بسكانها التسعة ملايين نسبة من المسلولين تعادل ما تضمه فرنسا التي يبلغ عدد سكانها أربعين مليوناً. وبالرغم من كل ذلك لم تتخذ سلطات الاستعمار الاحتياطات الوقائية اللازمة، مثل بناء المستشفيات الصحية، وزيادة أعداد الأطباء الذين هم بمعدل ٤-٨ أطباء لكل مائة ألف نسمة، فلا عجب إذن بعد كل هذا أن نرى نسبة وفيات الأطفال بين العرب تبلغ خمسين بالمائة» كان ذلك في نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث بلغ عدد الأطباء الموجودين في الجزائر (١٨٥١) طبيباً. وهذا يعني توافر طبيب واحد لكل (٥٤٠٠) نسمة- نظرياً- أما من الناحية العلمية، فكان

معظم هؤلاء في العواصم الكبرى والمراكز الصحية الإفرنسية، وواجبهم الأول هو خدمة الافرنسيين. وقد يكون ذلك وحده كافياً لإبراز اهتمام السلطات الاستعمارية بالعرب المسلمين، وما نتج عن هذا الاهتمام من إسهام في أعمال الابادة غير المباشرة للعرب المسلمين في الجزائر.

لم تقف فرنسا عند هذا الحد، فأضافت إلى سجلها الحضاري جريمة دينية وإنسانية ما عرفها التاريخ، عبّرت فيها عن حقدها الدفين ضد الإسلام وتعصبها الأعمى والأحمق للمسيحية. وتمثلت هذه الجريمة بالمجاعة الكبرى التي اجتاحت الجزائر سنة ١٨٦٧ والتي ذهب ضحيتها حوالي نصف مليون نسمة.

لقد كانت فرنسا وراء المجاعة، لأن التاريخ لم يذكر أبداً حدوث مجاعات من هذا النوع في البلاد، فالجزائر غنية بمواردها الغذائية، وكانت تجارتها مزدهرة قبل الاحتلال الافرنسي للبلاد، ولكن الحروب التخريبية التي شنتها فرنسا على الحرث والنسل لتحطيم المقاومة الشعبية، كانت العامل الوحيد الذي أدى إلى المجاعة الرهيبة. فالسنوات التي سبقت عام ١٨٦٧ كانت سني حرب طاحنة، لم يعرف تاريخ البشرية إلا نادراً بمثل وحشيتها وبمثل ما رافقها من فظائع وآثام.

ولم تجد فرنسا سبيلاً للتغلب على الشعب إلا بحرمانه من وسائل الحياة- الغذاء والماء-. ولذا تم تطبيق مخطط إجرامي لإحراق الغابات والمزارع والحقول والبساتين وتخريب القرى والمدن، وردم العيون والآبار. وكان من نتيجة ذلك ظهور مجاعة

سنة ١٨٦٧ التي انتظرتها فرنسا بفارغ الصبر، لتشرع في تنفيذ مهمتها الثانية المتعلقة بتنصير المسلمين. وصهرهم في البوتقة المسيحية. واغتنمت فرنسا هذه المجاعة فجلبت إلى الجزائر أكبر عدد ممكن من «الآباء البيض» و «الإرساليات التبشرية» الأخرى. وزودتهم بالأطعمة المختلفة، وحثتهم على استدعاء الأهالي الجياع لزيارة الكنائس، بعد إغرائهم بوجود ما يبتغون. ولم تكن بغية الأهالي آنذاك سوى لقمة العيش. ويقف الجز ئريون على أبواب الكنائس والمعابد المليئة بأشهى الطعام، ضمر الخصور، غور العيون. يتلهفون إلى لقمة العيش، فلا يجدونها إلا بشروط. ولم تكن هذه الشروط سوى الخروج على الدين الإسلامي والدخول في المسيحية، وبهذا فقط يتمكنون من مضغ لقمة الحياة، وإلا فالموت لهم بالمرصاد.

وذات يوم، وقف أحد الجزائرين الجياع أمام باب إحدى «الإرساليات التبشرية» في عمالة «وهران». وطلب إعطاءه لقمة عيش تحفظ له ما بقي من حياة. وكان الرجل في حالة تثير الرثاء في أقسى القلوب المتحجرة، بسبب ما وضح من أمره من الضعف والهزال. واستقبله «المبشر المحترم» ورحب به، وأدخله المعبد. وأخذ يعرض على بعد منه أنواع الطعام الشهية، واصفاً لذائذها وفوائدها. ولم يتمكن الرجل من إيقاف لعابه السائل، فهم بمد هيكل يده ليحظى بشيء من الطعام. ولكن المبشر حال دونه ودون مبتغاه، وقال له بصراحة: «لن يأكل هذا الطعام الشهي إلا من دخل الدين المسيحي». وانتابت الرجل رجفة، ولم يلبث أن أدار ظهره للطعام المشروط، وأخذ يسحب رجليه الضعيفتين

سحباً. حتى إذا ما ابتعد عن باب الكنيسة خر على الأرض فاقداً الحياة. ومضى أبناء وهران، الذين عاشوا المجاعة، يتناقلون هذه الحادثة فيما يتناقلون. ويسجلونها برهاناً ـ في جملة البراهين ـ على ما اتسم به «هؤلاء المبشرون» من قسوة القلب، والبعد عن كل القيم الحضارية والمفاهيم الإنسانية.

وقد توافرت شواهد كثيرة أجمعت كلها على أن المبشرين الذين سبقوا الحملة الاستعمارية، ورافقوها، مثلوا أشنع تمثيل عقلية الاستعمار البغيضة، والقائمة على التقتيل الجماعي ونشر الرعب وتعميم الفوضى في المغرب الإسلامي عامة وفي جزائر المسلمين خاصة. وإلا لما تركوا هذا الرجل ـ وأمثاله الكثيرون ـ يموتون جوعاً أمام عيونهم، بلا ذنب اقترفوه إلا لأنهم قالوا: ربنا الله، وما رضوا عن دينهم بديلاً، بينما كان بوسع هؤلاء المبشرين المحترمين تلافي جرائمهم الدنيئة، والتستر على أعمالهم القذرة. ولكنهم يدركون بأن مثل هذا الرجل، سيجعل من أطفاله أيتاماً لا معيل لهم. وبعد ذلك يسهل عليهم إلتقاطهم وزجهم في «دور الأيتام» التبشرية حيث ينشؤون نشأة مسيحية محضة. وأشهر هذه الدور «دار بن عكنون وبوزريعة» في مدينة الجزائر، ودار بطيوه بالقرب من مدينة «أرزيو». ومثل هؤلاء الأيتام الذين قضى آباؤهم جوعاً، وهم الذين جاء بهم الجنرال بيجو إلى الأب «بريمو» وسلمه أياهم قائلاً: **«حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت، فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار»**.

لقد عبر بيجو في جملته هذه تعبيراً صريحاً عن نوايا حكومته في

القضاء على الدين الإسلامي. وسانده في تعبيره كاتبه الخاص حين قال: «**إن أيام الإسلام الأخيرة قد حانت، ولن يكون في الجزائر كلها بعد عشرين عاماً من إله يعبد غير المسيح... وإذا ما ارتبنا في أن هذه الأرض ستبقى لفرنسا، فمن الجلي- على الأقل- أن الإسلام قد فقدها... إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا حينما يصبحون مسيحيين**».

أصبحت العلاقة الجدلية القائمة بين الاستعمار وبين التبشير الكنسي، من العلاقات المسلم بها تاريخياً، والمعترف بها دولياً. ولم تعد بحاجة لدليل أو برهان. وقصة احتكاك المغرب العربي- الإسلامي بالصليبية العمياء- وهي نقيض المسيحية السمحاء- لم تبدأ باحتلال الجزائر، ولكنها أعرق في القدم. فالاحتلال نتيجة من نتائجها. وما كان التبشير إلا مقدمة صادقة للاستعمار. ورائداً وفياً لطلائع الزحف التوسعي. ولولا تسلل المبشرين إلى أفريقيا، ونفاذ هواجسهم إلى أدغالها، وتسرب تعاليمهم إلى حنايا سكانها، لما رسخ للاستعمار قدم في هذه القارة. وكانت هذه الارساليات أمينة لرسالتها المزدوجة، التي تسربها حسواً في ارتقاء... فقد لا تكتفي الارسالية بتمهيد الأرض لأقدام الغزاة، وإخضاع الرقاب لسيوفهم، بل ربما عاد القسيس من جولته إلى باريس. وفي طيات أثوابه خريطة يسهل بها مؤامرة الغزو. وها هو الأب (شارل دوفوكو) إمام أئمة الكاثوليكية، وأحد رحالة الصحراء، رحل الى المغرب الأقصى، ورجع منه بوثائق وبخريطة قيل عنها: «أنه لولا خريطة الأب فوكو ووثائقه عن المغرب التي قدمها للحكومة الإفرنسية، لكان احتلال فرنسا للمغرب من الصعوبة بمكان».

وكان على فرنسا أن تعترف له بالجميل، اعترافها بقوادها الفاتحين، فأقامت له تمثالاً في حديقة- ليوتي- بالدار البيضاء- أزيح عنه الستار سنة ١٩٢٢ . وكانت الوثنية والبربرية في أفريقيا نقطة الضعف التي ركز التبشير هجومه عليها، والكوة التي نفذ منها إلى القارة.

وكان المبشرون يتطلعون باستمرار في نهم مسعور إلى استغلال الوثنية وتسخير البربرية لخدمة الاستعمار. وهو ما أبرزه بحث ظهر في مجلة ـ المغرب الكاثوليكي- بعنوان «روح الإنجيل غذاء لروح البربر» جاء فيه: «إن البرابرة قريبون من الإنجيل، وأساطير الإنجيل التي تفيض بحياة الرجل، تصف حياة شبيهة بحياتهم. وأمثال الإنجيل تشبه كثيراً من أمثالهم. وإن حياتنا الخلقية الإفرنسية قد كيفتها وصبغتها المسيحية، فلم لا يكون الإنجيل إذاً مركز الاتصال الذي تلتقي فيه الروح البربرية والروح الإفرنسية اللتان تنشد إحداهما الأخرى». ولم يكن العرب في أفريقيا في مأمن من هذا النهم المسعور، بل هم آخر المطاف للجولة المبيتة، والهدف البعيد لها. ولم يكن الإسلام في معزل عن هذه المساومات الرخيصة. بل كان الغنيمة التي يتحلب لها ريق الصليبية البغيضة، وإنما اتخذت البربرية ذريعة للوصول إلى الإسلام المستعصي. وركز الهجوم على البربرية لاستدراج العرب والتمكن من تلابيبهم، وهو الأمر الذي أكده «الأب فوكو» الذي اشتهرت عنه مقولته التالية: «إن أبناء البرابرة هم فتيان جنس لطيف، وهم مستعدون لقبول الروح اللاتينية التي انتموا إليها في العصور الحالية. إن البرابرة ليسوا متعصبين ولا جاحدين، وإن

دخولهم في المسيحية هو الذي يعيد العرب ويدخلهم إليها كارهين»[1] والأمر الواضح هو أن الصليبيين قد جنحوا إلى كوة الوثنية، حين استعصى عليهم الولوج من باب الإسلام. فاستنجدوا بالعصبية المفرقة حين أعياهم الدين الموحد. الدين الذي وقف بالبربر والعرب على صعيد واحد في وجه الاحتلال، هو الذي دفعهم إلى نبش الماضي، والالتفات إلى لاتينية البرابرة حتى يجدوا ما يفتتون به أوصال الحاضر ويمزقونه.

إنها الصليبية تعيد نفسها، ومجاف للحقيقة وللواقع التاريخي من يزعم أن التبشير في الجزائر كان في خدمة المسيحية، ولو كان القائل مبشراً مسيحياً. لأن أقوال سلفه تغلق في وجهه باب مثل هذا الزعم. فقد كان غزو الجزائر منذ بدايته غزواً صليبياً أعلن عن أهدافه بوضوح تام، فأعاد إلى الأذهان ملاحم الحروب الصليبية في المشرق وأيامها في أندلس المسلمين.

والكنيسة هي التي باركت الغزو الصليبي في المشرق واحتضنته، والقسيس هو الذي كان يغمس السيف في الماء المقدس، ويقلده عنق الفارس، ويشيعه بالدعوات وهو في طريقه إلى بلاد الشام. أما بالنسبة لاحتلال الجزائر، فإن الكنيسة لم تقتنع بالدعوات الضارعة، بل سارت في ركاب الاحتلال، وتلاحمت معه جسماً وروحاً. وأذعنت في طواعية للوحشية البربرية التي جاء

---

(١) جريدة (الشريعة) الجزائرية. (٣١ كانون الثاني - يناير - ١٩٣٣، نقلاً عن مجلة (المغرب الكاثوليكي) دار الكتب الوطنية بتونس العاصمة - (صفحات من الجزائر - الدكتور صالح خرفي - ص ٣١١ - ٣٢٩).

بها الغزاة المستعمرون، الذين لم يشبع حقدهم بدخول البلاد، فمضوا إلى إشباعه بقلب أوضاع هذه البلاد رأساً على عقب، وهذا ما يفسر تركيز هجومهم على الإسلام ومقدساته. لا غرابة في ذلك، فالمعروف من القوانين الدينية للفروسية الغربية التي زحفت إلى المشرق في الحروب الصليبية القديمة هذه القوانين:

أولاً: أن تصدق كل تعاليم الكنيسة وتمتثل لأوامرها، فإن فعلت ذلك ، ولو أدى بك إلى الاستشهاد دخلت الجنة.

ثانياً: أن تحمي الكنيسة، وتبذل كل ما تستطيع من مال ونفس ونفيس في سبيل نصرتها ودعمها.

ثالثاً: أن تشن على الكافرين(أي المسلمين) حرباً لا هوادة فيها.

ومن هذا البند الثالث، نشطت الوحشية الصليبية، وانطلقت من عقالها لتقتل وتحرق وتدمر وتبيد، في حرب لا هوادة فيها، وبقلب لا يعرف الرحمة، وكأن المسيحية لن تقومَ لها قائمة إلا على أنقاض الإسلام، وبني الإسلام. ولا تستطيع الكنيسة تبرئة ساحتها من فظائع الاحتلال والتي سهر على تنفيذها سفاحون عسكريون، لأنهم زحفوا في حمى الكنيسة، ووسموا صدورهم بالصليب ، فالهدف واحد عند الطرفين الديني والعسكري، الهدف إبادة الإسلام في هذه الربوع. وكان رجال الكنيسة هم الدماغ المفكر والمخطط، وكان رجال العسكر، هم الذراع المنفذ والمدمر. ولقد سبق عرض بعض الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة، وهذه طائفة أخرى منها:

قال الكردينال- لافيجوري-: «علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعنى على الأقل بالأطفال، لتنشئتهم على مبادىء غير التي نشأ عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر» واستجابة لهذه التوصية وأمثالها يصدر أحد القادة الإفرنسيين- مونتانياك- تعليماته إلى مرؤوسيه: «لايمكن تصور الرعب الذي يستولي على العرب حين يرون قطع رأس بيد مسيحية، فإني أدركت ذلك منذ زمن بعيد، وأقسم بأنه لا يفلت أحد من أظافري حتى يناله من قطع رأسه ما ينال. وقد أنذرت بنفسي جميع الجنود الذين أتشرف بقيادتهم، أنهم لو أتوا بعربي وهو على قيد الحياة، فسأنهال عليهم ضرباً بعرض نصل سيفي. وأما قطع الرؤوس، فيجب أن يتم على مرأى ومسمع جميع الناس... هكذا تكون معاملة العرب: قتل جميع الذكور الذين تجاوزوا الخامسة عشر من أعمارهم، وسبي جميع النساء، وخطف جميع الأطفال. وشحن الجميع في السفن، ثم اقصاؤهم إلى «جزر مركيز» أو إلى الثلث الخالي من الأرض. وخلاصة القول: يجب إبادة كل من لا يتمرغ تحت أرجلنا كالكلاب».

ويعود القائد الإفرنسي «سانت آرنو» ليؤكد مجدداً ما تميزت به مواقفه البطولية التي تتوافق مع ما سبق ذكره: «لا تسأل عن أشجار الزيتون الباسقة التي ستكون فريسة وحشيتي، واليوم، في برنامجي إحراق جميع ضيع قبيلة بني سالم وابن القاسم وقاسي وقراهم. لقد أحرقت أكثر من عشر قرى كانت كلها بهجة وغنى. وهو القائل: تركت ورائي حريقاً حافلاً تندلع لظاه فيما يقرب من

مائتي قرية أصبحت طعمة للهب والحريق، لقد لعبت يد الدمار بالبساتين. بقدر ما لعبت يد المناشير بأشجار الزيتون». ولقد دافع «سانت آرنو» هذا عن فعلته الهمجية بقوله: «على الرغم مما يقوله أصحاب البر والإحسان، فإني أعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة، فالجيش الذي تكون مهمته إبادة شعب، لا يكترث بقوانين الحرب، فما الحريق إلا حريق، لا يضرم الإنسان النار، ويطلب منه أن تكون برداً أو سلاماً، وما طبيعة النار إلا الإحراق والتدمير» وكان بالمستطاع موافقة هذا المجرم على حججه الذرائعية لو وقعت جرائمه في ظروف الاقتتال. غير أن جريمة سد الكهف لخنق ١٥٠٠ إنسان بين شيخ وامرأة وطفل- وأمثالها هي من الجرائم التي تعجز الذرائع عن تغطية بشاعتها. وهنا تعود الصليبية- وليست المسيحية- لتحمل مسؤوليتها الكاملة. لقد كان باستطاعة الكنيسة على الأقل الإعلان عن استنكارها لما يتم ارتكابه من جرائم لا إنسانية، وأن تعتصم بجدران الكنائس وهي توجه دعوات المغفرة لمن خرجوا على تعليمات السيد المسيح وتنكروا لها- وقد كان مثل هذا الموقف هو أضعف الإيمان-.

٣ـ الأهداف التربوية للتعليم الاستعماري

«ليس الهدف من فتح المدارس الافرنسية- في شمال أفريقيا هو أن نكون عقولاً مثل عقل (فولتير) أو (مونتسكيو) أو (جان جاك روسو). إن الهدف ـ ببساطة ـ هو أن نبدل لغة بلغة، وديناً بدين، وعادات بعادات». وقد تكون هذه الجملة التي أعلنها أحد القسس ـ المبشرين ـ بصراحة كافية لتحديد مبادىء أهداف التربية الاستعمارية وأسس التعليم في ظل الاستعمار. ويكمل الكاردينال ـ لا فيجري ـ هدف التعليم بمقولته الشهيرة: «علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهداً لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل. تلك هي رسالتنا الإلهية». وليس المجال هنا مجال مناقشة «الكاردينال المحترم» بصحة هذه الرسالة التي زعم أنها إلهية، إذ أن قراءة الإنجيل تنفي كل احتمال لوجوب التنصير بالقوة وعن طريق الإبادة، لا سيما عند استخدام هذه القوة ضد قوم يدينون بالله، ولديهم كتاب أنزل من لدن عزيز رحيم، كما أنزل على الذين من قبلهم. غير أن الاستعمار لم يجد خيراً من الدين حجاباً يستر خلفه أعماله الاجرامية. تلك الأعمال التي لا

تترك مجالاً للشك في براءة الدين المسيحي والأديان الأخرى من الاستعمار البغيض.

لقد سبقت الإشارة إلى ما كانت تتمتع به الجزائر، وبقية أقطار العالم الإسلامي في المغرب، من ارتفاع رائع في المستوى التعليمي - الثقافي، قبل أن تمتد إليها يد الاستعمار الآثمة التي أخمدت نور هذه الثقافة، وعملت على نشر الجهل والأمية في الجزائر حتى تتسلل إلى أغراضها العدوانية. ومع أن الاستعمار الإفرنسي هو الذي جلب الجهل والفاقة إلى الجزائر فقد ادعى مناقضاً لأعماله، بأنه جاء رسول حضارة ومدنية. ووصف الجزائريين المتمدنين بأنهم شعب «همجي جاهل». وقد يكون من الأفضل هنا الإشارة إلى ما أثاره أحد أعضاء مجلس الشيوخ - أوجين كومب - حين أثار مجلس الشيوخ بقوله: **«مما لا شك فيه هو أن التعليم في الجزائر كان قبل الاحتلال الافرنسي - سنة ١٨٣٠ - أكثر انتشاراً وأحسن حالاً مما وصل إليه الآن - بعد قرن وربع من الاستعمار - الأمر الذي لم يكن يرضي السلطات الافرنسية في الجزائر. فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي، وكان يتولى التدريس فيها نخبة من الأساتذة الأكفاء. كما أن الطلاب كانوا من الشباب الناهض المتعطش إلى العلم، هذا فضلاً عن مئات المساجد التي كانت تعنى بتلقين اللغة العربية لطالبيها**[1].

لم يشأ الاستعمار الافرنسي. سيراً مع خطته لتدمير العروبة

---

(١) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٢٨ - ١٣٦.

في الجزائر، أن يترك اللغة العربية حرة طليقة تؤدي واجبها الديني، وتبلغ حضارتها الإنسانية. فشن عليها حرباً وحشية، بهدف إعاقة انتشارها وازدهارها. وراح يغلق المدارس العربية بالقوة، بدون أي سبب، ويعتقل أساتذتها وشيوخها، وذنبهم الوحيد أنهم يعلمون اللغة العربية، وفي هذا قال أحد الإفرنسيين ـ بولار: «**لقد أحدث وجود الافرنسيين اضطراباً بالغاً بين هؤلاء المفكرين الأدباء. وأضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم التي كانوا يشغلونها. كما تشتت شمل التلاميذ الذين اضطروا إلى السعي وراء العلم في السر بعد أن كانوا يتلقونه علانية وفي حرية تامة**».

ولقد زاد في تمكين فرنسا من اضطهادها للغة العربية، سيطرتها المطلقة على عقارات الدولة الجزائرية والأوقاف الإسلامية. وهذا ما حدا بفرنسا إلى تعيين أناس من أعوانها للاشراف على قضايا التعليم في المساجد والمدارس. ووضعت لهم خطة تهدف إلى إهمال اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وقد كتب ـ بولار ـ بهذا الصدد: «**أسندت إدارة التصرف في المساجد والمكاتب إلى أفراد بارعين في الكيد والدس. استخدموا القسط الأوفر من الأموال في مصلحتهم الشخصية. ومن هنا أهملت أهلية المدارس وتركت وشأنها**». ويعلق الضابط الاستعماري ـ رين ـ على أسلوب فرنسا تجاه التعليم في الجزائر، فيقول: «كان للغزو الإفرنسي أثر سيء إذ بسط يده على عقارات الدولة، دون أن يخصص ولو محلاً واحداً للتعليم».

أدرك الاستعمار الافرنسي أن انتشار اللغة العربية يشكل خطراً

على الوجود الإفرنسي في الجزائر الإسلامية، ويقضي على مخططاته الهادفة إلى «فرنسة الجزائريين» والقضاء على أصالتهم. ولذا عملت على محاربة اللغة العربية بشتى الوسائل ومختلف الأساليب للحد من تعلمها وانتشارها. وكان في جملة إجراءاتها إصدار القانون المعروف (بقانون ٢٤ كانون الأول- ديسمبر - ١٩٠٤) والذي ينص على: «**عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون رخصة يمنحه إياها عامل الولاية - العمالة - أو قائد الفيلق العسكري. ويعد فتح مكتب بدون رخصة اعتداء على حدود القوانين الخاصة بالأهالي - المسلمين -**».

وضعت السلطات الإفرنسية في الجزائر - بعد ذلك - العراقيل أمام منح «رخصة التعليم» فكان على المعلم - الشيخ - التعرض لمواقف صعبة والرضوخ لشروط مهينة، يلتزم بتنفيذها نصاً وروحاً في مدرسته، حتى يحصل على «رخصة التعليم القانونية» وكانت تلك الشروط تنص على ما يلي:

١ - اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن لا أكثر.

٢ - عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير الآيات القرآنية، وخاصة تلك التي تحض على الجهاد في سبيل الله، وتدعو إلى محاربة الظلم والاستبداد.

٣ - استبعاد تدريس تاريخ الجزائر، وتاريخ العرب المسلمين، وجغرافية الجزائر والبلاد العربية.

٤ ـ استبعاد الأدب العربي، بجميع علومه، والامتناع عن تعليم المواد العلمية والرياضية.

وفرضت السلطات الافرنسية على حامل «رخصة التعليم القانونية» أن يبث روح السخط والاشمئزاز بين الناشئة من الثقافة العربية والإسلامية، وأن يخلص للسلطة الاستعمارية، وأن يتبع تعليماتها وينفذ توجيهاتها المتعلقة بالثقافة العربية، وإلا تعرض لما جاء في القانون ذاته: «**يجوز لنفس السلطة أن تسحب رخصة التعليم لأجل معين، أو نهائياً، من المعلمين الذين يرتكبون أي عمل من شأنه أن يمس بحسن السلوك أو الأخلاق. كما يجوز لها أن تأمر بإغلاق أبواب هذه المكاتب بصورة تأديبية**». وهكذا اعتبرت السلطة الافرنسية أن كل عمل خارج عن شروطها المذلة مساً بحسن السلوك والأخلاق، يستوجب سحب رخصة التعليم أو حتى إغلاق أبواب المكاتب ـ بصورة تأديبية ـ. ويستطرد القانون قائلاً: «**وأخيراً فإنه لا يجوز لمكاتب التعليم العربية أن تفتح أبوابها للأولاد الذين هم في سن التعليم أثناء ساعات التعليم في المكتب الافرنسي. وذلك في القرى التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن المدرسة الافرنسية**». وإذن، فقد عرف الاستعمار الإفرنسي بأن تعليم القرآن الكريم في مكاتب الشيوخ، ينافس الثقافة، الافرنسية المفروضة فضمن قانونه ـ الفقرة الأخيرة ـ في محاولة للحد من نشاط التعليم في المسجد والمكتب وحتى يرغم التلاميذ على التوجه إلى مدارسه التي أظهر الأولاد وأهاليهم عزوفاً عن تعليمها الافرنسي وقد رأوا فيه خطراً يهدد دينهم ويضر بأصالتهم.

خطت فرنسا بعد ذلك خطوة أكثر خطورة، وقد اعتقدت أن

الأمور باتت ملك يمينها، فأصدر وزير الداخلية ـ شوتان ـ قراراً رسمياً في ٨ آذار ـ مارس ـ ١٩٣٨ ، يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر، وجاء في هذا القرار: «أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية».

لقد كان صدور هذا القانون أمراً شديد الغرابة، فهو يعبر بوضوح عن أهداف فرنسا الاستعمارية ضد العرب المسلمين، وصحيح أن هذا الأمر لم يعد مجهولاً أو بحاجة للبرهان والتأكيد، غير أن الأمر الغريب هو اعتبار اللغة العربية أجنبية في الجزائر، مع أن سكان هذه البلاد البالغ تعدادهم في تلك الفترة زهاء عشرة ملايين ـ على أقل تقدير ـ كلهم من العرب، ولغتهم الوحيدة هي اللغة العربية. ولعل فرنسا كانت تعتقد بأن قرار المنع هذا سيحد من نشاط الهيئات الدينية والتنظيمات الإسلامية، غير أن رد الفعل المباشر كان أقوى من قرار المنع، فما كاد يصدر القرار حتى هبت الأحزاب والهيئات الوطنية والتنظيمات الدّينية مطالبة بإلغائه. وتوالت الاحتجاجات الشعبية على الحكومة الافرنسية من داخل البلاد وخارجها. وظلت فرنسا مصرة على تنفيذ قرار المنع، حتى إذا ما اندلعت نار الحرب العالمية الثانية، اضطرت فرنسا مرغمة إلى مسايرة الشعب الجزائري ـ ريثما تنتهي الحرب ـ وتساهلت بعض الشيء في هذا القرار. وعندما وضعت الحرب أوزارها، استأنفت فرنسا وصل ما انقطع من سياستها ، فأصدرت في ٢٢ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤٥، قراراً: «يفرض على معلمي المكاتب العربية معرفة اللغة الافرنسية».

من المعروف أن معظم معلمي المدارس الإسلامية هم من

خريجي جامع الزيتونة في تونس وجامعة القيروان في فاس، بالإضافة إلى من يتخرجون من الأزهر، وهذه الجامعات لا تدرس لغة غير لغة القرآن العربية. والأمر الواضح هو أن فرنسا قد أرادت من قرارها هذا إقامة عائق جديد أمام علماء المسلمين وشيوخهم للحد من نشاطاتهم التعليمية. وتجدر الإشارة أيضاً، إلى أن عدد ما أنشأته السلطات الافرنسية من نوع المدارس التي تعلم العربية والافرنسية[1] لم يتجاوز الثلاثة مدارس في الجزائر وتلمسان وقسنطينة، وأن طلبة هذه المدارس يخضعون لشروط استعمارية قاسية، ولا يكادون يكفون لسد حاجة السلك القضائي والترجمة. وعلى الرغم من ذلك، فقد اعتبرت السلطات الاستعمارية في الجزائر، بأن اللغة الافرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد. وأخذت في فرضها بالقوة على الشعب الجزائري الذي رأى فيها لغة الظلم والقهر والاضطهاد، ولسان الجور والطغيان. وعلى كل حال، فإن الاستعمار الافرنسي الذي حاول فرض لغته، لم يكن راغباً من وراء ذلك إلى تعليم الشعب الجزائري، ورفع مستواه الثقافي. بل كان هدفه الوحيد هو صهر الجزائريين في البوتقة الافرنسية ، وتبديل أحوالهم الشخصية.

وهذا ما ظهر واضحاً في المقولة التي طرحها المسؤول عن التعليم في الجزائر منذ سنة ١٩٠٨ حين قال: «ليس من الكرم والجود في شيء أن ترغب الجامعة في نشر العلم في القبائل. بل دعونا نقولها كلمة صريحة ونطلقها داوية: إن ذلك في صالح فرنسا

---

(١) أطلق على هذه المدارس إسم (ECOLES FRANCO- MUSULMANE)

وحدها، وهو ما نضعه دائماً نصب أعيننا، وقد أضفى على تعليمنا طابعاً خاصاً، كما ساعد مدرسينا على اتباع طرقهم ووسائلهم الخاصة. كما أضفى في الوقت نفسه على برامجنا طابعها الراهن. وإنه لمن الأهمية بمكان أن نبث في أذهان الأهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا، وذلك بتلقين تلاميذنا دروساً عن عظمة فرنسا، وجيشها وثروتها تتناسب وأعمارهم كما تتفق ودرجة ثقافتهم». ويستطرد الكاتب قائلاً: «إن المدرسة الأهلية في شكلها الراهن، وبعملها المزدوج، ليست أداة تجديد فحسب، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة وسلطان.. وسيلة نفوذ وسطوة، وستخلق من رعايانا عضواً مفيداً جداً، وساعداً مخلصاً لفرنسا» وكان هذا المسؤول - المسيو برنار - يرد بذلك على المنادين بسياسة التجهيل في الجزائر القائلين بهذا الرأي: «**لما كان تعليم الوطنيين يؤدي بالجزائر إلى خطر محقق سواء من الناحية الاقتصادية، أم من ناحية التعمير الافرنسي، فإن الرغبة تميل إلى إلغاء التعليم الإبتدائي**».

وهكذا انقسم المستعمرون إلى قسمين: قسم يرغب في عدم تثقيف الجزائريين حتى لا ينافسوهم في الوظائف والأعمال الحرة، وحتى يظل الأوروبيون هم المسيطرون سيطرة تامة على مرافق البلاد الحيوية. ومن هؤلاء - بيير مورلان - الذي قال في الأطروحة التي حصل بها على درجة الدكتوراه ما يلي: «**يجب ألا ننظر إلى المواطن الجزائري وكأنه ذو عقل شبيه بعقلنا، وإذا فكرنا في أن التعليم يستطيع أن يغيره تغييراً كاملاً، فاننا نخالف بذلك بل نتجاهل قانون التطور الثابت**».

ولعل «بيير مورلان» وأمثاله ممن يحملون مثل هذا الرأي، من دهاقنة الاستعمار ومفكريه هم جميعاً من الذين يتعارضون مع «قانون التطور الثابت» على الرغم من الشهادات العلمية التي منحت لهم لتغطية فقرهم العقلي. ذلك بدلالة أن هذه التغطية لم تتمكن من إخفاء حرمانهم من العاطفة الإنسانية والفكر المتحرر. ولذا قد يكون من الصعب اعتبار أي استعماري «وكأنه ذو عقل شبيه بعقل الإنسان الجزائري المسلم».

أما القسم الثاني فإنه لا يرى مانعاً من تعليم الجزائريين، شريطة ألا يكون هذا التعليم خاضعاً لنظام خاص يؤدي في النهاية إلى تغيير الأحوال الشخصية. غير أن السلطات الافرنسية طبقت الحلول المناسبة التي تضمن عدم تشجيع التعليم بين الجزائريين تشجيعاً كاملاً. بينما تمسكت بأهداف القسم الثاني وعملت على ضوئه. وأصبحت الثقافة الافرنسية نتيجة لسياسة الحكومة تكاد تكون معدومة بين الأهالي الجزائريين، في حين أنها تزداد ازدهاراً وانتشاراً بين الأوروبيين المستوطنين. ومن المعروف أن هنالك مليونين من الأولاد في سن الدراسة قد أوصدت في وجوههم أبواب العلم والمعرفة وشردتهم فرنسا في الشوارع. ولم يتجاوز عدد الطلاب الذين ضمتهم المدارس- في الفترة التي سبقت قيام الثورة سنة ١٩٥٤ - مائتي الف تلميذ فقط. وقد يكون ذلك وحده كافياً للتأكيد على نجاح فرنسا في تحقيق أهداف (تربيتها الحضارية).

٤ ـ الفَرْنَسَة والتنصير ونتائجهما

ما إن أحكمت فرنسا قبضتها على الجزائر، وفرضت وجودها الاستعماري بالحديد والنار، حتى أخذت في دعم هذا الوجود ـ بحسب ظنها ـ عن طريق تطبيق مجموعة من الأنظمة والقوانين لفرنسة الجزائر وتنصير سكانها، وكانت المقولة التي تعبر عن هذا التفكير السقيم هي: «**أن جبال الأطلس هي جبال الألب، وأن نهر الشلق**[1] **هو نهر السين. وأن الصحراء هي المروج، وأن اللغة العربية هي الافرنسية، وأن الاسلام هو المسيحية، وأفريقيا هي أوروبا**».

من المعروف أن بريطانيا قد استعمرت بلاداً عديدة، من بينها الولايات المتحدة الأمريكية والهند، كما عملت إسبانيا على استعمار دول أمريكا اللاتينية ـ أمريكا الجنوبية ـ وعلى الرغم من الروابط الروحية واللغوية وروابط الدم التي كانت تربط بريطانيا

---

(١) نهر الشلق: أكبر أنهار الجزائر، يبلغ طوله سبعمائة كيلومتر، ينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي، ويصب شمالاً في البحر المتوسط.

وأمريكا بعراها الوثيقة، فإن بريطانيا لم تزعم أبداً بأن الولايات المتحدة هي بريطانيا، كما لم تزعم اسبانيا بأن الأرجنتين أو المكسيك أو الشيلي هي أقطار اسبانية. غير أن الحماقة الإفرنسية صورت لرجال إدارتها ودهاقنة ساستها بأن احتلالها للجزائر، وما أعدته من مخططات في حملتها الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، سيتيح لها فرصة إزالة الوجود العربي - الإسلامي من جزائر المسلمين وضمها الى (الوطن الأم) فرنسا. وهكذا أصدرت منذ ٢٢ تموز - يوليو - سنة ١٨٣٤، أمراً بتحويل الجزائر من أرض محتلة الى (ملكية فرنسية) ناقضة بذلك كل القوانين والأعراف الدولية، ومتجاهلة لكل الحقائق التاريخية، ومتنكرة لكل حقوق الأفراد والجماعات.

مضت فرنسا قدماً في تنفيذ سياستها، فأصدرت مرسوماً في ٤ آذار - مارس - ١٨٤٨ يقضي بتشكيل (مجلس الأعيان)[١] باعتبار أن «الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا».

وبعد ذلك وفي سنة ١٨٧٠، أعلنت فرنسا بأن الجزائر تتألف من ثلاث مقاطعات إفرنسية. (ولايات أو عمالات قسنطينة والجزائر ووهران) وأتبعت ذلك غداة الحرب العالمية الثانية بإصدار أمر في ٧ آذار - مارس - ١٩٤٤، يعلن: (أن المسلمين الجزائريين أصبحوا فرنسيين. وأعلن قانون ٧ أيار - مايو - ١٩٤٦ أيضاً: (بأن جميع الجزائريين هم مواطنون فرنسيون).

---

(١) ديوان الأعيان: (Senatus- Consulte)

وعندما وضع الدستور الافرنسي في ٢٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٤٦، أعلن: «أن الجمعية الوطنية لها وحدها حق إصدار القوانين، ولا يمكن لها منح هذا الحق لغيرها. . . وأن النظام التشريعي لمقاطعات ما وراء البحار ـ هو ذاته نظام الوطن الإفرنسي، إلا ما استثناه القانون» وفي ٢٠ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٧ صدر قانون باسم (النظام الأساسي للجزائر) وهو بمثابة دستور خاص بها يحتوي على ستين مادة، وقد جاء في أهم مواد اللائحة الأولى:

أولا: تتكون الجزائر من مجموعة من المقاطعات لها ذاتيتها المدنية وذاتيتها المالية ونظامها الخاص المنصوص عليها في مواد هذا القانون.

ثانيا: تكفل القوانين المساواة التامة بين جميع المواطنين الافرنسيين في المقاطعات الجزائرية الثلاثة، دون تمييز في الأصل والجنس واللغة والدين.

خامسا: يمثل الحاكم العام حكومة الجمهورية الافرنسية في الجزائر.

سادسا: يتم إنشاء مجلس جزائري يخول إدارة المصالح الجزائرية بالاتفاق مع الحاكم العام، وقد حددت صلاحيات هذا المجلس، ببحث النظام التشريعي والاقتصادي في الجزائر وتنظيم أعمال الادارة.

إن إصدار هذا المرسوم هو في حد ذاته برهان حاسم على

التناقض القائم بين مقولة «الجزائر الافرنسية - نظرياً» و «الجزائر المستقلة - إدارياً ومالياً واقتصادياً من الناحية العملية». ويدحض بما لا يدع مجالاً للشك ما كانت تطرحه فرنسا طوال قرن وربع القرن، من أن «الجزائر جزء مكمل لفرنسا ومتمم لها». ويعود سبب هذا التناقض الفاضح لعاملين أساسيين أولهما: رفض مسلمي الجزائر رفضاً قاطعاً لكل سياسة تدمجهم بفرنسا وتقضي على شخصيتهم الأصيلة. وثانيهما: رفض المستوطنين - الكولون - لكل سياسة تساوي بينهم وبين مسلمي الجزائر في الحقوق والواجبات.

لقد زعمت فرنسا بأن الجزائر هي مقاطعة، مثلها كمثل مقاطعتي «بريتانيا» و «نورماندي» بالنسبة لفرنسا، غير أن الواقع يدحض مثل هذا الزعم. فبريتانيا ونورماندي وسواهما من المقاطعات الافرنسية تحكم وتدار بموجب دستور فرنسا وقوانينها. في حين وضع للجزائر دستورها الخاص بها، والذي ينص على إدارة الحكم في الجزائر من قبل «حاكم عام» و «جمعية جزائرية». في حين يوجد على رأس كل مقاطعة فرنسية «محافظاً» - بريفيه - ويعود هذا المحافظ في شؤونه الى وزارة الداخلية الافرنسية، أما الحكام في ولايات الجزائر الثلاثة (العمالات) فإنهم يعودون في شؤونهم الى الحاكم العام، الذي يتبع بدوره لوزارة الداخلية الافرنسية - قسم الشؤون الخارجية - . وينص الدستور الجزائري الخاص على إيجاد مجمعين انتخابيين في الجزائر:

المجمع الأول: وهو المفضل والحاكم بأمره في الجزائر

ويشمل الأوروبيين واليهود.

المجمع الثاني: وهو الخدم ـ في نظر المستعمرين ـ ويشمل شعب الجزائر المسلم.

ولا وجود لمثل هذا النظام في المقاطعات الافرنسية (بريتانيا ونورماندي وسواهما) إذ أن الدستور الافرنسي قد نص على مساواة جميع المواطنين في الحقوق والواجبات. وحتى المادة الثانية من دستور الجزائر الخاص تمنح مثل هذه المساواة. غير أن المادة (٣١) منه تناقضها تماماً، حيث تنص صراحة على التمييز بين الأوروبيين الاستعماريين ـ الكولون ـ وجماهير الشعب المسلمين ـ أنديجين ـ . وعلى الرغم من نص المادة الخمسين من «الدستور الجزائري الخاص» القاضي بإزالة نظام الحدود الجنوبية المعروفة «بالتراب العسكري» فإن نظام هذا التراب استمر قائماً على الحكم العسكري الفردي ـ دكتاتوري ـ للضابط فيه حق فرض الطاعة بالقوة. وذلك طوال الفترة من بداية الاحتلال حتى قيام ثورة التحرير سنة١٩٥٤.

نصت المادة ٥٣ من «دستور الجزائر الخاص» على أن «المجموعات المحلية هي البلديات والمقاطعات، وبناء عليه فإن البلديات المشتركة قد ألغيت. . . وسيتم تطبيق هذا النص على مراحل بموجب قرارات تتخذها الجمعية الجزائرية» ومعروف أنه لا توجد في فرنسا أنظمة عسكرية أو «بلديات مشتركة»[1] فلماذا

---

(١) بلديات مشتركة ـ ترجمة: (Commune- Mixte)

فرضت هذه الأنظمة على الجزائر وحدها إن كانت مساوية للأقاليم الإفرنسية؟ . . . ثم كيف تتحقق مثل هذه المساواة بين المستوطنين الأوروبيين (الكولون)[1] وبين ابناء البلاد من مسلمي الجزائر في نظام المجالس والمجموعات الجزائرية، وقد انتقص ممثلي المسلمين إلى الخمسين من مجموع العدد الصحيح لهمّ، في حين كان عددهم الحقيقي يزيد عشر مرات على عدد اللاجئين الأوروبيين (الكولون).

ولقد أقيمت على الحدود في كل من الجزائر وفرنسا هيئات جمركية، وتولى مصرف جزائري إصدار عملة جزائرية غير متداولة في فرنسا ـ بالرغم من ارتباطها بالفرنك الإفرنسي ـ ووضع في الجزائر نظام خاص بالمرتبات والأمن الجماعي يخالف تماماً النظام السائد في فرنسا. فإذا كانت الجزائر هي بريتانيا والنورماندي فلماذا يتم وضع نظام جمركي خاص بالجزائر، وهل بين بريتانيا وباريس جمارك؟ وهل النقود المتداولة في النورماندي مغايرة للنقود المتداولة في مقاطعة البيرينة؟وطالما أن الأمر كذلك، فلماذا تصر السياسة الافرنسية، وهي تمعن في ضلالها وتضليلها، على أن الجزائر فرنسية؟.

لقد وضعت فرنسا نفسها أمام مأزق حقيقي بمزاعمها أن (الجزائر فرنسية) إذ بات أمامها واحد من مخرجين لا ثالث لهما: فإما أن تبقي على نظام الإدارة الاستعمارية الذي استمر قائماً حتى

---

(١) الكولون (Colon) اصطلاح قصد به مجموع الأوروبيين الاستعماريين وتنظيماتهم وأجهزتهم.

قيام الثورة التحريرية، وتكون بذلك قد اعترفت ضمناً بوجود وضع مميز وشخصية مستقلة للجزائر. وإما أن تعمل على دمج الجزائر عملياً بفرنسا، فتقتلع النظام الاستعماري من جذوره وتساوي بين فرنسيي (المتروبول) وبين الجزائريين المسلمين. بحيث يكون القانون المطبق في فرنسا هو ذاته المعمول به في الجزائر، وبهذا أيضاً يتقلص ظل الاستعمار عن الجزائر، ويمسك الجزائريون البالغ عددهم عشرة ملايين نسمة بزمام الحكم في بلادهم.

ولم يكن باستطاعة فرنسا الاستعمارية اللجوء الى أحد من المخرجين لأنها ستخسر ما اعتبرت أنه من حقها ـ بحكم التقادم الاستعماري ـ. هذا بالإضافة إلى أن «فرنسة الجزائر فرنسة حقيقية وعملية» كان لا بد وأن تصطدم برغبات المستوطنين ـ الكولون ـ الذين كانوا يستأثرون بملكية الأراضي الخصبة والمغتصبة، والذين كانوا يعملون باستمرار حتى يبقى الجزائريون خدماً لديهم وعمالاً في مزارعهم، يتقاضون أجوراً زهيدة لا تكاد تكفي لتأمين أبسط المتطلبات الحياتية. ويصرون على عدم مساواة الجزائري بالأوروبي حتى لا يطالب بحقه الإنساني المشروع.

وقاوم الأوروبيون المستوطنون في الجزائر ـ الكولون ـ دمج الجزائر دمجاً عملياً بفرنسا، لأن الجزائريين يشكلون الغالبية العظمى والأكثرية الساحقة في الجزائر، بينما لم يتجاوز عدد الأوروبيين المستوطنين في الجزائر حتى قيام ثورتها في الخمسينات مليون نسمة. فإذا ما طبق قانون المساواة تطبيقاً صحيحاً يصبح للجزائريين تسعة أعشار الحكم في بلادهم وخمس

الحكم في فرنسا. وكانت فرنسا تخاف من إطلاق يد الجزائريين في إدارة المصالح والمؤسسات الجزائرية حتى لا يؤدي ذلك إلى ظهور احتمال قيام الجزائريين بحركة مباغتة تعلن فيها انفصالها عن «الوطن الأم» وتستقل بأمورها، مستندة في ذلك إلى كل الحجج القانونية والوطنية والدينية.

وبعد ذلك، ومع افتراض قبول فرنسا مكرهة على هذا الحل، فإن الجزائريين لم يكونوا على استعداد لقبوله. وقد تجمعت كل الشواهد لتؤكد حقيقة واحدة وهي رفض كل حل يؤدي الى إجراء تبديل في اصالتهم القومية وعقيدتهم الدينية. وهكذا بقي النظام السائد في الجزائر ـ حتى قيام ثورتها ـ هو النظام المعروف (بنظام التوسع الاستعماري والامتيازات الاستعمارية). وهو النظام الذي لم يعرف فيه أبناء الجزائر المسلمون إلا السلب لممتلكاتهم والنهب لاموالهم والانتهاك لحرماتهم والنيل من مقدساتهم. وقد وصف النظام الاستعماري في الجزائر، حتى قيام ثورتها، : «بأنه نظام استعماري فوضوي قائم على التمييز العنصري والتفرقة الدينية وقوة القهر التي أغرقت المسلمين في حمامات الدم» كما حدد مفهوم حكم الافرنسيين للجزائر بالمقولة، التي طرحها الإفرنسيون ذاتهم وتضمنت ما يلي:

«نحن الافرنسيين مقيمون في ديارنا بالجزائر، لقد أصبحنا سادة هذه البلاد بالقوة، لأن الغزو لا يتحقق إلا بالقوة التي تفرض وجود طرفين غالب ومغلوب. وقد أمكن تنظيم البلاد عندما تم قهر المغلوبين. وهذا التنظيم يفرض مرة أخرى فكرة تفوق الغالب على المغلوب، وتفوق الانسان المتحضر على الانسان

المتخلف، فنحن إذن أصحاب البلاد الشرعيين»[1] وطالما أن منطق الحكم هو منطق القوة فقد ظهر بوضوح أنه ليس هناك خيار حتمي غير خيار واحد هو الاحتكام إلى السلاح، وقد بات هذا الخيار ينضج على نار هادئة حتى تفجر في النهاية ليغرق البلاد ومستعمريـهـا في حمامات الدم ومستنقع الوحل. وعند هذه النقطة يمكن العودة الى تلك النار الهادئة التي ألهبت الحريق، والتي أوقد فتيلها الافرنسيون ذاتهم من خلال سياسة التنصير.

ومن المعروف، أن في جملة الدوافع الظاهرة التي حدت بفرنسا «ابنة الكنيسة الكاثوليكية المفضلة» إلى احتلال الجزائر، رغبتها الملحة في القضاء على الدين الإسلامي الذي ادخرت له كل حقد دفين منذ هزائمها المنكرة أيام الحروب الصليبية القديمة في المشرق (حملة لويس التاسع ـ أو القديس لويس على مصر).

وعلى الرغم من أن معاهدة تسليم العاصمة التي أبرمها القائد الافرنسي ـ دوبومون ـ مع «الداي حسين» تقضي بحرية الشريعة الاسلامية واحترامها، وضمان حرية الأهالي واملاكهم وتجارتهم، إلا ان «دو بومون» نفسه لم يلبث أن نكث العهد بعد مضي شهرين فقط على إبرام الاتفاقية، وأصدر أمراً يوم ٨ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٣٠ يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الاسلامية. والاستيلاء على الأوقاف إنما يعني الاستيلاء على الدين، لأن المساجد والشؤون الدينية الأخرى وما يترتب لها من خدمات تمول كلها من الأوقاف.

---

(١) مجلة (أفريقيا اللاتينية) أيار ـ مايو ـ سنة ١٩٢٢.

والحكمة في الأوقاف هي عدم رضوخ الدين لأية سلطة مدنية أو عسكرية، وتعني الأوقاف أيضا استقلالية الدين وحرية عمله بعيدا عن كل نفوذ دنيوي. وقد أحدث صدور هذا الأمر رد فعل عنيف لدى المسلمين، استوعبه قائد الغزو بالقوة وأصدر أمرا ثانيا في ٧ كانون الأول ـ ديسمبر ١٨٣٠ ، كفل لنفسه: «حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير أو الكراء».

وبهذا تم وضع يد الاستعمار الإفرنسي على الدين الإسلامي في الجزائر. وأصبحت فرنسا المسيحية تتصرف على هواها في شؤون مساجد المسلمين وقضائهم وتعليمهم، فلا تعين مفتياً أو إماماً أو مؤذناً أو حتى خادماً إلا إذا أظهر استعداده للتجسس على إخوانه المسلمين. وإلا إذا كان أطوع من بنان الاستعمار في تلبية مشيئته، حتى ولو أدت هذه المشيئة الى الكفر بالدين الإسلامي. ولقد وصف مدير إفرنسي لمكتب الشؤون الإسلامية في الجزائر ما فعله الاستعمار الإفرنسي بالدين الاسلامي، فقال: «لقد أذللنا الدين الاسلامي. وبلغ الأمر أن لا يعين إمام أو فقيه إلا إذا شارك في أعمال الجاسوسية الافرنسية. ثم عليه كي يرتقي في الدرجة أن يثبت قدرا كبيرا من الحماسة والاخلاص للادارة الافرنسية».

وعلى الرغم من أن قانون سنة ١٩٠٥ قد نص على (فصل الدين عن الدولة)، وطلب العمل به في الجزائر بموجب مرسوم ٢٧ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩٠٧، فإن هذا القانون طبق على جميع الأديان، ما عدا الدين الإسلامي الذي ظل (مؤمماً) طوال ليل الاستعمار.

لقد زعموا أنهم بذلك يستطيعون إذلال الإسلام من خلال إذلال المسلمين، وجهلوا بأن الإسلام لا يذل لأنه شريعة الله، وجهلوا أيضاً أن إذلالهم للمسلمين هو محنة أو بلاء في عقيدة المسلم لا بد له من تجاوزه، وقد تجاوزه فعلاً وانتصر على أعداء الإسلام والمسلمين.

٥ ـ الانهيار الكبير

استمرت فرنسا في محاولاتها الرامية إلى «تنصير المغرب العربي ـ الإسلامي ـ عامة» والجزائر منه بصورة خاصة. ولم تلبث حين احتلت الصحراء، أن وجهت إليها إرساليات عديدة من (الآباء البيض) معتقدة أن هذه المناطق ستكون تربة خصبة لبذورهم. وبث «الإرساليات التبشيرية» الأخرى في كل مدينة وقرية.

غير أن هذه الجهود المكثفة اصطدمت بالعوائق المستمرة والعقبات المتتالية. وبرز احتمال فشل كل الجهود المبذولة مما أفزع المسؤولين عن «سياسة التنصير» والداعين لها. فبادرت السلطات الافرنسية إلى إغلاق ما تبقى من المدارس ـ المكاتب ـ الدينية، وألقت بشيوخها في غياهب السجون والمعتقلات بحجة أنهم لا يحملون إجازات ـ تراخيص ـ رسمية من الدولة، تتيح لهم حق ممارسة التعليم. وراحت تحشو خطب أئمة المساجد ـ التابعين لها ـ بعبارات تنتقص من قيمة الدين الإسلامي وتنفر المسلمين منه.

وأدرك المسلمون في الجزائر خطورة هذه الهجمة، فقاطعوا المساجد - الافرنسية - التي ارتضى خطباؤها لأنفسهم ذل الخضوع لسلطان القوة. وراح كل فقيه وشيخ يجمع الطلبة في بيته، ويلقنهم مبادىء دينهم. وذعرت السلطة الاستعمارية لهذا الصمود، فراحت تزيد من اضطهادها للفقهاء والعلماء، ومضى هؤلاء لإظهار المزيد من الصمود، وعادت مساجد الأرياف خاصة لممارسة دورها وقد تحولت إلى ملاذ يلجأ إليه العلماء والطلبة المضطهدون، فراراً من قبضة السلطة القوية في المدن.

احتفظت هذه الجوامع بنظامها الذي يشبه إلى حد بعيد أنظمة المدارس الداخلية. فالطالب يتعلم ويأكل وينام فيها، على نفقة الأبرار الأخيار، أو أهل القرية التي يقع فيها هذا المسجد - الجامع -. أما طلبة المكاتب القرآنية الغرباء، الموجودون في المدن، فإنهم يعتمدون في أمر معيشتهم على الصدقة والاستجداء، بعد أن منعت الإدارة الافرنسية عنهم موارد الأوقاف، وبعد أن مضت لمحاربتهم بكل الوسائل. ولم يجد الطلبة في اللجوء إلى الاستجداء غضاضة طالما أن هدفهم النبيل، وهو تعلم العلم وتعليمه قد فرض عليهم أقسى أنواع الحرمان. وبات من الأمور العادية أن يطرق أسماع أبناء المدن الجزائرية - عند الظهيرة وفي المساء - صوت يأتيهم من الخارج وهو ينادي، «الموجود لله» فيعرفون أنه صوت الطالب القرآني الذي يعاني الفقر والعوز، ويقاوم البرد والجوع، في سبيل المحافظة على وجوده الإسلامي.

وقد لا يكون بعض أبناء المدن - أو معظمهم في تلك الحقبة،

أحسن حالاً من طالب القرآن، غير أنهم لا يترددون في الإسراع إليه ومشاركته جهده وجهاده. وتجدر الإشارة هنا إلى ما عرف عن الجزائريين عموماً من رغبة كبرى في تعلم القرآن وحفظه حفظاً غيابياً ـ عن ظهر قلب ـ حتى أن نسبة حفظة القرآن في الجزائر ترتفع بين الذكور الى نسبة ٤٠ بالمائة. ويرجع الفضل في الإبقاء على جذوة الإسلام متقدة في الجزائر بالرغم من كل أساليب القمع والقهر إلى حملة الكتاب والمدافعين عن الإسلام من الفقهاء والعلماء الذين تصدوا بإيمان لا يتزعزع لصراع الاستعمار ومبشريه. فحافظوا بذلك على أصالتهم الإسلامية وحضارتهم العربية ودينهم الحنيف، في وقت حجز فيه الاستعمار جميع المصاحف، وأخلى البلاد والمكاتب منها، وأغلق المدارس والجوامع. وقذف بمبشريه الى معركة التنصير.

وأسفرت هذه المعركة عن هزيمة الاستعمار ومبشريه ودعاته، وخرج حفاظ كتاب الله وهم أعزة بنصرهم، لقد نصروا الله فنصرهم وصدق الله وعده ونصر جنده. غير أن فشل الاستعمار في تطبيق سياسة التنصير لم يدفعه الى اليأس، فمضى دهاقنته ومفكروه لاستخدام وسائل تبادلية: فإذا ما فشلت أساليب الهجوم المباشر، فلماذا لا يتم استخدام أساليب الهجوم غير المباشر؟ وإذا لم ينجح دعاة التبشير في إقناع المسلمين بتبديل دينهم، فلا أقل من صرفهم عن إسلامهم، والعمل على تشويه الإسلام ذاته بالخرافات والبدع.

وهكذا جندت فرنسا أجهزتها لبث التعاليم الدينية ـ المبتكرة ـ بواسطة أعوان لها ضعاف الأنفس والإيمان من الائمة ورجال

الإفتاء والقضاة، وأصحاب الطرق الدينية خاصة ممن استحوذت عليهم شهوة الدنيا، واشترى الاستعمار عقولهم بالمال والألقاب، هادفاً من وراء ذلك إلى النيل من سمعة الشريعة الإسلامية، وكان أول عمل قام به الاستعمار هو إرغام القضاة على عقد جلسات المحاكم الإسلامية في الأسواق العامة وعلى رصيف الشارع وفي المقاهي القذرة. وأخذت تختلق الخرافات والأساطير وتنسبها إلى العلماء والأولياء الصالحين. وشجعت على إقامة الولائم العامة وحفلات الزار (الوعادي) التي أصبحت فيما بعد مراكز خطيرة لنشر دعاية الإستعمار الإلحادية، المتسترة بستار العلمانية ـ وبلغت إهانة فرنسا للدين الإسلامي حدها حين أنشأت الإدارة الاستعمارية «لجاناً استشارية للشعائر الدينية في كل مقاطعة، يرأسها دائماً أوروبي، ويكون أحدأعضائها ممثلاً للشرطة».

* * *

وفي إطار الهجوم غير المباشر، تبنت الكنيسة ـ طوعاً أو كرهاً ـ أساليب العمل لتشويه الإسلام، يدعمها في ذلك حكم عسكري صارم. ومن القصص الشهيرة في هذا المجال ما تم اكتشافه أثناء الثورة الجزائرية التحريرية ـ سنة ١٩٥٤ ـ في بعض المناطق الشرقية، حيث ظهر أن بعض الأضرحة التي يؤمها الشعب ويتبرك بأعتابها لم تكن إلا قبوراً لرهبان مسيحيين. ولم يصدق الشعب للوهلة الأولى ما يراه حتى وقعت أنظاره على (الصليب في القبر). وبذلك قطع اليقين حبال الشك[١].

---

(١) عن صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي ـ ص ٣٢٤.

وفي إطار الهجوم غير المباشر على فضائل المسلمين، اتبعت فرنسا كل الأساليب التي توافرت (في حضارتها) من إشاعة للمحرمات، وتعميم للفواحش، وتشجيع على المنكـرات، ويدخل في ذلك تشجيع السرقة والإجرام من أجل قتل الروح المعنوية لدى الشباب المسلم، ونشر الفساد والفوضى في أوساط الجزائريين حتى تضمحل القيم الفاضلة، وينصـرفوا عن قضاياهم الأساسية إلى الأمور التافهة المهينة. وكان القضاء الإفرنسي يمارس دوره في دعم هذا الهجوم استناداً إلى قوانين تفرضها مصلحة السياسة الاستعمارية، ولهذا فإنها لم تكن لتمتنع عن إصدار حكم جائر ضد مواطن جزائري يجاهر بأرائه الوطنية، وحكمه بالسجن من خمس سنوات إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، في حين تحكم هذه المحاكم على مجرم قاتل (شريطة أن يكون القاتل والمقتول جزائريين) بالسجن من ستة أشهر إلى خمس سنوات. هذا إذا لم يكن رجال الشرطة قد أطلقوا سراحه قبل تقديمه للمحاكمة حتى يمعن في إرتكاب المزيد من الجرائم. وما يقال في الجرائم والسرقات يقال عن الـفجور والرذيلة، وسجل مثل هذه الأعمال حافـل يندى لـه «جبين الحضارة».

* * *

وبعد، قد يكون من تجاوز الحقيقة القول: «بأن مخططات الاستعمار قد فشلت تماماً، وأنها لم تحقق بعضاً من اهدافها». فلقد استطاعت هذه المخططات إفساد فئة على الأقل، وجعلت منها أداة في قبضة الاستعمار. كما استطاعت الوصول بفئة ثانية

إلى مرحلة اليأس القاتل. وقد أبرز شيخ من شيوخ المجاهدين، بعض ملامح المجتمع الجزائري في سنة ١٨٣٠ ـ وبعد مضي قرن من الزمن على استعمار الجزائر ـ كما عرض بعض ما وصل اليه حال المجاهدين وقد بذلوا كل ما يستطيعون ـ وأكثر مما يستطيعون ـ في مجابهتهم للقهر الاستعماري، حتى انتهى أمرهم إلى اليأس والقنوط. ويقول هذا الشيخ وهو يصف انطباعه عن الجزائر يوم وصلها (سنة ١٩٢٥)(١) ما يلي:

أ ـ «تلك كانت حياة **الجزائر سنة ١٩٢٥**: الخير والرزق والكسب والحكم والسلطان للأوروبي مهما كان جنسه، ومهما كان عمله. والبؤس والشقاء والحرمان والمرض والجهل والجوع والمهانة والعدم للجزائري المسلم الذي سلب منه كل شيء، حتى القدر الأدنى من الكرامة ـ واغتصب منه كل شيء حتى الشبر الأخير من أرضه المنتجة. وحرم من كل شيء، حتى مقعد المدرسة للصبي، ولقمة الخبز للجائع، وزجاجة الدواء للمحتضر. وأكاد أقول: والقبر لمن أنجاه الله بالموت من محن الحياة.. وكنا نجلس ـ أحياناً ـ حول مائدة مقهى، ويلتف حولنا جمع من شبان الوسط المترف، أما شرابهم فكان كحول ـ الأنيزيت ـ وكانوا يتغالون في كمية ما يشربون من كحول إلى حد الإسراف، يصلون به إلى درجة الإسفاف. ولا حديث لهم إلا عن أنواع السيارات وما ظهر منها، وما فقد صيته وسمعته. فهذا يريد أن يستبدل الستروان بالفورد، وذلك يبيع البيجو ويشتري مكانها

---

(١) حياة كفاح ـ مذكرات ـ أحمد توفيق المدني ٢ / ٣٠ و ٣١ و ٤٨ ـ ٥٧.

الفيات، حتى إذا لم تبق في كنانة الحديث أية حثالة من ذكر السيارات لووا العنان إلى حديث الغانيات، هذا يقص نبأ ليلة قضاها مع «هيلينا» وذلك يذكر قطيعته مع «جوليات» الخ. . .

ولم يكن رجال هذه الطبقة من المترفين بأسعد حالاً من شبابها. . كانوا يجتمعون حلقة كبيرة يتجاوز عددها أحياناً العشرين رجلاً في مقهى أوروبي يسمى «الفروبير» يقع بين حديقة السكوار وساحة الحكومة (حديقة بور سعيد وساحة الشهداء اليوم) ثم تنهال عليهم كؤوس الكحول الخالصة من شراب ـ الأنيزيت ـ يتلو عامرها ما فرغ منها، بين أحاديث بسيطة سامجة، عن سفرة فلان، ومائدة فلان، وزواج فلان، وخصومة فلان مع فلان، حتى إذا امتلأ الرأس كحولاً، وارتخت الأعصاب، وتهاوت الأهداب، قام كل واحد منهم إلى سيارته الفاخرة، يمتطيها ولا يكاد يقوى على تسييرها. وأم بيته، حيث تنتظره السيدة الفاضلة التقية النقية بطعام العشاء. ويا لعظيم الفرق بين سيدات تلك الطبقة ورجالها. أما الرجال والشبان، فكما رأيت، وأكثر مما رأيت، وأما السيدات، ولم يختلطن بمستعمر، ولم يعرفن أجنبياً، ولم يترددن على مدرسة فرنسية، ولم يدخل العبث والرجس بيوتهن، فكن من أطهر وأجل ما يستطيع الإنسان ذكره عن سيدة كاملة، مسلمة عربية تقية طاهرة ورعة. حفظت من جزائر الأجداد دينها وإيمانها وعروبتها وعزتها وشرفها. وورثت عنها ابنتها تلك التقاليد وتلك الأخلاق. أما الرجال والشبان فقد جرفهم التيار الأوروبي الجامح، وتلقوا في المدارس شر ما يتلقاه شاب في مدرسة: لا دين ولا شرف ولا أخلاق ولا وطنية، قشور

من العلم ضمن منهاج استعماري خبيث: أجدادنا هم الغول ـ أو الغال ـ (سكان فرنسا الأقدمون). الرومان هذبونا ومدنونا، أكبر رجالنا نابليون بونابرت، قديستنا القومية جان دارك الخ... أبمثل هذا الشاب ـ وحاشا ثلة قليلة منه ـ هو الذي يرجى منه للجزائر خير؟ أهذا هو الذي يمكن أن يعمل من أجل نفض غبار الموت عن أمته وقومه وينفخ فيهم روح الحياة اليقظة، والاستعداد ليوم عظيم؟...

لقد كانت الجزائر في مجموعها ساخطة على فرنسا، ناقمة على أعمالها، ذاكرة فظائعها وآثامها، سواء في ذلك الخاصة المثرية أو الدهماء المملقة، ولا ترضى الجزائر ـ والله ـ إلا بأمر واحد هو استقلالها بأمور نفسها وتخلصها من ربقة الاستعمار القتال... ولكن من هو الذي يتقدم لهذا العمل؟ ومن هو الذي يستطيع في الحالة الحاضرة أن يصرخ هذه الصرخة؟ ومن هو الذي يستجيب لها بعد كل ما حدث؟...».

* * *

ب ـ أحمد بن عليوة والرحمانية

كانت الطريقة «الرحمانية» على ما هو معروف من أكبر الحركات الدينية في الجزائر، وقد تصدى «الإخوان الرحمانيون» لمقاومة الاستعمار الافرنسي بضراوة، وقدموا تضحيات جسيمة في الثورات المتتالية والتي كان من أبرزها ثورة سنة ١٨٧١ برئاسة المقراني والشيخ الحداد. غير أن فرنسا استطاعت تدمير هذه الحركة الدينية من الداخل، وصرفها عن أهدافها، وتنصيب من يضطلع بتشويه الدين عن طريق ضعاف النفوس من أمثال «الشيخ

أحمد بن عليوه»الذي تحدث عنه وعن طريقته الشيخ المجاهد «أحمد توفيق المدني» بما يلي:

قال لي الأخ محمد رضا الأكحل ـ وكنا في أواخر شهر تموز ـ يوليو ـ سنة ١٩٢٥ ـ : لنا اليوم سهرة حافلة بمقبرة سيدي محمد بن عبد الرحمن، فلنستعد لها مبكرين حتى نكون في الصفوف الأولى. لم أفهم إطلاقاً. سيدي محمد مقبرة كبيرة وشهيرة بعاصمة الجزائر تعادل في أهميتها وفي قيمتها وفي علو كعب من دفن بها مقبرة الزلاج التونسية، وهي ذات أقسام ثلاثة: المسجد والضريح، وساحة الضريح الفسيحة، وقبورها مسواة مع الأرض، ثم القسم الخلفي وقبوره عاليه بارزة، فكيف تكون حفلة ساهرة فوق الأجداث؟ قال لي مؤكداً أنها حفلة سنوية يقوم بها رجال الطريقة الرحمانية الذين يأتون في ركب عظيمٍ من مدينة قسنطينة لزيارة شيخهم صاحب الطريقة. تقززت أولاً، هذه من أعظم البدع... ويجب أن أرى ذلك رأي العين...

وجاء الليل وذهبنا جماعة إلى المقبرة، فإذا بالساحة الفسيحة الموجودة أمام الضريح وقد أصبحت أشبه شيء ببهو فخم لقصر ثري، وقد فرشت أرضها بالبسط الثمينة، والزرابي المبثوثة، والمنابذ الصوفية الفارهة. وجلسنا، واستمر توارد القوم من حي «بلكور» ومن العاصمة وما يحيط بها، حتى لم يبق من مكان تطأه رجل إنسان.

وبعد صلاة العشاء، التأمت حلقة الذكر، وأخذ «الفقراء» يترنمون بأصوات هي إلى البشاعة أقرب منها إلى الرخامة. وطال

ذلك نحو الساعة. فبعض تلك الأناشيد والاذكار كان مستقيم المعنى صحيح المبنى، فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه الموعظة والذكرى، **أما بعضها الآخر ففيه إشارات واضحة الى مذهب «وحدة الوجود» يترنم بها القوم ولا يفهمون لها معنى، وخرجت من هناك آسفاً حزيناً وأنا أتساءل: كيف تمكن أحمد بن عليوه المستغانمي من إنشاء طريقة صوفية وهو شبه أمّي؟...**

زارني ـ أحمد بن عليوه ـ يوماً، وسألته: ما هي الأسس التي بنيت عليها هذه الطريقة الجديدة؟ قال: سأبعث اليك بكتاب ألفته وطبعته... وما هي إلا ساعة حتى جاءني أحد «الفقراء» يحمل إلي كتاباً، اسمه: «**المنح القدوسية في شرح متن ابن عاشر على الطريقة الصوفية**». وأخذت في الحين أقرأ الكتاب، ويا لهول ما قرأت: كلام أهوج، وخرافات لا تنطلي حتى على الأبله، وأباطيل وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان. ودعوة سافرة غير حكيمة، لمذهب «وحدة الوجود» المنافي لعقيدتنا الإسلامية القرآنية الطاهرة على خط مستقيم. فاستعذت بالله من رجل اتخذ في ذهني صورة الشيطان في جسم إنسان... هذا ما جاء به أحمد بن عليوه الذي كان يعمل حزازاً بمستغانم قبل أن ينتحل مذهبه (الذي نادى به محيي الدين بن عربي الأندلسي في كتابه ـ شجرة الكون ـ وعالجه اليهودي الهولاندي اسبينوزا ـ وتعرض له عمر بن الفارض) وهو مذهب «وحدة الوجود» الذي اشتهر به أيضاً شيخ الصوفية جلال الدين الرومي. والذي يتنافى تماماً مع تعاليم الدين الإسلامي، ويصل بصاحبه إلى الكفر والإلحاد.

* * *

ج ـ ضحية من ضحايا الاستعمار (الشيخ عبد الحليم بن سماية).

ومرة أخرى، قد يكون من الأفضل العودة إلى ما كتبه الشيخ المجاهد أحمد توفيق المدني في مذكراته: «أذكر حادثاً وقع لي، عرفني بعالم جليل، ومنه عرفت ما آل إليه حال الذين رفضوا التعامل مع الاستعمار. ولم يركنوا إليه. والذين اختنقت أنفاسهم بما لاقوه من مرارة ظلم وإرهاق... كنت على موعد معه في مزرعة السيد محمد بن الأكحل، غير بعيد عن بلدة الأربعاء. ودخلت المكان مع صاحب الدعوة. وكان الشيخ يتوسط القاعة، وكأنه بجلاله وهيبته يحتل كامل الغرفة... كان حقاً شيخاً جليلاً، قام للسلام علي، ولم تتغير ملامحه، ولم تبد على وجهه أدنى بشاشة... قال لي: مرحباً بك. ثم سكت طويلاً، ولا يتحرك، ولا يبدي إشارة ـ ليشارك في الحديث ـ حتى كأنه صورة مجسمة من الشمع الملون. قلت للسيد محمد بن الأكحل هامساً: أهذا هو الشيخ عبد الحليم بن سماية، العالم الشهير، الذي طبق صيته آفاق العالم الإسلامي؟ قال لي: نعم. وهذه هي حاله منذ أن أصبح ملازماً للوحدة والعزلة، وستكون محظوظاً إن أنت ظفرت منه بكلمة. قلت: ومنذ متى وهو يلازم هذه الحالة؟ قال لي: منذ بدأت الأحاديث تتردد عن احتفال فرنسا بصفة صاخبة بمرور مائة عام على احتلالها الجزائر.

فهمت. وعلمت أن الرجل البائس يكاد يقتله الهم والحزن، وأن سكوته هذا هو نوع من الفرار من الدنيا. ولكنني اتجهت إليه

ضحية من ضحايا القهر الاستعماري (الشيخ عبد الحليم بن سمايه) وهو يظهر في الصورة اعلاه، والى جانبه الامام الشيخ محمد عبده أثناء زيارته للجزائر سنة ١٩٠٣.

بكليتي، وأخذت أستفز منه الشعور والاحساس، وأثير في قلبه الآلام والأحزان حتى أسمع حديثه، وأطلع على ما يخفيه في فؤاده الجريح من هم وألم. فقلت له: بالله يا أستاذنا العظيم، وأنت رجل العلم، ومربي الجيل، وحامل لواء القرآن. إن قلبي يذوب ويلتهب وأنا أرى حال هذا البلد الذي كان أميناً، فأصبح مهاناً ذليلاً، حتى أن الخنازير ورعاة الخنازير يريدون الاحتفال باحتلاله. فازداد وجهه احمراراً، وازدادت نظراته حدة، وازدادت ملامح وجهه قسوة، حتى لقد خيل الي أنه يثور ثورة عنيفة مرعبة. غير أنه سيطر على نفسه، وقال في حدة: «بل قل أنه أصبح مثل المومس الداعرة يتناولها من يشاء من الأشقياء دون أن تنال منهم شيئاً. لكن هذا هو قضاء الله. ولا راد لقضائه» ثم هدأت ملامحه. وعاد إلى صمته. فقلت له فوراً: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلتغيروا ما بأنفسكم من ذلة واستكانة ورضوخ وتشتت شمل وقلة الناصح، وخوف العالم، وانهيار الإيمان، يغير الله حالكم إلى أحسن حال. فتململ قليلاً، وقال في ألم يحز القلب ويهد القوى: «لقد قال الله ذلك لقوم يعقلون، وما نزلت آية من القرآن هي أهدى للأمم وأدل على طريق الحرية والسعادة كهذه الآية، لكن أين من يفهم، وأين من يسمع وأين من يعي؟». قلت: يا أستاذي العظيم، لقد ربيت في المدرسة الثمالبية جيلاً، بل أجيالاً من الرجال. بثثت في صدورهم العلم، وألهمتهم الحكمة والصواب، أليس فيهم من يقول اليوم كلمة الحق أو يدعو إلى الخير؟» وأجاب مضعضعاً: ليس فيهم والله رجل رشيد. ما فيهم الا المخنث والخصي، فهالني أن أسمع من ذلك العلامة العظيم،

مثل هذه الكلمات السوقية، وظهر علي الإمتعاض والاعتراض، وقلت: يقولون إن الناس على دين ملوكهم والطلبة على دين أساتذتهم و . . فقاطعني قائلاً: أما الناس فهنا على دين ملوكهم الملاعين حقاً؛ السفه والزيف والفساد والنفاق، والتكالب على الدنيا ونكران الآخرة، أما أن الطلبة على دين أساتذتهم، فلا. لا. لا. وأطال في لفظ (لا) الأخيرة طولاً انتهى بنفسه، قلت له: ما حكم الله في . . . فقاطعني بحدة قائلاً: «هنا لا يوجد حكم الله. هذه دار حرب. سقطت فيها الأحكام الشرعية. وانتهى فيها أمر الإسلام» قلت: يا ويلاه! أنت تقول هذا؟ إن هذا القول هو غاية ما يريده المستعمر كي يتم له ابتلاع الأرض الجزائرية وما فوقها وما تحتها من خيرات. قال: «وهل بقي فيها شيء لم يبتلعه ولم يهضمه؟» قلت: نعم: بقي فيها الإسلام، بقي فيها الإيمان، بقيت فيها الروح التي لا تغلب، بقيت فيها النفوس المتألمة الظمأى، بقي فيها حب الانتقام من الظالمين. إنك تعيش يا أستاذي الكبير في معزل عن الشعب، بعيداً عن الطبقات العامة، لا تعرف نفسيتهم ولا تفكيرهم . . . إنهم والحمد لله لا يسمعون كلامك، ولا يختلطون بك. ولو أنهم استمعوا إليك أو اختلطوا بك لتقولوا عليك الأقاويل، ولكفروا بك بعد إيمان. فتنهد، ونزلت دمعة من عينيه، وقال: (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) ثم عاد إلى صمته وسكوته كأنما هو أبو هول القرن العشرين.

قال لي الأخ محمد بن الأكحل: منذ أمد طويل، لم نر الشيخ تكلم كما تكلم اليوم . . . هذا رجل أصابه اليأس في الصميم، واصطلى من الاستعمار الافرنسي بنار الجحيم. وأصبح يحيا في

نفسية لا تنتظر معها سلامة: إما موت وإما جنون. وقد كانت الثانية لسوء الحظ، فلم يمض أمد طويل على لقائنا حتى علمت بأن الشيخ عبد الحليم بـن سماية قد فقد عقله، وأخذ يهذي ولا يعرف ما يقول.

غير أن الشيخ لم يفقد حتى وهو في حالته الأخيرة، مهابته أو سلامة محاكمته، ومما يحكى عنه في هذه الفترة: إنه دخل مرة حديقة «بور سعيد» وكانت تدعى «السكوار» وهو يمتطي جواده، وأخذ يتجول بين مساربها، وأفواج العامة تسير في ركابه. ففاجأه شرطي الحراسة بقوله: هنا ممنوع ركوب - أو مرور - الخيل، أخرج. فأجابه الشيخ محتداً: أنا لا يمنعني أحد! فأخذه إلى محافظ الشرطة، والعامة تتبعه، وكان المحافظ يعرف عنه الكثير، فقال له: يا سيدي الشيخ، ممنوع منعاً باتاً مرور الخيل بالمنتزهات العامة، خوفاً على الضعفاء والأطفال. فرد عليه الشيخ: عجباً! صبرنا على حصانكم موضوعاً بساحتنا العمومية مائة سنة (يقصد بذلك تمثال الدوق دومال - فاتح الجزائر) ولا تصبرون على حصاننا ربع ساعة. قال محافظ الشرطة وقد ترجموا له ذلك: هذا كلام عدو عاقل لا كلام صديق مجنون. وأذن له بالانصراف.

هذه الحادثة، وأمثالها، أكدت أن ما أصاب الشيخ لم يؤثر ابداً على ملكته العلمية، وإنما أثرت على سلوكه ووجوده في المجتمع بين الناس. أو قل بأنها «عقدة الاضطهاد» التي أفقدته القدرة على التكيف مع محيطه، وهي الظاهرة التي تحمل طبياً اسم «المونوماني» والتي لازمته حتى انتقل إلى جوار ربه، مأسوفاً عليه

من الخاصة والعامة. وتلك هي الصفحة الأخيرة في حياة هذا العالم الجليل الذي أعجب به أيما إعجاب الشيخ محمد عبده (المصلح الإجتماعي الذي طالما تألق نجمه في سماء مصر والعالم الإسلامي) وذلك أيام حل بالجزائر سنة ١٩٠٣.

* * *

د ـ ضحية أيضاً من ضحايا القهر الإستعماري ـ عمر راسم ـ

عمر راسم ـ ابن المنصور الصنهاجي كما كان يلقب نفسه في مقالاته الجريئة ـ وهو من رجال الرعيل الأول في الإصلاح والجهاد، وممن نكبوا على يد الاستعمار الافرنسي نكبة سوداء أثرت على البقية الباقية من حياته، فجعلته يوقع على رسائله بما يلي: (البائس اليائس الثائر على العصر وأهله، عمير راسم).

خلق ليكون فناناً عالمياً، وله لوحات رائعة تحاكي الفن الفارسي الأصيل، خلد في لوحاته حياة الجزائر في عصره. وأبدع في محاولاته لإظهار عظمة الإسلام في مقارعة الصليبية[١] واستخدم قلمه بقدر ماستخدم ريشته للدفاع عن قضايا مواطنيه وطرح هموم أمته والتصدي لأعداء دينه، فكانت صحيفته «ذو الفقار» التي صدرت سنة ١٩٠٨ منبراً حراً تعبر عن أصالة صاحب المنبر وما يمثله في شعبه. وكانت له مواقف رائعة، منها موقفه في سنة ١٩١٤ عندما تعرض للمسألة الصهيونية بقوله: «إن اتفاق زعماء

---

(١) جمعت وزارة الثقافة الجزائرية أروع لوحاته في كتاب أنيق للغاية حمل اسمه (عمر راسم) وذلك تقديراً من الثورة لما قدمه هذا الإنسان المبدع من جهد وتضحية في سبيل وطنه.

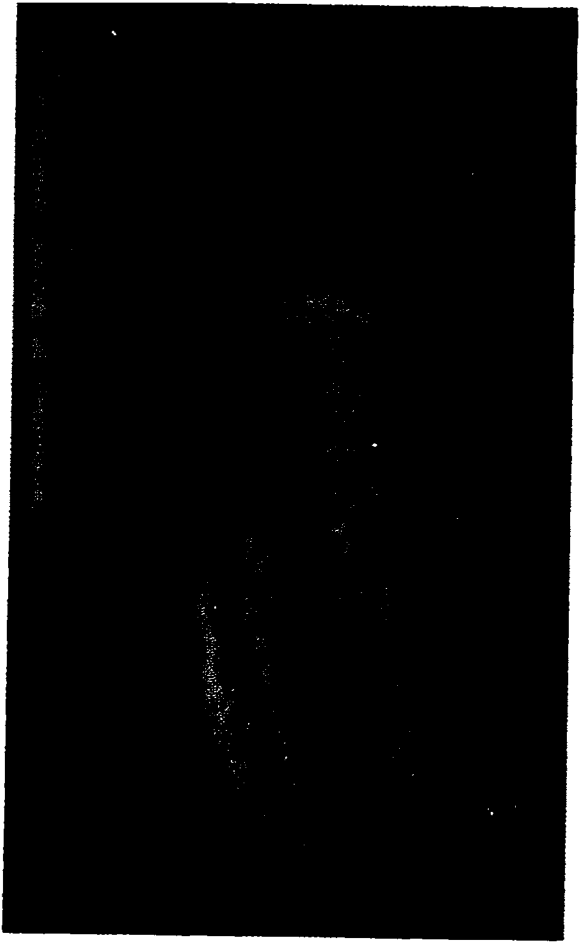

عميد الصحافة الجزائرية الأستاذ عمر راسم
ضحية أخرى من ضحايا القهر الاستعماري.
انصفته الثورة وقدرت له جهوده وتضحياته.

العرب الفاتحين، وأهل البلاد، مع زعماء اليهود، هو أمر من المحال بلوغه. لأنه اعتراف بزعامة البلاد ـ في فلسطين ـ فلا يحق لغير العرب، وهم أبناء ابراهيم الأصفياء الموعودون بتلك البقعة المطهرة أن يمتلكوا تلك الارض، ولا لـغير راية الاسلام أن تخفق عليها، ما دام في عرق العرب دم. وفي أجسام المسلمين روح»[1]

هذه الروح الأصيلة، وهذه الارادة القوية، لم تلبث أن أصيبت بالضعف واليأس نتيجة المعاناة الطويلة والشاقة مع الاستعمار وأجهزته. وقد وصف «المجاهد أحمد توفيق المدني» في مذكراته عن هذا الإنسان المجاهد ما يستحق التسجيل، ذلك أنه ما من إنسان أقدر من الفنان على تصوير محيطه والظروف التي يعيشها. وقد كان عمر راسم فناناً مبدعاً تميزت روحه بالرقـة والشفافية وهذا ما يعطي لمقولاته أهميتها البالغة في تصوير حالة الجزائر خلال تلك الفترة بأكثر مما تصور الحالة الشخصية للفنان ذاته.

قال الشيخ المدني في مذكراته: «جاءني ـ عمر راسم ـ يحمل شبه ابتسامة وقال لي: أنا مطلع على جهادك، إنما أنا متأسف على شبابك، فلماذا تضيع وقتك سدى؟ وقد فوجئت بذلك الحديث ممن كنت أعتقده قبساً من نار الثورة، وشعلة من نور اليقين. وقلت له: هل أنت الأستاذ عمر راسم صاحب جريدة الجزائر الشهيرة ـ ذو الفقار ـ والجزائري الوحيد الذي حوكم بتهمة الاتصال بالعدو، وصدر عليه حكم الاشغال الشاقة. قال حزيناً كئيباً: أي نعم أنا

---

(١) ذو الفقار ـ ٢٨ حزيران ـ جوان ـ ١٩١٤ عن الجزائر والأصالة الثورية ـ الدكتور صالح خرفي ـ ص ١٣٥.

هو. فماذا انكرت مني؟ قلت: أنكرت منك لهجة لم أكن انتظرها، وحديثاً عجباً لم أكن أتوقعه.

واستمر الحديث، وفهمت أن الرجل كان في بادىء أمره مؤمناً عصامياً طموحاً، فلما أصابته نائبة السجن، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، ودارت عليه دائرتها بالسوء. وخرج من سجنه غريباً، مبتئساً بالحياة. لا يرى الناس ولا يرى الأشياء، ولا يرى الحوادث، إلا من وراء منظار أسود فاحم اللون. وها هو عمر راسم يصف سبب ما هو فيه: **«أنا فقير مدقع، وضيع بين الناس مصاب بسرطان في حنجرتي، أعزب إلى أن أموت، استعمار فرنسا يزداد طغياناً وظلماً شنيعاً يوماً بعد يوم. الدولة العثمانية ماتت وورثها الكافر مصطفى كمال، ولم يأت على المسلمين يوم تفرقت فيه كلمتهم، وتشتّت فيه آراؤهم مثل اليوم».**

وفي رسالة من عمر راسم إلى صديقه المجاهد أحمد توفيق المدني، جاء ما يلي:

«هذا يا أستاذ، إن ما اقترحتم به على هذا العبد الذي يعيش على هامش الدنيا والحياة، هو غير مقبول... لأني كما صرحت لكم به مشافهة، لا أريد أن أكون مع أناس أعتقد أنهم أعداء الحق والإنسانية والوطن، ولا أرضى أن أكون في كتاب أو صفحة أو صورة أو مرآة. ولو مع عبد القادر او المقراني أو غيرهما... ويا أيها المؤلف النشيط، اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم لا تعرفون الجزائر كما عرفتها، وشاهدت ما كان لها من مزايا ورجال، وأقطاب علم ووطنية صادقة وأعمال نبيلة وثقافة نادرة ومدنية رفيعة

وإسلام نزيه، ومحسنين من دون فائدة. ولكن لما انقرضوا وظهرت شرذمة الفساد ضاع الشرف، وخاب الوطن ولا طمع في المستقبل»

تلك هي سطور قليلة في حياة إنسان، دمره الاستعمار الافرنسي بوحشيته ـ الحضارية ـ وقد أمكن معرفة بعض ملامح مأساته. ولكن كم هي الجرائم، وكم هي المآسي، التي ماتت مع أصحابها ولم يعرف بأمرها أحد.

تلك هي الصورة القاتمة للجزائر المجاهدة بعد مرور قرن من الاستعمار. وبينما كان شعب الجزائر يعيش مع همومه ويأسه وقنوطه، أبت فرنسا إلا أن تمعن في إذلاله، فقررت إقامة احتفالات ومهرجانات بهذه المناسبة، ودعت إلى حضورها وفوداً من أمم الدنيا كلها. وانفقت عليها الأموال الطائلة بسخاء ـ أموال شعب الجزائر ـ فيما كان هذا الشعب يعيش في شر مسغبة. وقد يكون من المناسب هنا، إكمالاً لصورة الموقف، التعرض لبعض ملامح هذه الاحتفالات وفقاً لما ذكرها أحد معاصريها[1].

* * *

هـ ـ احتفال فرنسا بمرور مائة عام على احتلال الجزائر

جمعت فرنسا لجنة يمكن وصفها بلجنة الأذناب، مهمتها البحث عما تستطيع فرنسا تقديمه «للأهالي» بمناسبة الاحتفال المئوي. فكان أحدهم ينادي بوجوب إعطاء بعض الحقوق

---

(١) حياة كفاح ـ أحمد توفيق المدني ٢ / ١٦٧ ـ ١٧١.

السياسية. وكان آخر ينادي بوجوب تخصيص ثكنة عسكرية لتكون مستوصفاً طبياً للمسلمين. وكان غيرهما ينادي بمطالب تافهة، لا فائدة منها. وما كان ذلك من الحكومة إلا جرعة دواء مهدىء - مسكن - خالتها تخدر الجسم الإسلامي طويلاً. فإذا بها تحولت إلى جرعة منشطة بعثت بالجسم بعيداً نحو الآفاق السامية والآمال البعيدة. واكتفت فرنسا ببناء دار بسيطة في «حي القصبة» أسمتها «دار الصناعات الأهلية» ولدت ميتة، ودفنت إلى الأبد مع الأموات.

وعملت فرنسا على إحياء عادة وثنية قديمة، إذ أقامت جداراً فوق كهف طبيعي صغير، بضاحية «سيدي فرج» وعينت له وكيلاً من قدماء جنودها، بزعم أن ذلك هو: «ضريح سيدي فرج» وما هو في حقيقة أمره إلا مغارة مهملة أحيت بها وثنية مرت عليها الدهور. أما ضريح سيدي فرج فقد كان أول ما دمره الافرنسيون، وأزالوا كل أثر له، أثر نزول جحافل غزوهم بالساحل الجزائري.

كما عملت فرنسا على ارتكاب حماقة أخرى تزيد في بشاعتها ووقاحتها على ما سبقها، حيث أقامت حفلاً دينياً «بالمسجد الأعظم الجزائري» حضره الوالي العام - بورد - وكامل رجال الإدارة الافرنسية دونما استثناء، وخطب فوق ذلك المنبر الشهير الذي توالت عليه أقدام كبار العلماء منذ القرون العديدة، خطب الشيخ محمود كحول، الموظف بإدارة الجريدة الرسمية في الولاية العامة وإمام المسجد، الذي كان يدعى تجاوزاً «المفتي» ليقول: إن المسلمين يوالون فرنسا لا قالباً، بل قلباً وإيماناً. وأنهم

يطيعونها إطاعة مخلصة. ثم قام رجال الإدارة الافرنسية بالمسير، ومعهم رجال الدين من أئمة وحزابين ووكلاء القبور وقراء القرآن على الأموات، إلى «مغارة سيدي فرج» التي أرادوا أن يدشنوها معبداً يوم ٥ تموز ـ يوليو ـ ١٩٣٠ (يوم الاحتلال البغيض) فقرؤوا هنالك ما أمروا بقراءته من كتاب الله. وهيؤوا لهم خرفاناً مشوية، أكلوها سحتاً، وكأنهم يأكلون لحم أمتهم، ويمتصون دماء شعبهم، وينهشون عظام شهدائهم.

وقال أحد المسلمين، وهو يغادر الحفل: أقسم بالله ثلاثاً، إننا كنا نأكل وكأننا نلتهم النار، وكنا نشرب وكأننا نبتلع السم. وكنا نقرأ القرآن ونشعر اننا كنا «نسب الدين». كانت وجوهنا مصفرة، وكانت سحناتنا مكفهرة، وكان شعورنا جميعاً دون استثناء، شعور من احتقر احتقاراً لم ينل مثله أي شعب من شعوب الأرض.

وكان الوالي، وكان شيخ بلدية الجزائر الاستعماري الصميم، وكان والي الولاية، يتقبلون الوافدين عمداً في مرسى الجزائر العتيق، تحت حنايا دار الاميرالية الجزائرية الأثرية، ويقولون كلهم، العبارة التقليدية الجارحة التي اعتادوا تكرارها في كل المناسبات:

«في هذا المكان، حيث كانت اللصوصية تضرب أطنابها، وحيث كان الظلم والطغيان، وحيث كانت اوروبا تخضع لهول القرصنة وفظاعتها، نستقبلكم أيها السادة، وقد ساد الأمن، وساد الرخاء، ونشر العدل بساطه، وزالت اللصوصية، وانمحت القرصنة إلى الأبد. تحت لواء فرنسا العظيم المنتصر».

واحتفلوا بعد ذلك احتفالاً صارخاً، وأكلوا وشربوا وسكروا وعربدوا واختلط حابلهم بنابلهم. ثم أحيوا ليلهم حتى الصباح وسط انوار كأنها من قلب القمر. كانت عندهم ليلة. وكانت لدى الجزائريين الذين لم يشارك أحد منهم في الاحتفال ليلة نحس مستمر.

ثم زادوا على كل ذلك، أكثر من ذلك، زادوا عليه إقامة مؤتمر كاثوليكي ديني متعصب، جمعوا له القسس والرهبان من كل مكان، وارتفعت أصوات وأصوات ضد الدين الإسلامي، وضد العروبة وضد المدنية الساطعة التي لولاها ما كانوا هم ولا كان أجدادهم الأولون. ضربوا الدين في الصميم. لم يتورعوا عن مس الذات المطهرة المحمدية، ووصفها بالشنيع من الأوصاف. لم يمنعهم خجل أو حياء عن إيذاء شعب كامل في دينه وفي دياره، في ساعة هائلة رهيبة. لم يبق فيها لذلك الشعب من معقل يلتجىء إليه إلا الدين.

﴿وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ الكتَابِ لَوْ يرُدونكُم منْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَاراً، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ، منْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُ. فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حتى يَأْتِيَ ٱلله بِأَمْرِهِ، إنَّ الله عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَديرِ﴾

الفصل الثاني

١ ـ عبد الحميد بن باديس
٢ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
٣ ـ مدافع الله ونهاية رحلة العمر.
٤ ـ إخوان عبد الحميد في الجهاد:
آ ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
ب ـ الشيخ مبارك بن محمد الميلي
ج ـ الشيخ أحمد توفيق المدني
د ـ الشيخ الطيب العقبي
هـ ـ الشيخ التبسي
٥ ـ تيار الأصالة الثورية في الجزائر
آ ـ الشاعر محمد العيد
ب ـ أحمد رضا حوحو
ج ـ الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض وتجربته التربوية الرائدة في ميزاب

١ـ عبد الحميد بن باديس

ما أظلمت دنيا المسلمين يوماً إلا وارتفع في سمائها نجم يتألق ليهدي التائهين سواء السبيل. وما اشتدت الخطوب في عالم العرب المسلمين يوماً إلا وظهر رائد يصدق قومه الهداية، ويسير بهم نحو الدرب القويم. وقد ظهر في الفصل الأول، ما وصلت إليه الجزائر المجاهدة الصابرة في حكم الاستعمار والمستعمرين. حيث بلغ اليأس منتهاه، وحيث بلغ القنوط غايته.

وفي وسط الظلمة الحالكة، ظهر ذلك الإنسان المسلم المؤمن، فأشرقت له دنيا الجزائر، والتفت حوله فئة من المجاهدين الصابرين، كأنهم كانوا على موعد مع قدر أمتهم. وكان عليه، وعليهم، شق الطريق، وسط صعوبات لا نهاية لها. ذلك هو عبد الحميد بن باديس. وقد وصفه أحد أقرب الناس إليه بقوله: «كنا هنالك جمعاً صالحاً لست أنساه، كانوا نحواً من عشرين رجلاً، منهم الشيخ، ومنهم الكهل، ومنهم الشاب. إنما نور الإيمان والعزيمة الراسخة كان قد ارتسم فوق كل محيا،

كالفجر الصادق. . . وإننا لكذلك، فإذا بطلعة مهابة مشرقة أطلت علينا، فقام لها الجميع احتراماً وتقديراً. ذلك هو الشيخ المجاهد المقدام- عبد الحميد بن باديس- وقد أخذ نجمه يتألق في سماء الكفاح، وأخذ اسمه يكتسح ميادين النضال، وأخذت بواكير أعماله الإصلاحية تبدد حجب الظلام الحالك. . . وكأن عبد الحميد بن باديس، كان الحادي عشر من ذلك الرعيل الأول الذي بعث به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، لهذا المغرب العربي، يعلم الناس دينهم ويجدد إيمانهم ويمتن أخلاقهم ويهديهم سبيل الرشاد. وقد لا يستطيع أحد وصف هذا الرجل العملاق. . . كان الرجل حذراً، إنه يشفق على مشاريعه العظيمة أن تخفق أو تصاب بنكسة، نتيجة لكلمة عابرة، ينقلها جاسوس، أو لتعبير يساء فهمه ويسوء نقله.

ولكن ها هو الآن- وبعد سنوات من الجهاد- وقد أصبح رجلاً مكتملاً هادفاً، لقد أخذ يشق طريقه قدماً نحو غايات بعيدة لم يكن يفصح عنها، إنما كانت تفصح عن نفسها من خلال كلماته. هذا رجل طلق الدنيا الرخيصة، بما فيها من شرور وآثام، وبما تحتويه من مباهج ومغريات، وأقبل على الدنيا الصالحة، دنيا العمل والجهاد، والتضحية والفداء. وبذل النفس في سبيل نفع المجموعة الجزائرية خاصة والأسرة الإسلامية عامة.

ولد عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس في مدينة القسنطينة- المدينة التي طالما أتعبت قوات الغزو الاستعماري منذ أيام واليها أحمد باي. واحتفظت بكل أصالتها

لاكثر من سبب، أولها انفتاحها على الأقاليم والأرياف المجاورة لها. وثانيها بعدها عن العاصمة التي بقيت مركز ثقل الوجود الاستعماري. ولهذا فقد وقع على قسنطينة عبء الاحتفاظ بأصالة الجزائر كلها. فلا غرابة أن تكون مهداً لحركات المقاومة، وأن تحتضن كل الحركات الإصلاحية، ثم أن تدفع للثورة ضد الاستعمار بأكبر عدد من رجالها وأبنائها.

وهكذا ففي هذا المحيط الفاضل ولد ابن باديس سنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٩ م. وبدأ خطواته الأولى في التعلم بمدارسها حتى إذا أكمل تعليمه، تاقت نفسه لانتهال المزيد من العلم. ووجد في والده «محمد المصطفى» خير مشجع للمضي على درب العلم والمعرفة، ولا ريب أن الوالد قد وجد في ابنه من الفضائل ما بعث فيه الأمل «ببعث أمجاد البيت الباديسي الشهير في التاريخ بتأسيس الدولة الحمادية».

فقال له منذ أول عهده بتلقي العلم: **«يا عبد الحميد ـ أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك، وأقوم بكل أمورك، ما طلبت شيئاً إلا لبيت طلبك كلمح البصر، فاكفني أمر الآخرة. كن الولد الصالح العالم الذي ألقى به وجه الله».**

وترددت دعوة الأب بأصدائها القوية في أعماق نفس عبد الحميد، فمضى في سنة ١٩٠٨ إلى تونس الخضراء ـ حيث منارة العلم الإسلامي في جامعة الزيتونة ـ وانصرف ينهل من ينابيع العلم الصافية، حتى إذا ما مضت عليه أربعة أعوام من الجهد المتصل والعناء المستمر، أدرك أنه بلغ المرتبة التي تؤهله للانتقال من

عالمه النظري إلى العالم العملي، أو من الجمع والتحصيل إلى العطاء والإفاضة، للإفادة مما علم وتعلم، وكان لا بد له قبل هذا التحول من إكمال فرائضه الدينية، فمضى في سنة ١٩١٢ إلى الديار المقدسة في الحجاز، حيث أدى فريضة الحج، وزار خلال رحلته بلاد مصر والشام، ليعود بعدها إلى قاعدته الصلبة في قسنطينة، مستقراً في مسجدها الشهير «الجامع الأخضر». وأخذ في ممارسة عمله بكل ما في الشباب من إيمان وحماسة وبكل ما في الشيوخ من حكمة وسداد رأي، ولم يلبث طويلاً حتى تكشف عن شخصية عملاقة، تفيض علماً ونوراً يضيئان العقول الضالة والنفوس التائهة.

وأخذت دروسه تجتذب إليها الفدائيين الصالحين، لا من مدينة قسنطينة وحدها، بل من كل جهات المشرق الجزائري، علاوة على أولئك الوافدين إليه من وسط البلاد وغربها. وأصبحت دروسه المختلفة، تجاوز العشر ساعات كل يوم، عامرة بمختلف علوم الدين- من فقه وعبادات ومعاملات- علاوة على ما كان يتخلل تلك الدروس من توجيه وإرشاد يتناسب مع الواقع العملي الذي كانت تعيشه الجزائر الصابرة المجاهدة في تلك الظلمة القاتمة.

وكانت روح الشيخ المؤمنة تفيض بالثقة والأمل، فتجاوبت لها النفوس وأطمأنت اليها القلوب. والشيخ بعد ذلك يتابع دوره باندفاع وحماسة شديدين، لا يتعبه الجهد ولا يناله النصب. ويزيد من حماسته وأندفاعه ما كان يلمسه من تجاوب عميق في نفوس تلاميذه وأتباعه. وها هو يعبر عن هذه الحقيقة بقوله:

«إنني أرى حالة البلاد قبل دروس الجامع الأخضر وبعدها:

كان الجهل سائداً، والبدعة قائمة، والضلال مخيماً، فإذا بهذه الثلة الصالحة من الطلبة الذين يرتادون دروسنا، تبث الفضيلة، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتبين أمام الناس سبيل الخير والصلاح. والشباب في الجزائر كافة، وخاصة الذي لم تدنسه تعاليم فرنسا، ومباهج مدنيتها الفاجرة، لا يزال مادة أولية ـ خاماً ـ إذا ما نحن تناولناه بالدعوة الإصلاحية السلفية، جعلنا منه دعاة صالحين. يحثون على الخير، ويقضون على الخرافات والأباطيل، ويفتحون أمام الشعب أبواب الحياة السعيدة الحقة، التي توصدها فرنسا بكل ما ملكت من حول وطول».

ويدرك الشيخ عبد الحميد طبيعة المعركة التي يخوضها، وما هي عليه من الشمول والاتساع، مما يتطلب استنفار كل القوى المتوافرة، وزجها جميعها في معركة المصير، ويظهر ذلك في مقولته وهو يوجه حديثه إلى الشيخ أحمد توفيق المدني: «سواء أطال مقامك بالجزائر أو قصر، وسواء إن اهتديت إلى كفاح سياسي أو أخفقت، فهذا واجب عيني قد وضعه القدر فوق عاتقك. فابدأ كفاحك بهذا ريثما ييسر لك أسباب كفاح آخر. وكفاحنا هنا شاق، مرير، متعدد النواحي، مختلف الاتجاه. فأينما ضربت بسهم صائب في أي ميدان، كان نضالك مشرفاً، وكان جهادك محموداً»[1].

والشيخ عبد الحميد، يخوض معركته معتمداً على أرضية صلبة

---

(١) حياة كفاح ـ أحمد توفيق المدني ـ ٢ / ١١ ـ ١٢ و ١٨.

من الإيمان بالله والثقة بشعبه الجزائري المسلم، وقد أمده ذلك الإيمان وتلك الثقة بالقدرة على مجابهة التحديات مهما عظمت، وهو يقول في ذلك: «سجون واتهامات ونكبات: ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها. وأمة أخذت تقدم الضحايا في سبيل سعادتها، حقيقة بأن تنال السعادة وبأن تهنأ بها... ومن رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها، ويؤمن بها المؤمنون الصادقون، فقد حاول عبثاً قلب الحقائق. ونحن لذلك لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعرة، مهما طال سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها، الكامنة كمون النور في الكهربـاء»(١).

غير أن ثقة عبد الحميد بن باديس غير المحدودة بشعبه الجزائري، لا تمنعه من إدراك واقعه المرير، وما آل إليه هذا الشعب من ضعف وتمزق بنتيجة الضربات الاستعمارية الشاملة. وها هو يقول: «برغم ما في الأمة الجزائرية من أصول الحيوية القوية، فقد عركتها البلايا والمحن، حتى استخذت وذلت، وسكنت على الضيم ورئمت للهوان، وبرغم ما بينها من روابط الوحدة المتينة، فقد عملت فيها يد الطرقية المحركة تفريقاً وتشتيتاً، حتى تركتها أشلاء لا شعور لها ببعضها، ولا نفع، تتخطفها وحوش البشرية من هنا وهناك، بسلطان القوة على الأبدان أو سلطان الدجل على العقول والقلوب».

---

(١) جريدة المقاومة ـ الجزائرية ـ ٢٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧.

ويدرك الشيخ أهمية الكلمة، فيعمل على إصدار «الشهاب» ثم «المنتقد» ويحدد لهما هدفهما «لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري» و «الوطن قبل كل شيء» ويقف بعد ذلك وقفة المتأمل- أو بحسب اللغة العسكرية «إعادة تقويم الموقف»- ليرى حصالة جهده، فيقول: **«أعلن- الشهاب- من أول يوم، و-المنتقد- الشهيد قبله، سنة ١٩٢٤ أنه- لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري- ولم يكن يوم ذلك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبح له دينه وقومه. وقطع له من كل شيء- إلا منه- أمله. وحقره في نفسه تحقيراً» و «أعلن- الشهاب- من أول يومه، و- المنتقد- الشهيد قبله- أن- الوطن قبل كل شيء- وما كانت هذه اللفظة يومئذ تجري على لسان أحد بمعناها الطبيعي والاجتماعي العام. لجهل أكثر الأمة بمعناها هذا، ولخوف أقلها من التصريح به»**[١]

وشعر يهود قسنطينة بخطورة ذلك النور الذي يشع من«الجامع الأخضر» فأخذوا- كعادتهم- في الكيد له، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره- ويشتد بهم الغيظ والحقد، حتى إذا جاء صيف سنة ١٩٣٤، أقدم يهودي على استفزاز المسلمين عندما مر «بالجامع الأخضر» فشتم من به من المسلمين، وتطاول على شخصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. وحدث الانفجار الدموي الرهيب بين المسلمين واليهود.

---

(١) صفحات من الجزائر - الدكتور صالح خرفي. ص ٨٠ - ٩١ (عبد الحميد بن باديس والعروبة).

وظل الصراع أسبوعاً كاملاً قتل فيه (٢٢) يهودياً. وعجزت السلطة الإفرنسية عن إيقاف- أو إحتجاز- الحماسة الدينية الملتهبة، والشعور القومي المتفجر، فاضطرت للتوسل إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس والنائب الدكتور بن جلول، من أجل التدخل لتهدئة الموقف المتفجر الذي بات يتهدد الوجود اليهودي كله في القسنطينة.

هنا، لا بد من التوقف قليلاً عند ظاهرة ما أطلق عليها اسم «مجزرة قسنطينة» والتي تجاوزت في مضمونها وأصدائها حدود الجزائر لتأخذ أبعاداً عالمية. وقد يكون من غير الطبيعي، تفسير ما حدث في قسنطينة على أساس أنه مجرد رد فعل لاستفزاز «يهودي عابر» كما أنه من غيرالطبيعي الأخذ بهذا الاستفزاز ذاته على أنه مبادرة فردية «ليهودي حاقد». ولعل هذه الحادثة تبرز أهمية الدور الذي كان يضطلع به «مسجد الجامع الأخضر» وإمامه «الشيخ عبد الحميد بن باديس» في نشر الوعي ضد الأخطار التي تتهدد العالم الإسلامي على أيدي الاستعمار والصهيونية، وأدى ذلك إلى تعاظم نقمة اليهود، فكان استفزاز اليهودي تعبيراً عن هذه النقمة، واختباراً لمعرفة ما وصل إليه التنظيم الإسلامي من القدرة في مدينة قسنطينة، وعندما أدركت السلطات الاستعمارية تعاظم قدرة «عبد الحميد بن باديس» فضلت تجنب مجابهته في ظروف غير مناسبة لها، ولجأت إلى أسلوب «التهدئة» عن طريق عبد الحميد ذاته[1].

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى ما كتبه «ايليا أبو ماضي - الشاعر اللبناني المهجري - في جريدة «السمير» ص ١٥ - آب - أغسطس - ١٩٣٤. وتضمن ما يلي: «لا نخطىء =

المهم في الأمر، هو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس، لم تصرفه قسوة الظروف التي كانت تعيشها الجزائر عن رؤية أبعاد الصراع، وشمولية المعركة، فالحرب ضد المسلمين هي حرب واحدة، سواء كان مسرحها الجزائر، أو كان مسرحها فلسطين، أو ابتعدت حتى أقاصي المشرق الآسيوي. وها هو الشيخ يعود في سنة ١٩٣٨، ليقرع الأجراس محذراً من خطورة «الزواج غير الشرعي بين الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية، فيقول: «**تزاوج الاستعمار الانكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة، فأنجبا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى. وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة. فأحالوها جحيماً لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحاً لا يندمل... جاء الزوجان المشؤومان الصهيونية والاستعمار الانكليزي، فكانا بلاء على فلسطين ويهودها. فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين**

= التقدير إذا قلنا أن الصهيونية من أهم العوامل التي أثارت نقمة العالم الإسلامي على اليهود، فقد كان هؤلاء منظوراً إليهم في كل بلد إسلامي كعنصر وطني. فلما حملوا لواء الوطن الصهيوني، وتسلحوا بوعد بلفور، تبدل موقفهم في العيون، وصاروا منظوراً إليهم كقوم فاتحين غاضبين، يحاولون أن يطردوا العرب من فلسطين ليحلوا مكانهم ويؤسسوا دولة يهودية. فالصهيونية، وهي فكرة دينية، هي التي جعلت المسلمين ينهضون لمصارعتها باسم الدين، ولكل شيء آفة من جنسه... وخلاصة ما نراه، أن ثورة المسلمين على اليهود في قسنطينة هي ثورة المقهور، المجروح في كبريائه. ولكن بعض الجرائد الأمريكية في نيويورك، لا تستلهم فيما تكتب عن هذه القضية غير مصالحها الخاصة، شأنها في كل قضية تتعلق باليهود». وقد أعادت صحيفة الشيخ ابن باديس- الشهاب- نشر هذا المقال- ج ١٠- م ١٠- ١٩٣٤ (الجزائر والأصالة الثورية- خرفي- ص ٣٨)

ويهودها، ولكن الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الانكليزي من جهة، والإسلام والعرب من جهة، والضحية فلسطين، والشهداء حماة القدس الشريف، والميدان رحاب المسجد الأقصى، وكل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هناك، من أرواح تزهق، وصغار تيتم، ونساء ترمل، وأموال تهلك، وديار تخرب، وحرمات تنتهك، كما لو كان ذلك كله واقعاً بمكة أو المدينة. إن لم يعمل لرفع الظلم الفظيع بما استطاع».

ومن المنطلق ذاته، منطلق الدفاع عن الإسلام ضد كل من ينال منه أو يتعرض له، وقف الشيخ عبد الحميد بن باديس ضد المستوطن الافرنسي في الجزائر «المعمر آشيل» الذي هاجم الإسلام، متبعاً في ذلك خطوات المستشرق الافرنسي «هانوتو»[(١)] فجابه بذلك «الإمام محمد عبده» ونشأت عن ذلك مقارنة ممتعة تعرض لها الكاتب الجزائري «الدكتور صالح خرفي»[(٢)] بما يلي:

«كانت خطة الهجوم على الإسلام مبيتة مدروسة، متألبة ضد مبادئه التي تقض مضاجع الطامعين، وإن كانت خطة الدفاع بالعكس من ذلك، تبدو مدروسة، منسقة الأسلوب، ولكنها في

---

(١) هانوتو: Hanotaux- Gabrielx مؤرخ ورجل سياسي فرنسي، من مواليد «بورفوار» مقاطعة الايسن- (١٨٥٣- ١٩٤٤). تولى منصب وزير الخارجية في الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وانصرف بعد ذلك للكتابة، فألف كتاب «حياة أو تاريخ الكاردينال ريشليو» كما ألف بعد ذلك كتابه «تاريخ الأمة الافرنسية»

(٢) صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي ـ ص ٦٥ ـ ٧٥.

الواقع دفاع تمليه عواطف كل مسلم، أنى شرق أو غرب، ويفرضها العدو المشترك. فهانوتو- فرنسي ومسؤول. وآشيل معمر فرنسي عاش في الجزائر. وقد عاش الاثنان في فترتين زمنيتين مختلفتين من هذا القرن.

وفرنسا في الفترتين كانت تتطلع بجناحيها إلى كل من آسيا وأفريقيا، ولا تخطو خطوة فيهما إلا وجدت الإسلام يقف لها بالمرصاد. فانكب أصحاب الفكر في عاصمة النور- باريس- على دراسة الأساليب التي يزيحون بها الإسلام عن طريق أطماعهم. أو على الأقل يضمنون تحييده- مسالمته- في زحفهم إلى معاقله. فتولدت فكرة التهجم على الإسلام واستنقاصه، والنيل من تعاليمه، ومن النفوس التي تتسلح به، في وجه الامبراطورية الإفرنسية الزاحفة. فكانت الفكرة تنبعث من باريس لتمتد إلى المستعمرات الإسلامية في القارتين، ترود خطى الأفاقين الزاحفين، وتمهد الطريق بطلائع تبشيرية تحارب في الجبهتين: جبهة تركيز المسيحية، وجبهة تقويض الإسلام، وعلام الذهاب بعيداً، **«فهانوتو» نفسه يقرر بأنه ودولته أصبحا مع الإسلام وجهاً لوجه، ويجب التفكير في أن تكون هذه المواجهة في صالح الاستعمار الافرنسي على حساب الإسلام، وتطرفت النزعة الاستعمارية من جراء الإسلام المتربص لها في يقظة. ومن العجيب أن ينتشر هذا الجنون في وسط «النخبة الافرنسية المثقفة» فيدعو البعض منها إلى نبش قبر الرسول- صلى الله عليه وسلم- في مكة، ونقل جثمانه إلى متحف اللوفر في باريس.**

وتباينت آراء المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام، سلباً وإيجاباً، ليناً وشدة، واختلفت في معاملته كوسيلة، وإن كانت غاية الجميع واحدة، فالمهم: إما أن يستسلم هذا الإسلام للحضارة الأوروبية، ويخلي الميدان لإشعاعها، وإما أن يوطن أكنافه قنطرة من الوثنية الأفريقية إلى المسيحية حتى قال أحد مؤرخي الكنيسة الافرنسية:

«إن الإسلام قنطرة للأمم الأفريقية، ينتقلون بها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الإسلام بالتساهل، بل لا بد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه، وترتيب الأرزاق على المساجد والمدارس، وجعله رائداً لمدنية فرنسا، وآلة نستعين به في فتح البلاد»

وتعبر المقولة السابقة عن «سياسة الهجوم غير المباشر» ضد الإسلام والمسلمين وذلك عن طريق استخدامه مرحلياً لخدمة الأهداف الاستعمارية-الصليبية. ولكن «هانوتو» ومن بعده «آشيل» اختارا أسلوب الهجوم المباشر، وتسلحا بالعداء الصريح، وتصديا في مواجهة سافرة لحرب المسلمين. وإذا كان «هانوتو» قد اغتر ببصيص من الاستشراق ظنه الاشعاع الكافي الذي ينفذ به إلى أسرار الإسلام وغاياته البعيدة، يبعثرها يمنة ويسرة، في عشوائية أبعد ما تكون عن بصيرة العلم الراسخ. فإن «آشيل» قد اغتر بدوره أيضاً بتلك المعرفة السطحية التي اكتسبها من خلال احتكاكه القليل بالمسلمين، ومن خلال بصره الأعشى إلى عقيدتهم

الإسلامية في الجزائر، فاعتقد في نفسه الخبرة الواسعة المخولة للتهجم عليه. وتلك وصمة الاستشراق ولا تزال، يزن المستشرق ثقافته في العربية، بميزان لغته الأصلية فتتجلى له القطرة بحراً ويزكو المأخوذ رغم ضآلته، وتبرر الوسيلة المفضوحة غايات وأطماعاً استعمارية دنيئة، وينتج عن ذلك غرور بالنفس يقود إلى المنعرجات الملتوية.

وإذا كان «هانوتو» و«آشيل» يحملان من الحماسة للحضارة الأوروبية الصليبية ما دفعهما للنيل من الإسلام في عقر داره، وفي مستعمرات دخلوها ظلماً وعدواناً، فإن أبناء الإسلام لن يكونوا أقل منهم حماسة واستماتة في سبيل عقيدة كانت- وستبقى أبداً- الحصن الحصين لهم ضد كل تهجم دخيل. لذلك، لم يعدم «هانوتو» من يجابهه بنفس الصراحة التي هاجم بها، فكان له- الإمام محمد عبده- بالمرصاد، وكال له الصاع صاعين، في بحر ليلة واحدة كتب فيها رده. ولم يعدم «آشيل» من يرد كيده في نحره، فكان له- عبد الحميد بن باديس-. وبين الردين- رغم الفترة الزمنية الفاصلة بينهما- تجاوب أصيل، فهما ينزعان إلى نبع واحد هو الإسلام، نزوع التهجم إلى حمأة استعمارية واحدة، ويمثلان حركة إصلاحية متكاملة، إحداهما صدى للأخرى- صدى عفوي كما سبقت الإشارة إليه- تعززها لحمة توجيهية تصلها بواسطة الكتاب أو المجلة أو الزيارة الخاطفة، توزن بما تحمل من أسرار، لا بما يتسع لها الوقت من الدقائق المعدودة، كتلك الزيارة التي قام بها الإمام محمد عبده للجزائر في سنة ١٩٠٣.

غير أن الأمر الواضح ـ وفي هذا الموقف بالذات ـ أن ابن باديس كان إلى الجرأة أقرب وهو ينازل خصمه. هذا بالرغم من الحرية الفكرية التي توافرت للإمام محمد عبده، وحرم منها ابن باديس. فقد واجه الأخير «آشيل» بوجه سافر، ونشر مقالاته بإمضائه الشخصي الصريح ، واضعاً نفسه أمام المسؤولية مباشرة، غير متخذ من اسم «جمعية العلماء» جنة تحميه، ولا من مجلة «الشهاب» درعاً يتستر وراءه. ولم يلجأ إلى انتحال أسماء مستعارة ؛ في حين نشر الإمام محمد عبده مقالاته ضد «هانوتو» بإمضاء «إمام من أئمة الإسلام» ولم يأذن لصاحب جريدة «المؤيد» التي نشرت له بالتصريح باسمه. وهكذا بالنسبة لكل مقالات محمد عبده في الرد على «هانوتو» التي جمعت في كتاب على حدة سنة ١٩٠٠ ونسبت إلى «عظيم من عظماء الإسلام وإمام من أئمته» وهذا ما أثار رجال الفكر في مصر.

«فقد جزم أكثر أهل العلم والأدب في مصر، أن كاتب المقالات هو الإمام محمد عبده وذكروا له ذلك في مجلس خاص، وتوقعوا أن يتهلل وجهه، ولكنه فاجأهم بقوله ممتعضاً: أنه لا يسوءه ويحزنه شيء كما يسوءه هذا القول، المتضمن لمنتهى ذم قومه وأهل بلده، بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد الذي يجب أن يضطلع به أكثر أهل التعليم. ثم قال: ومن المصائب على المرء أن لا يستطيع الاستخفاء في هذا البلد الكبير، إذا ما أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون شخصه، إذا رأى مصلحة في ذلك». وكانت المصلحة من وجهة نظر الإمام ـ على ما يظهر هي الابقاء على حركته الاصلاحية بعيدة عن سطوة القصر، وجبروت الحكم

العثماني، الذي لم يغفله بدوره، فتعرض له بنقد جارح في معرض رده على «هانوتو».

أما ابن باديس، فقد عاش التجربة في الجزائر، بأقسى مما عاشها محمد عبده في مصر. فقد نازل ابن باديس عدواً مجاوراً له، وملاحقاً منه، يملك من السطوة والسلطة والتأييد الرسمي ما يستطيع أن يمد به يد الإساءة اليه. فلم يستنكف الشيخ عن الصراحة السافرة. ولا تقاعس عن المجابهة المباشرة. بينما كانت يد «هانوتو» في باريس تقصر عن أن تمتد إلى الشيخ محمد عبده في مصر بسوء، ولو عن طريق غير مباشر، طريق الخديوي أو المعتمد البريطاني.

* * *

برزت بعد ذلك ظاهرة أكثر إثارة في الموضوع، فقد أقبل الشاعر أحمد شوقي على دعم الإمام محمد عبده وامتداح رده على «هانوتو». غير أن شوقي فعل كما فعل الشيخ محمد عبده، فلم يصدر قصيدته في مدح إجراء محمد عبده باسمه- وبصورة صريحة، وصدرت بعد ذلك في ديوان «الشوقيات المجهولة». وبالإضافة إلى ذلك، فقد تميزت قصيدة أحمد شوقي هذه ببرودة العاطفة، وضعف الروح الشاعرية التي اشتهر بها أمير الشعراء. وقد يكون السبب في ذلك- والذي دفعه إلى التنكر في نشر القصيدة باسمه- هو معاناته من الصراع بين الرغبة في إرضاء القصر الذي كان ينظر إلى الإمام محمد عبده بكثير من الحذر، وبين الشعور بالواجب لإنصاف الإمام والدفاع عنه ودعمه.

وعلى النقيض من ذلك فقد وقف شاعر الجزائر محمد العيد، خلف الشيخ عبد الحميد بن باديس، واشترك معه في الهجوم على آشيل بقصيدة مميزة بصدق العاطفة والإحساس النابض بالحياة. ولعل مجرد قراءة أولية للقصيدتين[1] كافية لتقويم موقف الرجلين من الحدث الواحد.

هنا لا بد من القول: بأن طبيعة المعركة التي خاضتها الجزائر قد اكسبتها من القسوة ما انعكس على موقف بـن باديس ومحمد العيد، لقد كانت معركة حياة أو موت، معركة حاضر ومستقبل، عاشتها الجزائر المجاهدة بكل آلامها ونوائبها ومعاناتها، فكان الموقف الرائع لابن باديس والشاعر محمد العيد.

---

(١) انظر قراءات في آخر هذا الكتاب.

٢ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ومضت الأيام والشهور والسنين، بعضها آخذ برقاب بعض، والشيخ عبد الحميد بن باديس يخوض معركة المصير على كافة الجبهات، وفي كل الميادين، من صراع ضد السلطات الاستعمارية وأعوانها إلى صراع ضد الانحرافات المذهبية، ومن معركة للرد على أعداء الدين في الخارج إلى معركة أخرى ضد ظواهر الضعف والتمزق في المجتمع الجزائري المسلم، كل ذلك والحرب مستمرة على أشدها بين الطرقية التي انتقلت من مواقع الهجوم إلى مواقع الدفاع في محاولة للدفاع عن وجودها ومصالحها، غير مدركة في الحقيقة أين تكمن مصلحتها الحقيقية بعد أن أفسدها الاستعمار. وكان هذا التحول برهاناً أكيداً على انتصار حركة الاصلاح الإسلامي التي كان يقودها بعزم رائع وإرادة صلبة،وإيمان عميق وحجة دامغة وعلمغزير، الشيخ المجاهد عبد الحميد بن باديس، ومن وقف إلى جانبه في ساعة العسرة من المؤمنين الصادقين أمثال: العالم الجليل مبارك الميلي والشيخ الطيب العقبي والشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي

والشيخ أحمد توفيق المدني وسواهم. **وكانت هذه الحركة تدعو في مجموعها إلى أفكار المصلح الإسلامي الأكبر، شيخ الإسلام «ابن تيمية». واتخذت «مجلة الشهاب» شعاراً لها قول الإمام مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «لايصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».**

إكتسبت الحركة الاصلاحية الإسلامية قدرتها وقوتها من خلال الصراع المستمر، ومن خلال تجاوزها للتحديات المتتالية، وعبر تحركها اليقظ والحذر على طريق التقدم والتطور. وهكذا فما أن مضت فترة عشرين سنة تقريباً حتى أصبحت جذور الحركة عميقة، وأصبح لها قاعدتها الصلبة وبات بالمستطاع الانتقال من التحرك الفردي إلى التحرك الجماعي المتكامل، ومن العمل السري ـ إذا صح التعبير ـ إلى العمل العلني، ومن الجهد غير المنظم الى الجهد المنظم. وكان من نتيجة ذلك أن تداعى المخلصون المؤمنون لتدارس الموقف، فتقرر توجيه دعوة للعلماء من أجل الاجتماع في نادي «الترقي» لتحقيق هدف محدد وواضح تضمنته بطاقة الدعوة وفيها: «جمع العلماء من كل الطوائف ومن كل المذاهب الموجودة بالجزائر حتى تمثل وحدة وطنية صميمة. ومعالجة ما تجابهه البلاد من تصادم بين الفكرتين الأساسيتين وهما: الاصلاح والطرقية. فكما أن رجال الاصلاح الإسلامي يكونون ولا ريب في طليعة هؤلاء العلماء، إلا أنه يجب أن يكون ضمن العلماء ايضاً رجال من الطرقية. فداخل هذه البوتقة الصالحة يجب أن ينصهر الجميع، ويخرج منها الشعب الجزائري الأصيل، شاباً، صالحاً، عملاقاً... إن الواجب يقضي بإقامة

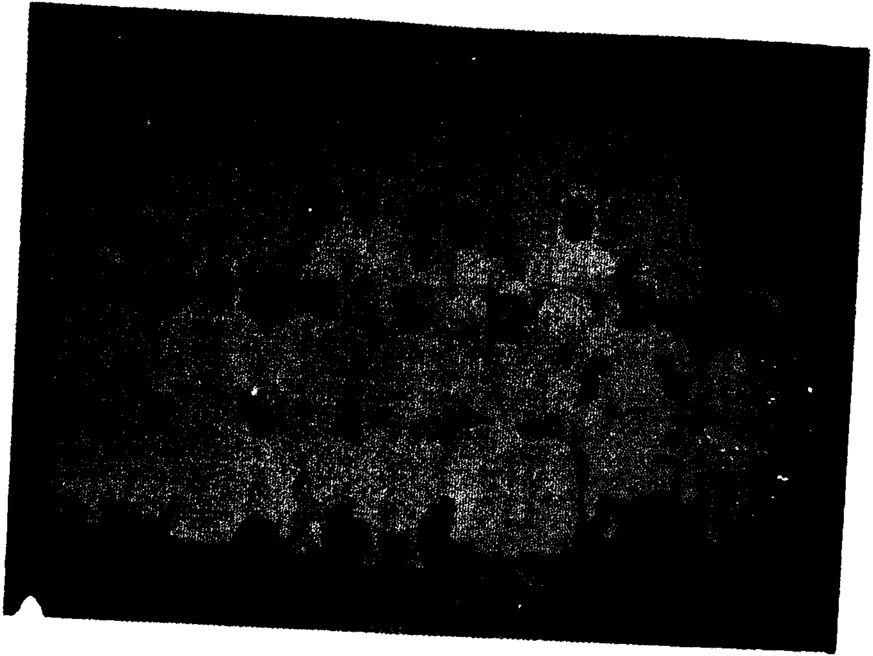

من أعضاء المجلس الاول
لجمعية العلماء المسلمين
الجزائريين الشيوخ: - 1 -
عبد الحميد بن باديس - 2- محمد
البشير الابراهيمي - 3 - مبارك
الميلي - 4- العربي التبسي - 5 -
ابراهيم أبو اليقظان - 6- الأمين
العمودي - 7- يحي حمودي - 8-
محمد خير الدين - 9 - الطيب
العقبي 10- السعيد الزاهري.

جمعية للعلماء المسلمين الجزائريين واجبها معالجة حالة المجتمع الإسلامي المهلهل في الجزائر، والذي لا تقوم قائمة البلاد إلا بإصلاحه على أسس مطهرة، مع احترام كل المذاهب وصيانة كل المبادىء التي تعارض الإسلام».

لقيت الدعوة استجابة قوية وعميقة من قبل العلماء وجماهير المسلمين على السواء، كان ذلك في منتصف عام ١٩٣١، «وكانت أيام حياة جديدة، مشرقة، باسمة، تنتظر حادثاً هو أسعد حوادث الجزائر وأكثرها نوراً وإشراقاً وسط الأعاصير والأهوال. وكان الأمر الرائع حقاً هو أنه لم يدخل أي واحد من العلماء أو المدعوين أي اعتبار لرد فعل الحكومة. لقد تجاهلت فرنسا الجزائريين لمدة مائة عام- ولم تتذكرهم إلا بالسوء- فماذا لو تجاهلوها بدورهم، ولتفعل بعد ذلك ما تشاء»[1].

اتخذ العلماء المجاهدون كافة الترتيبات لنجاح انطلاقة الجمعية في مراحلها الأولى: «فالطريق وعرة المسالك مزلقة، فإذا ما أصاب المشروع عطب في الطريق، تكون الأمة قد أصيبت بنكسة شديدة، ربما فقدت معها أملها» وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة الى (١٢٠) عالماً من علماء الجزائر الذين اشتهروا باستقامتهم وإخلاصهم لعقيدتهم، ونقاء سيرتهم. ووافق (١٠٩) منهم على المشروع. وحدد موعد الاجتماع، ومكانه «نادي الترقي»، وانصرف ابن باديس والإبراهيمي والميلي والمدني لإعداد قائمة أعضاء المجلس الإداري.

---

(١) حياة كفاح أحمد توفيق المدني - ٢/ ١٧٥ و ١٧٨ - ١٨٢ و ١٨٦ - ١٨٨

وعندما عرضت رئاسة المجلس على الشيخ ابن باديس، امتنع عن قبولها لأسباب خاصة- منها وجود والده وإخوته كموظفين في الإدارة الإفرنسية- غير أن إلحاح العلماء وإصرارهم على مبايعته حمله على قبول هذه الرئاسة. وجاء يوم الاجتماع، وكان يوم عيد لم تشهد الجزائر قبله عيداً لها منذ قرن من الزمن. كانت الأرواح طاهرة، والنفوس مطمئنة مؤمنة، والقلوب مفعمة بحب الخير والإصلاح. وكان الجو جو ثورة عارمة: تقوم اليوم على الإصلاح، وتقوم غداً لا محالة على السلاح.

«ووقف- عبد الحميد بن باديس- عظيماً، هائلاً، شامخاً كالطود الأشم، وقد هيمن بشخصيته الفذة وبساطته المثالية وتواضعه الجم، على ذلك الاجتماع، وقد أعجب به خصمه كما أعجب به أصحابه ومريدوه. وما هي إلا جولة من الأحاديث البسيطة والخطب الهادفة والمركزة، حتى جاء دور انتخاب الهيئة الإدارية التي صادق عليها كبار العلماء. ففازت بإجماع الحاضرين. وتمت المصادقة على القانون الأساسي بإجماع مماثل. وأصبح ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائرين».

هكذا نشأت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين». ولم تعرف الحكومة الافرنسية كيف تجابه هذا الموقف الجديد، واكتفت في البداية بالاشارة إلى الحدث؛ فكتب «جون وكشان» في مجلة «فرنتيار» الباريسية يقول تعليقاً على جمعية العلماء ومساعيها، بعد أن تكلم عن شخصيات ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، ما يلي: «إن هؤلاء الثلاثة قد تعلموا بالشرق، فابن

باديس بتونس، والعقبي بالقاهرة ومكة، والإبراهيمي بتونس ودمشق، وتشبعوا جميعاً بفلسفة الوحدة الإسلامية فكانوا من أقطابها. إنما علينا أن نضيف إليهم الشيخ أحمد توفيق المدني- أحد قدماء الزعماء الدستوريين المليين والذي هو على علاقة متينة جداً مع الأمير الشهير شكيب أرسلان زعيم جماعة السوريين والفلسطينيين، وعدو فرنسا الألد».

وكتب «شارل روبير»[1]: «تأسست جمعية للعلماء المصلحين منذ سنة ١٩٣١، وضمت ثلاثة عشر عالماً، من بينهم مبارك الميلي وتوفيق المدني، وهما أول من ألف في التاريخ الوطني الجزائري باللغة العربية. وهكذا ولدت الملية الجزائرية. فكتاب التاريخ الوطني الذي ألفه الشيخ المدني،وهو كتاب«الجزائر- ١٩٣١ - » الذي طبع على نفقة الأمة الجزائرية. كان كتاباً يحمل على غلافه شعار جمعية العلماء، الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا. وخلقت في الجزائر كلمات تحمل معاني جديدة في اللغة العربية، مثل كلمة وطن وكلمة الشعب وكلمة الأمة الجزائرية. وهذه الملية الجزائرية الجديدة مثلها كمثل كل الحركات الملية في بلاد الشرق الأدنى، متصلة اتصالاً وثيقاً بالحركة العربية الإسلامية التي انطلقت من مؤتمر القدس الأول الذي عقد سنة ١٩٣١».

لم تقف الإدارة الافرنسية في الجزائر مكتوفة اليدين أمام هذا

---

(1) histoire de l'algérie contemporaine(CH, Robert ,ageron) que sais je ? no 400 p. 88

التحول، فأخذت ـ على عادتها ـ في الدس لجمعية العلماء المسلمين والكيد لها. وجاءتها فرصة مؤاتية عندما تصدى الشيخ الطيب العقبي ـ في درس من دروسه الاسبوعية ـ للهجوم على الطرق والطرقيين. وكان القاسمي والشيخ بن عليوه وهما من كبار مشايخ الطرق حاضرين، فانسحبا. وانفصل شيوخ الطرق عن الجمعية وأخذوا في العمل لتأليف جمعية (علماء السنة). واغتنمت الإدارة الاستعمارية تلك الفرصة، فعملت على مساعدة الجماعة على تنظيم جمعيتهم، وأعانتهم بواسطة رجالها على بث دعاياتهم، وما فتئت الحرب القلمية أن أعلنت شديدة قاسية بين الطرفين. تمثل جماعة العلماء فيها جريدة «المرصاد» التي كان يحررها محمد عبابسة. وتمثل جماعة المرابطين ورجال الطرق جريدتهم المعروفة «البلاغ الجزائري». وارتاحت الإدارة الافرنسية إلى أنها تمكنت بهذه الوسيلة من خلق انشقاق خطير سيأتي على جمعية العلماء. غير أن الطبقة الواعية في «جماعة العلماء» تمكنت من «رأب الصدع» وإيقاف المهاترات و«الحرب الكلامية» ومضت على طريق العمل والبناء.

جاء تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ليضع حداً فاصلاً وحاسماً بين ماضي الجزائر، وهي تحت النير الاستعماري، وبين حاضرها الذي أشرق زاهياً في ميدان النهضة الإسلامية ـ العربية. ولقد كان ذلك الحاضر الجديد هو الأساس الراسخ المتين الذي بني عليه المستقبل، مستقبل الجزائر تحت راية الحرية والاستقلال، وبسيل من دماء المجاهدين الأبرار وقوافل الشهداء الأخيار.

كان تأسيس جمعية العلماء حدثاً تاريخياً لأنه عمل على تنظيم تيار جارف أمكن له تغيير أوضاع الجزائر دينياً وعلمياً وأخلاقياً واجتماعياً. وكانت تبث في كل وسط وفي كل مكان، روح الإيمان الخالص والوطنية الحقة وأخلاق الفضيلة والرجولة الكاملة. فتبعث في نفس المسلم الجزائري كل ما حفل به الإسلام من فضائل معنوية تدفع إلى العزة بالله والقوة بالاعتصام بدينه الحق. وانتهت، بتأثير جمعية العلماء، كل نظريات الاستعمار بشأن التجنس ونبذ الدين وأحكامه مقابل الحصول على حقوق وهمية. وانقاد النواب السياسيون- طوعاً أو كرهاً- إلى ما أصبح يطلق عليه شعار «الحصول على الحقوق الافرنسية، دون التنازل عن الحالة الشخصية الإسلامية».

وتحول هؤلاء النواب السياسيون، فبعد أن كانوا حتى الأمس من دعاة التجنس بالجنسية الإفرنسية- التفرنس- باتوا اليوم وهم يرفعون مطالبهم الفردية والجماعية باستقلال الدين الإسلامي عن الحكومة. وبإدخال اللغة العربية بصفة إلزامية- إجبارية- ضمن المناهج الدراسية. وتعاظم الوعي الديني في أوساط الجماهير. وأحبطت أساليب الطرقية وبدعها وأساطيرها. واتجه التيار الإسلامي نحو فهم الدين فهماً حقيقياً بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وظهرت في الجزائر من جديد الاخوة الحقيقية التي تربط المسلم بأخيه المسلم. وتوثقت عرى أخوة الإصلاح الإسلامي الذي شاركت فيه كل العناصر، واعتنقته كل الطبقات في كل الحواضر والبوادي.

* * *

جانب من قاعة النادي أثناء اجتماع العلماء المسلمين في الجلسة الاولى: 1 ـ مبارك الميلي ـ 2ـ عبد القادر بن زيان ـ 3 ـ العربي التبسي ـ 4 ـ الأمين العمودي ـ 5 ـ عبد الحميد بن باديس ـ 6ـ الطيب العقبي ـ 7ـ محمد سعيد ايت جر ـ 8ـ محمد خير الدين ـ 9 ـ السعيد الزاهري ـ 10ـ يحي حمودي ـ 11ـ عبد اللطيف سلطاني ـ 12 ـ الجيلالي الفارسي.

بات من المحال فصل الدين عن السياسة. فالمطالب السياسية تعبير عن تطلعات الجماهير . والجماهير تعتمد في قاعدتها على العقيدة الإسلامية وعلى العروبة، والسلطة الافرنسية تلقي بكل ثقلها لمحاربة الإسلام والعروبة. وكان لا بد في النهاية من حدوث الصدام الذي تم التعبير عنه باستقالة (٩٥٠) نائباً جزائرياً مسلماً بصورة إجماعية من كل المجالس البلدية والمالية والنيابية التي يشغلونها، ووقف الاستعماريون الافرنسيون لمواجهة التيار وشعارهم: «إن كل ما يناله المسلم الجزائري ينتقص من حقنا. فالجزائري محكوم. وعليه أن يطيع النظام».

وعلى أثر ذلك، جاء وزير الداخلية الإفرنسي- رينيه- لزيارة الجزائر[1]: وضرب المستوطنون والإدارة الافرنسية نطاقاً حوله، فلم يسمحوا له الاتصال بممثلي الجزائر، وأوهموه أن الجزائر تسير على طريق الثورة. فطرح مقولته: (الأمن قبل كل شيء). وعاد إلى فرنسا بعد أن أصدر قانوناً زاجراً يستطيع أن يلهب جلد كل مجاهد جزائري، مهما كان لونه، بسوط من حديد. وأخذت وطأة الإرهاب تتزايد ثقلاً وشدة، وأخذ العنف يزداد غلواً كلما أمعن المسلمون في الشكاية. وجاءت سنة ١٩٣٦، ونجح في الانتخابات الافرنسية تكتل الشمال الذي ضم الراديكاليين والشيوعيين والاشتراكيين. وتشكلت (حكومة الجبهة الشعبية) برئاسة (ليون بلوم).

قابل المسلمون ذلك بحركة شعبية واسعة، وعقدوا مجموعة من

---

(١) جرت هذه الزيارة في صيف سنة ١٩٣٥.

اللقاءات والاجتماعات انتهت باتخاذ قرار لعقد مؤتمر عام لأول مرة في تاريخ الجزائر، يضم النواب كافة والشيوعيين ومناضليهم والمسلمين ومجاهديهم وجماعة من العلماء باسمهم الخاص، لا بصفتهم أعضاء بجمعية العلماء. وتبنى النواب أمام هذا الإجماع الرائع مطالب «جمعية العلماء». واجتمع المؤتمر يوم ٧ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٣٦. وتقرر بالإجماع إسناد الرئاسة للشيخ ـ عبد الحميد ابن باديس ـ احتماء بمركزه الديني وقيمته العلمية وسمعته العالمية. ثم طرحت المشاريع، واتفق الجميع على أن تكون المطالب كالتالي:

١ ـ إلغاء كل القوانين والقرارات الاستثنائية بالجزائر.

٢ ـ إلغاء الولاية العامة للجزائر، وأن تكون الجزائر تابعة لفرنسا مباشرة.

٣ ـ أن تكون الهيئة الانتخابية بالجزائر واحدة، يشترك فيها المسلمون والأوروبيون، (وبذلك تكون النسبة الكبرى للمسلمين وفقاً لعددهم).

٤ ـ أن يكون للمسلمين الجزائريين نوابهم الذين يمثلونهم بالبرلمان الإفرنسي ـ بباريس.

٥ ـ أن يكون الجزائريون فرنسيين بصفة تامة، مع بقائهم متمتعين بالحقوق الشخصية الإسلامية.

٦ ـ الإستقلال التام للدين الإسلامي، كاستقلال الأديان الأخرى، والإنفاق عليه من أموال الأوقاف المسترجعة التي

اغتصبتها فرنسا منذ أوائل عهد الاحتلال.

٧ ـ اعتبار اللغة العربية لغة دراسة بالمدارس الجزائرية. كما تقرر إرسال وفد كبير لباريس. يتدارس مع حكومتها هذه المطالب، وفي الوفد رجال الشعب من علماء ونواب ومفكرين، برئاسة عبد الحميد بن باديس.

* * *

٣ـ مدافع الله ونهاية رحلة العمر

سافر الوفد الوطني الجزائري برئاسة عبد الحميد بن باديس إلى فرنسا، ليطلب من حكومة «دلادييه» تنفيذ مرسوم ٢٧ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٠٧، القاضي بفصل الدين عن الدولة، بالإضافة إلى بقية المطالب التي سبق عرضها. وجرت مناقشات في هذا الصدد أظهر فيها الشيخ عبد الحميد تمسكه بما تم الاتفاق عليه من مطالب ـ تمثل الحد الأدنى لتطلعات الجزائريين المسلمين. **وعندئذ حاول «دلادييه» إرهاب الشيخ عبد الحميد، فقال له: «لدى فرنسا مدافع طويلة» فرد عليه الشيخ عبد الحميد: «يوجد لدينا مدافع أطول». وعندما تساءل «دلادييه» عن نوع المدافع التي يملكها الجزائريون، أجابه ابن باديس بكل حزم ورباطة جأش: «إنها مدافع الله».**

وبعد ذلك، تدخل «ليون بلوم» فاقترح مقابل مطالب المسلمين المرفوضة، توسيع دائرة الناخبين الجزائريين ضمن الهيئة الانتخابية الافرنسية بالجزائر، وذلك بإدخال (٢١) ألفاً من النخبة

ضمن الافرنسيين الذين كان عددهم (٢٠٢,٧٥٠) ناخباً. لكن النواب الافرنسيين احتجوا وأعلنوا أنهم يستقيلون جميعاً إذا ما تم هذا الإجراء. وتبعهم عمداء المدن (محافظوها) فأعلنوا مثل ذلك. وتمخض جبل الحكومة الافرنسية عن ولادة فأر هزيل: رفع عدد نواب المسلمين بمجلس النيابات المالية من ٢١ نائباً مسلماً، الى ٢٤ نائباً مسلماً مقابل (٤٨) نائباً فرنسياً. وقال «مسيو سارو» وزير الداخلية الافرنسي، تعليقاً على تهديد المستعمرين: «أشهد أنه ليس لهؤلاء السادة لا وطنية ولا ضمير ولا فكر».

عاد الوفد الجزائري إلى الجزائر وهو يحمل خيبة أمل مريرة، وأنشد عبد الحميد قصيدته الرائعة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ومضى الشيخ عبد الحميد في توجيه قادة الجزائر وشبابها نحو المخرج الحقيقي: «لا تتغير السياسة الاستعمارية بالجزائر، عن طريق وفود تذهب إلى فرنسا، ولا بلجان تبعثها الحكومة العليا - حكومة باريس- إلى الجزائر. ذلك أن حكومة الجزائر الاستعمارية أقوى من حكومة فرنسا ذاتها هنا... فلا تغيير لوضع تريد بقاءه في الجزائر. فالوفود إذن لا تستطيع أن تغير شيئاً، ولكن الشعب الجزائري هو الذي يستطيع أن يغير كل شيء، **ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة، وأدرك وجوب تسيير شؤونه بنفسه، وأخذ يضع كل شيء موضعه، لم يجد أين يضع الاستعمار إلا حيث توضع الأطمار البالية**».

واستمر عبد الحميد في نفخ رماد الحرية، مردّداً مقولته المعبرة عن استيائه من أن يرى الاستعماريين وهم يحتفلون كل عام بعيد حريتهم (عيد الثورة الافرنسية ١٤ تموز- يوليو- ١٧٨٩) لا في فرنسا وحدها، وإنما في كل وطن تستعمره فرنسا. في حين كان وطنه ومواطنوه محرومين من هذه الحرية ، فكانت مقولته الرائعة: «**أيتها الحرية المحبوبة! يا من تحتفل بأعيادك الأمم، وتنصب لتمجيدك التماثيل، ويتشادق بأمجادك الخطباء، ويتغنى بمحاسنك الشعراء، ويتفنّن في مجاليك الكتّاب، ويتهالك من أجلك الأبطال، وتسفك في سبيلك الدماء، وتدكّ لسراحك القلاع والمعاقل، ولكن أين أنت في هذا الوجود؟ كم من أمم تحتفل بعيدك وقد وضعت نير العبودية على أمم وأمم... وكم من قوم نصبوا لك التماثيل في الأرض وقد هدّموك في القلوب والعقول والنفوس، فأين أنت أيتها الحرية المحبوبة في هذا الورى؟ أنت أنت الحقيقة الخفية، خفاء حقيقة الكهرباء. أنت أنت الروح السارية في عالم الأحياء. ولئن خفيت بذاتك، فقد تجلّيت على منصة الطبيعة في بسائط الأرض وأجزاء السماء. فأبصرتك عيون اكتحلت بأثمد الحقيقة. واقتبست منك عقول صقلت بالعرفان. واحتضنتك صدور أنيرت بالإيمان، وتذوقتك نفوس ما عبدت إلا الله، وخدمك قوم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.. آه.. آه.. أيتها الحرية المحبوبة. واشوقاه إليك، بل واشوقي إليهم ـ حملة الحرية ـ المحيا محياهم، والممات مماتهم، أنقذ الله بهم بلادك واحيا عبادك. إننا أعداء أعداء الحرية، وأحباب أحبابها، سواء كانوا من أهل البرانيط، أو من**

كانوا من أهل البرانيط، أو من أهل البـرانيس»[1].

إنها دعوة إلى الثورة، ونداء إلى حمل السلاح والاحتكام إليه. غير أن الدعوة مفتوحة، والنداء مؤجل. فلا زالت أرضية الثورة غضة، ولا زالت ظروفها الدولية والمحلية غير مؤاتية. وإذن فليستمر العمل لإنضاج الثورة على نار هادئة. وهذه النار الهادئة هي تطوير الفكر الثوري بالعلم والمعرفة، حتى لا تضيع التضحيات سدى، وحتى لا تسيل الدماء هدراً. وعلى هذا يمضي ابن باديس، محدداً للمفاهيم الصحيحة، مقوماً للأفكار الخاطئة، مهاجماً للآراء المستوردة أو المدسوسة والتي يمكن لها تشويه البناء الثوري.

ويتحدث ابن باديس عن «العروبة» فيلمس فيها المقومات التي تهبها الخلود، مهما تلبدت الظروف السياسية مِن حولها، واختلف العرق بالمنضوين تحت لوائها. العروبة جوهر خالد، قابل للانبعاث، باعث للأمل. العروبة حقيقة تطفو فوق الملابسات المضللة أو تزييف المستعمر. العروبة نهاية المطاف، مهما طال الشوط، وغاية الغايات مهما تصارعت الوسائل. إن الظروف العصيبة التي عاشتها الجزائر، فكادت تطمس فيها معالم الإسلام والعروبة، لم تزد المصلح الكبيرـ وهو يعيشهاـ إلا تعلقاً بالمرامي البعيدة التي تعامى عنها الدخيل. وإيماناً بالغد العربي الأكبر الذي كفر به المستعمر، وكاد يكفر به المواطن.

---

(١) جريدة «المقاومة الجزائرية» نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧.

(العرقية) التي يذكيها المستعمر في كل شبر عربي ليمزق بها العروبة والإسلام.

(الطائفية) التي يغذيها ليغذي بصراعها وجوده وتسلطه، هي ذاتها التي ينطلق منها۔ ابن باديس۔ حجة على المستعمر وفلسفته، ومنها ذاتها يصبغ العروبة بصبغتها الأصيلة التي تتنزه عن العرقية وتتعالى على الطائفية۔ وها هو يقول:

«تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد. فليس الذي يكون الأمة، ويربط أجزاءها، ويوحّد شعورها، ويوجهها إلى غايتها، هو هبوطها من سلالة واحدة. وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد. ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان. وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر، وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً۔ مثلاً۔ ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم۔ قالها سنة ١٩٣٦».

ولا يذهب۔ ابن باديس۔ بعيداً في التماس الحجة وإثبات الدليل، فواقع المستعمر حجة عليه: «وإذا نظرت إلى كثير من الأمم الأوروبية اليوم، وفي مقدمتها فرنسا، فإنك تجدها خليطاً من دماء كثيرة، ولم يمنعها ذلك من أن تكون أمة واحدة لاتحادها فيما تتكوّن به الأمم۔ سنة ١٩٣٨». والمصلح العربي الجزائري، يستمد تأييده للعروبة من منابعها الأصيلة، ويستلهم فيها رسولها محمد صلى الله عليه وسلم، ويلتزم بذلك في الحديث النبوي

الذي ربط العروبة بالدين واللغة: **«أيها الناس، الرب واحد، والأب واحد، والدين واحد، وليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم، ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»**.

وما كانت هذه الصرخة التي انبرى لها رسول الله، مغضباً يجر رداءه، ونادى لها «الصلاة جامعة» إلا رداً حاسماً على التطرف العرقي في (قيس بن مطاطيه) الذي أراد حرمان سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي من شرف العروبة. فيضيف ـ ابن باديس ـ قوله: «كون رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل. فلم يكوّنها لتستولي على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المستولين على مقدرات العباد باسم الملك أو باسم الدين. ولم يكوّنها لتستخدم الأمم في مصالحها، ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد إلى درجات العز والصلاح والكرامة. وبالجملة لم يكوّنهم لأنفسهم بل للبشرية جمعاء».

ويعود ابن باديس، فيطلق لسانه بالدعاء الصاعد من أعماق نفسه، مبتهلاً الله في أن يحييه لخدمة العروبة، وأن يميته في خدمتها، مقتفياً بذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: **«هذا هو رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية، الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون وخُدع المخدوعون واضطرب المضطربون ـ سنة ١٩٣٦»**.

ركّز الاستعمار الافرنسي هجومه على اللغة العربية لضرب المسلمين بعضهم ببعض، وعزل الذين يتحدثون اللغة البربرية- المازيغية- واتخاذهم بطانة له وأعواناً لتنفيذ سياسته- وقد سبق عرض هذه السياسة بشيء من الإسهاب-. وتصدى- ابن باديس- لهذه الحملة الفاسدة المفسدة، ودأب عمره، يصل الليل بالنهار لبعث الجزائر العربية المسلمة. وقد دخل الميدان الإصلاحي والإسلام ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، والعروبة لا يكاد يرتفع لها صوت في ديار الجزائر. فرابط في واجهته «بالجامع الأخضر» مرابطة الجندي المجهول. وآمن بالأبعاد التي عشيت عنها فلاسفة الاستعمار، حتى أعاد شعبه إلى سواء السبيل، وأنقذه في الوقت المناسب، مما كان يراد له من تشتّت وفناء، وقال في ذلك: «لو جئنا- شعبنا- بعد عشرين سنة لما أدركنا فيه قابلية للعلاج. ولكن الله أراد خيراً بهذا الشعب، بعث فيه من آمن بنشوره، بعد إيمان الكثير بموته».

لقد كان- ابن باديس- على موعد مع قدره، وكان قدره هو قدر شعبه، فمضى بجولته من الصفر، بل من الصفر المركب. فلم يكن هناك كفر، ولكن إسلام مشوّه. لم يكن هناك جهل فحسب، بل ثقافة دخيلة مسمومة. لم يكن هناك شعب ألقى حبله على غاربه. ولكن، كان هناك الشباب الجاهل فقط، الشباب المشوّه الثقافة واللسان، المفصول عن تاريخه وحضارته، والمتصل- بانقطاع تاريخي- مع الرومان والغول أجداد الافرنسيين. مما كان يروّجه دهاقنة الاستعمار ومبشروه. فوقف ابن باديس ليؤكد أصالة الجزائر في عروبتها، وأصالة العروبة في

جزائر المسلمين، وأطلق مقولته:

«لقد تعرّبت الأمة الجزائرية تعرباً طبيعياً، اختيارياً، صادقاً، فهي في تعربها نظيرة إسماعيل جد العرب الحجازيين. فقد كان من العرب لما شبَّ في مهدهم ونطق بلسانهم، وتزوّج منهم، وليس تكون الأمة بمتوقف على اتحاد دمها. ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها، اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال» سنة ١٩٣٨.

تلك هي الأرض الصلدة التي نهض لها- ابن باديس- يبذر فيها بذور الخصوبة والنماء، وذلك هو المسلك الوعر الذي شقّ فيه طريقه، وتلك هي نقطة الانطلاق لنهضة، ابتدأت بذرة في أرض موات، فغدت أصلها ثابت وفرعها في السماء. ابتدأت حبوة علمية في «جامع سيدي قموش» وانتهت احتفالاً شعبياً بختم تفسير القرآن الكريم في (كلية الشعب) بقسنطينة. وابن باديس، متمسّك في مسيرته الشاقة بثلاث دوائر متداخلة متشابكة لا تعرف الانفصام ولا التجزئة، ولا تكتمل الصورة إلا بها جميعاً، ودون طغيان من إحدى هذه الدوائر على الدوائر الأخرى، أو توسع بعضها على حساب البعض الآخر، وهذه الدوائر هي: الجزائر والعروبة والإسلام (أو بترتيب معاكس سيان في ذلك طالما أنه ضمن تحقيق التوازن فيها). فهو إذ يقيم نهضته، يقيمها بمقدار ما أعطى لهذه الدوائر الثلاث من تلاحم ثابت ودائم. و(عروبة الجزائر) عند باعث نهضتها، ليست عروبة خطابة أو تهريج، أو حماسة جوفاء، إنه وهو يذكّيها بأنفاسه الملتهبة، ويرويها من عرقه المتصبّب

ويرعاها العشرات من السنين، يعطيها من الدراسة النظرية حقها، ويستمد لها من التاريخ العميق أصالتها. ويواجه أعداءها المتنكرين أو الناكرين لها، مواجهة الحجة بالحجة، ويقف من عروبة الجزائر موقفه من العروبة عامة. لا ينكر ما أثبته التاريخ من- أصل مازيغي- لسكان الجزائر القدماء. لأن العروبة الإسلامية فوق السلالات: «ما من نكير أن الأمة الجزائرية كانت مازيغية من قديم عهدها، وأن أمة من الأمم التي اتصلت بها، ما استطاعت أن تقلبها عن كيانها، ولا أن تخرج بها عن مازيغيتها أو تدمجها في عنصرها وفي عصر ظهورها، بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها، ويصبحون كسائر أبنائها... **فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية لا لبسط السيادة، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام، وتعلّموا لغة الإسلام العربية، طائعين، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتحة في وجوههم، فامتزجوا بالمصاهرة. وثافنوهم في العلم، وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش. وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية، يعربون عنها، وينشرون لواءها بلغة واحدة هي : لغة القرآن.** فاتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة. فأصبحوا شعباً عربياً واحداً، متحداً غاية الاتحاد، وممتزجاً غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد، واتحَدَ اللسان:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده

فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

واليوم، فإن اللغة العربية والآداب العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلها، لا يجهلها إلا عدد قليل من المنقطعين في بعض رؤوس الجبال. ولا تستعمل اللغة المازيغية إلا في بعض النواحي القليلة استعمالاً شفاهياً محلياً. ثم اللغة العربية هناك لغة الكتابة والخطابة والتعليم والتخاطب العام.

ولو رأيت «الجامع الأخضر» في قسنطينة، لرأيت أبناء الجزائر من جميع جهاتها، وفيهم من يتقنون المازيغية، يتزاحمون على مناهل العربية العذبة، ويتسابقون إلى الفوز في ميادين بيانها الفسيحة، ويتعاونون على بناء صرحها، ورفع منارها، ويستعذبون في سبيل المحافظة على تراثهم منها كل مر. ويستسهلون في سبيل تبليغه لغيرهم كل صعب. لو رأيت هذا لعرفت كيف كانت هذه الأمة الجزائرية أمة عربية واحدة، فحكمت بالجهل المطبق، أو الكيد المحقق على كل من يقول فيها غير ذلك».

ويستمد- ابن باديس- الحجة التي تبكت المستعمر، من واقع المستعمر ذاته، ليدحض دعوى البربرية التي تحدوه، ويشنع عليه احتجاجه بحالة في الجزائر، وتغافله عن مثيلة لها في فرنسا. فيفضح فيه التزييف المتعامي، والمغالطة المضللة: «تشكل فرنسا أمة واحدة... وعلى الرغم من ذلك، فإنك تجد في قرى من دواخل فرنسا وأعالي جبالها، من لا يحسن اللغة الافرنسية، ولم يمنع ذلك القليل- نظراً للأكثرية- من أن تكون فرنسا أمة واحدة.. وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا، يتعامى الغلاة المستعمرون

عنها هنا في الجزائر. ويحاولون، بوجود اللغة المازيغية في بعض الجهات وجوداً محلياً، وجهل عدد قليل جداً بالعربية في رؤوس بعض الجبال، أن يشكّكوا في الوحدة العربية للأمة الجزائرية، التي كوّنتها القرون وشيّدتها الأجيال- سنة ١٩٣٨».

ولم يتجن- ابن باديس- بقوله هذا على الواقع الجزائري، بل نقله نقلاً أميناً صادقاً، فلم تُفرض اللغة العربية على الناطقين بالمازيغية. ولكنها نبعت من قلوبهم، وفجرها الإسلام، فلا بدعة أن يقف الفتى الزواوي- با عزيز بن عمر- ليقول عن العروبة: «وإننا لنشعر من قبل ومن بعد، بدم العروبة يجري في عروقنا، وهو صاف لم يمازجه كدر وان اختلف المظهر. ونسمع صوتها الحنون يرن في آذاننا. فنفتح له الطريق إلى قلوبنا وأعماقنا. فالعربية حية فينا. ونحن أحياء فيها ما دامت السموات والأرض».

إن (عروبة الجزائر) عروبة تاريخ وحضارة، لها أيامها المجيدة، ودولها العريقة، ولن يقوم أمر الوطن الجزائري إلا بها، و- ابن باديس- حين يذكر هذا التاريخ، إنما يحدو شعبه إلى مستقبل أفضل يستمد عراقته وأصالته من التاريخ العربي لهذا الوطن: «لبس أبناء الجزائر العروبة، وامتزجت بأرواحهم، وتغلغلت في قلوبهم، وأشرقت شمس معارفها في آفاق أفكارهم، وجرت ينابيع بيانها على أسلات ألسنتهم، فأصبحوا ومنهم فيها علماء وخطباء وشعراء، ولهم منها جنود وقوّاد وأمراء. وحسبك من كثرتهم القائد الفاتح والخطيب المصقع- طارق بن زياد - ثم ما قامت مملكة من أبناء الوطن إلا وهي عربية في كل شيء. مثل

سائر الممالك العربية في المشرق ، بل فوق بعضها- سنة ١٩٣٨».

كان من عادة- ابن باديس- التي عرفت عنه، أنه يحتفظ بالكلمة الفاصلة لليوم الحاسم، ويخفي سرّها في صدره، ويطيل الصمت. فإذا نطق، قطعت جهينة قول كل خطيب. يقف من الأحداث موقف المتتبع الصامت، حتى إذا بلغت ذروة التعقيد والتشابك، وأصبح الموقف موقف مصير، صدع بقولة الحق التي تسمو فوق كل الاعتبارات. وقد ظهر منه هذا الموقف سنة **١٩٣٨**، عندما احتدم صدام فكري قومي بين الأمير شكيب أرسلان وسليمان باشا الباروني في قضية (الوحدة العربية). فتدخل- ابن باديس- وأسفر مرة أخرى عن وجه عربي صميم، فقال القول الفصل في القضية، وتجرأ به في دنيا التضليل والتهريج، وعالم من الجبن والاستكانة. هكذا كان شأنه في القضية المصيرية. وأضافها للتاريخ وقفة بطولية، أبان فيها رأي الخبير بواقع العالم العربي. وأفصح عن القول الجريء: «**إن دولاً لا تسوس نفسها بنفسها، ولا تشق طريقها على ضوء مصلحتها، لا يمكن تصور وحدة عربية بينها. إن الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها. فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم، وتتعاقد على تنفيذها، وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة، فهي مقتدرة على الدفاع عنها، كما كانت حرة في وضعها. وأما الأمم المغلوبة على أمرها. فهي لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها، فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها؟ ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تستطيع أن تدافع عمّا تقرره**

مع غيرها؟ وإذا لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يعتمد عليها في خارجيتها. فالوحدة السياسية بين هذه الأمم، أمر غير ممكن، ولا معقول، ولا مقبول».

وابن باديس مؤمن «بالرابطة القومية» الخالدة قدر إيمانه باستحالة تحقيق «الوحدة السياسية» بين شعوب لا تملك أمر نفسها، وهو إذ يقف هذا الموقف المزدوج، إنما يبصر الشعب العربي بواقعه السياسي المؤلم الذي يقف حجر عثرة في سبيل إعطاء الوحدة الأصيلة مظهراً سياسياً، وفي إنكار ـ ابن باديس ـ لهذا الواقع، دعوة صارخة للثورة عليه، والملاقاة على صعيد الروابط العربية الثابتة والدائمة: «هذه الأمة العربية، تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية الأدبية متحققة بينها ولا محالة».

ويقف عبد الحميد بن باديس في سنة **١٩٣٨** وقفة القائد العسكري الذي خاض معركته وانتهى منها، وأخذ في إعادة استخلاص الدروس المستفادة من الصراع السابق، استعداداً للجولة التالية. وينتهي ـ ابن باديس ـ من إعادة تقويم الموقف ليقول: «. . . أما اليوم ـ سنة **١٩٣٨** ـ فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونواد باسم الشباب والشبيبة والشبان، ولا تجد شاباً ـ إلا نادراً ـ إلا وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات، وشعار الجميع **الإسلام، العروبة، الجزائر**. . . لقد نفضت الأمة عن رأسها اليوم غبار الذل. وأخذت تنازل وتناضل وتدافع

وتعارض، وشعرت بوحدتها، فأخذت تطرح تلك الفوارق الباطلة وتتحلى بحلل الاخوة الحقة، وتنضوي أفواجاً أفواجاً تحت راية الإسلام والعروبة والجزائر. لقد شعرت الأمة بذاتيتها اليوم، وعرفت هذه القطعة من الأرض التي خلقها الله منها، ومنحها لها، وأنها هي ربتها، وصاحبة الحق الشرعي والطبيعي فيها، سواء اعترف لها به من اعترف، أم جحده من جحد. وأصبحت كلمة الوطن، إذا رنت في الآذان، حركت أوتار القلوب، وهزت النفوس هزا».

وعرف الشيخ عبد الحميد خطورة المخطط الاستعماري، لعزل أقطار الوطن العربي ـ الإسلامي بعضها عن بعض، وإشغال كل قطر بهمومه ومتاعبه عن هموم إخوانه المسلمين ومتاعبهم في الأقطار الأخرى. وعلى الرغم من أن هموم الجزائر المجاهدة ـ في تلك الحقبة التاريخية بالذات ـ قد تجاوزت في حجمها وأبعادها كل ما كان يعانيه كل قطر عربي ـ إسلامي، إلا أن عبد الحميد يتجاوز هذا الواقع في تطلعاته نحو المستقبل ويكتب كلمة عتاب قد تجرح برقتها وعمقها بأكثر مما تفعله السيوف، وكان في عتابه: «مضت حقبة من الدهر كاد فيها الشرق العربي أن ينسى هذا المغرب العربي». والى عهد قريب كانت صحافة الشرق ـ غالباً ـ لا تذكره إلا كما تذكر قطعة من أواسط أفريقيا. في هذه الأيام يغمط حقه، ويتجاهل وجوده في كتب لها قيمتها، مثل كتاب «ضحى الإسلام» وغيره. ولكن هذا المغرب العربي، رغم التجاهل والتناسي من إخوانه المشارقة، كان يبعث من أبنائه من رجال السيف والقلم من يذكرون به ويشيدون باسمه،

ويلفتون نظر إخوانه المشارقة الى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة ومنابت للعز والرجولة. ومعاقل للعروبة والاسلام»[1].

* * *

كل ذلك «وجمعية العلماء المسلمين» ماضية قدماً الى الأمام بفضل توجيه رئيسها الشيخ ـ ابن باديس ـ وذلك لتنفيذ أهدافها الواضحة، وأبرزها:

أولاً: تطهير الدين الإسلامي مما ألحق به الاستعمار من خرافات وبدع، وإيقاد شعلته الوضاءة التي بذل الاستعمار لإخمادها كل جهد مستطاع. ولم يتورع عن اقتراف افظع الجرائم لإطفاء هذا النور الالهي ـ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ـ.

ثانياً: بعث اللغة العربية وإحياؤها بعد أن جد الاستعمار لوأدها ودفن حضارتها.

ثالثاً: العمل بصورة سرية ـ حتى لا تتعرض الجمعية للملاحقات البوليسية التي تشل نشاطها ـ وذلك من أجل خلق تيار تحرري، والوقوف جنباً الى جنب مع الأحزاب الوطنية المنادية بالاستقلال والسيادة. ويبرز هذا الهدف في مقولة ابن باديس: «إن الدولة الجزائرية لم تزل حية طالما أنها محافظة على دينها ولغتها»[2].

نشأ بنتيجة ذلك صراع عنيف بين جمعية العلماء من جهة،

---

(١) صفحات من الجزائر. (الدكتور صالح خرفي) ص ٧٩ ـ ٩١ و ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٢) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٢٢ ـ ١٢٧.

والاستعمار الافرنسي ومبشريه وبعض الزوايا والطرقيين من جهة اخرى ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ . وتطور هذا الصراع بعدئذ، ولجأت الإدارة الافرنسية الى استخدام كل ما تختزنه من أسلحة الدس والغدر. فأخذت في تحريض الطرقيين وأصحاب الزوايا (كالعلويين والشاذليين والقادريين) على جمعية العلماء و أتباعها، مخوفة إياهم من السير في ركابها، لأن مبادءهم ستطيح حتماً بمراكزهم الدينية القائمة على التزييف والباطل، وستقطع عنهم الزيارات التي تتوقف عليها رفاهيتهم، وصورت لشيوخ هذه الطرق والزوايا كيف أن موارد عيشهم، ومصادر رفاهيتهم ستزول إذا انتصرت مبادىء جمعية العلماء الإصلاحية. وزينت لهؤلاء الشيوخ فضائل مقاومتهم لهذه الجمعية الناشئة، **واصفة علماءها وأتباعها بالكفر ـ الزندقة ـ لأنهم لا يقيمون الولائم العامة ـ أوكار الدعاية الاستعمارية المسماة بالوعادي ـ ولأنهم لا يزورون الأولياء**. وهذا وتر حساس أجاد الاستعمار في بادىء الأمر الضرب عليه لأن الجزائريين لهم تعلق كبير بالأولياء، حتى إنهم اصبحوا يقيمون على قبر كل رجل صالح قبة، ويولمون على روحه الولائم السنوية. ويقصده الزوار من كل مكان ملتمسين بواسطته الخير والبركة.

وأخذ الاستعمار ـ داخل نطاق سياسته التضليلية ـ بالاساءة الى سمعة الأولياء الصالحين. فراح يختلق الاكاذيب والبدع. مدعياً أن «الولي فلان» يحيي الموتى، ويدخل من يشاء الى الجنة. وأن «ولياً آخر» يختص بشفاء المرضى... وهكذا دواليك..

وكان هدف الدوائر الاستعمارية من ذلك «تأليه أصحاب

القبب». وتضليل المسلمين الجزائريين عن جوهر دينهم حتى يسهل تنصيرهم بعد أن يصور لهم أن الإسلام عبارة عن «دين خرافي». وأسرعت جمعية العلماء لمعالجة الموقف قبل فوات الأوان. فراح علماؤهم يخطبون في الناس هادينهم سواء السبيل، موضحين لهم مبادىء الجمعية التي ما أنشئت إلا للمحافظة على الدين القويم، وحمايته من البدع والأساطير التي ألحقها به المستعمرون الافرنسيون لأغراض خبيثة في نفوسهم. واشتد الصراع حين شعر أفراد من الشعب بفداحة الخطر الداهم على دينهم، إذا لم يأخذوا بيد العلماء الأحرار، ويعملوا على دعمهم. وعرفت الإدارة الاستعمارية أن شوكة العلماء وجمعيتهم تتزايد قوة يوماً بعد يوم، وأن مواعظهم تجد آذاناً صاغية لدى جماهير الشعب. فأصدر سكرتير الأمن العام في الجزائر ـ ميشيل ـ تعليماته المشددة «لمراقبة جمعية العلماء مراقبة دقيقة» و «حرم في هذه التعليمات على غير الإمام أو المفتي المعين من الإدارة الخطبة في الجامع» وحتى يشرف بنفسه على تنفيذ هذه الأوامر، عين نفسه «رئيساً للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية». وبدأ أفراد الشعب يصحون من سباتهم العميق وينضوون تحت لواء جمعية العلماء الآخذ في اكتساح البلاد.

ازداد عويل الاستعمار. وكثرت ضغائنه وأحقاده، ولم يحجم عن تدبير مؤامرة لاغتيال رئيس الجمعية ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ. وتعهد بتنفيذ هذه المؤامرة أتباع العلويين إلا أن هذه المؤامرة باءت بالفشل. وقبض أنصار بن باديس على المجرم، وكادوا يفتكون به لولا أن ردد الشيخ عبد الحميد قول النبي

الأعظم صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»

واستمرت جمعية العلماء في جهادها، وهي تصل الليل بالنهار، حتى تبعد خطر الإلحاد عن الشعب. وأبت جمعية العلماء أن ينحصر عملها في قاعدتها «جامع سيدي الأخضر بقسنطينة» فأوفدت البعثات العلمية الى المدن والأرياف، داعية المواطنين الى اقتفاء سيرة السلف الصالح منبهة القوم الى مغبة ما يحل بهم، إذا هم ساعدوا الاستعمار الافرنسي بطريقة غير مباشرة على نشر سياسته الإلحادية. وقد صادفت هذه البعثات في طريقها عقبات ومشقات، وتحملت عذاباً وإهانات كالها عليها البوليس الإفرنسي وأنصاره. إلا أنها خاضت جميع هذه المخاطر بإيمان قوي وعزيمة صلبة.

يمكن هنا وفي مجال التعرض لأساليب الإدارة الإفرنسية في محاربة جمعية العلماء، ذكر حادثة مقتل «الشيخ ابن دالي عمر - الملقب بـ : كحول» والذي كان الافرنسيون قد نصبوه إماماً للمسجد الأكبر بالعاصمة - الجزائر - فعلى أثر عودة ابن باديس ووفده من باريس، دفعت فرنسا بهذا الشيخ لإرسال برقية الى الحكومة الافرنسية «تتضمن عبارات قاسية ضد الوفد، والمؤتمر الذي عقده العلماء، ويتبرأ منهم، ويؤكد إخلاص المسلمين لفرنسا وموالاتهم لها». وأعقب ذلك تعاظم النقمة ضد هذا الذي انتحل لقب «مفتي الجزائر». فبات رجل الشارع الجزائري يوجه أبشع الإهانات واقذعها لهذا الخائن. وزاد الموقف توتراً بسبب

إقدام الشيخ الطيب العقبي على قيادة الحملة ضد «كحول». وارادت الإدارة الافرنسية ضرب عصفورين بحجر واحد، **فأعدت** قاتلاً محترفاً وجهته لقتل الشيخ كحول، واتهمت في الوقت ذاته جمعية العلماء بتدبير جريمة القتل. وتم اعتقال «الطيب العقبي» وألقي به في السجن.

وأشاعت الإدارة الافرنسية في الوقت ذاته إشاعات مضادة لجمعية العلماء «التي تنظم جرائم القتل والتصفيات الجسدية للتخلص من خصومها ـ على ما زعمته الإدارة الافرنسية». وكان لهذه الدعاية دورها في تساقط ضعاف النفوس. وفي مقدمتهم نائب قسنطينة الدكتور ابن جلول الذي أظهر تخاذله أمام قوة الهجمة فنكص على عقبيه وتنكر لأصحابه وشيعته. وقال: «إنه لا يشترك في حركة تعمد الى القتل وإغماد الخناجر في قلوب المعارضين». وأدركت جمعية العلماء، وأعضاء نادي الترقي خطورة الموقف، فتم عقد اجتماع تقرر فيه الاعلان عما يلي:

أولاً: إن العقبي ذهب ضحية غدر إداري ومؤامرة استعمارية دنيئة.

ثانياً: إن الإدارة الاستعمارية لا تقصد بعملها هذا النيل من الشيخ العقبي، وإنما تريد تمزيق جمعية العلماء.

ثالثاً: إذا نجحت الإدارة الاستعمارية في الوصول الى هدفها، فانها ستدمر الحركة الإسلامية من خلال إضعاف «جمعية العلماء».

رابعاً: على الجمعية دعم الشيخ العقبي بكل قوة والدفاع عنه بكل ما يتوافر للجمعية من قدرات مادية ومعنوية، لإظهار براءته. والصاق التهمة بمرتكبها الأصلي «الإدارة الافرنسية».

خامساً: القيام بحملة توجيهية لدحض مقولات «دعاة الهزيمة» و «دعاة السوء» وإحباط مخططات الأعداء الظاهرين والمستترين الذين يحاولون طعن جمعية العلماء ونادي الترقي من الخلف ومن الأمام. والمحافظة على جمعية العلماء، ومتابعة عملها بانتظام.

وتم تعيين محام للدفاع عن العقبي. ومضت أشهر قليلة على الصراع ظهرت بعدها الحقائق واضحة، واعترف القاتل ـ عكاشة ـ بفعلته، واطلق سراح العقبي. غير أن الإدارة الافرنسية نجحت في إسقاط الشيخ العقبي بشباكها، وأخذت في استخدامه لتنفيذ مخططاتها داخل جمعية العلماء. وظهر ذلك في أكثر من مناسبة. كانت الأولى عندما عقدت الجمعية اجتماعاً لها لتوحيد الجهد مع الزعماء السياسيين، فوقف العقبي ليقول: **أنتم رجال الله. أنتم رجال الدين. فما لكم وللسياسة؟ وهؤلاء الزعماء الانتفاعيون، لا تعرفونهم ولا يعرفونكم. هل رأيتموهم في المسجد يصلون معكم؟ هل رأيتموهم في النادي يستمعون معكم الى الإرشاد الإسلامي؟ كلا، لستم منهم وليسوا منكم؟...**»[1]

وكانت المناسبة الثانية، عندما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية في الافق، وتعاظمت تهديدات ألمانيا النازية لفرنسا. وفي

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ / ٢٥٤ ـ ٢٦١.

اجتماع للعلماء في تلك الفترة، وقف الشيخ العقبي ليبادر إخوانه العلماء بقوله: «أرى أنه يجب علينا ارسال برقية الى رئيس حكومة فرنسا، نظهر له فيها صدق عواطف الشعب الجزائري، ووقوفه مع فرنسا ضد كل عدوان» وتصدى له كل رجال الجمعية، وخاصة ابن باديس العظيم، الذي قال له: «كيف نكون مع فرنسا وهي التي لم تقم لنا وزناً، ولم تعترف لنا بحق، وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا. فكيف تجدنا ساعة الخطر أعواناً وأنصاراً؟ يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقاً ولا نقول لها كلمة».

* * *

هنا لا بد من مقارنة موقف الشيخ العقبي بموقف الشيخ التبسي. فعندما اندلعت نار الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، طلبت الولاية العامة بالجزائر الى مختلف الهيئات والشخصيات الجزائرية أن يعلنوا للناس في الداخل والخارج عن ولائهم لحكومة فرنسا وإخلاصهم لها. وعلى هذا الأساس جاء ضابط كبير في الجيش الافرنسي الى الشيخ العربي التبسي ـ بتبسة ـ يسأله أن يدلي بتصريح يذاع بالاذاعة ـ الراديو ـ وينشر في الصحف. يؤكد فيه تأييده لفرنسا في حربها ضد الالمان. ولكن الشيخ العربي، أرفع وأجل من ان يمكن الاستعماريين من تحقيق هذه البغية الآثمة الدنيئة. فقفل الضابط الإفرنسي خائباً يجر أذيال الفشل. اذ أفسد الشيخ العربي على الاستعماريين خطتهم الرامية الى إخضاع الشيخ عبد الحميد بن باديس كرئيس لجمعية العلماء بواسطة أحد إخوانه. وإثر هذا الحادث، جاء الشيخ العربي الى قسنطينة،

فقصّ على الشيخ ابن باديس القصة. واعقبها سائلاً مداعباً: «لو جاءوك يا شيخ، فماذا كنت تجيبهم يا ترى؟». فاندفع الشيخ عبد الحميد في ثورة مباغتة فقال: «**أما أنا فوالله لو قال الاستعماريون قل: لا إله إلا الله محمداً رسول الله ـ ما قلتها**»[1]: «**إني لن أمضي برقية ـ بتأييد فرنسا ـ ولو قطعوا رأسي، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمله؟ إن لي حياتين، حياة مادية، وحياة أدبية روحية. فتستطيع القضاء على حياتنا المادية بقتلنا ونفينا وسجننا وتشريدنا. ولن تستطيع القضاء على عقيدتنا وسمعتنا وشرفنا، فتحشرنا في زمرة المتملقين**»[2].

* * *

وتضيق الصفحات عن احتواء مآثر الشيخ عبد الحميد بن باديس. وهوى السراج الوهاج الذي أشرق نوره على الجزائر، فتغلغل في كل أرجائها. مات الرجل عملاقاً يوم ١٦ شباط ـ فبراير ـ ١٩٤٠ وقد بات ملء السمع والبصر والفؤاد. وماتت بموته مجلته «الشهاب». وخرجت الجزائر المجاهدة تنعي في يوم واحد فقيديها الغاليين الإمام ابن باديس ومجلته.

قيل إنه مات «بسل العظام» وقيل إنه مات «مسموماً». وتعددت الأسباب والموت واحد. غير ان هناك حقيقة بقيت ثابتة وخالدة، لقد مات الوجود المادي لابن باديس غير أنه بقي حياً بحضوره

---

(١) جريدة المقاومة ـ الجزائرية ـ ٢٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧.

(٢) الجزائر والأصالة الثورية (الدكتور صالح خرفي) ص ٢٣.

المعنوي ـ الروحي ـ ولقد قيلت كلمات كثيرة في رثائه، لعل أصدقها كلمة أخيه في الله وأخيه في الجهاد وخلفه في رئاسة جمعية العلماء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي كتب ما يلي: «. . . اعتقد أن الراحل، أخي العزيز، لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس. وأعتقدأن فقده لن يحزن قريباً دون بعيد. وإن أوفر الناس حظاً من الأسى لهذا الخطب، هم أعرف الناس بقيمة الفقيد، وبقيمة الخسارة بفقده للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها. فلهذا بعثت أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن أفاض. . . وإن كانت التعازي تعاليل لا تطفي الغليل. ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً، الى كبد تتنزى حزناً. وظني في أخي أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معز لأول معزى»[١].

«واحسرتاه ـ رحم الله الراحل العزيز، جزاء ما بث من علم وزرع من خير وثقف من نفوس. ولله ذلك اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم. وانا لفقدك يا عبد الحميد لمحزونون».

(١) كان الشيخ الابراهيمي في هذه الفترة معتقلاً في سجون «الحكومة».

٤ ـ إخوان عبد الحميد في الجهاد

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس، كبيراً بنفسه، عملاقاً بإخوانه، فقد التفت حوله مجموعة من كبار العلماء كلهم ذوو فضل وسعة في العلم، وكلهم يحمل في أعماقه ايماناً راسخاً وإسلاماً صادقاً وحماسة لا حدود لها لخدمة أهداف جمعية العلماء (الاسلام والعروبة والجزائر).

لقد بات من المسلمّ به أن شخصية الشيخ «عبد الحميد بن باديس» قد هيمنت على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية لجزائر المسلمين في عقد الثلاثينات (١٩٣٠ ـ ١٩٤٠). وبات من المسلّم به أيضاً أن ظلال الجهود التي بذلت في هذه الفترة، قد أرسلت استطالاتها نحو أفق المستقبل، بفضل الشيخ عبد الحميد ابن باديس وإخوانه المجاهدين في جمعية العلماء. وإذا كانت الظروف الدولية قد جاءت لتعيق تفاعلات الأحداث ـ لا على الصفحة الجغرافية للجزائر وحدها ـ وإنما على الصفحة الجغرافية للعالم، بسبب الحرب العالمية الثانية، فإن تفاعلات هذه

الأحداث قد انطلقت بكل أصالتها، وبكل قوتها مع انتهاء الحرب العالمية الثانية مما يؤكد الدور الحاسم الذي مارسه الشيخ عبد الحميد وإخوانه المجاهدون في بناء القاعدة العملية للثورة.

وليس الهدف على كل حال، إجراء حصر لتلك المجموعة المؤمنة المجاهدة، إذ أنها تتجاوز حدود الحصر والإحاطة، ولكن المهم التوقف قليلاً عند أبرز الجهود المبذولة لإجراء ذلك التحول الحاسم في حياة الجزائر المجاهدة، والانتقال بها من مواقع الدفاع السلبي الى مواقع الهجوم الإيجابي - إذا صح التعبير وجاز -.

لم يكن من المتوقع - في كل الأحوال - أن تخمد جذوة اللهبة الثائرة التي أطلقها الشيخ عبد الحميد بن باديس من معاقلها، أو أن تموت بموته. وذلك لمجموعة من الأسباب:

أولها: أن ظهور عبد الحميد قد جاء تتويجاً لتفاعلات بطيئة ومستمرة عبرت عن أصالة الجزائر الثورية. وكانت هذه التفاعلات أوسع من حدود الجزائر. فقد حمل المجاهدون الجزائريون معهم، وبداية من الهجرة الأولى التي ارتحل فيها الأمير عبد القادر وإخوانه الى بلاد الشام، حمل هؤلاء معهم رايات الجهاد في سبيل الله، وأناروا بضيائها عالم العرب المسلمين في المشرق - عبر الصحافة والكتب والتعليم - وانعكست هذه الأضواء على صفحة الجزائر المجاهدة.

وثانيها: أن الجزائر المجاهدة لم تعدم أبداً وجود القيادات التي تصدت للحملة الصليبية الافرنسية، وكان جهد هذه القيادات وتضحياتها المستمرة، هي مشاعل النور على طريق الجهاد. ولئن

قصرت هذه القيادات عن الارتفاع حتى مستوى الشيخ ابن باديس إلا أنها بجهودها وتضحياتها، مهدت السبيل لظهور جيل «العلماء العمالقة».

وثالثها: أن ظهور عبد الحميد قد توافق مع وجود علماء كبار - جيل العلماء العمالقة - ومعذرة عن هذا التعبير - كانوا كلهم على مستوى الأحداث، حتى لو سقط بعضهم على الدرب ولم يكمل الطريق على نحو ما يحدث دائماً في كل حركة ثوروية أصيلة.

ورابعها: أن الشعب الجزائري الذي هزته الأحداث بقوة وعنف فأيقظته من غفوته، بات مؤهلاً لاختيار طريقه، وأصبح من العسير إعادته الى «قمقمه المغلق». وانتصب الشعب الجزائري عملاقاً قوياً، وانتصبت أمامه قيادة عربية - إسلامية. والتقى عاملان أساسيان من عوامل تفجير الأحداث، ولم يبق إلا ظهور العامل الثالث، وهو «توقيت إنفجار الحدث». وجاءت بعد ذلك مسيرة الأحداث لتحدد هذا التوقيت. وهذا ما يبرز بدوره أهمية «إخوان عبد الحميد» وما قاموا به من دور في صنع الأحداث.

أ - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

لم يكن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مجهولاً يوم بدأ حياة الجهاد فوق أرض الجزائر، لقد كان ماضيه الحافل بجلائل الأعمال يتقدم عليه ويسبقه، لقد عرفته عواصم العالم العربي - الإسلامي من قبل، في تونس ومصر وبلاد الشام، مجاهداً بالكلمة الصادقة والعلم الصحيح والإيمان العميق قبل كل شيء. ففي سنة

١٩٠٨، كان طلاب العلم في دمشق، ينهلون من علمه الغزير في «مكتب عنبر» و «المدرسةالسلطانية». وكان «مكتب عنبر» في تلك الفترة، موئل العلم ومنهل المعرفة ومنارة الهدى لكل الشباب الذين ينتظرهم مستقبل البلاد. وكان أساتذة هذا المعهد خيار من عرفهم العالم العربي الإسلامي، منهم الشيخ عبد القادر المبارك، ومنهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي قال عنه أحد تلاميذه: **«أعجبنا في الشيخ سعة علمه، وقوة ذاكرته، واستقامة منهجه، حتى ولد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها»**

ومن دمشق، ينتقل الشيخ الإبراهيمي الى الحجاز، حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى، عاد الى موطنه الأصلي ـ الجزائر ـ ليتابع فيها جهده المخلص، وجهاده الصادق، مواكباً في مسيرته وعلى خط مواز جهد ـ ابن باديس ـ وجهاده. حتى أذا ما أقبلت سنة ١٩٣١، كان لقاء الخطوط المتوازية في «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين». وكان الشيخ الإبراهيمي باستمرار الصخرة الصلدة في مجابهة المخططات الاستعمارية الافرنسية الرامية «لتدمير إسلام الجزائر وعروبتها» وحرمانها من أصالتها الذاتية. وعرضه هذا الأمر لإزعاجات السلطات الافرنسية واضطهادها له، والتي لم يكن أقلها الاعتقال والسجن.

توفي ابن باديس. وكانت جمعية العلماء قد أصبحت تحت أحكام الحرب القاسية هامدة. وقد قررت التزام الصمت التام تجاه أحداث هذه الحرب، واستمر رجالها في ممارسة واجباتهم والاضطلاع بمسؤولياتهم في المدارس والمساجد.

وكان «الإبراهيمي العظيم» قد أخذته السلطة الإفرنسية عند بداية الحرب من تلمسان، وألقت به منفياً طريداً في «أفلو» الصحراوية النائية، ليذوق فيها العذاب الاليم. واجتمع العلماء بقسنطينة بعد أن غاب عنهم رائدهم ابن باديس واتفق الجميع على أن يكون نائب الرئيس البشير الإبراهيمي - رئيساً للجمعية. وان يباشر عمله بمجرد اطلاق سراحه، ويكون له مركز الرئاسة على الفور. ولم تمض فترة طويلة حتى تم الإفراج عن الشيخ الإبراهيمي، فباشر عمله في رئاسة العلماء: فكان الرئيس، وكان المعلم، وكان الصحفي، وكان الكاتب، وكان الخطيب، وكان بإيجاز العقل المدبر والذراع المنفذ حتى قال عنه أحد علماء الجمعية «ما رأت جمعية من الجمعيات رئيساً كالبشير الإبراهيمي».

عندما تولى «الشيخ الإبراهيمي» رئاسة الجمعية، كانت الأسس قد ترسخت، والمبادىء قد ثبتت، فوجه الشيخ الإبراهيمي جهد الجمعية نحو التعليم العربي الحر، واندفع بجرأة غريبة وسط حماسة شعبية رائعة لتأسيس مدارس البنين والبنات، والحكومة مشدوهة لا تدري ماذا تفعل: أتقاوم المدارس مقاومة عامة وتوصد أبوابها، وعندئذ تجد نفسها لا محالة أمام ثورة عامة في ظروف غير مناسبة لها نتيجة ظروف الحرب ذاتها؟ أم تتساهل في أمر هذه المدارس مع إدراكها لخطورة هذا العمل وتأثيره العميق على مخططاتها الاستعمارية؟ وكان أن اتبعت سياسة مزيجة بين اللين والشدة، فكانت تتساهل في بعض الجهات، لتضطهد المدرسين ورجال التعليم في جهات أخرى. كل ذلك، ومركب التعليم

يمضي قدماً تدفعه ريح شعبية قوية. واستطاعت الجمعية بفضل دعم المسلمين الجزائريين لها من تأسيس (١٧٠) مدرسة عربية حرة تعلم الدين الصحيح والتاريخ الإسلامي والعلوم العصرية. وبلغ عدد تلاميذها كل سنة، ما يزيد على الخمسين ألفاً بين ذكور وإناث، وكونت الجمعية لهم طبقة صالحة من المدرسين، أغلبهم من خريجي «جامعة الزيتونة» بتونس، وجاوز عددهم في مرحلة ما قبل الثورة (٩٠٠) معلم. ويتقاضون جميعاً، نفس المرتبات من الهيئات المحلية للمدارس.

وأنشأت «جمعية العلماء» لجنة للتعليم، تحت إدارة نخبة من أفضل العلماء، امثال المرحوم الحفناوي هالي ومحمد الصالح رمضان (واضع قصائد الشباب الهادفة والتي أصبحت فيما بعد أناشيد الثورة الجزائرية). فأوجدت هذه اللجنة البرامج التعليمية، ووضعت البرامج التربوية، وأخضعت كل مدارسها لمنهاج واحد.

وفي العام ١٩٤٧، دشنت جمعية العلماء أول معهد للتعليم الثانوي في مدينة«قسنطينة»،أطلقت عليه اسم فقيد الجزائر «الشيخ عبد الحميد بن باديس». وشرع هذا المعهد، بفضل دعم الشعب له، بتطوير عمله حتى بلغ عدد طلابه سنة **١٩٥٣** الفاً وخمسمائة طالب من جميع أنحاء الجزائر.

وأخذت جمعية العلماء في هذه السنة بايفاد البعثات من خريجي المعهد الى المشرق العربي ـ الإسلامي لإتمام الدراسة في المعاهد العليا. وخاصة في جامعة الزيتونة بتونس. كما ارتفع اثناء ذلك عدد المدارس الابتدائية حتى وصل الى أكثر من

(٣٠٠) مدرسة في سنة ١٩٥٣، وارتفع بذلك عدد الطلاب السنوي الى أكثر من (٧٠) ألف تلميذ. وكانت الجمعية قد أجرت في أواخر السنة الدراسية لسنة ١٩٥٢ اول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية «باسم الشعب الجزائري» وبدون موافقة الإدارة الافرنسية الاستعمارية.

والى جانب ذلك كله، كانت الجمعية تنشر كل أسبوع مجلتها الكبرى«البصائر» التي كانت منبراً رفيعاً للفكر الاسلامي. ومنهلاً للعلم الغزير والأدب الهادف. وكانت تعمل أيضاً على اماطة اللثام عن تحولات السياسة الدولية، فتسهم في نشر الوعي السياسي، وبلغ عدد ما يطبع منها اسبوعياً (٣٠) ألف مجلة، وقد استمرت في الصدور حتى أغلقتها الإدارة الاستعمارية الافرنسية سنة ١٩٥٦.

كانت مجلة «عيون البصائر» هي مرآة الجزائر المجاهدة طوال الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية، وانفجار ثورة التحرير (١٩٥٤). وكانت «عيون البصائر» أيضاً منبر رئيس جمعية العلماء «انشيخ الإبراهيمي» الذي أضاف الى اعبائه في سنة ١٩٤٨، أعباء جديدة هي رئاسته «للجنة إعانة فلسطين». ففي هذه السنة أقيم الكيان الصهيوني فوق أرض فلسطين العربية ـ الإسلامية. واهتز العالم العربي ـ الإسلامي لهذا الحدث الأليم. وكان تجاوب الجزائر أكبر من الكلمات، وأعظم من كل وصف. وقد يكون من المناسب استقراء بعض نشاطات «لجنة إعانة فلسطين» من خلال بعض برقياتها.

أرسلت «اللجنة» برقية الى الأمين العام للجامعة العربية «عزام باشا» جاء فيها:

«يسعدنا إعلامكم أنه قد تألفت بالجزائر لجنة لإعانة فلسطين، مؤلفة من كل الهيئات والشخصيات التي تمثل الاتجاه الإسلامي الجزائري. إننا بلسان هذه اللجنة نؤكد لسعادتكم تضامن الشعب المسلم الجزائري مع كل الدول العربية المكافحة ضد الامبريالية الصهيونية، ونأمل انتصار القضية العربية العادلة».

الشيخ البشير الإبراهيمي، فرحات عباس
الشيخ بيوض، الشيخ العقبي

ووجهت «اللجنة» برقية الى الحكومة الإفرنسية جاء فيها:

«إن لجنة إعانة فلسطين، التي تمثل كل التشكيلات الدينية والسياسية بالجزائر، وتشمل الشخصيات الممثلة للاتجاهات الجزائرية، قد تأثرت بصفة مؤلمة من القرار الذي اتخذه المجلس الوطني الإفرنسي في إرسال التحية المخلصة لدولة إسرائيل المزعومة. إن هذا القرار يعتبر عملاً عدائياً ضد العالم الإسلامي. واللجنة تحتج بشدة على هذه الحرية التي تتمتع بها وسائل الدعاية الصهيونية ومنظماتها. وجميعها يعمل لفائدة الامبريالية وضد الديموقراطية. واللجنة تلفت نظر حكومتكم لما في اعترافها بدولة إسرائيل المزعومة من جرح لعواطف خمسة وعشرين مليوناً من المسلمين، سكان المغرب العربي المتضامنين تضامناً فعالاً مع إخوانهم أهل فلسطين، ومن إساءة عميقة للعلاقات بين فرنسا والإسلام».

عباس فرحات، الشيخ بشير الإبراهيمي
الشيخ الطيب العقبي، الشيخ إبراهيم بيوض.

وجهت اللجنة برقية الى الأمين العام لهيئة الامم المتحدة «تريفف لي» جاء فيها:

«إن لجنة إعانة فلسطين التي تشمل كل المنظمات والشخصيات الممثلة للشعب المسلم الجزائري تحتج على ما مس العالم الإسلامي من عدوان صريح قامت به الصهيونية، وهي تحاول إقامة دولة يهودية فوق أرض فلسطين. وتعتقد اللجنة أن هذه المحاولة تناقض ميثاق هيئة الأمم المتحدة. وتمثل تهديداً صريحاً للسلام العالمي. وتؤكد اللجنة تضامن الملسمين الجزائريين مع الشعب الفلسطيني في حربه مع الصهيونية الامبريالية الاستعمارية - احتراماتنا».

فرحات عباس، الشيخ الإبراهيمي،
الطيب العقبي، الشيخ إبراهيم بيوض.

ولم تكتف اللجنة بهذه التظاهرة الإعلامية، التي أكدت بروز الشخصية الجزائرية الإسلامية. فعملت على إرسال مجموعة من المجاهدين الى فلسطين، كما جمعت أموالاً طائلة بالنسبة لما كانت عليه حال الجزائريين المسلمين في تلك الفترة. فقد أرسلت مبلغ أربعة ملايين فرنك في البداية «للجهاد الفلسطيني». ثم أرسلت مبلغ ثلاثة ملايين فرنك، قام الشيخ أحمد توفيق المدني بتسليمها للسيد أحمد ثروت سفير مصر بباريس، وتم ذلك بحضور اسماعيل صبري باشا، خال الملك فاروق[1].

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ /٣٨٨ - ٣٩٠.

غير أن «الشيخ البشير الإبراهيمي» يتجاوز في نشاطاته دوره الرسمي، فينطلق من خلال «عيون البصائر» مستنفراً الهمم، محذراً من الخطر، ملهباً للحماسة، فيكتب في ذروة المأساة ـ سنة ١٩٤٨ ـ ما يلي:

«يا ضيعة الآداب الاسلامية بينكم. إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقد لدغتم من الجحر الإنكليزي مرات، فلم تتعظوا ولم تتبصروا. خدع خلفكم، كما خدع سلفكم، واستهوى امراءكم وكبراءكم ودعاكم الى موائده فلبيتم، وما رأى منكم في كل الحالات إلا المجاملة، واستمرار المعاملة، وما آنس منكم الا التهافت على أعتابه، والتعلق بأسبابه. فيا ويحكم! أكل ذلك لأن الإنكليز أغنياء وأنتم فقراء، أو لأنهم أقوياء وأنتم ضعفاء؟ كلا. إنهم أغنياء بكم، وبأمثالكم من الامم المستخذية، وليسوا أغنياء عنكم. وأنتم الاقوياء بما يستمدونه من أرضكم وجيوبكم. فاقطعوا عنهم المددين يضووا ويهزلوا، واخذلوهم في مواطن الرأي والبأس ينخذلوا، وعمروا جزيرتكم تخرب جزيرتهم. إن لبدة الأسد هي بعض أسبابه الى زرع الهيبة في القلوب. ولكن لبدة الأسد البريطاني لبدة مستعارة. فلو أن أمة استرجعت شعراتها من تلك اللبدة التي تكمن وراءها الرهبة، لأمسى الأسد هراً، مجرود العنق، معروق الصدر، بادي الهزال والسلال.

إن الغنى عمل وتدبير، فلو عملتم لكنتم أغنياء. وان بدء الغنى من غنى النفس بالتعفف عن الكماليات، وفطمها عن الشهوات، وإن القوة مشيئة لا جبر فيها. فلو شئتم أن تكونوا أقوياء لكنتم.

وإن بدء القوة من قوة الاخلاق، وقوة الاتحاد...

إن العروبة لفي حاجة الى ذلك الطراز العالي من بطولة العرب.

وإن الإسلام لفي حاجة الى ذلك النوع السامي من الموت في سبيل الحق ليحيا الحق..

أيها العرب... أيها المسلمون...

إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الاسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ـ ونحن عصبة ـ إنا إذاً لخاسرون»[1].

ويعود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، لمعالجة القضية الفلسطينية في أزمتها ـ سنة ١٩٤٨ أيضاً، فيقول: «أيظن الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة، تنسى فلسطين أو تضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها؟ لا والله، ويأبى لها ذلك شرف الإسلام ومجد العروبة ووشائج القربى».

«ولكن الاستعمار الذي عقد العقدة لمصلحته، وأبى حلها لمصلحته، وقايض بفلسطين لمصلحته هو الذي يباعد بين أجزاء الاسلام لئلا تلتئم، ويقطع أوصال العروبة كيلا تلتحم. وهيهات لما يروم».

ويعود ليخاطب العرب فيقول:

---

(١) الجزائر والاصالة الثوريه (الدكتور صالح خرفي) ص ٢٨ ـ ٣٠ و ٤١ ـ ٤٣.

المرحوم الشيخ محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء.

«أيها العرب! قسمت فلسطين، فقامت قيامتكم، هدرت شقاشق الخطباء. وسالت أقلام الكتاب، وأرسلها الشعراء صيحات مثيرة، تحرك رواكد النفوس. وانعقدت المؤتمرات. وأقيمت المظاهرات. علم الصهيونيون أن الوعد لا يعدو كونه وعداً. وأن نصه الطري اللين... أن انجلترا تنظر بعين العطف الى إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين، فأعدوا لتحقيقه المال، وأعدوا الرجال، واتخذوا من الوقت سلاحاً، فلم يضيعوا منه دقيقة، واستعانوا بنا علينا، فاكتسبوا من ضعفنا قوة، ومن جهلنا قوة، ومن تخاذلنا قوة، ومن أقوالنا الجوفاء قوة، وأصبحت هذه القوات كلها ظهيراً لهم علينا».

ويقبل عيد الأضحى، أول عيد بعد إقامة الكيان الصهيوني، فينفث الشيخ الإبراهيمي زفرة لاهبة، فيقول: «النفوس حزينة، واليوم يوم الزينة، فماذا نصنع؟ إخواننا مشردون، فهل نحن من العطف والرحمة مجردون؟ تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد وان نبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر. وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحنتها، ونغتم، ونعنى بقضيتها ونهتم، ويتقاضانا إخواننا المشردون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي، أن لا ننعم حتى ينعموا، ولا نطعم حتى يطعموا... ليت شعري، هل أتى عباد الفلس والطين، ما حل ببني أبيهم في فلسطين».

«أيها العرب! لا عيد حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتنجزوا لفلسطين المواعيد. ولا نحر حتى تقذفوا بصهيون في البحر. ولا

أضحى حتى يظمأ صهيون في أرض فلسطين ويضحى».

«أيها العرب! حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء. وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع. وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء».

* * *

تلك نماذج من مقولات كثيرة تخاطب العقل قدر استثارتها للعاطفة. ولعل أبرز ما يميز مواقف الشيخ الإبراهيمي في هذا المضمار:

١ ـ تحليله العميق للموقف الاستعماري، وهو قد سبق «ماوتسي تونغ» في تحليل ضعف الهيكل الاستعماري بأكثر من ربع قرن. وبينما يشبه «ماو» الاستعمار «بعملاق له قدمان من صلصال»؛ يعود الشيخ الإبراهيمي ليشبه «أسد الاستعمار البريطاني بهر، لم يكتسب فروته المرعبة الا من النهب الاستعماري».

٢ ـ وفي مقولة «الشيخ الإبراهيمي» تركيز مستمر على الأصالة الذاتية «القوة في نفوسنا والضعف في نفوسنا». والمثير في الأمر أن الثورة الجزائرية قد انطلقت من هذه الأصالة ذاتها. وكان اعتمادها دائماً على القدرة الذاتية لشعب الجزائر المجاهد.

٣ ـ ويدعو الشيخ الإبراهيمي لمقاطعة الاستعمار وحرمانه من موارد النهب، حفاظاً على قدرة العرب المسلمين في أوطانهم. وهي الدعوة التي لا زالت تتردد قوية الى ما بعد نداء الشيخ الإبراهيمي بثلاث عقود، دون أن تجد لها آذاناً صاغية.

٤ ـ والشيخ الإبراهيمي، ينطلق بصيحته من منبره، بقلب الإنسان المسلم، وارادة الرجل المؤمن (حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء) فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، اذا أصاب عضواً منه المرض تداعت بقية الاعضاء للسهر والحمى.

* * *

وتمضي السنوات متثاقلة لترهق كاهل الشيخ، وتنفجر ثورة الجزائر. ويعتقل الافرنسيون أحمد طالب الإبراهيمي، في حين يكون الشيخ مريضاً على فراشه، بمستشفى كراتشي. فيكتب الابن أحمد طالب الابراهيمي الى أخيه: «لم يكاتبني والدي هذه الأيام الأخيرة. ومن المحتمل ان يتلقى نبأ ايقافي برصانته المعهودة». وبعد أربعة أعوام من السجن يعود أحمد طالب الإبراهيمي ليكتب الى أخيه: «كاتبت اليوم والدنا أيضاً، آه لو تعلم كم أبتهل الى الله كي يعيش حتى يوم الاستقلال! فاذا ما كتبت له أن يشهد الجزائر وقد حررت أرضها، عندئذ يسوغ لي أن ألقي عليه مقطع «لورانزا تشيو» في مسرحيته الشهيرة: «تعال يا والدي النبيل! تعال وانظر الى أحلام عمرك تتهادى ضاحية، لقد أينعت الحرية... هيا وانظر نبتك المحبب ينبثق من الثرى». يومئذ أقول له ما قال شوقي لسعد زغلول:

لينم أبو الاشبال ملء جفونه ليس الشبول على العرين بِنُوَّمِ [1]

---

(١) رسائل من السجن ـ أحمد طالب الإبراهيمي ـ ص ١٥ و ١٢٥ ـ ١٢٦.

ب ـ الشيخ مبارك بن محمد الميلي:

كتب عنه صديق له: «إنه الرجل المثالي، الحر الأبي، الذي وضع حياته كلها منذ رجع من الزيتونة عالماً جليلاً في خدمة دينه وشعبه، مدرساً ومحاضراً ومفكراً عميقاً ومرشداً نصوحاً. كان نحلة منتجة، لا تراها إلا ساعية وراء رحيق زهرة، أو واضعة مع جماعتها عسلاً شهياً». ذلك هو مبارك بن محمد الميلي ـ الذي ولد في قرية (الميليه) وليس في مدينة (ميلة) التي حل فيها بعد ذلك وجعلها ميدان جهاده.

وكانت ولادته سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م). وأتم دراسته الابتدائية على يد شيخه ومربيه العالم الشيخ محمد الميلي. ثم انتقل الى قسنطينة حيث تتلمذ على يد الشيخ ابن باديس الذي أنس في تلميذه الذكاء والفضيلة، فوجهه في السنة ذاتها (١٣٣٨ هـ = ١٩١٩ م) للدراسة في جامعة الزيتونة. حيث أمضى في تونس أربع سنوات ليعود في سنة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م إلى قسنطينة وقد توافر له قدر كبير من العلم والمعرفة. واستعان به شيخه عبد الحميد بن باديس للتدريس في معهده شهوراً. ولما رأى طموحه ونبوغه وعلمه، أيقن أنه لا يليق معيناً له، بل يكون قاعدة للاصلاح والنهضة، وسداداً لثغر مهم في ناحية مهمة في الجزائر. ولما طلبه الأغواطيون، حثه الشيخ عبد الحميد على الذهاب إليهم وقيادة نهضتهم الناشئة، وإصلاح النفوس في الأغواط المتعطشة للنور. وزار الشيخ مبارك الأغواط، فأعجب بها وبأهلها، فانتقل إليها في اواخر سنة ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٣ م.

مضى الشيخ مبارك يضرب في كلِ ميدان من ميادين الجهاد، يمضي معظم وقته (عشر ساعات يومياً) في تدريس تلاميذه الذين زاد عددهم على سبعين تلميذاً ـ فيهم ست فتيات ـ لينصرف بعد ذلك إلى «الجامع العتيق» في الأغواط للالتقاء ـ بعد صلاة العشاء ـ بالشبيبة والرجال الراغبين في تلقي الإسلام من مورده الصافي ومصدره العذب. وليتردد بعد ذلك مرة في الشهر على الأقل لزيارة «مدينة بو سعاده» والقاء محاضراته التوجيهية الهادفة فيها. ولينتقل أيضاً إلى «مدينة الجلفة» مرة في الشهر للهدف ذاته. ولينتقي من بين تلاميذه من يتوسم فيهم الخير والفضيلة فيوجههم إلى «قسنطينة» و «جامعة الزيتونة بتونس» فشكل بذلك جهازاً للاضطلاع بنهضة الأغواط ـ الضاربة في عمق الصحراء ـ وليعمل أثناء ذلك كله على الاختلاط بجماهير الشعب، يوجههم نحو الدينِ القويم، ويفضح أساليب الاستعمار ووسائله المضادة للعرب المسلمين، وليحارب الطرقية وبدعها وانحرافاتها، مقتدياً بذلك سيرة أستاذه ابن باديس. وهاله أمر ما كانت تطرحه الدوائر الاستعمارية من أن «أهل البلاد ينتمون إلى الشعوب الغربية في أصولها ويلتقون بعد ذلك مع الإفرنسيين والرومان بأكثر من التقائهم مع العرب المسلمين». فمضى ليدحض هذه المقولة وامثالها، وأفاد من كل فرصة تتاح له لوضع كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» محدداً هدفه من ذلك بقوله: « **إني شديد الشعور بالمسؤولية، ولكنني شديد العراقيل كثيرها، شديد الحاجة إلى المعين، عديمه. ففي التحرير، أجد عراقيل قلة المواد وبعد أسلوبها عن نظامي واختلاط مواضيعها بالنظر الى أسلوبي،**

وأعلم كثرة الكتب الافرنسية وحسن نظامها، ولا أجد من يعرب لي منها. وحاجتي إلى كتب الافرنسية من حيث المادة والنظام، ومن حيث الاطلاع على مقاصدهم نحونا للتعريض بردهم في كتابتنا»

ويكتب إلى صديق له: «أكاتبك اليوم فيما يهم عملنا، ولكنني أقتصر الآن على التنبيه لكتاب حماد أو ابن حماد، لتعريب فصول من كتاب ـ كاريت ـ تحت يدي ترجمة فهرست كتاب كاريت ـ وقد أعدت النظر فيها، فظهر لي إني أحتاج اليوم من أبوابها «الباب الرابع من الكتاب الأول. والابواب السادس والسابع والتاسع من الكتاب الثالث». وقد التزمت في هذا الجزء وضع باب لبيان قبائل بني هلال وغيرهم من العرب، في أنسابهم ومراكزهم وحياتهم وعلاقتهم بالبربر. ووضع باب آخر لتفصيل قبائل البربر بعد هجوم الهلاليين. فما تجده في كتاب ـ كاريت ـ يعين على هذا فترجمه لي».

ولم يعدم الشيخ مبارك على كل حال من يقدم له العون لإنجاز مشروعه العظيم، سواء من أبناء الأغـواط الذين كان عدد كبير منهم قد تعلم الافرنسية وأتقنها، أو من خارج الأغواط ـ وبصورة خاصة الشيخ أحمد توفيق المدني ـ الذي قدم للشيخ مبارك كل جهد مستطاع، حتى تم إخراج هذا المشروع للنور.

* * *

وكان الشيخ مبارك يشرح في دروسه، أمراض المجتمع، فيبين آفاتها وويلاتها على أصحابها. ويهاجم الإلحاد الـذي تبثه

المدارس الاستعمارية والأحزاب السياسية المنحرفة، ويهاجم البدع التي ألصقت بالدين فقتلت المسلمين، ويهاجم ضلالات الطرقيين الضالين، مثل (زردات القبور)[1] وحفلات مواليد المشايخ الطرقيين، واعتقاد العامة في الشيخ وطريقته بما ينافي الدين، وغير ذلك من المفاسد الخلقية. وكانت لدروس الشيخ مبارك نتائجها العظيمة. فشاعت الثقافة، وانتشرت اللغة العربية وآدابها بين الأغواطيين. وأقبلوا على الدين. وكان أكثر الاغواطيين من قبل مرتبطين بالطرائق الصوفية المتنافرة والمتناحرة، فتطهرت عن طريق الشيخ مبارك عقائدهم. وتفتحت عيونهم على الحق والهدى. وعرفوا دين الله الحق فتمسكوا به، وطرحوا عنهم رداء الطرقية وانحرافها، وتنكروا لمنكراتها. وانضم معظم شباب الأغواط لحركة الاصلاح التي يستجيب لها العقل وتتفجر لها العاطفة. وكان الشيخ مبارك ينظم زيارات كبار العلماء الجزائريين للأغواط. من أجل إلقاء المحاضرات. فزار الشيخ عبد الحميد ابن باديس الأغواط، وحضر درس الشيخ مبارك في «الجامع العتيق» ثم تلاه بدرس بليغ هز نفوس الأغواطيين وترك فيهم أعمق الأثر. وكذلك فعل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ بيوض إبراهيم. وسارت الأغواط بذلك في ركب الاصلاح. وصارت من انصار اللغة العربية وقاعدة صلبة من قواعد الدين «مما أهلها

---

(١) الزردات، جمع ومفردها زردة وهي طعام سنوي تصحبه أسواق للتجارة والفجور تقام حول قبور المشايخ، وتدوم أياماً. وكان الاستعمار يأمر بها لافساد الأخلاق، وتشويه الدين الإسلامي الحنيف. (نهضة الجزائر الحديثة ـ محمد علي دبوز ـ ٣ / ٢٥٩ ـ ٢٧٢).

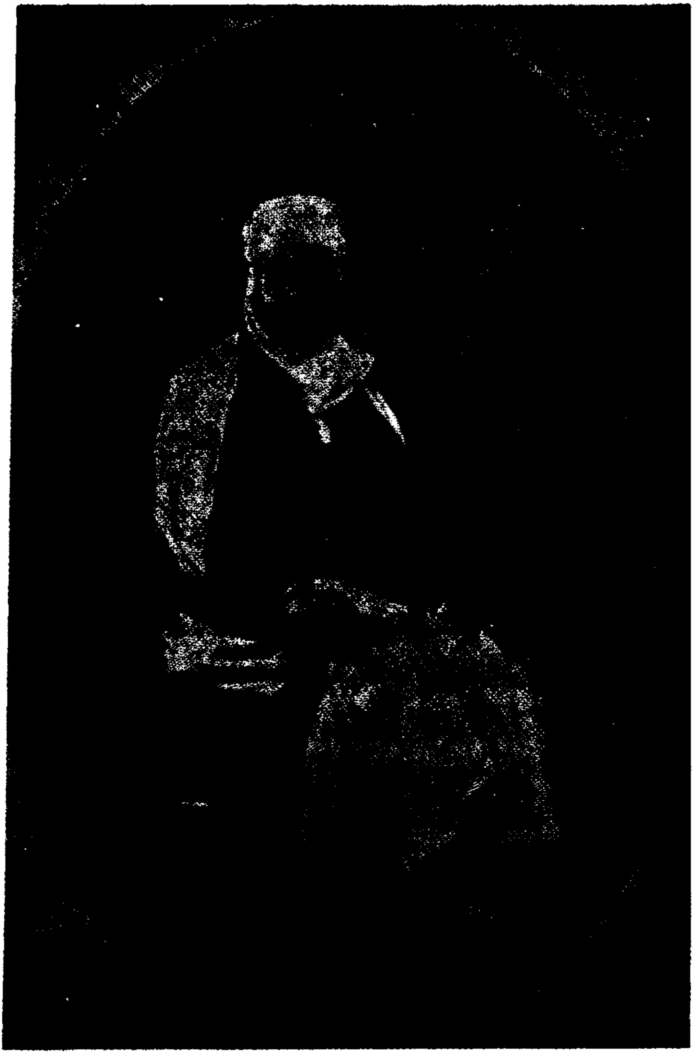

العلامة المصلح والمؤرخ العظيم الشيخ الاستاذ مبارك الميلي

بالتالي لتكون قاعدة من قواعد الثورة عندما انفجرت هذه الثورة».

أحب الشيخ مبارك الأغواط وأهلها الذين بادلوه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص، بعد أن سلخ بينهم أحلى سنوات العمر في عمل دؤوب وجهد مستمر. لقد جاءها وعمره ثلاثون عاماً، وكانت أيامه بها حلوة هانئة، فتزوج فيها من ابنة شيخه «محمد الميلي - جاء بها من ميلة». وولد له في الأغواط ابنه البكر محمد. وظن أن الحياة ستسير به في يسر متنقلاً من نجاح إلى نجاح أكبر، ومن نصر إلى نصر أعظم في حياة العمل والانتاج. ولم يشعر باقتراب السحب المزمجرة من أفق حياته.

عرف الشيخ مبارك خطورة التعليم الافرنسي على حياة الناشئة، فخصص لهؤلاء الناشئة أيام عطلهم وبعض الوقت في كل يوم، خارج أوقات دوامهم في المدارس الافرنسية وذلك لتعليمهم أصول دينهم، وليحسن توجيههم، ويزيل من عقولهم ونفوسهم ما تدسه برامج التعليم الافرنسية من توجيهات سيئة. وكانت السلطة الاستعمارية في الأغواط تعتقد أن مدرسة الأغواط، مثلها كمثل الكتاتيب التعليمية العقيمة، فلم تقم لها وزناً في بداية الأمر. غير أنها استفاقت فجأة لتعرف بأن الشيخ مبارك قد دمر لها كل جهودها،وأحبط لها كل خططها، فأخذت في الكيد له والتحريض ضده. غير أن هذه الوسيلة المكشوفة والرخيصة لم تحقق هدفها، فما كان من الإدارة الافرنسية إلا أن لجأت إلى ذات السلاح الذي استخدمته - في وقت واحد - ضد الشيخ ابن باديس، فدفعت من يعمل على اغتياله من قبل الطرقيين وذلك في سنة ١٩٢٦.

غير أن تلاميذ الشيخ وأنصاره من الأغواطيين تصدوا للمجرم، وانتزعوا منه مسدسه، وكادوا يفتكون به. وعيل صبر السلطة الاستعمارية في الأغواط فطلبت إلى مشايخ الطرق إرسال عرائض تطلب طرد الشيخ مبارك من الأغواط وإغلاق مدرسته. ومارست في الوقت ذاته ضغطاً على موظفيها وأعوانها من الأغواطيين لمضايقة الشيخ وإزعاجه. وشعر الشيخ مبارك بالدائرة تضيق من حوله، والأنصار يبتعدون خائفين عنه. وعرف أنه بات من المحال عليه الاستمرار في إداء دوره والاضطلاع بواجبه، فحزم حقائبه، ورحل في سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م، عائداً الى بلده (الميليه). بعد أن قضى ثمانية أعوام من عمره في الأغواط[١].

كان الشيخ مبارك قد ارسل إلى الزيتونة بتونس مجموعة من أنجب طلابه سنة ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٧ م ضمت: أحمد بن التهامي شطة، وأبو بكر بن بلقاسم، وأحمد بن بو زيد قصيبة، ومحمد الطيب الحفصي، ومحمد بن أدهينة بن الحاج عيسى، وعمر بن الساسي؛ وكلف أدهينة بن الحاج عيسى بمرافقتهم إلى تونس

---

(١) الأغواط: مدينة في شمال وادي ميزاب، تبعد عن مدينة بريان أول مدن ميزاب من جهة الشمال بثلاثة وسبعين ميلاً ونصف الميل. وهي في جنوب مدينة الجزائر وتبعد عنها بمائتي ميل وثلاثة أميال. والأغواط مدينة جميلة في شمال الصحراء. تمتاز بحسن موقعها، وجمال تكوينها وسحرها الخلاب! فهي مدينة تجمع بين سحر الصحراء وجمالها، وحسن الشمال وفتونه. والأغواط مدينة قديمة بنيت على وادي - أمزي - وهو واد كبير ينحدر من الجنوب الشرقي لجبال عمور في الشمال، فيمر على الأغواط، ويذهب مشرقاً في جنوب الأطلس الصحراوي فيسقي بلاداً كثيرة، حتى ينتهي في سباخ- ملفيغ - في جنوب «سيدي عقبة» وهو أكبر واد في الصحراء.

وتنظيم امورهم، ومتابعة دراستهم والاهتمام بهم - كلما توافرت فرصة من أدهينة لزيارة تونس في اموره التجارية - وقد اضطلع هذا بواجبه على أكمل وجه، فلم يشعر الطلاب بأية معاناة أثناء تعلمهم.

وبعد أن أكملوا دراستهم عادوا إلى الجزائر لمتابعة الجهد الذي بدأه شيخهم مبارك. فتكونت بذلك القاعدة الإسلامية الصلبة في الأغواط. حيث عمل الشيخ أحمد بن التهامي شطة والشيخ أبو بكر ابن بلقاسم الحاج عيسى ومعهما رجال الإصلاح على انشاء مدرسة الشبيبة في سنة ١٩٤٥، وتم الانتهاء من إقامة هذه المدرسة وبنائها في سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧م). وحضر حفل تدشينها الشيخ الإبراهيمي والشيخ ابراهيم بن عمر بيوض. وكانت إقامة هذه المدرسة تتويجاً للجهود التي بذلها الشيخ مبارك في الأغواط.

تابع الشيخ مبارك جهاده في كل الميادين التي اقتحمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، غير أنه لم تتح له فرصة اقتطاف ثمار جهده، أو رؤية آثار عمله - شأنه في ذلك شأن أستاذه وشيخه عبد الحميد بن باديس، فمضى للقاء ربه يوم الجمعة ١٣٦٤ هـ = ٩ شباط (فبراير) ١٩٤٥، عن عمر يناهز (٤٨) عاماً. تاركاً وراءه لدنيا الجزائر أثراً لا يمحى (هو تاريخ الجزائر الحديث) ومخلفاً من بعده أجيالاً تسير على نهجه وتكمل أداء «الرسالة الخالدة» رسالة الإسلام والعروبة والجزائر.

ج ـ الشيخ أحمد توفيق المدني

ما من كتاب صدر عن الجزائر، أو تعرض للجزائر، خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٢٥ـ ١٩٨٠ إلا وكان للشيخ أحمد توفيق المدني ذكره مقترناً بأفضل ما يطمح إليه الإنسان من الذكر الحسن والإشادة بأجمل الفضائل. وإذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على الأثر العميق الذي تركه في حياة الجزائر الدينية والاجتماعية والسياسية خلال مراحل الجهاد الأفضل والصراع الأمثل.

وقف الشيخ أحمد توفيق المدني، وإلى جانبه القائد فرحات عباس، في نيسان- إبريل- ١٩٥٦ ليعلن من القاهرة، تأييد جمعية العلماء للثورة، وانضمام مجاهديهم إليها وكان ذلك تحولاً حاسماً في حياة الثورة. لكن قصة الشيخ المدني لم تبدأ في هذه المرحلة، إن قصته مع الثورة قصة طويلة تعود إلى نعومة أظفاره، وأيامه الأولى مع الحياة، لقد خلق ليكون ثائراً.

ويتحدث الشيخ أحمد توفيق المدني عن حياته، فيقول: «في إحدى الديار العربية التي يرجع عهد بنائها إلى العصر الحفصي الأخير بتونس، ولدت يوم ١ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٩٩- الموافق ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣١٧ هجرية. سليل عائلتين من كرام المهاجرين المجاهدين الجزائريين. أما الأب فهو محمد بن أحمد بن محمد المدني مولداً، القبي الغرناطي، من السادة الأشراف. ولد بالحضرة الجزائرية، وتلقى علومه العربية بالجامع الكبير، وكانت به بقية من كبار علماءالجزائر.أما جده فقد كان أمين

الأمناء، أي شيخ بلدية العاصمة الجزائرية. ثم اعتزم الهجرة مع والده إلى تونس عندما اشتد الاضطهاد الافرنسي بمدينة الجزائر. واستقر حيناً ببلاد الجرجرة الأبية. وكان ذلك سنة ١٨٧٠. ووقعت الثورة الكبرى التي تولى كبرها المجاهدان المقراني وابن الحداد، فشاركا فيها إلى أن انهـارت. وتعارفا يومئذ مع جدي للأم- الصالح الشيخ عمر بويراز، الذي كان بدوره قاصداً مدينة تونس، مهاجراً مع أخيه عبد الرحمن، واشترك هو وأخوه في أعمال الثورة، ثم انتقل الجميع بعد ذلك إلى تونس في قافلة واحدة».

ويتحدث الشيخ المدني عن طفولته: «هل كنت حقاً صبياً؟ إنني لفي شك من ذلك مريب؟ لقد كانت الحياة في منزل فخم، جمع الأب والأم والابن، حياة ناعمة سعيدة، لا يؤرقني فيها إلا ما كنت أصغي إليه من حديث الأب والجد والخال عندما يزوروننا، ليتبادلوا أحاديث السمر، وليجتروا ذكر فظائع الاحتلال الإفرنسي، وذكر استحواذ الافرنسيين على سلطة ونفوذ في البلاد التونسية- اعتباراً من سنة ١٨٨١-. . . وكنا قبل العشاء نحيط بجدي- عمر بويراز- ونتحلق حوله رجالاً ونساء وصبياناً، فيلقي علينا كل ليل درساً في الدين والأخلاق، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يعرج- كل يوم- على ذكر الاحتلال الافرنسي بالجزائر ومآسيه وفظائعه ومذابحه وقذارته، الى أن يستفز شعورنا، وإلى أن تسيل دموعنا، ويقول لنا كلمة لم نكن نفهمها يومئذ وفهمناها فيما بعد: «إن هذه الدموع هي خميرة المستقبل». ثم نصلي العشاء جماعة، وهو يؤمنا. ونتركه بعد ذلك لتهجده واذكاره. ونسير جمعاً إلى غرفة خالي- محمد بويراز. فيأخذ في الحديث الثائر المهيج

الهادف، ويحتد في حديثه وهو يتعرض لحالة الإسلام والمسلمين. وعن اعتداء أعداء الإسلام على بلاد الإسلام، وأن ما سيأتي به المستقبل هو أدهى وأمر، نظراً لفراغ البلاد الإسلامية من الدعاة المرشدين. واشتغال كل مسلم بما يعنيه خاصة».

بدأت حياة أحمد توفيق المدني بكتاب من كتاتيب العاصمة تونس، ولم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره. لينتقل في سنة ١٩٠٩ إلى المدرسة الأهلية القرآنية، ومنها إلى الجامع الأعظم (جامع الزيتونة) في سنة ١٩١٣. (والمدرسة الخلدونية- التي تعد تكميلية للدراسة الزيتونية). وأظهر خلال ذلك قدرة خطابية مثيرة، وكفاءة عالية في الكتابة دفعته إلى تحرير عدد من المقالات الوطنية والاجتماعية والسياسية، نشرها في صحيفة (الفاروق)التونسية- التي كانت تصدر أسبوعياً. (وكان ذلك في سنة ١٩١٤). وعندما انفجرت الحرب العالمية الأولى، كوّن خلية من رفاقه للتحريض على الثورة ضد فرنسا. فكان أن اعتقلته السلطات الإفرنسية في تونس يوم ١٤ شباط- فبراير- ١٩١٥ وألقت به في السجن حتى شهر تشرين الثاني-نوفمبر - ١٩١٨. وقد أفاد من فترة السجن لمتابعة تعليمه الديني ودراسة اللغة الافرنسية حتى أتقنها. وعندما خرج من سجنه، كان إنساناً جديداً قد صلب عوده، وتكونت شخصيته، واتسع أفقه، رغم حداثة سنه.

أدى هذا النضج المبكر، بالمجاهد الشاب أحمد توفيق المدني، الى الالتقاء مع جيل رواد الجهاد، حيث تم له التعارف في تونس مع الشيخين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير

أحمد توفيق المدني، في افتتاح معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة سنة ١٩٤٧ ، والى جانبه الشيخ خير الدين.

الإبراهيمي واللذين سيكون لهما أثر كبير في حياته. كما ساعده ذلك على التحرك السياسي مع الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي ـ مؤسس حزب الدستور التونسي ـ وذلك في سنة ١٩١٩. وفي ٢٩ أيار ـ مايو ـ عقد الحزب مؤتمراً له ـ في منزل الشيخ حموده المنستيري بالمرسى، وبرئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وتقرر انتخاب أحمد الصافي أميناً عاماً للحزب وأحمد توفيق المدني ـ أميناً عاماً مساعداً للقلم العربي. وأعيد تنظيم الحزب، فكان أعضاء اللجنة التنفيذية يضمون ٢٧ رجلاً. غير أن حزب الدستور لم يلبث أن انهار تحت ضربات الاستعمار الافرنسي ومؤامراته. وتم إبعاد «أحمد توفيق المدني» إلى الجزائر يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٢٥. حيث انفتحت له آفاق جديدة للجهد والجهاد.

كان أول لقاء له مع شعب الجزائر في حفل الشبيبة الإسلامية بالجزائر في ليلة ٢٧ رمضان من سنة ١٩٢٥. ووصف هذه الليلة بأنها (من أسعد ومن أغرب ومن أثرى ليالي حياته) اندفع فيها بحماسته المعهودة وهو يلقي خطابه على حضور زاد عددهم على (٥٠٠) جزائري. وختم خطابه بقوله: «ليكن شعاركم في حياتكم أيها الأحرار الأبرار: الإسلام ديننا، العروبة لغتنا، الجزائر وطننا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». وقد أشعره تجاوب الجمهور معه بضرورة العمل بحماسة أكبر.

عمل بعد ذلك على تأسيس (نادي الترقي) ليكون قاعدة للعمل الديني والسياسي والاجتماعي وذلك في سنة ١٩٢٧. وفي هذا النادي ذاته تشكلت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة

١٩٣١. وكان لأحمد توفيق المدني دور هام في تشكيل هذه الجمعية وتنظيمها. كما كان في جملة نشاط نادي الترقي:

١ـ تأسيس جمعية الفلاح. ٢ـ جمع شمل وحدة النواب الجزائريين المسلمين. ٣ـ تنظيم اجتماع مؤتمر طلاب شمال أفريقيا. ٤ـ تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية الكبرى. ٥ـ مقاومة سياسة التجنس والاندماج. ٦ـ مساعدة الكفاح الفلسطيني. ٧ـ محاولة تكوين البنك الإسلامي الجزائري. ٨ـ مقاومة التبشير المسيحي. ٩ـ تكوين جمعية الزكاة. وقد تعثرت هذه المشاريع في حين حقق بعضها نجاحاً رائعاً في تحقيق بعض أهدافها؛غير أن مجرد استعراض «نوعية هذه المشاريع» هو أمر كاف لإبراز فضائل القدرة المحركة الكامنة وراءها.

عرف عن الشيخ أحمد توفيق المدني أنه منظم رائع أكثر منه خطيباً في المحافل، وأنه خطيب مفوه أكثر منه شاعراً، وانه شاعر أكثر منه كاتباً صحفياً، وكاتب صحفي أكثر منه باحثاً ومؤلفاً. وقد كانت هذه المواهب أو الكفاءات المتنوعة التي تحقق التكامل أكثر مما تسبب التنافر، هي أفضل سلاح للشيخ المدني في جهده الصادق وجهاده الميمون. فمضى يحارب على كل الجبهات، ويخوض الصراع في كل الميادين. وكانت الصحافة هي مجاله الأول وميدانه الأفضل نظراً لمعرفته بما كان للكلمة من أثر بالغ في استثارة الجماهير. وهاهو نموذج عن مقالة له تحت عنوان «بين الموت والحياة»، وموقعة بلقبه«المنصور»[1]؛جاء فيها هجوم حاد

(١) مجلة الشهاب ـ العدد ٣ ـ المجلد السادس ـ ٢٧ شباط ـ فبراير ـ ١٩٣٠.

على سياسة الدمج و «التفرنس» وتضمنت ما يلي: «طريقان قد فتحا اليوم في وجه- الجزائر الفتاة- وعلى رأس كل من الفريقين جماعة ترغب الناس سلوك ذلك الطريق وتعدهم الوعود، وتمد لهم في الأماني. **أما الطريق الأول**: فهو طريق التجنس والتنازل عن القومية واللغة، ونبذ التاريخ والتقاليد، والدخول في جنسية جديدة هي جنسية العنصر الغالب، والاندماج فيها. وقبول ما يتبع ذلك التجنس والاندماج من أخلاق جديدة، ولغة جديدة وعقلية جديدة. ودعاة هذا الطريق يبثون دعوتهم بجد ونشاط، يكتبون ويخطبون ويحادثون وينشرون الصحف والمجلات باللغة الإفرنسية طبعاً، ويريدون أن يؤثروا على الطبقات المتعلمة في المدارس الافرنسية والمتشبعة بالأفكار الافرنسية. **وأما الطريق الثاني**: فهو طريق المحافظة على الذاتية الجزائرية، أي المحافظة على دين البلاد وعلى لغتها، وعلى تقاليدها، وعلى مدنيتها الخاصة، وعلى توثيق الرابطة بين حاضرها وبين تاريخها المجيد. والأخذ من ثمرات المدنية الغربية بكل نافع مفيد، لا يمس العقيدة الدينية والوطنية، ولا يعتدي على كرامة البلاد، ولهذا الطريق أنصاره ودعاته حتى من بين طبقة الشبيبة المتعلمة في المدارس الافرنسية، **فأي الطريقين يجب أن تسلك الجزائر، وهي في فجر نهضتها الحديثة؟**...

لقد أخفقت سياسة التجنس والاندماج تماماً، وأفلست كل الإفلاس. وهكذا يخيب ويفلس كل أمر مخالف لسنن الطبيعة وقوانين الاجتماع. فلم يتجنس المتجنس إذاً، ويقدم على التضحية بدينه وقوميته؟ اللهم إلا إذا كان يرى دينه منحطاً فيريد أن

يتبرأ منه، ويرى لغته ساقطة فيريد أن يستبدل بها غيرها، ويرى أن أمته سافلة فيريد أن يعتز بأمة أخرى، ويرى تاريخه بشعاً فيريد أن يقطع الصلة بينه وبينه. فهو يصبغ نفسه صباغاً خشناً، ويحشر نفسه في زمرة قوم ليس منهم وليسوا منه. ويغدو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ومثل هذا الرجل قليل في الجزائر والحمد لله. **المسألة الموضوعة أمامنا الآن، هي مسألة المحافظة على الإسلام وعلى العربية. وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون برنامج الجزائر بأسرها في حاضرها ومستقبلها. وكأن الجزائر اليوم غير شاعرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التي نراها رأي العين أمامنا. كأنها ليست شاعرة بأن الإسلام في الجزائر سائر في طريق الموت. وكأنها ليست شاعرة بأن العربية في الجزائر سائرة نحو الاضمحلال. وكأنها ليست شاعرة بأنها إذا فقدت إسلامها وعروبتها فقدت كل شيء ولم تنل شيئاً. وكيف نريد أن يحيا الإسلام وأن تحيا العروبة في الجزائر. إذا كان الشعب الجزائري لا يعمل العمل الجدي الصالح في سبيل تلك الحياة؟.**

تظنون أن الإسلام يستطيع أن يعيش إسلاماً تقليدياً على مر الدهور كما هو الآن عائش في أوساطنا؟ وإذا كنا لا ندرسه ولا نبث دروسه في كل الأوساط وفي مختلف الجهات، فماذا يبقى لنا منه بعد جيل آخر؟ والعربية، كيف تستطيع أن تعيش وأن تقاوم في سبيل الحياة، إذا نحن أهملنا دراستها إهمالاً، ونبذنا أمرها ظهرياً؟ وعلى من تريدون أن تعتمدوا لحفظ دينكم ولغتكم؟ أتعتمدون على الحكومة؟... إن كانت الأمة تريد لنفسها الحياة في ذاتيتها، فليس عليها إلا أن تقوم وحدها بكل الجهود، وتنتشل بأيديها

أبناءها من هذه الحالة البائسة، وهذا هو وحده واجب الأمة اليوم. وهذا هو موقفها بين «الموت والحياة». . . .

فيا شعب الجزائر: عربيتك ودينك في حالة تلاش واضمحلال، وناشئتك في جهل وإهمال. وإن مستقبلك كأمة إسلامية هو بين يديك. فإن شئت عملاً صالحاً فهذا أوان العمل الصالح. ولا يكون العمل منتجاً مثمراً إلا إذا كان رائده التضحية والاتحاد، ونبذ كل شقاق وخلاف، وعدم النظر إلا للواجب المفروض. . . لسنا الآن في وقت يسمح لنا أن نتشاجر فيه وأن نختلف، بل نحن في وقت يوجب علينا أن نوحد الجهود. وأن نكون صفاً واحداً يعمل بعزيمة لا تلين في سبيل الله والأمة والوطن».

ويقرن «المدني» القول بالعمل، وهو ما تبرزه الحادثة الطريفة التي يعرضها ـ المدني ذاته ـ بقوله: «كنا في قاعدة ـ نادي الترقي ـ وعلينا كآبة وفي نفوسنا هم ـ بسبب الاستعدادت الافرنسية للاحتفال بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر ـ وإذا بالسيد محمد بلحاج مدير المدرسة الثعالبية الكبرى وأحد كبار الملحدين والمتفرنسين، يخبرنا بأنه قد ولد للسيد «ساطور» زعيم المتجنسين ولد بالأمس، فأطلق عليه اسم «كريستيان» أي «المسيحي» ونظر إلي نظرة شماتة، لأنه علم أن الأمر يؤلمني ويمعن في تعذيبي. قلت للناس من حولي؛ انظروا: هذه هي نتيجة التجنس بالجنسية الإفرنسية! وشاء ربك أنني رزقت بولد في نفس الليلة، هو مرلودي الأول، فأطلقت عليه إسم «إسلام».

وذهبت من الغد إلى النادي. واجتمع الناس، وكان بلحاج حاضراً، فوقفت وقلت: يا جماعة! بالأمس ولد لزعيم المتجنسين ولد دعاه «كريستيان» واليوم أبشركم بأنني رزقت ليلاً بولد دعوته «إسلام». ففي هذين الاسمين منهاج سياستين: سياسة التجنيس تجعل أولادكم «كريستان» وسياسة الإسلام والعروبة والوطنية تجعل أولادكم «إسلام» فاختاروا، وأنتم الآن على بينة من الأمر. وصفق القوم طويلاً. أما محمد بلحاج فقد اصفر لونه، وتلعثم لسانه، وقال بعد لأي: لقد جنيت على ولدك جناية لن يغتفرها لك إذ أطلقت عليه هذا الاسم. ونظرنا إليه جميعاً نظرة احتقار وازدراء. وأقسم بالله إنني لم أعد منذ ذلك اليوم أسمع في النادي كلمة تجنس، ولا تجنيس. ماتت الفكرة إلى الأبد. ولم نر وجه محمد بلحاج بعدها إطلاقاً»(١).

ويمضي الشيخ مدني على درب الجهاد، بالكلمة والعمل، مركزاً جهده باستمرار على قضية «الأصالة الذاتية للجزائر» وهي الأصالة المرتبطة أبداً بالإسلام والعروبة. ويحدث في سنة ١٩٣٤أن دفعت الإدارة الافرنسية بعض أذنابها للتقدم بطلبات أبرزها «١ـ إلغاء مساجد المسلمين. ٢ـ إغلاق المدارس التي تعنى بتعليم القرآن الكريم. ٣ـ تقييد حرية الصحافة في الجزائر» وتثور الجزائر من أقصاها إلى أقصاها. وينتصب الشيخ المدني عملاقاً وهو يمتدح أصالة شعبه ويهاجم بعنف وجرأة الاستعمار وأذنابه. فيقول:

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ / ١٦٧ ـ ١٦٨.

«احتقروها واستصغروها، وتهاونوا بأمرها، وغرهم منها طول السكوت وطول الاستسلام، وخالوها ميتة فاستنسروا، وحسبوها جثة هامدة فتنمروا. وراموا الإجهاز على ما بقي فيها من بقية الحياة، بحسب ظنونهم، فتآمروا وقرروا ما قرروا، والله من ورائهم محيط. تحدوها امتهاناً وصغاراً، فاذا بها ترفع ذلك التحدي بأنفة وكبرياء. وقرروا فيما بينهم موتها، فاذا هي تقرر على رؤوس الملأ حياتها الخالدة. كذبت أمانيهم، وسفهت أحلامهم، وأرتهم رأي العين كيف تكون الأمم الناهضة وكيف تكون الشعوب المستيقظة، وكيف تتقدم في ميدان العمل السلمي المشروع أمة تتوثب للسعادة فأرادوا لها الشقاء، وتتطلع للحرية فصاغوا لها قيود الاستعباد. وتريد أن تتقدم مع المتقدمين، فأرادوا لها التقهقر مع الغابرين».

وكم كانت أمة الجزائر الحية الحساسة بديعة في مظاهرها القوية الناطقة. وكم كانت جليلة رائعة. يوم نطقت فيها مئات آلاف من الألسنة والقلوب. في تلمسان، وفي قسنطينة، وفي بونه، وفي جيجل، وفي بسكره، وفي قالمة، وفي سوق أهراس، وفي عشرات من المدن والقرى، فكان نطقها رهيباً، وكان صوتها مدوياً مسموعاً، وكانت كلماتها الصادرة عن يقين وإيمان تسمع حتى الصم، وتنفذ حتى إلى القلوب الغلف التي هي كالحجارة أو أشد قسوة. كانت موجة الاستياء عظيمة لم تر البلاد مثلها فيما سلف. وبلغت القلوب الحناجر لما لحق بها من ألم وكمد. وكاد اليأس يستولي على الأنفس فيقودها حيث يقود اليأس

هادة الأنفس المستاءة. لولا حكمة أصيلة كبحت جماح النفس وألزمتها السكينة والهدوء...

وبلهجة ساخرة، مريرة، يقول الشيخ المدني: تمخضت أمة الجزائر مائة وأربعة من الأعوام فولدت... حسن الدواجي قاضي تلمسان، وابن عبد الله نائبها المالي، وابن علي الشريف نائب مالي بلاد القبائل، وغرسي نائب مالي مليانة، وسي جلول خليفة الأرباع. وهم أبطال هذا العصر ومعجزة هذا المصر، أتوا بما لم يأت به الأوائل ولا الأواخر، واقترحوا على الإدارة الإفرنسية من المقترحات ما به تزول الكروب، وتنجلي الخطوب، وتنتهي الأزمة وينقذ الفلاح، وينتهي خطر المرابين، ويتعلم التسعة والسبعون بالمائة من أبناء الأمة الأميين، ويتبدل شقاء الجزائر سعادة، وفقرها غنى ومسرة، وروعها أمناً واطمئناناً، اقترحوا- ويا للعار والشنار- هذه المقترحات التي سولت لهم أنفسهم اقتراحها:

أولاً: تأييد غلق مساجد المسلمين التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه، في وجه علماء المسلمين غير الرسميين، الذين يريدون أن يقوموا بما أوجبه عليهم ربهم من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد. لم يكتف هؤلاء السادة بقرار عامل عمالة (ولاية) الجزائر، فهم يريدون تأييد ذلك القرار بقانون رسمي.

ثانياً: القضاء النهائي على البقية التي سلمت إلى هذه الساعة من التعطيل، من المدارس القرآنية الحرة التي تلقن أبناء المسلمين كلام الله وآيات الذكر الحكيم، حيث لا يوجد ذلك في

مدرسة أخرى. بدعوى أن تلك المدارس لا تخضع لقواعد الصحة، ولا تخضع للحكومة. وما كنا نعلم قبل هذا الاكتشاف الخطير أن في الجزائر مدارس لا تخضع للحكومة ولا لقوانينها.

ثالثاً: تقييد حرية الصحافة بالجزائر، لا الصحف العربية التي لا توجد في الدنيا بأسرها صحافة أضيق منها حرية، ضرورة أن يكون للوالي العام حق إغلاقها متى شاء، وكما أراد، بواسطة قرار يصدره بصفته نائباً عن وزير الداخلية، بل الصحف الإسلامية التي تصدر باللسان الافرنسي والتي يديرها رجال يحملون الجنسية الافرنسية. تلك الصحف التي تخضع للقانون العام، قانون الصحافة الشهير، الذي نسمع به نحن مجرد السماع فقط، قانون ١٨٨٢، تلك الصحافة، هي التي يريدون أن يقيدوها ويكمموها، حتى لا يبقى للمسلم الجزائري صوت يسمع وكلمة تقال. بدعوى أن هذه الصحف تعمل ضد نفوذ فرنسا بالبلاد. وهل نفوذ فرنسا بهذه البلاد مزعزع إلى الدرجة التي تخافون معها أن تقضي عليه الصحافة التي ليست هي بشيوعية ولا بثورية، إنما قصاراها أنها تقول كلمة حق»

* * *

وتتعاظم قوة المقاومة في المغرب العربي- الإسلامي الخاضع لحكم فرنسا. وتفشل كل الوسائل القمعية والأساليب القهرية في إعادة العملاق الجزائري إلى قمقمه. وتشعر فرنسا بقوة الضرام الكامن خلف الرماد، وتتزايد مخاوفها مع اقتراب نذر الحرب العالمية الثانية. ويكتب الشيخ المدني في تشرين الأول- أكتوبر-

١٩٣٧. ما يلي: «نعم! في الشمال الأفريقي هيجان، وفي الشمال الافريقي اضطراب، وفي الشمال الأفريقي حركة تذمر واحتجاج عنيفة وبعيدة الغور. ولسنا نحن الذين ننكر ذلك أو نحاول التخفيف من حدته في نظر الحكومة. إنما نحن نسأل حكومة فرنسا وحكومة الجزائر، ونسأل كل عاقل مدرك في هذه الدنيا: هل يمكن أن يركن إلى جانب التهيّج، وأن يستاء وينزعج، وأن يصل إلى درجة اليأس، شعب قانع بما لديه من سعادة، راتع في بحبوحة العيش الهنيء متمتع بإدارة حازمة تضع دواءها على موضع دائه ساعة أن يحس بوجوده، وحكومة عطوفة تسهر على صالحه، وتجيب في التو والحين رغباته، وتغدق عليه من ضروب الخير والنعم أصنافاً وألواناً، وتمكنه من وسائل العلم النافع والعمل الصالح؟».

ويعود الشيخ المدني في شهر تشرين الثاني- نوفمبر- ١٩٣٧، لمعالجة «مشكلة الجزائر» فيقول: «**إن العصر عصر قوة لا عصر حق. فما دمنا نقدم الحق وندافع عنه بصفته حقاً لا يعتمد إلا على النظريات والأقوال، فسوف لا نلاقي في نضالنا إلا الخيبة والفشل. علينا أن نكوِّن أنفسنا تكويناً جديداً قوياً. تكون قوّتنا فيه مادية فعّالة، قوة كفاح سلمي مشروع يعتمد على المال الوفير والرجال الأقوياء المتعاضدين. عندئذٍ، وعندئذ فقط، إن تكلّمنا استمع الناس لمطالبنا، وإن اتجهنا نحو الحكومة عاملتنا كما تعامل الأقوياء، لا كما تعاملنا اليوم**».

لم يكن الشيخ المدني محصوراً في دفاعه عن المسلمين

بالحدود الجغرافية للجزائر المجاهدة، شأنه في ذلك شأن كل الشيوخ في رابطة العلماء الجزائريين، وشأن معظم الذين تصدوا لقيادة الصراع ضد الاستعمار الافرنسي. لقد أدرك الجميع أن معركة الجزائر هي جزء من الحملة الصليبية الشاملة ضد العالم الإسلامي- العربي. وعلى هذا لم يكن من الغريب أن يتصدى الشيخ المدني لمعالجة قضايا العالم الإسلامي، وأن ينقلها إلى صفحة الجزائر، بمثل ما ينقل صراع الجزائر إلى أفق العالم الإسلامي. وفي حديثه عن فلسطين،في تموز- يوليو- ١٩٣٧ جاء ما يلي: «كان آخر اختراع أنتجته المخيلة الاستعمارية الانكليزية هو تجزئة فلسطين إلى ثلاثة أقسام: قسم شرقي جبلي يقع ضمّه إلى مملكة شرقي الأردن التي يتولى أمرها الأمير عبد الله، وقسم غربي يشمل سواحل فلسطين الشمالية وأخصب بلادها ويكوّن دولة يهودية مستقلة تمام الاستقلال لها حكومتها وإدارتها ودستورها. وأخيراً قسم ثالث يشتمل بيت المقدس وسواحل حيفا، ويبقى تحت الانتداب الإنكليزي بدعوى حماية الأرض المقدسة ومجرى نفط الموصل. ففلسطين التي اقتطعت أول مرة من بلاد الشام، ثم نكبت بالاستعمار الصهيوني، يريدون أن ينكبوها أخيراً بتقسيم جديد يمزّق أوصالها، ويجعل فيها لليهود دولة رسمية ذات استقلال تام. ثم تبقى المدينة المقدسة تحت نير الوصاية إلى أن يقع تمهيدها للصهيونية فتزدردها. وقد اجمعت كلمة العرب في فلسطين على رفض هذا المشروع الخاسر، وأجمعت كلمة العرب في العالم أجمع على تأييد هذا الرفض الأبي لأنه لا يوجد من يجري في عروقه دم العروبة الحار، ويرضى

مثل هذه المذلّة والمهانة- ويخلص إلى القول- إن قدر الله وضاعت فلسطين، فإنها والله لن تذهب ضحية الصهيونيين، بل هي تذهب ضحية المسلمين الجامدين، وضحية ملوك المسلمين المتغافلين. فيا عامة المسلمين ويا خاصتهم، ويا ملوكهم وأمراءهم وقادتهم، هذه فلسطين الشهيدة ضائعة متلاشية فماذا أنتم فاعلون؟».

..*

ويمضي الشيخ المدني في ممارسة دوره، ملتزماً بما حدده لنفسه من منهج في الحياة- حراً خلقت وحراً أعيش وحراً أموت. ومن موقع الحرية هذا ينطلق للتبشير بثورة التحرير (١٩٥٤)؛ حتى إذا ما تفجّرت، انطلق وإخوانه لدعمها بصورة سرية، حتى إذا ما اعتقل الشيخ التبسي في سنة ١٩٥٦ وضاقت آفاق العمل السياسي، انتقل برفقة عباس فرحات إلى القاهرة لمتابعة الصراع السياسي. وتنتصر الثورة، وتعود الجزائر لتحتضن أبناءها الذين ما عرفوا في يوم من الأيام إلا الحب لها والعمل في سبيلها. وينتقل الشيخ المدني من مجال العمل السياسي إلى مجال البناء. وتبقى الكلمة رائده. فينطلق إلى عالم التأليف. وتصدر له مجموعة من الكتب (عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) أهمها (حياة كفاح) في جزئين. والمأمول أن توافق الحكومة الجزائرية في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد- الرجل الثائر- على الإفراج عن الجزء الثالث من هذه المذكرات[١]. هذا بالإضافة إلى ما سبق له نشره،

---

(١) قدم الشيخ أحمد توفيق المدني مشكوراً للمؤلف مجموعة كتبه وذلك أثناء زيارة =

بداية من تقويم المنصور ورواية وحرب الثلاثمائة سنة بين إسبانيا والجزائر وتاريخ الجزائر وإسهامه بتاريخ الجزائر الحديث (الذي وضعه الشيخ مبارك بن محمد الميلي). واليوم، وقد بلغ الشيخ المدني الثمانين من العمر- لا زال يتدفق نشاطاً وحيوية وهو يدير (المركز الوطني للدراسات التاريخية- الجزائر) ولا زال يسهم بالبحوث الغزيرة في (مجلة التاريخ) الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية، والتي يرأس تحريرها أيضاً. **ويضيق المجال عن ذكر ما قدمه هذا الشيخ المجاهد بحق لأمته الإسلامية وشعبه العربي ووطنه الجزائري: إنه سيف من سيوف الإسلام والعروبة والجزائر.**

د - الشيخ الطيب العقبي:

إنه من مواليد الفترة الأخيرة من القرن الماضي- التاسع عشر- أمضى في «المدينة المنورة» المرحلة الأولى من شبابه- قبل الحرب العالمية الأولى، وعاصر الثورة العربية في سنة ١٩١٦، واتهم بالمساهمة فيها من قبل الأتراك، فنفي إلى تركيا، ثم رجع إلى «مكة المكرمة» ليدير جريدة «القبلة» و«المطبعة الأميرية» في حكم الحسين بن علي شريف مكة. ولم يلبث طويلاً، حتى عاد إلى وطنه الجزائر، التي استقبلته، داعياً مصلحاً وشاعراً وكاتباً

= المؤلف للجزائر في صيف سنة ١٩٧٩. وقد أسهمت هذه الكتب والمؤلفات في إغناء البحوث التي يتم تقديمها للقارىء في إطار هذه المجموعة من الكتيبات عن الجزائر المجاهدة. فللأستاذ المدني شكر المؤلف وتقديره. (انظر قراءات ٢).

وخطيباً. ولم يلبث أن أسّس جريدة «الإصلاح» في بسكرة سنة ١٩٢٦، فكانت إحدى الصحف التي رفعت راية الريادة في إيقاظ النهضة الفكرية الإصلاحية، والتي قال عنها «الشيخ بشير الإبراهيمي» ما يلي: «ثم أسّست جريدة (الإصلاح) ببسكرة، فكان اسمها أخف وقعاً، وإن كانت مقالاتها أسدّ مرمى، وأشد لذعاً. وأسماء الجرائد كأسماء الأناسي، يظن الناس أنها وليدة الاختيار المقتضب، والشعور الطافر، وغلطوا. إنما هي وليدة شعور متمكّن، وتأثّر نفساني عميق، تزجيه مؤثرات قارة». وعندما التقى العلماء في «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ١٩٣١، كان الطيب العقبي أحد مؤسسيها الرئيسيين، ومن أبرز أقطابها العاملين. ويتحدث عنه الشيخ المدني بقوله: «كانت فصاحته تخلب الألباب، ذو صوت جهوري يؤثر على الجماهير. كما كانت لسيرته الفاضلة وسلوكه الديني النقي دورهما في التأثير على الجماهير تأثيراً عظيماً... كان العقبي عظيماً، مدهشاً، يخلب الألباب بسحر لسانه وبديع بيانه. فالتفت العامة حوله التفافاً رائعاً وساندته مساندة قوية». وعندما توجّه الوفد الوطني الجزائري إلى باريس سنة ١٩٣٦ برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس. كان «الشيخ العقبي» في جملة أعضاء الوفد. ويصف ابن باديس موقفاً من مواقف العقبي في هذه الرحلة، فيقول:

«فلما ترنحت السفينة على الأمواج، وهب النسيم العليل، هبّ العقبي الشاعر من رقدته، وأخذ يشنّف أسماعنا بأشعاره، ويطربنا بنغمته الحجازية مرة، والنجدية أخرى، ويرتجل البيتين والثلاثة والأربعة في المناسبات، وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز،

فلو ملك قيادة الباخرة، لما سار بها إلا إلى جدة دون تعريج على أي مرسى، وإن رجلاً يحمل هذا الشوق كله إلى الحجاز، ثم يكبته، ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها، لرجل ضحّى في سبيل الجزائر تضحية أي تضحية».

لقد عايش الشيخ العقبي حركة الإصلاح الديني التي انطلقت من الجزيرة العربية (الحركة الوهابية) ويظهر أنه تأثر بها إلى حد كبير. وعندما وصل الجزائر صدمته بدعة الطرقية وانحرافاتها، فانطلق في الهجوم عليها بعنف وقوة، مستخدماً موهبته الشعرية(١).

---

(١) نشر الشيخ العقبي في مجلة «الشهاب» الأسبوعية سنة ١٩٢٧ قصيدة جاء فيها:

هلم بنـا يـا قـوم نحـو العلا نـرقى
لتجديد دين الله فهو الذي يبقى
ودونكم أهـل الغـوايـة والـردى
ففيهم وعيد الله ، لا شك قد حقا
أناس دعوكم للضلال ، وناصبوا
ذوي العلم والتقوى العداء لهم حمقا
ألم يعلمـوا أن الجهـالـة غتيهـا
وخيم . وأن الجهل بالمرء كم يشقى
فويل ، وويل ، ثم ويل لجـاهل
قضى عمره بطلاً ولم يعرف الحقا
رمى جـانباً تلك العلوم التي بهـا
غدا الغير حراً عندما حرم الـرقا

(المرجع ـ صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي) ص ٢٨٣ - ٢٨٦ وانظر بقية القصيدة في آخر الكتاب ـ قراءات (٣).

وبلاغته النثرية لفضح الطرق ومشايخها، ولإسقاط الهالة الدينية التي كانوا يتسترّون بها.

استمر الشيخ العقبي، عنيفاً في هجومه، مقذعاً في نقده، مما أثار شيوخ الطرق ضده. وكانت جمعية العلماء قد تبنّت خطاً معتدلاً يرمي إلى جمع الشمل وإجراء الإصلاح من الداخل- بالحجة والإقناع واكتساب الوقت «وإقناع رجال الطرق بوجوب تطوير زواياهم حتى تصبح معاهد علم ونور وهداية- على نحو ما كان عليه أمرها عند ظهورها». وأدّى تطرّف العقبي في هجومه إلى أن انفكّت العصبة، وانحلّت الرابطة الأولى. وانسحب المرابطون من نادي الترقي ومن جمعية العلماء. ثم إنّ الشيخ العقبي ازدادت صلابته، حتى اصطدم برجال جمعية العلماء- مثل السيد عمر إسماعيل والعاصمي- واشتعلت نار حرب مؤلمة بين الجانبين. إلى أن جاء الاجتماع الثاني للعلماء فانسحب الطرقيون من الجمعية، ثم أسّسوا جماعة «علماء السنة».

وقعت بعد ذلك حادثة (مقتل مكحول) والتي سبقت الإشارة إليها (نهاية فقرة ٣- مدافع الله) وخرج العقبي من السجن، وهو غير العقبي الذي دخله. فأخذ في الإيضاح للادارة الافرنسية حتى إذا ما انفجرت الثورة التحريرية الكبرى (سنة ١٩٥٤). وقف منها موقف المشكّك بقدرتها على النجاح. وأصيب في أواخر أيامه بأمراض الشيخوخة، وتوفي سنة ١٩٥٦.

هـ ـ الشيخ التبسي:

هو العربي بن قاسم التبسي، من كبار علماء الإصلاح بالجزائر، عاش حياته مجاهداً «بتبسة» وقد سبقت الإشارة إلى بعض مواقفه في عرض سيرة «ابن باديس». وبقي في كل مواقفه ملتزماً بمواقف «جمعية العلماء». مؤيداً لها، منفذاً لمنهجها، وكان له فضل كبير في إيقاظ الوعي الإسلامي الصحيح. وقد يكون من المناسب اختصار كل صفحات جهاده المشابهة لكل صفحات إخوانه من أجل الوقوف على الصفحة الأخيرة منها:

«في مساء يوم الخميس ٤ رمضان ١٣٧٦ هـ الموافق ٤ نيسان- إبريل- ١٩٥٧، وعند الساعة ١١ ليلاً. اقتحم جماعة من الجند الافرنسي التابعين لفرق المظلات، المتحكّمين اليوم في الجزائر، سكنى فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ العربي بن قاسم التبسي، الرئيس الثاني لجمعية العلماء، والمباشر لتسيير شؤونها، وأكبر الشخصيات الدينية، بعد أن حطموا بعض نوافذ الأقسام المدرسية الموجودة تحت شقته (بحي بلكور) طريق التوت، وذلك شأنهم في إقتحام ديار المسلمين. لا يأتونها غالباً من أبوابها، وإنما من السطوح أو النوافذ، لتتم- حسب زعمهم- المفاجأة، أو ليشتد الارهاب والنكال. ثم طرقوا باب الشقة، ففتحت لهم، وكانوا يرتدون اللباس الرسمي للجيش الافرنسي، ومسلحين بأسلحتهم التي يحاربون بها الشعب، الجزائري والمدنيين المسلمين. وقد وجدوا فضيلة الشيخ في فراش المرض الملازم له. وقد اشتدّ عليه منذ أوائل شهر آذار- مارس- ١٩٥٧. وأخذت نوباته تتوالى عليه

عنيفة عدة مرات في الأسبوع. فلم يرعوا حرمته الدينية، ولا سنّه المتقدمة، ولا مرضه الشديد، وانتزعوه من فراش المرض بكل وحشية وفظاعة. ثم أخذوا في التفتيش الدقيق للسكنى والملفات والكتب والرسائل، بعد أن حجزوا عائلته، وفصلوه عن أبنائه وبناته. وانهالوا بالضرب على أكبرهم لما حاول مساعدة والده المريض، ثم أخرجوه حاسر الرأس، حافي القدمين غير متدثّر بشيء من لباسه المفضل، وأرغموه على ارتداء سروال ولده ـ البنطال الإفرنجي ـ ومعطفه، وكلاهما لا يصلح لباساً له لصغره. وكان من المحقق لدى العائلة أنهم ذهبوا به للتحقيق معه، وإنما عومل هاته المعاملة لأنهم لم يشاؤوا أن يميّزوه بشيء عن أفراد شعبه، زيادة في النكال والاستفزاز، وكان هذا شأنهم منذ التحصيل على التعويضات الخاصة في آذار ـ مارس ـ ١٩٥٦. وخصوصاً منذ أن «حجزت» الجزائر إلى قائدي فرق المظلات «ماسو ـ و ـ بجارد». ولكن المفاجأة كانت عندما سئل عنه، من الغد والأيام التالية، في الإدارات الحكومية المدنية والعسكرية والشرطة والعدلية، فتبرّأت كل إدارة من وجوده عندها أو من مسؤوليتها عن اعتقاله أو من العلم بمكانه. حتى وصل الأمر إلى الإدارة العليا بمقر الوزير المقيم والوالي العام، فتظاهرت بإنكار العلم، واستنكار «الفعل» ووعدت بالبحث. وقد بقيت المسألة كذلك إلى أن أرسل مراسل جريدة «لو موند» الباريسية بالجزائر، بخبر صغير، نشر في زاوية مهملة، يعلن فيه أن رجال المظلات، قد اعتقلوا الشيخ العربي التبسي، وهو عضو هام في جمعية العلماء، وأنه تحت أيديهم لأجل التحقيق والاستجواب. وكان

ذلك بعد يومين من الاعتقال. وإذا بمؤسسة الصحافة الافرنسية، وهي هيئة رسمية ـ تبادر بإذاعة بلاغ على العالم تزعم فيه أن الشيخ العربي التبسي قد اختطف من قبل مجهولين. ويظهر من هذا البلاغ المضلّل ـ أنها محاولة لتبرئة فرنسا من القضية.

وجمعية العلماء، تذيع على العالم أجمع أن الإدارة الافرنسية، المدنية والعسكرية، مسؤولة مسؤولية كاملة في قضية فضيلة الشيخ العربي، وتخشى أن تكون قد اغتالته يد العدوان أو مات تحت التعذيب، ولم يمكنها أن تدّعي أنه حاول الفرار، أو افتكاك السلاح من يد الجنود فقتل. كما لم يكن بمقدورها أن تدّعي أنه انتحر، وهو مقيّد اليدين والرجلين، بعد افتضاحها في قضية الشهداء: ابن مهيدي وبو منجل والعمران، فاخترعت هذه الدعوى لتبرر تنصلها من المسؤولية وعدوان أعوانها. وتلاحظ الجمعية أن فضيلة الشيخ العربي، كان في الزمن الأخير قبلة أنظارهم، ومحط آمالهم، لعلّهم يجدون منه ليناً أو تفهماً يشجعهم على اتخاذه المفاوض الصالح للفت من عضد الثورة، وتشتيت شمل الشعب. فما وجدوا فيه إلا الصلابة والحزم والتضامن الكامل مع شعبه المجاهد وجيش التحرير المحارب وجبهة التحرير المناضلة.

لقد زعم بعض المسؤولين، أن الشيخ ربما اختطف من قبل رجال الإرهاب المضاد. ثم زعموا في بلاغ أنه اختطف من طرف مجهولين. ثم بدأت بعض التعليقات الصحافية تزعم أن الذين اختطفوه هم الإرهابيون (وهي الصفة التي كانت تطلقها الإدارة

الاستعمارية على رجال جيش التحرير الوطني الجزائري). وإن جمعية العلماء تكذب كل تضليل في الموضوع، وتعلن للرأي العام الإفرنسي، وللرأي العام العالمي، أن الإدارة الافرنسية المدنية والعسكرية هي التي اعتقلته، وأن رجالها الرسميين هم الذين أخذوه، وانها تتحمل مسؤوليتها كاملة والأمة الجزائرية ، تهيب بكل ضمير حي في العالم، وبكل الهيئات الدولية والمنظمات الإنسانية والمذاهب الدينية، أن يتدخلوا في الموضوع، وأن يسألوا الحكومة الإفرنسية، ويجبروها على فتح تحقيق محايد، لكشف النقاب عن هذه القضية»[١].

وتلك كانت الصفحة الأخيرة في حياة الشيخ العربي بن قاسم التبسي.

---

(١) جريدة المقاومة ـ الجزائرية ـ ٢٢ نيسان ـ إبريل ـ ١٩٥٧.

٥ـ تيار الأصالة الثورية في الجزائر

يظهر العرض السابق أن الجزائر عاشت حياة الثورة الكامنة أحياناً والثورة الدموية في أحيان أخرى منذ أن وطئت أقدام الغزاة الاستعماريين ثرى الجزائر الطهور. غير أن قوة القمع الوحشية وأساليب الحرب الصليبية (الحضارية) تمكنت من إسقاط عدد كبير من المواطنين الجزائريين في شباكها ـ ولو أن هذا العدد الكبير بقي بالنسبة لعدد مسلمي الجزائر قليلاً ومحدوداً ـ وقد استطاعت الإدارة الاستعمارية الإفادة من هذه المجموعة الساقطة من المجتمع الجزائري ـ في تكوين تيار لا هو فرنسي ولا هو إسلامي، وظيفته خدمة المخططات الاستعمارية الصليبية في الجزائر، دون التمتع بأي امتيازات. وكان لا بد من خلق تيار مضاد، وهنا ظهر دور «رابطة علماء المسلمين الجزائريين» في تنظيم هذا التيار الذي كان موجوداً دونما ريب، غير أن هذه الرابطة استطاعت توحيد الجهد في تيار واحد، وفي ذلك ظهرت كفاءة القائد العظيم ابن باديس. وقد وصف الزعيم الجزائري ـ عباس فرحات ـ هذا التيار بقوله:

«وكان الجزائريون المتخرجون من جامعة الزيتونة في تونس، والأزهر في القاهرة، يجعلون من نهضة الإسلام والقومية العربية الشروط الأولى للنهضة الجزائريه. وكان أنصارهم من جماهير الفلاحين يشكلون عدداً ضخماً. فقد كان الشعب الجزائري الذي أرهقه حكم بوليسي، واستثمار عنصري، ينطوي على نفسه، ويتمسك بقوة بعقيدته الدينية وانتمائهالقومي»[1]. وكان لا بد لهذا التيار من أن يضم إليه بالضرورة كل أولئك الذين يلتقون معه فكرياً وعقائدياً، ممن يمثلون الطليعة الفكرية، سواء كان هؤلاء من رجال الصحافة أو من الشعراء أو من الأدباء. وكان لا بد لهذا التيار أيضاً من أن يؤثر بقوته على كل التيارات الفرعية التي تمارس عملها بعيداً عن التنظيم، إذا صح التعبير، ويمثل الفئة الأولى الشاعر الجزائري الثائر- محمد العيد- والأستاذ أحمد رضا حوحو، في حين يمثل الفئة الثانية الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض - قائد النهضة الإسلامية في ميزاب، ومعه الصحافي «أبو اليقظان».

هذه النماذج- وأمثالها مما يصعب حصره- هي التي عبرت عن تيار الأصالة الثورية، وإذا كان هذا التيار قد استطاع إبراز هذه النماذج ورفعها، فإنه كان ولا ريب تياراً عنيفاً، قوياً، جباراً، ضم جيوشاً من الجنود المجهولين الذين مارسوا دورهم بتجرد وإنكار للذات لا يعرفه إلا أولئك المتصوفة. وشتان بين الصوفية السلبية الهروبية، وبين هذه الصوفية المخلصة الإيجابية. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن هذا التيار هو نسيج متصل، شأنه في ذلك

---

(١) ليل الاستعمار (فرحات عباس) ترجمة وليم خوري- ص ٢٧٠

شأن كل تيار تاريخي، يتفاعل في الأعماق ليرسل بظواهره كلما كانت هناك ضرورة للظهور. ولقد اقترن هذا التيار- عبر مسيرته الشاقة- بمجموعة من الروافد الفرعية والتي كانت بدورها أيضاً من ظواهر الثورة العميقة والجانحة للتعبير عن وجود الجزائر الفتاة وما يتوافر لها من الحيوية، مثل «جمعيات الكشافة الجزائرية المسلمة» و «اتحاد الطلبة الجزائريين المسلمين» و «اتحاد الكتاب الجزائريين» وأخيراً «اتحاد العمال الجزائريين المسلمين» الذي انشق عن الحزب الشيوعي الافرنسي في ظروف حرب التحرير.

عند هذه النقطة تظهر أهمية الدور الرائد للشيخ عبد الحميد بن باديس ومدرسته الإسلامية التي مهدت السبيل بتضحياتها وجهودها أمام طريق الثورة، وفجرت الطاقات الكامنة في أعماق المجتمع الجزائري المسلم.

أ ـ الشاعر محمد العيد

قدمه المرحوم البشير الإبراهيمي، سنة ١٩٣٨ إلى حضور الاحتفال بختم- ابن باديس- رحمه الله لتفسير القرآن الكريم بالكلمة التالية: «ومن يعرف محمد العيد، ويعرف إيمانه وتقواه وتدينّه وتخلّقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره، إنما هي من آثار صدق الإيمان، وصحة التخلق. ويعلم أن من هذه الناحية بدع في الشعراء». وكان الشيخ الإبراهيمي قد ذكر قبل ذلك في سنة ١٩٣٧ ما يلي: «إذا كان في النهضة الأدبية العلمية بالجزائر نواحي نقص فمنها أن يبقى شعر

محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع»[1].

أما محمد العيد، فقد قال ـ في سنة ١٩٦٥ ـ معبراً عن أمنياته: «لي أمنيتان في هذه الدنيا، ومرحباً بعدهما بغفوة القبر. أن أحج إلى بيت الله الحرام. وأرى ديواني مطبوعاً بين أيدي القراء». وفيه كتب الأمير شكيب أرسلان ـ من جنيف سنة ١٩٣٧ ما يلي: «**كلما قرأت شعراً لمحمد العيد الجزائري، تأخذني هزة طرب، تملك علي جميع مشاعري وأقول: إن كان في هذا العصر شاعر يصح أن يمثل البهاء زهيراً في سلاسة نظمه، وخفة روحه، ورقة شعوره، وجودة سبكه، واستحكام قوافيه، التي يعرفها القارىء قبل أن يصل إليها، وأن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ـ يكون محمد العيد، الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاث ولا أمل. وتمضي الأيام وعذوبتها في فمي. كان يظن أن القطر الجزائري تأخر عن إخوته سائر الأقطار العربية في ميدان الأدب، ولا سيما في الشعر، ولعله الآن سيعوض الفرق، بل يسبق غيره بمحمد العيد**».

ذلك هو تعريف وجيز بالشاعر المجاهد الذي عانى من الحياة قسوتها وشظف عيشها، وعمل مدرساً في معهد «ابن باديس»

---

(١) صفحات من الجزائر (الدكتور صالح خرفي) ص ١٨٧ ـ ١٩٥. وفيه: «ما أمرها لحظة، وما أبلغها عظة أن يسأل المرحوم البشير الإبراهيمي في أيامه الأخيرة محمد العيد عن حاله، فيرد عليه بهذين البيتين:

يا سائلاً عنا، وعن أحوالنا ... هـذا لسان الحال عنا يخبر
أصحابنا رحلوا، وصرنا بعدهم ... غرباء، تنكرنا العيون، وننكر

وهدفه تنشئة جيل مؤمن صلب ـ كما قال هو ذاته عندما أنحى عليه أصدقاؤه واخوانه باللائمة لاختياره لهذا العمل الشاق، عمل التدريس[1] ومضى يضرب في الحياة مستنفراً الهمم، مثيراً للمشاعر، مؤيداً للاصلاح الذي قاده ابن باديس واضطلعت به جمعية العلماء. مغتنماً كل مناسبة للإشادة بالمسؤولين عن هذه الحركة المباركة. وهو الإنسان الجزائري المسلم، الذي سحقته قبضة الاستعمار بكل وحشيتها، لا يتناسى آلام قومه أو يتجاهلها، فينطق شعراً مثيراً يعرض فيه بأولئك المتخمين الذين أنستهم الدنيا مشاركة الفقراء في بؤسهم وشقائهم، وهو لا يفتأ في الإفادة من كل مناسبة للتعريض بالاستعمار الإفرنسي سبب كل البلاء وأس كل الشقاء الذي عاشه الشعب الجزائري المسلم على امتداد ليل الاستعمار. وهو على الرغم من الظلام الدامس الذي ميز ذلك الليل، وعلى الرغم أيضاً من الظروف الصعبة التي عاشها، لم ينقطع أبداً عن فتح نافذة الأمل أمام شعبه، مبشراً أبداً بحتمية الثورة وحتمية انتصار الجزائر المجاهدة وشعبها البطل. وكان مصدر تفاؤله هو إيمانه العميق بأصالة أمته التي عبرت عنها «جمعية العلماء الجزائريين المسلمين» التي اتخذت شعارها «الإسلام ـ العروبة ـ الجزائر».

---

(١) انظر (قراءات ـ ٤) في نهاية الكتاب.

ب ـ أحمد رضا حوحو

«على أثر إعدام المفوض الاستعماري «سانمار سيللي» في قسنطينة من قبل مجاهدي المقاومة السرية يوم ٢٩ آذار- مارس- ١٩٥٦ قامت القوات الافرنسية بحملة إرهابية عنيفة، اعتقلت خلالها وجهاء مدينة قسنطينة، ومن بينهم الأديب «أحمد رضا حوحو». وقد سيق هؤلاء الوجهاء إلى سجن «الكدية» ولكن المدير المسؤول عن السجن رفض استقبالهم بحجة أنه لا يوجد متسع لأي شخص في السجن. فقادهم الجنود الى «الحزوب» على بعد ستة عشر كيلو متراً من مدينة قسنطينة، وفي الطريق أطلق الحرس عليهم النار من الخلف، وصرعوهم»(١) تلك بإيجاز الخاتمة المأساة لمجاهد طالما عرفه رواد معهد ابن باديس وطلبته، وأنسوا فيه خلقه القويم، وجرأته في مقارعة الاستعمار.

ولد أحمد رضا حوحو ببلدة «سيدي عقبة» إحدى ضواحي مدينة «بسكرة» الجميلة بواديها الذي يخترقها حاملاً فوق كل ضفة من ضفافه غابات النخيل الخضراء المتناسقة. ثم انتقل إلى مدينة «سكيكدة» على الساحل الجزائري ليواصل تعلمه الثانوي، ومنها ارتحل إلى المدينة المنورة سنة ١٩٣٧، ليعود بعدها إلى قاعدته في معهد «ابن باديس» وليعمل كاتباً عاماً للمعهد في الفترة التي كانت تمارس فيها الإدارة الافرنسية كل وسائل الضغط والطغيان

---

(١) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٩١ ومجلة الشباب (الجزائرية) عدد ٢٠ شباط- فبراير- ١٩٦١ ص ٦ و ٧

لإعاقة هذا المعهد عن ممارسة دوره. غير أن أحمد رضا حوحو، صمد للضغوط واستمر في أداء دوره، مسخراً أفضل صفتين عرف بهما: «الصمود والعمل المتواصل».

اختار «أحمد رضا حوحو» الكلمة سلاحاً له، وكانت القصة القصيرة هي مجال هذه الكلمة، فأخرجت له مطبعة التليلي بتونس في أول سنة ١٩٤٧ قصته «غادة أم القرى» ثم ظهر له «مع حمار الحكيم» وقبل وفاته بأشهر فقط، صدرت له مجموعة قصص قصيرة في كتاب البعث، عدد شهر كانون الأول - ديسمبر - ١٩٥٥. ومجموعة قصص حوحو هي «نماذج بشرية» قدم لها بقوله: «لو لم تكن هذه الطباع متباينة بعض التباين، تتمتع بشيء من الحرية لخلا المجتمع من هذه النماذج النادرة الطريفة، ولما وجدنا هذه الضحية من ضحايا المجتمع تكسر قيود بيئتها، وتتخذ من الوطنية ديناً يهديها سواء السبيل. ولما تعرفنا على هذا الفقيه الطاعن في السن الذي يتخذ من شرع الله حانوتاً لبيع الجرائم. ولما كانت هذه النماذج البشرية التي نقدمها للقراء».

كان «أحمد رضا حوحو» يختار أبطال قصصه من واقع مجتمعه، فيجيد تصويرهم بخيال الشاعر وريشة الفنان ليسقط القناع عن الرذائل، وليعمل على إبراز الفضائل، وهدفه الثابت هو تنقية المجتمع الإسلامي العربي من شوائبه، وتطهيره من انحرافاته، حتى لا تكون هناك ثغرة يتسلل منها أعداء الدين والوطن.

ج ـ الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض
وتجربته التربوية الرائدة في ميزاب

تبقى هناك تجربة تربوية رائدة عرفتها الجزائر المجاهدة فيما حمل اسم «معهد الشباب» الذي أسس سنة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ والذي تحول سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٤ م إلى ما أصبح يعرف باسم «معهد الحياة» نسبة إلى جمعية الحياة الخيرية التي تقوم به. وكانت «القرارة» الواقعة في شرق «ميزاب» بجنوب الجزائر هي مسرح هذه التجربة التربوية التي ارتبطت بحق باسم الشيخ المصلح «إبراهيم بن عمر بيوض» . وتكمن أهمية التجربة التربوية الرائدة «لمعهد الحياة» بمجموعة النقاط التالية:

أولاً: ربط المدرسة التعليمية بالحياة ربطاً وثيقاً: «تبتدىء الدراسة في المعهد، في الثامنة صباحاً وتنتهي في الثانية عشرة زوالاً، فينصرف الطلبة إلى دورهم، ومعظمهم يذهبون بعد الغداء إلى بساتينهم وحقولهم للعمل فيها نحو ساعتين في كل يوم. وهذا العمل هو أحسن رياضة للجسم يعول عليها المعهد في ما يجب عليه في التربية الجسمية، إنه يحث التلاميذ على النشاط والعمل في البستان خارج أوقات المعهد. أما في الصيف، فإن دروس الوعظ العمومي، ودروس دار التلاميذ، تتم في فترة بين العصرين، حيث يذهب الطلبة والتلاميذ إلى بساتينهم وحقولهم في الصباح ـ بعد صلاة الفجر ـ فيقضون فيها ساعات عديدة، إلى السابعة فيرجعون. وفي البستان، يقوم الطلبة بأعمال تربي خلقهم وعقولهم وأجسامهم، فيتسلقون النخل الطويل للتأبير أو الفرق

وتنضيد العراجين، أو للصرم، ويحرثـون الأرض بالفؤوس الكبيرة، وينزحون الماء من الآبار العميقة، ويقومون بكل الأعمال الفلاحية الصعبة، فينهمر العرق من التلاميذ، وذلك العرق هو الذي يغسلهم من الفسولة، ويبعد عنهم الرخاوة والأمراض، ويورثهم أخلاقاً عظيمة لا تكون إلا بـالعمل في البسـاتين والحقول! إنه أحسن في التربية من لعب الكرة وغيرها من كل الألعاب التي يأتيها المترفون الفارغون. إن ذهاب الطلبة إلى العمل في البساتين والحقول، من وحي المعهد وتوجيهه، ومن أمر الوالدين وحثهم، لينشأ ابنهم على حب العمل ، وعلى النشاط والحزم والشجاعة، وعلى القـوة في جسمه، وعلى الفراهة والنضارة في كل نواحيه»(١).

ثانياً: تنمية الفضائل، من خلال الالتزام بشعار المعهد الذي وضعه له الشيخ بيوض «الخلق قبل العلم، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد». وكذلك: «إن الغاية التي يجب أن يجعلها المتعلم نصب عينيه هي : طلب رضى الله سبحانه وتعالى، وشرف العلم نفسه، وتثقيف العقل، وتربية النفس تربية صحية، وإعدادها لتحمل عبء الإصلاح الديني والوطني».

«إن الأنانية هي أم كل الشرور، إنها سبب الحسد والعصبية، والعداوة الشديدة بين الأمم والأفراد، وكل الويلات التي تفتك بالمسلمين. لذلك يحاربها المعهد بكل وسائله، وتحاربها الهيئة التدريسية بكل طاقاتها وتطهر النفوس منها، وتملؤها بحب

---

(١) نهضة الجزائر الحديثة (محمد علي دبوز) ص ٤٣- ٤٤ و ٣٤ و ١٥٨- ١٦٠

التضحيـة والغيرة على المصلحـة العامـة، وبكل الأخـلاق الاجتماعية الأخرى: كحسن العشرة والأمانة والسخاء وغيرها. ويتم الاعتماد في ذلك على شيئين: البيئة والأساليب التربوية العملية التي تغرس في التلميذ الفضائل الاجتماعية. إن البيئة في «ميزاب» و «القراره» و «المعهد» كلها تغرس فيه التضحية والاهتمام بالمصلحة العامة. إن وادي ميزاب هو وطن «العمل لله» فمرافقه العامة كالمدارس والمساجد والنوادي ودور العشائر وغيرها، كلها من بناء المحسنين الذين يبتغون رضوان الله وحسن ثوابه، وهم الذين يقدمون كل ما يحتاجه دار المعهد الكبير من أثاث كأسرة النوم وأدوات الطبخ وغيرها. إن جدران المعهد تنطق بهذه الحقيقة، وتأمر بهذه الصفة وتغرس في التلميذ هذه المنقبة العظمى. إن التلميذ يرى العمل لله في أغلب الأشياء التي تكتنفه في دار المعهد. ويرى التضحية والعمل لله في مدير المعهد وأساتذته، إنهم كلهم يعملون لله، وإذا أخذوا شيئاً زهيداً من الجمعية، فإنه لا يعد أجرة، إن هو إلا كالجائزة التي تعطى رمزاً للتلميذ. إن ما يمسكهم في ثغورهم إنما هو خلق التضحية والعمل لله، والشعور بالواجب. فلولا هذه الفضائل ما ثبتوا يوماً واحداً في ثغورهم. ومع البيئة التي تعتمد عليها البعثة في التربية الاجتماعية تمرين الطالب على خدمة الجماعة، وتعويده القيام بشؤون غيره. وذلك بتكليفه بما يستطيع القيام به من شؤون المعهد. فيكون له عملاً مستمراً يلزمه القيام به».

ثالثاً: تحمل المسؤولية ـ الإدارة الذاتية: يجتمع مدير المعهد

مع كبار الطلبة البارزين في مطلع كل عام دراسي فينظرون في قانون المعهد، فيزيدون فيه أو ينقصون، إنهم يحسنونه دائما، ويراعون فيه حاجات الطلاب وأحوالهم، ثم يوزعون الأعمال. وهذه الأعمال إما فردية أو جماعية. فيعينون للجماعية من يليق لها، وللفردية من يستطيع القيام بها. ويكتبون كل ذلك على لوحة- يعلقونها في الدار. فتسارع كل جماعة إلى عملها، ويبادر كل فرد إلى واجبه. فيقومون بها في جد ورغبة وإتقان، وهم يهزجون بأناشيدهم الدينية- الشجية والمثيرة للحماسة وحب العمل -. إنهم يخدمون إخوانهم الذين يحسون أنهم أقرب إلى نفوسهم من إخوتهم الأشقاء. ويردون لزملائهم بعض اليد، إنهم كلهم يعملون. والأعمال في المعهد كثيرة، ومن الصعب حصرها، ومنها أعمال تتصل بالطبخ، وأخرى بنظافة الدار، وأعمال أدبية ومادية تتصل بالتلاميذ، ومنها: تقوية الضعفاء بدروس خاصة في الدار، ورئاسة الجمعيات وهي للخطابة والكتابة وإدارة خزائن الكتب العامة في الدار وتنظيم إعارة الكتب للتلاميذ واستردادها. وحث الطلبة على القراءة المفيدة. وتعليم الصلاة للمراهقين ومراقبتهم ليصلوا بالطهارة والوضوء، ويتقنوا صلاتهم ويؤدوها في المسجد مع الجماعة.

رابعاً: إعداد الطلاب للاعتماد على أنفسهم في العلم والتعلم. حيث يعمل «معهد الحياة» على غرس الاعتماد على النفس في التحصيل لدى التلميذ، ودفعه إلى تنمية مواهبه العقلية. ومن أجل ذلك: «يعمل التلاميذ على مطالعة دروسهم وإعدادها قبل تقريرها. وتتم هذه المطالعة بصورة فردية وجماعية، حيث يطالع

فريق من الطلبة يقطعون بفؤوسهم خشبة النخلة بعد إسقاطها .

فريق من طلبة البعثة ينقون التمر قبل شحنه في الخابية .

كل تلميذ درسه وحده، فيعمل عقله كل الأعمال ويحاول فهمه بنفسه، فيتعب في ذلك، ثم يجلس إلى جماعته في مطالعة الدرس، وهم من طبقته، وعلى مستواه في الذكاء، فيناقشون الدرس الجديد المقبل، ويحاولون فهمه بأنفسهم، وقد يتعبون في ذلك أشد التعب، ولكن عقولهم تتطور، وفهمهم يقوى على مرّ الأيام. وتتكامل ثقتهم بأنفسهم فتدفعهم إلى العمل، وتبعثهم على الطموح. ويراجع طلبة المعهد قبل مطالعة الدرس المقبل، الدرس الماضي، فيستعينون بالقديم على فهم الجديد. ويربطون الجديد بالقديم فيرسخ. وتتم المناقشة في مطالعة الدروس بالعربية الفصحى. فيدربون عقولهم على الفهم، وألسنتهم على الفصاحة. وقد تعلم كثير من التلاميذ فصاحة اللسان في المناظرة التي كانت تحتدم في مطالعة الدروس الجديدة. ومن لا يطالع درسه من الطلبة قبل تقريره، توقع عليه العقوبة بأن يوبخه الأستاذ، ويجلسه وراء حلقة الدرس. وهذا عقاب يشق على التلاميذ أكثر من العصا. وقد يطرد من الدرس فلا يحضره، وتلك عقوبة أشد وقعاً وأكثر إيلاماً.

خامساً: تنوع الأنشطة (النشاط) مثل: إنشاء الفرق التمثيلية، وتحرير المجلات الأدبيةوالعلمية وتنظيم الرحلات الكشفية(جمعية كشافة الجنوب). وإقامة المخيمات، وإحياء حفلات السمر. ففي مجال التمثيل، تختار الجمعية الروايات التاريخية والاجتماعية، ذات الصلة الوثيقة بالمجتمع الجزائري فتبين أمراضه وعلاجها والدواء الشافي لها. مثل رواية (بلال بن رباح) للشيخ محمد العيد و (شبح القصر) له ايضاً. ورواية (الشيخ

الحاج عمر بن يحيى) التي ألفها محمد علي دبوز في زعيم النهضة، فبين أدواره وأنواع جهاده، وحال النهضة في أيامه. والجماهير في «وادي ميزاب» مغرمة بالتمثيل، سيما الروايات الاجتماعية والتاريخية المعنيـة. ويتخلل الاحتفال ـ الذي يبدأ بتلاوة القرآن الكريم وبه يختتم ـ أناشيد مطربة حلوة، معظمها من إنشاء طلبة المعهد، يختارون لها ألحاناً موافقة من أغاني المطربين الكبار، وقد يضعون هم الألحان الجميلة القوية. فيضعون عليها أناشيد إسلامية وطنية بالعربية الفصحى، فتعرض على لجنة خاصة في المعهد، فإذا ارتضتها وارتضت ألحانها قدمتها للمنشدين الذين يرصعونها بأناشيدهم المطربة التي يسحر بها الجمهور.

وفي مجال الكتابة والتحرير، أصدر المعهد منذ سنة **١٣٥٨** هـ = **١٩٣٩** م مجلة أطلق عليها اسم «مجلة الشباب». فكانت هذه المجلة من أكبر الأسباب في تقدم المعهد وتطوره، ومن أقوى الوسائل التربوية التي تكونت فيه، رقت عقول الطلبة بالمقالات والقصائد والقصص التي يكتبونها. وأذكت فيهم حب الأدب، وخلقت في نفوسهم حب الجمال، وبعثهم حب الفصاحة والبلاغة على القراءة الكثيرة والمفيدة، فاكتسبوا عادة الفصاحة والبلاغة، فنبغ في المعهد جماعة من الكتاب والشعراء، فخرجوا من نطاق مجلة الشباب الضيق إلى رحاب الصحافة الجزائرية الواسع وغيره. ومن هؤلاء: الشيخ عدون بن بالحاج والمرحوم الأديب حمو بن عمر لقمان، وعلي امعمر، وأحمد بن عمر، والأخضر السائحي الكبير. وإبراهيم بن يحيى الحاج أيوب، وحمو بن عمر

فخار، وصالح الخرفي وسواهم كثير[1].

وفي مجال العمل الكشفي، عملت الجمعية الرياضية على تنظيم الحركة الكشفية في سنة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م. وكان مركزها «القرارة» وكانت هذه الحركة، تعنى قبل كل شيء بالتربية الدينية: «**إن الدين هو الأساس القوي الراسخ للشخصية القوية في كل نواحيها، الناجحة في كل أمورها. فهي تراقب سلوك أعضائها مراقبة دقيقة ليكون كما يأمر الدين، وتحيط أعضاءها في مخيماتهم بجو ديني قوي. فالصلوات الخمس يؤديها الأعضاء في أوقاتها، بالطهارة الكاملة، والوضوء، والأذان، وفي الجماعة. إذا نصبوا مخيمهم فأول مكان يختارونه ويحتفلون به هو المصلى. فيمهدونه ويعدونه أحسن إعداد. وينتخبون من بينهم**

---

(١) يمكن انتقاء نموذج لما كانت تنشره «مجلة الشباب» في موشح لمؤلفه «أحمد ابن عمر الشيخ أحمد» تم نشره في العدد ٢٤٦ الصادر يوم الخميس ١١ جمادى الأول ١٣٥٥ هـ (١٣ تموز- يوليو- ١٩٣٦)

نداء إلى أرباب الحياة

ياشباب القطر يا أهل الرشاد هذه أوطاننا فيكم تنادي
للصلاح للكفاح للجهاد فأجيبوها بجد وعناد
وانهجوا نهج بني ماضي العصور

أيها الأقوام اقضوا عمركم في سبيل الدين فهو نهجكم
في سبيل العلم وهو نوركم في سبيل الشعب وهو مجدكم
لتعيشوا في سرور وحبور

اسلكوا نهج الرعيل الأول وألبسوا لامته للقسطل
وأبيدوا السفهاء العذل وارتقوا فوق السماك الأعزل
أنتم في الأرض نور فوق نور

مؤذناً وإماماً. فيؤذن المؤذن في الأوقات. فيسارع كل الأعضاء إلى ارتداء ثياب الصلاة البيضاء السابقة، ويستعدون لها بالوضوء الكامل والخشوع الواجب. وبين العشاءين، يجلس الأعضاء كلهم حلقة واسعة فيقرءون جميعاً في ترتيل خاشع قوي ما تيسر من القرآن الكريم وكذلك بعد صلاة الصبح»

وتعلم الكشافة لأفرادها: تسلق النخيل، والسباحة في الأحواض، والسباحة في الأبار، وأعمال الفلاحة الصعبة. ويخرج الكشافة في كل ربيع إلى صحراء- سيما في القرارة- فينصبون خيامهم فيها لمدة أسبوعين. ويدرسون الناحية التي يخيمون فيها، ويضعون لها الخرائط، ويكتبون عنها المقالات. ويتصلون بالأعراب في خيامهم، فيدرسون أحوالهم. ولما جاء الاستقلال، وتوحدت الجمعيات الكشفية في الجزائر، دخلت كشافة الجنوب في «الكشافة الإسلامية الجزائرية». فصارت فرعاً منها، وانقسمت إلى أفواج: فوج الحياة (في القرارة) وفوج الإصلاح (في غرداية) وفوج النهضة (في العطف) وفوج الفتح (في بريان) وتقيم هذه الأفواج مخيماً عاماً في كل سنة في عطلة الصيف، وتتم إقامة هذا المخيم في الشمال، لأن طقسه في الصيف أنسب، ومعرفة الشمال والتعرف إلى أهله، مما يجب على كل مثقف في الجنوب معرفته. ويدوم هذا المخيم شهراً، يدرس المشتركون فيه الناحية جغرافياً وتاريخاً واقتصادياً. ويرسمون ما يروق لهم من المناظر الطبيعية أو الآثار التاريخية. ويكتبون عنها المقالات المفيدة. ويتصلون بسكانها، ويقيمون لهم الحفلات فيسمعون أناشيدهم، ويعرضون رواياتهم (مثل رواية صلاح الدين الأيوبي) ويخرج

الأهالي من حفلاتهم، وفي نفوسهم أثر عميق مما يلقيه الكشافة في أحاديثهم ورواياتهم التي يدعون فيها الجماهير إلى التمسك بالدين وحب اللغة العربية.

كان لكشافة الجنوب قبل الاستقلال علمها الخاص وشعارها، ولما انضمت إلى الكشافة الإسلامية، صار شعارها وعلمها هو شعار وعلم الكشافة الإسلامية الجزائرية: هلال تتوسطه زهرة ياسمين بيضاء، فيها خمس بتيلات إشارة إلى الأركان الخمسة للإسلام الذي يجب على كل كشاف جزائري أن يتمسك به. أما بياض الياسمين فرمز لبياض القلوب ونقاء السيرة مما يجب أن تتصف به الكشافة الإسلامية. وأريج الياسمين هو رمز السمعة العطرة التي يجب أن يتركها الكشاف المسلم الجزائري في كل مكان يحل فيه.

* * *

وبعد، فقد يكون من الصعب الإلمام بكل أبعاد هذه التجربة التربوية الرائدة، غير أن اللمحات السابقة كافية لإبراز أهميتها في إطار (صراع النظريات التربوية الحديثة). وقد يكون من المثير بعد ذلك، استقراء مناهج هذا المعهد التي تعتمد على «الأصالة الذاتية». وهنا تبرز أول فضيلة من فضائل هذا المعهد التربوي، ألا وهي التطور المستمر في برامج التدريب، وذلك بدون أن يتخلى المعهد عن برامجه ومناهجه الأساسية.

يعتبر معهد الحياة: «أن القرآن هو أساس العلوم جميعها، سيما

جماعة من الطلاب يغسلون ثيابهم في حوض تصب فيه قناة من عين القرارة في الفوساعة.

فريق آخر يحمل على الدواب قطع الخشب المجزأة. فريق من الطلبة يقطعون بفؤوسهم خشبة النخلة بعد إسقاطها.

العلوم العربية والشريعة، وهو أساس التربية كلها، وآثاره لمن تدبره في خلقه وعقله ولسانه وجسمه لعظيم، لذلك اشترط معهد الحياة حفظه واستظهاره وعدم نسيانه. وحفظ القرآن الكريم هو أحسن ما يهيىء نفس التلميذ وعقله ولسانه للتعليم الثانوي والعالي، إنه يقوي الإرادة في التلميذ، ويكسبه فصاحة اللسان، ويزوده بثروة كبيرة من العربية الفصحى» ومن أجل ذلك: «أنشىء في المعهد قسم خاص لحفظ القرآن يتولاه معلم خاص» «**ولا زال حفظ القرآن واستظهاره شرطاً للدخول في معهد الحياة إلى اليوم. وقد أحسن المعهد بالتمسك بهذا الشرط، لا سيما في هذا الزمان الفاجر الملحد الذي نحن فيه**» «ولقد حفظ كثير من المسيحيين القرآن الذي يكفرون برسالته، لآثاره في الخلق، وجدواه العظيمة على عقل المرء ولسانه. أما هذا الزمان الفاسد اللئيم، وأغلب البلاد العربية اليوم، تعزف عن القرآن، وتنفر من حفظه، لذلك تشيع فسولة الأخلاق، وفسولة العقول، وفسولة اللسان في معاهدها. وأصبحنا لا نرى منها إلا غثاثة النفس. وأجيالاً هزيلة تورث للأمة هزالها! ليتها تعرف الفوائد التربوية العظيمة للقرآن، فتجعل حفظ القرآن كله أو جزءاً منه شرطاً للدخول في معاهدها»[1].

أما عن نظام «معهد الحياة» فالتلميذ يقضي معظم نهاره، وجزءاً كبيراً من ليله في معهده. وهو كالمعاهد الداخلية التي لا يفارقها التلميذ. ويتكفل المعهد بأكل التلميذ ونومه. وتبدأ أعمال الطالب الدراسية من السحر ـ قبل الفجر ـ حيث ينهض الطالب ويذهب إلى

---

(١) نهضة الجزائر الحديثة (محمد علي دبوز) ص ٣٩ـ ٤٣ و ٥٠ـ ٥١

«دار التلاميذ» التابعة للمسجد في ميزاب» فيلتقي هناك بالتلاميذ القدامى الكبار عاكفين على دراستهم، يقرءون الكتب، أو يكررون محفوظاتهم في المتون، أو يتلون القرآن في المسجد. وبعد صلاة الصبح مع الجماعة، يقع درس الوعظ العمومي، أو يقع درس أو درسان في دار التلاميذ في اللغة العربية والشريعة. وتستمر الدروس إلى السابعة، حيث ينصرف التلاميذ لتناول فطورهم. ثم تستأنف الدروس من الثامنة حتى الثانية عشرة. وفي الشتاء ينصرف التلاميذ بعدها للعمل في الحقول والبساتين وتناول طعام الغداء. أما في الصيف فيمضي التلاميذ فترة الصباح بكاملها في الحقول والبساتين. وفي الحالين، يجب على طالب المعهد أن يصلي العصر في المسجد مع الجماعة، فيفتح المعهد أبوابه بعدها، وينصرف الطلبة إلى دروسهم حتى المغرب، حيث يعود الطلبة بعد الصلاة إلى قسم القرآن في المعهد لحفظ القرآن وتدارسه. وتبدأ المطالعة الإجماعية بعد صلاة العشاء لإعداد دروس اليوم التالي.

«ومعهد الحياة، مثله مثل كل المعاهد في ميزاب، يفتح الأستاذ دروسه بالدعاء إلى الله والتضرع إليه أن يفتح عليه وعلى تلاميذه كنوز حكمته، وأبواب علمه، ويفيض عليهم رحمته. ويعيذهم من الشيطان ووساوسه التي تشغل البال ويغيم بها العقل، وينيلهم رضاه الذي يستلزم كل الخيرات والبركات، ويختم الدروس بدعاء الأستاذ أن يبارك الله فيما تعلموه، ويتطول عليهم بالمزيد ويحمد الله على ما أنعم به من نور العلم ونعمة المعرفة... إن الملحدين أبناء بطونهم يرون هذا الدعاء جموداً وقشوراً،

والتربية الدينية كلها رجعية وانحطاطاً. فيحتقرونها ويحتقرون من يلتزمها، لأنهم لا يؤمنون بالله، ورؤوسهم فارغة من العلم الصحيح. كل ما فيهم إنما هي البطون المتنفخة التي أورثها لهم أساتذتهم الملحدون وعصرهم الفاجر. فصاروا كالمرأة الوحمة تكره الأطعمة اللذيذة المفيدة، وتغرم بالتهام الطين».

«لقد حفظ الله نهضة الجزائر الحديثة، وحفظ معهد الحياة في الأعاصير التي تشتمل عليه من كل ناحية لتطفئه، وتقضي على النهضة، فلم تزده إلا ازدهاراً لأنه شديد الصلة بالله، وحمايته، فحفظه من كل مكروه، وبارك له فصار أحسن معهد في التربية والتعليم». وكان «معهد الحياة» - ولا زال - يولي اهتماماً أساسياً بالتربية الدينية، وغرس الدين الإسلامي العظيم في نفس التلميذ بكل الوسائل، وبناء العقيدة الدينية وترسيخها بكل الوسائل العلمية والتربوية. فتراه يعتني بالتوحيد فيجعله أول ما يحفظ الصغار مع السور الأولى من القرآن الكريم، وهم في الحداثة دون البلوغ، ثم تكون أول ما يدرسون إذا كانوا في المراهقة قبل البلوغ، ثم يدرسون العقيدة في كتب الفقه الكبرى بنحو فلسفي، ويدرسونها في كتب علم الكلام إذا كانوا في الطبقات العليا. **كل ذلك لتركيزها في نفوسهم، وتعميق أسسها، حتى لا يستطيع الجهل والاستعمار والملحدون فيها شيئاً، هذه الكوارث التي تتسلط على الدين الإسلامي لتهدمه في النفوس، وعلى العقيدة** الإسلامية لتفسدها في القلوب، وهي أساس الدين والخلق»(١).

---

(١) المرجع السابق: ٢٦ و ١١٦ - ١١٧ و ٦٤

ويشمل التعليم الإعدادي والثانوي مواد المنطق والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع واللغة الافرنسية ـ التي خصص لها في المرحلة الثانوية ٤ حصص أسبوعياً ـ بالإضافة إلى تاريخ الأدب والتاريخ الطبيعي والتربية المدنية، وتوسع في التاريخ فزاد تاريخ أوروبا وتاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الاندلس، وتاريخ الجزائر قبل كل شيء. أما في الجغرافيا، فيدرس التلميذ جغرافية العالم السياسية والطبيعية باختصار، ويتوسع في جغرافية المغرب والأقطار الإسلامية. أما مدة الدراسة فهي ٣ سنوات للإعدادي وثلاث سنوات للثانوي (بكالوريا). ويعمل المعهد على إيفاد المتفوقين من طلابه إلى الجامعات الإسلامية (في تونس والقاهرة خاصة) كما يستقبل الطلاب من كل أنحاء الجزائر، ومن الأقطار العربية ـ الإسلامية المجاورة.

لقد تعززت مكانة المعهد بفضل ما أظهره طلابه من التفوق في كل مجال اقتحموه من مجالات الحياة العملية، واعتمادهم على أرضيتهم الدينية الصلبة. ولقد عرف عن الرجال الذين دفعهم «معهد الحياة» إلى الحياة العامة، بإخلاصهم لدينهم ووطنهم، وكفاءتهم، وصلاحهم، وجهادهم المخلص وعملهم ابتغاء مرضاة الله وحده. واشتهر عنهم في «حرب التحرير ـ الثورة الجزائرية» شجاعتهم وتضحيتهم «لقد نزلوا إلى الميدان العملي، بحماسة كبيرة، وحب للعمل شديد، إنها الرغبة في الجهاد في سبيل الله! فسدوا أهم الثغور في الأمة، فكان منهم العزابة المثقفون الأكفاء والمدرسون المخلصون الناجحون ، والتجار الأمناء، والفلاحون الناشطون، ومنهم رؤساء العشائر الذين

وعدة كبرى للوطن، ومنهم رؤساء البلديات الذين كانوا سوراً منيعاً للدين والوطن. يردون عنه كيد الاستعمار، ويحمونه من شر الجامدين وفساد المفسدين. ومن تلاميذ المعهد، من لم ينل من العلم شيئاً كثيراً لضعف مواهبه. ولكنه نال قسطه من التربية كاملاً. فكان رجلاً صنديداً في مجتمعه»

خلاصة القول، لقد شكل «معهد الحياة» تجربة تربوية رائدة لا في الجزائر وحدها وإنما في الوطن العربي الإسلامي. وهي تجربة تستحق كل اهتمام وبحث وتطوير، وإذا كان الاتحاد السوفييتي يفخر برائد تربيته «ماكارنكو». وإذا كان الأمريكيون يباهون برواد تربيتهم من أمثال «جون ديوي»، فإن للجزائر- وللعالم العربي- الإسلامي أن يفاخر بهذه التجربة التربوية التي يعود الفضل الأساسي فيها للشيخ «إبراهيم بن عمر بيوض».

ولد إبراهيم بن عمر بيوض سنة ١٨٩٩ م، في القرارة، إحدى قرى ميزاب، وتعلم فيها، وفي المعهد الذي كان يديره والده والشيخ عمر بن الحاج مسعود. وفي سنة ١٩٢١ توفي الحاج عمر. فما كان من ابنه الشيخ إبراهيم- ولما يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره- إلا أن جمع تلاميذ المدرسة، وأعلن لهم أن الدراسة ستستمر تحت إدارة الشيخ عمر بن الحاج مسعود، وأنه سيقوم مع بعض إخوانه في مساعدة الشيخ على إدارة المعهد وتطويره- للنهوض بميزاب كلها. تلك كانت البداية، وانصرف الشيخ إبراهيم بن عمر للعمل بكل طاقة الشباب وإيمانهم، يلقي الدروس، ويطور المعهد، ويرسل البعثات، ويرعى الخريجين،

ويوسع مجالات العمل، ويبني المسجد المتمم للمعهد. ويضع برامج التدريس، ويسهر على رعاية شؤون طلابه، ويوجههم للبحث والدراسة وهو يكرر على مسامعهم باستمرار: «إن غرضي من هذه الدروس أن أنشىء عقولاً تفهم بلاغة القرآن، ونفوساً دارعة بعدة الفصاحة والبلاغة. إن جهادنا يستلزم هذه العدة، وهذا لا يكون إلا بعملكم أنتم! ألا فاعملوا، طالعوا دروسكم مراراً قبل الدرس، وراجعوها مراراً بعده واعتمدوا على أنفسكم».

إستمر الشيخ إبراهيم في عمله المنتج والمبدع حتى بداية الحرب العالمية الثانية، وإذ ذاك تضاعفت أهوال الاستعمار، وأطلقت أيدي الحكام العسكريين الإفرنسيين في الجنوب فعزموا على خنق النهضة، والقضاء على معاهدها ورجالها. فشمروا للتهديم والانتقام، وشمر أنصار النهضة للدفاع والبناء. وكانت معارك طاحنة استمرت زماناً طويلاً، كان الله فيها مع حزبه وأوليائه. فلم تعصف تلك الأهوال بمعهد الحياة، بل زادت في نشاطه ورسوخه. فسارت أشواطاً واسعة في أيام الحرب.

لقد حلف الحاكمان العسكريان الطاغيان في «غرداية» وحلف أذنابهما الأيمان المغلظة على القضاء على نهضة ميزاب ورجالها، وأن يشنقوا زعيمها الشيخ بيوض أو يسجنوه أو ينفوه. فاستخدم الاستعمار أذنابه في الجنوب لكتابة التقارير السوداء ضد النهضة وزعيمها الشيخ بيوض. فطالبوا بنفيه أو سجنه، وبإبطال المدارس العربية، وكل ظواهر النهضة. فاستند الحكام العسكريون إلى هذه التقارير، فحكموا على النهضة بأنها حرب ضد الدولة، وعلى

زعيمها الشيخ بيوض بأنه عدو فرنسا اللدود. وأن له يداً مع الألمان. فعزموا على القبض عليه. ولكن الله سخر للنهضة حماة مخلصين دهاة من أبنائها، فدافعوا عن النهضة وزعيمها، وفضحوا الحكام العسكريين وتواطؤهم مع أذنابهم أعداء النهضة الأقدمين.

وخافت الولاية العامة عاقبة المساس بالنهضة وزعمائها. إن نهضة ميزاب هي جزء من نهضة الجزائر، والشيخ بيوض أحد زعمائها. سيثور أولئك الزعماء عليها، ويثور ميزاب والجزائر. وهي ضعيفة قد احتل الألمان ديارها وأخذ بخناقها فتبصرت الولاية العامة، فكفكفت من شرور الحكام العسكريين في ميزاب، وأمرتهم بالحكمة في حربهم، فلم يستطع الحكام العسكريون إعتقال الشيخ بيوض. فأكدوا ما سبق أن فرضوه عليه في سنة ١٩٣٨ م. من الإقامة الجبرية في بلد القرارة. وحرمت زيارته على مدن ميزاب، وشددت عليه الرقابة. فاستقر الشيخ بيوض، وانقطعت عنه الأشغال الخارجيةالتي كانت تزاحم عمله في المعهد، أو تقطعه عنه. فصار وقته كله للمعهد. ووجد الطلبة من وقته وجهوده كل ما يريدون، ونشطت الدراسة في المعهد، حتى إذا ما انتهت الحرب سنة ١٩٤٤، وضعت فرنسا- ديغول- سياسة جديدة للجزائر تعتمد على قليل من اللين وكثير من الخبث والدهاء والمكر. وهذه السياسة شر من الغلظة والاستبداد والجبروت.

واستغل زعماء النهضة وعلماؤها هذا المناخ، **فانطلق الشيخ البشير الإبراهيمي- رئيس رابطة العلماء بعد وفاة ابن باديس- وهو**

يقود نشاط جمعية العلماء في قوة وإخلاص ومهارة. وكان يجوب البلاد ويهزها بخطبه ودروسه ومقالاته في البصائر. وفعل ذلك رجال جمعية العلماء كلهم (وخاصة الطيب العقبي وأحمد توفيق المدني). وكذلك فعل الشيخ بيوض، الذي انطلق من عقال الإقامة الجبرية، فجاب أنحاء الشمال والجنوب، يهزهما بخطبه ودروسه، ويضع الخطط المحكمة مع رجال النهضة للجهاد المقبل.

كثرت أعمال الشيخ بيوض الاجتماعية، وتعددت ميادين جهاده، فهذه وفود من رجال النهضة من مدن ميزاب تترى عليه للتفاوض في الجهاد الذي يقومون به. وهذه أعباء جمعية الحياة التي يرأسها، وذلك مجلس العزابة الذي هو رئيسه. إن أغلب مشاكل المدينة ترفع إليه. وهذه أسفاره للدعاية ولمصالح النهضة الأخرى. وهذا حزب المعارضين وقد تكتلت صفوفه، واشتدت معارضته، وانضم إليهم أذناب الاستعمار من «القواد والباشآغاوات» وغيرهم. واتحدوا جميعاً مع المستعمرين العسكريين في محاربة النهضة. فنازلهم حزب الإصلاح جميعاً بقيادة الشيخ بيوض، فوقعت أعنف المعارك الاجتماعية والسياسية معهم في هذه العهود. لقد كثرت فروض الشيخ فلم يبق للمعهد من وقته إلا القليل. وجاءت ضرورة أخرى تهرب منها كل التهرب، فأرغمه الواجب على الخضوع لها. وهو دخوله في المجلس الجزائري نائباً عن وادي ميزاب، فانقطع عن التعليم في المعهد، وحل أبناؤه النبغاء محله.

صدر الدستور الجزائري الذي قضى بإنشاء المجلس

الجزائري في ٢٠ أيلول- سبتمبر- ١٩٤٧. وكان المستعمرون قد أحسوا بكنوز الصحراء الجزائرية، فعزموا على التمسك بالصحراء، وقطعها عن الشمال. وكانوا يوقنون بثورة الشمال عليهم. إن مقدماتها ودخانها قد شاهدوه في حوادث سطيف في ٨ أيار- مايو- سنة ١٩٤٥. وفي عيون كل الجزائريين التي تشتعل فيها النيران. وقالوا: «إن الصحراء لا جبال فيها تصلح للثورة، فهي المكان الآمن لهم في الجزائر، وكنوزها هي الأثداء الغزيرة التي ترويهم. لقد شبعوا من خيرات الشمال فيجب أن يتخموا من كنوز الجنوب أيضاً. إن استقرارهم في الصحراء يجعلهم يقطعون عن الدولة الجزائرية التي ستنشأ في الشمال غذاءها من الصحراء فتموت هزالاً. أو تظل ضعيفة تخضع لهم وتسير في ركابهم. على أن استقرارهم في الصحراء، وإنشاء دولة إفرنسية فيها يمكن من القضاء على ما يمكن أن يناله الشمال من استقلاله بثورته. سيحيكون له الدسائس ويخلقون له المشاكل، ويحفرون له الهوى التي يقع فيها. إن الصحراء هي اللقمة السائغة، وهي الدار الآمنة لهم في المغرب، فيجب التمسك بها، ويجب التمهيد لذلك بالقضاء على كل نهضة فيها. وكانت نهضة وادي ميزاب التي دخلت شبابها تقض مضاجعهم، ويرون فيها حتوفهم فعزموا على القضاء عليها».

وعين الاستعمار للمجلس الجزائري أذنابه، وجعل للصحراء فيه نواباً من الضعفاء أو من الأذناب وعزم أن يجعل نائب ميزاب في المجلس أحد أذنابه الكبار الذين ينصرون أهواءه فيطالبون بفصل الصحراء عن الشمال، وبالقضاء على النهضة ورجالها فيجد

الاستعمار مستنده وحجته، فيبلغ كل أغراضه. ورأى رجال النهضة في ميزاب هذا الخطر الذي تستهدف له الجزائر، والنهضة التي هي روح الجزائر ورأس مالها الكبير، فهبوا جميعاً لدرئه، وإفساد خطة المستعمرين. فكان الله معهم، فاستمالوا بعض رجال الحكم في فرنسا وفي الجزائر بالوسائل المغرية، والأساليب السياسية البارعة، وأروهم عاقبة إرغام الميزابيين على نائب لا يرتضونه. فأخذوا وعداً من الولاية العامة أن يكون الانتخاب حراً في ميزاب، فتمسك رجال النهضة بهذا الوعد، وأفادوا منه كل الإفادة، واستقدموا غداة يوم الانتخاب ٤ نيسان- إبريل- ١٩٤٨ مراقبين شرعيين يراقبون الانتخابات في ميزاب، وبعض الصحفيين الإفرنسيين. وبذلوا في ذلك المال الكثير. ونظموا صفوفهم، وخاضوا معركة الانتخاب للمجلس الجزائري في نشاط ويقظة ودهاء واتحاد ففازوا بما أرادو.

رأى رجال النهضة وحزب الإصلاح أن المعارك بينهم وبين الاستعمار في المستقبل ستكون معارك ديبلوماسية خطيرة! إنها مسألة فصل الصحراء عن الشمال، وما يجب أن يفعلوه لتظل الصحراء جزءاً من الشمال، فلا بد من نائب لهم في المجلس الجزائري، تتوافر له الكفاءة والقدرة من أجل إحباط المخططات الاستعمارية. ووقع اختيار الجميع على الشيخ بيوض. غير أن الشيخ رفض العرض، وأظهر تمسكه بميدان العلم الذي خلق له، وذاق حلاوة النجاح فيه. غير أن أهل ميزاب ورجال نهضتها ما زالوا به حتى أقنعوه بقبول المنصب، حتى لا تترك ثغرة ينفذ منها الاستعمار وأذنابه. ونزل الشيخ إلى ميدان الجهاد الجديد، وقاد

معارك كبرى ضد فصل الصحراء عن الشمال استمرت ست عشرة سنة كاملة (من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٦٢) وكان رجال النهضة في ميزاب كلهم جنده وأنصاره في معاركه السياسية الكبرى. فالتفوا حوله، ورفعوا صوتهم معه ينادون بإباء الصحراء وهم يستنكرون فصل الصحراء عن الوطن الجزائري. وبقي الشيخ بيوض على اتصال وثيق «بمعهد الحياة» لم تصرفه عن الاهتمام به متاعبه السياسية. وكان الجميع يشعرون بوجوده دائماً بينهم، رغم ابتعاده بجسده عنهم. وكان لهذه الرابطة القوية دورها في دعم «معهد الحياة» واضطلاع أفراده وتلاميذه القدامى بواجباتهم الدينية والوطنية في كل أنحاء الجزائر.

لقد انبث مئات من خريجي «معهد الحياة» في بلاد الشمال بالجزائر، ففي كل المدن الكبرى بالشمال، وفي كثير من القرى، تجد تلاميذ معهد الحياة، وأثرهم في الشمال كأثرهم في الجنوب. كانوا دعاة تملؤهم الحماسة للعمل من أجل الدين الإسلامي ونشر اللغة العربية، وكانوا نماذج تحتذى في الأقوال والأعمال. وقد جاهدوا باستمرار لدعم كل الحركات الوطنية في الشمال، فوقفوا مع «جمعية العلماء» بكل ما أوتوا من قوة. ودعموا حزب الشعب وجماعة البيان. ولما اندلعت الثورة، كانوا في الشمال والجنوب جندها المخلص وأنصارها الثابتين. وكانت دكاكينهم التجارية ومساكنهم في مدن الشمال، معاقل للثورة، ومستودعاً لأسرارها وأموالها، وملتقى لضباطها وملاجيء لثوارها. وكانوا يعملون على دعم الثورة وتنفيذ مخططاتها بكفاءة عالية وإيمان صلب، ويعتبرون جهادهم في الثورة هو جهاد في سبيل

الله، يقومون به لوجه الله، وواجباً وطنياً يرضي ضميرهم الحر وحبهم للوطن وإخلاصهم لدين الله. وكانوا لثقافتهم، ودهائهم الموروث، قادرين على خداع المستعمرين وإخفاء حقيقتهم الثورية، وكان من المحال قيام الثورة في العاصمة لولا ما قاموا به من جهد، وما قدموه من تضحيات مستفيدين في ذلك من منازلهم ودكاكينهم المنتشرة حتى في وسط الأحياء الأوروبية. حتى إذا ما انتهت الثورة بالنصر، انصرفوا إلى متابعة أعمالهم، والإسهام في بناء المجتمع الجديد بالقدر الذي تطلبه الثورة منهم.

* * *

تلك هي صفحة رائعة من صفحات الجزائر المجاهدة.

صفحة رسم الشيخ عبد الحميد بن باديس، بعض ملامحها بريشته، وترك بعضها لريشة إخوانه وتلاميذه، وبعضها رسمت بريشة إخوان له كان عملهم مستمداً من عمله ورافداً له. وبفضل هذا التكامل تشكل التيار الجارف الذي أرسى القاعدة الثابتة والأرضية الصلبة لانطلاقة الثورة.

غير أن هناك تياراً آخر كان له دوره في مجموعة التفاعلات التي أدت إلى انفجار الثورة. وهذا التيار هو «تيار التكتلات الحزبية» وهو يتطلب بحثاً مستقلاً. غير أنه من المناسب هنا الإشارة إلى أن التياران لم يكونا متناقضين أو متضادين تماماً. لقد كان لكل تيار مساره الخاص، وكانت هناك قنوات تصل بين كل التيارات على امتداد مسارها، ومن هنا يظهر التأثير المتبادل بين هذه التيارات. وهذا ما يؤكد بطريقة غير مباشرة الدور الكبير الذي اضطلع به

«الشيخ عبد الحميد بن باديس» وإخوانه في تمهيد الطريق أمام الثورة.

وتبقى تجربة «الشيخ عبد الحميد بن باديس» و «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» و «معهد الحياة» من التجارب التاريخية الخالدة الرائدة، لا باعتبارها تجارب قد مضت وانصرمت، وإنما باعتبارها تجارب ترسل ظلالها إلى أفق المستقبل، وباعتبارها أيضاً من التجارب التي تحتفظ بكل فائدتها وأهميتها لا في الحدود الزمنية أو في حدود الإطار الجغرافي للجزائر. إنها تجارب حية، تمتلكها الأمة الإسلامية والعالم العربي وهي جديرة بالدراسة والتعلم (وقل رب زدني علماً).

(محتوى الكتاب)

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
من أقوال عبد الحميد بن باديس	١١
ومما قاله عبد الحميد بن باديس شعراً	١٤
الوجيز في حياة «ابن باديس»	١٦
تحية وإهداء	١٧
الفصل الأول	١٩
١ ـ نظرية الاستعمار الإفرنسي وتطبيقاتها في الجزائر	٢١
٢ ـ حرب الحضارة الصليبية ضد الإسلام	٢٩
٣ ـ الأهداف التربوية للتعليم الاستعماري	٤٧
٤ ـ الفرنسية والتنصير ونتائجهما	٥٦
٥ ـ الانهيار الكبير	٦٧
أ ـ الجزائر سنة ١٩٢٥	٧٢
ب ـ أحمد بن عليوه والرحمانية	
ج ـ الشيخ عبد الحليم بن سماية	٧٧

د ـ عمر راسم ٨٢
هـ ـ احتفال فرنسا بمرور مائة عام على
احتلال الجزائر ٨٦

الفصل الثاني ٩١

١ ـ عبد الحميد بن باديس ٩١
٢ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٠٩
٣ ـ مدافع الله ونهاية رحلة العمر ١٢١
٤ ـ إخوان (عبد الحميد) في الجهاد ١٤٤
أ ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ١٤٦
ب ـ الشيخ مبارك بن محمد الميلي ١٥٩
ج ـ الشيخ احمد توفيق المدني ١٦٧
د ـ الشيخ الطيب العقبي ١٨٣
هـ ـ والشيخ التبسي ١٨٧
٥ ـ تيار الأصالة الثورية في الجزائر ١٩١
أ ـ الشاعر محمد العيد ١٩٣
ب ـ أحمد رضا حوحو ١٩٦
ج ـ الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض
وتجربته التربوية الرائدة في ميزاب ١٩٨

جهاد شعب الجزائر ٨

نهج الثورة الجزائرية

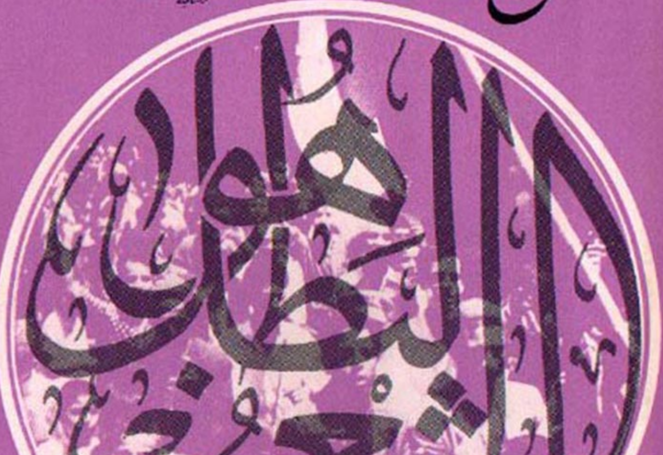

الشعب البطل

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

جهاد شعب الجزائر

نهج الثورة الجزائرية

(الصراع السياسي)

بسام العسلي

دار النفائس

جَمِيعُ الحُقوقِ مَحفُوظَة

الطّبعَة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
الطّبعَة الثّانيَة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب: ١١/٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقيا: دانفايسكو

المقــدّمــة

تبقى «التجربة التاريخية» هي رائد الباحث والقـارىء، كلاهما يجد فيها الفائدة والمتعة، ولقد عرفت الجزائر المجاهدة تجـربة تـاريخية فـردة تجسدت فيهـا كـل سـوءات الاستعمـار الاستيطاني، وبرزت فيهـا كل أشكـال النهب الاستعمـاري، واستخدمت فيها كل أنواع القهر الاستعماري ووسائله. ولقد كانت تجربة مريرة وقاسية، لا تشابهها أية تجربة من بين كل التجارب التي عاشتها الشعوب المقهـورة في ليل الاستعمـار. ويعود السبب في ذلك، وبالدرجة الأُولى، إلى ما توافر للجزائر من الأصالة الثورية، إلى جانب ما انفرد به الاستعمار الفرنسي من الوحشية واللاإنسانية.

لقد رفضت الجزائر المجاهدة أبداً الخضوع لإرادة جلاديها ومغتصبيها وممتهني كبرياءها، فكانت في حالـة ثوريـة دائمة، لا تكاد نار لهيبها تخمد في منطقة حتى تتفجر في منطقة أُخرى. ولا تكاد فترة تمر على إخماد الثورة حتى يعود اللهيب وهو أشد احتداماً، وأكثر ضراماً. ومقابـل هذا التمـرد، كانت فـرنسا الاستعمار تطور دائمًا أساليب قمعها الوحشية، فإذا كانت فظائع «بوجو» و«كلوزويل» قد مثلت عصر الوحشية في منتصف القرن

التاسع عشر، فقد جاءت مذابح ٨ أيار-مايو-١٩٤٥ لتعيد للذاكرة تلك الأعمال التي لا يمحوها التقادم، ولا يزيلها النسيان.

لقد بقيت الجزائر المجاهدة في حالة ثورة دائمة، وكانت فترات الهدوء التي عاشتها هي مرحلة الاستعداد لاستئناف حمل السلاح والاحتكام إليه.

وعبر هذا الصراع الذي لم يتوقف، تطورت أساليب الصراع السياسي في خط مواز لتطور أساليب الصراع المسلح، فكانت «لعبة الأحزاب» و«لعبة الديموقراطية» وحملت هذه الأحزاب باستمرار أهدافاً متشابهة في أشكالها ومضامينها، وقد كانت هذه الأهداف مرنة حتى تتكيف مع الظروف المرحلية للصراع، سواء كانت هذه الظروف دولية أو محلية.

ولا غرابة بعد ذلك أن تكون الأهداف التي طرحها الأمير خالد الهاشمي في العشرينيات متشابهة مع تلك التي حددها عبدالحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثلاثينيات، وهي ذاتها تقريباً التي تبناها حزب الشعب الجزائري في الأربعينيات ثم رفعها «أصدقاء البيان والحرية» في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ولا غرابة أيضا، في أن يدرك قادة الجزائر ومفكروها وحماتها أن الصراع السياسي ليس أكثر من وسيلة مرحلية لا يمكن لها أن تحقق تطلعات الشعب الجزائري وأهدافه في عملية بناء المستقبل. ولكن ومع هذا الإيمان بحتمية الاحتكام

إلى السلاح، كان لابد من خوض الصراع السياسي حتى منتهاه وغايته، ذلك لأن الحوار عبر هذا الصراع هو الوسيلة الأمثل لإيقاظ وعي الشعب الجزائري، والإبقاء على جذوة الجهاد المتقدة.

ومن هنا تظهر أهمية العودة إلى استقراء ملامح الفترة الصعبة من الصراع السياسي والتي سبقت اندلاع الثورة الجزائرية **العظمى** في سنة ١٩٥٤. والمثير في الأمر هو ملاحظة ذلك الاقتران في تطوير وسيلتي الصراع في وقت واحد. وسيلة الصراع السياسي العلنية، ووسيلة الصراع المسلح السرية. ولقد ساعد هذا الاقتران في تحقيق أكثر من هدف في وقت واحد.

لقد ساعد قبل كل شيء على تأمين الغطاء الشرعي، للعمل غير الشرعي - بحسب قوانين الاستعمار وأنظمته. وأسهم في ربط الصراع السياسي بالصراع المسلح. ومهد لتكوين جيل قادة المستقبل من خلال مدرسة الصراع ذاتها. فلا غرابة بعد ذلك أن يكون معظم قادة الثورة هم من خريجي تلك المدارس الحزبية التي سبقت اندلاع الثورة.

لقد كانت تلك المدارس خاضعة لمجموعة من المؤثرات والعوامل. لم يكن أقلها الضغط الرهيب للإدارة الاستعمارية في الجزائر، ولم يكن أقلها ذلك التلاحم العضوي بين أجهزة الاستعمار الاستيطاني في الجزائر والحكم الافرنسي في فرنسا ذاتها، ولم يكن أقلها أيضاً تلاحم كل القوى الاستعمارية - يمينها ويسارها، رجعيها وتقدميها- في جبهة واحدة ضد الجزائر

وشعبها. وقد كان من الصعب الوصول إلى هذه القناعة التي باتت أساس عمل الثورة، لولا التجربة التاريخية للصراع السياسي الذي قادته الأحزاب.

وكان من الصعب، إن لم يكن من المحال، تجنب الوقوع في الخطأ، فقد كان حوار الإرادات قاسياً ومريراً استنفر فيه كل طرف من الأطراف المتصارعة كل موارد المعرفة والذكاء. وبات من المتوقع ظهور الأخطاء. وإقراراً بالحقيقة التاريخية: كانت أخطاء قيادات الأحزاب أقل بكثير مما يمكن توقعه في مثل الظروف التي عاشتها تلك الأحزاب، وأقل بكثير أيضاً مما كانت عليه أخطاء الأجهزة الاستعمارية التي كانت تزعم تفوقها في كل مجال من مجالات الصراع.

لقد سقطت عبر هذا الصراع المرير كثير من القيم والمبادىء، وظهرت مكانها قيم أُخرى ومبادىء مغايرة. ورافق ذلك سقوط مريع لبعض المجاهدين وارتفاع رائع في تألق مجاهدين آخرين.

وعبر هذا السقوط والارتفاع، وعبر تجربة الخطأ والصواب، تمرست القيادات الشابة بالجهاد، واكتسبت ما يلزمها من التسلح المادي والمعنوي. فكان أن برزت إلى الوجود تلك القيادة التاريخية التي أخذت على عاتقها السير بالجزائر نحو أفق المستقبل.

ومن هنا تبرز الأهمية الكبرى لهذه التجربة التاريخية.

لقد كانت تجربة مريرة وقاسية، غير أنها كانت ذات فائدة يصعب تقويمها. ولعل من أبرز فوائدها احتفاظها بقيمتها القديمة المتجددة. وهذا ما يجعلها ثمينة للبحث والدراسة والتأمل.

«وقل رب زدني علمًا».

بسام العسلي

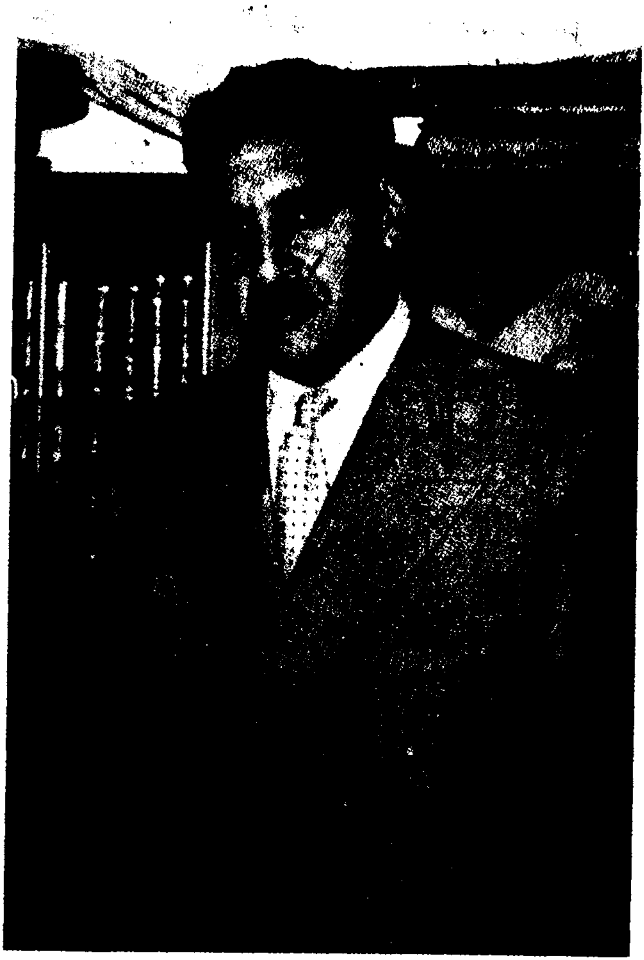

فرحات عباس
أول رئيس لجمهورية الجزائر الثائرة، والذي كان له شرف إعلان قيام «الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية»

الوجيز في حياة «عباس فرحات»

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣١٦	١٨٩٩	ولادة فرحات عباس في «طاهر» قرب «قسنطينة».
١٣٤٨	١٩٣٠	إنهاء دراسته الجامعية، وحصوله على شهادة **الصيدلة**.
١٣٥١	١٩٣٣	فتح صيدلية له في سطيف. والزواج من إفرنسية.
١٣٥١	١٩٣٣	انتخابه عضوا في المجلس البلدي ومستشاراً في اللجنة المالية.
١٣٦١	١٩٤٣	تقديم «البيان الجزائري» للإدارة الافرنسية والحلفاء.
١٣٦٣	١٩٤٤	تشكيل جماعة «أصدقاء البيان والحرية» برئاسة فرحات عباس.
١٣٦٥	١٩٤٦	تأسيس حزب «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري».

١٣٧٠	١٩٥١	تشكيل تحالف الأحزاب الجزائرية والحركات الدينية «جمعية العلماء» برئاسة فرحات عباس.
١٣٧٥	١٩٥٦	التحاق فرحات عباس بالقاهرة، وإعلان انضمامه وحزبه لجبهة التحرير الوطني.
١٣٧٧	١٩٥٨	تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية برئاسة فرحات عباس «يوم ١٩ - أيلول - سبتمبر».
١٣٨١	١٩٦٢	انتخاب «فرحات عباس» رئيساً للجمعية الوطنية.
١٣٨٢	١٩٦٣	استقالة «فرحات عباس» لخلافه مع «بن بيلا» واعتزاله الحياة السياسية.

الوجيز في حياة «مصالي الحاج»

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣١٥	١٨٩٨	ولادة مصالي أحمد بن الحاج في «تلمسان»
١٣٣٤	١٩١٥	التحاق مصالي في الجيش الافرنسي، واشتراكه في الحرب.
١٣٣٩	١٩٢١	عودته إلى الجزائر.
١٣٤٠	١٩٢٢	رجوعه إلى فرنسا بحثاً عن العمل، وانضمامه إلى الحزب الشيوعي وزواجه من شيوعية افرنسية بارزة.
١٣٤٣	١٩٢٥	انضمامه إلى حزب «نجم شمال افريقيا».
١٣٤٥	١٩٢٧	إنتخاب مصالي الحاج رئيسا لحزب نجم شمال افريقيا. حل الحزب، وانتقال مصالي الحاج للعمل السري.
	١٩٢٩	عودة الحزب للظهور تحت اسم «الاتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا» واعتقال «مصالي الحاج» وسجنه.
١٣٥٢	١٩٣٤	إطلاق سراح «مصالي» وإعادة اعتقاله بعد فترة قصيرة.

١٣٥٤	١٩٣٦	عودة مصالي الحاج إلى الجزائر بعد إطلاق سراحه.
١٣٥٥	١٩٣٧	«مصالي الحاج» ينظم «حزب الشعب الجزائري» والإدارة الافرنسية تقوم باعتقاله وتحكمه بالسجن لمدة سنتين.
١٣٥٧	١٩٣٩	إطلاق سراح «مصالي» وعودته إلى الجزائر.
١٣٥٩	١٩٤١	حكومة فيشي تعتقل «مصالي» وتصدر حكمها عليه بالسجن لمدة (١٦) عاماً، والنفي بعدها لمدة (٢٠) عاماً مع غرامة فادحة.
١٣٦٥	١٩٤٦	اطلاق سراح «مصالي» وتنظيمه لحركة «انتصار الحريات الديموقراطية».
١٣٧١	١٩٥٢	اعتقال مصالي الحاج، ونقله إلى فرنسا نهائياً، للإقامة في «نيورت».
١٣٧٤	١٩٥٤	انقسام الحركة وتمزقها، ثم قيام الثورة. بقاء مصالي الحاج في فرنسا.

«والله الذي لا إله غيره: إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل لنار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

حديث شريف - رواه البخاري ومسلم.

الفصل الأول

العمل السياسي

١ - لعبة الأحزاب «والديموقراطية».

٢ - حزب (نجم شمال افريقيا).

٣ - حزب الشعب الجزائري.
والحركة من أجل (انتصار الحرية والديموقراطية).

٤ - عباس فرحات (والاتحاد الديمقراطي لأعضاء البيان الجزائري).

٥ - الحزب الشيوعي.

١ ــ لعبة الأحزاب و «الديمقراطية»

لعبة «الهدم والبناء» من اللعب الانسانية الباقية ما بقي الانسان على وجه الأرض، يمارسها الأطفال صغاراً «للعبث والتسلية». ويمارسها الكبار رجالاً «للتطوير نحو الأفضل والأمثل» وتمارسها الهيئات في المجتمع، بعضها ضد بعض (في الغابة الكبيرة) حيث يفرض الأقوى - وليس الأصلح دائماً - وجوده على الأضعف حتى يسخره لتحقيق أهدافه - التي قد لا تكون أهدافاً فاضلة باستمرار - وقد أتقن الانسان هذه اللعبة - لعبة الهدم والبناء - وعمل على تطويرها دائماً (فكانت لعب الميكانو الحديثة للأطفال نموذجاً لها). كما عمل أيضاً على تطبيقها في الحياة العملية، سواء ضمن المجتمع الواحد، أو فيما بين المجتمعات المتناحرة أحياناً، والمتعايشة في أحيان أخرى، والتي تستمر في كل الحالات بممارسة لعبة الهدم والبناء، بعضها ضد البعض الآخر. كل ذلك والحياة الانسانية ماضية في مسيرتها الجبارة متجاوزة هؤلاء القائمين بالهدم وأولئك من ضحايا عملية الهدم لتقرر في النهاية مصير «لعبة القدر».

اكتسبت «لعبة الهدم والبناء» في «ليل الاستعمار» أبعاداً

جديدة، إذ باتت هذه اللعبة أشد تعقيداً وتركيباً، وذلك بسبب ما تتطلبه عملية النهب الاستعماري من تركيبات معقدة ومتناقضة في كثير من الأحيان. وقد جند الاستعمار لعملية «الهدم والبناء» كل ما هو في ترسانته من الوسائل المادية والمعنوية، فكانت القوة الوحشية ركناً من أركانها المادية وكانت العصليبية أساساً من أسسها المعنوية، وكان الهدف الثابت هو تغيير بنية وتكوين المجتمعات التي تم اخضاعها بالقوة والقهر، من أجل بناء المجتمع الجديد الذي يمكن له التكيف مع ظروف الاستعمار.

هكذا بدأت فرنسا عندما دفعت جحافل الغزو لاجتياح الجزائر، فقد عملت على تدمير القيادات القبلية والزعامات الدينية والرئاسات المحلية، وخلقت حالة من الفراغ، قامت بعدها بتكوين قيادات عملية وزعامات وهمية تعمل تحت إشراف الاستعماريين وتنفذ مخططاتهم. واستمرت بعد ذلك في عملية التدمير، فحاولت القضاء على الأصالة الذاتية لشعب الجزائر وذلك بفصله عن جذوره التاريخية من جهة، وبالقضاء على قواعد صموده من جهة اخرى فكانت الحرب الصليبية للقضاء على الاسلام، ولما كانت هناك صعوبة كبرى في هدم بناء تكامل عبر مئات السنين. فقد كانت الوسيلة المرحلية هي الاكتفاء بصرف المسلمين عن دينهم وحرمانهم من الاتصال بعروبتهم، مما يؤدي بالتالي إلى إضعاف الاسلام والعروبة تدريجياً حتى تموت وحدها، نتيجة حرمانها من موارد غذائها الأساسية «المسجد والمدرسة».

هنا برزت قوة «الأصالة الذاتية» في أفق التحدي المصيري، وانطلقت حفنة من المفكرين العلماء، وخاضت الصراع بإيمان لا يتزعزع، وثقة بالله لا تضعف. وبدأت بعملية البناء المضاد، فأقامت المساجد، وأنشأت المدارس (فارتفع عددها بين ١٩٤٣ و ١٩٥٤ من بضع عشرات إلى مئة وخمسين مدرسة. تعلم اللغة العربية وتدرس القرآن الكريم).

في ذلك يكتب الكاتب الجزائري «عمار أوزيغان»(*) فيقول: «كان الخطر المميت بالنسبة للاستعمار يكمن على وجه الدقة في هذا الاتحاد الغريب بين مفاهيم الاسلام المتعارضة - كالروحية والمادية - (والتي لم يتمكن الاستعماريون الصليبيون من فهمها). لقد كان الدين الاسلامي وثاقاً يمتن اتحاد مختلف العناصر في القوة الشعبية التي تزخر بها بلادنا. غير أن العدو الاستعماري الذي كان يقيم في «الفيو-باليه» كان أكثر ذكاءً حين كان يهدم الجوامع ويحولها إلى ثكنات أو اصطبلات! كانت هذه معابد تهدم ويتم الخلاص منها. إلا أن الجامع كان أيضاً الجامعة، كما هي الزيتونة في تونس، والقرويين في «فاس» وكما هو الأزهر في القاهرة. فهدم جامع كان يعني هدم مدرسة ومكتبة وقاعة محاضرات وبيت للشعب وجمعية استشارة - أو دار للشورى - ومتحف موسيقي يدرس فيه تجويد القرآن وهو فن يتطلب معرفة مسبقة بمقامات الموسيقى الكلاسيكية أو الشعبية - الأندلسية أو الشرقية... إننا لن نشدد الكلام على الروح

(*) الجهاد الأفضل (عمار أوزيغان) ص ٢٩ ٣٠.

الصليبية التي تجلت في تحويل الجامع إلى كنيسة، وإقامة الأنصاب التذكارية يعلق عليها الصليب الحديدي فوق العبارة اللاتينية: . . «سننتصر بهذه الاشارة»(*). ولن نشدد على شعارات المدينة: مثل شعار مدينة الجزائر، الذي عمم في العالم كله بواسطة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخم في السماء، منتصراً على هلال صغير منكس فوق البحر».

وكان العدو الاستعماري ذكياً جداً في اختياره - موظفي الجوامع - من بين العسكريين المتقاعدين المرشحين لأن يصبحوا نواطير، وسواس خيل، وعمال بلدية وكهرباء. . . وإذا برهن طالب الوظيفة على إخلاصه للنظام الاستعماري، وحفظ عن ظهر قلب - الستين فصلاً - اعتبر مستوفياً للشروط المطلوبة ليمنح إجازته - كشيخ للإسلام - موقعة بإمضاء الحاكم العام. ولم يكن على المفتي الأكبر أكثر من أن يختار المحفوظات المناسبة، وانتقاء النص الصالح ليكون خطبة الجمعة، مع حرصه أن يخضع «كلمات الله» إلى الرقابة المهنية المجدفة عليه، التي يمارسها «الإله الآخر» - معبوده - وهو المفوض السامي. وإذ يصغي إلى المذياع وهو ينقل الصدى المحرك الآتي من عبارات «الله أكبر» يتصور هو، كاهن السلطان الناري، أن جمهور المصلين الذين يسجدون، فيلمس جبينهم السجادة التي تغطي الأرض، يشبهون حشداً من العبيد الراكعين الذين يقدمون خضوعهم وأرواحهم قرابين!

(*) سننتصر بهذه الاشارة: (In Hoc Signo Vinces).

وكان العدو الاستعماري بارع الذكاء في محاربته المستمرة المميتة للغة العربية (اللغة الأجنبية) حين كان يغلق كل مدرسة عربية موجودة بعد ثلاث كيلومترات من أية مدرسة إفرنسية، غايتها تعليم بعض المفردات الكافية لإدارة العمال الزراعيين، كما تعلم البغال بضع كلمات تجعل قيادتها أقل إزعاجاً... وكان العدو الاستعماري يدرك مدى الخطورة في ازدهار اللغة العربية الصحيحة... فأن يتعلم الصغار الجزائريون لغتهم الأم، يعني تخلصهم من عار أنهم «أطفال الساحة العامة» أيتام ولقطاء ومشردون، يعني إيقاظ وعيهم بجدارتهم وكرامتهم، يعني تجنيبهم خطر المراهقة التي لا جذور لها والتي تتدهور في هاوية الكحول ونرفانا الكيف والكوكائين والفجور، يعني أن تعاد للشاب العزب روحه الواثقة القوية الصافية، ليدرك منشأ الفعل الانعكاسي الاستعماري: مثلاً عار الاوروبية العرقية، العاهرة، الكريهة، التي ترفض أن تراقص عربياً حتى لو كان ساحراً كأدونيس - عربي فينيقيا الذي عشقته فينوس. إن تعلم اللغة العربية من جديد هو إحياء التربية الطبيعية والعقلية والتاريخية التي تتيح أن نكتشف السبب في أن جبل جرجره - الجبل الحديدي - الروماني الذي لم تصله المسيحية، قد سمى أعلى قمم الأطلس في منطقة التل باسم «لا لا خديجة» الزوجة الاولى للنبي العربي وأم المؤمنين. تلك صورة من صورة الهدم والبناء.

أما الصورة المقابلة، فتتلخص باستخدام الأساليب المضادة للاستعمار، لهدم ما يحاول أن يبنيه على أنقاض أصالة الجزائر

وعروبتها واسلامها. وقد كان الاستعمار هنا ذكياً أيضاً فقد استخدم في بنائه بعض الحجارة التي أمكن له إعادة نحتها وتكييفها حتى تنسجم مع شكل البنيان الجديد. وهذا ما عبّرت عنه المقولات التالية:

«كان يجب القتال ضد جهاز الاستعمار السياسي والاداري والاقتصادي. كان يجب القتال ضد أيديولوجيته الاستعبادية التي تمثلها البورجوازية الاستعمارية وأسياد المزارع، وملوك المناجم والبنوك والنقل البحري الخ... وضد أيديولوجيا أنصاره غير المباشرين، الأرستوقراطية العمالية الاوروبية، وإقطاعية الأغوات والباشوات من موظفين وأسياد ورجال دين منحرفين وملاّكين كبار... لم يكن العدو المستعمر مجرد قوة مادية راسخة ظاهرياً، كجبل يصمد للقنبلة الذرية. كانت تدعم قوته المادية قوته المعنوية، وقدرته على الاستهواء التي كان الماريشال ليوتي يعبّر عنها بقانون إيمان المسؤولين عن الشؤون الاسلامية: «إظهار القوة كي لا يُلجأ إلى استعمالها». وإذن، فقد كانت قوة العدو المستعمر الحقيقية، إنما تكمن واقعياً في عقدة العجز عند ضحاياه. وهكذا فإن للأفعى نظرة ساحرة تقدر أن تشل من بعيد العصفور، الذي ينسى أن يطير عن غصنه، ويستسلم للسقوط، جامداً، تحت الشجرة، قرب الأفعى... وكان لا بد من إقناع العصفور بأن فيه قوة تستطيع التغلب على الأفعى. وبأن هذا لا يكلفه إلا أن يؤمن بقوته الخاصة، وأن يقهر خوفه، وألا ينسى وجود أجنحته.

ومن أجل ذلك، كان لا بد من الاعتماد على مساعدة

الشعب الجزائري لشل القواعد السياسية والأيديولوجية التي تعيق انطلاقته، وكان في جملة هذه القواعد:

١ - الأيديولوجيا الثورية المضللة، والتي كان الثوريون فيها أشبه «بديوك الليل» التي تبشر بالصباح قبل الأوان، والليل ما يزال أسود كثيفاً، لم يفوزوا بعد، ولم يكن بامكانهم أن يفوزوا، بمواجهة جماهير المسلمين لاستخدام العنف في الكفاح من أجل الحرية، وكان كل شيء مركزاً - عندهم - حول المساواة في الحقوق مع الاوروبيين. مع ما يرافق ذلك من تجشم المشقات مع الخصم - أعني أوروبيي الجزائر - للحصول على مدارس ومحاريث وطرق ومستشفيات، واختيار طريق «الانعتاق بالتطور» وهذه كانت الخطة السياسية... للمنتخبين - غير الاداريين - الذين يسمع صوتهم أكثر من غيرهم والأكثر شعبية «الأعيان» و«الطلاب»، الذين تثقفوا بالثقافة الافرنسية. وكانت رسائل العمل هي الشكاوى التي كان يرفعها «إلى الافرنسيين الطيبين في فرنسا»، «وفد» يرسل إلى باريس حيث كان... «منتخبونا» يجدون رجالاً ديموقراطيين لكي «يصغوا» إليهم، ويشاركوهم غضبهم، ووزراء يسمح لهم تهذيبهم «باستقبالهم» وتقوية أوهامهم... المتعلقة «بفعالية» العمل الذي تقوم به بعض الشخصيات - حتى العالية - لرفع العبء الاستعماري دون استخدام العتلة الشعبية. هذا، لم يكن المنتخبون - الأتباع منهم والمستقلون ـ يسلمون بهذا التناقض: أنهم بطالون «مخمورون بحشيشة الكيف».

٢ - محاربة أدعياء الكفاح ضد الاستعمار، مع تصريح

المدعي منهم بأنه أقرب إلى فلاح ثري ملحد أو أوروبي، منه إلى العامل الزراعي المؤمن الجزائري: يعني أنه يرسم حداً خاطئاً على الصعيد السياسي - وأنه يثير جدلاً بيزنطياً بتجاهله للعدو الرئيسي الذي هو «النظام الاستعماري، مصدر الجهل والظلامة». وتصريح هذا المدعي، بأنه مفكر «حر» دون أن يكافح في سبيل فصل الكنيسة عن الدولة فصلاً حقيقياً، ونسيانه حتى مساعدة المسلمين لنيل الحرية الدينية. وبشكل أخص وقوفه ضد التدخل الافرنسي لاختيار رجال الإمامة والافتاء الذين يعينهم حاكم مسيحي أو يهودي أو ملحد - دون إله - وهذا كله يعني رفض الدفاع عن أكثر الحقوق بداهة: حرية الضمير. يعني رفض الدفاع عن «الديموقراطية»، والامتناع عملياً عن المساس بمؤسسات الظلم الاستعماري، والمشاركة في ترسيخ الركود الاقتصادي والاجتماعي وازدياد التخلف الأيديولوجي.

٣ - محاربة الأيديولوجية الاستسلامية (أمام صعوبات الثورة المسلحة) وهي الأيديولوجيا التي كانت تشل الثوريين - ذوي الأغراض - سواءً في الحزب الشيوعي الجزائري، أو في الحركة الوطنية الجزائرية (والتي كانت تمثلها قيادة الحاج مصالي). وكان هؤلاء الأيديولوجيون يجدون لهم غطاءً في مقولات ذات ظواهر براقة - لامعة - تزوغ لها الأبصار الضعيفة - ومنها على سبيل المثال: (إذا كان «الاستراتيجيون» غير موجودين إلا في الحزب الشيوعي الجزائري والحركة الوطنية الجزائرية، فإن ذلك يعني بأن كل عمل مستقل عنهما محكوم عليه بالفشل مسبقاً... فالثورة فن لا يعرفه غير الأعضاء

المريدين وحدهم... والاقتراب من الثورة بغير إذنهم ممنوع... وذلك حتى لا تكون الثورة مجرد مغامرة دامية لا مستقبل لها، وحتى لا تكون «عملية انتحار» تقوم بها حفنة من المغامرين الذين تلقحوا بالجرثومة الفوضوية الكامنة في الأقلية الفعالة)... وهدفهم النهائي هو عدم قيام الثورة التي ستشكل خطراً حقيقياً على مخططاتهم، وتتشكل عنها نتائج اجتماعية تغاير أهدافهم.

٤ - محاربة الأيديولوجية الوطنية - الاصلاحية - وهي تتميز بإرادة الوصول إلى الاستقلال بسير متبصر، بالسياسة اللاعنفية - وكان يمثلها عباس فرحات قبل الثورة - كأنه يتم الاستقلال بالتعلم أو بالتجارة أو بالصناعة أو استرداد الأرض، أو بالحياة العصرية - الغربية - أو بتعليم المرأة للتخلص من الحجاب أو بالعمل البرلماني أو النقابي، أو بالأناشيد الوطنية الحماسية... وكأنه كان على الجزائر أن تنتظر الحليف الذي سيأتي من الخارج والذي سيقضي على الاستعمار بأسلحة من أنواع أسلحته. وهكذا كانت هذه الأيديولوجيا الاصلاحية تبشر بالصبر حتى يأتي المحرر الذي سيلبس في آن واحد قناع سيدنا سلطان اسطنبول والحاج غليوم الثاني والغازي أتاتورك وجوزيف ستالين والفوهرر هتلر وروزفلت...

٥ - التصدي للأيديولوجية الوطنية الرجعية التي كان يمثلها شيوخ الطرق ممن وظفهم الاستعمار لخدمة أغراضه، وتنفيذ أهدافه، وكان لهذه الأيديولوجية المفسدة أساليبها الهادفة إلى خلق البدع وإلصاقها بالاسلام. وكان لهذه الأيديولوجية

الرجعية أيضاً قاعدتها الاقتصادية القائمة على الملكية العقارية الواسعة، والتي كانت تستغل المزارعين الـذين لا أرض لهم، أو الفلاحين المعوزين. ولقد خلق الاستعمـار طبقة من كبـار الملاكين، وشجعها بواسطة منح يجريها على الموظفين من إداريين ورجال دين. أو بواسطة اختلاسات كانت تجري عنوة. وكان غرض المستعمر هو أن يرتبط بفئة ثابتة على الصعيد الاقتصادي والسياسي. وأن يستخدم تأثيرها الاداري أو الديني، للسيطرة على الفلاحين الفقراء، أو المتـوسطي الحـال. ويراقب غـالبية الشعب الجزائري. وكانت الرجعية الدينية تحرص أيضاً على بقاء الهوة القائمة بين الريف والمدينة، وذلك نظراً لما كانت تتمتع به المدينة من سبق في التطور سواء في مجال الوعي الديني أو الوعي السياسي، أو في الوعي الطبقي والعاطفة القومية[١].

وليس من الغريب بعد ذلك أن تنحدر حركة مثل حركة «المرابطين» إلى مجرد حلقات للدراويش أو الحواة، أو صانعي التمائم والتعاويذ التي تبعد «العين الشريـرة» والفقر والمـرض والضعف والعقم... بعد أن كانت لعهود طويلة حركة «رائعة للجهاد» تألقت في سماء المسلمين عندما قـام رجالهـا بالـدفاع عن... «أندلس المسلمين» وعنـدما تصـدوا لهجمـات الغـزاة الصليبيين الاسبانيين طوال ثلاثة قرون (في أعقاب سقوط دولة المسلمـين في الأندلس) ثم في مجـابهة الحمـلات الاولى للغزو الافرنسي. وليس من الغريب بالمقابل، بل أنه أمر متوقع جداً،

(١) الجهاد الأفضل (عمار أوزيغان) ص ١٥-١٩.

أن تتصدى الحركة الاصلاحية الاسلامية التي قادها الشيخ عبدالحميد بن باديس ومعه شيوخ رابطة العلماء لهذه الانحرافات، ويعملون على هدم ما حاول الافرنسيون بناءه على أنقاض التنظيمات الاسلامية الأصيلة، التي انحدرت إلى هوة سحيقة تحت ضربات الاستعمار المادية والمعنوية[1].

هنا يبرز سؤال: وهل كانت كل الحركات السياسية والدينية التي عرفتها الجزائر في ليل الاستعمار - حركات عميلة أو مشبوهة؟.

يقيناً لا! لقد عرف عالم الدول التي خضعت للاستعمار، كما عرفت الجزائر، حركات مخلصة وعرفت زعماء مخلصين، غير أن تلك الحركات وأولئك الزعماء قد بقيت، وبقوا، في حالة من القصور عن إدراك الأهداف البعيدة لأمتهم، وانعزلوا، في كثير من الأحيان عن تيار التفاعلات العميقة في ضمائر أفراد الشعب. وأسهم التدمير المستمر لمعاول الاستعمار (المادية والمعنوية) في استنزاف قدراتهم أحياناً، وفي حرفهم في أحيان اخرى، وفي تدميرهم تدميراً تاماً في معظم الأحيان.

من هنا تظهر ضرورة التعرض لتلك المرحلة التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية الكبرى (١٩٥٤). والتي يمكن اعتبارها

---

(١) انظر العدد الثاني من هذه المجموعة (الجزائر المجاهدة في مجابهة الحملات الصليبية القديمة) وكذلك العدد السابع من هذه المجموعة أيضاً (عبدالحميد بن باديس. وبناء قاعدة الثورة الجزائرية).

(مرحلة المخاض العسير لولادة الحدث العظيم) وهي المرحلة التي بدأت بواكيرها بالأمير خالد وبحركة «جمعية العلماء» على نحو ما سبق عرضه في العددين السابقين من هذه المجموعة.

* * *

٢ ـ حزب نجم شمال أفريقيا(*)

كان حزب «الجزائر الفتاة» والذي أسسه الأمير خالد الهاشمي الجزائري. وهو أول تنظيم حزبي عرفته الجزائر غداة الحرب العالمية الأولى. وكانت «جمعية العلماء الجزائريين المسلمين» هي أبرز تنظيم اجتماعي - ديني - سياسي، ولو أنه لم يرفع الهوية السياسية. وفي تلك الفترة ذاتها ظهر - في باريس - تنظيم جديد ارتبط بالطبقة العاملة لأبناء المغرب العربي الإسلامي عرف باسم «حزب نجم شمال أفريقيا» وارتبط ارتباطاً وثيقاً باسم «مصالي الحاج» على الرغم من أن أول رئيس لهذا الحزب - أو الجمعية - كان «سي محمد جيفال» وهو تاجر جزائري مستقيم وشجاع من المنطقة الثامنة عشرة، وكان من أعضاء مكتب الجمعية «عبد القادر بن الحاج علي وعلي الحمامي، ومصالي الحاج».

كان ذلك في العام ١٩٢٤، فخلال مؤتمر نظمه الأمير خالد الهاشمي في باريس، تفرق المهاجرون من شمال أفريقيا

(*) L'ETOILE NORD-AFRICAINE (نجم شمال أفريقيا)

الذين كانوا يحضرون الاجتماع، وهم يهتفون «عاشت أفريقيا المستقلة» وفي السنة نفسها - في منتصف شهر أيلول - سبتمبر - تأسست «جمعية نجم شمال أفريقيا» في باريس وكانت أهدافها الاجتماعية الدفاع عن مصالح عرب شمال أفريقيا المادية والمعنوية والاجتماعية. وكان يختفي وراء واجهتها تلك المطالب السياسية الخاصة باستقلال بلدان أفريقيا الثلاثة. وخلال تلك الفترة، كان الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي يقود حربه الضارية ضد الاستعمار الاسباني في الريف، ويحقق إنتصاره الرائع في معركة - أفوال - الشهيرة - فكان أول نشاط تمارسه الجمعية هو إرسال برقية إلى الأمير الخطابي - بمناسبة انتصاره، جاء فيها:

«عمال المغرب العربي الذين يعملون في الناحية الباريسية، والذين يجمعون في هذا اليوم التاريخي - السابع من كانون الأول - ديسمبر - ١٩٢٤ مؤتمرهم الأول، يبعثون لاخوانهم رجال المغرب الأقصى وإلى زعيمهم البطل عبدالكريم بالتهاني الصادقة من أجل انتصارهم على الاستعمار الاسباني. ويعلنون تضامنهم معهم في كل مسعى يقومون به من أجل تحرير البلاد، ويشاركونهم المناداة باستقلال الشعوب المظلومة، وبسقوط الاستعمار العالمي والاستعمار الافرنسي»

ترددت أصداء هذه الصيحة قوية مجلجلة في كل أنحاء المغرب العربي - الاسلامي، إذ كيف يرتفع صوت ينادي بالاستقلال الوطني من قلب عاصمة الاستعمار - باريس - في

لوقت الذي لا يكاد فيه صوت يرتفع في كل أنحاء المغرب العربي الاسلامي ليطالب بما هو أقل من ذلك بكثير - الدمج - بدون أن يلقي أذناً صاغية؟ لقد حدث ذلك في وقت خُيل لكثير من أبناء المغرب العربي الاسلامي أن أقدام الاستعمار قد باتت ثابتة وقوية فوق أرض الوطن، وأفاق كثير من الناس ليدركوا أن بناء الاستعمار إنما هو بناء فوق الرمال. وكان من نتيجة ذلك أن انضم عدد كبير من رجال المغرب العربي - الاسلامي إلى الجمعية - وخاصة من العمال الجزائريين - وشعرت «الجمعية» بأن ساعدها يشتد، فأصدرت صحيفة ناطقة باسمها (حملت اسم جريدة - الأمة).

في سنة ١٩٢٧، تولى «مصالي الحاج» رئاسة جمعية «نجم شمال أفريقيا» فأعطاها قوة دفع جديدة بما عرف عنه من قدرة تنظيمية كبيرة، وحماسة شديدة للعمل. وهنا قد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند شخصية «مصالي الحاج» الذي أصبح في فترة من الفترات «أبو الوطن الجزائري». أو «والد الحركة الوطنية الجزائرية».

ولد مصالي الحاج في العام ١٨٩٨ في مدينة تلمسان. عن والد فقير كان صانعاً للأحذية، فلم تتح له الفرصة إلا للتعلم بصورة محدودة، وفي سنة ١٩١١، أيقظه حدث كبير ترك أثراً عميقاً في حياته، فقد شاهد في هذه السنة أهل مدينته «تلمسان» وهم يهاجرون هجرة شبه جماعية، تاركين مدينتهم فراراً من جور الاستعمار، ميممين وجوههم شطر المشرق العربي -

الاسلامي، حيث استقر بعضهم في تونس، وتابع أكثرهم هجرته إلى بلاد الشام. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، قاتل «مصالي الحاج» في صفوف الجيش الافرنسي، حتى إذا ما انتهت الحرب وعاد إلى الجزائر، لم يجد فيها غير البؤس والفقر والاضطهاد، شانه في ذلك شان الكثيرين من المقاتلين الجزائريين في الجيش الافرنسي، وأدت البطالة التي انتشرت في الجزائر اعتبارا من سنة ١٩٢٠، وحاجة فرنسا إلى القيام بالأعمال العمرانية، إلى هجرة كثير من الشبان الجزائريين إلى فرنسا بحثاً عن العمل. وكان بين هؤلاء المهاجرين «الشاب مصالي الحاج» حيث عمل في عدد من مصانع باريس كما عمل بائعاً متجولاً في الشوارع. وواظب على تلقي الدروس في معهد الدراسات الشرقية. كما حضر محاضرات عدة في جامعة بوردو. وعاش كغيره من العمال الجزائريين حياة الكفاف وفي أوضاع شاقة، واتصل بالطبقات العاملة الافرنسية، وسرعان ما انضم إلى الحزب الشيوعي، ثم تزوج من شيوعية بارزة. وقد أفاد من خدمته في الخلايا الشيوعية الباريسية، إذ أكسبته مراناً وتجربة تنظيميين استثمرها بشكل جيد عندما شرع في تنظيم الحركة الوطنية الجزائرية.

حاول «مصالي الحاج» نقل مركز ثقل حركته إلى الجزائر، وتطوير الحركة في فرنسا ذاتها. غير أن نطاق الجمعية «جمعية نجم شمال أفريقيا» وصحيفتها «الأمة» لم يتجاوز حتى سنة ١٩٢٩ حدود النطاق الضيق للعمال المهاجرين والمقيمين في باريس وضواحيها. أما في الجزائر فقد بقيت الجمعية وصحيفتها

مجهولتين من الجمهور وخاصة الفلاحين منهم. ويعود السبب في ذلك إلى رفض الجزائريين المسلمين للفكر الشيوعي، وهو الأمر الذي تعبر عنه المقولة التالية:

«جاء عبدالقادر بن الحاج إلى الجزائر ومعه مصالي الحاج للاجتماع بزعماء الحركات الوطنية، وعقد هؤلاء اجتماعاً جرى فيه حوار بشأن الالتقاء بمصالي الحاج ورفيقه، وفي هذا الاجتماع قال أحد الحضور - الطيب الجميل -: إننا نحاول إخراج الشيوعية من الباب فإذا بها تطل علينا من الشباك! لقد بات من المعروف أن حركة «نجم شمال أفريقيا هي حركة شيوعية». وأن الرجلين كانا من رجال الحزب الشيوعي المعدودين، ولا يزالان يعملان سراً بوحيه وبالاتفاق معه. وأن هذه الحركة المذهبية المشبوهة، إنما هي من أجل تغلغل الشيوعية في كل الأوساط الاسلامية التي بقيت مغلقة في وجه دعاية الكومينترن. فالعامل مع هذين الرجلين إنما هو العامل من أجل الكريملين، ولفائدة مبدأ رفضه المسلمون قاطبة. ويعتقد الشيوعيون أنه يجب التخلص من الاستعمار أولاً بواسطة حركة دينية قومية، ثم هم يتخلصون سريعاً من هذه الحركة لفائدة الشيوعية». وتقرر بعد جدال عدم الاجتماع بزعيمي جمعية «نجم شمال أفريقيا».

وهكذا فقد اقتصر نشاط الحزب بصورة رئيسية على فرنسا، وأقام له اتصالات مع تونس والمغرب - مراكش - وغيرهما من الجماعات الاسلامية والهيئات العربية. وشهد

«مصالي الحاج» مؤتمر مناهضة الاستعمار الذي عقد في بلجيكا سنة ١٩٢٧، والذي ترك أثراً عميقاً في عقول الكثير من الوطنيين في آسيا وأفريقيا.

أصدرت الحكومة الافرنسية قراراً في سنة ١٩٢٩ بحل «حزب نجم شمال أفريقيا» لمطالبته بالاستقلال فانتقل عدد كبير من مناضليه إلى الحركة السرية، ودعموا بذلك (كوادر - أجهزة) الجهاز التنظيمي الشيوعي الذي كانوا قد انضووا تحت لوائه في البداية. وفي العام ذاته، تأسس حزب «النجم الثاقب» الذي تبنى مطالب أقل عنفاً وبرنامجاً أكثر اعتدالاً، يستهدف رفض «رسالة فرنسا التمدينية» في الجزائر. واستمر الحزب في إصدار صحيفته «الأمة» في أوقات غير منتظمة، وكانت كالمشرفين عليها عرضة دائمة لإجراءات العنف الافرنسية. وفي سنة ١٩٣٠ بعث الحزب بمذكرة إلى عصبة الأمم يناشدها الدعم لتحقيق مطالب حزب «النجم الثاقب». وظهر خلال ذلك أن قرار حل «حزب نجم شمال أفريقيا» إنما جاء بسبب الضغط الذي مارسه «عمد الجزائر» و«النواب المنتخبون» من المستوطنين على الحكومة الافرنسية. وعلى كل حال، فقد عاد حزب «نجم شمال أفريقيا» للظهور مجدداً في سنة ١٩٣٣، وعقد مؤتمراً عاماً وهاماً في فرنسا. وقد تمكن «مصالي الحاج» وأنصاره من حمل المؤتمر على استصدار قرار مطول يتضمن الاجراءات التي يجب اتخاذها قبل الاستقلال وبعده(*). وعلى أثر ذلك قامت الحكومة الافرنسية

(*) انظر مواد هذا القرار في نهاية هذا الكتاب (قراءات ١).

باعتقاله والحكم عليه بالسجن لمدة سنتين وذلك بالتهمة التي كثيراً ما استخدمت ضده وضد غيره من الوطنيين وهي «تأليف منظمة غير مشروعة». وعندما أطلق سراح «مصالي الحاج» سنة ١٩٣٥ عاد على الفور لاستئناف نشاطه، وظهر حزب «نجم شمال أفريقيا» تحت اسم جديد هو «الاتحاد الوطني لمسلمي شمال أفريقيا». واشترك «مصالي الحاج» بصورة بارزة في الحملة العالمية التي شنت ضد غزو الايطاليين للحبشة (أثيوبيا). ولم تمض بضعة أشهر على إطلاق سراحه حتى كان مصالي ثانية عرضة للاعتقال بموجب مرسوم «رينيه» القاسي، وسافر إلى سويسرا حيث قضى ستة أشهر في حالة نفي اختياري، تجنباً للسجن من جديد. وقد اتسعت آفاقه في سويسرا من جراء حضوره «المؤتمر الاسلامي في جنيف» واتصاله بالأمير «شكيب أرسلان». وأدى هذا الاتصال إلى تحويل «مصالي الحاج» من صورته الشيوعية الافرنسية إلى مظهره الاسلامي العربي. وأثر الأمير شكيب على مصالي فحمله على معارضة اقتراحات «بلوم - فيوليت» التمثيلية. وعلى زيادة الاتصال بالحركة الاصلاحية في الجزائر ذاتها. وقام الأمير شكيب ذاته بكتابة مجموعة من الرسائل إلى زعماء المغرب العربي - الاسلامي، أشاد فيها «بالزعيم مصالي الحاج» وامتدح صدق وطنيته وإقدامه وحماسته، وأنه «لو كان للاسلام مثله في مختلف الأوطان لتغير الحال غير الحال» وكان ممن تلقى رسائل الأمير شكيب - بهذا الشأن - محيي الدين القليبي - بتونس - وأحمد توفيق المدني - بالجزائر - وعبدالحميد بن باديس - بقسنطينة - والطيب العقبي - ببسكره - ومبارك

الميلي - بالأغواط - وعلال الفاسي - بفاس - ومحمد بن أحمد داوود - **بتطوان** - وساعدت هذه الرسائل «مصالي الحاج» على تطوير نشاطه في أنحاء المغرب العربي الاسلامي.

أدى تحالف قوى اليسار في فرنسا «الاشتراكيين والشيوعيين» إلى انتصارهم في انتخابات سنة **١٩٣٦** وتشكلت حكومة «ليون بلوم». وقام محامو الدفاع عن «مصالي الحاج» برفع قضيته إلى رئيس الوزراء الافرنسي، وصدر قرار بعودته إلى فرنسا. فاستأنف «مصالي» نشاطه التنظيمي والدعائي بمجرد وصوله إلى باريس، بعزيمة أكثر وتصميم أكبر. واستعرض نحواً من أربعين ألف عامل من عمال المغرب العربي الاسلامي في باريس، وذلك في صباح يوم الباستيل من سنة **١٩٣٦**، وكانت مسيرة العمال ترفع شعار «تحرر الوطن العربي». ودخل مصالي وحزبه «نجم شمال أفريقيا» إلى الجزائر نفسها، للمرة الأولى، في الثاني من شهر آب - أغسطس - **١٩٣٦** حيث عقد **اجتماعاً عاماً** في الملعب البلدي في الجزائر، بحضور نحو من عشرة آلاف جزائري. وقام «مصالي الحاج» بعد ذلك بجولة في أنحاء البلاد، حيث ألقى عدداً من الخطب، نالت نجاحاً بارزاً في مسقط رأسه «في مقاطعة **تلمسان**». وذكر حزب «نجم شمال أفريقيا» في هذه **الآونة،** أن عضويته تضم أحد عشر ألف شخص نظموا في سبعة فروع في فرنسا، وفي نحو من ثلاثين فرعاً أخرى أثناء الجولة التي قام بها مصالي في أنحاء البلاد. علاوة على ثلاثين فرعاً كانت قد تأسست في الجزائر من قبل. ولقيت حملة مصالي

ضد اقتراحات «بلوم - فيوليت»(*) ومطالبته بالاستقلال، معارضة قوية من قبل «أنصار الدمج» ومن قبل الحزب الشيوعي - بوصفه أحد الأحزاب الحاكمة في فرنسا الآن - والذي بات يؤيد استمرار السيادة الافرنسية على الجزائر. وأدى هذا الصراع إلى نتيجتين مهمتين: أولاهما تخلي الكثير من الجزائريين عن ارتباطاتهم الشيوعية، تأييداً لموقف حزب «نجم شمال أفريقيا» القومي. وثانيتهما حل حكومة الجبهة الشعبية لحزب «نجم شمال أفريقيا» في كانون الثاني - يناير - ١٩٣٧.

* * *

قرر زعماء «حزب نجم شمال أفريقيا» بعد حل حزبهم، تأسيس حزب جديد. واجتمع مصالي الحاج وعماش عمار، وراجف بلقاسم وموسوي رباح ونحال محمد الرزق، وأعلنوا يوم ١١ - آذار - مارس - ١٩٣٧ تأسيس «حزب الشعب الجزائري» ودعمهم أعضاء شعبة الجزائر لحزب «نجم شمال أفريقيا».

(*) بلوم - ليون (BLUM — LÉON) (١٨٧٢ - ١٩٥٠) شكل حكومة الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٦، وقرر الاستجابة لطلبات الراغبين بالحصول على الجنسية الافرنسية (أنصار سياسة الدمج مع فرنسا) ومنح هذه الجنسية إلى فئات معينة فقط من الجزائريين المثقفين. ولكن هذا القانون لم يصدق عليه في البرلمان الافرنسي بسبب معارضة المستوطنين ومقاومتهم له. وأدى فشله إلى خيبة آمال تلك الفئة التي «حاولت الاخلاص لثقافتها الافرنسية» وفي الوقت ذاته، اصطدم «مشروع بلوم فيوليت» بمقاومة المسلمين في الجزائر ومعارضتهم له.

٣ ـ ضرب الشعب الجزائري والحركة من أجل انتصار الحرية والديمقراطية

تكون حزب الشعب تكويناً يغاير ما كان عليه **تشكيل حـــزب** «**نجم شمال افريقيا**». **إذ** اعتمد حزب الشعب بالدرجة الأولى على الجزائريين، وكان برنـامجه مـركزاً **عــلى تــأليف** حكومة جزائرية شعبية وبرلمان (مجلس نيابي) واحترام حقوق الأمـة الجزائـرية وبعث اللغـة العربيـة والاعتماد عـلى الدين الاسلامي، فكان من بعض الوجوه مشابهاً لحزب الدستور الجديد (في تونس) و (فريق العمل المغربي) إذ لم يكن قد قام في المغرب حتى هذا التاريخ حزب سياسي. ولم يكن ذلك تحللاً نهائياً من الارتباط بالحركات السياسية الاخرى في المغرب العربي الاسلامي، أو تقصيراً عن تبادل الدعم ضد فرنسا من أجل الاستقـلال. فكان القـرار **بـتأليـف** حـزب الشعب عـلى أسس جزائرية صرفـة، عملاً تكتيكيـاً، فرضتـه الظروف السيـاسية والقانونية التي جعلت من تونس والمغرب محميتين فرنسيتين ومن الجزائر قطراً فــرنسيـــاً.

استقبلت أوساط العمال الجزائريـين العاملين في فـرنسا **تكـوين** «حزب الشعب» **بحمـــاسة**، وأعلنت **عــن** تـأييـدهـا **له**. **وعاد** «**مصالي** الحاج» إلى الجـزائر في حـزيران - يـونيو -

١٩٣٧ . ورشح الحزب لأول مرة مرشحيه للانتخابات البلدية في الجزائر - العاصمة - وبالرغم من بيان الحزب والوسائل الشرعية التي استخدمها في الانتخابات - فقد جرى اعتقال «مصالي الحاج» وأعضاء اللجنة الادارية للحزب يوم ٢٧ آب أغسطس - ١٩٣٧ . وأسندت إلى «مصالي الحاج» تهمة «التحريض على أعمال العنف ضد سيادة الدولة» و «إعادة تنظيم هيئة محلولة». وقد تم هذا التوقيف في ذات اليوم الذي صدر فيه العدد الأول من جريدة الحزب الرسمية «الشهاب» وهي صحيفة أسبوعية باللغة العربية، كان مديرها ورئيس تحريرها «مفدي زكريا» وهو مجاهد شاب من «ميزاب». ولم يكن ذلك إلاّ بداية لأعمال القمع ضد الحزب ومجاهديه. ففي الوقت الذي كان يصدر فيه العدد الثاني من جريدة «الشهاب» تم اعتقال رئيس تحرير الجريدة الجديد «غينانيش محمد» من تلمسان. كما اعتقل عدد آخر من أعضاء الحزب - مات أحدهم وهو «كحال محمد» خلال التعذيب الذي أعقب اعتقاله.

وصدر الحكم على «مصالي الحاج» بالسجن لمدة عامين وتجريده من كافة حقوقه المدنية والسياسية. وصدرت أحكام مماثلة على بقية المعتقلين من أفراد «حزب الشعب» وقادته. ووضعتهم الادارة الافرنسية في سجن «بربروس» حيث عوملوا كمجرمين عاديين، ولكنهم أعلنوا الاضراب عن الطعام مرتين، فحصلوا على اعتبارهم كسجناء سياسيين، وأرسلوا إلى معتقل الحراش «ميزون كاريه» وسمح لهم بتلقي الصحف والطعام والزيارات الرسمية كل أسبوع.

بقي حزب الشعب، حتى تلك الفترة، حزباً شرعياً، ولم تكن مكافحته إلاّ لتزيده نمواً ونشاطاً. ذلك إن القمع الارهابي الذي مارسته الادارة الافرنسية ضد مجاهديه، قد دعمت من وجوده، واكسبته تعاطف الجماهير معه، وبدأ أعضاؤه في التكاثر في كل أقاليم الجزائر - وفي العاصمة الجزائر وضاحيتها بصورة خاصة، وفي بليدة وتلمسان ووهران وقسنطينة وعين بيضاء بعد أن كانوا يقتصرون على العمال المهاجرين في فرنسا.

أجريت انتخابات تكميلية لمجلس بلدية الجزائر، وفازت قائمة «أحمد بومنجل» التي كان يساندها حزب الشعب بأكثرية ساحقة وذلك للمرة الأولى. وفشلت للمرة الأولى أيضاً، وأزيحت من المسرح السياسي الأسر البورجوازية التي كانت تتطاحن منذ سنوات فيما بينها في معركة لا معنى لها، ومن هذه الأسر «آل شقيقن» و «بودريا» و «حافظ» و «تمزالي» و «طيار» و «بنتامي» و«بن سماية» و «ولد عيسى» و «بن سيام» إلخ... فقد أدار أهالي «حي القصبة» في العاصمة الجزائر ظهورهم لسياسة الأسر الكبيرة، لينضم نهائياً إلى صف الأحزاب ذات الاتجاهات السياسية العقائدية. وتدعم هذا التطور في شهر نيسان - أبريل - من سنة ١٩٣٩، في انتخاب مجلس مدينة الجزائر العام، فبالرغم من الضغط الذي تعرض له الناخبون من قبل المحافظة والحكومة، فاز مرشح حزب الشعب الجزائري «دوار محمد» الذي اعتقل بعد ذلك ومات في السجن.

أصدر «حزب الشعب» في تلك الفترة صحيفة أسبوعية باللغة الافرنسية حملت اسم «البرلمان الجزائري». وكانت هذه

الصحيفة تحرر وتدار من سجن الحراش «ميزون كاريه» وبقيت قوة الحزب قائمة في فرنسا - سنة ١٩٤٠ - وتمكن من اقتناء آلة طباعة، وأصبحت لمجاهديه خبرة طويلة في شؤون النشاط السياسي والدعائي. غير أن حياة صحيفة «البرلمان الجزائري» لم تستمر طويلاً. فقد نشبت الحرب العالمية الثانية، وفي ٢٩ أيلول - سبتمبر - ١٩٣٩، أصدرت الادارة الافرنسية قرارها بحل «حزب الشعب الجزائري». ثم أخلي سبيل أعضاء هيئته الادارية السابقة، وفي يوم ٤ تشرين الأول - أكتوبر - أعيد اعتقال بعض هؤلاء الأعضاء بدون أي سبب مباشر. وشملت تلك الاعتقالات: مصالي الحاج ومعروف بومدين وبوحريدة عمار وخليفة بن عمار، ومفدي زكريا ومكي وفليطة أحمد وقدور تركي وابن العقبي ومحمد خيضر ومحمد ممشاوي وبو معزة علاوي. ولكن الأحداث أخذت تتعاقب مسرعة. فوقعت فرنسا الهدنة وغيرت نظامها وسياستها الخارجية. وقام في لندن الجنرال ديغول يوجه نداءه للشعب الافرنسي وشعوب المستعمرات يدعوها فيه إلى المقاومة والقتال ضد الاحتلال الألماني. فأدرك الشعب الجزائري أن العالم سيشهد تغييرات ضخمة، وأن هذه الأحداث ستشمل الجزائر. ومع ذلك، انعقدت محكمة عسكرية في مدينة الجزائر. وأصدرت حكمها على «مصالي الحاج» يوم ٢٨ آذار - مارس - سنة ١٩٤١ بالأشغال الشاقة لمدة ١٦ سنة، وبالإبعاد عن الأرض الافرنسية والمحمية لمدة عشرين سنة بعد ذلك، وبغرامة مالية قدرها ثلاثين مليوناً من الفرنكات. ومنذ ذلك الوقت ضاع «حزب الشعب» في متاهات عديدة بين العمل

العلني والعمل السري. فقد كانت ظروف الحرب، ونشاط أجهزة الأمن الافرنسية، قادرة على إحكام قبضتها على البلاد. وكانت سلطات «فيشي» تكثر من الاعتقالات ومعسكرات التجمع والاقامة الاجبارية.

كان من آثار هذا النظام الذي استمر حتى نزول القوات الأنكلو- أمريكية في الجزائر يوم ٨ تشرين الثاني - نوفمبر- ١٩٤٢، أنه نشط الرأي العام الجزائري، ففي معسكر القوميين والشيوعيين والعلماء والأشراف والنقابات العمالية والتقدميين والتجار واليهود أخذ اللقاء ينتظم وانتشر تبادل الآراء بين الجميع. وكانت أنباء الخارج موضوع تعليقات يومية، وأصبحت السجون هي المدارس الحقيقية للمجاهدين، فيها يعقدون ندواتهم ويلقون محاضراتهم ويبحثون مستقبل بلادهم. فمن روزفلت إلى ستالين، ومن تشرشل إلى ديغول، ومن شرعة الأطلسي إلى استقلال الشعوب المستعمرة، وكانت النظريات تتصارع وتسري بين مجموع المعتقلين. وكان هناك من الرجال من زج بهم في السجون لجرائم عادية، وفيهم تجار لا تربطهم بالسياسة أية روابط، سجنوا لأنهم تجار حرب ساروا على درب الكسب غير المشروع. هؤلاء وأمثالهم تخرجوا من السجون وهم يحملون حماسة المجاهدين المتمرسين. وعندما كانت الادارة الافرنسية تضع أحد القوميين في إقامة إجبارية، كان هم هذا الأخير ينصرف بالدرجة الأولى إلى تنظيم خلية، حيث لم يكن يوجد شيء من ذلك القبيل، وإلى نشر مبادىء الحزب في صفوف الفلاحين. وبذلك، كانت عمليات القمع تنشر خميرة

الاستقلال الوطني من منطقة إلى **أخـرى ـ دون** قصد منها - وفي الجامعات والمدارس **انخرطت** الشبيبة بأكثريتها الساحقة في الحركة القومية، وتغيرت الأخلاق بتغير الزمن، حتى إنه كثيراً ما أخذت تظهر خلافات سياسية بين الأب وابنه. وكانت الأجيال الجديدة تتغذى بتيارات العصر **المحرقة، وتتجه** إلى المساهمة في الحرب الفكرية - العقائدية - **التي أخذت تجتاح** العالم وتعمل على تقسيمه وتمزيقه. وقد خرج **معهد** «بليدة» **عددا كبيراً** من القوميين النشيطين من بينهم **«سعد دحلب»** و **«محمد يزيد»** **و«بن يوسف** بن خدة» وبعدهم «رمضان عبان». كما خرج غيره من المعاهد العربية الاسلامية شباناً آخرين، مثل الصديق وآية أحمد و بن بيلا وشنتوف **ومصطفاي** وسواهم ممن انضموا إلى صفوف الدعوة السياسية الجديدة فقويت بهم وازدادوا قوة بها. وغدت «لحزب الشعب الجزائري» إدارة جديدة تقود مصيره بصورة سرية، وكانت هذه الادارة على اتصال بمحكومي آذار - مارس - ١٩٤١ (مصالي الحاج وزمرة قيادته). وكان من أبرز **عناصر الادارة الجديدة: الدكتور الأمين دباغين وأحمد مزغنة ومكري حسين، وحسين أصلح.**

* * *

انتهت الحرب العالمية الثانية، وعاد **«مصالي الحاج»** **وأنصاره إلى خوض المعترك السياسي. واشتركوا في أول انتخابات جرت في عهد الجمهورية الرابعة. فبعد أن أطلق سراحه عند انتهاء الحرب بصورة رسمية، منع من دخول المدن الكبرى في الجزائر، وفرضت عليه الاقامة الاجبارية - تحت**

المراقبة في قرية «بوزريعة» القريبة من مدينة الجزائر، وذلك في تشرين الأول - أكتوبر - من عام ١٩٤٦. وقام مصالي في هذه الأونة، يحيط به أنصاره من أمثال الدكتور الأمين دباغين وحسين الأحول وأحمد مزغنة ومحمد خيضر بتأسيس «حركة انتصار الحريات الديموقراطية».

كانت «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» التي حلت محل «حزب الشعب الجزائري» - الذي كان لا يزال منحلاً. تؤيد إنشاء جمعية تأسيسية جزائرية، ذات سيادة منتخبة على أساس الاقتراع العام، دون تمييز من أي نوع، وجلاء الجيوش الافرنسية عن الجزائر، وإعادة الأراضي التي انتزعت، وتعريب التعليم الثانوي، وعودة المساجد إلى الاشراف الديني البحت. وقرر مصالي أن يشترك في انتخابات شهر تشرين الثاني - نوفمبر - ليضع هذا البرنامج أمام الشعب الجزائري، وليختبر فكرة استقلال الجزائر عن طريق صناديق الانتخاب. ولذلك رفض محاولات الحزب الشيوعي الجزائري، الذي كان واقعاً تحت تأثير ضغط شديد من الطائفة الانتخابية الأولى، للاشتراك في «جبهة متحدة» تشمل الشيوعيين، وحركة انتصار الحريات الديموقراطية، والاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري وجماعة العلماء. وأسف فرحات عباس (الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان) لموقف مصالي، ولكنهم قرروا عدم الاشتراك في الانتخابات تحاشياً لوقوع الانقسام في صفوف القوميين وتهيئة فرصة لمصالي كان قد فشل فيها. وجاءت نتائج الانتخابات في الطائفة الثانية مخيبة لأمل «حركة انتصار الحريات الديموقراطية -مصالي الحاج» إذ حصلت على خمسة مقاعد،

تتضمن انتخاب «مزغنة» و «خيضر» عن مدينة الجزائر، و«الأمين»عن قسنطينة. وذلك من المجموع الكلي وهو خمسة عشر مقعداً. ولكنها حصلت على - ١٥٣, ١٥٣ - صوتاً فقط من مجموع المقترعين وهو ٤٦٤,٣١٩ - من مجموع من لهم حق الانتخاب وهو- ١,٢٤٥,١٠٨ - وكانت ثمانية مقاعد في «الطائفة الثانية» من نصيب المستقلين الذين تؤيدهم الادارة الافرنسية، والذين يؤيدون التعاون بين الافرنسيين والمسلمين، وحصل الشيوعيون على مقعدين. وفي انتخابات مجلس الجمهورية الافرنسي، كانت النتيجة مختلفة نوعاً ما. فعلى الرغم من جهود الادارة لإبعاد حزب «الاتحاد الديموقراطي» عن الانتخابات غير المباشرة، حصل الحزب في النهاية على أربعة مقاعد من سبعة، بينما كانت ثلاثة مقاعد من نصيب المستقلين الذين يؤيدون التعاون بين الافرنسيين والمسلمين، وأظهر هذا النجاح أن «الاتحاد الديموقراطي» احتفظ بالشعبية التي سبق له أن كسبها من قبل، وذلك على الرغم من أنه لم يشترك في الانتخابات «للجمعية الوطنية».

* * *

كان أمام «الجمعية الوطنية الافرنسية» أربعة مشاريع لقانون الجزائر، قدمتها الحكومة الافرنسية والحزب الاشتراكي، والحزب الشيوعي وحزب «الاتحاد الديموقراطي» منضماً إلى « جماعة المستقلين المسلمين للدفاع عن اتحاد الجزائر» - وهو الاسم الذي اختاره أولئك المسلمون الذين يؤيدون التعاون بين الافرنسيين والمسلمين - وقام أعضاء «حركة انتصار الحريات الديموقراطية - مصالي» بعرض وجهات نظر القوميين الجزائريين أمام الجمعية

الوطنية الافرنسية. وفي يوم ٢٠ آب - أغسطس - وهو يوم يصفه الحزب بأنه تاريخي، جادل أربعة أعضاء من حزب «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» في أن «الجزائر ليست إفرنسية» وأنها لا تعترف بموقف الأمر الواقع الذي أوجده الغزو الافرنسي للجزائر في سنة ١٨٣٠. وأن الجزائر «لن تعترف بأي قانون إلّا إذا تضمن إعادة السيادة للشعب» وكانوا يطالبون بإقامة جمعية تأسيسية جزائرية تنتخب بالاقتراع العام دون تمييز من أي نوع. وهو الاقتراح الذي تكرر كثيراً من حزب «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» في سنوات ما بعد الحرب. وتعرض النائب «أحمد مزغنة» في نقاشه لمجمل المظالم الاقتصادية التي عانت منها الجزائر وشعبها خلال حكم الاستعمار الافرنسي للبلاد، فذكر ما يلي: «... يكفي أن تسير في شارع لير في المساء، حيث ينام مئات من السابلة على الأرض، أو أن تفحص مجموعات الرجال والنساء والأطفال والشيوخ العرايا تقريباً التي دفعها البؤس والخوف من الموت نحو المدن، والذين يبحثون في كل صباح، ويزاحمون الكلاب والقطط على بقايا الطعام، لتأخذ فكرة عن المأساة الانسانية التي لا تصدق، والتي تجري في الجزائر»(*).

قام ممثلو حزب «الاتحاد الديموقراطي» بطرح وجهات النظر الجزائرية أمام مجلس الجمهورية على شكل قانون مقترح. وقال أحد هؤلاء الممثلين: «بأن الأوروبيين في الجزائر هم الذين

(*) ثورة الجزائر «جوان غيلسبي» الدار المصرية ص - ٥٦ - ٦٢ - و٨٦ - ٨٩.

فرضوا على فرنسا سياستها على المسلمين طوال خمس وسبعين عاماً. وظهرت تغييرات كثيرة في السياسة: التعاون، الدمج، الارتباط، الحكم الذاتي، عودة الاتصال، غير أن أحداً من هذه السياسات لم ينفذ. وبقيت السياسة الوحيدة التي تمارس في الواقع - في الجزائر - هي سياسة التفوق الافرنسي». وكان القانون المقترح يدعو إلى إقامة الحكم الذاتي الكامل للجزائر، والاعتراف بالجمهورية الجزائرية وببرلمانها - مجلس نوابها - الخاص، وحكومتها الخاصة، في علاقة اتحادية بفرنسا. ونصت مواد أخرى على مواطنة مزدوجة للافرنسيين والجزائريين في كل من فرنسا والجزائر، ولغتين رسميتين، وتعليم إلزامي باللغتين الافرنسية والعربية. وإصلاح زراعي. وتستطيع الجمهورية الجزائرية تكوين اتحاد مع دول المغرب العربي - الاسلامي «تونس والمغرب» داخل الاتحاد الافرنسي. ولم تبحث الحكومة الافرنسية اقتراح حزب «الاتحاد الديموقراطي» في المجلس، ولا اقتراح حزب «حركة انتصار الحريات الديموقراطية - حزب فرحات عباس» في الجمعية بحثاً جدياً. ولذلك لم تكن تجربة الحزبين في أول برلمان منتخب أكثر فائدة من تجربة ممثلي الجزائر في الجمعية التأسيسية الأولى والثانية.

قبلت لجنة الجمعية الوطنية الافرنسية التي تبحث القانون الأساسي للجزائر، الحل الوسط الذي عرضته الحكومة وذلك يوم ٢١ - آب - أغسطس - ١٩٤٧. وغادر أعضاء حركة «انتصار الحريات الديموقراطية» القاعة، ورفضوا الاشتراك في أية مناقشة بعد ذلك. وفي السابع والعشرين من الشهر ذاته، أقرت

الجمعية القانون بمجموعه. وفي مجلس الجمهورية، ترك مندوبو «الاتحاد الديموقراطي» مقاعدهم بعد أن عبروا عن خيبة أملهم. وأعلن زعيم الاتحاد - مصالي الحاج - أن الحزب لا يستطيع قبول القانون الذي تبنته الجمعية، وذلك لأن هذا القانون كما قال: «ليس قانوناً إدماجياً في حين أنه يسعى لأن يكون كذلك، وهو ليس اتحادياً بالقدر المرغوب. وليس فيه شيء ديموقراطي، برغم أنه ولد في أسى التحرر العظيم وجراحه. وهو ليس تقدمياً حيث أنه يأخذ بيد ما يعطيه بالأخرى. وهو قانون بلا شخصية وبلا أصالة، ميت لا تدب فيه الحياة، وأصالته الوحيدة - إذا كانت له أصالة ـ أنه استبقى - تحت شكل جديد - الامتيازات القديمة لكبار ملاك الأرض. إنه فقط استبدل سلسلة ذهبية بالسلسلة الحديدية التي تقيدنا فعلاً».

* * *

تضمن دستور ١٩٤٧، سابق الذكر، بعض الفقرات أو المواد التي تصلح لتكون أرضية مناسبة لتطورات لاحقة تسير بالجزائر نحو الاصلاح السلمي، ومنها على سبيل المثال:

مادة ١٠٧ : تؤلف الجمهورية الافرنسية مع شعوب ما وراء البحار اتحاداً يسمى الاتحاد الفرنسي، يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات دون تمييز جنس أو دين.

مادة ١٠٨ : الاتحاد الافرنسي هو اتحاد أمم وشعوب، تقبل عن رضى بأن تنسق، أو أن تضع في نطاق

مشترك مواردها وجهودها لتنمية حضارتها ورفاهيتها وتحسين نظمها الديمقراطية وضمان أمنها وسلامها. ويضم الاتحاد عند تشكله، الجمهورية الافرنسية واحدة لا تتجزأ والدول المتحدة وبلدان ما وراء البحار، ومنها الجزائر كدولة اتحادية.

مادة ١٠٩ : يجب أن يؤدي التقدم الذي تحققه شعوب الاتحاد إلى أن تقرر مصيرها بحرية ويمكن بالتالي لكل شعب أن ينسحب من الاتحاد في نهاية مهلة لا تتجاوز العشرين عاماً، فإما أن يصبح مجرد دولة اتحادية، أو جزءاً من الأمة الافرنسية.

مادة ١١٠ : يؤدي تشكل الاتحاد الافرنسي إلى إقامة دستور في كل بلد تضعه جمعية محلية تنتخب بالاقتراع العام.

وكان باستطاعة فرنسا الإفادة من هذا القانون - الدستور - لتجاوز أحداث سنة ١٩٤٥ المخيفة، وما تركته من جراحات عميقة في النفوس (مذابح سطيف وقالمة في ٨ أيار - مايو - ١٩٤٥) وكذلك إصلاح ما أفسدته التصرفات الهوجاء في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧، عن طريق إعداد شكل مرن للتطور السياسي في الجزائر، لو لم تتسم الأعوام التي انقضت بين سنة ١٩٤٧ و١٩٥٤ بسمة الازدياد في قوة المستوطنين، وهجمتهم المسعورة ضد مسلمي الجزائر. وكانت فرنسا مشغولة - أو متشاغلة -

عن المغرب العربي-الإسلامي، بحربها الطويلة والفاشلة في الهند الصينية، وصراعاتها السياسية الداخلية، ومتاعبها الاقتصادية، وبأحداث الحرب الباردة على المسرح العالمي، ثم جاءت أحداث تونس والمغرب (مراكش) لتصرف أنظارها عما كانت تتمخض عنه الجزائر، وذلك بدلاً من أن تفتح هذه الأحداث أبصارها على ما يمكن أن يحدث في الجزائر. وهكذا كانت فرنسا تسير مغمضة العينين إلى حيث يقودها المستوطنون في الجزائر ذاتها - وهم رمز غلاة الاستعماريين الذين تحجرت عقولهم وجمدت عند إحداث الفتح أو الغزو القديم للجزائر -. وانصرف هؤلاء المستوطنون إلى وضع الألغام تحت عجلات الدستور الجديد وقد عزوا الانتصار الكامل الذي حققته «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» في الانتخابات البلدية التي جرت في تشرين الأول - أكتوبر - ١٩٤٧ إلى شعار الحركة «الحقيبة أو الكفن» - وهو المصير الذي كان يلوح به المتطرفون - بحسب وصف المستوطنين لهم - وذلك في صراع هؤلاء المتطرفين الجزائريين في صراعهم ضد المستوطنين. وأرغم المستوطنون الحاكم العام المتحرر الفكر (الليبرالي) شاتينيو على الاستقالة، ليحل محله الحاكم العام الاشتراكي الجديد «مارسيل ادمون نيغلين» الذي برهن كأحد خلفائه «روبير لاكوست» بأنه يساري في فرنسا، ويميني استعماري متطرف في الجزائر.

وقد قام «نيغلين» على الفور بإجراءات صارمة لتحديد نشاط الوطنيين الجزائريين، ومنعهم من التعبير عنه في الجمعيات المنتخبة. وأقدم على إجراء عمليات تزوير واسعة لتزييف

الانتخابات في أول جمعية وطنية جزائرية «برلمان» في العام ١٩٤٨، وذلك بهدف التأكيد على وجود «التفوق الافرنسي في الجزائر». وفعل مثل ذلك في انتخابات الجمعية الثانية سنة ١٩٥١، علاوة على تزييف الانتخابات الثانوية المحلية. ففي انتخابات نيسان - ابريل - سنة ١٩٤٨، فاز مرشحو «حركة انتصار الحريات الديموقراطية - جماعة مصالي الحاج» بتسعة مقاعد فقط من مجموع ستين مقعداً في دوائر «انتخاب الدرجتين» كما فاز مرشحو «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري - جماعة فرحات عباس» بثمانية مقاعد. أما المقاعد الثلاثة والأربعون الباقية فقد أعطيت للمرشحين من أنصار «التعاون الافرنسي - الجزائري». وفي الانتخابات الفرعية التي جرت في العام ١٩٥١، لتجديد بعض المقاعد، خسرت حركة انتصار الحريات الديموقراطية أربعة مقاعد من مقاعدها التسعة، كما خسر الاتحاد الديموقراطي مقعداً واحداً من مقاعده الثمانية.

أدى الخلاف الذي نشب بين الحكومة الافرنسية من جهة، وبين الحاكم العام «نيغلين» من جهة ثانية، في موضوع سوء تصرف هذا الأخير في الانتخابات، إلى استقالته في العام ١٩٥١. وقد خلفه «المسيو ليونارد» وهو مدير عام سابق للشرطة. فحافظ هذا على سياسة «تكييف الانتخابات» - وهي لفظة متطورة للتزييف والتزوير - وأثمرت جهوده بتحقيق أكثر مما كان متوقعاً في نتائج الانتخابات التي أجراها في حزيران - يونيو - ١٩٥١ «للجمعية الوطنية الافرنسية». فقد خسرت حركة انتصار الحريات الديموقراطية جميع المقاعد الخمسة التي

كانت لها في الجمعية الأُولى. كما خسـر الاتحاد الـديموقـراطي لأنصار البيان الجزائري جميع مقاعده في مجلس الجمهورية. وكاذ بـين الذين أسقطوا في الانتخـابات «فرحات عباس» الذي رشح نفسه في مدينة «سطيف» حيث بق له أن أنشأ جماعة أصدقاء البيان والحرية، والاتحاد الديموقـراطي لأنصار البيـان الجزائري. ولم تؤد هذه الانتصارات التي حققها المستوطنون في تخريب مفعول القانون الأساسي لعام ١٩٤٧، إلى زيادة التفاهم بين المستوطنين والجزائريين. ولكن المخاوف التي كانت موجودة عـنـدهـم في الـعـام ١٩٤٧ (مـن مـوجـة الـتـطـرف الجـزائري-الإسـلامي) قد زالت الآن، وزال معهـا ما كـانوا يشعرون به من الحاجة للتفاهم مع الوطنيين الجزائريين. وقد كتب مؤرخ فـرنسي بارز عن النتائج البعيدة المدى لهذه الفترة فقال:

«... وهكذا انهار شيئاً فشيئاً العمل التحرري الذي قام به الحاكم العام - الليبرالي **شاتينيو** -: فقـد جمدت **المراكز البلدية**، وغيـرت قطاعـات الاصلاح الـريفي... وهجـرت الاقتراحات لإقامة مجمعات ريفية -كومونـات-. واعتبر أن إعادة إسكان الفلاحين قد تحققت، وأفاد من مشاريع الإسكان أولئك الذين يملكون رأسمال معين وواردات كافية، ولم تنتفع منه جماهير الشعب التي لا مأوى لها. وظلت المحاكم المختلطة قائمة، ولم يتحقق الفصل بين العقيدة الإسلامية والدولة، وأعيد تنظيم المقاطعات الجنوبية ضمن مخطط جبان، وأخذت مشاريع التصنيع التي بدأت بداية طيبة في العام ١٩٤٧-١٩٤٨ تواجه

الآن المتاعب. وحتى مشاريع فتح المدارس التي بدأ تنفيذها بنجاح، أخذت تعاني من ضآلة الأموال المتوافرة لها، والتي كانت قد خصصت لها، وأصبح عدد الطلاب في سن الدراسة أكبر بكثير مما يمكن للمدارس الموجودة أن تستوعبه».

كان بين التأثيرات التعيسة على عقلية المستوطنين، ما كانت تلقاه حزازاتهم ضد الجزائريين من تعزيز عام مستمر. وأدى تزييف الانتخابات إلى المجيء إلى الجمعية الوطنية الجزائرية «بأُمَّعَات» لا يخرجون على إرادة الادارة الافرنسية، وهم من الأفراد «معدومي القيمة» وأكثرهم من الأميين الذين أسهمت استكانتهم وخضوعهم الذليل في حجب الرغبات المتعاظمة التي كانت تجيش بها صدور المسلمين والقوميين من أبناء الطبقة المتوسطة. وأمام هذا الموقف، أخذ بعض متحرري الفكر من المجموعة الاوروبية في إظهار قلقهم المتزايد من اتساع الفجوة، وعمق الهوة، التي باتت تفصل بين المستوطنين والجزائريين، وقد مثل «جاك شوفالييه» رئيس بلدية الجزائر تلك المجموعة القليلة في العدد، والكثيرة في كفايتها وإدراكها، والقوية في التعبير عن نفسها، حيث قال: «علينا أن نفكر اليوم، بأنه من الأفضل للإنسان أن يجد حوله أنصاف ثائرين لا أتباعاً وخدماً» وقد ألف شيفالييه وعدد من أعضاء الجمعية الجزائرية الذين يشاطرونه الرأي كتلة داخلية من الليبيراليين «لتوثيق أواصر التعاون الافرنسي الجزائري، ولحماية حريات معينة». ولكن نشاط هذه الكتلة لم يترك أي أثر على الصفحة السياسية للجزائر. كما لم تنجح المحاولات التي قامت بها لردم الهوة بين

الفريقين. ولم تؤد التحقيقات التي قام بها عدد من النواب في فرنسا ذاتها إلى تبديل الاجراءات التي تقوم بها السلطات في الحملات الانتخابية.

* * *

كان رد الفعل على إحباط قانون ١٩٤٧، وعلى تزوير الانتخابات، قوياً وعنيفاً في وسط كل الأحزاب السياسة الجزائرية، وبصورة خاصة في وسط «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» حيث توافرت لهذه الحركة مجموعة من الشباب المتقد حماسة للعمل السري. وظهر بوضوح أن هذه الحركة باتت خاضعة لسيطرة عدد من مراكز القوى، التي ساعد على تشكيلها غياب القيادة الأساسية (قيادة مصالي الحاج) التي كانت ضحية للاضطهاد المستمر والملاحقة العنيفة، والاغتيالات المتتالية لكبار العاملين فيها. ويضاف إلى ذلك، الوضع الخاص، للزعيم مصالي الحاج الذي بات شيخاً منهكاً، استنزف النضال قدرته، واستهلكت السجون حيوية شبابه، فأفقدته المرونة المطلوبة للقيادة. وزاد الأمر سوءاً شعوره الخاص «بأن له الحق في اتخاذ القرار الأول والأخير» في كل ما يتعلق بالأمور العامة للجزائر، وهو أمر بات يتناقض جذرياً مع تطلعات القيادات التبادلية التي باتت تمارس دورها بفاعلية في وسط الحزب، وعلى مستوى السياسة العامة للبلاد. وهو الموقف الذي وصفه الزعيم «فرحات عباس» بقوله:

«... من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٥٤ - منذ «نجم شمال افريقيا حتى - اللجنة الثورية من أجل الوحدة والعمل»

تتابع رجال كثر ينتمون إلى الاتجاه القومي. فليس من الضروري أن يكون المرء مفسراً ملهمًا حتى يدرك أن المشكلات لم تعد مطروحة عام ١٩٥٣ على النحو الذي كانت مطروحة فيه بعد الحرب العالمية الأُولى، كما لم تعد هي نفسها طرق تفسيرها وحلها. وكان النزاع الذي أدى إلى نشوء «اللجنة الثورية من أجل الوحدة والعمل» بشكل خاص، هو تعبير عن الافتراق بين الروتين والتجديد، بين قومية كلامية كانت تحاول أن تبقى في مرحلة البيانات وبين قومية نشيطة تتلظى للعمل. ويجب أن نضيف إلى هذا الازدواج مساوىء - عبادة الفرد - فقد شرب «حزب الشعب الجزائري» وبعده «الحركة من أجل انتصار الحرية والديموقراطية» الشبان العاملين عبادة «مصالي الحاج» خلال عشرات السنين، وذلك من أجل إيجاد رمز للحركة، فكان يسمى «أبا الشعب» ولم يكن هناك أحد في الحزب يجرؤ على مخالفة «المعلم». ولم يعرف «مصالي الحاج» وهو من أصل متواضع مثلنا جميعاً أن يوقف هذا «التأليه» فأخذ من مكمنه، وأخذ يعتقد بمعصوميته. ولما تجاوزته الأحداث والمشكلات، حاول أن يداوي عدم كفاءته الثورية بطلاء خارجي يعود إلى التهريج أكثر مما يعود إلى النضال الفعلي الصحيح. وعندما حاول أعوان غير مأخوذين بالسحر الظاهري أن يقوموا بردود فعل مناسبة وصحيحة كان الأوان قد فات، فاصطدموا بحاجز صلب. وكان المرض عميقاً لدرجة أصبح من الضرورة معها انتظار انفجار الحزب حتى يصبح بالإمكان القيام بعمل ثوري حقيقي. ومهما يكن من أمر، فقد كانت فرنسا الاستعمارية،

وجزائر المستوطنين الغلاة، تصفقان لهذا النزاع بين الأشقاء. ولم يكن يخطر في بالهما أن الأزمة ستعجل سير التاريخ، وذلك أن هذا النزاع هو الذي أدى إلى قيام «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» فقد جلب معه دواءه الذي ظهر في زمن وجيز أنه قوي بقدر ما هو منقذ»(*).

وعلى كل حال، قررت الحكومة الافرنسية في سنة ١٩٥٢ نقل «مصالي الحاج» نهائياً من الجزائر ووضعه تحت الاقامة الاجبارية في «نيورت» بفرنسا، غير أن هذا الإجراء لم يؤثر على نشاط الحركة التي تمكنت من عقد مؤتمرها الثاني - المؤتمر العام - في نيسان (ابريل) ١٩٥٣. وكان هذا المؤتمر هو الأول بعد المؤتمر التأسيسي الذي عقد في العام ١٩٤٧. وأظهرت المناقشات التي جرت في المؤتمر وجود خلافات عميقة في صفوف الحزب، حول الشؤون المتعلقة بتنظيم الحركة وعقيدتها، بالإضافة إلى بروز الصراع الشخصي. وقد أعلن «أحمد مزغنة» في خطاب الافتتاح، الذي رحب فيه بالأعضاء، أن الحركة تنتقل الآن من مرحلة الإثارة إلى مرحلة التنظيم والتعليم الحزبي، ثم دعا الحزب إلى حشد «قوى جديدة» في الداخل، وإلى مضاعفة جهوده في الخارج. وأكد «مصالي الحاج» في الرسالة التي بعث بها إلى المؤتمر، بصورة خاصة، على الوضع الدولي، فكتب يقول: «أن الاستعمار الافرنسي وهو يحتضر الآن على فراش الموت، لقد تلقى دعماً جديداً من الولايات

(*) ليل الاستعمار (فرحات عباس) ص ٢٨٧ ٢٨٨.

المتحدة. وأن بوسع الاتحاد السوفييتي أن يعقد الآن، كما عقد في الماضي، صفقات مضرة بالشعوب المستعمرة، ولذا فإن من واجب حركة انتصار الحريات الديموقراطية أن تعتمد على نفسها، ثم مضى إلى القول: إن أمامنا مهام كثيرة لا مناص منها للمضي في نضالنا، ومن هذه المهام أن نكون حزباً قوياً يسوده النظام. وأن نثقف الشعب الجزائري حتى يتمكن من ممارسة دوره في مختلف الظروف، وأن نبرهن على حقيقة وجود حزبنا في الداخل وفي الخارج. وأن نستلفت اهتمام الرأي العام العالمي بروحنا النضالية التي تبدو كل يوم وأن نخطط سياسة خارجية مقررة وثابتة. وأن نعرف كيف نحسن استغلال جميع الأوراق الرابحة في أيدينا في الداخل والخارج. وأن نملك منظمة طيبة وصحافة صالحة وممثلين أكفاء في البلاد الأجنبية. وأن نخلق انسجاماً بين هذه المظاهر المختلفة من نشاطنا. وتوجيه هذا النشاط يتطلب سعة في الأفق، وحسناً في الاختيار والتوجيه، وسعة في الأفق والخيال، وروح الابتكار والحافز التي هي من الصفات التي لا غنى عنها لزعمائنا»(*).

قدمت اللجنة المركزية تقريرها العام إلى المؤتمر، محللة فيه عيوب الحزب وآماله. وكان المؤتمر السابق قد توصل إلى ثلاثة قرارات مهمة، وهي: ١ - اشتراك حركة انتصار الحريات الديموقراطية في الانتخابات. ٢ - النضال ضد الاستعمار بكل الصور والأشكال. ٣ - السعي لتحقيق وحدة الشعب

(*) الجزائر الثائرة (جوان غيلسبي) ترجمة خيري حماد ص ١٠٠-١١١.

الجزائري. وأجبر مرشحو الحركة، الإدارة الافرنسية، من الناحية الايجابية، على استخدام القوة لإسقاطهم في الانتخابات، واتسعت عضوية الحزب في الجزائر. وخلقت الظروف المناسبة لتحقيق وحدة جميع الوطنيين في البلاد. أما من الناحية السلبية، فقد كلفت الحملات الانتخابية الحزب ثمناً باهظاً في الغرامات والاعتقالات، وكانت هناك حالات من الافتقار للانضباط الحزبي بين بعض الممثلين. وقد أسهمت جهود القمع الاستعمارية على اتساع الحزب وزيادة نشاطه وتثقيف مناضليه، وتكوين تنظيم الملاك الحزبي-السري -.

قسمت اللجنة المركزية نشاطها في ست سنوات إلى ثلاث فترات، فترة الهجوم التي تشمل عامي (١٩٤٧ و١٩٤٨) وهي الفترة التي قدم فيها الحزب برنامجه لإنشاء جمعية تأسيسية ذات سيادة. وفترة الدفاع من آذار (مارس) ١٩٤٨ إلى كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٠ وفترة النقاهة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٣. وقد مر الحزب في الفترة الدفاعية بأزمتين عنيفتين استطاع اجتيازهما بنجاح وهما: ١ - أزمة البربر. ٢ - قضية الأمين دباغين. وقد أطلقت اللجنة المركزية على حركة البربر، اسم: «الانحراف الطائفي ذي الطبيعة العنصرية والشيوعية» وحذرت من أن تظل هذه المشكلة «ورقة رابحة في يد الاستعمار طالما أنها قائمة وموجودة» وتختفي وراء هذا التعبير الماركسي مشكلة أكثر عمقاً وأهمية، وهي مشكلة التباين العرقي بين العرب والبربر في الجزائر والتي خلقها الاستعمار الافرنسي

وحاول استثمارها إلى أبعد الحدود وبأقذر الوسائل (وتقدر نسبة البربر في تونس بالنسبة للعرب واحد بالمائة، وترتفع هذه النسبة في الجزائر إلى تسعة وعشرين بالمائة لتبلغ في المغرب خمسة وأربعين في المائة). وكانت التفرقة بين العرب والبربر الذين وحدهم الإسلام هي إحدى سياسات الاستعمار الافرنسي الأساسيه (فرق تسد). ويحتشد معظم البربر في الجزائر في منطقة القبائل، وهي من أكثر مناطق البلاد اكتظاظاً بالسكان، ومن أرفعها في المستوى الثقافي، بسبب انتشار التعليم الاسلامي في الجوامع، ومن أوسعها في هجرة أبنائها إلى الأجزاء الأخرى من الجزائر، وإلى اوروبا. ولم يكن من الغريب تبعاً لذلك، أن يمارس الشبان القبليون البارزون، دوراً كبيراً في النشاط الديني والقومي في الجزائر دون أن يستبعدوا عن هذا النشاط زعماء المناطق الأخرى. ولهذا فإن ما يسمى «بأزمة البربر» لم تكن في الحقيقة إلا مغالطة في الوصف والتسمية، إذ أنه كان في جوهره صراعاً في الآراء بين المثقفين الشبان الممتلئين حماسة وحيوية، والذين كان بعضهم بمحض الصدفة من القبليين، وبين الزعماء الكبار - التقليديين - في الحزب، والذين كان بعضهم بمحض الصدفة أيضاً من العرب. وتتعرض جميع الأحزاب لمثل هذه «الصراعات بين الأجيال». ولم تكن حركة انتصار الحريات الديموقراطية لتشذ عن هذه القاعدة الخالدة. أما قضية «الأمين دباغين» فقد كانت إشارة مبكرة لصعوبة قدر لها أن تربك أوضاع الحزب بصورة حادة في السنوات التالية. فقد وقع خلاف شخصي بين «مصالي الحاج» وبين «الدكتور الأمين

دباغين» الشاب اللامع الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية في حكومة الثورة، وأدى هذا الخلاف إلى فصل الدكتور الأمين من الحزب وإلى انسحابه من الحياة السياسية. فقد كان الحزب على صعيد السياسة الخارجية، يقف في هذه الفترة، بصورة رسمية موقف المناوأة لحلف الأطلسي. وكانت الحكومة الافرنسية قد أدخلت الجزائر في هذا الحلف في العام ١٩٤٩.

نظم الحزب صفوفه في فترة النقاهة تنظيماً أفضل، ووسع آفاق عمله ونشاطه، على الرغم من إبعاد زعيمه «مصالي الحاج». وعندما تحدثت اللجنة المركزية للحزب عن الوحدة بين الجزائريين الوطنيين، قالت في عبارة حسنة السبك والصياغة: «أنها اتخذت شكلاً لا يستجيب مع المطامح الشعبية». وبالاختصار، فإن الشيوعيين من الاوروبيين، أو أنصاف الاوروبيين، والمعتدلين من «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري» و«جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» كانوا أصعب مراساً من أن تستطيع «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» التأثير عليهم للدخول في ائتلاف واحد.

مضت اللجنة المركزية بعد ذلك في عملية «النقد الذاتي» فتساءلت وهي تبحث عن محتوى أكثر دقة لأهدافها في الاستقلال، فقالت في تقريرها: «هل نعتزم حقاً خلق جزائر حرة بالنسبة إلى شخص واحد بصورة خاصة، أو إلى أقلية حاكمة؟ جزائر تتحرر اسمياً وتكون في الحقيقة وسيلة يعزى إليها الفضل في رفع شخص أو أقلية من الناس إلى منصة

الحكم... هذا هو هدفنا. أننا نريد أن نخلق دولة للشعب وعن طريق الشعب، يكون فيها الجزائريون دون تميز من ناحية العنصر أو الدين أحراراً متساوين. إننا نعني قيام دولة ديموقراطية... ولذا فإن مبدأنا الأول هو الديموقراطية».

هذا نوع من الاعتراضات التي قدمتها اللجنة المركزية على الاتجاه إلى زيارة سلطة «مصالي الحاج» وميله إلى أخذ زمام السلطة الشخصية بيديه. وقد رفضت اللجنة المركزية نظام الملكية، على أنه نظام عتيق بال، واختارت الجمهورية كمبدأ ثانٍ لها. أما بالنسبة إلى المبدأ الثالث، فقد اقترحت الرفاه الاقتصادي والعدالة الاجتماعية(*). واختارت اللجنة أخيراً الحرية الدينية مبدأ لها انسجاماً مع التقاليد الاسلامية. وتحدثت اللجنة المركزية بعد ذلك عن قضية القصور العقائدي فأعادت دراسة مفهومها عن الوطنية. وأكدت وجوب ابتعادها عن الغلو والتعصب «الشوفينية». وأن تكون دفاعية، ومتحررة، وديموقراطية، وغير

(*) حددت اللجنة المركزية في المجال الاقتصادي الأهداف التالية: تكوين اقتصاد وطني سليم يستعاض به عن الاقتصاد الاستعماري القائم، وتحقيق الاصلاح الزراعي. والسير على طريق التصنيع. وتأميم مصادر الانتاج الأساسية. وتنسيق الاقتصاد مع المغرب وتونس لإقامة سوق مشتركة للإنتاج والاستهلاك. أما في الميدان الاجتماعي، فقد اقترحت اللجنة المركزية، رفع مستوى المعيشة - الحياة - والتوزيع العادل للدخل القومي. وضمان الحرية النقابية. واقترحت اللجنة من الناحية الثقافية: نشر الثقافة القومية والتعليم التقني، وشن حملة على الأمية لمكافحتها.

شيوعية، وغير مادية. وحددت اللجنة مركز «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» الثوري، على الصعيد السياسي، بين الشيوعيين الثوريين نظرياً بالنسبة للأهداف والوسائل، والمختلفين عن الحركة عقائدياً، وبين الاصلاحيين من أتباع «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان» و«جماعة العلماء». وأكدت اللجنة أن الثوري الحقيقي لا يمكن أن يوجد دون اتصال ثابت بالواقعية، وقالت:

«... وعلى الثوري والحالة هذه، أن يهبط من برج نظرياته العاجي إلى جذور الحياة الواقعية، ليستخلص منها نتائجه، وليتحقق عن طريقها من مبادئه في العمل». وعلى الحركة، رغبة منها في التطور الكامل أن: «تحسن التفكير على صعيد قومي». بينما كانت في مرحلتها الدعائية تقصر تفكيرها على الصعيد الحزبي.

وتحدثت اللجنة المركزية عن عيوب خططها الاستراتيجية، فأشارت إلى وجوب تقسيم النضال إلى عدد من المراحل، مع إيجاد عدد من الأهداف المرحلية التي يجب الوصول إليها على التوالي. ولاحظت اللجنة المركزية في ميدان واحد أن الحزب لم يوجه رسائل إلى الأقلية الاوروبية، وأنه عندما كان يوجه هذه الرسائل، فإنه كان يكتفي فيها ببعث الطمأنينة في نفوس الاوروبيين من أن الحركة لا تريد أن تقطع رؤوس الافرنسيين، أو تقذف بهم إلى البحر «الكفن أو الحقيبة» واقترحت اللجنة أن تقوم الحركة ببذل جهد أكبر لإيضاح وجهة نظرها في أن

من حق الافرنسيين أن يعيشوا في الجزائر، وأنهم سيعتبرون من الجـزائريـين، يتمتعون بنفس الحقـوق، وتفـرض عليهم نفس الواجبات. وأكدت وجوب قيـام الحزب بـاطلاع الأقليـة على ما يعانيه الشعب الجزائري من اضطهاد وظلم.

وتحدثت اللجنة المركزيه أخيراً عن العيوب الاسلوبيـة (التكتيكية) فذكرت أن الحزب، كان في بعض الأحيان شديد التصلب في موضوع التحالف مع الجماعات الأخرى، وكان في أحيان أخرى شديد المرونة. وأيـدت اللجنة وجـوب استمرار التحالف مع جميع الأحزاب الراغبة في مقاومة الاستعمار، سواء أكانت هذه الأحزاب تشترك مع الحركة، أو لا تشترك معها في آرائها وأساليبها. وأكدت اللجنة وجوب وضع سياسة انتخابية للحزب، تقوم على العناية بانتقاء المرشحين، وإعداد البرامج السيـاسية المفصلة، والـدعايـة التي تتفق مع تـطلعات جميـع الطبقات الاجتماعية. وقـد امتلأ هـذا الجزء من التقـرير بصورة خاصة بالاشارات إلى معارضة اللجنة المركزية لسياسة «مصالي الحاج». ولا ريب في أن الاشـارة إلى حاجـة الثائـر للهبوط من برجه العاجي، إنما هي موجهة إلى رئيس الحزب «المبجـل العظيم». كـما أن التلميحـات بـأن بعض النـواحي العقائدية والدعائية كانت تفتقر إلى الدهاء. وقد تكون موجهة أيضاً إلى الزعيم الأقل ثقافة من أعوانه. وقد عزا إليه أعوانه الشبان والمتحمسون والمنسقو التفكير، أنه كان دائم التفكير على الصعيد الحزبي، وأنه أفنى حياته في تعبئة الجماهير واستثارتها، وأغرق في تركيز جهوده، على المعارك السياسية الكلامية.

وحللت اللجنة المركزية في فصل ثالث، آمال الجزائر في المساعدة الدولية، فرأت للشمال الافريقي دوراً استراتيجيا بارزاً بين الكتلتين العالميتين المتصارعتين، وفي الصراع بين الدول الاستعمارية، وبين القارتين الآسيوية والافريقية المناهضتين للاستعمار. وأضافت اللجنة أن فرنسا - المتصلبة - في موقفها تجاه مطامع مستعمراتها، ستجد نفسها في صراع متزايد مع الولايات المتحدة التي تجد نفسها «مقيدة بالحركة الوطنية في شمال أفريقيا، وفي دول الكتلة الأسيوية - العربية، فتعمل في اتجاه يتفق مع أهداف المغرب» ويجب أن تظل سياسة الحركة قائمة على أساس «الحياد اليقظ» سارية المفعول بالنسبة إلى المستقبل أيضاً. وتحدثت اللجنة عن الارتباط بين العوامل الداخلية والخارجية. فأشارت إلى التأييد المهم الذي لقيته القضيتان التونسية والمغربية - المراكشية - من الدول العربية - الآسيوية في نقلها إلى الميدان الدولي، وأكدت الضرورة الحيوية للعمل الداخلي والمساعدة الخارجية بالنسبة لجهاد الجزائر. وبدت الحركات الوطنية الثلاث في الشمال الافريقي، في نضالها المنفرد والمستقل. غير منسقة أو منسجمة، ولكن اللجنة لا ترى من «الحكمة» أن يأمل الانسان في وحدة الشمال الافريقي في المستقبل القريب. وبدا موقف اللجنة من بحث السياسة الخارجية منسجماً بصورة عامة مع حيادية «مصالي الحاج» وذريعة - إلى حد ما - لتغطية تقصير الحركة عن تأييد التونسيين والمغاربة - المراكشيين - بصورة أكثر فاعلية وحيوية. ويمكن القول بصورة عامة أن اللجنة المركزية، وضعت الجزائر ضمن محتوى عالمي،

وأظهرت اهتماماً أكبر بالشؤون الخارجية من الاهتمام الذي أظهره زعماء «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان». وقد يكون من المناسب هنا التوقف قليلاً عند وجهات نظر اللجنة المركزية، تجاه كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بالنظر إلى أهميتها المقبلة في سياسة «جبهة التحرير الوطني الجزائرية» نتيجة انضمام عدد كبير من أعضاء «اللجنة المركزية» إليها. فقد ذكرت اللجنة عن السياسة السوفياتية ما يلي:

«... من المهم أن نلاحظ أن التأثير الشيوعي، على الرغم من تبنيه للقضايا الوطنية في آسيا، وانتقاله منها إلى مرحلة الصراع الطبقي، يتوقف جملة في آسيا على حدود الدول الاسلامية. وتتخذ السياسة السوفياتية موقف المؤيد بصورة عامة لجميع حركات التحرر في البلاد الخاضعة للاستعمار، ومثل هذا الموقف الذي لا يتطلب أي مجهود خاص، هو موقف أسلوبي - تكتيكي - مجرد، يتخذ بهدف إضعاف الدول الغربية. وتستهدف هذه السياسة حقيقة إقامة الفرصة لتقوية الأحزاب الشيوعية المحلية. وهذا الاسلوب (التكتيك) الذي نجح في الهند الصينية والملايو وربما الهند، لم ينجح في البلاد الاسلامية المماثلة، ولا سيما في أندونيسيا وايران».

ورأت اللجنة أن سياسة الولايات المتحدة تنطوي على نفس التوسعية السياسية والعقائدية الموجودة في السياسة السوفياتية. وكانت وسائل العمل الاولى التي اختارتها الولايات المتحدة، إعادة بناء اوروبا اقتصادياً عن طريق مشروع مارشال، ثم مشروع النقطة الرابعة، وهي وسائل ضعيفة لم تفلح في

مواجهة النفوذ الشيوعي. وعادت امريكا فآثرت الوسائل **العسكرية على الاقتصادية. وهكذا فرضت على حلفائها سياسة إعادة التسلح، وبنت مساعداتها على أساس** فرض سياستها الخاصة على حلفائها. وبالاختصار فإن الكتلة الغربية، تمثل عدداً من التناقضات. وتحدثت اللجنة المركزية عن أساليب الكتلتين فقالت: «تمسك الكتلة السوفياتية في ميدان الحرب الباردة بزمام المبادأة دائماً. وبهذا تمكن الشيوعيون الافادة من نظام حكمهم الفرد - مركزية القيادة - لتنظيم أجهزتهم الدعائية، والاعتماد على القوة الحقيقية، واستثمار ضعف الحكومات الغربية، للتأكيد على تفوقهم في لعبة الحرب الباردة».

وكانت خلاصة تقرير اللجنة المركزية، تعالج قضية الحزب نفسه: فقد كان الحزب حزباً جماهيرياً لا حزباً عقائدياً - فكرياً - (كالاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان) مثلاً. ولقد انتهى التقرير إلى القول: « وبالنسبة إلى حزب جماهيري، فإن الميول الفردية والأعمال التي تخالف الانضباط الحزبي، ووحدة الحزب، لا يمكن التسامح فيها مطلقاً. فالنضالية متوجبة على جميع العناصر التي يتألف منها الحزب الجماهيري. **ويتصور** الحزب الجماهيري مختلف وسائل العمل، وهو يضفي **أهمية** رئيسية على قاعدة نشاطه، وهي التنظيم **الحزبي»**.

وأقرّ المؤتمر العام «لحركة انتصار الحريات الديموقراطية» **قراراً** ينطوي على الاستجابة التفصيلية للتقرير العام الذي قدمته **اللجنة** المركزية. كما وجه رسائل، أولاها إلى الشعب الجزائري **عن الوحدة؛** وثانيتها إلى المعتقلين السياسيين؛ **وثالثتها** إلى

«مصالي الحاج» عن تعلق الحزب المطلق بالمثل التي يمثلها؛ ورابعتها إلى الشعب في القطرين: التونسي والمغربي - المراكشي - داعياً فيها إلى دعم أواصر وحدة المغرب؛ وخامستها إلى الجامعة العربية لشكرها على مساعداتها لقضية الشمال الافريقي؛ وسادستها إلى مجموعة الدول العربية - الآسيوية داعياً إياها «لممارسة دور قيادي في مستقبل العالم».

نشرت صحيفة «الجزائر الحرة» في كانون الأول - ديسمبر - ١٩٥٣ - وهي الناطقة باسم الحركة، نداء دعت فيه إلى عقد مؤتمر وطني جزائري. وقد وقع النداء كل من حسين الأحول، وابن يوسف بن خدة، وعبدالرحمن كيوان بالنيابة عن اللجنة المركزية. وطلب النداء من الفلاحين الجزائريين والعمال والتجار والنساء والشبان والطلاب والمثقفين أن يتحدوا وأن يشتركوا في مؤتمر يمثل جميع الأحزاب السياسية والمنظمات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، والأفراد المستقلين من الديموقراطيين وغيرهم. وذكر النداء: أن المثل الأعلى القومي، سيكون شرعة المؤتمر ودستوره وكتب «عبدالرحمن كيوان» في شهر شباط - فبراير - ١٩٥٤ - مقالاً افتتاحياً قال فيه:

«إن الشعب الجزائري قد أعلن تأييده لفكرة المؤتمر» وأوضح أن الحركة تدعو إلى مقاطعة انتخابات الجمعية الجزائرية، لأن الأوضاع السياسية لم تكن مشجعة لعقد المؤتمر في ذلك التاريخ. وأبلغ «حسين الأحول» الشيوعيين في وقت متأخر من

ذلك الشهر، أن الحركة ترحب برغبتهم في الاشتراك بالمؤتمر. ولكنها تعتقد أن من الواجب إيضاح الفكرة بصورة أكثر جلاءً للجماهير قبل أن يعقد المؤتمر. وأشار إلى أن الجبهة الفاشلة التي تم تأليفها في العام ١٩٥١، كانت اتفاقاً بين الأحزاب أكثر منها اتفاقاً بين الجماهير. وقد اشترك «الشيخ الابراهيمي» في النداء الذي وجه داعياً إلى الاتحاد.

وكتب «حسين الأحول» في شهر آذار - مارس - ١٩٥٤، مقالاً افتتاحياً في «الجزائر الحرة» استعرض فيها دروس السنوات السبع عشرة الماضية من النضال. وأكد أن المؤتمر الثاني للحركة في العام ١٩٥٣ قد أقر مبدأ «القيادة الجماعية». و«إذعان الأقلية لقرارات الأغلبية». وأضاف: إن القيادة الجماعية تقلل من إمكان وقوع الأخطاء، لأنها «تعبر عن الروح الأساسية لحزبنا وهي في الوقت نفسه الروح الديموقراطية والثورية الصحيحة». أما إذعان الأقلية لقرارات الأكثرية: «فتعبير عن القانون الأعظم للتنظيم العقائدي والواقعي، وهو تنظيم يخلق العروة الوثقى والقوة، ويتيح للعمل المنظم المجال الكافي زماناً ومكاناً». لكن أية دراسة دقيقة لقرار العام ١٩٥٣ لا تكشف حقاً عن أية إشارة واضحة ومحددة لمبدأ «القيادة الجماعية». ولكن «الأحول» الذي قدر له أن يضع اسمه بعد فترة قصيرة على رأس جماعة من الحزب، كان يشير هنا إلى النقطة الرئيسية في الخلاف المتزايد بين اللجنة المركزية و«مصالي الحاج». فإذا كان من المحتوم أن ينطبق الانضباط الحزبي على كل إنسان، وإذا كان هذا الانضباط يعني قبول الأقلية لقرارات الأكثرية، فإنه يصبح من المحتوم

على «مصالي الحاج» نفسه أن يوافق على القرارات التي تتخذها اللجنة المركزية، حتى ولو كان هذا يختلف معها بصورة شخصية.

وكتب «عبدالرحمن كيوان» في أواخر شهر آذار - مارس - ١٩٥٤ يقول: «إن المؤتمر المقترح سيحترم استقلال الأحزاب التي ستشترك فيه» وبعد أن افترض أن الاقتراح قد جوبه بعدد من الاعتراضات الحزبية، اعترف بأنه من المحال تأليف حزب واحد في الجزائر، بسبب الوجود الاستعماري من جهة، وبسبب الضغط العقائدي من الناحية الثانية. ولكن المؤتمر الذي يعني «الاتحاد لا الوحدة» يمكن أن يتحقق فوراً. ومن الممكن أن يتطور المؤتمر إلى حزب، على غرار «حزب المؤتمر الهندي». وكتب «بن خده» في وقت لاحق من الشهر ذاته، وفي الصحيفة نفسها يقول: «إن فكرة المؤتمر تزداد شعبية يوماً بعد يوم». ويظهر أن هذا المقال، كان آخر اشارة إلى موضوع المؤتمر. وقد يكون ذلك مؤشراً إلى التاريخ الذي وقع فيه الخلاف الحقيقي بين اللجنة المركزية وزعيم الحزب «مصالي الحاج».

صدرت صحيفة «الجزائر الحرة» يوم ١٦ أيار - مايو -١٩٥٤، وهي تحمل تحيتها في الذكرى السادسة والخمسين لميلاد «مصالي الحاج» وكان في كلمة التحية ما يلي: «إن كفاح مصالي الحاج، وكفاح الحركة الوطنية لتحرير الجزائر، اسمان لمسمى واحد». وبعد أن عرض المقال حياة زعيم الحركة انتهى إلى القول: «وسواء أكان مصالي في «نيورت» في فرنسا أو في الجزائر، فإنه سيظل رمز نضالنا،

والمشعل المضيء لكفاحنا من أجل الحرية» وعقدت في الأسابيع التالية عدة اجتماعات للحركة، كما أُقيمت مظاهرات ضخمة في الجزائر وفرنسا. ولم يبرز في هذه الاجتماعات إلا اثنان من أعضاء اللجنة المركزية وهما «أحمد مزغنة» و«مولاي مرباح».

أعلنت صحيفة الحزب «الجزائر الحرة» في منتصف شهر آب - أغسطس - وتحت عناوين بارزة، أن الحركة قد عقدت مؤتمراً طارئاً في منتصف شهر تموز - يوليو - ١٩٥٤ (من ١٣ - ١٥ تموز) في مدينة «هورنو» في بلجيكا، وذلك لمعالجة ما تعرض له الحزب من أزمة داخلية مخيفة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، أثرت أبلغ الأثر على أعمال الحزب ونشاطه. وأضاف الاعلان أن المؤتمر اتخذ قراراً إجماعياً باستنكار أعمال بعض أعضاء اللجنة المركزية لانحرافهم سياسياً وارتكابهم أخطاء خطيرة. فبالاضافة إلى تذبذب اللجنة المركزية وترددها داخلياً، ارتكبت أخطاء على الصعيدين الافريقي الشمالي والدولي، إذ لم تتمكن من تحقيق التضامن مع تونس والمغرب - مراكش - وظلت قضية الجزائر مهملة على الصعيد الدولي. وقررت الحركة في مؤتمرها هذا تأكيد عزمها على اتباع سياسة «فعالة ومنشطة ومتزنة» تؤدي إلى الرفع من شأن الحزب وتقوية مركزه. وأكد المؤتمر ثقته المطلقة «بمصالي الحاج» وقدرته على تذليل الصعاب أمام الحزب، واختاره بالاجماع رئيساً مدى الحياة. وبعد بضعة أسابيع من المحاولات الفاشلة للتفاهم، كما يبدو، قررت الحركة حل اللجنة المركزية. وأعلن «مصالي الحاج» من «نيورت» فصل «ابن يوسف بن خده» وحسين الأحول وعبدالرحمن كيوان وابن باديس

وفروض ويزيد ولوانشي وبوده: «لانحرافهم وعدم إطاعتهم وسوء استعمالهم لأموال الحزب ورفضهم إعادة ممتلكاته». وبعد أيام، ذكرت صحيفة «الجزائر الحرة» أنه لم يكن هناك تصدع في الحزب، وإنما كانت هناك اتجاهات مؤسفة تم تصحيحها الآن. وعادت الصحيفة إلى توجيه اهتمامها إلى أعمال العنف الافرنسية في الجزائر.

* * *

أمام هذا الموقف عقدت جماعة «اللجنة المركزية» وأنصارها، مؤتمراً استثنائياً في الجزائر (من ١٣ إلى ١٦ آب - أغسطس -١٩٥٤). وتقرر في هذا المؤتمر رفض اتهامات «مصالي الحاج» الموجهة اليهم بالانحراف. وأكد سياسة المؤتمر العام سنة ١٩٥٣، وجرد مصالي الحاج ذاته وأحمد مزغنة ومولاي مرباح من جميع مهامهم الحزبية. وأعلن بطلان المؤتمر الفرعي -الذي سبق عقده في بلجيكا - وشرحت «اللجنةالمركزية» في العدد الأول من الصحيفة التي أصدرتها وهي «الشعب الجزائري» لتكون الناطقة باسمها - (وهو العدد الذي ظهر بين أيلول - سبتمبر - وتشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٤) وجهة نظرها في حقيقة الأزمة التي تعرضت لها الحركة. وأعلنت أن الصراع كان قد بدأ منذ أيلول - سبتمبر - ١٩٥٣، عندما طلب «مصالي الحاج» من اللجنة المركزية الجديدة صلاحيات مطلقة. واعترفت اللجنة المركزية أنها أبعدت «أحمد مزغنة» و«مولاي مرباح» وهما المقربان جداً من مصالي الحاج، عن القيادة، ولم تكن قد شرعت بعد في تنفيذ المهام التي عهد إليها

بها المؤتمر الثاني. وطلبت من مصالي أن يعيد النظر في الموضوع، وبعثت إليه بوفد للتشاور معه في «نيورت» فمنيت مهمة الوفد بالفشل. وعاد «مصالي الحاج» في كانون الثاني - يناير - ١٩٥٤، فكرر طلباته أن السيطرة الشخصية لا تتفق مع مبادىء الحزب الثوري من جهة، كما أن الوضع لا يسمح بإعطاء جميع السلطات إلى رجل واحد، من جهة ثانية.

وعلى هذا تقدمت اللجنة المركزية باقتراح لعقد مؤتمر عام لتقرير هذه القضية. ورفض «مصالي الحاج» الاستماع إلى الوفد الثاني الذي ذهب إلى «نيورت» لبحث هذا الاقتراح. واتهمت «اللجنة المركزية» بعد ذلك «مصالي الحاج» بتهمة التواطؤ مع «مزغنة» للقيام بتحريض عمال الحزب على لجنتهم المركزية عن طريق تأليف ما أسموه «بلجنة السلامة العامة». وبعض الاجراءات الأخرى. واستجابت «اللجنة المركزية» في شهر آذار - مارس - (ولم تكن قد استعدت بعد لمواجهة انشقاق علني مع مصالي) إلى بعض مطالبه، ومنحته بعض السلطات التي طلبها. وهنا شرع مصالي ومزغنة ومولاي مرباح في استئصال المعارضة لهم داخل الحزب عن طريق «اجراءات قهرية». وفي إعداد العدة لمؤتمر يضمن فيه أنصار مصالي لأنفسهم سلفاً السيطرة عليه. ورفضت اللجنة المركزية حضور مؤتمر «هورنو» ببلجيكا. وعقدت بعد ذلك مؤتمرها في الجزائر.

ونظرت «اللجنة المركزية» بصراحة إلى الطبيعة الحقيقية لخلافها مع مصالي، وأكدت أن ما أسماه مصالي «بالاصلاحية» من جانبهم لم يكن في الحقيقة إلا «الواقعية الثورية» التي تمخض

عنها مؤتمر عام ١٩٥٣. ثم مضت «اللجنة المركزية» إلى القول: (لقد أراد مصالي أن يقاوم بالكلام العنيف وحده، وبالاثارة بقصد الاثارة، وبالتعصب والمغامرة، سياسة توطيد دعائم الحزب، وتوسيع قواته العاملة، وبناء القواعد التي لا مناص منها لتحقيق النجاح، ولتوسيع نضالنا **وتضخيمه**، وكذلك أعمالنا التنظيمية، وإعدادنا الجدي. ومحاولاتنا إيجاد وحدة صحيحة لجميع القوى الشعبية العاملة).

وكان الصراع في الحقيقة «**ناجماً** عن عوامل القيادة والأساليب». فمصالي يريد فرض سلطته الشخصية بينما أيدت «اللجنة المركزية» فكرة القيادة الجماعية وديموقراطية الحزب. وكان مصالي يعارض في العمل النظري الذي يستهدف إقامة عقيدة واضحة المعالم، ثابتة على أسس أكثر علمية، وتقبلاً عقلياً «لأنه كان يخشى أن يؤدي هذا التنظيم إلى الحد من صلاحياته». ومضت اللجنة فأعلنت أنها تؤمن «**بأن النضال يجب أن يكون في سبيل مجد البلاد، لا في سبيل مجد رجل فرد**» ولاحظت اللجنة بمرارة، أنه في الوقت الذي **يأوي فيه مصالي** الحاج إلى «برجه العالي» فإن مناضلي الحزب **يضحون بأنفسهم في** سبيل بناء الحزب بتعبهم وجهدهم، ثم قالت:

«ومن الجوهري، **أن يعلم جميع المناضلين والشعب هذه** الحقائق. **وأنه بات لزاماً وضع حد لادعاء مصالي الغريب، بأنه يعتبر نفسه وحده، نداً بل ومتفوقاً على الحزب كله، وعلى الشعب الجزائري كافة. ومن الواجب أن نضع حداً أيضاً لفكرة استحالة الاستغناء عن إنسان فرد. ولم يشترك المناضلون في**

الحزب لأن مصالي رئيسه، بل لأنه، أي الحزب، يمثل الحركة الوطنية الجزائرية الثورية».

كانت هذه الوطنية التي أيدتها «اللجنة المركـزية» الآن، **مفضلة إياها على «مغامرة مصالي» لا تقوم على** أساس عنصري **أو ديني، بل على** أساس: «إرادة الكفاح لتحقيق حرية الشعب **الجزائري** سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافيا» واتجه جناح اللجنة المركزية بعد هـذا الانشقاق من جـديد إلى **زيــادة** الجهد في **موضوع** الوحدة، وعقد المؤتمر الوطني الجزائـري. فقد شعـر أعضاؤه بأن هذه الوحدة ضروريـة لتأمـين نضال فعّـال ضد فرنسا.

* * *

لم يكن الانشقاق الذي وقع بين «اللجنة المركزية» لحركة أنصار الحرية والديموقراطية، وبين زعيمها «مصالي الحاج» ناجماً فقط عن الخـلاف الشخصي واقتراع الأغلبيـة، وبين الحـزب والمؤتمر الوطني الجزائري، وبين السياسات والدعاية من ناحية والعمل في جميع الميادين من الناحية الأخرى. وإنما كان أيضاً «صراعاً بين الأجيال» ونتيجة لـلانفصال الـواقعي بين مصـالي والحركة، وهو انفصال أدى دائماً إلى أن يكون عائقاً في طريق نمو **الحزب** المضطرد واستمراره. فمصالي، زعيم الحزب ومؤسسه، **يسير** الآن في طريق الشيخوخة. وقد شب وشاب في عهد كانت **فيه الخطب** المثيرة والمظاهـرات الجماهيـرية، وتقـديم المطالب **المسرحية، هي** كل ما يمكن عمله وتحقيقـه عن طريق حـركة

وطنية ناشئة، تناهض سياسة استعمارية لدولة قوية كفرنسا. أما العناصر الفتية في «اللجنة المركزية» للحزب، فقد تأثرت بحياة العمل السري، والاختفاء، التي عاشتها، وبهزيمة فرنسا في عام ١٩٤٠. وبالحركات النضالية الناجحة في عدد من البلاد في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، والتي حققت الاستقلال في مواجهة قوات متفوقة. لكن هذا الانشقاق في حركة أنصار الحريات الديموقراطية قد جزأ الحركة الوطنية الجزائرية وأبعد احتمال قيام معارضة موحدة وعملية ضد فرنسا. وعندما اندلع لهيب الثورة في الجزائر، ليلة الواحد والثلاثين من تشرين الأول - اكتوبر - عام ١٩٥٤، لم يكن «مصالي الحاج» - وهو «والد الوطنية الجزائرية» على علم بها. وهكذا تخطته الأحداث لأول مرة في حياته.

* * *

أصبحت المصالية «نسبة إلى مصالي الحاج» رمزاً للانتهازية السياسية، فقد أقام الرجل بعد ذلك في فرنسا، وحاولت فرنسا - لاكوست وديغول من بعده - اللعب بورقته، على أنه نموذج للاعتدال السياسي. وكان وهو في منزله «في نيورت» تحت الحماية الافرنسية، مستعداً لممارسة مثل هذا الدور، غير أن الجزائر الثائرة، وقد أهرقت سيولاً من الدماء، ودفعت من أرواح أبنائها آلاف الشهداء، هذه الجزائر لم تعد مستعدة لقبول «المساومات» أو «أنصاف الحلول» فمضت في طريق الثورة لبناء مجتمع الجزائر الحرة، المالكة لمقدراتها، والسيدة لنفسها وبنفسها. ومضى «مصالي الحاج» إلى زوايا النسيان.

لكن ذلك لا يغير من الحقيقة الساطعة شيئاً: لقد أمضى مصالي الحاج شبابه وشيبه في مقارعة الاستعمار الافرنسي، بين السجون والمعتقلات والتشرد. وقاد الصراع المرير في أقسى الظروف. ورفع صوت الجزائر، يوم لم يكن فيها من يجرأ على رفع هذا الصوت - إلا قلة حفظهم الله للجزائر وحفظ الجزائر بهم من أمثال عبدالحميد بن باديس واخوانه في الجهاد. وليس هناك من ينكر أبداً أن «مصالي الحاج» هو أول من أطلق «الجزائر الحرة» وأول من بشر بالاستقلال والانفصال عن فرنسا - ولو بصورة قانونية دستورية وفي إطار التحالف مع فرنسا -. ويبقى لمصالي الحاج فضل في تنظيمه «لحزب الشعب الجزائري» الذي انبثق عنه تنظيم «حركة انتصار الحرية والديموقراطية» والتي كانت بدورها مهداً لنشوء التنظيم السري. الذي لم يلبث أن تطور إلى «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» لتنتهي بعد ذلك إلى «جبهة التحرير الوطني الجزائري» و«جيش التحرير الوطني الجزائري» وهما التنظيمان السياسي والعسكري اللذان قامت عليهما الثورة، ووقع على عاتقهما بناء الجزائر الحديثة.

٤ ـ عباس فرحات
والاتحاد الديمقراطي لأنصار البيان الجزائري

كانت الحركة الثانية التي تركت بصماتها القوية على الأحداث السياسية للجزائر، خلال فترة ما قبل الثورة (١٩٥٤) هي حركة «الاتحاد الديمقراطيّ لأنصار البيان الجزائري» وهي الحركة التي ترتبط بدورها ارتباطاً وثيقاً باسم «فرحات عباس» الذي ولد في «طاهر» القريبة من قسنطينة - سنة (١٨٩٩م). وهي المدينة التي اشتهرت بجهادها ضد الافرنسيين منذ أيام «الحاج أحمد باي قسنطينة» وقاعدة «عبدالحميد بن باديس» وأخوانه من مجاهدي علماء المسلمين. وإذا كان نصيب «مصالي الحاج» من التعليم ضئيلاً، فقد استطاع «عباس فرحات» نيل نصيبه من التعليم الثانوي والجامعي، وأصبح يحمل «إجازة الصيدلة». وكان خلال دراسته مبرزاً في نشاطاته الاجتماعية، مما جعله «رئيساً لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين» كما كان من أنصار الأمير خالد الهاشمي - حفيد الأمير عبدالقادر - وزعيم حركة «الجزائر الفتاة». وقد أثر تعليمه في المعاهد الافرنسية - بصياغة أفكاره - فكان منساقاً للبحث عن صيغة توفيقية تسمح بالاندماج مع فرنسا مع الاحتفاظ بالهوية الاسلامية وهي المقولات التي وجدت لها سوقاً رائجة في الثلاثينات من هذا القرن على ساحة

الجزائر والتي وجدت لها تعبيراً في مقال كتبه «فرحات عباس» وجاء فيه: «... إنني لست مستعداً للموت في سبيل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن لا وجود له، إنني لم أكتشفه، ولقد سألت عنه التاريخ، سألت عنه الأحياء والأموات. وزرت المقابر من أجل اكتشافه، فلم أجد من كلمني عنه إطلاقاً. إننا لا يجب أن نبني فوق الرمال. وإنني قد أبعدت بصفة باتة ونهائية كل خيال، لكي نربط المصير بصفة مطلقة مع الوجود الافرنسي بهذه البلاد. إلخ...»(*)

وكما تزوج «مصالي الحاج» من شيوعية إفرنسية، فقد تزوج «فرحات عباس» من إفرنسية ولكن غير شيوعية. وكما كان «للأمير شكيب أرسلان» تأثيره على «مصالي الحاج» لإيقاظه على أصالته الاسلامية العربية، فقد كان هنا لرابطة العلماء «عبدالحميد بن باديس - وأحمد توفيق المدني» دور أساسي في تحويل تفكير فرحات عباس وانتزاعه من بؤرة تفكيره الافرنسي وثقافته الافرنسية لإيقاظه على حقيقته كجزائري مسلم عربي.

ويصف أحمد توفيق المدني - مقابلته الأولى، لفرحات عباس، وهو لا يزال في بداية طريق العمل السياسي، فقال: «ذهبت لمقابلة - فرحات عباس - كان لا يزال في مقتبل العمر، طويل القامة، أسمر اللون، يضع على رأسه غطاء من نوع - الكولباك - الروسي الأسود الرفيع، وقد جلس جلسة المعتز بنفسه، المعتمد على قوته، الشاعر بمسؤوليته. وبعد تحية بسيطة،

(*) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢/٦١ و٥٧ - ٦٠ و ٦٣-٦٤.

جلست إليه، فبادرني قائلاً، بلسان فرنسي فصيح، ولم يكن يتكلم العربية إطلاقاً: أنا مسرور جداً بالتحدث إلى رجل مؤمن مقتنع، قاوم الاستعمار بشدة وصلابة. فتغلب عليه الاستعمار، وأخرجه من البلاد(*). قلت: وأنا سعيد بالتعرف على هذا الشاب النابه الذي أمعن في فضح الاستعمار، وبين آلام الشعب، وأفصح عن ظلامته: إننا تتبعنا ونحن بتونس مقالات «كمال بن سراج» وعلمنا أنك أنت كاتبها. وأبانت لنا الطريق عما خفي عنا من أساليب الاستعمار وظلمه وجبروته. والآن، ونحن هنا، يمكن أن نربط بين طرفي الحبل وأن نوحد الجهود من أجل تحطيم هذا العدوان الاستعماري البشع، ولكي نضع أسس الدولة الجديدة الحرة بالشمال الافريقي. وقال - عباس فرحات - أما أنتم بتونس فلكم الحق في تكوين الحركة الملية، وفي محاولة إقامة الدولة المستقلة على أنقاض نظام الحماية الذي أصبح نظاماً استعمارياً كامل الأركان. أما نحن في الأرض الجزائرية، فوضعيتنا تختلف. **إن فرنسا ملكت البلاد بقوة السلاح وقتل المدافعين الأحرار، وتشريد بقايا الشعب شذر مذر. فتفكير الطبقة المتنورة بالجزائر هو غير تفكير الطبقة المتنورة التونسية. نحن هنا لا نستطيع إطلاقاً محاربة فرنسا، إلاّ بواسطة قوانينها، وداخل إطاراتها، فكفاحنا وقد ابتدأ ولن ينتهي قريباً، يركتز على دعامتين أساسيتين: الأولى: فضح**

(*) من المعروف أن الشيخ المدني هو في الأصل جزائري، ارتحل أهله في سنة ١٨٧٠ إلى تونس. وفيها ولد ـ المدني ـ ثم أبعد إلى الجزائر.

الاستعمار أبشع فضيحة، وبيان أساليبه واستهتاره بالقيم الانسانية، وإبلاغ الرأي العام العالمي والافرنسي ما يقاسيه هذا الشعب المسكين من آلام لم يتحملها شعب قبله ونرجو أن لا يتحملها شعب بعده. والثانية: إرغام فرنسا، بالحجة والبرهان على تطبيق قوانينها التي تقول بأن الجزائر قطعة من فرنسا، وأن الجزائري فرنسي قانوناً، وذلك يوجب إلغاء كل القوانين الاستثنائية الخاصة بالأهالي، ويجب إعطاءنا كل حقوق المواطنة الافرنسية. وبذلك نصبح سعداء مثل بقية المواطنين الافرنسيين، لا حيف ولا ظلم ولا إرهاق، ونشارك على بساط التساوي في كل المجالس البلدية والعمالية والمالية، ومجلس الأمة لباريس.

وأجابه «أحمد توفيق المدني» بقوله: أنا معك في المرحلة الأولى من غير احتراز. أما في المرحلة الثانية، فلا أكتمك أنني على عكس نظريتك. أنا أتصور الجزائر حرة مستقلة، دولة إسلامية عربية على غرار ما قاله مصطفى كامل عن مصر: أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا، مرتبطة إرتباطاً عضوياً مع تونس والمغرب الأقصى. وثيقة الصلة ببقية البلاد العربية.

وقال «عباس فرحات» عندها: أقول لك بصراحة مع احترام رأيك، أنني رجل واقعي لا أسير مع الخيال، ولا أتتبع الطرق المسدودة. ولست مؤمناً إطلاقاً بوجود شعب جزائري تواق للحرية والاستقلال، وليست لنا أمجاد تاريخية تفادينا من وراء الدهور، أو تربط بين حاضرنا وماضينا.

ورد عليه المدني - في شبه حدة: إنك تعلمت في فرنسا، أو في مدارسها بالجزائر، ولم تقرأ إلّا كتبها المدلسة، ولم تطلع إلّا على آدابها السخيفة الاباحية، ولم تختلط إلّا برجالها الذين احتلوا أرضك، وامتهنوا أهلك، واستعبدوا شعبك. الجزائر أمة قائمة الذات، لها تاريخها الحافل، ورجالها الأبطال البواسل، وقد عطرت الدنيا بذكر جهادها المجيد، من أيام يوغورطا وماسينا إلى عبدالقادر والمقراني. وإنك إن ناديت بالافرنسية والتفرنس والذوبان في بوتقة الغالب، وهو أمر من المحال تحقيقه، فإنك لن تسير طويلاً، وستجد نفسك ومن التف حولك من شبان هذه الحركة وحيدين، تعملون لغير غاية وتسيرون إلى غير هدف. إن هذا الشعب الجزائري لا يريد إلّا السير على طريق الشرف والبطولة، التي توصله إلى مركز القوة والاستقلال بالحكم. وإنني أرى إنه ربما اتبعك اليوم، ما دمت تصرخ بآماله، وتفرج كربته بكشف ظالميه. أما متى تجاوزت ذلك، وسرت قدماً في طريق الاندماج والذوبان، انفض من حولك، وتركك مع قلة قليلة من أمثالك.

وافترق الرجلان - على غير رضى - غير أن المعركة لم تتوقف، فقد أوعز الشيخ بن باديس إلى أحمد توفيق المدني بكتابة رد على مقولة «التفرنس» «والاندماج» نشرها في «الشهاب» على مسؤوليته - حتى حسب البعض إنها من كتابة - ابن باديس - رحمه الله، وكانت المقولة تحت عنوان (كلمة صريحة) وجاء فيها: «.. إننا نعيش حقاً في وسط سادت فيه الفوضى من جميع جهاته، فمن فوضى في الدين إلى فوضى في الأخلاق إلى فوضى

في الاقتصاد. وزادتنا الأيام على كل ذلك فوضى جديدة ربما كانت أخطر الفوضات، وأشدها تأثيراً على حياة الأمة، ألا وهي فوضى التكلم باسم الأمة. فما من متكلم اليوم، وفي أي مناسبة من المناسبات، إلّا ورفع عقيرته مدعياً بأنه يمثل الأمة الاسلامية قاطبة في هذه البلاد. وأن الكلمات التي يقولها من عند نفسه إنما هي كلمة الأمة الحق، وقولها الفصل. ولو إنهم اقتصدوا في القول، ولم يلجوا باب الغلو والاسراف وقالوا إننا نتكلم باسم الفريق الذي انتخبنا أو باسم الهيئة التي ننتمي إليها، أو باسم الجماعة التي نحن منها، أو باسم الذين يشاركوننا في الراي والتفكير، لكان قولهم أصوب، ورأيهم أصلح، وكلامهم أقرب إلى نفوس السامعين من رجال الحكومة ومن رجال الشعب.

إننا نتكلم اليوم حول هذا الموضوع إثر ما رأيناه من الحملة التي أجمعت الأمة على مجابهتها، في إثر اجتماع اللجنة الوزارية الاسلامية بباريس.

لقد قال البعض من النواب المحليين، ومن الأعيان، ومن كبار الموظفين بهذه البلاد: إن الأمة الاسلامية الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة، لا وطن لها إلّا الوطن الافرنسي، ولا غاية لها إلّا الاندماج الفعلي التام في فرنسا، ولا أمل لها في تحقيق هذه الرغبة، إلّا بأن تمد فرنسا يدها بكل سرعة، فتلغي جميع ما يحول دون تحقيق هذا الاندماج التام. بل لقد قال أحد النواب النابهين، أنه فتش عن القومية الجزائرية في

بطون التاريخ فلم يعثر على خبر. وأخيراً! أشرقت عليه أنوار التجلي فإذا به يصيح: فرنسا هي أنا! حقاً إن كل شيء يرتقي في هذا العالم ويتطور، حتى التصوف. فبالأمس، كان يقول أحد كبار المتصوفين الجزائريين - وهو الشيخ أحمد بن عليوه المستغانمي (وهو صوفي منحرف):

فتشت عليك يا الله
وجدت روحي أنا الله

واليوم يقول المتصوف في السياسة:

فتشت عليك يا فرنسا
وجدت روحي أنا فرنسا

فمن الذي يستطيع بعد اليوم أن ينكر قدرة الجزائري العصري على التطور والاختراع؟ إن هؤلاء المتكلمين باسم «المسلمين الجزائريين» والذين يصورون الرأي العام الاسلامي الجزائري بهذه الصورة، إنما هم مخطؤون، يصورون الأمور بغير صورتها، ويوشكون أن يوجدوا حفيراً عميقاً بين الحقيقة، وبين الذي يجب أن يعرفها. فهم في واد، والأمة في واد...

لا يا سادتي! نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة، بل ندعي أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة. ونقول لكم، ولكل من يريد ان يسمعنا، ولكل من يجب عليه أن يسمعنا، إن أراد أن يعرف الحقائق، ولا يختفي وراء آكام الخيال: نقول لكم إنكم من هذه الناحية لا تمثلوننا، ولا تتكلمون باسمنا، ولا تعبرون عن شعورنا وإحساسنا. إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ،

وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة موجودة، كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا. ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية. ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن ومن قبيح، شأن كل أمة في الدنيا. ثم إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا. ولا تريد أن تصير فرنسا. ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي دينها. لا تريد أن تندمج. ولها وطن معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة».

كان ذلك عاملاً أساسياً وحاسمًا في تحول «عباس فرحات» وإزالة الغشاوة التي أسدلتها على أبصاره نشأته في المدارس الافرنسية، ومعايشته للوسط الافرنسي. أما العاملان الأساسيان الآخران فهما: التصاقه ببيئته الجزائرية الأصلية «بيئة الفلاحين» في «شرق الجزائر» وأخطاء، أو جرائم، السياسات الافرنسية ذاتها. وهو الأمر الذي أوضحه فرحات عباس ذاته بقوله(*):

«إنني أنتسب بالفعل إلى فئة الفلاحين، ولم يكن إلا من قبيل المصادفة تولي والدي وأشقائي الوظائف العامة، لقد نشأت في وسط الفلاحين، أولئك الفلاحين الجبليين الذين لم ينل البؤس من شجاعتهم وأنفتهم وكبريائهم. لقد قضيت سني

(*) ليل الاستعمار (فرحات عباس) إصدار جوليارد. ص ١٠٧ - ١١٣ (في ترجمة وليم خوري ص ١٣٧ ١٤٥).

حداثتي وسط هذه الفئة من الناس المتواضعين الصلبين الكرماء، وإذ نشأت في ناحية «دوار» تابع لمجمع مختلط «كومون ميكست» بعيد عن المدينة، غير موروث، وكان من المحال عليّ أن أنفصل عن أولئك الفلاحين ولم يكن تضامني مع الفلاحين هو تضامن محبة وتعاطف، بل هو تضامن في العيش والحياة إلى حد ما، فقد نشأت بينهم وأصبحت شاباً وأنا معهم، لذلك صرت أعرف آلامهم وأدرك مصدر شقائهم وبؤسهم مما كان يثير حزني. إنني لست ابن مهاجر، مثل بعض رفاقي في المدرسة، إذ أن أسرتي لم تأت من مالطا أو فرنسا أو غيرهما إلى الجزائر بحثاً عن الثروة. إن الأجيال لا حساب لها بالنسبة لذوي، لأنهم ملك الأرض الجزائرية. فالجزائر لهم كما أنهم ملك لها، هم متعلقون بأرضها سواء كانوا فقراء أم أثرياء، وهم في أيامنا هذه، عندما يهاجرون هرباً من الجوع، يعودون حتماً إليها ليموتوا فيها.

إن عملية احتلال الجزائر هي قضية معروفة - لكنني سأسرد هنا بإيجاز كيف جرت الأمور بالنسبة لأفراد قبيلتي. لقد قام العقيد - الكولونيل سان أرنو - عام ١٨٥١ في زحفه من قسنطينة إلى «جيجل» بإحراق محاصيلهم وقراهم. وقطع أشجارهم المثمرة، ونهب مواشيهم، فقضى على كل مقاومة عندهم. ثم عادوا فاستأنفوا حمل السلاح عام ١٨٧١ تلبية لنداء مقراني والحداد، فغلبوا على أمرهم من جديد، وهجروا من أراضيهم، وطردوا إلى أرض صخرية بين نجود التل العليا عند أطراف مديرية «فج مزالا». وقد أنشىء في مناطقهم خمسة مراكز للتوطين هي جيجل ودوكسين واستراسبورغ وطاهر وشفقا. وبعد

ذلك بسنوات عادوا يعملون كعمال في أراضي الساحل تلك التي كانت في السابق أراضيهم، أما المجدودون منهم، فقد تمكنوا من شراء قطعة صغيرة أقاموا فيها مساكن لهم. وكان والدي من بين هؤلاء، أما الباقون فقد مضوا يتنقلون من قرية إلى قرية، حسب إرادة أرباب العمل.

أما المدارس فلم يكن يوجد منها شيء لديهم، كانوا يعيشون على هامش مراكز الاستيطان الافرنسي حيث كانوا يستخدمونهم لأنهم يتكلمون لغتهم، ولكن ما إن يصبح الأمر متعلقاً بعمل إداري (عند القاضي أو المدير أو حارس المياه والغابات والجابي إلخ. . .) يصبح الترجمان ضرورياً. وهكذا أصبحوا غرباء في وطنهم بالذات، كما بقيت القوانين الافرنسية غير مفهومة لديهم، وانتهى الأمر أخيراً بأن جردوا من القليل الذي أبقاه لهم النظام الاستعماري. وقد سبق أن رأينا أن هذا الشقاء كان من نصيب شعب بأكمله، كما أن بؤسه الفظيع كانت نتيجة صدام بين الشرق والغرب، شرق مغلوب مسلوب ومجبر على الصمت، وغرب طامع عنيف متوحش. ومن طبيعتي أنني أكره العنف، وأكره أكثر منه الظلم، الناجم عن شراهة الفئات المتخمة. وتزداد بشاعة الظلم في الجزائر بقدر زيادة عمق جذوره. ومن العبث القاء تبعات هذا الظلم على الافرنسي الشرير، ونبرىء منه الافرنسي الطيب. فالمسؤولية هنا جماعية مشتركة، وهي نتيجة نظام، وثمرة مفاهيم خاطئة. ويقال أن الانسان هو الذي يضع النظم، ويصح أيضاً أن نقول بأن النظم تضع الانسان، إن فرنسيي الجزائر لم يكونوا

جميعهم في البدء أشراراً، ولكنه النظام الاستعماري الذي تطبقه البورجوازية الافرنسية هو الذي جعلهم على ما هم عليه الآن.

وليس من استعمار في العالم يعادل في ظلمه الاستعمار الافرنسي في الجزائر. إذ لم يخطر في بال أي نظام استعماري أن يفني الشعب المغلوب بمثل الصفاقة والوحشية التي جرى عليها الاستعمار الافرنسي، ولما لم يتمكن من تحقيق هذا الهدف، رأى أنه من المهارة وضع الشعب الجزائري في السجن بواسطة صيغ قانونية كاذبة خادعة - وعلى سبيل المثال - فعندما يعلن الجزائري أنه عربي، يجيبه المشرعون الافرنسيون «كلا إنك إفرنسي» وعندما يطالب بحقوق الافرنسيين يجيبه المشرعون أنفسهم: «كلا إنك عربي». لذلك كان على الجزائريين استنكار مثل هذا النظام، وكان عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ليعلنوا موقفهم، وهم في الواقع لم ينقطعوا أبداً عن الاحتجاج والدفاع، وكان ذلك في الدرجة الأولى أمام الديموقراطيين الافرنسيين أنفسهم. وهذا هو السبب الذي من أجله أصر جيلنا والأجيال التي سبقته على اللجوء إلى فرنسا الجمهورية والحرة ضد فرنسا الاستعمارية الطاغية. وكانت هذه الأجيال تعتقد بانه يكفي أن توضح لفرنسا الأولى التناقضات التي كانت سبباً في شقاء الشعب الجزائري حتى تضع حداً لها. وإذا كان جيلنا قد رفض مبدأ «العنصر المتفوق» و «العنصر المتدني» على أنه مبدأ خاطىء ومشين. فقد تبنى مع ذلك مبدأ العنصر الأستاذ والعنصر التلميذ، إذا اعتقد بتقدم القوانين وتطورها. وبأن الجزائر الجديدة ستولد عن طريق المدرسة والخبرة الفنية الحديثة. وبأن

نظام العقل والذكاء هو مدخل الحرية. وبأن تحالفاً يقوم بين الشبيبة الجزائرية والأحرار الافرنسيين يمكنه أن يؤدي تدريجياً إلى تحقيق الديموقراطية الحقيقية.

جاءت مسيرة الأحداث لتؤكد لنا أن الأمور ليست على مثل هذه الدرجة من البساطة، فالرأسمالية والاستعمار مرتبطان برباط واحد لا يمكن فصله - أو حله. كانت الرأسمالية تعمل في باريس، وكان الاستعمار يعمل في الجزائر. ولم يكن بالمستطاع التعرض بالهجوم على أحدهما دون مهاجمة الآخر. على عكس ما تصورت بادىء ذي بدء. فإن وجود «بروليتاريا» ثورية واحدة، ووجود أحرار في فرنسا لم يكن ليغير شيئاً في المعطيات الرئيسية للمشكلة الاستعمارية. إذ بقيت هذه المشكلة بالرغم من كل الدعايات، مشروعاً عنصرياً للسيطرة والاستغلال.

عندما ولدت كان تجريد الجزائريين من ممتلكاتهم قد تحول إلى حقيقة واقعة. وكان النظام الاستعماري مهيمناً على الجزائر. وكان الجزائريون يعيشون في فقر يصعب وصفه. وهم يحاولون تضميد جراحهم والافلات من قبضة الفناء المادي والانحلال المعنوي، وكان الفلاحون يتشبثون بالأرض بشكل يائس، ويئنون تحت عبء البؤس والاضطهاد، ويشاهدون وهم عاجزون، عالماً بأكمله، يتألم ويموت، وهذا العالم هو عالمهم. وقد خلف السلم دون عدل، ألماً كبيراً، لوجود دون سعادة. وحيال عدم الثقة بالغد، كان الأبناء يخلفون الآباء بنسبة عالية من الولادات والوفيات، كان الشقاء يقرع الأبواب غالباً، وكان الفلاح

الجزائري يستقبل هذا الشقاء، من أي جهة جاءه، بذات الدعاء: لنصبر، فهذا كله من عند الله. فلنصبر!! ولم يكن ذلك الصبر يعني الاستسلام الأبله، وإني في موقف يسمح لي بأن أعرف ذلك حق المعرفة، لقد كان هذا الصبر حيال ذلك الشقاء المقابل الوحيد الذي وجده الفلاح ضد اليأس. لقد كان هذا الفلاح يأمل دائمًا باستعادة حقله، يتملكه في ذلك حبه للأرض وحماسته لها. وكان يكافح الاستعمار بوسائله الخاصة، دونما سند ولا دعم ولا تدريب، وإذا كان يمزج كفاحه أحياناً ببعض العنف، فذلك لأن استخدام وسيلة العنف باتت عادة مستحكمة من عادات الاستعمار. ولم يكن هذا الفلاح، روتينياً جامداً، ذلك أنه بمجرد أن يتوفر له الحظ بالحصول على ملكية متوسطة، كان همه الأول أن يتكيف مع متطلبات الحضارة الفنية التي لم يكن باستطاعته أن ينكر قيمتها، فكان على غرار المستوطن الذي أصبح جاره يدخل في استثماره الزراعي الأساليب الحديثة(*).

(*) ولكنه بعكس المستوطنين لم يكن ينتفع إلاّ بمساعدة هزيلة مضحكة فالمصارف الزراعية وبيوتات المال التابعة للمستوطنين، كانت تستولي على مجمل القروض الزراعية تقريباً. ونذكر مثالاً واحداً بهذا الشأن في عام ١٩٥٣، كانت الجزائر تقدم سلفاً قيمتها (٤٢) مليار فرنك للمصارف الزراعية. وكانت تخصص هذه المبالغ للمستوطنين وعددهم (٢١) ألفاً من المستوطنين المزارعين. بينما تقدم مليارين فقط للجمعيات الزراعية الجزائرية التي تضم أكثر من مليون فلاح جزائري.

ولكن الجزائريين، على النطاق الاجتماعي والأخلاقي، وسواء أكانوا أغنياء أو فقراء، كانوا متشبثين بتصميم وعناد بحضارتهم المتوارثة عن الأجداد، وبلغتهم القومية، وتقاليدهم الأصيلة، وسواء تخرجوا من المدارس الافرنسية أو المدارس العربية، أو في أقاصي النواحي - الدوارات - كانوا جميعاً يشعرون بالحاجة إلى احترام إرث الأجداد والمحافظة عليه. لقد حافظوا وهم بمواجهة مجتمع أوروبي معتد، حافظوا على العزة والقوة اللتين يوحي بهما إليهم انتسابهم إلى الشعب المضطهد، الشعب العربي الجزائري. وكانوا يواجهون إزدراء الأوروبيين لهم بإزدراء مماثل، وباحتقار من هم واثقون من حقهم الصريح. لقد رفضوا بقوة وصلابة خرافة التفوق العنصري التي أراد النظام الاستعماري أن يفرضها عليهم.

كانوا يعلمون أن المتسوطن، سواء كان إفرنسياً أو إيطالياً أو اسبانياً، لم يكن متفوقاً عليهم، كانوا ينحنون بالتأكيد تحت ثقل الضغط والقوة، ولكنهم كانوا يرفضون أن يترامو كالكلاب.

أما الامبريالية الاستعمارية، فقد كانوا على ثقة من زوالها يوماً ما بوسيلة أو بأخرى. فالبيت الذي لا أساس له، سينهار عاجلاً أم آجلاً. أما مؤقتاً، فإن الظلم مهما كان الرداء الذي يرتديه، فيبقى ظلماً، ومهما ثقل هذا الظلم عليهم، فإنه سيبقى معه شعلة الثورة، وأمل تحرر أكيد».

تلك هي الصورة العامة لإنسان الجزائر كما رسمتها ريشة

«فرحات عباس» في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين. ففي هذا العقد، كان «مصالي الحاج» قد أخذ في فرض وجوده على المسرح السياسي للجزائر، وكانت طلباته ومقترحاته تعتبر «متطرفة» و«غير واقعية» من وجهة نظر الاستعمار الافرنسي. ومقابل ذلك فإن الاصلاحات التي بدأتها رابطة «علماء المسلمين الجزائريين» بقيادة عبد الحميد بن باديس لم تكن قد أخذت أبعادها للتأثير على التيار العام، وبصورة خاصة على هذه الفئة من «المتسغربين» أو «المتفرنسين» وهي الفئة التي وجدت في صيدلي «سطيف» الشاب فرحات عباس - ممثلاً لها وناطقاً باسمها. وعلى هذا لم يكن من الغريب أن يندفع «فرحات عباس» بكل ما في الشباب من اندفاع وحماسة، ليكتب في كتابه «الجزائر الفتاة» والذي نشره سنة **١٩٣١** ما يلي:

«... **إن الجزائر أرض إفرنسية، ونحن إفرنسيون، لنا قانوننا الشخصي الاسلامي**». وقد أعربت نظريته عن التطور من «مستعمرة إلى مقاطعة» أصدق التعبير عن الرغبات الاندماجية عند **فريق المستغربين**. وللوصول إلى هذا **الهدف، كان** لابد من انتهاء **عهد** الاستعمار **والاستيطان، فكتب عباس** فرحات يقول: «**ليس هناك في القرآن الكريم ما يمنع الجزائري** المسلم من أن يكون **إفرنسي** الجنسية، **قوي السلاح، حاضر** الجنان، داعياً للتضامن الوطني. **ولا شيء يمنع ذلك إلا الاستعمار**».

ألف الفريق الذي كان يمثل الجزائريين في الهيئات والمجالس المحلية المنتخبة في عام (١٩٣٠) **اتحاداً للمنتخبين**

المسلمين بزعامة الدكتور «ابن جلول» الذي كان يرأس جماعة قسنطينة. وكان الهدف الأساسي لهذا الاتحاد المختلف الأشكال والصور، الدمج التدريجي للنخبة المتعلمة من الجزائريين في الحياة الافرنسية، وتحسين أحوال جميع الجزائريين(*). وفي عام ١٩٣٥، ألقى «فرحات عباس» خطاباً باسم الاتحاد، بحضور وزير الداخلية الافرنسي - رينيه - الذي كان يزور الجزائر آنذاك فقال: «لم يبق هناك في هذه البلاد شيء إلا الاتفاق على سياسة الادماج، وذوبان العنصر المحلي في المجتمع الافرنسي» وأوضح عباس موقفه بصورة أكثر جلاء في العام التالي، عندما أصدر بياناً قال فيه:

«نحن الأصدقاء السياسيين للدكتور بن جلول، سنصبح من القوميين. وهذا الاتهام ليس بالأمر الجديد. فقد تحدثت إلى شخصيات متعددة حول هذا الموضوع. أما رأيي فمعروف تماماً. فالإحساس القومي هو ذلك الشعور الذي يدفع بشعب ما إلى العيش داخل حدوده الاقليمية، بل هو الشعور الذي خلق هذا العدد من الأمم. ولو كنت قد اكتشفت الأمة الجزائرية، لغدوت إنساناً قومياً. ولن أخجل آنذاك من هذه الجريمة. فالرجال الذين

(*) حاول الاتحاد الحصول على تمثيل أوسع للجزائريين في جميع المجالس الجزائرية المنتخبة، وعلى معاملة متساوية في الخدمة العسكرية. وإنهاء عهد المحاكم الخاصة (الاستثنائية) وإصلاح أنظمة الغابات والأحراج، وإلغاء الغرامات الاجماعية وتوسيع التعليم، وتحسن الأوضاع الزراعية في الأرياف، وحرية الدين، ورفع أجور العمال الجزائريين.

يموتون دفاعاً عن فكرة وطنية، يجلون ويحترمون أبلغ الاحترام. وليست حياتي بأغلى أو أثمن من حياتهم... إنه ليس بوسع إنسان أن يقيم بناءً على الرمال. وقد بددنا مرة وإلى الأبد، جميع الضباب والخيالات، لنربط إلى الأبد بين مستقبلنا ومستقبل ما تحققه فرنسا في هذه البلاد، ولا أرى إنساناً يؤمن إيماناً جدياً بقوميتنا. أما ما نريد أن نحارب من أجله فهو تحررنا السياسي والاقتصادي... فبدون هذا التحرر للمواطن الجزائري، لن يكون هناك جزائر إفرنسية تستطيع البقاء إلى الأبد...».

حصل «اتحاد المنتخبين المسلمين» هذا على دعم كل الشخصيات المشتركة في الاتحاد والتي تعمل على «الدمج» كما لقيت هذه الجماعة دعمًا من «الجبهة الشعبية الافرنسية» التي انتصرت في الانتخابات الافرنسية سنة ١٩٣٦، واستحوذت على الحكم فيها. غير أن اتحاد المنتخبين المسلمين فشل في الحصول على تأييد لاقتراحاته الاصلاحية. وكانت ردود فعل الدكتور بن جلول وجماعته عنيفة في مجابهة هذا الفشل، فقام «بن جلول» في الهجوم على الإدارة الافرنسية هجوماً عنيفاً في سنة ١٩٣٧، ودعا جميع المنتخبين الجزائريين إلى الاستقالة إذا لم تستجب الادارة الافرنسية لهذه الاصلاحات (التي عرفت باسم اقتراح بلوم-فيوليت سبقت الاشارة إليها). ولبى نحواً من ثلاثة آلاف جزائري في منطقة قسنطينة النداء. فغادروا مكاتبهم، لكن الاستجابة كانت ضعيفة في المناطق الأخرى. وعاد المنتخبون الجزائريون إلى مراكزهم في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٨. بعد أن تلقوا تأكيدات بأن اقتراحات «بلوم-فيوليت» ستبحث في

البرلمان الافرنسي. ولا ريب في أن فشل هذا البرلمان في إقرار المشروع، كان نقطة تحول في تفكير الكثيرين من الجزائريين المعتدلين. وأدرك فرحات عباس أن الجزائريين أضعف من أن يقاوموا الاستعماريين في كل من باريس والجزائر في وقت واحد. وكان قد اعتمد على تأييد فرنسا نفسها في مطالبه للمساواة في المعاملة. ولكن أمله خاب الآن حتى في أكثر الافرنسيين تقدماً وحرية فكر. ووصف فرحات عباس، الصراع في هذه الفترة بما يلي:

«عندما جرت المعركة الانتخابية لتجديد المجالس البلدية لعام ١٩٣٥. رافقتها اشتباكات في قسنطينة وبجاية وسطيف. فقامت الشرطة بإطلاق النار على الجماهير في بسكرة خصوصاً حيث كانت الشرطة تحت أمرة عمدة فاشي يدير أحد المصارف. وعملت الادارة الافرنسية التي كانت خاضعة خضوعاً تاماً لسلطة الاقطاعيين من المستوطنين، على حماية المجرمين، وأطلقت أيديهم في أعمال القمع والاعتقال، وتم إغلاق المقاهي، وتقديم أساتذة اللغة العربية للمحاكمة. وتسريح الموظفين ممن كانوا يتعاطفون مع الحركة، وعملت الادارة الافرنسية على تدمير التجار والمزارعين عن طريق الغرامات المالية الباهظة التي فرضت عليهم، كما ألغت القروض الزراعية للفلاحين. الخ. . .

ثم طالب اتحاد العمد الفاشيين بأن يرسل إلى الجزائر لمصائل القناصة، وأن تسحب منها سرايا الرماة الجزائريين لاستبدالها بقوات زنجية. كما طالب هذا الاتحاد بتوقيف

المحرضين، وتكوين الحرس السيار أما المحرضون فلم يكونوا سوى المنتخبين العرب الذين كانوا يطالبون بالمساواة في الحقوق في جمهورية كانت تعلن عن نفسها: «بأنها تشكل مع الجزائر وحدة لا تتجزأ»، وعلى أثر ذلك، توجه المنتخبون المسلمون بنداءاتهم إلى الأحرار الافرنسيين، وإلى رئيس الجمهورية ووزير الداخلية، كما وجه «موريس فيوليت» الذي كان عضواً في مجلس الشيوخ، استجواباً إلى الحكومة، وألقى بياناً رائعاً عن الموقف في الجزائر. ولكن النصر كان إلى جانب الحزب الاستعماري - كما هي العادة - ولمواجهة المناقشة في هذا الموضوع، زار الجزائر وزير الداخلية الافرنسي - مارسيل رينيه - وتأثر كثيراً لبؤس الشعب الجزائري، وعدالة مطالبه، غير أن هذا التأثر لم يمنعه من إصدار القرار الذي حمل اسمه - قرار رينيه - والذي دعم فيه سلطة أجهزة القمع ضد الشعب الجزائري. أما الاصلاحات، فلم تكن موضع بحث الوزير الهمام.

لم تنجح وسائل القمع في إيقاف نشاط «اتحاد المنتخبين المسلمين». الذي دعا في سنة ١٩٣٦ إلى إقامة تجمع في كل أنحاء الجزائر أطلق عليه اسم «المؤتمر الاسلامي» وضم المنتخبين والعلماء والاشتراكيين والشيوعيين والمحاربين القدماء والفلاحين. وتم وضع ميثاقاً يتضمن المطالب الأساسية(*). وجاءت لجنة

(*) طالب المؤتمر بإنهاء جميع القوانين الخاصة - الاستثنائية - المفروضة على الجزائريين، وإعادة تنظيم العلاقات الافرنسية-الجزائرية. والمحافظة على قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، وفصل الدين =

تحقيق برلمانية إلى الجزائر - في آذار (مارس) ١٩٣٧ بهدف دراسة وضع الوطنيين الجزائريين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وأيدت اللجنة عدالة المطالب الجزائرية. غير أن الاستعماريين كانوا يطرحون القضية على صعيد آخر، فكانوا يعترضون على المطالب الجزائرية بقولهم: «إن الجزائريين المسلمين هم جميعاً قوميون وأعداء، فإذا منحتهم فرنسا المساواة في الحقوق، فستطرد من الجزائر، لذلك يجب أن تبقى سيادة الأوروبي وأفضليته قاعدة ثابتة». وهكذا انطلقت حملة عنيفة في الصحف ضد مسلمي الجزائر - في باريس والجزائر معاً - وكان يغذي هذه الحملة ويمولها ويوجهها آل مورينو، وديرو، وبروجو، وسيكار. وفشل مشروع الإصلاح، وتراجعت حكومة الجبهة الشعبية اليسارية، كما تراجعت من قبلها الحكومات اليمينية.

لقد قابلت في العام ١٩٣٧ - ولا زال الحديث للزعيم فرحات عباس - الرئيس «ألبير سارو» الذي كان يشغل في تلك الفترة منصب وزير الداخلية. وبينت له عدالة مطالبنا. وإذ ذاك اعترف الوزير المذكور - متأثراً بحججي، بأنه عاجز أمام خصومه الاستعماريين - وقال لي:

«لقد استقبلت هنا النواب الجزائريين - نواب المستوطنين

= عن الدولة، وحرية التعلم باللغة العربية، وحرية الصحافة - التعبير - والتساوي مع الافرنسيين في الأجور والرواتب، ومساعدة الفلاحين، وإجراء الانتخابات على درجة واحدة. (الجزائر الثائرة - تعريب خيري حماد - ص ٦٩).

- وبحثت معهم مشـروع الاصلاح - مشـروع فيـوليت - والذي عرضته علي الآن، وناقشتهم لأكثر من ساعة، وحاولت إقناعهم واستثارة وطنيتهم وحكمتهم ومشاعرهم. وإني مضطر لأن أسلم بأن هؤلاء السادة، لا يحملون في أشخاصهم سوى أنبوب الهضم».

جرت الأحداث بعد ذلك متسارعة، وقام مجلس الشيوخ الافـرنسي بإسقـاط حكومـة الاشتراكي «ليـون بلوم» لتخلفها حكومة «دالادييه» التي استقبل رئيسها وفداً جزائرياً يضم ابن باديس وفرحات عباس: وقال «دالادييه» للوفد: «إن البرلمان يعارض مشروع فيوليت، ويبدو أن الجنسية الافرنسية لا تتلاءم مع الحقوق الشخصية الاسلامية. ولا أستطيع أن أقول شيئاً ضمن هذه الظروف، بل أسألكم مساعدتي في حفظ النظام. ولا تحرجوني كي أستخدم القوة المتوفرة لدى فرنسا، لأن فرنسا قوية».

ورد عليه فرحات عباس: «إن احترام حقوق الانسان هي أفضل سلاح» أما ابن باديس الذي كان متألقاً، شامخاً، فقد اكتفى بأن قال للرئيس دالادييه: «القوة والعزة لله وحده. إن قضيتنا عادلة وسنستمر في الدفاع عنها حيال وضد الجميع».

وتسارعت الأحداث على ساحة الجزائر بمثل ما كانت تسير متسارعة في فرنسا. فقد انفرط عقد «اتحاد المنتخبين الجزائريين» ووقف العلماء والشيوعيون ضد المصاليين.

ووقع خلاف بين فرحات عباس والدكتور بن جلول، إذ خاف فرحات من سياسة بن جلول المغرقة في التساهل مع الافرنسيين. وبقي فرحات أقرب من خصمه إلى الفلاحين الجزائريين، بينما كان بن جلول أقرب إلى الطبقة الارستقراطية. وقام بن جلول بتأليف (التجمع الجزائري - الافرنسي الاسلامي). ومقابل ذلك، قام فرحات عباس بتكوين «اتحاد الشعب الجزائري» بهدف «توحيد جماهير المسلمين الجزائريين مع ممثليهم المنتخبين، لكسب المعركة، والقيام بعمل جماهيري إذا اقتضى الأمر».

ثم كانت الحرب العالمية الثانية، ولما تمض أكثر من أشهر قليلة على هذه الأحداث. واجتاحت القوات الألمانية فرنسا - التي ظهر أنها لم تكن قوية إلا ضد الشعوب المستضعفة - وتبع ذلك اعتقال الرئيس «دالادييه» واضطهاد الديموقراطيين الافرنسيين. أما في الجزائر، فقد أظهر الحاكم العام «لوبو» بادرة ذات مغزى في تموز (يوليو) ١٩٤٠، حيث منع مقالاً في صحيفة «صوت المستوطن» لأن هذا المقال تضمن العبارة التالية: «لقد ارتكبت فرنسا أخطاء، وعليها أن تدفع الثمن وحدها، إذ لسنا ملزمين بتحمل نتائج هذه الأخطاء». وراح أسياد «الجزائر الافرنسية» يستقبلون بزجاجات الشمبانيا ضباط رجال لجان الهدنة الألمان، في الفنادق، وفي فيلاتهم الفخمة، وممتلكاتهم، وأخذ أكثرهم نفوذاً يتعامل مع حكومة فيشي. كما

استمرت أعمالهم في الازدهار. كانت الأمور عندهم على خير ما يرام ـ وسط الهزيمة ـ ما دام المستوطن لا يزال سيد الجزائر(*).

* * *

انهارت هيبة فرنسا، نتيجة الهزيمة التي نزلت بها في سنة ١٩٤٠. وأدى تعاون الكثيرين من المستوطنين مع نظام فيشي الموالي للنازيين في فرنسا إلى قيام أعمال العنف ضد مسلمي الجزائر بصورة خاصة، وضد اليهود أيضاً. وأدى ذهاب الجزائريين إلى الحرب للدفاع عن فرنسا إلى تدمير الانتاج. وزاد من الصعوبات الاقتصادية التي عاشتها الجزائر في سنوات الحرب ما حدث من انحباس الأمطار في بعض السنوات، ووقوع سيول وفيضانات في سنوات أُخرى. وخلال ذلك كانت الدعاية النازية، والخلافات بين سياسة فرنسا وقادتها العسكريين، إلى انهيار ما بقي من هيبة لفرنسا في أنظار الجزائريين. ثم جاء ميثاق حلف الأطلسي، وتعاظم قوة الحلفاء ليشكل حافزاً جديداً في دفع الجزائريين للتفكير بمستقبلهم على أُسس جديدة. وتحولت السجون والمعتقلات التي أقامها النازيون وأنصارهم من الفيشيين في الجزائر إلى مدارس سياسية، تبلورت فيها النويات الأُولى للتنظيمات السرية. وأدى إقبال حكومة فيشي على اتباع أسلوب «تمجيد عظمة فرنسا المسيحية» إلى دفع المعتدلين الجزائريين وفي طليعتهم - عباس فرحات - إلى الوقوف صراحة في صفوف

(*) ليل الاستعمار - فرحات عباس - ترجمة وليم خوري ص: ١٦٤-١٧٣.

«الجبهة الإسلامية». وأدت النداءات التي كان يوجهها الجنرال ديغول من لندن، طالباً مقاومة حكومة فيشي، إلى استجابة الكثيرين من الجزائريين للمقاومة.

* * *

نزلت القوات الأنكلو-امريكية على أرض الجزائر يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢، فيما كانت إذاعات لندن وموسكو وواشنطن تكثر نداءاتها لصالح حرية الانسان، والمساواة بين الشعوب، فكانت بذلك تساهم مساهمة كبرى في إيقاظ وعي الشعوب سياسياً - لا سيما شعوب افريقيا وآسيا الخاضعة للاستعمار. فقد أخذت الشعوب المستعمرة تدرك حقوقها، وتشعر بقوة شخصيتها، وترفع رأسها متطلعة نحو مستقبلها. ويفسر ذلك - جزئياً - حماسة أبناء الجزائر الكبرى لنزول قوات الحلفاء على أراضيهم. وكانت فرنسا الحرة - بقيادة ديغول - تحتاج لدعم كل قدرة بشرية ممكنه للإسهام بالمجهود الحربي، مما ساعد الجزائريين على بذل محاولة لطرح الشروط التي كانوا يعتبرونها مناسبة كضمان مقابل جهودهم وتضحياتهم. وقدم «فرحات عباس» مع عدد من كبار الممثلين الجزائريين المنتخبين، في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ سلسلة من المطالب إلى «السلطات المسؤولة». وقد رفضت هذه السلطات فوراً - الرسالة الأولى - التي وجهها ممثلو الجزائر، لأن الافرنسيين رأوا أنها وجهت إلى السلطات الاميركية وغيرها، ولأنها جعلت اشتراك

الجزائريين في المجهود الحربي رهناً بعقد مؤتمر جزائري عام(*). وبعد يومين قدمت صيغة أُخرى معدلة بعض التعديل إلى «السلطات الافرنسية». بعد أن حذفت منها كل إشارة تفيد بأنها إنذار نهائي. وذكرت: «ان الجزائريين بإسهامهم في المجهود الحربي، سيضمنون تحررهم السياسي ضمن إطار فرنسي». وتم. في النهاية «**إعلان بيان الشعب الجزائري**»(**).

لقد كان إعلان بيان الشعب الجزائري، خطوة رئيسية في

(*) نصت الرسالة الأُولى التي وجهت إلى السلطات المسؤولة على ما يلي: «إذا كانت هذه الحرب، كما أعلن رئيس الولايات المتحدة، حرباً لتحرير الشعوب والأفراد دون تمييز في العنصر والدين، فإن الشعب الجزائري سيشترك فيها بكل ما لديه من قوة، ويقدم كل ما يستطيع من تضحيات لهذا الكفاح التحرري. ويستطيع الشعب الجزائري بهذه الطريقة أن يحقق تحرره السياسي، في نفس الوقت الذي يتم فيه تحرير فرنسا. ولكن من المناسب أن يذكر موقعو هذه الرسالة أن الشعب الذي يمثلونه محروم من الحريات الأساسية والحقوق التي يتمتع بها المقيمون الآخرون في هذه البلاد، على الرغم من التضحيات التي وافقوا على تقديمها. وعلى الرغم من الوعود القاطعة والرسمية التي وعدوا بها في مرات متعددة. وعلى ضوء هذا، فهم يطالبون، قبل أن يحملوا جماهير الجزائريين على الاشتراك في المجهود الحربي، بالدعوة إلى عقد مؤتمر يضم جميع الممثلين المنتخبين في المنظمات الجزائرية. ويستهدف هذا المؤتمر، إعداد دستور جزائري يضمن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية» الجزائر الثائرة - غيلسبي - تعريب حماد ص ٧٩-٨٠.

(**) انظر البيان وملحقاته في آخر هذا الكتاب (قراءات ٢).

تطور الحركة الوطنية الجزائرية، فقد ذكر البيان أنه يمثل وجهات نظر ثمانية ملايين ونصف المليون من الجزائريين. ثم مضى البيان يسرد في العبارات التي استخدمها فرحات عباس «قائمة حساب صادقة وموضوعية عما تم في القرن الماضي» ويتلو «استنكاراً واضحاً ومقصوداً لسياسة الدمج عن طريق التمثيل» ثم طلب للجزائر «حياة قومية ديموقراطيةً صادقة وموثوقة».

وعلى الرغم من عدم تنكر بيان ـ فرحات عباس ـ للثقافة الافرنسية والغربية، إلا أنه رفض «العبودية» الناجمة عن النظام الاستعماري. وتعرض البيان للانحطاط الاقتصادي والاجتماعي في ظل الاحتلال الافرنسي والذي بلغ حداً وصل بالجزائريين إلى الذل المهين والفقر المدقع حتى صاروا يشعرون أنهم أجانب في بلادهم، وغرباء وهم فوق أرضهم. وخصص البيان اهتماماً خاصاً إلى الدور الذي يمارسه المستوطنون في الحيلولة دون وصول أكثر الجزائريين المستغربين تطرفاً، إلى درجة المساواة معهم. وانتهى إلى القول: بأن الاوروبيين والجزائريين ظلوا منفصلين، لا تجمعهم رابطة روحية واحدة. وأشار البيان إلى سياسة الدمج من خلال التمثيل فقال: «تبدو هذه السياسة اليوم في نظر الجميع، واقعاً لا يمكن التعبير عنه، وأداة خطرة في خدمة الاستعمار». ثم أكد أخيراً: «بأن الوقت قد فات على أن يقبل الجزائري بأن يكون شيئاً آخر، غير أن يكون جزائرياً.

بقي أهم ما في البيان هو أن الموقعين عليه كانوا من الموصوفين - من قبل الافرنسيين - «بذوي الأفكار المحافظة» أو

«المعتدلين». وكان البيان في حد ذاته يمثل أشد استنكار للحكم الافرنسي في الجزائر وأخطره، مما أصدره حتى ذلك التاريخ «المعتدلون» و«المستغربون» الذين كانوا يأملون في الماضي الاسهام إسهاماً كاملاً في الحياة الثقافية الافرنسية. وقد تم بعد ذلك تجاوز الصيغة العمومية للبيان بصدور «ملحق للبيان» تم فيه إيضاح ما يجب اتخاذه فوراً من إجراءات. وما يجب تأجيله منها حتى نهاية الحرب. وكان «ملحق البيان» تعبيراً عن طموح الجزائر لاستعادة السيادة الجزائرية. مع إعطاء فرنسا دوراً يشبه دور «الوصاية».

لم تمض فترة طويلة على إرسال «ملحق البيان» إلى السلطات الافرنسية، حتى تسلم «الجنرال ديغول» السلطة في الجزائر، واختار الجنرال «كاترو» حاكمًا عاماً لها. وقد رفض هذا فوراً وبصراحة مطالب المعتدلين. وأكد أن فرنسا لن توافق أبداً على استقلال الجزائر. وقد أدى رفض فرنسا - للمرة الثانية - قبول البيان كأساس للمحادثات الاصلاحية إلى رد فعل عنيف لدى الجزائريين. ورفض المندوبون الجزائريون في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣. الاشتراك في دورة طارئة للجان المالية. معربين برفضهم هذا عن تمسكهم بالبيان والتزامهم به. وكان رد «كاترو» على ذلك فرض الاقامة الجبرية على «عباس فرحات» وغيره من زعماء الجزائر. ولم يعدل «كاترو» عن قرار الحل إلا بعد أن ذهب إليه وفد من الممثلين اعتذر عن الأحداث الجارية، وأعلن عن رغبته في تطور الجزائر ضمن نطاق المؤسسات الافرنسية. ومع ذلك، فقد ألقى «الجنرال ديغول» في كانون

الأول (ديسمبر) خطاباً في قسنطينة، عملاً بمشورة تلقاها بضرورة الرد بصورة إيجابية وبناءة على مطالب الجزائريين. فوعد بالاصلاحات التي صدرت فيما بعد (في قانون شهر آذار (مارس) لعام ١٩٤٤). ولكن هذه الاجراءات التي كان في وسعها أن ترضي المعتدلين في عام ١٩٣٦، لم ترضهم الآن، فرفضوها، واشترك معهم في رفضها جماعة العلماء (برئاسة الشيخ الابراهيمي). كما رفضها «مصالي الحاج». ولم يحظ القانون إلا بتأييد فئة قليلة من «المعتدلين جداً» في اللجان المالية، والذين كانوا قد تخلوا عن تأييدهم للبيان تحت ضغط الافرنسيين.

* * *

استطاع المنتخبون المؤيدون للبيان الجزائري، تحرير المعتقلين والمحكومين السياسيين في آذار ونيسان (مارس وابريل) ١٩٤٣. وخرج «مصالي الحاج» من سجن لامبيز، وقضى يوم حريته الأول وليلته الأولى في منزله في (سطيف). وبعد إقامة قصيرة في مدينة الجزائر، وضع تحت المراقبة، وفرضت عليه الإقامة الاجبارية في «بخارى» ثم في شلالة. أما «فرحات عباس» فقد مضى لإعادة تنظيم الجماهير وتعبئتها وأدت جهوده إلى مقاطعة انتخابات اللجان المالية، فقام «كاترو» باعتقاله مع «الرئيس صياح» وعدد من جماعة أنصار البيان، واجتاحت التظاهرات مدن الجزائر وسطيف وقسنطينة مما أرغم «كاترو» على إلغاء أوامره بفرض الإقامة الاجبارية على «صياح» في بني عباس، وعلى «فرحات عباس» في طبلبالا - جنوب وهران. وانصرف «عباس فرحات» على الفور لإجراء اتصالات مكثفة مع

زعماء البلاد، طوال الأشهر الثلاثة الأُولى من العام (١٩٤٤) وقد وصف جهده خلال هذه المرحلة بما يلي:

«... كان علي إعادة الاتصال مع مختلف المنظمات، فانضم العلماء برئاسة الشيخ الابراهيمي فوراً إلى الحركة وأيدوني. وكذلك كانت مباحثاتي مع «مصالي الحاج» مستمرة، أما الشيوعيون، فقد رفضوا، ووجهوا إليّ اللوم: بأنني أسير بسرعة زائدة. وأعلنوا أنهم يفضلون الدعوة إلى تجمع آخر تحت اسم - أصدقاء الديموقراطية والحرية - يؤيد سياسة الوحدة والدمج مع فرنسا. وقد أيد مصالي جهدي مع إبدائه بعض التحفظات. لقد منحني ثقته دون أن يلتزم بمسؤولية. كان يدرك أنه يجب أن نضع شيئاً ما. وقد أسر لي بقوله: «ومع ذلك، فإذا كنت أمنحك ثقتي لتحقيق جمهورية جزائرية مشتركة مع فرنسا. فإنني مقابل ذلك، لا أثق بفرنسا أبداً. إن فرنسا لن تعطيك شيئاً، وهي لن ترضخ إلا للقوة، ولن تعطي إلا ما نستطيع انتزاعه منها». وعلى كل حال فقد انتهت هذه الجهود إلى تأسيس «حركة أصدقاء البيان والحرية» في ١٤ آذار (مارس) ١٩٤٤. وقام (عباس فرحات) بايداع نظام هذه الحركة في محافظة قسنطينة. وقد حدد أهداف حركته بما يلي: «إن مهمة التجمع المباشرة والفورية هي الدفاع عن البيان، الذي هو تعبير عن فكر حر مستقيم، ونشر الأفكار الجديدة، والاستنكار النهائي للاضطهاد الذي يقوم به النظام الاستعماري، ولعقيدته العنصرية واستبداله (المادة الثالثة). أما اسلوب عملنا فقد حددناه على الوجه التالي: «إغاثة جميع ضحايا القوانين الاستثنائية والاضطهاد

الاستعماري، وخلق تيار رأي عام يؤيد البيان. وجعل فكرة الأمة فكرة منتشرة في الجزائر أمة ترغب في دستور يحقق جمهورية مستقلة اتحادية بدلاً من جمهورية افرنسية، وخلق مبدأ التضامن الجزائري، بين جميع سكان الجزائر سواء أكانوا يهوداً أو مستوطنين أو عرباً مسلمين. وخلق الشعور بالمساواة والرغبة في الحياة المشتركة. هذه الرغبة التي هي ـ العنصر المنشىء للأمة ـ (المادة ٤).(*).

أقام فرحات عباس مقر «**حركة أصدقاء البيان والحرية**» في (٦-ساحة الكاردينال لافيجري - ساحة الشهداء حالياً) في مدينة الجزائر. ولم تمض فترة طويلة حتى وصل إلى مقر الحركة أكثر من نصف مليون طلب انتساب. وأصدر «فرحات عباس» صحيفة ناطقة باسم الحركة حملت اسم (المساواة). وعلى صعيد السلطة، وبنتيجة ضغط المستوطنين، تم إبدال الجنرال «كاترو» في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) **١٩٤٤**. وحل محله في منصب الحاكم العام للجزائر السيد «**ايفيز** شاتينيو» وهو دبلوماسي محترف يعرف مشكلات الاسلام والعالم العربي معرفة واسعة، وكان من الأحرار المتبصرين بالأمور.

غير أن المستوطنين لم يعجبهم أيضاً تعيين هذا الحاكم العام الجديد. فأظهروا له العداء، كما أظهروا خصومتهم لقرارات ٧ - آذار - مارس - **١٩٤٤** (التي كان قد أعلنها

(*) ليل الاستعمار - فرحات عباس - ترجمة وليم خوري ص ١٩٥-١٩٩.

ديغول على أنها قرارات إصلاحية ورفضها الجزائريون). وكانوا إلى ذلك أعداء طبيعيين لحركة (أصدقاء البيان والحرية). ولم يكونوا يكتمون تصميمهم على إحباط هذه الاتجاهات بالجملة. وأثناء ذلك، كانت الحركة تمضي في سبيلها بنجاح، وكانت مجلة «المساواة» الاسبوعية التي انتظم صدورها منذ أيلول - سبتمبر - ١٩٤٤، تحقق نجاحاً كبيراً في نشر أفكار الحركة. غير أن وحدة الجماعة التي ضمت للمرة الثانية، المثقفين والعمال والعلماء والمعتدلين، لم تعمر طويلاً. ففي المؤتمر العام الأول الذي عقدته في آذار - مارس - ١٩٤٥، وقع خلاف بين مؤيدي كل من مصالي الحاج وفرحات عباس. فقد رغب أعضاء «حزب الشعب» الذين انضموا مؤخراً إلى الحركة في أن يحيوا الزعيم «مصالي» على أنه «الزعيم الأوحد للشعب الجزائري» وأيدوا فكرة إنشاء برلمان وحكومة جزائرية. أما فرحات عباس وغيره من المعتدلين، فقد أيدوا بقوة فكرة «قيام جمهورية جزائرية - مستقلة ذاتياً ومتحدة فيديرالياً مع فرنسا» وهي الفكرة الأساسية التي قامت عليها الجماعة. ولكن جماعة حزب الشعب انتصروا في هذه المعركة العقائدية بأغلبية كبيرة، ففرضوا تعبيرهم على المحتوى الأكثر تطرفاً في برنامج الجماعة. ورافق هذا التحول تصعيد في التوتر، بدأ مع بداية عام ١٩٤٥. وفي تلك الفترة، عقد الممثلون العرب مؤتمرهم في مصر الجديدة - القاهرة - لبحث تأسيس الجامعة العربية، في آذار - مارس - ١٩٤٥. وانعكس ذلك على صفحة الجزائر، فقد أثار هذا الحدث حماسة المجاهدين من جهة، كما حفز الادارة الافرنسية الاستعمارية

لزيادة ضغوطها لقمع الظواهر التحررية. وتصفيتها مرة واحدة وإلى الأبد - على حد زعمها - وكان الانفجار الكبير، المعروف باسم «مذبحة ٨ - أيار - مايو - ١٩٤٥ (والتي سيتم التعرض لها فيما بعد - في هذا الكتاب)» ورافق هذه المذبحة أعمال قمع رهيبة، وتم اعتقال عباس فرحات ومصالي الحاج وعدد كبير من الزعماء والمجاهدين والمناضلين، وألقي بهم في السجون والمعتقلات.

عندما كانت الجزائر المجاهدة تضمد جراحها النازفة، قامت فرنسا بإجراء أول انتخابات في أعقاب الحرب العالمية الثانية - وذلك في تشرين الأول - أكتوبر - ١٩٤٥. لتكون هذه الانتخابات - على حد زعم فرنسا - حلقة الاتصال الأولى بين فرنسا والجزائر. وقد طبقت إصلاحات عام ١٩٤٤ (إصلاحات ديغول) لأول مرة في هذه الانتخابات التي جرت للجمعية التأسيسية، لوضع الدستور الافرنسي. وأدت النداءات التي وجهها الوطنيون إلى الامتناع عن الاقتراع في دوائر انتخابات الدرجتين، بنسبة خمسين في المائة في مقاطعتي الجزائر وقسنطينة، وخمسة وثلاثين في المائة في وهران. وأحرز اتحاد المنتخبين المسلمين الذي يتزعمه الدكتور «بن جلول» سبعة مقاعد من مجموع ثلاثة عشر مقعداً مخصصة لدوائر انتخاب الدرجتين ورفضت الجمعية التأسيسية الاقتراحات الاندماجية التي قدمها «بن جلول». وتركزت دراستها لموضوع الجزائر، في قضية العفو العام عن جميع أولئك الذين اشتركوا - أو بالأحرى اتهموا

بالاشتراك - في ثورة ١٩٤٥. واقترعت على هذا العفو، وأطلق سراح معظم المعتقلين.

قام فرحات عباس، بعد إطلاق سراحه بتأسيس (الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري) في مدينة سطيف. ولم تكن المنظمة الجديدة، بخلاف جماعة أصدقاء البيان والحرية، تعتمد على قاعدة جماهيرية واسعة النطاق، ولكنها كانت تستهدف حمل لواء البرنامج الأصلي الذي تبناه البيان. وقد وجه «عباس فرحات» نداءه المشهور «إلى الشبيبة الجزائرية الاسلامية والافرنسية» في اليوم الأول من أيار - مايو - ١٩٤٦. ولم يكن هذا النداء مجرد تعبير عن وجهات نظر - عباس فرحات - المعتدلة فحسب، بل كان تعبيراً عن الأثر العميق الذي تركته مذبحة ١٩٤٥ في نفسه وتفكيره. وقد بدأ - فرحات - بعرض حياته الطويلة في التعاون مع فرنسا، حتى يصل إلى القول: «وإذا قدر لفكرة واحدة، أكثر من غيرها أن تسيطر على حياتي العامة، فهي فكرة العمل والتبشير بتحقيق التعاون الافرنسي - الجزائري، وتأييد الثقافة والتقنية الحديثة التي تشكل عنصر القوة التي لا مناص منها فيه... وبقي الاتحاد في الديموقراطية، والأخوة في العدالة، هما عقيدتي السياسة، وسيظلان كذلك دائمًا وأبداً». ومضى إلى انتقاد الادارة الافرنسية لمواقفها الرجعية ضد كل محاولات الجزائريين لتحقيق هذا التعاون المنشود. وأدانها بجريمة التحريض على أحداث سنة ١٩٤٥، واستفزازاتها، وتنظيمها للمتطوعين وارتكاب الفظائع والمذابح وأعمال البطش والارهاب ضد المسلمين الجزائريين، حتى وصل إلى القول: «لا

نريد اندماجاً، ولا نريد سيداً جديداً، ولا انفصالاً. وإنما نريد شعباً فتياً يتولى تثقيف نفسه اجتماعياً وديموقراطياً، محققاً لها التطور الصناعي والعلمي، وحاملاً رسالة بعثها فكرياً وخلقياً، مرتبطاً بشعب عظيم متحرر الفكر. نريد ديموقراطية فتية في نشأتها، توجهها الديموقراطية الافرنسية العظيمة. هذه هي الصورة بل التعبير الواضح لحركتنا الرامية لبعث الجزائر». ووصل إلى النقطة الدقيقة والحساسة من ندائه فقال: «وإذا لم تتمكن الشبيبة الجزائرية من التغلب على الفروق العنصرية القائمة بينها، فإنها ستنتهي إلى انتحار أخلاقي بصورة حتمية، مثقلة بالنتائج... وإذا لم يتخلص الأوروبيون في الجزائر من مركبات الاستعمارية والاستعلاء التي تلازم الفاتح المحتل، فلن يكون بالمستطاع إقامة أي مجتمع جزائري».

قرر حزب «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري» الاشتراك في انتخابات الجمعية التأسيسية الافرنسية الثانية. وكان نجاح حملته الانتخابية رائعاً حيث حصل على أحد عشر مقعداً من مجموع ثلاثة عشر مقعداً - لدوائر انتخابات الدرجتين - مع واحد وسبعين بالمائة من مجموع الأصوات. وقد مثلت هذه الانتخابات قمة قوة الحزب في الجزائر. بينما ظهر بوضوح أن الجماعات المطالبة بالاندماج، قد فقدت التأييد الذي كان لها في وسط جماهير الناخبين. وسرعان ما أوضح فرحات عباس موقفه بعد الانتخابات من المستقبل الفوري للجزائر. فقد واصل حملته على الدمج، وأكد وضوح الشخصية الجزائرية وأصالتها. ولم يؤيد قيام دولة إسلامية في الجزائر. وإنما أيد قيام دولة جزائرية

يكون فيها الجزائريون والأوروبيون متساوين في الحقوق. وتقوم على أساس اقتراع عام على درجة واحدة للجميع. وقدم فرحات في شهر آب - أغسطس - عام ١٩٤٦، مشروع دستور للجزائر، إلى الجمعية التأسيسية لكن الجمعية رفضت البحث فيه.

جرت انتخابات المجالس البلدية في الجزائر مع بداية سنة ١٩٤٨. وعملت الادارة الافرنسية على تزوير هذه الانتخابات بشكل استفزازي ومثير، وكان رد فعل المسلمين الجزائريين عنيفاً، وعندما عقدت الجلسة الافتتاحية «للجمعية الجزائرية» في نيسان - أبريل - ١٩٤٨. وقف «عباس فرحات» ليرفع احتجاجه ضد إجراءات الاقتراع، وضد اعتقال عدد من المرشحين - من بينهم عدد من مرشحي حركة انتصار الحريات الديموقراطية - كتلة مصالي الحاج -. لكن الأغلبية التي تمثل المستوطنين الافرنسيين تصدت لمجابهته ولم تسمح له بمتابعة احتجاجه، فما كان من «عباس فرحات» إلا أن انسحب من الجلسة، وانسحب معه ممثلو «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري». واتخذت «الجمعية الجزائرية» على أثر ذلك قراراً بطرد «عباس فرحات» وأخوانه من عضوية الجمعية. وهكذا عادت خيبة الأمل من جديد لتحبط تفاؤل الكثيرين من مثقفي الاتحاد الديموقراطي. وكتب السيد «أحمد بومنجل» وهو من زعماء الاتحاد الديموقراطي -(ومن الذين أصبحوا بعدئذ من زعماء الثورة البارزين) - كتب ما يلي:

لقد خدعتنا الجمهورية الافرنسية، واستغفلتنا، وسيستفيق

الانسان ذات يوم، ليجد أن الجزائر قد انتقلت إلى صف الكتلة الشرقية، وسينتهز البعض آنذاك الفرصة للحديث عن التنكر للجميل، والبكاء على الآمال الضائعة، دون أن يكلف نفسه عناء التفكير في الأسباب والعوامل التي أدت إلى مثل هذا السلوك. وقد يحاولون آنذاك إيجاد الأعذار لتخفيف الذنوب والندامة، ولكن بعد فوات الأوان. ولا ريب في أن الخيار الذي يمليه اليأس، لا يمكن إلا أن يكون خياراً ضد فرنسا».

وأدى عجز الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري عن الاسهام في حياة الجزائر السياسية، عن طريق تمثيله في الجمعية الجزائرية، وعجزه عن إرضاء مطالب أعضائه العادلة، إلى خلق أزمة خطيرة وحادة في صفوف الحزب. ولما كان هؤلاء يؤيدون الثورة عن طريق التطور، فلم يكن من السهل عليهم أن يبحثوا عن سبل أخرى غير المنظمات البرلمانية التي وقفوا أنفسهم عليها.

انضم الاتحاد الديموقراطي في عام **١٩٥١**، إلى أحزاب المعارضة الأخرى في محاولة للحصول على القوة عن طريق الاتحاد. واشترك الاتحاد مع حركة انتصار الحريات الديموقراطية - مصالي الحاج - وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين - الشيخ الابراهيمي - والحزب الشيوعي الجزائري. وشكل الجميع «الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها». وحددت هذه الجبهة أهدافها بالتالي: «١ - إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية التي جرت في حزيران - يونيو - **١٩٥١**.

٢ - احترام حرية الاقتراع في انتخابات الدرجتين. ٣ - احترام الحريات الأساسية للعقيدة والفكر والصحافة والاجتماع. ٤ - مقاومة الاضطهاد بكل أشكاله وصوره. ٥ - إطلاق سراح جميع المعتقلين والسجناء السياسيين. ٦ - الفصل بين العقيدة الاسلامية والدولة». ولم يقدر للجبهة أن تعمر طويلاً، شأنها في ذلك شأن جميع الجهود التي بذلت بعد الحرب لتحقيق الوحدة بين الوطنيين الجزائريين، كما أن «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري» لم يتمكن من كسب القوة التي أمل فيها أن يضمن إجراء انتخابات أكثر نزاهة. وعلى الرغم من اتحاد هذه الأحزاب في معارضتها للاستعمار، فقد كانت لها وجهات نظر متباينة في البرنامج الايجابي للجزائر. وعندما سئل الاتحاد الديموقراطي في العام ١٩٤٩ عن موقفه من الحزب الشيوعي الجزائري قال: «إنه رغم علاقته الوثقى بالحزب الشيوعي الافرنسي، فهو الحزب الوحيد الذي حاول على الصعيد الفكري والصعيدين السياسي والاجتماعي، أن يفهم وأن يفسر إرادة الشعب الجزائري في التحرر. وهو، على هذا الأساس، يعتبر في هذه البلاد من المدافعين عن الحريات التي لم تسمح السلطات الاستعمارية حتى الآن بوجودها، ومع ذلك فقد لاحظ الاتحاد الديموقراطي، وجود خلاف في الرأي على السياسة الخارجية، إذ بينما يتبع الحزب الشيوعي السياسات الشيوعية، فإن الاتحاد الديموقراطي يتبنى سياسة الحياد بين الكتلتين. ويختلف الاتحاد عن الشيوعيين أيضاً في طريقة التشكيل الحزبي، وفي المسألة العقائدية المتعلقة بالصراع الطبقي. وأشار الاتحاد أيضاً إلى أن

الحزب الشيوعي لم يفلح في إقناع أعضائه الأوروبيين بأن الجزائريين في حاجة إلى تحرر وطني. ومع ذلك فقد وجد الاتحاد الديموقراطي ان التعاون مع الشيوعيين على الصعيد البرلماني - أمر معقول للغاية». وشعر الاتحاد بالنسبة إلى «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» باشتراك وثيق معها في المصالح، للدفاع الدائم عن الدين الاسلامي والدفاع عن اللغة العربية. واتفق الاتحاد الديموقراطي مع حركة انتصار الحريات الديموقراطية في ضرورة قيام اتحاد مع أقطار المغرب العربي الاسلامي - شمال أفريقيا -. ولكنه اختلف معها في أفضل الوسائل لتحقيق الاستقلال. فقد بقي فرحات عباس مؤمناً بالتطور. بينما بقي «مصالي الحاج» في أعماقه إنساناً ثورياً.

أخذت قوة الاتحاد الديموقراطي وحماسه للعمل يضعفان في بداية الحقبة المبتدئة بعام ١٩٥٠. وفي المؤتمر الذي عقده منفذو الحزب في مدينة الجزائر في نيسان - أبريل - عام ١٩٥٤، أشار فرحات عباس إلى النضال العملي الذي تقوم به تونس والمغرب ضد فرنسا، بينما تبدو الجزائر هادئة تماماً ومضى إلى القول: «**وفي الحقيقة فإن النقمة الشعبية عميقة الجذور، ولا ريب في أن الأيام المقبلة مشحونة بالنذر القاتمة... ولقد أصبح القانون الأساسي لعام ١٩٤٧ وثيقة ميتة، وهناك شبه إجماع بين الممثلين الجزائريين، في جميع المجالس المنتخبة، بأن سلطات الادارة الافرنسية في الجزائر تتصرف وفق أهوائها. وإذا استمرت باريس في رفضها القيام بدور الحكم، وإذا استمرت في دعمها لأعمال خرق القانون. أفلا يكون من حق الجزائريين**

المشروع، أن يلجؤوا إلى آخر سبيل مشروع، وهو القوة؟» وتحدث عن دور الاتحاد الديموقراطي فقال: «يجب أن نقسم بأن سياسة التعمية الهائلة، والتدليس الشرير، التي غدت الجزائر ضحية لها منذ إعلان الاصلاحات، قد جعلتنا نختفي تقريباً. ولا ريب في أن من الواضح أن حزبا تقدمياً أقام أعماله على أساس احترام الشرعية، ويخاصم الأخرين ويخالفهم تأييداً لفكرته - بالثورة عن طريق القانون - لا يستطيع أن يحرز أي تقدم، عندما تجعل السلطات العامة من مؤسسة الدولة مظهراً استبدادياً. هذه هي مأساة حزبنا كلها». ومع ذلك فقد مضى عباس فرحات إلى القول: «إن مفهومنا للجزائر هو أن ترتفع إلى مرتبة الجمهورية التي تعمل على أن تكون نقطة التقاء بين الاسلام والمسيحية، مع ما ينطوي عليه هذا المفهوم من عزيمة مشتركة صادقة على العيش معاً، والتعايش، كأساس ممكن تحقيقه ولا مناص منه». وخطط عباس فرحات لحزبه مهامه المستمرة في أن تكون إرضاء المطالب الفورية والدفاع عن المصالح الحيوية للطبقات العاملة، والاتصال بجماهير المسلمين وجموع الفلاحين ممن يصعب الوصول إليهم والاتصال بهم. وإقناع الأوروبيين ولا سيما الفقراء من المستوطنين بانهم أيضا من ضحايا الاقطاعيين الأثرياء.

وجه «فرحات عباس» وحزبه، في الأشهر القليلة التي سبقت الثورة، عدة نداءات إلى فرنسا لإنهاء حكمها الاستبدادي في الجزائر، وإقامة تعاون أخوي، والدعوة إلى مؤتمر في باريس، يمكن للمصالح المتضاربة في الجزائر أن تلتقي فيه. وأن تواجه

بعضها بعضاً في جو سلمي. ولكن جميع هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح. وفي تشرين الأول - أكتوبر - أشار عباس فرحات إلى أنه قد يمضي وقت طويل قبل أن تظهر إلى الوجود الجمهورية الجزائرية. وأنه يتحتم على «الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري» في غضون ذلك أن يعيد تنظيم جهازه. وأظهرت مالية الحزب عجزاً كبيراً. وعلى الرغم من جميع هذه النذر والاشارات، فقد بوغت الاتحاد الديموقراطي بنشوب الثورة عندما أعلنت فعلاً.

يظهر العرض السابق أن السبب الأساسي لأزمة «معتدلي الاتحاد الديموقراطي» يعود إلى سياسة فرنسا الاستعمارية. فإن عناد فرنسا وإهمالها أدى إلى استقطاب الرأي العام الجزائري في اتجاه واحد هو اتجاه الثورة. ولم يعد هناك مجال للوطنية المعتدلة للبقاء بين جماعة (الأمعات) من مؤيدي فرنسا، وكان حتماً لهذه الوطنية أن ترفد الثورة بقوتها، وبما توافر لها من عناصر مثقفة، كان لها دورها الكبير في توسيع القاعدة الاجتماعية للثورة.

* * *

هنا، ومع انفجار الثورة، تجدر الاشارة إلى موقفي زعيمي التكتلين الرئيسين - موقف مصالي الحاج - زعيم حزب الشعب الجزائري (ثم حركة انتصار الحرية والديموقراطية) وموقف عباس فرحات، زعيم حركة (الاتحاد الديموقراطي لأنصار البيان الجزائري). وفقاً لما تتضمنه مقولتين فقط - في

جملة مقولاتها التي ظهرت في أعقاب انفجار ثورة الفاتح من نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٥٤.

* * *

وصل فرحات عباس إلى القاهرة، وعقد مؤتمراً صحافياً يوم ١٩٥٦/٤/٢٥. أعلن فيه انضمام (حزب البيان) إلى (جبهة التحرير الوطني) وتضمن بيان فرحات عباس ما يلي:

«إن النظام الاستعماري هو عدونا الأساسي، والحرب لم تكن ضرورة طبيعية وحتمية، وإنما هي حرب فرضت علينا فرضاً، ولهذا فنحن نتوجه بأنظارنا إلى الضمير الحر العالمي، وإلى الضمير الحر الافرنسي بصورة خاصة. إن المفاوضة والتفاهم ليسا ممكنين بين الشعبين الجزائري والافرنسي، بل هما مما يتمناه كل الأحرار في العالم. على أن هذا لا يمكن أن يكون محلاً للخداع والتضليل بعد الآن. إن المفاوضات مع فرنسا لا يمكن أن تتم إلا مع ممثلي - جبهة التحرير الوطني - أي مع المجاهدين الذين يخوضون معاركهم الآن في سبيل حرية الشعب. إن من الضروري إعادة السلام إلى الجزائر، لأن حياة وطني جزائري واحد، وحياة شاب فرنسي مقاتل، هما أثمن وأشرف من جميع امتيازات المستعمرين. إن كيان الجزائر مرتبط كل الارتباط بكيان تونس والمغرب - مراكش - ومن المعروف أن الغزو الافرنسي للجزائر واحتلالها هو الذي استتبع الغزو الافرنسي لتونس والمغرب. فكيف يتصور بعد هذا تحرر الجارتين تحرراً حقيقياً مع بقاء الاستعمار الافرنسي في الجزائر؟. فإما أن يتم تحرر الجزائر،

وإما أن يكون استقلال تونس والمغرب مجرد سراب خادع. **لقد توحدت الآن جميع القوى الوطنية المجاهدة ضد الاستعمار في سائر بلاد المغرب العربي - الاسلامي - تحت قيادة موحدة. ولن تكون هناك بعد اليوم خلافات حزبية أو سياسية في الجزائر. لقد صهرت بوتقة الجهاد الجميع ضد العدو المشترك. إنني أعلن هنا، وعلى رؤوس الأشهاد، بأنه لن يكون بعد اليوم سلام أو هدنة أو هوادة، بل شدة متزايدة في الكفاح الذي فرضه الاستعمار علينا فرضاً، إلى أن يتم القضاء على جميع المستعمرين الافرنسيين، والمرتزقة العاملة في خدمتهم، وتتحرر الجزائر تحرراً تاماً».**

ووجه الزعيم «فرحات عباس» **حديثه** إلى الأقلية الأوروبية، فكان فيما قاله: «إذا انسحبت الجيوش الاستعمارية وأذنابها من الوطن الجزائري على الفور، وإذا لم تقم فرنسا بأي أعمال انتقامية ووحشية ضد المواطنين الجزائريين الأبرياء، فإن جيش التحرير الوطني سيضمن لكم الحرية والأمن والمساواة. أما إذا أصرت الجيوش الافرنسية على متابعة أعمالها الوحشية الفظيعة التي ترتكبها الان، فإن فرنسا وحدها ستكون مسؤولة عن رد الفعل العنيف، وعن نتائجه الخطيرة، بل إن الوطنيين من أبناء المغرب سينقلون الحرب إلى أراضي فرنسا ذاتها». ثم حمل الزعيم «فرحات عباس» على مجموع الدول الاستعمارية التي تدعم الاستعمار الافرنسي بالمال والسلاح قائلاً: «لقد لاحظت الشعوب العربية في شمال أفريقيا، بأن هذه الدول الاستعمارية التي تنادي بالانتصار للحريات الفردية، وحقوق الانسان هي ذاتها التي تساعد الاستعمار الافرنسي للقضاء على هذه

الحـريات. تلك المبـادىء التي تجاهـد الشعوب العـربية الآن لبلوغها. ومن المؤكد أن-هذه الحرب القذرة، كانت قد انتهت، لو لم تبادر منظمة «حلف شمال الأطلسي» إلى إنقاذ الاستعمار الافرنسي من موته المحتوم. إننا نطلب بإسم العدالة الالهية إلى جميـع أحرار العـالم أن يمتحنوا ضمـائرهم في هـذه اللحظات الرهيبة. إننا نعلم أننا لسنا وحيدين في هذه المعركة الضارية. إن لنا أصدقاءنا وأنصارنا في كل الشعوب الأخرى. ونحن نتقدم بهذه المناسبة بأجزل الشكر وأعظم الامتنان للشعوب العربيـة والآسيوية التي أيدتنا بكل قواها. ولسائر الشعوب الأخرى التي أبدت عطفها على قضيتنا الكبرى. وأن الشعب الجزائري لن ينسى هؤلاء الأصدقاء أبداً». وختم الزعيم فرحات عبـاس تصريحه بقوله: «نحن مستعدون للتفاوض مع فرنسا بإسم جبهة التحرير الوطني، ولكننا نضع لذلك شرطـاً واحداً: إعتـراف فرنسا بكيان الشعب الجزائري وقوميته»(*).

* * *

وكان زعيم الحركة الوطنية الجزائرية «مصالي الحاج» قد صرح قبل ذلك بفترة قصيرة - بما يلي: «... **لن تنتهي الحرب** الاستعمارية في الجزائر، **حتى لو جندت فرنسا لها نصف مليون** جندي. **وإذا لم يحصل الشعب الجزائري على استقلاله، فإن** تأزم الوضع سيهدد السلام العالمي كله. **لقد أصبحت مشكلة**

(*) صحيفة لوموند - الافرنسية - ١٩٥٦/٤/٢٦.

الجزائر ذات أهمية خاصة بالنسبة لحلف شمال الأطلسي. وربما وقف العالم كله ضد الحلف المذكور بسبب السياسة الافرنسية. لقد اندلعت الثورة الجزائرية من داخل الجزائر، وبفضل حيوية الشعب الجزائري ذاته، ولكنها تستطيع بدهياً الاعتماد على ما تتلقاه من دعم الشعب المصري وشعوب المغرب خاصة. ولكن، حتى لو استطاع الافرنسيون إغلاق جميع الحدود الجزائرية، وهذا أمر من المحال تحقيقه، فإن الثورة الجزائرية لن تتوقف وستستمر. كما أن فكرة إدخال الجزائر في «كومنولث افرنسي» على غرار النظام البريطاني - هي فكرة قد تجاوزها الزمن، ولن تعود عجلة الزمن إلى الوراء. **إن شمال افريقيا هو داخل النطاق الاستراتيجي لمنظمة حلف شمال الأطلسي - شئنا ذلك أم أبينا - ولا يمكن أن نتعاون مع فرنسا ودول الغرب إلا بقدر مساعدتها لنا من أجل الوصول إلى الاستقلال (؟) وأن انتصار الحرية في افريقيا الشمالية سوف يضع حداً لكل الخلافات القائمة بين فرنسا والعالم العربي. ويجب أن لا تنسوا إمكانية تحويل افريقيا الشمالية إلى ساحة إنشاء وبناء للعالم الغربي. لأنها سوق هائلة تضم أكثر من ثلاثين مليون عربي»**(*).

* * *

ومقارنة مضمون التصريحين - أو البيانين - تُغني عن كل تعليق.

(*) صحيفة لوموند ١٦/٣/١٩٥٦.

٥ ـ الحزب الشيوعي

تأسس الحزب الشيوعي في الجزائر سنة ١٩٢٤، وظل خمسة عشر عاماً، فرعاً من الحزب الشيوعي الافرنسي. وحصلت المجموعة الجزائرية في مؤتمر «فيليربان» الذي عقد في فرنسا سنة ١٩٣٥ على الحق في إنشاء حزب مستقل، وإن ظل هذا الحزب يتلقى تعليماته من موسكو عن طريق فرنسا. ومر الحزب الشيوعي في الجزائر منذ العام ١٩٣٥ بسلسلة من التقلبات والتناقضات. ففي العام ١٩٣٦، أيد الحزب المطالب التي تضمنها الميثاق الذي وضعه «المؤتمر الاسلامي» في الوقت الذي كان يؤيد فيه مقترحات «بلوم - فيوليت». وأعلن «موريس توريز» الزعيم الشيوعي الافرنسي في المؤتمر السابع للحزب الافرنسي في سنة ١٩٣٨: **«أنه لن تكون هناك سلامة لشعوب المستعمرات خارج نطاق الاتحاد الذي لا مناص منه مع الديموقراطية الافرنسية»**. وبالطبع كان هذا الموقف انعكاساً لاشتراك الحزب في حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا ـ والتي ضمت كل الأحزاب اليسارية ـ وانتقل الحزب الشيوعي الجزائري من موقفه المناوىء للنازية في عام ١٩٣٨، مع غيره من الأحزاب الشيوعية في العالم، إلى موقف المناوىء للاستعمار

بعد توقيع المعاهدة (الميثاق النازي - السوفيتي) في عام ١٩٣٩. وصدر قرار في العام نفسه باعتبار الحزب غير مشروع، في نفس الوقت الذي صدر الأمر بحل «حزب الشعب الجزائري» الذي يتزعمه «مصالي الحاج» وشرع يعمل سراً.

عندما انتهت الحرب، وأطلق سراح الشيوعيين المسجونين او الموجودين في معسكرات الاعتقال في الجزائر (في العام١٩٤٤). واستأنفوا حياتهم السياسية من جديد. احتل الشيوعيون في فرنسا مكانتهم في ذروة القوة التي وصلوا إليها بعد الحرب بفضل الدور الذي مارسوه في حركة المقاومة السرية ضد الاحتلال النازي. وكان الحزب الشيوعي الافرنسي لا يزال مركزاً جهده الأساسي ضد النازية. وفي حزيران - يونيو - عام ١٩٤٤. كتب «أتيين فاجون» العضو الأوروبي في المكتب السياسي للحزب الجزائري في مجلة (الحرية) لسان حال الحزب، ما يلي: «يحاول هتلر، رغبة منه في إضعاف العون الذي يبذل للشعب الافرنسي في هذه الدقيقة الحرجة، تقوية حملته الاذاعية العربية، داعياً الجزائريين، وأهل شمال افريقيا إلى الانفصال عن فرنسا. ويقوم عملاء العدو هنا بالدعوة إلى الانفصالية في نفس الوقت الذي يثيرون فيه الأحقاد بين الأوروبيين والجزائريين. وليست جماهير الشعب هي التي تنادي الآن بالاستقلال الذاتي بل جماعات الاقطاعيين وكبار أصحاب الملايين ورجال الاحتكارات»(*).

(*) الجزائر الثائرة - غيلسبي - ترجمة حماد ص ٨٤ - ٨٦.

الأمر الواضح هو أن الحزب الشيوعي قد انساق لتيار الانتهازية السياسية، مما جعل مواقفه العملية مناقضة لمنطلقاته النظرية (الماركسية - اللينينية). ولتغطية هذا التناقض، تبنت الشيوعية الافرنسية النظرية الاستعمارية ذاتها. فقالت بأن «الهدف النهائي للحزب الشيوعي هو تصفية الاستعمار» غير أن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب قبل كل شيء الارتفاع بمستوى الشعوب حتى تصبح قادرة على حكم نفسها (نظرية الانتداب والوصاية) وحتى تصل إلى المستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي يضمن لها الاستقلال الحقيقي. وهذا ما عبرت عنه المقولة التالية:

«إذا كان من حق الشعوب الانفصال عن فرنسا، فإن انفصال الشعوب الخاضعة للاستعمار في اللحظة الراهنة سيكون ضد مصلحة هذه الشعوب ذاتها. ويرغب الشيوعيون الافرنسيون بصدق وإخلاص التعبير عن وجهة نظرهم الواقعية وهي أن شعوب افريقيا الشمالية، لم تندمج بالأمة الافرنسية على النحو الذي حددناه واردناه، غير أن من مصلحة هذه الشعوب ربط مصيرها بمصير فرنسا الجديدة»(*). ومن هذا المنطلق ذاته - منطلق الانتهازية السياسية - وقف الاشتراكيون والشيوعيون لدعم مركزية الاتحاد الافرنسي مع دول ما كانوا يطلقون عليها اسم «دول ما وراء البحار» وعارضوا بقدة انفصال

(*) Cours de l'école élémentaire du (Partie communiste Français (P.C.F.: La nation française, Paris 1944. P.12

الشعوب. واشترطوا لمثل هذا الانفصال، وفقاً لما تضمنه دستور ١٩٤٦، حدوث تفاهم واتفاق بين الحكومة الافرنسية، في المستقبل، وبين الزعماء المؤهلين في البلاد الخاضعة للاستعمار. وهو ما نصت عليه الفقرة التالية: «**لا يمكن للروابط التي تربط بين فرنسا من جهة وبين كل بلد من بلدان ما وراء البحار من جهة ثانية، إلا أن تكون نتيجة اتفاق تعاقدي ومفاوضات بين الحكومة الافرنسية وبين ممثلي هذه البلاد المؤهلين. ويجب أن يكون هذه الاتفاق الذي نعنيه، اتفاقاً شاملاً لكل الروابط السياسية منها والاقتصادية والثقافية الخ... وستجد شعوب ما وراء البحار نفسها مرغمة منذ تحررها على مجابهة المشكلات الكثيرة وأبرزها المشكلات الثقافية والاقتصادية مما يدفعها إلى التفاهم مع فرنسا لتسوية هذه الأمور وتبادل المساعدات ضمن أفضل الشروط؟**»(*).

دبرت فرنسا بعد ذلك مذبحة (٨أيار - مايو - ١٩٤٥) في قسنطينة وقالما وسطيف، وكان وزير الطيران الشيوعي هو الذي أصدر أوامره لقصف المدن الجزائرية وتدميرها وإبادة العرب المسلمين فيها. وبينما كان الشعب الجزائري يعاني أقسى ظروف المحنة المأساة، وجهت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الافرنسي، نداء في يوم ١٢ - أيار - مايو (أي بعد أربعة أيام فقط من المذبحة) إلى شمال افريقيا اتهمت فيه زعماء الجزائر «مصالي الحاج زعيم حزب الشعب - وسواه من الزعماء

(*) La décolonisation (1919 – 1963) H.Grimal.P. 147.

الآخرين» بتهمة الجاسوسية، وحملتهم مسؤولية المذبحة. وبعد مضي شهر تقريباً، ذكر مندوبو الحزب الجزائري في المؤتمر العاشر للحزب الافرنسي: «بأن الذين يطالبون باستقلال الجزائر هم عن وعي أو غير وعي، عملاء لدولة استعمارية أخرى... ويعمل الحزب الشيوعي الجزائري، ويناضل، لتقوية أواصر الوحدة بين الشعب الجزائري والشعب الافرنسي». وأعلن رئيس قسم المستعمرات في الحزب الافرنسي - في المؤتمر نفسه -: «بأن من الواجب استنكار مؤامرة أولئك الراغبين في فصل الجزائر، وفي خلق الشكوك بينهم وبين فرنسا الديموقراطية؟». وكان الحزب الشيوعي الجزائري يؤيد بقاء السيادة الافرنسية وسياسة الدمج في الفترة الأولى التي سبقت الحرب العالمية الثانية، لأن الشيوعية السوفيتية كانت تأمل في أن تكسب فرنسا وجميع مستعمراتها في العالم كتلة واحدة عن طريق ثورة بروليتارية شاملة. ولكن انتخابات عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ في الجزائر أثبتت أن جماهير الشعب الجزائري لا تؤيد أولئك الذين يطالبون بدمج بلادهم مع فرنسا. وإذا كان الشيوعيون يرغبون في أن يكسبوا لهم مكانة بين الجزائريين، فإن عليهم أن يجروا تعديلاً في موقفهم هذا. وقد حدث هذا التعديل فعلاً في أواخر عام ١٩٤٦. غير أن هذا التعديل لم يكن جذرياً وإنما كان إصلاحياً، وتأكد ذلك بنتيجة حوادث القمع التي تعرض لها الوطنيون الجزائريون، حيث عاد الحزب الشيوعي ليعلن في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧ موقفه الذي عبر عنه بالتالي: «يعارض الحزب الشيوعي فكرة استقلال الجزائر، وهي الفكرة التي

يطرحها حزب الشعب الجزائري - مصالي - ويدافع عنها. ولا يمكن للشيوعيين دعم تجزئة الحركة الجزائرية الوطنية التي تطالب بالاستقلال الفوري للجزائر، ذلك لأن مثل هذه المطالب لا تخدم المصالح الجزائرية، ولا تخدم المصالح الافرنسية»(*). وأمام هذه المواقف، اتضحت للوطنيين الجزائريين أوهام المخطط الشيوعي، والطبيعة الانتهازية التي سار عليها الحزب في سياسته. وتأكد لهم بأن الأحزاب الاوروبية قد انتهجت في الحملات الانتخابية التي جرت بعد الحرب العالمية الثانية في الجزائر، سياسة مماثلة تماماً لتلك التي كان يتم انتهاجها في فرنسا. ولو أن الحزبين الاشتراكي والشيوعي قد حاولا في دوائر انتخاب الدرجتين منافسة الأحزاب الجزائرية الوطنية للحصول على أصوات الجزائريين، الأمر الذي دفعهما إلى طلاء برامجهما بطلاء خادع، لم تلبث مسيرة الأحداث أن كشفته وعملت على تعريته. لكن ذلك لا يمنع من القول أن الاشتراكيين قد حققوا بعض المكاسب في الفترة من سنة ١٩٤٥، إلى سنة ١٩٤٨ بفضل دعم الحاكم العام الاشتراكي لهم، الأمر الذي ساعدهم على اجتذاب بعض المثقفين ممن كانوا يأملون في إقامة تعاون مثمر بين فرنسا والجزائر. ومقابل ذلك، فقد حقق الحزب الشيوعي نجاحاً أكبر في التوغل بين طبقات العمال، حيث أمكن له ضم عدد لا بأس به إلى صفوفه. غير أن هذا العدد - في الجزائر - بقي محدوداً ولم يكن له ثقله في التأثير على مسيرة

(*) Cahier du communisme, septembre 1947, P.851.

الأحداث. وعلى هذا لم يكن من الغريب أن يباغت انفجار الثورة (سنة ١٩٥٤) الحزب الشيوعي - قدر مباغتته لكل الأحزاب الافرنسية سواء بسواء. وكان رد فعل الحزب الشيوعي معروفاً. فقد اعتقد هذا الحزب في البداية، أن الثورة ليست أكثر من حركة ضعيفة قام بها بعض قطاع الطرق أو العصاة «الفلاقة». وأعلن الحزب الشيوعي شجبها والوقوف ضدها بقوله: «**إن الحزب لا يوافق على دعم الحركات الفردية والمشبوهة والتي تحاول لعب الدور السيىء في الحركة الاستعمارية**». وعندما تبين له رسوخ قدم الثورة، **وثباتها، وعمق** جذورها، تبنى قضية إجراء مفاوضات مع الجزائريين للخروج من المأزق، وعلى أساس أن تضمن هذه المفاوضات إبقاء الروابط القائمة بين فرنسا والجزائر، ومن هذا المنطلق، ألقى الحزب الشيوعي بثقله في معركة انتخاب فرنسا سنة **١٩٥٦** - لمصلحة «غي موليه». وتضمن بيان الحزب الشيوعي ما يلي: «**إننا نعلن موقفنا إلى جانب إبقاء الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية القائمة بين فرنسا والجزائر. واضعين في اعتبارنا أن هذا الموقف يتوافق مع مصالح الشعب الافرنسي قدر توافقه مع مصالح الشعب الجزائري ومع مصالح القسم الأكبر من الاوروبيين المستوطنين في الجزائر**».

لقد منع الحزب الشيوعي **أعضاءه من الالتحاق** بالثورة أو **الانضمام** إليها ودعمها. لكن **عدداً كبيراً منهم مزق** «هويته الشيوعية» وانضم إلى صفوف الثوار - **بصورة فردية** - وفتحت الثورة (ممثلة بجبهة التحرير وجيش التحرير) المجال الواسع لكل

جزائري من أجل الاسهام ببناء جزائر المستقبل. لكن ذلك لم يمنع قيادة الثورة من الرد على موقف الشيوعيين «الشوفينيين» رداً مناسباً. سواء في بيان مؤتمر الصومام، أو في البيانات والمواقف التالية - وفقاً لما سيرد ذكره في حينه - ورفضت قيادة الثورة الدخول في المساومات التي تحرف الثورة عن أهدافها الأساسية.

«وَقَاتِلُوهُمْ حتى لا تكُون فِتْنةٌ، ويكُونُ الدِّينُ كُلُه لله، فإنْ آنتهُوْا فإن الله بما يعْملوُنَ بَصيْر. وَإنْ تولوْا فاعْلمُوا أن الله مَولاكُمْ نعْمَ المَوْلى وَنِعْمَ النصيْر»

الفصل الثاني

الكفاح الوطني المسلح

١ - نقطة التحول - مذبحة ٨ أيار - مايو - ١٩٤٥.

(أ) من وثائق الحدث التاريخي.

(ب) شهادة الوزير الافرنسي «آلان سافاري».

(ج) (اليوم الرهيب) في ذكريات أحمد توفيق المدني.

(د) للمجزرة تتمة.

(هـ) في ذمة التاريخ.

٢ - العمل السياسي السري.

(أ) (الشرف العسكري) أو (التنظيم الخاص).

(ب) اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

(ج) القادة التاريخيون.

١ - مصطفى بن بولعيد.

٢ - محمد العربي بن مهيدي.

٣ - أحمد بن بللا.

٤ - كريم بلقاسم.

٥ - رمضان عبانه.

١ ـ نقطة التحول
مذبحة ٨ أيار (مايو) ١٩٤٥

أحدثت الحرب العالمية الثانية تغيرات كثيرة في علاقات دول العالم بعضها ببعض، كما حدثت تبدلات كثيرة في موازين القوى، ولم تعد الدول العظمى التي كانت قبل الحرب، هي ذاتها الدول العظمى في عالم ما بعد الحرب، لا سيما عندما تكون إحدى هذه الدول العظمى قد تعرضت للاحتلال والقهر - وأبرز نموذج لها فرنسا ثم بلجيكا. كما لم تعد الشعوب المقهورة في عالم ما قبل الحرب، هي ذاتها عندما انتهت الحرب العالمية الثانية. فقد مست العصا السحرية شعوب العالم الخاضع للاستعمار، فعرفت هذه الشعوب قدراتها وامكاناتها، وكشفت وهم «تفوق الرجل الأبيض - الاوروبي» وعرفت حقيقة القوة الوهمية للاستعمار. وجاء تكوين هيئة الامم المتحدة، وبيان حقوق الانسان والدول وتعهدات امريكا والاتحاد السوفييتي لتحدد معالم عالم جديد في علاقاته يختلف عن ذلك العالم عالم الاستعمار - الذي عاش طوال القرن التاسع عشر، بكل ضراوته ووحشيته، وزاده عنفا ما حققه من مكاسب طوال النصف الأول من القرن العشرين. غير أن الاستعمار الافرنسي - على وجه التحديد - لم يدرك عمق هذه التحولات، ولم يحاول التعرف على أبعادها، فمضى في طريقه محاولاً إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء.

لقد ظنت فرنسا أنها تستطيع بقواتها العسكرية «إعادة فتح البلاد التي كانت خاضعة لاستعمارها» فمضت في الإعداد لاستخدام هذه القوة. وجاء عيد الأول من أيار - مايو - ١٩٤٥ موعداً احتفل فيه العالم كله بانتصار الحلفاء. وحدث في هذا اليوم، أن ارتفعت الأعلام السورية - في الملعب البلدي - بدمشق، وارتفع العلم الجزائري - علم الأمير عبدالقادر - في شوارع الجزائر، وكان سلوك السلطات الافرنسية واحداً في البلدين، فقد دفعت هذه السلطات جنودها المرتزقة لتفريق المتظاهرين. وسقط بعض الشهداء في البلدين، دمشق والجزائر. تلك كانت البداية. ثم بدأت الأحداث بالتطور.

أرسلت فرنسا يوم ٤ أيار - مايو - ١٩٤٥ نجدة إلى قواتها في سوريا ولبنان تضم (٨٠٠) جندي. وفي يوم ١٧ أيار - مايو - وصل الطراد «جان دارك» إلى بيروت يحمل قوة دعم جديدة تضم (٥١٠٠) جندي بكامل أسلحتهم. وخلال ذلك كانت أعمال الاستفزاز تتعاظم، في دمشق خاصة وفي سائر المدن السورية عامة. حتى إذا ما جاء يوم ٢٩ أيار - مايو - قامت القوات الافرنسية بقصف دمشق بالقنابل، ودفعت جندها لإبادة حرس المجلس النيابي - البرلمان - وكانت مذبحة رهيبة، غير أن المقاومة استمرت، واستطاعت معظم المحافظات السورية السيطرة على الموقف وعزل القوات الافرنسية وتطويقها. وأصبح الموقف خطيراً يتهدد فرنسا بأكثر مما يتهدد سوريا. وتدخلت انكلترا كوسيط. واتخذ قرار في مجلس الأمن بإجلاء القوات الأجنبية عن سوريا (وتم ذلك في ١٧ نيسان - ابريل - ١٩٤٦

عيد الجلاء). غير أن الأحداث في الجزائر تطورت بصورة عكسية لأسباب كثيرة أبرزها: ١ - قرب فرنسا من الجزائر وتوافر الامكانات لزج قوات ضخمة في المعركة. ٢ - وجود طابور خامس قوي يشكله المستوطنون الافرنسيون - بالدرجة الاولى -. ٣ - وجود قواعد برية وجوية وبحرية خاصة بالافرنسيين. وكان من نتيجة ذلك، شعور فرنسا بقدرتها على الامساك بالمبادأة العسكرية. وإجراء المذبحة الرهيبةالمعروفة بمذبحة ٨ أيار. وقد يكون من المناسب عرض الموقف بالدقة التي عرضتها فيها باحثة جزائرية،عالجت هذا الحدث التاريخي بالتالي:

(أ) من وثائق الحدث التاريخي(*):

كان من جملة ما أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية، وبلادنا - الجزائر - كانت مسرحاً من مسارحها، ذلك الوعي السياسي الذي تفجر فيها، كما تفجر في كثير من الشعوب المحكومة، فقامت تسارع للحرية والتحرر، لا تبتغي عنها رداً، ولا عدولاً، ولا ترضى بغيرهما بديلاً. وكان لا بد لهذا الاتجاه الشعبي العارم من منظمة سياسية تحتويه صقلاً، وتسعه تنظيماً، وتستوعبه توجيهاً، وتعده ثورة جامعة تحقق تلك الأهداف السامية التي طالما تطلبتها الأمة، ونشدها الشعب، وتغنت بها الجماهير.

(*) البحث هنا منقول كما ورد في (مجلة التاريخ) الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية - الجزائر رقم ٤ ابريل - ١٩٧٧، ص ١٦١-١٧٥ للباحثة السيدة نادية حرز الله تحت عنوان (حول حوادث ٨ ماي ١٩٤٥).

ولم تكن في الجزائر، آنذاك منظمة أخرى من هذا الوزن، إلا منظمة حزب الشعب الجزائري، سليل حزب (نجم شمال افريقيا) الذي يرجع تأسيسه إلى سنة ١٩٢٤. ولكن هذا الحزب كان منحلاً إدارياً، مطارداً بوليسياً، غير معترف به قانونياً، تتعقبه السلطات الاستعمارية بالقمع والتهديد والوعيد. وكانت الكثرة الكثيرة من أعضائه في غياهب السجون، ومن هنا لازم السرية، واتخذ له العمل في الخفاء والظلام سياسة مخططة، وهذا من جملة ما أعطاه ثقة، الجماهير، وألبسه شيئاً غير قليل من القوة في العمل، والبأس في المبادرة، والتضحية في تحمل المسؤولية وأفكار الذات في القيام بأعباء الرسالة القومية التحريرية الوطنية. ومن أعماله الجريئة، اتصاله بممثلي الحلفاء: روسيا، وأمريكا، وانكلترا، بمجرد نزول الحلفاء في الجزائر يوم ٨ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٤٢. بل والأصح أن الاتصال بهؤلاء تم قبل نزول الحلفاء في بلادنا - الجزائرية - بعدة أشهر. ومذكرة «حزب الشعب الجزائري» لممثلي الحلفاء هي التي أصبحت في العاشر من شهر شباط - فبراير - ١٩٤٣، وبعد تحوير وحذف وبتر، تدعى «بيان للشعب الجزائري» الذي قدم بدوره في ٣١ آذار - مارس - من نفس السنة إلى «الجنرال كاترو» الحاكم العام الافرنسي في الجزائر، والجلاد المعروف في سوريا ببطشه وجبروته وتعطشه للدماء، وممثل لجنة التحرير الافرنسية التي كان يتزعمها الجنرال ديغول عامئذ.

جاء إنزال الحلفاء في الجزائر ليقطع الروابط بينها وبين فرنسا. فكان هذا حافزاً، يضاف إلى حافر هزيمة فرنسا أمام

الالمان سنة ١٩٤٠، وذلك من أجل دفع جماهير الشعب الجزائري للمطالبة باطلاق سراح المعتقلين السياسيين الذين كانت تفيض بهم السجون والمعتقلات. وهذا ما كانت تصوره المعلقات والمنشورات السرية التي كانت تنشر وتعلق مطالبة بحق تقرير المصير، وفقاً لما جاء في المادة الثالثة من «ميثاق الأطلسي» بين روزفلت وتشرشل سنة ١٩٤١. وجاء الجنرال ديغول من «برازافيل» إلى «قسنطينة» يوم ١٢ كانون الأول - ديسمبر - ١٩٤٣. واتخذ من الجزائر، مركزاً له ولقيادة أركان حربه، حتى يكون كما قال: «في وسط المعركة». وألقى خطابه المعروف يوم وصوله إلى «قسنطينة». وهو الخطاب الذي حاول فيه خداع الجزائريين من جهة، وكسب الوقت مع الحلفاء من ناحية اخرى، ولكنه بخطابه ذلك خسر الناحيّتين. ولما أسقط في يديه، ورأى أنه قد ضل السبيل، أمر بتكوين لجنة الاصلاحات الاسلامية والتي ضمت ثمانية عشر شخصاً، ستة من فرنسيي فرنسا وستة من فرنسيي الجزائر، وستة من الجزائريين، وفي كانون الثاني - يناير - ١٩٤٤. استمعت اللجنة بأعضائها الثمانية عشر، التي شملت ممثلي جميع الأحزاب القائمة آنذاك، مثل «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» و«حزب الشعب الجزائري» و«أصدقاء البيان والحرية» و«ممثل وادي ميزاب». وأسفرت أعمال هذه اللجنة الاصلاحية عن قرار ٧ آذار - مارس - سنة ١٩٤٤، الذي «تكرم» فيه الجنرال ديغول على حوالي أربعين أو خمسين ألفاً من المسلمين الجزائريين بإخراجهم من الجنسية الجزائرية العربية - الاسلامية، وإدماجهم في

الجنسية الافرنسية مع إعطائهم حق التمتع بحقوق المواطن الافرنسي، حتى لكأن الجزائري لا يرقى إلى درجة المتمتعين بالحقوق والحريات إلا إذا تخلى عن جنسيته وأصالته، وإلا إذا تنكر لعروبته وإسلامه، وإلا إذا تحلل من كل ما يربطه بثقافته وتاريخه وأمجاده، فقلب ظهر المجن لشخصيته، ولتراث آبائه وأجداده، وأصبح إفرنسياً عدواً لقومه وماضيه وحاضره ومستقبله. وكان الجزائريون يحسبون أن مشاريع الادماج والالحاق ومحاولات محو الشخصية الجزائرية قد ماتت إلى الأبد، منذ أن تم دفن مشروع «بلوم-فيوليت» سنة **١٩٣٦**، غير أن الاستعمار لا يبرأ من أمراضه المزمنة، ولا يعرف الشفاء إليها سبيلاً. ومن ثم، فها هو الجنرال ديغول يبعث المشروع الدفين تحت التراب من جديد، جاعلاً من سياسته التي رمى بها بلا مبالاة في وجه شعب عريق، شهدت له الدنيا قديماً وحديثاً بعراقته وأصالته، وبمحافظته واستماتته في التمسك بتلك العراقة، وبتلك الأصالة، كلفه ذلك ما كلفه. وأمام هذه الخطة الديغولية الشريرة، اجتمع قادة «حزب الشعب الجزائري» وتدارسوا الموقف، وقرروا الاتصال «بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين» و«بحزب أصدقاء البيان والحرية» - وهو التنظيم الوحيد الذي كان معترفاً به من جانب السلطات الافرنسية -. وتم الاتفاق على العمل المشترك ضد المخططات الجديدة القديمة.

أدى تعاون «حزب الشعب الجزائري» مع منظمتي العلماء والبيان، إلى زيادة نشاط العمل السري، وهو العمل الذي اعتمد على خلايا حزب الشعب الجزائري المنحل والمطارد من طرف السلطات الاستعمارية، والذي ما زاده القهر والاضطهاد

إلا تدعيًا وتثبيتاً وانتشاراً وامتداداًوعمقاً في أوساط الجماهير. وها هي الخلايا السرية الآن قد انطلقت للعمل وقد جعلت من انخراط أفراد حزب الشعب بالجملة في حزب «أصدقاء البيان والحرية» ستاراً لها، تتذرع به، وتحتمي خلفه، للقيام بالاتصالات العلنية مع الجماهير. الأمر الذي ساعد - أولاً - على بسط اليد ووضعها على خلايا أصدقاء البيان والحرية وتنظيماتها. وثانياً - إحكام الاتصال بالخلايا السرية ودعمها، وإمدادها بالموجهين والتعليمات والعدد والمعدات، وبهذه الوسيلة، أمكن التوسع بإصدار المنشورات، وتوزيع الجريدة السرية لحزب الشعب.

أصبح «العمل الجزائري»(*) في متناول الخلايا، التي نشرت قاعدتها عبر القطر من أقصاه إلى أدناه، ومن شماله إلى جنوبه. ولم تكد سنة ١٩٤٥ تستهل حتى عقد أول اجتماع تحضيري باسم «أصدقاء البيان والحرية» بمقره المطل على «مسجد كتشاوة». وفي هذا الاجتماع، تم وضع الاسس الرئيسية لمؤتمر عام ١٩٤٥، لتنظيم خلايا هذا الحزب وفروعه وتشكيلاته على المستوى الوطني. وعقد هذا المؤتمر أيام ٢ و٣ و٤ آذار - مارس - ١٩٤٥ بمقر نادي المولودية، بميدان شارت بالعاصمة «نهج عمار القامة حالياً». وأسفرت أعماله عن لائحة سياسية نشرت في الصحف، ووزعت على وكالات الأنباء، وعلى ممثلي الحلفاء، وقدمت للسلطات الافرنسية (في الولاية العامة،

(*) العمل الجزائري : (Action Algérienne).

الجزائر). وتضمن البيان - فيما تضمنه - ما يلي: «... إن أصدقاء البيان والحرية، المجتمعين أيام ٢ و٣ و٤ آذار - مارس - سنة **١٩٤٥**. يؤكدون بأن بيان الشعب الجزائري المؤرخ في العاشر من شهر شباط - فبراير - سنة **١٩٤٣**، والمقدم للسلطات الافرنسية يوم **٣١** آذار - مارس - **١٩٤٣**، يبقى هو القاعدة الأساسية لأعمالهم السياسية. وإنهم ليذكرون بأن البيان قد جعل من مبادئه الاعتراف بالجنسية الجزائرية، ووضع دستور جزائري ديموقراطي جمهوري. ويأسف المؤتمرون على أن هذه المبادىء، بعدما وافقت عليها السلطات الافرنسية في ذلك الوقت ورضيت بها، لم تحترمها، وراحت تتمادى في اتباع سياسة مخالفة لتطلعات الشعب الجزائري، محاوله بذلك إرغامه على الخضوع لسياسة الدمج. ويقر المؤتمرون بأن السياسة الوحيدة الرشيدة هي التي تقام على احترام إرادة الشعوب. ومن هنا، فمن غير المعقول أن يخاطر بمستقبل شعب بكامله، دون استشارته، وبغير نيل رضاه... ولذلك، وعملاً بما يفرضه الضمير، وتحديداً للمسؤولية، ورغبة في المشاركة بصنع سياسة قائمة على حسن التفاهم، يطالب المؤتمرون بإنجاز المطالب المستعجلة التالية، كقاعدة أساسية يبنى عليها في الغد القريب صرح الأمة الجزائرية:

أولاً: استبدال المجالس الجزائرية المعروفة بمجلس النواب (برلمان).

ثانياً: استبدال الولاية العامة بحكومة جزائرية تكون مسؤولة أمام مجلس النواب الجزائري (البرلمان).

ثالثاً: الاعتراف بالعلم الجزائري... الخ...

وبدلاً من استجابة السلطات الافرنسية لمطالب الشعب الجزائري، فقد مضت في تصعيد إجراءاتها التعسفية وزيادة استفزازاتها العدوانية، والمضي قدما في سياسة القمع والارهاب والتقتيل والتشريد. الأمر الذي أدى إلى تظاهرات الفاتح من أيار - مايو - السلمية، والتي استرعت انتباه الروس والأمريكيين والانكليز الذين كانت لهم اتصالاتهم بممثلي أصدقاء البيان. وكانوا حتى ذلك اليوم لا يصدقون بأن جماهير الشعب تقف معه، وتنقاد لأوامره، وتستجيب لنداءاته، وتدعم مطالبه بالاستقلال والحرية والانفصال عن فرنسا. منصرفة في ذلك عن سياسة المعتدلين، كافرة بسياسة الاصلاحات والداعين لها والمنادين بها. وعقد الشعب الجزائري العزم من جديد على أن يجعل من يوم استسلام المانيا للحلفاء بعد أن أسلمت عاصمتها في يوم الثلاثاء، غرة أيار - مايو - سنة **١٩٤٥**. أن يجعل منه يوم استفتاء شعبي تقول فيه الأمة كلمتها من جديد، وتعلن فيه مطالبها، وفقا لما شاركت به الجزائر من جهد حربي تحت راية الحلفاء طوال الحرب العالمية الثانية، واغتنمت الادارة الافرنسية الاستعمارية هذه المناسبة لتنفيذ مخططها «فكانت المذبحة الرهيبة»(*) التي تعرضت لها الوثائق الافرنسية ذاتها بما يلي:

(*) اعتمدت الباحثة السيدة نادية حرز الله في النصوص الوثائقية التي سيرد ذكرها، على ما نشرته الجريدة الرسيمة للجمهورية الافرنسية - مناقشات الجمعية الاستشارية في العددين ٦ و٧ الصادرين =

« على أثر فاجعة الجزائر، **أنشئت** الميليشيات المسلحة والغيت كل الحريات الديموقراطية، وتقلدت السلطة العسكرية أمور الشرطة، وأعلنت حالة الطوارىء، وصدرت القوانين الاستثنائية والأحكام العرفية، وسلح كل الاوروبيين، ومنع الجزائريين من مغادرة دورهم إلا إذا كانوا يحملون شارات على سواعدهم أذنت لهم بها السلطة بعد تحقيق دقيق يثبت أن لهم أعمالاً في المؤسسات العامة... لقد كان الانتقام فظيعاً، فقتل بعض الاوروبيين أدى إلى إعدام جماعات من المسلمين بمجرد الشك **فيهم... ففي الساعة السادسة والنصف من** صباح يوم الاثنين ١٤ أيار - **مايو - ١٩٤٥، فتحت الزنزانات** في سجن مدينة **«قالمة» وبعد أن نودي على تسعة وأربعين** سجيناً، قيل يلزم أيضا أحد **عشرة - حتى يصل العدد إلى** الستين. هكذا أرادت القيادة... **وأخذ هؤلاء من صفوف المعتقلين ثم حكم على الجميع من طرف «اللجنة العسكرية» التي عقدت جلسة لها هذه المهمة، وقامت «الميليشيا» بإعدامهم رمياً بالرصاص. وقد أجاب الحاكم العام في الجزائر على سؤال وجهناه إليه في الاجتماع المشترك للجان الداخلية - لتنسيق الأعمال للشؤون الاسلامية - فقال: بأن إحدى وأربعين قرية دمرت بالطائرات والوحدات البحرية، فلم يبق فيها دار واحدة. وبما أن معدل سكان القرية الواحدة هو ألف نسمة،**

= يومي الاربعاء والخميس ١١ و١٢ تموز - يوليو - سنة ١٩٤٥. وكذلك ما نشرته الصحافة غير الرسمية مثل جريدة «ليبرتي» و«كومبا» و«آلجي ريبيبليكان» وسواها من الصحف الافرنسية.

إن لم يكن ألفاً وخمسمائة أوْ ألفين، فلا مغالاة أن يقدر العدد الحقيقي لمن قتل من المسلمين، يتراوح بين (١٥) و(٢٠) ألفاً - هذا إذا افترضنا أن نصف السكان قد تمكنوا من الفرار، والاعتصام بالجبال» - ا. هـ.

«كان الانتقام الذي قمنا به، دونما ريب، ضربة قاضية لصداقة الشعب الجزائري والأمة الافرنسية، أو بالأحرى على مصالح بلادنا في الجزائر. . . هذا على أني لا أتكلم على بقية الأحكام الجائرة. . . إن ذلك يستدعي وقتاً طويلاً. . .».

ا. هـ.

«. . . أعلنت حالة الطوارىء في مدينة سطيف ودوائرها! وبجاية وأحوازها، وقالمة وضواحيها، وقررت الادارة الافرنسية فرض الأحكام العرفية في كامل القطر. وحجرت على المواطنين الخروج من دورهم إلا بإذن خاص. . . وأن أي وطني لا يحمل على ذراعيه الشارة المخصصة ــ وهي شارة لا تعطى بسهولة ــ يقتل دونما إنذار إذا وجد في الشارع بعد الساعة السابعة مساءً، ومن هنا لزم المسلمون دورهم، أياما عديدة، دون أن يكون لديهم ما يقتاتون به من الأطعمة. . . فكانوا من جراء ذلك في جحيمين، جحيم التهديد بالقتل، وجحيم الموت جوعاً. لقد وزع السلاح على جميع الاوروبيين، وبصورة خاصة منها الأسلحة الخفيفة، إلى حد أن النساء كن مسلحات. . . وفي إحدى المدن، وبينما كان طفل مسلم صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره، يمر في الحديقة العامة، فإذا بضابط فرنسي برتبة

نقيب - كابتن - يطلق عليه النار فيرديه قتيلاً... إن الأهالي الذين لم يعرف عنهم قط أنهم انخرطوا في حركات سياسية أو في منظمات اجتماعية، قد نالهم أيضاً من القمع والارهاب الشيء الكثير... وفي إحدى المناظر المؤلمة، رأينا رضيعاً ملوثاً بالدماء، يبحث عن ثدي أمه المقطوعة الرأس، دون أن تستجيب الضحية لصراخ ابنها. وإنه لمنظر مؤلم حزين اختلطت فيه مسكنة الرضيع بمصيبة الأم الذبيح» ا.هـ.

«رأينا في مقبرة - قالمة - عربات نقل الجيش الافرنسي، وهي تقذف على الأرض بأكياس كبيرة ولقد هالنا أن لا تحدث هذه الأكياس أي صدى لحظة ارتطامها بالأرض، فاقتربنا من العربات، فإذا بداخل الأكياس جثثاً ممزقة، منهوشة، مزقها الرصاص، وشوهها الخراب ونهشتها الغربان...».

«... كان يتم تنفيذ حكم الاعدام بالضحايا في كثير من الأحيان، أمام ذويهم وأقاربهم نكالاً وتعذيباً ولقد صرع أبناء السيد حنوز محمد واعراب، وهو مساعد طبيب بخراطة - صرع أبناؤه الأربعة أمامه، وهو ينظر -...وعندما جاء دوره طلب منه أن يهتف بحياة فرنسا، فأبى، فقطعت يداه ورجلاه، ثم أعدم» ا.هـ.

«... انقضت ليلة ٩ أيار - مايو - ١٩٤٥ في توزيع الأسلحة على الاوروبيين - بمدينة الجزائر - وفي إلقاء الخطب عليهم لإثارة حماسهم. ولم تطلع شمس يوم ٩ أيار - مايو - حتى أعدم أكثر من ثمانمائة من الأهلين - المسلمين - هذا في

المدينة، أما في ضواحيها، فقد تركت عملية القمع الارهابي للفرقة الأجنبية التي لم يكن أفرادها يسألون عما يفعلون. وكذلك كان الحال في «جيجل» و«الطهير» وضواحيها، فكنت لا ترى إلا القتل والنهب والنيران التي لا تبقي ولا تذر» ا. هـ.

«... زار والي عمالة قسنطينة «ليستراد كاربونيل»(*) مدينة «الطهير» وبعد أن خطب في جموع الاوروبيين مهنئاً ومشجعاً ومستشيراً - وقال: «لقد أمر جنودنا بحفظ النظام، واستتباب الأمن، وهم يعرفون كيف يقومون بمهامهم، وكيف ينفذون واجباتهم» ا·هـ. وأدى الحمق الاستعماري بالحاضرين إلى الهتاف: «هذا اليوم هو يوم النصر».

« إننا بهليوبوليس القريبة من مدينة «قالمة» ولقد مضى على الجثث الملقاة على قارعة الطريق أكثر من خمسة أيام، دون أن يهتم أولو الأمر بدفنها، وذلك تفنناً في إلقاء الرعب في قلوب المواطنين، الذين لم يزدهم، بكل أسف، هذا العمل إلا كرهاً فينا، وبغضاً لنا» ا.هـ.

«... كانت القوات المسلحة البرية والجوية والفرقة الأجنبية تقوم بالقمع والارهاب، في نفس الوقت، ما بين «سطيف» وبين البحر شمالاً. وكان الجميع يعيشون فساداً في المدن والقرى، وفي الأموال والأنفس والثمرات، وينبهون كل

(*) ليستراد كاربونيل: (Lestrade-Carbonel).

ما يقع تحت أيديهم... ثم هم بعد ذلك يقتلون ويحرقون... ولقد استعانت القوات العسكرية بالواحدات البحرية، فجاء الطراد «ديجي تـروان»(*) الذي أبحر من مدينة عنابة، وقد ألحق هذا الطراد بضواحي مدينة خراطة خسائر لا تقدر... ولقد حدا الأمر بالأوروبيين، من مدنيين وعسكريين، إلى أن يطلقوا نيران بنادقهم بمجرد أن يروا برنوساً - الرداءالوطني المغربي - وزيادة على هذا، كانت الطائرات تلقي قذائفها، وتمطر الأهلين بوابل رشاشاتها... وقد وصلت المأساة ذروتها في مدينة «قالمة» وضواحيها حيث بلغ الجنون الجماعي حده هناك. وكانت موجة الانتقام من المسلمين، والبغض العنصري قد هيمنا على كل الأوساط الافرنسية، ألى حد أن أعمال القمع لم تقتصر على الفرقة الأجنبية فحسب، بل وحتى أنصار فرنسا المكافحة والشيوعيين أيضاً... وقامت الادارة الافرنسية بحل المنظمات السياسية وغير السياسية، وإغلاق المدارس التعليمية الحرة للمسلمين، والأندية الأدبية والرياضية. وعطلت الصحافة التي كانت تصدر باللغة العربية، وأعلنت حالة الطوارىء، وطبقت القوانين الاستثنائية العرفية في كامل البلاد. وأطلقت يد الشرطة - البوليس - فراح رجال هذه المنظمة يمارسون عملهم بأساليب وحشية بربرية لترويع الأبرياء. وإنزال الفجائع بالعائلات صباح مساء. وتفتيش الدور والمخازن والمتاجر، ونهب كل ما تقع عليه الأيدي ولا سيما الجواهر والحلي والزرابي والأموال، مع إلقاء

(*) الطراد ديجي - تروان: (Duguay-Trouin).

القبض على كل انسان حتى أولئك الذين لم يثبت قط أنهم انخرطوا في أية حركة سياسية كانت أو غير سياسية. وتعطلت من جراء الارهاب البوليسي، وبسبب القوانين العرفية، كل حركة للانتقال من بلد إلى بلد آخر. وشلت الحركة الاقتصادية. ورصدت السلطة الافرنسية مبالغ ضخمة مكافأة لمن يرشدها إلى الوطنيين الذين لم تصل إليهم قبضة القمع، فاختفوا بغية تغذية الحركة التحريرية حتى لا يلحقها الفشل بسبب ما فقدته من عشرات الالوف من الضحايا والمعتقلين. وفصلت الادارة الافرنسية أيضاً مئات الموظفين المسلمين من مناصبهم، وشددت الرقابة على الحدود الجزائرية شرقاً وغرباً حتى لا يهرب المواطنون الجزائريون إلى المغرب أو إلى تونس أو طرابلس».

«لقد بات أصغر الافرنسيين شأناً في السلطة وهو يملك ما يجعله حق إعدام هذا أو تشريع ذلك، وأنه لمن الصعب تحديد عدد الذين اعتقلوا في هذه الحوادث الدامية. فمن قائل، أنه بلغ عشرة آلاف سجين، ومن قائل: أنه تجاوز هذا الرقم بكثير، وغير هؤلاء يقول: إنه بلغ الستين ألفاً. غير أن وزير الداخلية الافرنسي - في تلك الفترة وهو «ادريان تكسييه(*)» أعلن أمام الجمعية الاستشارية المؤقتة، «بأن عدد المعتقلين لا يتجاوز الألفي وخمسمائة مسلم» ا. هـ.

قصارى ما يمكن قوله عن المعتقلين: لقد ضاقت السجون

(*) ادريان تكسييه: (Adrien Texier).

الجزائرية بهم إلى حد أن السلطة الافرنسية أفرجت عن المجرمين حتى توفر أماكنهم للأحرار الوطنيين، ولما لم تؤد هذه العملية إلى المبتغى، ضاعفت السلطات الافرنسية ميادين المعتقلات ومعسكرات الحشد والاعتقال، والتي كانت قد أنشأتها في أوائل الحرب العالمية الثانية. وساقت إليها الوطنيين أفواجاً إثر أفواج. أما الوسائل التي كان البوليس السياسي يقوم بها لحمل الوطنيين على الاقرار بجرائم أو أعمال لم يقوموا بها، والاعتراف بما أراد أن ينسبه إليهم، وعلى أن يشهد البعض على البعض الآخر، فهي وسائل مرعبة يقشعر لها جسم الانسان.

«لقد اقتنع الافرنسي، بأن ما يقال عن استسلام الجزائريين للحكم الافرنسي، إنما هو أسطورة حاكتها يد الادارة الاستعمارية العليا في الجزائر. وجاءت هذه الدماء الغزيرة لتكذبها. ولهذا فالواجب يقضي على فرنسا أن تستعمل كل ما لديها من القوة، إن هي أرادت الاحتفاظ بالجزائر» ا. هـ.

وإلى هذا أشار - م. بيشير - في جريدة «صدى الجزائر» الافرنسية(*) ما يلي:

«... لا جدوى من مضي الأسابيع والشهور على القضية الجزائرية، طالما أنه لا يمكن البت بشيء فيها وطالما أنه لا يمكن الوصول إلى حل لها بسبب إهمال الوقائع المادية والضرورات

(*) م. بيشير (M. BEUSCHER) (في جريدة صدى الجزائر) تاريخ ٨ حزيران - يونيو ١٩٤٥.

الناجمة عنها. وها هي ذي الوقائع الوحشية المذهلة.. لقد سالت الدماء الغزيرة مرة أخرى في الجزائر، كما سبق لها أن سالت من قبل مرات عديدة. إن المفكرين والمعمرين الذين يختارون العبارات الأنيقة، وينسقون التعابير والجمل في مراسلاتهم مع فرنسا بغية حل «القضية الجزائرية» لا يفقهون ولا يدركون أن المريض الذي يعالجونه بالمسكنات عن طريق الاذاعة، قد بات يستعصي على العلاج.

... ولقد تجاهل الافرنسيون على اختلاف نزعاتهم، وعلى تباين تنظيماتهم السياسية، وبرامجهم الحزبية، الأسباب الرئيسية للحوادث، وتعاموا عن المطالب الجوهرية والقومية للشعب الجزائري. فراحوا قصد تضليل الرأي العام الدولي يعزون الحوادث إلى أيد خفية أجنبية حركت الجزائريين ضد فرنسا. **وشاءت عبقرية الحاكم العام الاشتراكي الافرنسي في الجزائر** «**شاتينيو**»(*) **عامئذ في بلاغه الذي أذاعه بنفسه على أمواج الأثير**، أن **يصف أعضاء حزب الشعب الجزائري بأنهم** «**نازيون**» **وبأن** «**منظمتهم نازية**». **أما عبقرية جماعة اليسار** وأنصارهم، **فقد قالوا في خطبهم، وذكروا في صحفهم**: **بأن الحوادث أشعلت نيرانها أيد انكليزية وأمريكية**. أما الحقيقة فهي أننا لسنا من أحزاب اليمين في شيء حتى نتهم بالفاشية أو النازية. ولسنا أيضاً من أحزاب اليسار حتى نتهم بالشيوعية. وإنما نحن أمة وسطاً لا ينبغي لنا أن نتغنى بمبادىء هؤلاء،

(*) شاتينيو: (Chataigneau).

أو نعمل في ركابهم. ولا بنظم أولئك، أو نقبل أن نكون عندما تنشب النار، وتندلع في بيت. وعندما تكون الباخرة على شفا الغرق. فإنه لا يستغاث بالطاهي، ولا بمدير المقرص، إذا الساعة حينئذ فيما يخص البيت، وفيما يخص الباخرة، لأصحاب المطافىء وأصحاب النجدة والاسعاف. وإنه لكذلك الأمر في افريقيا الشمالية عامة، وفي الجزائر خاصة، فالساعة يجب أن تكون للجندرمة (الدرك) والبوليس **(الشرطة)»** إ.هـ.

بمثل هذه الروح العدوانية، **وبمثل** ذلك الحقد وتلك الكراهية، تلقت كل الأوساط الافرنسية «اليمينية واليسارية على حد سواء، حوادث ٨ أيار - مايو - **١٩٤٥**: «حتى لكأن فيالق الفرقة الأجنبية، وطوابير - ارتال - الدرك والشرطة قد قصرت في المهمة التي **أوكلت إليها، مهمة سفك الدماء**، وقتل الأبرياء، وحرق المداشر والقرى. أو **حتى لكأن** الخمسة والأربعين ألف شهيد من المواطنين الذين **قاموا يردون** الظلم ويدافعون عن الشر، لم يكفوا للأخذ **بثأر ثمانية وثمانين** قتيلاً ومائة وخمسين جريحاً من الغزاة المستعمرين. **على أن** الرصاصات الاولى التي أطلقت على **المتظاهرين في هذه الحوادث**، في كل من سطيف وقالمة وعنابة وغيرها. **قد أطلقها** رجال الشرطة والدرك. والبرق هو شبيه بالجراح الذي **يجيل مشرطه في** لحم الجريح».

وانتهت المذبحة، وجلس **الجزارون** يندبون: «... فكروا ثانية فيما آلت إليه علاقاتنا بالجزائريين، في العمل وفي دواوين

الحكومة، وفي كل الأوساط التي نجتمع فيها بهم: في المقاهي وفي المخازن وفي الدكاكين، وفي وسائط النقل المشترك، تجدوا أننا في الوقت الذي لا نضمر للجزائريين شراً يقابلوننا هم بالعكس (؟). إن الجزائريين والافرنسيين الذين كانوا في الأماكن الخاصة وفي المزارع، يعملون معاً جنباً إلى جنب بكل صداقة (؟) أصبحوا اليوم حذرين، يراقب البعض منهم البعض الآخر، ويزنون الألفاظ، ويسجلون ما يسمعون، ثم هم بعد ذلك يستنتجون حسب ما تمليه عليهم عواطفهم وأهواؤهم. فلهذه الحالة الثقيلة وغير المحتملة، ولهذه الأذية التي ليس لها انتهاء، ولهذا العذاب المرهق للأعصاب، يجب أن يوضع حد وبكل سرعة. إن افريقيا الشمالية تضمر لنا شراً خطيراً مستطيراً وعاجلاً، يوجب علينا حماية تكون أكثر عجلة. إنني أعلم أن أعوان الأمن العام الذين يقدرون واجباتهم حق التقدير، يعملون لضمان هذه الحماية. ولذلك، يتحتم علينا أن لا نصدهم عن هذا الواجب حتى لا تتفرق جهودهم».

(ب) شهادة الوزير الافرنسي - آلان سافاري(*):

أصدر حزب الشعب الجزائري تعليماته إلى أعضائه برفع

(*) المرجع: ثورة الجزائر (الان سافاري) ترجمة نخلة كلاس. إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي. دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦١م ص ٤١ - ٤٤. والمؤلف آلان سافاري. كان وزيراً في حكومة «غي مولية» الاشتراكية، وكان معنياً بشؤون المغرب العربي - الاسلامي (أو شمال افريقيا كما كانوا يسمونها أيام الاستعمار) وهو عضو بارز=

العلم الوطني الجزائري أثناء العرض الذي سيشترك فيه الحزب بمناسبة اليوم الأول من أيار - مايو - عام ١٩٤٥. فأدى ذلك إلى إطلاق النار على الجزائريين فقتل أحدهم في مدينة الجزائر. وتعددت الاعتقالات في الجزائر كلها. وفي يوم ٨ أيار - مايو - وبينما كان مفتش الشرطة «لافون» خارجاً من مقهى اسمه «مقهى فرنسا» في «سطيف» رأى أحد المتظاهرين سائراً؛ وقد حمل لوحة كتب عليها: عاش انتصار الحلفاء. ولما كانت الأوامر إلى رجال الشرطة شديدة ومركزة، فقد المفتش المذكور أعصابه، وأطلق النار على الشاب الجزائري الذي كتب على لوحته: عاش انتصار الحلفاء. ووقع شاب جزائري آخر مضرجاً بدمائه، وأعلنت الأحكام العرفية. وقام المستوطنون باغتيال عدد من الأوروبيين، منهم عمدة سطيف «دولوكا» لأنه كان يتمتع بثقة الجزائريين. وقام الجنرال «دوفا» بحملة إرهاب هائلة، استخدمت فيها الفرقة الأجنبية والرماة السنغال، ووحدات الميليشيا، حتى أن الجنرال المذكور، أطلق سراح أسرى الحرب الايطاليين ليشركهم في المجزرة التي أسهمت فيها أيضاً أسلحة الطيران والمدرعات والبحرية، وقذف أحد الطرادات الافرنسية بالقنابل منطقة «كرارتا» وفي ١٦ أيار - مايو - وكانت المجزرة في نهايتها. عندما وصل لواء المشاة السابع إلى مدينة الجزائر، بعد

= في الحزب الاشتراكي الافرنسي. وقد انشق عن حزبه، واستقال من منصبه الوزاري بسبب خلافه مع الحزب والحكومة تجاه قضية الجزائر واحتجاجاً على عملية القرصنة التي تم بواسطتها اختطاف أحمد بن بللا ورفاقه من زعماء الثورة.

اشتراكه في معارك الالزاس. وجاء في نشرة رسمية صادرة عن القيادة الافرنسية أن عدد الضحايا الجزائريين ألف وخمسمائة فقط، وعدد الأوروبيين مائة. هذا في حين ذكر تقرير اللجنة الثلاثية التي يرأسها الجنرال توبير، والتي تشكلت لإحصاء قتلى المجزرة المذكورة، بأن مجموع عدد قتلى الجزائريين المسلمين بلغ خمسة وأربعين ألفاً.

إنه حدث نموذجي في دلالته على حالة الافرنسيين العقلية والمعنوية في الجزائر، فقد شوهد على رأس قطعات الميليشيا الأوروبية الزاحفة ضد الجزائريين العزل، مستوطنون هم من المسؤولين الافرنسيين في الحزب الشيوعي الجزائري... هل أتابع سرد هذه الوقائع التاريخية الثابتة والحديثة، وهل أقول بأن قسماً كبيراً من المستوطنين الافرنسيين، وبينهم عدد كبير من العمال الافرنسيين- بروليتاريا الثورة- قد استقبلوا أحد رؤساء الوزراء بمظاهر العداء والنفور لأنه ذكر في برنامجه الانتخابي «السلم في الجزائر» وقال بضرورة إحلال السلام فيها. وإنهم فعلوا ذلك لأنهم يدركون بأنه لا سبيل إلى السلام في الجزائر، إلّا بحصول الجزائريين على حقوقهم السياسية. ولقد قلنا أن منح الجزائريين حقوقهم السياسية، يعني بالنسبة إلى المستوطنين الافرنسيين طرح موضوع حقوقهم المالية وقوتهم وسيطرتهم الاقتصادية على بساط البحث. وأن الحصول على هذه الحقوق يساعد الجزائريين على منافستهم، هذه المنافسة التي تخشاها وترهبها الأكثرية الساحقة من المستوطنين الافرنسيين في الجزائر

الذين يتضاءلون كأقلية يوماً بعد يوم أمام ازدياد عدد الجزائريين وتكاثرهم.

(ج) **«اليوم الرهيب» في ذكريات أحمد توفيق المدني**(*):

كان الزعيم، الشيخ أحمد توفيق المدني«مسافراً بالقطار من الجزائر إلى تونس، يوم وقعت المذبحة - المأساة - وقد سجل انطباعه ومشاهداته - بما يلي»:

«تجهزت للسفر وأخذت بطاقتي، وامتطيت القطار يوم ٧ أيار - مايو - ١٩٤٥، في الثامنة مساء. وكنت عندما أصبح الصباح، أشعر كلما تقدم القطار نحو الشرق بحركة غير عادية في المحطات، تزداد شدة وحدة، بين حين وآخر، حتى إذا وصلنا مدينة «الخروب» وغيّرنا القطار، وجدنا في المحطة مختلف فرق الجيش، وبينها طائفة من الشبان المتحمسين المتهيجين وهم يحملون ما توافر لهم حمله من مختلف الأسلحة. وكانوا يصعدون إلى مزجيات الرتل وينزلون من بها من الجزائريين واحداً واحداً، في شدة وعنف، ورأيتهم تحت نافذتي يفتشون بدوياً عربياً بشكل مهين، وقد وجدوا في قفته سكيناً صغيراً لقطع الخبز طبعاً، فانهالوا عليه ضرباً بالأيدي ورفساً بالأرجل، ثم اقتادوه بقسوة إلى ما وراء القطار، وسمعت طلقات نارية، وتأوهاً خافتاً، وانتهى كل شيء.

(*) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ / ٣٨٠ - ٣٨٣.

كنت حاسر الرأس بين أربعة من الأوروبيين لم يعرفوا هويتي، ودخل علينا شاب متهيج يصيح هل يوجد أهالي هنا؟ فأجابه الجالس قرب الباب: كلنا فرنسيون. فذهب إلى الغرفة التي تلينا، وكنت منهمكاً في قراءة جريدة «صدى الجزائر - إيكو دالجي» للمرة الثانية، متظاهراً بعدم فهم ما يجري حولي، ثم ركب معنا أحد المستعمرين، وأخذ يقص علينا أنباء الصباح الرهيب «بسطيف» وما حواليها، وأن مذبحة شرسة اشتعلت بكامل الناحية، وأن الافرنسيين قد سيطروا على الموقف بعد التخلص من أكبر عدد من الأعداد، وأن البقية سيتم القضاء عليها حتماً حتى يعلم هؤلاء «البيكو» أن الجزائر فرنسية إلى الأبد.

لم أكن أتوقع هذا أصلاً، إلى أن وصلنا مدينة «قالمة» التي كانت تعيش حالة حرب حقيقية. كان الجيش يحتل المحطة، وكان جنوده يحيطون بجمع كبير من الرجال والشيوخ الذين جلسوا على الأرض، يحيط بهم الزبانية من كل مكان. وكنا نسمع أصوات الاستغاثة وصراخ العويل ممتزجاً بأنين الألم، يأتينا من ناحية المدينة. ومكث القطار هنالك نحواً من الساعتين، كنت أرى خلالها من شباك المزجية، الطائرات الحربية وهي تلقي بقنابلها المحرقة على امتداد الأفق. وكنت أشاهد ألسنة اللهب وهي تتصاعد إثر انفجار كل قنبلة. كما كنت أسمع من بعيد أصوات الاستغاثة والبكاء والنحيب، وأرى من بعيد سائمة ادمية غفيرة العدد، تغدو وتروح، مفتشة عن ملجأ، فلم تجده، وما من رجل أو امرأة استطاع النجاة، إلّا وحصدته بعد

ذلك رصاصات بنادق القناصة ومسدساتهم... وقد أعدم الجنود في مدينة «قالمة» كل الشبان الذين كانوا يحملون الشهادة الابتدائية، بعد أن جمعوهم في مكان فسيح وأمروهم بحفر أخدود طويل، ثم أعدموهم بكل برودة، وتخلصوا من عدو محتمل. ثم إنني كنت أرى فيما بين «قالمة» والحدود التونسية جموعاً غفيرة من البدو، يهيمون على وجوههم، وكان أكثرهم مثخناً بالجراح، والدماء الغزيرة تكسوه، فيما كان بعض الرجال والنساء قد افترشوا الأرض وهم لا يستطيعون حراكاً بعد أن نال منهم الجوع والظمأ كل منال، وأنهك قواهم ما سال من دمائهم. وعلمت بعد ذلك أن القتلى لم يكونوا يدفنون في الأغلب، لكثرتهم، بل يتركون فريسة للذئاب والضباع والجوارح الكاسرة.

(د) للمجزرة تتمة(*):

كانت مجزرة ٨ أيار مايو ١٩٤٥ مذبحة رهيبة، شابت لهولها الأطفال، واقشعرت الأبدان. لقد كان جنود فرنسا يقتحمون البيوت عنوة، يبقرون بطون الحبالى، ويذبحون الأطفال والنساء والشيوخ، ويغتصبون شرف العذارى بعنف ووحشية. وكانوا يوقفون بعض الجزائريين من سكان المدن في الساحات العامة ويبيدونهم بالرصاص. ويجمعون بعضهم الآخر دون تمييز السن والجنس داخل أكواخ ويشعلون النار فيها. وكانوا يدخلون الشبان أفرانا شديدة الحرارة تخرج منها الجثة

(*) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ١٦٤ -١٦٧.

رماداً. أما القرى، فكان نصيبها من التقتيل والإبادة أفظع وأشنع بحيث أن الجنود الافرنسيين، كان يرغمون الأهالي على الدخول إلى أكواخهم الطينية المبنية باللبن ويوصدون الأبواب عليهم ثم تمر الدبابات الثقيلة على الأكواخ فتسحقها بمن فيها، وتحيل الأرض عجيناً من طين ودم. وقد دمر الطيران الافرنسي أربعين قرية ومحاها من الوجود، فيما نسف الأسطول البحري مدينة «مثل مدينة خراطة في عمالي قسنطينة» بسكانها العرب وحولها إلى أنقاض.

وتبع مجزرة ١٩٤٥ حملة ١٩٤٧ في بلاد القبائل، حملة سنة ١٩٤٨ في - برقية - و - دشمية - وحملة سنة ١٩٤٩ في دوار سيدي علي بوناب - وحملة سنة ١٩٥٢ في منطقة الأوراس. وقتلت فرنسا كثيراً من المهاجرين الجزائريين إلى فرنسا وذلك في حوادث ٢٣ أيار - ماريو - عام ١٩٥٢. وفي ١٤ تموز - يوليو سنة ١٩٥٣. هذه بعض ملامح حرب الابادة التي شنتها فرنسا على الشعب العربي في الجزائر قبل الثورة. فبين يوم وليلة قتل (٤٥) ألف جزائري، دون ذنب أو سبب، اللهم إلاّ مطالبتهم بالحرية والسلام. أما في مجال الارهاب والتعذيب والقهر، فقد كانت أجهزة الشرطة - البوليس - تمارسه على نطاق واسع - لا ضد المجرمين والأشقياء والمنحرفين، وإنما ضد الوطنيين الجزائريين، وكل من يقوم بنشاط سياسي تحرري، أو يعبر عن أفكار وطنية استقلالية. وعلى الرغم من تحديد صلاحيات التعذيب البوليسي في العالم، فإن البوليس الافرنسي، قد منح صلاحيات مطلقة لقتل وتعذيب من يشاء من الجزائريين، دونما خوف من حساب أو حتى عتاب. وقد دفعت هذه الصلاحيات البوليس إلى

استخدام أشنع الوسائل وأفظع الطرائق الارهابية. وها هو نموذج واقعي ومعروف، في جملة نماذج لا نهاية لها، يبرز ما كان يتعرض له أحرار الجزائر من تنكيل، وتعذيب على أيدي الشرطة الافرنسية (البوليس).

اعتقلت السلطات الافرنسية شاباً عربياً ادعت أنه مناضل في إحدى الخلايا السرية التابعة لحزب الشعب الجزائري (المنحل). واتهمت الشرطة الفرنسية (البوليس) الشاب بإخفائه سراً خطيراً عن الثورة المسلحة التي كان يعد لها حزب الشعب، والتي بالرغم من اكتشافها لم تستوف المعلومات الكافية عن اختفاء الأسلحة الكثيرة التي كان يتدرب عليها رجال «الشرف العسكري» وسرعان ما شرعوا في استجوابه. فجردوه من ثيابه وبللوا جسمه بالماء، وألهبوه لسعاً بالسياط ولما يئسوا من هذه المحاولة في استجوابه، ملؤوا جوفه ماء بواسطة أنبوب أدخلوه في فمه حتى كاد بطنه ينفجر. ولما لم تنفع هذه الوسيلة، انتقلوا به إلى الكهرباء. وبعد أن عجزت الكهرباء في حمل الشاب على الاعتراف بسر يجهله، أهملوه داخل غرفة مظلمة ملؤها الذباب والحشرات والجراثيم. إلى أن حضرت بعثة بوليسية - من عاصمة النور باريس - مختصة بفنون التعذيب. فشدوا وثاقه، وتناول رئيس البعثة كماشة. وأمسك إبهام الشاب. وأدخل الظفر بين طرفي فك الكماشة، وقال: أليس لك بعد أن تعترف؟ ولم يدع المفتش الشاب يتم حديثه لكي ينفي عنه هذه التهمة، بل عاجله بانتزاع أظافر يديه ورجليه بوحشية فائقة. وما كاد ينتهي حتى فتح الشاب فمه، وعيناه مغرورقتان بدموع الألم،

وسأل المفتش ؛ هل من طريقة أخرى؟ وأجاب **المفتش الافرنسي بغلظة** وفظاظة: نعم. وسرعان ما ألقى الشاب **على بطنه، والدم** ينزف من أصابعه. وتناول المفتش حديداً كان **قد احمر على النار** وأخذ يشوه به جسم الشاب الضحية. وفقد الشاب **وعيه. وما** كاد يفتح **عينيه** - في اليوم التالي، حتى سأل المفتش: **هل من** طريقة أخرى؟... وأحضرت في الحال زجاجة كبيرة - **قنينة** طليت جوانبها بالزيت. وجرد الشاب من ثيابه كلها وهو **يئن من** الألم. وسرعان ما رفعه مفتشان بين أيديهما، وأقعداه بقوة **على** الزجاجة وتمزق **اللحم**. ودوت صرخة ألم حادة كافية لترويع **أقسى** القلوب المتحجرة، **واستثارة** أعمق العواطف والانفعالات الانسانية، **إلّا** قلوب هؤلاء المخلوقات من أعداء الانسانية، والذين جردتهم حضارتهم من كل القيم **والفضائل**. وجدير بالذكر، أن طريقة **الإقعاد على** الزجاجة والقارورة، هي طريقة من إبداع العبقرية الافرنسية، ظهرت أول ما ظهرت في الجزائر، وعنها أخذتها بعض المدارس الاستعمارية الأخرى.

(هـ) **في ذمة التاريخ**(*):

لم تكن الأحداث التي **وقعت في** الجزائر - يوم النصر - عام **١٩٤٥**، دون مقدمات، ودون نذر سابقة ففي نهاية شهر نيسان - أبريل - بعث ستة أعضاء من الأوروبيين في المجلس العام رسالة إلى محافظ **إقليم** «قسنطينة» - الحاكم - يطلبون فيها اتخاذ إجراءات «فورية» يمكن لها أن تؤدي إلى إعادة فرض

(*) الجزائر الثائرة (جوان غيلسبي) ترجمة خيري حماد - ص٧٦ - ٧٩.

النظام والطمأنينة «في الأرض الافرنسية الواقعة إلى الجنوب من البحر المتوسط». وفي نفس الشهر، نقل مصالي الحاج من داره التي كان معتقلاً فيها جنوب الجزائر، إلى مدينة برازافيل في أواسط أفريقيا «الكونغو الافرنسي سابقاً» كعمل وقائي لتجنب الاضطرابات. وعملت الادارة الافرنسية على تزوير الانتخابات البلدية حتى لا تنجح العناصر المتطرفة. وبعث الحاكم العام للجزائر «شاتينيو» تعميماً على جميع موظفي الادارة في البلاد، أشار فيه إلى توقع حدوث اضطرابات بمناسبة عيد النصر وما يرافقه من احتفالات وقد أقيمت استعراضات وطنية في اليوم الأول من أيار ــ مايو ــ في عدد من مدن الجزائر دون وقوع حوادث تذكر. واستعرض الوطنيون في شوارع «سطيف» في الثامن من أيار - مايو - احتفالاً بانتصار الحلفاء. وحاولت الشرطة المحلية مصادرة الأعلام واللافتات التي حملتها الجماهير، وهو عمل لم يجر مثيلاً له في الاستعراضات الشبيهة التي جرت في المدن الأخرى. وأطلقت العيارات النارية، وتفرقت الجماهير، ولكنها سرعان ما عادت إلى التظاهر، وهاجمت رجال الشرطة بالحجارة. وعاد هؤلاء إلى إطلاق النار. وانتشرت الاضطرابات بسرعة البرق إلى أنحاء أخرى في الجزائر، ولاسيما في المناطق المأهولة بالسكان في إقليم قسنطينة. ووقعت حوادث عنف في بعض الأماكن. ولكن عدد قتلى الأوروبيين لم يتجاوز المائة شخص. وسرعان ما قام الافرنسيون بأقسى ما عرفه تاريخ الجزائر من أعمال الارهاب والبطش. فقد قام سلاح الجو الافرنسي الذي كان يشرف عليه آنذاك وزير الطيران الشيوعي «تيون» بقصف الكثير

من القرى الجزائرية وإزالتها من الوجود. ووصلت الطرادات الفرنسية إلى الساحل الجزائري، تضربه من البحر بمدافعها. وحالت الادارة الافرنسية بين الصحافة العالمية وبين الوصول إلى الحقائق المتعلقة بهذه الاجراءات الوحشية. وعهد الحاكم العام إلى لجنة تحقيق، ولكن عملها سرعان ما بتر. وذكرت اللجنة في تقريرها غير الكامل عدداً من أسباب هذه الأحداث: منها هزيمة فرنسا وضعفها، وقوة الحلفاء، ودعاية المحور، والمقارنة التي رددها الجزائريون من الجنود بين أوروبا التي عرفوها أثناء الحرب، وبين الأوضاع التي يعيشون فيها في الجزائر، والحماسة التي أثارها مؤتمر سان فرانسيسكو، وسوء تفسير شرعة الأطلسي «ميثاق هيئة الأمم المتحدة» والتحريض الناجم عن قيام الجامعة العربية، بالإضافة إلى تحريض حلفاء فرنسا، والأعمال المخزية التي تنزلها الادارة الافرنسية بالجزائريين.

لم تتوقف ممارسات الادارة الفرنسية في الجزائر عند حدود أعمال العنف العسكري، بل تجاوزتها إلى اعتقال عدد من الوطنيين ورؤساء النقابات ورجال الدين، والقائهم في المعتقلات والسجون. فقد اعتقل «عباس فرحات» عندما كان في طريقه للتشاور مع بعض موظفي الحاكم العام، وصدر الأمر بحل جماعة أصدقاء البيان والحرية. وجرت محاكمات مثيرة جداً لعدد من مناضلي حزب الشعب الذين قدر لهم أن يشتركوا فيما بعد في ثورة عام ١٩٥٤. ولم تكف أعمال البطش والتنكيل التي قامت بها الادارة الافرنسية، بل زاد عليها ما قام به المستوطنون من أعمال وحشية وجرائم لا إنسانية في إطار ما أطلقوا عليه اسم

«أعمال انتقامية ثأرية». وبرزت الحقيقة وهي أن أجهزة الشرطة لم تكن مكلفة بتأمين الحماية للمسلمين الجزائريين ضد أعمال جماعات «حرس المستوطنين» الذين يسارعون إلى العمل دائمًا عندما تتوتر العلاقات بين المستوطنين الجزائريين. وكان ذلك سبباً من أسباب المرارة الدائمة التي كان يشعر بها الوطنيون الجزائريون.

تعتبر أحداث سنة ١٩٤٥، نقطة تحول في تاريخ الجزائر بالنسبة إلى الجزائريين وإلى المستوطنين. فقد كانت بالنسبة إلى المستوطنين قمة الوحشية التي كان يلصقون تهمتها دائمًا بالجزائريين، كما كانت تجربة مرعبة. ولكنها في الوقت نفسه كانت بالنسبة إليهم بداية الانحطاط في نفوذهم، إذ ظهر كثيرون في فرنسا لا يشاركونهم الرأي في أن خير حل لمشكلة الجزائر هو «إبقاء الجزائريين مستعبدين». وحاول الحاكم العام «شاتينيو» تغطية سوءات الاستعمار وبشاعته، بمجموعة من الاجراءات التي زعم بأنها «ليبيرالية» في الفترة من سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٧، مثل السماح للمثقفين الجزائريين بالاسهام إسهاماً أوسع بادارة شؤونهم الخاصة. ومع ذلك فقد تمكن المستوطنون بعد عام ١٩٤٧، وعلى الرغم من هزيمتهم في نص الدستور الجزائري الجديد، من إزالة ما أطلقوا عليه اسم «النصوص الليبيرالية».

أما بالنسبة إلى الجزائريين الذين كانوا ضحية مؤامرة ٨ أيار- مايو- ١٩٤٥. فإن هذه المؤامرة كشفت لهم نقاط ضعفهم في مجابهة تحالف فرنسا مع مستوطنيها - والذين يشكلون

في الحقيقة جبهة واحدة وزالت أوهام إمكانية **الوصول إلى الحقوق** بواسطة المساومات والطرائق السلمية ـ فكان لا بد من **الاحتكام** للسلاح. لكن تجربة مذبحة أيار - مايو - أكدت ضرورة **العمل** السري تحت غطاء العمل العلني. فكانت جذور ثورة **١٩٥٤** وثيقة الصلة بمذبحة ٨ أيار.

وهكذا وبينما كانت فرنسا تمارس أشد ظواهر القوة، كان بنيانها الداخلي (بنيان الكيان الاستعماري) يسير نحو الضعف، في حين كان الشعب الجزائري وهو يعاني أقسى ظروف المأساة الناجمة عن الضعف، كانت هناك البدايات لأشد ظواهر القوة. وبقي السلاح هو الحكم لاختبار القوتين الهابطة والصاعدة في جولة قادمة.

٢ ـ العمل السياسي السري

يظهر العمل السياسي السري، على ما هو معروف، في ظروف القمع القهري، والحرمان من ممارسة العمل السياسي بصورة علنية. وقد تعرضت التنظيمات السياسية في الجزائر، منذ ظهورها، للمطاردة المستمرة، وعمليات القمع المتتالية، والاضطهاد لزعمائها والأعضاء العاملين فيها - على نحو ما سبق عرضه في التنظيمين الرئيسيين «حزب الشعب الجزائري» و«أصدقاء البيان الجزائري». ومن المعروف أن البدايات المبكرة للتنظيم السري قد بدأت منذ حل حزب «نجم شمال افريقيا» غير أن ذلك التنظيم السري فقد قوته تدريجياً. وعلى هذا فإنه بالامكان القول أن تاريخ النظام السري السياسي في الجزائر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنظيم حزب الشعب الجزائري في سنة ١٩٣٧. فعندما تم حل هذا الحزب، كان للتنظيم السري دوره الكبير في إعادة تنظيم «حركة انتصار الحريات الديمقراطية». حيث عمل هذا التنظيم على الاستمرار في حمل مبادىء الحزب، والتأكيد على صموده بالرغم من قرار الحل الرسمي. وعندما أعيد تنظيم حزب الشعب تحت عنوان الواجهة الجديدة «حركة انتصار الحريات الديمقراطية». قسم العمل فيه على مستويين:

مستوى العمل العلني - الرسمي - ومستوى العمل السري. وكان المستوى الأول يضم الأشخاص الذين يعملون بصفة علنية ورسمية «في إطار قانون عمل الأحزاب» وهم المسؤولون عن حركة الحزب. أما المستوى الثاني، فهو الذي يعمل بموجب نظام سري ويضم عناصر حزب الشعب المنحل التي جعلت الثورة وسيلتها الوحيدة للتحرير. وكان التنظيم السري ينطلق متشعبا (كالشجرة) بدءاً من الخلية التي تضم بضعة أفراد فقط، ثم مجموعة الخلايا المرتبطة بقيادة ترتبط بدورها (بالدائرة). وكان لكل دائرة مفتشها المسؤول عنها والذي يرتبط بدوره بالقيادة المركزية للمنطقة. وكانت القيادات المركزية للمناطق تتصل «بالقيادة العامة» المسؤولة عن كامل التنظيم في جميع أنحاء البلاد. وقد حقق التنظيم نجاحاً رائعاً في نشر شبكة خلاياه إلى كل قرية وكل موطن من مواطن القبائل القاصية والتي يطلق عليها اسم «الدوار» علاوة على تلك الخلايا السرية الكثيرة في المدن.

* * *

كانت قيادة التنظيم السري تعتمد في نجاحها - وبالدرجة الأولى - على نوعية عناصرها وفضائلهم. فكان يتم اختيار الشاب لضمه إلى هذه الخلايا من بين خيرة الشبان خلقاً وأدباً، وأكثرهم التزاماً وتمسكاً بدينه الاسلامي، وأوفرهم حماسة ونشاطاً، ولم يكن يسمح بضم العناصر التي تدين بالمبادىء الفوضوية أو تعتنق المذاهب الالحادية. كما لم يكن بالمستطاع ضم أي عنصر إلى خلية من الخلايا، إلّا بعد أن يقوم قلم المخابرات

الخاص بهذه الخلية بالتحري عن ماضيه وأعماله، وعما إذا كان له اتصال بالسلطات الاستعمارية. فإذا وجد فيه الشاب المؤمن الوطني، ضم إلى الخلية بسرية تامة، بحيث لا يعرف أحد من أهله أو إخوانه ورفاقه أو حتى أخلص الناس إليه بانضمامه إلى تنظيم الجهاز السري. ويطلق على الشاب، بعد انضمامه إلى الخلية لقب «المجاهد». وكثيراً ما يدهش بعض المجاهدين حين يجتمعون لأول مرة في الخلايا، بإخوانهم، فيجد الواحد منهم شقيقاً أو صديقاً أو قريباً قد سبقه إلى التنظيم، دون أدنى علم منه. وتضم الخلية - عادة - أحد عشر مجاهداً بينهم رئيس الخلية، ويتم اختيار المجاهدين في الخلية الواحدة، وفي معظم الأحيان، من أبناء حي واحد، حتى لا يثير اجتماعهم أدنى شك أو شبهة. ولا يعرف المجاهد غير أفراد خليته، سواء في دائرته أو في القطر كله. ولذلك لم يكن من الغريب رؤية شقيقين أو صديقين منظمين في الجهاز السري، ولا يعرف الواحد منهما عن الآخر شيئاً، لوجود كل واحد منهما في خلية منفردة.

يجتمع رئيس الخلية مع بعض رؤساء الخلايا الأخرى حيث يشكل هؤلاء «المجموع» ولهذا المجموع رئيس يجتمع بدوره مع رؤساء المجموعات الأخرى التي يضمها الدوار - القرية - أو الناحية أو المدينة. فيشكلون القيادة المحلية للدائرة. ويجتمع بالقيادة المحلية ورئيسها مفتش عن القيادة المركزية للمنطقة أو الولاية «العمالة». ويكون المفتش في أغلب الأحيان غريباً عن المنطقة، لأنه يكون عنصر

الاتصال بين القيادة المركزية في المنطقة وبقية دوائرها. **وتتلقى** قيادة المنطقة المركزية تعليماتها من القيادة العامة بواسطة **ضباط** اتصال سريين، وتصدر القيادة المركزية بدورها التعليمات **بعد** دراستها جيداً، إلى الدوائر التابعة لها. وهناك تدرس **هذه** التعليمات والأوامر، لتنفذ قدر المستطاع. والجدير بالذكر **أنه** من المحال التعرف على الاسم الحقيقي للمفتش، أو ضابط الاتصال، أو أن تعثر على تذكرة هويتهم الصحيحة، فهم مجهولون حتى من كبار زملائهم المفتشين والقادة، ولا يعرف بهم إلّا الرئيس المختص بنشاطهم. وإذا حدث أن افتضح التنظيم السري في مدينة من المدن، فسرعان ما ينقل المفتش من الولاية «العمالة» كلها. ويبدل بآخر لإعادة تنظيم الجهاز **مرة** أخرى. ومن المؤكد أن جهاز التنظيم السري لم يكشف قط منذ إنشائه. وسرعان ما كان يتم نقل المجاهدين الذين تحوم حولهم شبهات الشرطة الافرنسية، من تنظيم الأجهزة السرية إلى تنظيم الحزب العلني، حيث تنتظرهم الأعمال غير السرية، ويقطعون كل صلة لهم بالتنظيم السري ومجاهديه.

وتتلخص مهمة «التنظيم السري» بضم أكبر عدد ممكن من الشبان المسلمين إلى أجهزته. وبث روح الجهاد والثورة والفداء في نفوسهم، وتدريبهم على أساليب الدعاية السرية المنظمة. بحيث يمهدون السبيل في أوساط الشعب لقبول الثورة واحتضانها وحمايتها. وقد كان لهذا التنظيم اليد الطولى في إنجاح ثورة التحرير الكبرى **(١٩٥٤)، وتعريف** جماهير الشعب بمضمون الثورة وأهدافها القريبة والبعيدة. أما الوسائل التي كان

يستخدمها التنظيم السري السياسي لبث الدعاية، ودفع الشعب إلى التكتل حول الحركة الوطنية، وإعداده للمعركة الحاسمة، فهي: البيانات - المنشورات - السرية، ولصق الاعلانات والقيام بطرح الشعارات الجماهيرية في مناطق تجمعات الشعب، وإصدار كتيبات عن أعمال الاستعمار الوحشية. وكثيراً ما كانت هذه الكتيبات تتضمن لمحة عن تاريخ الجزائر المستقلة - قبل الاستعمار الافرنسي - وذلك بهدف ربط الجهاد بالأصالة الثورية للجزائر. وكان التنظيم السري يحرص كل الحرص على فضح جميع المؤامرات الاستعمارية التي كانت تحاك ضد الشعب الجزائري. كما كان ينظم التظاهرات والاضرابات الاجتماعية. فهو الساهر على مصلحة الشعب الجزائري، وهو طلائع التضحية والجهاد.

لقد شعرت الادارة الافرنسية في الجزائر - والمستوطنون الافرنسيون - بأرض الجزائر وهي تميد من تحت أقدامهم. غير أنهم لم يتمكنوا من إمساك الخيوط المحركة لهياج الجماهير، فكانت مذبحة ٨ أيار - مايو - وسيلة للقضاء على «المجهول». ولم تكن أعمال إبادة الأطفال والشبان في سطيف وقالمة وسواهما سوى محاولة لإجهاض ثورة المستقبل، غير أن هذه المحاولة، على قسوتها، وعلى وحشيتها، لم تزيد النار إلّا ضراماً. إذ أنها قدمت للتنظيم السري الشواهد الثابتة على صحة المنطلقات النظرية التي كان يطرحها على الجماهير.

(أ) «الشرف العسكري» أو (التنظيم الخاص):

تأكدت القيادة العليا للتنظيم السري السياسي، بعد

احداث (مذبحة أيار - مايو) أنه من المحال تحقيق أهداف الشعب الجزائري وتطلعاته بوسائل الصراع السلمي. فقررت تكوين جهاز عسكري أطلقت عليه اسم (الشرف العسكري) وترجمته الادارة الافرنسية بعد ذلك باسم (التنظيم الخاص)(*) وحددت واجبه «بالعمل لانتزاع الاستقلال بالقوة، الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الاستعمار» وبذلت الجهود لإعداد جهاز هذا التنظيم حتى يعمل بدقة متناهية، مع مراعاة كل شروط الحيطة والكتمان. وكان يتم اختيار المجاهد للدخول في تنظيم (الشرف العسكري) من بين مجاهدي التنظيم السري السياسي، وممن أتموا السنة الثانية في هذا التنظيم وأثبتوا كفاءتهم العالية، وبقي سجلهم نظيفاً ومشرقاً، وكان يفضل منهم الأعزب الذي تجاوز في عمره العشرين سنة، بحيث يكون قد اكتمل في قوته الجسدية، وتوافر له الوعي الجيد لما سيضطلع به من أعباء وواجبات. ويقسم على حفظ السر - وهو الشرط الأساسي لقبول المجاهد في هذا التنظيم - وتجدر الاشارة إلى أن مجاهدي «التنظيم السري السياسي» لم يكونوا يعرفون بوجود «تنظيم الشرف العسكري». وكانت الخلية التي ينقل منها المجاهد المثالي إلى «الشرف العسكري» تعتقد أنه قد أخرج من التنظيم السري إلى مجال العمل السياسي أو العلني، أو أنه قد نقل إلى خلية أخرى، وعلى كل حال، فإنها لا تسأل عن سبب تغيبه، ولا يحق لأحد من أفرادها مناقشة المجاهد عن سبب اختفائه.

* * *

(*) التنظيم أو المنظمة الخاصة: (Organisation Special)

هكذا، تدعم العمل السري، وظنت الحكومة الافرنسية أنه من الحنكة أن تسمح بعودة «حزب الشعب الجزائري» إلى العمل العلني (تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٤٦) حتى تجهض النشاط السري الذي لم تتمكن من متابعته، وحتى تجابه به «الاتحاد الديمقراطي لأصدقاء البيان الجزائري» من جهة ثانية. ولا ريب أنها كانت تجهل بأنه في اللحظة التي عاد فيها حزب الشعب الجزائري للعمل العلني (تحت اسم حركة انتصار الحريات والديمقراطية). كانت هناك مجموعة من المجاهدين قد مضت قدماً، ودون أي تفكير بالتراجع، للعمل في تنظيم المقاومة الأولى السرية. وغني عن البيان أن كثيراً من الجنود الجزائريين، بعد أن ساهموا بشجاعة في معارك ايطاليا وفرنسا وألمانيا، عادوا في صيف عام ١٩٤٥ إلى الجزائر، فلم يجدوا في وطنهم إلّا الحداد والخراب في حين كان أبناء المستوطنين ينعمون بخيرات الجزائر ويعملون على اضطهاد شعبها(*) وبينما كانوا يقاتلون لتحرير فرنسا، ويؤمنون انتصار الحلفاء، كانت فرنسا تسلم أسرهم إلى فظائع جنودها وبعض المستوطنين. لهذا انصرف عدد كبير من هؤلاء الجنود إلى صفوف الثوار - ومن الأمثلة على ذلك الرقيب عمران - ترى أين كان باستطاعة هؤلاء الجنود أن يتوجهوا، حيال مثل هذه النكبات الهائلة،

(*) * لقد أشاد عدد كبير من قادة فرنسا بجهود الجزائريين في تحرير فرنسا، غير إنهم تجنبوا ذكر نسبة المسلمين الجزائريين الذين اشتركوا في الحرب وهي ٩٠ بالمائة. في حين كان أبناء المستوطنين من أنصار حكومة فيشي ينتحلون الأعذار للبقاء في مزارعهم ووظائفهم.

والمظالم الشاملة، اللهم سوى نحو أولئك الذين يهيؤون لمعركة الحرية الكبرى؟

وهكذا، أخذت تبرز في صفوف الشعب إرادة هائلة نحو التحرير، وأخذ الشعب الجزائري يؤكد بجميع الوسائل تصميمه على تحقيق حياة وطنية صحيحة. وقد تأثر عدد من موظفي أجهزة الادارة الافرنسية بالحركة، وانضموا إليها. ويمكن - على سبيل المثال - التعرض لقصة «محمد بن ازداد» الموظف الشاب لدى حكومة الجزائر، والذي تخلى عن وظيفته لدى الحكومة العامة، ليقف نفسه على خدمة الحزب. فكان عقائدياً ومنظماً من الدرجة الأولى، بقدر ما كان مثالياً في تواضعه وإنكاره لذاته. وقد أدى شظف الحياة السرية وصعوباتها إلى تدمير صحته، فأرسل إلى فرنسا تحت اسم مستعار للاستشفاء، غير أنه مات في أحد المصحات هناك سنة ١٩٤٩. ومهما يكن من أمر، فإنه في الوقت الذي كانت فيه الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية تقوم بعمل علني مشروع، كانت تنشىء وتطور منظمة (الشرف العسكري - أو - التنظيم الخاص) لتكون جهازاً عسكرياً يمارس عمله بسرية مطلقة. ويضطلع بواجبه في إعداد الحركة الثورية. وأخذت النفسية الثورية تصبح عملاً مشخصاً، فقد ولد الرجال الجدد في فترة ما بين الحربين العالميتين، وتكونت معهم مفاهيمهم الخاصة ببطلان التصريحات في الساحات العامة، وبطلان الاتجاهات السياسية المتناقضة، وما يرافقها من أساليب غوغائية ديماغوجية تعبر عن العقلية الحزبية الضيقة والمحدودة. وكفر هؤلاء بكل الأساليب الشرعية التي

يحدد الاستعمار ذاته شرعيتها وقانونيتها. فالعمل الثوري وحده هو الذي يمكنه وضع حد حاسم للسيطرة والاستغلال المديدين.

بدأت منظمة «الشرف العسكري» إلى العمل الميداني المباشر معتمدة على الأصالة الثورية لشعب الجزائر، غير أن هذه الأصالة، والتي عبرت عنها الجزائر بثوراتها المتتالية طوال عهد الاستعمار، كانت تفتقر إلى التنظيم الصحيح. وكان لا بد من استلهام خبرات الحروب الثورية في العالم من حيث التنظيم (وأبرزها حرب الهند الصينية). وأخذ المجاهدون شباناً وشيوخاً يلتحقون بالجبال - بسرية تامة - حيث يتدربون على السلاح، ومن الأمثلة على ذلك قيام شاب جزائري بتنظيم أول مركز حربي مجهز بمحطة لاسلكية للارسال والاستقبال. وكان النظام صارماً، والتدريب حسب منهاج منظم، وكان كل شيء يعد لحرب عصابات طويلة الأمد. وكانت هناك ثلاث قطاعات تتقاسم نشاط التجنيد وهي (قطاع الارتباط وقطاع الامداد وقطاع المغاوير الفدائيين). وكانت إجراءات الأمن تسدل حجباً كثيفة بين مختلف الفرق. وكان تسيير المجاهدين محدداً بأفضل العناصر وأكثرها تجربة. وكانت مدة التعبئة غير محدودة.

وانطلاقاً من هذا التنظيم الذي بدأ منذ مؤتمر شباط - فبراير - ١٩٤٧. أخذ الحزب يجابه السلطات الافرنسية على جبهتين، جبهة الشرعية، وجبهة العمل السري. فمن الوجهة الشرعية كان «لحركة انتصار الحريات والديمقراطية» خمسة نواب في المجلس النيابي الافرنسي - البرلمان - وكان يمسك بعدة

بلديات، منها بلديات الجزائر ووهران وقسنطينة وعنابة «نوبة» وسكيكدة «فيليب فيل» وبليدة وتلمسان. وكان النشاط العلني للحركة يتركز على قضية استقلال الجزائر والمطالبة باطلاق سراح زعيم الحزب «مصالي الحاج» والتنسيق مع الجامعة العربية. وكانت الادارة الافرنسية تجابه هذا النشاط العلني باسلحتها التقليدية، مثل تزوير الانتخابات والملاحقات القضائية القانونية -وإصدار الأحكام الجائرة التعسفية، وفرض الغرامات، وزرع بذور التفرقة بين التكتلات والأحزاب وضرب بعضها ببعض، وتمويل الأجهزة للتفريق بين المسلمين من عرب وبربر بإثارة القضية القومية، وتطوير الحرب ضد العروبة واللغة العربية ــ لغة القرآن الكريم ــ وكان الحزب في تنظيمه ويقظته يقوم بهجمات مضادة، ويتغلب على كل العقبات.

أما في مجال العمل السري، فقد كانت المعركة عنيفة مظلمة، كانت مبارزة حتى الموت بين الوطنيين والشرطة الاستعمارية. وكانت كل الوسائل صالحة عند قوى الأمن. فبحجة مطاردة اللصوص، كان رجال الشرطة يتسللون إلى كل مكان، ويقتحمون المنازل وينتهكون حرماتها ويحاصرونها. ويخربون القرى، وينفذون أبشع أعمال العنف ضد الأهلين. وعندما كانوا يعتقلون الوطنيين - ويعثرون على ضالتهم - يخضعونهم لأقسى أنواع التعذيب. ولما كان نشاط العمل السري يتطلب تمويلاً ضخمًا يزيد على قدرات الحزب وإمكاناته، فقد قام عدد من مجاهدي المنظمة السرية «الشرف العسكري» بمهاجمة دائرة البريد في وهران، واستولوا على مليون دولار تقريباً.

وضمنت المنظمة بذلك الأموال اللازمة لدعم حركاتها المقبلة، وأمكن لها تطوير التدريب العسكري وتحسينه يوماً بعد يوم. وهكذا قضت المنظمة السنوات التي انصرمت بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٥٠ في جمع الأسلحة وتدريب المتطوعين، ووضع الخطط للاستيلاء على الجزائر. وعلى الرغم من أن قادة المنظمة الشبان من أمثال «آية أحمد» و«أحمد بن بيللا» و«محمد العربي بن مهيدي» و«محمد بوضياف» و«عبان» و«الأخضر بن طوبال» و«عبدالحفيظ بوصوف» وسواهم. قد نالوا رضى «مصالي الحاج» منذ البداية، إلا أنهم لم يفلحوا في إقناع زعيم الحركة بأن اللحظة غدت مؤاتية للبدء بالهجوم، وإشعال نار الثورة.

كانت «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» تتعرض تلك الفترة لأزمة حادة، فقد تعرضت تنظيماتها السرية لأعمال عنف بالغة الشدة من جانب السلطة الافرنسية، في «هوسون فير» في عام ١٩٤٨. وفي «سيدي علي ابو ناب» في عام ١٩٤٩ وفي غيرهما من الأماكن في جبال الأوراس وقسنطينة. وأدت هذه الاجراءات التي تناولت عدداً من مجاهدي الحزب المحليين، إلى إعادة تنظيم القيادات المحلية بصورة مستمرة. وغدت سياسة الحركة الانتخابية هي محور الخلاف الداخلي. فقد رشحت الحركة عدداً من رجالها للانتخابات في حين كانت تطور نشاطها السري. واعتبر بعض المجاهدين الشبان أن اشتراك الحركة في المجالس الافرنسية التشريعية هو خيانة، بينما رأى مناضلون آخرون في هذا الاشتراك الطريقة الوحيدة للحصول على مكاسب قصيرة الأمد، ولتغطية النشاط السري. وعلى كل حال، فقد لاحظ قادة التنظيم السري بأن التأخير في انطلاقة الثورة، وعدم

الانتقال إلى العمل، من شأنه التأثير على الروح المعنوية لأفراد التنظيم، وسيضعف من قدرة التنظيم، ويعرضه لضربات الادارة الاستعمارية. وهكذا وبينما كان التنظيم السري «الشرف العسكري» يستعد للانطلاق بالثورة، وقع حادث في قسنطينة سنة ١٩٥٠ أدى إلى كشف هذا التنظيم، وتمكن رجال الشرطة الافرنسية من وضع قبضتهم على شبكة التنظيم. فاعتقلوا المئات من الأعضاء. غير ان الادارة الافرنسية لم تكتشف شبكة التنظيم في منطقة «القبيلة» فبقي هذا التنظيم سليمًا حتى جاءت الثورة (١٩٥٤). واجتمعت اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديموقراطية بعد هذا الحادث، وقررت حل المنظمة الخاصة مؤقتاً، لأنها رأت أنه ليس من المجدي الاحتفاظ بجيش قائم في فترة انتظار طويلة. وأضافت أنها ترى أن الحاجة تدعو فقط إلى تدريب هيئة قيادة وبعض الخبراء الفنيين، قبل بضعة أشهر من بدء الحركة الفعلية. وأدى حل المنظمة إلى نوع من شعور الجفاء بين «مصالي الحاج» و«مجموعة الشبان» قادة التنظيم السري الذي جهدوا كثيراً في إنشاء هذا الجيش. وقد برهنت تنظيمات الجيش السري وأسلحته، على أنها ذات فائدة لا تقدر بثمن، وذلك عندما تفجرت الثورة الكبرى سنة ١٩٥٤.

(ب) اللجنة الثورية للوحدة والعمل:

أدى اكتشاف منظمة «الشرف العسكري» في قسنطينة، إلى قيام الادارة الافرنسية بهجمة إرهابية شرسة، تمت خلالها مطاردة زعماء التنظيم واعتقال بعضهم، وهكذا اختفى من على المسرح «بن بللا» و«عبان» و«بوضياف» و«بن طوبال» و«بوصوف»

التنظيمات الحزبية والتكتلات السياسية التي عرفتها الجزائر خلال مرحلة التحرك القومي

١٩٢٤ – ١٩٥٤

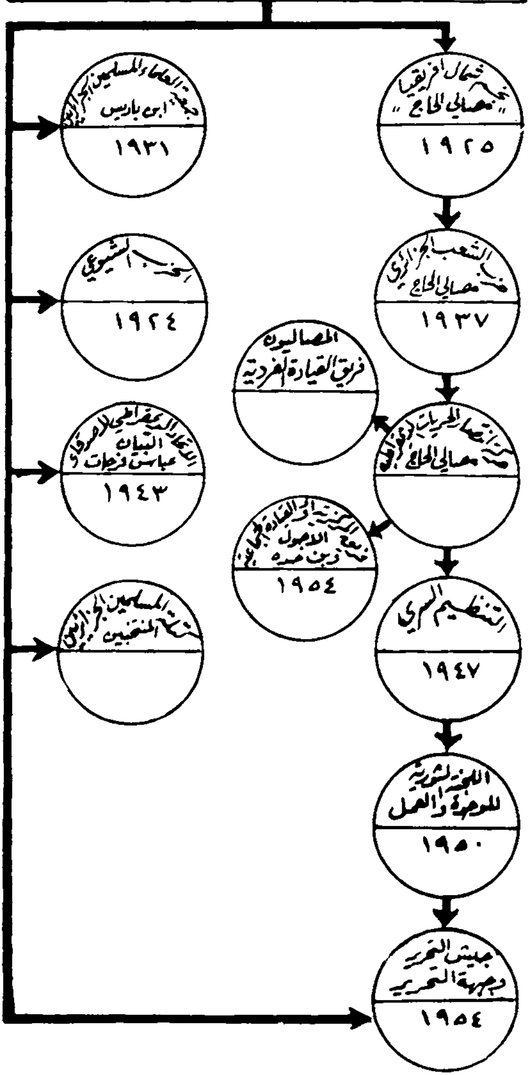

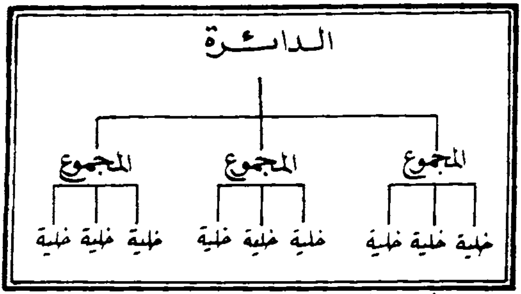

١ - تشعب الخلايا السرية في دائرة من الدوائر

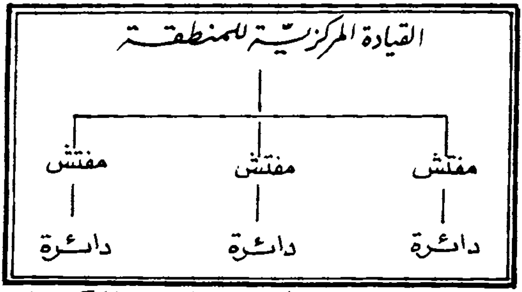

٢ - طريقة اتصال الدوائر بالقيادة المركزية لاحدى المناطق

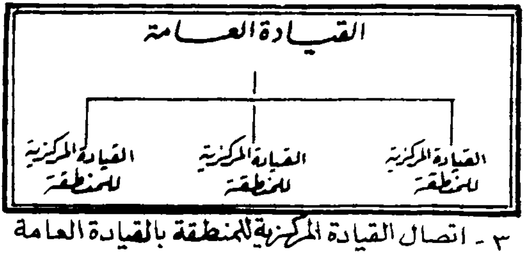

٣ - اتصال القيادة المركزية للمنطقة بالقيادة العامة

وغيرهم من القائمة الطويلة. وبقي «محمد خيضر» حراً بفضل حصانته النيابية، ثم التحق بالقاهرة في نهاية ولايته النيابية - بعد الانتخابات التشريعية. وأدى اكتشاف المنظمة الخاصة وتدميرها إلى تأخير موعد قيام الثورة. ولكن الحركة ستجد فيما بعد الوقت الكافي لالتقاط أنفاسها، وإعادة تجميع قواها، والانتقال إلى العمل.

كانت «حركة انتصارالحريات والديموقراطية» خلال ذلك غارقة في مناقشاتها، منصرفة إلى صراعاتها العقيمة. ووراء تلك المناقشات والصراعات كان الخزان العظيم للشعب الجزائري يتعرض لمجاعة حقيقية، وكان الهدوء الظاهر المخيم على خزان الشعب كافياً لإخفاء ما كان يتفاعل في النفوس من الغضب الناجم عن ذلك الفارق الكبير بين العيش الغارق في الترف للمستوطنين الأجانب، وبين عيش البؤس والفقر المدقع مما كان يعيشه أبناء البلاد. وجاءت الهزة الأرضية في الأصنام «اورليا نزفيل» في صيف ١٩٥٤، لتسجل للادارة الافرنسية أسوأ مظاهر التمييز العنصري في معاملة ضحايا الزلزال. وغدا الشعب الجزائري، من فلاحيه إلى أصحاب المهن من أبنائه، على استعداد للقيام بأي شيء للتخلص من هذا الوضع الغريب. وكان زعماء الجزائر - الشبان - يراقبون بدقة تطورات الأوضاع في الافق الدولي. وأخذ الشعب يسمع ويتابع أخبار الشعوب الجديدة التي حصلت حديثاً على استقلالها بجهودها وتضحياتها مؤكدة بذلك حقيقة أنه باستطاعة الشعوب الضعيفة مقارعة

الشعوب الاستعمارية القوية والانتصار عليها، بالرغم من كل تفوق في موازين القوى. وجاءت أحداث تونس في عام ١٩٥٤ لتبرهن من جديد، أن القوة، حتى ولو مارستها بضع مئات من محاربي الجبال، قد تؤدي إلى نتائج عظيمة. وإلى الغرب - في مراكش - واصل المغاربة استعمال الارهاب لإظهار غضبهم على الطغيان الافرنسي، وعلى نفي سلطانهم من البلاد. وظهر أن الوطن الاسلامي - العربي كله يتأجج بنار الثورة. وهكذا لم يعد توجيه هذه التيارات الجزائرية العميقة من الغضب باتجاه الثورة في حاجة إلى أي شيء آخر غير القادة والأسلحة.

وصل التمزق في «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» منتهاه وغايته مع بداية عام ١٩٥٤، وتمركز الصراع بين مركزي القوى الرئيسيين - على نحو ما سبق عرضه - مركز «مصالي الحاج» وأنصاره، ومركز «اللجنة المركزية» بقيادة بن يوسف بن خده وعبدالرحمن كيوان وحسين الأحول، وأنصارهم. غير أن اتجاهاً ثالثاً نشأ بين هذين المركزين المتصارعين على مستوى القمة، وكان هذا الاتجاه الثالث هو الأكثر التصاقاً بقواعد الحزب والأشد تلاحماً معها. وقد ضم هذا الاتجاه العناصر القيادية من المنظمة السياسية، ومن المنظمة الخاصة «الشرف العسكري» وكان لهذا الاتجاه رأيه الخاص تجاه الأزمة التي كانت تهز القومية الجزائرية. وقد عبر هذا الاتجاه عن رأيه بما يلي:

أولاً: إن الأزمة باعتبارها أزمة على مستوى القيادة، تضع على بساط البحث مسؤولية جميع القادة بما في ذلك «مصالي الحاج»

ثانياً: يجب البحث في وسائل المحافظة على وحدة الحزب، من خلال طرح أسباب الصراع على القاعدة وأعضائها، وتوضيح الموقف الذي بات مشوشاً وغامضاً إثر حملات السباب وتبادل الادانات والاتهامات. ومن هنا فقد أصبح لزاماً على فروع الحزب الانفصال عن القيادتين المتصارعتين وإجراء مداولات نزيهة وموضوعية توفر الضمانات الديموقراطية لجميع الأعضاء دون تمييز في الاتجاهات. وقد رفض هذا الاتجاه الأخذ بقرارات المجالس التي عقدها كل من أنصار اللجنة المركزية وأنصار مصالي الحاج.

ثالثاً، إن أفضل طريقة لتسوية الخلاف، على المستوى السياسي، تكمن في استعادة المبادأة في الكفاح ضد الامبريالية، لأن استعادة المبادأة تعني تصلب الكفاح، والانتقال إلى العمل المباشر مع أخذ ظروف شمال افريقيا بعين الاعتبار.

استطاع هذا الاتجاه أن يجمع حوله غالبية المجاهدين القوميين في الجزائر، الذين لم يكن باستطاعتهم وقد تخرجوا من المدرسة الثورية، إلا أن يدعموا بكل قواهم «نظرية تجمع الحرص على المحافظة على وحدة الحزب، والرغبة في دفع القضية الوطنية على طريق الصراع المصيري الحاسم» في وقت كانت فيه الحاجة ملحة إلى وضع القضية الجزائرية على ذات المستوى الذي بلغته القضيتان المغربية والتونسية. ولقد ظهر لأصحاب هذه النظرية، أن الأزمة، قبل أن تكون أزمة قيادة وأشخاص،

هي أزمة جيلين: جيل صنع طويلاً الأداة الثورية في ظل نظرية قومية. وجيل كان يريد الانتقال فوراً إلى العمل المباشر. ونادراً ما اجتمعت النظرية والعمل لدى رجل واحد.

* * *

أعلن على أثر ذلك تنظيم «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» تعبيراً عن هذا الاتجاه الثالث. وتشكلت لجنة تضم إثني وعشرين عضواً فوضت سلطاتها الى «محمد بوضياف» لتعيين القيادة. وعمل بوضياف على تشكيل لجنة من تسعة أعضاء، أوكل إليهم قضية «الانطلاق بالتنظيم نحو الثورة». وانتقل بعض هؤلاء للعمل في مناطقهم بينما توجه آخرون الى خارج الجزائر لتأمين متطلبات الثورة. واتصلت «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» ضمن نطاق اتصالاتها بحزب الدستور الجديد في تونس، وبحزب الاستقلال في المغرب لتنسيق عمل الثورة على مستوى المغرب العربي-الاسلامي، ولدعم الصراع المشترك ضد الاستعمار الافرنسي. وفي القاهرة، قام مكتب «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بجمع نشاط المنظمات الافريقية، وضمن دعم رؤساء البلاد العربية. وهكذا كانت «قيادة اللجنة الثورية للوحدة والعمل» في صيف ١٩٥٤، على رأس العمل. وكانت المنظمة السرية شبه العسكرية بأسرها جاهزة بانتظار ساعة الصفر. وكان من الضروري الاسراع بالعمل، فلدى العدو وسائله القوية، التي يتهدد بها الجهاز الثوري والذي لم يتشكل إلا بعد جهد كبير وصبر طويل.

قام في موقع «سوق باب عزون القديم» حيث كان جنود الحملة الافرنسية يبيعون في نيسان - ابريل - عام ١٨٣٢. أساور الحرائر الجزائريات التي كانت ما تزال معلقة بالمعاصم المقطوعة. قام في هذا الموقع حي غني هو حي المصارف، حيث تجد أبنية الشركة الجزائرية والبنك العقاري وبنك الجزائر، والشركة العمومية الخ... وفي الحي ذاته، بين شارع الحرية، وشارع كارنو، يرتفع بخيلاء قصر المفوضيات المالية الذي تحول عام ١٩٤٨ - إلى «مقر الجمعية الجزائرية». فهنا، وخلال أجيال تحت ظل شعارات الثورة الافرنسية «حرية، مساواة، إخاء» تكون بعض كبار الملاكين الزراعيين، ثم ظلوا أسياد المال والميزانية. ومارسوا سيادتهم على البلاد بأسرها، فصنعوا وأقالوا حكومات، ونقلوا موظفين كباراً، ووزعوا المكافآت، وعينوا وراقبوا ملاكات الموظفين الوطنيين - الكادرات - ونظموا اقتصاد الجزائر لمصلحتهم. وسخروا شعباً بكامله لخدمتهم بعد أن أخضعوه بالقوة، وأسلموه إلى القوانين العنصرية، وجمعوا ثروات فاضحة، بل أنهم عطلوا القوانين الافرنسية، عندما كانت مثل هذه القوانين لا تستجيب تماماً لمصالحهم.

هناك، في هذا الحي نفسه، وفي منتصف حزيران - يونيو - من عام ١٩٥٤، اجتمع ستة جزائريين، ستة وطنيين، من أصل متواضع مغمور ينتسبون إلى جمهور الشعب الكبير، اجتمعوا في جلسات عمل، وعقدوا في منزل عامل متواضع جلسات متعددة. كانوا يؤدون مهمة تنفيذ قرار صادر عن (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) لإقامة جهاز مقدر له أن

يدمر بالسلاح النظام الاستعماري ويحرر البلاد. لقد انتهت بالنسبة لمنظمتهم هذه عهود الدعاية الشفوية العلنية فغدت الثورة الوطنية الحل الوحيد ضد نظام وصلت به صفاقته إلى حد كان يخرق معه القوانين التي يضعها هو بنفسه. ولم يكن يتوافر لهؤلاء الجزائريين وسائل ضخمة، فكل ما كان بحوزتهم بعض الأسلحة الرشاشة وبنادق الصيد، وبعض الالوف من الفرنكات. ولكن كان لديهم الشيء الكثير من الجرأة والايمان والوطنية. أما هؤلاء الرجال فكانوا: مصطفى بن بولعيد القادم من الأوراس، ومحمد العربي بن مهيدي من عين مليلا، ورابح بيطاط من عين كرمة في مقاطعة قسنطينة، ومحمد بوضياف سليل أسرة كبيرة في مسيلا وموظف مالي سابق في برج بوعريريج، وديدوش مراد من ضواحي الجزائر العاصمة وكريم بلقاسم الذي هبط من جبال القبائل الكبرى. وكانوا على ارتباط بثلاثة من الوطنيين الآخرين الذين كانوا في القاهرة لمهمات اخرى وهم حسين آية أحمد - ابن أحد الأشراف في منطقة القبائل. وأحمد بن بللا من غنية على الحدود المغربية ومحمد خيضر - نائب سابق.

تابع أعضاء القيادة الستة اجتماعاتهم في مدينة الجزائر بصورة دورية. فعملوا على تعيين القادة المسؤولين عن المناطق والنواحي، ثم وزعت بعض الأسلحة الرشاشة. مع تأمين التموين للمجاهدين، ضمن الامكانات المتوافرة، وتبعاً لما كان يتطلبه نشاط الأنصار. وكان كل واحد من القادة الستة يزورالمنطقة الخاصة به بين فترة وأخرى لتفقد الاستعدادات

القتالية، وتعيين مواقع المجاهدين. وكان مصطفى بن بولعيد مسؤولاً عن المنطقة الاولى (منطقة الاوراس) في حين كان ديدوش مراد مسؤولاً عن المنطقة الثانية (منطقة قسنطينة). وكان كريم بلقاسم مسؤولاً عن المنطقة الثالثة (منطقة القبائل) أما محمد العربي ابن مهيدي فكان مسؤولاً عن منطقة وهران. وتكفل رابح بيطاط بمسؤولية العمل في العاصمة الجزائر. ورأى قادة (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) أنه من الضرورة بعد تنظيم المربعات العسكرية، إنشاء تشكيل سياسي جديد تتوافر له القدرة على تعبئة جماهير الشعب حول اللجنة. فتم الاتفاق على تشكيل «جبهة التحرير الوطني الجزائرية» التي انضم إليها أشهر المجاهدين، وانصهرت فيها المنظمات الوطنية القديمة، وكان يبدو لهم أن اتحاد القوى الفعالة في الشعب الجزائري هو الضمانة الاولى لانتصار الثورة. ولهذا تم تأخير الاعلان عن تشكيل الجبهة حتى صبيحة يوم انفجار الثورة.

لقد أوكلت إلى السيد «محمد بوضياف» مهمة تنظيم جبهة التحرير السياسي والاداري، والتنسيق بين المناطق. وكان بوضياف قد قام بدور أساسي وحاسم في تشكيل «المنظمة الخاصة - الشرف العسكري».

لم يكن العمل سهلاً، فالمخاطرة كبيرة، والعقبات ضخمة والمسؤوليات الثقيلة مرهقة. ولم تكن تصفية احتلال استعماري وحشي امتد قرناً وربع القرن لتتم في يوم وليلة. فمنذ عام ١٨٣٠، كان للنظام الاستعماري القائم على الاستيطان

الافرنسي الهائل، الوقت الكافي ليمد جذوره، وليضمن عملاء له بين شعب مغلوب على أمره. أما الاوروبيون، فكان من المؤكد أنهم سيدافعون عن النظام الاستعماري الذي يضمن لهم السيطرة والامتيازات. وفي فرنسا لن تكون البورجوازية عاجزة عن تعبئة جميع قواها من أجل إعادة إحكام قبضتها على الجزائر، فلا مكان لدى الاستعماريين للعواطف عندما تصبح مصالحهم معرضة للخطر. ولكن حماسة الشباب، ومرارة شعب بأسره، كانتا في حالة يصبح معها كل شيء ممكناً، ولقد عرف التاريخ في كل زمان ومكان - إيمان المضطهدين وقد أمكن له الانتصار دائمًا على كل العقبات التي يصنعها الطغاة. ولهذا اتجهت قيادة (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) نحو المركزيين والمصاليين، لتحاشي كل سوء تفاهم، ولتبديد كل التباس أو غموض، ووجهت اليهم الأسئلة الثلاثة التالية:

أولاً: هل تؤيدون العمل المباشر؟

ثانياً: في حال الايجاب ماذا تضعون تحت تصرفه؟

ثالثاً: إذا بدأ هذا العمل دون مشاركتكم، فما هو موقفكم؟.

وقد رد أنصار «مصالي الحاج» بالرفض المطلق، فلم يكونوا يعترفون بأية منظمة وطنية خارج المنظمة التي يرأسها مصالي الحاج، وهو وحده الذي يمكن أن يصدر إليهم أمراً مجدياً. أما المركزيون، فقد تحفظوا دون أن يبدوا الخصومة.

وفيما يختص (بالحركة الديموقراطية للبيان الجزائري ـ فرحات عباس) فقد قبلت الاشتراك في العمل.

لم يبق بعد ذلك، إلا موعد تحديد إطلاق رصاصة الثورة الاولى، ومن أجل ذلك عقد قادة «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» اجتماعهم التاريخي في العاشر من تشرين الأول - اكتوبر - واتخذوا قرارهم الخطير، بالبدء بالثورة في يوم عيد جميع القديسين - أي في الساعة الواحدة من صباح اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤. واجتمع في غضون ذلك زعماء لجنة الثورة الموجودون في الخارج - في مراكز الاصطياف في سويسرا - لتنظيم عمليات شراء الأسلحة، وحشد تأييد الوطنيين الآخرين. وانضم عدد من أنصار اللجنة المركزية إلى الحركة.

لقد أزفت اللحظة الحاسمة التي طال انتظارها، ولم يعد هناك مجال للتردد أو النكوص. فمضت القيادة التاريخية للعمل مخلفة وراءها المتمهلين والمترددين، لكنها لم تتخل عن أملها في امكانية توحيد كل الصفوف والقوى الوطنية من خلال العمل الثوري ذاته. ومضت الأيام التي سبقت الثورة في عمل متصل، وجهد مستمر، لقد صمم القادة التاريخيون على اطلاق رصاصتهم الاولى في مناخ يستثير المشاعر، ويلهب حماسة الجماهير. وأخذت الاستعدادات تصل إلى ذروة كمالها مع اقتراب موعد الانفجار. وفي الموعد، وقف القادة التاريخيون في وسط المعركة وهم يراقبون الحدث الذي صنعوه، ويتابعون تأثيره ونتائجه.

(ج) القادة التاريخيون:

لقد مضى ربع قرن على انطلاقة الثورة، وبات بالامكان معرفة بعض أسرارها، والتعرف على بعض القادة التاريخيين الذين أطلقوا شرارتها. ولم يكن هذا الأمر ممكناً في ظروف الثورة. فقد حرص أولئك القادة على تجنب كل ما يكشف عن شخصياتهم، واعتصموا بقواعد الثورة، وحاولوا البقاء في الظل، ولم يشتركوا في أي مؤتمر عام - خارج القطر الجزائري إلا بعد انتهاء الثورة. ولقد أسهم في الثورة جميع الجزائريين الذين فازوا بممارسة بعض الأعمال الادارية أو القيادة، واكتسبوا بذلك خبرة كافية تؤهلهم لممارسة أعمالهم في ظلال الثورة وتحت رايتها، سواء كانت خبرة هؤلاء ناجمة عن عملهم في القطاع المدني - خلال الفترة الأخيرة التي سبقت الثورة - أو في الجيش الافرنسي ذاته. وكان معظم جيل القادة من الذين ولدوا في فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية، ولهذا لم يروا في فرنسا إلا بلداً ممزقاً في اتجاهاته منحلاً في قيمه الأخلاقية، متحرراً من الفضائل المثلى، وجاءت هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية (سنة ١٩٤٠) واشتراك الجزائريين في الحرب لتؤكد لهؤلاء سقوط هالة «الرجل الأبيض المتفوق».

وعلى الرغم من أن أبناء هذا الجيل قد تلقوا الثقافة الافرنسية، إلا أنهم لم يعرفوا شيئاً عن التعاون مع فرنسا - بخلاف جيل مصالي الحاج وفرحات عباس وبن جلول وأضرابهم من كان مثلهم الأعلى في شبابهم توثيق التعاون مع فرنسا. وهنا

يبرز فضل «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» التي مارست دورها خلال هذه الفترة في تكوين تيار اسلامي-عربي، وبناء قاعدة صلبة للثورة، لم تلبث أن أسهمت في ربط الثورة بأصالتها التاريخية، وبالتراث النضالي للبلاد. وبقي الشيء المهم في قيادة الثورة الجزائرية، وهو ليس الافتقار إلى الزعيم الفرد، بل وجود القيادة التي تمتد إلى مسافات عميقة داخل صفوف المجاهدين.

ولعل العزوف عن تنصيب قائد فرد في موقع القمة هو الذي يفسر إحباط المحاولات التي قام بها «مصالي الحاج» للسيطرة على الحركة الوطنية الجزائرية وهي الوسيلة التي كانت تكمن وراءها رغبة الزعماء الجزائريين في عدم السماح لفرد واحد لاتخاذ قرارات قد تكون مهلكة وقاتلة، عندما يتخذها هذا الفرد، متأثراً بحوافز وانفعالات شخصية، هذا بالاضافة إلى صعوبة التأكد من قدرة الفرد - أي فرد - على الاستمرار في مواجهة قتال العصابات ومصاعبها ومتطلباتها في حرب طويلة الأمد. ولا يعني هذا أن بعض القادة السياسيين «في قيادة جبهة التحرير الوطني» والقادة العسكريين في «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي تحولت إلى «جيش التحرير الوطني» لم تستهوهم وتستميلهم فكرة الوصول إلى مرتبة القيادة الانفرادية المعترف بها. ولا ريب في أن عدداً من العسكريين قد أرادوا ممارسة السلطة المطلقة على نطاق ضيق - استجابة لمتطلبات حرية العمل العسكري وظروف حرب العصابات -. ولا ريب في أن بعضهم قد تمكن من تحقيقها لنفسه في وقت معين وفي إطار ظروف محددة وقاهرة. ولكن المقاومة التي أبداها الزعماء

الآخرون، والاخلاص المطلق لقضية الجهاد والقضية الوطنية، قد وضعا حداً لكل انحراف نحو انتحال السلطة الفردية.

* * *

عند هذه النقطة يمكن الوقوف لحظة أمام أولئك الرواد التاريخيين الذين أشعلوا فتيل الثورة. وعند هذه النقطة أيضاً، تنكس الرايات، لا رايات الجزائر المجاهدة فحسب، بل رايات الحرية في العالم إجلالاً لأرواح تلك الطليعة التي ستبقى أسماء أبطالها نماذج للتضحية وإنكار الذات، والدفاع عن الاسلام والعروبة في جزائر المسلمين.

لقد مضى مصطفى بن بولعيد ومحمد العربي بن مهيدي وباجي مختار وبن عبدالمالك رمضان وبشير شيهاني ومراد ديدوش وراشد ملا ويوسف زيروت وسوداني بوجمه، وسواهم كثير من جيل الرواد، وستبقى أسماؤهم الساحرة منارات تضيء سماء الجزائر وتشرق لها سماء الحرية. وإذا كانت الشهادة من نصيب هؤلاء، فقد كان الاستمرار في الجهاد من نصيب بقية القافلة الريادية. والتي ضمت على سبيل المثال - من سبق ذكرهم من أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل».

* * *

١ - **مصفى بن بولعيد**: هبط من جبال الاوراس وهو يحمل معه كل شمم الجبال وشموخها، وانصرف للعمل الدؤوب، يصل الليل بالنهار حتى أمكن له جمع ثروة مالية كافية لتأسيس شركة نقل (أريس - بطنا). وظن أن الحياة قد

ابتسمت له بعد تجهم، وأنه بات يستطيع التمتع بالحياة بعد بؤس وشقاء. غير أن طبيعة عمله جعلته باحتكاك دائم مع مواطنيه، فكان من المحال عليه الانفصال عن آلام مواطنيه، أو الابتعاد عن معاناتهم. وجاء عيد المولد النبوي الشريف من سنة ١٩٥١ واستنارت منارات ما بقي من مساجد الاسلام في الجزائر احتفالاً بهذه المناسبة العظيمة. واجتمع في فناء «مسجد شمورا» الكبير أكثر من خمسمائة مجاهد، كان بينهم مصطفى ابن بولعيد، ورابح بيطاط والأخضر بن طوبال، ثم انقطع «مصطفى بن بولعيد» عن عمله، ولم يعد يراه أحد تقريباً. غير أن قدامى المجاهدين يذكرون أنه نظم اجتماعاً كبيراً مماثلاً، ضم المجاهدين من مختلف الطبقات، فيهم من عانى أشد أنواع البؤس والفقر وفيهم من عرف بعضاً من الثراء واليسر، فيهم ابن المدينة، وفيهم ابن القرية الذي لم يعرف المدينة. واختار النخبة منهم، ووجههم للتدريب العسكري، فيما نظم البقية في خلايا سرايا كلفها بأعمال مختلفة. وكان «مصطفى بن بولعيد» خلال ذلك يتابع اتصالاته السرية، وينظم قواعد الثورة في الاوراس ويتابع تنسيق العمل مع اخوانه في «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» حتى إذا ما أزف موعد الثورة، ذهب مودعاً لمسقط رأسه «أريس» وودع فيها ذكريات عمره، ونظر إلى أولاده النظرة الأخيرة، وهجر شركة النقل التي طالما أودع فيها كل آماله، ومضى مخلفاً وراءه منزله ومكاتب شركته وما تضمه الشركة من مركبات واليات، لم يلبث أن قدمها مع كل ثروته للثورة. ووقف «مصطفى بن بولعيد» مع الثوار وهم يطلقون

الرصاصات الاولى في خنشلة وسواها، ثم مضى بجمع الثوار والمجاهدين إلى القواعد المأمونة في الاوراس. وأخذ في بذل كل جهد مستطاع لتطوير الأعمال القتالية. غير أنه شعر بالحاجة للمؤن والأعتدة والأسلحة، فمضى للبحث عنها في مطلع سنة ١٩٥٥، إذ ذاك وقع في قبضة القوات الافرنسية عندما كان قريباً من الحدود الليبية. ولكنه تمكن من الفرار من سجنة بطريقة رائعة في شهر تشرين الثاني - نوفمبر - وعاد إلى ولايته ليستأنف فيها جهاده، بعد أن نجح في تأمين فرار (١٩) مجاهداً من المحكوم عليهم بالاعدام، ورافقهم من سجن قسنطينة إلى قاعدته في الاوراس. غير أن مرحلة جهادِه لم تستمر طويلاً، فقد استشهد قائد الولاية الأولى مصطفى بن بولعيد - في شهر آب - أغسطس - ١٩٥٦.

لقد مضى بطل الاوراس شهيداً للقاء ربه. غير أنه سيبقى أبداً البطل الرائع في نظر مجاهدي جبال الاوراس، وستظل صورته ماثلة أبداً ومعلقة دائماً في كل مكان من قلب هذه الجبال، معقل الثورة الأول. ولقد منح هذا البطل للثورة كل الثروة التي جهد لجمعها طوال حياته، ووهبها كل امكاناته التنظيمية، وبدون هذه التضحيات التي قدمها مصطفى بن بولعيد واخوانه، ما كان ليقدر للثورة أن تكلل بالنجاح في منطقة مثل منطقة الاوراس المهمة، والدائمة الاضطراب. وجاد «مصطفى ابن بولعيد» بعد ذلك بالروح - في سبيل قضية الاسلام والوطن - والجود بالروح أغلى غاية الجود.

٢ - **محمد العربي بن مهيدي: منظم** ولاية وهران، وعضو «اللجنة المركزية في حركة انتصار الحريات **الديموقراطية»** **وعضو «اللجنة** الثورية للوحدة والعمل» وعضو «لجنة التنسيق والتنفيذ» بعد انفجار الثورة. اشتهر بقدرته التنظيمية الرائعة، وبثقافته العالية، وسعة أفقه، وتحليله السليم للامور. وهو من **واضعي** «نظرية الثورة» والتي عبر عنها بما يلي:

«إن ثورة غرة نوفمبر **١٩٥٤** التي انطلقت بقيادة جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني هي التعبير عن إرادة الشعب للحرية والاستقلال. ومرة أخرى، يحمل الشعب الجزائري السلاح ليطرد المحتل الامبريالي، ويقيم جمهورية **ديموقراطية** اجتماعية، وتطبيق نظام اشتراكي، يتضمن بالخصوص اصلاحات زراعية عميقة وثورية، ومن أجل حياة كريمة، ومن أجل السلام في المغرب العربي، إن الشعب الجزائري مصمم كل التصميم، على ضوء تجاربه الماضية، أن يتخلص نهائياً من كل أنواع عبادة الشخصية والمصلحة هي احدى أنواعها الأكثر بدائية ورجعية. فالشعب الجزائري عازم كل العزم على أن يجعل من القيادة الجماعية، في إطار المركزية الديموقراطية، قانوناً يسير كل واحد في انضباط، وأن يجعل من حزب جبهة التحريرالوطني الأداة التي تقوي وحدة الشعب، وبناء مستقبل زاهر لجميع الجزائريين والجزائريات في ظل العدالة والمساواة.

إن الشعب الجزائري يعتمد في كفاحه من أجل التحرر والرقي على مساندة شعوب المغرب العربي الشقيقة، وعلى **التضامن الفعال لكل العرب، وعلى صداقة الشعوب**

الأفرو - آسيوية، وعلى تعاطف الشعب الافرنسي والديموقراطيين في العالم. فانتصار شعوب المغرب العربي، ذلك الانتصار الذي يضمن المساواة بين جميع أبنائها بدون تمييز، يعد عاملاً قوياً للتوازن والسلم في حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا الانتصار سيسمح بإقامة روابط وثيقة، ولا سيما مع الشعب الافرنسي في الكفاح ضد الفاشية، ومن أجل الديموقراطية. كما أنها تشكل علاوة على ذلك حصناً منيعاً ضد الامبريالية في أفريقيا. إن الشعب الجزائري، تحت القيادة المظفرة لجبهة التحرير الوطني، وجيش التحرير الوطني، ستواصل زحفها الظافر من أجل الاستقلال. ومن أجل القضاء نهائياً على الاستعمار. ومن أجل انتصار حريات الانسان في ظل العدل والتآخي العالميين»(*).

بات «محمد العربي بن مهيدي» شخصية أسطورية في تاريخ الثورة، نتيجة ما أظهره من كفاءة عالية في تنظيم القوات، وإدارة الصراع، وجاءت نهايته المأساة لتتوج سيرته الرائعة، فقد اعتقلته السلطات الافرنسية يوم **٢٥** شباط - فبراير - **١٩٥٧**، وأخضعته للتعذيب الرهيب، وإذ ذاك، وقف في مواجهة العقيد - الكولونيل - الافرنسي، من قوات المظليين، وقال له برجولة المحارب: «**اسمع أيها العقيد، إننا، أنا وأنت، من السادة المهذبين لأننا نحتقر الموت. ولكنكم**

(*) نشرت في مجلة المجاهد الجزائرية العدد ٢ في سنة **١٩٥٦** (ملفات وثائقية - **٢٤** - وزارة الاعلام والثقافة الجزائر - **١٩٧٦** ص ٦١).

أنتم ستهزمون، لأنكم لا تؤمنون بأي شيء. أجل، إن الافرنسيين لم يعودوا يؤمنون بفرنسا. لقد غدوتم الماضي. فأنتم مجزؤون، ولا تعرفون ما تريديون. أما نحن، فنمثل المستقبل، لأننا نؤمن بالجمهورية الجزائرية. وإذا قدر لي أن أموت، فسيأتي بعدي الألوف ليواصلوا القتال»(*).

ومات «محمد العربي بن مهيدي» تحت التعذيب، وانضم إلى قافلة الشهداء الأبرار. وبقيت كلماته اغنية حلوة على شفاه المجاهدين، وتحققت آماله، وارتفعت رايات الجمهورية الجزائرية.

٣ - أحمد بن بللا: من مواليد وهران في غرب الجزائر، من أبويين مغربيين - مراكشيين -. وخدم جندياً في الجيش الافرنسي قبل أن ينتقل للعمل في المجال الوطني - السياسي - وقد منح وسام الاستحقاق لشجاعته في حملتي شمال أفريقيا وايطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد عاد في عام ١٩٤٦ إلى الجزائر حيث تم انتخابه عضواً في المجلس البلدي في مدينة وهران. وسرعان ما أصبح عضواً عاملاً في نشاط الحركة الديموقراطية لأنصار الحرية في وهران. وخلف في عام ١٩٤٩ حسين اية أحمد في رئاسة المنظمة الخاصة «الشرف العسكري». وعندما اكتشف الافرنسيون أمر المنظمة في عام ١٩٥٠، اعتقل بن بللا، ولكنه تمكن من الفرار من سجنه في عام ١٩٥٢،

(*) صحيفة الاكسبرس ٢٤ تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٧.

فمضى إلى القاهرة، حيث أقام مقر قيادة الحركة فيها. وتعاون مع لجنة تحرير المغرب العربي. وعندما حدث الانشقاق الخطير «الحركة الديموقراطية» انتاب القلق بن بللا وأمكن له تأمين الاتصال مع قادة التنظيم السري في الجزائر - عن طريق محمد بوضياف - ووضعوا معاً خطة الثورة. وأظهر بن بالا خلال ذلك كله، قدراً كبيراً من الكفاءة التنظيمية، والقدرة على التأثير على الآخرين. وإليه يعزى الفضل في الحصول على شحنات كبيرة من الأسلحة من بعض الحكومات المترددة، ونقلها إلى المجاهدين في داخل الجزائر بمختلف الطرق والأساليب. وكانت البعثة الخارجية في العام ١٩٥٦، قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق الوصول إلى حل عن طريق التفاوض مع فرنسا، عندما اعتقل فجأة. فقد كانت طائرة مغربية تقل أعضاء البعثة إلى تونس لإجراء مشاورات نهائية في موضوع شمال أفريقيا، عندما أرغمت الطائرة - في عملية قرصنة جوية نظمتها المخابرات الافرنسية - على تغيير خط سيرها، والتوجه إلى الجزائر حيث تم اعتقال «بن بللا» يوم ٢٢ - تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٦. واعتقل معه المجاهدين حسين آية أحمد ومحمد بوضياف ومحمد خيضر، وقد استثارت عملية القرصنة الافرنسية أحرار العالم، وبصورة خاصة دولتي تونس والمغرب. وعلى الرغم من كل الاحتجاجات، فقد مضت فرنسا في مخططاتها العدوانية، وظنت أن اعتقال زعماء الثورة. سيتيح الفرصة أمامها لتدمير الثورة ذاتها. غير أن قيادة جبهة التحرير وجيش التحرير عملتا على تصعيد الصراع. وعندما عقدت قيادة الثورة مؤتمر الصومام،

وتم تشكيل المجلس الوطني للثورة الجزائرية، كان هذا المجلس يضم الزعماء الأربعة المختطفين (بالاضافة إلى «رابح بيطاط» الذي سجنته فرنسا منذ شباط - فبراير - ١٩٥٥) وعندما تشكلت الحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة فرحات عباس في ١٩ أيلول - سبتمبر - ١٩٥٨ ضمت هذه الحكومة في عضويتها القادة المختطفين والمسجونين في سجون فرنسا، ولم يكن ذلك مجرد تقدير لجهاد القادة وتضحياتهم بقدر ما كان إمعاناً في تحدي السلطة الاستعمارية. وعندما طلبت فرنسا - ديغول - التفاوض مع الحكومة الجزائرية المؤقتة، ردت على ذلك بأن الزعماء المعتقلين لديها هم وفدها للمفاوضات. ورفضت فرنسا ذلك، وبقي المعتقلون في السجون الافرنسية حتى تم تحرير الجزائر. ودخل بن بللا العاصمة «الجزائر» يوم ١٤ أيلول - سبتمبر - ١٩٦٢. ثم أُجريت الانتخابات للمجلس التأسيسي الذي وافق على تعيين أحمد بن بللا رئيساً للحكومة. وفي ١٥ أيلول - سبتمبر - ١٩٦٣ أجري استفتاء في الجزائر، أسفر عن انتخاب «أحمد بن بللا» أول رئيس للجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية. غير أنه لم يستمر في رئاسته، فقد قاد «هواري بومدين» الانقلاب ضده يوم ١٩ حزيران - يونيو - ١٩٦٥. واختفى بن بللا عن المسرح السياسي، إلى ما بعد وفاة الرئيس هواري بومدين، حيث عمل الرئيس «الشاذلي بن جديد» على رفع القيود التي كانت مفروضة على بن بللا، الذي أعلن عن رغبته في التوجه للحج وزيارة الأماكن المقدسة. وكان تصرف الرئيس الشاذلي بن جديد هو إعادة الاعتبار من مجاهد إلى مجاهد.

٤ - كريم بلقاسم: من مواليد منطقة «قبيلة». ونشأ في حمى التيار الديني - الوطني - شأن معظم أبناء جيله، وخدم مثلهم في الجيش الافرنسي. وفي عام ١٩٤٥، أظهر تعلقه الشديد، وحماسته، بالعقيدة الاتحادية التي رفع لواءها «أصدقاء البيان الجزائري». كما كان معجباً أشد الاعجاب بما كانت تتميز به مواقف «حركة انتصار الحريات الديموقراطية وزعيمها مصالي الحاج» من ضروب الصمود والشجاعة في مقاومة الطغيان الافرنسي. وسرعان ما أصبح قائداً من قادة الحركة الديموقراطية لأنصار الحرية في قبيلة. ولجأ إلى أعمال المقاومة السرية في العام ١٩٤٧ لينجو من الاعتقال. وقاد كريم من مخبئه في الجبال الغارات على الافرنسيين والمتعاونين معهم من الجزائريين. وكان دائم الحركة والتنقل ما بين القرى لنشر أفكاره الثورية وتنظيم المقاومة. وعندما وقع الخلاف بين مصالي الحاج واللجنة المركزية اتخذ كغيره من مجاهدي الحزب موقف الحياد - عندما استحال التوفيق بينهما. ومارس دوراً قيادياً في تكوين القوة الثالثة التي تمثلت «باللجنة الثورية للوحدة والعمل» وكان أحد الأعضاء الستة الذين قرروا انطلاقة الثورة. كما كان هو المسؤول عن تنظيم الثورة في منطقة القبائل الكبرى. وظل «كريم بلقاسم» بعد نشوب الثورة قائداً في ولاية القبائل ثم تولى قيادة المجهود الحربي بكامله. وأظهر خلال هذه المرحلة شجاعة فائقة وتصميماً ثابتاً في اتخاذ قراراته، مع حزم صارم في تنفيذها. وأمكن له بذلك الحصول على دعم جيش التحرير وتأييد القبائل بصورة رائعة. وكان رجاله يحبون فيه صفاته ويحترمون فيه رجولته،

ويعتبرونه مثلهم الأعلى في حرب المقاومة بعد أن شهدوا معه مفازع هذه الحرب وانتصاراتها. وعندما تشكلت لجنة التنسيق والتنفيذ في حزيران - يونيو - ١٩٥٨، لتوثيق التعاون مع تونس والمغرب، كان «كريم بلقاسم» هو المسؤول عن الشؤون العسكرية (وكان قد أقام مقر قيادته في تونس منذ سنة ١٩٥٧) وعندما تشكلت الحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة فرحات عباس، تولى كريم بلقاسم منصب وزير الدفاع ونائب رئيس الوزراء. وبقي في منصبه هذا حتى التحرير والاستقلال. وعندما تولى أحمد بن بللا رئاسة الجمهورية. وعباس فرحات رئاسة الوزراء - الحكومة - حدث خلاف على سياسة الحكومة بين عباس فرحات وكريم بلقاسم. وحاول «كريم» قيادة حركة تمرد في العام ١٩٦٣، غير أنه أمكن القضاء عليها. وأدى ذلك إلى استقالة فرحات عباس من رئاسة الجمعية الوطنية في ١٣ آب - أغسطس - ١٩٦٣، وزال من على المسرح السياسي للجزائر رجلين أحدهما ينتمي إلى الجيل القديم، وثانيهما من أبناء الجيل الجديد.

٥ - **رمضان عبانه**: من رجال القبائل أيضاً، فرض نفسه كأقوى شخصيات الثورة الجزائرية بفضل ما بذله من جهد في إدارة الأعمال القتالية، وبفضل ما أظهره من شجاعة وحزم في مواجهة المواقف الصعبة والخطرة وكان يفرض حيويته وتصميمه الذي يأبى الهوادة واللين على الثورة، بيد من حديد. ولقد كان ثورياً يؤمن بقيمة العمل الارهابي في مدينة كبيرة. ولقد قال ذات مرة: «إن فرض حظر

التجول في مدينة الجزائر، يعادل في قيمته ونتائجه قتل مائتي إفرنسي في الجبال» وكان عبانه رجلاً واسع الدهاء، عميق الموهبة التنظيمية الفائقة. وكان يرتحل في كل مكان في الجزائر يصل بين جماعات المناضلين، ويعمل على تحسين وسائل كفاحهم. وينسق التعاون بين أعمالهم القتالية. وعندما تشكل المجلس الوطني للثورة الجزائرية في العشرين من آب - أغسطس - ١٩٥٦. كان رمضان عبانه هو الشخصية الثالثة فيه (بعد حسين آية أحمد وفرحات عباس) غير أنه لم يستمر طويلاً في ممارسة دوره. إذ أن تنقله الدائم، وتعرضه للمخاطر، أوقعه في كمين نصبه له الافرنسيون في شهر شباط - فبراير - ١٩٥٨. فاستشهد على الفور، وخسرت الثورة مناضلاً من أفضل مناضليها.

* * *

تلك هي بعض نماذج العناصر القيادية التي مارست دورها في إشعال نار الثورة وتطوير لهيبها، والقضية بعد ذلك ليست قضية أشخاص، وإنما هي قضية الثورة، ولقد بذلت محاولات لتمييز انتساب القيادة الجزائرية، وتقسيمها إلى سياسية مقابل عسكرية، وصلبة الشكيمة مقابل متساهلة، وبربرية من قبيلة مقابل عربية، وبورجوازية مقابل بروليتارية «أو ماركسية» غير أن مثل هذا التقسيم لم يكن يحمل أي مضمون حقيقي، فعلى الرغم من بعدالمسافات الفاصلة بين مواطن القادة. وعلى الرغم من تباين وجهات نظرهم تبايناً واضحاً. إلا أن وحدة الصراع المشترك ضد طغيان فرنسا قد صهرهم في بوتقة واحدة، وضمن

هم قوة جامعة موحدة. جعلتهم جميعاً - باستثناء قلة معدودة على أصابع اليد، يلتفون حول القرارات التي تتخذها الأغلبية. فالقيادة الجزائرية إذن كانت جماعية، وهذا ما ساعدها على اطلاق شرارة الثورة، وساعدها على مجابهة مختلف الظروف، وتجاوز كل العقبات بفضل توافر القدرة الجماعية على التبدل والاستخلاف. وهذا مما ضمن للثورة القدرة على الصمود والاستمرار. لقد كانوا رجالاً ظلموا، فثأروا على الظلم وانتصروا.

﴿أُذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَأَنَّ اللَّه عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرْ، الذِّينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْر حَقٍ إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفعُ الله الناسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوامِعُ وَبِيعْ وَصَلواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثيراً، وَلِيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصِرَهُ. إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزيزْ﴾(*).

(*) سورة الحج - الآية ٣٨ - ٣٩ الجزء السابع عشر.

قـراءات

١ ــ مقررات حزب «نجم شمال افريقيا» ١٩٣٣

٢ ــ البيان الجزائري

(١)
مقررات حزب «نجم شمال افريقيا» ١٩٣٣

عقد حزب «نجم شمال افريقيا» بزعامة «مصالي الحاج» مؤتمراً له، في باريس، سنة **١٩٣٣** واتخذ مجموعة من المقررات. تتعلق بالاجراءات التي يجب اتخاذها قبل استقلال الجزائر وبعده. وكانت مواد هذه المقررات كالتالي:

١ - إلغاء القوانين الاستثنائية وفي مقدمتها قانون السكان الأصليين.

٢ - العفو عن جميع المعتقلين السياسيين.

٣ - حرية التنقل لأبناء المغرب العربي في فرنسا وخارجها.

٤ - حرية الصحافة والاجتماع وتأليف الاحزاب ونقابات العمال.

٥ - الاستعاضة عن «اللجان المالية» ببرلمان جزائري منتخب على أساس الاقتراع العام.

٦ - إلغاء الكومونات المختلطة والمناطق العسكرية المحظورة،

٧ - المساواة في توظيف الجزائريين والمستوطنين.

٨ - فرض التعليم الالزامي باللغة العربية، وإفساح المجال للطلاب لدخول المدارس على جميع المستويات، وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الدوائر الحكومية (المعاملات).

٩ - احترام تعاليم القرآن بأن لا يحارب المسلم أخاه.

١٠- تطبيق قوانين العمل على الجزائريين، وحقوق التعويض على البطالة.

١١- زيادة القروض الزراعية إلى صغار المزارعين الجزائريين، وتنظيم وسائل الري، وتحسين طرق المواصلات.

أما الشطر الثاني من القرارات فنص على المطالبة بالاستقلال الكامل، وسحب القوات الافرنسية من البلاد، وتنظيم جيش وطني، وقيام حكومة ثورية وطنية تتولى تنفيذ الاجراءات التالية:

١ - إيجاد جمعية تأسيسية تنتخب على أساس الاقتراع العام.

٢ - الاقتراع العام على جميع المستويات لجميع المجالس.

٣ - استخدام اللغة العربية.

٤ - تملك الدولة الجزائرية لجميع المؤسسات بما فيها المصارف والمناجم والسكك الحديدية والموانيء والخدمات العامة.

٥ - مصادرة الأملاك الكبيرة وإعادتها إلى الفلاحين، مع إعادة أملاك الدولة والغابات إلى الجزائريين.

٦ - التعليم الالزامي المجاني باللغة العربية على جميع المستويات.

٧ - اعتراف الدولة الجزائرية بحق النقابات في تأليف الاتحادات والأحزاب وإبداء الأراء في القوانين الاجتماعية.

٨ - مساعدة المزارعين فوراً عن طريق تقديم القروض إليهم بلا فائدة لشراء الآلات والبذار والسماد، وتنظيم وسائل الري وتحسين طرق المواصلات.

ملاحظة: وردت جميع هذه المطالب في النشرة الصادرة يوم ١١ آذار - مارس - **١٩٥٠** في **مجلة** «الجزائر الحرة» وهي لسان حال «حركة انتصار الحريات **الديموقراطية**» التي خلقت «حزب النجمة».

(٢)
البيان الجزائري

عندما نزلت قوات الحلفاء بالجزائر في ٨ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٤٢ - تداعى القادة السياسيون لعقد اجتماع من أجل تحديد الشروط التي يمكن على أساسها التعاون مع الحلفاء، ودعم مجهودهم الحزبي. وتم تكليف «فرحات عباس» بصياغة هذا البيان الذي عرف باسم «بيان الشعب الجزائري» والذي نال موافقة القادة لسياسيين للبلاد، وحظي بدعم الشعب الجزائري وجاءت صيغة البيان كالتالي(*):

« . . . لقد أعطى الرئيس الامريكي روزفلت، تأكيداً في تصريح أدلى به باسم الحلفاء، بأن حقوق جميع الشعوب، الكبيرة منها والصغيرة، ستكون محترمة في تنظيم العالم الجديد.

إن الشعب الجزائري الذي يجد له قوة في هذا التصريح يطلب منذ اليوم، كي يتجنب كل سوء تفاهم، وكي يقطع الطريق على الغايات والمطامع التي يمكن أن تنشأ غداً، يطالب بما يلي:

١ ــ إلغاء النظام الاستعماري الذي هو في حقيقة أمره استثمار شعب لشعب آخر. إن هذا الاستعمار ليس إلا

شكلاً جماعياً للرق الفردي في العصور القديمة، والقنانة في العصور الوسطى. وهو بالاضافة إلى ذلك، أحد الأسباب الرئيسية في المنازعات والخصومات بين الدول الكبرى.

٢ - تطبيق حق تقرير المصير على جميع البلدان الصغيرة منها والكبيرة على حد سواء.

٣ - إعلان دستور جزائري يضمن:

(أ) الحرية والمساواة المطلقة بين جميع سكانها دون تمييز في العنصر والدين.

(ب) إلغاء الملكية الاقطاعية بتطبيق إصلاح زراعي شامل، وإعلان حق الفلاحين بالرفاهية.

(ج) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية على نفس المستوى الذي تتمتع به اللغة الافرنسية.

(د) حرية الصحافة وحق الاجتماع.

(هـ) التعليم الالزامي والمجاني للأطفال من الجنسين.

(و) حرية العبادة بالنسبة لجميع السكان، وتطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة بالنسبة للدين الاسلامي.

(ز) اشتراك عرب الجزائر بشكل فعّال وفوري في حكم بلادهم، على غرار ما أعلنته الحكومة البريطانية والجنرال كاترو في سوريا، لأن مثل هذه الحكومة هي وحدها التي يمكنها أن تحقق في جو تسوده الوحدة المعنوية التامة مساهمة الشعب الجزائري في المعركة المشتركة.

(ح) إطلاق سراح جميع المحكومين والمعتقلين السياسيين، مهماكان الحزب الذي ينتمون إليه.

اجتمع المندوبون الشرعيون الممثلون للشعب الجزائري - الذين كانوا في مدينة الجزائر. وأقروا بالاجماع صياغة البيان في شباط - فبراير - ١٩٤٣. وقام وفد جزائري يضم الدكتور بن جلول وصياح عبدالقادر، والدكتور تمزالي واورباح وبن علي شريف والدكتور الأخضري وفرحات عباس. بمقابلة الحاكم العام - مارسيل بارتان - يوم ٢١ آذار - مارس - ١٩٤٣، وسلمه نص البيان. وفي اليوم التالي سلم الوفد البيان المذكور إلى ممثلي الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي. كما تم إيصال البيان إلى لندن والجنرال ديغول والقاهرة - الحكومة المصرية - وقد قبل الحاكم العام للجزائر أن يأخذ بعين الاعتبار الميثاق الجديد كأساس لنظام الجزائر القادم. ووعد بتشكيل لجنة تضع مشروعاً للاصلاحات القابلة للتحقيق بشكل فوري. وصدر قرار في ٣ نيسان - ابريل - عين فيه ممثل فرنسا (لجنة الدراسة الاقتصادية والاجتماعية الاسلامية). وقد اجتمعت هذه اللجنة مرتين، المرة الاولى من ١٤ إلى ١٧ نيسان - ابريل - والمرة الثانية من ٢٣ إلى ٢٦ حزيران. فأقرت بحضور مفوض الحكومة (السيد بيرك) وهو المدير العام للشؤون الاسلامية مسودة اصلاحات عرفت باسم «ملحق البيان». وكان هذا الملحق يتضمن جزئين. كان الجزء الأول مخصصاً للاصلاحات التي يناسب تأجيلها إلى نهاية النزاع. وكان هذا الجزء بالصيغة التالية:

«عند إنتهاء المنازعات تتشكل في الجزائر دولة جزائرية، لها دستورها الخاص الذي تضعه جمعية تأسيسية جزائرية، تنتخب بالاقتراع العام من قبل جميع سكان الجزائر».

أما الجزء الثاني، فكان يبحث بالاصلاحات التي يطلبها الشعب الجزائري، مع أخذ الظروف الحالية بعين الاعتبار لتوجيه مستقبل البلاد. وكان من أبرز الاصلاحات ذات الصفة السياسية حسبما جاءت في «**ملحق البيان**»:

(أ) اشتراك الممثلين العرب بشكل فوري وفعّال في حكم الجزائر وإدارتها:

١ - تحويل حكومة عموم الجزائر إلى حكومة جزائرية، تتألف من وزراء موزعين بالتساوي بين الافرنسيين والجزائريين، وتصبح الادارات الحالية إدارات وزارية. كما يصبح رئيس الحكومة حاكماً عاماً، ويلقب بالسفير المفوض السامي لفرنسا في الجزائر.

٢ - التمثيل المتساوي للافرنسيين والجزائريين في صفوف المجالس المنتخبة والأجهزة الاستشارية (مجلس الحكومة الأعلى، المفوضيات المالية للمجالس العامة، مجلس البلديات غرف التجارة والزراعة، مجلس الحكماء، وجميع المصالح والمجالس واللجان والهيئات والنقابات، يدعى بالتوالي لأجل تكملة تمثيل العرب في هذه المجالس المنتخبون، والمنتخبون السابقون، بدءاً بالمندوبين الماليين، حتى ممثلي النقابات العمالية.

٣ - تصبح إدارة الدوار المستقلة في المديريات المختلطة حسب قانون ١٨٨٤، البلدة والجمعية ورئيسها مجلساً بلدياً وعمدة الدوار (رئيس الدوار).

٤ - السماح للعرب بتولي جميع الوظائف العامة، ومن بينها سلطات الحاكم، ضمن الشروط ذاتها السارية في التوظيف والترفيع والتقاعد على الموظفين الافرنسيين، والاعتراف بمبدأ التوزيع المتساوي لهذه الوظائف بين الافرنسيين والعرب.

٥ - إلغاء جميع القوانين والاجراءات الاستثنائية وتطبيق الحق العام، ضمن نطاق التشريع الجزائري،

(ب) المساواة أمام ضريبة الدم.

١ - إلغاء القيود المفروضة على المواطنيين والخدمة العسكرية المسماة «تسخير الوطنيين» ووضع صيغ موحدة للتعبئة والمساواة في العدل والسلف ومعاشات التقاعد والمكافآت، والحق بالترفيع إلى جميع الرتب.

٢ - تسليم الاعلام الجزائرية إلى أفواج من جيش الحملة الافريقية، لأن هذه باشتراكها مع الأعلام الافرنسية، ترفع من الروح المعنوية لجنودنا(*).

(*) ليل الاستعمار (فرحات عباس) ترجمة وليم خوري ص١٨٣ ـ ١٨٥، ١٨٩ ـ ١٩٢ وحياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢/٣٦٩ ـ ٣٧٠ و٣٧٤ ـ ٣٧٥.

مُحتويَات الكتابُ

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الوجيز في حياة «عباس فرحات»	١١
الوجيز في حياة «مصالي الحاج»	١٣
الفصل الأول: العمل السياسي:	
١ ــ لعبة الأحزاب و«الديموقراطية»	١٧
٢ ــ حزب «نجم شمال افريقيا»	٢٩
٣ ــ حزب «الشعب الجزائري» والحركة من أجل «انتصار الحرية والديموقراطية»	٣٨
٤ ــ عباس فرحات و«الاتحاد الديموقراطي لأعضاء البيان الجزائري»	٧٧
٥ ــ الحزب الشيوعي	١٢١
الفصل الثاني: الكفاح الوطني المسلح:	
١ ــ نقطة التحول ــ مذبحة ٨ أيار ١٩٤٥	١٣١
(أ) من وقائع الحدث التاريخي	١٣٣

الموضوع	الصفحة

(ب) شهادة الوزير الفرنسي «آلان سافاري» ١٤٩

(ج) «اليوم الرهيب» في ذكريات أحمد توفيق المدني ١٥٣

(د) للمجزرة تتمة ١٥٤

(هـ) في ذمة التاريخ ١٥٧

٢ ــ العمل السياسي السري ١٦٢

(أ) «الشرف العسكري» أو «التنظيم الخاص» ١٦٦

(ب) «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» .. ١٧٣

(ج) القادة التاريخيون ١٨٥

١ ــ مصطفى بن بولعيد ١٨٧

٢ ــ محمد العربي بن مهيدي .. ١٩٠

٣ ــ أحمد بن بيللا ١٩٢

٤ ــ كريم بلقاسم ١٩٥

٥ ــ رمضان عبانه ١٩٦

قراءات:

١ ــ مقررات «حزب نجم شمال افريقيا» ١٩٣٣ ٢٠١

٢ ــ البيان الجزائري ٢٠٤

محتوى الكتاب ٢٠٩

جهاد شعب الجزائر

٩

الله أكبر

.. وانطلقت ثورة الجزائر

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

جهاد شعب الجزائر

الله أكبر

.. وانطلقت ثورة الجزائر

بسّام العسليّ

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الطبعة الثانية : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

○ دار النفائس

بيروت: ص.ب ١١/٦٣٤٧ - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

الإهداء

إلى روح الشهيد مصطفى بن بولعيد بطل الأوراس الأسطوري

وإلى روح الشهيد محمد العربي بن مهيدي بطل المقاومة في الجزائر ،

وإلى أرواح إخوانهما من الشهداء الأبرار الذين أضاؤوا مشعل النور أمام شعب الجزائر المجاهد،

وإلى إخوانهم المجاهدين الذين تابعوا حمل رسالة الاسلام وأمانة العروبة وانتصروا بها، ونصرها الله بهم.

إلى هؤلاء وأولئك الذين لا يزيد من مضى منهم على من بقي حياً إلا بشرف الشهادة.

مُقـدّمة الكِتـابْ

ويطول ليل الاستعمار حتى لتكاد النفوس الظامئة للحرية تيأس من بزوغ الفجر. وتشتد وطأة الاستعمار حتى لتكاد النفوس المعذبة تفقد الأمل من عدالة الحياة. وللفجر موعده، وللحياة نواميسها وقوانينها المحكمة.

وكما يلتمع البرق في الليلة الظلماء الداكنة السواد، وكما ينبع الماء من الصخر الأصم. انطلقت صيحة «الله أكبـر» في ليل عيد جميع القديسين، وترددت في كل مكان من الجزائر صيحات «خالـد» و«عقبة». إنهما كلمتا السر والتعارف اللتان اتفق عليهما الثوار للتعارف فيما بينهم.

« الله أكبر » ـ خالد ـ عقبة ـ وتـردد جبال الأوراس أصـداء الصيحات المنطلقة في السهول. « الله أكبر » خالد ـ عقبة ـ لقد آن للفجر أن ينبلج، وللنفوس العطشى أن تنهل من مورد الحرية العذب ومن منهل الكرامة الصافي.

وأفاق الشعب الجزائري على فجر يوم جديد، إنه فجر المستقبل الذي طال انتظاره. وقليل هم الذين وصلتهم أصوات الانفجارات الأولى، وأزيز الرصاصات المبكرة التي أطلقتها حفنة من الثوار؛ معلنة بها بدء جولة جديدة من جولات الاحتكام للسلاح. غير أن من فاتهم

سماع صوت مؤذن الفجر، لم يفتهم قراءة البيان الذي أعلنه ثوار الفجر.

«**أيها الشعب الجزائري**» «**أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية**».

إنها منظمة ولدت مع الفجر، تحمل اسم « **جبهة التحرير الوطني** »، و«**جيش التحرير الوطني** »؛ وقد بدأت هذه المنظمة تأكيد وجودها بالنار وبالتوجه إلى « الشعب الجزائري ».

ولكن من هم هؤلاء الذين يختفون وراء « التسمية الرمزية » أو « **الشخصية الاعتبارية** ». لقد عرف شعب الجزائر أسماء لامعة، وقادة بارزين، تولوا الصراع وقادوا الجهاد بأسمائهم العلنية الصريحة. ولم يحدث قبل اليوم أن تعامل الجزائريون مع «**مجهولين**». ذلك لغز يجب حله؟.

وينظر الاستعمار بكثير من اللامبالاة إلى تلك الظواهر المتفجرة التي برزت في ليل عيد جميع القديسين. لقد تعودت الاستعمارية الإفرنسية على قمع ثورات أضخم، وحروب أكبر، فكيف اليوم، وفرنسا تمتلك من وسائط القدرة العسكرية ما لم تمتلكه من قبل. ويصرح الحاكم بأمره في الجزائر « إنهم مجموعة من العصاة المتمردين ـالغلاقةـ وسيتم سحقهم قريباً ». وتخرج الحملات العسكرية وتعود، دون أن تتمكن من سحق « الغلاقة ».

وبدأ « شعب الجزائر » في التعرف على تلك الفئة المختارة من المجاهدين، الذين أنكروا وجودهم ليقدموه هدية لشعبهم. وتوثقت عرى التعارف من خلال ما كان يقدمه المجاهدون من تضحية وفداء. فأقبل على حاملي لواء الجهاد، يحتضنهم ويحميهم ويدعمهم ويفتديهم بكل ما يملك، ويشاطرهم آلامهم وبؤسهم

وشظف عيشهم. ويقاسمهم تضحياتهم. ويجن جنون الاستعمار، فيقذف بكل أسلحته للمعركة، ويقذف الشعب الجزائري بالمقابل بكل قدراته وإمكاناته. ويتطور الصراع المصيري بين قوتين: **قوة هابطة** تمتلك كل القوى ما عدا الإيمان، **وقوة صاعدة** لا تمتلك شيئاً إلا الإيمان.

وتأتي تجربة التاريخ لتؤكد من جديد انتصار «**قضية الايمان**». تلك هي بايجاز «بداية الثورة، وتلك هي قصتها».

انها قصة «القادة التاريخيون» الذين عرفوا قدرات شعبهم وإمكاناته، وما يتفاعل فيه من انفعالات، وهي قصة «أصالة الشعب» الذي فقد كل شيء الا إيمانه بالله وبإسلامه وعروبته، وهي أيضاً قصة تيار الأحداث وتطوراته في العالم وهو ما أدركه شعب الجزائر المجاهد وقادته التاريخيون وتجاهله دهاقنة الاستعماريين المتعلمين والمتحضرين والعقلانيين.

بضع مئات من الثوار، تسليحهم بواريد الصيد وبعض الأسلحة الحديثة وقيادة تضم بضعة أشخاص مغمورين تقريباً. وكلهم نصيبهم من العلم الحديث قليل، ونصيبهم من الايمان كبير. لم يلبثوا أن شكلوا تياراً جارفاً قفز الى الألاف والى عشرات الالوف ثم الى الشعب الجزائري كله خلال فترة قياسية من عمر الزمن، ولم يكن ذلك ليتحقق أبداً لولا التقاء العوامل الثلاثة: القيادة والشعب وتيار الأحداث في فجر عيد جميع القديسين.

ولم يكن من العبث ـ أو بمحض الصدفة ـ اختيار فجر عيد القديسين موعداً لانطلاقة الثورة. ولم يكن من العبث أيضاً، تحديد شعار انطلاقة الثورة بكلمة الجهاد الخالدة «الله أكبر» واتخاذ كلمتي

« خالد وعقبة » رمزاً للسر والتعارف بين الثوار التاريخيين.

لقد أعد كل شيء بإحكام رائع، وبدقة متناهية، فكان ذلك التنظيم هو السلاح الأول في عدة الثورة.

لقد ربطت الثورة، ومنذ انطلاقتها الأولى، خطوات الثورة بالأصالة التاريخية للشعب الجزائري المسلم المجاهد. وأعادت الثورة، ومنذ انطلاقتها الأولى، ارتباط الشعب المجاهد بمحيطه التاريخي والجغرافي الطبيعيين (المغرب وتونس والعالم الاسلامي - العربي) فكان في ذلك أيضاً بعض عدة الثورة في الانتصار على أعداء الثورة في الداخل والخارج.

وتبقى قصة الثورة الجزائرية، أكبر من الكلمات، وأعظم من كل وصف. إنها قصة الحياة لشعب رفض الموت، وانتصرت الحياة على الموت. وهي قصة شعب أحب الموت فوهب الله له الحياة.

بسام العسلي

اللهُ أكْبَرُ ـ وَانْطَلَقتِ الثَّوْرَةُ

هَاتِ البَشَائِرَ لِلْجَـزَائِرَ هَـاتَها
إنَّ آلجَزائِرَ أبْصَـرَتْ غَايَـاتَها
عَقَّدَتْ لَهَا عَزَمَاتَهُا فَمَن آلذِي
غَيْرُ الإلَهِ يحِـلُ مِنْ عَزَمَـاتها
اللهُ أكْبـرُ هَـؤُلَاءِ جُنُـودُهَـا
لَبُّوا لِدَعْـوَتِها نِـدَاءَ دُعَاتِهَـا.

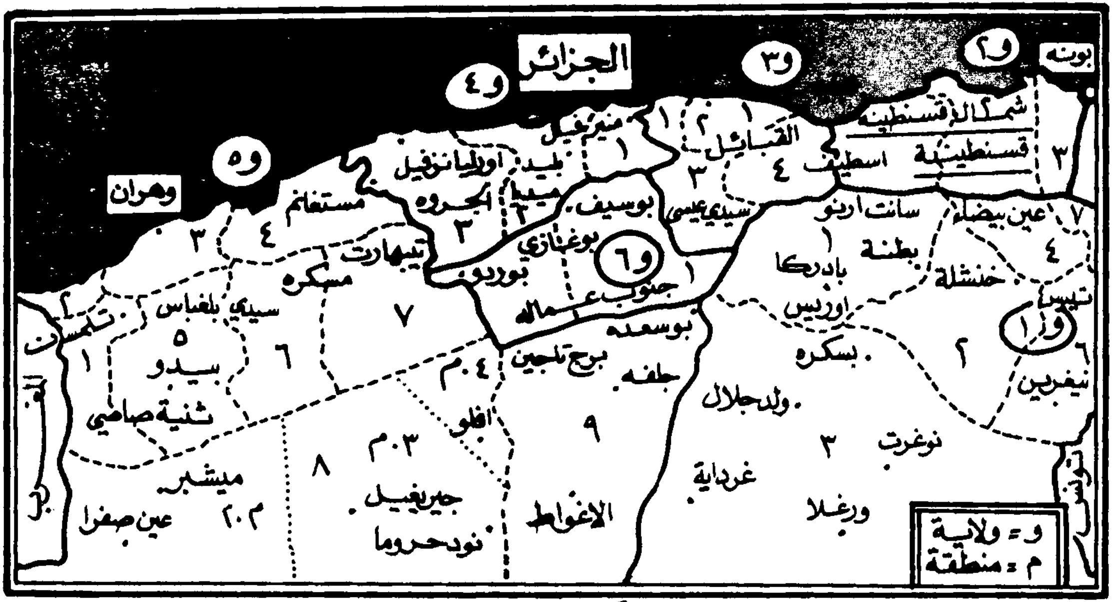

التقسيمات الإدارية ـ العسكرية للجزائر يوم ١/ ١١/ ١٩٥٤

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ . وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ* فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » .

الفصل الأول

١ـ الوضع العام في الجزائر عشية الثورة.

أـ اغتصاب الأرض.

بـ الموقف السكاني «الديموغرافي».

جـ النهب الاستعماري.

دـ البترول والغاز الطبيعي.

هـ الموقف التعليمي (الثقافي).

٢ـ الموقع الجيواستراتيجي والطبوغرافي.

أـ١ـ إقليم الشواطىء.

أـ٢ـ إقليم الأطلس التلي.

أـ٣ـ إقليم النجود.
أـ٤ـ الأطلس الصحراوي.
أـ٥ـ إقليم الصحراء.
بـوديان الجزائر.
بـ١ـ الأودية الشمالية.
بـ٢ـ أودية النجود.
بـ٣ـ الأودية الصحراوية.
جـالنطاقات المناخية.
دـالغطاء النباتي.
دـ١ـ إقليم البحر الأبيض المتوسط.
دـ٢ـ إقليم الاستبس.
دـ٣ـ الإقليم الصحراوي.

١ - الوضع العام في الجزائر عشية الثورة

لم تكن الثورة التي انفجرت في الجزائر في الفاتح من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ مجرد رد فعل على سياسة معينة، أو نتيجة إجراء استعماري محدد. فلقد كان نسيج الثورة متصلاً بعرى وثيقة ومتلاحمة مع مجموعة الحروب، والثورات والانتفاضات، وأعمال المقاومة التي اضطلع بها شعب الجزائر، طوال ليل الاستعمار الذي بدأ بالغزو الإفرنسي البربري للجزائر المحروسة في سنة ١٨٣٠، والذي انتهى بانفجار الثورة التحررية الكبرى في سنة ١٩٥٤.

قرن وربع القرن؛ وشعب الجزائر المجاهد يحمل السلاح ضد الغزاة البرابرة. . لم يهن له عزم، ولم تلن له قناة، وهو يدفع بقوافل الشهداء، القافلة في إثر القافلة، والموجة تلو الموجة، حتى حقق أهدافه.

ولقد تحمل الشعب الجزائري من عنت المستعمرين، وجور أجهزة الاستعمار؛ ما لم يحتمله شعب من شعوب العالم، دونما تحيز أو مبالغة، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر في مقاومته، وأتعب فرنسا ولم يتعب، غير أن هذه الحرب طويلة الأمد، عملت على تغيير مجمل أوضاع الجزائر تغييراً كبيراً؛ لا في مجال الاقتصاد وحده، ولا في مجال التكون

الاجتماعي والثقافي أيضاً. وإنما في مجموع الأوضاع التي يعيشها المواطن الجزائري والوطن الجزائري. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ـ وعلى نحو ما سبق عرضه في الكتب السابقة من هذه المجموعة.

فقد جاءت الثورة الرائعة ثمرة إعداد طويل. . بدأ على وجه التحديد بالنشاط السياسي الذي قام به الأمير «خالد الهاشمي» في العشرينيات من هذا القرن، واستمر بعد ذلك عبر «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» من جهة، والتنظيمات السياسية من جهة ثانية، وعلى هذا فان الثورة الجزائرية الكبرى تتصل بمجموعة الأوضاع الناجمة عن الوجود الاستعماري ذاته، والذي دفع البلاد ومواطنيها إلى أوضاع لا يمكن معالجتها إلا بإجراء تغيير جذري وشامل، ومضاد بالضرورة للاستعمار الاستيطاني. وقد جاءت مذبحة أيار ـ مايو ـ ١٩٤٥، وأعمال القمع التالية لتشكل الحافز المباشر للثورة. ومن هنا قد يكون من الضروري استقراء بعض ملامح الوضع العام للجزائر عشية ثورتها المباركة.

* * *

لقد عرفت الجزائر، منذ أقدم العصور، بغنى ثروتها الطبيعية، شأنها في ذلك شأن كل أقطار المغرب العربي ـ الاسلامي. ولقد أقام الفينيقيون على شواطئها عدداً من المراكز «الزراعية ـ التجارية» التي سميت فيها بعد باسم «أهراء روما» قبل أن يطلق عليها اسم «افريقيا ذات الأرض الخصبة». وقد عاشت الجزائر قبل أن تجتاحها جحافل الغزو الاستعماري الافرنسي في سنة (١٨٣٠) حالة ازدهار حقيقي، وعرفت رغد العيش. فالزراعة فيها كانت متطورة،

والتجارة البحرية ناشطة ومزدهرة... فكانت تمون بالحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى كثيراً من بلدان الغرب الأوروبي؛ وتموين حملة نابليون دليل على ما كان يتوافر للجزائر من الثروة الزراعية؛ كما كانت تصدر أدوات فنية ذات شهرة واسعة. وبعد مرور قرن على استعمار هذه البلاد، لم تتوقف الجزائر عن التقدم في المضمار الاقتصادي فحسب، بل إنها شهدت تقهقراً وتراجعاً في مستوى حياة معظم المواطنين الجزائريين، بالمقارنة مع مستوى حياة أسلافهم. هذا بينما كان العالم يتطور في هذا القرن، ويتقدم بقفزات واسعة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

وقد ظهر في الواقع أن ازدهار المواطن الافرنسي، وارتفاع مستوى دخله، إنما هو ازدهار اصطناعي على حساب المواطن الخاضع للاستعمار. والأمر مماثل بالنسبة لفرنسا - كمجموع - والتي طورت تقدمها على حساب الشعوب التي أخضعتها لنير عبوديتها. ولم تكن مثل هذه المقارنة بعيدة عن أنظار المواطن الجزائري الذي كان يعيش حياة البؤس والشقاء فوق أرضه الخيِّرة المعطاء. وزاد الأمر سوءاً بمحاولات السلطات الاستعمارية تغطية نهبها واستنزافها بالحاق سبب التخلف بأنظمة الجزائر قبل الاستعمار (النظام العثماني - الاسلامي). ولقد اعتاد القائمون على حكم الجزائر أن يبرزوا - في كل مناسبة - ما حققه الاستعمار الافرنسي من إنجازات في البلاد، معددين الطرق الكثيرة التي أنشأوها، والخطوط الحديدية التي نظموها، والمراكز الكهربائية التي شيدوها، وما أقاموه من سدود ومستشفيات ومدارس وكنائس (منارات الحضارة الغربية بزعمهم) والمدن الحديثة ذات العمارات المتعددة الطوابق.

ولم يكن هـذا الأسلوب الدعـائي ليخدع الجـزائـريـين أو يضللهم.. فقد كانوا يعرفون بأن معظم ما يطلق عليه اسم « منجزات » إنما هو لخدمة أهداف الاستعمار الاستيطاني، وتطوير عمليـة النهب الاستعماري للمـوارد والثـروات. وأن المـواطن الجزائري لم يفد من هذه « المنجزات » شيئـاً، وإنما على النقيض أيضاً، فقد جاءت « المنجزات »لتضيف إلى بؤسه بؤساً، وإلى شقائه مزيداً من الشقاء. وقد ترك ذلك آثاره السيئة التي لم تقتصر أضرارها على جيل جزائري واحد.

ومما لا ريب فيه هو أن الجزائر ذات وضع خـاص كبلاد مستعمرة... فالحركة العمرانية بقيت امتيازاً ـ حكراً ـ لـلأقلية الأوروبية، ولمصلحتها. والمدارس، إنما أقيمت للمستوطنين بالدرجة الأولى، ولخدمة أهداف استعمارية محددة وواضحة. كما أن طرق المواصلات إنما أقيمت لتحقيق هدفين مزدوجين أولهما: تسهيل التحركات العسكرية، وثانيهما الوصول إلى مواطن الثروة السطحية والباطنية « المناجم ». كما أن المستشفيات والخدمات الصحية لم تتجاوز فائدتها المستوطنين إلا في حدود ضيقة. وبقي سواد الشعب الجزائري المسلم نهباً للأمية والفقر المدقع، والأمـراض الفتاكة.

ولقد كان هذا التناقض الفاضح بين حياة أقلية مترفة وأكثرية ساحقة محرومة هو الصورة الغريبة والمثيرة لما كانت عليه الجزائر طوال فترة الاستعمار. وإن مستوى المواطنين الجزائريين المسلمين في حياتهم ودخلهم هو الذي يجسد بصورة حقيقية وواقعية الصورة البشعة لقذارة الاستعمار. ولقد تطور الاقتصاد الاستعماري تطوراً سريعاً ومذهلاً، ولكن هذا التطور إنما كان على حساب الملكية الوطنية الجزائرية

باستمرار. فكانت خطة الاستعمار الثابتة هي في تهديم وتدمير ثروات الوطنيين وملكياتهم، من أجل بناء ثروات الاستعمار وأجهزته، وفقاً لقوانين الاستعمار ومبادئه المحكمة.

لقد بقيت « المسألة الاقتصادية » هي العمود الفقري في سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر. فالاقتصاد الجزائري هو السبب الأول الذي دفع فرنسا لاحتلال الجزائر. ولقد كانت سياسة فرنسا الاقتصادية في الجزائر عملية اغتصاب ونهب عبر عنها الجنرال « بيجو » يوم ١٤ - أيار - مايو - ١٨٤٠ بقوله: « **يجب أن يقيم الافرنسيون المستوطنون حيثما وجدت المياه الغزيرة والأراضي الخصبة، بدون أي اهتمام بحق ملكية الأرض التي يجب توزيعها على المستعمرين المستوطنين، وأن تصبح هذه الأراضي الخصبة من أملاكهم الشخصية** ».وكان المارشال « سولت » في السنة ذاتها قد صرح بما يلي: « **إن استيطان الافرنسيين في الجزائر هو العامل الأول للبقاء فيها، وهذا الاستيطان قمين بتهيئة الوسائل خلال سنوات قليلة، للتمكن من الدفاع عن الجزائر، دون أن نستخدم أكثر مما يلزم من قوى البلد - فرنسا - وأمواله** ».

أ - اغتصاب الأرض:

سارت عملية الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، متباطئة أحياناً، متسارعة في أحيان أخرى، وفقاً لما كانت تفرضه ظروف الدولية والجزائرية. وكثيراً ما اغتنمت فرنسا الظروف لتطوير هذه العملية، (مثل أزمة احتلال الألمان - بروسيا - للألزاس واللورين - سنة ١٨٧٠، والأزمة الاقتصادية الايطالية في بداية القرن العشرين).

ولقد بدأ المستوطنون في الاستقرار على أرض السهول الساحلية، ثم لم يلبثوا أن أخذوا في التوغل نحو السهول الداخلية، ونحو مناطق المناجم الصحراوية، ويظهر الجدول التالي تطور الملكيات الأوروبية في الجزائر:

السنة	المساحة بالهكتار	السنة	المساحة بالهكتار	ملاحظات
١٨٥٠	١٥٠,٠٠٠	١٩٢٠	٢,٥٨١,٠٠٠	جدول بياني
١٨٧٠	٧٦٥,٠٠٠	١٩٤٠	٣,٠٤٥,٠٠٠	بتطور الملكيات
١٨٨٠	١,٢٤٥,٠٠٠	١٩٥٤	٣,٠٢٨,٠٠٠	الأوروبية بالجزائر
١٨٩٠	١,٦٣٥,٠٠٠	١٩٦٣	صفر	من سنة ١٨٥٠
١٩٠٠	١,٩١٢,٠٠٠			حتى الاستقلال.
المرجع: جغرافية الجزائر - حليمي عبد القادر علي - ص١٤٣				

عملت الحكومة الافرنسية - وكل حكومة إفرنسية - على تشجيع الأفراد الإفرنسيين خاصة، والأفراد الأوروبيين عامة على الهجرة والاستيطان في الجزائر. وكذلك فعلت مع الشركات. وكان من أهم هذه الشركات: «**الجمعية الجزائرية**» التي منحتها سلطة الاحتلال قرابة المائة ألف هكتار في شرق «قسنطينة»، وجمعية «**المقطع والهبرة**» التي تصدقت عليها بأكثر من ٢٥ ألف هكتار من أجود الأراضي الوهرانية سنة ١٨٦٥، و«**شركة جنوه الايطالية**» التي وهبت لها سنة ١٨٦٣ مساحة عشرين ألف هكتار في إقليم سطيف، وطلبت منها مقابل ذلك جلب الإيطاليين إلى الجزائر.

لقد كان القطاع الزراعي هو المورد الرئيسي والتقليدي للبلاد، ولقد عمل النظام الاستعماري على جمع أكثر الأراضي خصباً وتركيزها في قبضة الاقطاع الاستعماري. وأدى ذلك بصورة طبيعية

إلى بؤس المواطن الجزائري كنتيجة حتمية لانتزاع الأراضي الخصبة منه وتقديمها للأوروبي. ونجم عن ذلك تفاوت هائل بين الملاك الأوروبيين والملاك الجزائريين. وهكذا أصبح هناك ٢٥ ألفاً من الملاكين الأوروبيين - من أصل ٨٠٠ ألف نسمة - وهم يملكون (٣,٠٢٨,٠٠٠) هكتاراً من أكثر الأراضي الزراعية خصباً والتي تقدر مساحتها بـ (٢٠,٨٣٠,٠٠٠) هكتاراً. - أي أن كل ملاك من هؤلاء يملك أكثر من ١٢٠ هكتاراً نسبياً منها ٧٥ هكتاراً منتجاً. أما الملاك الجزائريون والبالغ عددهم (٥٣٢) ألفاً من أصل عشرة ملايين. فكانوا يملكون (٧,٦٧٢,٠٠٠) هكتاراً، أي بمعدل ١٤ هكتاراً منها خمسة هكتارات منتجة فقط. أما الباقي وهو (١,٤٠٨,٠٠٠) هكتاراً، فهي معتبرة كأملاك عامة تتصرف بها الادارة الاستعمارية على هواها. ويظهر هنا الموقف بصورته الخطيرة عند معرفة أن هذه الاراضي الزراعية قد خصصت لزراعة المنتجات المعدة للتصدير. في حين كان يجب تخصيصها لتأمين المواد الزراعية التي يحتاجها أبناء البلاد. وأبرز مثال على ذلك هو توزيع الكرمة التي كانت الحافز الأول للمشروع الاستعماري، فهي تشغل مساحة (٢٣٨) ألف هكتار، من أجود الأراضي. وكلها ملك للأوروبيين بدون استثناء. وتنتج هذه الكروم (٢٢,٣١٨,٠٠٠) هكتوليتر من الخمور التي تصدر أربعة أخماسها إلى الخارج[1] وتبلغ قيمة هذه الصادرات (١٤٠) مليون فرنك - بحسب احصاء سنة ١٩٣٥ وهي

---

(١) ورد في جغرافية الجزائر - حليمي عبد القادر - ص ١٩٢. أن مساحة الأراضي المخصصة لزراعة الكرمة هي ٣٦٢ ألف هكتار موزعة كما يلي: (٢٥٠) ألف هكتار في إقليم وهران، و(٨٧) ألف هكتار في إقليم مدينة الجزائر. و(٢٥) ألف هكتار - وهي تشكل (٧) بالمائة من مجموع الأراضي الزراعية - في القطر الجزائري..

السنة التي ارتفع فيها تصدير الخمور الى أعلى مستوياته ثم استمر محافظاً على معدله ـ. أما الحمضيات والتبغ وغيرهما من المنتجات الزراعية الثمينة فهي تشغل (١٧٠) ألف هكتار، يستغل الأوروبيون تسعة أعشارها. وعلاوة على ذلك، فهناك عامل كان يزيد الوضع سوءاً، وهو أن أملاك الأوروبيين كانت محمية ومتصلة، في حين كانت أملاك الوطنيين متفرقة ومتباعدة. فكانت أملاك الأوروبيين منتظمة كالتالي:

١ ـ ملكيات متوسطة: ٢٤,٧٢ بالمائة. ٢ ـ ملكيات كبيرة: ٧٣,٤٨ بالمائة.

في حين كانت ملكيات الوطنيين منتظمة كالتالي:

١ ـ ملكيات صغرى: ٦٠ بالمائة. ٢ ـ ملكيات متوسطة: ٣٨ بالمائة. ٣ ـ ملكيات كبرى: ٢ بالمائة.

وجدير بالذكر أن الزراعة كانت بالنسبة إلى صغار الملاكين الأوروبيين ومتوسطيهم، مجرد عمل إضافي (حالة ترف). أما كبار الملاكين، فثمة مستعمرون أوروبيون أو شركات تمتلك ما بين ١٠ و٧٠ ألف هكتار. هذا بالاضافة إلى أن الملاك الأوروبيين هم الذين يستفيدون من القروض والميزات الزراعية الأخرى التي تسهل لهم استخدام الوسائل الزراعية الحديثة، في الوقت الذي يستثمرون أيضاً اليد العاملة الجزائرية بأجور منخفضة ـ بخسة ـ.

وبذلك فرض على الفلاح الجزائري عدم الاضطلاع بدور يذكر في الاقتصاد الوطني، حتى أصبح انتاجه في معظم الحالات لا يكاد يكفي لتأمين متطلباته الأساسية للعيش البسيط، وبقي السواد الأعظم من سكان الريف الجزائري، وهم الذين يشكلون الكتلة الضخمة

للشعب الجزائري، يعيشون في بؤس مدقع أو في بطالة مستمرة أو استغلال مجحف. وتعد هذه الطبقة حوالي (٨٠٠) ألف عائلة ـ أي حوالي أربعة ملايين مواطن جزائري. وكانت الجزائر ـ حتى الثورة ـ تصدر في كل سنة (٨٦) بالمائة من إنتاجها الزراعي الى الخارج، في حين كان معظم السكان الريفيين يعيشون على تغذية ناقصة مستديمة. وقد لا تكون هناك حاجة لاستقراء ملامح « القوانين الاستعمارية » والمبادىء التي تم وضعها طوال فترة الاستعمار؛ والتي أدت إلى هذه النتيجة المأساة.

ويكفي التذكير بذلك القانون الذي أقرته الحكومة الافرنسية خلال مناقشاتها من ٣ ـ ١٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٦. وتم على أساسه تحديد الشروط التي تتشكل بموجبها ـ أملاك الدولة الافرنسية في الجزائر ـ وكان نص القانون بحرفيته ـ كالتالي: « **إن سكان البلاد الأصليين الذين لا يقدمون البرهان على جدارتهم بملكية الأرض، يعتبرون أمام القانون مستثمرين أو مستأجرين تستطيع السلطات تهجيرهم لتصبح أراضيهم ملكاً للمستوطنين**». وليس من الصعب بعدها على الإدارة الافرنسية التي تمتلك القوة، أن تحدد (من هم غير الجديرين بملكية الأرض من الوطنيين الجزائريين وتعمل على تهجيرهم نحو الصحراء المقفرة).

ب ـ الموقف السكاني ـ الديموغرافي

لقد تداخلت مجموعة من العوامل لتشكل في الجزائر موقفاً سكانياً ـ ديموغرافياً ـ شاذاً وغريباً. ومن أبرز هذه العوامل: ١ ـ اغتصاب

الأرض الجزائرية الخصبة من أصحابها الشرعيين. ٢ً ـ فتح باب الهجرة أمام الأوروبيين ومنحهم امتيازات كبيرة على حساب المواطنين الجزائريين. ٣ً ـ عدم توافر مجالات العمل الزراعي أو الصناعي، واضطرار أبناء الريف (الجزائريين المسلمين) للزحف نحو المدن، أو حتى الهجرة من البلاد. ٤ً ـ التفجر السكاني في الجزائر، والذي يعتبر استجابة طبيعية ومضادة لمحاولات القضاء على العنصر المسلم (عَرَبي وبربري). ويشير الاحصاء الرسمي الأول الذي جرى في الجزائر في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٤٨، وهو الأول من نوعه الذي جرى في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، الى أن عدد سكان البلاد بلغ (٨,٦٨٢,٠٠٠) نسمة، منهم (٧,٧٠٨,٠٠٠) من الجزائريين و(٩٧٤) ألفاً من الأوروبيين. وأشارت إحصاءات عام ١٩٥٤ الرسمية إلى أن عدد السكان بلغ (٩,٥٢٨,٠٠٠) منهم (٨,٤٨٦,٠٠٠) من الجزائريين و(١,٠٤٢,٠٠٠) من الأوروبيين.

ولكن المفهوم أن عدد السكان الجزائريين قد خفض في هذا الاحصاء لأسباب سياسية. ويحتشد معظم السكان في المنطقة الساحلية الخصبة التي تؤلف نحواً من عشر مساحة البلاد فحسب. وكانت أعلى نسبة في كثافة السكان في مقاطعة الجزائر الوسطى، بينما أخفضها في مقاطعة وهران الغربية ولا تتجاوز نسبة كثافة السكان في مناطق الصحراء الجنوبية الشاسعة شخصاً واحداً لكل ميل مربع. وتبلغ نسبة الجزائريين للأوروبيين في منطقة قسنطينة الشرقية أعلى النسب إذا ما أمكن مقارنتها بالمقاطعات الأخرى، إذ تبلغ نسبة الجزائرية الجبلية، واذا ما وضع بالحسبان أيضاً تقاليد أصالة الثورة في قسنطينة (من أيام

أحمد باي قسنطينة وحتى الشيخ عبد الحميد بن باديس) فسيظهر بوضوح سبب اختيار الجزائر الشرقية لتكون القاعدة الأولى للثورة، أما في منطقة وهران التي ظلت هادئة عدة أشهر بعد نشوب الثورة؛ فتبلغ نسبة الجزائريين إلى الأوروبيين نسبة الخمسة إلى الواحد. وعلى كل حال، فقد يكون من المناسب ملاحظة تطور الانفجار السكاني قبل مرحلة الثورة، وهو الانفجار الذي كان عاملاً مساعداً في انفجار الثورة، وتطورها، وإمدادها بالقدرة القتالية:

السنة	عدد السكان	السنة	عدد السكان	ملاحظات
١٨٥٦	٢,٣٠٧,٠٤٩	١٩١١	٤,٧١١,٢٧٦	١ـ المرجع: جغرافية الجزائر-
١٨٦١	٢,٧٣٢,٨٥١	١٩٢١	٤,٨٩٠,٧٥٦	حليمي عبدالقادر علي-
١٨٦٦	٢,٦٥٢,٠٧٢	١٩٢٦	٥,١١٥,٩١٨	ص ١٢٧
١٨٧٢	٢,٤٦٢,٩٣٦	١٩٣١	٥,٥٤٨,٢٣٦	٢- إن التراجع السكاني
١٨٨١	٢,٨٤٢,٤٩٧	١٩٣٦	٦,١٦٠,٩٣٠	في سنة ١٨٦٦ قد نجم
١٨٨٦	٣,٢٦٤,٨٧٩	١٩٤٨	٧,٦١١,٩٣٠	عن الأوبئة.
١٨٩١	٣,٥٥٩,٦٨٦	١٩٥٤	٨,٣٦٤,٦٥٢	٣ـ إن التراجع السكاني في سنة
١٨٩٦	٣,٧٦٤,٠٧٢	١٩٦٠	٩,٣٠٠,٠٠٠	١٨٧٢ قد جاء نتيجة لفشل ثورة
١٩٠١	٤,٠٦٣,٠٦٠	١٩٦٦	١٢,١٠١,٩٩٤	المقراني والحداد، وما حدث من
١٩٠٦	٤,٤٤٧,١٤٩			هجرة إجماعية. وأعمال
				إبادة ضد الجزائريين

لقد ترافق الانفجار السكاني خلال المرحلة التي سبقت الثورة، بهجرة واسعة النطاق، سواء داخل الجزائر ذاتها- من الريف إلى المدينة، أو من الجزائر إلى فرنسا، وعلى الرغم من بقاء الجزائر بلداً زراعياً بالدرجة الأولى، إلا أن عدد سكان المدن بلغ في عام ١٩٥٤، أربعة أضعاف ما كان عليه هذا العدد في عام ١٨٨٦. في حين لم يتزايد

عدد السكان في المناطق الريفية خلال المدة نفسها إلا بنسبة الضعف.

وقد وجد هذا الاتجاه في الانتقال من حياة الأرياف إلى حياة المدن، بين الجزائريين والأوروبيين على حد سواء، لكنه كان أكثر وضوحاً بين الأوروبيين الذين أصبح ثمانون بالمائة منهم يعيشون في المدن في عام ١٩٥٤، بينما كان ٦٤ في المائة منهم يعيشون فيها في عام ١٨٨٦. وقد اتجه الجزائريون أيضاً في القرن الماضي إلى المدن. وكان سبعة في المائة من الجزائريين يعيشون في المدن في عام ١٨٨٦، بينما ارتفعت هذه النسبة إلى ثمانية عشر في المائة في عام ١٩٥٤. وليس بالإمكان القول أن جميع هؤلاء الجزائريين يساهمون في حياة المدن مثلهم مثل الأوروبيين. فبعضهم أقام له بيوتاً من الصفيح هي أشبه بالأكواخ منها بالمنازل الشرعية. وهكذا، فقد كانت الحياة الحضرية في عهد الاستعمار من نصيب الأوروبيين بالجزائر، في حين بقيت الحياة البدوية والريفية من نصيب المواطنين الجزائريين وفقاً لما يبرزه الجدول التالي:

السنة	المسلمون	غير المسلمين	المجموع	نسبة المسلمين في المدن
١٨٨٦	٢٤٠,٠٠٠	٣٢٣,٠٠٠	٥٦٣,٠٠٠	٪ ٦,٩
١٩٠٦	٣٤٢,٠٠٠	٤٤١,٠٠٠	٧٨٣,٠٠٠	٪ ٨,٥
١٩٢٦	٥٠٨,٠٠٠	٥٩٢,٠٠٠	١,١٠٠,٠٠٠	٪ ١١,٥
١٩٤٨	١,١٢٩,٠٠٠	٧٠٩,٠٠٠	١,٨٣٨,٠٠٠	٪ ١٦,٤
١٩٥٤	١,٦٢٤,٠٠٠	٧٩٢,٠٠٠	٢,٤١٦,٠٠٠	٪ ٢٥
١٩٦٠	٢,٠٧٢,٠٠٠	٨٥٣,٠٠٠	٢,٩٢٩,٠٠٠	٪ ٣٠

وإذا ما تم الأخذ بنموذج لهذا التطور في المدن، ولتكن مدينة

الجزائر ـ العاصمة ـ على سبيل المثال، فسيظهر بأن عدد سكانها في سنة ١٨٨٦ لم يكن يتجاوز (٦٥) ألف نسمة منهم (٥٢) ألف أوروبي والباقون جزائريون. وفي سنة ١٩٠٦، ارتفع عدد سكان مدينة الجزائر إلى (١٧٤) ألفاً، منهم (١٣٤) ألف أوروبي، ثم وصل هذا العدد في سنة ١٩٥٤ إلى (٥٧٠) ألفاً منهم (١٧٢) ألف أوروبي، ثم إلى المليون بعد الاستقلال، منهم أقل من (٥٠) ألف أوروبي. ولعل تأثير هجرة الجزائريين إلى المدن الرئيسية في بلادهم من الأمور المثيرة.

وعلى الرغم من أن عدد الجزائريين كان متفوقاً دائمًا على الأوروبيين في مدينة قسنطينة، إلا أن هذا التفوق لم يكن يتجاوز الستة آلاف في عام ١٨٨٦، بينما بلغ في عام ١٩٥٤ـ اثنين وستين ألفاًـ وفي عنابة، المدينة الرئيسية الثانية في شرق الجزائر وذات الميناء الهام، كان عدد الأوروبيين متفوقاً على الجزائريين حتى عام ١٩٤٨ فقط، ثم تفوق عدد المسلمين الجزائريين. وبقيت وهران هي المدينة الوحيدة التي كان الأوروبيون يتفوقون في عددهم فيها على المسلمين، وإن كان عدد هؤلاء قد ارتفع بنسبة عالية خلال المرحلة التي سبقت الثورة. وهكذا كان عدد الأوروبيين متفوقاً على عدد المسلمين في ثلاث أو أربع من المدن الرئيسية في الجزائر عام ١٨٨٦. ولكن هذا الوضع انعكس تماماً في عام ١٩٥٤. ولم يحتفظ الأوروبيون بتفوقهم العددي إلا في مدينة وهران فقط. ولقد كان لهذه الظاهرة أهميتها الكبرى خلال مرحلة الصراع الحاسمة، وخلال المحاولات التي لجأت إليها فرنسا لتقسيم الجزائرـ على نحو ما تم في فلسطينـ.

وتبقى الظاهرة الأكثر أهمية في التركيب السكاني ـ الديموغرافي ـ

للجزائر، هي في فترة مجتمعها الشاب. ففي عام ١٩٥٤، لم تكن نسبة من يزيد عمرهم على الستين، بأكثر من خمسة بالمائة. وكان هذا المجتمع يضم نسبة خمسين بالمائة من الذين تنقص أعمارهم عن العشرين عاما. أما النسبة الباقية وهي خمسة وأربعون بالمائة فتشير إلى من تتراوح أعمارهم بين العشرين والستين. وكانت نسبة الزيادة الطبيعية للسكان عند الأوروبيين واحدا بالمائة في السنة ـ وهي ناجمة عن زيادة ثابتة نسبيا في معدل المواليد اتخذت هذا الشكل منذ عام ١٩٣٩، وهبوط ثابت في معدل الوفيات. وبينما يميل تركيب السكان بين الأوروبيين في الجزائر الى الفتوة ـ الى حد ما ـ فإن مسلمي الجزائر يعتبرون من أكثر الشعوب فتوة، وأكثرها تكاثرا في العالم. ففي عام ١٩٥٤، كان معدل زيادة الجزائريين المسلمين في حدود اثنين ونصف بالمائة.

وقد اعتبر هذا التزايد السريع بعد الحرب العالمية الثانية، في طليعة العوامل الاقتصادية التي سببت أزمة حادة أدت إلى إفقار الفلاح الجزائري إلى حد أكبر مما كان عليه من الفقر في عام ١٩٣٩. ووجد الفلاح الجزائري المسلم نفسه محصوراً بين موارده المحدودة جداً، وكثرة عدد الأفواه التي يجب تأمين الطعام لها. وكان لا بد من أن يتجه القادرون من الشباب نحو باب الهجرة إلى فرنسا بحثاً عن المأوى والطعام، وهكذا بلغ عدد الجزائريين المهاجرين إلى فرنسا سنة ١٩٤٨ نحواً من مائة وستين ألفاً. ثم ارتفع هذا الرقم الى نحو أربعمائة ألف مع بداية الثورة. وقد استطاع هؤلاء المهاجرون الجزائريون ـ تأمين الطعام لحوالي مليونين من مواطنيهم، بإرسال أجور عملهم إلى أهلهم وذويهم، ولو كان ذلك على حساب حرمانهم

هم أنفسهم من كثير من ضرورات الحياة ومتطلباتها.

كما أن هذا التفجر السكاني قد أدى الى زيادة عدد العاطلين عن العمل - في الجزائر نفسها، وبالتالي إلى زيادة التذمر، وإلى توافر عدد كبير من الرجال القادرين على الانضمام إلى جيش الثورة ودعمه.

وعندما انفجرت الثورة، أجرت السلطات الإفرنسية بحثاً إحصائياً، كشف عن وجود أربعة وخمسين ألف عامل عاطل عن العمل. ولكن هذا التقدير لم يكشف عن حقيقة مدى البطالة، أو نصف البطالة بين مسلمي الجزائر. **حيث كان عدد العاطلين في القطاع الزراعي يتجاوز ثمانمائة ألف.**

كما أن عدد العاطلين وأنصاف العاطلين في جميع القطاعات قد تجاوز تسعمائة ألف من مجموع ثلاثة ملايين ونصف المليون، أي ما يعادل ربع المجموع الإجمالي للقوة العاملة. ولم يكن فقر الغالبية العظمى للجزائريين ناجماً عن النسبة العالية للعاطلين عن العمل بصورة دائمة فحسب، بل عن تركيز الأراضي والثروة الصناعية في أيدي المستوطنين أيضاً، بالإضافة إلى التوزيع غير العادل في فرض الضرائب. وبالإضافة أيضاً إلى الأجور المنخفضة - والمجحفة - التي كانت تقدم لمسلمي الجزائر لقاء أعمالهم.

وعلى سبيل المثال، فقد أجريت دراسة (في حزيران - يونيو - ١٩٥٥) أبرزت أن معدل الدخل الفردي عند أغلبية الجزائريين المسلمين، لا تزيد على (٤٥) دولاراً في السنة. وهناك نسبة ضئيلة من مسلمي الجزائر لا تزيد على الخمسين ألفاً يبلغ معدل دخل الفرد منها (٥٠٢) دولار في السنة. هذا في حين كان متوسط دخل الفرد

الأوروبي لا يقل عن (٢٤٠) دولار في السنة. وكان هناك (١٥) ألفاً من الأوروبيين يزيد دخل الفرد فيهم على (٣١٨١) دولاراً في السنة. أما في مجال التشريع المجحف في فرض الضرائب؛ فيكفي القول بأن الضريبة التي كانت مفروضة على المسلم الجزائري في المدينة، والذي لا يتجاوز دخله (١٢١) دولارا في السنة، قد بلغت (٤ , ٢٠) بالمائة - اعتبارا من سنة ١٩٥١ وما بعدها - وهي عين النسبة المفروضة على الأوروبي من أبناء الطبقة الوسطى الذي يبلغ دخله (٥٠٢) دولاراً في السنة.

ج - النهب الاستعماري

اعتمد النهب الاستعماري - على ما هو معروف - على مبدئين أساسيين ١ - الحصول على المواد الأولية التي تفتقر اليها الصناعة الغربية، بدون أي ثمن، أو في حدود الحد الأدنى من التكاليف. ٢ - تصنيع هذه المواد الأولية وإعادة تصديرها الى البلاد التي يتم استعمارها - فتح الأسواق في وجه الصناعات الغربية. وكان من المتوقع على هذا الأساس أن تعمل الادارة الاستعمارية في الجزائر على تدمير الصناعات اليدوية القائمة، وعدم إفساح المجال لها للتطور. وكان في الجزائر صناعات تقليدية بسيطة ورائعة توارثها الأبناء عن الأجداد جيلاً بعد جيل، وهذه الصناعات تقوم على الورش الصغيرة، أو في المنازل، وتعتمد في الغالب على اليد العاملة الماهرة والابداع الفردي، وهي إلى ذلك لا تتطلب رؤوس أموال ضخمة، ولا إلى شركات لتموينها، مثل صناعة الفخار، والزرابي، والسجاد، والحبال، والحصر، والأدوات المنزلية، والحلي، والصناعات الخشبية، ودباغة الجلود وصناعتها الخ...

ولم يكن باستطاعة هذه الصناعات أن تصمد في وجه الصناعات التي اشتهرت باريس في إنتاجها، لا سيما وأن أسعار هذه الصناعات الغربية ـ الافرنسية ـ طرحت لتكون منافسة لأسعار الصناعات التقليدية. فأخذت هذه الصناعات في الانحدار والتقهقر ومن ثم الانقراض. وتخلى الصناع عن ورشاتهم ومحلاتهم وأغلقوها. فزالت الأسواق الوطنية الجميلة، لتحل محلها مراكز البيع العصرية التي يديرها الأوروبيون.

وقد شكل القضاء على الصناعة الوطنية التقليدية عاملاً إضافياً زاد من صعوبة الأزمة الاقتصادية التي فرضها النظام الاستعماري على الوطن الجزائري والمواطن الجزائري. ولم تحاول الإدارة الاستعمارية بالمقابل إقامة صناعة حديثة في الجزائر، بالرغم من توافر المواد الأولية (الحديد، والفوسفات، والجبس، والفحم، والطاقة الهيدروليكية ـ ثم الطاقة البترولية في الفترة الأخيرة)، وحتى الصناعات الغذائية احتكرتها فرنسا، ولم تسمح باقامتها في الجزائر. وعندما وقعت الحرب العالمية الثانية، شعرت فرنسا بالحاجة لإقامة صناعات في مستعمراتها لدعم مجهودها الحربي، فأقامت في الجزائر بعض المصانع الصغرى التابعة للمؤسسات الصناعية الضخمة في فرنسا، وذلك حتى لا يكون هناك تناقض مع المبدأ الذي تبنته فرنسا وهو: «أن فتح مصنع بالجزائر معناه إغلاق آخر في فرنسا والقضاء بالتالي على الاقتصاد الافرنسي» فكانت المصانع التي أقيمت، في معظمها، فروعاً للمعامل الافرنسية. ولقيت إقامة هذه الصناعات تشجيعاً حيث يتوافر في الجزائر السوق المربحة، والمواد الأولية واليد العاملة الرخيصة.

وارتفع بذلك عدد العمال حتى (٣٨) ألف عامل.

وكان من أبرز الصناعات التي تمت إقامتها صناعات: النسيج، والمواد الكيماوية، والفلزات، والخشب، والفلين، والجلود، والمواد الغذائية، وتكرير البترول، والمعادن. وأقيم فرع لصناعات السيارات (رينو) بالقرب من الجزائر العاصمة ـ يعمل فيه ٥٠٠ عامل ـ وينتج سنوياً (١٢) ألف سيارة. وهو مصنع تجميع. بالإضافة إلى مصنع « بيرلييه » شرق الجزائر العاصمة ويعمل فيه ٦٠٠ عامل. وكفاءته الإنتاجية ١٨٠٠ سيارة سنوياً. ولم تكن إقامة مثل هذه الصناعات في كل الأحوال متناقضة مع مبادىء النهب الاستعماري،فبقي الحصول على المواد الأولية، وتصديرها في حالتها الخام الى فرنسا، هو الأساس في تعامل فرنسا مع الجزائر، وبقيت المواد الأولية تصدر بكاملها تقريباً الى فرنسا. وكانت الشركات التي تقوم باستخراج المعادن هي شركات افرنسية، وها هو نموذج عن استخراج المعادن من المناجم الجزائرية والمصدرة الى فرنسا ـ وفقاً للإحصاءات الرسمية لتصدير المعادن في سنة ١٩٥٣:

الحديد: الإنتاج (٣,٣٣٢,٠٠٠) طن يصدر منها (٣,٠٣١,٠٠٠) طن.

الرصاص: الإنتاج (١١,٨٠٠) طن يصدر منها (٩١٠٠) طن.

الفوسفات: الإنتاج (٧٠٢,٦٠٠) طن يصدر منها (٥٦٢,٠٠٠) طن.

الفحم: الإنتاج (٢٩٥,٠٠٠) طن يصدر منها (٩٠٠٠) طن.

تجدر الإشارة إلى أن إقامة هذه المصانع وتطويرها قد اصطدم بمقاومة المستوطنين ومعارضتهم. ومثال ذلك رد فعل منتجي الشوندر

السكري من الافرنسيين ضد إقامة مصنع للسكر في الجزائر. وكان من نتيجة هذه المقاومة بقاء حركة التصنيع في طور بدائي جداً. وبقيت البلاد زراعية بالدرجة الأولى، ولم تتجاوز الصناعة الجزائرية حتى عشية الثورة أكثر من (٢٨) بالمائة من الإنتاج العام. وكانت بأوضاعها تلك لا تستطيع أن تستوعب أكثر من ٧ بالمائة من اليد العاملة الوطنية. وبقيت الجزائر بلاداً متخلفة اقتصادياً. ويذكر أن بعض الشركات الدولية الكبرى قد حاولت إقامة مصانع لها في الجزائر ـ مثل شركة سولفاي لإنتاج المواد الكيميائية ـ غير أن قبضة المعمرين القوية نجحت في إحباط هذه المحاولات وذلك «حتى لا تعمل هذه الصناعات على انتزاع قسم من اليد العاملة التي يستغلونها بثمن بخس. وحتى لا تتشكل طبقة العمال ـ البروليتاريا ـ وتنتظم، الأمر الذي يتناقض مع مصالحهم الاستعمارية».

* * *

وتحكمت قبضة فرنسا الاستعمارية بالتجارة بمثل تحكمها بالزراعة والصناعة، وكانت معظم الصادرات الجزائرية من المنتجات التي يحتاجها النظام الاستعماري من المواد الأولية. أما الواردات فكان (٨٠) بالمائة منها من المواد المصنعة، والباقي من المواد الغذائية (مثل القهوة والشاي والسكر) وهي المواد التي تستهلك على نطاق واسع في البلاد المتخلفة غذائياً، وتشكل هذه المواد نسبة (٥٩) بالمائة مما يستهلكه الجزائريون. وتشير طبيعة هذا التبادل الى أن الصادرات الجزائرية تفوق بحجمها الواردات. أما من ناحية القيمة، فالأمر على النقيض من ذلك. وها هي الإحصائية الرسمية التي نشرت سنة ١٩٥٣ والتي تؤكد هذه الحقيقة:

صادرات الجزائر (٦,٦٧١,١٩١) طن قيمتها (١٣٨,٨٢٠) مليار فرنك فرنسي.

ما تستورده الجزائر (٢,٦٦٥,٦١٧) طن قيمتها (٢٠٢,٦٩٤) مليار فرنك فرنسي.

أما في سنة ١٩٥٩، فكان الميزان التجاري كما يلي:

صادرات الجزائر (٩,٢٦٠,٠٠٠) طن قيمتها (١٨٠,٤٧٠) مليار فرنك فرنسي (قديم)

ما تستورده الجزائر (٥,٤٦٦,٠٠٠) طن قيمتها (٥٦٣,١١٠) مليار فرنك فرنسي (قديم).

ويظهر بذلك أن العجز في سنة ١٩٥٩ - قد وصل حتى (٣٨٢,٦٤٠) مليار فرنك (قديم). وكانت أعباء هذا العجز ونتائجه تقع على عاتق المسلم الجزائري. ويجب أن يضاف الى ذلك أن التنظيم التجاري الذي فرضته فرنسا على الجزائر، كان يحتم نقل جميع هذه البضائع على البواخر الإفرنسية، الأمر الذي كان يزيد من الأرباح الافرنسية، ويضاعف من الكسب لمصلحة الاقتصاد الاستعماري.

كما كان الاتحاد الجمركي مع فرنسا يفرض على الجزائر العزلة التامة عن العالم أجمع، ويستبعد كل منافسة أجنبية. وبقي المواطنون الجزائريون المسلمون معزولون عن العمل في المجالات التجارية. فكان كل تبادل تجاري يتم مع الخارج عن طريق العملاء الأوروبيين (الوسطاء). وكان من نتيجة هذا التنظيم الاقتصادي للجزائر زيادة الأعباء على المواطن الجزائري (المستهلك).

لقد احتكرت الإدارة الإفرنسية تجارة الجملة (التصدير والاستيراد) وأسندتها الى اليهود والإفرنسيين، وحاول بعض

المسلمين الجزائريين اقتحام هذا المجال، غير أنهم صدموا بمقاومة الإدارة الإفرنسية من جهة ومقاومة الوسطاء (اليهود والإفرنسيين) من جهة ثانية. وكانت مقاومة الإدارة الإفرنسية عن طريق رفض العملات - القطع النادر - التي طلبها المسلمون لاستيراد البضائع الأجنبية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت عملية التصدير والاستيراد تتطلب رؤوس أموال ضخمة، وكانت المصارف - البنوك - في قبضة الإفرنسيين.

وهذا ما كان يمنع المسلمين من ممارسة الأعمال التجارية الخارجية - إلا إذا وقعوا في قبضة الرأسماليين من اليهود والافرنسيين، وبما أن عدد الأوروبيين بقي يتزايد بصورة مستمرة، فقد أخذ عدد من هؤلاء أيضاً يمارس تجارة التجزئة (المفرق). وباتوا وهم يملكون أجمل الحوانيت في المدن والقرى الجزائرية الصغيرة، وبات أكبر تاجر جزائري لا تتعدى إمكانياته المادية ورخصة عمله الحكومية فتح دكان لبيع المواد التجارية بالجملة أو المفرق. وبقيت القروض ورخص الاستيراد والتصدير مرفوضة للصناع والتجار المسلمين من الجزائريين الذين لا يبرهنون على ولائهم للاستعمار، وهي ممنوحة لأولئك الذين يخنعون للذل والعبودية.

وبموجب سياسة الاستغلال هذه، يتوجب على الجزائري الذي يرغب في فتح دكان أو مطعم أو مقهى أن يسير حسب تعاليم الشرطة الإفرنسية - البوليس - الذي يعد المرجع الأول والأخير لدى الإدارة الاستعمارية التي تمنح الرخص الرسمية. فاذا ما تبين أن المتقدم بطلب الرخصة يتمتع بآراء وطنية، أو ظهرت آراؤه هذه بعد أن يكون قد حصل على الرخصة، فسرعان ما تسحب الرخصة ويغلق محله،

ويسجل اسمه بالمداد الأحمر، علامة العصيان، ونذيراً لما سيلاقيه هو وعائلته من تعسف واضطهاد.

وبقيت الضرائب الفادحة، وإغلاق المقاهي الاسلامية، وتشجيع الصناعات المماثلة التي استطاع المسلمون أن يبرزوا فيها (مثال ذلك: الكوكاكولا ضد مصانع الليموناضة الجزائرية). واستصفاء الأموال، والمحاكمات والمصادرات وعزل العمال والموظفين المسلمين المتهمين بجريمة (الغيرة الوطنية) كل هذه وسائل عادية في جملة الوسائل الاستعمارية لقمع الشعب الجزائري من الناحية الاقتصادية.

أما فكرة إنشاء المصانع والشركات، أو تعاطي تجارة كبرى كالتصدير والاستيراد، فيجب على الجزائري أن يستبعدها عن تفكيره، لأنه من المحال عليه بلوغها. ولم يكن ذلك غريباً بعد أن أصبحت هناك حفنة من المعمرين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، وهم يتحكمون بكل اقتصاديات الجزائر، من أمثال « هنري بورجو » و« جورج بلانشات » و« لوران شيامنينو » الذين أحكموا سيطرتهم على كافة المصانع والشركات والبنوك والمناجم، واستولوا على أطيب الأراضي الزراعية في الجزائر وأخصبها.

د ـ البترول والغاز الطبيعي

لقد ظهرت مشكلة الطاقة الممثلة (بالطاقة البترولية بالدرجة الأولى) في ظروف حرب العاشر من رمضان (تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٧٣)، وأخذت أبعادها الحادة والخطيرة. غير أن جذور هذه المشكلة تمتد في الواقع إلى أيام الحرب العالمية الثانية. وقد كان لهذه المشكلة أبعادها الاقتصادية الهامة والحاسمة في التأثير على مجموعة

المواقف خلال مسيرة الصراع الافرنسي ـ الجزائري، وحتى خلال المرحلة التالية لحرب التحرير. وقد كان هذا التأثير نتيجة لما تم اكتشافه في الجنوب الجزائري وبقية مناطق الصحراء من الثروة البترولية والغاز الطبيعي.

ذلك أن اكتشاف البترول في الجزائر، أحدث تغييراً واضحاً في مجموع الأوضاع الاقتصادية للجزائر خاصة، وأقطار المغرب العربي الاسلامي بصورة عامة. وعلى الرغم من أن عمليات التنقيب خلال مرحلة ما قبل الثورة، لم تكن إلا عمليات جزئية ومحدودة في المناطق الصحراوية، الا أن الأبحاث قد أكدت في تلك الفترة أن الإنتاج السنوي سيصل حتى (١٣) مليون طن في العام ١٩٦٠، وأن هذا الإنتاج سيرتفع حتى (٢٥) مليون طن في العام ١٩٧٠. وظهر أن هذه الثروة الكامنة ستفتح آفاقاً جديدة ومجالات رحبة أمام المستقبل الاقتصادي للجزائر. وتستطيع الجزائر بنتيجة ذلك احتلال مركز ممتاز يتيح لها أن تتصنع، وأن تنهض بسرعة لرفع مستواها الاقتصادي الأمر الذي سيساعدها على تجاوز مرحلة التخلف التي جهدت فرنسا طويلاً لتكوينها خلال ليل الاستعمار.

لقد أدى ذلك الى زيادة تمسك فرنسا بمواقعها في الجزائر، وزاد من ضراوتها (أو استماتتها) للاحتفاظ بالجزائر وبترولها، ما كان يحدث من تحولات مستمرة، واضطرابات متوقعة في السوق البترولي للعالم العربي (الذي ما زالوا يطلقون عليه اسم الشرق الأوسط) نتيجة التطور المستمر في الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وبالاضافة الى ذلك، فقد كان من المتوقع أن ينفرد البترول الجزائري والغاز الطبيعي المستخرج من الجزائر في ميزاتها الخاصة، وهي قربها من السوق

الاستهلاكي في الغرب - المستورد الأول في العالم للطاقة البترولية.

ولقد وطدت فرنسا نفسها، وعزمت عزمها، على بذل المستطاع، وأكثر مما هو مستطاع، من أجل الاحتفاظ ببترول الجزائر واستثماره ونهبه... ولهذا أعلنت أن الصحراء الكبرى هي أرض فرنسية منفصلة عن الجزائر، وأقامت للصحراء حدودها المصطنعة، وشكلت لها حكومة خاصة ووزارة جديدة. وعملت في الوقت ذاته على تصعيد الصراع في حربها الشاملة ضد شعب الجزائر بهدف تأمين طريق بترولي، بينما راحت تبحث عن مخارج سياسية تبادلية تضمن لها إحكام قبضتها على الجزائر وعلى أقطار المغرب العربي الاسلامي كافة.

وقد ركزت فرنسا جهدها أيضاً - في إطار صراعها السياسي - على مضاعفة اتصالاتها بالشركات البترولية العالمية، بهدف إثارة اهتمام هذه الشركات ببترول الجزائر، ومحاولة إغراء رؤوس الأموال الأجنبية التي تعمل في التنقيب عن هذا البترول. وكانت فرنسا تعرف أن مشاريع البترول الجزائري تتطلب إمكانات مالية وتقنية تزيد كثيراً على ما كان متوافراً لها في تلك الفترات. ولهذا فقد أثارت اهتمام الدول الأوروبية الأخرى - ولا سيما دول السوق الأوروبية المشتركة - بهذا البترول، وعادت إلى طرح مشاريعها الاستعمارية القديمة بأثواب جديدة عن طريق ما أطلقت عليه اسم «إقامة المنظمة الأوروبية - الأفريقية - أوروفريقيا» مع إعطاء هذه المنظمة المقترحة صيغة تجميلية مبتكرة. غير أن الجزائر الثائرة لم تقف جامدة تجاه هذا التحرك الإفرنسي المكشوف لها في وسائله وأهدافه. فعملت على إحباط كافة المشاريع المطروحة.

وجدير بالذكر أن «لجنة التنسيق والتنفيذ» التابعة لجبهة التحرير

الوطني الجزائري قد تنبهت منذ البداية لهذه الأخطار الجديدة المحدقة بالبلاد. فعملت على تحذير جميع البلدان المؤيدة لأطماع فرنسا الاستعمارية أو المناهضة لها من مغبة الاستجابة للمشاريع الافرنسية.

وعندما أعلنت فرنسا في سنة ١٩٥٧ عن إصدارها لقانون استثمار البترول. ردت لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية بما يلي: « إن حق استثمار البترول هو أمر منوط بحكومة وطنية جزائرية ذات سيادة. وعلى هذا فإن الجزائر لن تكون ملزمة بأية معاهدة أو أي اتفاق أو التزام قامت به فرنسا أو تقوم به باسم الجزائر ». وفي الوقت ذاته قام جيش التحرير الوطني الجزائري بشن مجموعة من المعارك الظافرة في الصحراء، وضاعف من حملاته على الحاميات الافرنسية فيها، وبهذا أصبح من المحال متابعة نقل البترول بواسطة الحاملات او الناقلات الخاصة، والتي أرادت فرنسا من خلالها إعطاء عملية النقل قيمة رمزية.

أمام هذا الموقف، لجأت فرنسا الى استخدام سلاح جديد ـ قديم ـ وهو سلاح التفرقة بين **أقطار** المغرب العربي ـ **الإسلامي؛ ففي تلك** الفترة، عقدت لجنة « التنسيق والتنفيذ الجزائرية» « **مؤتمر طنجة » مع** ممثلي المغرب وتونس، بهدف « **تشكيل الجبهة المغربية » لمقاومة** المخططات الإفرنسية وتنسيق الجهد العربي ضدها. فما كان من فرنسا إلا أن عقدت اتفاقاً مع تونس (سنة **١٩٥٧) يسمح لشركة فرنسية** بمد أنابيب البترول من « أدجيليه » في الجزائر الى البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي التونسية، وأقدمت تونس على عقد هذا الاتفاق مدفوعة بقلق غامض على مصير وحدة **أقطار** المغرب العربي ـ الإسلامي، ولاعتبارات أخرى تتعلق بمستقبل هذا المغرب. وكان رد

الفعل المباشر والفوري «للجنة التنسيق والتنفيذ» إصدار بيان أعلنت فيه: «**بأنها تعتبر توقيع هذه الاتفاقية خرقاً لمقررات مؤتمر طنجة، واعترافاً ضمنياً من تونس بحق فرنسا في بترول الجزائر. وأن الشعب الجزائري لن يقبل بأن تغذى الحرب التي تشن ضده لمدة طويلة أو قصيرة، ببترول ينقل عبر أراضي بلاد المغرب. كما أن مد الأنابيب المتفق عليه، يفقد الشعب الجزائري الفوائد المرجوة من معركته في الصحراء. وهي المعركة التي يخوضها آلاف المواطنين الجزائريين... إن الاتفاقات الحقيقية لا يمكن أن تبرم الا في مغرب متحرر، وبعد أن تبنى في كل بلد سياسة اقتصادية موحدة، أما مساهمة الدول الأجنبية في استثمار هذا البترول، فليست أمراً ثانوياً، بل أولياً لا مناص منه، بيد أن هذه المساهمة لا يمكن أن تتم الا مع مراعاة المصالح المغربية. وعلى أساس الحرية التامة بين المتعاقدين، والحقوق المشروعة للطرفين المتعاقدين**». وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة التونسية أنها لن تسمح بضخ البترول الجزائري إلا بعد انتهاء الحرب الجزائرية ـ الإفرنسية. وأمكن تجاوز الأزمة في ظروف الحرب. لتبرز بعد ذلك عند عقد اتفاقية «ايفيان» ولتبرز بشكل أخطر في «مشكلة الصحراء».

هـ ـ الموقف التعلمي (الثقافي)

كان السلاح الثقافي هو السلاح الرئيسي الذي استخدمته فرنسا لتدمير الجزائر، وفصلها عن أصالتها وماضيها وتراثها الحضاري ومستقبلها، وبالتالي عزلها عن محيطها الاسلامي ـ العربي. فانتشر في

الجزائر، وعلى نطاق واسع، أدب استعماري هدفه تمجيد فرنسا وعظمتها وتفوقها وما تقيمه من مشاريع في الجزائر (لتحضيرها وتمدينها وإخراجها من الظلمات الى النور). واذا ما تمت العودة الى ما تم طرحه باسم «التقاليد الثقافية الإفرنسية» فسيظهر أن فرنسا قد خلقت خرافة باسم «البعثات الثقافية الاستعمارية». غير أن تجربة أكثر من قرن قد برهنت على أن الوجود الاستعماري في الجزائر كان سبباً في تقهقر الجزائر تعليمياً وثقافياً، وتوقفها عن كل تطوير طبيعي للثقافة الجزائرية الأصيلة. ولم يكن حملة لواء تلك «البعثات الثقافية الاستعمارية» في الواقع سوى نفر من المهاجرين المضطربين فكرياً، والفقراء عقلياً،والمفلسين مادياً. جاءوا من وراء البحار يدفعهم حب المغامرة والرغبة في جمع المال، فكان همهم الوحيد وهم يهبطون أرضاً تم إخضاعهم حديثاً بقوة السلاح، أن يعيشوا بيسر وسهولة، وأن يجمعوا بسرعة ثروة كافية. ولقد وجد هذا النفر نفسه حيال الشعب الجزائري المتقدم في ظل الحضارة العربية والثقافة الإسلامية. وهو بالتالي لم يكن شعباً جاهلاً أو بربرياً كما أرادت تصويره روايات «الأدب الاستعماري» والذي يعتمد على مجموعة من الأساطير القديمة والمرتبطة في تاريخها بأيام الحروب الصليبية القديمة وأحداثها.

كان يوجد في الجزائر قبل احتلال فرنسا سنة ١٨٣٠، جمعية ثقافية إسلامية كبرى، إلى جانب جمعيات صغرى كثيرة. فكان التعليم منتشراً حتى في أقصى المناطق النائية، وفي أصغر القرى - والدواوير - فكان المرء يرى المدارس الكثيرة التي تضم الشبيبة الناشطة. كما كانت الجامعات منتشرة في كافة أصقاع العالم الإسلامي - العربي. وقد سجل «الجنرال هوتبول» في مذكرة بعث بها سنة ١٨٥٠ الى رئيس

الجمهورية الثانية ما يلي: « كانت الثقافة الإسلامية قبل الاحتلال واسعة الانتشار، وشاملة للفروع الآتية: ١ - التعليم الابتدائي الذي يشمل الأطفال بين الثالثة والعاشرة. ٢ - التعليم الثانوي ويشمل الأحداث بين العاشرة والخامسة عشرة. ٣ - التعليم العالي: للشباب، ويشمل الفقه والحقوق والرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا والتاريخ والطب. وكان التعليم الثانوي والعالي مجانياً كالتعليم الابتدائي. وكان يوجد في الجزائر أيضا جامعات أهمها: جامعة قسنطينة، وجامعة مدينة الجزائر، وجامعة تلمسان، وجامعة مازونا وبسكرة. وكانت هذه الجامعات من مستوى جامعة القاهرة وجامعة تونس وجامعة فاس، وكانت تضم آلاف الطلبة المسلمين ».

وجاء الاستعمار الإفرنسي ليبذل كل ما يستطيعه من أجل تدمير المجتمع الجزائري وتكوينه تكويناً جديداً يستجيب لأهدافه ويحوله نحو وجهة جديدة. واعتمد خطة هدامة ذات اتجاهين: أولها تعميم الجهل. وثانيهما: نشر ثقافة فرنسية استعمارية. والهدف من الخطة هو القضاء على الثقافة الاسلامية واجتثاثها من جذورها. وتجريد الجزائريين المسلمين بالتالي من تراثهم القومي بغية القضاء على كل وعي وطني أو شعور بانتمائهم الى شعب عظيم له ثقافته الرائعة وحضارته المميزة. وفي إطار هذه الخطة، عمل الاستعمار الإفرنسي على إغلاق المدارس وتشتيت الطلاب، وحل المنظمات الخيرية - الدينية التي كانت تشرف على حركة التعليم، ومصادرة أموالها (الأوقاف)، والقضاء على قواعد التعليم (المساجد). واعتبار اللغة العربية التي هي اللغة القومية - لغة أجنبية - بموجب القانون وتحريم تدريسها. ولقد طبق في

الجزائر نظام تدريس أشبه ما يكون بالنظام المطبق في فرنسا، وهو نظام لم يطبق في أي مستعمرة أخرى غير الجزائر.

كما أنه حرم على الجزائريين المسلمين اتّباع أي نظام تعليمي آخر. وحظر تعليم اللغة العربية أو التاريخ الوطني أو الاطلاع على الحضارة العربية ـ الاسلامية؛ هذه الحضارة التي ترتبط بها الثقافة الجزائرية ارتباطاً وثيقاً. وظل التعليم بين سنة ١٨٣٠ ـ ١٩٤٤ بالنسبة للطلاب الجزائريين معدوماً أو شبه معدوم، بينما كان عاماً بالنسبة للأوروبيين. فالمدارس لا تقبل سوى عدد محدد جداً من الطلاب الجزائريين، وعلى شكل امتياز في معظم الأحيان لمن ترضى عنهم الادارة الإفرنسية. غير أن هذه الأقلية الضئيلة جداً قد روع وجودها في المدارس السكان الأوروبيين، كما تثبته هذه الوثيقة التي تبناها مؤتمر المستعمرين في الجزائر سنة ١٩٠٨. وتضمنت الوثيقة ما يلي: « ... **اعتقاداً منا بأن تعليم الوطنيين في الجزائر إنما ينطوي على محاذير حقيقية، سواء في المضمار الاقتصادي، أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين ـ الإفرنسيين ـ فإن المؤتمر قد أعرب عن رغبته في إلغاء التعليم الابتدائي لهؤلاء الوطنيين إلغاء نهائياً** ». وتجدر الإشارة إلى أن عدد الطلاب المسلمين الجزائريين المقبولين في المدارس خلال تلك الفترة، لم يكن يتجاوز (٤١) ألف طفل من أصل (١,٧٨١,٠٠٠) طفل كانوا في عمر الدراسة.

لم يستسلم مسلمو الجزائر لهذه المخططات، وقاموا بالرغم من كل الضغوط والظروف السيئة ببذل كل جهد ممكن للمحافظة على وجودهم من خلال تمسكهم بكتاب الله وإقبالهم على التعليم

الإسلامي العربي. وقام شيوخ المسلمين في الأغواط وميزاب وقسنطينة بنشر التعليم، كما عملت جمعية علماء مسلمي الجزائر - عبد الحميد بن باديس وإخوانه في الله - على إرساء القواعد الإسلامية الثابتة ونشر التعليم الإسلامي والثقافة العربية، وأخذت محصلة هذه الجهود في إعطاء ثمارها على شكل نهضة ثورية شاملة. وشعرت فرنسا بخطورة الموقف، فأخذت منذ سنة ١٩٤٤ ببذل محاولات جديدة لاستعادة المبادأة، والقضاء على المدارس الخاصة، وذلك بفتح أبواب المدارس للتعليم الابتدائي في المدارس الرسمية - الإفرنسية -. وزاد عدد الطلاب الجزائريين في هذه المدارس، غير أن عدد الطلاب الذين لم تتسع المدارس لقبولهم بقي كبيراً. وذلك لأن الإدارة الإفرنسية لم تعمل على زيادة عدد المدارس أو بناء مدارس جديدة، وكل ما فعلته هو أنها اخترعت نظام المدارس التي تعمل بنصف دوام (الدوام النصفي) الذي يحقق هدفاً مزدوجاً - الأول: تخفيض مستوى التعليم - تعميم الجهل بالتعليم. والثاني: استيعاب أكبر عدد من الطلاب لمقاومة جهد المدارس الاسلامية الخاصة وحرمانها من التطور. أما المدارس الابتدائية التي كان يتم افتتاحها جديداً فكانت تخصص لأطفال الأوروبيين، وهذا مما تؤكده الاحصاءات الرسمية التي أعلنت سنة ١٩٥٣. وجاء فيها ما يلي:

١ - التعليم الابتدائي :

- الطلاب الجزائريون (٢٦٩) ألف طفل سجلوا من أصل (١,٩٦٩,٠٠٠) طفل في سن القبول، أي أن نسبة الذين بقوا خارج المدارس من هؤلاء الأطفال هي (٨٦,٥) بالمائة.

ـ الطلاب الأوربيون (١٣٥) ألف طفل ، هم جميع أولاد الأوربيين .

٢ ـ التعليم الثانوي :

الطلاب الجزائريون (٤١٥٩) طالباً من أصل ١٢ مليون نسمة .
الطلاب الأوربيون (٢٤) ألف طالب من أصل (٨٠٠) ألف أو حتى (٩٠٠) ألف نسمة .

٣ ـ جامعة الجزائر :

الطلاب الجزائريون (٥٠٧) طلاب .
الطلاب الأوربيون (٥١٣٢) طالباً.

وفي مجال التعليم الفني (المهني) فقد أُنشئت معاهد عالية للتعليم الزراعي ،ومعاهد متوسطة ومدارس ابتدائية . ولم يكن المعهد الزراعي العالي يضم ولو جزائرياً واحداً في عداد طلابه . وكان عدد الطلاب في بقية المعاهد ـ من الجزائرين والإفرنسيين على النحو التالي :

المدارس الزراعية	الجزائريون	الإفرنسيون
مدرسة فيليب فيل	٢	٣٣
مدرسة عين طموشنت	٣	٤٤
مدرسة سيدي بن العباس	٢	٨٢
مدرسة الجلم	٣٧	٥٥
مدرسة المختراس	٣٠	٣٠
المعهد العالي الزراعي	ـ	١٣٨
المجموع	٧٤	٣٨٢

وتتكرر هذه الظاهرة في التعليم الصناعي، حيث يلاحظ تناقص عدد الجزائريين كلما ارتفع المستوى التعليمي وفقا لما تشير اليه دراسة إحصائية للسنة الدراسية ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ وهي كالتالي :

المدارس الصناعية	الجزائريون	الإفرنسيون
مركز التدريب	٣٦٠٠	٣٠٠٠
فروع التعليم المهني	٣٠٠	٦٦٠
الثانوية الصناعية	٣٠٠	١٥٥٠
المعهد العالي الصناعي	١١	٣١٤
المجموع	٤٢١١	٥٥٢٤

لقد كانت شرعة محاربة التعليم في الجزائر؛ مجسدة بما أعلنه المستوطنون الإفرنسيون، في مجابهة الحكومة الإفرنسية سنة ١٨٩٤، عندما فكرت هذه الأخيرة في تطوير التعليم في الجزائر، فطرح المستوطنون مقولتهم التالية : « **لا حاجة لبناء المدارس وإنشائها للبرهان على قوتنا وقدرتنا، فالكرم لا نفع منه في بلاد تنكر الجميل** ». وبقيت هذه المقولة هي الشرعة السائدة في الجزائر طوال عهد الاستعمار.

* * *

لقد أخذت الأقلام الاستعمارية في الدفاع عن فرنسا الاستعمارية، وتحميل كل سوءات الاستعمار وعيوبه للمستوطنين. غير أن مثل هذه المحاولات لتبرئة الاستعمار الإفرنسي ومحاولة منحه « شهادة حسن سلوك » هي محاولات فاشلة. ذلك أن كل البراهين والشواهد تؤكد حقيقة واحدة وهي أن الاستعمار الاستيطاني في

الجزائر لم يكن الا وسيلة لضمان السيطرة الاستعمارية ، وتأميناً للنهب الاستعماري . وقد قام هذا الاستعمار الاستيطاني بواجبه على أكمل وجه في تنفيذ المخططات الاستعمارية الإفرنسية . وكان لا بد للمستوطنين من امتيازات مقابل الخدمات التي كانوا يقدمونها للوطن الأم . وعلى هذا فمن المحال فصل الاستعمار الإفرنسي عن أجهزته التنفيذية والممثلة بالاستعمار الاستيطاني . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية، فقد تعاقب على حكم فرنسا منذ استعمارها للجزائر سنة ١٨٣٠ وحتى الثورة المباركة للجزائر في سنة ١٩٥٤ أنظمة امبراطورية وملكية وجمهورية، يمينية، يسارية، وكلها سلكت خطاً ثابتاً تجاه الجزائر، أليس في ذلك ما يدين فرنسا الاستعمار وفرنسا الدولة ؟ علاوة على ذلك، فقد حاول الجزائريون منذ استعمار فرنسا لبلادهم أن يعملوا على إصلاح المفاسد بالتوجه الى الحكم الافرنسي - في باريس مباشرة. وكانت هذه المحاولات تصطدم دائماً بمدافع فرنسا الطويلة. ولقد بقي هذا الحلم الخادع، والسراب المضلل، أمل اولئك الذين نشأوا في أحضان « المدرسة الإفرنسية » ونادوا بدمج الجزائر بفرنسا. وهم يفصلون في محاولاتهم تلك بين الاستعمار الإفرنسي وجهازه التنفيذي (الاستعمار الاستيطاني) حتى تبين لهم في النهاية صعوبة إجراء مثل هذا الفصل، ولم يجدوا أمامهم في النهاية غير طريق الثورة .

وبعد، قد يكون من الصعب في هذه العجالة، عرض كل ملامح الجزائر عشية ثورتها، سواء في مجال التمييز العنصري بين المسلمين الجزائريين، والعنصريين الإفرنسيين، أو في مجال التمييز في الوظائف والخدمات - وحتى الخدمة في الجيش - أو في مجال الرعاية الصحية.

ولعل ما سبق طرحه، هو أمر كاف لإيضاح صورة الموقف وتعميمها على كل مرافق الحياة العامة والخاصة، وعندئذ يمكن القول: كم احتمل شعب الجزائر من عنت الاستعمار وظلمه؟ ولرب قائل بأن البيانات السابقة، والمعلومات الواردة، قد تجاوزها الزمن، وأصبحت في ذمة التاريخ. وكان بالمستطاع تناسي تلك الآلام والمآسي لو توقفت الحرب فعلاً، وانتهى الصراع حقيقة. غير أن الصراع لم يتوقف ولو أن وسائله قد تطورت. وعلى هذا يجب ألا ننسى أبداً، ويجب أن نتذكر دائماً. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن جيل الأبناء يجب عليه أن يعرف ما هو الاستعمار؟ وكم عانى الآباء والأجداد من قسوة الاستعمار ووحشيته، وعندئذ سيحرص جيل الأبناء على استقلاليته بقدر ما يتناسب مع جهود السلف وتضحياتهم.

٢ - الموقع الجيواستراتيجي والطبوغرافي[١]

ليس هدف البحث في هذا القسم إجراء دراسة عامة وشاملة للجغرافية الجزائرية. إذ أن بلوغ هذا المطمح أمر عسير في بحث يتركز بالدرجة الأولى على الثورة الجزائرية، وظروف انطلاقتها، ولكن إذا كان من الصعب تحقيق ذلك، فلا أقل من إعطاء فكرة وجيزة قدر المستطاع عن طبيعة مسرح الأعمال القتالية الذي شهد أحداثاً مثيرة في حرب ضارية استمرت سبع سنوات.

تشكل الجزائر، على ما هو معروف، القسم المتوسط من المغرب الإسلامي - العربي والذي أطلق عليه العرب قديما اسم «جزيرة المغرب»، ذلك أن البحر المائي يحد هذه الجزيرة من الشرق والشمال والغرب ويحدها البحر الرملي من الجنوب. وتمتد الجزائر فوق مساحة تزيد على المليونين من الكيلو مترات المربعة، وتتصل في حدودها الشرقية مع تونس وليبيا، وفي حدودها الغربية مع المغرب وموريتانيا وفي الجنوب مع النيجر ومالي. وتتميز الظواهر الطبوغرافية للجزائر بمظهرين أساسيين هما: سلاسل جبلية في الشمال. متقطعة، تنحصر

---

(١) تم الاعتماد في هذا القسم، وبالدرجة الأولى، على كتاب «جغرافية الجزائر» للاستاذ: حليمي عبد القادر علي.

بين فكيها أراض مرتفعة تسمى بالنجود. وفي الجنوب قاعدة عظيمة متسعة الأرجاء، فيها سهول حقية، وجبال بركانية، وكثبان رملية وهضاب صخرية. والانحدار العام لإقليم الشمال الجزائري يتجه من الجنوب إلى الشمال في أغلب الأجزاء.

ويظهر ذلك بوضوح إذا ما تم أخذ مقاطع مختلفة تمتد من الساحل حتى جبال الأطلس الصحراوي. ثم أجريت المقارنة فيما بينها. وعلى سبيل المثال، فإذا ما أخذ مقطع يبدأ من وهران إلى العين الصفراء، ماراً بجبال الضاية فجبال عنتر، (انظر المقطع أ) حيث يظهر أن منطقة العين الصفراء يزيد فيها الارتفاع على الألفي متر (جبل عيسى بالقرب من العين الصفراء ارتفاعه ٢٢٣٦ مترا) بينما جبال تاسالا بالقرب من وهران لا يزيد ارتفاعها عن الألف متر الا قليلاً، أي أن الارتفاع في الجنوب يفوق الارتفاع في الشمال بالضعف. ولهذا كانت الأودية في الشمال الغربي من الجزائر تنحدر من الجنوب إلى الشمال، مثل وادي الشلف الذي يأخذ منابعه من جبال عمور. وكذلك الأمر بالنسبة للإنحدار العام في إقليم شمال شرق الجزائر، حيث يتجه هذا الانحدار من الجنوب الى الشمال (كما يظهره المقطع ج) الذي يبدأ من رأس بوقرعون، وينتهي عند أقدام السفوح الجنوبية من جبال أوراس، ماراً من الشمال الى الجنوب بجبال القبائل الصغرى (نوميدية) التي يقل ارتفاعها عن الألف متر، ثم الوادي الكبير، ثم شطابه، ويزيد ارتفاعها عن الألف متر، ثم هضاب البحيرات التي لايزيد ارتفاعها على الألف متر، ثم جبال الأوراس. وهنا يتم الوصول الى منطقة يشتد فيها الارتفاع، اذ يزيد على الألفي متر. ويظهر ذلك الشبه الشديد بين هذا المقطع وبين

المقطع الوهراني في انحداره العام. أما المقطع الثالث الذي يبينه الشكل (ب) والذي يبدأ من « دلس » الى « بسكره » ماراً بوسط الجزائر، فلا يشبه المقطعين السابقين في انحداره العام. إذ بدل أن يكون من الجنوب إلى الشمال، فهو يتجه من الشمال الى الجنوب، فمثلاً في جبال جرجره التي يزيد ارتفاعها على الألفي متر، ثم جبال البيبان (١٨٦٢ م) ثم جبال ونوغة (١٤١٧ م)، ثم إقليم الحضنة الذي يقل ارتفاعه عن (٥٠٠ م)، وهذا الاتجاه في الانحدار هو الذي جعل الأودية التي تصرف جبال الأطلس الصحراوي في هذه المنطقة، والتي تنحدر من جبال الحضنة، تصب في شط الحضنة، وأغلبها متجهة من الشمال إلى الجنوب، بعكس أغلب أودية الجزائر الشمالية. ولقد ساعد هذا الانخفاض في اقليم بسكرة على جعل مدينة بسكرة بوابة الصحراء، منها كانت تمر القوافل التجارية التي تربط بين الشمال والجنوب. ومن الملاحظ على جبال الجزائر أنها غير متصلة بعضها ببعض، وغير متقاربة في الارتفاع، ولهذا كان إطلاق اسم سلسلة جبلية عليها ضرباً من التسامح، إذ هي جبال متقطعة، أو أرداف دائرية الشكل تتماشى مع خط مستقيم، أو قباب تفصل بينها جروف نحتتها مياه الأمطار الغزيرة. وأفضل منطقة تظهر بها هذه الجروف هي منطقة الأخضرية (بالسترو) حيث يظهر وادي يسر وقد شق طريقه في جبال الأخضرية الشاهقة، ونحتت مياه الوادي التكوينات السطحية اللينة ثم تعمقت إلى أن بلغت الصخور الغرانيتية التي أخذت في إزالتها أيضاً. وبدلاً من أن يأخذ النهر في توسيع مجراه، راح يعمقه، حتى كأنه سيف انصب على الجبل فشطره الى شطرين شديدي الانحدار. وتظهر هذه الحالة ذاتها مرة أخرى

بوادي الرمل في مدينة « قسنطينة » الذي يشق طريقه بين حافتين شديدتي الانحدار من صخور جيرية صلبة. وكذلك وادي اقريو - بشعبة الآخرة. يختلف الانحدار العام في شمال إقليم الصحراء عنه في جنوبه. ففي المنطقة المتاخمة للسفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي، يأخذ الانحدار العام من الشمال إلى الجنوب، وأما في الجهات الجنوبية الشرقية، فالانحدار العام من الجنوب الى الشمال، كما يبينه وادي « إيغارغار » الذي يأخذ منابعه من جبال الهوقار، ويتجه نحو الشمال. ويمكن تقسيم الجزائر الى خمسة أقاليم تضاريسية متباينة هي من الشمال إلى الجنوب : ١ - إقليم الشواطىء . ٢ - إقليم الأطلس التلي . ٣ - إقليم النجود . ٤ - إقليم جبال الأطلس الصحراوي ٥ - إقليم الصحراء .

آ - ١ - إقليم الشواطىء : وهو الإقليم الفاصل بين البر والبحر، أو ما يسمى « سيف البحر » . ويمتد الشاطىء الجزائري على شكل خط متعرج يبلغ طوله من غرب الغزوات حتى شرق القاله مسافة (١٢٠٠) كيلو متر تقريباً. ويتميز الشاطىء الجزائري بكونه صخرياً صلباً يمتد على طول الساحل موازياً للاتجاه العام لسلسلة الأطلس التلي من الغرب إلى الشرق بصفة عامة. ولا تسمح طبيعة هذا الشاطىء الصخري بظهور الموانىء الطبيعية التي تحمي البواخر طبيعياً من تحرك المياه البحرية. ولهذا كان من الضروري بناء كاسرات الأمواج التي تتحطم عليها الأمواج بدلاً من تحطيمها على جدران البواخر، كما هو الحال في ميناء الجزائر الذي تحيط به سدود تفصل بين مياه عرض البحر المتحركة والمياه الساكنة للميناء. ويظهر الجدار الصخري المتمثل في خط الالتقاء بين البر والبحر، وهو يختفي

في معظم الأحيان فجأة داخل الماء. أو هو يرق الى أن يتحول الى حاشية دقيقة لا تزيد عن كيلو مترات قليلة. ولهذا نجد إقليم الرصيف القاري ـ وهو إقليم الحياة الحيوانية والنباتية المائية ضيقاً للغاية في الجزائر بخلاف ما هو عليه هذا الرصيف في إقليم الشاطىء التونسي أو المغربي ـ المراكشي ـ . فخط عمق (٢٠٠) م بالبحر لا يزيد بعده عن الساحل الجزائري بأكثر من خمسين كيلو متراً. بينما هو يبعد بأكثر من هذا في الإقليمين الآخرين من المغرب العربي. فالرصيف القاري التونسي واسع جدا. ولو كان طول الإنسان(٥٠) متراً، لاستطاع أن يخوض البحر راجلاً من جزيرة جربة الى جزيرة قرقنة في وسط البحر. ولو كان طوله ألف متر لاستطاع أن يسافر من رأس بونه الى جزيرة صقلية راجلاً دون أن يحتاج الى ركوب سفينة. أما في الجزائر، فلا بد أن يزيد طول الإنسان الذي يريد قطع البحر راجلاً من الجزائر الى مرسيليا على الألفي متر. وتتوقف الثروة الحيوانية والنباتية البحرية على اتساع الرصيف القاري (أو المنطقة البحرية التي يقل عمقها عن مائتي متر). وهذا هو السبب في أن البلاد التونسية أغنى من الجزائر في صيد الأسماك. وتتخلل الشاطىء الجزائري ظاهرة الخلجان التي تشبه أنصاف الدوائر، مثل خليج وهران، وخليج أرزيو، والجزائر، وبجاية، وسكيكدة وعنابة. وكل هذه الخلجان مفتوحة أمام الرياح الغربية، وتيار البحر الأبيض المتوسط القادم من جبل طارق، الذي يحمل بين طياته رواسب يلقي بها على الحافات الشرقية أو الجنوبية للخلجان. ولذلك، فمن الملاحظ أن الموانىء الجزائرية تقوم على الحافات الشرقية أو الجنوبية للخلجان حتى تكون بعيدة عن رواسب التيار البحري. ولا تتعمق هذه الخلجان إلا قليلاً داخل اليابس

(البر) ما عدا خليج بجاية الذي يعتبر أكبر خليج في الجزائر. والى جانب الخلجان تظهر الرؤوس المتعمقة داخل البحر،والمنتشرة من الغرب الى الشرق على طول الساحل، ومن أهمها: رأس ملوية عند الحدود الجزائرية المغربية، ثم رأس فالكون غربي المرسى الكبير، ورأس فرات وكربون بالقرب من أرزيو. ورأس تنس والعموشي قرب مدينة شرشال، وراس البرج البحري الى الشرق من مدينة الجزائر، وكافالو إلى الشرق من بجاية، وكاربون الى الغرب من بجاية. أما خليج سكيكدة فينحصر بين راسين، أحدهما في الشرق وهو راس الحديد والثاني في الغرب وهو راس بوقرعون. واذا تقدمنا الى الشرق نجد رأس الحارس بالقرب من عنابة. وروزا وروكس بالقرب من الحدود الجزائرية ـ التونسية. وبهذه الرؤوس الممتدة من الغرب الى الشرق منارات لإرشاد السفن. وتزدهر فيها الحياة النباتية. وقد بنيت عليها المدن، واستصلحت أراضيها، وزرعت بها أشجار الفواكه والخضار، وأصبحت مكتظة بالسكان. وهي تمثل مواقع جيوـ استراتيجية هامة،تتم منها مراقبة التحركات البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وبها أقيمت مراكز المراقبة لحراسة الشواطىء الجزائرية. وتمثل بعض هذه الرؤوس فوهات بركانية :مثل رأس الحديد،ورأس بوقرعون ورأس كافالو، ورأس البرج البحري.

آ ـ ٢ ـ اقليم الأطلس التلي : وهو إقليم يضم سلاسل جبلية ممتدة من الغرب إلى الشرق موازية للشاطىء الجزائري ،ويضم أيضاً السهول والتي تقسم إلى سهول ساحلية منخفضة وسهول داخلية مرتفعة وهي سهول متقطعة محصورة بين الجبال. وأشهر السهول الساحلية :

آ ـ سهل وهران : ويمتد إلى الجنوب من مدينة وهران، بادئاً من عين

« تيموشنت » غرباً، إلى منعطف نهر الشلف ومليانة شرقاً. وهو سهل طويل ممتد من الشرق الى الغرب، تجري به أودية كثيرة. وتحده من جنوبه جبال تاسالا وبوقرين والونشريس، وفي الشمال جبال الظهرة وزكار. ويتسع السهل في الوسط، كما يمتد شمالاً حتى شاطىء البحر بالقرب من مستغانم. أما من الجهات الشرقية فتعترض امتداده هضبة الأطلس البليدي. ويضم سهل وهران مجموعة من الأحواض المائية العذبة « الدايات »، ومجموعة من الأحواض المائية المالحة « السبخات ».

ب ـ سهل متيجة «متوجة»، ويعتبر امتداداً طبيعياً لسهل وهران، لا يفصل بين السهلين إلا منطقة جبلية ضيقة بالقرب من مليانة. ويحد سهل متيجة من الجنوب أطلس البليدة (الذي يسمى أيضاً بالأطلس المتيجي)، ويمتد من غرب حجوط حتى جبل « بوزقزه ». ويحد سهل متيجة من الشمال جبل بوزريعة، أو الحافة الجبلية المرتفعة والممتدة على شاطىء البحر من مدينة الجزائر حتى شرشال. هذا في الجهات الغربية، أما إلى الشرق من مدينة الجزائر، فيكاد السهل المتيجي يشرف على البحر، لولا ظهور روابي رملية ضيقة تفصل بين البحر والسهل. ويطلق على الحاشية الرملية من الروابي اسم « الساحل » ابتداء من الحراش حتى وادي « بودواو » والسهل المتيجي ضيق لا يزيد عرضه على ثلاثين كيلومتراً، أما طوله فيزيد على مائة كيلومتر.

ج ـ سهل عنابة : ويحده شمالاً جبال أيدوغ والبحر الأبيض المتوسط وغرباً جبال القبائل الصغرى « نوميديا » وجنوباً جبال سوق

أهراس. وشرقاً جبال مجرده. وتنتشر به البحيرات. ويجري به وادي السيبوس.

هذه هي أهم السهول الساحلية المنخفضة المشهورة بالغلال والخضر والبساتين والكروم. أما السهول الداخلية المرتفعة فهي للحبوب. ومن أهمها :

آ ـ **سهل تلمسان : يرتفع (٧٣٧) متراً** عن سطح البحر. يقع عند أقدام السفوح **الشمالية لجبال تلمسان**. وهو سهل كثير الخيرات بسبب **وفرة مياهه، وخصوبة تربته (المارنية)** .

ب ـ **سهل بلعباس: ويرتفع (٥٨٣)** متراً عن سطح البحر. **ويشتهر بالحبوب وزراعة الكروم.**

ج ـ **سهل تيارت (أو السرسو): المنحصر** بين جبال **الونشريس شمالاً وجبال فرنده والشلالة جنوباً.**

د ـ **سهل عين بسام**: وينحصر بين جبال تيطري جنوباً والبليدة **شمالاً.**

هـ ـ **سهل قسنطينة**: ويمتد من غرب مدينة سطيف ـ غرباً ـ حتى جبال سوق أهراس شرقاً، وهو أعظم سهل داخلي تكثر به زراعة الحبوب والقمح الصلب بصورة خاصة. وتقع هذه السهول كلها على ارتفاع يزيد على خمسمائة متر وهي أقرب الى النجود منها الى السهول.

* * *

أما بالنسبة لسلسلة الجبال التلية، **فهي** تمتد من الغرب إلى الشرق، بادئة من جبال تلمسان بالحدود الجزائرية ـ المغربية. ومنتهية

بجبال سوق أهراس بالحدود الجزائرية ـ التونسية. ويمكن تقسيمها إلى كتلة جبال غربية وكتلة جبال شرقية، تفصل بينها جبال مليانة «أوزكار». وهذا التقسيم على أساس النضج والتطور والاتساع. ذلك أن كتلة الأطلس التلي الشرقي أكثر اتساعاً من كتلة الأطلس التلي الغربي. ثم إن قمم الكتل الجبلية الشرقية أخذت تتسطح، والأودية تسير بها في شكل عرضاني. والأحواض الداخلية مصروفة للغاية، كما هو الحال في حوض «قالمة». وتدل هذه الظواهر الطبيعية كلها على أن تطور التضاريس في الجهات الشرقية أكثر وضوحاً مما هو عليه في الجهات الغربية التي ما زالت تظهر بها القمم العالية ذات الأطراف الحادة، والأحواض المعلقة التي لم تصرف بعد ولم تملأ بالرواسب. ويعود سبب تطور التضاريس في الشرق، أكثر منها في الغرب إلى الأمطار التي تنزل في الإقليم الشرقي أكثر منها في الإقليم الغربي، وليس السبب في أن جبال الإقليم الشرقي أقدم في تكوينها وظهورها من جبال الإقليم الغربي.

تبدأ الكتلة الجبلية الغربية بجبال تلمسان، وهي الحد الفاصل بين جبال الريف بالمغرب، وجبال الأطلس التلي بالجزائر، ويبلغ ارتفاعها (١٨٢٤ م) وتتكون في معظمها من صخور جيرية. ثم إذا تقدمنا شرقاً اعترضتنا جبال تاسالا (١٦٠١ م) وهي التي تحد شمالاً سهل بلعباس المرتفع، أما جنوباً فتحده جبال الضاية (١٤١٧ م) ثم تعترضنا شرقاً جبال سعيدة (١٢٨٨ م) وهي الحد الجنوبي لسهل معسكر المرتفع. وإلى الشرق من الجبال السابقة نجد جبال فرنده (١١٣٢ م) ثم جبال الونشريس (١٩٨٥ م) والظهرة (١٠٧١ م) وجبال زكار (١٥٧٩ م) ويتكون أغلب هذه الكتل الجبلية من

صخور جيرية، متميزة بشدة التوائها، وظهورها أحياناً في شكل أسفاط أو قشور الأسماك. وإلى الشرق من جبال زكار تبدأ كتلة الجبال الشرقية ـ التي تبدأ بجبال البليدة (أو الأطلس المتيجي) الذي يبلغ ارتفاعه (١٩٧٢ م). وهو من صخور الشيست والمارن، تكثر به ظاهرة الأسفاط من شدة الالتواء الذي تعرضت له المنطقة. والى الشرق من جبال البليدة يرتفع جبل بوزقرة إلى ألف متر، وهو من صخور جيرية. ثم تأتي جبال جرجرة وهي من صخور جيرية مشققة أو هضاب قديمة تبلغ أعلى قمة بها (وهي قمة لاله خديجة ـ ٢٣٢٨ م)، ثم جبال البابور (٢٠٠٤ م)، وهي كذلك من صخور جيرية. ثم هضبة القل (١٠٩٠ م) وجبال إيدوغ (١٠٦٨ م) الذي يتكون من صخور قديمة جداً، مثله كمثل منطقة أربعاء بني راتن بهضبة جرجرة، وجبل بوزريعه الذي تقوم عليه مدينة الجزائر العاصمة.

تظهر إلى الجنوب من كتل الأطلس التلي الشرقي مجموعة من الكتل الجبلية الأخرى التي تسير موازية للجبال السابقة، وتتكون من طبقة رسوبية سميكة من الشيست، تتخللها تكوينات حصوية أو طينية أو مارنية، من أهمها جبال تيطري (١٢٣٨ م) التي تتصل بجبال البيبان (١٤١٧ م) وهذه الأخيرة تظهر بقللها الصخور الجيرية والكوارتزية. ثم جبال فرجيوه، بالقرب من فج مزالة، ثم جبال نوميدية (أو جبال قسنطينة ـ ١٤٦٩ م) الى الشمال من مدينة قسنطينة، وجبال سوق أهراس أو مجردة (وتتكون جبال فرجيوه وقسنطينة من صخور جيرية مشققة).

آ ـ ٣ **إقليم النجود** : وهو يشمل المنطقة الممتدة من جبال التندارة غرباً الى **منخفض** الحضنة شرقاً. حيث يتسع الأطلس التلي ويمتد إلى

الجنوب ليلتقي مع الأطلس الصحراوي .وتمتد أراضي النجود في شكل طولاني بين السلسلتين الأطلسيتين الشمالية والجنوبية . وهي أقل ارتفاعاً منهما، تسير من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي على طول (٧٠٠) كيلو متر . متبعة في ذلك الاتجاه العام لسلسلة جبال الأطلسي الصحراوي (وتشبه في وضعها هذا ساحة البيت العربي حيث يشكل الأطلس التلي جدارها الشمالي، ويشكل الأطلس الصحراوي جدارها الجنوبي) وبذلك فهي منطقة ذات صرف داخلي، أوديتها تصب في الشطوط ما عدا الوادي الطويل. ويتجه الانحدار العام لإقليم النجود من الغرب الى الشرق متبعاً في ذلك سلسلة الأطلس الصحراوي ويتبين ذلك في المقارنة بين الشط الغربي والمناطق الواقعة الى الشرق منه. فالجهات الغربية من النجود يتراوح ارتفاعها بين الألف والألف ومائتي متر، في حين يتراوح ارتفاع الجهات الوسطى بين سبعمائة وثمانمائة متر. أما شط الحضنة فيقل ارتفاعه عن أربعمائة متر.

وكما أن الجهات الغربية أكثر ارتفاعاً من الجهات الشرقية فإنها أكثر اتساعاً. فالمسافة بين الأطلس التلي والصحراوي في الجهة الغربية تزيد عن مائة وخمسين كيلو متراً. وأما من الناحية الشرقية فتقل عن خمسين كيلو متراً. وبحسب هذا الوصف تكون أرض النجود أشبه بمثلث قاعدته الحدود الجزائرية المغربية، وقمته شط الحضنة، وهو عبارة عن سرج عظيم، أو هضبة واسعة تتخللها الانكسارات التي أصابت الإقليم في فترة تعرضت فيها جبال الأطلس للالتواء. ذلك أن صلابة الصخور التي تتكون منها أراضي النجود أدت الى انكسارها عندما تعرضت للضغط. ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة خلال الشقوق

وسطوح الانكسارات التي لم تمتلىء بعد بالرواسب، مثل فالق غار الروبان الذي يستخرج منه الرصاص بالقرب من الحدود الجزائرية ـ المغربية.

يقطع أرض النجود في شكل طولي من الجنوب الغربي، نحو الشمال الشرقي، كل من جبال عنتر التي يصل ارتفاعها الى (١٥٠٨م) وجبل سبع رؤوس (١٤١١ م)، وهو يفصل بين منخفض بوقزول في الجهات الشمالية، وارتفاعه (٦٥٠ م) ومنخفض الزاغز الغربي في الجنوب، وارتفاعه (٨٠٠ م). وما عدا هذه الجبال والانكسارات، يظهر سطح أرض النجود في شكل انتفاخ واسع تتخلله روابي تكونت نتيجة لتزحزح المنطقة نحو الجنوب الغربي، وتظهر أحواض مغلقة وشطوط واسعة، وزواعز ضيقة في النجود أيضاً. أما الأحواض المغلقة فتكسوها طبقة صماء كتيمة، تملؤها مياه الأمطار في فصل الشتاء ثم تتبخر في فصل الصيف، تاركة وراءها نسبة قليلة من الرطوبة، عليها تقوم الحياة العشبية، والشطوط الواسعة أو الضيقة، وهي أحواض مغلقة أيضاً، تتجمع فيها مياه الأمطار المحملة بالجزئيات الملحية والطينية الواردة من المناطق المجاورة لها في فصل الشتاء. وهو الفصل الذي تحتل فيه السبخة أكبر مساحة ممكنة. أما في فصل الصيف، فيشتد التبخر، ويقل سطح الماء؛ وتضيق بالتالي مساحة الشط، وتشتد ملوحة السبخة التي تبقى محافظة على نسبة من الماء المختلط بالملح والطين، يشبه الحمأة، ويعلوه الزبد الذي هو نذير الخطر، يعطي للناظر من بعيد مظهر البحيرة العذبة، حتى إذا جاءها لم يجدها، بل وجد فخاً طبيعياً تعرفه غزلان النجود التي لا تقترب منه مهما أضناها الظمأ. وأهم هذه الشطوط التي تنتشر

هنا وهناك على سطح إقليم النجود، هي : **شط الحضنة**، وتنصرف إليه مياه أوديت وجبال تيطري وونوغة والحضنة من الشمال، ومياه أودية أولادنايل والزاب من الجنوب، **والشط الشرقي**، وتنصرف اليه مياه السفوح الجنوبية لجبال الضاية، والسفوح الشمالية لجبال قطارة، ثم **الشط الغربي**، ويقع بالحدود الجزائرية ـ المغربية. وتنصرف اليه مياه جبال التندرارة من الجنوب الغربي، ومياه سفوح جبال سيدي العابد من الشمال.

آ ـ ٤ ـ **الأطلس الصحراوي** : تمتد جبال الأطلس الصحراوي على طول سبعمائة كيلو متر، من فجيج غرباً حتى إقليم الزاب شرقاً. وتتجه سلسلة الأطلس الصحراوي من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي، فاصلة بين أراضي النجود في الشمال والكتلة الصحراوية القديمة في الجنوب. وهي حاجز للرمال الصحراوية، ولولاها لاكتسحت الرمال مناطق النجود، وربما وصلت الى ساحل البحر الأبيض المتوسط، كما هو الحال في الصحراء الليبية التي تصل رمالها في بعض الأجزاء حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط. وتتخلل جبال الأطلس الصحراوي ممرات ودروب، تتبعها الأودية المنحدرة نحو الصحراء، وقد كانت هذه الدروب، وما زالت، تمثل الممرات الطبيعية للقوافل التجارية القادمة من الصحراء إلى إقليم التل أو العكس. ونجد الطرق المعبدة الحالية والخطوط الحديدية كثيراً ما تسلك هذه الممرات الطبيعية لتصل بين الشمال والجنوب. أو بين إقليم التل وإقليم الصحراء. ويزيد الأطلس الصحراوي في ارتفاعه، على ارتفاع الأطلس التلي ـ بصورة عامة ـ رغم قدمه في تاريخ تكوينه. ويعود السبب في ذلك الى أن الأمطار في الإقليم التلي أكثر منها في

الإقليم الجنوبي، وبالتالي، فإن عملية النحت المائي والترسيب ونقل المواد المفتتة في إقليم الأطلس التلي هي أنشط منها في الأطلس الصحراوي، الذي كثيراً ما نجد عند سفوح جباله المفتتات الصخرية المتراكمة التي تنتظر سيلا جارفاً أو أمطاراً كافية لنقلها. أما الانحدار العام في هذا الإقليم الجنوبي فهو يتجه من الغرب الى الشرق، كما تبينه ارتفاعات الجبال التالية :

١ - جبال العين الصفراء، وأعلى قلة (قمة) بها تصل إلى (٢٢٣٦ م) وهي قمة جبل عيسى .
٢ - جبال عمور، وبها قلة (قمة) جبل الطويلة، التي يصل ارتفاعها الى (١٩٣٧ م) ، وبوبرقة (١٩٥٩م).
٣ - جبال أولادنايل : ويصل ارتفاعها حتى (١٥٠٠ م) بالقرب من الجلفة .

ويظهر ذلك بوضوح أن الانحدار يأخذ في التناقص، وتأخذ الجبال في الضمور، وهي تتجه من الغرب الى الشرق، حتى تكاد تختفي عند « بسكرة » التي تسمى عتبة الصحراء، أو الممر الطبيعي بين الشمال والجنوب. ولهذا مدت السكة الحديدية التي تربط بين « توقرت » و«قسنطينة» بهذه المدينة. وخلال هذا الممر الطبيعي، الى الشرق من مدينة بسكرة، يعود الارتفاع مرة أخرى بصورة مباغتة، ويشتد الانحدار، وتظهر جبال الأوراس الشامخة التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها (وهي قمة أم كلثوم- ٢٣٢٩م) وهي بذلك أعلى قمة جبلية في شمال الجزائر، لا في الجزائر كلها، حيث أن جبل تاهت بالهوقار يبلغ ارتفاعه (٢٩١٨ م) وهو بذلك أعلى جبل في الجزائر كلها. وتتكون جبال الأوراس الواسعة من صخور جيرية شديدة الارتفاع، تتلقى

كمية كبيرة من الأمطار، اذا ما قورنت بجبال العين الصفراء. وتتخلل جبال الاوراس أودية متجهة نحو الجنوب، تحمل معها المفتتات الصخرية، وتتبع في سيرها الالتواءات المقعرة، مثل وادي عبدي ووادي الأبيض، اللذين يجريان في الأطراف المحدبة لجبلي أحمر خدو والأزرق. وتمثل جبال الأوراس بارتفاعها الشاهق، كتلة جبلية حاجزة بين الصحراء ونوميدية. ويأخذ عامل الارتفاع في التناقص مرة أخرى كلما توغلت هذه الكتلة شرقاً. فجبال النمامشة لا يزيد ارتفاعها على ألف وخمسمائة متر. وكذلك جبال تبسة. وينعكس عند جبال الأوراس الاتجاه العام لسلسلة الأطلس الصحراوي التي تأخذ في الاندماج مع الأطلس التلي بالتدريج، إلى أن تقضي عليها عند منطقة « القالة » وترمي بها عرض البحر. ويتحول اسمها الى «جبال خمير» في الاراضي التونسية، ثم جبال « مقعد » الواقعة في أقصى الشرق. ومن الملاحظ على سلسلة الأطلس الصحراوي، أنها ترتفع فجأة عند التقائها بالصحراء. أما عند خط التقاء الأطلس الصحراوي بأراضي النجود، فيبدأ الارتفاع بالتدريج من الشمال إلى الجنوب، متمثلاً أولاً في الراوبي، ثم الجبيلات، ثم الجبال الشاهقة. وتتميز الجهات الشرقية من الجزائر، بالجبال المعقدة القصيرة الامتداد. كما تتميز بعدم الثبات في الاتجاه العام. وظاهرة الانتقال من الروابي إلى الجبال، ومن الالتواءات المحدبة الى الالتواءات المقعرة. ومن الأحواض المغلقة الى السهول المفتوحة، وهذه هي الصفة السائدة في إقليم هضبة الأوراس وجبال مجردة.

٥ ـ اقليم الصحراء: تبلغ مساحة الصحراء الجزائرية (١,٩٨٧,٦٠٠) كيلو متر مربع، وبذلك تحتل مساحة قدرها

تسعون بالمائة تقريباً من المساحة الإجمالية للقطر كله، والبالغة (٢,١٩٥,١٠٠) كيلومتر مربع. والتركيب الجغرافي للصحراء أبسط من تركيب المنطقة التلية. إذ لا تظهر فيها الجبال المتقطعة، ولا المرتفعات المعقدة، ولا السهول الضيقة المحصورة، ولا الالتواءات الحديثة. ولكن الصحراء تضم بالمقابل السهول التحاتية الواسعة والأحواض المغلقة، والجبال بحافاتها الشديدة الانحدار، والعروق الرملية المتنقلة، ويمكن تقسيم الصحراء إلى أربع مناطق متباينة:

أولاً: منخفض في الركن الشمالي الشرقي، تظهر به بعض الشطوط. مثل شط ملغيغ، الذي يقع دون مستوى سطح البحر بحوالي واحد وثلاثين متراً. فهو أخفض مكان بالجزائر كلها.

ثانياً: منطقة هضابية صخرية على الأطراف الشمالية وفي الوسط، مثل هضبة تادمايت، الى الشمال من عين صالح.

ثالثاً: سهول تحاتية تغطيها الرمال. وهي التي تحتل أكبر مساحة في الصحراء.

رابعاً: كتل جبلية مرتفعة في الركن الجنوبي الشرقي، وهي جبال الهوقار التي تبلغ أعلى قمة جبلية بها (٢٩١٨م) وهي قمة تاهت بمرتفعات أتاكور إلى الشمال من مدينة «تامنراست». وأغلب جبال الهوقار ناتجة عن اضطرابات بركانية مازالت فوهاتها بارزة للعيان. والجبال هنا لا تأخذ أشكال السلاسل الممتدة، ولكن الأشكال المخروطية. ولقد أصابت حركة التوائية قديمة جداً إقليم الصحراء، وأدت هذه إلى التواء سلاسل جبلية من

الشمال الى الجنوب، ثم تعرضت الجبال لعملية النحت مدة زمنية كانت كافية لتحويل هذه الجبال القديمة إلى هضاب وسهول تحاتية، تغطيها رواسب حديثة من رمال أو صخور، أتت بها الرياح في أغلب الأحيان. ذلك أن عملية التجوية الآلية- الميكانيكية- الناجمة عن الفوارق الحرارية الشديدة بين الليل والنهار، أدت إلى تفكيك الصخور في منطقة الصحراء، وتحويلها الى جزئيات دقيقة يسهل على الرياح نقلها من هنا وهناك، وتحريكها من مكان لآخر، لتبني بها أشكالا هندسية من براخين وأهلة. وتبرز في الصحراء ثلاث ظواهر تضاريسية متباينة هي: ١-الحمادة. ٢-الرق. ٣-العرق. فالحمادة: هي الهضبة الصخرية التي تغطيها صخور جيرية ممتدة في شكل صفائح طباقية. ومن أهم الحمادات في الجهة الجنوبية الغربية «حمادة الذراع» على الحدود الجزائرية- المغربية. و«حمادة القلاب» على الحدود الجزائرية- الموريتانية. و«حمادة تادمايت» إلى الشمال من «عين صالح».

أما الرق: فهو سهل صخري، أو حوض منخفض ملأته السيول الجارفة بالرواسب الصخرية. وأخيراً- العرق: وهو يختلف عن الحمادة والرق في أنه سطح واسع الأطراف، تغطيه كثبان رملية تشبه أمواج البحر، جاءت بها الرياح من الحمادة أو الرق، وبهذا تكون رواسب العرق هوائية، والرق فيضية. وتحتل العروق مساحة كبيرة من الصحراء الجزائرية حيث تنتشر في كل من الجهات الشرقية والغربية. ففي الجهات الشرقية، يظهر العرق الشرقي الكبير الذي يمتد من وراء الحدود الجزائرية- التونسية الى المنخفض الذي يفصل بين هضبة «تادمايت» و«المنيعة». ثم العرق الغربي الكبير الذي

يبدأ من « بني عباس » غرباً حتى هضبة « المنيعة » شرقاً . و « عرق الشيخ » و « عرق ايجيدي » على الحدود الجزائرية ـ الموريتانية .

* * *

ب ـ وديان الجزائر

الوديان ـ كما هو معروف ـ هي المجاري المائية التي تتحكم فيها أربعة عوامل أساسية هي : المناخ والتضاريس والتربة والنباتات. وعلى ضوء هذه العوامل تتميز المجاري المائية الجزائرية بعدم انتظامها في تصريف المياه. ويعود سبب ذلك الى فصيلة الأمطار. ففي فصل الشتاء تنزل الأمطار في المناطق التي تأخذ الأودية منها ينابيعها. وهي أمطار غزيرة تتغذى منها الأودية، وتكثر مياهها، وترتفع حمولتها حتى تصبح سيولاً جارفة كثيراً ما تخرب الجسور وتعطل المواصلات. وفي فصل الصيف تنعدم الأمطار وتجف الأودية، وتظهر بأسرتها الرمال والحصى والجلاميد وقليل من الماء، إن كان بالوادي ينابيع. ولا تصل هذه المياه القليلة الى المصبات إلا بعد مشقة، نظراً لشدة التبخر التي ترتفع في فصل الصيف، ولعملية التسرب الجانبي للمياه في التكوينات الرملية المنفذة في مناطق جريانها. وتسير معظم أودية الجزائر في مناطق شديدة الانحدار، قريبة من مصباتها. ولهذا كانت أقرب الى السيول منها الى الأنهار، حتى كأن إطلاق كلمة أودية ينطبق عليها تماماً، لأنها تفيض وتزيد يوماً، وتهدأ شهوراً بسبب شدة الانحدار الذي يزيد من سرعة المياه الجارفة، ورقة الغطاء النباتي وانعدامه في بعض الأحيان. مما يساعد المياه على تشكيل السيول الجارفة للتربة وما بها. وتنقسم الأودية الجزائرية حسب الأماكن التي

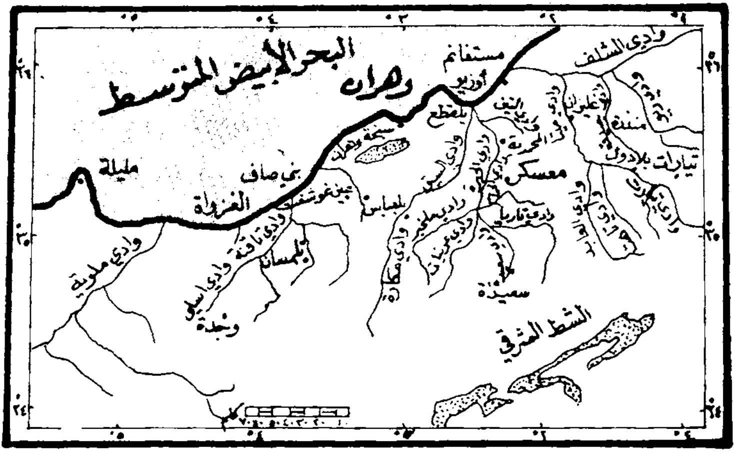

أودية إقليم وهران

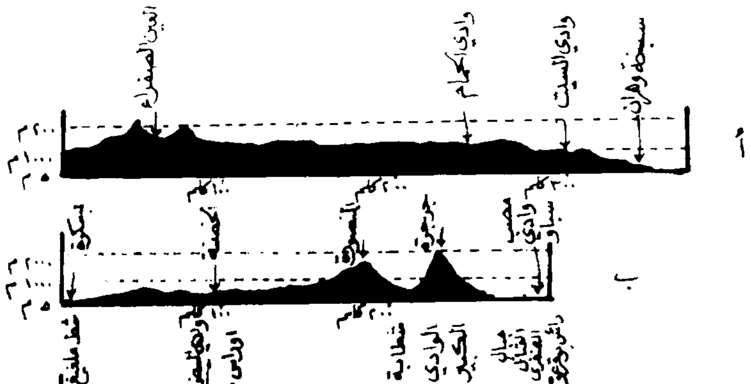

الانحدار العام لجبال الجزائر

تفرغ فيها شحنتها إلى أودية تصب في البحر المتوسط، وأودية تصب في أحواض مغلقة بمنطقة النجود، وأودية تصب في الصحراء :

ب ـ ١ ـ **الأودية الشمالية** : وهي الأودية التي تصب في البحر الأبيض المتوسط (وتسمى بالأودية التلية) وهي تتميز بما يلي :

* **متجهة من الجنوب إلى الشمال في أغلب قطاعاتها.**
* **ـ تأخذ منابعها من سلسلة الأطلس التلي ـ ما عدا وادي الشلف .**
* **ـ مناطق صرفها أوفر مطراً وأغنى نباتاً .**
* **ـ يأخذ الوادي أسماء مختلفة باختلاف المناطق التي يمر بها .**

مثال ذلك وادي الشلف الذي يسمى بالوادي الطويل عند مروره بالنجود، ويسمى « بوادي الملاح » عند انحداره من « جبال عمور » ووادي السيق الذي يسمى مجراه الأعلى « بوادي مكاره » . ووادي يسر الذي يسمى مجراه الأعلى « بوادي الملاح » . وأهم هذه الأودية من الغرب الى الشرق :

١ ـ **وادي تغنة** (أو تافنه) . وهو ينحدر من جبال تلمسان، ومن مرتفعات تزيد على الف وخسمائة متر . ويرفده من الجهة اليمنى وادي يسر، ومن الجهة اليسرى وادي أسلي. ويصب وادي تافنه الى الغرب من مدينة بني صاف، بعد أن يخترق جبال أترارة، ويبلغ طوله (١٧٠) كيلو متراً.

٢ ـ **وادي السيق والحمام** .ويسمى الأول بوادي مكارة عندانحداره من جبال الضاية على ارتفاع ألف ومائتي متر عند رأس الماء . ويتصل

بوادي الحمام في منطقة تكثر بها المستنقعات تسمى بمنطقة المقطع. وينطلق وادي الحبرة أو الحمام من « بوسي » على ارتفاع ألف ومائتي متر أيضاً بجبل سعيدة. ولا تصل مياه السيق والحمام الى البحر الا بعد مشقة، نظراً لانخفاض المنطقة بالقرب من مصبهما. وكانت هذه المنطقة تمثل خليجاً بحرياً، وما زالت الرواسب القارية لم تعمل على ملئه وتسوية سطحه. ويبلغ طول كل من وادي الحمام والسيق (٢٥٠) كيلو متراً.

٣ ـ **وادي الشلف** : وهو أطول واد بالجزائر، يبلغ طوله (٧٠٠) كيلو متر، ويمد لسانه حتى سلسلة الأطلس الصحراوي، ليأخذ منابعه بالقرب من مدينة « آفلو » ويسمى بالوادي الطويل عند مروره باقليم النجود، من الجنوب الى الشمال، ويحول اتجاهه من الشرق إلى الغرب عند اصطدامه بجبال زكار، فاصلاً بذلك بين جبال الونشريس في الجنوب وجبال الظهرة في الشمال. ولما كانت المنطقة التي يصرفها وادي الشلف واسعة، فإن المياه لا تنقطع من سريره، وترفده عدة أودية ثانوية من الجنوب والشمال، ومن أهمها في الجنوب « النهر الواصل » الذي يصرف هضبة السرسو، ووادي دردر والفضة، وسلي، وريو، ومينا، وكلها تنحدر من جبال الونشريس، ما عدا وادي مينا الذي يأخذ منابعه من جبال فرنده. ولما كان وادي الشلف أوفر ماء من بقية أودية الجزائر، فقد بنيت عليه سدود كثيرة لري سهول الشلف، الممتدة من منطقة مليانة حتى مستغانم. ومن أهم هذه السدود « سد الغريب » وهو أعظم سد في القطر الجزائري، حيث يمكنه أن يخزن (٢٨٠) مليون متر مكعب.

٤ ـ **وادي الشفة** : وينحدر من جبال الأطلس المتيجي، كما يبلغ

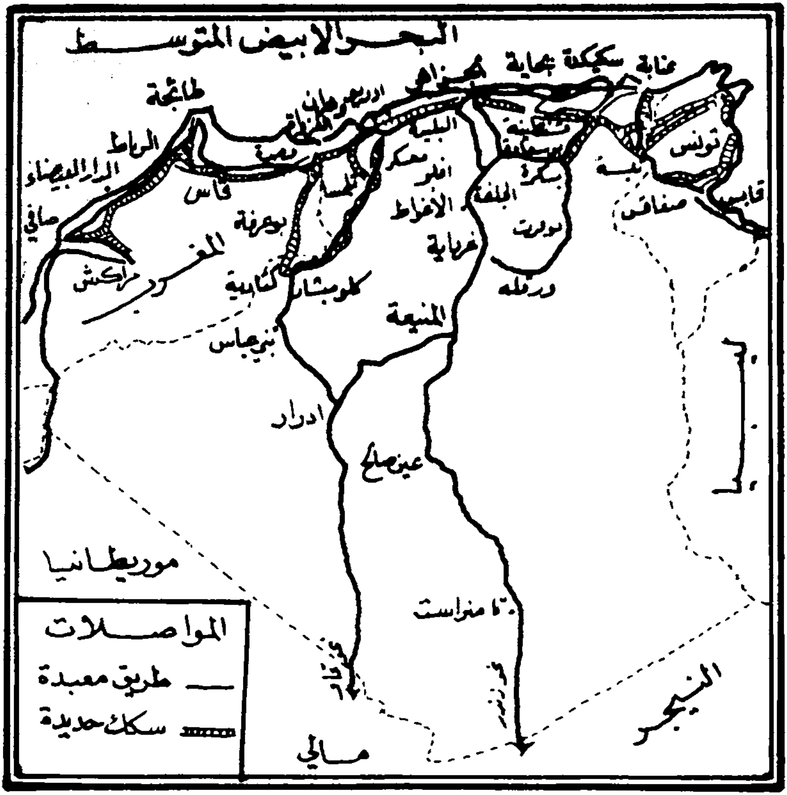

خطوط المواصلات في الجزائر

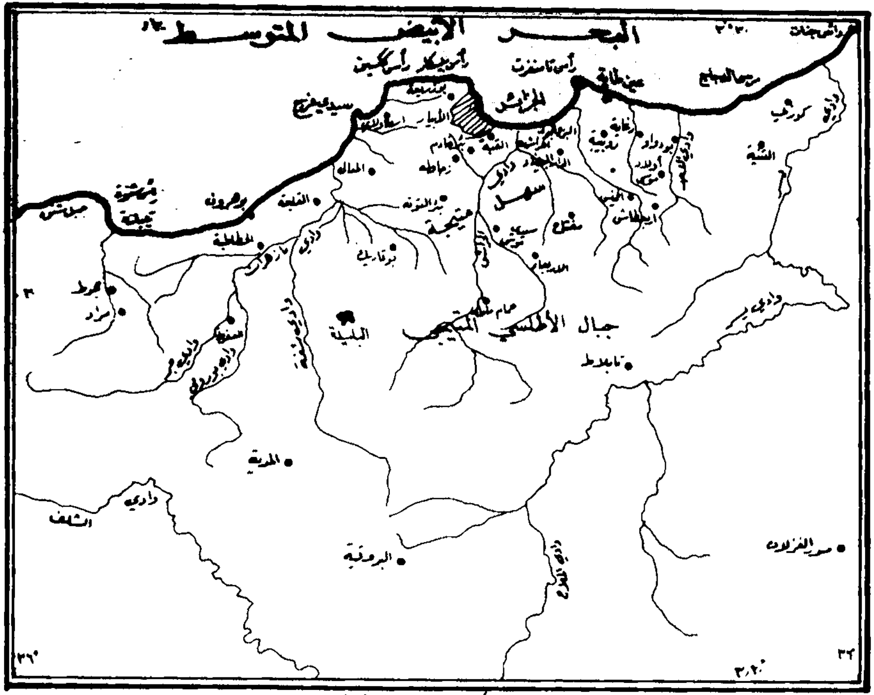

أودية مدينة الجزائر وإقليمها

طوله (٢٠٢) كيلو متر .

وهو واد انطباعي بالقرب من مصبه الى الغرب مدينة « سيدي فرج » ويرفده من الجهة اليسرى « وادي دجر » الذي ينحدر من جبال زكار. ويلتقي الواديان بالقرب من مدينة وادي العلايق في سهل متيجة. ومن هنا يتحول اسم الوادي الى وادي مازفران، يشق طريقه خلال الحافة الجبلية الساحلية التي تفصل البحر عن سهل متيجة. وهي حافة ذات التواء محدب، تسير وشاطىء البحر من شرشال حتى الجزائر العاصمة .

٥ ـ وادي يسر : وينبع من جبال تيطري على ارتفاع (١٢٠٠ م) بالقرب من البروقية، ويصب بالقرب من مدينة « دلس » ويبلغ طوله (٢٣٠) كيلو مترا. ويشق طريقه في خط قائم الزاوية مع اتجاه جبال التل. وهو واد انطباعي في اكثر اجزائه، ويظهر هذا الانطباع بصورة خاصة في منطقة الأخضرية، حيث يجري الوادي وسط الصخور الصلبة من نايس وغرانيت. ولولا غزارة الأمطار التي يزيد متوسطها على (٨٠٠م م) في منطقة حوض الصرف لما استطاع هذا الوادي أن يشق طريقه وسط الجبال، وأن ينحت بها جدراناً يزيد ارتفاعها على المائة متر في خانق الأخضرية. ومن السهل ملاحظة عملية التوازن عند مصب وادي يسر، حيث انخفضت الأرض مسافة مائتي متر تقريباً منذ عصر البلايوسين، بسبب تراكم الرواسب التي يلقي بها وادي يسر عند مرفضه، فازداد بذلك الثقل على طبقة السيماواختل توازنها، فخسف فيها الجزء الأسفل من قاعدة المصب، وقد أدى هذا الى ارتفاع مناطق أخرى مجاورة لها لإعادة التوازن .

٦ ـ **وادي الصومام** : (**ويسمى بوادي الساحل أيضاً**) : وهو ينبع من جبال البيبان، ويرفده من الجهة اليمنى ـ وفي أقسامه العليا ـ وادي بوسلام الذي يلتقي به بالقرب من مدينة « أقبو » ويشتد انحدار وادي الصومام من منبعه الى مدينة البويره، ثم يأخذ الانحدار في القلة حتى مصبه في هليج بجاية. ويجري وادي الصومام في سهل ضيق للغاية، ويبلغ طول الوادي (٢١٠) كم.

٧ ـ **الوادي الكبير، ويسمى بوادي الرمل** (وقديماً وادي امبزاغة) ويبلغ طوله حوالي (٢٥٠) كيلو متراً. ويأخذ منابعه من جبال فرجيوه بالقرب من جميلة. ويصرف السفوح الجنوبية لجبال البابور، ثم يتجه من الغرب الى الشرق حتى يصل الى إقليم قسنطينة، فيتحول اتجاهه من الجنوب الى الشمال، ثم يخترق جبال نوميدية الجيرية، ليصب الى الشرق من مدينة جيجل بحوالي (٤٥) كيلو متراً.

٨ ـ **وادي الصفصاف** : ويبلغ طوله مائة كيلو متر، يصب في خليج سكيكدة، وينبع من منطقة « سمندو ».

٩ ـ **وادي السيبوس** : ويمد لسانه حتى الجبل الأزرق الواقع على ارتفاع (١١٩٥م) **بالقرب من «عين البيضاء» ويسمى مجراه الأعلى** بوادي الشرق. يرفده من **جهاته اليمنى واليسرى عدة روافد من أهمها** : وادي زناتي الذي ينحدر من جبل « **أم سطاس** » **بالقرب من « عين** عبيد ». ويروي وادي السيبوس **سهل عنابة، وهو لم يأخذ مجراه** النهائي في هذا السهل حتى الآن، **حيث يظهر وقد هجر مجراه** القديم وانخرق الى الغرب مسافة سبعة كيلومترات، بدليل الأذرع الميتة أو المجاري المهجورة التي تنتشر بالقرب **من مجراه** الأدنى الحالي. ويبلغ

طول وادي السيوس (٢٣٢) كيلو متراً .

١٠ ـ **وادي مجردة** : وينحدر من جبال مجردة بالجزائر، ثم يمر بالأراضي التونسية، ليصب في خليج قرطاجنة بتونس. تلك هي أهم أودية الشمال، وهي كلها تصب في البحر الأبيض المتوسط. وقد بني على معظمها سدود لخزن المياه وري السهول الفيضية التي تجري بها.

* * *

ب ـ ٢ ـ **أودية النجود** : وهي أودية الأحواض الداخلية، وتتميز بقصرها. وشدة ذبذبة جريانها، وقلة مياهها عن الأودية السابقة، لأنها تصرف مناطق أقل مطراً من مناطق صرف الأودية التلية. وتسير أودية النجود في اتجاهات مختلفة، حاملة معها في فصل الأمطار رواسب كثيرة بها نسبة عالية من الأملاح التي تقذف بها في الأحواض المغلقة (أي في الشطوط أو الزواغز). وتشتد عملية التبخر في المنطقة خلال فصل الصيف، وتقل مياه الأحواض التي تتبخر تاركة وراءها رواسب ملحية تزيد من ملوحة مياه الشطوط. وتجف أغلب أسرة الأودية تماما ولا تبقى بها قطرة ماء في فصل الصيف. ومن بين الأودية الحوضية تلك التي تنصرف الى شط الحضنة، قادمة من جبال تيطري وأولاد نائل والحضنة. ونذكر منها وادي بوسعادة وحام ومسيلة أو القصب وبومدو وبريكة. وكل هذه الأودية تصب في شط الحضنة الذي يقع على ارتفاع (٤٠٠ م) فوق مستوى سطح البحر. ويغطي مساحة تزيد على (٢٧) ألف هكتار. وشط الحضنة أكثر ماء من بقية شطوط النجود، لأن الأودية التي تمده بالمياه كثيرة وطويلة نسبيا، ومنها ما تجري بها المياه طوال السنة. أما بقية الشطوط

البداية ـ اتقان استخدام السلاح

فأوديتها قصيرة جدا. وهي جافة في أغلب أيام السنة. ولهذا كان الشط الشرقي والغربي يمثلان حلقات منفصلة من السبخ يجف أغلبها في فصل الصيف، وتظهر بقاعها الحمأة والرواسب الملحية الطينية اذا اشتدت عملية التبخر.

. * . * . * .

ب ـ ٣ ـ **الأودية الصحراوية** : وهي التي تجري الى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي، تصب في بعض الأحيان في الشطوط، وتختفي أحياناً وسط الرمال، وتتميز بالآتي :

أولا : ليس لها جوانب مضبوطة ولا حدود معينة .

ثانياً : عديمة الانتظام وفجائية الفيضان، خلاف ما يحدث كل سنة في أودية المنطقة التلية والشمالية بصفة عامة. إذ أن الفيضان لا يحدث إلا مرة واحدة في كل عدة سنوات في الأودية الصحراوية.

ثالثاً : أنها من نوع الأودية المهاجرة، ولهذا يمكن أن يطلق عليها تجاوزاً اسم الأودية .

رابعاً : أنها رحمة إلَهية لما تخزنه من مياه فيها تحت التربة، ونقمة طبيعية لما تسببه من اضرار إذا فاضت، حيث إنها تأتي على المنازل والخيام. وفي بعض الأحيان على القطعان والمزروعات .

وتنقسم الأودية الصحراوية حسب مناطق منابعها إلى أودية السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي، «وأودية الهوقار». فأما الأولى، فتنحدر من السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي،

وتتجه من الشمال الى الجنوب، ما عدا وادي جدي الذي يسير على طول أودية السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي. ومياه أودية السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي، تغـوص في الرمال الصحراوية، لتنبجس مرة أخرى في شكل عيون طبيعية، أو آبار ارتوازية عليها قامت واحات النخيل في إقليم بني مزاب والهوامش الشمالية الصحراوية. ومن أهم هذه الأودية « وادي جدي » الذي يأخذ منابعه بالقرب من مدينة « أفلو » بجبال عمور. وهذه الجبال تعتبر منطقة تقسيم المياه بين « وادي جدي » الى الجنوب، والوادي الطويل الى الشمال، ويجري « وادي جدي » في منطقة إنكسارية نتيجة للحركة الالتوائية التي أصابت سلسلة الأطلس الصحراوي، متجهاً من الجنوب الغربي نحو الشمـال الشرقي مـاراً بمدينـة « الأغواط » و « أولادجلال » الى أن يصل الى « شط ملغيغ » الواقع دون مستوى البحر ب (٣١ متراً). ويضاهي وادي جدي في طولـه وادي الشلـف، كما يصرف جـزءاً كبيراً من مياه السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي. وبذلك فهو أوفر الأودية الصحراوية ماء. ومن الأودية الصحراوية القادمة من الشمال الى الجنوب نجد « وادي العرب » و « الوادي الأبيض » المنحدر من جبال الأوراس. ويصبان في منخفض « ملغيغ » وهو شط واسع الأرجاء، تحيط به الكثبان الرملية، وتظهر على حوافه النباتات الصحراوية المتنوعة، وتغمره المياه في فصل الشتاء.

وينحدر من الجهات الجنوبية الغربية لجبال الأطلس الصحراوي وادي زرقون وسوقر والخبيز والناموس. وأهمها وادي السـاورة الذي يرفده وادي زوسغانة من الجهات اليمنى، وأودية « غير » من الجهات اليسرى. ويسمى « وادي الساورة » بطريق النخيل، حيث قامت

عليه حضارات قديمة، ما زالت تشهد بها تلك الآثار المنتشرة هنا وهناك على طول الوادي، من كولومب بيشار حتى مصبه بسبخة « المخرقن » الى الجنوب من عين صالح في قلب الصحراء. ويعتبر وادي الساورة في الوقت الحالي شريان الحياة، تنتشر على امتداده واحات النخيل والمدن التي تعتبر محطات للمسافرين. وستزداد أهمية هذا الوادي بعد مد الخط الحديدي. وإتمام بناء سد « غير » لري منطقة « عبادلة ». أما القسم الثاني من الأودية الصحراوية، فهي المنحدرة من جبال « الهوقار » وتظهر على شكل شبكة منحدرة في كل الاتجاهات، من أهمها : « وادي تمنراست » الذي ينبع من مدينة « تمنراست » عاصمة « الهوقار ». ووادي تافاست، الذي يربط بين قلب الهوقار وجمهورية النيجر. ووادي جارات الذي يصرف مياه السفوح الشمالية الغربية لجبال أفتيس بهضبة الهوقار، ويلفظ ما يجمعه من مياه في سبخة « المخرقن ». وتتميز أودية « الهوقار » بفيضانها في فصل الصيف، لأن الأمطار تنزل في هذا الاقليم في فصل الصيف.

* * *

ج ـ النطاقات المناخية : لما كانت الجزائر تمتد على مساحة واسعة، فإن عناصر المناخ من رياح وأمطار وحرارة، تظهر بها متباينة ومختلفة من الشمال الى الجنوب، ومن مدينة الجزائر بالساحل حتى مدينة « تامنراست ـ بالهوقار ». ويمكن تقسيم الجزائر الى ثلاثة أقاليم مناخية متباينة، ممتدة على شكل نطاقات من الغرب الى الشرق، ومترتبة من الشمال الى الجنوب كالآتي : مناخ البحر الأبيض المتوسط، ومناخ الاستبس، ومناخ الصحراء.

١ ـ **مناخ البحر الأبيض المتوسط**: ويسود في المنطقة الشمالية، وفوق سلسلة الأطلس التلي من تلمسان حتى مدينة سوق أهراس، بل يتوغل في الأراضي التونسية حتى مدينة تونس، وفي الأراضي المغربية حتى مدينة طنجة. ويحده جنوباً خط (لانزوفيتس ٣٥٠ مم) وهو الخط الفاصل بين مناخ الاستبس في الجنوب، ومناخ البحر الأبيض في الشمال. ويتميز هذا الأخير بفصلين متباينين، أحدهما مطير دافىء طويل، وهو فصل الشتاء، والثاني فصل جاف حار قصير وهو فصل الصيف. ويكاد الجو يكون صافياً طول السنة مع اعتدال في الطقس مما جعل من هذه المنطقة مشكاة سحرية وروضة غناء، ذات غابات مخضرة، وأشجار صنوان وغير صنوان من بلوط وصنوبر وعرعار وأرز وريحان. وقد ساعدت هذه البيئة الطبيعة الجميلة منذ القديم على ظهور حضارات عريقة كانت ممتدة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط (الحضارة الفينيقية) حيث صفاء الجو ونور الشمس وسكون الطبيعة، كل ذلك مما ساعد الانسان على التفكير والابداع وإنتاج حضارة رائعة لا زالت ترسل بظلالها حتى اليوم .

٢ ـ **مناخ الاستبس** : تتراوح أمطاره بين (٣٥٠ مم) و (٢٠٠ مم) ويمتد الى الجهات الجنوبية من المناخ السابق، ويشمل اراضي النجود والأطلس الصحراوي . ويلاحظ هنا المناخ القاري بوضوح من فوارق حرارية يومية وشهرية متطرفة، وأمطار قليلة، ورطوبة نسبية منخفضة. ويعتبر المناخ الاستبسي مناخاً انتقالياً بين مناخ الصحراء في الجنوب، ومناخ البحر الأبيض المتوسط في الشمال، وتسود به الحشائش القصيرة والفقيرة، تتخللها في بعض الأحيان الشجيرات المتباعدة بعضها عن بعض. وأهم هذه الحشائش : الشيح ونباتات الحلفاء التي تعتبر مصدراً من مصادر الثروة الجزائرية، إذ منها يصنع

أجود أنواع الورق، كما تدخل في صناعة بعض الأقمشة والصناعات المحلية .

٣ ـ مناخ الصحراء : ويحتل أكبر مساحة في القطر الجزائري ، إذ يمتد من جبال الأطلس الصحراوي شمالاً حتى هضاب الهوقار جنوباً . وبذلك يشمل مساحة تزيد على التسعين بالمائة من المساحة الاجمالية للبلاد. وخط الايزوفيتس (٢٠٠ مم)، هو الحد الفاصل بين المناخ الصحراوي ومناخ الاستبس.فأمطار الصحراء تقل في أكثر مناطقها عن ٢٠٠ مم ، وتنزل في فصل الصيف على هضاب الهوقار والهوامش الجنوبية، وفي فصل الشتاء على الهوامش الشمالية. والرطوبة النسبية منخفضة جداً، والفوارق الحرارية مرتفعة جداً. وكذلك الحرارة اليومية التي تصل الى (٥٦) درجة مئوية في بعض الأحيان، وهو أعلى رقم في العالم سجله مرصد « تندوف ». ونتيجة لهذه الظروف الطبيعية القاسية ، كانت الصحراء بلاد الفلاة والبيداء والمليع ، تكاد تختفي فيها الحياة النباتية تماماً، وبايجاز، مناخها متطرف للغاية .

د ـ الغطاء النباتي : تغطي الغابات والحراج مساحة كبيرة بالجزائر تقرب من السبعة ملايين هكتار، أغلبها في الاقليم الشمالي. ويوجد بالجزائر حوالي ثلاثة آلاف نوع من النباتات ،أغلبها أصلية ، والقليل منها مستورد من الخارج ، مثل اشجار الكافور المستوردة من أستراليا ، والهندي أو التين الشوكي المستوردة من المكسيك. وتنقسم السنة النباتية الى فصلين: أحدهما فصل الصيف أو (فصل الجفاف) تسقط الأشجار فيه أوراقها ، وتختفي فيه النباتات الصغيرة. ولهذا يعتبر فصل النوم أو الراحة، يتوقف فيه النشاط النباتي. أما الفصل الثاني، فهو فصل الشتاء، تسقط فيه الأمطار، وفيه تورق الأشجار، وتخضر

الحشائش، وتزهر الأغصان، وتخرج البراعيم، ولهذا يسمى فصل النمو أو فصل الإنبات. ويخضع الغطاء النباتي لشروط طبيعية معينة تتحكم في وجوده وكثافته ونوعيته، ومن أهم هذه الشروط : المطر، والحرارة، والتربة، والضوء، والرياح، والموقع، والتضاريس، فلهذا نظهر النباتات في الجزائر وهي مختلفة من مكان لآخر تبعاً لاختلاف الظروف المناخية السابقة الذكر .

ففي الإقليم الشمالي تظهر الحراج من ضرو، وريحان، وحمايرة، وعلانق، ودوم، عند حضيض الجبال. وفي المناطق القليلة الأمطار والارتفاع، تظهر غابات الفلين على السفوح التي يقل ارتفاعها عن (١٢٠٠ مم) والتي تظهر بها التربة الرملية بالخصوص. أما إذا اشتد الارتفاع، وزادت البرودة، وتنوعت التربة، فتظهر غابات الصنوبر والأرز والعرعار.والسفوح المقابلة للرياح الممطرة أوفر نباتاً وأشجاراً من السفوح الواقعة في ظل الرياح الممطرة. وفي إقليم الاستبس، أو النجود، الذي تقل أمطاره عن (٣٥٠ مم) سنوياً، نجد الحياة النباتية فقيرة، وتختفي الغابات الكثيفة لتحل محلها الحراج والمراعي الواسعة. أما في الجنوب، حيث تكاد تنعدم الأمطار، فيكاد يختفي الغطاء النباتي تماماً. وكثيراً ما يقطع المسافر مئات الكيلو مترات دون أن يقع بصره على نبتة عشب أو قطرة ماء .

تظهر بعد ذلك العلاقة الوثيقة بين المطر والنباتات عند الأخذ بمخطط بياني مقارن لأطوال النباتات الطبيعية، ومعدلات سقوط الأمطار، حيث يظهر أن ارتفاع النباتات (طولها) يصل الى عشرين متراً أو أكثر في الإقليم الذي تزيد أمطاره السنوية على (٣٥٠ مم). بينما لا يزيد ارتفاع هذه النباتات (طولها) على بضعة أمتار في الإقليم

الذي تتراوح أمطاره بين (٣٥٠ مم) و (٢٠٠ مم) سنويا . أما الاقليم الذي تتراوح أمطاره بين (٢٠٠ مم) و (٥٠ مم) سنوياً، فلا تظهر فيه إلا النباتات الشوكية القصيرة جداً . وعلى هذا الأساس، يمكن تقسيم الجزائر الى ثلاثة أقاليم نباتية ممتدة من الغرب، الى الشرق، على شكل نطاقات، ومرتبة من الشمال الى الجنوب، وهي : إقليم البحر الأبيض المتوسط، إقليم الاستبس، إقليم الصحراء .

د - ١ - إقليم البحر الأبيض المتوسط: وتحده جنوباً السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس التلي، وشمالاً مياه البحر الأبيض المتوسط، ويتميز هذا الاقليم بفصل حار وجاف وقصير نسبياً، يمتد من شهر حزيران - يونيو - حتى شهر تشرين الأول - اكتوبر - وفصل رطب دافىء طويل، يدوم من تشرين الأول - اكتوبر - حتى أيار - مايو - . وتتراوح أمطاره السنوية بين (١٠٠٠ مم) و (٣٥٠ مم) وتربته جيدة ، وهو أوفر المناطق نباتاً، وأغناها نوعاً، وأهم غاباته هي :

* - غابات أشجار (الفلين)[1] التي يتراوح ارتفاعها (طولها) بين الستة والاثني عشر متراً . وتظهر أشجار الفلين فوق التربة الرملية، كما لا تتحمل البرودة المتطرفة . ولذا تقتصر على المناطق التي لا يزيد ارتفاعها على (١٢٠٠) م . وهي تظهر على جبال الظهرة وزكار والسفوح الشمالية لجبال تلمسان، والونشريس والأطلس المتيجي وبالقرب من بجاية . وأهم غابات الفلين بالجزائر هي الممتدة من جيجيل غرباً حتى القالة شرقاً على طول الساحل . وتمتاز أشجار الفلين بعروقها الطويلة التي تغوص عمودية في الأرض، وأغصانها المتشعبة

---

(١) أشجار الفلين: (CHÊNES«LIÈGES)

وغير المستقيمة، وأوراقها الدائرية الشكل والمغلوقة. وتزهر شجرة الفلين بعد أن تبلغ من العمر الستين سنة، وتعمر القرون العديدة حتى ينهار وسط جذعها، وتظل القشرة الخارجية محافظة على حياة الشجرة، الى أن تهب ريح قوية تأتي عليها، إن لم تسقطها يد الانسان. وتقل مساحات غابات الفلين في الجزائر حالياً عن (٤٤٠) ألف هكتار، ذلك أن الاستعمار الإفرنسي عمل خلال حرب التحرير على إحراق مساحات واسعة من الغابات الساحلية. وكانت الجزائر قبل هذه الحرب، ثاني دولة عالمية في مساحة غابات الفلين، لا تفوقها الا البرتغال.

* ـ **غابات أشجار الصنوبر**: وتتميز بأوراقها الابرية وثمارها المخروطية الشكل. وهي تغطي مساحة واسعة من شمال الجزائر تزيد على (٧٠٠) ألف هكتار. وتظهر في جبال التل والأطلس الصحراوي، وهي على أنواع، منها غابات الصنوبر البحري التي تتطلب أمطاراً كثيرة ومرتفعات متوسطة. ولهذا يظهر الصنوبر البحري على الساحل الشرقي، وبالخصوص في منطقة «جيجل» و«رأس بوقرعون» وهي تغطي مساحة لا بأس بها. ومن غابات أشجار الصنوبر هناك نوع «الصنوبر الحلبي» فوق المرتفعات التي تزيد على (١٣٠٠ م) فوق جبال الساحل وجبال الأطلس الصحراوي، ويغطي مساحة واسعة من الجبال التي يصل ارتفاعها حتى (٢٢٠٠ م) ويتحمل الصنوبر الحلبي الظروف المناخية القاسية، من أمطار يقل متوسطها السنوي عن (٣٠٠ مم) سنوياً، وتربة جيرية أو رملية أو مختلطة، ولهذا فإننا نجده في غرب الجزائر أكثر منه في شرقها، لأن غرب الجزائر أقل مطراً من شرقها. وتتميز أشجار

« الصنوبر الحلبي » بأوراقها الابرية الطويلة التي تخرج في فصل الشتاء، ولا تسقط الا بعد أربع سنوات، وثمارها بطيئة النضج، وجذوعها مستقيمة، واذا شقت خرج منها سائل كثيف يتجمد بعد مدة « هو الصمغ » الذي يدخل في صناعة الصباغة، وأخشاب الصنوبر معروفة بجودتها واستخداماتها الكثيرة .

* ـ غابات أشجار (البلوط)[1] ويبدأ ظهورها على ارتفاع (٤٠٠ م) وتمتد حتى ارتفاع (١٧٠٠ م) فوق الأطلس التلي. أما في جبال الأوراس فتظهر على ارتفاع (١٩٠٠ م). وتتطلب أشجار البلوط أمطاراً كثيرة، وتربة رطبة، وهي تظهر على جبال تلسمان والونشريس وديرة وبابور ونوميديا. وتغطي مساحة تقرب من (٥٠٠) ألف هكتار .

* ـ غابات أشجار (الأرز)[2] أو غابات الجبال الشاهقة، لأن أشجار الأرز لا توجد الا في المناطق التي يتراوح ارتفاعها بين (١٣٠٠ م) و (٢٢٠٠ م) كجبال الونشريس وثنية الأحد والبليدة وجرجرة والاوراس وبوطالب. وتغطي مساحة تزيد على (٣٠) ألف هكتار. وأشجار الأرز اضخم وأطول أشجار الغابات الجزائرية، تعمر السنين الطوال، وتتطلب أمطاراً وفيرة، وشتاء بارداً، وصيفاً معتدلاً. وهذه الظروف المناخية جعلت أشجار الأرز تهجر الجبال الغربية بوهران وجبال الأطلس الصحراوي .

* ـ غابات أشجار الزيتون : وتحتل السفوح القليلة الارتفاع، بين الألف والمائة متر، فوق التربة الرملية، التي تلائم بالخصوص

---

(١) البلوط: (CHÊNES VERTS)

(٢) الأرز: (CÈDRES)

أشجار الزيتون المختلطة بشجيرات الضرو، والعلائق، والحمايرة وبوحداد، وسيسنو، والريحان، والدوم. وبهذا الاختلاط تكون غابات أشجار الزيتون غطاء نباتياً متشابكاً يصعب اختراقه، لكن رائحة أشجاره المتنوعة تنعش الألباب، وتذكي القرائح، وتبعث بالراحة والسرور في الأنفس، في كل فصل من فصول السنة، وبالخصوص في فصل الربيع الذي تزهر فيه الأشجار والشجيرات، وتتوالد فيه الطيور، وتكثر فيه الينابيع المتدفقة. وتمتاز أشجار الزيتون بأوراقها القصيرة السميكة، وتكون في اتجاه مائل بالنسبة للشمس، وهي صلبة ذات لون أخضر فاتح بالجهة العلوية، وفضية بالجهة السفلية المقابلة لسطح الأرض، ومغطاة بطبقية شمعية تقيها شدة التبخر في فصل الصيف. ولعل أهم ما يميز مناخ البحر الأبيض المتوسط هو أشجار الزيتون التي تظهر حيث يظهر هذا المناخ، ولهذا يمكن اعتبارها الحد الفاصل لإقليم نباتات البحر الأبيض المتوسط.

د - ٢ - **اقليم الاستبس**: ويمتد الى الجنوب من إقليم البحر الأبيض المتوسط، وهو إقليم انتقالي بين الصحراء في الجنوب، والتل في الشمال. وبحكم موقعه، فإن آثار الانتقال ظاهرة بوضوح على تخومه الشمالية والجنوبية، إذ تظهر أشجار الزيتون عند تخومه الشمالية، وشجيرات الدرين عند تخومه الجنوبية.

تقل الأمطار نسبياً في اقليم الاستبس ويزداد الجفاف، وتأخذ الفوارق اليومية والفصلية في الارتفاع، كما تتزايد الذبذبات المطرية وضوحاً، وبذلك يأخذ المناخ القاري في الظهور، وقد أثر هذا المناخ المتطرف في الحياة النباتية. فبدل الغابات التلية، تظهر بأرض النجود الشجيرات المتباعدة بعضها عن بعض، وتظهر الحشائش القصيرة التي

تنبت في فصل دون آخر، ولا يرجع فقر المنطقة بتاتاً الى قلة الأمطار فقط، ولكن إلى فقر التربة أيضاً، حيث تكثر السبخ في هذا الاقليم، وتسود به التربة الملحية التي لا تساعد على الحياة النباتية، والأشجار بالخصوص. وأهم نباتات إقليم النجود: الحلفاء، والسدرة، والبطوم والشيح، والدرين، والكرار، والطرفة أو الثل. أما الحلفاء فهي أشهر نباتات النجود، يبلغ ارتفاعها (طولها) حوالي المتر، ولا تحتمل الرطوبة الكثيرة، وتقنع بما يقرب من (٣٠٠ مم) من الأمطار سنوياً، واذا زادت الأمطار على (٥٠٠ مم) أضرت بالحلفاء التي تختفي ليحل محلها «الديس» الذي يزيد طوله على المتر، وله أوراق ابرية الشكل، حرشاء، تخدش لامسها، ويظهر فوق جبال النجود والتل على السواء. ومن نباتات النجود «الدرين» الذي يظهر فوق التربة الرملية. و«الشيح» فوق السهول الفيضية. و«السنار» فوق التربة الطينية. وأنواع أخرى من النباتات تظهر فوق التربة الملحية الشطية، وتظهر على حافات المنخفضات من السبخ. والكثير منها تعافه حتى المواشي نظراً لشدة حموضتها وملوحتها أو مرارتها. أما على ظهر سلسلة الأطلس الصحراوي، حيث يزداد المتوسط السنوي للأمطار عن (٣٠٠مم) فإننا نجد غابات الصنوبر الحلبي، مع غابات فقيرة فوق جبال الجلفة والعين الصفراء.

د - ٣ - **الإقليم الصحراوي**: ويمتد الى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي، يحده شمالاً إقليم الاستبس، أما جنوباً فيتجاوز حدود الصحراء الجزائرية. وهو فقير بالحياة النباتية بحكم موقعه بعيداً عن الأمطار وأسبابها - اذ لا تزيد أمطاره السنوية على (٢٠٠ مم) - ويظهر في الصحراء إقليمان متباينان نباتياً، أحدهما هو

إقليم « تنزروف » أو « المليع » الخالي من النباتات تماماً حيث لا يظهر لها فيه أي أثر. والثاني إقليم « الفقر النباتي » الذي تظهر في أوديته شجيرات « الثـل » و « البـطوم » و « الـطلح » و « السنط » و«الصمغ» و«السدرة» التي تكتفي بالرطوبة القليلة المخزونة بين جزئيات التربة. أما فوق الهضاب الصخرية، فتظهر نباتات قصيرة جداً، مثل الضمران، والعجرم، والعلندة، والقرندل. كما تظهر فوق الكثبان الرملية نباتات الدرين، وهو الكلأ المفضل لدى الجمال.

وتتميز النباتات الصحراوية بالآتي :

آ ـ أنها سريعة الظهور والاختفاء، نتيجة للأمطار التي تصلها من بعيد، وهي أمطار مباغتة غير منتظمة، تدوم وقتاً قصيراً، فتؤثر بذلك في النباتات التي تظل بذورها مختفية تحت التربة عدة سنوات الى أن تنزل عليها أقل كمية من الأمطار، فتنمو بشكل غريب، وتدوم حياتها أياماً معدودة، ثم تنام عدة سنوات قبل أن تظهر مرة أخرى، إذا ما نزلت الأمطار، وعاودتها نوبة الرطوبة .

ب ـ ان أغصانها غالباً ما تكون مجردة من الأوراق، وجذوعها قصيرة ودقيقة، وكثيراً ما كانت مسلحة بالأشواك لتدرأ عن نفسها هجمات الحيوانات، وتقلل من عملية التبخر في هذا الإقليم الذي تشتد فيه الحرارة وعملية التبخر، ويقل فيه الأثر الفعلي للأمطار .

ج ـ أن عروقها كثيرة ومتشبعة، حيث أنها ممتدة في اتجاهات مختلفة الى أعماق بعيدة حتى تصل الى المياه. وأغنى المناطق الصحراوية نباتاً هي بطون الأودية، لأن طبقة اختزان المياه بها غير بعيدة عن سطح الأرض، وبذلك يسهل على النباتات المعتمدة على المياه الباطنية أن ترسل شبكة عروقها الى امتصاص حاجتها من الماء بسهولة .

«انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تعلمُونْ » .

« يَأيهَا ٱلذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَٱعلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلمتقِينْ » .

الفَصْلُ الثَّانِي

١ ـ في فلسفة الثورة .
٢ ـ البيان الأول للثورة .
٣ ـ مكتب جبهة التحرير في القاهرة يصدر بيانه عن الثورة .
٤ ـ بدايات العمل الثوري .
٥ ـ انطلاقة الثورة في كتابة قائد إفرنسي .
٦ ـ عقبات على طريق الثورة
٧ ـ الثورة في وثائق ثوارها .

آ ـ الإعداد للثورة .
ب ـ الله أكبر ـ خالد ـ عقبة .
ج ـ لهيب الثورة في أريس .
د ـ فجر يوم الثورة المسلحة .
هـ ـ إندلاع الثورة في متوجة (متيجة) .
و ـ الولاية الأولى في معركة التحرير .
ز ـ الثورة في ولاية وهران .

غضب وبؤس وتصميم.. تلك هي ملامح المجاهدين

١ ـ في فلسفة الثورة

يقول « جول مونيرو » في وصفه الكلاسيكي لطبيعة الثورة وتطورها ما يلي : [تفقد جميع مظاهر النشاط الاجتماعي وفئاتها بصورة تدريجية استقلالها في الثورات. ففي الحروب الخارجية والداخلية على حد سواء، ينعدم الاستقلال في السياسات الخارجية والداخلية، وفي الشؤون الاقتصادية والدينية، وتصبح كلها مترابطة متشابكة. ويتجه كل شيء تدريجيا، نحو التوافق والاتصال، وهذا يشمل الأمور المتعلقة بالأفراد والجماعات على حد سواء، ويسبب لهم ولها الكثير من الجهد والمشقة. . . . وأخيرا فإن العالم بأسره يغدو منطقة حساسة واسعة من الاحتكاك، والاحتكاك المقابل. ويغدو التفاعل بين العالم الأكبر والإنسان، وبين الفرد والمجتمع، وبين الكيان الصغير والكيان الكبير الضخم، حركة سريعة متلاحقة، تجرف معها الإنسان دون أن يفهم شيئا، ولا يبقى هناك مجال لتحليل القيم والأهداف ـ الذي يمكن كل مجموعة بشرية وكل فرد، من أن يجد أو تجد « المكان اللائق لكل شيء »، «تتجزأ العقائد الدينية الى مجموعات من الواجبات المتنافرة، و « تصطرع القيم المنفصلة والمجزأة » متنافسة على الفرد وفي داخله. وفي وسع المؤرخ أن يجزىء

الأزمة العامة الى سلسلة من الأزمات الخاصة في أوقات وأماكن معينة، ولكن هذه الأزمات تظل تعدل بعضها البعض، وتقرر مصير بعضها البعض، وهذا الترابط، يكون مكانياً وزمانياً. فالنفس القديمة تندفع الى التغير، ولما يظهر بعد أي شيء ليملأ الفراغ الذي خلفته الأمور التي قذفتها هذه النفس وطرحتها جانباً. وتسيء الحاجات بتشكيل صورها، وتكتفي بما تستطيع تحقيقه من أين ؟ وكيف ؟ وتتوقف العقائد التي قام عليها المجتمع، عن السيطرة على الاستجابات العضوية، ولكنها تتعرض للهجمات على أساس المصالح. وتدافع عن نفسها، على هذا الأساس أيضاً، وتتهدم الحوافز الاجتماعية العظيمة في النفس، التي تمثلها هذه العقائد عن طريق النقد . . .

في مثل هذه الفترات، وعندما تصبح القواعد القديمة للمجتمع واهية ومائعة ومنهارة أمام حالة من الانتقال، وتفقد الانتقادات الموجهة الى كل الأوضاع القديمة، التي لم تعد مرضية، والى كل ما تقوم عليه من أسس، دون كابح أو زاجر. . . . وكتتمة طبيعية لانتشار الشكية، تنبعث هناك « باطنية » غير ناضجة. . . . هي : « وليدة التحالف بين الشكية والحنين الى الوطن » والى جانب العدمية (النهلستية) ـ وهي حالة من توافر الصلاحية النفسية التي تعني أن يكون الانسان حاضراً للفائدة لكل عمل ـ يظهر نوع من الحنين في أشكال متعددة، للإجماع العام الاجتماعي، وفي هذا التوق الى الوحدة، تعيش النفس، على أضخم صورة مقلدة لها، وهي صورة العصر الذهبي، واليوم المجيد. . . . ولا ريب في أن المفاهيم الجديدة للعالم، التي تحاول أن تحتل مكان النظام الاجتماعي القديم، تحمل طابع الجدة .

والثورة ـ وهي الأزمة الطويلة التي تحيل التنافر إلى وحدة ـ لا تستطيع الوقوع في « وعاء مقفل » في جزء واحد من العالم، حتى ولا في قارة بأسرها، فارتباط الاضطرابات ارتباط عالمي. . . . والثورة ـ عملية تاريخية، لا تقود إلى أبواب الفردوس، بل إلى أبواب عالم شبيه بالعالم الذي نعرفه، باستثناء أن كل ما فيه قد تبدل. حتى « النفس » أيضاً تغيرت . فأية فئات يمكن لها أن تقتسم المنافع والخدمات وتتوزعها، وممَ تتألف هذه الفئات ؟ ولمنفعة من سيجري هذا التوزيع ؟ وأية علاقات بشرية يمكن لها ان تتبدل فعلاً ؟ وما هي الأهمية الحضارية لهذا التبدل ؟ وما هو نوع النظام الجديد الذي سيوجد والذي سيقبل فيه الناس أوضاعهم ؟ وكيف يمكن لهذا النظام أن يضع الخطة لإبراز الطبقة المختارة ؟ هذه هي الاسئلة التي تبرز ما يتعرض للخطر في المعركة .

وليس من الصعب تسمية كل عصر « بالعصر الثوري » إذا كان الاصطدام المتزايد في المشاكل يقترب من نقطة الإشباع. فالتباين والخلاف يصلان الى أقصى امتدادهما. . . وترفض الغالبية العظمى تقبل المجتمع. ويأخذ عدد الرجال الذين فقدوا الاحساس بالانتماء الى النظام الاجتماعي أو النظام العالمي يزداد. . . ويصبح المجتمع الى حد كبير، واخيراً الى حد نهائي، ترتيباً استبدادياً، أو اذا شئنا تعبيراً أصدق، قلنا إنه يصبح سلسلة من الترتيبات التي لم تعد تستحق اسم « المجتمع ». . . . وتأخذ الظروف دورها في تكييف سلوك الإنسان أو تشويهه، ويتعاظم دور هذه الظروف، بينما ينقص دور المسؤولية . وفي مثل هذه الأوقات يكون الرجل العظيم هو ذلك الذي يملك، بالإضافة الى مواهبه الأخرى، موهبة تمييز « اللحظة

المؤاتية » . . . . وللرجال العظام في مثل هذه الظروف بالإضافة الى فضائلهم الأخرى فضيلة المعرفة التامة وموهبة المخر في عباب المجتمع. . . . وعندما لا يشعر الفرد بأنه جزء مكمل لنظام اجتماعي، يحاول البحث عن حلول مؤقتة، كالحصول على ملجأ في فتنة، أو في أي مكان أمين آخر. . . . ولكن هذا الوضع، يسري على روح المغامرة بقدر ما يسري على روح الحذر. وهناك فرص جديدة، وعن طريق التصميم والشجاعة والاحتمال والحظ، يمكن الوصول في هذا العصر إلى نتائج أكثر من تلك التي كان بالمستطاع الوصول اليها في العصر السابق][(١)]

* * *

المهم في الأمر، هو أن إرادة التغيير الشامل باتت متوافرة لدى معظم مسلمي الجزائر، وتوافرت « قيادة تاريخية » عرفت أهمية « اللحظة التاريخية ». وأفاق العالم صبيحة اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤، على نداء يحمل الإعلان عن بداية الثورة. وليس في وسع أي ثوري - أو أية فئة ثورية، أن تحكم مسبقاً على مدى ما يحققه النداء الأول من استجابة في نفوس الجماهير. غير أن « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » والتي تحولت في تلك الليلة الى « جبهة التحرير الوطني الجزائري » كانت على ثقة مطلقة من أن النداء الذي وزعته مع الطلقات الأولى التي أعلنت قيام الثورة، سيلقى استجابة عامة تساعد الثورة على تطوير أعمالها وتصعيد صراعها. وهذا ما تحقق فعلاً. وقد تضمن البيان التاريخي ما يلي :

---

(١) علم الاجتماع في الشيوعية (جول مونيرو) ص ٣٠٢ - ٣٠٨ عن الجزائر الثائرة - جوان غيلسبي - ترجمة خيري حماد - ص ١١٧ - ١١٩.

٢ ـ البيان الأول للثورة :

(بيان فاتح نوفمبر 1954)[١]

أيها الشعب الجزائري
أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا، نعني الشعب بصورة عامة، والمناضلين بصفة خاصة، نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الاعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا الى العمل. أن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الأفريقي، ورغبتنا أيضاً هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الامبريالية وعملاؤها الاداريون، وبعض محترفي السياسة الانتهازية فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية، بعد مراحل من الكفاح، قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. فإذا كان هدف أي حركة ثورية، في الواقع، هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري، في أوضاعه الداخلية متحد حول قضية الاستقلال والعمل. أما الأوضاع الخارجية، فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي

(١) المرجع: ملفات وثائقية ٢٤. نشر وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر ـ أوت 1976 ص ٧ و٨.

تجد سندها الدبلوماسي، وخاصة من طرف، إخواننا العرب والمسلمين.

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال أفريقيا. ومما يلاحظ في هذا الميدان، أننا منذ مدة طويلة، أول الداعين إلى الوحدة في العمل. إن هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقق أبداً بين الأقطار الثلاثة. وقد اندفع كل واحد منها اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب، فاننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث. وهكذا فان حركتنا الوطنية قد وجدت، نفسها محطمة، نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين. توجيهها سيء، ومحرومة من سند الرأي العام العالمي الضروري، وقد تجاوزتها الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحاً ظناً منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في صراعه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح من المحال علاجها، رأت مجموعة من الشبان المسؤولين المناضلين الواعين، التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة، أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص، والتأثيرات، لدفعها إلى المعركة الثورية الحقيقية، إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين. وبهذا الصدد، فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة. إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية

الأشخاص والسمعة، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمي، أن يمنح أدنى حرية.

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم « جبهة التحرير الوطني » وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية الوطنية الفرصة أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أي اعتبار آخر. ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي:

الهدف: هو الاستقلال الوطني بواسطة:

١ ـ إقامة الدولة الجزائرية الديموقراطية الاجتماعية، ذات السيادة، ضمن إطار المبادىء الاسلامية.

٢ ـ احترام جميع الحريات الأساسية بدون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية:

١ ـ التطهير السياسي ـ **بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي**، والقضاء على جميع مخلفات الفساد، وروح الاصلاح التي كانت عاملاً هاماً في تخلفنا الحالي.

٢ ـ تجميع وتنظيم جميع الطبقات السليمة لدى الشعب الجزائري، لتصفية النظام الاستعماري.

الأهداف الخارجية

١ ـ تدويل القضية الجزائرية .

٢ ـ تحقيق وحدة شمال أفريقيا في داخل إطارها العربي والاسلامي .

٣ ـ في إطار ميثاق الأمم المتحدة : نؤكد عطفنا الفعال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية . .

وسائل الكفاح

إنسجاماً مع المبادىء الثورية واعتباراً للأوضاع الداخلية والخارجية ، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا . ولكي تحقق (جبهة التحرير الوطني) هدفها ، فإنه يجب عليها إيجاز مهمتين أساسيتين في وقت واحد هما : العمل الداخلي ، سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض . والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله ، وذلك بمساندة كل حلفائنا الطبيعيين ؛ وهذه مهمة شاقة ثقيلة العبء وتتطلب كل القوى ، وتعبئة كل الموارد الوطنية . وحقيقة أن الكفاح سيكون طويلاً ولكن النصر محققاً . وفي الأخير ، وتحاشياً للتأويلات الخاطئة ، وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم ، وتحديداً للخسائر البشرية وإراقة الدماء ، فقد قدمنا للسلطات الافرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة ، إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة لتعترف نهائياً للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها :

١ ـ الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً إفرنسية ـ التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.

٢ ـ فتح باب المفاوضات مع الممثلين المفاوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.

٣ ـ خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ورفع كل الاجراءات الخاصة، وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.

وفي المقابل

١ ـ فإن المصالح الإفرنسية، ثقافية كانت أو اقتصادية، والمتحصل عليها بنزاهة، ستحترم، وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات.

٢ ـ جميع الإفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر، يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية، ويعتبرون بذلك كأجانب أمام القوانين السارية، أو يختارون الجنسية الجزائرية، وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات.

٣ ـ تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر، وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

أيها الجزائري! إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة، وواجبك هو أن تنضم إليها لإنقاذ بلادنا، والعمل على أن نسترجع لها حريتها. إن

جبهة التحرير الوطني هي جبهتك، وانتصارها هو انتصارك أما نحن، العازمين على مواصلة الكفاح، الواثقين من مشاعرك المناهضة للامبرياليين، فإننا نقدم للوطن أغلى - وأنفس - ما نملك.

فاتح نوفمبر 1954.
الأمانة العامة.

* * *

ومع بيان « جبهة التحرير الوطني » أصدرت قيادة « جيش التحرير الوطني » التي ولدت ليلة الثورة من تنظيم « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » بياناً تم توزيعه مع توزيع بيان « جبهة التحرير الوطني » ولم يكن توزيع البيانين في وقت واحد دليل وجود انقسام، قدر ما كان تأكيداً على ولادة التنظيمين السياسي والعسكري للثورة، وانطلاق التنظيمين من العمل الصامت الى المجابهة المسلحة. وتضمن بيان « جيش التحرير الوطني » ما يلي:

بيان من جيش التحرير الوطني
في الفاتح من نوفمبر - تشرين الثاني - 1954

أيها الشعب الجزائري!

فكر بالموقف الشائن للاستعمار، حيث العدالة والديموقراطية والمساواة ليست أكثر من واجهات خداعية، يستخدمها المستعمرون. ومع كل هذه الشرور، يجب عدم نسيان قصور الأحزاب عن الدفاع لضمان مصلحتك. فهيا بنا لنمسك يداً بيد، ومعنا إخوتنا في المشرق والمغرب، والذين يموتون لتعيش أوطانهم. إننا ندعوك لاستعادة

شاب هجر مدرسته والتحق بقواعد الثوار

حريتك ولو كان دمك ثمناً لها. نظم عملك إلى جانب قوات التحرير التي تطلب مساعدتك. وعليك واجب حمايتها وتقديم العون لها.

إن عدم المبالاة والتخلي عن الصراع أصبح جريمة. أما الخيانة فهي في مقاومة الثورة. إن الله مع المجاهدين المدافعين عن قضيتهم العادلة، وليست هناك قوة يمكن لها إيقافهم منذ اليوم. فإما الموت بفخار، وإما لتحرير الوطن.

عاش جيش التحرير. وعاشت الجزائر مستقلة.

* * *

عندما صدرت هذه البيانات، كان لهيب الثورة قد انطلق منذ ساعات قليلة في « آريس » و « خنشلة » و « فم الطوب ». وفي عدد كبير من المواقع ضمن إطار « العمليات الصغرى »، غير أن تنوع هذه العمليات ووفرة عددها كان أمراً مثيراً لقلق السلطات الاستعمارية. لقد كان إعلان الثورة مجرد تظاهرة للقوة، غير أنها تظاهرة صممت بطريقة رائعة. وانسجاماً مع برنامج الثورة في ربط « الصراع السياسي » بالصراع المسلح، قام مكتب جبهة التحرير الوطني في القاهرة- والذي كان يرأسه أحمد بن بللا - بإصدار بيان يعلن فيه إنطلاقة الثورة وذلك يوم ١٥ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤ (أي بعد مضي ١٥ يوماً على إنطلاقة الثورة) وتضمن البيان ما يلي :

٣ ـ مكتب جبهة التحرير في القاهرة، يصدر بيانه عن الثورة

« . . . لقد بوغت المستعمرون في ليلة الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ الحالي، بمجموعة من الهجمات، بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً، شملت جميع أنحاء الجزائر. وهذه الحوادث التي تجلى تنظيمها. لجميع المراقبين، كانت تشمل بوجه خاص هجمات على مراكز الجيش، والشرطة (البوليس) ومستودعات الأسلحة، ونسف أهداف استراتيجية واقتصادية حيوية، ولم تستهدف الأشخاص في أي مكان. أما القتلى الذين ورد ذكرهم، فقد قتلوا في اصطدامات بين البوليس والوطنيين الجزائريين.

ولقد اتخذت حركة الوطنيين الجزائريين أشكالاً تختلف حسب المناطق. ففي شرق الجزائر، أي في منطقة جبال الاوراسْ، اعتصم الوطنيون بالجبال، بعد أن هاجموا المراكز العسكرية في « باتنة » و« خنشلة » وبعدما احتلوا مركز « آريس ».وعند انسحابهم، نسفوا الجسور وسدوا المنافذ والطرقات .

وهؤلاء الوطنيون الذين تحصنوا بجبال الاوراس، هم الذين احتشدت لمقاومتهم معظم القوات العسكرية الإفرنسية في الجزائر،

تلك القوات التي جاءت نجدات هامة من فرنسا وألمانيا لتعزيزها. وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن استخدام القوات التي كانت تعسكر في ألمانيا، لم يتم الا بعد موافقة هيئة أركان حرب منظمة شمال حلف الأطلسي. وكانت الأنباء قد ذكرت، في اوائل شهر تشرين الثاني - نوفمبر - أن مباحثات سرية تجري بين الجنرال « غليوم » الافرنسي، والجنرال « غرونتر » قائد قوات حلف الأطلسي. وبعد المباحثات بأيام، سحبت فرنسا فرقتين كاملتين مجهزتين بمعدات الحلف العسكرية. - وتقدر الفرق الافرنسية التي حشدت في جبال الأوراس والتي تعززها المدرعات والطائرات بفيلقين - ويبلغ عدد المقاومين الجزائريين في تلك المنطقة عدة آلاف، مسلحين بالبنادق والرشاشات، وقد التحق بهم حوالي مائتي رجل، من جيش التحرير التونسي، بعد اجتياز الحدود.

ويستطرد البيان قائلاً: ويقوم الوطنيون في بقية أنحاء إقليم قسنطينة بعمليات يومية، تهدف إلى إرهاق القوات الافرنسية، وذلك بمهاجمة المراكز العسكرية والمناجم ونسف الجسور وقطع الخطوط الهاتفية والسكك الحديدية، وتقع هذه الحوادث قرب « قالمة » و« سوق أهراس » و« سكيكدة ». وفي جنوب المنطقة، تسلحت بعض القبائل، واتجهت الى الشمال لدعم الوطنيين في جبال الأوراس. وفي إقليم الجزائر، حيث وقعت هجمات في مدينة الجزائر، وفي أهم المدن. وقد تركز النشاط في الجهات الجبلية من منطقة القبائل بأسرها، وضواحي مدينة « بليدة ». ويقوم الوطنيون المعتصمون بالجبال، بهجمات عديدة على القوات الافرنسية، وأصبح الوطنيون وهم يسيطرون على منطقة القبائل كلها، بحيث لم يعد

باستطاعة الإفرنسيين المرور إلا في قوافل السيارات المصفحة، وقد قطعت جميع المواصلات السلكية. أما في غرب الجزائر ـ أي في اقليم وهران ـ ونظراً لأن المنطقة لا تسمح الا باستعمال أساليب المطاردة والارهاق، فقد وقعت حوادث نسف وتخريب في كل الأنحاء. وحدثت إلى جانب ذلك اشتباكات عديدة استخدمت فيها الرشاشات في « مستغانم » بينما قطعت الخطوط الهاتفية المدفونة تحت الأرض والتي تصل بين الجزائر والمغرب ـ مراكش ـ وذلك في نقطة في الطريق بين « مغنية » و « صبرة ». كما قطعت الخطوط الحديدية في نقاط مختلفة. وأصبح الإفرنسيون، يعتبرون الجنوب، على حدود الصحراء، منطقة غير آمنة »(١)

---

(١) الثورة الجزائرية ـ أحمد الخطيب ـ ص ١٧٠ ـ ١٧١.

٤ - بدايات العمل الثوري

بهذه الحركات الخفيفة المنظمة، تمكن جيش التحرير من بث الذعر والفوضى في صفوف العدو الذي فقد صوابه. وقد تمكنت قوات جيش التحرير من حصار « **فم الطوب** » و « **آريس** » وقطع جميع المواصلات الهاتفية والبرقية بينهما وبين بقية المدن، ودام الحصار ثلاثة أيام كاملة، كانت تصل خلالها النجدات والمؤن لحاميتي المركزين بواسطة الطائرات العمودية. **وسيطر جيش التحرير على منطقة الأوراس التي تبلغ مساحتها (١٢) ألف كيلو متر مربع سيطرة** مطلقة وقضى على جميع المراكز الاستعمارية في هذه المنطقة. أما في جبال « جرجرة » - القبائل، فقد ظهرت فيها القوات الوطنية فجأة، واستولت عليها، وأحاطت بـ«تيزي أوزو» أكبر مدينة فيها.

وأسرعت الادارة الافرنسية في الجزائر بطلب النجدات من فرنسا. وفي ٣ تشرين الثاني - نوفمبر - (أي في اليوم الثالث لاندلاع الثورة) نزلت في ميناء عنابة ثلاث كتائب من المظليين تم استقدامهم من فرنسا بأمر من رئاسة الحكومة. **وكانت القوات الافرنسية بالجزائر يوم انفجار الثورة، تضم (٤٩,٧٠٠) مقاتل**. وعلى الرغم من ضخامة هذه القوات، فإنها ظلت عاجزة حتى عن حماية نفسها، ولم يتسن لها

التحرك والتجمع إلا بعد وصول نجدات كبيرة من فرنسا. وقد صرح سكرتير الدولة الافرنسية للشؤون الحربية آنذاك « جاك شوفالييه » بما يلي : « **إن منطقة الاوراس هي في حالة ثورة حقيقية. وعدد الثوار فيها بين أربعمائة وأربعمائة وخمسون رجلاً، وهم يستخدمون الأسلحة الآلية ـ الأوتوماتيكية، والأجهزة اللاسلكية للارسال والالتقاط، وهم يجوبون أعالي البلاد** » .

وكان لا بد للقوات الاستعمارية، أن تقوم بعمل يرد لها بعض « الكبرياء المجروح » و « الهيبة المفقودة ». ولو بواسطة الدعاية المزورة ـ الملفقة ـ التي لا بد منها لحفظ سمعة الجيش الإفرنسي. وقد تجمعت القوات الإفرنسية في « باتنة ». وانطلق منها فيلقان يوم ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ الى الأوراس، بزعم القيام بعملية تطهير، ولم تكن هذه العمليات في الواقع سوى استعراض لعضلات الاستعمار الإفرنسي، ومناورات قمع واضطهاد. وبعدها بيومين، انطلقت ثلاثة فيالق عسكرية في عملية إرهابية داخل البلاد ـ في اتجاه القبائل الكبرى وجبل « أشمول ». وقد عادت هاتان الحملتان دون أن تصادفا أية قوة لجيش التحرير، ولكنها اعتقلت بضع مئات من ـ المشبوهين ـ .

لقد أدت عمليات فدائيي المقاومة السرية في شن الهجمات الصاعقة، سواء بطريقة الزي المزيف أو الانقاض المباغت، الى تحطيم أعصاب الجنود الافرنسيين، وعلى الخصوص الدوريات المتجولة، وحراس الثكنات والمستودعات الحربية، الذين يفقدون السيطرة على أعصابهم نهائيا مع اختفاء ضوء النهار. فحين يهجم الليل بسواده الداكن، يخضعون لمشاعر الفزع، ويتصورون كل شبح في الطريق

فدائياً. ويعتقدون كل لمعة هي مدية موجهة لأعناقهم، وكل صوت هو صوت قعقعة سلاح. ويظن الواحد منهم أن كل دورية تبديل إنما هي جماعة من الفدائيين، فلا يلبث أن يطلق النار عليها، وعلى كا شبح أو شجرة أو حركة.

ومن القصص المثيرة والمعروفة، ما حدث في مدينة «معسكر» خلال الأيام الأولى للثورة، حيث كان السكون يخيم على المدينة، لا يعكر صفوه سوى سير الدوريات المسلحة. وكان عقربا الساعة يلتقيان عند شارة منتصف الليل، عندما صدرت عن الجهة الغربية للمدينة - قرب محطة الخط الحديدي - نيران رشاشة بغزارة عالية. وعند الصباح تبين أن جنود اللفيف الأجنبي - ليجيون ايترانـجيه - الذين يحرسون مستودعات النفط قرب محطة الخط الحديدي، سمعوا صوت حركة بين الأعشاب، ففتحوا نيرانهم الرشاشة في اتجاه مصدر الصوت. ولم تكن الضحية أكثر من حمار شارد!

كان إعدام الخونة، والمتعاونين مع العدو، هو الهدف الأول للمقاومة السرية وجيش التحرير على السواء. فالخائن في العرف الوطني هو عين الاستعمار، وهو الجرثومة الخطرة التي يبتلي بها الوطن. وكما أن الجسم العليل لا يمكن أن يستعيد نشاطه، أو يبرأ من مرضه إلا إذا قضى قضاء تاماً على جرثومة العلة.. فكذلك الشعب العربي وشعوب العالم، لا تستطيع أن تحرر أو أن تنطلق على درب الحرية والسيادة، إلا إذا تم لها استئصال عناصر الفساد، وقتل جراثيم العلة والبلاء فيها. وقد نجحت المقاومة السرية في القضاء على الخونة المارقين، أذناب الاستعمار، وعبيد ماله. وأراحت الشعب العربي في الجزائر من لسعاتهم السامة. وكان آخر من سقط منهم مضرجاً بدم

الخيانة والفساد « عدة شنتوف » و « علي شكال » الذي نفذ فيه حكم الإعدام في قلب فرنسا. وهذان الجاسوسان ينتميان الى المجلس الجزائري المزيف. « وابن التكوك » شيخ الطريقة السنوسية في « مستغانم ». وتتم عملية الاعدام، بعد محاكمة المتهم حضورياً أو غيابياً، وتبحث في هذه المحاكمة الأدلة والبراهين القاطعة التي تثبت إدانة المتهم، وبعد ذلك، يعلن رئيس المحكمة الحكم النهائي. وينفذ هذا الحكم فوراً.

وبانتهاء حياة الخونة، أصبح جلاء المستعمر عن الوطن الجزائري حتمياً، فبفقدانه عيونه-جواسيسه- أصبح بدون مساعد أو معين، فكيفما اتجه،، يجد حراباً مسنونة تدميه. وسيوفاً مسلولة تقض مضاجعه. ولقد أظهرت عمليات إبادة الخونة أهميتها بسرعة مذهلة، فقد ظهرت الإدارة الإفرنسية في الجزائر، وقيادتها العسكرية، أنها باتت غارقة في الظلام، ولم يعد باستطاعتها تقويم القوات الحقيقية للثورة، أو معرفة أي شيء عن نوايا الثوار ومخططاتهم، فراحت تنعت رجال جيش التحرير بأنهم قطاع طرق (فلاقة) وذلك لتغطية ما ترتكبه القوات الافرنسية من جرائم التقتيل والابادة والتدمير. وقدرت عدد رجال (الفلاقة) ببضع مئات من الرجال، وأحياناً تزيد عددهم الى بضعة ألوف - ثم إلى (١٥ ألفاً).

وبقي جيش التحرير محتفظاً بسرية عدده وعدته. وكان يعلن في كل المناسبات بأن : عدده هو مجموعة الشعب، وأن مخازن الجيش الافرنسي هي مصدر سلاحه. وكان جيش التحرير عندما بدأ عملياته. قد قسم البلاد الى ست مناطق عسكرية، وزع قواته عليها توزيعاً محكماً، وجعل على رأس كل منطقة قيادة مهمتها إدارة الحرب

وتنظيم أعمال المقاومة السرية . وحتى تتوافر لعمليات جيش التحرير المرونة وخفة الحركة والقدرة على المباغتة ، فقد قسمت القوات الى مجموعات صغيرة ، تضم كل واحدة منها حوالي العشرين جندياً؛ مسلحين بالبنادق الرشاشة والقنابل اليدوية ، ولدى كل مجموعة جهاز لاسلكي للاتصال بالقيادة وبالمجموعات الأخرى . ولقد أعيى توزيع القوات الجزائرية ، على هذا النمط ، الجيوش الافرنسية المجتمعة التي كانت تنطلق بين الفينة والفينة ، في عملياتها العسكرية ضد الثوار الجزائريين . ولم تعثر هذه الجيوش خلال عملياتها الواسعة على أي أثر لأفراد جيش التحرير ، الذين كانوا يراقبون تحركات العدو عن كثب . وبحذر تام . وحين يأتي الظلام ، تشرع الدوريات الجزائرية في العمل ، بينما تختفي القوات الافرنسية الضخمة داخل مراكزها الحصينة .

وقد وصف مندوب وكالة الصحافة الإفرنسية الحالة في الأوراس خلال الشهر الأول للثورة بقوله : « تحافظ الجماعات المسلحة على وجودها مختفية ، ففي النهار ، لا يظهر أحد منهم . وأثناء الليل ، تشعل النيران في الجبال ، نيران توقد وتخبو كأنها إشارات ، وقد تصادف في وقت متأخر من الليل جرارات بأوضاع غير عادية تأكلها النيران وهي مصطفة على جوانب الطريق » . ولكن ومع اقتراب الشهر الأول للثورة من نهايته ، بدأت القوات الجزائرية بالتحرك نهاراً ، وأخذت تنشر الرعب في صفوف العدو . وكانت الى جانب اعمال قطع أسلاك الهاتف والبرق ، تقوم بهجمات خاطفة على مراكز الجيوش الافرنسية ، وقوافل التموين ، وأصبحت خطط جيش التحرير تعتمد على مبدئين أساسيين من مبادىء الحرب : الضرب

بشدة وبصورة مباغتة ، ثم الانسحاب بسرعة . وقد أذهلت هذه الخطط القادة الإفرنسيين ، فوضعوا مخططاتهم المضادة التي تعتمد على الإبـادة التامة والتدمير الشامل لقواعد الثورة . وضمن هذا الإطار قامت طائرات سلاح الجو الإفـرنسي مساء السبت (٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٤) بـإلقـاء خمسين ألف منشور ـ بيان ـ على منطقة الأوراس . وتضمن المنشور المذكور ما يلي :

نداء الى السكان المسلمين !

«إن بعض المحرضين المدفوعين من جهة أجنبية ، أثاروا حوادث دامية في ـ بلادنا ـ وهم يتمركزون بصورة خاصة في منطقتكم ، ويعيشون على خيراتكم . إنهم يلزمونكم بمساعدتهم ، ويسعون الى اقتياد رجالكم في مغامرات إجرامية .

أيها المسلمون !

انكم لن تتبعوهم ، وستتجمعون عاجلاً قبل الساعة السادسة من مساء يوم الأحد ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ في مناطق الأمان التي سترشدكم اليها القوات الافرنسية الضاربة في منطقتكم مع موظفي الادارة والدواوين .

أيها الرجال الذين خرجتم على القانون بغير تفكير ، إذا كنتم لم تقترفوا جرماً يعاقبكم ، التحقوا حالاً بمناطق الأمان مع أسلحتكم فلن يصيبكم أي أذى . وستنزل المصيبة الهائلة على رؤوس العصاة . ويسود السلام الإفرنسي من جديد » .

لم يستجب أحد من أبناء الأوراس لهذا النداء ، ولم ينزل أحد الى « باتنة » أو سواها من مراكز الأمان التي حددتها القيادة الافرنسية ،

فما كان من هذه القيادة الا أن مددت مهلة الالتحاق بمراكز الأمان لمدة خمسة أيام (حتى ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ) وأطلقت قواتها لإرغام المواطنين الجزائريين على مغادرة قراهم ومراكزهم . ونجحت في النهاية بحمل (٢٨٠) عائلة من قرية « أشمول » التي يزيد عدد العائلات فيها على الألف عائلة ، بالنزول الى « مراكز الأمان » . وقد لوحظ خلو الرجال والاشداء والشبان ، من بين الذين حملتهم القوات الافرنسية الى « المعتقلات الاجبارية التي حملت اسم معسكرات الأمان » وجدير بالذكر ان عدد سكان الأوراس كان يتراوح بين (١٢٠) و (١٥٠) الف مواطن .

بعد انتهاء أجل الانذار، خرجت خمسة فيالق فرنسية في اتجاه القرى التي رفضت الانذار الافرنسي ، وقامت بعمليات اعتقال وإبادة واسعة النطاق، اشترك فيها سلاح الجو الافرنسي وقذف فيها قرى الأوراس بقنابل النابالم الحارقة. ولم تؤثر هذه العمليات الوحشية في نفسية الشعب. فظل صامداً يدعم قوات جيش التحرير في المنطقة، إلى أن ظهرت المجموعات الجزائرية فجأة في جبال «جرجرة»، وكان لظهور هذه المجموعات في هذه المنطقة من ولاية« عمالة »الجزائر، وقع الصاعقة على رؤوس الاستعماريين، إذ اعتبروه بداية التطوير لعمليات جيش التحرير المنظمة. وأخذت تحركات قوات الثورة تتوالى في منطقة الاوراس مع انتهاء الشهر الأول لبداية الثورة. وحدثت اشتباكات عنيفة مع القوات الافرنسية أدت الى مصرع عدد كبير من الافرنسيين. وكانت خسائر الثوار محدودة جداً، نظراً لافادة هؤلاء من عامل المباغتة في توجيه الضربات. وحاولت الادارة الافرنسية وقياداتها العسكرية قلب الحقائق، واتباع الأساليب الاعلامية الخادعة،

فأخذت تزعم أنها قتلت عشرات ومئات الثوار، بينما كانت البلاغات الافرنسية تكاد تخلو من ذكر القتلى الافرنسيين.

غير أن هذا الأسلوب من الكذب والخداع، لا يلبث أن يكشف ذاته بسرعة، ليفضح الأساليب التضليلية. وقد ظهر ذلك واضحاً في عملية حدثت في بداية شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤. ففي هذا التاريخ كانت قوة فرنسية تضم (١٥٠) جندياً تقوم بعملية (التطهير) في الأوراس. وقد أوغلت هذه القوة في تقدمها حتى وصلت الى منطقة مكشوفة، وكانت إحدى المجموعات الجزائرية العاملة في هذه المنطقة تتابع تحركات القوة الافرنسية عن كثب، وتحكم الخناق عليها، حتى إذا ما وصلت الى المنطقة المكشوفة، انقضت عليها بالنيران والالتحام، وأبادتها إبادة تامة. وفي الغد، جاء تصريح القيادة الافرنسية بالصيغة التالية: « **بينما كانت إحدى فرقنا تقوم بعملية تطهير في الأوراس، هاجمتها عصابة مسلحة من ـ الخارجين على القانون ـ وتمكنت قواتنا من قتل (٤٩) ثائراً، أما خسائرنا فلم تتجاوز قتل جندي واحد وإصابة آخر بجراح** ».

قامت قوات فرنسية كبيرة بعمليات حصار وتفتيش في بلاد القبائل، يوم ١٤ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤، وكان هدفها الأول هو إرهاب المواطنين، لا سيما بعد ظهور قوات الثورة الجزائرية في هذه المنطقة. وقد تلتها في ٣٠ كانون الأول ـ ديسمبر ـ حملة أخرى تضم (٤) آلاف جندي للبحث عن الجماعات المسلحة، ولم تصادف هاتان الحملتان أحداً من رجال جيش التحرير، الذين كانوا كعادتهم يراقبون تحركات العدو، وينتظرون انسلاخ قوات صغيرة عن القوات الكبيرة ليهاجموها. غير أن الافرنسيين كانوا شديدي الحذر، فلم

يجرأوا على تقسيم قواتهم. بل أبقوها مجتمعة تعمل ككتلة واحدة، وهذا ما سبب لهم الفشل، لأن تحرك مثل هذه القوات التي ترافقها الدبابات والمدرعات الخفيفة، وتحرسها الطائرات من الجو، لا بد وأن تكون بطيئة عبر الدروب المتفرقة في المنطقة والخفيفة الحركة.

وكان الافرنسيون يعتقدون أنهم بحملاتهم الضخمة هذه يستطيعون إيقاف الثورة وخنقها وهي في مهدها. غير أن الثورة نجحت في نشر قواتها وزيادة نشاطها. . فبعد أن كانت عمليات الجيش محصورة في الأوراس إذا بقوات الثورة تنتشر في بقية ولاية (عمالة) قسنطينة. ثم تمتد إلى بلاد القبائل (جبال جرجرة)، ومن هناك بدأ انتشار الثورة داخل ولاية (عمالة) الجزائر ذاتها.

استمرت القيادة الافرنسية في محاولاتها بالرغم مما أصابها من الفشل، فوجهت يوم ١٩ كانون الثاني - يناير - ١٩٥٥ قوة مكونة من خمسة آلاف جندي مدعمة بالمدرعات والطائرات للبحث عن مجموعات جند جيش التحرير في الأوراس. ثم أتبعتها بقوة ثانية تضم أربعة آلاف جندي لتطوير عمليات البحث في شمال الأوراس. وعادت الحملتان بعد أيام دون تحقيق نتيجة تذكر. وخلال ذلك كان جيش التحرير قد وسع دائرة نشاطه حتى أمكن له السيطرة على منطقة الجنوب كلها. ووقعت مجموعة من الاشتباكات الضارية في « كولون بيشار » و« عين الصفراء » و « بوسعادة » واختفى رجال جيش التحرير بعدها ليعاودوا ظهورهم في منطقة « وهران » . وأصيبت الادارة الاستعمارية وقيادتها العسكرية بحمى الغضب لهذا التطور، إذ كانت تعتقد حتى تلك المرحلة بأن ولاية « عمالة » وهران مسالمة، لأن طبيعة وهران وتكونها الديمغرافي لا يساعدان جيش التحرير على

التحرك والعمل في منطقتها.

وعلى أثر امتداد نفوذ جيش التحرير، وتعاظم نشاطه في كل أنحاء القطر الجزائري، عملت فرنسا على إقالة الحاكم العام « ليونارد » وخلفه في منصبه « جاك سوستيل». وفي أول نيسان - ابريل - ١٩٥٥ أقرت الجمعية الافرنسية لمدة سنة العمل « بقانون الطوارىء » وهو قانون يمنح القوات الافرنسية حرية العمل العسكري بالجزائر، وتطورت بنتيجة ذلك أعمال القتل والسلب واقتحام مساكن المسلمين الجزائريين عنوة في الليل والنهار بحجة البحث عن الثائرين، مع فرض رقابة صارمة على الصحف والاعلانات ومحطات الاذاعة والافلام السينمائية والمسرحيات وكل أنواع النشاطات الاجتماعية الأخرى. وقد أدى ذلك الى انتشار الفوضى، وازدياد أعمال الاضطهاد، وانتشار الرعب. فما كان من القوات الجزائرية الثائرة في منطقة الأوراس. إلا أن زادت من هجماتها على القوات الافرنسية، وعملت على تصعيد الصراع، بزيادة الكمائن والهجمات على مخازن حلفاء الافرنسيين الاستعماريين. ووقعت في هذا الشهر (نيسان - ابريل) حوادث تدميرية هامة في مدينة الجزائر، حيث دمر فدائيو المقاومة السرية معامل «باسطوس» للسجائر، ومصنعاً للفلين.

جابهت الادارة الاستعمارية في الجزائر، والقوات الافرنسية المسلحة، ثورة شعب الجزائر بأساليبها التقليدية التي طالما مارستها منذ أن وطئت قواتها أرض الجزائر. ولقد صرح رئيس بلدية الجزائر، وكاتب الدولة السابق للقوات المسلحة « جاك شوفالييه» بقوله: « إننا لن نحارب بوسائل عادلة ضد - الخارجين على القانون - إننا نحاربهم وفقاً لقانون الثأر، إنه الدفاع الشرعي من أجل مصلحة البلاد».

وهكذا، وانتقاماً من هجمات الثوار الجريئة في شهر أيار ـ مايو ـ وبداية شهر حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٥، قام سلاحا الطيران والبحرية وفرق المغاوير والمظليين بعمل ثأري، فدمروا القرى العربية المحيطة بمدينة « سكيكدة » الساحلية ومحوها وسكانها من الوجود، وأصبحت هذه القرى أثراً بعد عين. وفي أواخر شهر تموز ـ يوليو ـ وافقت الجمعية الوطنية الافرنسية على تمديد العمل « بقانون الطوارىء » بأغلبية (٣٨٢) صوتاً ضد (٢٣٣) صوتاً لمدة ستة أشهر. وقد أعلن النائب الافرنسي « لويس فالون » الهدف من فرض قانون الطوارىء بقوله: « **إنني أؤكد بأن طلب الحكومة القاضي بتجديد ـ حالة الطوارىء ـ هو اعتراف ظاهر بفشل سياستها المبنية على القمع والاضطهاد، وليس على الكفاح ضد الأسباب الحقيقية للثورة** ». **وانطلاقاً من هذه الحقيقة وقعت مذبحة « سكيكدة » التي يمكن تلخيص مأساتها بالتالي:**

قامت قوات الثورة بمهاجمة « سكيكدة » في العشرين من شهر آب ـ أغسطس ـ وحاصرتها حصاراً محكماً، واشتبكت في معارك ضارية مع حامية المطار الحربي فيها، وقتل خلال هذه المعارك (٦٠) جندياً فرنسياً. وعلى أثر هذا الهجوم الصاعق، قامت القوات الاستعمارية بعدوان انتقامي من سكان «الحي العربي» في المدينة والقرى المحيطة بها. وبما أن الرجال كانوا قد غادروا منازلهم والتحقوا بجيش التحرير، فقد وقعت أعباء المذبحة الرهيبة على النساء والأطفال والشيوخ العجز. واعترفت السلطات الإفرنسية بمقتل النساء والأطفال، وجاء في هذا الاعتراف: « **بأن قتل النساء والأطفال كان نتيجة اشتراكهم في المعارك الحربية** ». ولكن المعارك حدثت يوم

تلاحم قوى الشعب في المعركة - الفلاح والجندي يتبادلان العون والدعم

هجوم الوطنيين على سكيكدة - أي السبت ٢٠ آب - أغسطس - في حين وقعت مذبحة النساء والأطفال يوم الثلاثاء ٢٣ آب - أغسطس - وعلى هذا فإن اعتراف المسؤولين الافرنسيين لم يكن إلا ستاراً لتمويه الحقائق وإخفاء الجرائم الوحشية. وقد نقلت الصحيفة الافرنسية «لوموند» صورة عن هذه المذبحة، بالكلمات التالية:

« إنني أكرر ما شاهدت، لقد رأيت كلباً مشدوداً الى وتد، جعل يزأر حين شاهدنا، وآخر ينبح من الجهة الأخرى للطريق، ورأيت دجاجاً ينقر بين الجثث بكل هدوء... لقد ميزت بين الضحايا بكل سهولة كثيراً من الأطفال الذين لم يبلغوا العاشرة من عمرهم، كما أنني لا أذكر أن شاهدت رجالاً كهولاً بينهم. وإنني أرى جيداً لأعطي بعض الأمثلة: فتاة جاثية على ركبتيها، ورأسها بين يديها... وأرى شيخاً ومجموعة مكونة من ثلاث نسوة، لم يزلن يحملن أطفالهن بين أيديهن، أما بقية السكان، فإنهم عبارة عن جثث هامدة مبعثرة بين الأكواخ... الحقيقة أنه لم تكن تنبعث أية رائحة من هذه المنطقة مما يبعث على الدهشة إذا صح أن المجزرة حدثت يوم السبت، أي يوم المعركة، ولقد تحققت كذلك أن الدماء المتجمدة لم تزل حمراء... لقد كانت الفوضى عامة، مما يفسر بأن الأهالي كانوا يفرون في كل اتجاه أثناء المذبحة... وبإمكاني التأكيد: بأنه إذا لم تكن المذبحة قد حدثت صباح الثلاثاء، كما تبين لي من كل شيء، فإنه ليس من المعقول أن تكون قد حدثت يوم السبت ».

كانت مذبحة وحشية، أكدت للجزائريين مرة أخرى - بعد الألفين - طبيعة الاستعمار الافرنسي، وما تميز به من القسوة والتطرف، وبرهنت من جديد أيضاً للجزائريين المسلمين أن الطريق

الوحيد لبناء مستقبلهم هو طريق طرد الاستعمار الصليبي الافرنسي مرة واحدة وإلى الأبد، مهما بلغ حجم التضحيات. وعلى هذا فقد زادت المأساة من تصميم المجاهدين على تطوير الجهاد؛ فقامت قوات جيش التحرير بحصار مدينتي «سكيكدة» و«كولو» وقطعت عنهما سبل الاتصال بداخل القطر، وحرمتهما من الماء والكهرباء. واستحال الساحل القسنطيني إلى جحيم لا يطاق، لا سيما بعد تدخل الاسطول الإفرنسي في المعركة، مما حمل المسلمين في المدن الى الفرار بأنفسهم نحو قواعد الثورة للخلاص من الارهاب الاستعماري. ولم تلبث قوات جيش التحرير أن انسحبت تنفيذاً لخططها الحربية، وعادت لممارسة عملياتها الصغرى في نطاق ـ الاغارات والكمائن ـ. وما كادت الحالة تهدأ نسبياً في عمالة (ولاية) «قسنطينة» حتى اشتدت في مدينة وهران. كما برزت قوات جيش التحرير بصورة مباغتة في دائرة «تلمسان» والتحمت بالقوات الافرنسية التي كانت مركزة جهدها على الساحل القسنطيني، والتي لم تكن تتوقع وجود مثل هذا العدد من الثوار في «تلمسان». وأسفرت المعارك عن انتصار قوات الثورة انتصاراً رائعاً، أرغم الإفرنسيين على التقوقع في ثكناتهم ومعسكراتهم.

٥ ـ انطلاقة الثورة في كتابة قائد فرنسي

الجنرال «بوفر» من الضباط الاستعماريين المعروفين، اشترك في حملة السويس، وكان في سنة ١٩٥٦ قائداً لمنطقة قسنطينة، وقد انصرف بعد تقاعده للكتابة العسكرية، وقد جاء في كتابه « الحروب الثورية ـ فصل الحرب الثورية المعاصرة في البلدان الاسلامية ـ الحرب الجزائرية ـ » ما يلي:

« تعطي الحرب الجزائرية مثلاً هاماً بصورة خاصة، لأنها نجمت عن موقف متطرف: ففي بداية الأمر لم يكن الثورويون سوى حفنة من الرجال، ليس بحوزتهم سوى وسائط مضحكة. وجابهوا فرنسا التي كانت تبدو قوتها في تلك الفترة قوة ساحقة. وبالاضافة الى هذا، كان الشعب الجزائري بالرغم من خيبات أمله المتعددة، لم ينضج بعد للثورة (؟) ورغم هذا، فقد قرر الثوار التاريخيون، للجنة الثورية للوحدة والعمل، الذين شجعتهم هزيمة ـ الافرنسيين ـ في ديان بيان ـ فو، والنتائج التي حققها العصيان التونسي (الاستقلال الذاتي الداخلي) بالانتقال الى العمل. وكانت فكرتهم في هذا الوقت هي إيقاظ الجماهير الجزائرية من غفوتها بتظاهرة عنيفة، تثبت إرادة الاستقلال لدى الشعب الجزائري. وكانت هذه التظاهرة قد صممت

بصورة رائعة، لأنها استهدفت الروعة في إثارة الخيالات والتصورات، وبالإضافة إلى هذا، رسمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل، منذ البداية، خطاً سياسياً واضحاً جداً استهدف في الوقت ذاته الاعتماد على التقاليد الاسلامية ـ منع شرب الخمر والتدخين ـ ومارست إرهاباً شديداً كمم بسرعة كبيرة أفواه الشعب أمام السلطات الافرنسية (قطع الانف ـ اغتيال عملاء الادارة الافرنسية من المسلمين ـ الذبح أمام شهود[1] وتجنبت اللجنة بذكاء حاد كل مجابهة مباشرة مع القطعات الافرنسية ـ باستثناء اللجوء الى الكمائن والاغتيالات على مختلف أشكالها.

كان من حظ الثوار ـ التاريخيين ـ في هذا الوقت أنهم هاجموا عملاقاً ذا قدمين من صلصال: فقد كانت الادارة الإفرنسية في الجزائر متكلسة، متصلبة، وغير كافية للاشراف الكامل على البلاد. وبالإضافة الى هذا، شلت مجموعة القوانين الشرعية ـ التي تعتبر

(١) جدير بالذكر أن قيادة منظمة التحرير، وقيادة جيش التحرير، لم تلبثا أن حرمتا « الذبح أمام شهود » بسبب تناقضه مع الشريعة الاسلامية. أما في موضوع الارهاب ـ المشار إليه ـ فقد كان هو الوسيلة الوحيدة لمجابهة الارهاب الاستعماري، وحماية الثورة ورجالها. ويذكر أبناء ثورة الجزائر، أن هذا الارهاب قد وجه بصورة محدودة ضد الخونة المتعاونين مع الادارة الاستعمارية (من المعمرين). وقد حفظت وثائق الثورة الجزائرية نماذج كثيرة وطرائق مختلفة لتنفيذ هذه العمليات في الجزائر ـ وفي فرنسا ذاتها ـ ومنها على سبيل المثال : توجيه بطاقات إنذارية تحمل رسوماً معينة « جمجمة » مع تحديد وقت التنفيذ. وكان هذا التنفيذ يتم في موعده مهما كانت الظروف. ومن ذلك القصة المعروفة بلجوء أحد العملاء الى الادارة الافرنسية طالباً حمايتها عندما تلقى الانذار بإصدار حكم الثورة عليه بالاعدام. وكان أن أودعته السلطات الافرنسية السجن لحمايته. وتقدم رجل آخر ـ جزائري ـ يحمل الشارة ذاتها، فأودعته السلطات الافرنسية السجن الى جوار من سبقه. ومضت فترة الانذار، وفتح باب السجن، وخرج الجزائري المهدد. وتفقدت السلطة الرجل الأخر، فوجدته مقتولاً، وعرفت أن المنفذ هو الرجل الآخر.

الجزائر فرنسية وتطبق فيها القوانين الافرنسية لزمن السلم ـ عملياً كل قمع فوري للثوار. وعلى سبيل المثال: فقد كانت القوانين المطبقة في عام ١٩٤٥ في قسنطينة، مختلفة كُل الاختلاف عن القوانين الموجودة في المنطقة ذاتها في سنة ١٩٥٤. ففي عام ١٩٤٥، كانت الأحكام العرفية والمحاكم العسكرية العرفية قائمة. وفي عام ١٩٥٤ كان استخدام القطعات مرتبطاً بالسلطة المدنية، وكان على قوات الدرك ـ الجندرمة ـ أن تحقق في كل المعارك مع محضر ضبط وشهود. وهكذا جنت فرنسا على نفسها بالقوانين التي وضعتها[١].

وفضلاً عن هذا، كانت الوسائط العسكرية الافرنسية في الجزائر مثيرة للضحك (٤٩) ألف رجل أكثر من نصفهم من الجزائريين. ولهذا السبب، وبسبب وجود رجال في السلطة (مثل ميتران في الداخلية، وليونارد في حكومة عموم الجزائر، والجنرال شيريير. في الفيلق التاسع عشر التابع للجزائر العاصمة، والجنرال سبيلمان في فرقة قسنطينة) كانت عملية القمع الأولية تدعو الى الهزء والسخرية، بالرغم من ضربة ناجحة وجهها العقيد دوكورنو للثوار في الاوراس. وأضاعت فرنسا فرصة وحيدة كان بالمستطاع استغلالها لتخنق في المهد، تلك الثورة التي قام بها بضع مئات من الرجال، في الوقت

---

(١) هذه الذرائعية للدفاع عن أسباب فشل خنق الثورة غير صحيحة وغير دقيقة تماماً، فلقد برهنت مسيرة الاحداث على تحرك فرنسا الفوري، واستخدام كل وسائل القوة المتوافرة والتي كانت أكبر بكثير من قدرة الثوار عند انطلاقهم بثورتهم. فلم تكن فرنسا هي الضعيفة في هذا الموقف، وإنما كان الثوار هم الاقوياء. وكذلك الأمر بالنسبة لمقولة بوفر ـ من أن الشعب الجزائري كان مرتبطاً بفرنسا. ولو كان الأمر كذلك؛ لما قامت الثورة أصلاً، ولما حققت ما أنجزته من الانتصارات.

الذي كان فيه الشعب الجزائري بكامله مرتبطا الى حد كبير بفرنسا (؟).

ونحصل هنا على أحد أكثر الدروس وضوحاً في هذه التجربة: في الوضع الحالي، لا تكون الثورة معرضة للخنق والخطر إلا في مرحلة قيامها. ولكن للإفادة من حساسية الثورة، واحتمال تعرضها للخطر والخنق في بدايتها، ينبغي أن تتمكن قوى الأمن من الحصول فوراً على الوسائل المادية والشرعية الضرورية لعملية القمع. ولم يكن هذا هو الحال ضمن إطار التشريع الافرنسي في ذلك الوقت، والذي شل مراراً، بنوايا جديرة بالثناء، ولكنها نوايا ساذجة.

شرع الثوار الجزائريون، بعد أن نجحوا في الظهور بشكل بارز على المسرح بتوسيع بقعة الزيت التي شكلها مناخ عدم الأمن، وهم يملكون إحساساً صائباً جداً بالاستراتيجية الملائمة لثورتهم، وكان قطبا الاضطراب هما قلعتا البربر: الاوراس ومنطقة القبائل. ومن الاوراس انتقلت الثورة تدريجياً حتى شملت قسنطينة كلها، في حين نشرت القبائل نفوذها على محافظة الجزائر والجزائر العاصمة. وإزاء هذا الموقف الذي كان يتفاقم يوماً بعد يوم، قامت حكومة «ادارفور» بارسال « سوستيل » إلى الجزائر في شباط ـ فبراير ـ ١٩٥٥ كحاكم عام. ويعتبر سوستيل رجلاً ليبيرالياً كان يأمل أن يستطيع تطبيق سياسة إصلاحية، وفي انتظار قيامه بهذه الاصلاحات طلب نجدات من العاصمة ـ باريس ـ فارتفع عدد القوات الافرنسية في الجزائر الى (٨٣) ألف رجل. في غضون ذلك، وفي تموز ـ يوليو ـ وجدت منظمة التحرير الوطني نفسها قوية بدرجة كافية لشن عصيان شامل في كل محافظة قسنطينة. وكان هذا العصيان لهيباً من المذابح الشرسة،

نجم عنها إحجام « سوستيل » عن اللجوء إلى التسويات التي كان يفكر فيها. فتشددت فرنسا في موقفها، وأرسلت نجدات جديدة من فرنسا والهند الصينية الى الجزائر، واحتلت محافظة قسنطينة بالقوة. غير أن حمى الثورة انتقلت الى وهران، وعم الفساد محافظة الجزائر، واستشرت الفوضى بصورة عامة.

٦ ـ عقبات على طريق الثورة

أطلق الثوار التاريخيون شرارة الثورة بالهجوم على أكثر من ثلاثين موقعاً في مختلف أنحاء الجزائر ثم أخذ الثوار بالانسحاب، إلى قواعدهم الحصينة في جبال الأوراس. وتلقت القوات الافرنسية دعماً عسكرياً لمتابعة الأعمال التي أطلقت عليها اسم (اجراءات الأمن) أو (تدابير التهدئة)، وانطلق (الجنرال جيل) بعمليات التطهير، التي تم خلالها اعتقال اكثر من ألفي جزائري. وفي هذا الشهر ذاته ـ الأول من قيام الثورة ـ أطلق الجنرال جيل على المجاهدين اسم «الفلاقة» كما أطلق هذا الاسم ذاته على عملياته الحربية. وفي الشهر الثاني من قيام الثورة، قامت القوات الافرنسية بعملياتها في قلعتي الثورة: الأوراس ومنطقة القبائل. وأعلن المستوطنون الاوربيون سخطهم على الحكومة ومعارضتهم لسياستها ـ المتهاونة على حد زعمهم ـ ولكن الادارة الاستعمارية كانت ماضية في تطوير أعمال القتال، وزيادة حجم الاعتقالات، لا سيما بعد أن عملت على حل «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» بالرغم من إعلان السيد قاره، وابن جلول، نائب قسنطينة، معارضتهم لفكرة استقلال الجزائر التي طرحتها الثورة.

ويظهر ذلك أن طريق الثورة لم يكن ممهداً، فقد كانت هناك عقبات كثيرة ـ داخلية وخارجية ـ تعترض مسيرة الثوار الذين مضوا بعزيمة لا تفتر، وإرادة لا تلين على تذليل تلك العقبات، واحدة بعد أخرى، حتى استقام درب الثورة، وتلاحم الشعب مع ثورته.

كانت المشكلة الأولى بالنسبة للثورة خلال مرحلة انطلاقها، هي : مشكلة التنظيم والتجهيز، فبعد الهجمات الأولى، أقام جيش التحرير قواعده في الكهوف والمغاور الجبلية في قبيلة والأوراس وشمال قسنطينة، وهي أماكن رائعة ممتازة، تصلح لحرب العصابات، وركز الافرنسيون هجومهم المضاد في الأوراس، حيث استخدموا الطائرات والدبابات، وعملوا على عزل جيش الثورة عن المواطنين بواسطة « تجميع القرى الموالية لهم » و « إبادة القرى الأخرى التي يشكون بولائها لهم » . وكان يتولى قيادة جيش التحرير في الأوراس قائدان ممتازان هما **مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني**، وكانت المنطقة التي يعملان فيها جبلية وعرة المسالك تقيم فيها عدة قبائل من البربر، أدى اختلافها العنيف في ولائها للأجانب، أو معارضتها لهم الى جعل المجهود المشترك أمراً صعباً للغاية. وبعد استشهاد عدد من القادة العسكريين المحليين على التعاقب، وخلال فترة قصيرة، لم يعد من السهل على قائد واحد أن يتولى السلطة الكاملة (وقد استمر ذلك حتى سنة ١٩٥٧). ولكن على الرغم من ضعف التنسيق الداخلي، في هذه المنطقة، فقد ظل عدد أفراد جيش التحرير في ارتفاع مستمر .

أما المجاهدون في منطقة قبيلة، فقد نموا بصورة أكثر تدرجاً وبطئاً. وكانوا تحت إشراف قادة أكفاء أيضاً، من أمثال : **كريم بلقاسم ورمضان عبانة وعمارنة وناصر**. وركز المجاهدون جهدهم، بعد

الهجمات الاولى، على إزالة الخونة، وهي مهمة استغرقت منهم تسعة أشهر على أقل تقدير. أما في شمال قسنطينة، فقد تمكن **يوسف زيروت** ـ وهو من القادة الأكفاء بدوره ـ من تنظيم الحدود الجزائرية ـ التونسية بنجاح، وسرعان ما حقق الاتصال مع البعثة الخارجية لتأمين الأسلحة للثورة. ولم يتأثر الثائرون في الولايات الثلاث تأثراً خطيراً من حل «حركة انتصار الحريات الديموقراطية» ومن اعتقال عدد كبير من القادة الوطنيين. ذلك أن عمليات الانتقام العمياء التي مارستها القوات الافرنسية، وإبادة القرى، قد أسهمت في توسيع صفوف الثورة، وتطوير جيوشها. وبذلك تكون فرنسا قد خدمت قضية الثورة على غير إرادة منها، وخلافاً لما كانت تريده.

كانت المشكلة الحادة الثانية، هي مشكلة الحصول على السلاح ووسائط القتال. فقد وجدت الثورة نفسها وهي تجابه القوات الافرنسية المتفوقة، وليس لديها إلا القليل من السلاح، الأمر الذي كثيراً ما دفع الثائرين الى اقتحام المخاطر، ومهاجمة المواقع العسكرية الافرنسية، للحصول على السلاح فقط. وكثيراً ما كانت مثل هذه العمليات ترتدي طابع المغامرة الخطرة وغير المأمونة. وهكذا، لم تمض اكثر من أشهر ثلاثة على بداية الثورة، حتى أصبح **مجاهدو الأوراس** بدون عتاد تقريباً. فمضى العقيد **مصطفى بن بولعيد** في مهمة للحصول على بعض العتاد، عندما اعتقل على الحدود الليبية. وأدت مشكلة النقص في الذخائر والأعتدة الى ظهور بعض الخلافات ـ وحتى الحزازات. بين المجاهدين فوق أرض المعركة من جهة، وبين رفاقهم من أعضاء البعثة الخارجية (وزال هذا السخط بصورة طبيعية في سنة ١٩٥٧ عندما تمكن القادة في الخارج من شحن كميات ضخمة من

السلاح والعتاد الى الثورة) .

كانت المشكلة الاستراتيجية الأساسية التي واجهتها الثورة في الأشهر الأولى، هي توسيع نطاق الثورة من الجبال الواقعة في شرق الجزائر إلى سهول قسنطينة وغيرها. وكان من الضروري، والملح جداً، توسيع هذا النطاق، لا سيما وأن المفاوضات الطويلة بين تونس وفرنسا حول الحكم الذاتي المحدود، كانت قد وصلت الى نهايتها. ووقف الجزائريون، الذين كانوا يعتمدون الى حد كبير على مرور الأسلحة والرجال اليهم عبر تونس، الى جانب زعيم حزب الدستور التونسي الجديد، صالح بن يوسف، في معارضته لسياسة الحبيب بورقيبة الرامية الى - الاستقلال على مراحل - . ولكن بعد توقيع اتفاقية الحكم الذاتي التونسي، ومحاكمة صالح بن يوسف وصدور الحكم بإعدامه، أعادت جبهة التحرير الوطني الجزائري تقويم مواقفها السياسية، وأخذت في التعاون مع - بورقيبة - في قضية نقل الأسلحة والعتاد، وفي المهام الدبلوماسية. ولكن عدداً كبيراً من زعماء الجبهة آنذاك، كان يؤثر لو استمر التونسيون في القتال، إلى أن تنال كل من تونس والجزائر استقلالهما الكامل.

* * *

تلك هي السطور الأولى في الملحمة الرائعة لثورة شعب الجزائر المجاهد. وهي سطور تقصر عن وصف المعاناة التي عرضت لها الثورة في أيامها الأولى. وتبقى القصة المثيرة في ملحمة الثورة هي تلك التي نسج الثوار خيوطها، بجرأتهم وإقدامهم، ببطولتهم وايمانهم، بمعاناتهم وتضحياتهم. هناك، فوق ميادين الجهاد، حيث تختلط كل المشاعر الإنسانية لتتفجر عن إبداع تفجر الحياة ذاتها عن

إبراز كل معالمه وأبعاده. هناك فوق ميادين الجهاد، حيث تنصهر كل الانفعالات في بوتقة واحدة، بوتقة الايمان والحب، الايمان بالله، والحب للوطن وأهل الوطن.

٧ ـ الثورة في وثائق ثوارها

آ ـ الإعداد للثورة

« لقد بدأ تاريخنا بتفجير الثورة في خنشلة » هذا ما قاله أحد الأبطال ممن عايشوا مرحلة مخاض الثورة،وشاركوا في تفجيرها[١] ولكن الوصول الى هذه البداية، بداية الثورة ـ يتطلب العودة لاستقراء ملامح تلك المراحل المختلفة للأنشطة الوطنية التي قامت بها مجموعة من الطلاب الشباب الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إيقاظ الوعي الوطني، بعد ماأدركوه من الأعباء المرهقة التي تلقي بكل ثقلها على الحياة اليومية للشعب الجزائري، والمواطن الجزائري، وقد بدأت مسيرة الأحداث بالتحرك، عندما قامت خلية من الطلاب المجاهدين فأمسكت بزمام المبادأة، وأخذت في توجيه الأحداث من خلال الإمساك بقيادة الحزب، لا سيما بعد أن تمت إقالة عدد من المسؤولين فيه. ومن ثم اتخاذ الموقف الحيادي، وانتهاج سياسة استقلالية بعد تمزق « الهيئة الثورية للوحدة والعمل » تحت ضربات الاستعماريين.

---

(١) REF: RECITS DE FEU (SNED ALGER) P.P. 1 29

وكاتب البحث هو « سالم بوباكور »وهو من قدامى المجاهدين في حركة انتصار الحريات الديموقراطية، ثم في التنظيم السري « للحركة الثورية للوحدة والعمل » وقد اشترك الباحث في مرحلة الإعداد للثورة وفي تنفيذ عملياتها، وهو هنا يعرض تفجير الثورة في « خنشلة » بصورتها الواقعية.

وأخيراً، مرحلة الإعداد لثورة الفاتح من نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٥٤ . والعمل على تفجيرها . وقد تم ذلك في « خنشلة » على الرغم من كل العوائق التي لم يكن أقلها - على سبيل المثال - عدم توافر أكثر من سبع قطع أسلحة في أيدي المنفذين، بينما كان من المقرر وفقاً للمخطط الأساسي الذي أشرف على وضعه « مصطفى بن بولعيد » تأمين ما لا يقل عن أربعين قطعة سلاح وإشراكها في المعركة .

لقد بدأت القصة على كل حال - إلى عام ١٩٥٠ - حيث تم الاتصال بالوطنيين في خنشلة، وكان هؤلاء يثقون ثقة مطلقة بضرورة وجود - حزب وطني ثوري منظم - يتولى قيادة الصراع المسلح من أجل استقلال الجزائر. وكان مناخ هؤلاء الشبيبة كافياً لإثارة الحماسة في أوساط الطلاب وتنظيمهم وإعدادهم للعمل الذي سيتفجر في الليلة التاريخية. وكان يتم ضم المتطوع بصفة « مجاهد عادي » حتى إذا ما برهن على كفاءته، أصبح مسؤولاً عن إحدى الخلايا. وكانت الخلية تضم المجاهدين من مختلف الفئات الاجتماعية للشعب، وأولهم بدهياً فئة الفقراء البائسين. وكان المبدأ الثابت هو : « أن خدمة الوطن ليست حكراً لأحد ». وتعرف المجاهدون الشباب من خلال تنظيمهم على تاريخ الجزائر. وجهاد الشعب الجزائري ضد الاستعماريين، وهو الجهاد الذي لا بد من استمراره حتى يستعيد الوطن حريته، وحتى يتم له استقلاله. وكان هؤلاء الطلاب الشبيبة يترجمون عقيدة الحزب بالحماسة للقضية الوطنية، وبالإرادة الطوعية للعمل، وكذلك بالانضباط الذاتي واحترام التوجيهات العامة للقيادة. وقد ساعد التكون السياسي للحزب على تغيير مفاهيم هؤلاء الشباب ومواقفهم تغييراً تاماً. وظهر هذا التغيير في علاقات الشبيبة

بعضهم ببعض وعلاقتهم مع جماهير الشعب. فبالأمس القريب، كان هؤلاء الشبيبة يعيشون حياة اللامبالاة في عالم غامض مضطرب، يحيط بهم الفراغ السياسي، ويخيفهم غياب القيادة التي ترى الأمور بوضوح تام. وها هم بعد أن انضموا لتنظيم الحزب وهم يعرفون أهدافهم، ولديهم الاستعداد للتضحية بحياتهم من أجل حياة وطنهم، ويعيشون حياة التضامن، ويشعرون بالأخوة الحقيقية لكل إنسان جزائري. ولم يعد الجهاد بالنسبة لهم مجرد شعار يرفعونه. لقد أصبح مضمون الجهاد يفرض عليهم العمل الدؤوب والجهاد، ومناقشة المواقف السياسية بعقلية متحررة، من أجل تحويل النظرية الى ممارسة عملية. وأصبح كل فرد من الطلاب، على الرغم من حداثة سنه وصغر عمره الزمني، وهو يتمتع بقدر كاف من النضج الذي يمكنه من تحمل المسؤولية، واكتشاف الحقائق السياسية والاجتماعية التي تتطلبها بلاده: «**لقد أصبح حب الجزائر هو كل شيء في حياة هؤلاء الشبيبة**».

انحصرت أنشطة الشبيبة في الحزب طوال الفترة ما بين العام ١٩٥٠ والعام ١٩٥٤ بالأعمال الرتيبة - الروتينية - والتي كانت تمارسها كل الأحزاب السياسية؛ ومنها: تنظيم الخلايا والاجتماعات، وإجراء المقابلات، وخوض المعارك الخطابية، وبيع الصحف والنشرات التي يضعها الحزب، وجمع الاشتراكات، ووضع البيانات التي تتضمن الشعارات المعادية للاستعمار، وكتابة الشعارات الوطنية على الجدران، والتركيز بصورة خاصة على ما يضمن للناس التعاطف مع أهداف الحزب، من خلال شرح المذكرة الشهيرة التي قدمتها (حركة انتصار الحريات والديموقراطية) الى

مجلس الأمن، والتي تطالب بإقامة دولة جزائرية تعمل في إطار الحياد الايجابي بين الدولتين العظميين : الامبريالية والاشتراكية. وأخيراً، البحث عن الوسائل لدعم الروابط مع الكتلة العربية ـ الإسلامية، وتحقيق اتحاد دول المغرب العربي- الاسلامي (شمال افريقيا).

ولم يكن باستطاعة الحزب وهو يمارس هذه الفعاليات كلها المحافظة على سرية تنظيمه. وخلال هذه الفترة، وبنتيجة عملية تزوير الانتخابات، أصبحت كل التنظيمات الحزبية مكشوفة، مما جعلها عرضة لضربات الإدارة الافرنسية. ولم يحدث أن بدأت بعض الحركات الوطنية بالتنظيم السري، إلا بعد عمليات الاعتقال الجماعي للمناضلين، في إثر المؤامرة الإفرنسية ضد حركة (انتصار الحريات الديموقراطية) في نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٩٥٠، وما أعقب ذلك من عمليات انتقامية ضد مواطني الأوراس ومواطني سيدي علي بونبي ونيدورما وماغنيا. لا سيما وقد أصبح أعضاء الحزب دريئة لسهام السلطة، مما دفع الكثيرين للانسحاب منه، وهكذا أخذ الحزب في الانتقال إلى العمل- نصف السري ـ مع إعادة تنظيم الخلايا بسبب انسحاب بعض المسؤولين القدامى في الحزب.

ووجدت هيئة الحزب في (قسما) أنها باتت مكونة من خمسة أعضاء يمثلون (حركة انتصار الحريات الديموقراطية)، وأصبح لزاماً على هؤلاء عقد اجتماعاتهم الدورية ـ كل اسبوعين ـ في مكان سري، وبقي الأمر كذلك حتى شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٥٤. حيث تم الانفصال عن حركة انتصار الحريات الديموقراطية. فاتخذت مجموعة (قسما) التابعة لمركز (خنشلة) موقف الحياد الايجابي والمستقل عن الكتلتين الأساسيتين

المتصارعتين على مستوى القمة، واللتين كانت أحداهما ترفع شعار « اللجنة المركزية » والثانية ترفع شعار « التكتل - خلف مصالي الحاج ». وكان الهدف من اتخاذ موقف الحياد برئاسة « عباس لغرور » وتوجيه « بشير شيحاني » هو محاولة توحيد كل القوى في أوساط الحزب ودعمه وتجديده .

لقد كان هذا الحزب الوطني الجزائري، هو أقرب الأحزاب لتطلعات كتلة الجماهير الشعبية، وهو أملها الوحيد، وقد جاءت هذه الأزمة الداخلية مناسبة لبعض أعضاء الحزب - الذين أتعبهم النضال - فقرروا الإعلان عن انسحابهم من دائرة الصراع، وتخليهم عن النضال المضاد للاستعمار. ورافق ذلك حالة من اليأس - من انتصار القضية - علاوة على ما كان يثيره الغموض في الموقف السياسي، والاتجاه الخاطىء الذي أثاره تحلل الحزب الوطني، وهو الذي بقي طويلاً في طليعة الأحزاب الوطنية حماسة واندفاعاً في مجال العمل لاسترجاع الحقوق الوطنية. وظهر بأن الأمال كلها قد ضاعت وتمزقت يوم قررت حفنة من المجاهدين متابعة الصراع حتى تحقيق النصر النهائي. ويعني ذلك - انتزاع الاستقلال باللجوء الى وسيلة الصراع المسلح، واستخدام العنف المباشر، وإحياء لهيب الثورة التي بدأت جذوتها بالخمود في نفس المناضلين - فتم طرح فكرة « الثورة الشاملة » باعتبارها المخرج الوحيد لتحرير الجزائر. وكانت هذه الحفنة من الرجال تمتلك إيماناً راسخاً لا يتزعزع، وخلقا كريماً، واستعداداً للتضحية بكل شيء من أجل قضية الوطن .

عقدت جماعة التكتل « خلف مصالي الحاج » مؤتمراً لها في ١٥ تموز ـ يوليو ـ ١٩٥٤ بمدينة « هورنو » ببلجيكا، ومثل « خنشلة » في هذا الاجتماع ـ الحاج عبد الله مراد ـ وفي ١٥ ـ آب أغسطس ـ ١٩٥٤ عقدت جماعة « اللجنة المركزية » مؤتمراً لها في مدينة الجزائر، اشترك فيه عن خنشلة كل من « لغرور وشيحاني » بصفتهما مراقبين، لا يحق لهما الاشتراك في المناقشات، نظراً لما هو معروف من مواقفهما الموصوفة « بالثورة المتطرفة ». وكانت فائدة المؤتمرين كبيرة من حيث نتائجهما التي دعمت مبدأ ضرورة الانتقال مباشرة للعمل العسكري ،وأصبح هذا الانتقال هو الفكرة المهيمنة على تفكير معظم المجاهدين الذين خابت آمالهم نتيجة انقسام الحزب وتمزقه. والمهم هو أن هذا التمزق بقي محصوراً على مستوى القيادات، أما قواعد الحزب فقد بقيت سليمة ومخلصة لفكرة الثورة ومبادئها، ولم تظهر أي نكوص أو تراجع عن خط الثورة. كما لم تظهر أي اهتمام بتلك الصراعات المحتدمة في القمة والتي كانت ذات صفة حزبية أو شخصية، أو من أجل النفوذ والسلطة على المستوى الداخلي للأحزاب.

وقد انتهت تلك الصراعات بإكساب المجاهدين المزيد من التصميم والمزيد من التصلب في مواجهة ما كانت تظهره قيادة الكتلتين المتصارعتين من عناد وتصلب، وهما متجاهلتان ما كانت تطرحه العناصر النقية والطاهرة في الحزب من أن « حرب التحرير » قد باتت هي المخرج الوحيد لما أنزلته الكتلتان المتصارعتان بالحزب، فانحدرتا به الى المستنقع. وتابعت العناصر المخلصة طريقها وهي تطالب

بالحاح تكوين حركة ثوروية صلبة، لديها التصميم للانتقال الى العمل العسكري المباشر - طريق الثورة -.

مرت الفترة من شهر آذار - مارس - الى حزيران - يونيو - من العام ١٩٥٤، وخلايا المجاهدين في « خنشلة » تمارس نشاطها وسط مناخ من الشكوك، وترفض إجراء أي اتصال مع قيادة الكتلتين المتصارعتين. لقد كان عملها مركزاً على قواعد الحزب، حيث وجهتها نحو شراء الأسلحة. وأثناء ذلك كان بعض المناضلين في المدن يصدمون بعضهم ببعض، ويتنافسون فيما بينهم، هؤلاء الذين يريدون بيع « صحيفة الجزائر الحرة » الصادرة عن جماعة التكتل، وأولئك الذين يريدون بيع « صحيفة الأمة الجزائرية » الصادرة عن جماعة اللجنة المركزية. وكان الصراع بين الكتلتين كثيراً ما يعيق مشاريع « تنظيم خنشلة » خلال مرحلة الإعداد لانطلاقة الثورة، لا سيما في مجال تجنيد الرجال وتنظيم وشراء الأسلحة، إذ أن هذا الصراع كان يزيد من غموض الموقف في تفكير الجماهير، وكان من أهم نتائج الصراع بين الكتلتين، إحباط مخطط للحصول على أسلحة حربية من « نيميشا ». وإجهاض محاولة للاتصال بالفرسان الصبايحية - السباهيين - الجزائريين، الذين كانوا يتمركزون في « خنشلة ».

وكان المخطط يعتمد على اشتراك هؤلاء الفرسان في اليوم الأول لانطلاقة الثورة « يوم - ي » والقيام بالعمل من داخل الثكنة العسكرية. وعلاوة على ذلك كله، فقد اضطر عدد من المجاهدين - بسبب انقسام الحزب الى كتلتين متصارعتين - الى الخروج من دائرة الظل، ومغادرة مواقع العمل السري، لتنظيم

« اللجنة الثورية للوحدة والعمل ». وكان هؤلاء من المغمورين الذين لم تتردد أسماؤهم على ألسنة الجماهير. وقد حرصوا على تنظيم حركتهم الجديدة في إطار من السرية المطلقة. وضموا اليهم كل الأنصار المؤمنين بقضية « الصراع المسلح » سواء كان هؤلاء من العناصر القديمة في التنظيم السري « المنظمة الخاصة أو الشرف العسكري » أو كانوا من المجاهدين الحياديين في الكتلتين المتصارعتين. وقرروا الانتقال الى العمل العسكري في أقرب فرصة ممكنة. كما قرروا أن تتبع عملية تفجير الثورة نشر المجموعات المسلحة في كل الأقاليم لتنفيذ الأعمال الثورية. وفي يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١٩٥٤، كان « عباس لغرور » يتصل بالمجاهدين في « خنشلة » واحداً بعد واحد، ليطلعهم على تطورات الموقف. ويذكر المجاهد « سالم بوبكر » ما حدث له في ذلك اليوم بالكلمات التالية :

« ... دخلت على عباس لغرور، وكان أول ما أثار انتباهي هو عدم وجود صورة مصالي الحاج في المكان الذي كانت تتصدره. ولاحظ عباس لغرور دهشتي فقال لي مبادراً : لقد حطمتها، ودمرت صاحبها لأنه خان القضية، يجب علينا نسيان الحزب القديم الذي لم يثمر غير الروتين. إن الجزائر لن تصل الى استقلالها بتلك الأساليب البيروقراطية والبرامج الاصلاحية، فكيف لنا خوض الصراع على جبهتين ؟.. هل عن طريق الشرعية - الافرنسية - أم عن طريق لعبة البيانات الخطابية، أم عن طريق العمل السري للثورة ؟... إنه أمر من المحال تحقيقه، يجب اللجوء الى خيار وحيد للعمل. لقد أصبح الضعف

في حزبنا واضحاً كل الوضوح. وجاءت الأزمة الأخيرة لتمزقه تمزقاً تاماً. يجب الخروج من أزمة الانقسام الى العمل المباشر » ثم كشف لي النقاب عن وجود مجموعة ثورية تعالج قضية البدء قريباً بالصراع المسلح في الجزائر. وفي نهاية المقابلة قال لي : ها نحن يا أخي العزيز سنبدأ بالعمل المباشر. وواجبك هو أن تكون في عداد التنظيم الجديد الذي سيوجه ضربته الى العدو. وسيفرض وحدة شعب الجزائر من خلال شعار الاستقلال، وهو ما نعمل لتحقيقه منذ سنوات. ثم طلب إلي « عباس لغرور » أن أقسم على القرآن الكريم بألا أخون الحزب، وأن أخدم أهدافه حتى آخر لحظة من حياتي. وبعد ذلك طلب إلي شراء قميص متين وبنطال وسترة من اللون الخاكي، وزوج من الأحذية المطاطية، ومصباح يدوي، مع الحصول على أكبر كمية ممكنة من أدوات وأدوية الاسعاف، والمواد الطبية والبقاء على اتصال دائم معه .

نظمت « الهيئة الثورية للوحدة والعمل » قيادة « خنشلة » في نهاية شهر حزيران - يونيو - ١٩٥٤ وضمت هذه القيادة أربعة أعضاء واجبهم الإعداد للهجوم على مواقع الإفرنسيين في مدينة « خنشلة » وألقيت مسؤولية هذا الهجوم على عاتق : (عباس لغرور وغزالي بن عبيس وصلاح أوغيد وسالم بوبكر). ومضت الفترة بين اوائل تموز - يوليو - ويوم ٣١ تشرين الاول - اكتوبر - في عمل مستمر، وجهد متواصل،لاجراء التدريب، وتطوير مخططات الهجوم على الأهداف الهامة في المدينة. وشراء الأسلحة والذخائر والألبسة العسكرية والتجهيزات الطبية والأجهزة اللاسلكية - الراديوات - وتنظيم وحدات الفدائيين - شبه العسكرية - وانتقاء

عناصر المنفذين من الموثوقين، والتدريب على استخدام المتفجرات، ووضع الصواعق المفجرة، والقاء المحاضرات النظرية عن قتال العصابات وأساليب الإغارات والكمائن، مع إعداد مراكز تجمع الثوار والملاجيء وتجهيزها بالمواد التموينية. وكانت الغابات هي المراكز المفضلة للاجتماعات، والتدريب على استخدام الاسلحة ورمي القنابل - حيث كان يتم استخدام الحجارة للتمرين نظراً لعدم توافر كمية من قنابل التمرين او القنابل الحقيقية- وتم اختيار (النبع الدافىء) على بعد خمسة كيلومترات من (خنشلة) في شهر أيلول- سبتمبر- ١٩٥٤ للاجتماع والتدريب، عوضاً عن (عين سيلين) وذلك بسبب وجود غابة كثيفة يغطيها السياج، وتكثر فيها الوهاد والوديان، فكانت بمميزاتها الطبيعية من أفضل الأمكنة للاجتماعات والتدريب واجراء الرمي.

وفي أعقاب التمرين الأول، قام « عباس لغرور » بتقديم الثوار المجاهدين الى « مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني » اللذين قدما للتفتيش في منطقة « خنشلة ». ووقف « بن بولعيد » ليقول: « ستحمل الجزائر السلاح قريباً لخوض الصراع ضد فرنسا. من أجل انتزاع حقوقها، والتحرر من ربقة الاستعمار ». ثم طلب الى الثوار الحصول على أكبر كمية ممكنة من الأسلحة، لأن الساعة قد اقتربت، كما أصدر أوامره « باتخاذ أقصى أسباب الحذر، ومراعاة قواعد الأمن والسرية ضد عناصر الشرطة والمخبرين ورجال الادارة الاستعمارية، والامتناع عن أي اتصال ما بين المجموعات بصورة

مكشوفة أو بالطرائق العادية، واختيار العناصر الأكفاء الشجعان والعناية بهم »، ثم تولى الحديث بعد ذلك « بشير شيحاني » فشرح الوقائع التي هيمنت على المواقف السياسية للجزائر منذ احتلالها في سنة ١٨٣٠، الى أن قال: « **لم تحقق الوسائل السياسية العادية أي نتيجة إيجابية، وعلى الشعب الجزائري، وبعد أن استنزف كل إمكانات الصراع السياسي أن ينتقل الى العمل المباشر، وذلك بمهاجمة المراكز العسكرية، ومراكز الشرطة، وكل المنشآت العسكرية والادارية التي تتوافر فيها الأسلحة** ».

لم يحدد « بشير شيحاني » في حديثه الى المجاهدين موعد البدء بالأعمال القتالية، ولم يحدد لهذه الأعمال أهدافها، أو تفاصيل تنفيذها، غير أن ما كان واضحاً هو أنه يجب الانتهاء خلال أيام قليلة من وضع مخطط تفصيلي للهجوم على المدينة. وانصرفت الهيئة الثورية في « خنشلة » لوضع مخطط الهجوم وإعداد العناصر لتنفيذه، وجرى نقاش طويل بهذا الشأن، انتهى بالاتفاق على ما يلي: « ١ ـ الاغارة على مركز الشرطة ـ كوميسير البوليس ـ ٢ ـ مهاجمة المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ ٣ ـ الإغارة على الثكنة العسكرية ٤ ـ الإغارة على مركز الدرك ـ الجندرمة ـ ٥ ـ تفجير المحولات الكهربائية التي تغذي المدينة بالطاقة، وتدميرها.

٦ ـ قطع الخطوط الهاتفية التي تصل « خنشلة » بمدينتي « عين البيضاء » و « باتنة » لعزل المدينة عن كل اتصال خارجي » وبعد ذلك تم وضع لائحة تتضمن أسماء عناصر المنفذين الذين بلغ

عددهم ٤٠ ـ رجلاً[١] وصدرت بعد ذلك تعليمات صارمة بشأن طرائق التنفيذ، تضمنت ما يلي : « يجب العمل منذ اليوم الأول للثورة على احترام الاطفال والنساء والشيوخ من المدنيين، يجب أن لا يكون عملنا ضرباً من اليأس أو تعبيراً عنه، بل يجب أن يكون عملاً واعياً وعقلانياً ومنظماً. فقد تؤدي أقل خطوة خاطئة الى تدمير البناء الثوري الذي تم إنجازه بعد صبر طويل، وبجهود جبارة وتضحيات كبيرة » وقد تم الاعتماد ـ عند التخطيط ـ على إعطاء العمل بالدرجة الأولى شكل تظاهرة نفسية واسعة النطاق ـ قدر المستطاع ـ بهدف إثارة انتباه الجماهير والرأي العام الداخلي والدولي إلى قضية الجزائر، والتي هي قبل كل شيء قضية سياسية .

عقد اجتماع نهائي في الجزائر ـ العاصمة ـ يومي ٢٣ و٢٤ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩٥٤، حدد فيه المؤتمرون وبصورة نهائية موعد انطلاقة الثورة « يوم ـ ي » ليكون في اليوم الأول من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ وقسمت البلاد إلى خمس مناطق عسكرية للعمليات، وهي : وهران والجزائر والقبائل وشمال قسنطينة والأوراس. وبقي أمر تنظيم المنطقة السادسة (منطقة الصحراء) مؤجلا الى ما بعد انطلاقة الثورة. غير أنه تم اختيار العضوين

---

(١) قتل منهم عند التنفيذ ٢٣ مجاهداً وبقي ١٧ على قيد الحياة، وتجدر الاشارة الى أن قيادة الثورة في « خنشلة » استعانت ببعض العناصر من غير رجالها، ولكن من المتعاطفين مع الثورة. مثل « السائق مهناوي العياشي » الذي تم تكليفه بنقل وسائط الاتصال والامدادات بسيارته ـ الاجرة ـ فتم اعتقاله، ولم تفرج عنه فرنسا الا عندما تم استقلال البلاد، حيث خرج وهو يعاني من الشلل، نتيجة ما تعرض له من التعذيب في سجنه، علاوة على إصابته بأمراض مستعصية. فلم يعش نعمة الاستقلال طويلا بعد أن تم تحريره، وقضى نحبه.

اللذين سيقع عليهما عبء مسؤولية قيادة المنطقة وتنظيمها، وإدارة الأعمال القتالية فيها، وهذان المسؤولان هما : « عبد القادر المهدي » الذي أحجم في اللحظة الأخيرة عن الاشتراك في الثورة. و « الرقيب سليمان » الذي اختفى من دائرة العمل، منذ الأيام الأولى لاندلاع لهيب الثورة[1] وعند ذلك اتخذ « مصطفى بولعيد» قراره بضم منطقة الصحراء الواسعة الى منطقة الأوراس. وذلك ريثما يتم تنظيمها من جديد، وهو التنظيم الذي لم يظهر إلى الوجود الا في العام ١٩٥٦، بفضل الجهود المستمرة التي بذلها « سي أحمد بن عبد الرزاق » المعروف باسم « الكولونيل هاويس » .

وصل « عباس لغرور » الى « باتنه ـ أو ـ بطنه » يوم ٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ للاشتراك في مؤتمر تقرر عقده برئاسة « مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني ». وقد تم عقد هذا المؤتمر في منزل « سالم بو بكر » نظراً لكونه منعزلاً وبعيداً عن المراقبة ـ وذلك في الساعة ٢١٠٠ ـ وبعد افتتاح الجلسة، تمت قراءة نصين كتبا باللغة

---

(١) قامت قيادة الثورة بالبحث عن هذين العنصرين اللذين انقطعت أخبارهما بصورة مباغتة، وعلى الرغم من التحريات الواسعة التي قام بها ـ بن بولعيد وشيحاني ـ والتي استمرت طوال الشهرين الاخيرين من العام ١٩٥٤، من أجل إعادة الاتصال بهما، وبعث الثورة في منطقة الصحراء. الا أن الجهود فشلت في العثور على أي أثر لهما. وتبين بعد ذلك أن « عبد القادر المهدي » قد بقي معتزلاً في بسكرة. أما « الرقيب سليمان » فقد التحق بفرنسا، ليكون بعد ذلك سبباً في اعتقال « رابح بيطاط » في الجزائر، ونظراً لغياب هذين العنصرين، وبعد انتظار طويل، نتج عن غياب المسؤولين والموجهين في « منطقة الصحراء » تم تكليف زمرة من الوطنيين للهجوم على الوادي الصحراوي في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤. وقد توجهت هذه الزمرة الى الصحراء ـ من قوة الجنوب ـ بقيادة: الأخضر حماه ومبروك عماره).

الافرنسية، وكان قد تم إعدادهما من قبل، وكان النص الأول موجها باسم « جبهة التحرير الوطني » إلى الشعب الجزائري. وهو يحدد بوضوح الأهداف السياسية للثورة؛ اما النص الثاني فكان موجهاً باسم « جيش التحرير الوطني » وقد حملت الورقتان علم الجزائر : « الابيض والأخضر والهلال والنجمة في الوسط باللون الأحمر). وكانت هذه هي المرة الاولى التي يتم فيها الإعلان عن وجود الحركة الثورية .

ب ـ الله أكبر ـ خالد ـ عقبة

« . . . جلس المؤتمرون بصمت، وهم يستمعون إلى ـ بيانات الثورة ـ تتلى عليهم، ولم ينبس « لغرور » ببنت شفة، وإنما راح غارقاً في تفكير عميق، في حين كانت دموع . اوغاد « تنساب على وجنتيه، أما « بن عباس » فقد كان يردد بلا انقطاع : الله أكبر ! لقد أقبل أخيراً فجر اليوم العظيم. وخرج « لغرور » عن صمته ليقول بلهجة هادئة : لقد حدد يوم (ي) بصورة نهائية، ليكون ليل ٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ المصادف لليلة يوم الأحد، وليبدأ العمل في الساعة الواحدة من صباح الاثنين الفاتح من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ . وسيقوم الثواربهجماتهم في وقت واحد، وفي كل أنحاء الجزائر. وستكون كلمة السر للعمليات في هذه الليلة هي (خالد) أما كلمة الإجابة فهي (عقبة). وطلب (لغرور) من المؤتمرين الاحتفاظ بموعد يوم الهجوم وساعته. وعدم إعطائه للمجاهدين المنفذين قبل يوم الأحد. ثم بدأ القادة المؤتمرون ببحث الاستعدادات الأخيرة قبل البدء بالهجوم .

تم بعد ذلك توزيع الأعمال على القادة، فكانت واجباتهم كالتالي :

١ - (لغرور) وواجبه تنسيق التعاون بين مختلف زمر الهجوم، والاتصال مع « مصطفى بن بوالعيد » لنقل الأسلحة وتلقي التعليمات الأخيرة .

٢ - (اوغاد) وواجبه جمع الزمر في « عين سيلين » وتنظيمها، مساء السبت ٣٠/١٠/٥٤ وحتى ٣١/١٠/١٩٥٤ (وتقع عين سيلين بدورها على بعد خمسة كيلو مترات من خنشلة) .

٣ - (بن عباس) وواجبه الإشراف العام، والاتصال بالمجاهدين بصورة إفرادية لإعلامهم بالموقف وتكليفهم بواجباتهم، حيث كان لزاماً على كل واحد من هؤلاء التوجه بوسائله الخاصة إلى المكان المحدد للاجتماع .

٤ - (سليم بو بكر) وواجبه نقل بقية الأسلحة التي ستستخدم في الهجوم، والتي كانت مخزونة في منزله، وتضم بعض قطع الأسلحة والذخائر، وقنابل كوكتيل مولوتوف وقنابل حارقة ومواد طبية وألبسة وأطعمة[١].

---

(١) تم توزيع الزمر على الأهداف بإشراف هؤلاء المسؤولين الأربعة عن القيادة، فجاء التنظيم للعمل كالتالي:
١ - زمرة الإغارة على مركز الشرطة: وهي برئاسة « غزالي بن عباس » و« معاونه « صلاح أوغاد » ومعها عبد الكريم بنكوت وشعبان لغرور والشامي لارغات، وراشد لحمين، وحمودي عقابا.
٢ - زمرة الهجوم على المجمع المشترك: برئاسة « عباس لغرور » وتضم محمد شامي، وعبد القادر بورماده وقدور بورماده، ومحمد سمور، وإبراهيم بوعطيل، ومحمد ليموشي.

انصرفت كل زمرة من الزمر، بعد التوزيع وتحديد الأهداف، لمعاودة دراسة مهمتها مرات متتالية مع إجراء استطلاع دقيق للأهداف، ومحاور الاقتراب منها والوصول اليها. وكان مركز الشرطة هو أفضل مركز تمت دراسته، وكذلك المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ إذ كانت محاور الوصول اليهما سهلة بالنسبة للمنفذين الذين أتيحت لهم فرصة استطلاع الأهداف مرات عديدة قبل بدء الهجوم. وقد اشترك «لغرور» في كافة الاستعدادات. ونسق التعاون بين كافة الزمر بصورة دقيقة. ثم طلب الى «سليم بو بكر» عدم الاشتراك في الهجوم على «خنشلة» تنفيذاً لأوامر «مصطفى بن بو العيد»، التي نصت على إعفائه من مهمة قيادة زمرة من الفدائيين كان من المقرر لها الهجوم على المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ حيث يقيم المزارع الأوروبي الوحيد في منطقة الأوراس. وأمام هذا التعديل، تولى «لغرور» قيادة زمرة «سليم بو بكر» للاغارة على المجمع المشترك. وتم تعيين «عمور سعدي» ليحل محل لغرور في قيادة الهجوم على المعسكر. ثم حددت مهمة «سليم بو بكر» لتكون

➡

٣ ـ زمرة الإغارة على مركز الدرك: برئاسة «علي خشرور، وتضم علي غرياني، وربيع الأعور، ومحمد شاكر، وعمار حمام، وكامل مخلوفي، وعلي حفتاري.

٤ ـ زمرة الهجوم على الثكنة العسكرية: برئاسة «عمور سعدي»، وتضم مسعد ناصر صوفي، وعبد الحميد زيروالي، والحسين مارير، وادجال، وفرحات عريف، وحسين عريف، وعمر زايدي، وسليمان زايدي، ورمضان بن زيدان، وعبد الرحمن نواصرية، ومحمد بوهلالا، وصلاح حفتري، وأحمد زايدي.

٥ ـ زمرة قطع الأسلاك الهاتفية، وتدمير مركز التحويل الكهربائي، وتتكون من: إبراهيم عثماني الملقب بالتيجاني، يعاونه كيلاني لارغات.

على النحو التالي : **« البقاء في القاعدة الخلفية مع اثنين من الأخوة المجاهدين. بمهمة اتخاذ الاجراءات الضرورية لمتابعة تنفيذ العمل في حال تعرض جميع الذين يقومون بالهجوم على « خنشلة » للقتل. وعليه الاحتفاظ بكافة الوثائق والوسائط المادية من أجل إكمال المهمة. وبعد ذلك، يتوجه من بقي على قيد الحياة إلى « دوار يابوس » وهو الذي كان يحمل اسم ـ لهريج ـ حيث تلتقي كافة زمر المجاهدين العاملين في خنشلة ـ وتكون هذه النقطة أول نقطة تجمع ـ ازدلاق ـ قبل الانسحاب للقواعد الخلفية »** .

كان من المقرر دعم زمر التنفيذ في الهجوم على خنشلة، بعشرين رجلاً مسلحاً من « دواريابوس » ممن كان بعضهم قد انضم لتنظيم الثوار منذ وقت طويل، وكان يجب أن يتولى قيادة هؤلاء « مسعود معاشي » وهو ثائر قديم ومن رفاق « غرين بلقاسم »، بالإضافة إلى « موسى الرضى » ـ الذي لم يلتحق ابداً بالثورة ـ . ولهذا السبب نقص عدد المنفذين من ستين رجلاً الى أربعين رجلاً. ومقابل ذلك، تلقى المجاهدون في لخنشلة بعض الدعم في الأسبوعين الأخيرين اللذين سبقا اندلاع الثورة، وذلك بانضمام بعض المقاتلين إليهم (الزمرة الثانية من كتيبة المدفعية الرابعة). غير أن ذلك حذر الإفرنسيين الذين اتخذوا إجراءات أمن جديدة : مثل إقامة الحواجز من قبل رجال الدرك ـ الجندرمة ـ وتفتيش العربات والمركبات بدقة، والتأكد من هوية المسافرين على الطرقات .

أصدرت قيادة الثورة تعليماتها الأخيرة، وطلبت الى « لغرور » الاتصال مع « بن بـولعيـد » في الأوراس، للحصول على أسلحة

إضافية، إذ كانت الأسلحة المتوافرة للمهاجرين في خنشلة غير كافية للقيام بهجوم واسع النطاق. وفي يوم الأحد، ٣١ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ كان على « سليم بو بكر » نقل الأسلحة والذخائر المخزونة في منزله، وإخراجها إلى ظاهر المدينة. وتصادف في هذا اليوم حدوث مباراة بكرة القدم بين فريق من « قسنطينة » وفريق محلي من « خنشلة » وكانت السلطات الإفرنسية على حذر، فدعمت جهاز الشرطة في الملعب. غير أن سليم بو بكر، وجد في ذلك فرصة مناسبة لتنفيذ المهمة، والوصول بالأسلحة إلى « النبع الدافىء » وهو المكان المحدد للالتقاء مع المنفذين المجاهدين (على بعد ٧ كيلو مترات من خنشلة) وأمكن تنفيذ هذه المهمة بنجاح، وبعد ذلك، تركزت مراقبة الثوار على ما كان يحدث في المدينة.

لقد انتهت المباراة الكبرى بكرة القدم، والتي أثارت في المدينة صخباً كثيراً. وانصرف الناس بعدها إلى المقاهي ـ كعادتهم ـ وكان الوضع في الساعة ٢١٣٠ طبيعياً جداً. لقد سارت الأمور ـ حتى الآن ـ على خير ما يرام. وها هم رجال الشرطة والدرك من الافرنسيين يتجولون كعادتهم، وقد ارتدت المدينة ثياب العيد ـ عيد جميع القديسين ـ. وليس هناك من يشعر بوجود هؤلاء الذين يراقبون بيقظة كل ما يجري في المدينة. ثم غادرت زمرة المراقبين خنشلة متجهة الى ما وراء الحديقة العامة، حيث كان « بن عباس » يحفر الأرض ليدفن فيها أنبوباً معدنياً يحمل لغماً متفجراً ـ حشوة مستطيلة ـ كان قد أحضره معه لاستخدامه في تدمير الباب المعدني للمحول الكهربائي. ووصلت زمرة المراقبين بعد ذلك مباشرة الى الغابة الواقعة على بعد خمسة كيلو مترات من المدينة.

وهنا أوقفهم رجل مسلح كان يرتدي ثيابه العسكرية، وصرخ فيهم (خالد) وأجابه رئيس زمرة المراقبة (عقبة). لقد كانت كلمة (خالد ـ عقبة) تتردد الآن في كل انحاء الجزائر. فتعمل عمل السحر في نفوس المجاهدين وتضمن تعارف بعضهم على بعض.

وصلت زمرة المراقبين إلى مكان الاجتماع، في الوقت المحدد بدقة، وشاركت المنفذين استعداداتهم حيث كان بعضهم على وشك ارتداء الثياب العسكرية، في حين كان آخرون يختبرون أسلحتهم للمرة الأخيرة. وكانوا جميعاً يتيهون فخاراً بما يفعلون.

وبعد ذلك تجمع المنفذون كلهم، ومعهم أسلحتهم ووسائطهم القتالية. ووصل « لغرور » في الساعة ٢٢٤٠ وهو يحمل سلاحه، ويرتدي ثياب الميدان. وانتظر الجميع وصول العشرين ـ أوراسي ـ الذين كان يجب التحاقهم، وانطلق المجاهدون للبحث عنهم في الغابة كلها، مستخدمين في بحثهم الشارات الضوئية يطلقونها من مصابيحهم اليدوية، غير أن جهود البحث ضاعت سدى، ولم يظهر أي أثر للأوراسيين. ووقف « لغرور » عندها ليقول لرجاله :

« إخوتي المجاهدين الأعزاء !

ها نحن قد أدركنا يوم الثورة العظيم الذي يجب أن يقود الجزائر إلى الاستقلال، إن علينا القيام بالهجوم على الأهداف كلها، وذلك على الرغم من عدم وصول الأسلحة التي كان من المفروض لها أن تصلنا مع زمرة العشرين رجلاً من دوار يابوس.

وعلى كل واحد منا بذل قصارى جهده لضمان النجاح على أفضل صورة ممكنة. إنني أعرف بأننا سنجابه العدو وأيدينا فارغة عملياً. وليس لدينا إلا الإيمان الذي يعمر قلوبنا. غير أن ما نعتمد عليه في هذه الليلة التاريخية هو إشعال الفتيل المفجر للثورة. وإنني على ثقة تامة بأن الشعب الجزائري بكامله، سيتبع مسيرتنا على هذا الدرب. ويحمل كل فرد منا في شخصه الآن، وفي هذه اللحظة بالذات قسماً كبيراً من المسؤولية عن نجاح الهجوم ضد الأهداف المحددة. وجمع الأسلحة المتوافرة لدى العدو. إنني أثق بكم وبشجاعتكم وتصميمكم. انطلقوا، واضربوا العدو بقوة، ودون أدنى رحمة أو شفقة. وعودوا ظافرين. ذلك لأن الله مع المجاهدين، ومع القضية العادلة. الله أكبر! ».

ما إن فرغ «لغرور» من إلقاء كلمته المثيرة والصادقة، حتى أصدر أمره الى الرمرة المكلفة بقطع الاتصالات الهاتفية وعزل المدينة بالتوجه الى «خنشلة». ثم تبعتها الزمرة المكلفة بالصاق بياني جبهة التحرير وجيش التحرير على كل منازل خنشلة. وتتابع انطلاق الزمر إلى أهدافها، ولم تبق إلا زمرة من ثلاثة رجال واجبها حماية قاعدة الانطلاق. ووصلت إلى أسماع أفراد هذه الزمرة في الساعة (١١) من صباح الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر - أصوات الانفجارات الاولى. لقد انطلقت شرارة الثورة. وأثناء ذلك، كان أفراد هذه الزمرة يعملون على نقل ما لديهم من الاعتدة والتجهيزات، حتى اذا ما أزفت الساعة الثانية صباحاً، بدأ المجاهدون المغاوير بالعودة إلى قاعدة تجمعهم، واحداً بعد

الآخر، إلى أن وصل الجميع، وبينهم اثنان أصيبا بجراح غير خطرة. وأثار النجاح الذي حققته زمر التنفيذ موجة من الفرح الغامر الذي شمل الجميع. ولكن «لغرور» تخلف عن اللحاق بنقطة التجمع، وأخذت حماسة المجاهدين بالفتور، فقرروا الانتقال من مركزهم. وفي النهاية، وصل «لغرور» مع الخيوط الأولى للفجر، وابتسامة السعادة تغمر وجهه. كانت فرحة الجميع لا توصف، وفخرهم لاشتراكهم بتفجير الثورة لا يضاهيه فخر ولا ينافسه زهو واعتزاز. وانطلق الجميع بعد ذلك وهم يخترقون غابات الأوراس، للبدء بمرحلة جديدة من التنظيم والعمل.

صادف المجاهدون، أول ما صادفوه في طريقهم، رجلاً يحتطب في الغابة، وهو يغني، واقترب منه الرجال المقاتلون، وبادروه بقوله : (السلام عليكم) وأجابهم (وعليكم السلام). وخاطبه أحد المجاهدين بقوله : (لن يزعجك الإفرنسيون بعد اليوم). وسألهم الحطاب ببساطة : (ولكن من أنتم؟) وجاءته الإجابة : (نحن محررو البلاد). فقال لهم الحطاب مستغرباً : (إنني لا أفهم شيئاً، وماذا تعني كلمة محرري البلاد؟ إنكم جزائريون، وزيادة على ذلك فأنتم تحملون السلاح!) وجاءته مرة أخرى الإجابة : (نحن مجاهدون. نقاتل حتى يصبح بإمكانك العيش حياة أفضل) وعاد الحطاب للتساؤل : (وكيف تكون الحياة الأفضل؟) عند ذلك راح احد المجاهدين يشرح للحطاب الفلاح - ولآلاف الفلاحين من بعد ذلك - الأسباب التي دفعت المجاهدين لحمل السلاح، وأهدافهم من ذلك، وما يطمحون لتحقيقه. وأشرق وجه الفلاح بسعادة غامرة، فدعا المجاهدين

لمشاركته طعامه البسيط .

تلقت الهيبة الاستعمارية لطمة مذهلة لم تكن تتوقعها، سواء في قوة هذه اللطمة أو اتساعها، وما أن أشرقت شمس صبيحة انفجار الثورة، حتى انطلقت السلطات الاستعمارية للانتقام، فاعتقلت مئات وآلاف المسلمين الجزائريين، وقذفت بهم في ظلمات المعتقلات وغياهب السجون. وكان من بين المعتقلين بعض أقارب وأهل الذين قاموا بالهجوم على «خنشلة» وتم إطلاق سراح بعض المعتقلين بعد تعذيبهم واستجوابهم. في حين بقي الآخرون وراء قضبان المعتقلات. وفرضت الإقامة الاجبارية في معسكرات الاعتقال على عدد كبير من المواطنين. ووقعت نساء بعض المجاهدين في قبضة السلطات الاستعمارية، فقذفت بهن في السجون، حيث تعرضن لسوء المعاملة والتعذيب لمدد طويلة. وقد يكون من المناسب هنا استعراض مسيرة الاغارات في خنشلة، وما تم حدوثه خلال التنفيذ.

١ ـ الإغارة على المحول الكهربائي وشبكة الاتصال الهاتفي :

قام بتنفيذ المهمة « ابراهيم عثماني ـ التيجاني » ومعه « الأرقط كيلاني ». وبدأت العملية عندما قطع إبراهيم عثماني الأسلاك الهاتفية التي تصل خنشلة بكل من عين البيضاء وبطنة، وكانت هناك زمرة تقوم باشغال الدرك ـ الجندرمة ـ وحماية المنفذين، واستخدمت حشوة مستطيلة بعد ذلك لتدمير الباب المعدني الذي يحمي مدخل « المحول الكهربائي ». كما استخدم مقص معدني للتعامل مع القاطع الكهربائي الرئيسي. مما ساعد على قطع التيار الكهربائي عن المدينة كلها، فباتت تسبح في ظلام دامس. وتم بعدئذ وضع الشحنات المتفجرة والقنابل، وأشعل الفتيل البطيء،

وتطاير البناء بكامله في الفضاء. وكان إطفاء النور في المدينة هو شارة بدء التنفيذ بالنسبة لزمر الهجوم الأخرى. وكانت النتيجة تدمير المحول الكهربائي وإلحاق أضرار كبيرة بالمنشآت والتجهيزات.

٢ ـ **الإغارة على مركز الدرك ـ الجندرمة ـ** كان مركز الدرك قد تلقى إنذاراً من قيادته باحتمال قيام بعض المسلحين بالهجوم على المركز الذي عمل على استنفار عناصره. وهكذا فقد بدأت العملية بتبادل إطلاق النار بين المجاهدين ورجال الدرك الذين أطلقوا كلابهم البوليسية. غير أنه تم تنفيذ المهمة، وانسحب المجاهدون ولما يصب أحد منهم بأذى.

٣ ـ **الإغارة على مركز الشرطة ـ البوليس ـ** . أفاد «بن عباس» من الظلمة الحالكة، فتسلق الحاجز الشبكي المحيط بالمركز. وأخذت بقية عناصر الإغارة مواقعها المحددة لها داخل المركز، واقتحم رئيس الزمرة «بن عباس» باب مكتب الشرطة، حيث كان يرقد الشرطي المناوب. وصرخ.. بن عباس بالشرطي: قف، وسلم سلاحك. فقال الشرطي: ولكن ما الأمر؟ وماذا يحدث؟ وأجابه: «بن عباس» بقوله: نحن جند جيش التحرير الوطني، نبحث عن السلاح، أين هم بقية رجال المركز؟ وأجاب الشرطي المناوب: إنهم يقومون بأعمال الدورية في المدينة. وأشار الشرطي إلى المجاهدين نحو مكان البنادق التي كانت مرتبطة بعضها ببعض بواسطة سلسلة معدنية غليظة تنتهي بقفل. وبعد أن تم قطع السلسلة تبين أن البواريد هي من الأنواع القديمة والتي لا تصلح للقتال. فقذف بها المجاهدون في ساحة

المركز. وأثناء ذلك كان « بن عباس » يتابع مع الشرطي المناوب، فقال له : إن جيش التحرير الوطني قد بدأ منذ هذه اللحظة بخوض صراع مسلح هدفه تحرير البلاد. وليست العمليات هنا معزولة أو مستقلة عن العمليات الأخرى. فالجزائر كلها تشهد في هذه اللحظة عمليات مماثلة. ثم أصدر « بن عباس » أمره إلى رجاله بوضع الشرطي في زنزانة السجن.

ومضت عشر دقائق قبل أن يظهر رجلان من الشرطة ما أن دخلا المركز حتى قال أحدهما: ماذا يجري ؟ لقد ترددت أصوات إطلاق الرصاص في المدينة التي أصبحت مظلمة بسبب انقطاع التيار، فماذا يحدث ؟ وعندها وجه « بن عباس » ضوء مصباحه اليدوي، فبهر عيون الشرطيين، وقال لهما بلهجته الحازمة: تقدما وارفعا أيديكما عالياً. لا تتحركا أبداً، وسلما سلاحكما !... وأصيب الشرطيان بذهول المباغتة، غير أنهما ترددا لحظة قصيرة في اطاعة الأمر. وعندها قفز « اوغاد » فصرع الأول بضربة من عقب بندقيته، وطعن الثاني بضربة مدية.

لقد كان « صلاح أوغاد » رياضياً هاوياً، مصارعاً، ومحباً لقراءة الروايات الرومانسية، والكتب البوليسية، مغامراً ومندفعاً حتى التهور عندما يكون الأمر متعلقاً بمقاومة الافرنسيين. لقد نشأ يتيماً، واحتمل منذ نعومة أظافره مسؤولية إطعام عائلته وتأمين متطلباتها الحياتية. غير أن ذلك لم يمنعه من متابعة دراسته، فكان يعمل في الليل لتشغيل أجهزة عرض الأفلام في دور الصور المتحركة - السينما - ويتابع تعلمه في النهار، وكان يقوم بدعوة اخوانه ورفاقه الى السينما في كل مناسبة يتم فيها عرض فيلم ثوري

مثل : (فيفازاباتا) أو (بانكوليبرتا) والتي تمثل وقائعها تلك الحركات الثورية التي عرفتها بلدان أمريكا الجنوبية في القرن التاسع عشر[1]

ألقى الثوار بالشرطيين في الزنزانة، إلى جانب زميلهما الذي سبقهما، ووصل شرطي رابع، فتمت السيطرة عليه بسرعة، وجرد من سلاحه، ليلحق بدوره أيضاً بمن سبقوه الى الزنزانة.

وفي هذه اللحظة، رن جرس الهاتف في مكتب مدير المركز، إذن فالشبكة الداخلية للهاتف لا زالت عاملة ولم تقطع اتصالاتها بعد. ورفع (بن عباس) السماعة، والتقط الصوت الذي حمل له الكلمات التالية : الو ! هنا مدير الشرطة، نحن مطوقون، ونتعرض لهجوم رجال مسلحين، ابذلوا ما تستطيعونه لانقاذنا وأخبر فوراً السيد المفتش - الكوميسير - بالوضع. وأجابه (بن عباس) بقوله : هنا أيضاً، نحن الذين نمسك بالمبادأة. وسأل متحدث الشرطة : ولكن من أنتم ؟ وأجابه بن عباس : نحن جند جيش التحرير الوطني، جئنا ننتزع حقوقنا بقوة السلاح. واجتاحت (بن عباس) موجة من الغضب، فقذف بالهاتف ودمره. وحمل أفراد الزمرة المسدسات الأربعة التي انتزعوها من رجال الشرطة. وحملوا أحد المجاهدين بسبب إصابته بجرح في

---

(١) كلف صلاح اوغاد بمرافقة بن عباس بعد ذلك للالتحاق بأحد مراكز تدريب المقاتلين الجزائريين التي أقيمت في البلاد العربية. ليعودا بعدها إلى عنابة بمهمة مرافقة زورق كان من المقرر له أن ينقلها إلى الشرق (ومن المحتمل إلى جزيرة آثوس اليونانية). ولكن السلطات الافرنسية استولت على زورق الأسلحة، وصادرت ما يحمله، في تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٦. وكان الزورق يحمل عند الاستيلاء عليه في (وهران) ذخائر وأسلحة وأعتدة مرسلة إلى جيش التحرير الوطني الجزائري.

فخذه. وانسحبوا بسرعة من مركز الشرطة، والتحقوا بمركز التجمع.

٤ ـ الإغارة على المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ. كانت الظلمة حالكة السواد عندما قفز (شامي) من فوق بوابة المجمع المشترك، وتبعته زمرة المجاهدين، إلى داخل المناطق السكنية. وتكفل (لغرور) بالفارسين اللذين كانا يحرسان البرج، واصدر إليهما الأمر عبر الباب بقوله : اقتربا ! إننا لن نلحق بكما ضرراً أو أذى. ألقيا أسلحتكما من النافذة وسلماها إلينا. إننا مسلمون جزائريون نريد تحرير البلاد من الاستعمار الإفرنسي. ولكن في هذه اللحظة، ظهر مدير المجمع على الشرفة وأخذ في الصراخ: يا عسس ! يا عسس ! دافعوا عني، إنهم يريدون قتلي. من هم هؤلاء الرجال الذين يقفون في الساحة ؟ ورداً على الصراخ، أخذت مجموعة من المجاهدين في إنشاد نشيد وطني بصوت مرتفع. وتكرر بلا انقطاع : الجهاد ـ الله أكبر واختلطت مشاعر الفزع بحمى الجنون لدى المدير عند سماعه ذلك، على ما يظهر، فعاد للصراخ طالباً نجدة الحرسين الفارسين : يا عسس ! يا عسس ! دافعوا عني، إنهم يريدون قتلي وقتل عائلتي ـ ومضى المدير في إطلاق نار مسدس رشاش كان يحمله، على ما يتراءى له من ظلال المجاهدين. وعندما تكرر طلبه ـ بالنجدة ـ أجابه الفارسان : لا نستطيع أن نفعل شيئاً، بعد أن سدت المنافذ علينا ونحن في داخل المحرس. فرد عليهم المدير بقوله ـ وهو يتابع الرمي ـ: يا عسس، ارموهم بالنيران، لا تتركوهم ينفذون ما يريدون. وعندها حاول الفارسان تلقيم سلاحهما وهما داخل

المحرس، وما أن سمع (لغرور) صوت المغلاق في الداخل، حتى تدخل، فأغرقهما بالنيران التي أطلقها عليهما عبر النافذة، وسقط أحدهما مصاباً بجراح خطرة. وكان المجاهدون أثناء ذلك يشعلون النار في المكاتب، وهم يرددون شعارهم دونما توقف: الجهاد ـ الله أكبر ! واستمر تبادل إطلاق النار مع المدير لمدة عشرين دقيقة، أوقفت زمرة الاغارة بعدها الاشتباك، وانسحب أفرادها إلى الغابة المجاورة.

٥ ـ الهجوم على الثكنة العسكرية : تقرب المجاهدون في ظلمة الليل، ووصلوا بدون عناء إلى حارس الثكنة، وقتلوه. واحتل أحد المجاهدين مكانه. ومضت فترة قصيرة بعدها وأخذت الحشوات المتفجرة بالانفجار على امتداد الجدار المحيط بالثكنة العسكرية. وانهمرت القنابل، واشتعلت النار بالاسطبلات نتيجة استخدام القنابل الحارقة، وعندما وصلت النيران إلى الخيول، أخذت هذه في الصهيل المذعور وهي تمزق صمت الليل. وهب الجنود الإفرنسيون من مهاجعهم مذعورين. وتوجه اللواء (كانوا) قائد الثكنة الى المحرس، فوجد الخفير مقتولاً. ومضت فترة الذهول التي أعقبت المباغتة، وأخذ الجند بالتجمع في ساحة الثكنة. وبدأوا باطلاق نيران رشاشاتهم على المجاهدين الذين كانوا يحتمون بجدران أبنية الثكنة، وأعقب ذلك فترة قصيرة من الهدوء والتهدئة. ثم انطلق الجند الافرنسيون في تحركهم وسط اضطراب ظاهر عبرت عنه الأوامر المتناقضة والتعليمات المتضاربة التي كانت تصدر من كل مكان في الثكنة.

وكان المجاهدون يستمعون صراخ أعدائهم : « اشعلوا النور ! النور مطفأ، لقد دمروه ! إدفعوا المدافع الرشاشة والمصفحات نحو

الأمام ! انتبهوا واحذروا، انهم مسلحون ! فليبق كل فرد في مكانه ! » وفي هذه اللحظة، ظهر الملازم الأول « جيراردارنو » قائد فصيلة الصبايحيه ـ السباهيين ـ الجزائريين في خنشلة. ولم يكن من عادة « جيرار » النوم في الثكنة، إذ كان يقيم مع فرسانه في بناء مجاور ـ مقابل ـ ويظهر أنه أراد الالتحاق بمركز فصيلته، فتوجه إلى باب الثكنة الذي كان يحتله المجاهدون. وعندما وصله، قال: انتبهوا، لا تطلقوا النار، أنا قائد المركز الملازم جيرار، ماذا يحدث هنا حتى تطلقوا النار. ولم يرد عليه أحد. فتقدم حذراً حتى عاجلته رصاصة أطلقها عليه أحد المجاهدين من مسدسه فأرداه قتيلاً على الفور. وانسحب المجاهدون بعد أن نفذوا مهمتهم بنجاح رائع، وبدون أن يصاب أحد منهم بأذى.

ج ـ لهيب الثورة في أريس[١]

بدأ العمل السياسي والعسكري للثورة في أريس، طوال الفترة من سنة ١٩٥١ وحتى سنة ١٩٥٤. ففي سنة ١٩٥١، وفي أعقاب الاضطرابات التي سببها احتلال مكاتب الانتخابات ـ الاقتراع ـ وتدمير صناديق الانتخابات، وقتل كان في خدمة الادارة الافرنسية. قامت الادارة المشتركة للمجمع في (أريس) بعملية قمع واسعة في (دوار كامل). وتمركزت قوة من الحرس المتحرك

---

(١) RECITS DE FEU (S.N.E.D.) MOHAMED CHAMRI« P.P. 30«36

مدعمة بخمسة وستين رجلاً من الجزائريين (القوم)[1] في مشتى تيجين. وبدأت من هناك عملياتها القمعية. وكان ذلك بـداية الهيجان. فقد كان المواطنون جميعهم يعارضون إقامة هذه القوة بينهم. وانضم عدد كبير من الأفراد إلى قوات المقاومة السرية ـ الماكي ـ وأصبحوا في تعريف السلطة الافرنسية (خارجين على القانون) .

لقد كانت فترة مناسبة لعمل أعضاء التنظيم السري الذين كانوا قد أفلتوا من الاعتقال في كل مدن الجزائر. وأخذوا في العمل في وسط الفلاحين، وشرعوا في تنظيم الخلايا المستقلة. وكان أفراد هذه الخلايا يحملون تطلعات جديـدة تتوافق مـع طبيعتهم الفروسية وأفكارهم الاستقلالية. وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء كانوا من الأميين، إلا أن العناصر الوطنية التي لم يتعبها الجهاد، نجحت في صهرهم وتكوين نظرياتهم وأفكارهم بمفاهيم اجتماعية تملأ عليهم ما كانوا يعانونه من قصور المعرفة، وتستجيب لطموحهم في الاستقلال والحرية .

هكذا ! ومن خلال حب الوطن، ولدت هنا خلايا سرية كثيرة، لا يعرف بعضها بعضاً، وأصبحت هذه الخلايا العاملة بصمت، والملتزمة بقواعد الانضباط الصارم، وهي تغطي صفحة الأوراس بكاملها. وكان الفلاحون يتلقون خلال فترة الإعداد

---

(١) القوم (GOUME) كان الافرنسيون يقصدون بها عرب افريقيا. وكان للكلمة معناها الخاص في الجزائر، حيث كانت وحدة (القوم) وهي الوحدة العسكرية الجزائرية التي تعمل ـ غالباً ـ تحت قيادة قائد افرنسي، بمهمة أساسية هي الاستطلاع وجمع المعلومات وتوجيه القوات الرئيسية (الرائدة).

العسكري ما هو ضروري من توجيهات خلقية وسياسية، إلى جانب الإعداد النفسي، وفقاً لكل قواعد السرية ومبادىء الأمن والحيطة التي أمر بها القرآن الكريم. وبدأ التحول في مواقف هؤلاء الرجال الذين يعيشون حياتهم بعيداً عن المدينة، وهم معزولون في وسط عدائي يتربص بهم، وفوق أرض جدباء مقفرة تقريباً. ولم يكن حدوث هذا التحول ممكناً لولا تلك الجهود الجبارة التي بذلها رجال (المنظمة السرية ـ الشرف العسكري) . فتراجعت بنتيجة ذلك النزاعات العدوانية ـ غير الهادفة ـ . وأخذ الرجال في السيطرة على أنفسهم، والتحكم بانفعالاتهم السلبية .

ولم تمض أكثر من فترة قصيرة حتى توافرت للرجال الثائرين القدرة على العمل بفاعلية وقوة ضد كل قوة مهما كان رصيدها المادي قوياً، ومهما كان نوع التسلح الحديث الذي تمتلكه. ولم يكن ذلك إلا بفضل ما اكتسبه هؤلاء الفلاحون الموصوفون من قبل الاستعماريين (بالخارجين على القانون) من معرفة سياسية جيدة، وتدريب مستمر ومنظم دعم من روحهم المعنوية العالية، وزاد من ثقتهم بأنفسهم. لقد ولد ا عمالقة من جديد، ولكنهم عمالقة فيهم كل صفات النبل والطيبة، يعملون في السر من أجل تطوير تنظيمهم الجديد، واحترام قواعده وأسسه، والالتزام بمبادئه وأهدافه .

لقد عاد (مصطفى بن بولعيد) إلى الجزائر من جديد في العام ١٩٥٤، ومعه (بشير شيحاني) وتم اتخاذ قرار في (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) يقضي بمتابعة التدريب وتطوير الاستعداد. وتم تعيين (عجول) الذي كان يستقر في (وادي

سرحا) للاضطلاع بمسؤولية القيادة العسكرية. فكان عليه توجيه التدريب العسكري، والحصول على الأسلحة والتجهيزات وتخزينها. وأصبح التدريب منتظماً ومستمراً تقريباً. وكان معظم (الخارجين على القانون) في هذه المنطقة هم من الذين هربوا من الجيش الافرنسي، فكانت لديهم معرفة أكثر من سواهم ممن التحقوا حديثاً في صفوف المجاهدين - في مجال التعامل مع الأسلحة. وانصرف (غرين بلقاسم) وآخرون لممارسة أعمالهم السرية، والاضطلاع بأدوارهم بثقة وتفاؤل.

شملت عملية تدريب الثوار (الماكي) كل ما هو ضروري لتأهيلهم من أجل احتمال المصاعب مثل : السير الطويل، والأعمال القتالية، وحتى التدريب على التحكم بالانفعالات والعواطف، وتركز التدريب على منح الرجال الفرصة لاستخدام خيالهم المبدع من أجل اتخاذ القرارات الصحيحة، وإظهار روح الأخوة والاستعداد للتضحية.

وأصبح الرجال بعد ثلاثة أشهر من التدريب تقريباً - وهم على استعداد لتنفيذ أية مهمة قتالية. ونظراً لاقتراب موعد تفجير الثورة (يوم - ي) فقد تم توزيع الرجال على منطقتي عمل، الأولى وتشمل : أشمول، والأحمر خدو، وزيلاتو، وبسكرة. أما الثانية فتشمل : الشليا، ووادي فم الطوب، ومروانا، وبطنه، وباريكا. وانصرف رجال المنطقة الثانية للتجمع على حدود (فم الطوب) حيث الوادي الخصب الذي تنتشر فوقه المستوطنات، وأخذوا في العمل تحت قيادة (غرين بلقاسم ولغرور عباس). أما رجال المنطقة الأولى، فقد تسللوا خفية في الليل إلى (الطيبي كاوين) و(ضهرات ولد موسى) بالقرب من

(الحجاج) وليس بعيداً عن (أريس) حيث المركز الرئيسي للمجمع المشترك في (الأوراس). واحتل هؤلاء منزل (علي بن شيبا) الذي يضم إحدى عشرة غرفة، انتشر فيها المجاهدون، وحرم عليهم أي اتصال أو التعريف بأنفسهم أو مغادرة المنزل. واستقر الجميع هنا ثلاثة أيام، تلقوا خلالها محاضرات عن قتال الثوار (المغاوير) ونظفوا أسلحتهم، وتفقدوها، وتدربوا على استخدام الألغام والمتفجرات والأجهزة اللاسلكية.

وفي يوم ٣٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ وصل مبعوثان من قبل (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) واتصلا بالزعيمين (مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني) وأبلغاهما آخر التعليمات. لقد أصبحت «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» تثق ثقة تامة بالكفاءة القتالية المتوافرة في وسط الشعب الجزائري، قدر ثقتها بنضجه الثوري ـ الفكري ـ ومعرفته بالطريق المؤدي الى الحل الحاسم. فأصدرت أوامرها التي كان ينتظرها رجال الأوراس بصبر نافذ.

إذا ضم تاريخ الجزائر يوماً له أهميته الخاصة، فذلك هو يوم ٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٥٤؛ ذلك لأن هذا اليوم هو الذي تم فيه اتخاذ أخطر القرارات التاريخية ـ يقيناً ـ وهي القرارات التي ستزج الشعب الجزائري كله في حرب ضروس لا يستطيع أحد ـ في ذلك التاريخ ـ معرفة مدتها أو مدى اتساعها. وفي ذلك اليوم، خرجت الأسلحة والذخائر من مخابئها في الكهوف ومن مدافنها تحت التراب، لتحسد بعضها بعضاً على ما ستقوم به من الأعمال.

وهكـذا، وبينما كـان بعض الرجـال يتسلمـون أسلحتهم، والحماسة تهز كيانهم، كان هناك آخرون واجبهم مرافقة ونقل (٦٠) بارودة و (٢٠٠) كيلو غرام من الذخائر بواسطة شاحنة استأجرها لهم (بو شمال) لتصل هذه الإرسالية في المساء إلى منطقة القبائل، ويتسلمها الرجال الشجعان في هذا الاقليم، ممن كانوا يستعدون بدورهم للعمل (من أمثال عميروش). واعتباراً من تلك اللحظة، سيأخذ المجتمعون في (الطيبي كاوين) و(ضهرات ولدموسى) و (فم الطوب) كـل ملامـح المستقبل وفضائله. ولم يكن من السهل أبداً تجميع مثل هؤلاء الرجال الذين طالما مزقتهم السياسة الاستعمارية، ورجالها من الحكام الإداريين، وطالما فرقت بينهم القيادات والزعامات، لولا الاعتماد على أصالة الجزائر الثورية، وقاعدتها الدينية الصلبة التي توحد ولا تفرق، تجمع ولا تبدد. ولحسن الحظ أن توافر للثورة رجـال يمتلكون من الارادة الصلبة ما يزيد على كل الصعاب والعقبات، من أمثال (مصطفى بن بو لعيـد وبشير شيحاني وعجول وبللا ولغرور عباس وبوستة) ممن يعود لهم دونما ريب فضل توحيد الجهود وتوجيه الطاقات نحو هدف التحرير. وقد كان نجاحهم رائعاً في الأوراس إذ استطاعوا إقناع رجال المنطقـة الأشداء بتوجهاتهم وأهدافهم، وحملهم على الاضطلاع بدورهـم التاريخي .

قسم الرجال الذين جمعوا عند (الحجاج) وعددهم (٢٧٠) رجلًا إلى مجموعات وزمر يتولى قيادة كـل واحدة منهـا قائـد مسؤول. وغالباً ما كان يتم الاضطلاع بدور القيادة طوعاً من قبل

الرجال الثوار[1] وتلقى الجميع التعليمات النهائية، وأصبحوا وهم يعرفون أهدافهم جيداً. وضبطوا ساعاتهم على ساعة الصفر (س). وأخذوا في مغادرة (ضهرات ولدموسى) بعضهم يستخدمون الشاحنات، وبعضهم السيارات الصغيرة، أما الباقون ففضلوا التوجه سيراً على الأقدام. هذا في حين كان رجال (بلقاسم) ينطلقون بصمت وجرأة في اتجاه بطنة ومروانا. وفي الساعة ذاتها كان رجال (عباس لغرور) يبتعدون عن حمام الصالحين في اتجاه (خنشلة). وما أن غربت شمس يوم ٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ حتى كان هناك أكثر من ستمائة مقاتل قد انطلقوا للاغارة على الحاميات العسكرية ومراكز الشرطة والأبراج، وكانت كلمات السر والاجابة: (خالد - عقبة) تتردد في كل مكان لتمزق سكون الليل، ولتثير حماسة المقاتلين. وكانت مجموعة (أشمول) قد أخذت في إقامة السدود الأولى من الحجارة على الطرقات، وذلك لقطع كل محاور الاتصالات. هذا فيما كانت الشاحنات والمركبات تتحرك في اتجاه (بسكرة وبطنة)

---

(١) كان الرجال الذين تم اختيارهم للقيادة هم: ١ ـ أحمد نواوره لقيادة المغاوير ـ الكوماندو ـ في أريس. ٢ ـ عباس لغرور لقيادة المغاوير في خنشله. ٣ ـ غرين بلقاسم لقيادة المغاوير في بطنه ومروانا. ٤ ـ حسين بن رحيل لقيادة المغاوير في بسكره ٥ ـ طاهر نويشي لقيادة المغاوير في عين القصر. ٦ ـ أما الأشخاص الذين أسندت اليهم مهمة توجيه زمر المغاوير في المراكز المدنية، فكانوا:

ـ رشيد بوشمال لعمليات مدينة بطنة. ـ طيب خراز للعمليات في مدينة بسكرة. وبقي هناك رجال واجبهم الاضطلاع بمسؤولية متابعة العمليات، وتوسيع مجالاتها وآفاقها في كل اتجاهات مسارح العمليات (انطلاقاً من مبدأ تفشي بقعة الزيت) ومنهم (سي مكي) لتوجيه ثوار تكوت. و(سي محمد ناجي) لتوجيه ثوار فم الطوب و(سي عبد الوهاب عسوفي) لتوجيه ثوار شرق الميزاب. و(سي محمد قنطرة) لتوجيه ثوار باريكا.

لتصل في موعدها المحدد بدقة، ولتقوم بتنفيذ عملياتها على النحو التالي :

في بسكرة : خرج الفدائيون المغاوير من دار الحجاج بقيادة حسين بن رحيل، ووصلوا في اليوم ذاته إلى بسكرة، وفي الساعة التي كان فيها المواطنون المسلمون يغلقون نوافذ شرفات منازلهم، ويحكمون إيصادها بالقضبان الحديدية. أما المدينة الأوروبية فكانت تتألق بأنوار المصابيح فيما كانت الأحياء العربية غارقة في ظلام حالك. وكانت أجراس الكنائس والأديرة تقرع داعية الأوروبيين للصلاة، وانطلق المغاوير لتنفيذ أوامر « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » بضرب النقطة الحساسة في الجهاز العصبي للعدو والمتمثل بثكنة (سان جرمان) التي كان يقيم فيها لواء (الرماة السنغاليين). وانطلقت النيران، وأصيب حارس مدخل الثكنة بجراح. كما أصيب المفتش ـ الكوميسير ـ وهو برتبة لواء برصاصة في فخذه. وألقيت قنبلة حارقة على مركز النجارة، فأشعلت فيه النيران، وانسحب رجال جيش التحرير الوطني بسرعة مخلفين وراءهم الفوضى والدمار. وتوقفت أجراس الكنائس عن الرنين .

وفي بطنة : تميز البناء في المدينة بقوته وشدة تحصينه حتى كأنه قلعة منيعة من تلك القلاع التي كانت تقام أيام الرومانيين في وسط تجمعات السكان الوطنيين ـ وكان هذا البناء الضخم يضم مجموعة من الثكنات العسكرية التي أطلقوا عليها اسم « المعسكر »، والتي كانت تحميها جدران شاهقة الارتفاع. ووضع المجاهدون في اعتبارهم أهمية الهدف من الناحيتين الاستراتيجية و النفسية، فقرر قادة المجموعات إرسال الكتلة الرئيسية من القوة

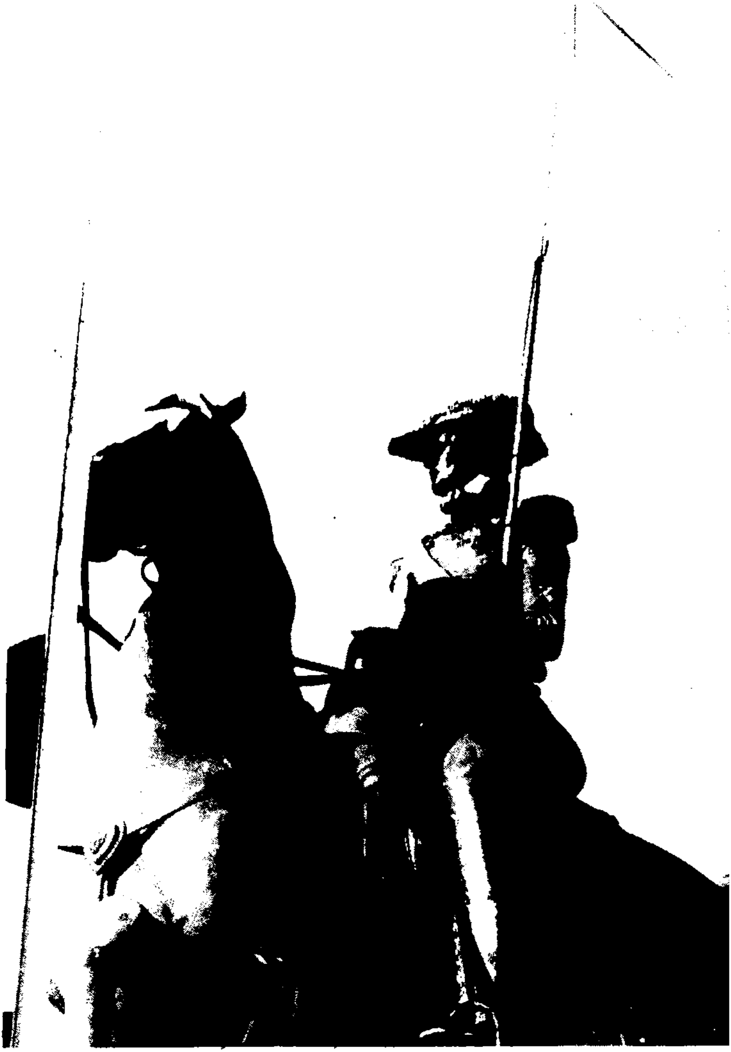

رمز الاستعمار . دمرته الثورة واقتلعته من قاعدته

الضاربة بعد تقسيمها إلى أربع مجموعات تقوم بالإغارة على الأهداف العسكرية في وقت واحد، ولكن بصورة مستقلة؛ كل عن المجموعات الباقية. وكان المجاهدون يرتدون جميعاً الألبسة العسكرية، ويحملون أسلحتهم الآلية (الاوتوماتيكية) من المسدسات الرشاشة (ستاتي) من نماذج أميركية الصنع أو إنكليزية أو ألمانية. وكانت مجموعتان من هذه القوة قد وصلتا من قبل (الحجاج)، في حين جاءت المجموعتان الباقيتان من (فم الطوب). وكان الهدوء المطلق يخيم على المدينة في ساعة بدء الهجوم (الساعة - س). ولم تصل المجموعة الأولى إلا في الساعة الثانية صباحاً. (وقد تأخرت مجموعة - الحاج - عن موعدها بسبب اعتذار رئيسها عن تنفيذ المهمة في اللحظة الأخيرة، فتم تكليف علي بن أخضر طاولي - على الفور - بقيادة المجموعة) وعملت هذه المجموعة فور وصولها على وضع حارسين - خفيرين - في (ود زمالا) ثم اخترقت المدينة العسكرية، ومرت من أمام ثكنة الفرسان الجزائريين الصبايحية (السباهين). وهي الثكنة التي كانت هدف المجموعة الثانية ثم وصلت المجموعة إلى هدفها - وهو الثكنة التالية - التي كان يقيم فيها (الرماة). وكان من المفروض أن يقوم أحد الحرس الرماة من الجزائريين بمساعدة الثوار، وفتح باب الثكنة لهم عندما يتبادلون معه كلمة السر والإجابة (خالد - عقبة). ولكن نظراً لتأخر المجموعة في الوصول إلى الهدف، فقد ظن الحارس بأن موعد الهجوم قد تم تأجيله، وجاء تبديل الحرس، فجاء حارس جديد للبوابة. ولم يبق أمام مجموعة الاقتحام الا استخدام المبادأة، واقتحام الثكنة عنوة، وتم تنفيذ الإغارة بسرعة مذهلة، فأصيب الحارس،

وحاولت المجموعة التوغل الى داخل الثكنة غير أنها عجزت عن ذلك، فاكتفت بما حققته من الدمار والذعر، وانسحبت عبر الطريق المحدد لها. وكان لا بد لها من التعرض لثكنة الفرسان الصبايحية (السباهيين) نظراً لاضطرارها من المرور من أمامها، فهاجمتها بعنف، ثم انسحبت بعد ذلك في اتجاه جبل (تبغيراسين) حيث وصلته، ولما يصب أحد من مجاهديها بأذى. وكان المنفذون في هذه المجموعة كلهم من (دوار كامل). وكانوا جميعاً أيضاً ممن اتبعوا دورة عسكرية وتلقوا إعداداً نفسياً خلال فترة طويلة.

وصلت بعد ذلك المجموعة الثانية بقيادة (محمد بن ناجي) قادمة من (فم الطوب). وكان وصولها في موعد متأخر أيضاً، ولم يبق لها ما تفعله بعد أن علمت بأن المجموعة الأولى، قد هاجمت - بالنيابة عنها - ثكنة الفرسان الصبايحية. فانسحبت بعد أن أطلقت بعض الصليات النارية على أبواب الثكنة وجدرانها.

ووصلت المجموعة الثالثة في الوقت ذاته، بقيادة (ابراهيم بوستة) فأغارت على مخزن الذخيرة، وتبادلت إطلاق النار مع رجال الحرس والحامية، ثم انسحبت في اتجاه مجنبات التل، والتحقت بنقطة الازدلاف (التجمع) في المنتجع المحدد للالتقاء من قبل.

وقامت المجموعة الرابعة بقيادة (بلقاسم) باقتحام ثكنة الحرس المتحرك، وكانت هذه المجموعة تضم ثلاثين مجاهداً. ودارت معركة قاسية استمرت ساعتين، انسحبت بعدها المجموعة نحو (جبل عطيل) فوصلته مع شروق الشمس، وقد حملت على كواهل أفرادها أكاليل الغار.

وفي خنشلة، جمع (عباس لغرور) رجاله الثلاثين في (حمام الصالحين) ثم قام بالهجوم (على نحو ما سبق ذكره) .

وفي تكوت :

قام (جغروري) بقيادة مجموعة المجاهدين بمهاجمة مركز الدرك الذي كان أفراده قد تلقوا إنذاراً مسبقاً واستعدوا للمجابهة. وقامت المجموعة بتدمير الجسر، وأتبعت ذلك بنصب كمين في (تيجان أمين).

وفي باريكا :

دمر المجاهدون خطوط المواصلات، كما دمروا أيضاً مركز الاتصالات الهاتفية التي تصل (باريكا) بمدينة (سطيف) .

وفي أريس، كان يجب أن يقوم أربعون رجلاً مسلحاً في الساعة صفر (الساعة - س). وقام (مصطفى بن بولعيد) باعطاء تعليماته شخصياً للمنفذين. وكان يجب أن يتم الالتقاء عند برج المجمع المشترك كومون ميكست - . ولكن لم يحضر في الموعد المحدد سوى (أحمد نواوره). وهكذا خان (٣٩) رجلاً القسم الذي أقسموه أمام (الحجاج). وترك ذلك جرحاً عميقاً في قلب (بن بولعيد) . أما في تيجان أمين : فكانت كل الأعمال التي تم تنفيذها في الليل هي بمثابة الإعلان عن بدء الحرب ضد النظام الاستعماري، غير أن العملية التي تم تنفيذها في صبيحة يوم إعلان الثورة (يوم الاثنين) كانت بداية لنوع من الأعمال القتالية الخاصة (قتال العصابات)، وقد نفذت هذه العملية باعتراض عربة لتفتيشها عند مضيق (تيجان أمين). وكان في العربة

رجلان إفرنسيان يرافقهما دليل معروف بولائه للافرنسيين. وقد رفض هؤلاء الاذعان لأوامر رجال الكمين من المجاهدين. وكان لا بد من تفتيش العربة تنفيذاً لتعليمات القيادة الصادرة عشية الثورة والتي اعتبرت منطقة الأوراس بكاملها من المناطق المحررة. وعندما رفض ركاب العربة الخضوع للتفتيش، حاولوا استخدام أسلحتهم، جرى تبادل إطلاق النار، وسقط الإفرنسيان ودليلهما قتلى على الفور.

د ـ فجر يوم الثورة المسلحة[1]

كانت ليلة رطبة ومظلمة، غير أن ظلمتها كانت أشد قسوة على المستعمرين، لأنها توافقت مع احتفالات النصارى بعيد (جميع القديسين)[2] ولم يكن المستعمرون، وهم غارقون في ظلمة تلك الليلة يعرفون يقيناً، أو يراودهم الشك، بأن ذكرى الليلة الحزينة ستبقى ابداً مرتبطة بأسوأ ما في تاريخهم. ذلك لانها تسجيل لانهيار اسطورة من أضخم الأساطير الاستعمارية.

كانت ليلة رطبة ومظلمة، وهناك، هبت على جبال الاوراس نسمة منعشة، صفقت لها أشجار الغابات الكثيفة. ووسط تلك الظلمة، كانت الأشباح تتحرك دونما ضجيج، وتتسلق المرتفعات

(١) كاتب هذه الفقرة هو (جلول بوقفة) في كتاب (قصص من النار ـ افرنسي) إصدار سنيد ـ المجاهد ـ الجزائر ـ ١٩٧٧ ص ٣٧ ـ ٤٢. واعتمد الكاتب في كتابته على استجواب المجاهدين الذين اشتركوا في (الحدث التاريخي).

(٢) عيد جميع القديسين (TOUSSAINT) وهو عيد يحتفل به المسيحيون، ويصادف اليوم الأول من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ.

بخطوات سريعة وثابتة، إنها أشباح سكان الجبال (أو الجبليون) الذين اعتادوا على السير الطويل فوق الصخور، وفي الغياض الشائكة. لقد قدموا من كل مكان، من المدن والقرى، من الأوراس ومن مناطق بعيدة عنها. كانت تلك المنطقة هي منطقة قبيلة (توبيس) الشهيرة ببأسها، والمنتشرة على حدود : اشمول وحجاج وأريس. أما (البوسليمانيون) المشهورون بإبائهم وشحمهم فكانوا على حدود ـ أريس ـ (وقد عرف عنهم حبهم الشديد لتربية الصقور). ويبقى (الغسيريون العنيدون) هم حراس أبواب الجنوب، وسيكون من نصيبهم الفخر لقيامهم بنصب أول كمين في مضيق ـ نفق ـ تيجان أمين ـ على بعد ثمانية عشر كيلو متراً الى الجنوب، وذلك في صبيحة اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ .

وكانت هناك أيضاً قبائل أبناء العمومة من (الأشراف والسراهناس) والذين يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، كما يتحدثون بلهجة البداوة ـ الشوايا ـ باتقان غريب. وقد عرف أبناء هذه القبائل بشدة بأسهم وصعوبة مراسهم. غير أن عائلاتهم ستتعرض للانتقام الوحشي وأعمال الانتقام من قبل الافرنسيين، وذلك كرد فعل منهم على الاشتباك الأول مع قوات الثورة. وستكون هذه العائلات أول من يعاني الاضطهاد، وأول من يتعرض للتعذيب بسبب قصة الكمين التي تتلخص بالتالي :

قام ثمانون مجاهداً بقيادة بشير ورطان ـ الملقب بسيدي هاني ـ بنصب كمين لقافلة فرنسية تضم كتيبتين، واشتبكوا مع القوة الإفرنسية لمدة (٢٤) ساعة، سقط خلالها (٣٠٠) جندي بين

قتيل وجريح ـ بحسب ما ذكره سائقو سيارات الأجرة، التاكسي، التي استخدمها الإفرنسيون لنقل قتلاهم وجرحاهم ـ ومقابل ذلك سقط من المجاهدين (٧) شهداء و (٢٥) جريحاً. وعلى أثر هذه المعركة أرسلت قيادة العدو، برقية، أبرزت فيها الأسلوب الذي ستعمل على تطويره للتضليل والخداع، فذكرت بأن القوات الإفرنسية لم تتكبد من الخسائر إلا بعض القتلى وبعض الجرحى فقط.

تجدر الإشارة بعد ذلك إلى أن القبائل البعيدة من (النمامشة والعامريين) لم تكن آخر من وصلت في الموعد المحدد إلى جبال الأوراس. وكان رجال هذه القبائل قد انطلقوا، ومعهم آخرون، من ضهرة (ولدموسى) ليصلوا الأوراس، وليجدوا فيها إخواناً لهم قد حشدوا (٣٥٠) مجاهداً من المقاتلين الأشداء. وكان (مصطفى بن بولعيد) هو أول من وافى المكان، الذي ضم المجاهدين من مختلف المستويات الاجتماعية، ومن كل المستويات الثقافية، ومن جميع العناصر الوطنية، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على فشل الجهود الاستعمارية التي طالما جهدت لخلق الانقسام بين المسلمين، من عرب وبربر، وبين أبناء المدن والقبائل، كل ذلك بهدف تكوين مراكز قوى متصارعة تسمح لفرنسا باختيار نخبة منهم وتدريبهم لمحاربة إخوانهم في الدين والوطن. فكان هذا التجمع أول انتصار للثورة. وها هم الآن (٣٥٠) رجلاً، كلهم رجل واحد، لا تفاوت بينهم ولا تنافر. إنهم على وشك البدء في إطلاق شرارة ثورتهم المسلحة، ولم يبق بينهم وبين الشروع في التنفيذ أكثر من ساعات قليلة. إنهم يمثلون ولادة الثورة التي

ستمتد لتطهر أعماق الشعب الجزائري، وتصهره، لتوجهه نحو الهدف الواحد، وهو هدف الحصول على حقوق لم يعرفها الجزائريون أبداً منذ اجتاحت جحافل الغزوالإفرنسي بلادهم.

هنا، في الأوراس أيضاً، التقت «المجموعات الخاصة» وقد ضمت رجالاً ملؤهم الثقة، حملوا السلاح الذي استخرجوه من مخابئه الكثيرة والتي لم يعرف أحد مكامنها سواهم، وكان النجاح حليفهم عندما جاءوا بها من جنوب الأوراس، ومن (ودصوف) ومن (ليبيا). ودفنوها في انتظار اللحظة الحاسمة. وكان (مصطفى بو ستة) هو أول من عمل لتنسيق التعاون بين مختلف القوى في القطاع (تكوت): وكان يعيش في عالم الخفاء منذ سنة ١٩٥٢. ولم تنجح عمليات التفتيش في العثور عليه، أو اقتفاء أثره، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها قوة (الحرس المتحرك) والتي ضمت ثلاثة آلاف مقاتل، جاءت بناء على طلب (حاكم أريس) للبحث عما أطلق عليه اسم (المجرمين) و (الخارجين على القانون).

وقامت هذه القوة الإفرنسية بتمشيط المنطقة مرات عديدة، غير أن (مصطفى بو ستة) ومعه (الخارجون على القانون). استطاعوا البقاء بعيداً وبصورة مستمرة عن قبضة القوات الاستعمارية. وها هم الآن يستعدون لمرحلة جديدة من العمل الثوري، ومعهم (حسين بن رحيل) الذي بدأ العمل السري - متخفياً - منذ سنة ١٩٤٣، وكذلك (صادق سبشوب) الذي اكتسب شهرة اسطورية باعتباره قناصاً من مهرة الرماة. و (مكي عيسى) الذي طالما تعرض للمطاردة، والذي اشتهر منذ قتل أحد

رجال الدرك برصاصة واحدة في جبهته، عندما كان هذا يطارده في وضح النهار. وكذلك أيضاً (مسعود مختار) و (لمربن بلقاسم) الذي ستتحدث عنه البرقية المرسلة من قبل السلطة الحاكمة، بما يلي : « لقد قتل و احد من كبار قادة المتمردين »، غير أن البرقية تجاهلت العدد الكبير الذين صرعهم غريـن بلقاسم - من جند العدو- قبل أن ينال شرف إحدى الحسنيين. ثم هناك (أحمد الجدعا) الذي اشترك في الثورة منذ بدايتها، ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره[1] وتبقى الظاهرة المثيرة في تجمع هؤلاء المجاهدين، انصهار كافة الفوارق الناجمة عن المنشأ، لقد وقفوا صفاً واحداً - كالبنيان المرصوص - فبات من العسير التمييز بين الجبلي وابن المدينة، أو من عرف بؤس الحياة وفقرها، ومن عاش رغدها وبحبوحتها. وها هو الجبلي (ابن - اوولد الغولة) بهامته الضخمة ولونه البرونزي وملامحه القاسية التي تنطق بها قسمات وجهه، وتعبر عنها شفتاه وهما تقذفان الكلمات بطريقته البدائية (الموصوفة بالوحشية) فيدخل بها الرعب إلى قلوب أعدائه. لقد كان يمتلك قوة جبارة طالما كانت له عوناً لانقاد عدد كبير من رفاقه الجرحى أثناء اشتباكاتهم الدموية الرهيبة، غير أن جهله (أميته) كانت تضعه باستمرار في مؤخرة إخوانه، وكان شأنه في ذلك شأن الكثيرين من رفاق طفولته الذين ما عرفوا في الحياة سوى حراثة الأرض الصخرية وزراعة الأرض المجدبة تقريباً، والتي كانت الشيء الوحيد الذي تركه لهم الاستعمار الاستيطاني. وقد خضع هؤلاء البؤساء المحرومون، الى حين، لأساليب الدعاية الاستعمارية الإفرنسية، حتى

---

(١) وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أفراد مجموعته، وانصرف بعد انتصار الثورة للعمل في الإشراف على مزرعة بناحية بطنة.

أنقذتهم منها جهود دعاة الثورة (الحركيين) . وما لبثوا أن استردوا الشعور بعظمة أمتهم ، فأقبلوا تباعاً ـ الواحد بعد الآخر ـ وانضموا لقوات جيش التحرير الوطني الذي جسد لهم أهداف وجودهم .

واذا كان (ولد الغوله) يمثل هذه الفئة، فقد كان (جيلاني حداد) يمثل الفئة المقابلة، فقد نشأ جيلاني في المدينة، وعاش بيسر وبحبوحة ، وتميز منذ أيامه الأولى في الحياة بذكائه الحاد، فكان من السهل عليه أن يؤمن بضرورة استخدام العنف الثوري، وبحاجة لخوض الصراع المسلح. وكان يعيش في وسط جماهير المدينة فأمكن له الاتصال بمنظمات الثوار (الماكي). وكان هذا الاتصال خطراً في حد ذاته، لا سيما وأن جيلاني كان معروفاً بأفكاره الثورية ونزعاته التحررية. وسيمضي عام على موقفه مع رفاقه في الأوراس، عشية الثورة، قبل أن يودعه هؤلاء الرفاق الوداع الأخير بعد أن حملوه من ميدان المعركة، وصعدوا به لمواراته إلى جانب رفيق له سبقه الى قبر مهجور. لقد سقط (جيلاني) وهو يحمل سلاحه يرد به العدوان الإفرنسي عند مدخل القرية التي لم يتجاوز حدودها ولم يغادرها أبداً منذ بدأت حرب التحرير، وكثيراً ما كان أخوانه المجاهدون يتحدثون عنه بعد ذلك وهم يستعيدون ذكريات الحضارة الإفرنسية، التي لم يعرفوا منها إلا أعمال الإبادة ضد الوطنيين المسلمين الذين كانت تصفهم فرنسا (بالمتوحشين).

يبقى هناك مجال للحديث عن (بو عيسى) أو (رجل المستنقع) الذي لم يكن قد عرف طائرة في حياته ـ قبل الثورة ـ شأنه في ذلك شأن معظم مواطنيه، ولكن ذلك لم يمنعه من توجيه

نيرانه في معركة (تكوت) ليسقط طائرة فرنسية فوق أرض المعركة. وكان من المرغوب فيه التعرض لذكر كل أولئك الابطال الذين اشتركوا في معركة(ضهر ولدموسى) الشهيرة والتي ولعت في اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤. وهو اليوم التاريخي الذي انطلقت فيه مجموعات كثيرة، تضم الواحدة منها أحد عشر رجلاً، لتنتشر في وهاد جبال الأوراس وشعابه، وهي تتعارف بعضها على بعض بكلمتي السر والتعارف السحريتين (سيدي خالد) و (سيدي عقبة). ففي تلك الساعة (س - صفر) قام الثوار بتدمير (جسر تكوت) وتم بذلك عزل رجال الدرك الذين كانوا يستقرون في القرية. وهناك، على بعد مائة كيلو متر من تكوت، اجتاح الثوار (فم الطوب) حيث كانت أرتال المجاهدين قد غادرتها على عجل وهي متجهة الى (بطنة). وعلى مسافة أكثر بعداً، كان الثوار يهاجمون مراكز الجيش والدرك والشرطة في (خنشلة).

وفي اليوم التالي، كانت أخبار الفرحة التي طال انتظارها وقد ملأت كل بيت جزائري ، في الشمال كما في الجنوب، وفي الشرق كما في الغرب. لقد انبعث ضياء الأمل من قلب الظلمة الحالكة. وإذا كانت طلقات النيران قد ألهبت القرى والمدن في السهل والجبل، فإن أصداءها القوية قد ترددت عالية في جبال القبائل والأوراس. بل وفي كل مكان، فكانت زغاريد نساء القبائل (يويو) هي أصداء زغاريد أخواتهن من نساء الأوراس، ومعهن جميعاً كانت نسوة المدن وصحارى الجنوب يرددن (يويو) الفرحة .

لقد ارتبطت الأسماء السابقة كلها بالعملية التي اشتهرت باسم (عملية تاغيت) أو (كمين تيجان أمين) والتي كانت أول عملية من نـوعها سقط فيها: الدليـل معونيش، والمـدرس الافـرنسي مونروت). واستشهد بعد ذلك كل أبطالها، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى المجاهد (طغروري المبارك) وهو رجل كما يقال عنه (لا ماضي له قبل الثورة، وأن كل قصة ماضيه قد بدأت في هذه العملية). . .

. . حيث تقدم مع جماعته التي ضمت أحد عشر رجلاً لنصب كمين (تيجان أمين) في المضيق الذي يفصل شمال أريس عن الجنوب، والذي تغطيه من الجنوب سلسلة من الجبال المكسوة بأشجار النخيل. وكان هـدف العملية، وفقـاً للتعليمات التي أصدرها رئيسهم وصديقهم ـ مصطفى بن بو العيد ـ هو منع رجال الـدرك ـ الجندرمـة ـ من التحرك، وعـزلهم، وتـدمـير روحهم المعنوية، وإرغامهم على البقاء في مراكزهم وثكناتهم لا يبرحونها. وتم نصب الكمين، ولم تقترب أية مركبة من موقع الكمين حتى الساعة الثامنة صباحاً، عندما وصل باص (بسكرة ـ أريس) وفي داخله الدليل ـ القائد ـ معونيش، عميل الافرنسيين، والى جانبه المدرس مونروت ومدرس آخر، بالإضافة الى الركاب من المواطنين الجزائريين المسلمين. وظن الدليل أن العملية تتعلق بجماعـة (خارجين على القانون) كما كانت تسميهم السلطة الاستعمارية، وأراد (معونيش) على ما يظهر إضافة خدمة جديدة لسجله في الاخلاص لسادته، فاشهر مسدسـه، محاولاً إطلاق النار على المجاهد الثائر الذي أوقف الحافلة (الباص) والذي كان خلف

النافذة تماماً حيث كان يجلس الدليل والمدرس الإفرنسي. ورأى اثنان من أفراد الكمين هذه الحركة وهما في موقعهما المرتفع بين الصخور، فأطلقا عليه النار وأردياه قتيلا، وأصابت رصاصة المدرس (مونروت) فقتلته. كما أصيبت زوجة المدرس برصاصة ثالثة لم تقتلها.

وصعد (طغروري المبارك) إلى الحافلة، فأوضح لركابها مهمة الكمين، وشرح لهم ما كان يحدث خلال تلك اللحظة من أعمال ثوروية، لا في المنطقة وحدها وإنما في كل أنحاء الجزائر. واستأنفت الحافلة رحلتها، وأوصلت الجريحة الى مستشفى أريس في الساعة الحادية عشرة، ولم تلبث أن أقبلت طائرة عمودية - هيليكوبتر - فنقلت الجريحة الإفرنسية من مستشفى بسكرة إلى مستشفى بطنة. ولقد أثار وصول هذه الطائرة العمودية كثيراً من الصخب والضجيج، حيث حاول رجال الدرك وأعوان السلطة الإفرنسية تصنيع قصة تراجيدية للبرهان على العظمة الافرنسية والقوة الإفرنسية، ولم يعرف رجال الدرك في حينه أن هؤلاء الذين لم تقع أنظارهم قبل ذلك اليوم على (طائرة عمودية) سيعتادون عما قريب على التعامل مع كل أنواع الطائرات، وتركها طعمة للنيران.

كان الافرنسيون جميعهم من مدنيين وعسكريين مسلحون تسليحاً حديثاً وجيداً، وبصورة خاصة منهم المدرسون الذين يختلطون أكثر من سواهم بالمواطنين المسلمين.

قامت القوات الإفرنسية بحملة مشتركة ضمت كل صنوف

الأسلحة، وذلك بعد كمين (تيجان أمين) بثلاثة أيام، واقتحمت هذه القوات ـ أريس ـ وتوجهت بعدها الى موقع الكمين الذي تعرض للقصف طوال ساعات عديدة بنيران المدفعية والطيران. وانتقلت قوات الحملة بعدها الى تكوت، وأصلحت الجسر الذي يقع عند مدخل القرية. وفي اليوم التالي (٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر) طوقت القرية والأكواخ المنتشرة حولها، وبدأت بعملية اعتقال المواطنين واستجوابهم وتهديدهم بالحرق. كما أخذت بقتل أهالي الثوار وأفراد عائلاتهم وذلك بعد الاحتفاظ بهم كرهن لمدة خمسة عشر يوماً على أمل أن يقوم الثوار خلالها بتسليم رقابهم للجلادين. ورفع المحققون الى رؤسائهم خلال الأيام الثلاثة الأولى قوائم ـ لوائح ـ تتضمن أسماء (الخارجين على القانون) .

وكانت السلطات الاستعمارية وهي تمارس أعمال الإرهاب، تعتقد أنها قادرة بهذه الأساليب على عزل الثوار وحرمانهم من كل دعم. فأقدمت على تعذيب المعتقلين وقتل بعضهم، معتقدة أن ما تم تنفيذه من أعمال ثورية لا يتجاوز نطاق (الهيجان المحلي) مما يجعلها قادرة على إخماد الهيجان الجماهيري بسهولة، بنفس الأساليب التي سبق استخدامها في سنة ١٩٤٥ لإخماد هيجان سطيف، وجيرالدا، وأعلن الضباط الافرنسيون أنهم تلقوا تعليمات تقضي بإعادة تنفيذ فصول القصة البائسة، كما أعلن هؤلاء الضباط عن استعدادهم لاعادة تنفيذ مثل تلك العملية، غير أن ذلك لم يزد المجاهدين الجزائريين، إلا تصميماً .

ولم يزد الشعب الجزائري الا عناداً لاحتضان الثورة، حديثة العهد بالولادة، ودعمها ورعايتها. وأصبح جيش التحرير الوطني

الجزائري هو الملاذ الوحيد من أجل حمل السلاح، وخوض الصراع ضد الظلم والظالمين، إذ أنه على الرغم من كل التهديدات والممارسات الارهابية، فقد استطاع المواطنون الجزائريون إحاطة القوات الإفرنسية، في كل مكان، بمناخ من التهديد وفقدان الأمن، وقام الأنصار الجزائريون (المسلبون) الشجعان، بتأمين الاتصال بين المواطنين وبين جيش التحرير الوطني في كل مكان من البلاد.

ونظراً لمنع الرجال في (تكوت) من مغادرة المدينة ـ تحت طائلة التهديد بالقتل ـ إلا بعد الحصول على تصريح ـ إجازة ـ من السلطات الرسمية، فقد وقع على النساء واجب تأمين هذه الاتصالات. واضطلعت النسوة المجاهدات بكل ما كان يطلب إليهن تنفيذه من الأعمال الشاقة والخطيرة. فكانت جهودهن وأعمالهن ذات أهمية لا تقل عن زوجة البطل (بلقيس ولد الغولة) التي لم تكن زغاريدها (اليويو) وزغاريد أخوتها، في المعركة إلا لهيباً يرتفع على صخب القتال وضجيج الأسلحة، مما كان يثير حماسة المجاهدين ويدخل الرعب في قلوب جند الأعداء.

وقد كان صوت (العمة الغولة) دونما مبالغة أشد وقعاً وأعمق تأثيراً من كل وصف. وكانت العمة الغولة ضخمة الجثة، قوية البنية، سوداء اللون تقريباً، ذات شجاعة لا تطالها مقاييس اختبارات الشجاعة، إنها لم تتذمر في يوم من الأيام، ولم ينل منها التعب أبداً وهي تجوب الجبال باستمرار، لتنقل الأخبار إلى المجاهدين. ولتؤمن لهم الاتصالات الضرورية، طوال سنوات الحرب. فنسجت بذلك ـ للتاريخ ـ أسطورة ملحمة طويلة جداً

بحيث يصعب الإلمام بها أو الإحاطة بفصولها. وكانت مدرسة للصبر والجلد واحتمال كره القتال والاستعداد الدائم للتضحية والفداء.

بمثل هذه النماذج الأسطورية اقتحم الثوار التاريخيون أبواب التاريخ.

هـ - اندلاع الثورة في متيجة (متوجة)[1]

اختار رئيس (قسمة) في (برج المنيل) أربعة شبان من بين مجموعة كان أفرادها يتحرقون شوقاً ويتقدون حماسة لخوض الصراع المسلح ضد الاستعمار الإفرنسي الجاثم على صدر بلادهم. ولم يكن الحافز لاختيار هؤلاء الأربعة من دون سواهم - في شهر تموز- يوليو- ١٩٥٤ - إلا نتيجة طبيعية لما عرف عنهم من نشاط ومن فاعلية علاوة على صغر سنهم. لقد كانوا يشكلون قسماً من خلية تابعة لتنظيم (اللجنة الثورية للوحدة والعمل). وكان واجبهم آنذاك العمل مع العشرات من إخوانهم المجاهدين لنشر الدعاية وجمع المعلومات عن المجمعات المشتركة - كومون ميكست - وكان هذا الواجب من أصعب الأعمال في تلك الفترة، نظراً لما كانت تتعرض له الجزائر وشعبها المجاهد من ضغوط

(١) كاتب هذه الفقرة هو (احمد جنان) في (قصص من النار - أفرنسي) إصدار سنيد - الجزائر. ص ٤٣ - ٤٨. والكاتب احمد جنان من قدامى المجاهدين في (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) وقد عمل في منطقة (برج المنيل) ولم يكن عمره أكثر من تسعة عشر عاماً يوم اشترك مع إخوانه المجاهدين في الهجوم على الثكنات العسكرية في (بليدا) و(بوفاريك).

استعمارية قاسية. وفي بداية الامر، فُصل الأربعة عن رفاقهم المجاهدين في الخلايا القديمة، واتخذت قيادتهم كل ما هو ضروري من الإجراءات لإبعاد الشبهات والشكوك عنهم، ولحماية الأعمال التي كان يتم تنفيذها استعداداً لتفجير الثورة. واستمر التعامل معهم بأقصى درجات الحذر، من قبل كل إخوانهم، ذلك لأنهم كانوا حتى تلك الفترة من العناصر الضعيفة اذا ما تمت مقارنتهم بقدامى الثائرين. وكان هناك خوف من ضعفهم تجاه الانقسامات التي كان يصطنعها النظام الاستعماري في قلب الحركة الوطنية.

ولهذا، بقي اتصال هؤلاء الأربعة، خلال مرحلة الإعداد، مقتصراً ومحدداً بواحد من رجال التنظيم السري، كانت السلطات الاستعمارية تبحث عنه منذ أحداث سنة ١٩٤٧. وكان واجبه تدريب الشباب الأربعة على استخدام الأسلحة وأساليب القتال. غير أن هذه المرحلة لم تستمر أكثر من أشهر قليلة، إذ كان قادة التنظيم قد تسلحوا بالخبرة التي استخلصوها من تجربتهم الحية في سنة ١٩٥١ والتي عايشوها في قلب التنظيم السري. وكانت هذه الخبرة المستخلصة تفرض على رجال التنظيم السري (التحرك بسرعة حتى لا تتوافر للعدو مهلة زمنية كافية تساعده على اكتشاف التنظيم ومعرفة أهدافه). ومن أجل ذلك، احتفظ القادة بموعد بدء الثورة سراً، ولم يعلنوه حتى اللحظة الأخيرة، ولم يكن اختيار موعد بدء الثورة اقتراحاً عشوائياً، أو اتفاقياً مصادفاً، وإنما كان عملاً مدروساً، فتحديد هذا الموعد ليصادف الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - حيث (عيد جميع القديسين) هو مناسبة اعتاد الرجال الاستعماريون على الاحتفال بها.

ففي الساعة الواحدة من منتصف الليل، وهو توقيت القيام بالعمل - ينصرف رجال الإدارة الاستعمارية الى احتفالاتهم المعتادة، وتكون الإدارة في حالة عطالة تقريباً، الأمر الذي يضمن للثوار فترة زمنية كافية لتوجيه ضربتهم، والانسحاب بعد ذلك، إلى قواعدهم المأمونة دونما تهديد مباشر بالمطاردة. وهكذا تم اتخاذ كافة التدابير التي تؤمن انطلاقة الثورة لتكون عامة وشاملة منذ اللحظة الأولى .

لقد تم اختيار الشبان الأربعة، للاشتراك في عمليات تفجير الثورة في إقليم (بوفاريك) في حين تم اختيار سواهم للاشتراك في تفجير الثورة في إقليم (بليدا)، وعرف هؤلاء باسم (خلية عقيل عمولا) . وتم إعلامهم بمهمتهم يوم ٢٩ تشرين الأول - اكتوبر - أثناء قيامهم بالتدريب على المسير الطويل . وتولى إبلاغهم ذلك رئيس قسم التنظيم شبه العسكري في (قسمة) والمشهور بلقب (السيد الشارب) - نسبة إلى شاربه الضخم الذي كان يغطي وجهه- وهو من (عين سكونا- مجمع برج المنيل) . وقد استمر في أداء دوره الثوري حتى سقوطه في ميدان الشرف سنة ١٩٥٩ .

المهم في الأمر، هو أن السيد الشارب أعطى أوامره إلى الشبان الأربعة بالتوجه إلى الجزائر للاتصال (بالسيد الطاهر) الذي كان من واجبه مرافقتهم لمقابلة مسؤول كبير (لم يكن غير العقيد عمران بحسب ما أصبح معروفاً بعد ذلك) . وكان من المفروض أن يتم هذا اللقاء في الجزائر العاصمة . وقام (السيد الطاهر) بتحديد موعد اللقاء ومكانه : (في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي - في ساحة بور سعيد) . وما أن

وصل الشباب الأربعة في الموعد المحدد الى المكان المعين، حتى تبين لهم بأن موعد المقابلة ومكانها هو مجرد تدبير احترازي، إذ قابلهم هناك مرة أخرى (السيد الطاهر) ورافقهم إلى مقهى يقع في (بيرجبة) من مرتفعات (حي القصبة). وكان هذا المكان هو مركز الالتقاء بكافة المجاهدين القادمين من القبائل للإسهام في العمل المشترك الذي كان يتقرر لي اجتماعات الجزائر.

قد يكون من المناسب هنا التوقف قليلاً عند ظاهرة - تدابير الحيطه المشددة - التي رافقت اتساع أفق العمل وتطوره. إذ أن هذه الظاهرة، لم تكن في الواقع إلا نتيجة من نتائج انقسام الحزب وتمزقه، وقد حرص القادة على الإفادة من هذا الانقسام، واستخدامه رداء خارجياً، وستاراً لحماية الحركة السرية. ولفهم هذا الانقسام وانعكاساته لا بد مرة أخرى من العودة إلى المراحل الأولى لتنظيم (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) التي ضمت الأجنحة المتطرفة والحيادية كرد على صراع المركزيين والمصاليين في (حزب انتصار الحرية والديموقراطية). وقد ضمت أجنحة (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) معظم الثوار السريين - الماكي - والذين كانوا يميلون إلى استخدام وسائط الصراع المسلح، وكانوا في الوقت ذاته يمثلون كل أقاليم الجزائر - من قسنطينة حتى منطقة القبائل، ومن أقصى الغرب إلى وهران وأقصى الشرق - . وقد جاء الانقسام في قلب الحزب ليترك شعوراً لدى المتطرفين والحياديين بأنهم في النهاية هم (ضحايا هذا الانقسام) وكان انتقالهم لممارسة العمل الثوري في سنة ١٩٤٧، نتيجة قناعتهم بأنهم وهم يحملون السلاح، سيعيشون معارك حرب التحرير حتى

نهايتها. غير أن قادتهم تخلوا عنهم، وخلفوهم وراءهم، وقطعوا الجسور التي تصلهم بهم، ولم يبق أمامهم إلا البحث عن الوسائل المناسبة للتخلص منهم. وكان من نتيجة ذلك أن وقع عدد كبير منهم في شباك أجهزة الشرطة (البوليس) الإفرنسية .

ومن هنا يمكن اعتبار كل تدابير الحيطة وإجراءات الأمن، هي عمل شرعي وضروري، لا سيما وأن الحاجة كانت تفرض تطوير النشاط السري ليشمل كل الصفحة الجغرافية للقطر الجزائري. وكان ذلك بدقة هو سبب استدعاء الشباب المنظم في الخلايا الى الجزائر التي لم تكن أبداً المحطة النهائية في رحلة تفجير الثورة. ففي الساعة (١٦٠٠) من اليوم ذاته (٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر) صعد عشرون مجاهداً تقريباً، إلى شاحنة كبيرة كانت تنتظرهم في الممر الواقع بين (الاوبرا) و (نادي الضباط) لتنقلهم إلى (الصومعة في ولد عايش). حيث كان على هؤلاء المجاهدين الانتظار لمدة ساعة أخرى في مزرعة يملكها (ابن طوطه)، وهي المزرعة التي عاد المجاهدون للاقامة فيها فترة (٢٤) ساعة. حيث أعلموا بموعد انفجار الثورة. وكانت الظاهرة المثيرة هي أن هؤلاء العشرين الذين نقلتهم الشاحنة. لم يكونوا أبداً على معرفة بامر وجود مجموعات أخرى كانت تقيم معهم في المزرعة ذاتها، أو تنتشر في المزارع القريبة الأخرى. كما أنهم لم يعرفوا أن هناك منازل أخرى تجاور المنزل الذي أقاموا فيه. وكل ما أمكن لهم معرفته هو أنهم نقلوا الى كوخ يستخدم لحفظ علف الحيوانات، وطلب اليهم عدم مغادرته طوال اليوم، إلا لقضاء حاجاتهم الضرورية جداً. ولكنهم عرفوا بعد ذلك. أن الذين

حضروا قد تجاوز عددهم الخمسين رجلاً، جاءوا كلهم من القبائل.

كان الهدف هو الهجوم على ثكنة (بليدا) وثكنة (بوفاريك).

وكان على المجاهدين المحليين، وعددهم قليل نسبياً في تلك الفترة، الإغارة على مكتبة (علي بابا) وتدميرها. ولقد كان لكل عملية من هذه العمليات قصتها، غير أنه من المناسب هنا انتقاء قصة واحدة منها، هي قصة الإغارة على ثكنة (بوفاريك). ولقد كان الهجوم على هذه الثكنة (وعلى ثكنة بليدا أيضاً) نتيجة أبحاث طويلة، ودراسات مستفيضة، وإعداد دقيق. وكان الهجوم على ثكنة (بوفاريك) يعتمد في أساسه على الرقيب (سعيد بن طوبال - وهو شقيق الأخضر بن طوبال عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية). أما الهجوم على ثكنة (بليدا) فكان يعتمد على (سعيد قودي) من مواليد برج المنيل، وكلاهما كانا يخدمان تحت العلم الإفرنسي، وكان الهدف من الهجوم على الثكنات هو الاستيلاء على ما يمكن الحصول عليه من الأسلحة، والتي كان الثوار أحوج ما يكونون اليها. وكان (الأخ سعيد) في هذه الليلة هو رئيس الحرس، وعليه تقع مسؤولية تبديل الخفراء طوال مدة (٢٤) ساعة. وهذا يعني أن مفتاح الدخول الى الثكنة كان في قبضته. وعلى هذا، غادرت مجموعة (الكوخ) مقرها في الساعة (٢٢ ٠٠) تقريباً. وسارت لمدة ساعة تقريباً قبل أن تلتقي بمجموعة أخرى في كرم من كروم العنب، غير بعيد عن الثكنة. وهنا فقط ظهر العقيد (عمران) في وسط المجاهدين وهو يحمل مسدساً ألمانياً. فيما كان مرافقاه يحملان مسدسات رشاشة انكليزية (طراز ستين) وكانت تلك هي كل الأسلحة التي توافرت لإفراد المجموعة .

مكثت مجموعة الفدائيين المجاهدين في كرم العنب فترة قصيرة من الوقت، حتى إذا ما حان موعد التنفيذ، تحركت نحو هدفها، ووصلت إلى جسر كان يقع على مقربة من الثكنة، وتوقفت عنده، وانتشر الأفراد على أطراف الجسر، وتحته، بينما توجه اثنان من الفدائيين إلى الثكنة ودخلاها برفقة رئيس الحرس (الرقيب بن طوبال). وتوجه الثلاثة إلى مستودع الأسلحة، وشرعوا بقطع السلاسل الحديدية الغليظة التي كانت تقيد الأسلحة وتثبتها. وعندما انطلقت المجموعة لاقتحام الثكنة، تنبه أحد رجال الحرس، وأعطى شارة الإنذار. وفشلت العملية في تحقيق هدفها (وبالطريقة ذاتها أصاب الفشل عملية الإغارة على ثكنة بليدا) .

لقد كان بالمستطاع تحقيق النجاح في عمليتي الهجوم على الثكنتين، لو أمكن اتخاذ المزيد من تدابير الحيطة عند التنفيذ، وكان النجاح في تنفيذهما ـ لو تحقق ـ سيدعم من قدرة الثوار، خلال المرحلة الأولى من عمر الثورة. وإذا كان هدف العمليات الأخرى التي نفذت في كل أنحاء البلاد هو الإعلان عن بدء الصراع المسلح، فقد كان هدف العمليتين هو الحصول على الأسلحة التي يتطلبها هذا الصراع. وكان من نتيجة هذا الفشل أن تعرض ثوار القبائل وثوار الجروة للمعاناة المريرة من نقص الأسلحة في أيديهم، منذ الأيام الأولى لانطلاقة الثورة. وليس بالإمكان القول أن فشل العمليتين قد غير من مسار انتشار الثورة وتطورها وفقاً لما كان يرغبه قادة الثورة ورجالها. وبات لزاماً على قادة الثورة توسيع أفق ثورتهم بضم المناطق وتنظيمها على مهل، وبصورة بطيئة، دواراً بعد دوار، وقرية بعد قرية. وقد أفاد الثوار

السريون - الماكي - من مجموعة الظروف، لضم المجاهدين الى صفوفهم بصورة انتقائية، وتنظيمهم، حتى امتد تنظيم جبهة التحرير الوطني وجيشها ليغطي كل تراب الوطن. وعلى كل حال، فإن (الجروة) لم تتأخر كثيراً عن اللحاق بركب الثورة، على الرغم من هذا الفشل، وأمكن لها الاضطلاع بدورها، حتى إذا ما جاء مؤتمر الصومام (في ٢٠ آب - أغسطس - ١٩٥٦) كانت (الجروة) قد نجحت في تصحيح الأوضاع، ووضع الأمور في نصابها الصحيح .

أما بالنسبة للمجموعة التي أغارت على ثكنة (بوفاريك) فقد أصبح لزاماً عليها بعد فشلها في تنفيذ مهمتها، السير طوال الليل للابتعاد عن مسرح العملية. وكان السير شاقاً عبر الحقول وفي الأراضي الوعرة، كما كان أفراد المجموعة يجهلون الطريق المؤدي الى نقطةالإزدلاف (الاجتماع). وهكذا فإنهم لم يصلوا إلى (الصومعة) حتى شروق الفجر، ومن هناك، استقل أفراد المجموعة مركبة نقلتهم الى (برج المنيل). وتعرض أفراد المجموعة في بعض مراحل الطريق لخطر الوقوع في قبضة الدرك الذين أقاموا الحواجز على الطرق للتأكد من هوية المسافرين، وإلقاءالقبض على (الخارجين على القانون) وقبل الوصول الى (برج المنيل) بما يعادل ساعتين من المسير، نزل أفراد المجموعة من مركبتهم، وتوجهوا سيراً على الأقدام نحو منزل (العم أحمد) الذي كان يشرف على تدريبهم خلال مرحلة ما قبل الثورة. وقد عمل (العم أحمد) على تكليف أحد رجاله (واسمه لونس عمروني - وهو يعيش حياة الثورة منذ سنة ١٩٤٧) بمرافقة رجال

المجموعة، والسير بهم فوراً وبدون إعطائهم أية فترة للراحة، حتى الوصول معهم إلى (قروشة الأربعاء) حيث الغابة الكثيفة التي أظلت الثوار، وهناك، التقت المجموعات كلها، لتبدأ مرحلة جديدة من العمل الثوروي.

و - الولاية الأولى في معركة التحرير(١)

بدأت الاستعدادات العسكرية للثورة منذ أوائل ربيع سنة ١٩٥٤ حيث كان القائد (مصطفى بن بولعيد) يقوم بالاتصالات مع أعضاء المنظمة الثورية في بقية أنحاء الجزائر، يعاونه في جهوده (بشير شيحاني)، في حين كان الحاج الأخضر ورشيد بو شمال) يعملان على تجنيد الشبان المناضلين الذين عرفوا بماضيهم المشرف. فكان يتم قبول هؤلاء المناضلين وتنظيمهم في خلايا عسكرية، بعد وضعهم تحت امتحان دقيق للتأكد من تصميمهم على الجهاد، وصلابة إيمانهم، وقوة إرادتهم. وكان من مهمة (الحاج الأخضر وبو شمال) نشر الوعي الثوري في أوساط الشعب، واختبار مدى استعداد الرأي العام لقبول الثورة، وتنمية الاتجاه الثوري الذي أخذ في النمو والانتشار بين جماهير الشعب على أثر قيام الصراع المسلح في تونس والمغرب. وقد استقبلت مناطق الجزائر كلها استقبالاً حماسياً مشجعاً زيارات

---

(١) المرجع: مجلة (المجاهد) الجزائرية. العدد ٤٢ تاريخ ١٨/٥/١٩٥٩. وكاتب البحث هو الحاج الأخضر، والذي عرف في الثورة باسم (الكومندان الحاج الأخضر). وقد تم الاعتماد في البحث على وثائق مركز البحوث في الجزائر - وعلى معرفته الشخصية بمسيرة الأحداث.

(الحاج الأخضر وبو شمال) مما كان يزيد من عزيمتهما ويشد من أزرهما ويدفعهما لتطوير العمل الثوري. ويذكر الحاج الأخضر ذلك فيقول: « كنا نتحدث مع المجاهدين عن مستقبل الجزائر، ونتعرض للظروف المتوافرة والمناسبة لقيام الثورة، ولم نكن نصرح لهم بدهياً بأننا نستعد للقيام بالثورة، ولكننا نشير إشارات بعيدة، فيها من الغموض أكثر مما فيها من الوضوح. فنجد الناس يتساءلون عن سبب عدم إندلاع نار الثورة، ويطالبوننا بالعمل المباشر. وكنا نقدم التقارير الى الأخ - الشهيد - مصطفى بن بو العيد - نؤكد فيها استعداد الشعب للجهاد، وتأييده للعمل الثوري ».

توافر بنتيجة الجهود المبذولة عدد من خيرة المقاتلين الأشداء، فتم عقد اجتماع للقادة في شهر تموز - يوليو - ١٩٥٤. تقرر فيه توزيع الخلايا العسكرية على جهات معينة من منطقة الاوراس. وطلب الى كل مجاهد انضم الى جيش التحرير الوطني تقديم مبلغ (١٦) ألف فرنك من أجل شراء بندقية له. وكانت القيادة قد بدأت بجمع السلاح، غير أنه لم يتم توزيعه على المقاتلين، وإنما كان يتم نقله إلى جبال الأوراس حيث الغابات الكثيفة تؤمن غطاء جيداً لممارسة التدريب العسكري، واتقان الرمي واستخدام السلاح. وبينما كانت عمليات نقل الأسلحة مستمرة بفترات متباعدة الى الأوراس، كانت المناورات العسكرية وأعمال التدريب مستمرة أيضاً، حتى جاءت ليلة الثورة. وكان المسؤولون في التنظيم قد أعلموا بالموعد قبل أيام قليلة، وعندما تم إعلام المجاهدين بالوقت المحدد للبدء بالأعمال القتالية، اجتاحتهم

الحماسة، وأظهروا استعداداً كبيراً لتقديم التضحيات بالغة ما بلغت. كما أظهروا إدراكاً عميقاً لأهمية اللحظات الحاسمة التي كانوا يعيشونها .

فكانوا يلتزمون بالتعليمات والأوامر وينفذونها بسرية تامة. لقد وهبوا أنفسهم لقضية وطنية مقدسة، ووضعوا ثقتهم في قادتهم المؤمنين الصادقين، وتركوا لهم مهمة الإعداد السري للثورة، وقبلوا تنفيذ كل ما يطلب إليهم تنفيذه بدون مناقشة، ومن غير أن يسألوا عن الهدف أو القصد منه، أو عن موعد العمل المباشر، أو غير ذلك من الأسئلة التي قد تحرج المسؤولين أو تعرض الثورةلخطر مدمر ـ والثورة لا زالت في بداياتها الأولى.

انطلقت الخلايا الثورية الأولى نحو أهدافها المحددة، وهي مسلحة بالإيمان العميق ومحاطة بجو من التنظيم الدقيق والسرية المطلقة والتصميم العنيد. وكان المجاهدون قد وزعوا على الجهات المختلفة، فاتجه ثمانون منهم الى (فم الطوب)، وذهب خمسون إلى ناحية (أريس)، واستقر سبعون آخرون في (غابة كامل).

وقام خمسة وثلاثون بالهجوم على (بطنة)، وكان النجاح حليفاً لهذا الهجوم، حيث قتل للعدو سبعة جنود وأصيب ثلاثة آخرون بجروح. ونجح هجوم (فم الطوب) أيضاً حيث احتلتها قوات الثورة لمدة ستة أيام وغنمت منها تسعة بنادق حربية. وفي الوقت ذاته، وهوجمت أريس وخنشلة وتازولت وقلس وغيرها من جهات أوراس الشاسعة. وواجهت قيادة الثورة منذ البداية مجموعة من الصعوبات الضخمة .

فقد بدأت الثورة مع بداية فصل الشتاء. ولم تكن الظروف المناخية تسمح للمجاهدين بتوسيع آفاق الثورة، غير أن هذه الظروف المناخية كانت بدورها عاملاً مساعداً على نجاح الثورة، ذلك لأنها أعاقت تحرك الأرتال الضخمة للقوات الإفرنسية، وأعطت لقادة الثورة متسعاً كافياً من الوقت للإعداد والتنظيم.

لقد كان الشك يراود جماهير الشعب في بداية الأمر بقدرة الثورة على الصمود والاستمرار، فإذا ما استطاعت الثورة المحافظة على وجودها لأكثر من ثلاثة أشهر، وتمكنت في الوقت ذاته من تطوير صراعها ضد الإفرنسيين طوال هذه المدة، فعندئذ ستقتنع جماهير الشعب بالقوة الحقيقية للثورة، وستتوافر لديها القناعة والثقة بقدرتها على النجاح. وعلى هذا الأساس، فقد كانت الظروف الطبيعية والمناخية أفضل عامل مساعد على إحباط كل المحاولات والمشاريع التي وضعتها السلطات الاستعمارية لتدمير الثورة، والقضاء عليها وهي لا زالت غضة العود في مهدها.

أصبحت الثورة مع بداية العام ١٩٥٥، راسخة الجذور في قلب الشعب، وتعاظم عدد المجاهدين في صفوف الثورة. وأقبل المواطنون على التطوع بوفرة هائلة في (جيش التحرير الوطني) ودعمه بالأسلحة والذخائر والأموال والتبرع له بكل ما يمتلكونه. وكان من نتيجة ذلك أن أصدر القائد (مصطفى بن بولعيد) أوامره إلى المجاهدين بتوسيع مناطق العمليات، والاتصال بالأخوة المجاهدين في الولايتين الثانية والثالثة. وتم تأمين الإتصال فعلاً، وتنسيق التعاون، بين (ولايات الجهاد الثلاث). وانتشر جند الثورة في جميع أنحاء الولاية الأولى، وأرسل ثلاثون مجاهداً الى

منطقة الجنوب الصحراوي فوصلوا الى (وادي سوف) واستقبلتهم جماهير الشعب بحماسة رائعة، وانطلق الدعاة في الأسواق العامة ومناطق التجمع، يحرضون الناس ويدعونهم للجهاد في سبيل الله. وحدثت اشتباكات مع القوات الإفرنسية عند حدود الصحراء، تكبد فيها العدو خسائر فادحة تزيد على خمسماية جندي. واستطاعت قيادة الثورة في الشمال تنظيم خلايا ثورية قوية ومتينة (في مدن: العيون وباريكا ومدوكال) وساها من المدن الواقعة على أطراف الولاية، وأصبح الإتصال بالولايات المجاورة منتظماً ومستمراً، كما تم الوصول شرقاً الى الحدود التونسية.

بذلك، ومع بداية العام ١٩٥٥، بلغت الولاية حدودها الحالية التي تتبع شمالاً خط السكة الحديدية القادمة من سوق أهراس الى سطيف، وتنزل غرباً نحو (برج بو عريريج - المسيلة) المتقاطعة مع طريق (بو سعادة) وتوازي شرقاً الحدود التونسية، وتمتد جنوباً الى أطراف الصحراء الكبرى. وقد أصبحت هذه المنطقة تحمل اسم (الولاية الأولى) منذ أن تم استخدام أسماء الولايات بدلاً من المناطق، في أثر مؤتمر الصومام (في ٢٠ آب - أغسطس - ١٩٥٦)، وقسمت الولاية الأولى إلى ست مناطق رئيسية. من بينها منطقة كبرى محررة تحريراً تاماً هي المنطقة الثانية الواقعة الى الغرب من (جبل شيليا) والتي تمتد فيها غابة كامل (كمبل) على مساحة مربعة طول ضلعها ثمانون كيلو متراً. وهذه المنطقة محرمة على القوات الإفرنسية التي لم تكن قادرة على الاقتراب منها إلا بعمليات ضخمة، وبقوات كبيرة يزيد عدد أفرادها على عشرين أو ثلاثين ألف جندي. (الأمر الذي دفع القيادة الإفرنسية لتنظيم

حملة مرة في كل سنة لتمشيط هذه المنطقة). وقد بقيت المنطقة باستمرار قاعدة صلبة للثورة، تنتشر فيها القوات العسكرية للثورة، ويلجأ إليها أعداد المدنيين الكبيرة ليعيشوا فيها ضمن إطار ظروف صعبة بسبب الهجمات المستمرة للطائرات الإفرنسية على أماكنهم، وبسبب فقر المنطقة في الموارد الاقتصادية، وإن كانوا قد نجحوا في حراثة الأرض ـ بمساعدة جند جيش التحرير وزراعتها ببعض الحبوب والخضار.

لقد هرب هؤلاء المدنيون من جحيم القمع الوحشي للإفرنسيين والتجأوا إلى قواعد الثورة بالرغم من كل المصاعب التي كانت تعانيها حياة هذه القواعد. وكانت فرحتهم لا توصف وهم يعيشون حياة النظام التي صنعها لهم جند جيش التحرير في تلك المناطق البائسة. فقد عمل جيش التحرير على بناء المنازل لإيواء اللاجئين، ونظم لهم مدارس الأطفال، وأمن لهم تنظيماً صحياً يضمن العلاج للجميع. وفي بقية المناطق الأخرى التي تتمركز فيها القوات العسكرية الإفرنسية (وخاصة في منطقة بطنة) نظم الثوار أعمالهم للقيام بهجمات مستمرة بلغ معدلها الوسطي خمسة عشر هجوماً في الشهر، مع تنفيذ هذه الهجمات. بمجموعات صغرى من الأفراد واجبهم الاشتباك مع قوات العدو بالنيران ـ مناوشة ـ ووضعها دائماً تحت شعور التهديد بالخطر، وحرمانها من الراحة والأمن. وشجعت هذه الأعمال الناجحة قوات الثورة، فتعاظم حجم أفواج الفدائيين، وتزايد عدد زمر التدمير، التي استطاعت تنفيذ عمليات رائعة بتسللها إلى قلب المدن والمراكز الإفرنسية، وتدميرها لموارد العدو الاقتصادية، وإعدامها للخونة وعملاء

السلطة الإفـرنسية وقادة الاستعماريين .

ولم تمض فترة طويلة حتى بات الشعب كله وهو منظم في خلايا وأفواج تنظيماً سياسياً وعسكرياً، يتوافق مـع متطلبـات جبهة التحرير الـوطني، ويستجيب لتنظيم جيش التحـرير الـوطني. وأصبح هناك مجالس للشعب في كل دشرة (أو دسكرة) وفي كل قرية ومدينة. وأظهرت جماهير الشعب حماسة لا نظير للتطوع في الجيش، غير أن النقص في الأسلحة أعاق عملية تطويع كل الراغبين في حمل السلاح. لقد نضج الشعب على لهيب الحرب، وأصبح أكثر استعداداً لاحتمال أعظم التضحيات، ورافق ذلك تعـاظم في مستوى الـوعي الثوري، وبلغ هـذا الوعي، من العمق والقوة، ما جعله قادرا على مجابهة التحديات مهما عظمت، وتجاوز الصعوبات مهما اشتدت. وكان دليل ذلك هو فشل كل وسائل الضغط والارهاب في إضعاف مقاومة الشعب الجزائري، وكذلك فشل محاولات فصل جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطني عن الشعب.

لقد استخدمت أجهزة الاستعمار الافرنسي وسائـل كثيرة، وطبقت أساليب متنوعة، تلتقي كلها عند هدف واحد هو إبادة الشعب الجزائري بطرائق منهجية. وكان في جملة ما طبقته للوصول الى هذا الهدف، حشد الشعب في معسكرات اعتقال اطلق عليها اسم (مراكز التجمع). ويمكن تقسيم هذه المراكز الى قسمين رئيسيين، قسم قريب من الـطرق العامـة والأراضي المنبسطة (السهلية). وهذا القسم هو الذي كان يتم عرضه على رجال الصحافة والمحققين والباحثين من الأجانب وغيرهم، ولذلك بذل

الجيش الإفرنسي عناية خاصة بنزلاء هذا القسم من المراكز، فأمن للنزلاء المساكن المقبولة، وحداً أدنى من متطلبات الحياة، ليتظاهر بأنه لا يرمي من إقامة هذه المراكز إلى إبادة الشعب الجزائري. أما القسم الآخر، فيشمل المراكز البعيدة، وهي تشكل الأكثرية المطلقة لهذه المراكز، وتمثل الحياة فيها أشد أنواع البؤس، وأقسى صنوف الشقاء، مما يصعب وصفه أو الاحاطة به. ومثال ذلك، أن السلطات الاستعمارية كانت تحشر في المركز خمس عشرة أو ست عشرة عائلة كبيرة في غرفة واحدة، هي عبارة عن كوخ، لا يضمن لساكنيه ونزلائه أي وقاية ضد البرد والمطر. وانتهى الأمر بمعظم هؤلاء إلى الإصابة بمختلف الأمراض المستعصية، علاوة على ما كان يعانيه المعتقلون من الجوع والتعذيب، وانتهاك الأعراض، وكل أنواع الضغوط المادية والمعنوية، التي سلطها عليهم جند الجيش الإفرنسي. ولم تتوقف السلطات الاستعمارية عند هذا الحد، بل تجاوزته الى تعميم عمليات (تعقيم) الشباب من ذكور وإناث، لمنع الشعب الجزائري من التكاثر والتناسل، كوسيلة في جملة وسائل إبادة الشعب الجزائري.

لم تضعف مقاومة الشعب الجزائري بالرغم من كل هذا العذاب المسلط على رقابهم، فأخذ المواطنون في حض الجيش على المزيد من المقاومة، وتحريضه على الصبر والثبات. وكانت النسوة في مراكز التجمع يرفضن التحدث إلى نساء (القوم). ولا يقبلن زيارتهن أو الذهاب معهن لجلب الماء. كما كان الأطفال ينشدون الأناشيد الوطنية، ويغنون الأغاني الحماسية، على الرغم من الأمراض التي كانت تنخر في أجسامهم الغضة الطرية. وكان

هؤلاء الأطفال ـ البؤساء الجياع ـ يقلدون في ألعابهم مجاهدي جيش التحرير، فينظمون الكتائب والسرايا، ويسخرون من الجنود الإفرنسيين ويتوعدونهم بالموت على أيدي جنود جيش التحرير الوطني.

كان من نتيجة هذه المعاملة الإفرنسية، أن أخذ المواطنون في البحث، من داخل هذه المراكز، عن كل وسيلة للفرار نحو الجبال، وكانوا يفضلون أن يهيموا على وجوههم بلا مأوى، وبدون طعام، على أن يبقوا في مراكز التجمع، معرضين للموت البطيء، ولكل أنواع العذاب والذل والهوان مما كان يسلط عليهم جند الاستعمار. ولم يقف جيش التحرير مكتوف الأيدي أمام خطة الاستعمار لإبادة الشعب الجزائري. فكونت الولاية الأولى على سبيل المثال: تنظيماً صحياً لتأمين علاج أفراد الشعب يشرف عليه ثلاثة أطباء. كونوا بدورهم جهازاً ضم عدداً كبيراً من الممرضين والممرضات. وكان جيش التحرير يلتقط الفارين من هذه المراكز، ويبعث بهم الى المناطق المحررة حيث يجدون فيها ما يحتاجونه من العناية الصحية والرعاية الاجتماعية.

وفي الوقت ذاته، كانت مجالس الشعب في القرى والمدن توزع المساعدات على المحتاجين، وضحايا القمع الاستعماري. واذا كانت خطة الجيش الإفرنسي هي إبادة الشعب الجزائري، فقد جاءت خطة جبهة التحرير لتعمل على صيانة الشعب وحمايته وتنظيم حياته الاجتماعية، وإذكاء روح الصمود والمقاومة في صفوفه. وأصبحت السلطة الحقيقية في الجزائر كلها وهي محكمة في قبضة جبهة التحرير، حتى أن عدداً كبيراً من المعمرين

(الكولون) كانوا يدفعون للجبهة الاشتراكات والتبرعات، ويقدمون المواد التموينية للجيش. وبصورة عامة، فإن الشعب الجزائري، قد عاش تجربة الجهاد التي كونته تكويناً جديداً، فأصبح مؤمناً بمصيره الحر وبمستقبله المشرق.

ز ـ الثورة في ولاية وهران[١]

ولاية وهران، أو الولاية الخامسة، وهي تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالاً، الى أقصى جنوب الجزائر، وتمتد من حدود المغرب الأقصى الى الحدود الادارية لعمالة الجزائر شرقاً. وهي تمثل ثلث مساحة القطر الجزائري. وتشمل ثماني مناطق عسكرية. وقد نظمها المجاهد الشهيد (محمد العربي بن مهيدي) بمعاونة (بوصوف) وبعض المجاهدين الآخرين الذين استشهد بعضهم وسجن بعضهم الآخر. وكانت الولايات حينذاك تدعى (بالمناطق). ولم يبدأ العمل في منطقة وهران، منذ أول تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٤. إذ استطاع العدو، مع بداية الثورة، تدمير الفرق الصغيرة والخلايا التي كانت منظمة حينذاك. ومضت فترة بعد ذلك من إعادة تنظيم الخلايا، والاستعداد السري، وتجنيد الشباب ممن عرف عنهم الصدق في وطنيتهم والاخلاص لمبادئهم، وبماضيهم المشرف في الصراع ضد الاستعمار، وبعملهم الدؤوب في نشر الوعي الوطني والثوروي في وسط جماهير الشعب. وقد أظهرت جماهير (وهران) في هذه الفترة حماسة رائعة للقيام

---

(١) المرجع: مجلة (المجاهد) الجزائرية ١/٥/١٩٥٩.

بالعمل العظيم الذي سيبقى خالداً في تاريخ الثورة الجزائرية، وهو العمل المعروف باسم (معركة جبل عمور).

* * *

وقعت (معركة جبل عمور) يوم ٢ تشرين الأول - أكتوبر - ١٩٥٦. وشارك فيها خمسمائة جندي من جيش التحرير الوطني، في حين كانت القوات الإفرنسية تضم آلاف المقاتلين. وقد استمرت المعركة اسبوعاً كاملاً، وكانت نتيجتها قتل ١٣٧٥ جندياً افرنسياً، من بينهم ٩٢ ضابطاً، دفنوا في (تاهرت) وإحراق ٨٢ سيارة (ج. م. س) وجيب. وحصل الثوار على أسلحة وفيرة وبكميات هائلة، حتى كان كل جندي من جنود جيش التحرير يحمل معه أربعاً أو خمساً من البنادق. كما أسقطت عدة طائرات حربية فرنسية. ولم يخسر المجاهدون في المعركة سوى أربعين شهيداً. وذلك لأن المجاهدين أفادوا من عنصر المباغتة، بقدر ما أفادوا أيضاً من الموقع الطبيعي لميدان القتال، حيث الجبال المنيعة والأراضي الوعرة.

* * *

لقد بدأت قصة هذه المعركة عندما مرت كتيبة من كتائب جيش التحرير بقرية بدوية، وعلمت من سكانها أن قوات فرنسية ضخمة كانت تسير نحو القرية، فانسحبت الكتيبة نحو الجبل القريب من القرية. ووصلت القوات الإفرنسية، وعاثت فساداً في القرية المحرومة من كل وسائل الدفاع. وارتكبت فيها أنواع الفظائع والمنكرات والمحرمات، ونكلت بالمواطنين، فقررت الكتيبة

الانتقام للضحايا البريئة. وأقامت كميناً للقوة الإفرنسية في الطريق وأبادتها إبادة تامة، بحيث لم ينج منها إلا ضابط برتبة صغيرة، فر بسيارته لينقل الى قيادته مصير القوة وما تعرضت له من الدمار الكامل.

وأثناء ذلك، قامت كتيبة جيش التحرير الوطني بجمع الأسلحة والغنائم، والتحقت بثلاث كتائب أخرى من قوات جيش التحرير، ولم يتمكن الإفرنسيون من القيام برد فعل مباشر في اليوم ذاته، فانتظروا حتى اليوم التالي، حيث دفعوا بقافلة تضم مائة وخمس مركبات عسكرية، للانتقام من هزيمة اليوم السابق، وكانت قوة كتائب جيش التحرير الأربع لا تزيد على خمسمائة مقاتل، تم توزيعهم على امتداد سبعة كيلومترات في كمين محكم يجاور الطريق. ومكث المجاهدون في مراكزهم وأماكنهم ينتظرون وصول القافلة الإفرنسية الى منطقة القتل لينقضوا عليها. ووصلت القافلة، وأخذت في المرور من أمام قوة الكمين، وعلى مدى نار أسلحة المجاهدين، الذين لم يظهروا أي حركة واحدة، حتى أصبحت القافلة كلها محاصرة داخل دائرة الكمين. وفتح المجاهدون نيران أسلحتهم بصورة مباغتة، أذهلت القوات الافرنسية ونشرت الذعر والفوضى بين أفرادها، والتهمت النار سياراتها العسكرية، وتساقط جنود القوة الإفرنسية وضباطها قتلى بالمئات. وتوالت النجدات الإفرنسية، بعد أن وصلتها أخبار المعركة، وما نزل بالقوة من نكبة مدمرة. فتوزعت كتائب المجاهدين الى زمر ووحدات صغرى، وتابعت الاشتباك بالنيران مع القوات الإفرنسية، مع الانقضاض عليها كلما رأت الظروف

مناسبة لها. واستمرت الاشتباكات لمدة أسبوع كامل. وكان معظم الجنود الإفرنسيين الذين لقوا حتفهم بالجملة في هذه المعركة، هم من المجندين الذين وصلوا حديثاً من فرنسا.

انتشرت أخبار هذا الانتصار الرائع في كل أرجاء البلاد، وتركت أثراً عميقاً في أهالي الجنوب الجزائري بصورة خاصة، لأنهم لم يكونوا من قبل على اتصال بثوار ولاية وهران - أو الولاية الخامسة - وأصبحوا وهم يتحدثون بإعجاب وتقدير عن المصير الذي آل إليه (جيش آفلو) على أيدي الثوار الوهرانيين. وهم ينظرون الى المستقبل نظرة الأمل والتفاؤل والإيمان بحتمية النصر. وتغنى الشعراء الشعبيون - وما أكثرهم وأروعهم في جنوب البلاد - في أشعارهم وأزجالهم بهذا النصر الكبير الذي أعاد إلى أذهانهم ذكريات الأجداد الأبطال وملاحمهم الخالدة على الزمان.

ومقابل ذلك، تأثرت القوات الإفرنسية الى حد كبير بنتيجة هذه المعركة، وانهارت روحها المعنوية. وأصبحت نظرتها إلى الثوار مرتبطة بمشاعر الرعب والهلع . وتزعزعت صفوف (بن يونس) أو (بليونس) الذي حاول الإفرنسيون استخدامه ضد أمته وشعبه فجندوا له جيشاً هزيلاً معظم أفراده من المستوطنين للعمل ضد جيش التحرير وقوات الثورة. وهكذا، ومع حلول شهر تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٦، انتشرت آفاق العمليات إلى كل المناطق. ووصلت وحدات من (معسكر غليزان) إلى ناحية (تاهرت) وبذلك تم تعميم العمل الثوري العسكري في كل أنحاء الولاية. ودخلت الثورة الجزائرية مرحلة جديدة في جميع

الميادين الاجتماعية والسياسية والعسكرية. وأصبحت منطقة وهران بمقتضى التنظيم الجديد تحمل اسم (الولاية الخامسة)، وتعمل تحت قيادة (عبد الحفيظ بوصوف)، وقسمت الولاية بدورها إلى ثماني مناطق، مقسمة الى نواحٍ وأقسام، وحددت المسؤوليات تحديداً دقيقاً. وأدخلت الرتب العسكرية. وأصبح الجيش منظماً تنظيماً حديثاً. ومدرباً تدريباً عسكرياً جيداً. وكان لهذا التنظيم الجديد صداه الكبير في الداخل والخارج. وتدعمت الثورة بخروج الشباب المثقف لميدان العمل بعد إعلان الإضراب العام عن الدراسة في المدن، وتطوعهم في جيش التحرير، حيث قدموا خدمات كبيرة في ميدان نشر الوعي الاجتماعي والسياسي في صفوف الشعب. وأسهموا باطلاق طاقاته الكامنة، وتنظيمها لبناء الجزائر الجديدة.

تبع ذلك تغيير في الحالة النفسية للشعب، فقد انتشرت الفكرة الثورية بجانبيها الاجتماعي والسياسي. وكانت المنشورات والصحف الصادرة عن الولاية، توضح للشعب مبادىء الثورة وأهدافها، وتتحدث عن نشاط الثورة في الداخل والخارج. ونظم الموجهون السياسيون الخلايا الثورية في كل مكان من القرى والمدن. كما تكونت المجالس الشعبية التي ينتخبها الشعب بالاقتراع العام المباشر. وكانت الانتخابات تجري في الليل، ويقبل أفراد الشعب على الاشتراك فيها بحماسة رائعة.

وتقوم هذه المجالس، الى جانب اللجان الثلاثية، بكل الأعباء الإدارية والاجتماعية، من تعليم وقضاء وجمع للتبرعات، وإشراف على الخدمات الصحية، وإسعاف للمنكوبين من ضحايا

القمع الاستعماري. فيحصل المحتاجون والأيتام وعائلات المعتقلين والمجاهدين على الإعانات اللازمة لهم. وكثيراً ما كان يحدث أن تجد أسرة تعرضت للقمع الاستعماري وفقدت منزلها، خلال ساعة واحدة، بيتاً جديداً يؤويها، مع تقديم كل المساعدات من مأكل وثياب، وسوى ذلك من متطلبات الحياة الضرورية.

وفي مجال الخدمات الصحية، أصبح في ولاية وهران ـ اعتباراً من عام ١٩٥٧ على وجه التحديد ـ عدد كبير من الأطباء والطلاب الذين درسوا في كليات الطب، والممرضين (وكان يتم من قبل تكليف الممرضين بتعليم المجاهدين مبادىء الاسعاف الأولية) وأدى توافر الأطباء الى دعم التنظيم الصحي. فأقيمت مراكز طبية ومستوصفات تعمل تحت الأرض ـ في الملاجىء ـ يعمل فيها الممرضون ويتردد عليها الأطباء. ونظمت مدرسة لإعداد الممرضين. ونجح أحد الاطباء باقامة مستشفى كامل الأجهزة والمختبرات، تحت الأرض، وبه أجهزة لإجراء التحاليل، والقيام بالتجارب الطبية، مع وجود أسرة كافية لمعالجة الحالات الخطيرة. ودرب عدداً من الممرضات الاختصاصيات لمعالجة النساء والمدنيين الذين أصبحوا بعد المقاطعة التامة للإدارة الإفرنسية وأجهزتها، يمتنعون عن الذهاب للأطباء الإفرنسيين. فكان من الضروري الاهتمام بمعالجتهم. وكان الطبيب يقوم بنفسه بجولات على القرى لمعالجة المرضى المدنيين ـ غير المقاتلين. وقد انتشر هذا التنظيم الصحي في جميع أنحاء الولاية، فكان يوجد في كل منطقة طبيبان أو ثلاثة أطباء، ومستشفى للجراحة العامة، الى جانب

المستوصفات ـ مراكز التمريض ـ في كل النواحي والأقسام.

* * *

تلك هي سطور قليلة في قصة بداية الثورة وفي عرض فصول هذه البداية من الإيجاز قدر ما فيها من التفصيل، وفيها من التشابه قدر ما فيها من الاضافات المثيرة والمفيدة في آن واحد. وقد كان بالمستطاع دمج تلك الفصول (الأقاصيص) في رواية واحدة لحذف ما ورد فيها من تشابه أو تكرار، غير أنها والحالة هذه ستفقد كثيراً من صورها الجمالية، كما ستفقد طبيعتها الطوعية في سرد الأحداث. وبالإضافة إلى ذلك، فان هذا التكرار المقبول في بعض الأحيان هو مما يساعد على تركيز بعض النقاط الهامة والحاسمة في (قصة بداية الثورة).

لقد بدأت الثورة بعد مرحلة طويلة من المخاض العسير، ولو أن الإعداد في المرحلة الأخيرة لم يتجاوز الشهور القليلة. ويعتبر ذلك برهاناً حاسماً، لا يقبل الجدل والنقاش، على قوة قاعدة الثورة في الوطن الجزائري وصلابتها، وهي القاعدة التي استمر العمل لبنائها ودعمها عشرات السنين. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن انطلاقة الثورة من المنطقة الشرقية، وثبات قاعدتها فيها، لا يعود إلى العامل الجيواستراتيجي فقط، أي الى صعوبة منطقتي الأوراس والقبائل من الناحية الجغرافية، بقدر ما يعود الى طبيعة العامل البشري (الديموغرافي). فقد استطاع المسلمون في هذه القاعدة المحافظة على أصالتهم، والتمسك بعناصر قوتهم (الإسلام والعروبة)، فكان في ذلك الأساس الثابت للبناء الثوري الضخم.

وبعد، فقد انطلقت الثورة، وخاضت معاركها في إطار (حروب الإيمان). الايمان بالله وبقضية الوطن والمواطن المسلم والعربي. ولم يكن اختيار كلمتي السر والإجابة (خالد ـ عقبة) لإطلاق شرارة الثورة، إلا تأكيداً على ربط الثورة بأرضيتها الصلبة. وكان لفرنسا وأجهزتهاالاستعمارية دور لا ينكر في مساعدة الثورة على الانطلاق والتطور. فأساليب القمع الوحشية، ووسائل القهر والإذلال، قد تنجح لفترة مؤقتة، وقد تنتصر ضد شعب محروم الجذور (كالهنود الحمر مثلاً) غير أنه من المحال لها أن تنجح بصورة نهائية أو تنتصر بصورة حاسمة ضد شعب يضرب في أصالته الى أعماق التاريخ. وذلك هو الدرس الذي استوعبته جيداً مراكز القوى المضادة للعالم الإسلامي فمضت في أساليبها المتطورة لضرب هذه الأصالة (في المسجد الاسلامي والمدرسة الاسلامية)، وذلك هو الدرس الذي يجب على العالم الاسلامي ـ العربي استيعابه في فلسطين، وفي غير فلسطين من أقطار العالم الاسلامي. لمجابهة الحملات الضارية التي لا زالت تفتك بكيان الأمة الخالدة.

لقد نسج الثوار التاريخيون قصة بداية الثورة، بتضحياتهم وجهودهم ودمائهم، فدفعوا من أموالهم ثمن أسلحتهم، ووصلوا الليل بالنهار والأيام بالشهور في جهد مستمر لا يعرف التعب، ولا يتطرق إليه الوهن أو اليأس، وسط صعوبات لا توصف، حتى أمكن تسجيل بداية الحدث التاريخي، ثم مضى عدد كبير من رواد الثورة، شهداء إلى الملأ الأعلى، تاركين لإخوانهم في الله والوطن متابعة المسيرة على الطريق الذي رسموه بتضحياتهم

وأرواحهم. فكان هؤلاء الرواد نماذج حقيقية للثوار الحقيقيين والأحرار الأصلاء. لقد خرجوا على الدنيا، ووهبوها وجودهم وما يملكونه فكان في ذلك انتصارهم الحاسم (على النفس والهوى). وكان في هذا النصر العدة الحقيقية للنصر على الأعداء.

المراجع

١ ـ ثورة الجزائر «آلان سافاري» ترجمة نخلة كلاس. إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي ـ دمشق عام ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

٢ ـ ثورة الجزائر « جوان جليسبي » ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٦.

٣ ـ ليل الاستعمار « فرحات عباس » ترجمة وليم خوري ـ دمشق ـ ١٩٦٤.

٤ ـ أضواء على القضية الجزائرية « إبراهيم كبه » بغداد ـ ١٩٥٦.

٥ ـ الاستعمار وآثاره في الجزائر ـ الجمهورية الجزائرية ـ مكتب دمشق ـ قسم الدعاية ـ ١٩٥٨.

٦ ـ جغرافية الجزائر « حلمي عبد القادر علي ». دمشق ـ ١٩٦٨.

1 - RECITS DE FEU (PRESENTATION DE MAHFOUD K. ADDACHE) SNED - S.N. EL MOUDJAHID - ALGER - 1977.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
الفصل الأول	١٣
١ ـ الوضع العام في الجزائر عشية الثورة	١٥
آ ـ اغتصاب الأرض	١٩
ب ـ الموقف السكاني (الديموغرافي)	٢٣
ج ـ النهب الاستعماري	٣٠
د ـ البترول والغاز الطبيعي	٣٦
هـ ـ الموقف التعليمي ـ الثقافي	٤٠
٢ ـ الموقع الجيواستراتيجي والطبوغرافي	٤٩
آ ـ ١ ـ إقليم الشواطىء	٥٢
آ ـ ٢ ـ إقليم الأطلس ـ التلي	٥٤
آ ـ ٣ ـ إقليم النجود	٥٨
آ ـ ٤ ـ الأطلس الصحراوي	٦١
آ ـ ٥ ـ إقليم الصحراء	٦٣
ب ـ وديان الجزائر	٦٦
ب ـ ١ ـ الأودية الشمالية	٦٨
ب ـ ٢ ـ أودية النجود	٧٤

ب ـ ٣ ـ الأودية الصحراوية	٧٦
ج ـ النطاقات المناخية	٧٨
د ـ الغطاء النباتي	٨٠
د ـ ١ ـ إقليم البحر الأبيض المتوسط	٨٢
د ـ ٢ ـ إقليم الاستبس	٨٥
د ـ ٣ ـ الإقليم الصحراوي	٨٦
الفصل الثاني	٨٩
١ ـ في فلسفة الثورة	٩١
٢ ـ البيان الأول للثورة	٥٥
٣ ـ مكتب جبهة التحرير في القاهرة يصدر بيانه عن الثورة	١٠٣
٤ ـ بدايات العمل الثوري	١٠٦
٥ ـ انطلاقة الثورة في كتابة قائد فرنسي	١٢٠
٦ ـ عقبات على طريق الثورة	١٢٥
٧ ـ الثورة في وثائق ثوارها	١٣٠
آ ـ الإعداد للثورة	١٣٠
ب ـ الله أكبر ـ خالد ـ عقبة	١٤٣
ج ـ لهيب الثورة في أريس	١٥٧
د ـ فجر يوم الثورة المسلحة	١٦٩
هـ ـ إندلاع الثورة في متوجة (متيجة)	١٨٠
و ـ الولاية الأولى في معركة التحرير	١٨٨
ز ـ الثورة في ولاية وهران	١٩٧
المراجع	٢٠٦